ميـر بصـــري

أعـلام الأدب
في العـــراق الحـديث

الجُـزْءُ الأوّلُ

تقـديـــم

د. جليل العطيّة

دار الحكمة

بسم الله الرحمن الرحيم

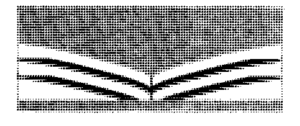
أعلام الأدب
في العراق الحديث
١

ISBN 1 - 898 209 - 456

الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution



88 Chalton Street London NW1 IHJ. Tel: 071 - 3834037 / Fax: 071 - 3830116

مير بصري رائد «فن التراجم»
الأدب العربي الحديث

بقلم: د. جليل العطية

-١-

نشأ فنا السير والتراجم وترعرعا في أحضان علـم التاريخ، وتأثرا بمفهوم الناس عنه على مرّ العصور، فكانا تسجيلاً للأعمال والأحداث.

وعندمـا تغيّر مفهوم التاريخ، وأصبحت لـه فلسفة خاصة، أنكـر بعض الباحثين المحدثين أن تكون السيرة أو الترجمة جـزءاً من التاريخ، وبين هؤلاء كولنجـوود وتوينبي فهما يُخرجان من دائرة التـاريخ ما يتصل بالسير الـذاتية كاعترافـات القديس أوغسطين وروسو أو حياة الملكة فكتوريا لستراتشي.

يقول توينبي: إن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعيـة. وبعد أن يبين خصائص بعضهم يقـول: إذا علقنا التـاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة.

على أننا إذا استبعـدنا هذه النظرة الحديثـة، وجدنا أن فن التراجم من ناحيـة عملية هو تـاريخ في نشأته وغايته، ويمكـن أن نقرر أنه: كلما كانت الترجمة تعـرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، فإن الترجمة تحقق هدفاً تاريخياً.

وكلما كانت الترجمة تفصل المترجم عن مجتمعه ووطنه، وتجعله الهدف الأسمى وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون هشة بل مبتسرة.

ولقد وعـى ابن الجوزي ـ المؤرخ البغـدادي الشهير ـ أن التاريـخ عبارة عن مجمـوعة متنوعـة من السير والتراجم عندما قـال في مقدمة كتـابه (شذور العقـود): إن التواريخ وذِكـر السير راحـة للقلب وجـلاء للهم وتنبيـه للعقل فإنـه.. إن شَرحتْ سيرة حـازم علّمت حسن التدبير، وإن قَصّتْ قصة مفرط خوّفت من إهمال الحزم.

وفي القرون الماضية ركد فن التراجم وانكفأ، شأن ألوان الفنون والعلوم الأخرى، وفي بواكير القرن العشرين سار الكتّاب العرب باتجاهات مقاربة لما في الغرب، فتأثروا بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية، وأصبح بعضها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلّت الرغبة في تاريخ الحياة نفسها.

ومن بين المحاولات ذات الطابع الأدبي في السيرة الحديثة يمكن الإشارة إلى (حياة الرافعي) للعريان، (وعبقريات العقاد، وجبران) لميخائيل نعيمة. وأرّخ زيدان وأحمد حسن الزيات والإسكندري وحنا فاخوري للأدب العربي في عصوره المختلفة، وقدّم خير الدين الزركلي كتابه «الأعلام» الذي عني فيه بترجمة المئات من أعلام العرب والمسلمين والمستعربين، غير أن ترجمته ـ على دقتها ـ كانت موجزة، لأنه أراد استيعاب أكبر قدر من الشخصيات في كتابه.

وفي العراق عني عدد قليل من الأدباء والمؤرخين بفن التراجم لمع منهم: رفائيل بطي (ـ ١٩٥٦م) وجعفر الخليلي (ـ ١٩٨٥م) ومير بصري.

والمؤسف أن الجهود المضنية التي بذلها بطي بقيت محدودة الفائدة، لأن التراجم المهمة التي كتبها بقيت مطوية في الصحف والمجلات ولم تجمع في كتب. أما الخليلي فإن كتابه (هكذا عرفتهم) بأجزائه الستة المطبوعة، يعدّ مرجعاً لا يستغني عنه كل مَن يرغب رصد الحركة الأدبية والثقافية خلال القرن الماضي، غير أن ما يؤخذ عليه ـ رحمه الله ـ أنه رسم لوحات انطباعية لمن عرفهم كأنه كتبها من الذاكرة، لأن معظمها تفتقد إلى التوثيق والتواريخ وما أشبه.

▪٢▪

ولد مير شاؤل بصري في بغداد في التاسع عشر من أيلول ١٩١١ في أسرة عراقية عريقة عرفت باسم «عوبديا»، وقد ذكر الرحالة بنيامين أنه التقى عمّ أبيه الذي كان يشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية في بغداد سنة ١٨٤٨م. درس مير في مدرستي التعاون والأليانس، ولازم الأب أنستاس ماري الكرملي والدكتور مصطفى جواد حيث أخذ عنهما اللغة العربية، كما درس تاريخ العراق على عباس العزاوي والعروض على الشاعر محمود الملاح.

وعمل في الوظائف العامة والخاصة سنوات عديدة (ما بين ٢٨ ـ ١٩٥٢) أمضى شطراً منها في وزارة الخارجية. وقد أهلته كفاءته لتمثيل العراق في عدة مؤتمرات عقدت في نيويورك وباريس وغيرها. وبعد سنة ١٩٥٣ انصرف إلى الأعمال الحرة.

كان أثره الأدبي الأول شعراً منثوراً عنوانه الحرية (بغداد ١٩٢٨) على طريقة جبران والريحاني، وعمل في أوقات مختلفة محرراً اقتصادياً وباحثاً في الصحف والمؤسسات الاقتصادية العراقية.

أما المؤلفات التي أتيح له نشرها حتى الآن فهي :

مباحث في الاقتصاد العراقي (١٩٤٨)، رجال وظلال (١٩٥٥)، رسالة الأديب العربي (١٩٦٩)، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (١٩٧١)، أعلام اليهود في العراق الحديث (١٩٨٣)، أعلام السياسة في العراق الحديث (١٩٨٧)، أعلام الكرد (١٩٩١)، أغاني الحب والخلود (١٩٩١) وأنجز مؤلفات أخرى تنتظر النشر.

بقي مير بصري في بغداد يمارس نشاطه الأدبي والاقتصادي والروحي وبعد أن دخل العراق في بحر الانقلابات والاضطرابات، تعرض إلى الاعتقال والأذى (١٩٦٩) فاضطر إلى ترك وطنه (١٩٧٤). حيث استقر في لندن مواصلاً نشاطه الأدبي والاجتماعي بكل همة وتجرد وإخلاص وظل يحمل لوطنه في حنايا ضلوعه وخفقات قلبه، فمما قاله في بغداد:

على الأوطـان في جبل وسهل ... سلام الله، عطر من سلام
بلادي حبها مددي وديني ... تغلغل في ا لجوارح والعظام
هي الأم التي خلقت كياني ... وجادت بالحشاشة والقوام
وأرهفت المشاعر في حنان ... وأوقدت القريحة بالضرام
ولقنّت المكارم والسجايا ... وأوحت بالخواطر والكلام
ونزهت الفؤاد من الدنايا ... ورفعت الضمير عن الملام
رضعت لبانها طفلاً صغيراً ... وذقت نعيمها منذ الفطام
عبيت من الهواء الطلق صفواً ... ومن ماء ألذّ من المدام
وكحلت العيون بسحر حسن ... تلألأ في الضياء وفي الظلام
فيا للحسن من بغداد أضفى ... على الوديان وشياً والاكام
مغانٍ قد صفا فيها شرابي ... وراق العيش في عزّ المقام

تتوزع اهتمامات مير بصري بين الشعر والقصة والرواية وكتابة التراجم والملاحم والترجمة والبحوث الاقتصادية. وقارىء آثاره التي أتيح لها النشر يقرّ له بالجودة والمستوى الرفيع في كل الفنون المختلفة التي مارسها باعتراف كبار النقاد.

يعتقد بصري أن الشعر والأدب يجب أن يرميا إلى مثل أعلى وهو التفاهم البشري والتعاون ونشر الأخوّة والمحبة والسلام.

■٣■

ويبدو لي أنه وجد أن مؤرخي العراق قد قصّروا في فن التراجم، ولعله لمس من صديقيه الكرملي ومصطفى جواد التشجيع في الانصراف إلى هذا الفن، الذي لا يجرؤ على خوضه إلاّ مَن أحاط بعدة علوم وفنون في آن واحد!

فكان أن صرف أكثر من خمسة عقود من عمره وهو يدون ويوثق ويسجل تراجم

الشخصيـات التي سـاهمت في بنـاء نهضـة العـراق الحديث على مختلف مـذاهبهم ومشاربهم فكان كتابه الحالي (أعلام الأدب في العراق الحديث) ثمرة مجهود مضنٍ.

يشمل الكتاب على تـراجم نحو مائتين وخمسين أديبـاً وشاعراً ممّن كـان لهم الأثر في بناء كيان العـراق الأدبي والثقافي والفكري خلال أكثر من قرن. ويمكن اعتبـار الشاعر عبد الغفار الأخـرس المتوفى سنة ١٨٧٥م أقدمهم وفاة، وبينهم أدباء وشعـراء لا يزالون على قيد الحياة ـ أمدّ الله في أعمارهم.

قدم بصري لكتابه الضخم الذي شرفني بكتابة هذه المقدمة له، بتوطئة موجزة تناول فيها الأدب العـربي في عصور الانحطاط والنهضة والعهـد الانتقالي وختمها بـالعبارات الآتية:

أرجو أن تكون الصفحات التالية سجـلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

ولعمـري أنه تـواضع جمّ من قبلـه، فالعمل الـذي نهض بـه جبار، لا يقـوى على تقديمه بهذا الشكل المتقن، الموثق فرد!

على أن غَيرته على الأدب والأدبـاء ذللت له الصعوبات التي واجههـا في تأليف هذا السفر الفذّ.

ينفرد مير بصري عن كل مؤرخي التراجم بنقاء العبارة، ورشاقة الأسلوب والبعد عن التعمل والتصنع، يحيط بتاريخ العراق والعـرب إحاطة واسعة، وقد رزق ذاكـرة قوية، لا ينسى ما يقيّد ولا ما لا يقيّد وغلب عليه التواضع والحياد.

ومما ينفرد به إجـادته اللغة الفرنسية واطلاعه الـواسع على الأدب الفرنسي، وقد أفاد القارىء بمعلـومات غـزيرة عندمـا عقد مقارنـات واقتبس أشياء لها صلـة بالمترجم لهم وطائفة من شعراء فرنسة وأدبائها.

ولا أريد هنـا أن أكشف كل مـزايا هذا الكتـاب الموسوعي، فيكفـي أن ألمّح إلى أنه حفظ لنـا مختـارات شعـريـة مجهولـة لشعـراء لم يسعفهم الحظ بنشر نتـاجـاتهم خـلال حياتهم، كما أن معرفته بعدد منهم مكنتـه من الاطلاع على آرائهم وأفكارهم، وإذا كان الكتاب قـد اشتمل على تراجم المشهـورين المعروفين، فإن المؤلف قـدم لهم نماذج أدبية غير معروفة.

ختامـاً أبتهل إلى البـاري عزت قدرتـه أن يمدّ في عمـر الأستاذ مير بصري ليـواصل إتحاف المكتبة العربية بنتاجاته الأدبية والتاريخية. ولي الثقة بأن (أعلام الأدب في العراق الحديث) سيأخذ مكانته اللائقة في الخزانة العربية كواحد من أهم مراجع دراسة الأدب العربي الحديث.

المحتــويات

عصر الانحطاط الأخير والعهد الانتقالي

عصر النهضة

الشعر

الشعر العامّي

عصر النهضة

النثر

الجزء الثاني

رجال الفقه والدين

الصحافة

الموجة الحديثة

شعر

الموجة الحديثة

نثر، تأريخ، قصص

الشعر الجديد

الشعر الحرّ

شعراء وأدباء

سجّلت تراجم الشعراء والأدباء الآتي ذكرهم في كتابي «أعلام الوطنية والقومية العربية» المعدّ للطبع :

(١) عبد المطّلب الحلي

(٢) خيري الهنداوي

(٣) محمد حسين آل كاشف الغطاء

(٤) محمد باقر الشبيبي

(٥) محمد مهدي البصير

(٦) عبد الرحمٰن البناء

(٧) محمد باقر الحلي

(٨) حمد فهمي المدرس

(٩) هبة الدين الشهرستاني

(١٠) أحمد عزت الأعظمي

(١١) ساطع الحصري

(١٢) محمد كاظم الخراساني

(١٣) محمد كاظم اليزدي

(١٤) محمد تقي الشيرازي

(١٥) فتح الله الأصفهاني

(١٦) محمد حسين النابيني

(١٧) مهدي الخالصي

(١٨) محمد الخالصي
(١٩) عبد الغفور البدري
(٢٠) إبراهيم صالح شكر
(٢١) علي الخطيب
(٢٢) عيسى عبد القادر
(٢٣) عبد الرحمن البزّاز.

سأصرف وجهي عن بلاد غدا بها ... لساني معقولاً وقلبيَ مقفلا
وإنّ صريح الحزم والرأي لامرىءٍ ... إذا بلغته الشمس أن يتحوّلا

أبو تمام
(٨٠٤ـ٨٤٦م)

كن ابن مَن شئت واكتسب أدباً ... يغنيك محموده عن النّسب
إنّ الفتى مَن يقول: ها أنَذا ... ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

أبو العتاهية
(٧٤٨ـ٨٢٦م)

إذا ورّث الجهّال أبناءهم غنى ... وجاهاً فما أشقى بني الحكماء!

محمد حفني ناصف
(١٨٥٧ـ١٩١٩م)



المصادر والمظانّ

هيّئت لي معلومات وافية من الشعراء والأدباء الـذين عرفتهم ومن أصدقاء الراحلين والمتصلين بهم. ووجدت في الجرائد والمجـلات العراقية والعـربية خـلال نصف قرن أو يزيد أخباراً كثيرة حرية بالتدوين. وفي الكتاب أشعار لم تنشر أو نشرت في الصحف ولم تجمع في ديوان فآثرت إثباتها تخليداً لأصحابها.

وفيما يلي جدول ببعض المراجع والمظان التي قد يرغب المتتبع في الرجوع إليها زيادة في الفائدة:

(١) مير بصري: أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (بغداد ١٩٧١).

(٢) إبراهيم الواعظ: الروض الأزهر (١٩٤٨).

(٣) محمد مهدي البصير: نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (بغداد ١٩٤٦).

(٤) خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الثالثة).

(٥) محمد صالح السهروردي: لبّ الألباب (جزآن، بغداد ١٩٣٣).

(٦) عبد الرزاق الحسني: تأريخ الصحافة العراقية (١٩٣٥).

(٧) عباس العزاوي: تأريخ الأدب العربي في العراق (بغداد، جزءان ١٩٦١ ـ ٦٢).

(٨) السيد حيدر الحسيني الحلي: العقد المفصل (جزآن).

(٩) محمد بهجت الأثري: أعلام العراق (١٩٢٧).

(١٠) رفائيل بطي: الأدب العصري في العراق العربي (جزآ ن، القاهرة ١٩٢٣).

(١١) رفائيل بطي: الصحافة في العراق (١٩٥٥).

(١٢) مصطفى علي: أدب الرصافي (١٩٤٧).

(١٣) مصطفى علي: الرصافي (الجزء الأول ١٩٤٨).

(١٤) مصطفى علي: محاضرات عن معروف الرصافي (١٩٥٤).

(١٥) جورج جبّوري : الكرملي الخالد (١٩٤٧) .

(١٦) كوركيس عواد : معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء ، بغداد ١٩٦٩) .

(١٧) كوركيس عواد : الأب أنستاس ماري الكرملي (١٩٦٦) .

(١٨) مصطفى جواد : المباحث اللغوية في العراق (١٩٥٥) .

(١٩) الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ .

(٢٠) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ .

(٢١) السيد جعفر الحلي آل كمال الدين : سحر بابل وسجع البلابل (صيدا ١٩١٣) .

(٢٢) عبد الغفار الأخرس : الطراز الأنفس في شعر الأخرس (الأستانة ١٨٨٧) نشره أحمد عزت الفاروقي .

(٢٣) عبد الله الجبوري : من شعرائنا المنسيين (بغداد ١٩٦٦) .

(٢٤) محمد الهاشمي : سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (بغداد ١٩٥٩) .

(٢٥) محمد مهدي البصير : البركان (بغداد ١٩٥٩) .

(٢٦) أحمد الصافي النجفي : التيار (دمشق ١٩٤٦) .

(٢٧) محمود الحبوبي : شاعر الحياة (النجف ١٩٦٩) .

(٢٨) بدر شاكر السيّاب : قيثارة الريح (بغداد الطبعة الثانية ١٩٧١) .

(٢٩) محمود العبطة : بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق (بغداد ١٩٦٥) .

(٣٠) حافظ جميل : اللهب المقفّى (بغداد ١٩٦٦) نبض الوجدان (بغداد ١٩٥٧) أحلام الدوالي (بغداد ١٩٧٢) .

(٣١) غازي عبد الحميد الكنين : شعراء العراق المعاصرون (جزآن ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) .

(٣٢) محمد رضا الشبيبي : ديوان الشبيبي (القاهرة ١٩٤٠) .

(٣٣) محمد مهدي الجواهري : ديوان الجواهري (عدة طبعات) .

(٣٤) محمد مهدي الجواهري : أيها الأرق (بغداد ١٩٧١) .

(٣٥) محمد مهدي الجواهري : خلجات (بغداد ١٩٧٢) .

(٣٦) نعمان ماهر الكنعاني : المعازف (بغداد ١٩٥٠) .

(٣٧) نعمان ماهر الكنعاني : الشعر في ركاب الحرب (بغداد ١٩٤٨) .

(٣٨) عبد الحسين الأزري : ديوان الحاج عبد الحسين الأزري (بيروت) .

(٣٩) علي الشرقي : عواطف وعواصف (بغداد ١٩٥٣) .

(٤٠) علي الشرقي : ديوان علي الشرقي (بغداد ١٩٧٩) .

(٤١) معروف الرصافي : ديوان الرصافي (القاهرة ١٩٤٩) .

(٤٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي (بغداد ١٩٨٠) .

(٤٣) الدكتور محسن غياض : شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي (بغداد ١٩٧٦) .

(٤٤) الدكتور داود سلوم : تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي (بغداد ١٩٥٩) .

(٤٥) تذكرة الشعراء لعبد القادر الخطيبي الشهراباني (نشره الأب أنستاس الكرملي ، بغداد ١٩٣٦) .

(٤٦) الدكتور يوسف عز الدين : شعراء العراق في القرن العشرين (بغداد ١٩٦٩) .

(٤٧) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية (٤ أجزء ، بيروت) .

(٤٨) الدكتور شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر: في مصر (القاهرة ١٩٥٧) .

(٤٩) الدكتور جمال الدين الرمادي : من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة ١٩٦٠) .

(٥٠) محمود شكري الألوسي : المسك الأذفر (بغداد ١٩٣٠) .

(٥١) مجلة كلية الآداب (العدد ١٨ : ١٩٧٤) بغداد ، عدد خاص بأربعينية الدكتور محمد مهدي البصير.



توطئة
الأدب العربي في عصر الانحطاط

عرف العصر الذي تلا سقوط الدولة العباسية في العراق سنة ١٢٥٨م بعصر الانحطاط. فقد خمدت الحركة الأدبية وأصبح الشعر والنثر يتّسمان بالتقليد والإسفاف، وكادت المواضيع تقتصر على المدح والهجاء والرثاء والغزل والمراسلات الإخوانية. كسدت سوق الأدب وزال الإبداع والإشعاع في البلد الذي أنجب الفرزدق وابن المقفّع والأصمعي والجاحظ وبديع الزمان والحريري والفراهيدي وسيبويه وبشار وأبا نواس وأبا العتاهية وأبا تمّام وابن الرومي وابن المعتزّ والمتنبّي وابن خلكان وصفيّ الدين الحلي وأضرابهم من أساطين البلاغة والبيان والقريض.

ونبغ في عهد الانحطاط شعراء فرس وترك كانوا في طليعة أدباء الدولتين الفارسية والتركية، منهم، من رجال اللغة الفارسية: سلمان ساوجي، وخواجو كرمانو وعبيد زاكاني وحافظ، ومن رجال اللغة التركية: فضولي البغدادي المعروف في تركية بـ «رئيس الشعراء»، وقد توفي سنة ١٥٥٥م، وابنه فضلي، ورضائي وعهدي وشمسي، وحسيني المتصوف المتوفى سنة ١٥٧٧، وروحي المتوفى سنة ١٦٠٥، وغيرهم. ولا يزال الأدب التركماني مزدهراً في كركوك وأنحائها، ومن أعلامه عبد الله صافي المتوفى سنة ١٨٩٨، والشيخ رضا الطالباني المتوفى سنة ١٩١٠. وكان يعدّ أبلغ شعراء الكرد، لكنه كان ينظم باللغات التركية والفارسية والعربية أيضاً. وقد سافر إلى تركية، ومضى إلى القاهرة فعهد إليه بتدريس الفارسية لأنجال الخديوي إسماعيل، على ما قيل.

ولا بدّ من ذكر أحمد هاشم الألوسي البغدادي الأصل (١٨٨٥ ـ ١٩٣٣) الذي يعدّ من أعظم شعراء تركية في العهد الأخير، وقد عرف بشعره الرمزي وشعر الطبيعة والجمال. ومن شعراء التركمان في كركوك وأنحائها محمود هجري ددة (١٨٨١ ـ ١٩٥٢) وخضر لطفي (١٨٨٠ ــ ١٩٥٩) والأديب ناجي الهرمزي (١٨٨٧ ـ ١٩٥٢) ومحمد صادق (١٨٩١ ــ ١٩٦٧) والقاضي أحمد فائز (١٨٤٢ ـ ١٩١٨) صاحب المؤلفات باللغات العربية والتركية والكردية والفارسية.

ولعلّ خير أنموذج للأدب التركي في العراق في أوائل القرن التاسع عشر ما سجله كتاب «تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا والي

بغداد»، وهـو من تأليف أو ترجمة عبـد القادر الخطيبي الشهـراباني. عني بنشره ا لأب أنستـاس ماري الكـرملي سنة ١٩٣٦. ذكـر هذا الكتـاب تراجم مختصرة لنحـو خمسين شاعراً وكـاتباً عاشوا في عهد الـوالي، وجلّهم إن لم نقل كلهم، من النكرات المحسوبين على الأدب ومن موظفي الـولاية وكتابها. ولم يخلفـوا أثراً سـوى واحد هو رسـول حاوي مؤلف «دوحة الوزراء» في تأريخ ولاة بغداد، وقد توفي سنة ١٨٢٦.

أما الأدب الكردي فـانتعش في السليمانية وأنحائها، وكان من أعـلامه العالم الأديب رسول مستي الملقب بشيخ الحكماء (١٨٢٣ ـ ١٩٠٨) والشعـراء محمد المحوي (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) وأمين يُمْني (١٨٤٥ ـ ١٩٢١) وأحمد الملا قادر (١٨٥٤ ـ ١٩١٠) وأمين فيضي (تـوفي ١٩٢٨) وصـالح حريـق (١٨٦٦ ـ ١٩٠٩) وحسن البـامـرني (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧) وأحمد مختـار الجاف (١٨٩٦ ـ ١٩٣٣) وعبـد الله كَـوران (حلبجـة ١٩٠٤ .. ١٩٦٢) وفائق بيكاس (١٩٠٥ ـ ١٩٤٨). ولا بـدّ من ذكر الكاتب المربّي رفيق حلمي (١٨٩٨ ـ ١٩٦٠) وحسن فهمي الجاف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣). وأشهر شعراء الكرد على الإطـلاق توفيق بيره مـرد (السليمانية ١٨٦٧ ـ ١٩٥٠). ولا ننسى الـوزيرين العـالمين المؤرخ محمـد أمين زكي (١٨٨٠ ـ ١٩٤٨) والبحـاثـة المحقق تـوفيق وهبي (١٨٩١ ـ ١٩٨٤) مـؤلف القامـوس الكردي الإنكليـزي المطبوع في لنـدن (بالاشتراك مع الميجـر أدموندس).

الأدب العربي في عصر الانحطاط

كان الأدب العربي في عصر الانحطاط مظهراً من مظاهر التقليد والجمود والجفاف. فشت العجمة في الفكر والبيان، وطغت اللهجة العامية، وغلبت التركية لغة الدواوين والطبقة الحاكمـة. على أن النجف بقيت واحـة عربيـة ازدهر فيها الفقـه وعلوم الـدين واللغة والشعر التقليدي. وكان أبرز ممثلي الأدب العربي في ذلك العهد:

(١) الشاعر المدّاح الشيخ كاظم الأزري (١٧٣٠ ـ الكاظمية ١٧٩٦).

(٢) الشيخ صالح التميمي (١٧٦٢ ـ ١٨٤٤) ولـد في الكاظمية ودرس في النجف ومدح بشعره الولاة والأشراف.

(٣) المؤرخ عثمان بن سنـد البصري (١٧٦٦ ـ ١٨٢٧) مؤلف «مطـالع السعـود في طيب أخبار الوالي داود».

(٤) الشاعر المجيـد عبد الباقي العمري (١٧٨٩ ـ ١٨٦١)، موصلي الأصل وكان معاوناً لوالي بغداد.

(٥) مفتي بغـداد عبد الغني جميل (١٧٨٠ ـ ١٨٦٣) من وجهاء عصره وأغنيـائه،

نظم الشعر واشتهر بمطارحاته مع عبد الغفار الأخرس، وقد نشرها المؤرخ عباس العزاوي.

(٦) الشاعر عمر رمضان الهيتي، توفي سنة ١٨٣٦.

(٧) المفتي أبو الثناء محمود شهاب الدين الألوسي. (١٨٠٢ ــ ١٨٥٤) صاحب الرحلات والمقامات والتفسير المشهور.

(٨) الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري (١٨١٩ ــ ١٨٨٥) اشتهر بمدائحه للوالي علي رضا باشا.

(٩) العالم الأديب المؤرخ إبراهيم فصيح الحيدري ولد في بغداد (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣).

(١٠) الشاعر الشيخ حمّادي آل نوح الحلّي (نحو ١٨٢٥ ـ ١٩٠٧).

(١١) الشاعر أحمد عزت باشا العمري الفاروقي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) ولد في الموصل وعاش في بغداد واستانبول وطبع ديوان الأخرس في العاصمة التركية سنة ١٨٨٧.

(١٢) الشاعر العاشق الشيخ عباس علي النجفي (١٨٢٨ ــ ١٨٥٨)، وهو صاحب القصيدة المشهورة:

عديني وامطلي وعدي، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

(١٣) الشاعر أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩).

(١٤) الشاعر السيد حيدر بن سليمان الحلّي (١٨٣٠ ــ ١٨٨٧) مؤلف «العقد المفصّل» في مدائح آل كبّة. وقد اشتهر بمراثيه الحسينية الشجيّة.

(١٥) نعمان خير الدين الألوسي (١٨٣٦ ـ ١٨٩٩) وكان عالماً لغوياً أديباً.

(١٦) الشيخ جعفر الشرقي (١٨٤٤ ـ ١٨٩٢) الشاعر الفقيه، والد الشاعر الشهير علي الشرقي.

(١٧) السيد جعفر الحلي من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧) نشر ديوان شعره بعنوان «سحر بابل وسجع البلابل» وطبع في صيدا.

وقد غالى الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه «نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر» في تقييم أدب ذلك العهد، فقال: «إن أدبنا . . . يمثل كل لون من ألوان الأدب العربي القديم وكلّ فن من فنونه . . . » وقال: إنه يمثّل حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية. وبالغ في نعت الشعراء، فهذا خليفة أبي نواس والآخر خليفة أبي العتاهية وذاك صنو ابن الفارض وقرين أبي تمّام، وهلمّ جرا.

كان الشعر بضاعة كاسدة لا تكاد تحظى بشيء من التقدير المادّي أو الأدبي. والمديح والرثاء زاخران بالمبالغات الصارخة، فكأن كل ممدوح نابغة عصره وسيّد مصره، وكل مرثيّ فاق الثقلين وغادر الأرض قفراً يباباً:

فالمـوت نقّـاد على كفّـه   جواهر يختار منها الجيـاد!

ونـرى السيد جعفـر الحلي يرثي القتيل ويهنىء القـاتل في نفس واحد، يـرثي الشيخ مزعل ويهنىء أخاه خزعل خان الذي اغتـاله وحلّ محله على دست إمارة عربستان. ثم نراه يمدح قاطع الطريق من عشيرة شمر فيصفه بالليث الذي أوكل رزقه ببراثنه!.

وخلاصة القـول: إن شعر عصر الانحطاط يكاد يخلو من المعـاني والأفكار الأصيلة والبوارق الصوفيـة واللمعات الذهنية واللمحات الـوجدانية. وإذا كان يمتـاز بسلامة اللغة والبلاغة في أحايين كثيرة، فإنه يتّسم بالجمود والتقليد والصرامة وضحل الخيال.

وقد ترجمت لشاعرين يمثـلان عصر الانحطاط الأخير أحدهما بغدادي (عبد الغفار الأخرس) والآخر نجفي (إبراهيم الطباطبائي).

عصر النهضة

أطلّ فجـر النهضـة الأدبيـة في مطلع المائة العشرين، وكـان في الطليعـة من روّاده الشاعـران جميل صدقي الـزهاوي ومعـروف الرصافي، ثم تبعهما عنـد إعلان الـدستور التركي محمـد رضا الشبيبي وأخوه محمـد بـاقر وعلي الشرقي وخيري الهنـداوي وكـاظم الدجيلي ومحمود الملاح.

ونبغ من الكتّـاب والعلماء محمـود شكري الألـوسي والأب أنستـاس ماري الكـرملي وفهمي المدرس ومحمـد حسين كاشف الغطاء... ونشـأت الصحافة سنـة ١٩٠٨ مع إعـلان الحريـة، فبرز فيهـا عبد اللطيـف ثنيّان وداود صليـوا وإبـراهيم صـالح شكـر وإبـراهيم حلمي العمـر، ثم رزوق غنام وعبـد الغفـور البدري ورفـائيل بطّي وتـوفيق السمعاني وسليم حسّون...

ويمكن القول: إن الأمة العـربية «أمّة الشعر». فقد كان للشعـر منذ الجاهلية المقام البارز والأثـر البليغ في الحيـاة الاجتماعية والسيـاسية والنهضـة العلمية والأدبيـة. وكان الشعر يقـوم مقام المقالات الافتتـاحية قبل أن توجـد الصحافـة مع مزيّة أخـرى له هي سهولة الحفظ والنقل والتداول والخلود.

وقد قلت في البحث الذي قدمته بعنوان «دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري» إلى مؤتمر الأدباء العرب السـابع المعقود في بغداد في نيسان ١٩٦٩: «يضطلع الأديب بتبعـة جسيمة في بنـاء مجتمعـه والمجتمع العالمي. فـالأديب الحق يحمل مشعل التقـدم والنهوض لينير السبيل لأبنـاء أمته ووطنـه. ولئن كان ذلك صحيحـاً مذ وجـد الأدب ووجـدت رسالـة الأديب، لقد أصبحت هـذه الحقيقة أشـدّ خطراً وأبلغ أثـراً في المجتمع العربي الحديث الذي يمـرّ، من الجهة الواحدة، بطور انتقال، طـور امتدّ منذ

حقبة طويلـة ولا يزال جارياً بدرجـة متفاوتة وتفاعل ملحوظ في مختلف أقطـار العروبة لأجل إزالة آثـار التخلف واللحاق بموكـب الأمم العالمة العاملـة، ويخوض، من الجهة الأخرى، معركة ضارية فرضتها عليه قوى الاستعمار والرجعية. . . ».

وقلت إن الأدب العربي قام في العصور الماضية بدوره في بناء المجتمع وتوطيد أركانه، وكان من أقـوى عناصر القوة والتماسك التـي تربط بين أبناء الشعب العـربي في أقطاره المنبسطة شرقاً وغرباً. وقد رأينـا الشعراء والأدباء في العراق والوطن العربي أجمع في عصر النهضة الحديثة يلهبون مشاعر الأمـة وينيرون لها طريق الحرية والاستقلال ويدعونها إلى اليقظة والانطلاق.

قامـت معارك اجتماعيـة ووطنية وسيـاسية خـاض غمارها الأدب وكـان النصر فيها حليف قـوى التقدم والعـرفان. وحسبنـا أن نـذكر مثـالاً معركـة تحرير المرأة والسفـور والحجاب التي احتدمت بين الأنصار والمعارضين. وقـد تعرّض الزهاوي للمحنة لمقال كتبـه في الـدفـاع عن المرأة فبقـي حبيس داره أيـامـاً خـوفـاً من سخط الجماهير، حتى ليخاطب زوجه قائلاً:

أبثينَ، إن أدنـى العـــــدوّ حمامي	بمســدس يـــذكيــه أو بحســام
فتجلــدي عنــد الـــرزيّــة واحسبي	أني اجتمعـت إليـك في الأحــــلام

وقال الرصافي:

لقــد غمطـوا حق النســاء فشــدّدوا	عليهـنّ في حبس وطـــول ثـــواء
وقــد ألــزمــوهن الحجـاب وأنكــروا	عليهـنّ إلاّ خـــرجـــة بغطــــاء

ودعا شعراء النهضة إلى العلم والحرية. واتخذ كتّاب الرواية والقصة والمسرحية آثارهم أداة لرسالة الثقافة والاستقلال. ثم تشعبـت نواحي الأدب في مناهجه وأهدافه، وظهر الشعر المنثور والحرّ ومذهب الرمزيـة والسّوريالية، واتّسع مجال الأثر الأدبي بنشوء البثّ الإذاعي والتلفزيوني ونقل الشعر والنثر العربي إلى اللغات الأخرى بعد أن مرّ دور الترجمة والتعريب.

وأرجو أن تكون الصفحـات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدبـاء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة، وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

لندن، شباط ١٩٩٤

مير بصري

القصص الشعري

أولع شعراء الشباب في مطلع القرن العشرين بالقصص الشعري، وكانت قصصهم في الغالب ساذجة شجيّة تنتهي بالفواجع، وكأنّ الدهر مأساة لا تبقي على غنيّ ولا متنعّم. ولعلّ أولئك الشعراء قد تأثروا بمصطفى لطفي المنفلوطي، الأديب المصريّ الأنيق الذي كان له تأثير عظيم في النصف الأول من القرن في طول الأقطار العربية وعرضها.

حدثني عبّاس العزاوي أن الكتب والمجلات كانت ممنوعة في عهد الاستبداد الحميدي، ولم يسمح بورودها إلا بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وإطلاق حرية المطبوعات. أخذت المجلات والصحف المصرية كالمقتطف والهلال والمقتبس والزهور وغيرها ترد إلى بغداد فيتلقفها الشباب المتعلم ويطالعها بشغف ولهفة.

قال العزاوي: كنّا ننتظر وصول المجلات والكتب بنافد الصبر، فإذا تأخّر البريد مررنا بالمكتبات في سوق السراي كلّ يوم، بل كل ساعة، نسأل عنها ونستفسر عن أسباب التأخير. وكانت مقالات المنفلوطي التي تنشرها جريدة المؤيد تحظى باهتمامنا قبل غيرها، ولا سيما النظرات والعبرات والروايات المترجمة التي نشرت بعد ذلك كتباً مستقلة. فإذا وردت المؤيد أقبلنا على مطالعة مقالات المنفلوطي في المكتبة أو الطريق، ولم نصبر عن قراءتها حتى الوصول إلى الدار!

وللمنفلوطي نفسه قصص شعرية، منها منظومة «بين أسماء وعبد الله». تلك قصة أسماء بنت الصديق وولدها عبد الله بن الزبير الذي طلب لنفسه الخلافة فحاصره الحجاج بمكة وعرض عليه التسليم. لكن أمه أشارت عليه بالمضيّ في القتال حتى الموت:

إنّ أسماء في الورى خير أنثى	صنعت في الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً	تحت درع منسوجة من نجيع
قال: يا أمّ، قد عييت بأمري	بين أسر مرٍّ وقتل فظيع
خانني الصحب والزمان، فما لي	صاحب غير سيفيَ المطبوع
وأرى نجميَ الذي لاح قبلاً	غاب عنّي ولم يعد لطلوع

بـــذل القـــوم لي الأمـــان، فما لي غيره إن قبلتـــــــه من شفيـع
فـأجـــابـت، والجفـن قفـــر كـأن لم يكُ مـن قبلُ مـوطنــاً للـــدمـوع:
لا تسلّــم إلاّ الحيــــــاة وإلاّ هيكـــلاً شـأنــــه وشـأن الجذوع
إنّ مــوتــاً في ســاحـــة الحرب خير لـك من عيش ذلّـــة وخضـــوع

وختم الشاعر قصيدته قائلاً:

وأتـى أمّـــه النّعـيُّ فجـــادت بعـــد لأيٍ بـــدمعهـــا الممنـــوع

ونظم المنفلـوطي أيضـاً رواية بـولس وفـرجيني لبرنـاردان دي سان بيير، وهي قصـة الطبيعة الساذجة والطفولة البريئة، ومطلعها:

يــا بني الفقــر، سـلامــاً عـاطــراً من بنـي الـــدّنيـــا عليكم وثنـــاء

نشأ الطفلان في جـزيرة نـائية، وتمتّعـا بمشرق الشمس ومغيبها، ولعبـا معاً في ظل الأشجار الوارفـة وعلى ضفاف الجداول الرقراقـة. وقد تبادلا الحبّ وعزمـا على الزواج، لكن الفتـاة مضت إلى فرنسـة للمطـالبة بإرث لها فلم تحصل على المال. ولما عـادت إلى جزيرتها حيث ينتظرها الحبيب هاج البحر وماج، فغرقت السفينة وجرفت المياه العروس العائدة جثة لا حياة فيها ألقتها على الساحل.

كان جميل صدقي الـزهاوي من مبتدعي القصص الشعري، وقـد نظم عدة قصائد في هـذا البـاب، منها: أرملـة الجنـدي، سليمى ودجلـة، طـاغية بغـداد، الغـريب المحتضر، على قبر ابنتها، أسماء، مقتل ليلى والربيع، سعـاد بعد زواجها، ليلى وسمير، إلخ.

فأسماء فتاة تهوى أحد الشبـان، لكنّ أهلها يزفّونها إلى شيخ فانٍ له ثـلاث نساء فلا تجد مخرجاً من مأساتها إلا بتناول السمّ والموت في ميعة الصبا.

وأرملة الجندي يعضها الفقر بنابه بعد وفـاة قرينها فتصاب بالسلّ ولا تنال الكفاف من القوت مع طفلها لضآلة راتب التقاعد الذي يصرف لها.

ويقف الرصافي بين شعراء الشباب في العراق على قمة عالية لا تصل إليها الأبصار. إن منظوماته القصصيـة قصائد رائعة تجمع جمال الشكل إلى سموّ المعنى ولطف الأداء. إننـا نقـرأ «المطلقة» و «أمّ اليتيم» و «الفقـر والسّقـام» و «اليتيم في العيـد»، فنحلّق مع الشاعر في عالم روحانيّ من الرحمة والمحبّة وتخفق قلوبنا بالعواطف الإنسانية الرفيعة.

هذه المرأة تئنّ في سكون الليل، وقد لفّها الظلام والـوحشة والفقر بدثار قاس أليم، وإلى جنبها طفل جـائع ينتظر رجـوع أبيه الذي قتـل في مذبحة همجيـة. وهذه الـزوجة المخلصة المحبوبة يطلّقها زوجها لزلّـة لسانية بدرت منه يحيلها جمود المجتمع وجهله إلى مأساة لا مخرج منها.

وهذا الصبيّ اليتيم البائس، صبيح الوجه، شاحب اللون، يخرج في صباح العيد ملتفعاً بأسماله البالية فيزيد من أساه وحرمانه ضجيج الناس وفرحهم ولعب الصبيان الذين يرتدون الملابس الزاهية ويمضغون السكر والحلوى ويضحكون ويمرحون في فيض من السعادة والهناء . . .

أما موشّح الفقر والسّقام فهو أنّة المضنى الكئيب ترتفع في الظلام يطلقها الفقير المريض الذي لا يجد طبّاً لعلّته ولا نفقة لأسرته. بشير الكادح الذي كان يسعى طول النهار ليكسب قوتاً زهيداً وليعيل أخته العانس أقعده المرض عن العمل:

إنّ سقماً به وعقماً ألمّا ... تركاه يذوب يوماً فيوما

فهو حيناً يشكو إلى السّقم عُدْما ... وهو يشكو حيناً إلى العُدْم سقماً

باكياً من كليهما بانتحاب

وفي ليلة زمجرت العاصفة واكفهرّ أديم السماء والتمع البرق ودوّى هزيم الرعد، قضى بشير نحبه. ولم تلبث أخته أن تبعته إلى رحاب الموت، منطلقة من قبضة الحياة القاسية الشديدة.

لقد أبدع الرصافي الشاعر في تصوير قسوة الطبيعة وثورة عناصرها الهوج وسخرية القدر، وتجسيم الموت الذي ينشب مخالبه كالوحش الضاري في بني الفقر على الفراش البالي وفي ضياء السراج الضعيف. وبرع في الإفصاح عن رزايا الفقر وأوصاب المرض وسعار الجوع، ووصف عبرات الأرامل والأيتام وأنين المكلومين الذي يقطع الأحشاء بسيف مثلّم ويهزّ نياط القلب، والليل ساج حالك السواد، وكأنّ نجومه تصيخ إلى الزفرات المجمجمة. وبرع في تصوير البيت الخاوي المتهدّم الذي ينوء بأثقال البؤس، والجسم الهزيل الشاحب الذي يهدّه الجوع والسقام، والطفولة التي تشكو ضراوة الدهر قبل أن يتفتّح ذهنها لحقيقة الوجود، تغذيها أمها بالدموع إذا أعوز الخبز. والجمال الذي يذوي من الوجد في عنفوان الشباب، وذلّ مجتمع البؤس وتضامنه وتعاطفه وتبادله العون والحنان والنزر مما يمتلكه من حطام الأرض، وشموخ مجتمع الغنى والبذخ وعدم مبالاته واستهانته بالدموع والدماء، أليس كلّ ذلك وكثير غير ذلك قد عبّر عنه شاعرنا ألطف تعبير، ينفذ إلى مكامن ا النفس البشرية ويثير فيها أسمى العواصف والعواصف؟ وهل عجب أن يرسم الرصافي صورة حية للحزن، وهو القائل:

أنا للحزن دائماً ذو انتساب؟

إنّ الرصافي يروي قصص الأسى والألم والموت بصيغة المتكلّم، فهو قد رآها وسمعها وعاشها، أصغى إلى أنين الملهوفين وسأل عمّا أصابهم وخفف من آلامهم وودعهم يوم مماتهم الوداع الأخير وسكب على قبورهم دمعة حرّى صادقة هامعة من جفن قريح.

وقد كان إبراهيم صالح شكر، وهو الأديب الذوّاقة، معجباً باستعارات الرصافي

وتشبيهاته يعدّها من الروائع. استشهد بقوله في «أمّ اليتيم»:

أرى فحمة الظلماء عند أنينها ... فأعجب منها كيف لم تتضرّمِ

فقال ـ على ما أذكر ـ إن شاعرنا قد شبّه الأنين ضمناً بالنار فعجب كيف لم تضطرم فحمة الظلماء.

ومن تشبيهاته الأخرى في نفس القصيدة خفوق أنين الأرملة في قلبه كرنّة الدرهم في قلب الفقير المترب. ثم شبّه تقطّع أحشائه بضربة سيف مثلّم، ولا يخفى ما تسببه ثلمات حدّ السيف من الألم عند تمزيقها الأعصاب. ثم انظر إلى الأحزان التي هاجت فاغرة الفم، وإلى الدار التي هوى بها زلزال الخطوب إلى حضيض الشقاء، وإلى العين التي سال دمعها بكاءً ونظرتها تبتسم، وهلمّ جرا.

إنّ خيري الهنداوي صديق الرصافي وعشيره لا يرقى مرقاة صاحبه، لكنه مع ذلك يحسن نسج القصة الشعرية وحبك وقائعها. ففي قصيدته «فتاة سلانيك» يروي حديث حبيبين عاشا زماناً في بلهنية الصّبا وصفاء السلم والوداد، حتى نشبت الحرب. ومضى الفتى إلى ساحة الوغى فقتل وأسرت الفتاة الحزينة.

وقصيدته «زينب وخالد» أو «فتاة بغداد وفتاها» ملحمة المآسي والأحزان. ومن زينب؟ ـ هي فتاة عربية نشأت في أحضان الفضيلة والعزّ والدلال:

فجاءت كغصن البان يورق ناضراً ... وكالشمس إلاّ أنها ليس تغرب

خرجت ذات يوم مع صديقاتها في نزهة، فالتقت بفتاها جالساً في ظلّ دوحة. وقعت عينه عليها:

فجنّ بها حباً، ولم يدر قبلها ... بأن الهوى يأتي الفتى وهو يلعب

ورأته هي أيضاً فهامت به حباً:

مضت ومضى للحيّ، كلٌّ مولّه ... بصاحبه يدعو الرشاد فيعزب

ومرض خالد وقد تيّمه الحبّ،

ينوح كما ناح الحمام صبابة ... ويشهق من فرط الغرام وينحب

وعرفت أمه بالسرّ الذي يطوي عليه جوانحه، فخطبت له الحبيبة وهيّئت أسباب الزواج. غير أنّ القدر يقف للمحبّ السعيد بالمرصاد، فقد جاء جند جنكيز واقتادوا خالداً وزجّوه في السجن، ثم ساقوه إلى سيواس. وماذا كانت جنايته؟

لقد كان صبّاً بالعراق وأهله ... يثور إذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن أحسابهم وحقوقهم ... ويطعن في صدر العدوّ ويضرب
وهل ريبة أن ذبّ عن مجد قومه ... فتى عن بنيّات العلى لا ينكب؟

أعــدلاً يــرى الأقــوام حبس ابن حــرّة ... يغـــار على مجد العـــراق ويغضـب؟
إذا كـــان في حب الــديــار جـريــرة ... فكلّ فتـى فــوق البسيطـــة مـــذنب!

وبعد أعوام قضاها في المنفى البعيد، عاد بطل قصّتنا فوجد أمه قد ماتت. وأمدّه صديق وفيّ بالنّقود فاقترن أخيراً بحبيبته زينب. لكنه عاد إلى العمل السياسي لتخليص بلاده من ربقة الاحتلال، فقبض عليه، وهو في غمرة أفراح ختان طفله، وسيق إلى المعتقل النائي مكبلاً بالحديد. وابتلي بالسلّ فقضى نحبه بعيداً عن أهله وأصحابه.

إيه، أيها الشاعر. لقد أحكمت حلقات المأساة، وأعرت الأيام مخلباً وناباً فلا تهدأ حتى تنشب أظفارها بالأرملة واليتيم وتختم الفاجعة بلا رحمة ولا تلكّؤ. وتخاطب الأم طفلها وهي تشعر بدنو الأجل:

بنـيّ، إذا مـــــا مـتّ مَن لـك راحـم ... ومـن بـك يعنى أم لأجلـك يتعـب؟
بنـيّ، يتيماً أنت بعــــدي مسيّبــــاً ... تعيش كما عــــاش اليتيم المسيّب
بنيّ، لقـد هـان الـردى بعد خـالـد ... ولكنــــــه في يتم نفسك يصعب

وجاءت جاراتها في الصباح فوجدنها ميّتة وطفلها يعول باكياً. وشغلوا بدفنها، فسهوا عن الطفل الذي خرج من الدار يسير على غير هدى حتى غرق في دجلة.

وهذا كاظم الدجيلي وقصيدته «بوليس بغداد»، فهل نستطيع أن ننعتها بالقصة؟ إنها إلى الحكاية أقرب وبالسّرد أوثق نسباً.

يستهلّ الدجيلي قصيدته بوصف مجلس شراب، فيصف الخمرة التي تميت الأحزان والخلاّن الذين اختلسوا لحظات من السعادة والصفاء. وإذا بالشرطة تداهمهم وتلقي بهم في غيابة السجن. وهناك يلتقي الشاعر بأبناء البؤس الذين أناخ عليهم الظلم بكلكله: الفتاة المعسرة التي لم يخنها ضميرها، والمرأة الباكية التي ترضع طفلها في ذلك المكان الموحش، ولكل منهما قصة عذاب وشقاء.

ومن قصص كاظم الدجيلي الشعري قصيدته «مريم وحسّان» وهي تروي قصة «رومية من غيد بغدان» (أي بغداد) زارته قبيل الفجر ترفل في حلة لا كمّ لها ولا ردن وتتهادى في سيرها غنجاً. لكن عصابة شريرة اختطفتها. وجاءها جندي تركي فاتهمها بالخلاعة، لكن رجلاً شهماً استطاع إنقاذها. غير أن الجنود قبضوا عليه وساقوه إلى القاضي الذي أمر بحبسه، وقضى الفتى نحبه في السجن. ورأت مريم جنازته فصعقت وسقطت ميتة هي الأخرى!

وهي قصة متهافتة نظماً ومعنىً وسياقاً؛ ولا شك أنه نظمها في مستهلّ شبابه.

ويلقي إبراهيم منيب الباجه جي دلوه بين الدلاء، فينظم قصيدته «إقبال وإدبار».

فتـــاة مـن الأعـــراب هيفـــاء مُعْصِرُ ... يقـــال لها في ســالف الــدهـر مَنْـوَرُ

ولعلّه استعار كلمة «معصر» من عمر بن أبي ربيعة فأساء فهم معناها، فالمعصر هي التي تقدم بها العمر وليست الغيداء الشابة.

وصف حسنها وحياءها وسحر عينيها وتورّد خديها ولين عطفيها وشقرة شعرها. نشأت في قصر منيف وترعرعت في بحبوحة العزّ في ظل أب نبيل حكيم. وأتى ظالم شرير من الغرب يريد خطف الفتاة، فقتل أباها بخنجره وفرّ هارباً. واستغرقت منور في جزعها وحزنها، فوضعت نهاية لحياتها بأن رمت نفسها من سطح الدار. ثم تبعتها أمها إذ ألقت بنفسها في بئر عند قبر ابنتها!

أما عبد الرحمٰن البناء فروى في «فتاة العرب» قصة رمزية تشير إلى اعتداء الدول الغربية على السلطنة العثمانية الهرمة وتكالبها على تمزيق أشلائها.

قال البناء:

قضت حقبة في عالم الشرق زينبُ ... لها المجد أمّ والفخار لها أب

عاشت زينب في صفاء ونعمة تجرّ ذيول الدلال وتمرح في روضة الشباب. تاهت يوماً في الصحراء، فلم تشعر إلا والليل قد أسبل على الكون رواقه الحالك. وأجالت طرفها في حيرة ووجوم، فرأت شبحاً قادماً خالته في بادىء الأمر صديقاً، ولما اقترب منها وجدته شيخاً أجرب من الغرب، دميم الخلقة، أحدب الظهر، أشعث الشعر. هددها بمديته فلم تغنِ عنها ضراعتها، وسلبها ملابسها وحليها. ولما طلع الصبح عادت إلى أهلها، وكانوا في أسى وقلق على مصيرها، فنادت أمها بالويل والثبور، وأهابت بالقوم إلى الثأر لابنتها:

أراكم حيارى ليس فيكم حميّة ... على طفلة من أمة الشرق تسلب
فقدتم بهذا الجبن كلّ مزيّة ... وعام بكم في لجّة الذلّ مركب
ألا فانهضوا واسعوا وجدّوا وسارعوا ... وكرّوا على دفع الأذى وتقرّبوا
حناناً حناناً، أيّها الأمّة التي ... لها عند أخذ الثأر عزم مجرّب
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهم ... لهم هيبة منها المقادير ترهب؟
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهُمُ: ... إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب؟

وفي منظومة أخرى يروي عبد الرحمٰن البنّاء قصة لبنى الفتاة الجميلة التي درجت في حجر أمّها الحنون. وقد ماتت الأم، واقترن الأب بامرأة شرسة خبيثة كرهت لبنى وسامتها الذلّ والعذاب، ثم لم تتورّع أن خنقتها في حندس الليل!

وماذا فعل الأب؟ لام زوجته،

ثم نادى عليّ بالنعش حتى ... ندفن الميت في المقابر دفنا
فأتوه بالنعش سرّاً، وفيه ... ليس يدري أقصى الأنام وأدنى

وضعـوهـا بـالنعش من غير غسلٍ ثـم سـاروا بها مسير الهوينـا
ثمّ آبـوا بجمعهم بعـدمـا قـد تـركـوهـا في ظلمـة اللحـد وَسْنَى
ثم قـالـوا من مكـرهـم حين عـادوا: ربِّ إنّـا إليك نـرجع، إنّـا

وهي كما نرى قصة متهافتة متفكّكة العرى، سقيمة اللفظ والسياق والمعنى، لكنّها تهوّل صورة اجتماعية فظّة من صور المجتمع العراقي في العصور المظلمة، وتدعو إلى التأمل والاعتبار والإصلاح.

ولا بدّ لنا بعد ذلك أن نذكر قصيدة الفتاة المخدوعة والشرطي الأثيم لمحمد الهاشمي. لقد أحبّ صالح الشرطي فتاة طاهرة الذيل، جميلة القسمات (شأن القصص الرائجة في ذلك العهد). وشجعته أمّها العجوز الماكرة، لكن الفتاة أوجست منه ريبة وأحسّت أنه يريد اللهو بها لا الزواج منها. قالت الأم:

واضيعتي بعـد عمـر قـد وقعت بـه على تجاريـب إدبـار وإقبـال
دعي، ابنتي، هـذه الأفكـار واتّئـدي فـإنّ غشّك لم يخطـر على بـالي
وهـل سمعـت بـأم تخدع ابنتهـا كيما تبيـت على حـزن وبلبـال؟
مـاذا يـريبك منـه؟ إنـه لفتى مـؤدب النفس لا جـافٍ ولا سـالِ
زيـن الشمائل يسبـي القلب منظـره يحدّث العين عـن فضـل وإجـلال
لـو لم يحبّك حبّ الصـدق كـان لـه عـذر بهجـرك هجـر المعـرض القـالي

ولما قضى الأثيم منها وطراً لم يكتفِ بهجرها، بل أخبر بأنها بنت مريبة فأخذت قسراً إلى المباءة العامة. وشاء الشاعر بعد ذلك أن يحبك المأساة من جميع أطرافها، فابتلى الفتاة المسكينة بالسلّ وسرعان ما أدركها الموت.

إنّ القاسم المشترك بين شعراء النهضة الأدبية الحديثة كان، ولا ريب، الشعور الإنساني والعطف على مجتمع البائسين. عبّر عن ذلك الرصافي، وعبّر عن ذلك الزهاوي الذي قال:

يـا شعـر أنت، إذا وصفتك مـوجـزاً شكـوى الكظيم ونفثـة المصـدور

وعبّر عن ذلك محمد الهاشمي إذ قال:

سـألقي نظـرة ملئت حنـانـاً على البـؤسـاء من طَـرْفٍ خَشُـوع
يعيش الأغنيـاء على رخـاءٍ ونحـن نعيش في بـؤس وجـوع
تنـام عيـونهم بـالليل، لكن عيـون البـائسين بـلا هجـوع

ولقد اضطلع الشعر العربي في عصر النهضة برسالة سامية لحفز الهمم وطلب العلم والإصلاح وتحرير المرأة واستقلال الوطن. ولا ريب أن القصص المنظومة كانت جزءاً هادفاً من شعر النهضة الاجتماعية في مطلع القرن العشرين.


عصر
الانحطاط الأخير
والعهد الانتقالي



عبد الغفار الأخرس

ولد في الموصل وعاش في بغداد وتوفي في البصرة، وكان همزة الوصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين. فلقد اتصل بداود باشا آخر ولاة المماليك الذي عزل ونفي في سنة ١٨٣١ ومدح السيد عبد الرحمن النقيب الذي ولي رئاسة الحكومة الوقتية في سنة ١٩٢٠ وتوفي سنة ١٩٢٧.

ذلكم السيد عبد الغفار عبد الواحد وهب المعروف بالأخرس لحبسة كانت في لسانه، ولعله كان أنبه شعراء بغداد ذكراً وأبعدهم صيتاً في عصر الانحطاط. وقد ردّد ذكر عقلة لسانه في شعره فقال من قصيدة يمدح أبا الهدى الصيادي الرفاعي حين زار بغداد سنة ١٨٦٧، وقد اشتهر بعد ذلك بصلته الوثقى بالسلطان عبد الحميد الثاني:

فهو عن مدح سواكم أخرس   وبكم أفصح حزب الشعرا

وقال يمدح المفتي أبا الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي:

وقد أخرستني من علاك فصاحة   ألست تراني أخرس النطق أبكما؟

وقال:

هذا لساني يعوقه ثقل   وذاك عندي من أعظم النوب

فلو تسببت في معالجتي   لنلت أجراً بذلك السبب

ولد الأخرس في الموصل في نحو سنة ١٨٠٥ وقدم بغداد شاباً ولم يلبث أن ولج محافلها الأدبية واتصل بالوالي داود باشا الذي كان يعطف على العلماء والأدباء. وديوان الأخرس الذي جمعه أحمد عزت باشا الفاروقي وطبعه في الأستانة سنة ١٨٨٧ قد ضمّ مقطوعتين للشاعر قالها في عهد هذا الوالي، أولاهما بيتان قالهما «حينما حبسه المرحوم داود باشا من جهة ما زوّره عن عبد الرحمن باشا والي الموصل وكان ذلك سبباً لاتصاله به»:

أقول للشامت لما بدا   يكثر بالتعنيف والشين

أليس يكفيني فخاراً وقد   أصبحت في قيد وزيرين؟

ولا نعلم شيئاً عمّا زوره الأخرس عن والي الموصل فكان سبباً لسجنه في بغداد واتصاله بواليها. أما المقطوعة الثانية فقصتها أنه كان واقفاً بين يدي داود باشا فأعطاه عريضة وأمره بأن يتلوها ويلخصها فارتجل البيتين الآتيين:

فديتك لا ترجو لنطقي تكلما ... فإن يراعي عن لساني يترجم
غرقت ببحر من نوالك سيدي ... فكيف غريق عائم يتكلم؟

ويروي جامع الديوان في ترجمته للشاعر أن داود باشا أرسله في صباه إلى بعض بلاد الهند ليصلحوا لسانه، فقال له الطبيب: أنا أعالج لسانك بدواء فإما أن ينطلق وإما أن تموت، فقال: لا أبيع كلي ببعضي وقفل راجعاً إلى بغداد. ولا ندري مبلغ صحة هذه الرواية، فظاهرها يدل على الصناعة والتنميق. ولم يكن مألوفاً إرسال المرضى للعلاج في خارج البلاد، وكانت صلة الوالي داود باشا في آخر عهده غير طيبة بالمقيم البريطاني في بغداد وبحكومة الهند. وديوان الأخرس على كل حال خال من أية قصيدة في مدح داود باشا في إبّان ولايته، لكن الشاعر مدحه بقصيدة طويلة بعد عزله أنفذها إليه إلى الأستانة، ومطلعها:

بوادي الغضا للمالكية أربع ... سقتها الحيا منّا جفون وأدمع

ويقول منها:

فهل أنت مثلي قد أضرّ بك الهوى ... وهل لك قلب لا أبا لك موجع؟
لئن نشرت طي الغرام الذي لها ... فقد طويت مني على الوجد أضلع

ومنها:

أراني مقيماً بالعراق على ظما ... ولا منهل للظامئين ومرتع
وكيف بورد الماء والماء آجن ... يبلّ به هذا الغليل وينقع؟
لعلّ وما يجدي لعلّ وربما ... غمائم غمّ أطبقت تتقشع
يعود زمان مرّ حلو مذاقه ... وشمل أحبّائي كما كان يجمع
فقد كنت لا أعطي الحوادث مقودي ... وإني لريب الدهر لا أتوجع
كأني صفاة زادها الدهر قسوة ... من الصمّ لا تبلى ولا تتصدع
فسالمت حرب النائبات فلم تزل ... تقود زمامي حيث شاءت فأتبع
وكنت إذا طاشت[1] سهام قسيّها ... وقتني الردى من صنع (داود) أدرع

ثم يذكر جود الوزير وفضله وبأسه ويقول:

أبا حسن، هل أوبة بعد غيبة ... فللبدر في الدنيا مغيب ومطلع
لئن خليت منك البلاد التي خلت ... فلم يخل من ذكرى جميلك موضع
ففي كل أرض من أياديك ديمة ... وروض إذا ما أجدب الناس ممرع

(١) لعل الكلمة «راشت» فهي أدل على المعنى.

وهو لا يفتأ يذكر داود باشا في شعره بعد أعوام طويلة، فإذا مدح السيد علي النقيب قال:

فبورك من لا زال يورثني الغنى وذكرني أيام داود ذي الأيدي

وإذا ذكر ابتلاءه بحرفة الأدب قال:

وليس لي حرفة سوى أدب جم ونظم القريض والخطب
من بعد داود لا حرمت منى فقد مضت دولة الأدب

لقد مضت دولة الوزير داود باشا لكن دولة الأدب لم تمض، فقد وجد الشاعر الأخرس من بعده حماة ورعاة كالسيد محمود نقيب الأشراف والمفتي أبي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي ومحمد أمين الواعظ والشاعر عبد الباقي العمري والسيد علي النقيب وولديه سلمان وعبد الرحمن وعبد الغني الجميل وابنه محمّد وغيرهم من أشراف بغداد وعلمائها الذين حبوه بعطفهم وجودهم واتخذوه نديماً وزينة لدواوينهم. ومن الغرابة أن صلة الشاعر قد قطعت بالموصل مسقط رأسه أو كادت، فديوانه الضخم لا يحوي سوى قصيدة واحدة يمدح بها رئيس علماء الموصل عبد الله الفاروقي. لكنه وجد بديلاً طيباً في البصرة التي زارها غير مرة ومدح أشرافها ونقباءها واستمتع برفدهم وودهم.

كان الأخرس لطيفاً ظريفاً يضفي مع رفيقه عبد الله الخياط (المتوفى نحو سنة ١٨٩٠) على مجالس بغداد ودواوينها رائعاً من النوادر والفكاهات. وقد اعتبر الشعر تجارة يروج سوقها حيناً ويكسد أحياناً، فقال يخاطب السيد علي نقيب أشراف بغداد:

تاجرت في شعري إليك، وإنما نفق القريض لديك بعد كساده

وقال يمدح ولده السيد عبد الرحمن الكيلاني:

ربحت فيكم تجارة شعري لا رماها في غيركم بالكساد

وقال في مدح عبد الغني جميل:

أتاجر في شعري، وكل تجارة من الشعر إلا في علاك لفي خسر

وقال يرثي عبد الواحد جلبي من أعيان البصرة:

وقد كان فيك الشعر ينفق سوقه لديك ويبتاع الثناء ويشتري

ردّد هذا المعنى كثيراً في شعره لكنه كان مع ذلك عزيز النفس أبيّها، فإذا هنأ الشاعر عبد الباقي العمري بمنصبه الكبير قال:

سواي يروم المال مكترثاً به ويرغب في غير الذي أنا راغب
وإنك أدرى الناس فيما أريده وأعلمهم فيما له أنا طالب

وإذا سمت نفسه إلى المعالي اعتذر فقال:

أسفـــاً للشعـــر، لا حـظ لــه ... في زمــان الجهل والقــوم اللئـــام

وقال:

لـــو تنبهـت لها مجتهـــداً ... كيف بـالحظ إذا مـا الحظ نـامـا؟

أو رأى المقـــدور فينـــا رأيـــه ... مـــا تكلفت نهوضـــاً وقيـــامـــا

وهو لا يفتأ يندب جور الزمان وظلمه فيقول:

وإن فـــاض دمعي لا أزال أريقـــه ... فمن كبـــد تصلى ومن لـــوعـــة تصلي

وجـــور زمـــان لـــو أرى فيـه منصفـاً ... لحاكمتـــه فيـــه إلى حكـم عـــدل

أمثلي يطـــوف الأرض شرقـاً ومغـــربـــاً ... على أرب يـــرضى من الكثـــر بـــالقلّ؟

وتقـــذفني الأسفـــار في كل وجهـــة ... فمن مهمـــه وعـــر إلى مهمـــه سهل

وتحرمنـي الأيـــام مـــا أستحقـــه ... فـــلا كـــانـت الأيـــام إذ ذاك في حلّ

وأرجع أختـــار الإقـــامـــة خـــامـــلاً ... حليف الجهـول الـوغـد والحاسد النـذل

يطـــاولني من لست أرضـــاه مـــوطئـــاً ... وأكـــــرم نعلي أن أقيس بـــه نعلي

وفـــاخـــرني من يحسب الجهل فخـــره ... ونـــاظـــرني مـن لم يكن شكلـه شكلي

فتبـــاً لـــدهـــر تستـــذلّ قـــرومـــه ... وتستكبر الأنـــــذال فيـــه وتستعلي

أقـــامـــوا مقـــامي مـن جهلت بـزعمهم ... فما قـــام في عقـــد هنـــاك ولا حلّ

ولـــو طلبـــوا مثلي لعـــزّ وجـــوده ... ومـــا وجـــدوا مثلي وأنّـى لهم مثلي؟

إلى مَ أمنّـي نفس حـــــرّ أبيـــــة ... شـديـد عليهـا في الـدنى مـوقف الـذلّ؟

ويثور وهو الساكن الهادىء فيصرخ قائلاً:

تـركـت لكم، أعيـان بغـــداد، منـزلاً ... تجور عليـــه النـــائبـــات وتعتـــدي

ففيم مقـــامي عنـدكـم ظـامىء الحشـا ... ولا أنـــا بـــالـــواني ولا بـــالمقيّـــد

وإني عـــزيـــز النفس لـــو تعـرفـــونني ... ولي بينكـم ذلّ الأسير المصفّـــــد

ويقول:

وســـاء زمـــان بعـــد أن سرّهـــا بهم ... فماذا يـلاقي الحرّ في الـزمـن الـوغـد؟

ويقول أيضاً:

نتنفّس عـن وجـــد تـــوقـــد جمره ... فأجـــرى مسيل الـدمع ينهـلّ قطـــره

وبـــات يعـــاني الهم ليس ببـــارح ... على قلبـــه إقـــدامـــه ومكـــرّه

تمنّى ومـــا يغني التمنّي مطـــالبـــاً ... حـــريّ بها لـــولا الـــدنيّـــة دهـــره

ودون أمـــانيـــه عـــوائق جمة ... يضيق لها في المنـزل الـرحب صـدره

تحمـل أعبـــاء المتـــاعب والتقى ... على غـــرّة صرف الـــزمـــان وصبره

وأشقى بني هـــذا الـــزمـــان أريبـــه ... وأتعب مَـن فيـــه من النـــاس حـــرّه

ويقول:

إذا الحرّ ألفى الضيم شرط حياتـه رأى الرأي فيها أن يموت ويقبرا

ولكنه بالرغم من كل ذلك رضخ لجور الدهر واستسلم لظروف الزمان . ولقد قيل : «إن سيّد نفسه يرث الآلام» فاطمأن شاعرنا إلى الدعة والخمول واتخذ ممدوحيه أسياداً يسترفد رفدهم ويعيش في ذراهم ولا يأنف أن يقول في بعضهم :

أراني - والخطوب إذا ألمت - رجعت إلى جميل أبي جميل
كأن الله وكلـه برزقي وحولني على نعم الوكيل

ويقول أيضاً :

كفاني المهمات عبد الغني وذلك من بعض أفضاله
فإن نلت مالاً فمن جاهه وإن نلت جاهاً فمن ماله

إن شعر عبد الغفار الأخرس مثال لشعر عصر الانحطاط الأدبي ، فهو شعر جامد جافّ يغلب عليه روح المحاكاة والتقليد ويكاد يخلو من الإشراق والانطلاق والابتكار. ويمكن القول إنّ قيمته قد أصبحت تاريخية أكثر منها أدبية . أما مواضيعه فتقتصر على المديح والتهنئة والرثاء والغزل والبكاء على الطلول وقد تتناول شيئاً من الوصف والهجاء شابتها المبالغة المستهجنة وشانها الإسراف الممجوج والتكرار المملّ . وهذا أخرسنا يهنىء السيد سلمان بنقابة الأشراف فلا يملك إلا أن يردد قول أبي العتاهية :

أتتك النقابة تسعى إليك تجرّ من التيه أذيالها
إذا لم تكن أنت أهلاً لها من الأنجبين فمن ذا لها؟

وهو يكثر في نسيبه من وصف المحبوب بالجؤذر والغزال والمتيم بالأسد الضرغام ويتساءل كيف يتسنى للغزال أن يتصيّد الأسد محاكياً في ذلك ابن الفارض الذي قال :

هل سمعتم أو رأيتم أسداً صاده لحظ مهاة أو ظبي؟

فإذا عرضت له مناسبة للإبداع - وقلما تعرض له - لم يستطع التحليق في شعره كما في وصفه للباخرة حين استقلها عائداً من البصرة فلم يقل فيها إلا أبياتاً متهافتة :

قد ركبنا بمركب الدخان وبلغنا به أقاصي الأماني
حين دارت أفلاكه واستدارت فهي مثل الأفلاك بالدوران

إلخ . .

ولا يخلو ديوان الأخرس مع ذلك من الشعر الطريف ، فمن ذلك وصفه لسرقة داره قبيل عيد الفطر.

يا ليلة في آخر الشهر قد جئت بعد الصوم بالفطر
كشف الصباح لنا حوادثها وتكشفت عن مضمر الغدر
أصبحت منها غير مفتقر أبداً إلى حرس على وكر

ثم يصف منزله الذي «أخذوا مساحته يوماً فما أوفى على شبر» ويصف صبيته الغرّ

الوجوه، السود الحظوظ الذين فرحوا بالغلائل الحمر فجرت دموعهم لضياعها، ويصف حليلته «نظيرة الخنساء» التي أسرفت في ندب أشيائها المسروقة وفقرها المدقع فيخاطبها قائلاً:

هل كنت قبل اليوم في سعة ... وملابس من سندس خضر؟
أو ما ذكرت العمر كيف مضى؟ ... لا كان ذاك العمر من عمر!

تلك قصيدة الأخرس في سرقة داره. ومن الطرافة أن نقابلها بقصيدة للشاعر الفرنسي كليمان مارو (١٤٩٧ ـ ١٥٤٤) Clément Marot في موضوع مماثل. يخاطب مارو ملك فرنسا عن سرقة داره، فيقول: إن سوء الحظ لا يأتي وحده بل يجلب معه مصيبتين أو ثلاث مصائب. ثم يقول إنه كان له خادم سكّير كذّاب جشع يجمع في نفسه كلّ الصفات المقيتة. وقد علم أن للشاعر كيساً ضخماً من النقود فابتدر غفلة منه وسرق دراهمه وملابسه، ثم امتطى ظهر حصان سيّده ومضى في الصباح الباكر دون أن يودّعه.

على أثر ذلك مرض الشاعر مرضاً شديداً ألزمه الفراش ثلاثة أشهر، ولم يبق منه سوى الفكر الذي يندب وينتحب. ولم ينفعه أطباء الملك الذين يعودونه ويتفقّدون صحته. ويمضي إلى القول إنه يخجل أن يطلب من الملك إعطاءه المال، لكن الدائنين يلحّون عليه مطالبين بدفع ديونه. وأخيراً يعد الملك بأن يفي صلته بمدائحه.

ومن جميل شعر الأخرس في الغزل:

إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع ... لمن أشتكي حالي لمن أتوجع؟
غرامي غريمي وهو لا شك قاتلي ... وكم ذلّ من يهوى غراماً ويخضع
أباح دمي بين الورى من أحبه ... فقلت وقلبي بالجوى يتقطع
دموعي شهود أن قلبي يحبه ... وحق الهوى عن حبه لست أرجع
وراموا سلوّي في هواه عواذلي ... وحق هواه لست أصغي وأسمع...
وأصبحت كالمجنون في حيّ عامر ... بليلى ومن وجدي أهيم وأولع
فلو زارني في النوم طيف خياله ... لكنت بطيف منه أرضى وأقنع

وقوله:

إلاّ يا فؤاداً قد أضرّ به النوى ... وأشجاه برق للحبيب لموع
إذا ما دعاك الصبر يوماً عصيته ... وأنت لما يقضي الغرام مطيع
كتمت الهوى دهراً فباحت بسره ... عيون وأفشت ما كتمت دموع
ويا منزلاً للّهو أبعده النوى ... ألّلمدنف النائي إليك رجوع؟
تذكرت فيك العيش، والغصن يانع ... وريق، وشمل الظاعنين جميع

وقوله:

زيد لوماً فزاد في الحبّ وجداً مستهام تخيّل الغيّ رشدا
مازح الحب مرة فأراه أن هزل الغرام يصبح جدّا
ورمى قلبه بجذوة نار أوقدته بلاعج الشوق وقدا

وقوله من موشح:

حبذا مجلسنا من مجلس جامع كل غريب وعجيب
نغم العود وشعر الأخرس ومحبّ مستهام وحبيب
يتعاطون حياة الأنفس في بديع اللفظ والمعنى الغريب
بابليّ السحر معسول الجنى أين هذا واشتيار العسل؟
وإذا مرّ نسيم بيننا قلت هذا ويحكم من غزلي

وقوله وهو في البصرة وقد حنّ إلى بغداد:

فيا زمن الصبا، هل من رجوع ويا عهد الشباب متى تعود؟
سلام الله أحبابي عليكم إلى بغداد يحملها البريد
يهيّج لوعتي وجد طريف لكم ويشوقني وجد تليد
فهل أخبرتم أني بحال يساء بها من الناس الحسود؟...

وقوله:

من معيد لي أياماً مضت كان فيها الغيّ لو أنصفت رشدا؟
أهصر الغصن إذا ما كان قدّاً وأشمّ الورد إذ ما كان خدّا
كم أهاج الشوق من وجد بها كلما جدده الذكر استجدّا
وجرى دمعي من الوجد فما يملك الطرف لجاري الدمع ردّا...

وقوله يتحسر على الشباب:

ذهبت لذاذات الصبا وتصرّمت أوقات أنسك في الزمان الغابر
وإذا امرؤ فقد الشباب فما له في اللهو بعد مشيبه من عاذر
ولقد أقول لطامع برجوعها كيف اقتناصك للغزال النافر؟

وقوله في الشوق والوداع:

تحنّ نياق الظاعنين، وما لها تحنّ وفي القلب المشوق حنين
أبالنوق ما بالنازحين من الأسى ووجد بأحشاء الضلوع كمين؟
ولما التقينا للوداع عشيّة وباحت بأسرار الغرام عيون
بذلت لها من هذه العين عبرة وإني بها لولا الفراق ضنين
فلا القلب لما أزمع القلب صابر ولا الدمع من يوم الفراق مصون
فلولاك ما قاسيت، يا غاية المنى حوادث تقسو مرة وتلين
إذا كنت لا تدرين ما الشوق بالحشا سليني عن الأشواق كيف تكون
جننت بذكر العامرية، والهوى جنون، ولكن الجنون فنون

ومن بديع حكمياته:

نـــؤمل أن يطـــول بنـــا الثـــواء ... ونطمـع بـــالبقـــاء ولا بقـــاء
وتغـــرينـــا المطـــامـع بـــالأمـــاني ... ومـــا يجري القضـــاء كما نشـــاء
تحدثنـــا بـــآمـــال طـــوال ... وليس حـــديثهـــا إلا افتراء
وإن حيـــاتنـــا الـــدنيـــا غـــرور ... وسعـي بـــالتكلـف واعتنـــاء
نسرّ بها نســـاء بـــه ونشقى ... ومـن عجـب نسرّ بها نســـاء
ونضحـك آمنين، ولـــو عقلنـــا ... لحقّ لنـــا التغـــابـن والبكـــاء
إلى مَ يصـــدّنـــا لعـب ولهو ... عن العظـــة التي فيهـــا ارعـــواء
وتنـــذرنـــا المنـــون ونحن صمّ ... إذا مـــا أسمع الصمّ النـــداء
ظهـــرنـــا للـــوجـــود وكل شيء ... لـــه بـــدء لعمـــرك وانتهـــاء
لئـن ذهبت أوائلنـــا ذهـــابـــاً ... فـأولنـــا وآخـــرنـــا ســـواء
نـــودّع كـل آونـــة حبيبـــاً ... يعـــزّ على مفـــارقـــه العـــزاء
تسير بـــه المنـــايـــا لا المطـــايـــا ... إلى حيـث السعـــادة والشقـــاء
ولـــو يفـــدى فـــديناه ولكن ... أسير الموت ليس لـــه فـــداء

وقوله:

ومـــا حيلـــة الإنســـان في مـــا ينـــوبـــه ... إذا كـــان أمـــر الله فيـــه مقـــدرا
وهبـك اتقيت الـــرزء حيث رأيتـــه ... فكيف بمـن يأتيك مـن حيث لا تـــرى؟
ونحن مـع المقـــدور نجـــري إلى مـــدى ... وليـس لنـــا في الأمـــر أن نتخيّرا

وقوله:

نـــؤمـل في الـــدنيـــا حيـــاة هنيئـــة ... ومـــا نحن إلا عـــرضـــة للمصـــائب
ونغترّ في بـــرق المنى وهـــو خلّب ... وهيهـــات مـــا في الآل مـــاء لشـــارب
نصـــدّق آمـــالاً محال بلـــوغهـــا ... ومن أعجب الأشيـــاء تصـديق كـــاذب
تســـالمنـــا الأيـــام والقصـــد حـــربنـــا ... ومـــا هي إلا خـــدعـــة من محارب
ونطمـع أن تبقـى ويبقـى نعيمهـــا ... فلـم يبق منهـــا غير حسرة خـــائب

أولع الأخرس بالخمر حتى شبهه الـدكتور محمد مهدي البصير بأبي نواس ولكن أين هو منه؟ فالنواسي مجدّد في عصره، مبتكر في شعره، مفرد في وصفه، أما الأخرس فببغاء تردد معاني الأقدمين وأخيلتهم.

قال الأخرس:

أعنـــدك علـم بـأن الهمـــوم ... على خـــاطـــر المرء مثـل الجرب
ولا مـــن دواء لأدوائهـــا ... ولا بـــرء منهـــا كبنت العنب
وحشر مع الغـــانيـــات الحســـان ... إذا حشر المرء مـــع مَـــن أحـــب
وإني فقير إلى قهـــوة ... ومَـن لي بها مثـل ذوب الـــذهـب

تقوّي العظام وتشفي السقام / ويذهب عن شاربيها النصب
إذا مزجت بابن ماء السماء / تولّد منها لآلي الحبب

وقال :

قد نحرنا الزقّ يوم العيد نحرا / وأذبنا بلجين الكأس تبرا
وتخيلنا الحميّا لهبا / وحسبنا أنها بالماء تورى
قال لي الساقي وقد طاف بها : / هي خمر وتراها أنت جمرا
يا ندياً قد سقاني كأسه / اسقنيها في الهوى أخرى وأخرى
إن أحلى العيش ما مرّ على / روضة غناء والكاسات تترى
ويد المزن وأزهار الربى / نشرت من بعد ذاك الطيّ نشرا
لا تخف من وزرها في شربها / أو تخشى مع عفو الله وزرا؟
راحة الأرواح بالراح التي / لم تدع للهمّ في الأحشاء ذكرا

وقال :

إذا ما الشيخ في الكأس احتساها / غدا في الحال أنشط من غلام
لئن عللتني يا صاح يوماً / بأحبابي فعللني بجام
ومن لي بالكرى يوماً، لعلي / أرى طيف المليحة في المنام
وما أنسى لها في الركب قولي / وقد نظرت لأجفان دوام
نحولي ما بخصرك من نحول / وسقمي ما بطرفك من سقام

وقال :

قام يجلوها وبرد الليل معلم / خمرة ما اجتمعت يوماً مع الهم
فهي تبر في لجين ذائب / أو كنار في فؤاد الماء تضرم
نظم المزج عليها حبباً / رصع الياقوت بالدرّ المنظّم
مرة يجلو بها العيش وفي / مثلها قد يحمد الدهر المذمم
من رأى يا قوم منكم قبلها / قبل هذا أن نوراً يتجسّم
فهي سرّ منعت سرّ الضيا / في ضمير الليل من أن يتكتم
قدمت في عصرها حتى لقد / أوشكت تخبرنا عمّا تقدم

وقال :

جلا في الكأس جالية الهموم / وقام يميس بالقدّ القويم
وقد فرش الربيع لنا بساطاً / من الأزهار مختلف الرقوم
بحيث الأفق مغبر الحواشي / ووجه الأرض مخضر الأديم
هنالك تطلع الأقمار فيها / شموس الراح في الليل البهيم
كأن حبابها نظمت نجوماً / رجمت بها شياطين الهموم
وقد كانت تدار عليّ راح / تعيد الروح في الجسد الرميم
أخذت بكأسها وطربت فيها / فسلني كيف شئت عن النعيم

بحيث الشمس طالعة مدامي وبدر التمّ يومئذٍ نديمي . . .

تلك أيام صفت للشاعر فنعم فيها بالحب والمدام، لكنه علم أنها لا تدوم وأن «الهوى أكبر داع للهوان» في «زمان من حقه أن يذمّا» فقال :

تركت الهوى بعد المشيب لأهله وراجعني حلم لسلمي يصارم
وما أنسَ لا أنسى زماناً قضيته وعود الصبا ريّان والعيش ناعم

وبث شكواه فقال :

شكوتك ما يلقى فؤادي من الأسى وما كل مَن أشكو إليه رحيم
فؤاد شجاه ما شجا كل وامق وما هو بعد الراحلين مقيم
أرى صبوة المشتاق دائمة الهوى فما بال صبر الصب ليس يدوم؟

ثم استكان وعلل النفس وقال :

هذي هي الدنيا كما تريانها حرم اللبيب وفاز فيها الأحمق
فصبرت فيها والخطوب متاحة لا ضاجر منها ولا أنا مشفق
حتى رأيت النائبات تقول لي : عجباً لصبرك كيف لا يتمزق!

أشرف الشاعر على السبعين من عمره، لكنه لم يترك قرض الشعر ولم يركن إلى العزلة والانزواء ولم يملّ الضرب في الأرض في سبيل بلغة العيش. ولعل آخر قصائده تهنئة السيد سلمان الكيلاني بنقابة الأشراف وورود الفرمان السلطاني بها إليه . وشدّ الرحال إلى البصرة فمرض فيها وأدرك حمامه في عشية عيد الأضحى سنة ١٢٩١ هـ ـ الموافق ليوم الأحد ١٧ كانون الثاني ١٨٧٥م .

وقد طبع ديوانه بعد وفاته بعناية أحمد عزت العمري الفاروقي، ونشر عباس العزاوي مجموعة له في شعر عبد الغني جميل وما قاله الأخرس فيه وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٩ .

ولم يكد يمضي على وفاة شاعرنا الأخرس ثلث قرن ونحو ذلك حتى هبت على الشعر العربي نسمات جديدة ولاحت طلائع النهضة الأدبية الحديثة في وادي الرافدين، فكأنما بينه وبين الشعراء الذين تلوه دهر طويل .

إبراهيم الطباطبائي

الشاعر السيد إبراهيم بن حسين بن رضا بن السيد مهدي بحر العلوم الحسني الطباطبائي. اشتهر جدّه العلامة محمد المهدي بن مرتضى المعروف ببحر العلوم (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧)، كما كان أبوه حسين (١٨٠٦ ـ ١٨٨٩) من شعراء عصره. ولد في النجف سنة ١٨٣٢، ودرس على والده الشاعر الفقيه. ونظم الشعر فتفوّق فيه وكان أستاذ عبد المحسن الكاظمي الذي لازمه حين قصد الطباطبائي الكاظمية وأقام فيها سنتين (١٨٨٧ ـ ٨٩). وتتلمذ عليه شعراء آخرون منهم محمد السماوي.

وقد توفي بالنجف سنة ١٩٠١، وطبع ديوانه سنة ١٩١٤ مصدّراً بمقدمة للشيخ علي الشرقي. قال الدكتور محمد مهدي البصير: «امتاز بخلال حميدة وصفات طيبة أهمها... اعتزازه بالعروبة وسرعة خاطره... وقوة حافظته... وخفة طبعه التي خلقت منه صورة مصغّرة لعمر ابن أبي ربيعة من حيث حبه للجمال وافتتانه به وتحدثه عنه...».

تبرّم بحاجته ورقة حاله، وهو الأبيّ المترفع، فقال:

لقد قسم الله رزق الورى ... وقتّر بالرزق أقسامِيَهْ

فما زلت أشكره حامداً ... وأقتل بالصبر آماليه

وهل نافعي أنني شاعر ... تضرّ وتنفع أشعاريه؟

أديباً وتدركني حرفة الأديب، ... فتعساً لآدابيه!

وشعره قديم الطراز، حسن الديباجة، أكثره في الغزل والفخر والوصف والمدح والرثاء والحكم والمواعظ.

ومن رقيق نظمه قوله:

أخي، هل راجع ليل فينظمنا ... بشطّ دجلة نظم العقد إخوانا؟

بتنا على البدر حيث النجم يرمقنا ... بطرفه في ضمير الليل نُدْمانا

بمجلس مشرف الأطراف مرتفع ... عالٍ تطول به الجلاّس كيوانا

يا حيّ دجلة، والجرفان قد طفحا ... فيضاً يسيل على الرَّضراض عِقْيانا

نسرّح اللحظ في مجرى سبائكها ... فيصدر الطرف دون الورد حيرانا
لو كنت تطلبنا، والملتقى كثب، ... لما طلبت حياةً دون لقيانا
مضت بتلك الليالي الصالحات لنا ... نوىً شطون تمدّ البحر أشطانا
أحبابنا، إن تهن فيكم وسائلنا، ... فحسبنا كلّ شيء بعدكم هانا
هلاّ نكون كما كنا وكان لنا، ... فإنما العيش ما كنّا وما كانا

وقيل في ترجمة الطباطبائي أنه كان مكثراً من النظم، ولكنه لم يتخذه يوماً حرفة ولا جعله لنفسه ساعة مهنة يكتسب بها نشباً أو يلتمس بها من العيش سبباً.

كان سريع الخاطر، حاضر البديهة، متفتّح القريحة، أكّد علي الشرقي أنه ربما ارتجل القصيدة التي تتألف من مئة بيت في مجلس واحد، كما فعل بعده تلميذه عبد المحسن الكاظمي. وقال محمد مهدي البصير أنه كان قويّ الحفظ، ، حديد الذاكرة، أملى شعره كله على ولده السيد حسن وكان راسخاً في ذهنه. وكان إلى ذلك رقيق الطبع، خفيف الروح، تأسره الصباحة وتستهويه الملاحة.

من شعر إبراهيم الطباطبائي في جبل عامل:

أين السهول من جبال عامل ... حكت مناط الشهب بالكواهل
أخاشبٍ رواسب شوامخٍ ... بواذخ فوارع مواثل
عادية، بل قبل عاد رسخت ... معاقلاً للفضل والفواضل
يحجب قرن الشمس مشمخرّها ... حتى ترى الهجير كالأصائل
إذا النّسيم استنّ في ربوعها ... صحّ سقيم الروض في الخمائل

وقال يرثي الشاعر السيد حيدر الحلي:

لقد غلب الجرح أن يستطبّ، ... فمن أين أدمل فيك الجراحا؟
أرح فلغيرك هذا الرواح ... برحت ولست أطيق البراحا
أحيدر، زأراً بغيل القريض ... عسى أن تغضّ الكلاب النباحا

وإذا ذكر الشاعر إبراهيم الطباطبائي وآله فلا بدّ من ذكر مأساة غرامية سجّلها التاريخ إلى جانب قصص المجنون وليلى وروميو وجولييت وغيرهم من المحبّين. روى هذه المأساة محمد مهدي البصير ورواها قبله وبعده كثير من الأدباء.

كان الفتى الشاعر الوسيم عبّاس علي النجفي (١٨٢٦ ـ ١٨٦٠) تلميذاً للسيد حسين الطباطبائي (والد إبراهيم) فأحبّ ابنته وقال فيها قصيدته الشهيرة:

عِدِيني وامطلي وعدي، عِدِيني ... وديني بالصبابة فهي ديني

ومُنّي قبل بينك بـالأمـاني فـإنّ منيّتـي في أنْ تبيني

ومنها:

صِلِي دَنِفـاً بحبّك أوقفته نـواكِ على شفـا جـرف المَنـون

أمـا لنـواكُمُ أمـد فيقضى إذا لم تُقْضَ عنـدكُمُ ديـوني؟

وكنت أظـن أنّ لكم وفـاءً، لقـد خـابت، لعمـر أبي، ظنـوني

هبـوني أنّ لي ذنبـاً، ومـا لي سـوى كلفي بكم ذنب، هبـوني

ألست بكم أكـابـر كلّ هـولٍ وأحمل في هـواكم كـلّ هُـونِ؟

أصـون هـواكم، والـدمع يهمي دمـاً، فيبـوح بـالسرّ المصـون

يمينـاً لا سلـوتُهُم يمينـاً وشلّـت إن سلـوتُهمُ يميني،

إذا مـا الليل جـنّ بكيتُ شجـواً وطـارحت الحمائم في الغصـون

ولـو أبقت لي الـزفـرات صـوتـاً لأسكتُّ السّـواجع بـالحنين...

وقيل إن الأستاذ ارتضى بعبّاس صهراً، لكن أبناءه الأربعة ـ ومنهم إبـراهيم ـ أنفوا من هذه المصاهرة فأهانوا الشاعر العاشق وضربوه ضرباً مبرّحاً.

وتوفّي عباس شاباً في الرابعة والثلاثين من عمره.

شهاب الدين المليسي

الشاعـر شهاب الـدين العلـوي المليسي المعروف بـالسيد شهـاب الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٨١٥. وسافر في شبابه إلى بغداد والبصرة، وقضى فيهما نحواً من أربعين سنة ثم عاد إلى مسقط رأسه.

نظم الشعر المهلهـل في الأغراض القديمـة كالمديح والـرثاء ومـا ماثلهما. وقـد ذكره عبـاس العزاوي في الجزء الثـاني من «تاريـخ الأدب العربي في العـراق»، فقال: إن لـه قصائد كثيرة هي شعـر مناسبات، منهـا في الأستاذين أحمد شاكـر الألوسي ونعمان خير الدين الألوسي، وله أبيات في تقريظ جـريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق. وكـانت بينه وبين نـاصيف اليازجي مـراسـلات، وله قصـائد في رثاء الشيخ أحمد نـور الأنصـاري قاضي البصرة والسيـد سلمان النقيب وغيرهما. وقد مـدح والي بغداد محمـد نامق باشا الكبير.

وتوفي بالموصل سنة ١٩٠٧ (وقيل ١٩٠٤).

من شعره: قال يؤرخ تعيين عبد الباقي الألوسي قاضياً لكركوك (١٨٧٧):

هـو عبـد البـاقي الـذي ببقـاه ... قـد رمى بـالفنـاء أهل النفـاق
قـد أتى مسعـداً وجـاء معيـداً ... أملي لـلإثمار والإيـراق
كلّ وقت إليـه شـوقي جـديـد ... والليـالي قـد أخلفت إطـلاقي
علقت نفسـه بكسب المعـالي ... والمعـالي من أنفس الأعـلاق
وارث عـن أبي الثنـاء أبيـه ... في المبـاني روح المعـاني الـدقـاق
قـد تحلّت بـه الشريعـة جيـداً ... وتحلّى الأعنـاق بـالأطـواق
لقيت شهـر زور للـزور منـه ... مـاحياً مـاحقاً شـديـد المحـاق . . .

إلخ . . .

وقال السيـد شهاب الـدين من قصيدة لـه في تقريظ كتاب مجمع البحـرين للشيخ ناصيف اليازجي :

حـديقـة أثمـرت أوراقهـا حكماً ... لنـا شماريخهـا امتـدّت وقـد يَنَعَتْ
فمـن يشأ يتفكّـهْ في منـاقبهـا ... ومن يشـأ يتفقّـه بـالّـذي شَرَعَتْ
طـالعْ تقـابِلْكَ مـرآة الـزمـان بها ... وانظـر إلى صـورة الـدنيـا وقـد نصعت
كم أودعـت نبـذاً للسّمع قـد عَـذُبَتْ ... ورْداً ومن قلـب ذاك الصـدر قـد نبعت
محاضرات بها الحضّـار راغبـة ... غـابت عن الـراغب المفضـال وامتنعت

إلخ . . .

الشيخ حمّادي آل نوح

الشاعر محمد بن سلمان بن نوح الغريبي الكعبي المعروف باسم الشيخ حمّادي نوح ، ولد في الحلـة في سنة ١٨٢٥ وتأدب فيهـا وقرض الشعر. كـان وثيق الصلة بـآل قزوين كبير العـلاقة بـالإمام السيـد حسن الشيرازي الذي تـرك النجف في نحو سنـة ١٨٣٥ ليقيم في سامرّاء .

اشتهـر بمدائحـه وتهانئه ومـراثيه ، فكـان يقصد المحمّـرة ليمدح شيـوخها ويفـوز بعطايـاهم ، كما كان يمدح آل القـزويني الذين يكرمونـه ويصلونه وسـواهم من رجال عصره .

لكنه عرف بنسكـه وتقاه وشعره الصوفي الذي يسبّح الذات الإلهيـة ويمجّدها حتى دعاه الدكتور محمد مهـدي البصير «خليفة ابن الفارض» . وقال إن الشيخ حمادي كان جليل القدر، رفيع المنزلة ، محترماً عند أدباء عصره ، ولم يكن يحفل بشعر أحد عدا السيد

حيدر الحلي . وكان متمكناً من اللغة ، سئل عن القاموس فأشار إلى صدره وقال : هذا هو القاموس . وتوفي في الحلة في آذار ١٩٠٧ .

قال البصير إن شعره يكثر فيه الغريب ويغلب عليه الغموض . ومن شعره في تقديس الله :

شمّر الوهم أن ينال ثناكا ... فخبا دون شارقات علاكا

خرق الغيب فالتوى الوهم صالٍ ... قبس النور من سناء بهاكا . . .

بك ، يا حيرة البصائر ، ضلّت ... فِكَرٌ منك حاولت إدراكا

حاولت كنه ذي الجلال ، ولكن ... عبرت في دجى الضلال عداكا

إلخ . . .

محمد سعيد الإسكافي

الشاعر محمد سعيد الإسكافي النجفي المعروف بالإسكافي وهو الشيخ محمد سعيد ابن محمود سعيد نائب كليدار الروضة الحيدرية ، ولد في النجف في ١٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ . ودرس العلوم الدينية والعربية ، وأخذ الأدب عن خاله الشاعر الشهير عبّاس الملاّ علي المتوفى سنة ١٨٦٠ صاحب القصيدة المشهورة :

عديني وامطلي وعدي ، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

نشأ شاعراً فكانت له مساجلات أدبية مع أدباء عصره ، ومدح آل بحر العلوم وآل كاشف الغطاء وغيرهم كما مدح والي بغداد سرّي باشا (١٨٩٠ ـ ٩١) . وقد ترجم لهذا الشاعر ونشر نماذج من شعره محمد علي اليعقوبي وعلي الخاقاني وسلمان هادي الطعمة ، وذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق .

هاجر إلى كربلاء في عقد الثمانين من القرن التاسع عشر وأدركه الحمام فيها في ١٤ آب ١٩٠١ .

نظم الشيخ محمد سعيد الشعر بالعربية والفارسية . ومن شعره في الغزل :

فؤادي لوصل الغانيات مشوق ... فللشوق عندي زفرة وشهيق

بنفسي من البيض الحسان خريدة ... فؤادي بها دون الحسان علوق

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما انثنت كالغصن وهو رشيق

وقال :

تذكرت عهداً بالحمى راق لي دهراً ... فهاجت تباريح الغرام لي الذكرى

وأومض من وادي الغضـا لمع بـارق فأذكى لنيران الغضـا في الحشـا جمرا
فيـا حبـذا تلك المغـاني، وإن نأت، ويـا مـا أحيلى العيش فيهـا وإن مـرّا
فيـا طـالما بـالأنس كـانت أواهـلاً وإن هي أمست بعـد مـوحشـة قفـرا

الشيخ محمد حسن كبّة

التـاجر الـوجيه والشـاعـر الفقيه الشيخ محمـد حسن من آل كبّـة من بيوت بغـداد القديمة التي تنتسب إلى ربيعة، وهو بيت تجارة وأدب ورعاية للشعر والإحسان. ومحمد حسن ابن محمد صالح بن مصطفى بن درويش علي بن جعفر بن علي بن معروف، ولد في الكـاظميـة في حـزيـران ١٨٥٣، ونشأ في بغـداد نشـأة أبنـاء الأشراف. وعمل في التجارة، فلما بلغ التاسعـة والعشرين من عمره، انقطع إلى العلم والأدب. وتتلمذ على علماء النجف والكـاظمية، ثم رحل إلى سـامـراء سنة ١٨٨٩، ودرس على فقيـه عصره محمد حسن الشيرازي الحسني (المتوفّى سنة ١٨٩٤). ولازم بعد ذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، ونال الإجازة في علوم الدين. ووضع مصنفات كثيرة، طبع منها بعد وفاته: الأحكام الشرعية في المواريث الجعفرية (١٩٣١) إلخ.

وتوفي في سامراء في ٢١ حزيران ١٩١٨.

نظم محمد حسن كبّة الشعر، وكانت لـه مطارحات أدبية مع رجال عصره، ولا سيّما محمد سعيد الحبوبي، نشر معظمها في «العقد المفصّل» الذي ألفه السيد حيدر الحسيني الحلي المتوفى سنة ١٨٨٧ في مناقب آل كبّة وطبع ببغـداد سنة ١٩١٣ ـ ١٤. وقد وصفه الدكتور محمد مهدي البصير فقـال إنه كان كريم الطبع، سمح الكفّ، أريحي الروح، حاضر البـديهة، رقيق الخيال، مشبوب الحسّ، محبـاً للأدب وأهله حبـاً جمّاً. وقال إن شعره في جملته يجمع بين الرقة والمتانة ونقاء الديباجة والجزالة.

وهو والد الشيخ محمد مهدي كبّة رئيس حزب الاستقلال.

من شعره في الغزل:

نحن قـوم إذا نظـرنـا صبـونـا وإذا مـا سـلا الـورى مـا سلـونـا
فتنتنـا بحسنهـا وجنـات ككـؤوس الطّلى صفـاءً ولـونـا
وجفـون رشقننـا بنبـال نحن منهـا، لـولا الهوى، مـا دنـونـا

وقال أيضاً:

عليك سـلام الله مـا ذرّ شـارق ومـا أنّ مشتـاق ومـا حـنّ وامق
ومـا تيّمتني في هـواك صبـابـة ومـا علقت بـالقلب منك عـلائق
ومـا سجعت في أثل سَلْع حمامـة كأني وإيـاهـا مشـوق وشـائق

وقال :

ضـــاع قلـب المولّـــــه المفتـــــون ... بـــــربى الكـــــرخ لا ربى جيرون

فـــــانشــــداه بين الظعـــــون فـإني ... خلتــــه ســـــار بين تلك الظعــــون

يـا غـزالاً تـاقت لـــه النفس شـوقـاً ... لا لغيـــــدٍ من الظبـــــاء العِينِ

أنت ليـــلاي والـــرصـــافـة نجـدي ... وأنـــا في هـــواك كــــالمجنـــون

وقال أيضاً :

الصبر غــــار وأنجـــد الـــدمعُ ... من نـــاظـــري فـاعشـــوشب الـــربع

والقلـب حيـث نـأى الخليـط نـأى ... رفقـــــاً بـــــه، فلـــه الهوى طبع

-تّـام تـرشـق بـــاللحـــاظ حَشـــاً ... مـــا مسّهـــا لـــولا النّـــوى صـــدع

وقال من قصيدة في رثاء والده :

أأُبَيَّ، كيـف تـــذوق عينـي لحظـــــة ... نـــومـــاً وكيـف من المدامـع تجمـــد

أم كيـف قلبـي لا يـــــذوب ومهجتـي ... كمـــداً بنـــار الحزن لا تتـــوقّـــد

وظعنـت عـن غـضّ النسيـم إلى البلى، ... يــــا ليت لـــو أنّي مكـــانك أُلْحَدُ!

وتـــركـت مَن تحنـــو عليـــه رقّـــة ... أسفـــــاً يحنّ إلى لقـــاك وينشـــد

ومن شعره الغزليّ :

كم ليلـــةٍ من ليـــالي الشـــوق مقمـــرة ... هبّـت بها نسمات الشّـــــوق والشغـف

سهـــرتها محصيـــاً منهـــا كـــواكبهـــا ... مـــراعيـاً بـدرهـــا مـن شـدّة الـدنف

فمــــذ أبت مقلتي إلاّ انسكـــاب دمٍ ... وأشرفـت كبـــدي الحرّى على التلـف،

قـال النـديم: على مَ الـوجـد؟ قلت لـه: ... نعم، تـــذكّـــرت مَن قـد حلّ بـــالنجف

فقطّعت قلبـي الـــذكـــرى وبـــرّح بي ... شـــوق ملحّ وتـــوق أوهنـــا كتفي

محمد سعيد الحبّوبي

محمـد سعيد الحبـوبي من كبـار شعـراء العصر الأخير ولد في النجف في ١٩ نيسـان ١٨٥٠ وتوفي بمدينة النـاصرية وهو على رأس متطوعة العشائر لصـدّ الزحف البريطاني في ١٥ حزيـران ١٩١٥ . وقد أوردت ترجمته في كتـابي «أعلام اليقظة الفكريـة في العراق الحديث» المطبوع في بغداد سنة ١٩٧١ .

طبع ديوانـه الكامل بعناية وزارة الثقـافة والإعلام في بغـداد سنة ١٩٨٠ وتحقيق ابن أخيه عبد الغفار الحبوبي. وهو محمد سعيد بن محمود بن قاسم بن كاظم بن حسين بن

حمزة بن مصطفى الـذي ينتهي نسبـه إلى الحسن السبط بن الإمـام علي بن أبي طـالب . ومصطفى أول مَن تلقب «حبّوبي» . وأصل الأسرة من الحجاز نزح جدها حميضة بن أبي نمي الأول إلى العراق سنة ١٣١٨م ، ثم استوطنت النجف منذ عهد بعيد .

كان محمود أبو الشاعر مزارعاً يمتلك أراضي بالقرب من الكوفة والمسيّب ، ثم ذهب إلى حائل يمارس التجـارة مع بعض أقاربه . وقـد التحق محمد سعيد بأبيـه في حائل من أعمال نجد ، وكـانت تـابعة لحكم أمـراء آل رشيد ، وظل فيهـا ثلاث سنـوات وعاد إلى النجف سنة ١٨٦٧ . وانصرف إلى الشعـر ، حضر المجالس الأدبية فجال فيهـا وصال . وكان يزور بغداد فيتصل بصديقه محمد حسن كبّة ويحضر ندوات الأدب . ثم انقطع إلى الفقـه وعلوم الـدين ، فدرس على علماء كثيرين منهم الشيـوخ محمد حسين الكـاظمي ومحمد الشربياني ورضا الهمداني ومـوسى شرارة ومهدي الحكيم ومحمد طه نجف . وقال جامع ديوانه عبد الغفار الحبوبي إنه زامل أيام الدراسة السيد جمال الدين الأفغاني الذي مكث في النجف أربع سنوات يدرس الفلسفة والتصوّف .

ثم ترك نظم الشعـر وانصرف عنه انصرافاً كلياً إثـر حادثة حدثت لـه مع الملاّ كاظم الخراساني (الآخوند) . قال جعفر الخليلي إنه ناقش الملا في مسألة تتعلق بعلم الأصول ، وألح في المناقشة حتى قال له الخراساني : إنك رجل شاعر ، فما أنت والمسائل الأصولية؟ ومنذ ذلك اليوم قرّر الحبوبي تطليق الشعر لينصرف إلى الفقه .

وقد قال الدكتور إبراهيم علي أبـو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر» وهو يتحدّث عن مصطفى لطفي المنفلـوطي الذي درس في ا لأزهر ثم انقطع إلى الأدب ، إن علماء الأزهر كـان فيهم مَن يعتقد أن الأديب لا يكون عالماً ، وربما كـانوا يرمون الشيخ محمد عبده بذلك أيضاً لغلبة البيان على منطقه وجريان الأدب في دمه .

ولما دخلت تـركيـة الحرب واحتلّ الإنكليـز البصرة في تشرين الثـاني ١٩١٤ ، دعـا الحبوبي إلى الجهـاد في صفوف الترك . وخـرج من النجف يتبعـه المجاهدون فـذهب إلى سـاحـة الحرب في الشعيبـة . لكن القـائد سليمان عسكري بـك اندحـر أمـام القـوات البريطانية وانتحر ، فقصد الحبوبي الناصرية واشتدّ عليه المرض فتوفي بها .

رثاه الشيخ جواد الشبيبي فقال :

فقيـــــد المسلمين غـــــداة أودى حسبـت الـــــديـن بينهـم فقيـــــدا

وقال علي الشرقي :

حماة الحمى قـــد شيّعــوك إلى الثغــر فبـــالـــرغـم أن يستقبلـــوك إلى القبر
وشـــاؤوك لـــلأوطـــان ظهـــراً ممنعـــاً ومـــا شعـــروا إلاّ بقـاصمـــة الظهـــر

وممن رثـاه أيضـاً من الشعـراء جـواد البلاغـي وعبد الحسين الحويـزي ومحمـد رضـا الشبيبي ومحمد مهدي البصير.

شعر الحبوبي :

من رقيق شعره :

مـــــا لقلبي تهزّه الأشـــــواق؟ خبّرينــــا : أهكـــذا العشّـــاق؟
كلّ يـــوم لنـــا فـــؤاد مـــذاب ودمـــــوع على الطلـــول تُـــراق
عجبـاً كيف تـدّعي الـورق وجـدي ولـــدمعي بجيـــدهـــا أطـــواق؟
كم لنـــا بـــالحمى معـــاهـــد أنس والصّبـــا يـــانع الجنى رقـــراق . . .
فـــارحمي ، يـــا أُمَيْمُ ، لـــوعـــة صبّ شفّــه الـــوجـــد بعـــدكم والفـــراق
كـــاد يقضي من الصبــابـــة لـــولا أن تحامــــاه في الـــوداع العنـــاق

وصف شاعرنا الخمرة وقال فيها القصائد والموشحات ولم يخرج في خمرياته عن معاني الأولين . فالخمرة لديـه بيضاء كالشمس أو حمراء كالياقوت ، شـذا أنفاسها يعطر الجوّ، عتقها القسّ في ديره سنين طوالاً فأدركت عهد الملوك الغابرين وشهدت دولهم دولة بعد دولـة . والخمرة تلطف الطبـاع وتبهج وتخدر الأحـاسيس ، وهي علاج للنفس الحزينـة وتردّ الروح إلى الجسـوم الراقدة في القبور. وقد قـال عبد الغفار الحبوبي أن عمّـه لم يعاقر الخمرة ولم تسلب لبّـه ، وقد وصفها عن مخيّلة خـلاقة وحسّ فني فجاءت كأنها منتـزعة من الواقع . وقد قال الحبوبي نفسه :

لا تخل ، ويـــكَ ، ومـــن يسمـــع يَخَلْ أنني بـــالـــراح مشغـــوف الفـــؤاد
أو بمهضـــوم الحشـــا ســـاهـي المقل أخجلت قـــامتـــه السّمـــر الصّعـــاد
أو بـــــربـــــات خـــدور وكلـل يتفنَّـن بقـــــــرب وبعـــــــاد
إنّ لي مـن شرفي بُـــــــرْداً ضفـى هـــــــو من دون الهوى مـــــرتهني
غير أني رمـت نهج الظُّـــــرَفـــــا : عفـــــــــة النفـس وفسـق الألسن

والحقيقة أن الحبوبي قرأ شعر أبي نواس وصحبـه فتمثّله وقلد معانيه أحسن تقليد ولم يخرج في خمريـاته على جمالها الفني وتـركيبها المتين بـرأي جديـد أو فكرة طـريفة . وهـو يذهب أحياناً مذهب الصوفية وينهج سبيل ابن الفارض فيقول :

وقـــد شفّـت فما ظهـــرت لـــراءٍ فكـــان خفـــاؤهـــا فـــرط الظهـــور

ويقول :

وانْعَتَنْهـــــا ويكَ في ألقـــــابها فهـــي رَوْح وهـــي رُوح وهـــي راح

وذكر ناشر الديوان أن عمه قلما تطرق إلى الشعر الديني أو القومي ، فخلا شعره من المدائح النبوية والمراثي الحسينية خلافاً لرجال عصره ومصره .

جواد الشبيبي

شاعر يعدّ في الطبقة الأولى من شعراء المدرسة القديمة في العراق، وهو والد الشعراء محمد رضا ومحمد باقر ومحمد حسين ورئيس غرفة تجارة بغداد محمد جعفر الشبيبي.

وهو محمد جواد بن محمد بن شبيب بن راضي بن إبراهيم بن صقر، ولد في بغداد في ٧ كانون الثاني ١٨٦٥، وكان أبوه الشيخ محمد مقيماً بها فراراً من سطوة بعض شيوخ المنتفق. ولم تمض على ولادته أيام قليلة حتى توفي والده، فأخذته أمّه إلى أبيها الشيخ صادق أطيمش في الشطرة، ونشأ الطفل اليتيم في رعايته.

ولما شبّ عن الطوق قصد النجف سنة ١٨٨٠ فدرس على علمائها اللغة والأدب وعلوم الدين. وكان من أساتذته السيد عبد الكريم الأعرجي والشيخ أحمد المشهدي والسيد مهدي الحكيم ومحمد الطباطبائي، وتخرّج في الشعر على الشيخ محسن الخضري، والسيد محمد سعيد الحبّوبي.

وانصرف جواد الشبيبي إلى الشعر والأدب فبرز في النظم والترسّل. وكانت له مساجلات مع أبناء جيله كالسيد جعفر كمال الدين الحلي (١٨٦١ ـ ١٨٩٨) وعبد الحسين الجواهري وهادي كاشف الغطاء وعبد الكريم الجزائري. واستعان به المشير أحمد فيضي باشا وكيل والي بغداد (١٩٠٢ ـ ٠٤)، عند مروره بالنجف على رأس حملة عسكرية، في تحرير رسائل إلى شيوخ القبائل تحذيراً لهم من التمرّد والعصيان وترغيباً في الطاعة والإخلاد إلى السكينة.

وكان على وقاره حاضر البديهة، حلو الفكاهة، لطيف الدعابة. قال جعفر الخليلي: «وكان الشيخ جواد الشبيبي هو المجلّي في الغالب بشعره ونثره ونوادره وسرعة خاطره. وقد قيل أن نوادره الأدبية وتحفه الفنية من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة لو تصدّى أحد لجمعها». ثم قال: «. . . كان العلماء كثيراً ما يتخذون من قلمه ترجماناً للاعراب عن رغباتهم ومقترحاتهم، فيبعثون بها للباب العالي باسطنبول، أو يخاطبون بها الولاة ببغداد. وكثيراً ما يقصده أرباب الحاجة ممّن يريدون أن يسجلوا وصيّتهم بعد مماتهم، أو يريدون وقف أملاكهم أو تأسيس شركة لهم أو إجراء بيع أو شراء على الوجه الشرعيّ فيما بينهم، فيدبّج لهم بإنشائه وخطه وثيقة حسبها من القيمة الشرعية والعرفية أن يقال إنها من وضع الشيخ جواد الشبيبي. فقد عرف ببراعة إنشائه كما عرف بحسن خطه، ليس في النجف فحسب وإنما في جميع الأوساط الأدبية في العراق. وكثيراً ما كان ينظم الشعر الجيّد ويعطيه لمن ينتحله لنفسه لغرض من الأغراض».

وقد أقام جواد الشبيبي متنقلاً بين النجف وبغداد. وامتدّ به العمر، وسما أنجاله في عالم الشعر والأدب وتقلدوا المراكز الرفيعة في السياسة والتجارة والمال. وتوفي ببغداد في أوّل آذار ١٩٤٤.

مؤلفاته وشعره:

ترك تآليف خطية لم يهيّأ لها الطبع، منها ديوان شعره الذي جمعه محمود الحبّوبي، ومجموعة مراسلاته وقد سماها «الروض الممطور بالدرّ المنثور». وله كتاب في تراجم أدباء العصر، وآخر في حياة الشيخ خزعل آل الشيخ جابر أمير المحمّرة، ونبذة في الأصول إلخ.

وشعره رصين الديباجة، واضح الأسلوب يشتمل على المعاني القديمة والأغراض الاجتماعية والإخوانية والوطنية. فمن مدحه للسيد حسين القزويني:

أمنيع أركان الفتوّه ... وربيع روّاد المروّه

وابن الزعامة والكرامة ... والإمامة والنبوّه

ومن الإله بجدّه ... وأبيه في القرآن نَوَّهْ

قد، والنبيّ محمّد، ... أصبحت للإسلام قدوه

ومن رثائه للسيد المومأ إليه أيضاً:

أصغت لرعدٍ أوقر السّمع هائله ... فقلت: نعيّ في السماء زلازله

سما صوته حتى إذا استوعب السّما ... تحدّر في الأرض العريضة وابله

ومن شعره يخاطب السيدة أم كلثوم:

قمريَّة الدّوح يا ذات الترانيم ... مع النسور على ورد الردى حومي

سيري مع الجحفل الجرار خافقة ... وسابقي فوقه سرب القشاعيم

وناوحي الأمة الثكلى فقد رزئت ... بلادها بالمطاعين المطاعيم

ما في العراق اذا استقريتِ بقعته، ... أذن تصيخ لأفكار الأناغيم

وقال شاكياً متألماً لحال أبناء الشعب:

يا ماطل الوعد، ما هٰذي الأساطير؟ ... زادت على السّمع هاتيك المعاذير

العدل منك سمعناه ولم نره ... والجور منك أمام العين منظور

إن قلتَ: عصري عصر النور مفتخراً ... فظلمة الظلم ما في فجرها نور

وهل يفيد جمال الوجه ناظره، ... والبرقع الدكن فيه الحسن مستور؟

حتى يقول:

يا حارث الأرض والسّاقي وباذرها، ... قتّر إذا نفع المحروم تقتير

إذا أتاك رجال الخرص فَالْقَهُمُ ... بطلعة برقت منها الأسارير

إن باغتوك بنار شبّها غضب ... وسعّرتها من العسف الأعاصير،

فاحفظ بقايا حبوب منهُمُ سقطت، فللبقايا ببغدادٍ مناقير
طارت من الغرب، والأطماع أجنحة، والغاية الشرق، واللّفظ الدّنانير

وقال في نهضة العرب:

يا عربُ، أين جيادكم، وهي التي لم يثنها في الروع جذب عنان
الناشرات من السبيب مراوحاً يخفقن فوق مناكب الفرسان
سل عن جوانبها: إلى كم غرّبت ما بين ذي قار إلى حلوان؟

أما نثره فناصع الديباجة، واضح البيان، قديم الأسلوب، كثيراً ما يزينه بالسجع. وقد نقل له عبد المحسن شلاش نصّ رسالة حررها باسم المشير أحمد فيضي باشا، قال منها:

«ليعلم مَن وعت أذنه من قبائل جزيرة العرب وعموم أهل القرى والطّنب، أن مرهب الدول، خلف السلاطين الأول، ناشر العدل في الأرض، معدن البسط والقبض، صان الله تعالى ببركة وجوده بيضة الإسلام من الصدع، وجعلكم كسائر رعاياه ملقين له بالطاعة والسّمع. أمرنا بالصفح عن الماضي، وسرنا نحوكم لننشىء الإصلاح بينكم والتراضي، ونخمد نيران الفتن، وننهج بكم أوضح سنن، فوطأنا، ولله الحمد، أرضاً ما لسوى المسلمين بها وطأة قدم، ولا لغير الموحّدين يخفق في بقاعها علم. ورأينا أن نقرع أبواب مسامعكم بخطاب الإرشاد، ونجمع شملكم، أيها المسلمون، على الصفاء والاتحاد. ما جئناكم إلا لنختبر صفاتكم ونحقن دماءكم ونحكم بالقرآن الشريف والسنّة النبويّة ونؤلف بين قلوبكم، ومن العدل التأليف بين الرعيّة.

دعوا الشحناء والبغضاء واجتنبوا المغازي وسفك الدماء، فأنتم ملّة واحدة، والمسلمون أخوة سواء. وادخلوا حقيقة في مجاز الإيفاء لتغمركم الحاقة في الرّضى من بعد تلك الواقعة. ولا تصيروا أغماد سيوفكم هواديكم فتضعفون، وفوق الضعف تشمتون أعاديكم الكافرين...».

من شعر الشيخ جواد الشبيبي:

قال يتألم من داء الشيخوخة:

طبيبي، ما عرفت عياء دائي وأنت معالج الداء العياء
وبي ألم يؤرّقني، فتعى يميني فيه عن جذب الرداء
وحمّى خالطت عرقاً بجسمي فباتا مزمعين على اصطلائي
وكنت خلقت من ماء وطينٍ فها أنا صرت من نار وماء
مللت العائدين وقد أمالوا إليّ رقاب إخوان الصفاء

وقـــالـــوا: إنّ صحّتـــه تـــرقّت،
وقـالـوا: قـد شفيت، فقلت: كفّـوا
أرى شبحـــــاً يسير أمـــام عيني
وآخـــر عـن مظـــالمه تنحّى

فقلتُ: أرى انحطـاطي بـارتقـائي
فمـن عللي تعـــاليـل الشفــــاء
لغـــايتـــه فـأحسبـــه ورائي
وأكـــره في مغـــادرة الشقـــاء...

وقال الشيخ جواد:

ألا قتل الإنسـان، مـاذا يـريـده
أبى أن يسـاوي نـوعـه في شـؤونـه،
وعـالج، لا عن حكمـة، ضعف نفسـه.

وقـد جـاز حـدّ المسرفين، أمـا يكفي؟
فجـــار على صنـف ورقّ على صنـف
متى عـولج الضعـف المبرّح بـالضعف؟

وقال:

عمّ الســؤال، فـلات حينَ ســؤال
انظـــر بتـاريخ الـــزمـــان الحالي
تجدِ الظـــروف هي الظـــروف، وإنّما
يتخـالـف الإنسـان في أخـــلاقـــه
والملح والعـــذب الفـــرات كـــلاهما
والـــدّوح نبـت والثمار منـــاسـب
والأرض تلك الأرض مـــا إن بـــدّلت
واحسرتـــا خلت البـــلاد، فهـل بها
تـــركـــوه مغـــزى يستهـــان، وإنهم،
لا يفلتـــون بـــــراءةً من شعبهـم،
جهل النّصيـح عليَّ أثقل مـــوضعـــاً
رمق السّراب فجـــرّدت أثـــوابـــه
واستعمـــر الجوّ البعيـــد خيـــالـــه
حـــرث الجبـال، وتلـك ضيعـة أشعب
عقـــد المنى سرجـــاً على متـــوهّم
وكـأنّـــه شحـــذ الهلال مهنّـــداً

أو مـــا كفتك قـــرائن الأحـــوال؟
نظـــرات عينك في الـــزمـــان الخالي
تتفـــاوت النظـــرات بـــالأجيـــال
إمّـــا اغتـــدى متـــوافق الأشكـــال
مـــاء ولا كـــالبـــارد السّلســـال
والكـــرم أكـــرم مـن عـــروق الضّـــال
بقـــوارع الأرجـــاف والـــزّلـــزال...
من شـــاغـل هـــذا الفـــراغ الخالي؟
لـــو يشعـــرون، ربـــائق الأنفـــال
والمري مـن دمـــه دم القِيفَـــال[1]
مـن غلظـــة اللـــوّام والعـــذّال
عنـــه ليسبح في عبـــاب الآل
فبنـى على الأوهـــام والآمـــال
يستصعـــد التيّـــار مـن أوشـــال
فجـــرى ولكن في مجال خيـــال
أو جـــاء معتقـــلاً مـــذنّب «هـــالي»

ثم قال:

---

(١) القيفال عرق في الذراع يفصد.

قـــالـــوا: أتتك من المشيب غـــلائل ... جـــــدد تطـــرّز في نهى وجـــــلال
فتَعَـــرَّ عن بُـــرْد الشبـــاب، فإنــــه ... صـــدىء المفـــاضـــة، أقتم السّربـــال
حتّى إذا مــــلأ القميـص معـــاطفي، ... أبصرت منـــــه طـــــرائق الإذلال
فطفقت أهتـف، والمســـامع لا تعـي: ... مَـن لي بـــــردّ بـــــرودِيَ الأسمال؟
بـــرد الشبـــاب، لأنـت نشـــرتي التي ... فيهـــا فللت مضـــارب الأهـــوال
لـــو في متـــون العيس همّي لانثنت ... ملســـاً رمين الأرض بـــالأثقـــال
ولـــو أنها بـــالطّـود عـــاديَّ الـــذرى ... لا نهار عـن دعص النّقـــا المنهـــال

وقال يتشوّق إلى أصحاب له في النجف:

أروح على جمر الغـــــرام كما أغـــــدو ... فــلا الـدمع يطفيـه ولا يسكـن الـوقـد
وحيّرني النّـائي، ومـــوطنـــه ا لحَشَـــا، ... فـــلا قـربـــه قـــرب ولا بعـده بعـــد
أحبّـاي بـالـوادي المقـدّس، أخـذكم ... عليَّ طـــريـق الصبر ليس لـــــه ردّ
تـــذكّـــركم قلبي فطـــار شراره ... كأنّ حصـــاة القلـب يقـــرعهـــا زنـــد
وطلّق عيني غمضهـــا، فهي بعـــدكم ... تعـــدّ الليـــالي والشهـــور وتعتـــدّ
تحبّب لي نجـــداً عـــروبـــة أصلكم ... وأين مـن المغمــوس في دجلـــةٍ نجـــد؟
تنسّمتُ فيهـــا نسمـــة مـن ريـــاضكم ... يعطّـــرهـــا شيـح الجزيـــرة والـــرنـــد
على ضـــوء هـــاتيك الثنـــايـــا زواهيـــاً ... أطـــالع صحفـــاً من عنـــاوينهـا المجـد
خطـــوط بأقـــلام الـــرمـــاح مشجّـــراً ... بها النّسب الـــوضّـــاح والحسب العـــدّ
يلـــذّ بعيني السَّهــــد في ذكـــريـــاتهم ... كأنّ مـــذاق السَّهـــد في مقلتي شهـــد
ومـن ظلمات اللّيـل بحـــــــر يخيفني ... فـــــــلا الجزر ينجيني ولا يُعْبَر المدّ
أرى ســـاحل الإصبـــاح يَبْيَضُّ رملـــه ... فيضربـــه مـــوج الظـــلام ويســـودّ
بماذا أخـوض البحـر، والبحـــر هـــائج، ... ولا ســـاعـــد يقـوى عليـــه ولا زنـــد
أمـــانيّ نفسي أجهـــدتني تعلّـــلاً، ... وإنَّ التمنّي جهـــد مَـن لا لـــه جهـــد

وقال أيضاً:

يســـائلني عن مـــوطن العـدل جـــائر ... ويعلم أنّ العـــدل مـــوطنـــه اللّحـــد
على يـــده أدلاه بـــالحفـــرة التي ... تبلّج فيهـــا الحقّ وابتسم الـــرشـــد
ويسـألني عـن كنـــــز درّي مخاتـل ... وفي يـــده ممـــا احتفظت بـــه عقـــد
لـــو انبسطت كفّي على قـــدر حقهـــا ... أقمت عليـــه الحدّ لـــو أمكـن الحدّ

وقال جواد الشبيبي من قصيدة له بعنوان «تَنهّدات» :

عبر الــــزمــــان استحلبت عبراتي — وألانـت الأيـــام صـــدر قنـــاتي
أنّى أعـــان على الجهــاد بــواحــد — وخطـــوبها يمـــلأن ستّ جهـــاتي
أنّـى التفتُّ رأيـت خطبــاً هــــائلاً — فكـأنما الأهــــوال في لفتـــاتي
وإذا أردت صراعهــــا في نهضـــة — عــاقتني الأيـــام عـن نهضــاتي
نفسي لماء الـــرافـــدين يسيلهـــا — نفس يصعّـــده جَـــوَى الـــزّفـــرات
يحيــا بـــه خصمي فأشرق بـــالـــرّدى — وأُذاد عنـــه وفيـــه مـــاء حيـــاتي
لا دجلتـي أمّ السّيـــول بـــدجلتـي — كـــلاًّ ولا هـــذا الفـــرات فـــراتي

ثم يقول :

ليَ من جَنَـاي ـــ ومـا اقترفتُ جنـايـة ـ — أشـــواكـــه والقطـف عنـد جنـــاتي
وا ضيعـــة الأكفـــاء بعـــد منـــاصب — حفظت مقــاعـــدهـــا لغير كفـــاة
ولــوا الأمــور، ولـو أطــاعــوا رشـدهم — لسعـــــــــوا وراء الحقّ سعـي ولاة
من كـل كـــاسٍ يستجـــدّ لنفســـه — حلــــلاً ولكن مـن جلــــود عــــراة
النّــــاهبي رمق الضعيـف وقـــوتـــه — والقـــاتلي الأوقـــات بـــالشّهـــوات
قطعـــوا البـــلاد ومنهمُ أوصــــالها — والقطـع يــــؤلم من أكـفّ جفـــاة
سكـروا بخمـر غـرورهم والعـامل (م) — المجهـــود بين الموت والسّكـــرات
غـــزوا المصـــايـف والهوى يقتـــادهم — لمســـارح الفتيـــان والفتيـــات
هم أغنمـــوا مغـــزوّهم وتـــراجعـــوا، — أفهـــذه العُقبـى مـن الغــــزوات؟
مــــال تكفّلت الجبـــاة بعسفهـم — إحضــــاره لخزائن اللّـــــذّات
نهب من الحُجُـــرات صِيحَ بـــه، وفي — عـــزف القيـــان يُـــرَدُّ للحجـــرات
طــارت شعــاعــاً فيـــه أيـدٍ لم تـزل — مخضـــوبـــة بـــالـــراح في الحانـــات . . .

عبد المحسن الكاظمي

الشاعر العربي الذي عرف بالارتجال وطول النفس وجزالة الألفاظ ، ولد في بغداد يوم الأربعاء ٣ كانون الثاني ١٨٦٦ ، وهو عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن بن محمد بن صالح بن علي بن هـادي النخعي . وقـد درس في مسقط رأسـه ومـارس التجـارة والزراعة زمناً، ثم انصرف إلى مطالعة الكتب الأدبية وحفظ الشعر والنظم .

وقدم جمال الـدين الأفغاني منفيّاً من إيران سنـة ١٨٩١ فلازمه الكاظمي وأخـذ عنه

وتشرّب منه مبادىء الإصلاح. ولما خرج الأفغاني من بغداد أصبح الكاظمي موضع ريبة وتعقيب، فلاذ بالوكالة الإيرانية ثم غادر الزوراء خفية إلى البصرة ومنها إلى أبي شهر في الخليج العربي.

وقد عاد إلى بغداد بعد ذلك، ثم رحل من العراق سنة ١٨٩٧ فقصد إيران والهند، وألقى عصا الترحال في القاهرة (١٨٩٩). ونال الحظوة لدى الشيخ محمد عبده، واتصل بالمحافل الأدبية والقومية فكان موضع التجلّة والاحترام.

وقيل إن محمود سامي البارودي الذي عرف الكاظمي وقرّبه إليه بعد عودته من منفاه في جزيرة سيلان، قسّم شعراء عصره إلى طبقات فاستثنى الكاظمي واكتفى بالقول إنه «أمّة في الشعر وحده».

لكنه ضاق بمعيشته ولم يصب منها الكفاف. وقد قال وليّ الدين يكن في «تجاريبه»:

«علم من أعلام العراق، هو أبو القصائد المحبّرة والقوافي المحكمة، نزيل بمصر، مقيم في دار حزنه يعالج أيامه ويعاني شدائدها. وليس بمصر مَن يقول له: أين أصبحت، أيّها الأديب العظيم؟».

وتوفي في القاهرة في أول أيار ١٩٣٥.

طبع الجزء الأول من ديوانه في دمشق (١٩٣٩) والثاني في القاهرة (١٩٤٨). ونشرت له: معلّقات الكاظمي (١٩٢٤) عراقيّات الكاظمي (١٩٦٠). وله كتب نثرية منها: البيان الصادق في كشف الحقائق، تنبيه الغافلين.

شعره:

من شعراء الطبقة الأولى، في شعره أنفاس البداوة ومتانة المدرسة القديمة. أما مواضيعه فأغلبها قومي وطني، يدعو فيها العرب إلى اليقظة والنهوض وينعى عليهم الغفلة والجمود.

هامَ الكاظمي بالحرية فقال:

مهما تباعد فهو منك قريب	يوم له بين الضلوع دبيب
فإذا تباعد فالحبيب مبغّض	وإذا تقارب فالعدوّ حبيب
لا فرق بين المشرقين سوى الذي	يصفو به هذا وذاك يشوب
كالشمس ما بين الأنام مشاعة	ولها شروق مرة وغروب

واستنهض همّة قومه فقال:

سيروا بنا عنقاً وشدّا　　　سيروا بنا ممسىً ومغدى
سيروا فرادى او ثنى　　　والجمع للغايات أجدى
لا يقعدنَّ بعزمنا　　　يوم يرينا الهزل جدّا

حتى يقول نادباً حال وطنه :

بالله ، يا وطني ، أجب　　　ما بال قلبك ليس يهدا؟
كلٌّ يبلّ غليله　　　مما رجاه وأنت تصدا
يرضيك تصبح للخراب　　　وكنت للعمران مهدا؟
يا أيها الوطن الذي　　　نادى بنيه واستمدّا
وأسرّ ناراً كلما　　　قيل اخمدي تزداد وقدا
ورمى بكلتي مقلتيه　　　ولم يجد من ذاك بدّا
يدعو كهولهم كما　　　يدعوهم شيباً ومُرْدا
لك من بنيك النّجب　　　كل غضنفر وقّى وفدّى
روّح فؤادك واسترح　　　فبنوك لا يألون جهدا. . .

أحبّ الكاظمي البلاد العربية قاطبة ، وتوزّع قلبه بين موطنه العراق ومسكنه مصر. قال يحنّ إلى مسقط رأسه :

ألا خبر من ثنايا العراق　　　يطلع أو زورة تطرق؟
هل الدار بعدي كعهدي بها　　　يباكرها العارض المغدق
أم البين أسلمها للبلى　　　وعاث بها الذئب والخرنق
رعى الله أهل الحفاظ الألى　　　كما لقي القلب فيهم لَقُوا
أحبّاي ، هل كلف شيّق　　　يناشده الكلف الشّيّق
وإن خفق البدر نحو الحمى　　　نزت كبدي نحوكم تخفق
على حرق أضلعي تلتوي　　　ومن علق أدمعي تدفق

وقال يبارك مصر ويشكرها على رعايتها له :

تعدّت صروف الدهر مصر وأهلها　　　ولا زال في أرجائها البشر يسطع
نعم ، أهل مصرٍ، أنتمُ خير أمة　　　وما الخير إلاّ منكم يتفرّع
لقد شاع عنكم كل فضل وسؤدد　　　وسوف نرى للفخر ما هو أشيع

وتمنّى لو كان العالم بأسره عرباً :

ليت الأنام جميعهم عرب　　　شبّوا وشابوا بعدما اكتهلوا
أوليت كل المالكين لهم　　　عرق بذاك الأصل يتّصل!

وقال يحنّ إلى مسقط رأسه بغداد :

أبغـــداد، لا فـــاتتك مني تحيّـــة ... يفسّر منهـــا مـــا أراد المفسّر
حنينـــاً إلى تلـك البقـــاع، إلى التي ... تطيـب، إلى تلـك التي هـي أطهـــر
حنينـــاً إلى الـزّوْرا، حنينـــاً إلى الصّبـا، ... حنينـــاً إلى العـــود الـــذي هـــو أنضر
حنينـــاً إلى تلك القـــرى وإلى الـــذي ... يعشّي بهاتيـك القـــرى ويبكّـــر
حنينـــــاً إلى أرض حييت بتربها، ... ويـــا ليتنـي في ذلـك الترب أُقْبَرُ
هنـاك شبـابي قـد تقضّى، وهـا هنـا ... مشيبي، وفي الحالين أشكـــو وأشكـــر
لقـــد زعمـــوا أني نسيت، وأنـني ... غـــدوت بهٰذي دون تلك أفكّـــر
وكيف تـــراني نـــاسيـاً ذكـــر مـــوطنٍ ... لـــه مـــورد في كـل سمع ومصـــدر؟
منى النفـس أن يلقى العـــراق وعـــزّه ... مـن الخير مـــا يهوى ومـــا يتخيّر

مات عبد المحسن الكاظمي في مصر، فرثاه معروف الرصافي قائلاً :

أيها النـــادبـــون، غيريَ غُـــرُّوا : ... بـــرح اليـــوم للّبيب الخفـــاءُ
يُكْـــرَمُ الميّـت بـــالثنـــاء، وتحيـــا ... عنـــدكـم في المَهـــانـــة الأحيـــاء
إن جفتنـــا بـــلادنـــا فهي حِبٌّ، ... ومـن الحِبّ يستلـــذّ الجفـــاء
لم نَحُلْ عـن عهـودهـــا مـذ جفتنـــا، ... بل لها الـــودّ عنـــدنـــا والـــوفـــاء
إنّما هـــــــذه المواطـــن أمّ ... مُسْتَحَـقٌّ لها علينـــا الـــــولاء

وقال الزهاوي :

يـــا بلبـل الشعـــراء، مـــالك صـــامتـــاً ... من بعـــد تغـــريـــد بشعـــرك مُشْجِنِ
قـــد سرت قبلي للـــرّدى متعجّـــلاً ... ولعلّنـــي بـــك لاحـــق ولعلّنـــي

وقال إبـراهيم عبد القادر المازني : «وجـاء الكاظمي إلى مصر، وكان الأدب فيهـا قد أخذ يشيح بوجهه عن زيف المقلّدين والعابثين من المتأخرين، وينثني راجعاً إلى الشعر الجيّـد والشعراء المخلصين، فنـزل منـزل الكـرامة بين فحـول ذلك العصر. وزيّنت لـه الإقامة ففعل، وعاش في مصر كريماً أبيـاً لا يمتهن نفسه ولا يهين شعره. ولم يعرف عنه قطّ أنـه مدح أحـداً مبتـدئاً، وإنما كان يشكـر المستحق على الصنيع الحسن. واشتهـر بـالقـدرة على الارتجال مع المحـافظة على طبقـة شعـره. والارتجال عسير، وقـد تسعف القريحة بالبيت، ولكن الكاظمي كان يسحّ بالعشرات ولا يقصر عن المئات. ولا شك أن ضخامة محفوظه من اللغة والشعر، وطول اعتيـاده الإملاء حين ينظم، كانا ممّا أعاناه على الارتجال. ولكن كثرة المحفوظ وحدهـا لا تكفي وعادة الإملاء لا تغني، ولا بدّ من استعداد خاص حتى تسعف القريحة وتؤاتي السليقة . . .

«وقد تغيّرت الدنيا في الشرق بسرعة تغيّراً ترك الكاظمي غريباً فيها. فهو لا يحسن إلا أن يقول الشعر، ولا يستطيع مع هذا أن يتكسّب به، وقد فطره الله على العزوف الشديد والإباء المرّ. فلا قدرة له على التزلّف والمصانعة، ولا قبول منه لحسنة أو صدقة أو معونة في صورة من الصور. . . وكان المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده يرعاه ويتفقده بانتظام، وظلّ مواظباً على ذلك كاتماً له حتى توفي. . . فلما مات الشيخ محمد عبده اضطربت حياة الكاظمي واصطلحت عليه الفاقة والعلة، ولكنه احتملهما وصبر على بلائهما صبر الحرّ الكريم. وبلغ من أمره في ذلك أن كثيرين من ثقاته كانوا يجهلون مكان بيته في العام الأخير من حياته، لفرط تكتمه حقيقة حاله وإخفائها حتى عن أقرب الناس إليه وأصدقهم وداً له».

هذا وقد قال الكاظمي معبّراً عن إبائه وتعففه:

لو على قدر همّتي واعتزامي ... صال نطقي بلغت كلّ مرامي

همّة ترهق النجوم وعزم ... ضارب في الجبال والآكام

وأراني أرى القلوب رواءً ... غير قلب ما بين جنبي ظام

وإبائي يرى من الضيم أن يحمل (م) ... في الدهر منّة للغمام. . .

ليس عيش الفتى زخاريف لبسٍ ... وشراب مصفّق وطعام

إنما العيش أن تكون عظيماً ... عالي الذكر في الأمور العظام

ليت أمي، إذ بشّرت بغلام ... بعد لأيٍ، لا بُشِّرتْ بغلام

ولدتني مجسّماً من إباءٍ ... وجلال ورفعة واحتشام

فترعرعت بين أكرم قوم ... شمخوا عزّة على الأقوام

ولأن أدبرت حظوظي أضحت ... حسناتي تعدّ من آثامي

أيّها المشفقون، إنّ فؤادي ... أقصدته بها تصيب المرامي

فاثأروني بمهجتي أو دعوني، ... أنا عرّضتُ مهجتي للسّقام

حتى يقول:

ألمي إن خلوت من آلامي ... وسقامي متى فقدت سقامي

ما شكت لي الضنى عظامي لكن ... قام يشكو لي الضنى من عظامي

فإذا كانت الحياة كهٰذي ... فعلى هذه الحياة سلامي

تحدث عبد المحسن الكاظمي عن نشأته الأدبية فقال: «أدخلت في أوائل صباي بمكتب فقيهة بالبلدة، ثم خرجت منه إلى معلم فارسي لأدرس اللغة الفارسية، لأن آبائي تجار، وللعراق صلة تجارية بإيران والأفغان والهند، والتخاطب التجاري باللغة

الفـارسيـة في هـذه البـلاد كثير. فمكثت عنـده سـتـة أشهـر أمكنني بعـدهـا أن أقـرأ وأكتب . . . وذهبت إلى معلم عربي، ولكن ما لبثت أن خرجت من عنده. ثم أخذت أنظر في المخطوطات العربية والفارسية . . .

ولما بلغت الثانية عشرة مـن حياتي تطفّلت على موائد العلم بالكـاظمية. وكان أخي محمد حسين مشتهـراً بالأدب، فأخـذت أطلع مثله على كتب الأدب، ولكن الأسـاتذة كـانوا ينهـونني عن ذلك بحجة أن هـذه الكتب تشغل الطـالب عن العلم وتؤخّـره في تحصيله. فلم أستمع إليهم، ووجدت في نفسي شـوقاً إلى الأدب والشعر، وصرت أكبّ على مطالعته في يومي الخميس والجمعة، وأكتـب القصائد القديمة وأحفظها سراً حتى حفظت عشرة آلاف بيت. وحدث أن أخي وزميلاً لـه كانا يوماً يتطـارحان الشعر وأيّهما غلب يكسب الـرهان. وكان الاتفـاق بين الفريقين على أن زمـلاء الرئيسين يتطـارحون الشعـر، فإذا عجز فـريق منهم أنشـد الـرئيس بدلـه. ولما جـاء الدور عليّ بـدأت بهذا البيت:

أنـــا الـــذي نظـــر الأعمى إلى أدبي وأسمعـت كلماتي مَن بـــــه صمـم

واسترسلت في المطـارحـة حتى عجـز الـزملاء والـرئيسـان. ومن ذاك الـوقت كـان المتطارحـون يتنافسون عليّ، وكـانت سنّي وقتئذٍ ستـة عشر عاماً. وقـد نظمت قصيدة غزلية يبلغ عدد أبياتها ٥٥ بيتاً لا أذكر منها الآن غير الشطر الأول، وهو:

أيها الرامي وما أجرى دما . . .

وبعدهـا نظمت عدة قصائد. ولكن أول قصيـدة ظهرت لي كانت رثـاء لأحد علماء العراق. وذلك أنه كان من العادة عندنا، إذا أريد رثاء أحد الموتى، وقف منشد خاص لتلاوة ما نظمـه الشعراء من القصائد. وكلما أتى إلى قصيـدة، قال له الحاضرون: لمن؟ فيقول: لفلان. فيردّون: أنعم وأكرم. أما إذا لم يرد الشاعر ذكر اسمه فإن المنشد يجيب الحاضرين عن سؤالهم بقوله: لبعض المحبّين.

«فلما أتى دور قصيدتي في ذلك اليوم الذي أريد رثـاء العالم فيه، لم ينسبها المنشد إلي لأنّي صغير. وكان هنـاك في هذه الأثنـاء أديب كبير يدعى السيـد إبراهيم الطبـاطبائي فنسب الحاضرون هذه القصيدة إليـه. فحزنت وطربت في آن واحد. حـزنت لأنّ قومي لا يفرّقون بين قائل وقائل، وطربت لاشتباه شعري بشعر أديب كبير. ولكن لم تمض مدّة حتى ظهر اسمي، وانقلبت الآية فصار الناس ينسبون إليّ كلّ ما يستحسنون . . .».

عبـد المحسن الكاظمي:

ارتأى الـدكتـور إبـراهيم السـامـرائي أن الشعـراء الـذين نشأوا في المواطن الشيعيـة كالنجف وكربلاء والكاظمية والحلة قد تأثروا بالشريف الرضيّ نقيب الطالبيين (٩٧٠ ـ

١٠١٥م) ودعبل الخزاعي (٧٦٥ ــ ٨٦٠م) والسيد الحميري (٧٢٣ ــ ٧٨٩م)، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء عبد المحسن الكاظمي وجواد الشبيبي وولداه محمد رضا ومحمد باقر وغيرهم. وقد رأى السامرائي تأثير قدماء شعراء الشيعة ظاهراً في الطريقة التقليدية والروح البدوية ومراثي آل البيت.

والحقيقة أن لشعر الشيعة طابعاً خاصاً يتمثل في المراثي عامة وخصائص الحزن والتفجّع. على أن شعراء العصر الحديث فتحت لهم آفاق جديدة وسّعت شمول معانيهم ومواضيعهم مع احتفاظهم بالأساليب التقليدية القديمة، فقلّ تأثير الشريف الرضيّ وأمثاله من القدماء في شعرهم.

***

عبد المحسن الكاظمي: ممّن أخذ عنهم في النظم في صباه أخوه الأكبر الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى في رشت من أعمال إيران سنة ١٩٣٦، والشيخ جابر الكاظمي المتوفى سنة ١٨٩٩، والسيد إبراهيم الطباطبائي الشاعر الشهير.

الكاظمي وثورة الحجاز سنة ١٩١٦:

نهض الشريف حسين وأعلن ثورته العربية الكبرى على الأتراك خلال الحرب العظمى، فاستبشر بها الوطنيون العرب، ومنهم عبد المحسن الكاظمي الذي حيّا الثورة وقادتها بقصائد عامرة ومدح الملك حسين وأنجاله ورجاله أمثال جعفر العسكري ومولود مخلص وفؤاد الخطيب. قال في الملك حسين:

هذا الحسين وذاك أوّل مَن دعا ... والرأس أولى بالعلا أن ترأسا...
ذو عزمة جعل الإلٰه شباتها ... نقماً تصبّ على الطغاة وأيؤسا

وقال أيضاً:

مليك، وهل للعرب مثل حسينها ... مليك توالى مَنّه وأبٌ برّ؟
أمحيي رجاء العرب من بعد موته، ... أسيفك أمضى أم عزيمتك البكر؟

وكان الكاظمي في شعره من دعاة الحركة الوطنية المصرية ومريدي زعيمها سعد زغلول، مدحه في حياته ورثاه عند وفاته.

ورحب الكاظمي بمبادىء الرئيس وودرو ولسن وعدّها وسيلة لتحرير الشعوب، فقال يخاطبه:

عمــرت مجالسنــا بــذكــرك وانحنى | لــرفيـع قــدرك ســائر المعمــور
وأراك قـــد حمّلت مـن أعبـــائهـــا | مـــا فـــوق طـــاقـــة ألبهـــا وثبير
طهّــرت وجــه الأرض من بغي الــورى، | ولـــربّ مـــاء كـــان غير طهــور. . .

شعر عبد المحسن الكاظمي :

في شعر الكاظمي جزالة وفيه جرس موسيقيّ عذب كأنّـه صدى من ألحان الأجيال الغافية في الصحـراء. ولكنّك تفتقد في ذلك الشعر تلك الطراوة وذلك الـوهج اللذين تلمسهما في شعر المجدّدين من معاصريه كشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي. ولعلَّ الأمـر يرجع إلى تطـويله في قصـائده وتكراره للمعـاني واستعماله لحوشيّ الألفـاظ وضيق آفاقه وثقافته القديمة. فإذا حلّلنا قصيدته :

سيروا بنـــا عنقـــاً وشـــدّا | سيروا بنـــا ممسى ومغـــدى

نجـد أنها في أبيـاتها الستة والتسعين لا تخرج عن حثّ الأمـة على التقـدم والسير إلى الأمام ومجانبة التخلّف وتحفيز الهمم والالتفاف حول الوطن.

تفتّحت شـاعرية الكـاظمي واكتملت في العراق في أواخـر القرن التـاسع عشر قبل رحيله إلى مصر ومعايشتـه للنهضة الأدبية التي حمل لواءهـا البارودي وإسماعيل صبري وخلفاؤهم من بعـدهم، فكان أقرب إلى شعراء عصر الانحطاط المتـأخّر كحيدر الحلّي وإبراهيم الطباطبـائي وجعفر الحلّي ومحمد سعيد الحبّوبي. وقد أفـاد من اتصاله بجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في التطلّع إلى آفاق فكـرية جديدة كالنزوع إلى الحرية والدعـوة إلى النهضة والعلم والعـدالة والاستقلال والـدفاع عن الإسـلام وذكر الشرق، وهو الاصطلاح الذي انتشر في مصر سابقاً لذكر العروبة وانتقل منها إلى العراق.

قال الكاظمي :

مهما تبـــاعـــد فهـــو منك قـــريب | يـــوم لـــــه بين الضلـــوع دبيب
لا فـــرق بين المشرقين ســوى الــذي | يصفـــو بــــه هـــذا وذاك يشـــوب
هيهـــات يصبيني ســوى حـــرّيـــة | يصبـــو الشبـــاب لــذكـرهـــا والشيب
حـــريـــة الأمصـــار أنت حبيبـــة | في حبّهـــا يستعـــذب التعـــذيب
يـــا حبَّـــذا يـــوم الجمال وحبـــذا | يـــوم الـــوصـــال وأجـره المكســوب
يـــوم يعـــود بـــه لنـــا استقـــلالنـــا | ويـــردّ فيـــه حقّنـــا المغصـــوب
حتّـــام نحتمـل المذلّـــة طـــوْعـــاً | ولنـــا بـــآفـــاق البـــلاد وثـــوب؟
لا فـــاتنـــا عـــزّ الحيـــاة ولا عـــدت | شعبـــاً تُـــذِلُّ بها الحيـــاة شعـــوب

وقال :

سيروا إلى الـوطـن الموقّـى | بـالنقـائب والمفـدّى
يـا حبّـذا وطن أعـاد | الفضل في الـدنيـا وأبـدى
يـا حبـذا وطن يغنّـى | بـاسمـه أبـداً وَيُحْدَى
أوطـاننـا أرواحنـا | بل إنها بـالـروح تفـدى
أبـداً نطـالب بـالحقـوق | حقـوقنـا أو نستردّا
أبـداً نجـاهـد دونها | ونكـافح الخصم الألـدّا

وقال:

سيروا نُشِـدْ لـديـارنـا | عـدلاً يهدّ الظلـم هـدّا
مـا كـلّ مَن سـاس الأنـام | قضـى فـريضتهـا وأدّى
شتّـان مـن سـاس الـورى | عـدلاً ومن بهم استبـدّا...
يـا حبّـذا العَلَمُ الـذي | إن تقصر الأعـلام مـدّا...

ومن قصائده الشهيرة «العينيّة» التي تبلغ أبياتها ١١٤ عدّاً. يستهلّها الشاعر بمعنى عزيـز على شعراء الجاهلية، وهـو إدارة الطرف في الأرض البلقع والبكـاء على الطلول، وذكر الأحبّة الذين مضوا، والشوق إلى أيام القصف والهناء، والأسى لساعة الوداع. ثم يذكر سفره بالباخرة تاركاً المطايا في بواديها واقتحامه جيوش الأمواج التي ترتفع إلى عنان السماء، حتى وصـوله إلى مصر، يجاذبه الحنين إلى وطنه في بـلاد الـرافدين والاستبشـار ببلوغه وطنِ الحريـة والنهوض. لكنه يشكو مقامه في دار الغربـة وضياع مثله في خضمّ الحياة الـدفّاقة. ويمضي إلى الإشـادة بمصر وأهلها الذين يصفهم بأنهم خير أمـة يتفرّع منها الخير والفضل والسؤدد. ويدعوهم إلى شحـذ هممهم وشدّ عرى أوطانهم والدفاع عن عزّهـا ومنعتها. ويتلذّذ حينـاً بالفخر بنفسه، وهـو الأريحيّ السّميذع الذي يـزعزع فكره أبطال الوغى، ويقول:

وكيف أخـاف الخطب يسـودّ ليلـه | وأسيـاف عـزمي في دجى الخطب لُمَّعُ
فكـم غمّـة كشّفتهـا وعظيمـة | تسنّمتهـا، والليل أسـود أسفـع

وينتقل من ذلك إلى مهاجمة المنـدّدين بالإسـلام المتحاملين عليه من رجـال الغرب، وفي مقـدمتهم السياسي الأديب الفـرنسيّ جبرائيل هـانوتـو Gabriel Hanotaux الذي تعرّض للدين الإسلامي فردّ عليه محمد عبده وأفحمه.

والحقيقة أن الكاظمي في شعره جسر يصـل عصر الانحطاط بعصر النهضة الجديد ويضفي ثوباً من الديبـاجة القديمة على المعاني التي أخذ يردّدهـا شعراء الأمة المتفتحة على حياة العصر، المتحفّزة إلى الوثوب واليقظة من غفوة الأجيال.

أحمد الفخري

شاعر الموصل وقاضيها السيد أحمد الفخري، وهو ابن محمود بن محمّد أمين بن محمّد بن حامد بن فخر الدين بن يحيى، ينتهي نسبه إلى النقيب السيد فخر الدين الأعرجي الحسيني. ولد في الموصل سنة ١٨٥٨ وتعلّم في كتاتيبها وحفظ القرآن، ثم درس العلوم العربية والدينية على علماء عصره كالملاّ علي الحصيري وعبد الوهاب الجوادي والشيخ محمد النقشبندي. قال الشعر وهو يافع، ثم برع فيه وتفوّق. ووظّف في المحكمة الشرعية كاتباً وأصبح رئيساً لكتّابها ودرّس في المدارس الأهلية والرسمية. وعيّن على أثر احتلال الموصل قاضياً (أول أيار ١٩١٩) ونهض بمنصب القضاء حتى عيّن وزيراً للعدلية في وزارة جعفر العسكري (٢٢ ت٢ ١٩٢٣ ـ ٣ آب ١٩٢٤). وانتخب نائباً عن بلده في المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤) وأعيد بعد تخليه عن الوزارة قاضياً للموصل (٢ أيلول ١٩٢٤) حتى تأليف مجلس الأمة العراقي إذ اختير عضواً في مجلس الأعيان (تموز ١٩٢٥). وأدركته الوفاة في الموصل في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٦.

وقد عني بجمع شعره المتفرّق الأديب الفاضل السيد علي العلوي الذي استطاع أن يدوّن له نحواً من ١١٠ قصائد ومقطوعات في زهاء ٢٤٢٠ بيتاً. وصفه السيد العلويّ فقال: «كان وسيم الطلعة، معتدل القامة، عذب الصوت، كريم الخلق، أنيس المحضر، سريع الخاطر، حاضر البديهة، يرسل النكات من دون تكلف فيطرب لبراعتها الحضور، متواضعاً، محبّاً للغناء، مغرماً بالصوت الجميل».

كانت الموصل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في عزلة وانزواء، فلئن كانت جزءاً من العراق، لقد كانت أقرب إلى حلب منها إلى بغداد. وكانت الرحلة إلى بغداد بطريق القوافل أو طريق الأرماث النهرية طويلة شاقة، فكانت الحدباء أوثق صلة بحلب الشهباء تتصل بها بأسباب تجارية وأواصر فكرية وروحية. فلا بدع أن حرمت الموصل النهضة الأدبية والوطنية التي لاحت بوادرها في بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني.

إن بلدة أبي تمّام قد غطت في نوم عميق خلال عصور الانحطاط، فلم ينشأ فيها سوى نظامين لهجوا بالمدائح والمراثي، حتى إذا ما بزغ فجر القرن التاسع عشر، ظهر شاعران لهما شأنهما في ذلك العهد، وهما عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس، لكن كليهما نزح إلى بغداد وتفتحت شاعريته فيها. وعرفت الموصل بعد ذلك شعراء مقلّدين كأحمد عزت الفاروقي (المتوفى سنة ١٨٩٢) والسيد شهاب الدين العلوي الملليسي (المتوفى سنة ١٩٠٧) وداود الملاح (المتوفى سنة ١٩١١) والشيخ محمّد ضياء الدين الشعار (المتوفى سنة ١٩١٢) ونجيب جلميران (المتوفى سنة ١٩١٧).

في تلك البيئة المغلقـة المنطوية على نفسها نشأ شـاعرنا الفخري وقـال الشعر، فنظم المدائح الإلهيـة والنبويـة ونسج القصـائد الصوفيـة والـوجدانيـة وأجـاد في الوصفيـات والإخـوانيات وجـانب من المدائح والمراثي والموشحات والتخـاميس. وقد أدرك القـرن العشرين وأصبح وزيـراً وعيناً في الحكومة الـوطنية وعـاصر الزهـاوي والرصـافي وسائر أساطين النهضة الأدبيـة الحديثة، لكنه كان أقرب بشعـره إلى عصر الانحطاط السالف وأدنى نسباً إلى ابن الفـارض وأقرانه من شعراء التصوّف والغـزل الأقدمين، ذلكم أحمد الفخري الذي يقول:

هــــذا الغــرام وتلك حــاجــر	والــدمع ليس عليــه حــاجــر
وبـــــروقهم لاحـت فما	لسحــاب دمعك غير مــاطــر؟
أخــــلا فـــؤادك أم حــــلا	لـك غيرهم أم أنـت صـــابـــر؟
أم مـــــاء عينـك جـفّ مـن	حــــرّ الصبـــابـــة في الضمائر
أم رمــــــت كتمان الهوى	والحبّ لـيس عليـــه ســـاتـــر
وإلى مَ تكتـم لـــــوعـــــةً	شهـــدت عليـك بها الظـــواهـــر
وعلى مَ لا تبـــــــدي الجوى	أمـن الملامـــــة أنـت حـــاذر؟
إن كــــان حبّك صـــادقـــاً	فـــــدع العـــــذول ولا تحاذر
اي والــــذي أحيـــا بـأسرار	الهوى منّــــــــــي السّرائر
أنــــا عـــاشـق أنـــا مغــرم	أنـــا ذو هـــوى في القلب ثـــائر
كيـف الحيـــاة بـــلا هــــوى	إنّ الهوى أحــــد العنـــاصر
في الحبّ طــــــاب تهتكّـي	فهتكـت عـن سرّي الستـــــائر
لا أرعـــــوي، لا أتـــــوي	لا أنثنـي بمــــــلام زاجـــــر
مـــاذا يقـــال ســـوى الـــذي	قـــد قيل في مجنـــون عـــامـــر؟

وليس من ريب أن الشعر الصـوفي في العهود المحافظـة المترمّتة تنفيس عن المشـاعر الملتهبـة، فإذا قـرأت شعـر الفخـري الـوجـداني لم تـدر أين ينتهي الحبّ الإلهي ليبـدأ الإحساس العاطفي.

وشعر الفخـري راتب النسق، مفرد النغم، قـديم الوحي في معنـاه ومبناه، بيـد أنه يفيض بالبـوارق الوجـدانية التي تهزّ النفس واللـوامع الفكريـة التي يرتـاح لها الذهن. يختلط فيـه الغزل المكرّر المبتـذل بعاطفـة حب صوفيـة تنبثق من صميم القلب، وتعبق موشحاته بأنفاس الأندلس الزكيّة.

يؤمن الفخـري بالحبّ ولا يخشى فيـه لوم اللائم ولا تقـريح العذول، فـاستمع إليه يقول:

إن كـــان حبّك صـــادقـــاً	فــــدع العــــذول ولا تحاذر

وهو يجاهد نفسه في الغرام فيوماً يذعن لها ويوماً يتغلب عليها:

لاح للنفس غيّهـا من هـداهـا ... ونُهاهـا عن الهوى قـد نهاهـا
وصحت بعـد سكـرة الجهل، لكن ... بعـد فيهـا بقيّـة من صباهـا
هي تـأبى إلاّ الغـرام وأأبى ... أن أرى الـذلّ بـاتبـاع هـواهـا
فتراهـا طـوراً تميل عِنـاني ... وتـراني طـوراً أطيل عَنَـاهـا

وقد نقل تفجّع الخنساء ونحيبها إلى لوعة العشق والهيام فقال:

ومـا ذرَّ قـرن الشمس إلاّ ذكـرتها ... وأذكـرهـا في وقت كـلّ غـروب
وأذكـرهـا مـا بين ذاك وهـذه ... وبـالليل أحـلامي وعنـد هبـوبي
وقـد شفّني شـوقي وأبـلاني الهوى ... وأعيـا الـذي بي طبّ كلّ طبيب
وأعجب أني لا أمـوت صبـابـةً ... ومـا كمـد في عـاشق بعجيب
وكـلّ محبّ قـد سـلا، غير أنني ... غـريب الهوى، يـا ويح كلّ قـريب!
وكم لام فيهـا من أخٍ ذي نصيحـة ... فقلت لـه: اقصر، أنت غير مصيب
أتأمـر إنسـانـاً بفـرقـة قلبـه؟ ... أتصلح أجسـام بغير قلـوب؟

وعارض ابن زيدون في نونيّته فقال:

جـدّ الهوى ومضى حكم القضـا فينـا ... فهل لنـا في الضَّنى آسٍ يـواسينـا؟
هيهـات مـا من دواء للغـرام، فقـد ... عـالجت نفسي من داء الهوى حينـا
وكيف ننسى حبيباً روحنـا امتـزجت ... بحبّـه وهـواه كـاد يضنينـا؟
قـد لاح كـالبـدر، والأبصار شـاخصة ... إليـه، فـاحتلّ دون الحيّ نـادينـا...

والموصل التي لبثت تغطّ في نوم هادىء هنيء متمسّكة بأهداب التقوى والورع، لم تزل على مرّ العصور تلتمس متعها البريئة ونزهاتها الجميلة في زيارة قبور الأولياء والخروج إلى ضواحي دجلة التي يسبغ عليها الربيع أثواب الخضرة والبهاء لعقد مجالس الطرب والحبور بين الماء والخضراء وتحت زرقة السماء. فهذا محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل الذي نبغ بعد شاعرنا الفخري يصف أنس الربيع فيقول:

لقـد ألبست قـدّ الـربيع يـد المزنِ ... مـلابس خضراً ذات لـونٍ على لـون
تفتحت الأكمام عن كـل زهـرة ... وزهـرة قلبي في كمائم من حـزن
نسيت، ومـا أنسى، بشـاطىء دجلـة ... لـواعج وجـد حـرّكتهـا يـد اللّحن
نسيت، ومـا أنسى، أحـاديث صبوةٍ ... يـردّدهـا سجع الحمائم في أذني

ولئن كـان العبيدي قـد تـذكـر حبّه في مجالس الـربيع البهيّـة فـاستسلم إلى الوجد والأسى، إنّ الفخري قد ألقى بروحه في تيّار الفرح والجمال الشامل فقال:

ويـوم تجلّى في الـربيع نهاره ... بُعَيْـدَ حَيـاً أحيـا الـربـوع انهماره
وقـد كست الأزهـار حلّـة وشيهـا ... أديم الحِمَى فـازدان منهـا اخضراره
فنـزّهـت في وجـه البسيطـة نـاظـري ... فـراق لـديـه حسنـه وازدهـاره
وجلتُ بـأكنـاف الحمى متنـزّهـاً ... وقـد فـاح نشراً شيحـه وعـراره

وملت أريح النفس في ظلّ ربوةٍ يحلّي لجينَ الورد فيها نضاره

وهل يتمّ السرور في مجالس الطرب بغير العود والمزهر؟ فلنصغ إلى شاعرنا يقول:

لو تسمع العود تدري ما الهوى وترى للروح أسرار وَجدٍ أودعت وترا
أريشة بيد العوّاد تخفق أم ذي مهجة الصّبّ، ليت الصبّ قد شعرا
وتلك أوتار عود دُقَّ فاضطربت أم ذي عروق شجيّ بالهوى استعرا
يجسّ جسّ طبيب نبض ذي مرضٍ عوداً يبثّ أنيناً يفلق الحجرا

والمعنى في البيت الثاني (أريشة بيد العوّاد. . .) ينظر إلى قول الشاعر الدكتور نقولا فيّاض:

ليس «البيانو» الذي باتت تكهربه يداك أطوع من قلبي وأفكاري
لَمْسته فتمشى السحر بي فكما تهتز أوتاره تهتزّ أوتاري
أصابع العاج هٰذي تلعبين بها أم تلعبين بأسماع وأبصار؟

وقديماً قال ابن الرومي:

غلط النّاس، لست تلعب بالشّطرنج لكن بأنفس اللّعباء
لك مكر يدبّ في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء

والفخري، بعد ذلك، شاعر مؤمن، سعيد بإيمانه، قويّ النفس بالله، فلنستمع إليه يتضرّع إلى العزّة الإلهية ويقول:

أيا ربّ، ما لي غير لطفك خيمة تقيني ممّا أتّقيه من الدهر
أيا ربّ، ظلّلني بفضلك واحْمِني بعزّك واشرح لي بنور الهدى صدري
أيا ربّ، واضرب لي سرادق عزّة على عمد التوفيق في طنب النّصر
أيا ربّ، وامدد لي رواق عنايةٍ على خيمة العلياء في ساحة الفخر
أيا ربّ، واجعلني بفسطاط نعمةٍ أعيش بها في راحة سائر العمر

ولقد رأينا شاعرنا مولعاً بالبديع مغالياً في المحسّنات اللفظية، يطرّز شعره بالتشابيه والاستعارات الكثيرة. ففي هذه الضراعة إلى العزة الربانية جسّم الرحمة والعناية والتوفيق والنعمة بالخيمة التي تقي من الخوف وتؤمّن من الشر والعذاب، فذكر السرادق والعمد والطنب والرواق. ورأيناه في قصائد أخرى يقرن فعل النهي بالنُّهى والحجى فيقول:

ونُهاها عن الهوى قد نَهاها

ويجمع فعل الرؤية بالوتر قائلاً:

لو تسمع العود تدري ما الهوى وترى للروح أسرار وجد أودعت وترا

وأمثلة ذلك كثير في شعره.

ومن لطيف شعره في النزاع بين هوى النفس وحبّ الله قوله:

عجبت لها تجفو، وتدري بوصلها حياتي وأني حيث تجفو شهيدها
فقال النهى: لا تعجبنّ فحب ما سوى الله نار في حشاك وقودها
سأترك للمولى سواه، فإن تكن حياتي على خَلْق فلست أريدها

لكنه لا يلبث أن يستسلم إلى الهوى فيقول:

كلّ يوم يموت بالشوق قلبي وبذكرى الحبيب يبعث حيًّا
أيها الناصح الخليّ اتّبعني في الهوى أهْدِكَ الصراط السّويّا
كيف يصحو ويقبل النّصح صبّ خامرته من الغرام حُمَيَّا؟

وامتزجت روحه بروح الحبيبة هياماً:

روحان بعضهما ببعضٍ هامتا وجداً، ولا إحساس للأشباح
روح إلى روح تزفّ، وإنما ذاك الزفاف بعالم الأرواح

ومن موشحاته الجميلة أنشودة الحبّ التي قال منها:

ذهبت في الكون أنفاس الصَّبا بحديث سلسلته أدمعي
سلسل الدمع حديث الشوق عن
مقل أحرمها البين الوسن
عن فؤاد يوم جرعاء افتتن
بهوى من جرّعوه العطبا بنواهم جرعاً في جرع
والصبا أهدى حياة الأنفس
إذ بعَرْف من شذاهم قد كُسِي
ثم عادت نفسه من نفس
بسموم وهي تحكي لهبا عن سعير الشوق بين الأضلع...

ونراه في هذا الموشح وهو الشاعر الوجداني يغرق في الصناعة ويلبس ثوب المحدّث الفقيه. ثم يعود إلى حديث الهوى والحنين فيقول:

لم أكن قبل غرامي أعلم
أن جرح القلب لا يلتئم
لائمي، بالله جز حيّهُمُ
وتبصّر ثم عنّف من صبا ليس من يبصر كالمستمع
نظرات أعقبتها حسرات
في فؤادي كم لها من زفرات
هذه العين وتلك العبرات
فاسألَنْها زند وجدي هل خبا مذ صبا قلبي لوادي الأجرع؟

أنـــــا والليـل، إذا الليـل سجـى،
في هـــواهـم بين خـــوفٍ ورجـــا
فـإذا مـــا رقـــد النـــاس دجـى
وقضـى بـــالأمـن كـلٌّ مـأربـــا　　أتجافى عـن لـــذيـــذ المضجـع
لا تقـل: غـــاب ولا قـــربٌ ولا
كـلّ بـــدر بـــازغ إن أفـــلا
هل تـــرى أنّـــا قطعنـــا الأمــلا؟
لا، وإنّ عـــزّ لقـــاهم مطلبـــا　　مـــا قلعنـــا منـــه سنّ الطمـع

إنّ أحمد الفخري قـد عاش في العصر الحديث، لكنه في شعـره وغزله وتصوفـه كان يمتّ بصلة النسب الـروحي إلى أصحاب الموشحات الأندلسيّـة وإلى ابن الفارض وابن النبيه من أبناء القرون الخالية.

علي البـنّاء

الأُسْطَهْ علي البنّـاء الشاعـر الأمّي البغدادي تـرجم له علي عـلاء الديـن الألوسي في «الدر المنتثر» ونشر جانباً من شعره، قال:

«هـو أعجوبـة بغداد في هـذا العصر، فإنـه ينظم الشعر مـع كونـه أمياً لا يقـرأ ولا يكتب، ومشغول بصنعة البناء بعمله مكتسب».

ولد علي البنـاء سنة ١٨٤٩، وامتهن حرفـة البناء، ونظم الشعـر الفصيح. وكانت وفاته ببغداد في ٢٤ نيسان ١٩١٨.

وشعره تقليديّ جامد لا تتعدّى أغراضه المدح والرثاء وغيرهما. منه قوله:

أوجهك هـــذا أم سنـــا الشمـس لامع　　من الشرق بـادٍ أم هـو البـدر سـاطع؟
وذاك شـــذاك النـــافع العطـر نـــافح　　ببغـــداد أم نـــوع من الطيب ضـــايع
وهـــذي معـــاليك التـي وازر العلى　　عـــلاهـــا فأضحت وهـي شهب طـوالع
يسرّ حـــديث المجـــد يـــوم إيـابـــه　　بمـــدحي لعليـــاهـم تسرّ المســـامع
لقـــد كـــان وجـــه العيش أسـود كـالحاً　　ببعـــدك فهـــو اليـــوم أبيض نـــاصع

وقال في قصيدة له يمدح الوالي ناظم باشا عند قدومه إلى بغداد:

إليـك من الأمّـيّ وافتك مـــدحـــة　　سرى ذكـرهـــا في نجـدهـــا والتهـــائم

وقد دعي أحياناً علي المعمار البغدادي.

ذكـر لنـا التاريـخ الأدبي عدداً من الشعـراء الأميين منهم طـرفـة بن العبـد وغيره في الجاهليـة. أما في العصر العبـاسي فكان أشهـرهم نصر بن أحمد المعروف بالخبـز أرزّي

المتوفّى سنة ٩٣٩م. كان يخبز خبز الأرز في مربد البصرة وينشد أشعاره الغزلية والناس يزدحمون على دكانه يأكلون خبزه ويستمعون إلى شعره.

عبد القادر العبادي

الشاعر عبد القادر بن عبد الله البزّاز العبادي المعروف بـ «عبد القادر شنّون»، عرف بالهجاء المقذع وروح الفكاهة والمجون، قال إبراهيم الواعظ:

إن كنت تهجو بأبيات منمّقة فإنني سوف أهجو هجو شنّون

ولد في بغداد سنة ١٨٦٥، ودرس على نعمان خير الدين ومحمود شكري الألوسيّين. ومال إلى النظم والظرافة شاباً، فلازم الفكه البغدادي الشهير عبد الله الخياط المتوفّى سنة ١٨٨٩ وحضر معه مجالس الأشراف ودواوين رجال الفضل والأدب.

ورحل إلى مدن العراق كالحلة والبصرة وحواضر الخليج، وزار الكويت والبحرين والحجاز انتجاعاً للرزق، ومدح الشيوخ والسراة. وعيّن قاضياً للقطيف فأصبح، كما قال عبد الله الجبوري في كتابه «من شعرائنا المنسيّين» (١٩٦٦)، ممدوحاً بعد أن كان مادحاً. لكن القضاء في تلك البلدة النائية لم يستقم له إلا شهوراً، وعاد إلى بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨.

عمل في الصحافة فتولى تحرير القسم العربي من جريدة الإرشاد التي أصدرها حسين فريد في شباط ١٩٠٩. ثم مضى إلى البصرة وحرّر جريدة إظهار الحقّ (أول حزيران ١٩٠٩)، وكان صاحبها قاسم جلميران. وعيّن كاتباً في المحكمة الشرعية براتب حسن، فقال ـ على ما رواه عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق (١٩٦٢): «إن حظّي لا يحتمل مثل هذا الراتب، وهو مؤذن بقرب أجلي واستيفاء رزقي». وقد توفي بعد أشهر قليلة في البصرة في ٣ تشرين الثاني ١٩١٠ مصاباً بمرض الهيضة.

عاش عبد القادر شنّون بائساً عاثر الجدّ، ومات منسياً وتفرّق معظم شعره.

ولعلّه كان من حيث الفقر وسوء الحظّ والظرف والإقذاع في الهجاء أشبه بالشاعر المصري محمد إمام العبد (١٨٦١ ـ ١٩١١) صاحب حافظ إبراهيم، الذي قال:

أنا ليل، وكل حسناء شمس، فاقتراني بها من المستحيل!

شعره:

قال عبد القادر العبادي في جسر بغداد سنة ١٩٠٢:

هي الحضارة ما تعلو به الرتب وما سوى العدل في الدنيا لها سبب

وقد تخلّص إلى مدح السلطان عبد الحميد الثاني ووالي بغداد نامق باشا الصغير، ثم ذكر تشييده جسراً على دجلة:

كل البدائع جاءت في صناعته ... مستبدع الصنع، مأموناً به العطب
كأنه، ووضوح في طرائقه، ... مهنّد منتضى في متنه شطب
إن قال واصفه: فاق الحديد، فلا ... تعجب، فربّ حديدٍ فاقه الخشب

إلخ . . .

وقال في منارة سوق الغزل، وهي من بقايا جامع الخلفاء:

عُجْ بالرصافة وابكِ ربعها البالي ... وقف بجامعها إن كنت ذا بال
وانظر بعينيك في أطراف ساحته، ... هلاّ تجد أثراً من شامخ عال
فذي منارته في الجوّ شامخة ... كم أخبرت عنه في حالٍ وفي قال
جميلة ما رأى الرائي كرفعتها ... قامت على ساق تبجيل وإجلال
غريبة الشكل لا زالت تخبّرنا ... تغيّر الدهر من حال إلى حال
قد عشعش الذلّ في أعلى دوائرها ... من بعد عزّتها في حال إقبال
تمنطقت باسم بانيها مفاخرة ... أمثالها في زخاريف وأشكال

لقد أحبّ الكتاب واتخذه صديقاً وسميراً فقال:

كتابي، لا أروم سوى كتابي، ... فكم خفّفت فيه هموم ما بي
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي ... مخائل حكمة في كلّ باب
إذا غمزت قناة الدهر قلبي ... أداوي في مباحثه مصابي
لئن أخطأت في فكري ببحثٍ ... ففيه قد هُدِيتُ إلى الصواب
وإن شاهدت من قومي جفاءً ... يسلّيني بأقوال عذاب

ولا ندري هل ملك كتاباً في حياته، وهو البائس الفقير، أم كان في المتربة كصاحبه جعفر الحلّي الذي قال:

ملكتُ فكرتي بِكار المعاني ... وإلى الآن ما ملكتُ كتابا!

وكان عبد القادر شنّون كثير التحسّر على آثار المجد العربي، يبكي على أطلالها ويسترجع ما مضى من صورها وأشكالها، فقال في المستنصرية:

يا دار، ما بال ربع العلم ينعاكِ ... فما دها في الورى أعلى مزاياك
يا دار علم عفت منها معالمها ... يد الخمول، فمن أفتى فأغواك؟
لهفي على ربعك المأنوس إذ خليت ... منه أفاضل حلّوا في ثناياك
لهفي على حلقات العلم ما صنعت ... أبحاث علمهم في ظلّ جدواك

وقال يندب أطلال سامراء:

هـــذي مبـــانيهـم، فأيـن البـــاني؟ فتكـت بها وبـــه يـــد الحدثـــان
خلت الـــديـــار فليس تلقى بينهـــا غير الـــوحـــوش ومجمع الغـــربـــان
غـــدرت بها أيـــدي الـــزمـــان، كأنها لم تحوِ مـن حـــــور ومـن ولـــــدان

وأعلن الـدستور العثماني فـاستقبلـه شاعـرنـا، كما استقبلـه غيره من رجال الشعـر والأدب، بالبشر والأمل، وحيّا مطلع عصر الحرية فقال:

ألا إن عصراً جـــاء بـــالحقّ مشرقـــاً هـــو العصر لا عصر من الظلم أغبر
رعى الله عصراً فيـــه للحـــرّ راحـــة يقـــول فـــلا يخشى الأنـــام ويظهـــر
يبيت قـــريـــر العين، غير مفكّـــر بما كـــان قبل اليـــوم فيـــه مفكّـــر

عبد المهدي الحافظ

عبد المهدي بن صالح بن حبيب الحافظ من أعيان كربلاء وتجارها وأدبائها، ينسب إلى أسرة خفاجية استوطنت المشهد الحسيني. وقد ولـد في كربلاء ودرس في معاهدها، وأخـذ العـروض عن الشـاعـر الشيخ كـاظم الهرّ، وتعلم اللغـات التركيـة والفـارسيـة والفرنسية.

انتخب رئيساً لبلدية كربلاء، ثم ناب عنها في مجلس النواب العثماني من كانون الأول ١٩٠٨ إلى كانون الثاني ١٩١٢. وتوفي بكربلاء في شباط ١٩١٦.

نقل عباس العزاوي في الجزء الثامن من كتابـه «تاريخ العراق بين احتلالين» إن عبد المهدي الحافظ كان ذكياً ذا سلطة وجرأة، تـزعم في أثناء الحرب العظمى حركة انتقاض على السلطـات التركيـة، فأهين الموظفـون وأخـرجـوا من الحاضرة ولم يعـادوا إليهـا إلا بمساعدة حكومة بغداد.

وترجم له سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعـراء من كربلاء»، فقال إنه شبّ شاعراً متوقد الـذهن، بليغ البيان، واسع الاطلاع، حفظ عيون الشعر العـربي، وكان خطيباً مفوّهاً. وكان ديوانه المطلّ على الـروضة الحسينية محط أنظار رجالات البلد وملتقى أهل الأدب...

امتاز شعره بالرقة والعاطفـة المرهفة. ونظم قصائده في الغزل والتشبيب على الطريقة القديمة، منها قوله:

إلى الله أشكـــو مـــا أقـــاسي من الجوى غـــداة استقلّت بـــالحبيب ركـــائبـــه
وأقفـــر ربع طـــالما كـــان حـــاليـــاً بـــه فخلـت أكنـافـــه ومـــلاعبـــه
فبتُّ أقـــاسي ليلـــــة مكفهـــرّة وليس سـوى الشِّعْـرَى بها مَـنْ أخاطبـه
أكفكف فيهـا الـدمع، والـدمع مـرسل كغيـث همى لما ارجحنّت كتـــائبـــه

وأنـدب عيشـاً حـرّمتـه يـد النّـوى — وعـاث بـه من جـائر الـدهـر لاعبـه
وأذكــر داراً طــالما بتّ آنســاً — بها بأغنّ مـاطل الـوعـد كـاذبـه
غـريــر إذا مـا قصّر الليـل وصلـه — أمـدّت ليـالينـا القصـار ذوائبـه . . .
فمن لي بــربع غــاب عنــه ربيعـه — ومَن لي بقلـب ودّعتــه حبـائبــه

حـدّثني أحمد حامـد الصرّاف أن الحاج عبد المهـدي توفّي كهـلاً وكان ينظم الشعـر الرائق باللغة الفارسية .

محمد رضا الأصفهاني

الشاعر الفقيـه محمد رضا الأصفهاني النجفي ، وهو ابن محمد حسين بن محمـد باقر بن محمّد تقي . عـرفت أسرته بالزعـامة الدينية في أصفهـان ، وأمهم بنت الشيخ جعفر كاشف الغطـاء . وجدّه الشيخ محمد تقي صـاحب كتاب هدايـة المسترشدين في شرح معالم الدين .

ولد محمـد رضا في النجف سنـة ١٨٧٠ ودرس في معاهـدها . وقـد نظم شعراً كثيراً وألّف كتباً منها : نقض فلسفة داروين (في جزءين) ، الـردّ على البهائية ، وقاية الأذهان (في أصول الفقه) ، إلخ .

توفّي بمدينة أصفهـان سنة ١٩٤٣ . وكانت له في شبابه صحبة ومطـارحات شعرية مع السيد جعفر الحلّي المتوفى سنة ١٨٩٧ ، فكتب إليه الأصفهاني معاتباً ومداعباً :

حللـتُ حِمى الحلّيّ ألتمس القِـــرَى — فكـــان قـــراه الهجــو والشتـم والسّبُّ
جـــزاء سنمار جـــزاني ، ولم أكـن — لأصحـب إلاّ إذا خـــانني الصَّـحْـبُ
ولم يـــرعَ لي حـقّ الإخـــاء وسبّني — ومـــا كـــان لي إلا محبّتـــه ذنب . . .
وكـــان لآمـــالي ربيعـــاً ومـــربعـــاً — إذا مـا الـورى قـد عمّهـا القحط والجدب
فقـل لأبي يحيى ، وإن هـــو ملّني : — وإحســانِكـم مـــا ملّكم منّي القلب
(صــدودكم وصـل وسخطكم رضـــا — وجـــوركم عـــدل وبغضكـم حبّ)

فأجابه الحلّي بقصيدة قال منها :

وحقّكُـم مـــا ازورّ لي عنكـم جنبُ — ولا حلـن أحـــوالي ولا انقلب القلـب
صبـوت إليكـم قبل أن أعــرف الصّبـــا — ومـا كنـت لـولا طيب إحسانكـم أصبـو
رأيتكـــم أحنـــى وأعطـــف مـــن أبي — عليّ وأوفى الصحب إن خـــانني الصحب
فقلت لنفسي : هـــا هنـــا ويحكِ احبسي — فهــذا المكـان الـرحب والمنـزل الخصب

وقـال في الأصفهـاني بعض أدباء النجف : «وللشيـخ آغا رضـا . . . حظ وافـر من الأدب ، وباع طـويل في النظم والنثر ، وشعر رائق جمع فيـه بين ظرافة الفرس وفصـاحة العرب» .

وقال الدكتور علي الوردي في مقدمة الجزء الثالث من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» إن مجلة المقتطف كانت تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم الدكتور شبلي شميل. وحين وصلت المجلة إلى العراق، انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردّون عليها ويفنّدونها، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ آغا رضا الأصفهاني والشيخ جواد البلاغي، وألفوا في ذلك كتباً ضخمة بأسلوبهم الجدلي. وقد أرسل أحدهم كتابه في نقد النظرية إلى شبلي شميل، ظناً منه أن هذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتاب وسيعلن تركه لها، لكن شبلي شميل أرسل إليه جواباً مقتضباً هذا هو: «عذرك جهلك، والسلام».

عبد الحسين الحويزي

الشاعر الشيخ عبد الحسين بن عمران الحويزي ولد في النجف في حزيران ١٨٧٠ من أسرة هاجر جدّها الأعلى من الحويزة وأقامت في الغريّ منذ سنة ١٨٣١. درس على إبراهيم آل بحر العلوم الطباطبائي ومحمد حسين الكشوان وغيرهما من العلماء والأدباء.

وامتهن البزازة تجارة والده، ثمّ بارت تجارته فمضى إلى كربلاء في سنة ١٩١٧ وأقام فيها يعاني البؤس وشظف العيش ويتكسّب بشعره.

وتوفي بكربلاء في آب ١٩٥٧. وقد نشر جزآن من ديوان الحويزي (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، كما نشرت له ملحمة باسم «فريدة البيان» (١٩٥٥) في مدح الرسول الأعظم وآل البيت.

وشعر الحويزي تقليدي قديم الطابع مواضيعه المدح والرثاء والغزل والهجاء والفخر وما ماثلها من الأغراض. وذكر سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعراء من كربلاء» أنه عاصر الحبوبي والزهاوي والرصافي والهنداوي وغيرهم من مشاهير الشعراء وكانت له معهم صولات وجولات في ميدان الأدب.

من شعره في ثورة العشرين:

أيطلق شعبنا للزحف ساقا ... وكم خطب له الحدثان ساقا
لقد عقد الضغائن فيه خصم ... بخدعته ليحتلّ العراقا
فأورى فتنة عمياء شبّت ... ليصلي حزب جيرته احتراقا

إلخ...

الملاّ عثمـان الموصـليّ

من أذكياء المكفـوفين وآيات الفطنـة وحسن التصرّف، الملا عثمان الموصلي المولويّ، كان حـافظاً مقـرئاً وموسيقياً شـاعراً يجيد اللعب بـالشّطرنج والعـزف على العود وآلات الطرب.

وهو عثمان بن عبـد الله السقّاء ابن فتحي بن عليـوي آل الطحّان. ورجّح الـدكتور عادل البكري، الذي ألّف كتاباً فيه سنة ١٩٦٦، أنه ابن عبد الله بن محمّد بن جرجيس من البوعلوان إحدى فرق الدليم.

ولد عثمان بالموصل سنة ١٨٥٤ لأسرة فقيرة، وفجع بوفـاة والده وعمره سبعة أعوام، وكـان قبل ذلك قد أصيب بـالجدري ففقـد بصره. وتعهده الـوجيه محمـود بن سليمان العمري بـالرعـاية، فهيّأ لـه حفظ القرآن وتعلّم مبـادىء اللغة. ومضى بعـد ذلك إلى بغداد سنة ١٨٨١ بصحبـة أحمد عزّت باشا ابن محمـود العمري ودرس على الشيخ داود النقشبنـدي وبهاء الحق. ودرس المقـام وأصـول الغنـاء على مغنّي الموصل، ثم اتصل بالمشهورين من رجال الفنّ في بغداد وأخذ عنهم.

ذهب إلى الحجّ، ثم عاد إلى الموصل سنة ١٨٨٦، وقصد استانبول (١٨٨٩)، وقفل راجعاً إلى بغداد. وشدّ الرحال مرة ثـانية إلى قاعدة السلطنة والخلافة، وعرج على مصر سنـة ١٨٩٥ فلبث فيهـا خمسة أعـوام طبع في أثنـائهـا كتبـه وأصـدر في القـاهـرة مجلـة «المعارف» (١٨٩٧).

وفي سنة ١٩٠٠ مضى إلى استانبول، ثم قصـد الشام وبقي فيها من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩. وأدّى فريضة الحج ثانيـة، وعاد إلى دمشق، ثم زار بيروت واستانبول ودمشق وحلب، حتى عاد أخيراً إلى الموصل في حزيران ١٩١٣.

أخذ عنه فـريق من المغنّين والموسيقيين في مصر ودمشق، منهم الشيخ سيّد درويش ومحمـد كـامل الخلعي وعلي محمـود وأحمد أبـو خليل القبّـاني. وعلت لـه شهـرة في دار الخلافة في قراءة الموالد وإحياء حفلات الذكر ومجالس الصوفية.

قدم بغـداد في نيسان ١٩١٤ فعيّن شيخـاً للقرّاء بمـدرسة جـامع المراديّة. وعـرفت بغـداد فضلـه، فكـان محور حلقـاتها وواسطـة عقـد أنـديتهـا والمجلّي في محافل الأنس والطرب. ذكره إبـراهيم الواعظ في «الروض الأزهر» بمناسبة عقـد قرانه في تشرين الأول ١٩١٤، قال:

«ثم بعـد أيـام شرّف حضرة بلبل القسطنطينيّـة ومصر والشام والعـراق، الـذي ذاع صيته حتى عـلا الآفاق، الأكمل اللوذعـيّ والشاعر الألمعيّ المولـويّ الملاّ عثمان أفندي الموصليّ حفظـه الله إلى دارنا. وبعـد تلاوة عشر من الكـلام القـديم، قال مـؤرّخاً عـام

القران، وفي الأبيات:

زفـافك، فـرع المصطفـى وابن مصطفى، زفـاف على الـزُّهْـر السّواري بـه الفخـرُ
تـوخّيت شمس الفضل عن جعفـر الهدى غـدت لك شمساً حيثُ أنت لها البـدر
شقيقك إسماعيـل أبـدي لـه الهَنَـا وذلك بعـدي حيث لي عنـدكم ذكـر
بعـرسك هتّـان المنى قـال أرّخـوا: زفـافك، إبـراهيم، شـحّ بـه خير»

وقامت الثـورة العراقيـة سنة ١٩٢٠ فكـان للملاّ عثمان مـواقف فيها محمـودة شعراً وخطابة. وأدركته الوفاة ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣.

وقد أقيم لـه تمثال في مسقط رأسه الموصل سنة ١٩٧٠. رثـاه عند وفاته عبـد الرحمٰن البنّاء بقصيدة مطلعها:

رحلت، والصـدر بـالإيمان مـلآن، في ذمّـــة الله شيـخ العلـم عثمان

مؤلّفاته:

من مؤلفاتـه المطبوعة في استانبـول والقاهرة: الأبكار الحسان في مـدح سيّد الأكوان (١٨٩٥) تخميس لاميّة البوصيري (١٨٩٥) المراثي الموصليّـة (١٨٩٧) مجموعة سعادة الدارين (١٨٩٨). ونشر أيضاً: الأجوبة العراقية لأبي الثناء الألوسيّ (١٨٩٠) الترياق الفاروقي (ديوان عبد الباقي العمري الفاروقي، ١٨٩٨)، إلخ.

قال عثمان الموصلي يمدح يوسف السويدي:

سلمنـا الخطـوب ونلنـا المرام ومقـدامنـا حـلّ دار السّـلام
تنـاديـه أربـابنـا مـرحبـاً وأهـلاً وسهـلاً بمُـرْوي الأوام
بـآبـائه ضـاء نـور الهدى وفيـه سنحظى بصفـو المقـام

وقال فيه أيضاً:

رسـالـة البرق قـد جـاءت مبشّرة أهـدت إلينـا سروراً آخـر الـزمن
أنجى الإلٰـه عـزيـز المصر وانكشفت عنـه الظنـون وخـابـت فـرقـة الضغن

ومن شعره الصوفيّ، قال:

بني المصطفـى، قلب المتيّم قـد أبـدى لكم فـرط وجـد لا لسلمى ولا سعـدى

وقال:

قلبي بحبّكـم، والله قـد جـذبـا، وظـلّ فيكم عـن الأغيـار محتجبـا

ذكره الدكتور مصطفى جواد في بحث له عن الغناء والمغنين في العراق فقال: «... ومـلا عثمان الموصلي الضرير كـان من أعـلام المغنين والموسيقاريـن، وله فيهـا تأليف، ويحسن قراءة المولد النبوي.

وكان من الخطباء المصاقيع في الحركة الوطنية بالعراق. أدركته، وكان يضع على رأسه القلنسوة المولوية البيضاء من اللّبد، توفي قبل عدة سنين».

وقال محمد هاشم الرجب استاذ المقام العراقي في معهد الفنون الجميلة ببغداد:

«الشيخ عثمان الموصلي... وهو إمام أهل الفن في هذا المضمار (أي مضمار المقام العراقي) يبتدع القطعة ببراعة في الاسلوب ودقة في الأداء. يجيد الغناء بأفانينه، يرتجل الشعر الرصين في المناسبات حسب البحور اللازمة لكل مقام، كما يحسن الضرب على العود والنفخ بالناي والعزف على القانون. وهو كفيف».

وقال جلال الحنفي: «كان كثير الاسفار في البلاد والتجوّل فيها. وكان صوته غليظاً أجشّ وفيه بحّة ـ وإلى الملا عثمان تنسب عشرات التنزيلات والاشغال المولوية المستعملة اليوم في الموالد النبوية».

وذكره أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» باسم الشيخ عثمان البصير، فقال انه كان يتولّى تدريس علم التجويد والقراءات في جامع الخفافين ببغداد. ثم قال: «وكان حسن الصوت والأداء يخلب الألباب ويسحر العقول بنغماته الشجيّة، فضلاً عن كونه كان عالماً فاضلاً وشاعراً... وله إلمام في الموسيقى، وكان يحسن قراءة المولد النبويّ».

حدثني محمود صبحي الدفتري عن ذكاء الملا عثمان الموصلي فقال انه كان يعرف الناس من صوتهم أو لمسة يدهم.

قال الدفتري: سافر أبي فؤاد إلى استانبول سنة ١٩٠٥، فكان يجتمع دائماً بصديقيه موسى كاظم الباجه جي ووفيق الربيعي، فيأخذون الملا عثمان إلى بعض الأندية أو المقاهي ويتمتعون بفكاهاته ولطائفه. وذهبوا مرة إلى المسجد الذي كان يعظ فيه ويقرأ الأذكار، فلما أطال وأسهب، نبّهوه إلى وجودهم، فقال منغماً في أثناء ترتيله:

يا فؤاد، يا موسى، يا وفيق، إنني أنتهي قريباً، فانتظروني. وحسب الأتراك الموجودون في المسجد أن ذلك من جملة التراتيل فكانوا يردّون على أقواله: آمين، آمين!

ولم يلتقِ محمود صبحي نفسه بملاّ عثمان إلا في سنة ١٩٢٠. كان يسير بصحبة أحد أصدقائه، فتقدم محمود صبحي وسلّم عليه وصافحه قائلاً إنني أتشرّف برؤيتك لأول مرة، ايها الملا المحترم، ولكنني سمعت عنك الشيء الكثير من والدي. وتمايل جسمه يميناً ويساراً على عادته حين يفكّر، ثم قال على البديهة:

أوراق إخلاصي، إذا ما كتبت،	تنشر في البلدان حسن الأسطر
كلّها محفوظة في مهجتي	ومهجتي عند فؤاد الدفتري

الشيخ محمد السماوي

من شعراء المدرسة القديمة في العراق وذوي البصر بالكتب والمخطوطات القاضي الفقيه، وهو ــ كما سمّى نفسه في تقريظ قديم لكتاب «الروض الأزهر» الذي ألفه مصطفى نور الدين الواعظ ونشره ولده ابراهيم الواعظ ـ محمد ابن الشيخ طاهر التركي الفضلي الشهير بالسماوتلي، ولد في بلدة السماوة على الفرات سنة ١٨٧٦ . ولما بلغ العاشرة من عمره أرسله والده إلى النجف فدرس في معاهدها، ثم قصد سامراء ولازم عالمها الامام حسن الشيرازي. وعاد إلى مسقط رأسه سنة ١٨٩٧، ولبث متنقلاً بين السماوة والنجف حتى سنة ١٩١٣ حين قصد بغداد إذ أصبح عضواً في مجلس الولاية.

احتلّ الانكليز العاصمة العراقية سنة ١٩١٧ فبارحها إلى النجف، وعين قاضياً شرعياً بها في ٢٤ آذار ١٩٢١ . ونقل قاضياً لكربلاء (حزيران ١٩٢٤) فبغداد (آب ١٩٢٥)، وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري (١٩٢٦). وأعيد قاضياً جعفرياً في بغداد (كانون الاول ١٩٣١) فالنجف (شباط ١٩٣٤)، حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٣٥ .

وقد قيل إنه فصل من الخدمة وفقاً لأحكام قانون ذيل قانون انضباط الموظفين بناءً على مسعى السيد محمد الصدر، فداعبه محمد علي اليعقوبي قائلاً، بحسب رواية جعفر الخليلي:

قل للسّماوي الذي	فلك (القضاء) به يدور
الناس تضربها (الذيول)	وأنت تضربك (الصدور).

وسكن السماويّ النجف بعد ذلك منصرفاً إلى عالم الكتب. وانتخب عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في ايار ١٩٤٩ . وأدركه الحمام في النجف في ١٦ تشرين الاول ١٩٥٠.

شعره ومؤلفاته:

نظم محمد السماوي الشعر، وهو في ميعة الصبا، فأكثر منه في الغزل والاخوانيات، ثم اقتصر في نظمه على مدح النبي وآله.

ومن مصنفاته: شجرة الرياض في مدح النبي الفيّاض (١٩١٢) ثمرة الشجرة في مدح العترة المطهّرة (١٩١٣) إبصار العين، في أنصار الحسين (١٩٢٣) ظرافة الأحلام (١٩٤١) تاريخ المعصومين، صدا الفؤاد (١٩٤١) عنوان الشرف في وشي النجف (١٩٤١) مجالي اللطف بأرض الطفّ (١٩٤١) وشائج السرّاء في شأن سامرّاء (١٩٤١) الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية (١٩٤١) موجز تواريخ أهل البيت (١٩٦١) الخ . . .

ومن مؤلفاته المخطوطة: الطليعة في شعراء الشيعة (ثلاثة مجلدات) قرط السّمع (أرجوزة في الربع المجيّب). ونشر كتاب المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة الخ... لابن الجوزي (١٩٣٠) ومقتل الحسين للموفّق الخوارزمي (في جزءين، ١٩٤٨).

نهج في شعره على الطريقة القديمة، فاستهلّ أماديحه متغزّلاً، كما قال في مدح الرسول الأعظم:

أخجلتَ جيد الريم بالالتفاتْ ... وفقت سلّ السيف بالانصلات

بسمت زهواً بشتيت اللّمى ... فأيّ شمل لم تدعه شتات؟

تقوّل الناس بتحقيقه ... والله قد أنبت ذاك النبات

ثغر إذا لُحْنَ ثناياه لي ... عجبتُ للؤلؤ وسط الفرات

جلا علينا فمه خمرة ... فهاك، يا ساقي كأسي، وهات

وقال في مدح علي السجّاد بن الحسين:

أبْدِلي مِمَّ احورار المُقَلِ ... أهو من كحل بها أم كحلِ؟

بتُّ منها، وهي سكرى، ثملاً ... هل سمعتم ثملاً من ثمل؟

تلفت نفسي، أما يرأف بي ... ساحر الأجفان أو يعطف لي؟

وقال يتلهف على الشباب المدبر:

أبعد أن عرّى الصبا أفراسَهُ ... تطلب إيناس الهوى أو ناسَهُ؟

خفّض عليك فالمشيب قد أتى ... يضحك منك كاشراً أضراسه

لم تدع الخمسون منك جانباً ... إلاّ وهدّ مرها أساسه

سوّد لي غضّ الشباب كُتبَهُ ... وبيّض الشَّيبُ بها قرطاسه...

وقال متغزّلاً في مطلع قصيدة له مدح بها السيد مصطفى نور الدين الواعظ مفتي الحلة:

صليني، يا أميمُ، كما قطعتِ ... وعاصي العاذلين كما أطعتِ

فديتك قد شربت بماء وجهي ... رضاك فما رضيت وما قبلت

أتيتك أشتكي فصفحت عني ... كأنّك ما رأيت وما سمعت

تقولين: السلوّ به حقيق ... عفا الرحمن عنك، لقد ظلمت

سلوّي مثل وصلك مستحيل ... فإن أسلو، ولن أسلو، وصلت

أجدّك هل علمت طويل ليلي ... فإني قد سهرت وما سهرت...

وقال في النجف :

ألمَّ على ذكـــــــــوات النجـف ... ولاحـظ بطـــرفك تلك الطُّــــرَفْ

هـــــواءً نقيـــــاً تحفّ النفــــوس ... بطيب هـــدايــــا لـــــه أو تحف

وتـــربــاً زكيـــاً يـــودّ الفـــؤاد ... يـــلاصقـــه مـن وراء الشغف

وعـــرفـــاً ذكيـــاً يغير الكبـــا ... إذا الأنـف نـــاشقـــه وائتنـف . . .

وإخـــوان صـــدق رقيقي الطبـــاع ... تكـــاد طبـــاعهُـم تـــرتشـف

كماة كـــرام يـــرون الشرف ... بفـــرط الشجـــاعـــة أو بـــالسّرف

يـــؤلّفهـم جـــامـع مـن ولا ... عليّ إذا مـــا القبيـل اختلف

كـأن الجماهير حـــول الضريـح ... حجيـج بمكـــة ذات الشرف

كـأنّ صفـــوفهـم في الصـــلاة ... أكـــاليل درّ بتـــاج تُصَـف

كـأن العلـــوم إذا دارســـوا ... بحـــار بأفكـــارهـم تغترف

سـل الصحـن كـم فيـــه مـن لائذ ... يقـــول عليّ لـــه : لا تخف

وكـم فيـــه مـن مستقيـل يقـــال ... لـــه قـــد عفـــا الله عمّا سلف

وكـم فيـــه مـن ذاكـــر ربّـــه ... تقـــرّب بـــالمرتضى فـــازدلـف

ونظم محمد السماوي أراجيز في تاريخ النجف وكربـلاء والكاظمية وسامراء ، قال في مطلعها :

أحمد مـن قـــــد أنشـأ السماءا ... والأرض وامتـــازهما إنشـــاءا

واختـصّ بعـض الخلـق دون بعـض ... بفضلـــه مـن السما والأرض . . .

قـال جعفر الخليلي : «لم يعـرف التـاريخ عالماً في العصـور المتأخـرة أحاط بـالكتب القـديمـة وتـواريخهـا ومـواضيعها وقيمـة الكتب الأثـريـة ونفـاستهـا كـالشيخ محمـد السماوي . . . فهـو في عصـورنـا المتأخـرة كمحمـد بن اسحق (ابن النـديم) صـاحب الفهرست في عصره ، فقـد كان السماوي مـرجعاً فـذاً في تثمين الكتب القديمـة ومظانّ وجـودهـا . . . وقـد جـاءتـه هـذه الملكـة مـن افنـاء عمـره الطـويل في جمع الكتب ، والمخطوطـات بصورة خـاصة ، وللكتاب في نفسـه منزلـة ما حاكـاها شيء معزّة وحباً وتقديساً .

ولقد روى الراوون عنه ، على سبيل الفكاهة ، قوله : إنه عمل قاضياً اكثر من ثلاثين سنة (كذا) ، وكـان يجنّب نفسه الاتصال بغير أصدقـائه الخلّص المنتقين ، وكان يرفض قبول أية هـدية من أي شخص . . . حذراً من أن تشوب حكمه شـائبة من العواطف . لقد قـال : «لقد حاول الكثير إغـرائي بشتى الطرق فلم يفلحوا لأنهم لم يكتشفـوا نقطة الضعف في نفسي ، ولو عرفـوا قيمة الكتب عندي ومنزلتها في نفسي لأفسـدوا لي برشوة الكتب كل أحكامي !»

وكانت له مكتبة نفيسة جمع فيها المطبوعات والمخطوطات النادرة، ولقد طالما نسخ الكتب بخطه وجلّدها بيده ليضمّها إلى خزانته. وقد بيعت بعد وفاته وتفرقت مجلّداتها.

وللشيخ محمد السماوي رسائل ذات الديباجة القديمة، منها ما كتبه في مقدمة رسالة إلى المفتي السيد مصطفى نور الدين الواعظ سنة ١٨٩٨:

كفى حزناً أني أرى الورد حاضراً ... لديّ ولكن لا سبيل إلى الورد

وما كنت أخشى أن تكون منيّتي ... بكفّ أعزّ الناس كلّهم عندي

السلام الذي تهدّلت أغصانه النواضر، وتهلّلت غمائمه المواطر، وتنافحت نسائمه العواطر، فضاء برقه، وضاع عبقه، وارتاح ودقه. والتحية التي تحيي القريض، وتشفي المريض، وتبرد القلب الرميض، وتلبس ثوب المجد الطويل العريض، فهي أقرّ على العين من رؤية الروض الأريض. والثناء الذي عذب رقيق لفظه وملح حرّ معناه، وحلا بيته على كل سمع ولذّ مغناه، فهو أنظر من برد الشباب، وأنضر من مواصلة الأحباب، يهديها وينيرها ويسديها:

مغرم ما تنفّست نسمات الجوّ (م) ... إلا وهيّجت أنفاسه

وإذا ما الوميض لاح تلظّى ... وثنى طرفه وأطرق راسه

وهي طويلة نشر نصّها في كتاب الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر لناشره ابراهيم الواعظ. وختمت الرسالة بقصيدة طويلة في مدح المفتي، ومطلعها:

صليني، يا أميم، كما قطعتِ ... وعاصي العاذلين كما أطعتِ

حتى يقول:

همام قد تفرّع من همام ... بأصل طيّب في المجد بَحْتِ

لقد غرسته دوحة آل فهر ... بأطيب تربة وأعزّ نبت

أطاب الخلق منه حسن خلق ... وزان الصّمت منه حسن سَمْتِ

تجمّع في علاه كلّ وصف ... وحاز على علاه كلّ نعت

الخ....

رضا الهندي

الشاعر رضا الهندي ابن السيد محمد بن هاشم الموسوي، ولد في النجف سنة ١٨٧٣، ودرس على محمد كاظم الخراساني المعروف بـ«الأخوند». وقد تفقّه في علوم الدين وقرض الشعر فجوّده.

كتب عنه جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» فقال إنه بارع النكتة، لطيف المحضر، لم تنحصر صفاته بالأدب، بل كان فقيهاً غزير المادة، واسع الاطلاع، له في العلوم الدينية، ولا سيما الردود على الذين تناولوا الدين الاسلامي، جولات وصولات . . . وقال انه ولع بالبديع ولعاً كبيراً، ووضع «مقامات» هي شعر إذا شئتها شعراً ببحور مختلفة وقوافٍ متنوعة، وهي نثر إذا شئتها نثراً مسجّعاً أو مرسلاً. وله تواريخ شعرية غريبة في بابها، ومن قصائده التي اشتهرت «الكوثرية»، ومطلعها:

أمفلّج ثغرك أم جوهر ... ورحيق رضابك أم سكّر؟

قد قال لثغرك صانعه: ... «إنا أعطيناك الكوثر».

وروى جعفر الخليلي طرفاً من لطائف رضا الهندي، ومنها أنه حكّمه ذات يوم في قضية أدبية ـ وكان يحسب نفسه محقاً فيها ـ فحكم لخصمه. وغضب الخليلي لذلك الحكم، فقال له الهندي: «إذا كنت تريد العراك وكنت شجاعاً، فيجب أن تبحث عن «تركي» حادّ المزاج لا أن تقصد «هندياً» بارد الطبع مثلي».

توفي السيد رضا الهندي في حزيران ١٩٤٣ في الفيصلية.

طبعت قصيدته الكوثرية في مدح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، وطبع من مؤلفاته: بلغة الراحل، الميزان العادل بين الحق والباطل (١٩١٣).

عبد الحقّ الأعظمي

عبد الحقّ حقّي الأعظمي الشاعر الأديب ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٨٧٣ ودرس في معاهدها. ثم مضى إلى الهند، وهو شاب، فعهد اليه بالتدريس في كلية عليكره (وهي مدرسة أنشأها في تلك المدينة سنة ١٨٦٤ السر السيد أحمد خان ليجمع فيها التعليم الاسلامي القديم إلى العلوم العصرية، وقد رفعت الى مصاف الجامعات سنة ١٩٢٠).

عاد الأعظمي إلى بغداد بعد الحرب العظمى الاولى ونشر شعره في المجلات والجرائد. وألف: أعجب العجب من أحوال العرب (طبع بالقاهرة، ١٩٢٢).

أثنى عليه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، وقد عرفه حين زار الهند سنة ١٩١٣ وقال إن الأعظمي كان مدرس اللغة العربية في مدرسة العلوم الكلية.

سافر إلى مكّة فوافته منيّته بها سنة ١٩٢٤، كما يستفاد من رثاء له بتوقيع «زهير» نشر في جريدة الضاد البغدادية لصاحبها محمد صالح سليم السهروردي (في العدد الخامس المؤرخ ٢٥ آب ١٩٢٤)، ومطلعه:

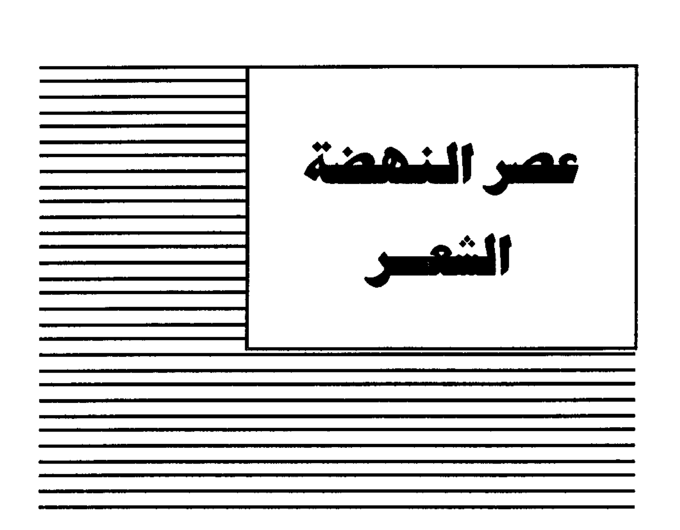
بكى العـــراق بــدمـع ســـال منسكبـــا ... على الـــذي يتَّم الأقـــلام والأدبـــا . . .

تـــالله قــد كـــان عبـــد الحقّ بــدر هـــدى ... يهدي الـــورى غير أنّ اليـــوم قـد غـــربـــا

العلم مـن بعـــده قــــد بـــات منكسراً ... والشعـــر من بعـــده قـد صـــار منعطبـــا

والأعظميـــة في ثــــوب الحداد غـــدت ... تقـــول : أين نـــزيـل الهنـــد قـــد ذهبـــا؟

منّـــا عليـك ســـــلام كلما قــــرئت ... قصـــائد لك كـــانت تسحـــر الأدبـــا


عصر النهضة
الشعر



جميل صدقي الزهـاوي

شاعـر النهضة الأدبية جميل صدقي بـن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهـاوي ولد ببغـداد في ١٨ حزيـران ١٨٦٣ وتـوفي بها في ٢٣ شبـاط ١٩٣٦ . كان نـائبـاً في مجلس النواب التركي وعضواً في مجلس الاعيان العراقي . وقـد ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» ترجمة وافيـة . اهتم الزهاوي بتحرير المرأة واتخذ شعـره أداة للدعوة إلى تتثقيفها وانهاضهـا . وكانت شقيقتـه الآنسة أسماء الـزهاوي من رائدات النهضـة النسائيـة ، إذ أسست «جمعية النهضـة النسائية» في بغـداد سنة ١٩٢٤ وانتخبت رئيسـة لها . وعهدت بنيابة الرئاسة إلى السيدة نعيمة قرينة نوري السعيد .

عيّن الزهاوي على أثـر احتلال بغداد عضواً بمجلـس المعارف في أول ايلول ١٩١٨ واستمّـر فيه إلى ٣١ تموز ١٩٢١ . واختير في ١٩ شبـاط ١٩٢٠ مدرسـاً للّغـة العربيـة بمدرسة الحقوق . وعيّن رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية في نظارة العدلية في أول آذار ١٩٢٠ حتى الغاء اللجنة في ٣٠ حزيران ١٩٢١ .

انتخب نائبـاً عن المنتفق في مجلس المبعـوثان (١٩١٢) وناب عن بغـداد في المجلس الذي تلاه . وقد عاد إلى بغداد قبيل نشوب حرب ١٩١٤ فبقي فيها ولم يعد إلى استانبول لحضور جلسات المجلس النيابي بخلاف زميله معروف الرصافي نائب المنتفق الذي لبث في العاصمة التركية إلى سنة ١٩١٩ .

وقد اشترك الزهاوي مراراً في منـاقشات المجلس ، فاعترض على جباية الضرائب من دور الفقراء واعفـاء قصور الأمـراء ووصيفات آل عثمان . وانتصر لحريـة الصحافـة عند بحث قانون المطبوعات فقال : أثبت تاريخ الأمم أنه كلما اشتد تضييق الخناق على حملة الأقلام والأفكار كـان الانفجار عظيماً . وطالب الحكومـة بجعل الأحكام العرفيـة تابعة للتمييز . وطلب جعل اللغة العربية لغة رسمية للمحاكم في العراق تحقيقاً للعدالة ولغة التـدريس في المدارس . ودعا إلى تأسيس كليـة طبيـة في بغداد أسـوة بدمشق . ونـاقش شؤون الزراعة ودعا إلى العناية بها .

وذكر سليمان فيضي في مذكراته «في غمـرة النضال» أن بعض القادة البحريين أوقفوا أوقافاً تصرف غلتها للأئمة الذين يقرأون البخاري في السفن الحربية . قال الزهاوي عند المذاكرة في ميزانيـة القوة البحرية إن البواخـر تسير بالبخار لا بالبخـاري وطالب بإنفاق

تلك الغلة على نشر التعليم ليتقن الناس استعمال البخار.

وفي مناسبة اخرى قال الزهاوي إن الآية الكريمة **﴿إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** لا تعني بالصالحين العبّاد والنسّاك بل تعني الصالحين لإعمارها، وقوبلت كلماته بالضجيج والاستنكار والتكفير.

وكان في العهد الملكي عضواً بمجلس الأعيان (الشيوخ) (١٩٢٥ ـ ٢٩) فكانت الكلمات التي ألقاها ينصبّ معظمها على شؤون لغوية ولفظية.. ولما انتهت عضويته في المجلس، وقد سقط بالقرعة، ولم تجدّد قال يخاطب نفسه:

سقطت فلا تحزن على ما فقدته، فما أنت بين السّاقطين بأوّل

فكم من وزير كان قبلك قد هوى (كجلمود صخر حطّه السّيل من عَلِ).

الزهاوي المتشكك:

كان الزهاوي متشككاً فحيناً مؤمناً وحيناً جاحداً وتارة اخرى لا أدريّاً. وقد استهوته نظرية التطوّر (أو كما كانت تدعى آنئذٍ: نظرية النشوء والارتقاء)، فطالع آراء داروين وهكسلي وغيرهما كما ترجمها «المقتطف» وعبّر عنها الدكتور شبلي شميّل والدكتور يعقوب صروف وفرح أنطون وإسماعيل مظهر. ونظم هذه الآراء في قصائده رغبة منه في التجديد كما نظم سواها من الأفكار العلمية والأخلاقية.

ولم يفهم نظرية داروين على حقيقتها، فظنّ أن الإنسان حسب نظرية التطور متحدّر من القرد فقال:

رجعت إلى الماضي البعيد بفكرتي وقلت لقرد الغاب: يالك من قرد

تقلبت في الأصلاب دهراً وبعده نسلت ابنك الإنسان نادرة الوُلْدِ

وقال أيضاً يخاطب الإنسان:

هل أنت إلاّ واحد من القرود في النسب؟

ألم تكن وأنت في طور الجنين ذا ذنب

مشابهاً جنين حيوان لو اسطاع وثب؟

وعلماء التطور إنما قالوا ان جدّ الإنسان والقرد كان واحداً قبل مئات الملايين من السنين، ثم اختلف النسلان على مرّ الدهور فأنجبا الإنسان والقرد في خط متواز كلاً منهما بمعزل عن الآخر. وقد قلت في ذلك:

يا قرود الغاب، نقريك السلام،

جدّنا كان لكم نعم الرفيق

أخرج الصوت شبيهاً بالكلام،

تــــرك الأدغـــال وارتـــاد الطـــريق . . .

زرع القمـح وأنـــــواع النبـــــات ،

شيّـــد الــدور وقـــد أحيى الفـــلاة ،

وتعـــــالى سيّـــــد الأرض المطـــــاع .

ومضى يـــومـــاً إلى الغـــاب البعيـــد

فأتـى بـــالقــــرد في طـــوق الحديـــد

هـــــزأةً يسلـــــو بـــــه هم الصراع . . .

آمن الزهاوي بالعقل واتخذه نبراس الـوجود وحاول أن يستغني به عن الإيمان . لكن العقل قاصر يعجز عن ادراك منشأ الكون وخـاتمته وتصوّر اللانهاية المكانيـة والزمانية . وحار العقل في تعليل انبثاق الحياة وتطورها ، فاكتفى الزهاوي بأن قال :

مـــا حيـــاة قـــديمهـــا غير بـــاد | لــك الا تطـــــــــــــــوّر في الجماد

وقال :

رقيـت مـن الجماد فصرت حيـــــــــاً | تميّـــز بـــالـــدراســـة والـــذكـــاء

وبينا نراه يكبر سلطان العقل إذا به يقول :

للكـــــــــون فيما بـــــــدا لي | ظـــــواهــــــر وخفـــــايـــــا

مـــــا قـــــام فينـــــا حكيم | يحلّ بعـض القضــــايـــــا . . .

وهو يمعن في الإنكـار في «نزغـاته» التي نشرهـا هلال ناجي في القـاهرة (الـزهاوي وديوانه المفقود ، ١٩٦٣) فيقول :

تـــــوقّفتُ لا أدري تجاه الحقـــــائق | أأنّي خلقـت الله أم هـــــو خـــــالقـي؟

لئن وثـق الجمهـــور بـــالله خـــالقـــاً | فـــــــربَّ حكيـم بينهـم غير واثـق!

لكنه في آخر الأمر يرتدّ نادماً ويستغفر قائلاً :

أنــــا فيما أبــــديتـــــه من مقـــال | مخطـىء ليس لي أقـلّ استنـــــــــاد

شهـــــد الله والملائكـــــة الأبـــــرار | أنّي ركبـت غير السّـــــــــــداد . . .

وكذلك كان الزهاوي مؤمناً جاحدا لا أدريًا ، حكيماً حائراً متردداً ، جمع العبقرية في نقائضه وتقلباته .

جميل صدقي الزهاوي

روايـة ليـلـى وسميـر:

(نظمها سنة ١٩٢٧ ونشرها في مجلة لغة العرب)

يفتتح المشهد الأول بزينب تغني اغنية النوم لابنتها ليلى حين كانت طفلة :

نعست بعـــد الـــرضـــاع وللنعـــــاس دواعـــي
تغفين فـــــوق ذراعـــي والآن في المهـــد نـــامـي

وهي أغنية رقيقة ساذجة العواطف تمثل نفس الشاعر الوجداني المحب للطفولة والبشرية.

ثم تكبر ليلى فيحبها الفتى سمير وتبادله الحب. ويلتقي الحبيبان على شاطىء دجلة في ليلة قمراء ويتحدثان في أمر الزواج. لكن الشيخ عبد الله رجل الدين الكهل الذي طلق نساءه الثلاث واحدة بعد واحدة يرسل الخطابات إلى أم ليلى فتردهنّ. ويحرّض الشيخ الوالي على سمير متهماً إياه بالطعن في الذات السلطانية، فلا يجد سمير مناصاً من الهجرة إلى خارج العراق وتقديم الشكوى إلى السلطان فيأمر هذا واليه بالكف عن تعقيب الفتى البغدادي.

يعود سمير إلى ليلاه ويستعد لعقد قرانه. لكن الرجل المسمي رجب الذي يتظاهر بصداقة سمير ويكشف أسراره للشيخ عبد الله يكتب نشرة مقلداً خط سمير وفيها حثّ على الثورة باسم الحرية. ويتهم سمير بالجريمة ويقبض عليه، بينما تمرض زوجته بعد ولادة عسيرة وتقضي نحبها. ويختتم شاعرنا روايته بقصائد حزينة أولاها لليلى في ساعة موتها، والثانية لزينب على قبر ابنتها. ويطلق سراح سمير بعد اعلان الدستور واطلاق الحريات، وقد مضى على نفيه عامان، فيعود ليرى طفله لأول مرة ويسمع خبر موت زوجته، فيلقي على جدثها قصيدة شجية:

هـل مـــا أراه قبر ليلـــى مـــاثـــلاً يبـــدو أمـــامي
كـــذبـــوا فإنـك في ظـــلام القبر يـــومـــاً لم تنـــامي...
سيظـل طـــرفي هـــاميـــاً يسقـي ثـــراك على الـــدوام
ويظـل قلبـي خـــافقـــاً ممـــا يقـــاسي وهـــو دامـي

نوادر الزهاوي:

كان جميل صدقي الزهاوي في شبابه وكهولته مرحاً بعيداً عن التزمت واصطناع الوقار.

قال ناجي شوكت في كتابه «سيرة وذكريات ثمانين عاماً»: «كنت خلال هذه الفترة (سنة ١٩١٦) أتردد على دار العم مراد سليمان في أغلب الليالي. وكانت الدار المذكورة تضم من المداومين الدائمين السادة جميل صدقي الزهاوي وأحمد القيماقجي (من ظرفاء بغداد المعروفين) وعزّت الفارسي وعبد الرزاق الشيخ قاسم والدكتور سامي سليمان. وكان الزهاوي يسمعنا من شعره كلّ طريف ولذيذ، كما كان يسمعنا عن آرائه في الكون والعلم كلّ غريب، أما القيماقجي فكان يبتكر لنا الحكايات المضحكة التي تدخل السرور على قلوبنا».

ثم يذكر ناجي شوكت سهرات ليالي الجمعة في دار مراد سليمان الواقعة في الصليخ،

وهي سهرات أنس وطرب . قال : «وكان الزهاوي ينقلب في مثل هذه الليالي التي تمتد حتى الصباح إلى شخصية أخرى لا تمت إلى العلم والشعر بصلة . وعند الفجر كنّا نشكّل دائرة (حلقة) حول الزهاوي رحمه الله ونردّد الأغنية المعروفة «يا مسعد الصبحية» . .

ومن النوادر التي تروى عن الزهاوي أنه شوهد ذات ليلة في استانبول يسير في بعض الشوارع المشبوهة ، وكان آنذاك يرتدي الجبّة والعمامة .

فرآه شرطّي من شرطة الآداب وقال له : أيها الخوجة (الملاّ) ، ماذا أتى بك إلى هنا؟ وأصرَّ على أخذه إلى دار المشيخة الإسلامية . لكن شاعرنا تصنّع جهل اللغة التركية وأجاب بالفارسية أنه غريب وقد ضلّ طريقه . فأخذه الشرطي إلى دار السفارة الإيرانية وأخلى سبيله .

وكان الزهاوي يداوم الحضور في بغداد في مجلس محمد باشا الداغستاني . وكان لهذا القائد حديقة كبيرة ملاصقة لداره ، وفيها أقفاص للأسود والحيوانات الضارية الأخرى . وكان من الذين يحضرون المجلس مدير الشرطة التركي ، وهو رجل ضخم الجثة ، شديد البأس ، يبالغ في أحاديثه ويروي عن نفسه قصص بطولة عجيبة . وضاق الزهاوي ذرعاً بمفاخراته ، فقال ذات يوم في المجلس الحافل : «هل تعلمون أن هرتز فلد العالم الألماني قد اكتشف في خرائب سامّراء آثاراً غريبة؟ وقد وجد في ضمنها صندوقاً أكل الدهر عليه وشرب ففضّه ووجد في داخله صندوقاً ثانياً وثالثاً ورابعاً . . . »

وظلّ الزهاوي يواصل وصف الصناديق المحفوظة أحدها في داخل الآخر، فقال له الحاضرون : «وماذا كان في داخل الصندوق الأخير؟» قال : «وجد العالم في الصندوق الأخير ورقة عليها كتابة ، فأكبّ على حلّ طلاسمها ، فإذا فيها : لعن الله الكاذبين ! » .

وغضب مدير الشرطة وتحدى الزهاوي أن ينزل معه إلى قفص الأسد فيصارعه . وقبل الزهاوي التحدّي ، فقام مدير الشرطة ونزع معطفه وقميصه واستعد للدخول في قفص الضواري ، لكن الزهاوي أسرع بترك المجلس والخروج هارباً . وقد ضاق الزهاوي ذرعاً بأحد الكذابين فقال فيه :

ومدّعٍ بحياة البحر معرفةً ما حازها أحد في الأعصر الأوِلِ

فقلتُ : صِف لي كيف الحوت ممتحناً ، فقال لي : الحوت ذو قرنين كالجمل

وكان أصدقاء الزهاوي كثيراً ما يقسون في مداعبته . فمن ذلك أنه كان يحضر مجلس مراد سليمان صباح الجمعة ، فأعدّوا له مهزلة أحكموا نسج خيوطها للسخرية منه . كان في بغداد رجل مهرّج يقلّد أصوات النساء ، فاستدعي وكلّف أن يرتدي الملابس النسائية ويضع على وجهه النقاب ويأتي إلى دار مراد بك صباح الجمعة ليطلب مواجهة الشاعر الفيلسوف .

وفي ذلك الصباح ، والمجلس حافل بزوّاره من أعيان بغداد وأدبائها ، والزهاوي

جالس يبهر الحاضرين بشعره ونوادره، إذا بامـرأة محجبة تدخل إلى باحة الدار وتصرخ بصوت نسائي رفيع: «اين جميل الـزهاوي؟ لقد وعد بزيـارتي مراراً وأخلف وعده..» واستمّرت على الصراخ بكلام في هذا المعنى، والزهاوي يقول: «والله لا أعرفها، ولم أرها من قبل»، ويطلب من صاحب الدار أن يجدوا له مخبأ وأن يصرفوا تلك المرأة الرعناء.

وبعد ضحك طويل هدّأوا من روعه وجاؤوا بـالمرأة وأمروها برفع حجابها، فإذا هي رجل يسعى.

وكـان الزهـاوي يقـرأ شعـراً له في مجلس محمـود صبحي الـدفتري فـانتقده عـارف حكمت. فقال الزهاوي: إذا دخل عارف في الأدب فإننا نخرج عن الأدب!

ونظم الشـاعر قصيـدة وأبردهـا إلى مجلـة الهلال المصرية للنشر، ولم يكـد يرميهـا في صندوق البريـد حتى بدا لـه أن يغيّر كلمة فيها، فأسرع إلى الـدكتور فائق شـاكر مـدير البريد والبرق العـام وقال له: أرسلتُ قصيدة بـالبريد إلى مجلة الهلال في القاهـرة اليوم وأريد أن أصحّح بعض أبيـاتها، فأرجو أن تأمر باستخـراج الرسالة واعـادتها إليّ. قال المدير العام: إن استخراج رسالتك، يـا استاذ، من بين آلاف الرسائل المبردة أمر عسير والأفضل أن تردفها برسالة ثانية تصحّح فيها ما تريد تصحيحه. قال الزهاوي: ولكنني لا أريد صاحب «الهلال» ومحرريها أن يعلموا أنني أصحح قصائدي بعد نظمها!.

واضطر الدكتور فائق شاكر أن يأمر موظفيه بفرز الرسائل المبردة إلى مصر واستخراج رسالة الزهاوي وإعادتها إليه.

وقـد حيّا الفنـانـات والفنـانين المصريين الذين قـدمـوا إلى العـراق، وعمره يقـارب السبعين، بقصائد عاطفية كفـاطمة رشدي ويوسف وهبي ومحمد عبـد الوهاب ونادرة وأم كلثوم وغيرهم.

وقال:

ليـــس الحديــــث عـن الهـــوى	مـن شـــاعـــر شيـخ جـــريـــرة

واعترض عليه بعض المتزمّتين فقال:

يـــريــدون أن أحيـا بعيـداً عن الهوى	فــلا تبتغي عيني الحسـان النـواهـدا
يـريــدون أن لا أهبط الــروض منصتـاً	لشـادٍ وأن لا أطـرّي الـزهـر حـامـدا
ومــــا كنت في دنيـــا إليّ حبيبــــة،	وإن كــدت استــوفي الثمانين، زاهــدا
أجل، كنت عينــاً في زمــاني ونــائبـاً	ولكنني مــا كنت للـــذوق فــاقـــدا

الزهاوي في مهرجان الفردوسي:

أوفد الزهـاوي لتمثيل العراق في مهرجان الفـردوسي الذي أقيم في طهران في تشرين الأول ١٩٣٤، وكان معه «تلميذه» أحمد حامد الصرّاف.

ألقى الزهاوي قصيدة رائعة بالفارسية في المحفل الذي عقد برعاية رضا شاه بهلوي وحضور رجال الدولة والادب والمستشرقين . وكان قد أعدّ القصيدة في بغداد قبل سفره وقرأها على فهمي المدرّس فاستحسنها . ولما فرغ الزهاوي من القائها ضجّ المجلس بالتصفيق ، وقام إليه الصدر الأعظم رئيس وزراء إيران فقبّل يده تقديراً لأدبه واعترافاً بفضله .

عاد الزهاوي إلى الفندق فاستدعى إليه الصّراف وقال له : يا ولدي أحمد ، هل رأيت الصدر الأعظم وما فعله حينما فرغت من انشاد قصيدتي؟ قال : أجل ، يا استاذ ، رأيته يسحب يدك على ملأ من القوم ويقبّلها . قال الزهاوي : احفظ ذلك جيداً ، يا ولدي ، فأنت شاهدي الوحيد في بغداد!

حدثني أحمد حامد الصرّاف ان عبد الاحد حبّوش أصدر مجلة أدبية باسم «الزنبقة» سنة ١٩٢٢ ، فقال له : أرجو أن تعرفني بالزهاوي لكي أسأله نشر شعره في مجلتي .

قال الصراف : اخذت عدد المجلة فوجدته مصدراً بقصيدة لمعروف الرصافي ، فقلت لصاحبي : هلّم نذهب إليه الآن . وذهبا إلى داره ، فأعطى الصراف العدد إلى الخادم وقال له : إذا جلسنا بضع دقائق فجيء به وسلمه إلى الاستاذ .

وقدم الصراف صاحبه إلى الزهاوي وقال انه من الشباب الناهض المثقف ، وقد أصدر مجلة أدبية راقية ، وهو يرجوك أن تعطيه شيئاً من شعرك الجديد لنشره .

سرّ الزهاوي ورحّب بالأديب وقال له : اننا بحاجة إلى مثل هذه المجلات كي لا نكون عالة على المصريين واللبنانيين . . . .

وفي تلك اللحظة دخل الخادم وقدم المجلة إلى الزهاوي ، فقال الصّراف : هذا عدد المجلة واسمها «الزنبقة» .

وأخذها الشاعر وفتح صفحتها الاولى فوجد قصيدة الرصافي تحتل منها محل الصدارة ، فقذف بها في الهواء حيث دارت دورتين أو ثلاثاً ثم سقطت على الأرض . وقال : يا رجل ، إذا كنت من أتباع الرصافي المعجبين به فلم تأتي إليّ وتريد نشر قصائدي؟ ألا تعلم أن في أوروبة لكل شاعر أتباعاً ، فالذي يتأثر خطى فكتور هوغو لا يقصد لامارتين ، وهكذا؟ . .

وخرج حبوش خجلاً يجرّ أذيال الخيبة .

وأقول : زرت جميل صدقي الزهاوي مرتين أو ثلاثاً قبيل وفاته في داره ببغداد في الشارع الذي سمّي بعد ذلك باسمه . وكان يشكو كثرة متاعبه الأدبية ، ويقول ان نظم الشعر يؤرقه ويهدّ من قواه . وقال مرة ان مجلة «الهلال» سألته عن رأيه في شؤون أدبية واجتماعية وماله علاقة بنهضة الشرق ، وهو يعاني تعباً في الردّ وفي ارشاد الأدباء والمتأدبين الذين يتوافدون عليه للاستماع إلى آرائه . ومع ذلك فهو يشعر بواجب أدبي عليه في رعاية الجيل الطالع وتوجيهه بالرغم من شيخوخته وعجزه .

معروف الرصافي

شاعر العراق معروف بن عبد الغني بن محمود ينتمي إلى قبيلة الجبارة القاطنة في أنحاء كركوك. ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ وتوفي بها في ١٦ آذار ١٩٤٥. أقام الرصافي دولة للشعر في القرن العشرين وخلّد اسمه بين الشعراء الأفذاذ كالفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي، فسارت قصائده مسير الأمثال في الاقطار العربية وسحرت أجيالاً من شداة الادب. شبهه عبد القادر المغربي بالبحتري في مزية السهولة ونمنمة الديباجة، ولكن أين البحتري من معاني الرصافي والآفاق الرحيبة التي فتحتها النهضة الحديثة في ذهنه العبقري؟

وردت ترجمته الوافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث».

حينما ألفت الحكومة الوطنية في العراق لأول مرة منذ العهد العباسي السالف وأسند العرش إلى الملك فيصل الهاشمي، أراد العاهل القادم إلى وطنه الجديد إشراك اتباع المذهب الشيعي في الحكم شيئاً فشيئاً بعد أن كانوا بمعزل عنه في العهد التركي المتعصب لسنّيته. ولم يجد الملك ولا الانكليز رجالاً من الشيعة يليقون للمناصب الإدارية والوزارية أو يرضون بتبوّئها، فدعوا إلى الوزارة بعض رجال الدين والوجاهة الذين رفضوها في بداية الأمر ثم قبلوها. والتفتوا إلى الشعراء والادباء من الكهول والشباب، فهيّىء لمحمد حسن أبي المحاسن ومحمد رضا الشبيبي وأمثالهما أن يصبحوا من وزراء الدولة. أما الشعراء من أهل السنّة فلم يلوا من المناصب سوى التدريس وعضوية مجلس المعارف، واللجان العلمية، وكانوا بعد ذلك نواباً وأعياناً. وكان ذلك مدعاة لتذمر الزهاوي والرصافي وأمثالهما الذين نفسوا على زملائهم من الشيعة مناصبهم الوزارية.

شعر الرصافي أكثر من سواه باستهانة الملك والحكومة بأمره وعدم منحه ما يستحقه من التبجيل والإكرام. ومع أنه ظل يمدح ويرثي في كل مناسبة عرضت فإنه لم يترك التذمر والتمرد حين يجتمع بأصحابه وأخصائه. وقال سنة ١٩٢٢ يخاطب رجال الحكم:

يا مبعديَّ بظلم عن مناصبهم ... وقاطعين إلى ما أبتغي طرقي
علمت كلّ خفيّ من ضمائركم ... وما علمت الذي ترضون من خُلقِ
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم ... حتى يكون لديكم جائز السَّبق؟
إن كان عقل فإني عاقل فَطِن ... أو كان حمق فإني أحمق الحُمقِ

وقال أيضاً متجنّياً ناقماً:

لنا ملك وليس له رعايا ... وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح ... ومملكة وليس لها نقود

أيكفينـــا مـن الــــدّولات إنّـــا تعلّق في الـــديـــار لنـــا البنـــود؟
وكم عنـــد الحكـــومـــة من رجـــال تـــراهـم ســـادة وهـم العبيـــد
كـــلاب لـــلأجـــانب هـم ولكن على أبنـــاء جلـــدتهم أســـود

وقال:

علـم ودستـــور ومجلس أمّـــة كـلٌّ عـن المعنـى الصحيـح محرّف
أسماء ليس لنـــا ســوى ألفـــاظها أمـــا معـــانيهـــا فليست تُعـــرفُ

وقال:

دار ذا الـــدهـــر مـــداره فـــرأى النـــاس ازوراره
كـم وزيـــر هـــو كـــالـــوِزْر على ظهـــر الـــــوزارة!

وزار المس جرترود بلّ يعـرض اخلاصه ويطلب الإقالة والعـون، ثم يقول في الوقت نفسه:

لقـد جمع الـدهـر المكـايـد كلهـا بقـدر كبير صيغ مـن معـدن الخُبْث
فصـاغ طبـاع الانكليـز من الـذي تقـاطـر في الانبيق كـالمطـر الـدَّثِّ..

وحاول مغـادرة العراق. فردّه عبد المحسن السعـدون رئيس الوزراء الذي كـان يودّه ويرعاه. وقد شكا إليه حاله فقال:

أعبـــد المحسن السعـــدون، إنـي أراك منـــاط أسبـــاب الـــرجـــاء
لـــذلك قـــد أتيت إليك أشكـــو رثـــاثـــة بـــزّتي وبلى كســـائي
فقـــد رقّـت ثيـــابي اليـــوم حتّى تكـــاد تـــذوب من مسّ الهواء

ومـا هذه النقمـة وذلك التمـرّد سوى مظهـر من مظاهـر العبقـرية التي تعتقـد أنها مستهان بأمـرها غير حائزة للتقـدير الذي تستحقـه. لكن الحكومة لم تغفل أمـره، فقد عيّنته مفتشـاً بوزارة المعارف واستـاذاً بدار المعلمين العاليـة، ثم انتخبته نـائباً في مجلس النواب بالرغم من معـارضته وتركه بغداد إلى بلده الفلوجة ليقيم فيهـا في رعاية الوجهاء من آل عريم.

وكان راتبـه يكفي لسـدّ رمقه وهـو الفرد الذي لا عـائلة لـه ينفق عليهـا. ولم يعدم أصدقاء أوفياء ومحبين مقدّرين لشأنه يسعفونـه ويرعونه بلا منّ، ومنهم فخري الجميل وعبد اللطيف المنديل وخالد سليمان وحكمت سليمان ومظهر الشاوي.

ولما رأى نوري السعيد، الـذي طالما مدحه الـرصافي وهجاه، ان راتبه التقـاعدي لا يقوم بأوده خصّـص له جعلاً من المخصصـات السّرية يـذهب به إليـه صديقـه محمود السنوي في كل شهر. ومع ذلك هجاه فقال:

ان نـوري السعيـد قـد كـان قبـلاً آدميـاً فـرُدَّ بـالمسخ قـردا

ولم تقم حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية سنة ١٩٤١ حتى بادر إلى تأييدها والتنديد برجال الحكم السابقين.

لقد كان الرصافي كسواه من الشعراء متردداً بين السلب والإيجاب، يرضى حيناً ويغضب أحياناً لدواع نفسية وظروف طارئة، مفيداً من الفرص العارضة وناقماً عليها ضائقاً بها ذرعاً في آن واحد.

وقد قال مصطفى علي مؤرخ الرصافي وراوية شعره ان الرصافي يعاف الذل ويأبى الاستعباد ويأنف من الدنيّة، ويكره الاستعمار ويجتويه فلا يرضاه لبلاده ولا لأمّته. وقد حاربه ما وسعه أن يحاربه ولم يهادنه حتى فارق دنياه. وقال مصطفى علي ان الرصافي في شعره الذي ندّد فيه بالوضع السياسي في البلد إنما كان لرغبة منه في مصارحة أمته والامتناع عن غشّها فيقول خلافاً لما كان يرى، فلم يكتم ما كان يشعر به بل كان يعلنه ويذيعه لما طبع عليه من الصدق والاخلاص والشغف بالحقيقة. واستشهد بقول الرصافي:

أمـا الحيـاة فشيء لا قـرار لـه يحيـا بي المرء مـوقـوتـاً إلى حين
سيّـان عنـدي أجـاء الموت مخترمـاً مـن قبل عشريـن أم من بعـد تسعين

ولقد حاول بعض الادباء والمتأدبين بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أن يقولوا إن الرصافي كان مضطهداً في العهد الملكي معوزاً لا يجد من التقدير والرعاية ما قد كان أهلاً له. والحقيقة أنه بالرغم من تنديده بالملك ووزرائه في عهد الانتداب لم يفصل من مناصبه الرسمية ولم يحرم من النيابة. وقيل انه كان في خلال الحرب العالمية الثانية يبيع السكاير لسدّ رمقه. وحقيقة الأمر ان راتبه التقاعدي والمخصصات السّرية التي كانت تقدم له والاعانات السخيّة التي ترده من محبّيه والمعجبين به كانت تزيد عن حاجة رجل فرد لم يعرف بالإفراط، لولا أن خادمه عبد كان يستولي على ماله ويسطو على المآكل النفيسة التي تهدى إليه، كما ذكر ذلك تفصيلاً مؤرخه مصطفى علي. وقد حذر الرصافي كثيراً من خيانة خادمه، فلم يهتمْ ولم يطرده.

أما قضية بيعه للسكاير فالحقيقة ان صديقة الشاعر أنور شاؤل، وقد كان محامياً لشركة طبّارة وعبود صاحبة معامل السكاير، رأى أن يفيد الرصافي بعد أن أصبحت السكاير تباع بأسعار باذخة في السوق السوداء، فحمل الشركة على تخصيص كمية منها له في كل شهر. وكانت تباع هذه السكاير مباشرة ويقدم فرق أثمانها إلى الرصافي دون مشاركة أو جهد منه.

وضع الرصافي قصصاً شعرية استوحى مواضيعها من البيئة العراقية المحلية. ونرى في الوقت نفسه الشاعر المصري الكبير اللبناني الأصل خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩)

ينظم قصصاً متعـددة، غير أنه استمـدّ مواضيعه من مصـادر أجنبية وتـاريخية كمقتل بزرجمهر ونيرون وشيخ أثينا وفتاة الجبل الاسود الخ.

محمد رضا الشبيبي

نـابغة من نـوابغ الشعراء المتأخـرين وزعيم وطني معروف المنـزلة، ولـد محمد رضـا الشبيبي في النجف في ٦ ايار ١٨٨٩ وتوفي في بغـداد في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٥. تولى وزارة المعارف مراراً وكـان رئيساً لمجلس الاعيان ورئيساً لمجلس النـواب وعضواً بالمجمع العلمي العـربي في دمشق ومجمع اللغـة العـربية في القـاهـرة ورئيسـاً للمجمع العلمي العراقي. ومنحته جامعـة القاهرة سنة ١٩٥٠ مرتبة الدكتوراه الفخـرية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية. ترجمت له ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية».

قـالت المس بيلّ في رسالـة لها إلى أبيهـا تأريخهـا ٤ كانـون الأول ١٩٢٠ أنها حظيت بزيارة ممتعـة من الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي عرفتـه سنة ١٩١٨. وقد ذهـب فجأة إلى الحجـاز وسوريـة حيث كتب مقالات شـديدة ضـدّ بريطـانية في الصحف المحليـة منتقداً طـريقة حكمهـا لهذه البلاد. ويظهـر أنه أصيب بخيبـة أمل من جـراء استقرار السوريين في ظل الحكم الفرنسي، فأتى يعبر عـن قناعته بأن ما يفعله الانكليـز هنا هو الصحيح. وقالت إنـه رجل معروف وله قلم ساحـر، فإذا تعاون معنا مجازفاً بأن يـدعوه المتطرفون انكليزياً فقد يكون ذا قيمة لا تقدر.

الشبيبي والمجالس الادبية
فـي صيـدا والشـام:

قضى محمد رضـا الشبيبي في ربوع الشـام شهوراً سنـة ١٩٢٠ فاجتمع بأدبـائها من الشباب الناهض الذي حلم بالوحدة العـربية واستبشر بقيام الحكومة الفيصلية. وعقد المجالس الأدبية في صيدا مع سليمان الظاهر وأحمد عارف الزين وأحمد رضا وأديب الزين والدكتور شريف عسيران وغيرهم. وقال فيها قصيدته:

عـروس مـن البلـدان ليس لها مهـر ... ومصر سبتني لا الصعيـد ولا مصر

والتقى في دمشق بشفيق جبري وخير الدين الزركلي وسائر ادبائها فقال قصيدته:

ببغـداد أشتـاق الشـآم، وهـا أنـا ... إلى الكـرخ من بغـداد جمّ التشـوق

فباراها شفيق جبري قائلاً:

أحـنّ إلى بغـداد مـن أرض جِلَّـقِ ... وأسأل أهـل الشـام عن كـلّ معـرق

ونظم جبري قصيدته:

شط المزار فـربـع دجلـة نـازح ... دون العـراق سبـاسب وأبـاطح

قال إنه القى هذه القصيدة في سهرة بدار الزركلي، فلما فرغ من إنشادها ظهرت الكآبة على وجه الشبيبي وقال: لولا أن قصيدتك أبكتنا لصفّقنا لكل بيت.

ثم قضى الفرنسيون على الحكومة العربية وأخرجوا فيصلاً، فذهبت الآمال وتبددت الاحلام. فقال الشبيبي قصيدته «دمشق وبغداد» ومطلعها:

مـــاذا بنـــا وبـــذي الـــديـــار يـــرادُ؟ فقـــدت دمشـــق وقبلهـــا بغـــدادُ

محمد رضا الشبيبي يعالج شؤون القطر:

قدم محمد رضا الشبيبي قبيل وفاته (في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٥) مذكرة إلى رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز أوضح فيها القضايا والمشاكل الخطيرة التي تواجهها البلاد. وأشار إلى الأحداث والكوارث التي حلت بها نتيجة تصارع الآراء وتضارب الاهواء وتشجيع التفرقة، وطالب بإجراء الانتخابات ليقول الشعب كلمته في الحكم. وقال ان الوحدة العربية هدف يتم باستفتاء الشعب عليه، وأشار إلى أخطار الطائفية المقنعة التي تفتّ بعضد الوحدةالوطنية. وقال ان الشعب العراقي انتقض أكثر من مرة على سياسة التفرقة النكراء وعمل منذ ثورته الاولى سنة ١٩٢٠ على اقامة حكم وطني ديمقراطي يسهم بإقامته وينعم في خيراته أبناء الشعب كافة لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب. وشجب بعد ذلك سياسة المحاباة التي كانت نتيجتها تبوّء المقربين لمناصب الدولة وهم محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والاخلاص.

وطالب الشبيبي في مذكرته بدرس القضية الكردية درساً دقيقاً لصيانة الوحدة الوطنية وحقن الدماء وإعادة السلام والطمأنينة إلى الربوع الشمالية لأن العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن يتقاسمون غرمه وغنمه. ودعا إلى تحرير النقابات من الضغط السياسي وتوكيد حقوق العمال. ثم التفت إلى الاشتراكية ونادى بلزوم مراعاة الواقع في شأنها، إذ أن تطبيقها بقرارات ١٤ تموز ١٩٦٤ قد أدى إلى تخبط الاوضاع المالية وارتباكها وزيادة البطالة وقلة الانتاج وتبذير أموال الدولة وتهريب رؤوس الأموال وعجز الميزانية. ودعا إلى الديمقراطية الاقتصادية قائلاً إنه «النظام الذي يلائم ظروفنا وحاجاتنا» وان الفروق الاقتصادية الواسعة خرق للعدالة الاجتماعية التي نؤمن بها.

وذكر انه يمكن العمل على تقليل تلك الفروق عن طريق توزيع الضرائب وزيادة مكاسب الطبقة العاملة ووضع خطة شاملة للتنمية وزيادة الدخل العام.

ثم تناول القطاع الزراعي الذي يمثل في نظره مصدراً أساسياً من مصادر الثروة العامة، فأشار إلى أخطاء قانون الإصلاح الزراعي ـ تلك الأخطاء التي أدت إلى تخلّف الزراعة، وطالب بإعادة النظر في أسس ذلك القانون وتطوير شؤون الزراعة وحماية الانتاج وتحديد واجبات الزراع وتعويض الفئات التي تم الاستيلاء على أراضيها. وطالب بعد ذلك بإصلاح نظام الضرائب، واستخلاص حقوق البلاد من شركات

النفط وإعادة النظر في تكوين الاتحاد الاشتراكي العربي الذي تنازعته الأهواء وأفضى إلى احتكار العمل السياسي وتطبيق مبدأ الحزب الواحد المعارض للديمقراطية.

ولا شك أنّ هذه المذكرة التي قدمها الشبيبي إلى السلطات المسؤولة قبل شهر واحد من وفاته كانت أروع خاتمة لحياته الأدبية والسياسية ووصيّته التاريخية لابناء البلاد في تلك المرحلة الدقيقة.

محمد رضا الشبيبي: شؤون واحاديث

تعرّفت إلى محمد رضا الشبيبي في سنة ١٩٣٩ وتوثّقت صلتي به بعد اختياري عضواً بنادي القلم سنة ١٩٤٢ وكان هو رئيسه. وزادت هذه الصلة إحكاماً بعد ذلك، فكنت في سنواته الأخيرة أكثر من زيارته في داره والمجمع العلمي، كما كان يمر بمكتبي مرة أو مرّتين في الاسبوع حتى توفاه الله.

وأذكر أنه كان يلقى عندي في بعض الأحيان علي الشرقي، وكانت بينهما جفوة، فبادره الشرقي بالسلام والكلام حتى استقام ما بينهما وعادت مودتهما القديمة شيئاً ما.

كان الشبيبي يحضر مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كل عام ويقضي في مصر شهراً أو بعض شهر، فإذا عاد حدثنا بطرائف مما شهده وسمعه. وقال لنا ان الدكتور طه حسين سأله ذات يوم: «لماذا كان العراقيون دائماً ثائرين لا يستقرون على حال ولا يرتضون حاكماً؟ فقد قرأت تاريخ العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الآن، وقلما وجدت حقبة خالية من الفتن والقلاقل». فأجابه الشبيبي: «أتسمح لي أن أسألك أنا أيضاً؟ لماذا كان المصريون دائماً خانعين خاضعين؟ لقد قرأت تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي وقبله أيضاً، فوجدت المصريين دائماً يسترضون حكامهم مهما جاروا وطغوا ويخفضون الهام لكلّ متحكم فيهم حتى لشجرة الدّر!».

قال الشبيبي: وقد اغتاظ طه حسين لجوابي، لكن الحاضرين قالوا له: لا يحق لك الغضب، يا دكتور، فجواب الشيخ من طبيعة السؤال.

وقد قيل قديماً: إن العقل لحق بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك. ولحق الشقاء بالبادية فلحقت به الصحة، ولحق الخصب بمصر فلحق به الذّل.

وكان أمين هويدي سفير مصر في بغداد والذي دعي «المندوب السامي المصري» وقد أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات ووزيراً لحربية جمال عبد الناصر كثيراً ما يزور الشبيبي ويسأله عن رأيه في الاتحاد مع مصر. فأجابه الشيخ بصراحة أن العراق لا يحب عبد الناصر وان الاتحاد أو الوحدة سابق للأوان. وقال له: بلّغ الرئيس عبد الناصر أن لا يغرّه كلام عبد السلام عارف (رئيس الجمهورية آنذاك)، فالعراقيون عازفون عن الوحدة بالرغم من حبّهم لمصر واعترافهم بمكانة الصدارة التي تتبوأها في مجتمع الدول العربية.

وقد اشتد الخلاف بين عبد السلام عارف والشيخ الشبيبي حتى أنه أصبح رئيساً اسمياً للمجمع العلمي العراقي لا يستطيع الحلّ ولا الربط، وقد تولى الامور فعلاً نائب رئيس المجمع بتشجيع من الحكومة، فكان الشبيبي يأتي إلى غرفته في المجمع ويخرج منها دون أن يباشر عملاً.

ودعيت مجامع اللغة العربية إلى عقد مؤتمرها السنوي العام في بغداد، فانتهز الشبيبي فرصة دعـوة وجهت له للسفر إلى عمان، فزايل بغداد إلى الأردن وعقـد المؤتمر في غيابه. وعاد من عمان بعد انتهاء المؤتمر، فلم يكد يصل إلى داره حتى قضى نحبه في نفس تلك الليلة.

***

أصدر الكاتب السوفيـاتي كوتلوف كتاباً عن «ثورة العشرين» نقلهـا إلى العربية عبد الواحـد كرم. وقد ذهب الكـاتب إلى أن الثورة العـراقية كانت ثـورة عمال وفلاحين على الاقطاع والـرأسمالية على الـرغم من قادتها من شيـوخ الدين والعشائر، ومنـح العوامل الاقتصاديـة والصراع الطبقي أهمية بالغـة في نشوب الثورة. وسجّل للشيخ محمـد رضا الشبيبي آراء تؤيد ما ذهب إليه. فسألنـا الشيخ عن تلك الآراء، فقال ما معناه: جاءني ذات يوم المؤلف بموعـد سابق ومعه مترجمان رجل وامرأة، إذ كـان لا يحسن سوى اللغة الـروسية. وقـد بحث معي عن ثورة العشرين وأسبـابها، وكان يتكلم بـالروسيـة فينقل المترجم كلامه إلى الانكليزية ثم تترجمه المترجمة إلى العـربية، فأردّ عليه وينقل كلامي إلى الإنكليزية فالروسية ليفهم صاحبنا مـآله. وكانت تلك طريقة متعبة فضلاً عن احتمال ضياع المعنى أو اختلافه خلال هذا النقل المزدوج.

وقد أرسل المؤلف نسخة كتـابه بالروسية إلى الشبيبي بعـد طبعه (وذلك قبل سنوات من ترجمته إلى العربية)، فاستعان بأحد الطلاب العراقيين لترجمة ما جاء فيه على لسانه. ولما اطلع على الآراء المنسوبة إليه استنكرها وتناولها بالنقد والتجريح.

وقد ناقش الـدكتور علي الوردي، في الجزء الخامس من كتابـه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديـث» (القسم الثاني)، آراء كوتلوف في ثورة العشريـن، فأبدى عدم مـوافقته على مـا ذهب إليه المؤلـف من نسبة الثـورة إلى جماهير الفلاحين والبـدو وعمال المدن. قال الوردي: «وأعترف أني، حين قرأت الكتاب، شعرت كأنه يتحدث عن ثورة غير الثـورة التي عـرفناهـا وأدركنـا رجـالها، وعن بلاد غير البـلاد التي نعيش فيهـا». وأضاف قـائلاً: «ويبدو أن كـوتلوف حـاول أن يصبّ ثورة العشرين في القـوالب التي يحملها في ذهنه بغضّ النظر عمّا جرى في الثورة من وقائع مشهودة».

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه هـاجم نوري السعيد، وهو رئيس الوزراء، في مجلس الاعيان وندّد بسيـاسته تنديداً شديداً، فـوقف نوري يردّ عليه بحدة وانفعـال، وقال ما معناه: ليس هذا كلام سياسي مسؤول بل هو خيالات شاعر وأوهام كاتب.

ولم يكن من ا لشبيبي إلا أن التفّ بعبـاءته وخرج غـاضباً من القـاعة. ولكن لم يحلّ المساء حتى فـوجىء بزيارة نوري السعيـد له في داره يطيب خاطره. وهكـذا كان رجال ذلك العهد يميزون بين المناقشات والمهاترات السياسية والعلاقات الشخصية. وقال له السعيد: سوف يأتي يوم تترحمون فيه على عهدنا.

***

كثيراً ما كنت أسمع محمد رضا الشبيبـي بعد ثورتي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ يشكو ويترحّم

على عهد الملك ونوري السعيد .

قلت له : كنت معارضاً مزمناً تسلق الحكومات المتعاقبة بألسنة حداد ، فما عدا مما بدا؟ قال : أجل ، كنت معارضاً أتسقط مخالفات الحكومة وانحرافها وأطلب الإصلاح ، لكنني لم أطلب انهيار النظام وذهاب ريح السلطة واستبداد فئة قليلة جديدة لا خبرة لها ولا حسن نيّة بأمور البلاد . حين كنت أصارح المسؤولين وأتعقب أخطاءهم وسوء أعمالهم وآخذ عليهم التواء طرقهم كانوا يصغون إليّ ولو على مضض ويفعلون أحياناً أو لا يفعلون . أما هؤلاء الذين ينعتون أنفسهم بالثورية والتقدمية وسائر الصفات فلا يستمعون إلى أحد ولا يقبلون مصارحة ، ويسرعون إلى اعتقال خصومهم والفتك بهم ، وكمّ الألسنة والصحف وحرية القول . . . وبقي الشبيبي ساخطاً متألماً حتى أدركه الحمام .

وقد جاء إلى داره زبانية الأمن في عهد الرئيس عبد السلام عارف بعد منتصف الليل للقبض على ابنته المتهمة بالشيوعية . حاول الشبيبي اقناعهم بإرجاء الاعتقال إلى الصباح فلم يفلح . وأخيراً تمكن من الاتصال هاتفياً بعبد السلام فشكا له الأمر وترحّم على العهد الملكي البائد ، فأمر الرئيس بصرف النظر عن اعتقال الفتاة .

انتخب الشبيبي عضواً بمجمع اللغة المصري في مقعد الأب أنستاس ماري الكرملي ، ولما كان المألوف أن يتكلم العضو الجديد عن سلفه الذي حلّ محله ، فقد طلب إليّ أن يطلع على قاموس الأب «المساعد» ليبحث فيه . وقد اتصلت بالآباء الكرمليين في الدير وهيأت للشبيبي أن يطلع على مسوّدات المعجم ، فوضعت تحت تصرّفه ونظر فيه ونقل ما يروم نقله لخطابه في المجمع المصري .

***

على أثر قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ والقضاء على حكم عبد الكريم قاسم ، قررت حكومة الرئيس عبد السلام محمد عارف مفاوضة الملا مصطفى البارزاني الذي قاد التمرد الكردي منذ سنة ١٩٦١ . وارتأت إيفاد لجنة مفاوضة للتعرّف على مطالب الاكراد وأسندت رئاستها إلى محمد رضا الشبيبي ، وكان من أعضائها فائق السامرّائي .

ذهب الشبيبي إلى المناطق الكردية وفاوض البارزاني ، واتفق معه على منح المنطقة الكردية «لا مركزية» إدارية ، وعاد فبلّغ السلطات العراقية بنتيجة مساعيه .

قال الشبيبي : بعد أيّام سألني الرئيس عبد السلام عارف عن معنى «اللا مركزية» ، فقلت له : انني رجل لغويّ و «اللامركزية» ليست محددّة لغةً بل يحددّها الاتفاق على نطاقها السياسي والإداري ، وذلك شأنكم أنتم السياسيين .

***

جاء إلى بغداد سنة ١٩٤٧ رشاد بيبي مندوباً عن إذاعة الشرق الأوسط التي كانت تذيع من قبرص ، فاتصل بالأدباء للحصول على أحاديث منهم .

وقابل محمد رضا الشبيبي الذي سأله: ما معنى لقبك «بيبي»؟
قال: انه الشبيبي بدون «ش».

***

توفي صديق للشيخ محمد رضا الشبيبي فمضى لقراءة الفاتحة على روحه تتبعه حاشية كبيرة من أقربائه وأصحابه، ولم يكن يعلم أن هذا الصديق الذي نعي إليه ولم يره منذ سنوات طويلة قد ترك داره في بعض شوارع بغداد القديمة وابتنى داراً انتقل إليها في أحد الأحياء الجديدة.

دخل الشيخ وجماعته إلى الزقاق الذي فيه دار الصديق الراحل القديمة فرأى رجالاً واقفين على الجانبين. ولم يكادوا يرون الشيخ حتى حفوا به واستقبلوه استقبالاً لائقاً وأدخلوه إلى الدار وأجلسوه وصحبه في صدر المجلس. ولكن.. كان المقرىء يقرأ السورة القرآنية الخاصة بزواج موسى القويّ الأمين، وهي تقرأ عادةً في حفلات عقد القران. وقدمت للشيخ وصحبه الحلوى والعصير، والجمع في أنس وسرور. إذن لم يكن هناك مجلس تعزية، بل كانت حفلة عرس.

وخرج الشيخ بعد أن هنّأ أسرتي العريس والعروس. وسأل بعد ذلك عن دار صاحبه المتوفى فأرشد إليها وقصدها ليقرأ الفاتحة على روحه.

***

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه سافر ذات مرة إلى الشام ونزل في فندق أميّة. وفد رجال السياسة والأدب للسلام عليه، وجاءه معلّم خدم في المدارس العراقية يوم كان وزيراً للمعارف، فدعاه إلى تناول الغداء في داره. واعتذر الشبيبي بكثرة مشاغله، لكن المعلم لم يقبل له عذراً.

وجاء المعلم إلى الفندق في اليوم الثاني قبل الظهر واصطحب الشيخ في عربة اكتراها وقال للحوذيّ: مرّ في طريقك بسوق الحميدية. واستأذن ونزل إلى بعض الدكاكين واشترى خبزاً و «كباباً» وفاكهة وشيئاً من الحلوى وضعها في العربة وأمر الحوذي بالمضيّ إلى داره.

ولما بلغاها وضع المعلم الطعام الذي ابتاعه على المائدة، واتى بقدح ماء، وقال للشيخ: تفضل باسم الله، واعذرني عن التقصير في شأنك فإنّ زوجتي لا تطبخ. وفرغا من تناول الطعام فأركب الشيخ عربة وأعاده إلى الفندق معزّزاً مكرّماً.

***

دعي الشيخ الشبيبي إلى زيارة مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة مع نخبة من أدباء العرب وأعضاء مجمع اللغة العربية المصري، والمدينة قائمة في وادٍ ينزل إليه بطريق وعر متعرّج من الهضبة، وهو طريق يصعب على السيارات السير فيه. وقد اضطرّ الشيخ ورفاقه إلى النزول على أقدامهم ولقوا في ذلك مشقّة عظيمة. وبعد زيارة معالم المدينة وقضاء بضعة أيام فيها وحان موعد العودة قال الشبيبي للدكتور عبد الهادي

التازي المرافق للوفد أنه يصعب عليه وعلى رفيق له من شيوخ المصريين الصعود من الوادي ورجاه أن يجد لهما وسيلة للركوب. وكلم التازي هاتفياً أحد المسؤولين باللغة الفرنسية وقال له: لديّ شيخان ميتّان من التعب فجد لهما وسيلة نقل. ولم يسمع المسؤول العبارة «من التعب»، فظن ان الرجلين قد ماتا فعلاً فأسرع وارسل سيارة اسعاف تحمل تابوتين. رأى التازي السيارة القادمة فبادر إلى إعادتها قبل أن يراها الشيخان، ثم نبّه رفيقه أن الرجلين حيّان وطلب ارسال سيارة «جيب» لتقوم بمهمة النقل.

دعي الشيخ محمد رضا الشبيبي إلى زيارة الكويت ضيفاً على أميرها، وقد استقبل فيها استقبالاً حسناً ووضعت تحت تصّرفه سيارة وسائقها. أخذه السائق لزيارة العمران الجديد والأسواق المليئة بالبضائع الشرقية والغربية وكل النعم التي نالها البلد الصغير من ثروته النفطيّة المفاجئة.

قال الشبيبي للسائق ذات يوم: أريد أن أرى الكويت القديمة. فأجابه: أنا على استعداد لأخذك إليها، لكن السيارة لا تدخل السوق العتيق. قال الشيخ: أنا أستطيع المشي على قدميّ.

وأخذه السائق إلى سوق الكويت القديم، فشاهد الدكاكين المتواضعة. ورأى امرأة جالسة على الأرض تبيع بعض الاعشاب الهزيلة وترشُها بالماء بين الحين والحين من سطل بين يديها. قال السائق: هذه الكويت القديمة. أما صناعة السفن الشراعية فقد انقرضت أو كادت.

* * *

أشاد عبد الرزاق الشيخلي، في رثاء له لمحمد رضا الشبيبي ألقاه في حفلة تأبينه، بمزاياه الكثيرة وأدبه الجمّ، وذكر مواهبه وصبره وجلده في التصميم والعمل ونضجه الفكريّ المنبعث من إدراك عميق وتمييز بين الحقائق والأوهام والانطلاق والجمود، ومجابهته لدنيا الحقائق مباشرة باحثاً عن الجوهر، غير آبه بالظواهر المتغيّرة والمظاهر الخارجية، والتزامه جانب البساطة وهي عماد الحياة ومحورها.

وقال ان التحدّث عن الفقيد الشبيبي ليس يسيراً، إذ شمل جهاده كل الميادين من علمية وأدبية واجتماعية وسياسية، بنظمه ونثره، على مدار الساعة ولنصف قرن من الزمن. وقال إن الحياة التي عاشها والآفاق البعيدة التي امتّد إليها بصره ونفذت إلى أعماق بصيرته تكاد تكون وثيقة تاريخية وسفراً ضخماً حافلاً بمآثره ومحامده لعهدين متعاقبين: العهد العثماني في إبّان احتضاره والعهد العراقي الذي تلاه. وقال إن سيرة الشيخ منبثقة من إيمانه العميق بكرامة الإنسان وحريته ومن مفهومه للسياسة بأنها ترمي إلى الإصلاح الجذري في الإنسان ذاته لتضمن له أخوّته مع الغير وأمنه وسعادته.

ورثى الشبيبي الشاعر المصري عزيز أباظة (باشا) بقصيدة طويلة قال في مطلعها:

قم فأدِّ العزاء للإسلام ... في زعيم وشاعر وإمام

الشبيبي، أين ثاني الشبيبي ... إذاطمّت الخطوب الدّوامي؟

علي الشرقيّ

عليّ بن الشيخ جعفر بن محمد حسن بن أحمد بن موسى بن راشد الشرقي أو الشروقي، وقد قال الدكتور محمد مهدي البصير في الشيخ جعفر (١٨٤٣ ـ ١٨٩٢) أنه كان من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر.

وقال: «وقد يسّر المترجم، وهو في قبره، أنّي أعرّفه بابنه (أي الشيخ علي الشرقي)، ولكن ثقوا أنه كان أنبه شأناً وأعلى قدراً وأسير ذكراً من أن يعرّف». وتنتمي أسرة الشرقي إلى قبيلة بني خاقان العربية، المقيمة على ضفاف الغرّاف في قضاء الشطرة، وكان أول من استوطن النجف منها جدّها الشيخ موسى.

ولد علي الشرقي بالنجف سنة ١٨٩٠، وتوفي والده وهو طفل صغير، فنشأ في كنف خاله الشيخ عبد الحسين الجواهري. ودرس علوم العربية والدين على علماء الغريّ فبرّز فيها تبريزاً، وقال الشعر صغيراً وجوّده شاباً. وكان من الشباب الواعي المتطلّع إلى النهضة الأدبية والفكرية في أواخر العقد الاول من المائة العشرين.

وصف الشرقي طفولته أروع وصف في كتابه «الأحلام» فقال: «ويموت أبو الوليد، ويترعرع اليتيم يعوّضه حنان الأم عن حدب الأب.

وكانت لأمّه جارة من آل الفحّام، ذلك البيت الجليل المنجّم بالعلماء والأدباء، تولّت تعليم الوليد. وكان لتلك المعلمة الحبيبة أخوان هما السيد حسن والسيد محمود، وكان الكثير من ناشئة النجف يتأدبّون عليهما. وكان مجلسهما للتعليم في عمارة الميتم الذي أنشأه الدرويش إبراهيم خان في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسماً داخلياً وبذل عليه أموالاً طائلة، وموقعه في محلة العمارة تحت الطاق المعروف بطاق الدرويش. لقد أودعت المعلمة الوليد عند أخويها، ولما أتقن الكتابة تقدم للدراسة العلمية. وكان يلبس البزّة العربية الشائعة كوفية وعقالاً، ولكن احتراماً للعلم وضعوا على رأسه العمامة. وكان من عادته أن يلف العمامة للشيخ الجديد شيخ قديم محترم. وعندما كوّرت على رأس الشيخ الجديد، دفعها الشيخ القديم ورصّها كي لا تكون قلقة على هذا الرأس، ولكن بكلّ أسف بقيت قلقة حتى الآن».

ثم وصف «الجامعة النجفّية» التي نشأ في أحضانها ودرس في حلقاتها وتأدّب بآدابها وتخلّق بأخلاقها فقال:

«فاتيكان الشيعة وأزهر العراق قبل أن يوجد الأزهر. ولا تمتاز هذه الجامعة بأسلوب فكريّ خاصّ، إنما هو اسلوب الفكر القديم طبعته الكوفة بطابعها: طابعه الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وكانت على الأخص مدرسة علوية أسّسها منبر عليّ عليه السلام ومن تتلمذ عليه من أبنائه وأصحابه...»

ويقول بعد ذلك: «أما طريقة التدريس في النجف فقديمة تتردّد بين الطريقتين

اليونانيّتين: طريقة التحليل وطريقة التفسير. . . ومراحل التدريس في النجف ثلاث: المرحلة الأولى في المقدّمات يدرس فيها النحو وعلم الصرف وعلم المنطق وعلم البيان والبديع. . . المرحلة الثانية: السطوح، وهي دراسة الفقة والأصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ. . . وفي هذه المرحلة يدرس الحساب والجدل والفلسفة النظرية. . . ويدرسون أشكال إقليدس للهندسة، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروز أبادي والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطريحي، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال أبي علي، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي».

ثم يتطرق إلى ذكر المرحلة الثالثة، وهي الدراسة الخارجية، أو كما يسمونها «الخارج» فيقول: «وهي محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب، بل هي أشبه بمذكرات على موضوع مركّز وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث أن يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. . .».

***

لم يكد الشرقي يبلغ مبلغ الشباب حتى مضى إلى كرمنشاه لجباية حقوق للشيخ كاظم الخراساني، ثم عاد مسرعاً إلى النجف بعد تفشي وباء الهيضة في ربوع إيران.

وأكبّ الشرقي الشاب على المطالعة والمناقشة والمباحثة واستشفاف معالم النهضة الأدبية في مصر وسورية ولبنان. واتفق مع نفر من أقرانه على جمع الكتب والدواوين الشعرية وتبويبها وشرحها، فتولوا طبع ديوان إبراهيم الطباطبائي وغيره.

ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤، فلجأ إلى الشطرة، وكان ذلك مبدأ اتصاله بالغرّاف والمنتفق، مسقط رأس آبائه من قبل، وتعرّفه بزعمائها من آل السعدون وسواهم. ثم لحق بالمجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي في الناصرية، وكان له يد في محاربة الانكليز. ونشر الاحتلال البريطاني ظله على بغداد وجنوبيّ الفراتين، فجاء إلى النجف وقدم منها إلى بغداد، ثم عاد إلى المنتفق مساهماً في الحركة الثورية.

رحل إلى الحجار سنة ١٩٢١ عن طريق البصرة والبحر الأحمر وقابل الملك حسيناً في جدّة ومكة وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

أعلاك ربّي، ما أعزّ وأشرفا، علماً على الملك الأغرّ مرفرفا

وقفل عائداً بعد نحو من سبعة أشهر. وقد عين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد(٧ تموز ١٩٢٨) ونقل قاضياً في البصرة (آب ١٩٣٣) وأعيد عضواً بمجلس التمييز الشرعي بعد أمد وجيز (شباط ١٩٣٤)، ولم يلبث أن أصبح رئيساً له (٢٥ كانون الاول ١٩٣٤). وقضى في هذا المنصب نحواً من ١٣ عاماً، حتى عين عضواً بمجلس الأعيان في تموز ١٩٤٧. واختير نائباً أول لرئيس مجلس الاعيان (٥ آذار ١٩٤٩) وجدّد انتخابه في أول كانون الاول ١٩٤٩ حتى عين وزيراً بلا وزارة (١٠ كانون

الاول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠).

وأعيد تعيينـه وزيراً بـلا وزارة في ٧ أيار ١٩٥٣ إلى ١٧ أيلـول ١٩٥٣، ثم في ٣ آب ١٩٥٤. واحتفظ بمنصبه في الوزارات المتعاقبة المؤلفة في ١٧ كانون الاول ١٩٥٥ و ٢٠ حزيران ١٩٥٧و١٥ كانون الاول ١٩٥٧ إلى ٣ آذار ١٩٥٨، ثم من ١٩ ايار ١٩٥٨ إلى ١٤ تموز ١٩٥٨. وقـد استمّـر عضـواً بمجلس الأعيـان إلى ٦ تموز ١٩٥٥، وجـدّد تسميته عينـاً في شهر تشرين الثـاني من نفس السنة إلى ثـورة تموز ١٩٥٨. واعتقل عند قيام الثورة، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة.

وضع مؤلفات منها: عواطف وعواصف (ويحوي جانباً من شعره، طبع ١٩٥٣)، ذكـرى السعـدون (١٩٢٩) الأحـلام (١٩٦٣) العـرب والعـراق (١٩٦٣). وقـد نشر مقالات متسلسلة في المجلات والجرائد، منها: الغـراف والبطائح (في مجلة لغة العرب) والألواح التـاريخية (في مجلة الاعتـدال النجفية) والأحلام والأنديـة العراقية (في جـريدة العراق) ونكت القلم الخ..

توفي ببغداد في ١١ آب ١٩٦٤ ووري التراب في مقبرة أسرته بالنجف.

علي الشرقي الشاعر:

كان علي الشرقي رجل قضـاء ورجل سياسـة، لكنه لم يكن طوال حيـاته الا شـاعراً بالفطرة. تطبّع بالمظاهر الدينية والدنيوية، فتغلّب عليه الشعر في أحرج مواقفه وأشدها قسوة وغلظة وانقاد لزمام العاطفة في مقام الجدّ والصرامة.

ولقد نشر طـائفة من شعـره في ديوانـه الموسوم بـ «عواطف وعواصـف» فأهدى إلي نسخة وشّحها بالكلمة الآتية:

«إذا جـاز أن تحمل الفاكهـة إلى بستـانها فإني أحمل اليكم هـذا الأثر، مع إخـلاص الشاعر».

وكتبت إليه برسالة جاء فيها:

«أمـا الشعر فسحـر وعطر. وهـو شعـر نابض بـالحيـاة، صادق اللهجـة، واضح السّمات، ينطق بلسان البلد والجيل، ويحمل طابع العصر ورسالته. وقد مرّ زمان كان في مقياسه أعذب الشعـر أكذبه، أما اليوم فخير الشعر مـا عبّر عن آلام الشعب وآماله ومشاعر الأمّة في طموحها وتحفزها.

وخير الشعر مـا أفصح عن حبّ المغرم وبهجـة الخليّ وحسرة الشجيّ وأمل الشباب وذكريات الشيخوخة وجميع ما يهز أوتار القلب البشري من نوازع ولواعج.

«ولقد وفّقتم لترديـد نواح البلبل السجين وصداح البلبل الطليق، ولوعـة الفلاح في كـوخه، وتـرجمتم عن نـزعـات الشعب المتطلّع إلى الحيـاة والحرية، ودعـوتم إلى الألفـة والإخاء، وأشدتم بالنهضة والإصلاح، فجاء ديوانكم سجلاً حافلاً للحياة العراقية في النصف الأول من المائة العشرين...».

أجل، إن في شعر الشرقي كلّ ذلك وأكثر من كل ذلك. وشعر الشرقي قبل كل شيء شعر الشعب، فهو يفصح عن أماني الفقراء والكادحين ويعبّر عن مشاعرهم ونزعاتهم، وهو يأنس إلى الأرياف وفلاّحيها ويحنّ إلى مرابعها وأكواخها، ولا سيّما إلى نواحي الغرّاف التي قضى فيها شطراً من صدر شبابه، وقال في ذكرها:

زهو القصور ونزهة الأرياف ... غرف مطّلات على الغرّاف
تلقى الحضارة والبداوة عندها ... بإزاء فرع أو بجنب طراف
أنفت على الأحقاف، فهي مدلّة ... لكنها ببساطة الأحقاف
الفارهات بساطةً وجلالةً ... هذي القصور وغيرهنّ أثافي
نهضت على حمراء دجلة زانها ... صافي الأديم على الأديم الصافي
بمحلة الأغصان تحسب أنها ... من حسنها بمحلّة الأعطاف
ملء المجالس عفّة وطهارة ... ومحبّة وتكرّم وتصافي
معمورة الأطراف، كم من ليلة ... بجوارها معمورة الأطراف
النهر مضفور السّلاسل فلّه ... جري النسيم وكفّ منه الضّافي....
قمر السّما، لك فوق دجلة منظر ... متنّوع الأطياف والألطاف
وكأنّ دجلة شعلة وهّاجة ... سالت أشعّتها على الأجراف

ولا يأنف الشرقي أن يضمّن شعره كلمات أبناء الشعب وأمثالهم وحكاياتهم. ولعلّ هذا الشعر لا يتّسم بجزالة اللفظ ومتانة التركيب لكنه يفيض بالأصالة والإخلاص وصدق اللهجة وطيبة النفس وحبّ البشرية والناس، تقطر منه أنداء اللطف والعطف والحنان كالعبرات الباردة التي تسكبها المآقي الحزينة.

لقد تمنىّ لو تمطر السماء مروءة وحناناً، وروّعته دمعة المظلوم، فقال:

مدّ زعيم لطبيب يداً ... كانت على رغمي ملثومة
قال له: ليس بها من أذى ... فصاح: لا... كفيَّ محمومة
ومرّ من حولها شاعر ... رددّت الدنيا ترانيمه
فقال: ظنّي بمكان الأذى ... قد سقطت دمعة مظلومة!

وعلي الشرقي شاعر الأسى والألم: فقد أباه طفلاً، وذاق مرارة اليتم والحاجة حتى إذا ما ابتسم له بعد لأي الزمان ومنحه السعادة والأمن وأتاح له الحبّ والزواج، فاجأه بموت عروسه في ليلة الزّفاف. فإذا بالشموع التي أعدّت لموكب العرس قد أسرجت في موكب الموت. وإذا بالشاعر قد أخرسه هول المصاب حيناً ثم أنطقه شعراً مؤسياً حزيناً:

شمعة العرس، ما أجدتِ التأسّي — أنت مشبوبة ويُطفأ عرسي
أنت مثلي مشعولة القلب، لكن — من سناك المشؤوم ظلمة نفسي
يا رعى الله للزفاف شموعاً — يتهافتن حول نعش ورمس
عاكست حظّها الليالي فذابت — خجلاً ترسل الدموع بهمس
هكذا ذاب باحتراقٍ فؤادي، — هكذا سورة الدموع برأسي
جلوة أم مناحة لنجوم — يتناثرن بين سعد ونحس
كان حدسي تذكو الأماني شموعاً — واللّيالي خيبّن ظنّي وحدسي

انّ العروس الشابّة التي قضت نحبهاليلة الزفاف لتذكرنا بقصيدة الشاعر الفرنسي أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤)، تلك القصيدة التي قالها في رثاء «ميرتو» التّارنتيّة الفتاة الحسناء التي ركبت السفينة لتلحق بخطيبها حيث تنتظرها السعادة والأغاني والزواج. وقفت وحيدة تحدّق في الأمواج المتلاطمة، فهبّت ريح هوجاء نفخت الشراع وأطاحت بالفتاة في حضن المياه المزبدة. لقد تلقّت الأعماق جسدها الجميل، فخرجت إليها ربّة البحر دامعة العين من كهفها السحيق، وحفظت جسمها من أنياب الوحوش الضارية، وأمرت قيان الماء فأخذنها إلى الساحل واستدعين غيد المروج والمنابع والجبال، فأقمن لها مناحة لم تشهد الأرض مثلها. وقلن لها نادبات: «أسفاً عليك، أيتها العروس، لم تبلغي دار الحبيب ولم ترتدي ثياب العرس، وحلى الذهب لم تحط بساعدك البضّ، ولم يزيّن إكليل الزفاف شعرك المنسدل على كتفيك».

ولا عجب أن يطغى الألم على نفس الشاعر الشرقي فيخاطب البلبل الأسير قائلاً:

أيّها البلبل المعلّق في السجّن — سلام، وهكذا ليَ روح
إن تكن ذكرياتك الورد والأطيار — تشدو فذكرياتي جروح
كلّ يوم يلوح فجر لعينيك — فهلاّ يوماً لعيني يلوح؟..

إنّ هذا البلبل السجين الذي خاطبه في رباعيّاته لم يكن سوى طيف الشاعر نفسه.

لقد كان هذا الشاعر أسير الحياة الاجتماعية يبغي الانعتاق والانطلاق، فهل بدع أن يلتقي وبلبله الحبيب في قفص السجن، كما يقول:

التقى الشاعران في قفص السّجن — فلم يعبآ بحبس وضيق
يرسلان الألحان للملأ الخابط — تيهاً في عالم مصعوق
فكأنّ الأسير غير أسير — وكأن الطليق غير طليق

لقد مزج الشرقي في رباعياته التصريح بالـرمز وقرن السياسة بالاجتماع والمادة بالمعنى فلا بـدّ للقارىء من إمعـان الفكر في خفـايا السطـور ليستشفّ معاني بعيـدة في أغوار الكلمات الظاهرة. وان شـاعرنا ليكثر مـن الصور والاستعارات والتشابيـه والكنايات، أليس هو القائل:

أنـــا أصـــدح بـــاللفظ لمن في صـــــدره المعنــى

والقائل: ثـوب الصداقـة يبلى سريعاً، وبيت الحكم الـذي أسّسوه لـه ألف باب، واليـوم المضرّج بحـر هـائج والغـد المؤمّل في ســاحل الأمـان، والمرآة لا تفيـد في كفّ الأعمى، وماذا يلقط الطائر من دكّان الحدّاد؟، وأية خميرة ترجى من الفطير؟ . . .

وهو يقول:

هـــذي الصـــدور مـــواقـــد خمدت فبثّت بـــالـــدخـــان

ويقول:

إنّـــا، ولا غَـــزْل لنـــا، نحســن فتـل المغـــــزل

ويقول:

مـن وراء المرآة صـــوت ينـــاغي ببّغـــاءً تـــوحي عن المـــرآة

ويقول:

جســـدي قـــارب وقلبي شراع وحيـــاتي حبـل وعقلي نـــوتي

ويقول:

بعـض القلـــوب طيـــور لم تستطـــــع أن تطيرا

ويقول:

بلـــدي رؤوس كلّـــه: أرأيـت مـــزرعـــة البصـل؟

ويقول:

شمعتي بـــالـــرغم من مقـــراضهـــا، كـلّ آن ولها رأس جـــديـــد. . .
شمعـــة طـــاف بها الجمّ الغفير تتـــلالا بـــابتهـــاج وارتيـــاح
تتهـــادى مـن ضريـــر لضريـــر قضـــوا العمـــر عثـــاراً ونطـــاح. . .

***

أقـام الشرقي شطراً من حيـاته في الـريف ورأى نصب الفلاح وعنـاءه ورثى لبؤسـه وشقائه فقال:

أتـــراني بين القـــرى والضـــواحي طفت ظهـــراً وفي يـــدي مصبـــاحي
إن تفتّش عـن ارتيـــاح بـــلادِ فتفقـــد شـــؤونها في الضـــواحي

مــــا لهذا الفّـــــلاح في الأرض روح، أهـــــو مـن معشر بــــــلا أرواح؟
هـــو في جنّــــة ينــــال عــــذابــــاً وهـــو تحت الأشجـــار أجـرد ضـــاحِ
وقـــرى النمل، لهف نفسي، أثـــرى مـن قـــــراه إلاّ مـن الأتـــــراح...
ربّ قصر من فـــوق دجلــة كـــالطّــا(م) ووس للـــزهـــو نـــاشر بجنـــاح
لـــو كشفنـــا أطبـــاقـــه عن أســـاس لـــوجــدنـــاه منجل الفـــلاح!

ولقد ضاق الشاعر بأمر نفسه فقال:

لهفي لخمسين مـن سنّي قــد انــدرست في الكُتْب بحثـــــاً كـأني دودة الكتـب

وضاق ذرعاً بالعقل والفكر واليقين فقال:

ليتني كنـت في الـــريـــاض شقيقــــاً لـــــــورود بــــــدون عقـل ولـبّ

وقال:

انني قـــد غـــدوت أنعم في الشـكّ لأنّي منغّــص بـــــــــــــاليقين

وقال:

وبلـــــــوى البشرِ المكّــــــار أن يمعــن في الفكـــــــــــــــر

وضاق ذرعاً بالتاريخ ورجاله فقال:

في رمــــال التـــاريخ آثـــار أقـــدام رفـــــــاق تخطّت التــــــاريخا
نفخـت في الجراب دهـــــــراً وولّـت فـــورثنـــــا جـــرابها المنفـــوخـــا
وإذا بي مـــــا بين أجـــربـــــة تمشي على الأرض ســـــادةً وشيـــوخـــا

ولقد حسد الطائر السّجين فقال:

ولا يضيرنـك أن غــــــــدوت أسيراً، كـم طليق يكـــــابـــد التنكيــــدا
قفـص من جـــــريــــدة النخـل خير من ريــــاض عن طيرهـــا لن تـــذودا

ونفس عليه أنغامه الفطرية فقال:

بلّـــدتنـــا صنـــاعــة اللحن في القـــول فغّـــــرد لنـــــا بلحـن السّليقـــــه

وقال أيضاً:

إن تكن قـــد سجنـت، يـــا طير، جسماً فأنـــا قـــد سجنـت روحـــاً وجسما

وقال:

إن يكـن قلبـك المولّـع بلـــــــواك فـإنّي بلـــــــــــواي قلـب وراس

وقال:

وهـــــــــــذا قلبـي المغلـق مـن يفتـح أبـــــــوابـــــــــه؟

وقال من فرط الوجد والألم :

عسى أن تـــرقص الـــدنيـــا ، ولـــو رقصـــة مـــذبـــوح!

وأساء الظن في المجتمع فقال :

لست أخشى عليك من ســـارق قط ولكن خـــوفي من الحرّاس

والشرقي بعد ذلك عدو التعصّب والرياء ، فهو يقول :

ذممـــت التعصّـــب مـــن قبـــل ذا وهـــا أنـــا في ذمّـــه لا هـج

دعـــونـــا نـــوسّع آفـــاقنـــا ليقبلنـــــا المزج والمازج

أقـــول ، وقـــد سألتني الـــرفـــاق : أأنت على وضعنـــا خـــارج؟

أبى الثمـــر الفجّ عن جـــذعـــه فصـــالاً وينفصل النـــاضج

ويقول :

سبعـــون معصيـــة قـــد أتيتهـــا في الخفـــاء

كـــانت أبـــرّ وأزكى من طـــاعـــة في ريـــاء

ولقد هام علي الشرقي بوطنه وبلاده ورثى لحالها وطلب رقيّها ورفعتها ومجدها ، وردّد في شعره ذكر أقطار العروبة من مصر والشام والحجاز ونجد إلى طر ابلس وفلسطين .

وأقضّ مضجعه خمول العراق ، فقال :

نطقت بحـاجتهـا الشعـوب وأفصحت وأرى عـــراقـي واجماً لا ينطق

وكأنّ هـــذا الشرق سفـــر غـــرائب شرحـــوا عليـــه الـــدارجـــون وعلّقـــوا

ختمت صحـــائفـــه وجئنـــا بعـــدهـــا حتّى كأنّـــا فيـــه فصل ملحق

وفي موشّحـه «صفير العسس» عرض لأحداث الدهـر في بلاد الرافـدين من سقوط عبد الحميـد ودك عرشه وغليـان الثورة القـومية إلى تشتت الآراء وتخاذل الرجـال . ولقد طالما راودته الأحلام ، فرأى الفراتين وقد ازدهرت على ضفافهما نينوى وبابل وأور ، ومرت مواكب آل ساسان وأكاسرة المدائن ، ورأى شبح الموبذان خاشعاً بين يدي سابور.

ثم ازدحمت الجموع في يـوم ذي قار والقـادسية ، وارتفعت رايـات الرشيـد والمأمون ، وهجمت المغول ، وجاءت دولة آل عثمان ، و إذا العين تحلم بـدولة عربية ، و إذا العراق قد بنى بيتاً له ألف باب ، واحتفل بدولة الألقاب ، فنعم الغدوّ ونعم المآب .

تألم الشاعر لحال بلاده فقال :

لم يبقَ وجـــه بشـــوش في الكـــوخ أوفي الخصـــاص

وقال :

في جـــانِبَيْ قطـــري زيت يفـــور		فـأين أيـن الأمّـــة الشـــاعلـــة؟

وقال :

ليس تجديك سكتـــــة الأفـــواه		حين نمسي بثـــورة في الصـــدور

والشرقي شاعر يجيد الوصف ولا سيّما وصف الحالات النفسية والنوازع الخفية، فهو يقول :

شـــاعـــــر خـــاشع يحسّ بما في		النفس مـن وحشـــة وفـــرط التيـــاع

رجّـف الصـــوت بـــالحنين وأصغـى		لـــــــرفيـف الأرواح في الأسماع

ذلك علي الشرقي الرجل والشاعر!

إيه، يا أبا إحسان، أيها الإنسان الفاضـل. إنّي لأذكر ساعات وأياماً وسنين مضيئة قضيتها متمتعـاً بأدبك الرفيع ولطفك الجّم ومـودتّك الجميلة المتواضعـة. لقد كنت في عهـدك الأخير تشعر بـدنّو الأجل، سـافـرت للاستشفـاء في لندن، ثم عـدت وكأنّك متجّرد عن الحيا ة الدنيا. فأسرعت بطبع كتابين لـك وهيّأت كتاباً ثالثاً لم يمهلك الزمن لنشره. وكنت تقول: ليـس لي شيء من المتاع، فداري وسيّـارتي وكلّ ما ملكت يميني إنما هي لإحسان وللعـائلة . . . ولا أنسى أنني زرتك قبل مرضك القـاتل الأخير، وكان لديك جمع من الـزوار، فلما استأذنت بالخروج ومضيت في توديعي متفضّـلاً إلى الباب، قلتُ: أريد أن أستشيرك في أمور، يا أبا احسان، فـاسمح لي أن أزورك في فرصة قريبة. وقلت لي: بل عـد الآن، وأنا كفيل بصرف الـزوّار، فنختلي ونتكلم. ولكنني قلت: لا داعي للعجلة، وانصرفت ولم أعلم أن القدر يقف بالمرصـاد، وأنّ زيارتي التالية ستكون للسؤال عن صحتّك وأنت راقـد في الفراش تعاني أوصاب الداء الفتّـاك. ثمّ دقّ جرس التلفون بعد أيام قليلة، وكان نعيك الذي صكّ السّمع وأضنى النفس وأدمع العين.

***

كـان الشيخ علي الشرقي متـواضعاً، أنيس المحضر، لا يـأنف، وقد أصبح شـاعـراً عربيـاً ووزيراً عـراقياً مـرموقاً، أن يتحـدث عّما لقيه في صبـاه وصدر شبابـه من ضيق وشظف عيش، حتى شقّ طريقه في الحياة وبلغ منزلته الرفيعة.

وقد حدثني يوماً أنه كان، وهو شابّ، يعاني عسراً شديداً حتى ضاقت به السبل ولم يعرف باباً للأمل. وفي تلك اللحظات العسيرة طرق بابه وجاء أحد أبناء شيوخ العشائر يسأل عن الشيخ علي الشرقي.

ولما عرّفـه بنفسه قال القـادم: ان الفرس عربيـة أصيلة ولكنها لا تسـاوي أكثر من ستين ليرة ذهبـاً، فإذا شئـت دفعت لك ثـلاثين ليرة عن نصـف ثمنهـا، أو رغبت في أخذها فادفع لنا ثلاثين ليرة وخذها، بارك الله لك فيها!

ولم يدر علي الشرقي قصة الفرس ولم يسأل عن أمرها، ولا ساوم في ثمنها، بل قال :

هات ثلاثين ليرة واحتفظ بالفرس.

وقبض المبلغ وحمد الله الذي فرّج كربته من حيث لا يعلم.

ومضى اسبوع أو اسبوعان، وجاء صديق علي الشرقي إلى النجف وقال له: هل قبضت نصف ثمن الفرس؟

قال: قبضت ثلاثين ليرة، وحقك محفوظ فيها. ولكن حدثني ما القصة، وما شأنك في الأمر؟

قال: انني نازل في مضارب الشيخ... رئيس عشيرة.. وقد أدركته الوفاة، فاستدعاني وقال لي: أعلم ان هذه الساعة آخر عهدي بالحياة، ولي فرس أصيلة أريد أن أصرف نصف ثمنها في وجوه البرّ، فأي جهة من جهات الخير أجدر بها؟ فقلت: أوصِ بنصف ثمنها إلى مقام علي الشرقي (وهو مزار يقابل قرية علي الغربي على الجانب الآخر من نهر دجلة). وأوصى الشيخ، ثم قضى نحبه.

وأتم الصديق حديثه قائلاً: وجاءني أولاد الشيخ الراحل يسألون انفاذ وصيّة والدهم، فقالوا انهم قدّروا ثمن الفرس بستين ليرة ذهب، وسألوا عن مقام علي الشرقي، فقلت: اسألوا عنه في النجف الأشرف. وأرسلوا أحدهم إلى النجف، فكان ما رأيت وسمعت!

قال علي الشرقي: بل كان ذلك الفرج الذي أرسله الله.

ولقد تحدّث علي الشرقي في «الأحلام» عن فقر النجف المذقع وأحلامها العريضة، تلك البلدة التي كما قال:

فيها مفاتيح لأبواب	الرجا وبها مغالق
ولها مجاز ينتهي	بالسّالكين إلى حقائق
ملأى بكل طريفة	من كلّ معجزة وخارق

حار ورفاقه من الشباب في التماس الرزق، فألفوا «شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية. ثم ضربوا في القرى والدساكر ومنازل الريفيين والعشائر، وباتوا في الخيام والعراء وحجر الطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب أمطارها، وجابوا ساحات الحرب ودهاليزها الخلفية وميادين الثورة والجهاد... وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجوّلاته وتطلّعاته، صفحات تمتاز بنثرها القلق القافز المتعثّر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسّو في اعترافاته. وقد قال:

فصح الشعور به، ولم أكُ شاكياً	إلاّ لكوني شاعراً وفصيحا
في النفس أشياء، فهل من موضع	حرّ الفضاء لأشتكي وأبوحا؟

امتحن علي الشرقي الحياة وعرك الدهر فخرج بحكمة عملية لخّصها بقوله :

«وانّي أكاد أن أكون مخضرماً : لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، ولكني التقيت مع هـذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الآخـر. لقد تتلمـذت على منبر ذاك وتـوسطت حلقـة هـذا ، وأغـرب مـا أدهشني وحـدة الجوهـر واختـلاف الأسلوب . الضجـة التي سمعها المعّـري في الـلاذقّية ، وان الاصـوات التي كانت مرتفعة في أروقـة البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرنـاطة واشبيلية ، وما كـان يتصاعـد من أبواق دراويش المتصـوّفة ومن قعقعـة السيوف الخشبيـة التي يتكىء عليها خطباء الجمعـة ، كلها تطلب البلسم للجرح وتريد العلاج لهذه الـدنيا المريضة ، ولكن كلّ ما جاءت به مسكّن لا العلاج الشافي . وكـذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الأكـوام من المؤلفـات والمحـاضرات والمجلات والجرائد ومكـاتب السيـاسيين ومنـابـر البرلمانات وصفـوف الجامعات وأنباء المراسلين ، وكلّ مـا سجّلته الأقلام ورتبتـه حروف المطـابع ، تلك الأقلام وتلك المطـابع التي تكتب وتطبع بحبر رماد الحقّ . فقـد قيل إنّ الباطل أحرق الحقّ ، وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا إلاّ رماد الحقّ ، وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون . والدنيـا في يومها وأمسها برغم الانقلاب الأول والثـاني أساليب تتبـدل وظواهـر تتطّور، ولكـن كلّ ما جـاءت به عـلاج مسكّن وليس بالشافي .

«إنك إذا تقصّيت وفحصت بعمق لم تجد في الرؤوس شيئاً . وهـذا الإنسان في قديمه وحديثه لم تنفعه تفّاحة آدم ولا صمّـونة مولوتوف(*) ، بل هذي وتلك طـردته من الجنّة وأبعدته عن النعيم . . . »

الشيخ علي الشرقي :

كان عاطفياً سريع الإنفعـال في حياته الشخصية والأدبية ، وقد أثـر فيه يتمه ونشأته الصعبة في البيئـة النجفية الجامدة تأثيراً عميقاً . ولـذلك نرى شعره يختلف اختلافـاً بيّناً عن شعر معاصريه بكثرة مجازاته وإيماءاته وصوره الغريبة وحدبه على الفقراء والفلاحين والكادحين .

لم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى ثـار على بيئته الجامدة ووجد نفسـه سجيناً يصبو إلى الحرية والانطـلاق ويرنو إلى آفـاق بعيدة خارج مجتمعـه . وهو يحمل على رجـال الدين المتـزمتين ويداعب الأفكـار الحرّة الجديـدة التي انبعثت من النهضـة الفكريـة في مصر ولبنان على قدر ما تسمح به ثقافته الدينية الأصيلـة وعدم معرفته باللغات الغربية . وقد جاء نثـره وشعره متماوجين بين القديم والحديـث لا يستقر لهما قرار شأن نفسيتـه القلقة المضطربة .

(*) صمونة مولوتوف (او قنينة مولوتوف ، على الأصحّ) اسم أطلق خلال الحرب العالمية الثانية على قنابل بدائية استعملها الروس في الدفاع عن بلادهم ، ومولوتوف وزير الخارجية السوفيتية عهدئذٍ .

ولعل هناك بوناً شاسعاً بين الشرقي الشاعر والشرقي القاضي الشرعي العالم الناجح والشرقي الوزير الذي مالأ الوضع الذي ينتقده وسايره لينعم بمنصبه. لكنه كان دائماً مخلصاً وفياً لأصحابه معتدل السيرة غير مندفع في خصومته ونقده. عرف في القضاء فقيهاً ملماً بالأحكام الشرعية متمسكاً بالتسامح والتزام مفاهيم العدالة في تطبيقاته وتخريجاته. أما في الوزارة فكان شفافاً كالماء الذي يتلوّن بلون الإناء، فلما جاءت ثورة ١٤تموز ١٩٥٨ وقضت على العهد الملكي الذي زامله في حياته السياسية مضى في «أحلامه» يحمل على سياسة الامير عبد الاله ونوري السعيد. ومن الحق أن يقال إن شعره قبل الثورة كان زاخراً بالشكوى والتبرّم من الأوضاع السائدة، فكان ثمة ستار فاصل بين حياته العملية والفكرية لم يحاول رفعه. لم يكن الشيخ علي الشرقي من الرجال المكافحين في سبيل المبادىء والآراء، الراضين بالتضحية وتحمّل المشاقّ، بل كان بطبعه سهلاً ينقاد للواقع ويماشي ويجامل إلى أبعد الحدود.

وقد قال في احدى رباعياته:

يا رامي الشجر العالي بأكرته،	هلاّ تعلّمت أخلاقاً من الشّجر
ترميه بالحجر القاسي بلا خجل	وإنه دائماً يرميك بالثمر

لقد هادن المغالين المندفعين والمعتدلين المسايرين وقنع برفاهة العيش وهناءة الأسرة والقبيل واكتفى بالنقد البريء والقول الهادىء، فقال:

هذي الرؤوس ولكن كلها وجع،	وذي العيون ولكن كلها رمد
وكم صدور بهذا القطر فارغة	جوفاء ليس بها قلب ولا كبد
صدور أندية في جهلها انتفخت	حتى تشابه فيها الهرّ والأسد

وصحّ فيه قوله:

يا بلاداً تجهّمت بظلام	ألمصابيح فيك ملأى بزيت
إنني هامس بأذنيك قد كنت	ولكن لا أريد أرفع صوتي

وكان المسالم الذي قال:

ما لدار السلام أضحت برغمي	تشتهي أن تكون دار الخصام؟
تنطح الصخر في قرون الطين	وتغزو الأمجاد بالأقزام

***

اطلع احد شعراء النجف المتزمتين على منظومة إيليا أبي ماضي «لست أدري» فعارضها بمنظومة مثلها حسب أنها نقضت كل شكوك الشاعر المهجري وجعل عنوانها «أنا أدري». فانبرى له علي الشرقي بمعارضة جديدة مختصرة ختمها بقوله:

أنت مجنون ولكن لست تدري،	أنا أدري.

علي الشـــرقي :

حـدثني علي الشرقي أنـه جـاء من النجف إلى بغـداد بعـد أمـد قصير من احتـلال الانكليز لها سنـة ١٩١٧ ونزل في بعض خانات الكـاظمية . وتحلّق روّاد الخان عصراً في الساحة وأخـذوا يتحدّثون عن الأتراك ومـا جنوه على العراق فسلقوهم بـألسنة حداد ، وقال بعضهم إن الأتـراك كانوا كفّاراً والإسلام بـريء منهم . . . فاعترض علي الشرقي ، وكان جالساً معهم تمضيةً للوقـت ، وقال إن الأتراك مسلمون ولا ريب ، وليسوا كفّاراً ، والأولى انتقادهم بأنهم علّـة تأخر البلاد التي حكمـوها نحواً من أربعة قـرون في دياجير الجهل والفقر . . .

وفي صباح الغد مضى الشرقي إلى بغداد ودخل السوق وجلس في دكّان السيد محمد رحمة الله ، وكان جعفـر الشبيبي عـاملاً لديـه . وفيما هم يتحدثـون إذ جاء بعـض أفراد الشرطــة وتفحّص وجـه علي الشرقـي وقـال لــه : أنت علي الشرقي القــادم أمس من النجف؟

قال : نعم

فأشار إليـه الشرطي أن يرافقه إلى «خـان دلّة» وهو آنـذاك مقّر الشرطة الانكليـزية . ومضى بصحبته فأدخل على قوميسير (مفوض شرطة) انكليزي يتكلم العربية بطلاقة ، وقال له : أنت علي الشرقي (ومضى يسرد حياته وأعماله) . ثم سأله : ماذا قلت أمس في خان الكاظمية وأنت جالس تتسامر مع الجماعة؟

فأخبره الشرقي بما دار الحديث حـولـه ومـا قالـه هـو نفسـه ، فقال المفـوض : هـذا صحيح ، وكلامك لا غضـاضة فيه . لكنّ العـوامّ لا تفهمه وتؤوّلـه شتى التأويلات في هذه الظروف التي تخيّم عليها سحابة الحرب ، فالأولى أن تحذر الكلام وتلوذ بالصمت .

وأذن لـه بالـذهاب بعـد هـذا التحذيـر ، فخرج وهـو يعجب لـدقّة الاستخبـارات البريطانية .

عبد الحسـين الأزري

عبد الحسين الأزري من شعراء الطبقـة الثانية التي برزت بعـد رائدَيْ النهضة الأدبية الزهاوي والرصافي . لكنه بقي محافظاً إلى حدّ ما ولم يساير التجديد إلى آخر أشواطه شأن محمد رضا الشبيبي وأخيه محمد باقر وعلي الشرقي وأقرانهم .

نسبـه علي الشرقي إلى الأسرة الأزريّة المتفـرعة من محمـد بن مراد التميمي البغـدادي المتوفى سنة ١٧٤٩ ، وهو أول من لقّب بالأزري لتعـاطيه بيع الأُزر المنسوجة من القطن والصوف ، وقـد نبغ من هذه الأسرة الشـاعران محمـد كاظم (١٧٣٠ ــ ١٧٩٦) ومحمد رضا المتوفّى سنة ١٨٢٤ .

لكنّ جعفر الخليلي يذكر مستنداً إلى أصحّ المصادر أن الحاج عبد الحسين بن يوسف ابن محمد المعروف بالأزري ابن محمود بن ابراهيم الحضيري التميمي لا صلة له بآل الأزري المتقدم ذكرهم سوى أنّ أحد جدوده من الحضيريين تزوج بابنة الشيخ محمد رضا أخي الشاعر الشيخ كاظم فطغت شهرة الأزرية على هذا لبيت.

ولد عبد الحسين الأزري في بغداد في شهر شباط ١٨٨١، ودرس في مدارسها الإبتدائية. ثم تتلمذ على الشيخ شكر الله قاضي الجعفرية فأخذ عنه العلوم العربية والدينية. وأكبّ على مطالعة الشعر والأدب، ونظم القريض وهو يافع. عمل في التجارة حيناً، وهي مهنة أسرته، وكان موظفاً في شركة ترام الكاظمية.

وافتتحت المدرسة الجعفرية في بغداد سنة ١٩٠٨ فألقى في حفل الافتتاح قصيدة قال فيها:

زيدي بنيك محاسناً وجمالا	ودعي الحوادث تقنع العذّالا
وامشي بهم مشي الهلال معانياً	حلك الدّجى حتى يتمّ كمالا

وأعلن الدستور العثماني في تلك السنة فكفل حرية الكلام والصحافة. وأصدر الأزري جريدة «الروضة» (٢٢ حزيران ١٩٠٩)، لكنها أغلقت قبل مرور سنة على صدورها فشفعها بجريدة «مصباح الشرق» (أول آب ١٩١٠). وصدرت هذه الصحيفة أشهراً ثم أصابتها يد التعطيل.

وأصدر بعد ذلك جريدته الثالثة «المصباح» (٧ آذار ١٩١١) فـ«المصباح الأغرّ» (١٤ تشرين الثاني ١٩١١) وظلّت تصدر ثلاث سنوات. وتولّى الأزري في الوقت نفسه ادارة مجلة «العلم» التي أصدرها هبة الدين الحسيني الشهرستاني.

ولما نشبت الحرب العظمى وخاضت الدولة التركية غمارها، نفي إلى قيصرية الأناضول مع لفيف من أحرار العراق ورجال الفكر والإصلاح، فمكث في منفاه نحواً من سنة وعشرة أشهر. وسمح له بالعودة إلى بغداد مع صحبه سنة ١٩١٦. وقال يذكر وادي أرجيوس من قمم جبال طوروس القريبة من قيصري:

وادي أَرَجْيُوس، حسبي ما أقاسيه،	شيبّت رأسي كما شابت نواصيه
كفاك سجن غريب بين مجتمعٍ	يعدّه كأسير من أعاديه
ضيّعت، ويلك، شطراً من شبيبتهٌ	قد ظنّه برغيد العيش يقضيه
يشكو إلى الليل من صبح يعيد له (م)	البلوى وللصبح من ليل يداجيه

ويحنّ إلى بغداد فيقول:

إذا ذكرتك، يا بغداد، أرقّني	ذكرى حبيب بروحي كنت أفديه
تركته ساعة التوديع في وَلهٍ	لم يدر كيف عن الأنظار يخفيه

وبين جنبيــــه نفس لا تطـــاوعــــه   على النـــوى وفـــؤاد لا يـــواتيــه . . .

وهي من رقيق الشعر تذكّرنا بهائية ابن زريق البغـدادي(لا تعذليه فإنّ العذل يولعه) ونونية محمود سامي البارودي :

محا البين مــا أبقت عيـــون المهـــا منّي   فشبت ولم أقـضِ اللبّـــانــــة مـن سنّي

أصدر الأزري بعـد الحرب مجلة «الإ صلاح» (٢ آب ١٩٢٤) فلم ينشر منهـا سوى عددين .

وانتخب نائباً عن الديوانية في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٤) فلم تدم نيابته الاّ أشهراً إذ حلّ المجلس في نيسان ١٩٣٥ . وقد قال في المجلس النيابي :

يـــــــا رواق المجلس الحافـل   بــــالــــوفـــد الضيـــــوف ،
يــــا جنـــاح المطعـم الغـــاض   بـــــــرواد الـــــــــرغيـف ،
أيها الحافـظ لــــــــلآثــــــار   ربّـــــات الــــرفـــــوف . . .
حـــــــرت في الأمـــــــر، فهـل   عنـــــــدك مـن رأي حصيـف؟؟
كيـف مـــــــالـت كفّــــــــة   الميــــزان بـــالـــوزن الخفيـف؟

وعدّ المجلس صالة تمثيل هزلي تحرّكه الإشارات من وراء الستار ويعيش جوقه اللاهي على كدّ الألوف من المواطنين . وقـد قال الشاعر العراقي في القرن التـاسع عشر ـ ولعلّه عبد الباقي العمري ـ :

صـــور وأشبـــاح تـــروح وتغتــدي   خلف الستــــارة والمحـــرّك بـــاقي

وكـان لـلأزري بعض الإلمام بـاللغـات التركية والفـارسيـة والفـرنسيـة . ومن أولاده الوزيـران المهندس عبد الأمير والاقتصـادي عبد الكريم . أدركـه الحمام في بغداد في ١٧ كانون الاول ١٩٥٤ .

مـؤلفـاتـه :

له شعر نشر في معظم المجلات والصحف العربية ، ثم جمع في ديوان طبع في بيروت سنة ١٩٧٩ بمقدّمة للشيخ علي الشرقي . ووضع تاريخاً للعـراق قديماً وحديثاً وروايات متها : قصر التاج ، بـوران ، بطل الحلة ، وكلها لم تطبع ، ومجموعة مقـالات في السياسة والاجتماع والأخلاق .

شعره :

عبـد الحسين الأزري شـاعـر محافظ في معـانيـه ومبـانيـه ، جـزل الألفـاظ ، مشرق الديباجـة . ذكر علي الشرقي مزايا شعـره فقال : «هو إقليمي في فنّه ، انسـاني في نزعته ، قومي في أهدافـه . وبما أنه ترعرع في أحضـان الثورات والانتفاضات فقـد كان يكثر في شعره النقد الـلاذع وتصطبغ قصائده أحياناً باللون القـاتم . . . يحب من الشعر الخيال

الجميل ويبدع في الأسلوب القصصي».

وقال جعفر الخليلي إنّ الأزري، إلى جانب شاعريته الفياضة، محدّث بارع وظريف لبق. كان على جانب كبير من الوقوف على التاريخ العربي، وقلّما روى شيئاً دون أن يستشهد بأقوال شعراء الجاهلية والإسلام والوقائع التاريخية. وكان لغوياً واسع المعرفة، خفيف الروح، يعشق الجمال في كلّ شيء ولاسيما في المرأة. (اهـ)

امتاز شعر الأزري بالجزالة والرواء. وهو شاعر وجدانيّ قبل كلّ شيء. أليس هو القائل:

خطأً كان، فاذهبي بسلام ... واغفري ما اقترفتُ من آثامي
وتناسي بحرمة العهد ما كنت ... تقاسين في سبيل غرامي
من عتاب مرّ وآلام شكوى ... فيهما قد تصرّمت أيامي
غرني طيفك الملمّ بجفني ... حينما كنتُ غارقاً في منامي
وتخيّلت أنني فزت بالقرب ... وأدركت منك بعض مرامي
لست أدري، وليتني كنت أدري، ... أنا في سورة من الأحلام...

والقائل:

صدق الهوى، ما كلّ ودّ صادق، ... فلكم تذرّع بالوداد مماذق
ومكابرٍ بالعشق لو كاشفته ... لعرفت منه سرّ ما هو عاشق...
أحمامة الوادي، سبقتك بالغِنَا، ... لولا فمي بالماء دونك شارق
ولربما سكت الحزين، وفي الحشا ... نفس معذّبة وقلب خافق

وقال يخاطب شجر البان:

هل مسّك الوجد مثلي، أيها البانُ ... فآذنت بذبولٍ منك أغصان؟

سأل الشاعر شجر البان: هل روت له الحمامة حديث الهوى مشوباً بالأشجان والأحزان، وهل اتخذت الظباء ملجأ في ظله الوارف الفينان، ثم أمست مغانيه قفرة موحشة كنفس الشاعر الولهان؟

وفي قصيدته «اليتيم» التي أنشدها سنة ١٩٢٥ في حفلة المعهد العلمي لرعاية الجمعية الخيرية للأيتام يقول:

هدأ الدجى لولا أنين عليل ... ومُمدّد بسقامه مشغول
ونشيج وهي خشية من أنها ... تبقى وصِبْيَتُها بغير كفيل

طال السّقام على الشقّي المريض، وبجانبه صبية صغار وحليلة تتكّلف الصبر الجميل، ومن الصبر ما يثقل ويرهق إرهاقاً. وقفت عند سريره تكفكف دمعها وتنظر

إلى أولادها وقد باتوا على الطوى. حتى إذا ما قضى ربّ الأسرة بقيت المرأة المفجوعة تعاني البؤس، حتى سئمت الذلّ ووردت حياض الموت تاركة أيتامها ظعائن في قفر راحت مشتّتة بغير دليل.

وقصيدة الأزري مؤثرة حزينة تبتدىء وتنتهي بالفاجعة على عادة شعراء زمانه وفي مقدمتهم الرصافي ناظم «أمّ اليتيم» و «اليتيم في العيد».

وفي شعر شاعرنا، أنّات وحسرات، فهو نفسه قد ابتلي بالمصائب فقال:

عشتُ دهراً فلم أجد غير ما بتُّ (م) أقاسيه من نوائب دهري
غصص لو حسبتها لتلاشت دون إحصائها دقائق عمري

فلا عجب أن أصبح سيّء الظن بالدهر وبالناس.

ألم يقل:

أضحكتنا، وربّ ضحك بكاء، فترة من زماننا رعناء

وقال أيضاً:

نحن في كلّ غُدوة ورواح هدف الموت والقضاء المتاح

وقال:

لم يبق في الناس موثوق بعفّته إلاّ الذي عصمته رحمة الباري

وقال:

تمشي بنا القهقرى مَشْيَ الكسيح بها دنيا تقدم أذناباً على الراس

وقال:

قد ذهب الصدق وظلّ اسمه، يا ليته ولىّ مع الصّدق

وقال يرثي لحال الأديب:

جهلوه في قيد الحياة، وبعدها لمّا مضى أسفوا على فقدانه
فكأنّهم فيضان دجلة حينما يأتي إلى الوادي بغير أوانه

وقال يذكر صديقاً خانه:

ولي صاحب قد كنت أوثر حبّه فلما أساء انسل من قلبي الحبُّ
لقد خانني فيماعليه ائتمنته وربّ أذى مستقبح بعده العتب

وقال، ولعلها الغاية في الشكوى من العقوق والكنود:

حسبي عتاباً على من قد خلصتُ له وقد جفاني أنّي لا أعاتبه
ممّن تحذّر من صُلبي نفضت يدي، فكيف أرجو الوفا ممن أصاحبه؟

والأزري شاعر وطني تألّم لحال بلاده وسائر أقطار العرب والشرق وطلب لها الحرية

والعلم والنهوض. فها هو ذا يخاطب وطن الرشيد قائلاً:

وطني، لأجلك قد عدمت قراري ... وسئمت فيك حياة هذي الدار
أحيي الليالي والعيون هواجع ... وهواجسي في جنحها سمّاري

حتّى يقول:

ناديت أوطاني، وما أعني بها ... ناديت غير دوارس الآثار
الناثرات فضائلي ومفاخري ... والشاهدات بعزّتي ونجاري
والناظرات إليّ نظرة آمل ... إحياء مجد دارس وفخار
والباعثات بنفسي الشّمم الذي ... يأبى الحياة بذلّة وصَغَار...

ويقول في قصيدته «المجد مكتسب»:

دم ذاكراً فيك، يا شعبان، من وثبوا ... فسوف يحفل في تمجيدك العرب
واحفظ لهم عهد صدق عند نهضتهم ... بنوده الشرف الموروث والحسب
واسعد بقوم على ورد الرّدى عقدوا ... راياتهم أو ينالوا كلّ ما طلبوا...

ويقول في قصيدته «مظاهر ودّ كلّهن مصائد»:

ألا أيها الوادي الكئيب الذي له ... على بؤسه مجد طريف وتالد
لقد كنتُ أرجو أن تحلّ من الإبا ... محلاً به تلقى إليك المقالد
ظمئنا وللأغيار فيك موارد ... إذا علّ منهم صادر حلّ وارد

ويقول في قصيدة أخرى:

ليس يجدي من الضعيف الكلام، ... يسمع النّاس ما يقول الحسام
إنّما الحقّ سلوة العاجز الأعزل (م) ... فيها لو جارت الأحكام
يتسلّى به كما يتسلّى ... بحديث الصّبابة المستهام

ولا يفوته ـ على عادة شعراء عصره ـ أن يطلب العلم لأمته، فيقول:

نال فيك الغرب، يا علمُ، المراما ... فغدا لم يَرْعَ للشرق ذماما
أشرقت شمسك في الغرب ولم ... ترَ من آثارها إلاّ ظلاما...

حتى يقول:

يا بني الشرق، خذوا العلم ولا ... تجعلوا منه إلى الظلم دعاما
واتقوا عادية الدهر به، ... فهو العروة لا تخشى انفصاما

ثم يلتفت إلى وطنه فيخاطبه قائلاً:

أيّها القطـــر الــــذي في مجده | ضـــارع النجم علـــوّاً ومقـــامــا
كلما رمـتُ أنـــــاجيـك بما | في فـــؤادي قطع الـــدمع الكـــلامــا
لـــك في عهــــــد حمورابي على | ســـائر الأقطـــار فضـل لا يُســـامَى
وعلى آثـــاره قـــد شهـــدوا | أنّك المبـــدع في الأرض النّظـــامـــا
بــــدأ العلم بمغنـــاك فهـل | فيـــه تحظى اليــوم بـــدءاً وختـــامـــا؟

خلا شعر الأزري من المديح باستثناء الأماديح النبوية والمراثي الحسينية. لكنه رثى رجال عصره، وفي طليعتهم الملوك الهاشميون حسين وفيصل وغازي، والسياسيون محمد جعفر أبو التمّن ورستم حيدر وسعد زغلول، والأدباء الزهاوي وشوقي والرافعي والمنفلوطي، والزعماء الروحيون محمد تقي الشيرازي ومهدي الخالصي، الخ. ولعلّه الشاعر العربي الوحيد الذي رثى شاعر الهند طاغور، وإن يكن الأدباء كتبوا عنه وترجموا له كثيراً ومنهم مصطفى صادق الرافعي. قال الأزري في طاغور:

أيّها الـــراحل الـــذي كـــان يشـدو | وهـــو رهـن القيـــود والأغـــلال
مثلما تصـــدح الطيـــور صبـــاحـــاً | مـن وراء الأقفـــاص والأقفـــال

والحقيقة ان طاغور لم يعرف القيود والأقفاص، بل شدا وترنّم حراً طليقاً، فلقي التكريم في مواطنه وفي بريطانية والمحافل الدولية التي منحته جائزة نوبل للآداب. واقتصر نضاله في سبيل الهند على اعادة الأوسمة التي منحته إياها الحكومة الانكليزية بعد الحرب العظمى الاولى.

وقال الأزري:

لم تصـــل للكمال نفـــس، ولكـــن | كـــدت فيهـــا تجتـــاز بـــاب الكمال
أدب لــــذت من شجـــونك فيـــه | عـــدت فيـــه بمعجـــزات الخيـــال
خطـــرات شفـــافـــة ككـــؤوس | مـن رحيـق معتـق سلســــــال
أو نسيـم بين الـــريـــاض بليـل | أو كماءٍ عـــــذب المذاق زُلال...

وهو يستطرد في رثاء الزهاوي إلى حكمة الحياة والموت، فيقول:

ضرب الغمـــوض على الحياة حجـابـه، | فـــارفـق بنفسك، أيها المتعمـقُ
قصرت خطـاك عن الـوصـول ولم تـزل | تـــدنـــو فتبعـــد أو تعـــوم فتغـــرق
مشت العصـــور على غـــرار واحـــد: | نفس بها تحيـــا وأخـــرى تـــزهـق
والأرض تثمـــر والمنيـــة تجتني، | والليـل يجمع والنهـــار يفـــرق
والـــدهـــر كـــالبحـــر الخضمّ يفيض في | رحم الـــذين مضـــوا ويجرف من بقُـــوا
.... | .... الـــخ

ويرثي ولداً احتسب به صبياً فيقول ملتاعاً:

بين نشر الدجى وطيّ النهار — سبق الشمس للمغيب هزاري...

أيّها الحاملون للقبر دُرجاً — من عطور أوباقةٍ من بهار،

كفّنوه بالورد فهو أخوه، — واجعلوا القبر سلّة من نضار

لا تهيلوا على الأقاحي تراباً، — فحرام تَعَفُّر الأزهار

ويرثي قريبة له عزيزة عليه فيقول:

كأنك في قبرين: قبر بأضلعي — يصونك مما بتّ تلقَيْن في اللحد

أجدد فيك العهد كلّ عشية — وإن فصمت أيدي المنون عُرَى العهد...

وقبرٍ به وَسَّدْتُ خدك تُربه، — وبالرغم مني بتِّ عافرة الخدّ

وقفت عليه خاشع القلب مطرقاً — كأني تمثال من الحجر الصَّلْد

وهو يرثى سعد زغلول فيطلقها صرخة وطنية مدوية، ويرثي أحمد شوقي فيمجّد الأدب ويكبر الشاعر والأديب، ويرثي يوسف رجيب فيأسى لهوان الأديب الحرّ ويحزن لبؤسه وشقائه.

والمواضيع الأخرى التي يطرقها الأزري يماثل معظمها تلك التي شغلت بال معاصريه من الشعراء.

فهو يرثي لحال وطنه ـ ذلك الوطن الذي قال فيه:

وطن يرانا الخير من غربائه — وتعدّنا النّكبات من أبنائه

وتكاد تنكرنا الحياة، كأنّنا — لسنا بهذا القطر من أحيائه

لقد عدم قراره لأجل هذا الوطن وسئم الحياة فيه، فأرقت لياليه. طلب لقومه العلم والنهضة والسّؤدد، وحيّى ذكرى الثورة العربية وثورة العشرين، وقال إن الحقّ لا ينال بغير النضال، واستنكر الشقاق وتفرق الكلمة، وقال:

تعهدوا، يا شباب اليوم موطنكم — من أن تضيعه الأحزاب والشّيَعُ

كان الوفاق لكم أيام نهضتكم — ركناً، ولكن أراه اليوم ينصدع.

والأزري بعد ذلك رجل محافظ وقف من قضية تحرير المرأة موقف الوجل والحذر، وردّ على دعاة السفور قائلاً:

أمنازل الخَفِرات في الزوراء، — لا زعزعتك عواصف الأهواء

قال لبنات قومه إنّ الحجاب لم يكن إساراً، وحذرهنّ من أن يخدعهنّ الشعراء بخيالهم، وندّد بالمسارح والملاهي قارناً التهذيب بالفضيلة والحياء. وطلب تشييد

المدارس للفتيات ورفع مستوى أخلاقهنّ ليكنّ نساءً فاضلات، صالحات لتربية الأجيال الطالعة.

ومن طريف شعره قصيدته «الغادة العذراء في أحلامها». وللشاعر الفرنسي ألفرد دي موسّيه مسرحية منظومة لطيفة عنوانها «فيم تحلم الفتيات» أو «أحلام الفتيات» يصوّر فيها أختين تتناجيان في الحبّ والزواج والتبرج والجمال. تحلم احداهما بالعريس الذي دعاه أبوها لزيارة الأسرة في الغداة وتسمع، وهي على فراشها سكرى بحسنها وصباها، صوت شابّ يغني لها خارج النافذة ويقول: أيتها الفتاة، ماذا تفعلين بحياتك؟ السّاعات تهرب، والورود تذبل، والشتاء يعقب الخريف. قلبك يخفق وعيناك تتوهّجان. أنت تذهبين إلى البحر بلا نجم هاد وإلى المعركة بلا نشيد. وما قيمة الحياة بلا حبّ؟ إنما الحياة رقاد والحبّ أحلامه.

وتقول الفتاة: إنني أشعر بهزار يترنّم في أعماق قلبي. ويأتي الحبيب ليختار احدى الفتاتين فيتردّد ويحار، ويقول: لا تسخروا منّي، أنا لا أعرف طرق الحبّ. انا لا أعرف سوى النظر وإنزال عبرة ساكنة وترديد آهة خجلة. النار تضطرم في صدري ولساني عاجز عن البوح بهيامي... وتنتهي الأحلام بالزواج السعيد.

إنّ أحلام فتيات الشاعر الفرنسي تضجّ بالبطولة والحبّ والمجازفة والغناء. أمّا غادة الشاعر العراقي فتريد سعادة هادئة لا تعصف بها الرياح. قال الشاعر:

عصفت بها ريح الهوى فتدلّهت، ... من ذا يردّ الريح عن أدراجها؟
وتطلعت في الأفق من أستارها ... كتطلّع الأقمار من أبراجها
عذراء فاتنة وكم من فتنة ... كان الهوى سبباً إلى إرهاجها؟
قد جاوزت اعصارها وتهيّأت ... للقطف كالثمرات في إنضاجها
وبدت ترائبها كماء بحيرة ... وكأنّما النهدان من أمواجها
نظرت رشاقة قدّها فتنهدت ... وكأنّما خشيت فوات زواجها
خلع الإهاب عليه أجمل حلّة ... يسمو برقته على ديباجها
ويشفّ عن هيف القوام رداؤها ... كالرّاح تظهر من وراء زجاجها
تختال ضامرة الحشا، لكنها ... تتثاقل الخطوات من رجراجها
جاءت لتعرضه على مرآتها ... من بعد ما عبث الهوى بمزاجها
وتلفّتت لترى انعكاس خيالها ... في ميسها ودلالها وغُناجها
وتكفّ ما قد سال فوق جبينها ... من شعرها لتزيد نور سراجها

وأيقنت الفتاة أنها تسنمت عرش الجمال، فتساءلت عن الذي سيكون حارس تاجها. غير أننا نرى الشاعر ينتقل إلى موضوع أحبّ إلى نفسه وأقرب إلى فكره، فيفصح عن خوفه من أن يعود عصر حوّاء فتتستّر الغيد بأوارق الشّجر.

وللأزري غزل لطيف، منه:

بـــدا لي محيّـــاهـــا على حين غفلـــة ... فخـــرّ على أقـــدامهـــا صَعِقـــاً قلبي
فقـــالت: أفق من سكـــرة أنـــا كأسهـــا، ... وهـــا أنني أستغفـــر الله من ذنبـي
وهّمت بإســـدال القنـــاع تعطّفـــاً ... على كبـــد شبـت بـــه جـــذوة الحب
فقلتُ: أصـاب السّهم مـرمـاه فـارفقي، ... وهيهـات بـرء الجرح من نصلـه الـرّهب
رأيـت الهوى استـــوفى بـأول نظـــرة ... نهايـــة مـــا استـوفـاه من عـاشق صب
قفـي أتـــزود من محيـــاك لحظـــة ... قفـي قبلما أقضي على حكمـــه نحبـي

وقال:

بينـي وبينــك ألّـف القـــــدرُ ... فـــاللحـن أنت وحبّـك الـــوتـــر

لقد أحسن الأزري رواية قصص الحبّ الخيالية في شعره العذب المنسجم، فقال:

زارني طيفـك فـــاستقبلتـــــه ... وأنـــــا في مضجعــي لثماً وضما
مثلما عـــــــوّدتني في يقظتـــي ... أن تـــــزوري دون أن أسبـق علما
فتنسّمتـك لطفـــاً كـــالصبـــا ... وتنشقتـك كـــالـــزهـــرة شما
وتحدثـت بصـــــــوت مثلما ... كـــان عهـــدي في اليقظـــة نغما
هـل تحّولت خيـــالاً في الكـــرى ... وتقمصـت مـن الأحـــلام جسما؟
وعجيـب أنـت والطيـف معــــاً ... كيـف لم تختلفـــا لـــونـــاً وطعما
خفـق القلـب لمرآك بـــــــه، ... ليت شعـري كيفـ عـدّوا الطيف وهما؟
لم لا؟ أحسـب حلمـي يقظـــــة ... عنـــدمـــا ألقـــاك واليقظـــة حلما
حلّليـــــــه كيفما شئـت فما ... زال رؤيـــاي لـك اللغـــز المعمى

انّ شاعرنـا قد طوّف في المدائن والمعاهد، وتجشّم المتاعب والمشـاقّ، عاشر الشيوخ في آلامهم والشباب في آمـالهم، وعلّل النفس وهدهـدها بـالأماني والأحـلام، فرجع إلى عزلته خائباً حائراً. والتجأ إلى «واحـة الإيمان» ينشد الراحة والسّكينة في ظلال الأدب، منشداً لنفسه:

حسبـي يـــراعـي ســـاقيـــاً ... ومـــــــداد محبرتي شرابي
وأنـــا الـــذي لم يبـق لي ... الاّ منـــادمـــة الكتـــاب

محمد حبيب العبيدي

مفتي الموصل وشاعرها ولد فيها سنة ١٨٧٩ وتوفي بها في ١٩ تشرين الاول ١٩٦٣ . وقد نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية» .

وأضيف هنا أنه كان مع الجيش التركي في ساحة فلسطين حين احتلها الانكليز سنة ١٩١٨ ، فقبضوا عليه واعتقلوه في معتقل الأسرى بالاسكندرية . وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب .

من شعره الوطني :

أضرموا النار، يا سراة العراق،	واغسلوا العار بالدم المهراق
إنّ ضيماً حملتموه عظيم	كاحتمال الأطواق في الأعناق
كلِّ آنٍ تُسقون كأس هوان	فاقطعوا بالسيوف كفّ السّاقي
يا رجال العراق، لستم أسارى	لتزينوا الأعناق بالأطواق . . .

قال فيه إبراهيم صالح شكر انه تعشق البطولة والعظمة من الصغر، فوضع العمامة على رأسه وتخيل نفسه نذير القضاء على جمود المسلمين وبشير الإصلاح المنشود في الشرق . فلما وصل سنّ الشباب رأى نفسه أهلاً لأن يقوم بالدعوة لإصلاح حال الشرق والمسلمين ، فأخذ يخطب ويكتب في هذا الباب . ورحل إلى سورية والاستانة مراراً، ثم قام برحلة يطوف فيها العالم الإسلامي داعياً إلى الإصلاح . ونشرت له جريدة الرأي العام البيروتية قصائد ومقالات طنّانة حماسية واجتماعية . ولما نشبت الحرب العظمى أصبح خطيباً للفيلق التركي الرابع بقيادة جمال باشا السفاح . وألف كتاباً عن «جناية الانكليز» وآخر بعنوان «حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام» .

وجاء إلى الموصل بعد الحرب فخلع عن نفسه ثوبه التركي الطوراني . وعاودته فكرة الزعامة ، كما قال إبراهيم صالح شكر، فجمع له زمرة من الشبيبة الموصلية وأخذ يدعو إلى العرب ونهضتهم ويتغنى بأمجاد قحطان وعدنان ويمتدح ملوك العرب ومجاهديهم . . .

الشيخ كاظم الدجيلي

سلام على شطّ الدّجيل ، فحسبه	عُلىً أنه مَغْنَى الدّجيلي كاظمِ
أديب سياسي أريب وشاعر	وبالفضل معروف كثير المكارمِ
إذا قال شعراً ردّد الدّهر شدْوه	وفي نثره سحر كسَجْع الحمائمِ

وصاغت أيادي الشيب تاجاً لرأسه لجيناً، وقلب الشيخ غضّ البراعم
يفيض بأوصاف الحسان قصيده ويا قلّما قد خاض غَمْر الملاحم!
شبيه بأفلاطون في الطّهر حبّه على أن شعر الحبّ جمّ المزاعم
على أن شعر الحبّ عذب نشيده فلا تستمع فيه للوم اللوائم

قرأ علينا الاستاذ الشيخ كاظم الدجيلي في السنوات الأخيرة طرفاً رائعاً من شعره غير المنشور أمتع أسماعنا وسحر ألبابنا، فكأن أن خاطبته بتلك الأبيات مازجاً التقدير والتعظيم الذي أكنّه للصديق الشاعر بالدعابة والملاطفة.

ولد كاظم الدجيلي في قرية دجيل المعروفة بسميكة شمالي بغداد في ١٠ آذار ١٨٨٤، وهو ابن حسين بن عيدان بن درويش بن نهار الخزرجي. وجاء به والده إلى بغداد وعمره ستة أشهر فاستوطن جانب الكرخ. ودرس في الكتاتيب فحفظ القرآن وألمّ باللغة العربية وطرف من العلوم، ثم لازم فريقاً من أفاضل العلماء والأدباء كشكري الألوسي والسيد حسن الصدر والأب أنستاس ماري الكرملي وجميل صدقي الزهاوي فأفاد منهم فوائد جليلة.

وقد حدثني أنه كان يغشى مجالس رجالات بغداد كالسيد عبد الرحمن النقيب وعبد المجيد الشاوي وغيرهما، فكان النقيب يستقبله كلما وافى ديوانه مردّداً البيتين التاليين:

أسال بالصّبح سيل أم زيد في الليل ليل؟
يا إخوتي بدجيل وأين منّي دجيل

والبيتان للشاعر عليّ بن الجهم قالهما حينما مضى إلى الشام، فلما قرب حلب، خرج عليه اللصوص وجرّحوه وأخذوا ما معه وتركوه على الطريق، فاستنجد بإخوته في دجيل، وأين منه دجيل؟ (وكان مقامه بمحلة دجيل في بغداد).

وأتيح له بعد ذلك أن انتمى إلى مدرسة الحقوق في بغداد فنال شهادتها في سنة ١٩٢٣.

وقد عمل مع أبيه في تجارة الحبوب ردحاً من الزمن في صدر شبابه، ثم أقبل على المطالعة ونظم الشعر. وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ فحيّاه بقصيدة ألقاها في الاحتفال الذي أقيم في السراي تخليداً لهذا اليوم، ومطلعها:

بشرى الأنام وبشرى أهل بغداد فالدهر وافى بإقبال وإسعاد

وصدرت الصحف بعد أن كانت الأفواه مكمومة في العهد الحميدي الدابر، فحرّر الدجيلي في جريدة «بغداد» التي أصدرها مراد سليمان و«الإرشاد» لحسين فريد وجريدة «الحقيقة» لصاحبها عبد المجيد طلعت من رجال حزب الاتحاد والترقي. وأصبح في سنة ١٩١١ مديراً لمجلة «لغة العرب» التي أصدرها الأب أنستاس الكرملي حتى

أغلقت عند نشوب الحرب في أواخر سنة ١٩١٤ . وحكم عليه بالسجن في نفس هذه السنة لمقالة نشرها في مجلة «المستقبل» المصرية لصاحبها سلامه موسى، ولم يلبث أن أطلق سراحه، وقد نظم في السجن قصائد منها قصيدته «بوليس بغداد» التي يصف فيها مآسي السجن وأهواله ختمها بقوله :

ولا يحسبنّ المرء تلك خرافة   فناظمها سمّاعها وخبيرها

ولم تك مأساة لعمري غريبة   ففي جانبي بغداد جمّ نظيرها

وقام الدجيلي في السنوات السابقة للحرب العظمى برحلات إلى إيران وكردستان وأطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الأعراب ودرس أخلاقهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية وكتب عنهم ما لم يتهيأ لغيره من الرحالين والرواة.

وقد رحل إلى البصرة على اثر احتلال الإنكليز فوظف بدائرة الشرطة (٢٨ كانون الاول ١٩١٤). ثم رفع إلى وظيفة معاون مفتش شرطة (كانون الاول ١٩١٦) فمفتش شرطة (تموز ١٩١٧)، لكنه استقال في ايلول من تلك السنة، وقد عاد إلى الشرطة بصفة معاون مفتش في (كانون الثاني ١٩١٨) ولم يلبث أن استقال بعد شهرين. ثم اعتقل في النجف في كانون الاول من تلك السنة وسجن في بغداد نحواً من ٤٠ يوماً.

وانتمى إلى مدرسة الحقوق عند إعادة افتتاحها، وعيّن في الوقت نفسه سكرتيراً خاصاً لرئيس محكمة الاستئناف في بغداد ومحرراً لمجلة «العدلية» (حزيران ١٩٢١) فمحرراً للوقائع العراقية، وهي جريدة الحكومة الرسمية، عند صدورها في (كانون الاول ١٩٢٢).

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (١٩٢٣)

وعيّن في أواخر سنة ١٩٢٣ مدرساً للّغة العربية في معهد الدراسات الشرقية في لندن فبقي فيها إلى سنة ١٩٢٩ . وقام في الوقت نفسه بتدريس اللغة العربية للأمير غازي ولي عهد العراق في أثناء دراسته في العاصمة البريطانية (١٩٢٦ ــ ٢٨)، وقام أيضاً بوكالة سكرتيرية المفوضية السياسية العراقية في لندن (٤ أيلول ١٩٢٧ ـ ١٢ آذار ١٩٢٨).

وعاد الدجيلي بعد ذلك إلى بغداد (ت١ ١٩٢٩)، فلم يلبث أن عين في السلك الخارجي وسمّي نائب قنصل في مصر (٥ كانون الاول ١٩٣٠). ونقل في السنة التالية مراقباً للبعثات العلمية في لندن (تشرين الاول ١٩٣١) فنائب قنصل في المحمّرة (أيار ١٩٣٤) فبيروت (١٩٣٥) فقنصلاً في حيفا (١٩٣٥) فالقدس (١٩٣٧) فبومبي (آب ١٩٣٨)، ونقل قنصلاً في كراجي (كانون الأول ١٩٣٩) فتبريز (حزيران ١٩٤٣). ولما أنشئت المفوضية العراقية في موسكو عيّن مشاوراً (١٨ تشرين الأول ١٩٤٥) وأصبح بعد ذلك قائماً بأعمالها حتى أحيل على التقاعد (آب ١٩٤٨).

وقضى الأعوام الأخيرة من حياته متنقلاً بين العراق وأوروبا، حتى أدركه الحمام في فيينا عاصمة النمسة في ٢٣ آذار ١٩٧٠، وجلب جثمانه إلى بغداد ودفن في النجف.

وقد وضع كاظم الدجيلي رسالة في «أحداث ثورة العشرين» حققها حكمت رحماني ونشرها سنة ١٩٧٣.

مؤلفاته:

لكاظم الدجيلي شعر كثير متفرّق في الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية. وقد وضع مؤلفات عديدة نشرت معظم بحوثها في مجلة «لغة العرب» والهلال والمقتطف وسواها من المجلات والجرائد، لكنها لم تطبع كتباً. منها: رحلة الفرات، تاريخ النجف، تاريخ الكوفة، تاريخ كربلاء، المشاهد المقدسة في العراق، سامراء قديماً وحديثاً، تاريخ الكاظمية، وتاريخ البصرة، الآثار العراقية، أشعار الأعراب، أعراب العراق، الأغاني العراقية، صابئة العراق، اليزيدّية، الأسر البغدادية، الفرق الثلاث (وهي الفرق الامامية الأصولية والأخبارية والشيخية أو الكشفية)، الأمثال العراقية، المصطلحات العراقية، السفن العراقية، الشعر القصصي الحماسي، الخ.

وكتب بالانكليزية بحثاً عن الشيعة نشر في كتاب «أديان الانبراطورية». وقال انه وضع روايتين باللغة الانكليزية أيضاً باسم «رواية عربية» و «باشا بغداد».

وللدجيلي بصر بالمخطوطات والآثار. ولم يمنعه عمله في السلك الخارجي وتنقله بين العواصم والبلدان المختلفة من الاهتمام بالأدب، فكثيراً ما كان يكتب إليّ وهو في الخارج رسائل تتناول تعليقات وشؤوناً أدبية.

شعره وأدبه:

كاظم الدجيلي أديب حرّ الفكر، صريح القول، واسع الأفق، زادته اقامته في الأقطار الاوروبية وغيرها واتصاله بأرباب الفكر العالميين ثقافة واطلاعاً. وقد أودع أشعاره ومقالاته آراء بعيدة الغور اقتبسها من تأملاته ومطالعاته الكثيرة. يدور شعره في الغالب على المواضيع الاجتماعية و الفكرية، وله غزل ووصف رائع. ولكم يثور على التقاليد البالية وينعى على المجتمع الرياء والتعصب والجهل. ورثاؤه قليل، منه مرثاته لأخيه المحامي جواد الدجيلي وهي تقطر لوعة وأسى. وقد أرسل من موسكو بمرثية لشيخه وصديقه أنستاس الكرملي، يقول في مطلعها:

ويح المنون! فما لها من رادع ... وقفت لكل الخلق بالمرصاد
ان الحياة على تعاظم شرها ... محبوبة حتى لدى الزهاد

الدجيلي والنقد الذاتي :

حـديثك عن غير القـويّ حـرام	وسعيك في نصر الضعيف أثـام
تحدث بمجد الأقـويـاء فإنهم	قعـود بأحكـام الـورى وقيـام
يـؤلّـه مـذ صـار ابن آدم قـوة	ومـا الكـون الاقـوة ونظـام . . .

لم ينظم هذه الأبيات بعض أعوان هتلر أو تلاميذ نيتشه، بل قالها شاعر عراقي وديع هو كاظم الدجيلي الذي روّعته أهوال الحرب العظمى فحدثته على الجهر بما لا يعتقده ويرتضيه. ولذا أقدم على نقد نفسه في مقال طريف نشرته له صحيفة «الحقائق المصّورة» البغدادية في عددها المؤرخ في ٢٢ شباط ١٩٢٥ . قال الدجيلي : «في ليلة مطيرة تراكمت فيها الأحزان على قلبي وحاولت أن أسرّي الهم عني بالمطالعة، التفتّ نحو عالمي الصغير ـ أي مكتبتي ـ وأخذت أضرب أخماساً لأسداس. فقلت: هل أقرأ «علم الحب» لأوفيد وانا سوداوي، أم أقرأ «أصل الأنواع» لداروين وأنا أعتقد حتى الآن بأن الإنسان وحش مفترس؟ هل أقرأ «الفردوس المفقود» وأنا في جهنم، أم أقرأ رواية «البؤساء» وعلاقتي معهم تقضي عليّ أن لا أنبش قبورهم؟

«هل أقرأ «بحيرة» لامارتين أم «جان الصغير» لهوغو، وفي النفس صوت يمنعني عن المطالعة في هذه الليلة إلا في لغتي العربية. وبينما كانت هذه التأملات تجول في فكري المتضعضع الإحساس، رأيت شبحاً ينظرني بألف عين، فقلت في نفسي: لا شك أن هذا شاعر حيرتي وتردّدي، ولذا تراه يصوّب نظره إليّ لأنشد أحلامه ولأرثي أمانيه. ثم اختفى بين صحائف «الأدب العصريّ في العراق العربي». أما أنا فللحال أخذت الكتاب وبدأت أقلب صفحاته حتى عثرت على الشيخ الذي اختفى عني، فإذا به كاظم الدجيلي».

ويمضي الشيخ كاظم في مقاله فيقول :

«دخلت أول مدينة في عالمه واسمها «الحياة الاجتماعية» وفي البيت الاول من أول شارع وجدت فيه :

حـديثك عن غير القـويّ حـرام	وسعيك في نصر الضعيف أثـام

«أما تخاف الله أيها الشاعر؟ أتروم أن نتحدث دائماً عن الأقوياء، ومن سعى في نصرة الضعيف والأخذ بيده يعدّ اقتراف ذنب يحاسبه الله عليه؟»

ثم يمضي الشاعر في نقد أبيات قصيدته حتى يقول: «رباه! أتروم أن تنتقم مني لهبوطي العالم الذي لم أجد فيه سلوتي بل ترك لي حسرة وزفرة تتصاعد وتنخفض. . » اهـ

إن قصيدة الدجيلي هذه تزخر بالأفكار وتعبّر عن حيرة الشاعر في رتابة الحياة وتناقضها. فهو يقول :

إذا كنت بين العـــالمين أخــا قــوىً رعتك عيــون النـــاس حين تنـــام
حمى الغــاب بأس الليث مـن كل طــارق ولم ينجُ مـن فتـك البــــزاة حمام
يقــولــون: إن الحق مـن فــوق قــوّة ومــا الحق الامــدفـع وحُســام
ولــو درســوا علـم الطبيعــة لانثنــوا وفيهم غــرام بــالقــوى وهيــام

ثم يلتفت إلى الخلق فيراه جائراً باسم عادل، ينوح على الميت ويأكل لحمه، ويهدي الصديق الزاد ممزوجاً بالسمّ الزعاف. وماذا يرى الشاعر في الناس؟ انهم أشياع مذاهب يزعم كل منهم صلاح مـذهبه وسداده، فهذا قد أفنى الحيـاة في العبادة، لكن معبوده الأوثان وهي رجام، يقـدم لها النذور ويروم الرزق والمغفرة والعافيـة. وذلك خرافي يروح ويغتدي وأفعـاله الشّر والمعـاصي، حتى إذا مـا قضى نحبه قـدّسه بعـد مماتـه الطغام وشـادوا عليـه قبّـة وجـاؤوه من شرق البـلاد وغربها يطـوفـون بقبره ويلتمسـون بـركتـه وشفاعته:

وقـالـوا، وهم يبكـون شـوقـاً ورهبـة وصــار لهم حــول الضريح زحــام:
بـك الله يحيينــا غـــداً ويميتنــا وأنـت شفــاء للــورى وسقــام.

ويمضي الشاعر في جولته الاجتماعية، فيقف عند جحود ينكر الله جهرة وينعى على القـوم أساطيرهم وخـرافاتهم، وعـالم يحار في سرّ الطبيعـة الغامض ويحاول حلّ ألغـاز الكون فيموت وفي نفسه حسرة منها وفي حشاه ضرام.

وما الأديان؟

حكـــايــة أديــان الأنــام عجيبــة تجمّـع فيهـــا فـــرقـــة ووئام
تــريـد الهدى والخير للنــاس كلهم وكم ثــار منهـا فتنــة وخصــام
وغــايتهــا القصـوى عبـادة واحـد حقيقتـــه مـــا إن تـــرى وتـــرام
عظيم لـــديـــه يصغــر الخلـق كلّــه وتستصغـــر الأجــرام وهـي عظــام
لـــه أثـــر في كل شيء وآيـــة وبين قـــواه والـــوجـــود لـــزام
دعـــوه بـأسماء قـــد اختلفــوا بها وعـــدّوه نـــوراً لا يكـــاد يُشـــام
وقـالـوا وهم في حـالـة اليأس والـرّجا: متـى تتـــلاشى ظلمـــة وغمام؟
متى تجمـع الأديــان في الأرض وحـــدة لها سنّـــة مشروعـــة ونظـــام
ويسلـك كلّ العـــالمين سبيلهـــا وغـــايتهم منهـــا هـــدى وســـلام...

وينفذ الشاعر في قصيدة أخرى إلى أعماق النفس البشرية فيخاطبها قائلاً:

يـــا لـك من آمـــرة نـــاهيـــة أحكـــامهـــا نـــافـــذة مـــاضيـــة

لم يقـــو مخلـــوق على ردّهـــا ... لـــو كـــان ربّ السلطـــة القـــاضيـــة

جـــامعـــة الأضـــداد شيطـــانـــة ... إلاهـــة رشيـــدة غـــاويـــة

قـــاسيـــة رقيقـــة الحاشيـــة ... ســـافلـــة عـــاليـــة راقيـــة

خبيثـــة شريـــرة بـــاغيـــة ... طيبـــة طـــاهـــرة زاكيـــة

عـــاجـــزة قـــادرة إن ونت ... أو عـــزمت، خـــالـــدة فـــانيـــه

تقلبت كـــالـــريح أوضـــاعهـــا ... هـــادئة عـــاصفـــة عـــاتيـــة

الحبّ والبغـــض لها شيمـــة ... فـــدأبها غـــاضبـــة راضيـــة . . .

أعنـــي بها النفـــس التـــي حيّرت ... أفكـــار أربـــاب النهى الســـاميـــة

وهو يرى الشر أصيلاً في النفس فيقول :

تجنّب الشّر لا خـــوفـــاً ولا طمعـــا ... والشّر في النفس قبل الخير قـــد طُبعـــا

ويقول :

إلى النـــاس نشكـــو النـــاس من ســـوء فعلهم ... فقـــد كثـــرت آثـــامهـــا وشرورهـــا

أرى الشّر قـــد عم البريّـــة كلهـــا، ... أكلّ الـــورى، يـــا قـــوم، مـــات شعـــورهـــا؟

فـــلا الـــدين منّـــاع ولا العقل رادع ... ولا العلم جـــالٍ ظلمـــة أو منيرهـــا

أرى النـــاس في هيجـــاء من أمـــر عيشهم ... تنـــازع فيهـــا عبـــدهـــا وأميرهـــا

فكـــانـــوا ودنيـــاهم سبـــاعـــاً وجيفـــة ... تعـــاوت عليهـــا أســـدهـــا ونمـــورهـــا

تقـــدم في الـــدنيـــا فســـاد أخـــو الغنى ... وأُبْعِـــدَ كل البعـــد عنهـــا فقيرهـــا

إذا قـــال ربّ المال قـــولاً تطـــاولت ... إلى وعيـــه من كل قـــوم نحـــورهـــا

لـــه حـــرمـــة في النـــاس وهـــي عظيمـــة ... وقـــدر جليـــل لم يجزه قـــديـــرهـــا

لـــه الـــرأي متبـــوع، لـــه الحكم نـــافـــذ ... لـــه شهـــرة كـــالشمس ســـار مسيرهـــا

وقد غشي التشاؤم بصر الشاعر فقال :

وســـائل يسأل عـــن مبـــدئي ... فقلـــت : إني رجـــل أســـوئي

خبرت دنيـــاي وأبنـــاءهـــا ... مـــذ نشأتي خبرة مستقـــرىء

فلم أشـــاهـــد غيرمـــا حـــالـــة ... أرتنـــي الســـوء بكـــل امـــرء

وساء ظنه بالناس فقال :

الجميـــل يصنعـــه ... مـــن لـــه بـــه أرب

والالـــٰه يعبـــده ... مـــن يخيفـــه اللهـــب!

وخاب فأله في بلده وصحابه فقال :

إني أرى العيش في أرض سوى وطني — إذا رحلت اليها اليوم أصفى لي
والعيش في بلد قلّ الرفاق به — خير من العيش بين الصحب والآل

وقال متألماً:

أنا من عاش في العراق غريباً — أنا حرّ مقيّد بقيود
أنا من قال في الحقيقة قولاً — فانتحاه مكابر بالردّود

لكنه يتألم لحال بلاده وحال الشرق المتأخر فيرجو لبلاده وللشرق الرقيّ والمعرفة والنهوض، فيقول:

يا نديمي، وأين منّي نديمي، — غنّني واسقني ابنة العنقود
فلقد هاجني تهدّم مجد — كان في الشرق ذا بناء مشيد
هدّ أركانه الزمان وأبقى — رسمه ندبة بوجه الصعيد.
أيها الشرق، هل ليومك عود؟ — أيها الشرق، مَنّنَا بالوعود
يا مقرّ الالٰه، يا معبد الكون، — عجيب تدهور المعبود!
نهض الغرب للرقي ففاز — القوم فيه هناك بالمقصود
سبقونا إلى العلاء بعلم — تخذوا منه سلّماً للصعود
ووقفنا جهلاً ونحن كسالى — ننظر القوم من مكان بعيد
نتمنّى الرقي حيث قعدنا — كيف يرقى إلى العلى ذو قعود؟
وادّعينا بأننا علماء — تلك دعوى محتاجة للشهود...

وينظر إلى حال وطنه المريض فيقول:

ولي وطن يعذّبه أناس — بدعوى أن قصدَهُمُ شفاؤُه
ولو تركوه يختار المداوي — لأُصْلِحَ حاله ولزال داؤه

ويفكر في حال وطنه الفقير فيقول:

يا سواد العراق، بيّضك الجدب — فصرت البياض وسط السواد
يا سواد العراق، فيك كنوز — يعلم الله ما لها من نفاد
يا سواد العراق، أمحلك القوم — وقد كنت روضة المرتاد
يا سواد العراق، شلّت يمين — ذات إثم دلت عليك الأعادي

ومن طريف شعره في المرأة:

يا زوجة المرء ويا أمّه — حارت بك الأبصار والباصرة
ما أنت إلا امرأة فذّة — قد نعتتها الأمم الحاضرة

إلاهـــــة معبـــــودة تــــارة / وتـــارة شيطــــانـــة ســـاحـــره

تغضب في حـــال الــرضــا مثلما / تــرضى وفيهــا غضب الــواتـــرة

لا وصلهـــــا دام ولا قطعهـــــا / كــدولـــة عـــادلـــة جـــائره!

وقال في دلال الحبّ وذلّه :

أرأيـت كيـف تمنّعُ المعشـــــوق / ودلال شـــائقـــة وذل مَشُـــوقِ؟

يــا للــرجــال المُسْعَــدين لعــاشقٍ / بسهـــام لحظي غـــادة مـــرشـــوق

من ذا يســـاعـــده على فتّـــانـــة / أسرت نُهاه فعـــــــاد غير طليـق؟

حــــوراء ألبسهــــا الجمال بهاءه / والشمـس بهجتهـــــا أوان شروق

صبّت بهيكلهـــا الطبيعـــة حسنهـــا / فبــدت مثـــال الحسن للمخلـــوق

وروت محاسنهـــا حـــديـث جمالها / متسلســـلاً عن يـــوسف الصّـــديق

ولما يفـرغ من وصـف المحبوبـة ومقلتهـا وقوامهـا وطيب رائحتهـا وثغرهـا وصدرهـا وبشرتها، يشيد بحلو حديثها ومنادمتها في الشراب، ثم يقول :

أصبـــو فيتركنـي الغــرام مكـــاشفـاً / بكُمُ عـــدوّي إن فقـــدتُ صـــديقي

لله مـــا يلقى فـــؤادي من جـــوى / وصبـــابـــة وتقـــرح وخفـــوق

يــا سعـد، كن لي في الصبــابـة مسعـداً / فهـــــوى المحـب أراه غير حقيـق

شأن الــــزمـــان وتلـك سيرة أهلـــه / قـــال الصـديـق فكـان غير صـدوق

الدجيلي والآنسة ميّ :

كانت الآنسـة ميّ زيادة الأديبة النـابغة قـد اتصلت بالأب انستاس مـاري الكرملي وراسلته في سنـة ١٩٢٠ وساجلته في شـؤون الأدب، فاهتم بحسبهـا ونسبها وكتب إلى زميل لـه من رهبان النـاصرة ـ حيث رأت أديبتنا نـور الشمس ـ يسـأله مراجعـة سجلّ الكنسية وتحقيق مـولدهـا وأسرتها. فأجابه الـراهب انها ولدت في النـاصرة وعمّدت في كنيستها في ١١ نيسان ١٨٨٦، وسمّيت «بربارة»، وأمّها من الناصرة، أما أبوها الياس زيـادة فمن قضاء كسروان في لبنـان، وكان عنـد ميلاد ابنتـه معلماً في مدرسـة «الأرض المقدسة» (تيراسنتا) الفرنسية في الناصرة.

وقد كتبت الآنسة مّي في مجلـة «المقتطف» سنة ١٩١٩ عن الشعر القصصي الحماسيّ وعدم معرفة العرب اياّه، فردّ عليها كاظم الدجيلي، ثم ترضاها بقصيدة قال فيها :

قلبـي بكلّ هـــواي لاسمـك ذاكـــر / هل أنـت شـــاعـــرة؟ فإنّي شـــاعـــر!

يـــرتـــاح للـــذكـــرى ويطـــرب كلّما / وافـــــاه طيـف من خيــــالـك زائر

يـــا من تحدّثـت الـــرجـــال بفضلهـــا / وبها النســـاء النّـــابغـــات تفـــاخـــر

لك في ســـويـــداء الفـــؤاد وفكـــرتي وبمقلتـي وفمـي محلّ عـــامـــر
إني امـــرؤ بـــالنّـــابغـــات متيّم وإلى النـــوابغ شـــوقـــه متكـــاثـــر
الحبّ أضنـــاه وبـــرّح قلبـــه وأمـضُ آلامـــاً محبّ صـــابـــر
لم يبـق منـــه الشـــوق الا صـــورة يأسـى لها لما يــراهـــا النـــاظـــر. . .
في كل قلـب، يـــا أميمـــة، نبعـــة للحـب زاهـــرة وغصـن نـــاضر
والحبّ منتجـع الحيـــاة وكـلّ مـــا أحيـــا النفـــوس فـذاك حبّ طـــاهـــر
والحبّ سلطـــان تملّـك أهلـــه خضعت ســـلاطين لها وجبـــابـــر
والحبّ فلسفـــة تعـــذّر وصفهـــا وعـن الحقيقـــة كـلّ فهم قـــاصر
والحبّ معنـى الله أو هـــو ذاتـــه طمحت إليـــه خـــواطـــر ونـــواظـــر
إني لأحـــوي في الفـــؤاد محبّـــة لم تحوهـــا للعـــاشقين ضمائر
ليتيمـــة الشرق المضيع حقّـــه دول لـــه تقضي وفيـــه تنـــاظـــر
في عـــدلها جـــور وإن حكمت لـــه ومن الغـــريب يقـــال: عـــدل جـــائر!

ولم يكن الدجيلي أوّل من تغـزّل بميّ غزلاً أدبيـاً بريئاً طـاهراً، فقد تغـزل بها الادباء والشعـراء، وهي الفتاة العبقـريـة الفريـدة، غـزلاً كثيراً لا يخرج عن التجاوب الفكـري والتعاطف الـروحي والتعارف الأدبي الـذي جعل المرأة المثقفة الحساسـة حلماً في العيون ومغناطيساً جـذاباً للأفئدة والقلوب وخيالاً مـاثلاً ولكنه، في الوقت عينه، عـزيزاً بعيد المنال. وهل كان وليّ الدين يكن يقصدها حين قال:

تمسين نـــاسيـــة وأمسي ذاكـــرا عجبـاً، أشـاعـرة تهاجـر شـاعـرا؟
فهل الملائك كـــالحســـان هـــواجـــر ان الملائك لا تكـــون هـــواجـــرا
إن كنـت لا أسعـى لـــــدارك زائراً فلكـم سعى فكـــري لـــدارك زائرا

ولنعد إلى شـاعرنـا الدجيلي فقـد شكته الآنسـة ميّ إلى الأب الكرملي، فكتـب إليها رسالة مطوّلـة، وكان ذلك في سنة ١٩٢٢، فكان أن أرسلت إليه بأحـد كتبها وخاطبته في كلمة الاهداء: «إلى أعدل الظالمين من الشعراء».

وعيّن الشيخ كاظم مدرسـاً للّغة العربية في جامعـة لندن فمرّ في طريقه بـالقاهرة في أوّل سنة ١٩٢٤ ومكث فيهـا أياماً التقى في أثنائهـا بالدكتور يعقـوب صروف صاحب المقتطف، لكنه سافر إلى لندن دون أن يتاح لـه التعرّف بالآنسة. وعاد إلى اثارة النقاش في موضوع الشعر القصصي الحماسي عند العرب فكتبت ميّ تقول:

«لقـد عـاد الشيخ كـاظم الـدجيلي في فبراير ١٩٢٤ إلى مـوضـوع الشعـر القصصي الحماسي. . . نـاقشني وصمت خمسـة أعـوام درس خلالها الحقـوق ونفحني بقصيـدة

نشرها في «الهلال» ودعاني فيها ببعض الأسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة العناد عند امرىء بوجه من الوجوه وعلى أن يسترضوه بالأوزان والاسجاع ليخاصموه بالنثر المرسل. . . ».

وختمت ردّها تقول: «قيل لي يا سيدي الاستاذ، إنك رحلت إلى انجلترا لتدرّس اللغة العربية في جامعة لندن. وسواء كنت الآن في انجلترا أم في العراق فهات يدك أصافحها! . . »

ومرّت الاعوام، وحلّت سنة ١٩٣٠، فإذا بالدجيلي ينقل إلى القنصلية العراقية في القاهرة، فيؤمّها ويغشى محافلها الأدبية والاجتماعية. وهيىء له لقاء ميّ لأول مرّة في بعض الحفلات، وكان الذي قدمه إليها الدكتور أمين معلوف، فقد أخذ بيده واتجه صوب سيدة مشرقة الطلعة من غير جمال أخاذ وقال: هل تعرفين هذا الرجل؟

قالت: لم يسعفني الحظّ بلقائه من قبل. فضحك الدكتور معلوف وقال: كيف ذلك؟ إنه صديقك وخصمك كاظم الدجيلي! فصافحته ببشاشة وقالت: إذن أنت ذلك البغدادي الذي ناظرني وقارعني وترضاني منذ سنين! . .

ولبث الدجيلي في القاهرة سنة واحدة كان يزور الآنسة في أثنائها مساء الخميس من كل أسبوع بحضور والدتها. وكان الكلام يدور حول الأدب والعلم والتاريخ والاجتماع. وفي سنة ١٩٣١ أعيد نقله إلى لندن مراقباً للبعثة العلمية في المفوّضية العراقية. ومضت سنتان أو ثلاث، وفوجىء شاعرنا ذات يوم بزيارة ميّ على غير موعد، وكانت قد جاءت إلى العاصمة البريطانية في رحلة قصيرة. وقد سرّ بلقائها أيّما سرور واحتفى بها في خلال الأيام القليلة التي أمضتها قبل عودتها إلى مصر، واحتفل بها أيضاً عطا أمين القائم بأعمال المفوضية آنذاك وثابت عبد النّور. وقد وجدها الشيخ كاظم في اضطراب نفسي شديد: فقد توفّيت والدتها التي كانت تلازمها وتتعهدها برعايتها وبقيت وحيدة لا أخ لها ولا أخت ولا صديق يؤاسيها ويعطف عليها.

عادت ميّ إلى القاهرة فكتبت إلى الشيخ رسالة شكر ختمتها بقولها: «أسأل الله أن يوحي إلى شاعرنا ألف قصيدة وقصيدة!» ولم يكن بوسع الدجيلي إلاّ أن يجيبها بقصيدة قال منها:

سلام على ميّ، سلام على مصر	سلام على صحبي بها أبد الدّهر
وإني، وتهيامي بميّة، عاجز	عن النظم حتى في محاسنها الغرّ
تطالبني بالشعر ميّ وتبتغي	لشاعرها وحياً من الله بالشعر
ولم تدرِ أني في حياة بعيدة	عن الشعر إذ أنّي تقدّمت في عمري
ومارست أعمال السياسة سالكاً	مسالكها القصوى إلى حيث لا أدري

وكان بعد ذلك من أمر ميّ ما كان، فغلب عليها الداء وحجرت في المستشفى لتعود

بعدهـا فلا تلبث حتى تقضي نحبهـا . وكان ذلك اخـر العهد بـالمناظـرات الأدبية بين الشاعر العراقي والأديبة المصرية التي شغلت المحافل والناس سنين طويلة .

محمود الملاح

في دار منعزلـة بمحلة السعـدون في بغداد يعيش شـاعر منـزو يعدّ من كبـار شعراء المدرسة القديمـة في العراق . ذلكم الشاعر «محمود الملاح» الذي يـلازم داره وحيداً منذ عشرات السنين لا يكاد يبرحها ولا يزوره إلاّ نفر يسير من أقرانه وأصدقائه .

ولد محمود الملاح في الموصل سنة ١٨٩١ ، وهـو محمود بن عبد الله بن يونس الملاّح ، ونسبتـه إلى سـوق الملاحين في مسقط رأسـه ، وهـو سوق قـديم يبـاع فيـه الملح وسـائر الحاجـات . وقد نشأ في ربـوع الموصل ودرس العلـوم الدينيـة والأدبية على علمائهـا وفي مقدمتهم عبـد الله النعمة وعثمان الديـوه جي قاضي الموصل . ونال الاجـازة العلمية في سنة ١٩١٢ فوظف مـداوماً في قلم تحرير الولايـة . ولم تلبث الحرب العظمى أن اضطرم أوارها فجنّد لكنه استمر على مزاولة وظيفتـه في الولاية إلى عقد الهدنة وانسحاب الاتراك وتسليم المدينة إلى القوات الانكليزية .

كانت الموصل في ذلك العهد بلدة منعزلة راكدة الثقافة لا تكاد تستشفّ بصيصاً من أنوار المدنيـة الحديثة . وكـانت الثقافة التركيـة تعمّ المحافل الـرسمية وتستهـوي الطبقة الراقية ، أما الثقافة العربية فكـانت ضيقة الأفق محصورة في نطاق المحافل الدينية . وقد استطاع فتـانا مع ذلك أن يحصل على طـائفة من الكتب الصـادرة في القطرين المصري والسوري وأن يتتبع سيرة دعـاة الاصلاح أمثال جمال الـدين الافغاني ومحمد عبـده وعبد الرحمن الكـواكبي ومحمد رشيد رضا ويغـذي روحه النهمة بـآرائهم وتصانيفهم . وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية على أثر انقلاب سنة ١٩٠٨ وانتشرت المبادىء الاصلاحية واللامـركزيـة في ربوع الشام وانتقلـت منها إلى العراق . فكـان أديبنا الشـاب في طليعة الشباب الموصلي الناهض الذي آمن بهذه المبادىء وأشرب حبّ الثقافة العربية الجديدة على بعد الشقة وعسر الاتصال . وقد قام بتدريس التـاريخ والجغرافية بصورة فخرية في مدرسة محمد رؤوف الغـلامي ، واشترك مع فريق من الشعراء منهم داود سليمان الملاح ، وفاضل الصيدلي في نظم أناشيد عربية للأطفال تولّى الغلامي طبعها في كتيّب .

وفي سنة ١٩١٩ شـدّ الرحال إلى سوريـة واستقرّ في حلب أمداً على عهد حكـومتها العربية . ووظف في مجلس إدارة الولاية ومدير التحـرير آنذاك ابراهيم هنانو الذي عرف بمواقفه الوطنية السامية ، وقد رثاه الملاح عند وفاته في سنة ١٩٣٥ بقصيدة مطلعها :

جللـــوا الأرض بـــالســـواد حـــدادا　　　إن فقـــد الـــزعيم هـــزّ البـــلادا

ولما شدد الفرنسيون سيطرتهم على البلاد السورية وقضوا على حكومتها العربية ضاق محمود الملاح ذرعاً بوظيفته فعاد إلى الموصل سنة ١٩٢٢ . ولم يلبث أن قدم بغداد سنة ١٩٢٤ وألقى بهاعصا الترحال. قام في أول الأمر بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية ثم عين رئيساً لكتاب مجلس النواب عند إنشائه في سنة ١٩٢٥ لكنه قضى في هذه الوظيفة أياماً معدودة. وعين بعد ذلك مدرساً في بعض المدارس الأهلية فمدرساً في المدرسة الثانوية الرسمية (١٩٢٥ ـ ٢٨). وعين بعد سنتين معلماً للّغة العربية في المدرسة العسكرية (١٩٣١ ـ ٣٣)، وأصدر جريدة أدبية باسم «التجدّد» (٢٤ تموز ١٩٣٠)، فلم يكتب لها التعمير طويلاً. وانتخب نائباً عن الموصل في كانون الأول ١٩٣٧ ، فلم يطل عهد نيابته سوى أمد قصير، إلى حلّ المجلس في شباط ١٩٣٩ . وقد توفي محمود الملاح في بغداد في ١٩ آذار ١٩٦٩ ، ودفن في الموصل.

عالج محمود الملاح قرض الشعر صبياً. وما إن وفد على بغداد حتى اتصل بمحافلها الأدبية والثقافية ونشر قصائده ومقالاته في مجلاتها وجرائدها . ومن بواكير شعره الذي نظمه في مدينة السلام قصيدته «تمثال مود». فقد شاهد تمثال القائد الانكليزي ولم يكن له سابق عهد بالتماثيل والأنصاب فخاطبه قائلاً:

أتروم في جوّ السماء مطارا ... أم أنت ملتمس لها أخبارا؟
لم نلق حياً طائراً بجواده ... لكنّ ميتاً فوق مهر طارا
فكأنما ضاقت به فسح الفلا ... فأراد في فسح الهواء مغارا

ويقول منها:

يا أيها الشعب الجهول تعلّمن ... من ميّت درس الحياة جهارا
طأطأت رأسك للحوافر بعدما ... طاولت فوق متونها الأقمارا
ما زلت عن وقع الخطا متغافلا ... وكفى بلوغك وقعها إنذارا
وأراك في ذيل الشقا متلفعاً ... فمتى أراك تسابق الأبرارا؟
فيم ادعاؤك للأصول، ولا أرى ... نفعاً بوصف الفاكه الأشجارا
يا خابراً من أمتي أعراقها ... أترى الدم الجاري بهنّ معارا؟

ومنها:

الغرب يبني في السماء منازلا ... والشرق يحفر في الثرى آبارا
والغرب في درج العلا متصاعد ... والشرق تحت طباقها يتوارى
جهلوا الطريق ولا دليل مبصر ... فهم ببيداء الحياة حيارى. . .

نشر هذه القصيدة في جريدة «العراق» بتوقيع مستعار فاستحسنها الشاعر محمد

الهاشمي ونقلها في مجلته «اليقين» وقدّم لها بتوطئة كلها مدح وإطراء. ولم تمضِ أيام حتى لقيه محمود الملاح وأخبره ان القصيدة له، فقال الهاشمي: «لقد أثنيت عليها لأنني ظننتها للسيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل».

لازم محمود الملاح في أثناء إقامته ببغداد أدباءها وفضلاءها وغشي مجالس الزهاوي والرصافي والكرملي وعبد العزيز الثعالبي وفهمي المدرس وطه الراوي وعبد اللطيف ثنيان وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعباس العزاوي وأضرابهم وشارك في المناسبات الوطنية والأدبية بشعره ونثره. وله مباحث في اللغة وقواعدها والتاريخ العربي والاسلامي. واجتمع له ديوان ضخم تفرقت قصائده في الصحف والمجلات. ونشر رسائل منها «الوحدة الاسلامية بين الأخذ والردّ (١٩٥١) عبد الباقي العمري (١٩٥٣)، تاريخنا القومي بين السلب والايجاب (١٩٥٦)، دقائق وحقائق في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٥) نظره ثانية في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٦) تحذير المسلمين من المتلاعبين بالدين، تعليقات وحواشي على كتاب ابن سينا (١٩٥٣) حقيقة إخوان الصفا (١٩٥٤) تشريح شرح نهج البلاغة (١٩٥٤) النحلة الاحمدية، البابية والبهائية (١٩٥٥)، المجيز على الوجيز (١٩٥٦)، الآراء الصريحة لبناء قومية صحيحة (١٩٥٦)، الزرية في القصيدة الأزرية (١٩٥٢) حجّة الخالصي (١٩٥٢).

وللملاح مطارحات شعرية ومداعبات إخوانية كثيرة مع أصدقائه وفي مقدمتهم عباس العزاوي ومحيي الدين أبو الخطاب المحامي، وقد سجل طرفاً منها المرحوم ابراهيم الواعظ في كتابه الجامع «الروض الأزهر».

***

تعرف محمود الملاح على أثر قدومه إلى بغداد بالأب أنستاس ماري الكرملي ونشر المقالات في مجلة «لغة العرب» ثم نشب خلاف بينهما في أثناء الاحتفال بيوبيل الكرملي فلم يلتقيا بعد ذلك.

ومن طريف ما يرويه الملاح أن الكرملي تحدث أمامه ذات يوم عن المآكل والمشارب الطيبة التي تقدم لرهبان الدير وخصّ بالذكر النبيذ المعتق الذي يقدم على مائدة الطعام، فتاقت نفس الشاعر إلى مشاهدة هذا النبيذ وسأل الأب أن يخصه بشيء منه. قال الأب «إن النبيذ ملك الدير ولا سبيل إلى إخراج شيء منه». وألح الاستاذ الملاح وألحّ في الطلب وقال: «إذا قدم لكم النبيذ على الخوان فصبّ قليلاً منه في قنينة وأحكم سدّها وضعها في جيب ثوبك الفضفاض». فلم يسع الراهب إلا أن يمتثل واحتفظ بالقنينة حتى إذا ما جاءه صديقه الشاعر بعد أيام قدمها إليه قائلاً: « هاك النبيذ المعتق الذي طلبته».

أخذ الملاح القنينة وأطال النظر إلى السائل الأحمر القاني الذي تحويه وقال: «إذن هذا

هو النبيذ الـذي يسيل له اللعاب ويطرى به الاهاب ويخضلّ الشبـاب» ومضى بالقنينة إلى داره ووضعها على الـرف في بعض الغرف وقـال: «لعلّي أتذوّق هذا الشراب يـوماً». لكنه لم يفعل بل كان كلما دخل الغـرفة نظر إلى القنينة وكـرّر ذلك القول. وفي ذات يوم وجد القنينة قد سقطت على الأرض وكسرت وسال شرابها الثمين. لقد مرّ فأر على الرف فعثر بها، وكذلك كانت نهاية النبيذ المعتق الذي لم يذقه الشاعر.

إنّ الملاح على ألمعيتـه وحدّة ذكـائه كثيراً ما تجوز عليـه الهنات: فمن ذلك أنـه حين استحـدثت مسكـوكـة المائة فلس لأول مرة ظنهـا ريـالاً، فمضى إلى الحلاق وكـان من عادتـه أن ينفحه بمائتي فلـس، فلما فرغ من الحلاقـة سلمه القطعـة الجديدة ذات المائة فلس، فلم ينبس الرجل ببنت شفة بل شكره بانحناءة إلى الأرض وتبجيل لم يعهده من قبل.

وخطـر له بعـد ذلك أن يتحقق عن قيمـة هـذه القطعة النقـديـة فسأل صبياً عنهـا فأجابه: «إنها مائة فليس، ألا تقرأ الكتابة على وجهها؟» وعجب الملاح من نفسه كيف فاته مثل هذه البداهة.

وحدث مرة أخـرى أنه اكترى سيارة وأراد أن يدفع ١٥٠ فلسـاً إلى السائق. ولم يكن في جيبه إلا ورقة نقدية ذات ربع دينار وقطعة ذات مائة فلس، فدفع إلى السائق القطعة من فئة مائة فلس وسأله أن يستوفي أجرته ويعيد الباقي.

ومن النوادر التي اتفقت للاستاذ الملاح أنـه كان يسكن داراً تطلّ على حديقة الأمة. فلما قرر هـدم هذه الدور والحاق أرضها بـالحديقة، جاءه مأمور التبليغ وطـرق الباب. وكان الوقت عصراً والحر شديداً، فخرج إليه الشاعر في مباذله.

قال المأمور: «أين صاحب الدار؟»

- تفضل، أيها السيد، ما تريد؟

- لقـد تقرر هـدم البيوت المطلــة على الحديقة فـوراً، فيجب إخـلاء الـدار في أيـام معدودة.

وما أن بوغت الشاعر المنزوي بهذا الكلام حتى صقع وعظم عليه الأمر، فصاح:

«سبحان الله، كيف أفرغ داري خلال أيام وأين أذهب...»

لكن المأمور قال بغير اكتراث: لا بـدّ من ذلك، وأرجو أن تتبلغ بالأمـر. ولم يدع له مجالاً للتفكير أو الجواب بل سحب يـده وغمس إبهامه في الحبر وطبع بـه ورقة التبليغ، ثم أخذها وودع وخرج.

قال الشاعـر: «لم يسألني هل أحسن الكتابة، وكان من هول المفـاجأة وشدة وقعها عليّ أني لم يخطر ببالي أن أقول له أإني أعرف التوقيع باسمي».

وقـد ذكرتني هـذه الحادثة الطـريفة بنـادرة تنسب إلى اللغوي الاميركي نـوح ويبستر صاحب القـاموس الشهير الذي أفنى عمـره في وضعه . كان يعمل طوال النهـار مجهداً فكره وجسمه لإنجاز معجمه ، فلما أمسى المسـاء خرج للترويح عن نفسه وقصد بعض المطاعم لتنـاول العشاء . ولم تلبث الخادمـة أن جاءتـه بقائمـة الطعام ، فأخـذها ببطء وألقى عليها نظرة كليلة مـرهقة ثم أعادها إلى الفتاة وقال : «ألا تختـارين لي برأيك شيئاً نفيساً آكله؟» .

واختـارت لـه الخادمـة مـا شـاءت من الطعـام ، فلما فـرغ من تنـاولـه وأتت لترفع الصحون ، قالت : «هل أعجبك طعامنا؟» .

قال : «أجل ، أجل ، لقد أحسنت الاختيار فشكراً» .

فقـالت : «لا تنس أن تـرسل إلينا أصحـابك ممن لا يحسنـون القـراءة ، فأنا كفيلـة بخدمتهم و إرضائهم» . . .

يجمع محمود الملاح في شعره كل خصائص مـدرسة النهضة الشعرية الأولى التي حمل لواءها محمود سامي البارودي في مصر وترسّم خطـاه شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وأضرابهم . والسمات العـامة لهذه المدرسـة الاعجـاب بالـديباجـة العبـاسية والالتـزام بـالاساليب الفصحى والعمـود الشعـري الدقيق . ذلـك من حيث الاسلوب ، أمـا من حيث المعاني والاغـراض فالغـالـب على شعراء هـذه المدرسة النظم في المواضيع الـوطنية والاجتماعية والدعوة إلى النهضة والاصـلاح والتقدم والتضامن العربي والشرقي والحملة على الاستعمار والاستغـلال وتكريم مشـاهير الامـة ومصلحيهـا ورثائهم و إحيـاء أمجاد العرب والاسـلام ووصف الطبيعة والمخترعات الحديثـة ومباراة القصائد القديمـة وطرق المواضيع الاخـرى من حكم وقصص وأمثـال وغـزل ونسيب والاعـراب عن المشـاعـر والعـواطف ، كل ذلك مع الاهتمام بـوحدة القصيـدة والتـوسع في الأغراض والمطـالب وتحري المعاني المنفردة والحكم المأثورة واستلهام آداب الأمم الغربية والشرقية إن رأساً و إن عن طريق الترجمة والاقتباس .

وقد عني الملاح بتلك الأسـاليب والمواضيع . وتفتحت قريحته بعد قـدومه إلى بغداد واتصالـه بمحافلهـا الأدبية والـوطنية ، فنظم أكثـر ما نظم في الـوطنيات والسيـاسيات والاجتماعيات والمراثي وشـارك في الندوات والحفلات وأنشـد في الموالد النبويـة ومواسم المعهد العلمي . وكان صوته ينطلق في كل مناسبة سانحة ينعى على الأمة العربية تشتت كلمتها وتمزّق شملها .

لكـــــن تفـرّقنـا أودى بعـزّتنـا ففـاتنـا في الأنـام العـزّ والخطـر

وهـو يدافع عن عـروبة فلسطين ويـرثي شهداء عـالية وينـافح عن سيادة العـراق وكـرامته واستقـلال البـلاد العربيـة في المشرق والمغرب ويـدعـو إلى النهضة والاصـلاح

والتمسك بلباب الدين ونبذ القشور والخرافات. وهو يتفجع للانسانية المعذبة المهانة في الحرب العالمية الثانية ويقارع الاستعمار والانتداب ويندّد بالادواء الاجتماعية ويهاجم النواب الذين يستهينون بحقوق الشعب وكرامة الأمة. وهو يرى أن كل ما يهزّ الشاعر يصلح أن يكون موضوعاً للشعر فيستهجن التقليد والمحاكاة والتصنّع ويحبذ إرسال الشعر على طبيعته. ونظراً إلى دراسته اللغويةوإدمانه مطالعة الشعر القديم وحفظه، نراه يهتمّ كل الاهتمام بصقل منظوماته وتجديدها ولا يتورّع عن استعمال الكلمات الفصيحة المهجورة. وهو ينقاد أحياناً لقوافيه، فإذا طاوعته القافية ـ وكثيراً ما تطاوعه ـ توسع في المعنى وكرّر القول حرصاً على استيفاء القوافي المؤاتية، ولذلك جاء معظم منظومه من القصائد المطولات يتبسط فيها تبسطاً ويشعب آفاق الكلام.

إن شعر محمود الملاح يصور عهداً تاريخياً حافلاً من عهود العراق والأمة العربية، وقد ظل يلقي هذا الشعر وينشره قرابة ثلث قرن. وحفلت به صفحات الجرائد والمجلات المعروفة كالعراق والاستقلال والبلاد والاخاء الوطني والزمان واليقين ولغة العرب والحاصد والهداية الاسلامية. واتخذ الرثاء ذريعة لاطراء الشيم واستنهاض الهمم، فممن رثاهم سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وشعلان ابو الجون وعمر المختار وابراهيم هنانو وجمال الدين الافغاني والمنفلوطي واحمد تيمور وحافظ ابراهيم واحمد شوقي واحمد زكي وعبد المحسن الكاظمي وعبد المسيح وزير وعبود الكرخي ومحمد أمين العمري ومولود مخلص وعبد الوهاب عزام وغيرهم من رجال الوطنية والسياسة والقلم. انتصر الملاح لفلسطين فقال (سنة ١٩٣٦):

فلسطين، بيّضت وجه العرب	وقمتِ بحقّ جهاد وجب
لقد هان عندكِ بذل النفوس	كما هان عندك بذل النّشب
غلاء النفوس بإرخاصها	وإحياؤها بارتياد العطب
صعيدك من عُصُر خاليات	يروّى بكلّ دم منكسب
ولا يرجع المجد مثل الدماء	إلى أمّة مجدها قد سلب...
فلسطين، رجّحت سلّ الحسام	على شغف ببيان الخطب
ولا نفع في خطب صارخات	إذا لم تؤيد بحد القضب
ولَلْسيفُ أخطب من قائم	على منبر نادباً ينتحب...

وقد دافع عن جميل صدقي الزهاوي أول قدومه إلى بغداد وقبل أن يتعرف بشخصه فقال على لسانه:

سائلي عن أحبّتي وخليلي	صاح، هلاّ سألت عن مستحيل؟
كنت من غير مازن فاستبيحت	ابلي بعد شيبتي ونحولي...
إن سئمتم إقامتي سوف لا يسأم	ذكري مدى الزمان الطويل

فلما مات الزهاوي رثاه بقصيدة فريدة صوّر فيها الشاعر الذي غمط حقه في حياته

ينظر إلى موكب تشييعه الحافل فيعجب ويستغرب:

أطلّ الزهاويّ من نعشه فشاهد من حوله محشرا
رأى منظرا لم يكن في الحياة يؤمل من جنسه منظرا
كأنّ المناكب من تحته غوارب بحر إذا زمجرا
وللقوم همس فهذا يقول لقد جلّ ما قطرنا أخسرا
وذاك يقول: « هوى كوكب من الأفق من بعد لن يظهرا
فيا أسفاً يذهب الفيلسوف ويترك مربعنا مقفرا».
جرت خلفه زاخرات الجموع فأنشأ يسأل «ماذا جرى»؟
فقالوا: «حييت وقد كنت ميتاً فصرت لتقديسنا مظهرا
ورجلك عرجاء كانت فصارت بموتك تعرج نحو الذّرى..

وقال على لسان الشاعر الحكيم:

فماذا يريد الألى أنكروا عليّ سلوكي وقالوا: «افترى»
عجبت لمن جاء يبغي الصلاة عليّ وبالأمس لي كفّرا

ومن الذكريات التي يرويها الملاح أن الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي سعى مرة بالصلح بين الشاعرين المتنافسين الزهاوي والرصافي ودعاهما إلى داره لتناول الطعام، وكان الملاح حاضراً. ولما علم الضيوف أن الثعالبي قد طهى الطعام بنفسه وأحسن طهيه، قالوا له: «لو لم تكن لك إلا هذه الملكة لاستغنيت بها..».

إن شعر الرثاء قد كان في النصف الأول من القرن العشرين في مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر الاقطار العربية المنبر المدوّي لروح الوطنية والنهضة السياسية والاجتماعية واللسان المعبّر عن المطامح والأماني السامية. من منّا لم يقرأ آيات الوطنية والنهضة في مراثي اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم والزهاوي والرصافي وخليل مطران وعبد المحسن الكاظمي وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم وبشارة الخوري ومهدي الجواهري وعباس محمود العقاد وبدوي الجبل وغيرهم من شعراء العربية الملهمين؟ من منّا لم يهتزّ للمراثي التي قيلت في أعلام الوطنية والجهاد من مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد وشهداء العروبة في سورية ولبنان إلى سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وابراهيم هنانو ومحمود شكري الآلوسي ومحمد جعفر آل أبي التمن وغيرهم من الزعماء والافذاذ الخالدين؟ ولقد أدلى شاعرنا محمود الملاح بدلوه بين الدلاء فاتخذ الرثاء أداة للتعبير عن طموح الأمة ونهضة الشعب.

قال يرثي السعدون :

فــــوادح خطب سيلهـــا متتـــابع ... وأحـــداث دهـــر كلهـن فـــواجع . . .

سليل العـــلا هـــلاّ التمست ذريعـــة ... ســـوى الموت إذ ســـدّت عليك الـــذرائع

وأنّـى لجفـن منك غـضّ على القــــــذا ... غـــداة هـــوت فـــوق الـــرؤوس المقـــامع

وقـــال لشريـــــان يجول بــــه الإبـــا ... لي الـــذمّ إن وقّـــــاك منّي مـــــانع

أيجري دم الأمجاد فيـــــك وأمتـــــي ... لقـــد قصمت منهـــا الظهـــور الفظـــائع

رأيت اعـــوجـــاجـــاً ظـــاهـــراً وتلـــوّنـــاً ... فـــلا عضـــد لي يـــوم الكفـــاح يشـــايع

فقـــــدت مطيعـــاً بينهـم لنصـــائحي ... ولم يبـق لي إلا المســــــدّس طـــــائع

زرعـت لآمــــال العــــراق نــــواتها ... إذا أحسنـــوا استغـــلال مـــا أنـــا زارع

وقال يرثي عمر المختار بطل برقة الشهيد :

أراهــــا لا تقــــرّ على قـــــرار ... زوابـع مـــــا فتئـن على مثـــــار

تنـــــازلنـــــا الحوادث في جيـــــوش ... تسير على التتـــابع كـــالقطـــار . . .

رويـــد، رويـــد، دكتـــاتـــور رومـــا ... فكـم كـــــرّ يـــــؤول إلى فـــــرار

وربّ هـــزيمـــة شنعـــــاء تبـــدو ... لعين الغـــــــرّ في زي انتصـــــــار

دمـــــاء الأبـــــريـــــاء إذا تجارت ... بـــأسّ الملـك آل إلى انهيــــــــــار

حقـــــرتم غـــــاريبلـــدي إذ رميتم ... غـــريبلـــدي العـــروبـــةبـــاحتقـــار

هما بطـــــلان مختلفـــــان أصــــلاً ... ومتفقـــــان في كـــــرم النجـــــار

وألقيتـم على الأقــــوام درســـــا ... يعـــــاف سماعـــه وحش الصحـــاري

فـــلا يفخـــر بقتل العـــزل بـــاغ ... فما في قتـل أعـــــزل مـن فخـــار

وقـال في جمال الـدين الافغـاني عنـد نقل رفــاتـه عن طـريق بغـداد في سنـة ١٩٤٤ :

جمال الـــدين كـــان فـــريـــد عصر ... بــــه اعترف المصـــــادق والمعــــادي

أتـــوا بـــرفـــاتـــه من ألـف ميل ... تلقـــــاه بـــــلاد عـن بـــــلاد

وحـــاز الفخـــر مـــوطننـــا بحفل ... أقيـم لمصلـح للشرق هــــــادى . . .

وقد قدّر الملاح شعر عبود الكرخي وأثره في العوام فقال يرثيه :

من بعـــد عبـــود الكـــرخي لا تثقن ... بـــالشعـــر غلب ألبـــاب الجماهير

بمنطق لـــو غـــدا حسّـــان يطلبـــه ... مـــا كـــان مطلـــوبـــه يـــومـــا بميســـور

خير من اللغـــة الفصحى يشـــوّهـهـــا ... تخليط أجـــوف ذي جهـل وتقصير . . .

سن الحطيئـــة لـــلأخـــلاف سنّتـــه ... لما رأى الفضل شيئـــاً غير مشكـــــور

ليس العـــراق بـــريئـــاً من مهـــازل في ... شعـــر لأحمد في النـــوبي كـــافـــور

أمـا هجـاؤك عنـدي فهـو أصـدق من ... مـدح تكلفتـه لم يخل مـن زور
حبّ الصراحـة في الآراء أنطقني ... وللصراحـة ذنـب غير مغفـور

إن ديوان محمـود الملاح الذي نـرجو أن يتـاح له النشر روضـة غناء فيهـا من الازهار والاثمار أفانين . فمن قصيدة له يخاطب طاغور:

طـاغـور عـدت إلى مـواطنـك التي ... منهـا خـرجت وكنت عنهـا غـافـلا
أفأنـت لـلاقـرار جئت بحقهـا ... حتى إذا أقـررت عـدت مـواصـلا؟
عـاودت أصلك والأصـول حقيقـة ... مـا زلـت مفتـونـاً بها متسـائلا

ومنها :

طـاغـور، وهم النـاس غـال عقـولهم ... وهـو المصيب من العقـول مقـاتـلا
لا يستطيعـون الحيـاة بـدونـه ... كـالماء يجري الفلـك فيـه حـافـلا
فلـذاك كـان الـوهـم اكثـر نـاصرا ... ولـذاك كـان العقـل أكثـر خـاذلا

وله من «خواطر مرتجلة» :

إن الحيـاة اغتراب ... وفي المـمـات المـآب
فـإنما الـوطـن الأصلي ... الثـرى والتـراب
وقـد يسمـى حيـاة ... عـن التـراب الغيـاب
كما يسمـى وفـاة ... إلى التراب الإيـاب
إن الحيـاة لعمـري ... كما ينـار الثقـاب
نـار بـأيـدي الـريـاح ... الخمـود والالتهـاب. . .
كـأنما الأرض كـأس ... ونحـن فيهـا حبـاب
وكـل مـا حـوت الكـأس ... للهـلاك شراب

وقال من «خواطر شتى» :

يـأتي على أجسـامنـا أبـد ... مثـل الـذي قـد مـرّ مـن أزل
سيّـان سـابقنـا ولاحقنـا ... مـا ثمّ مـن أخـر ولا أول
غـرقى ببحـر لا قـرار لـه ... إلا الـذي يـأتي مـن الأجـل
ذرّاتنـا في الكـون سـابحـة ... في وهـدة طـوراً وفي جبـل
بينـي وبين المشتري صلـة ... مـا ليس بين النفـس والأمـل

ومن طريف شعره قصيدة عنوانها «لو قدّر للسود أن يسودوا البيض...» يقول منها :

اقتلـوا البيض ولا تبقـوا رمـق ... إن لـون البيـض من لـون البهـق
اقتلـوا النـاصل منـه صبغـة ... فهـو للشيطـان صنـو إذ أبـق
صبغـة الله، ولا أحسـن مـن ... صبغـة الله تعـالى مـن خلـق

أيها السـود انبـذوا البيض ولا تأكلـوا معهم طعـامـاً في طبق
لم يكـونـوا من أبينـا آدم إن مـا قـالـوه شيء مختلق . . .
ليس في البيض عقـول رجحت كـل مـا في البيض طيش ونـزق

ولقد نقل معروف الرصافي عن قصيدة تركية للشاعر توفيق فكرت فقال :

كلـوا يـا أيها السـادة كما تنكـره العـاذة
كلـوا من مطبخ الـدستـور أكل السـاسـة القـادة
كلـوا بـالسبعـة الأمعـاء حتـى تنقـذوا زاده
كلـوا لا تخشـوا النـاس فـإن النـاس منقـاده . . .

أما شاعرنا الملاح فقال في «مطبخ الوحدة» :

كلـوا من مطبخ الـوحـده ففيـه طـابت الثـرده
كلـوا من فـاخـر الألـوان حتـى تطفـح المعـده
كلـوا مـا فيـه من حلـوى كلـوا مـا فيـه من زبـده
كلـوا المطعـوم والمشروب والمشمـوم كـالـورده
وإن العـود محمـود لمن يـرغب في العـوده
ضعـوا في الفـم والجيـب وفي الصرّة والعقـده
ولا تصغـوا إلى عـذل فـإن المأكـل العمـده

ورأى الملاح طغيان الماء في بغداد فقال :

بغـداد مشرفـة على الغـرق والقـوم مختلفـون في الطبـق
لا يخدعـوك إذا هـم اختلفـوا فـالقـوم كلهم على نسـق . . .
لهفي على بلـد ذووه شقـوا فيـه غـداة بخـاذليـه شقي
لم يسق مـن مـاء الحيـاة وان هـو من دمـاء الثـائرين سقي
أمـا القصـور فليس ضـائرهـا تيـار نهر مشرف العنـق
سكنت إلى الأيـام واثقـة بـوعـودهـن غـداة قلن : ثقي
بين الـريـاض تلـوح زاهيـة مثـل الكـواكـب لحن في غسـق
قلبـي يـرفّ إذ أشـاهـدهـا مخضـوبـة الشرفـات بـالشفق

وأشفق من النفط فقال في «المارد الأسود» :

ضللت حتى صرت لا أهتـــــدي وطـال تسهيـدي عن السّهد

ولم يطل سهـــدي إلا على قـوم على ضيم بـه رقّد

فبـدّدت أحلامي الغـرّ في شعب إلى أحلامه مخلد

واعترضتني في الـورى جنّة بعـد النّهى من مـارد أسود

فيـالـه أسود أزرى بنا وصيّر الأحرار كـالأعبـد

قد كـان موطوءاً بأقدامنا حتى اعتلى مرتبة السيّد

تالله ما كافور في مصره حـاز الذي للنفط من سؤدد

إن جـار كـافور فعـذر لـه غـربتـه في الأصل والمحتد

وعبـدنـا جـار على أهله لما خلـوا من نـاصح مرشد. . .

لم تنكب الأوطان في مرفق نكبتهـا في المرفق الأوحد

وقال في قسوة الناس وحقارتهم:

لعن الله قسوة الإنس، إنّ الانس من جنّها أحقّ بلعنِ

مقتـوا الشيطان الرجيم ولو قيس بـأعمالهم لبـاء بغبن

إن يكن خارجاً على الله إبليس فهم خارجون، لكن بفنّ

حـارب الله من وراء مجنّ وهم حـاربوه دون مِجَنّ

يفترون الهراء وجهاً لـوجه ويقولون حكمة غير ظنّ

كـان صلباً في ظنّه حين ضحّى، مثبتاً رأيه، بجنّة عَدْن

وهمُ إن رأوا يضحّون بـالرأي إذا أتحفوا بلعقة دهن

وقال مداعباً في كلب سيّدة:

يـا كلب سيّدة، حسبتك سيّدا لما قعـدت من المليحة مقعدا

لو لم يكن إلاّ يـد من غـادة تحنـو عليك بلطفهـا لكفت يـدا

نلت المنى من غير قصد للمنى كم غـافل في القصد نـال المقصدا

السرّ كل السرّ في الذنب الذي أيقنت تحريكاً لـه أنّى بدا

لا تكترث ما دمت تحمل سرّه إن كنت أبيض منظراً أو أسودا

ذنب ثمين لست منه مبدّلاً ذنبـاً لطـاووس يضاهي عسجدا

هل أنت منه مبدّل، وهو الذي جعل النعيم عليك وقفاً مرصدا؟

لو أنّ زنديقاً بعيشك راتع مـا كـان خالقه الكريم ليجحدا

وقال في سنة ١٩٢٩ يدافع عن حقوق البلاد :

حتّام تهضم للبلاد حقوق ... ويهينها من ولدهنّ عقوق
عجباً لشعب واجم لعواصف ... والصخر إن مرّت به منطيق
الشعب مهضوم الحقوق وساكن ... في الرمس كلّ في البلاء شقيق
هذا يضيق به الطريق إذا مشى ... ذلاًّ وذاك به اللحود تضيق

ومنها :

لو أن طغيانا تحمّله الثرى ... صبرت على حكم الطغاة «فروق»
ترف واسراف بمثلهما هوت ... من قبل ذا الرومان والاغريق
ما جمّعوه من دموع بوائس ... في كل موبقة له تفريق
بين الجوانح شعلة مشبوبة ... إنّي لأخشى أن يشبّ حريق

وقد لازمت الملاح ثلاثين عاماً أو يزيد، ونعمت بصداقته ومودّته، وأفدت من أدبه وفضله. وكان لي معه مطارحات شعرية ومراسلات أدبية ومساجلات اخوانية كثيرة لا تزال ذكراها تثير القريحة وترهف الفكر وتنعش الروح.

كان للملاح هرّ يعنى به ويطعمه حتى هرب ذات يوم بلا وداع. وأعرب الشاعر عن أسفه لفراقه، فأرسلت إليه بالأبيات الآتية :

قد كان يؤنسنا هرّ ونؤنسه ... في وحشة الدار بين الصبح والغَسَقِ
يأتي فنطعمه من زادنا، فنرى ... فنّاً عجيباً من الألعاب والمَلَق
لكن مضى لم يودّعنا بلا سبب ... مخلّفاً حسرة بانت على الحدق
لقد محضناه ودّاً يوم مقدمه، ... فيا له آبقاً مستهجَنَ الخُلُق
إنّ الطبيعة نادت فاستجاب لها، ... وراح يسرح حرّاً في ذُرَى الطرق

وتذاكرنا يوماً في الكتب القديمة وما ضاع منها فنسي الحاج خليفة كاتب جلبي وكتابه الفذّ «كشف الظنون»، فقلت له :

عجباً لمثلك عالماً ... جمّ المعارف والفنون
تنسى أريباً فاضلا ... وكتابه كشف الظنون
للترك يُنْمَى أصله ... والعرب فازت بالثمينِ
قد شاد صرحاً سامقاً ... للعلم والأدب الرصين
لو أنّ «عبّاساً» درى ... لاستاء من ظلم وهُونِ
واحتجّ غضباناً على ... إنكار ذي الفضل المبين

والاشارة إلى صديقنا المؤرخ عباس العزاوي. وقد أجابني الملاح بأبيات يعرّض فيها بالعزاوي، منها:

أسبــــاب ذلـك أن عبّــــــاســـــاً غـــــزانـــــا بـــــالمجـــــون
فتشتّتــت أفكــــــــــارنـــــــــا حتـى حكـت مسحــــــوق طين...
لا تغترر بتظـــــــــاهـــــــــر إذ عنـــــــدنـــــــا كـلّ اليقين

حين حلّ محمود الملاح في بغداد أشير عليه بالانتماء إلى مدرسة الحقوق كما فعل الكثيرون من صحبه وأبناء بلده، فقال إنه لا يحمل الشهادة الثانوية الرسمية. لكن سمح له ولأمثاله من أصحاب الدراسة الخاصة أن ينتموا إلى الصف الأول على أن يؤدوا بعد ذلك امتحاناً في المواضيع العامة موازياً لامتحان الدراسة الاعدادية.

داوم الملاح في مدرسة الحقوق أشهراً، ثم عين موعد الامتحان العام، ووجهت إلى الطلاب الذين لا يحملون الشهادة الثانوية أسئلة في الرياضيات والطبيعيات واللغة ومواضيع أخرى، وكان منها أسئلة في العروض. وقد سرّ الشاعر الملاح بهذا السؤال بوجه خاص لبعد عهده بالمواضيع العلمية والحسابية، وهنّأ نفسه سلفاً مؤملاً أن يحمل إلى النجاح على موجة سعيدة من بحور الخليل. لكن كل الطلاب الذين شاركوه في الامتحان أو جلهم لم يجيبوا على أسئلة العروض، فتقرر آخر الأمر اهمالها وإسقاط درجاتها من متوسط النجاح العام. فخاب أمل شاعرنا، وكان ذلك آخر عهده بدراسة الحقوق.

نثر محمود الملاح:

كان الجمود فاشياً في عهد نشأة محمود الملاّح، وكان الكتّاب يلتزمون بالسجع غير مكترثين بأسلوب الترسّل الواضح المؤدّي للمعنى. ووجد الملاح نفسه صعوبة في التخلّص من ذلك الأسلوب العقيم، فقال في ذلك في كتابه «نظرة ثانية في مقدمة ابن خلدون»:

«ومن الغريب أن الأدباء درجوا على السجع حتى عصرنا الذي أدركناه ولم يحدّث أحد نفسه باطّراح هذه البدعة. ولعلّ لابن خلدون الفضل في اطّراح كتّاب العصر الحاضر لها.

وكنت أنا من أواخر من نهج نهجه بعد قراءتي وصيّته في المقدّمة وأنا في عهد التحصيل. وعانيت في الانتقال من طبيعة إلى طبيعة صعوبة حتى أنّي جشّمت نفسي حفظ النثر المرسل للتخلص من السجع! وأتذكر أني حفظت قسماً من كليلة ودمنة... وكنت أعكف على المقدّمة لذلك، وكانت الكتب البليغة النثر عسرة التحصيل.

«وطبيعة السجع التي كانت فيّ لم تأتني من قبل حفظ كلام مسجّع، كلا، فإني لم أحفظ كلاماً مسجّعاً قطّ. ولكني أسمع كلاماً مسجّعاً وأطالع في كتب مسجعة كمقامات الحريري ومقامات البديع ونهج البلاغة، فينطبع في ذهني السجع، ولا يزال فيّ أثر منه!»

وكان محمود الملاح معجباً بابن خلدون، وقد قال:

«إنّ مقدمة ابن خلدون فتح في الفكر الاسلامي يشبه الفتح الأمويّ في التاريخ الاسلامي، وكلاهما آية من آيات الاسلام». وكان ابن خلدون يلي الكتابة والسفارة والأعمال لأمراء المغرب والأندلس في دويلاتهم المتصارعة فيما بينها، ثم اعتزل أربعةأعوام في قلعة ابن سلامة متخلّياً عن الشواغل ألف في أثنائها مقدمته الشهيرة.

قال الملاّح: «ولولا مطاردة ابن خلدون لحرمنا أثمن ما أنتجه المخّ العربي. فإذا ذكرت ضروب الاضطهاد، فحيّهلا بالضرب الذي عاناه ابن خلدون!».

ومن نثره الرائق مقالته «القطوب بعد الابتسام» التي نشرها في صحيفة البلاد (١٤ كانون الثاني ١٩٣٠)، قال فيها:

ما من ابتسامة إلاّ في عقبها قطوب.

كذلك كانت ابتسامة المغيب، إذ هي أشبه بصحوة المحتضر. هنالك قطعت صلاتي بكل ما كان يطيف بي من شواغل «القهوة» (المقهى) وضوضائها وتكلّفت شبه غفوة نفرّغت فيها لمشاهدة طيوف الماضي معروضة على رقوق الخيال، وهي محفوفة بالحلك شأن السّينما.

فثارت حينئذٍ ذكريات «العروبة» ومجدها الرافل ببرده على ضفاف الرافدين، حيث الراية السوداء سواد مقلة الأيام وسويداء فؤاد الدهر، فعنّ لبالي بيت من قصيدة نظمتها في عهد التّرك، ثم غالها غول التجسّس، وهي:

ما زالت الأيام تبكي دولة　　　كانت سواد عيونها سوّادها

أما أنه لو نطقت هذه الأمواج، أو لو ترجمنا لغة خريرها التي تشبه غمغمة السياسة أو لغة الدواوين، لغمرتنا بالقصص ولحدّثتنا بواقعة الجسر وواقعة القادسية من أيامنا البيض وأخبار هولاكو وأحاديث تيمور من أيامنا السود.

نعم، لو ألحفنا على هذا الماء واستجوبناه استجواب متّهم لاعترف لنا بالجرم الذي اقترفه أو كان عوناً على اقترافه يوم ألقيت في قعره كتب المستنصرية وأسفار النظامية، فانطوى عليها انطواء القمطر. ويوم تحرّى أخوال المأمون... أخاه ابن زبيدة بالحرّاقات التي أنفذها طاهر بن الحسين كما يتحرّى السمك هؤلاء الذين أراهم الآن يمخرون دجلة بزوارقهم...

ثم شخصت ببصري إلى الأفق الغربيّ لأعاتب الغرب على جفائه لأخيه الشرق جفاء المأمون للأمين، و إن كنت لا أملك من وسائل عتابه إلا أضعفها، وهي هذه القصبة التي هو منّ بها عليّ! لكن قطع على نظري الطريق منظر حدائق النخيل المسطورة على هامش الشاطىء الغربي، إذ كان لون لممها أشبه ببقايا الخضاب في لمم الكواعب. فهاج ذلك المنظر ذكرى الصقالبة يوم كانوا خولاً للعرب يتخلّلون بنواصيهم الشقراء حدائق الخلفاء.

ثم رجعت إلى نفسي وقلت: هل أذاقنا الموت الأحمر إلا الافتتان بذيّاك الشعر الأشقر الذي خلب الألباب فأضعف إرادتها؟ وهل ثلّ عروش الملوك إلاّ الاندفاع وراء الشهوات واتخاذ الأباعد ركائب لاقتناص شواردها حتى يصبحوا شبحاً في حلق أهل البلاد الذين بنيت العروش على سواعدهم؟ كذلك نفض العبّاسيون أيديهم من العرب، فنفضت العرب أيديها منهم، فكان نفضها نقضاً، وما بين النفض والنقض إلاّ نقطة!

ها هي ذي ملكة النهار تزفّ لترسب في قعر الظلمات كما كانت الفتاة المصرية تزفّ لترسب في قعر النيل. وصورة زفافها أن يحاك لها إكليل من الغمام مبرقش بالحمرة والصّفرة والزرقة، ثم يقام على جمّة تسرحها الرياح فلا تتركها ثابتة على قرار، كأنها تحاول أن تستوعب عامة «الموضات» وتجرّب جميع الأوضاع، فهي حائرة في الاعتماد على واحد منها. وللغواني أحلام وأماني لا يضبط منتشرها ولا يضطلع بتحديدها إلا بياض الكفن أو بياض الهرم.

وهناك ثارت رفاف من أطيار النهار متراجعة إلى أوكارها فأحدثت في الفضاء شبه الخيلان، وقامت على أثرها رفاف من أطيار الليل التي لا تطيق النظر إلى بهجة الكون إلاّ في بهمة الحندس. أطيار ليلها النهار ونهارها الليل، وشروقها الغروب وغروبها الشروق، وأصيلها الفجر وفجرها الأصيل، بحيث لو كانت بشراً لاحتاجت إلى الشمس التي تخيّلها المتنبّي في مدح «الأسود» ولما استغنت عن مصابيح من الظلمة. وغاصت الغزالة ولم يبق منها إلا غدائر طافية تلكأت عن الرسوب وارتكم الدم في وجنتها حين شدّ عليها الخناق، فانبسط جانب من لونه على حاشية الأفق. وعلى أثر خمود تلك الشعلة الكبرى من العالم الأكبر، خمدت شعلة الفكر من العالم الأصغر وعرا نشوتي فتور اضطرني إلى التقهقر بفلول آمالي...

محمود الملاح:

سألت محمود الملاح يوماً لمَ لا يجمع شعره ويسعى إلى طبعه؟

فقال: إنني بيّضت شعري منذ أعوام طويلة، لكنني أخاف معاودة النظر فيه. فكلما وقع بيدي شيء من شعري السالف صرت على غير إرادة مني أضيف إليه

وأصحّح فيه وأسقط منه حتى عييت وقررت أن أتركه وشأنه .

وجاءني بمجموعة شعره فنقلت منه ما شئت في جلسات متعدّدة .

استملاك دار الملاح :

لاستملاك دار الملاح قصة طريفة لا بأس من روايتها بعد أن استأثرت رحمة الله ببطليها . فقد قررت أمانة العاصمة منح الملاح بدل استملاك قدره ثلاثة آلاف دينار، فاستقلّه وجاء في المساء إلى المحامي عباس العزاوي في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه على شاطىء دجلة وشكا له قلّة التعويض .

قال العزاوي : الأمر هيّن ، ويمكنك الاعتراض لدى المحكمة .

ـ ولكنني لا أعرف ما يجب أن أعمله .

ـ تعال غداً إلى دار المحاكم واعمل وكالة باسمي ، وأنا أقوم بما يلزم .

ـ وكم تتقاضى أجرة أتعابك؟

ـ نحن أصدقاء العمر، ولن أتقاضى منك فلساً واحداً في سبيل رفع الغبن الذي وقع عليك .

ـ وماذا تفعل إذا وكلتك رسمياً؟

ـ هناك إجراءات معلومة : فإنني أعترض على البدل ، فيعيّن الحاكم خبراء يمثلونك ويمثلون أمانة العاصمة ويقوم واياهم بالكشف على الدار، ثم يقرّر البدل المناسب .

وكذلك كان . وجاء الملاح بعد أيام يسأل العزاوي عن سير القضية فطمأنه وأعلمه أنها سائرة على وجهها الصحيح .

قال الملاح :

ـ إذا رفع البدل إلى خمسة آلاف دينار فإنني أعطيك أجراً كبيراً .

ـ قلت لك إنني أفعل ما أفعله لأجل صداقتنا ولا أرغب في تقاضي أيّ أجر.

وجاء الملاح في اليوم التالي وقال :

ـ إذا رفع البدل إلى ثمانية آلاف فإنني أمنحك الأجر الذي تطلبه .

ـ ولكنني قلت لك مراراً إنني لا أطمع في الأجر!

وظلّ الملاح يزيد كلّ يوم في بدل الاستملاك الذي يرجو الحكم له به ويعد صديقه العزاوي بأجر عظيم ، حتى كانت عشيّة البتّ في القضية . فجاء إلى المقهى وقال :

ـ إذا رفعت المحكمة البدل إلى خمسة عشر ألف دينار فإنني آتي بالمبلغ جميعه إليك لتتقاضى منه ما تشاء! .

قال العزاوي: لا أدري ما ستقرّر المحكمة ولكنني أكرّر القول إنني لا أطمع في أجر ولا مثوبة.

وذهب الحاكم والخبراء في اليوم الثاني إلى الدار المستملكة وسأل الحاكم ممثل أمانة العاصمة عن البدل فقال: لقد تقرّر تعويض صاحب الدار بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، وهو بدل مناسب إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة البناء والموقع . . .

ثم سأل الحاكم ممثل محمود الملاح عن رأيه، وكان ذكيّاً، فقال:

أنا لا أعرف الأرقام المجملة ولكنني أدري أن المتر المربع الواحد في هذه المنطقة من بغداد لا يباع بأقلّ من مائة دينار بصرف النظر عن البناء.

فصاح ممثل أمانة العاصمة معترضاً: ماذا تقول؟ مائة دينار؟ إنك لا تجد مشترياً بثمانين ديناراً.

فقال ممثل الملاح: إنني أوافق على ثمانين ديناراً.

وتمت الموافقة على ذلك، ولما حسب التعويض على هذا الأساس بلغ البدل ثلاثة وعشرين ألف دينار قبضها الملاح صكاً على المصرف وهو لا يكاد يصدّق عينيه.

قبض الملاح المبلغ ومضى إلى داره وأرسل إلى العزاوي أبياتاً يقول فيها: لقد وكلتك محامياً عني فماذا فعلت؟ إن الفضل يعود إلى الخبير اللبق الذي عرف من أين تؤكل الكتف.

وغضب العزاوي غضباً شديداً وقال: إنني فعلت ما فعلت واخترت الخبير وسرت في الاجراءات القانونية بدافع الصداقة ولم أطمع في الأجر. ولكن صاحبنا يقبض أضعاف ما حلم به، ثم يبخل عليّ بالشكر، ويجازيني بشعر يبخس من حقي ويغضّ من شأني. والله لأعلّمنه درساً لن ينساه أبداً واتقاضاه أجراً مضاعفاً.

واشتدّت الجفوة بين الملاح والعزاوي الذي هدّد برفع الأمر إلى القضاء، فقلت له: لا تفعل، يا أبا فاضل، واترك الأمر لي.

قال: لا أرضى بأقلّ من ألف دينار.

ومضيت إلى الملاح وعاتبته وقلت له: لو كنت قد مدحت صديقنا بشعر أشدت فيه بذكره وأطريت فضله لما وقع ما وقع.

قال: لقد كانت دعابة ولم أقصد شيئاً، وهو لا يرضى بأي أجر.

قلت: أما الآن فهو يريد الأجر ولا يتنازل عنه.

وبعد مكالمة ومساومة فصلت مقدار الأجر بخمسمائة دينار قبضتها من الملاح ودفعتها إلى العزاوي، فعادت مياه الصداقة بينهما إلى مجراها.

حـدثني محمود الملاح قـال: كنت كـاتباً للنفـوس في ولايـة الموصل في أواخر عهـد الاستبداد الحميدي. وكان السلطان يحرص ألا يشاركه أحد في لقبه، فالويل لمن يجرأ أن يكتب اسمه (سلطان) ولو سمّاه به أبواه عند الولادة. وكان هؤلاء ـ وهم كثر في الموصل ـ يكتبون اسمهم (سلتان) بالتاء ويتجنّبون حرف الطاء.

قال الملاح: وكـان عملي أن أكتب الأسماء في سجل النفوس الأسـاسي، وهو سجل يحظر فيه الحك والشطـب. ولذلك كنت أملأ المعلومـات في حقوله بدقة شـديدة وخط واضح خـوفـاً من حصـول خطأ. فإذا حضر رجل اسمـه (سلطان) لتسجيل أحـوالـه المدنية، ترك مميـز الدائرة أعماله ووقف على رأسي يراقب الأمر بنفسه خـوف الزلل وسوء العاقبة، فيشير عليّ بأخـذ الأهبة والعناية، ويقول لي: احـذر الغلط، يا ولدي. اكتب (سلتان) بالتـاء لا بالطاء، أفهمت؟ ويكرّر ذلك مثنى أو ثـلاثاً، حتى إذا ما خططت اسم الرجل انحنى على السجل ورأى الرسم صحيحـاً فربت على كتفي وقال: آفرين، يا ولدي، أحسنت.

وكانت هذه الرواية تتكرر كلما جاءنا «سلطان» لتسجيل نفسه.

محمود الملاح في حلب:

حدثني محمود الملاح قـال: كنت كاتباً في مجلس إدارة ولاية حلـب بعد نهاية الحرب العظمى، وكان مدير التحرير ابراهيم هنانو، وكانت حلب تابعة للحكومة الفيصلية في الشام. ولم يمض أمد طويل حتى احتلّ الفرنسيون سـورية وأخرجوا الملك فيصلاً منها (١٩٢٠)، فظلّ مجلس الادارة يعمل تحت إمرة الحاكم الفرنسي.

وكان التنافس شديداً في المدينة بين المسلمين والأرمن. وجاءت في هذه الأثناء امرأة أرمنية بعريضة إلى مجلس الادارة تطلب اعتناق الدين الاسلامي، وقد فهمنا أنها أقدمت على هذه الخطـوة رغبة منها في التخلص من زوجهـا الذي كان يسيء معاملتهـا. وجاء زوجها الأرمنـي، وكان فظـاً غليظاً، فأخـذ يتوعد المجلـس واعضاءه ومـوظفيه ويهدّد باستنزال نقمة الفرنسيين عليهم إذا هم ساعدوا امـرأته على الدخول في الدين الاسلامي والتخلص من ربقة زوجها.

وكـان المجلس يميل إلى قبـول اسـلام المرأة، لكنـه كـان يحسب حسـابـاً للحكـام الفرنسيين ومـوقفهم المعروف من الأمر. وفي هذه الأثنـاء اتصل الرجل بشيخ مسلم من المعمّمين وطلب إليـه حلّ مشكلتـه ودفع له الأجـر بسخـاء. فقال المعمّـم: أتريـد أن تحتفظ بزوجتك؟

ـ نعم.

ـ إذن فـاطلب أنت أيضـاً اعتنـاق الـديـن الاسـلامي، وعنـد ذلك تبقى المرأة في عصمتك إذا قبل اسلامها.

ولم تجد المرأة المسكينة بداً من الاحتفاظ بدينها والعودة إلى منزل الزوجية .

الموصل في أواخر القرن التاسع عشر:

كانت الموصل في أواخر القرن التاسع عشر تشكو العزلة والخمول والانحطاط الاقتصادي ، وتعاني فقراً مدقعاً يعزّ على الوصف . حدثني محمود الملاح أن الرجل كان يسير في السوق فيرى بصقة على الأرض ، وانه ليحدّق فيها ملياً لعلها تكون متليكاً يهمّ بالتقاطه ، والمتليك أدنى قطع النقد العثمانية .

وجاء أحد أمراء ايران لزيارة الموصل ، فحار الوالي التركي كيف يستقبله بما يليق بمنزلة الدولة . وكان الجند يلبسون الملابس البلدية ذات الأشكال والألوان المتباينة ، فقرّر الوالي بعد التفكير واعمال الرأي شراء قماش خشن من نسج الجبل وصبغه بالنيل ، فعمل منه بزّات رسمية لعشرة أو بضعة عشر جندياً توحيداً لزيّهم ، لتحيّة «الشاهزادة» عند قدومه . وظلّ هذا النفر من الجند بملابسه الخشنة المصبوغة مضرب المثل في الموصل عهداً غير قصير!

وكان الناس لا يعرفون الشاي شراباً . ومن ذكريات الملاح عن طفولته أن جدّه أصيب بالمرض ، فجيء له بالشاي دواءً . وقال الجدّ : أعطوا شيئاً من الشاي إلى هذا الطفل ليذوقه ، فلما أشربوه منه مجّ طعمه وأخذ بالبكاء .

محمود الملاح :

حدثني محمود الملاح أنهم كانوا ثلاثة يدرسون على الشيخ عبد الله النعمة ، هو وضياء يونس وشيت خطاب ، وقد اتصلت بينهم المودة فصاروا لا ينقطعون بعضهم عن بعض نهاراً ولا مساءً . ولم يتزوج الملاح ، ولم ينجب ضياء يونس ولداً ، أما شيت خطاب فتزوج وأنجب ولدين سمّى أولهما باسم محمود الملاح ، وهو محمود شيت خطاب صاحب المؤلفات العسكرية واللواء في الجيش العراقي والوزير في العهد الجمهوري . وسمّى ثانيهما باسم ضياء يونس ، فكان ضياء شيت خطاب الذي أصبح رئيساً لديوان التدوين القانوني ونائب رئيس محكمة التمييز ورئيسها بعد ذلك .

حدثني محمود الملاح أنه حين أنشئت الحياة النيابية في العراق سنة ١٩٢٥ ، عيّن صديقه ضياء يونس سكرتيراً لمجس الأعيان . وتوسط له لدى رئيس الوزراء ياسين الهاشمي فعيّن الملاح رئيساً لكتاب مجلس النواب براتب ٢٥٠ روبية شهرياً .

قال : داومت في الدار التي قرّر اتخاذها مقراً للمجلس النيابي قبل افتتاحه ، وكان العمال والنجارون منهمكين في تنظيم قاعة الاجتماع ومقاعدها لاعدادها لحفلة الافتتاح . وكنت أنا وسائر الموظفين المعيّنين واقفين نشرف على العمل ونصدر التعليمات

بشأن إتمامه. فجاء رجل معمّم باللباس الأهلي ووقف يراقب عملنا، ثم صار ينتقد العمل ويصدر الايعازات والتوجيهات، فقلت له: يا أسطَى، ما شأنك في الأمر؟ ورجوته أن يخرج، فلم يفه ببنت شفة.

فقال لي أحد الفراشين: خفّف من غلوائك، إنك تكلم الحاج عبد المحسن شلاش وزير المالية السابق. فخجلت ومضيت بعيداً.

ثم افتتح المجلس وانتخب رشيد عالي الكيلاني رئيساً، فلم يقرّ التعيينات السابقة، بل أصدر أوامره بتعيين موظفين جدد. وتلقيت أمراً بتعييني كاتباً براتب ١٥٠ روبية، فغضبت وانقطعت عن الدوام. وقد نصحني أصدقائي بقبول هذه الوظيفة، فلم أفعل. ومرّ أسبوع أو أسبوعان فاعتبرت مستقيلاً وأنهيت خدمتي قبل بدئها.

محمّد حسن أبو المحاسن

الشاعر الوطني ووزير المعارف العراقية الشيخ محمد حسن بن الشيخ حمادي بن مهدي آل محسن الحائري، من قبيلة آل علي. تسكن أسرته في قرية جناجة بجوار الهندية في لواء الحلة وتنحدر من ابراهيم بن مالك الأشتر. وقد ولد في كربلاء سنة ١٨٧٦ وطلب العلم في مسقط رأسه ودرس علوم العربية والدين على يد محمد حسين الشهرستاني وكاظم الهرّ وغيرهما. وامتاز بشعره الجزل الرقيق، وآمن في شبابه بالمبادىء الاسلامية وناصر الخلافة العثمانية حامية الاسلام ونظم في ذلك القصائد الكثيرة. وكان له اطلاع على الشعر الفارسي. ولما اختلّ نظام الحكم التركي في الحلّة خلال الحرب العظمى، خرج من كربلاء بأسرته إلى قرية جناجة وأقام فيها ردحاً من الزمن.

ونشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وتولّى زمام الأمور في مدينة كربلاء الزعيم الشيخ محمد تقي الشيرازي، فعهد إلى مترجمنا برئاسة المجلس الملّي والحكومة الوقتية، حتى إذا ما خبا أوار الثورة سجن في الهندية، ثم أطلق سراحه في آخر أيار ١٩٢١.

وعيّن وزيراً للمعارف في وزارة جعفر العسكري (٣ كانون الأول ١٩٢٣)، وقد استقال في ٢٧ ايار ١٩٢٤. وانزوى في قريته جناجة حيث وافاه الأجل في ٢٤ حزيران ١٩٢٦. وطبع ديوان شعره سنة ١٩٦٤ بإشراف الشاعر الخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي.

شعره:

اشتهر أبو المحاسن بشعره الاسلامي والوطني، فقد سجّل أحداث التاريخ العثماني بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ منتصراً للدولة العليّة التي كانت تجمع شمل الاسلام وتدافع عن حماه. ومما قاله يخاطب الدين الاسلامي ويشيد ببيض أياديه:

لك الشرف الباقي، وإن رغم العدى … أبى الله إلا أن يدوم مخلّدا
تردّيت بالمجد الأثيل، وما لهم … إذا اجتذبوا ذاك الرداء سوى الرّدى
وما أنت إلا الشمس في الأرض ما لها … غنى عن سواها فهي تطلع سرمدا
وما لنظام الكون غيرك كافل … لك الله فاسلم كي نعيش ونسعدا
نشرت لواء العدل في كل بلدة … وساويت فيها بالمسود المسوّدا..

وقال في رثاء محمود شوكت باشا بطل الانقلاب العثماني:

بكى الشرق، يا خير الصدور الأعاظم … عليك بمنهلّ الدموع السّواجم
نعيت إليه فاستمالت ربوعه … مصاباً ومادت أرضه بالمآتم..

ومنها:

ألم يكشف الكرب الذي ضيّق الفضا … على أمة باتت بقبضة ظالم؟
فشيّد صرح العدل مذ هدّ سيفه … على «يلدز» الشمّاء صرح المظالم

ومن شعره الوطني:

يا أيها الوطن العزيز لك الهنا … قد نلت أشرف بغية ومراد
سيعيد تاريخ العلى لك نفسه … ويعود مجد رجالك الأمجاد
أبناء يعرب يطلبون تراثهم … إنّ البنين أحقّ بالأجداد
لا يقنعون من الفخار بتالد … ما لم يضيفوا طارفاً لتلاد

حتى يقول:

فمتى تؤلّف وحدة عربيّة … وطنيّة الاصدار والإيراد
ليس العراق بموطني هو وحده … فبلاد قومي كلّهن بلادي

وقال يفتخر بقومه:

بقومي أسمو راقياً شرف العلى … وأسطو بهم يوم الوغى وأصول
هم القوم أما عزّهم فمشيّد … تليد وأما مجدهم فأثيل
شمائل كالروض الأريض تضوّعت … بطيب شذاه شمأل وقبول

وقال في مدح النبيّ الأمين:

وأشرقت أنجم التوحيد محدقة … منه ببدر هدىً يجلو دجى الظلم
نبوّة حاولوا إخفاءها فبدت: … إن الشموس سناها غير منكتم
كأن شرعته ضوء النهار جلت … من الضلالة ليلاً حالك العتم
من صفو أخلاقه سلسال كوثره … جرى بصفو ومعين سائغ شبم

وقال في السجن:

أنا والنجم كلانا ساهر ... غير أني مفرد بالشّجن
لا أبالي، والمعالي غايتي، ... وصل أشجاني وهجر الوسن
في سبيل المجد منّا أنفس ... رخصت وهي غوالي الثمن
ليس غير الشعب واستقلاله ... لِيَ شغل فهو أضحى ديدني
نحن للعلياء والعليا لنا ... لو أقالتنا صروف الزمن
عُرِفَ المعروف والعدل بنا ... ولنا تأسيس تلك السُّنن

ولأبي المحاسن غزل لطيف على الطريقة القديمة، كقصيدته «شجو الغرام» التي يقول فيها:

أجدّك هل لي من هواك مجير ... فأيسر شجوي لوعة وزفير
أسامر في ليل التمام نجومه ... وكل شجيّ للنجوم سمير
وقد منعوا طيف الخيال، فلا الكرى ... يلمّ ولا طيف الحبيب يزور. .
ولما وقفنا للوداع بذي النّقى ... نعرّض بالشكوى لهم ونشير
وفي القلب من برح الصّبابة لاعج ... له بين أثناء الضّلوع سعير
وقد أشرقت للناظرين طوالعاً ... بدور لها فوق الحدوج سفور
جرت لمراعاة النّظير مدامعي ... نجوماً فلاحت أنجم وبدور. .

ومن رقيق شعره الوجداني:

لعلّ النّوى تدنو فيجتمع الشّمل ... فلا عيش إلا من وصالك لي يحلو
فدىً لك نفسي، كيفما شئت فاحتكم ... فمثلك لا يُسْلَى ومثلِيَ لا يسلو
وما أنا إلاّ عاشق قد تقاسمت ... هواه المعالي الغرّ والحدق النّجل
وما اختلفت سبل الهوى غير أنني ... أواصل نهجاً فيه تأتلف السُّبْلُ
معاني جمالٍ غيرما افتتنوا به ... فلا حور العينين منه ولا الكحل

وقصيدته «الربيع النّاضر» من أمثلة الوصف البارع الجميل:

بوركت يا زمن الربيع النّاضر ... ما أنت إلا بهجة للناظر
أقبلت يا ملك البسيطة رافلاً ... بمطارف الحسن السّنيّ الباهر
رجّعت للأرض الموات حياتها ... وكسوتها بُرد الشباب الزّاهر
فتضوّعت أزهار كلّ خميلة ... تجزيك بالنّعماء حمد الشاكر
نطق الحمام عن الرياض بشكرها ... فاسمع ثناءك من غناء الطائر
ضحكت ثغور الأرض فهي بواسم ... مهما بكت عين السحاب الماطر

خطر النّسيم الغضّ يحمل نفحةً ... مسكيّة فيها ارتياح الخاطر
والشمس صاغت بالشعاع سبائكاً ... يجلو النّضار بها جميل مناظر
وجرى لجين الماء فيه فحلّيت ... أشجاره بمعاضد وأساور

ومن شعره الغزليّ:

ما تثنّى الغصن إلاّ وصفا ... لكِ قدّاً وقواماً أهيفا
يطرب الغصن إذا شبّهته ... بكِ حتى ينثني منعطفا
وسلاف الراح في نشوتها ... تصف الثغر وتحلو مرشفا
أرضاب الثغر أم مشمولة ... قد جرت في لؤلؤ قد رصفا
فيه للظامي شفاء من جوى ... لو رأى الظامي سبيلاً للشِّفَا
ومهاة غادرت ألحاظها ... مهجة الصبّ المعنّى هدفا
إن مشت هزّت قناة صعدة ... أو رنت سلّت حساماً مرهفا
ما ثناها السّكر، لكنّ الصّبا ... من نعيم قد سقاها فرقفا
صفة الحسن بها قد أغريت ... فزهت حسناً وفاقت شرفا

كان لأبي المحاسن مطارحات شعرية مع رجال عصره كرضا الاصفهاني وعبد المهدي الحافظ وهادي عباس آل كاشف الغطاء وعبد المطلب الحلي وجواد الشبيبي وعبد الحسين الحويزي وغيرهم. ومن طرائفه التي رواها محمد علي اليعقوبي أبيات قالها يداعب الشيخ علي الأسدي الذي أناف على التسعين:

أمعمّراً عمر النسور، إلى متى ... تبقى وأنت الميت في الأحياء؟
حدّث، فلا حرج، حديث جذيمة ... ما كان قصّته مع الزّباء؟
وعن البسوس وماضيات حروبها ... حدّث فإنّك حاضر الهيجاء

قال سلمان هادي آل طعمة: وكان الشاعر صلب الرأي، سامي الخلق، واسع الخيال، مرهف الاحساس، . ويمتاز شعره بحرارة العاطفة وصدق التعبير ورقة الشعور.

قال وهو سجين في الحلّة:

أناجز جيش الخطب، والخطب فادح، ... يكافحني طوراً وطوراً أكافح
إذا كلّ عزم القوم أو طاش حلمهم ... فعزمي مسنون وحلمي راجح
فيثبت قلبي والقلوب مَرُوعة ... ويشرق وجهي والوجوه كوالح
وقد نصحوا لي بالخضوع إلى العدى ... وما كلّ من يهدي لك النصح ناصح

فقلت: معـــاذ الله أن يستـــذلّني عـــدوّ، فغيري للـــدنيّـــة جـــانح
وأهـــون عنـــدي أن أمـــدّ لهم يـــداً تصـــافحهم أن تختلبهـــا الصفـــائح

من قصيدة له يطالب بالاستقلال في أثناء ثورة سنة ١٩٢٠:

وثق العـــراق بـــزاهـــر استقـــلالـــه والشعـــب متّفق على استقـــلالـــه
أضحى يـــؤمّل نيل أشرف غـــايـــة، يـــا ربّ، أوصلـــه مـــدى آمـــالـــه
فلـــه إلى التحـــريـــر، وهـــو حبيبـــه، نظـــر المشُـــوق المستهـــام الـــوالـــه
قـــد أطلق العـــاني وفكّ إســـاره فإلى مَ يبقـــى وهـــو في أغـــلالـــه؟
وردت شعـــوب الارض بـــاستقـــلالها عـــذب الـــرجـــاء ورُوّيَتْ بـــزلالـــه
أفيحـــرم الشعـــب العـــراقيّ المنى، والشيء محمـــول على أمثـــالـــه؟
فـــازوا بنيـــل حقـــوقهم، وحقـــوقـــه بضمان أهليـــه وعـــزم رجـــالـــه
إن يُعْـطَ واجب حقـــه فلحقّـــه أولا فمفـــزعـــة إلى أبطـــالـــه...

وقال من قصيدة يرثي الامام محمد تقي الشيرازي:

يـــا غلّـــة الأحشـــاء غـــاض المورد، يـــا أزمـــة الأيـــام غـــاب المنجـــد
لا نجـــــــدة للمستغيث ولا روى يشفي غليـــل حُشـــاشـــة تتـــوقّـــد
قلّ الغـــرار فـــلا فم لخطـــابـــة عنـــد الخطـــوب ولا حســـام ولا يـــد
بكـــر النعيّ وقـــال: قـــد أودى التقى ومضـــى إمـــام المسلمين الأوحـــد
ومنهـا: إن كـان قـد أودى التقـيّ محمـد فلقـــد أصيب بـــه النبـيّ محمّـــد
يـــا آيـــة الله المقـــدّســـة التـي أمسـت إليـــه بها الملائك تصعـــد
غـــادرتنـــا والخطب داج ليلـــه واليـــوم مـن صبـغ الحوادث أســـود
فمـن المُدافـع والاسنّـــــــة شرّعٌ والبيـض تبرق والمدافع تـــرعـــد؟
الشرق، يـــا شمس الهدايـــة مظلم، مـــذ غـــاب عنـــه ضيـــاؤك المتـــوقـــد
لـــو لم تعـــاجلـك المنيّـــة لانجلى عنـــه سحـــاب المغـــرب المتلبّـــد

أحمد الصافي النجفي

إن سيرة هذا الشاعر إنما هي شعره :

وهـو أحمد بن علي بن صافي من أسرة نجفيـة يتصل نسبهـا بالامـام موسى الكـاظم وكانت تعرف بآل السيـد عبد العزيز الذي نزل النجف ، وهـو الجدّ السادس للشاعر. أما جـده لأمه فهو الشيخ محمـد حسين الكاظمي من آل معتوق في صـور. ولد أحمد في النجف سنة ١٨٩٦ ، وتـوفي والده بوبـاء الهيضة وعمـر صبيّنا ١١ سنة ، فكفلـه أخوه الاكبر محمد رضا .

قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» إن هذا الشاعر رأى نور الشمس «يوم كان الحسن الخَلْقي والصحـة والنعمة تتنـزه كلها في الكـون الأعلى ، فما رمقته بنظـرة ساعـة الولادة ولا دنت بعد ذلك من ملعبه أو من رحله أو من كوخه . . انه لطير غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما . . . » وقد قال الصافي :

أســـير بجسم مشبـــه جسم ميّت   كأني إذا أمشي بـــه حـــامـل نعشي

ولما بلغ الخامسة من عمره أدخل الكتّاب ، فتعلّم القرآن والخطّ وشيئاً من الحساب .

وقد قال في ترجمة مخطوطة لنفسه كتبها سنة ١٩٣٦ :

«وما كـدت أتجاوز العقد الأول من عمـري حتى نكبت بفقد والـدي بمرض الـوباء الذي اجتـاح العراق يـومئذٍ وتـرك في كل دار مناحـة ، ولا سيما في بلدة النجـف . وقد كانت الصدمة شديدة على نفسي ، وما زلت حتـى اليوم أتمثل ذكراها الفظيعة وحوادثها المؤلمة ، ولا أنفكّ حتى اليوم أشعر بهولها .

فكفلني أخي الاكبر، وكان بالرغم من عطفه عليّ ، قاسياً في معاملتي ، ضاغطاً على حرّيتي ، مقيّداً لي تقييداً يكاد يكون استعباداً أو استعماراً ! . . . »

وحين بلغ الثالثة عشرة أخذ يدرس قواعد اللغة والمنطق وعلم الكلام والمعاني والبيان والاصول وشيئـاً من الفقه على أساتـذة منهم الشيخ محمد حسن المظفـر والسيد حسين الحمّامي والسيد علي اليزدي ، ثم حضر دروساً على السيد أبي الحسن الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي .

وكان منـذ الطفولة ضعيف البنيـة ، ميالاً إلى الكسل والتأمّل ، فلم يحتمل مـواصلة الدرس الذي زاد في مرضه العصبيّ . ثم توفيت والـدته سنة ١٩١٢ ، فاشتدّ عليه الداء ومنعه الأطباء من الانكباب على الدرس ، فانصرف إلى المطالعة ومراجعة الشعر والأدب وتصفح الكتب العصرية والمجلات كالمقتطف والهلال .

وكان أقرب كتاب إلى نفسه ـ كما يقول ـ لزوميّات المعرّي، ومن الذين أثروا في تفكيره في تلك الحقبة محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي.

وفي سنة ١٩١٦ ترك النجف مع رفيقه محمد علي كمال الدين قاصدين البصرة للعمل فيها، فاخترقا خطوط الحرب ووصلا إلى البصرة، لكن لم يجدا فيها شغلاً يمسك رمقهما.

وذهبا إلى المحمّرة (خرّمشهر) في ايران، فخلع الصافي البزّة الدينية وارتدى لباس العمّال وشرع يبحث عن عمل، وانتقل لتلك الغاية إلى عبّادان والكويت... وكتب عن هذا الدور من حياته فقال:

«ثم إني سافرت بعد ذاك إلى عبّادان لاشتغل عاملاً فيها فلم أوفّق. فتوجهت إلى الكويت في سفينة شراعية ورمت الاشتغال فيها بأحد المخازن، فلم يقبلوني مما اضطرّني أن أكون بنّاءً طيلة يوم كامل وقعت في انتهائه ميتاً من شدة التعب، فذهبت قبل أن أستلم الأجرة. ولما رأيت عدم استعدادي لهذه المهنة الشاقة، سافرت إلى بندر بوشهر المرفأ الفارسي، وكانت رحى الحرب إذ ذاك دائرة بين القبائل الفارسية والانكليزية بتحريض القائد الالماني «وسموس» الذي كان قبل الحرب قنصل الحكومة الالمانية في شيراز. فلم أتمكن من الوصول إلى قرب بوشهر إلا بمشقّة تعرّضت أثناءها إلى الغرق في الخليج الفارسي (العربي)، لولا صندوق شاي كان معنا في الزورق، فطفا على سطح الماء وتعلقت به فكان سبب إنقاذي.

«ومن هناك سافرت مشياً على الاقدام مع قافلة تجارية قاصداً شيراز، فوصلت بعد اثني عشر يوماً قطعناها في الجبال والطرق الوعرة إلى بلدة فيروز آباد موطن الفيروز آبادي المشهور صاحب المعجم العربي المعروف بالقاموس المحيط. وهناك أصبت بالتيفوئيد، فانفردت عن القافلة. وقد تعرّف إليّ المجتهد المرحوم الامام السيد عبد الحسين اللاري الذي كان تلميذاً لجدّي المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي، ولولا عنايته بي لقضى عليّ التيفوئيد. وبعد إبلالي من المرض سافرت إلى بندر عباس، ومنها قفلت راجعاً إلى النجف الأشرف بعد مفارقتها تسعة أشهر، كانت خلالها قد انقطعت أخباري عن أهلي. وقبل وصولي إلى النجف بشهرين كانت بغداد قد سقطت بيد الجيش الانكليزي...»

بدأ الصافي بنظم الشعر. وقد سمع بأنباء ثورة الحجاز التي رفع لواءها الشريف حسين، فكانت باكورة نظمه قصيدتين في مدح الشريف وتحية الأمة العربية الثائرة. ثم شارك في الثورة الوطنية التي شبّ أوارها سنة ١٩٢٠، فسجن اخوه الاكبر محمد رضا الصافي، وهيّىء لشاعرنا أن فرّ إلى طهران عن طريق الكوت وجبل حلوان.

عكف الصافي على دراسة اللغة الفارسية وعمل مدرساً للأدب العربي في المدارس الثانوية. وترك التدريس بعد سنتين، واشتغل بالترجمة والتحرير في امّهات صحف طهران كجريدة «شفق سرخ» وغيرها. وأكبّ على مطالعة الادب الفارسي، فقرأ المثنوي ديوان جلال الدين الرومي ورباعيّات الخيام ودواوين حافظ والمنوجهري وسعدي والشعر المعاصر. وتعرّف بشعراء ايران أمثال بهار ملك الشعراء وحيدر علي كمالي وجلال المالك وعارف القزويني والشاعر عشقي الذي ذهب ضحية قصيدة حمل فيها على رضا شاه بهلوي. واختير بعد ذلك عضواً في النادي الأدبي، وقام بترجمة رباعيّات الخيام، ولم ينقطع في تلك الاثناء عن مطالعة الادب العربي قديمه وحديثه.

ثم انخرط في سلك موظفي الحكومة الايرانية مترجماً بوزارة المعارف، فنقل إلى الفارسية كتاب علم النفس لعلي الجارم ومصطفى أمين. وعاد إلى بغداد بعد ثمانية أعوام قضاها في ايران (١٩٢٨)، فاتّصل بمحافلها الأدبية وصادق الزهاوي وسواه من الشعراء. ورشحته الحكومة العراقية قاضياً شرعياً في الناصرية، لكن المرض عاوده بسبب المناخ واشتدّت عليه وطأته.

وأشار عليه الأطباء بالنزوح إلى سورية، فبارح العراق إلى دمشق سنة ١٩٣٠، ولم يستطع ـ كما قال ـ وبالرغم عن وصيّة الطبيب الابتعاد عن الاشغال الفكرية، فأخذت صحته بالتأخر وعانى جملة أمراض منها تضخم الكبد وضعف القلب ومرض الكلية والتهاب الحنجرة وضعف الأعصاب!

لقد هيىء للصافي أن يتغلّب على جميع تلك الأمراض، وقد أناف على السبعين. وعاش متنقلاً بين ربوع سورية ولبنان. ولما احتلّ الانكليز بيروت في خلال الحرب العالمية الثانية اعتقلوه وأودعوه السجن (١٩٤١)، فلبث في غيابته شهراً ونصف شهر، وخرج منه بديوان شعر أسماه «حصاد السجن».

وكانت حياته بعد ذلك تقتصر على كلمة واحدة، هي الشعر الذي واصل قرضه وأخرج دواوينه في تتابع وانسجام.

مؤلفاته:

دواوين شعره: الأمواج (١٩٣٢) أشعّة ملوّنة (١٩٣٨) الأغوار (١٩٤٤) التيّار (١٩٤٦) ألحان اللّهيب (١٩٤٨) هواجس (١٩٤٩) حصاد السجن (١٩٥١) شرر (١٩٥٢) اللفحات (١٩٥٨) الشلال (١٩٦٢) شباب السبعين (١٩٦٧) ثمالة الكأس (١٩٧١).

وله عدا ذلك: رباعيات الخيام (ترجمة شعرية (١٩٣١)، هزل وجدّ (نثر، ١٩٣٧).

شعره :

الصافي شاعر أصيل انصرف إلى الشعر وعاش له وعرف به ، حتى قال :

لي في الشعــــر عــــالم مستقلّ ... أنــافيــه فــرد بــدون خــلاف
لم أشـــــارك غيري لأنّي ربّ ... واحـــد لا شريك لي في القـــوافي

وقال :

سمــوت بشعـري فـوق جيلي ، ولم يـزل ... يشـكّ بشعـــري معشر البلهـــاء
فإن لم أكـن في أمـــة الشعـــر واحـداً ، ... أكـن أمّـــة أعلى مـن الشعـــراء!

وقد آثر الحرية والانطلاق من القيود فقال :

يـــروم زيــارتي عشّـــاق شعـــري ... فـــــلا يجدون لي في الأرض دارا
تـــراني كـــالنّسيـم أطــوف حـــراً ... فلست ، ولا النّسيـم ، نـــرى قـــرارا
فـــزوروني بـأنفـــاس الخزامى ... وزوروني بـــآهـــات العـــذارى
وقــــد آوي لقلب أخـي غــــرام ... وأصعـــد منـــه أنّـــات حيـــارى

وعاف المجاملة والتقاليد الاجتماعية :

أفـــرّ مـن النّـــوادي زاخـــرات ... بألـــوان المجــاملـــة الــوضيعـــة
وآوي للحقـــــول طليـق نفس ... فلسـتُ مجامـــــلاً إلاّ الطبيعـــــة

أرهفت حسّه الأمراض التي ركبت بدنه وأضنت جسمه ، فقال :

لقـد عـدت أمـراضـاً أحـار بعـدّهـا ... ومن ذا يطيـق العـدّ للـرّمـل والنّمل؟
يقـولـون لي : مـاذا بجسمك مـؤلم؟ ... أقلـب ، أرأس؟ قلت : يـــؤلمني كلّي

وداهمته الخُطوب وهدّته المصائب فأوحت إليه أرقّ الشعر وأروعه :

سأشكـــر للـدهـــر الخؤون خطـوبـه ... وإن كـدت منهـا أفقـد الـرشـد والصبرا
فإن خطـــوب الـــدهـــر أذكت بصيرتي ... وإن خطـوب الـدهـر أوحـت ليَ الشعـرا
وكم مـن مصـــاب حـلّ بي فحسبتـــه ... سيفقـــــدني روحي ويسكنـني القبرا
فما زال يغلي فيّ حتـى تفجّـــــرت ... ينـــابيع شعـــري منـــه وانـــدفقت نهرا
ولكنـــــه نهر من النّـــار ســـائل ... تثـــور بـــه أمـــواجـــه شعـــلاً حمرا . .

وهل عجب بعد ذلك أن يكون شاعراً إنسانيـاً يتفجّر قريضه رحمة وحناناً وأن يتّخذ مـواضيع شعره أبنـاء الشعب الكادّيـن الكادحين والفقـراء البائسين من بـائع الحصير والأعمى والمسلول والسّائل القروي إلى راعي الغنـم والبلهاء والشحّاذ . . . وإنه ليأسى لحال صبّاغ الأحذية ، والشـاعر وحذاؤه عـدوّان للصّبغ والاناقة ، فـلا يرده خـائباً مع ذلك :

جــاء يــومــاً إليّ صبّـاغ نَعلٍ وبنعلي صبـغ مـن الأيــام
مــرّ دهـر عليـه لم يَـرَ صبغـاً غير صبغ الغبـار والأقـدام
وكسته أشعّـة الشمس لـونـاً صـار منـه كقطعـة مـن رغـام
جاء نحـوي من بعـد ما طاف يـومـاً دون ربـح غير العنـا والسقـام
جـاء نحـوي يـروم صبغ حـذائي وأنـا للصبـاغ أعـدى الأنـام
أنـا خصم الألـوان تخفي عيـوبـاً إنّ عنـدي الألـوان كـالأوهـام
رمت رداً لـه فلم يـرضَ قلبي ردّه خـائب المنى والمرام
قلت: أحبـوه درهماً، غير أني خفتُ من أن يُـذلّـه إكـرامي
قلت: فـاصبغ لي الحذاء بصبغٍ فيـه أغـدو مثل الـذّوات العظـام
فغـدا يصبغ الحذاء بحـذقٍ مبـديـاً فيـه كلّ فنّ تمام
ثـم بـادرتـه بما ضمّ جيبي من نقـودٍ أعـددتها لطعـامي
فمضى هـانئـاً ورحت كأني ثمل بـالسّخـاء لا بـالمدام

إن هذه المقطوعة مثال الشعر الفطريّ الأصيل الذي لا تكلف فيه ولا صناعة ولا إغراب، ينساب كالجدول الرائق: يصف حذاء الشاعر الذي كسته الأيام لون التراب، ثم يلتفت إلى الصبّاغ المسكين وقد أخطأه التوفيق وفاته الرزق سحابة يومه، فيهمّ أن يردّه فلا ترضى عاطفته الانسانية، ويهمّ أن يمنحه صدقة فيخاف أن يهينه ويذلّه. فلا يكون منه إلا أن يدعوه إلى صبغ حذائه ويمنحه أجرة عمله النقود التي هيأها لطعامه.

وقد عظمت رحمة الشاعر وفاض حنانه حتى شملا الحيوان بعد الانسان، فقال:

لـو يعلم الحيـوان مـا عنـدي لـه مـن رحمة لأتـى إليَّ مسلّما
ولأصبحت كـل الـوحـوش أليفـة عنـدي وخـالتني أبـاً أو أرحما

وقصيدته «على طريق بيروت» مأساة تهزّ النفس وتثير في أعماقها أسمى المشاعر وأشدّها ألماً ووجداً. فلئن كان الشاعر الفرنسيّ ألفرد دي فنيي يصف لنا في قصيدته «موت الذئب» تسامي الوحش وأداءه للواجب بصمت وسكون وزهده بعد ذلك في الحياة، إنّ شاعرنا الصافي ليصف لنا «موت الكلب» ويحيط فاجعته بإطار إنسانيّ حزين من الشعور الدافق والوفاء النبيل والرحمة التي تنفذ إلى صميم القلب البشري. لقد كان الشاعر مسافراً في سيارة تقطع الفلاة مثل الفيل الذي تشع عيناه في دجى الليل:

فـلاح على الطـريق لنـا مشـاة يـؤلف بينهم نسب وحبّ
أب شيـخ وطفـل دون سبـعٍ وأمّ زان منهـا الـرأس شَيْبُ
ورابعهـم، كـأهـل الكهـف، كلـب يلـوح كأنـه في الشكل ذئب
يسير بجنبهـم يحمـي حماهُـمْ وفي عينيـه نيران تشـبّ

ويحدّق الكلب في السيارة فيهجم عليها ويوسعها نباحاً، وقد ظنها وحشاً غريباً يريد سوءاً بالقافلة التي يحرسها، فينتقم السائق القاسي منه بأن يسحقه ويقتله ظلماً وعدواناً.

ويمضي الشاعر في وصف المأساة فيقول:

فظلّ الكلب يرفس رفس موتٍ ... عظام حطّمت وانشقّ قلب
تفجّع أهله فبكوا عليه ... بدمع ملؤه ألم وكرب
وجاء الطفل يبغي ضمّ كلب ... له معه هَوىً ماضٍ ولعب
لقد نشآ معاً والكلب جرو ... وليس عليه سنّ الطفل يربو
يداعبه ويؤنسه بقفز ... وذاك الطفل فوق الأرض يحبو
رأى دمه فصبّ عليه دمعاً ... وصاح وصوته نَوْح ونَدْبُ
وظلّ يروم مسح الترب عنه ... وللدم منه فوق الأرض سكب
يحاول حمله حيناً فيعيا ... ويبغي أن يسير به فيكبو
ويلثمه لينعشه بلثمٍ ... كأنّ اللّثم للمجروح طِبّ

حتى يقول:

تركناهم، وفي قلبي شجون، ... ولم يأبه معي للأمر صحب
فثرت على الأنام لقتل كلبٍ ... وصرت كأنني للكلّ حرب
وقلت: بأيّ ذنب أوردوه ... رداه، وهل دفاع الكلب ذنب؟
بكيتُ وللسماء رفعت رأسي ... وقلت: أما لهذا الكلب ربُّ!

وفي قصيدته «ذكرى سمكة» يذكر جلوسه على ضفاف العاصي فيرى الأسماك تنأى وتدنو من الشاطىء وكأنها جائعات، ويلقي إليها بفتات الخبز طعاماً. وإذا بالصياد قد جاء يرمي شصّه، وقد كمن فيه الموت لهذه المخلوقات الضعيفة:

أنا أطعمتها لتحيا وقومي ... أطعموها لتجرع الموت مرّا
ثم لم يكفهم نفاق وغدر ... فرأوا رحمتي جنوناً مضرّا
إن يكُ الرّفق بالضعيف جنوناً ... فأنا أعظم المجانين طرّا

وبلغ من حنان الصافي ورأفته أن شمل النمل فرعى هذا المخلوق الصغير بعطفه وقال:

تضايق كأس الشاي عندي نملة ... لها ولع بالحلو يجذبها قسرا
وأخجل من طردي لها إذ أخالها ... تقول: أما أوحيتُ قبلُ لك الشعرا؟
تقبّلتها لي في الحياة شريكة، ... لها السكّر المحبوب أنثره نثرا
فتحمل منّي للثقوب ذخيرةً، ... وإن لم أكن في العيش متّخذاً ذخرا

وقديماً قيل عن الشاعر الفرنسيّ لافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) أنه أحبّ الحيوانات وعرضها في أمثاله وقصصه التي سحرت أجيالاً متعاقبة من الصغار والكبار. وقد شوهد مراراً مكبّاً يراقب النمل في عمله الدائب ونظامه العجيب حتى نسي نفسه ساعات طويلة وسها عن مواعيد الطعام.

إنّ الصافي النجفيّ شاعر روحيّ عرف الله بوجدانه وسما اليه بايمانه، قال:

راح يقوى على المَدَى إيماني ... فبربّي قد امتلا وجداني

قيل لي: هل عرفته بدليل ... أو بحسّ شهدته أو عيان؟

قلت: كلا، ايمان قلبي أقوى ... من دعاوى الحواسّ والبرهان

واضح لي وضوح روحي وعقلي ... ماثل في مداركي ككياني

هو رمز الوجود، سرّ التجلّي ... هو روح الأكوان معنى المعاني

وقد نظر إلى الوجود بعين البشر فاستهجن قبحه ودمامته، ورآه بعين الاله فأبصر بهاءه وسناه:

نظرت الوجود بعين البشر ... فلاح الوجود قبيح الصّور

ولما نظرت بعين الإله ... إليه بدا لي بوجهٍ أغر

ولا بدع بعد ذلك أن يصيح: اللّه أكبر!

أفكر بالسّفاسف في الحياة ... وأحسبها حقائق راهنات

فيقطع لي سلاسل ترّهاتي ... صياح مؤذن: الله أكبر

وأضرب سادراً بين الهموم ... وأسعى للوصول إلى النعيم

فيدعوني إلى النهج القويم ... هتاف مؤذّن: الله أكبر

وأفني في الرقاد ثمين عمري ... كأني ميّت في جوف قبر

فيوقظني لأحشر كلّ فجر ... صياح مؤذنٍ: الله أكبر

ونأخذ في أحاديث شتات ... ونبقى بين هاك وبين هاتِ

فأسمع صوت حيّ على الصلاة ... فأنهض صائحاً: الله أكبر

لقد عرف الصافي الغربة البدنيةوالروحية فجرع غصص الأولى وهفا إلى مغاني الثانية. نزح عن وطنه فقال:

حتّى مَ أقضي ثمين العمر مغترباً ... كأنني ليس لي مثل الورى وطنُ؟

فمن رآني أطوي الأرض منتقلاً ... يقول: ما ليَ لا أهل ولا سَكَنُ...

لم يرضَ بي وطني، لم يرض بي وطنٌ ... فهل تُرى يرتضيني القَبر والكفن؟

وحنّ إلى الوطن المجهول فهتف قائلاً:

أبغي أسافر، لا إلى جهة ... كأنني عن وجودي أبتغي السّفرا
فكم قصدت جهات ما لها عدد ... فما بلغت بها قصداً ولا وطرا
فلا الإقامة في الأوطان تسعدني ... ولا التغرّب يجلو عنّيَ الكدرا
أنّى جلستُ رأيت النفس في قلق ... يثيرها فتعاف الصّحب والسّمرا
وأين سرت رأيت القلب منقبضاً ... والعين في كل شيء تبغض النّظرا
كأنني باحث في الكون عن وطنٍ ... به شغفت ولم أعرف له أثرا
لم ألْقَهُ وأنا حيّ وبي رمق، ... فهل سألقاه لما أغتدي خبرا؟

إنّ هذه الابيات المفعمة بالضياع والحيرة والحنين لتذكّرنا بقصيدة شارل بودلير: الدعوة إلى السفر، ففي هذه القصيدة يتحدث شاعر «أزهار الشرّ» عن عالم بعيد يتمنّى أن يعيش فيه، عالم زاخر بالحبّ والموت، عالم يغشاه النظام والجمال والترف والهدوء والهيام اللاّهب، عالم تظلله الشموس المبلّلة والسموات المضطربة، يسحر الشاعر بفتنة خفية كعيني حبيبته الخائنتين اللامعتين خلال الدموع.

بل تذكرنا هذه الابيات بقصيدة «السفر»، وهي من قصائد بودلير ايضاً، يتشوّق فيها إلى وطن مجهول ويقول: إن المسافرين الحقيقيين هم اولئك الذين يذهبون لأجل الذهاب فحسب، قلوبهم خفيفة، يستجيبون لنداء القدر الذي يدعوهم دون أن يتساءلوا عن السبب ويصيحون:

هيّا ولنذهب! . . ويقول الشاعر الفرنسي: إن العالم لصغير وانه ليجري على وتيرة واحدة ولا يعكس إلا صورتنا كواحة من الهول في صحراء الملل والسّآمة. ثم يختتم قصيدته داعياً الموت، ذلك الربّان القديم، ليعد سفينته ويرفع قلوعه، فلئن كانت السماء والبحر متشحين بالسواد القاتم، إن قلوبنا، نحن المسافرين، مغمورة بأشعة النور البهية تترقب المجهول لتجد فيه الجديد الذي تتطلّع اليه!

وللصافي بعد ذلك ألوان شتى من الشعر، وطني واجتماعي ووصفي وغزليّ. وله شعر خفيف يتّسم بالحلاوة والدعابة والسخرية، كقصيدته «حسناء تسوق سيارة حسناء»:

وغانية فاقت على جيلها ... وحق قرآني وانجيلها
ساقت (أو تمبيلاً) رقيقاً لها ... يجري رُخاءً وفق مأمولها
كأنه الطيف إذا ما سرى ... في ساحر المقلة مكحولها
ألطف ما قد صيغ من جيله ... فيه التي ألطف من جيلها
آخر (موديل) جمال كما ... (موديله) حلو كموديلها
نشوان من نفحة أردانها ... يختال إذ خصّ بتفضيلها

أضحى مليكــــاً بين أتـــرابـــه ... متـــوّجـــاً منهـــا بإكليلهـــــا

أحيتــــه فهـي الـــروح حلّت بـــه ... بلمس كفيّهــــا ومنـــــديلهـــــا

مـــرّت كما مـــرّت بنـــا نعمـــة ... من عـــاطـــر الأزهـــار مطلـــولها

تعلّـق القلـب بها فـــــاغتـــــدى ... يحوم كـــــالطير لتقبيلهــــــــا

أهـــوى ركـــوبـــاً ليَ في جنبهـــا ... أو لا فـــدهســـاً بـــاتـــومبيلهـــا

ومن ذلك بيتان قالهما في معرض دمشق الدولي :

ومليحـــــةٍ جـــاءت لمعـــرض جلَّقٍ ... تخفي منـــاظـــره بمنظـــرهـــا الـــوَضِي

هي مـــا أتت كيما تشـاهـد معـرضـاً : ... جـاءت لتعـرض حسنهـــا في المعـرض

قال من قصيدة حين خصصت له الحكـومة العراقية راتباً تقاعدياً شهـرياً قدره مائة دينار:

ليس مـــالي فضـــة أو ذهبـــاً ، ... مـــاليَ الفكـــر الـــذي عـــزّ نظيرا

مـــاليَ الخير الـــذي أعملـــه ، ... مـــالي السعي الـــذي يـــرضي الضميرا

مـــاليَ النـــور الـــذي أرسلـــه ... يبـــدل الظلمـــة في الأفكـــار نـــورا

مـــاليَ الـــوحي الـــذي يلهمني ، ... مـــالي الشعـــر الـــذي يحيي الشعـــورا

لم يغير خلقـــــــــــي أو سيرتي ... عـــارض المال وإن كـــان وفيرا

أعشق الـــزهـــد صريحاً فكـــرتي ، ... أعشق الكـــوخ ولا أهـــوى القصـــورا

أعشـق العيش بسيطـــاً هـــادئاً ، ... أشتهـي الارض مهـــاداً لا السّريـــرا

كـم هـــويت الصخـــر لي متكـأً ... وافترشت الصخـــر لا الفـــرش الـــوثيرا

سجنه الانكليـز عند دخـولهم إلى لبنان سنـة ١٩٤١ بعد دحـرهم سلطات فيشي ، فقال :

حبست وضـــاق الحبس بي حين زُجَّ بي ... إلى غـــرفـــة ظلماء محكمـــة الســـدّ

فقلت : عـــلام الحبس؟ لا أنـا ســـارق ... ولا آثـم عمـــــداً ولا دونها عمـــــد

ولما رأيت الـــذنب خـدمـة مـــوطني ... حـلا السجن حتى خلتـه جنّـة الخلـد

وقال في أحداث لبنان التي جرح فيها (١٩٧٥) :

بين الـرصـاص نفـذت ضمـن معـارك ، ... فبرغم أنـف الموت هـــا أنـــا ســـالمُ

ولها ثقـــوب في جـــداري خمســـة ... وقـــد أخطأت جسمـي وهنّ عـــلائم

وصف أمين الريحاني الصافي في كتابه «قلب العراق» فقال إنه تنقل من كوخ إلى كوخ ومن بلد إلى بلد ، وكـان يدعى عجمياً في النجف وعربياً في بلاد العجم . ثم راح يقيم بين البدو فظنّوه من الحضر، وجـاء سورية فظنـه أهلها من البـدو. ثم قـال : إنه لطير

عجيب غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما. وهو. . . وليد برج النحوس، فالدمامـة أمه والسقم أبوه والبؤس أخوه. . . أما الروح منـه فهي سليمة قوية، بل هي روح جبّارة في هيكل سقيم:

أسـيـر بجسم مشبـه جسم ميّت كـأني إذا أمشي بـه حـامـل نعشي

من آخر ما نظمه احمد الصافي بيتان على لسان السياسي اللبناني صائب سلام على أثر بلوغه السبعين (١٩٧٥)، قال:

سنّي بـروحي لا بعـدّ سنين فـلأسخـرنّ غـداً من التسعين
عمـري من السبعين يـركض مسرعـاً والـروح ثـابتـة على العشريـن

أيام الصافي الأخيرة ووفاته:

أصيب الصافي في أحـداث لبنان برصـاصات فنقل إلى بغـداد في ١٩ شباط ١٩٧٦ حيث عـولج. وكتب إليّ جعفـر الخليلي يقول إنـه لم ينقطع عن زيـارة الشـاعر منـذ أن جيىء به إلى بغـداد ليقضي دور النقاهة بعد استخـراج الرصاصة من صـدره. ثـم قال: والعجيب أنه شفي تماماً من هـذه الاصابة الخطرة ثم مات بمرض الشيخـوخة الذي لا علاج له.

وكانت وفاته في بغداد في ١٧ حزيران ١٩٧٧.

محمّد مهدي الجواهري

شاعر العراق والعرب محمد مهدي بن عبد الحسين بن عبد عليّ بن صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن المتـوفّى سنة ١٨٥٠. ولـد محمد مهدي في النجف يـوم الأربعاء ٢٦ تموز ١٨٩٩ ونشأ في كنف والده الـذي توفي سنة ١٩١٧. درس أمداً وجيـزاً في المدرسة العلويـة في مسقط رأسه، ثم أخذ علـوم اللغة والأدب عن محمد علي المظفر وعلي ثـامر وحسين الحمامي وغيرهـم من مشايخ الغريّ. ونبغ في الشعـر، قرضه قبل أن يبلغ الحلم وبـرّز فيه تبريـزاً، وبـدأ بنشر قصائده منـذ مطلع سنـة ١٩٢١ في جـريدة الاستقـلال والعراق وغيرهما من صحف بغـداد. وسافـر إلى ايران لأول مرة سنـة ١٩٢٤، فرأى من طبيعتها الخلابة ومشـاهدها الجذابة ما سـاعد على تفتّح مواهبه وصقل قـريحته وتوسيع آفاقه.

وجاء إلى بغـداد سنة ١٩٢٧ فعيّن معلماً في بعض مـدارس الكاظميـة، ولم يلبث أن نقل مـوظفاً بـدائرة التشريفـات في البلاط الملكـي. واستقال من الـوظيفـة بعد ثـلاث سنوات، فأصـدر جريدة «الفرات» (ايار ١٩٣٠). وأعيـد إلى سلك التعليم في اواخر

السنة التالية، ثم أصبح رئيساً لديوان التحرير في وزارة المعارف، فمدرساً في المدارس الثانوية بالبصرة والحلة والنجف ودار المعلمين الريفية، حتى اعتزل التدريس في تموز ١٩٣٦. وقد اتهم بنشر قصيدة سياسية في جريدة «الإصلاح» البغدادية، وأحيل على القضاء فبرّأت محكمة الجزاء ساحته.

وأصدر جريدة «الانقلاب» في بغداد في ١٥ تشرين الثاني (١٩٣٦) فجريدة الرأي العام (١٩٣٧) والمعرض (١٩٣٧). وأيّد حركة ايار ١٩٤١، فلما انتهت بالاخفاق مضى إلى ايران، ثم عاد في نفس تلك السنة واستأنف إصدار جريدته الرأي العام. وأصدر في آب ١٩٤٦ جريدة صدى الدستور. وانتخب نائباً عن كربلاء في المحل الشاغر بوفاة عبد الرزاق شمسة (تشرين الثاني ١٩٤٧)، لكن المجلس حلّ في شباط ١٩٤٨.

وسافر إلى فرنسة سنة ١٩٤٩ فنظم ملحمته الغزلية «أنيتا» التي قال في سبب نظمها: «كان حباً عارماً لا يريد، ولا يقدّر له لو أراد، أن يقف عند حدّ». وأقام في مصر سنة (١٩٥٠ ـ ٥٢)، ولما عاد إلى بغداد حرّر في صحف منها الأوقات البغدادية والجهاد والثبات والاستقلال. واعتقل في أبي غريب في تشرين الثاني ١٩٥٢. وأصدر جريدة «الجديد» في ايار ١٩٥٣. ثم غادر العراق إلى دمشق سنة ١٩٥٦، فاتخذها سكناً وعهد إليه بتحرير جريدة «الجندي» التي تصدرها رئاسة أركان الجيش السوري.

وعاد إلى بغداد في تموز ١٩٥٧، ولم تمض سنة واحدة حتى قامت ثورة تموز، فحيّاها بشعره وأعاد إصدار جريدته الرأي العام (تشرين الأول ١٩٥٨). وانتخب في السنة التالية رئيساً لاتحاد الأدباء ونقيباً للصحفيّين. وفي سنة ١٩٦١ سافر إلى تشيكوسلوفاكية وأقام في براغ سبعة أعوام، ولم يعد إلى الوطن إلا في تشرين الأول ١٩٦٨. وأعيد انتخابه رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين عند إعادة تأليفه في كانون الثاني ١٩٧١. ثم عاود الرحلة الى براغ ومكث فيها أمداً طويلاً. وانتقل منها إلى دمشق حيث يعيش الآن (١٩٩٤).

ديوان الجواهري ومؤلفاته:

أصدر الجواهري «حلبة الأدب» (١٩٢٣) وهي مجموعة أدبية، ثم طبع ديوانه سنة ١٩٢٧. وصدر الجزء الثاني من ديوان الجواهري في النجف (١٩٣٥). وطبع الديوان في ثلاثة أجزاء (١٩٤٩ ـ ٥٣)، ثم طبع للمرة الرابعة في الشام (١٩٥٦ ـ ٥٧) وللمرة الخامسة في بغداد (١٩٦١)، وثم في بيروت (١٩٦٨). وشرعت لجنة بوزارة الاعلام بطبع ديوانه الكامل، فصدر الجزء الاول منه سنة ١٩٧٣، وعقبته ستة أجزاء طبع آخرها سنة ١٩٨٠.

ولمحمد مهدي الجواهري عدا ذلك: شكوى إقبال وجوابها (١٩٣٦)، وهو ترجمة

شعرية لقصيدتين للشاعر محمد إقبال، بـريد الغربة (١٩٦٥) بـريد العودة (١٩٦٩) أيها الأرق (١٩٧١) خلجات (١٩٧٢).

وقد قرر المكتب الدائم لاتحاد الكتّاب الافريقيين والآسيويين في دورته الخامسة عشرة المعقـودة في موسكـو منح جـائزة لوتس الـدوليـة في الآداب لسنة ١٩٧٥ إلى الجواهـري بالاشتراك مع كاتبين آخرين باكستاني ونيجيري.

مـازال الجواهـري يعيش في دمشق. وقد حضر في ١١ آذار ١٩٩١ مـؤتمر الاحـزاب العـراقية المعـارضة لحكم صـدّام حسين في بيروت وألقى فيه كلمـة، ووضع مذكـرات بعنوان «ذكرياتي» صدر الجزء الاول في دمشق سنة ١٩٨٨، ثم صدر الجزء الثاني.

وقد رغب في المجيء الى لندن في آب ١٩٩١، لكنه مـرّ في طريقه ببراغ ومرض فبقي فيها للمعالجة. ثـم حضر إلى لندن في كانون الاول ١٩٩١ وتوفيـت زوجته بها في الشهر التالي، ونقل جثمانها إلى دمشق حيث دفن. وعاد الجواهري للاقامة في دمشق.

شعره:

الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث، عبّاسيّ الـديباجة، طويل النفس، يرصّ كلماته وأشطره رصاً فتجيىء قصائده كالصرح الممـرّد أو الطود الشامخ، ويكسو معانيه أثواباً مؤنقة من جزل الألفاظ. قرض الشعر يافعاً وجوّل في آفاقه وجلى في حلباته وتفنّن في أغراضه من غزل ووصف واجتماعيات وسياسيات ووطنيات، وله من القصائد آيات بيّنـات. ولئن كان في حيـاته الشخصيـة متقلّب الأهواء، كثير النّـزوات شأن العباقـرة النّابغين، لقد كان شعره دائماً إنسانيّ النزعـة، فوّار العاطفة، تقدّمي الأغراض. وكان الشاعر مؤمناً بجماهير الشعب، معبراً عن آمالها وآلامها.

يرثي محمد جعفر أبا التمّن فيستهلّ رثاءه أيّما استهلال:

طـالت، ولـــو قصرت، يـد الأقـدار	لـــرمت ســواك، عَظُمْتَ من مختـــار
من صفـــوة لـــو قيل: أيّ فـــذّهم؟	لم تعـــــدُ شخصك أعين النظّـــــار
لكـن أرادت أن تحوز لنفسهـــــــــا	عين القـــــلادة فــــازدرت بنثـــار
وأرى المنـــايـــا بـــالـــذي تختـــاره	للمــــوت عـــاطلـــة وذات ســـوار
فطـــوتك في درج الخلـــود فعطّـــرت	بك ســـالف الأحقـــاب والآثـــار
واستنـــزلتك لغـــربـــة، ولأنـت من	عليـــــاك في لجبٍ مـن الأنصـــــار
وتجاهلـت أن البـــلاد بحـــاجـــة	لك حـــاجـــة الأعمى إلى الإبصـــار

ثم يصف الراحل فيقول:

بكـــر النعـيّ فما سمعت بمثلهـــــا	عبثـــــاً على الأسماع والأبصـــــار
وتــرنّح الأحـــرار ينـــذر بعضهـم	بعضـــاً بفقـــدهُـمُ أبـــا الأحـــرار

لله درّك مــــن نقــــيّ لم ينـــل ... أذيـــالـــه وضر مـن الأوضـــار

في حيثُ تـــزدحـم الشرور وتــرتمي ... شبهـــاتها حتّى على الأخيـــار

خـاض السيــاســة وانجلى عـن لجّهـا ... ألـق الجبين، مكلّـــلاً بـــالغـــار

في حين رام ســواه خـــوض عبـــابها ... فطغى عليــــه، فضـــاع في التيّـــار

وصليب عـــود حين بعض مـــرونـــة ... في ضعفهـــا خطـــر من الأخطـــار

وطـــريّ نفس حين بعض صـــلابـــة ... في عمقهـــا حجـــر من الأحجـــار

وخفيّ كيـــد حيث يسمـــو كـــائد، ... ومـن المكـــائد جـــالـب للعـــار

وصريـح رأي لم يحد عـن خطّـــــة ... ليلـــوذ من تـأويلهـــا بجـــدار

حـــرب على مستعمــــر وربيبـــه ... ومســـالم مستعمـــــراً ومُجار

ويلتفت إلى حالة البلاد التي كان الفقيد يذود عنها ويريد حريتها ورفعتها فيقول :

ومفـــرّقين عنـــاصراً ومـــذاهبـــاً ... متكفّلين سيـــــاســـــة استعمار

نـزلـوا على حكم الغـريب وعـرّسـوا ... في ظـلّ مأثمـــة لـــه وفجـــار

وتحلّبـــوا أوطـــارهـم، فـإذا بها ... وشـل لما استحلى مـن الأوطــــار

واستفـــرش الشعـب الثـرى، ودروبهم ... مفـــروشــــة بنثـــارة الأزهـــار

ذعــر الجنـوب فقيل كيـــد خـــوارج ... وشكــا الشمال فقيـل صنـع جـــوار

وتنـــابـــذ الـــوسط المدلّ فلـم يـدع ... بعـض لبعـض ظنّـــة لفخـــار

ودعـــا فـــريق أن تســود عـــدالـــة ... فـــرُمُـــوا بكـل شنيعـــة وشنـــار

ومشى المغيـث على الجيـــاع بقـــوتهم ... وعلى العــــراة بجحفـل جــــرّار

وتســـــاءل المتعجّبــــون لحالــــةٍ ... نكــراءَ: من هم أهـل هٰـذي الـدار؟

هي للصحـــابـــة من بني الأنصـــار ... مـن كل بـــدريّ وكـل حـــواري

للحـــاكمين بـأمـــرهـم عن غيرهـم ... ولصفــــوة الأسبـــاط والأصهـــار

من كـلّ غـــازٍ شـــامـخ في صـــدره ... زاهي الـــوســام، مـــدوّخ الأقطـــار

هي للّـــذين لـــو امتحنت بـــلاءهم ... لعجبت مـن سخـــريـــة الأقـــدار

هي للـــذي مـن كلّ مـــا يصـم الفتى ... كـــاسٍ، ومـن جهـــد يشرّف عـــار

ويحيّي الجواهري ثورة تموز بقصيدة عصماء يقول منها :

لم يبقَ شيء لم نقلـــــه تشكّيــــاً ... فيما مضى بـــالمصرحـــات وبـــالكنى

كنّـــا نقـــول لهم : حـــذار مـن لظى ... إمّـــا اعتلـت ومن اللهيب إذا دنـــا

ومن الصـــدور الحابســـات زئيرهـــا ... ومن النفـــوس الكـــاظمات تحيّنـــا

ومن السجـــون الـــداجيـــات، فإنها كـــانت ومـــا زالـت لبـــاغٍ مـــدفنـــا
ومن السيـــاط، فإنّ حـــرّ نشيـــدهـــا بنهـــايـــة الجلّاد كـــانـت ملحنـــا
ستحـــول سلسلـــة السجين وقيـــده من معـــدنٍ بخس لأثمـن معـــدنـــا
كنّـــا نحـــذّرهـم ونضرب راعيـــاً مثـــلاً لهم وقطيعـــه مثـــلاً لنـــا
مـــا أقبح الـــدنيـــا إذا ضلّ الصـــوى راعٍ بثلّتـــه ومـــا أدنى الـــدّنـى.

إنّ شعـر الجواهري الثـائر المتأجّج، المنافح عن الشعب المظلـوم، النّازل على ظهـر الحاكـم الظالم كالسوط اللاهب، ليشبه شعر فكتـور هوغو في دفاعه عن الحرية وتنديده بالطغيـان والطّغاة. أجل، إنـه ليشبه فكتـور هوغـو خطيب الجماهير في ثورة ١٨٤٨، وصاحب «نابليون الصغير» و«العقوبات»، والمبعد إلى جزيرة بحر المانشِ «تلك الصخرة التي حطم عليها جناحـه». وسيبقى شعر الجواهري أبداً سجلاً حافـلاً للجهاد العربي وتحفز الشعب وظمأه إلى الحرية والكرامة.

الرصافي والجواهري

تـلاقى الشاعـران الرصـافي والجواهـري على صعيد الفكـر فتناجيـا وبثّ كل منهما لاعجته وشكواه. قال الرصافي:

أقـول لـربّ الشعـــر مهـــدي الجواهـــر الى كم تنـــاغي بـــالقـــوافي الســـواحـــر
فترسلهـــا غـــرّا هـــواتـف بـــالعلى يـــزوّد منهـــا سمعـــه كـل شـــاعـــر
وتشـــدد بها، والقـــوم صـم عن العلى فلـم تلـقَ إلا غير واع وذاكـــــــــــر؟
أتـرجـــو من الحسّـــاد عـــونـــاً ونـــاصراً فتـــدعـــوَ منهم خـــاذلاً غير نـــاصر؟
كـأنك لم تبصر ســـــواد قلـــــوبهم فهل أنـت مغـــرور ببيض المَســـافـــرِ؟

ثم ناغاه الجواهـري فهزّ ـ كما قال ـ الأسـد الرابض الضائق ذرعاً بعـرينه، المنطوي على نفسه ألماً وغضباً وكبرياء، فزأر الأسد الرصافيّ وقال في معرض الجواب:

بِكَ الشعـــرُ لا بي أصبح اليـــوم زاهـــرا وقـــد كنـتُ قبل اليـــوم مثلك شـــاعـــرا
فأنت الـــذي ألقت مقـــاليـــد أمـــرهـــا إليـــه القـــوافي شُرّداً ونـــوافـــرا
بلغـت مـن الإبـــــــداع أرفـع ذورةٍ هـــوى النجم عنهـا صـــاغـراً متقـاصرا
إذا شيءَ ظلـم قمـت للظلم رادعـــــاً وإن سيءَ حقّ قمـت للحقّ نـــاصرا

تذكرنا هذه المطارحة الشعريـة بين معروف الرصافي والجواهري المراسلة الشعرية التي جرت في اواخر القرن الماضي بين الشاعر المنفي الشيـخ محمود سامي البارودي والشاعر اللبناني الشاب شكيب ارسلان، وقد نشرتها مجلة الزهور المصرية في مختاراتها.

وللجواهري صرخات ثورية مدوّية، أليس هو القائل:

يتبجّحون بأن موجاً طاغياً ... سدّوا عليه منافذاً ومساربا
كذبوا، فملء فم الزمان قصائدي ... أبداً تجوب مشارقاً ومغاربا
تستلّ من أظفارهم، وتحطّ من ... أقدارهم، وتثل مجداً كاذبا
أنا حتفهم، ألج البيوت عليهُمُ ... أغري الوليد بشتمهم والحاجبا

ومن موشحات الجواهري التي نظمها في عهد شبابه «وشاح من ورد» قال فيها:

روح الصبا تسري ... بالبعث والنشر ... على البطاح
ويانع الزهر ... يلتفّ بالنهر ... مثل الوشاح

الروض مزدان

تكسوه ألوان ... من الربيع

***

والنبت فينان

روح وريحان ... صنع البديع

والرند والبان

صادٍ وريّان ... زاهي الفروع

والشمس في سكر ... من رشفة الخمر ... من الإقاح
تسري ولا تدري ... بالنهي والأمر ... بلا جماح

وسيمة الفجر

يفترّ عن دَرّ ... من السقيط

***

وكائر النّسر

يلوذ بالوكر ... خوف السقوط

والبدر في الأسر

يغزل للفجر ... بيض الخيوط

والصبح إذ يسري ... بطالع البشر ... على النواحي
وريّق القَطر ... يحوك للزهر ... ثوب ارتياح

والكأس ملآن

والشهب نُدمان بعض لبعض
والكل فرسان
والروض ميدان للقطف والعضّ
والصّدغ بستان
والحظّ وسنان كالنّرجس الغضّ

والشعر كالشَّعر في اللفّ والنشر فيه افتضاحي
والخدّ كالبدر كالشمس في الظهر في الأفق ضاحي

ناجي القشطيني

تنتسب الأسرة الى قشطين من أعمال حلب، وهي أسرة طائية امتهن أفرادها التجارة ونزحت الى بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع. وقد عرف منها محمود القشطيني رئيس بلدية الكرخ المتوفّى في ١٩ كانون الثاني ١٩١٥، وهو عمّ الشاعر المربي محمد ناجي القشطيني.

ولد محمد ناجي بن عبد الوهاب بن عبد الحميد بن أحمد في كربلاء سنة ١٨٩٦، وكان أبوه زراعاً قبل الوظيفة على مضض لخسائر حاقت به، فعمل في كربلاء أربع سنوات، ثم عاد الى الزراعة وتوفي سنة ١٩١٣. وجيىء بناجي طفلاً الى بغداد، فلما كبر أخذ يدرس على خاله عباس حلمي القصاب وغيره من العلماء. وعيّن القصاب مدرساً للمدرسة الدينية في سامراء، فلحق به الفتى ناجي وقضى في تلك المدينة سبعة أعوام يتلقّى العلم في مدرستها.

قرض ناجي القشطيني الشعر في صباه، وكان من أوائل نظمه رثاؤه لوالده الذي أدمت وفاته قلبه الغضّ فقال:

لم أدرِ مصرع والدي أم مصرعي هو لا يعي، وأنا كذلك لا أعي
وصحوت أسأل من رأيت، فلم أجد أحداً يجيب سوى غزير الأدمع

ثم رثى عمّه الذي تعهده برعايته وحنانه فقال:

موت عمي أمات منّي اللّسانا فاعذروني إذا فقدت البيانا
كان لي حجّة وكان إماماً أتلقى منه الهدى والأمانا
كان لي جُنَّة وكان حساماً أتحدّى به العدى والزّمانا

وكان شبابه عهد جدّ ودرس وصرامة، فلا عجب أن ذكره قائلاً:

شيئــان مــرّا بي كلمح البصر عهــد شبــابي وجمال الصُّــوَرِ
أمــا شبــابي فهــو مــا يــؤسفني مضى ومـــا خلّف غير العبر

واحتّل الإنكليز بغداد ففتحوا في حزيران ١٩١٧ دورة لتدريب المعلمين انضمّ إليها الشاعر فيمن انضمّ من الشباب الناهض. ولما تخرج فيها عيّن معلماً فمديراً للمدرسة البارودية (أول نيسان ١٩١٨). وقد حيّا عهد العلم والعرفان فقال:

إن المعــارف قــد لاحـت بشــائرهــا متى بنهضــة أوطــاني تبشّرني؟
هي التي ضــاءت الــدنيــا بطلعتهــا: لــولا المعــارف هــذا النّــور لم يكنِ

ثم عيّن بعد ذلك مديراً لمدرسة الكرخ فالكاظمية (أيلـول ١٩٢٣) ثم عيّن مدرساً للعربية في المدرسة الثانويـة المركزية (١٩٢٤)، وانتمى في السنة نفسها الى دار المعلمين العالية التي افتتحت آنـذاك وكانت الدراسة فيها مسائيـة استمرت سنتين. وعيّن مديراً لجريدة الوقائع العراقية الرسمية (آب ١٩٢٦) ثم عمل مدرساً أعواماً طويلة حتى عيّن مـديراً للمـدرسـة الشرقية المتوسطـة (آب ١٩٣٦). ونقل في آذار ١٩٣٨ الى مـديريـة الدعايـة العامة مميزاً للمطبوعـات الداخلية ثم أعيد مـديراً للمدرسة المتوسطـة المسائية (آذار ١٩٣٩) فمميّزاً للمطبوعات العربية (آب ١٩٤١). وأعيد إلى سلك التدريس في تشرين الأول ١٩٤٦، ثم عيّن مفتشـاً إختصاصيـاً بوزارة المعـارف (آذار ١٩٥٣) حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٥٩. وتوفّي ببغداد في ١٥ كانون الأول ١٩٧٢.

شعره:

نشر ناجي القشطيني «اللهفـات» ديوان شعر ونثر (١٩٦٨)، «ومن عيـون الشعر» (١٩٦٨)، وهي مختاراته لشعراء العربية، ونفثات الأخرس (١٩٦٩).

وشعره وطنّي النزعة، إسلاميّ الطابع، يكاد يقتصر على المواضيع القومية والدينية، وليس له شعـر وجدانيّ يذكـر. ولئن كان القشطيني المربّي قد أنشأ أجيـالاً من الشباب المثقف الواعي، لقد شـارك القشطيني الشاعر في المناسبات الوطنيـة والاجتماعية خلال نصف قـرن، فأنشد قصـائده في ميلاد الرسـول الأعظم، وارتفع صـوته في عيـد الثورة العربيـة وتكريم جميل صدقي الزهـاوي والثعالبي التونسي وطلعت حرب ورثـاء محمود شكري الألوسي والمنفلوطي وشوقي والزهـاوي وفهمي المدرس ويوسف السويدي وعبد المحسن السعدون وغيرهم من رجال الأدب والزعامة والسياسة.

إن القشطيني غيور على دينه وأمته، فلنستمع اليه يقول:

ربّ، هـب لي مـن فنـــون الأدب حكمــة الشعــر وسحــر الخطب
ربّ، هيّـىء لي رشـــاداً وحجـىً ربّ، أيـــدني بـــآيـــات النّبـي
لأنـــــاجـي أمّتـي فيما أرى وأريها مـــــا وراء الحجـب

أو يقول :

الحقّ أبلج وضّـــاح الى الأبـــد ... كـــالصبح يسطع لا يخفى على أحـــد
فقل عـن الحق مـــا تهوى، فأنفسنـــا ... تلتـــذّ في ذكـره المعسـول كـالشَّهَـد
وإن تـــرد مثـــلاً أعلى لتضربـــه ... للحـقّ غير أبي الـــزهـــراء لم تجد
طـــه، ومن مثل طـــه في خـــلائقـه، ... أثنى عليهـا كتـاب الـواحـد الصّمـد
سرّ مـن الله لم تعـــرف حقيقتـــه ... ولم يَـــدُرْ كُنْـــهُ معنـــاه على خَلَـــد
قـــد جـــاءنـــا بنظـــام كلـــه حكم ... وأنعـم نفّست عـن كل مضطهـــد
كـــانوا يطـوفـون بـــالأصنـام جـامـدةً ... ويسجـــدون لها في زيّ معتقِـــدِ
يـــدعـــون لله أبنـــاءً تشـــاركـــه، ... والله حـــاشـــاه لم يـــولـــد ولم يلـــد

وهو وطني صلب، ثابت المبدأ، يقول :

لا السجـن يُبكينـــا ولا التبعيـــد ... كـــلاّ، ولا الإرهـــاب والتهـــديـــد
سنظـلّ نهزأ بـــالخطـــوب تجلّـــداً ... مهما استمـــرّ الضغـط والتشـــديـــد
وإذا تنـــاوشـت الحراب صـــدورنـــا ... هتفت إليهـــا في الصـــدور كبـــود
إنّـــا تحالفنـــا على نيـل المنى ... وتسجّلـت منّـــا بـــذاك عهـــود
الصبر شيمتنـــا وليـس يهمّنـــا ... إن قـــال فينـــا مـــا يشـــاء حسـود
والقيـــد مهما أحكمت حلقـــاتـــه ... كسرتـــه منّـــا أذرع وزنـــود

ويكبر عزم الشباب وقوة الشعب فيقول :

هـــو الشعب كـــالبركـــان يقـــذف نـــاره ... وهل تمنـع البركـــان يـــومـــاً مـــوانع؟
لقـــد كـــان مخدوعـــاً فثـــاب لـــرشـــده ... وفحّـص فيها يـــدّعيـــه المخـــادع
فلـم يـــرَ إلاّ زمـــرة أشعبيّـــة ... تنـــاضل عـن غـــايـــاتها وتـــدافع
قـــد اجتمعت لمّا صفـــا الجوّ ضحـــوةً ... كما اجتمعت حـــول النقـــود الأصـــابع
تحاول ستر الحقّ في بـــرقـع الهوى ... وهـل سترت شمس النهـــار البراقـع؟
وتـــزعم أن الشعـب طـــوع بنـــانها، ... لقـد كـذبت فالشعـب ما فيـه طـائع . . .
ألا قل لمن يبغي الخيـــانـــة بعـــدمـــا ... رآهـــا وفي أنيـــابها السّمّ نـــاقـع
تكتّم وحـــاذر مـــا استطعت، فإنـــه ... لسرّ على رغـم التكتّـم شـــائع
لقـــد أنهكـت ظهـــر العـــراق ضرائب ... يقـــدّمهـا مـن جلـــده وهـــو جـــائع
أنـــاخ عليـــه الأجنبيّ بجيشـــه ... وبثّ بـــه مـــا حـــرّمتـــه الشرائع
فهـــانت كـرامـات وضـاعت فضـــائل، ... وبـــارت تجارات ومـــاتت مـــزارع . . .

وقد هـزّته نكبـة حزيـران سنة ١٩٦٧ فأطلقهـا لهفة أخيرة من نفـس ذاهلة كسيرة،

وقال :

أتبكي أم تعـدّد أم تنـوح، فهل يطغى اللّظى دمك النّضـوح؟
ولـو أنشـدت قـومك ألف بيتٍ وبيتـاً هل ستنـدمل الجروح؟
لماذا تستغيـث ولا مغيـث، أتسمعك الـروابي والسّفـوح؟ . . .
وليس لنـا إذا رمنـا حيـاة يحيّيهـا التأمّل والطمـوح
سـوى صبر يـؤزّره جهـاد ويغسل عـاره دمنـا السَّفُـوح
وكـم سُفِكَـتْ لأمّتنـا دمـاء وكـم هـدمـت لموطنهـا صروح

من شعر ناجي القشطيني :

أمن مصـائب عصر النـور، يـا قلم، أراك تـرعش أم أودى بـك الهرم
وهل هيـامك فـوق الطـرس من ألم أم عـادة لـك هـذا الحال لا ألم؟
صـدى أنينـك أشجـاني وأرّقنـي وراعنـي إذ جـرى مـن مقلتيـك دم
إني عهـدتك لا تخشى الخطـوب ولم تسأم، فمـن أين هـذا الخوف والسّأم؟

وقال أيضاً :

خطـر النّسيم الغضّ يحمل نفحـة مسكيـة فيهـا ارتيـاح الخاطـر
والشمس صـاغت بـالشعـاع سبائكـاً يجلـو النّضـار بها جميـل منـاظـر
وجـرى لجين الماء فيـه فحلّيت أشجـاره بمعـاضـد وأسـاور

عبد العزيز الجواهري

شاعر عـراقي عاش في إيران، لكنّ روحه بقيت متّصلة بوطنـه العراق ومسقط رأسه النجف، وهـو الأخ الأكبر لمحمد مهدي الجواهـري : عبد العـزيز بن عبـد الحسين بن عبد عليّ المولود بالنجف في ٣٠ أيلول سنة ١٨٩٠ .

وقد أرّخ مولده الشاعر جعفر الحلي فقال :

بشراكـمُ هـذا غـلام لكـم مثل الـذي بشّر فيـه العـزيـز
سمعـاً، أبـاه، إنّ تـاريخه أعقبت، يـا بشراك، عبـد العـزيـز

درس عبد العـزيز الجواهري في معـاهد بلدته وحصّل العلـوم العربية والـدينية على عادة أهل زمـانه، حتى إذا مـا بلغ مبلغ الشباب اتصل بالحركـة الفكريـة الجديدة التي هبّت أنسـامها على البلـد المنعزل وراء الصحراء. لقـد أعلن الـدستور في إيـران وعقبه

إعلان الدستور في السلطنة العثمانية، وصدرت الصحف في بغداد بعد أن أطلقت حرية النشر والتعبير، ووردت الجرائد والمجلات من مصر وسورية ولبنان تحمل الأفكار الجديدة والشعر المحفّز للهمم، المفصح عن يقظة دينية ووطنية بعد سبات القرون الطويل.

وسار فتانا في ركاب النهضة الى جانب محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وأضرابهما، وأخذ ينظم في المطالب العصرّية ويخلع عنه رداء الجمود والانغلاق الذهني. وقد نشر قصائده في المجلات العربية الكبرى كالعرفان والمقتطف، وتولّى طبع ديوان محمد سعيد الحبوبي في بيروت سنة ١٩١٣.

ثم غادر العراق بعد الحرب العظمى الأولى واتخذ مقامه في طهران. وقد ترجم مقدّمة ابن خلدون الى اللغة الفارسية، ووضع دائرة معارف إسلامية في عشرة مجلدات، وصنّف تآليف أخرى منها: النهاية في الشرح والتحرير للكفاية (في ثلاثة أجزاء) آثار الشيعة الإمامية (في عشرين مجلداً طبع منه الثالث بالفارسية والرابع بالعربية) المكتبات الإيرانية (بالفارسية ١٩٣٣)، جواهر الآثار في ترجمة مثنوي جلال الدين الرومي شعراً (١٩٥٨) الخ.

تفّتح ذهن عبد العزيز الجواهري الشاب للحياة العالمة العاملة فخاطب الشباب قائلاً:

تطلّب في شبابك للصِّعاب ... فما عمر الفتى غير الشباب
وسلَّ حسام عزمك للمعالي ... فإن السيف يصدأ بالقراب
ودع طلب الهوان لمبتغيه ... فإن المجد أجدر بالطّلاب
وكرّر لو خطأت الجدّ يوماً ... فكم خطأ يؤول الى الصواب

وآمن بالشعر الحيّ الذي لا يموت فقال:

خليليّ، ما معنى الشعور؟ فإنني ... أرى كلّ شيء شاعراً مترنّما
أرى الكون في لوح الوجود قصيدة ... تخطّ عليها الخلق شعراً منظّما
هو الشعر باقٍ ليس تفنى حياته ... نقيم احتفالاً أو نشيد مأتما
تصوّره روح الخيال، فلو بدا ... إذن لرآه الطرف شخصاً مجسّما
وتنشر أسفار الطبيعة شعرها ... رموزاً فيمليها الهزار مترجما
هل النجم إلّا روضة نرجسيّة ... أرى البدر فيها شاعراً متبسّما
فدىً لدموع العاشقين فإنها ... قصيدة شعر بينها الحبّ نُظِّما

عرائس حبّ إن تجلّت ببدورها لدى الصبّ ليلاً زفّها الوجد أنجما
تقبّل خدّ الجلّنارة وجنةً وتلثم ثغر الأقحوانة مَبْسَمَا

ويمضي الشاعر في اقتفاء خطي الشعر، فيسمعه في الروض الذي تداعبه أضواء البدر ونسيج الليل فوقه وشياً منمنماً، حتى يقول:

تقرّيت أسفار الخلائق في الثرى وفتّشت أسرار العوالم في السَّمَا
فلم أرَ إلا روضةً أو خريدة ولم آلَفِ إلا شاعراً أو متيّماً
ألا كل صوت طارق صوت شاعر وسيّان فينا من بكى أوترنّما

وليس من ريب أن هذا الصوت يعيد الى أذهاننا صوت معروف الرصافي الذي قال:

قرأت، وما غير الطبيعة من سفر، صحائف تحوي كلّ فنّ من الشّعر

وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٩٠٩، فكان لخلعه صدى كبير دوّى في جوانب الدولة العثمانية المترامية الأطراف من مصر الى العراق. قال شوقي:

سل يَلْدِزاً ذات القصور هل جاءها نبأ البدور؟

وردّ عليه وليّ الدين يكن قائلاً:

هاجتك خالية القصور وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكّان الحمى ونسيت سكّان القبور

أما صاحبنا عبد العزيز الجواهري فبدّل الوزن واحتفظ بالرويّ، وخاطب السلطان السّجين قائلاً:

بعيشك كم تحنّ الى السّرير وكم ترنو بطرفك للقصور
هلاليا أراك نحلت جسماً أما تشفيك آفلة البدور؟
طواك الرعب قبل الموت مَيْتاً وأحيتك المنى قبل النشور
أهانتك القصور وكنت ملكاً تهيّب منه سكّان القبور
قريت الوحش من جثث البرايا وروّيت الرّبى بدم النحور
بكت منك الثغور دماً مراقاً وتضحك عند باسمة الثغور
فأقسم أن عود الدّست لو لم يكن من حرّ بأسك في سعير
لأثمر في رؤوس الجند روضاً وأزهر من دماها في غدير

لقد سقط السلطان المخيف وتألب عليه الشعراء والأدباء يشيّعونه بسخطهم ولعناتهم.

وأين صاحبنا الجواهري الذي ودّع عبد الحميد بتلك القصيدة، أين منه هو نفسه قبل أعوام قليلة حين مدح خليفة الإسلام قائلاً:

عُليّ بطـــــريف مجدك والتّليـــــد وليس وراء مجدك من مــــــزيـــــد
وفخـــــراً في عــــلاك فقــــد تحلّى بفيض نـــداك عــــاطل كلّ جيــــد

ومن شعر عبد العزيز الجواهري في رثاء الشيخ محمد كاظم الخراساني :

بكــاك الحيـــا دمعـــاً كما بكـت الــورى فهل كنت فـوق النجم أم كنت في الثّرى؟
تحيّر عقلي كيـف أرثيـك واصفـــــــاً، تعـالى الـذي صفّـاك للنّــاس جوهــرا
لئن كنت نــوراً في حشــا الكـون مظهــراً فقـد عـدت سراً في حشـا الغيب مضمـرا

وهذه المرثية قديمة الطراز فيها المعاني المتصيّـدة والمبالغة المتعمّدة. لكنّ شاعرنا حين يفقـد أخاه يثيره الـوجـد ويرهفـه الحزن والأسى، فيبثّ صبـابتـه تهزّ النفوس وتكـوي الضلوع :

بـــزغ الهلال، فـأين عهـــد وفـــائه أن لا يخون بــــودّه وإخـــــائه؟
أيـــرى أخـــاه مغيّبـــاً تحت الثـــرى قمــــــراً ويشرق زاهــــــراً بسمائه؟
إني خضبـت أنــــاملي بمــــدامعي وطلبـت طـــوق الحزن في ورقــــائه
وعكفـت حـــول أزاهـــر مـن قبره نبتـت تسبّـح في ضريـح ثـــــوائه
نـــذر عليّ لئـن زهـــا ريحانـــــه لأروّيـنّ الـــــورد في أنـــــدائه
يـــا لهف أيـــار تفـــرّط ورده بيـــد المنـــون وجفّ قبـل نمائه . . .
أهـــلال عيـــدي، أيـن غيّبك الثـــرى فحــــرمتني مـن بِشْرِهِ وهنــــائه
أغنتـــه عن جـــدد الحلى أكفـــانـــه وكفــــاه صبـغ الـــدمع عـن حنّـــائه
وتـــركت قلبـي حـــول قبرك حـــائماً شبـــه الفـــراش يحوم حـــول ضيـــائه
إن شـعّ لي قبس الحيــــــاة فإنّـــــه لهب السّراج يلـــــوح في أطفـــــائه
أأخيّ، يـــا قـــوسي ونبل كنـــانتي ومــــديـــر جيشي بـل أمير لـــوائه
أبقيـت قلبي للـــزمـــان دريئـــة ونصبتني غـــرضـــاً الى أبنـــائه . . .

وفي هذه القصيدة الحزينة صور متعاقبة رسمت هول الفاجعة في ذهن الشاعر الذي سلبه الموت شقيقه الحبيب : فلقـد بزغ هلال العيد، فالقمـر يتألق في العلاء لكنّ أخاه مغيّب في أطباق الثـرى. ثم هذه الخميلة الزاهيـة في فصل الربيع، تفتّح زهرهـا وجرى ماؤها وصدح عنـدليبها، لكن زهرة الشاعر قد صوّحتهـا يد الردى قبل الأوان، وبلبله رقد في قفـص التراب. ولقد حامـت نفس الشاعـر حول القبر كـالفراشة التـي يجتذبها النور، وهيهات، وهيهات، فقد خبا ذلك النور ولم يكد يشرق .

وكان الشـاعر يأمل في أخيـه نصراً ومعونة، فإذا هـو قد بات طـريدة الـزمان ونهب المصائب واللـواعج، كالفارس الذي أضـاع قوسه وكنـانته وكالجيش الذي فقـد قائده

وأميره. ويختتم الشاعر المفجوع مرثيته راجياً أن يحظى بلقاء أخيه في المنام وسائلاً رضوان أن يحفظه في فردوسه الخالد.

إن الشاعر قد فكّر في الحياة فلم ير سوى نار تضطرم ثم تخمد، فقال:

أرى عمـــر الحيـــاة شـــواظ نـــار — مـن الأجســـام تكمـن في زنـــاد
ومـــا ليل الشبـــاب ســـوى دخـــان — ومـــا صبح المشيب ســـوى رمـــاد

ذكر عبـد العزيز الجواهري، فيمن ذكـره، الشيخ علي الشرقي فقال إن عبد العـزيز الأرغن الذي يجسّ بتوقيعه العـواطف ولا يغنّي في الغالب إلا على رحيق الوطنيات... وقد توفي عبد العزيز الجواهري في طهران سنة ١٩٧٦.

محمّد الهاشمي

الشاعـر الأديب القاضي محمد الهاشمي، ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٨ وأبوه يحيى بن عبـد القادر ينتهي نسبـه الى الشيخ عـلاء الدين الحمـوي الفقيـه الشافعي المتصـوّف، صاحب المزار في حماه، المتوفى سنة ٩٣٦ هـ = ١٥٣٠م. وقد انتقلت الأسرة الى هيت ثم استوطنت جـانب الكرخ من بغداد، وعـرفت بآل مطر. وللمترجم ثـلاثة أشقاء عـرفوا بالأدب، أكبرهم عبد المجيـد عمل في القضاء والتدريس وتوفي سنـة ١٩٤٦، وثانيهم عبد الـرزاق (١٨٨٣ ـ ١٩٦٤) وكان شاعـراً وقاضياً وعضـواً بمجلس التمييز الشرعي (١٩٤١ ـ ٤٦). وثـالثهم الشاعر محمد رشيـد (١٨٩٦ ـ ١٩٤٣)، وقد كانت حيـاته مأساة من المآسي.

توفي والده وشـاعرنا محمد الهاشمي لا يـزال في السابعة من عمره فتعهـده أخوه عبد المجيد بـرعايتـه وأشرف على تدريسه. ثم دخـل المدرسة الرشـدية (١٩٠٨) فـالمدرسة السلطـانية (١٩١٢) ولازم محمـود شكـري الألوسي فأفـاد منـه. ونظم الشعر صبيّـاً، فاستدعته السلطات التركية وحاكمته عن قصيدة نشرها في جريدة «الرياض» لصاحبها سليمان الدخيل، ومطلعها:

يـا قيصر الـروس، شلّ الله عـرشك هل — علمت منقـلب الظلاّم إذ ظلمـوا؟

وقصيدة أخرى ينتصر فيها للّغة العربية قال فيها:

تـركـوك، يـا لغـة النبي، وآثـروا — في المسلمـين سيـاسـة التـتريك

وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر. واستطاع أن يسافر الى القاهرة قبل تنفيذ الحكم، وكان ذلك في أواخر ١٩١٣.

وانتمى الى الجامع الأزهر فنـال شهادته الأهلية (١٩١٧). وعـاد الى مصر بعد زيارة للحجاز فـالتحق بالجامعـة المصرية، وقضى فيهـا سنتين. ثم مضى إلى دمشق ومكث فيها الى سنة ١٩٢٠ حين عاد الى مسقط رأسه بغداد.

وقد أحبّ مصر التي أقام فيها عهداً من شبابه كما أحب وطنه العراق فقال مودّعاً:

آن يـــوم من الـــرحيل قـــريب	فيــه يـــدمى قلب وتبكي عيـــون
مـــا بقـــاء الغـــريب في البلـــد	النـــازح إلا صبـــابـــة وحنين
كيف بـــالنيل إن ذهبت الى دجلـــة؟	إنّي بـــالـــــواديين ضنين
قـــد تحيّرت بين هـــذا وهـــذا	وانتحتني قبل الـــرحيل شجـــون
فتمتع قبـل الفـــراق ففي مصر	زمـــــان غـضّ وعيش ثمين

وظف في وزارة الدفـاع كاتباً ثم نقـل الى الديوان الملكي ودرّس بعـد ذلك في المدرسة الثانوية. ودخـل مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٥. وأصـدر في الوقت نفسه مجلّة اليقين (نيسان ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥)، وكانت من المجلات الأدبية الراقية في عهدها.

وعيّن حاكماً في المحاكـم العراقية (٢٦ أيار ١٩٢٧) فخدم في القضـاء أكثر من ثلث قرن وتنقل بحكم منصبه في معظم أنحاء العراق. وكان أول تعيينه حاكماً للصلح في أبي الخصيب (أيـار ١٩٢٧) فحاكم بـداءة البصرة (حزيـران ١٩٢٨) فحاكم صلح قلعـة صالح (ت٢، ١٩٢٨) فالفلوجة (أيلول ١٩٣١) فدلتاوة (أيار ١٩٣٣) فالشطرة (آب ١٩٣٥). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بغـداد (ك٢ ١٩٣٦) فكركـوك (آذار ١٩٣٧) فحاكم كربلاء المنفرد (١٩٣٧) فحاكم جزاء النقليات (   ) فحاكم جزاء بغداد (آذار ١٩٣٩). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بعقوبـا (نيسان ١٩٤٠) فحـاكم جزاء بغـداد (١٩٤٢) فحـاكم صلـح تكـريت (   ) فحـاكماً منفـرداً للكـوت (تموز ١٩٤٣) فحـاكم بداءة النـاصرية (   ) فبغـداد (تموز ١٩٤٦) فحـاكم محكمة استئنـاف تسـويـة حقـوق الأراضي في بغداد (آذار ١٩٤٧) فعضـو المحكمـة الكبرى فيهـا (آذار ١٩٤٨). ونقل مفتشـاً عدليـاً (ك١، ١٩٤٨) فنـائب رئيس محكمة استئنـاف البصرة (ك٢، ١٩٤٩) فـرئيس المنطقـة العدليـة في بعقـوبـا (نيسان ١٩٤٩) فحـاكم بـداءة الـرمـادي (أيلـول ١٩٥٠) فـالعمارة (آب ١٩٥٢). وأصبح عضـواً في مجلس التمييـز الشرعي السنّي (أيلول ١٩٥٣) فرئيساً لـه (٣ كانون الثاني ١٩٥٦)، وانتدب للعمل في محكمة التمييز العراقية (أيلول ١٩٦٠). وقـد أحيل على التقاعد فاعتزل الخدمة في أول تموز ١٩٦١.

وقد أصيب محمد الهاشمي بداء عضال ألـزمه داره بضع سنوات، حتى وافاه الأجل في بغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٣.

مؤلفاته

له: عبرات الغريب وقد تضمن شعـره إلى سنة ١٩١٨ وطبع في الشام (١٩٢٠) أبو العـلاء المعرّي (١٩٤٤) الأبطـال الثلاثـة (١٩٣٣)، النعت (١٩٤٧) سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (١٩٥٩) ديوان المثـاني (١٩٦٢) القضاء بين يديك (١٩٥٧). وقد نظم رباعيات الخيام شعراً ونشر ديوان عبد الله بن الدمينة مشروحاً مع السيد محي الدين

رضا في أثناء إقامته في مصر (١٩١٨) وجمع «أراجيز العرب» وهي تضم مئات الأراجيز التي عثر عليها في مصر وسورية والعراق. وله عدا ذلك ديوان شعر كبير معدّ للطبع ومقالات نشرت في مجلة المقتطف واليقين وسواهما من المجلات والصحف العربية. وقد نظم ملاحم وقصصاً شعرية منها: سميراميس الآنف ذكرها، بلقيس، إعترافات مقامر، الفتاة المخدوعة، في الوفاء وفي الغدر، قصة الإمام عليّ الخ.

شعره:

ذاق محمد الهاشمي مرارة اليتم طفلاً وخبر آلام البؤس والفاقة والغربة شاباً، فلا عجب أن جاء شعره حزيناً ناطقاً بالشجو والألم.

فهذه قصيدته «اليتيم الباكي» تعرب عن حاله وتفصح عن ذات نفسه لا زيف فيها ولا إغراب:

إلى كم أنت تكتب بالـدمـوع ... روايـات عـن الخطب الفجيع؟
على قلبي دمـوعك نـازلات ... ألم تـره يـدقّ من الـدموع
كأن وقـوعها حجـرات نـار ... أحـرّ من الصهير على الضلـوع
دموع قـد أفاضتها عيـون ... بها لليتم آثـار الخشـوع
إذا أجهشتُ أجهش لي فـؤاد ... يطـاوعني على الألم الـوجيع
أرقّ من النسيم هـوى وعطفاً ... أبيّ الطبع للـزمن الفظيع
يـؤاسي كلّ ذي حـزن بحـزن ... ويقتسم الشجـون على الجميع
ولـو حمّلته قسطـاً ثقيـلاً ... من الآلام آذن بـالخضـوع
ولـو تشفي الـدموع غليل قلب ... إذن لشفيتُ بـالـدمع الهموع...
سـألقي نظـرة ملئت حنـانـاً ... على البؤسـاء من طرف خشـوع
يعيش الأغنيـاء على رخـاء ... ونحن نعيش في بـؤس وجـوع
تنـام عيـونهم بـالليل، لكن ... عيـون البائسين بـلا هجـوع
نسـوا البـؤسـاء في الـدنيا جياعـاً ... وخلّـوهم الى الـزمن المنـوع
لكل من بنيهم ألف ثـوب ... عليـه عـلامـة الصنع البـديع
أنـامـوهم على بيض الحشـايـا ... وفي غـرف من القصر الـرفيع
وأطفـالٍ على الأوسـاخ نـامـوا ... كـأفـراخ الحمام على الجذوع
وليس لهم سـوى الـدقعـاء فـرش ... ولا التحفـوا سـوى الثـوب اللـذوع
يقضّـون النهـار طـوى وجـوعـاً ... ويطـوون الليـالي بـالـدمـوع
أحـاديث الشقـاء لهم عـزاء ... تعلّـل نفس ذي البـؤس الجزوع
ويضرب منهـمُ ذو السقم عيّـاً ... بليلتـه هـزيعـاً في هـزيع
رأيت اليتـم ذنبـاً لليتـامى ... يـراه الأغنيـاء بـلا شفيع

وقال منها:

مضى أهلي وعـــرّضني زمـــاني	لفتك من مصـــائبـــه ذريع
يتيم ليس يعـــرفني قـــريب	ولست على الشقـــاء بمستطيع
أبي، أمي! عـــلامَ تـــركتماني	ضعيف مطـــامع وقصير بُـــوعِ
أجيبـــا دعـــوتي، أنـــا مستغيث	وليس ســـواكما لي من سميع
لقـــد همّا بيـــوم نـــوى قـــذوف	ولكن لم يهمّا بـــالـــرجـــوع
تـــذكـــر أمـــه وأبـــاه يـــومـــاً	فأسبل ديمـــة أخـــذت بـــروعي
لـــه قلب وليس لـــه لســـان	يطـــاوعـــه على الـــدمع المطيع
مضى أبـــواه قـــد تـــركـــاه طفـــلاً	تـــرعـــرع قبل أيـــام الـــربيع

وقصيدته «الفتاة المخدوعة» صرخة مدوّية من صرخات الألم والفجيعة تروي قصة فتاة أوقعتها أمها بين براثن وحش مفترس وعدها بالزواج لكنه نصب لها فخاً وألقى بها في مهاوي الرذيلة، فابتليت بالسل وقضت نحبها شهيدة الفضيلة والعفاف.

وهو يردّد أنغام الحزن والأسى حتى في الحبّ، فيقول في موشّحه «آلام الحياة»:

ثمَّ في الصحـــراء، في القفـــر الجديب	فـــوق غصن شـــائك غيـــر رطيب
أخـــذت مـــنه شمـــال وجنـــوب	يتبـــاكى بلبـــل الـــوادي الغـــريب
كـــان من قبـــل محـــبّاً مغـــرماً	علمـــته الحبّ أمـــلاك السّـــما
فـــلـــماذا لا يـــرى مبـــتسماً	بعـــد إلا بسمات بقطـــوب؟
أي قـــلب للمحـــبّ المبتـــلى	ضـــيّع المـــاضي والمســـتقبـــلا
ذاهـــل عن كـــل شيء مـــا خـــلا	نـــزعـــة من ذلك الحبّ الكئيـــب
يـــا غريـــباً ضـــاع في أوطـــانه	يمـــلأ الصحـــراء من ألحانـــه
نغـــماً يكشـــف عـــن أحـــزانه	كلّنـــا مثلك مهجـــور قـــريب

إســأل الأسحــار عـن أحــلامنــا واســأل الظلــماء عـن آلامــنا

قــد نفثــنا السّمّ مـن أقــلامــنا هــو سمٌ لا يــداويــه طبيب. . .

آهٍ على هـذه الدنيـا المليئة بـالأحزان والكـروب! إن المرء ليصرخ وليبكي ويستغيث، ولكن الصراخ والدموع كلها عقيمة فلا سامع ولا مجيب:

هي دنيـا كـل مـا فيـها شجـون فــاغـضِ عن كل مسـاويها الجفـون

إنما سخطـك فيــها كــالجنــون والتغــابي سلــوة الصّبّ الأرِيـب

نــادِ أفــلاك السمــوات العلــى وانــدب الفجــر إذا الفجــر انجلى

وامــلأ السهــل بكــاً والجبــلا نــادِ! هل من ســامع أو مـن مجيب؟

آهِ مــن صمــت على الأرض عميــق خـرس الكــون فهــلاّ تستفيق

هــذه الآلام تذكــو كــالحـريق في فــؤاد دَنِفٍ كــاد يــذوب

والهاشمي يقرن الحبّ دائماً بالشجو والألم، فهو يقول في قصيدته «ليلة عاشق»:

أيّها السّــاهــر، مــا هــذا الأرق لــذكــرٍ أم بعــاد أم قلـق؟

غــرق النــوّام في ليلهـمُ وتــولاّني همّ قــد طــرق

ظلمــة تـأتي وأخــرى بعــدهــا تشبــه البحـر إذا البحــر انــدفق

أنــا في الليل غــريـق، وأرى مــوجــه يسبقنـي قبل الغــرق. . .

فيك، يــا ليل، مــواعيــد الهوى يتقــاضــاهــا الأسى ممّـن عشق

إن فلسفـة محمد الهاشمي في شعـره فلسفة اليأس والشكـوى: فـالإنسانيـة معذبـة والحياة شقيّـة بائسة، والحنـان قد مـات في النفوس، والعدالـة لا مكان لها في الأرض، والدماء تسيل مسيل الأنهر، والنـار والأعاصير تفتك بالأرواح. وهذه قصيـدته «صوت من الإنسانية» صورة مؤسية للبشرية في عصر الحضارة والعرفان، فلنصغِ إليه يقول:

أفي الأرض تبقـى أم الى النجـم تــرفـع نفـــوس لها في الأرض مبكـىً ومجزع؟

لعلّ لها بعـــد المنيّـــة رقـــدة تخفّف عنهـــا بعض مـــا تتـــوجّع

وتنسى بها بـــؤس الحيـــاة وشرّهـــا فـإنّ حيـــاة البـــائسين تفجّـع

لقـد سـاءهـا مـا في الحيـاة وسرّهـا لها في الثـــرى بين المقـــابـــر مضجع

ويقول :

تمتعت مـن نجم الثـــريّـــا بنظـــرة لك الله، مـــا هـــذا الـــذي أتمتّع!

أحـــاول أن أرقى إليهـــا بجثتي ومـــا لي إليهـــا سلّم فيـــه أطلـع

أهيـم إذا لاحـت بها وبحسنهـــا ويخفـــق قلبـــي كلما هـــي تلمـع

فيـــا أيّها النجم المطلّ على الـــورى، لمثلي أن يثـــــوي بمثلـك مطمع

فيـــا ليت أني قبل مـــوتي صـــاعـــد إليك وأني في بـــــــلادك أرتـع

وكنـت إذا مـــا جنّ ليـل وأشرقـت كـــواكب في داجٍ مـن الليـل شرّع

نظـرت الثـريّـا ثـم أغضيت نـاظـري وقلـت : ألا ليـت المنيّـــة تسرع

لأنجـــو من أرض بها الفضل ضـــائع وفي أهلهـــا بـــالشرّ والســـوء مقنع

فقـــد سئمت نفسي الثـــواء بمجمع تـــزيّـن فيـــه المنكـــرات وتصنـع

يـــذلّ بـــه المستضعفـــون ويعتلي بـــه الظـــالم المستكبر المترفّـع . . .

ومحمد الهاشمي شاعـر وطني يجري في عروقه حبّ العراق والأقطار العـربية جمعاء، فمن قصائده الوطنيـة «تحية الشهداء» نظمها في القاهرة وقـد شهد بعينيه مصرع شهداء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ورأى القتلى تتخبّط بدمائها عل قارعة الطريق، فقال :

لا تـدفنـــوا الـــدم بـــالتراب فـإنّـــه يجري لنصر الحقّ فهـــو مطهّـــر

بل فـــاكتبـــوا منـــه على أعـــلامكم كَلِماً كنيران الغضـــا تتسعّـــر

هـــذا دم الشهـــداء يهدر فيكـمُ لا تتركـــوه على البسيطـــة يهدر. . .

وقال يذكر المجد العربي الضائع :

نقضـت لـك الأيـــام عهـــدا إذ كنـت للعـــافين سعـــدا

إذ كنـت تبغي مـن بغـــاك مـن النـــدى صـــدراً ووردا

فـأطـــــاعـك العصران والملـــوان معبـــوداً وعبـــدا

وإذا أبيـت أبى الـــزمـــان وإن دنـــوت دنـــا وجـــدا

تمـــضي الحـــوادث كيفمـــا مـــارستهـــا حـــلاً وعقـــدا

وتـــدور بين العـــزّ والإقبـــال إبـــرامـــاً وردّا

ولقـــد حميـت الملـك حتّـى صـــار لـــلآمـــال مهـــدا

ولقـــد عمـــرت الأرض بعـــد خـــرابها عهـــداً فعهـــدا

وإليك أخلـــــدت الأنـــــام ... وأعــــــرضت عمّـن تعـــدّى
وعـــــــدلت فيما كنـت تحكـم ... بينهـم فـأصبت رشـــــــدا
ومضيت بـــالحكم الـــرشيـــد ... مـــدىً فما جـاوزت قصـــدا. . .
ولقــــد بنيت مفـــاخــــراً ... شـمّ الــــــــذرى وبنيـت مجدا
وعنـت لـك الأقـــــــــدار إذ ... ملكـت يــــــداك لها مـــــردّا
غــــالبت دهـــراً عـــاتيـــاً ... حتـى تجبّر واستبّـــــــــــــدا
فـأضــــاع دهـــرك غـــادراً ... بك نـــاكثـــاً لك منـــه عهـــدا

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى النهوض وزرع بذور العزّ لحصد جناه.

ويحبّ الهاشمي الأمثال الشعرية حبّه للقصص المنظومة. فمن أشعاره «الوردة والفراشة» و «القبر والزهرة»، وكلاهما مقتبس عن فكتور هوغو، و «الذئب والحمل» أو القوة والضعف، و «النحلة والجلّنارة». وقصيدة هوغو «الوردة والفراشة» ترجمها شاعر لبنان الدكتور نقولا فيّاض (١٨٧٤ ـ ١٩٥٨) بعنوان (الزهرة والفراشة)، قال:

زهـــرة في الحقـل يـــومـــاً سألـت ... من فَـــراش الحقل معشـــوقـــاً صغيرا
مـــا الـــذي يلهيك عني جـــاعـــلاً ... لك كـــالنجم اختفـــاءً وظهـــورا؟
غـــائبـــاً حينـــاً وحينـــاً حـــاضراً ... مـــالئـــاً نفسي غيـــابـــاً وحضـــورا
أفما أنـــــت رفيقــــي في الهوى ... أبـــداً أرشفـك الثغـــر الطهـــورا
عـــائشـــاً في عـــزلـــة الحبّ معي ... لا تـــرى إنســـاً ولا تخشـى شرورا
قـــــد تماثلنـــــا جمالاً وسنىً ... وتفـــاهمنـــا حفيفـــاً وشعـــورا
ولبسنـــا ثـــوب نـــور واحـــد ... فكـــلانـــا زهـــرة تسطع نـــورا
لا أرى مـــا بيننـــا فـــرقـــاً، بلى ... ســوء حظي جعـل الفـــرق كبيرا
أنـت في الجوّ طليـق وأنـــــا ... بـــالثـــرى رابطـــة جسمي الأسيرا
كـم سرت نحـــوك أنفـــاسي فلـم ... تتـــزوّد عطـــرهـــا إلاّ يسيرا
هـــائماً بين أزاهير الـــــرّبى ... تـــائهـــاً في الجوّ زهـــواً وسرورا
وأنـــــا أنظـــــر ظلّي دائراً ... حـــول جسم عـــاجـــز عن أن يـــدورا
وأبيتُ الليـل أشكـــــــو وحشتي ... بفـــؤاد لم يكن عنك صَبـــورا
ولـــــذا تلقى بجفني أدمعـــاً ... كلما عُـــدْتَ مع الفجـــر منيرا
هـــاجـــري، إن صح عهـــد بيننـــا ... فـــدع الهجـــر طـــويـــلاً وقصيرا
واتخذ مثلي أصـــلاً في الثـــرى ... أو أعِـــرْ جسمي جنـــاحـــاً فأطيرا

وقد أضاف نقولا فيّاض تكملة لقصيدة هوغو فأجاب عن لسان الفراشة يخاطب الزهرة قائلاً إنها مفتونة بهواها، متيّمة بحسنها، وبعادها عنها إنما هو سرّ من أسرار الطبيعة، فهي كالريح رسول الهوى تحمل ذرات الغبار الى الأزهار القاصية.

أما شاعرنا الهاشمي فيقول في ترجمته:

فراشة وقعت يوماً على شجر	تفتحت فيه أزهار وأكمام
قالت لها زهرة صفراء ناضرة	وقلبها فيه أحزان وآلام:
لا تهربي وأجيبيني بمسألة	عن حظّنا، وحظوظ الخلق أقسام
شأني وشأنك في أمريهما اختلفا	لغيرنا فيهما نقض وإبرام
تمضين أنت الى العلياء طائرة	ولا أطير ولا لي ثَمَّ إعزام
لقد ضجرت ولكني على ضجري	أحبّ نفسي وما في حبّها ذام
أعيش والناس عني مبعدون وكم	في قربهم علل شتّى وأسقام
أَشْبَهتني فلنكن زهراً نطير معاً	لنا بها فوق هذا الروض إلمام
لكن أرى الأرض، والهفاه، تمسكني	والريح تعليك: هذا الحظّ ظلّام
إني سأعطيك من عرفي الجميل لكي	يعطّر الجوّ نشر منه نمّام
لا، لست أعطيك، إن الزهر يصحبني	وأنت يقصيك إنجاد وإتهام
رضيت عيشي وحدي في الرياض أرى	ظلّي وينعشني ضوء وإظلام
وتهربين فتأتين الضياء إذا	رأيت ناراً لها لمع وإضرام
في كل صبح بكائي دائم وعلى	خدّيَّ من عبرات الفجر تسجام
آهٍ لحبّكم الماضي الذي ذهبت	به ليالٍ سعيدات وأيام
خذي، كما لِيَ، جذراً أو هبي ورقي	جنحاً، كما لكِ، والآمال أوهام!

إنّ الهاشمي قد نظم رباعيات الخيام باللغة العربية جعلها خماسيّات واستند في نقلها الى ترجمة أحمد حامد الصرّاف النثرية، لكن ترجمته لا تتّسم بالدقة والسلاسة التي امتازت بها ترجمات عربية أخرى كترجمة الصافي النجفي وأحمد رامي. فمن أمثلة خياميّات الهاشمي:

يا الهي، إذا جنيت فإثمي
يا الهي، على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جرمي

أنا جانٍ رجوت عفواً وصفحاً   منك قد غرّه رضاك فجارا

جيئتي في الدّنيا أذىً واضطراب

وبقـــــــائي تحيّر وارتيــــــاب

وبقسرٍ يكـــــون منّي ذهـــــاب

أيّ قصـــد مـــن جيئـــة وبقـــاء   وذهــــاب؟ قـــد ضلّت الألبـــاب

من حضيض الثـرى الى حيثُ يبــدو

زحـل كلّ مشكـل فيـــــه عقــــد

لاح منـــــه في حيلتـي لي رشـــــد

كـــلّ ســـرّ حلــــلت ثمّـــة إلاّ   أجل مـــا كشفتــه عـــن خفـــاء

لم يـــر الخلـــد واحـــد والسّعيرا

مـن أتـى مـن وراء مـــــوت صغيرا

أفـــزع الموت والـــرجـــاء صـــدورا

نـــازعـت مـــا يغيب عنهـــا ويخفـى   غير ذكـــر الأســـماء والأوتـــار

سميراميس

نظم شـاعرنـا الهاشمي ملحمـة شعـرية عن سميراميـس بين الحقيقة والأسطـورة. وسميراميس ملكـة بـابل القديمـة حبيبـة الى الشعـراء، أثيرة لدى رجـال الفنّ، طـرق موضوعها غير واحد منهم. فهذا فولتير ينسج من حياتها رواية مسرحية مأساوية، وبول فاليري يصوغ منهـا مسرحية جديدة، وروسّيني يخرج عنها أوبرا موسيقيـة. وهذا بلند الحيدري صـاحب «خفقة الطين» يقول فيها قصيـدة تعجّ باللذة المحـرّمة والحبّ الآثم واللّظى المخمور والقشعريرة الداجية والضحكة المحمومة المغرية المغرّرة.

ويهيم بالملكـة الأسطوريـة عمر أبـو ريشة شاعـر سوريـة فيستوحي منهـا مسرحية شعرية هي قصة الحب والجمال والطيوف والأحلام، تقول سميراميس في مطلعها:

عبيرك يـــــا ليل وهـج الحيـــــاة   فـــــــلا تتنفـس على مضجعـي

بعثـت بــــآخــــر مــــا تمتمـت   شفـــــاه الـــــربيع على مسمعـي

أحـسّ بـــــه رعشـــــة في دمـي   وحلماً جـــــريحاً على مـــــدمعي

ألا أيـن بــــــدعـــــة حلمـي إذا   تـــرنّحـتُ بــــالقــــدح المترع

وأيـن الصـــــدى لنــــداء الحنين   إذا عـــــربــــد القلب في أضلعـي

أريـــد. . . ودوني انهيــــار الفتـــون   على كـــلّ ذي هيــــف ممتـــع

أما سميراميس الهاشمي فصحراء ممتدّة الأطراف تكتنفها الواحات والرياض.

ينظر الشاعر الى الوجود قبل الخليقة بمنظـار الأساطير البابلية، فإذا هو فراغ عظيم لا نور فيه ولا ظلام:

قبل خلق السماء والأرض كان الأب | «أبسو» هو الإله العظيما
و «تيامات» الأم كانت فكان اثنان | لا من ثلاثة أقنوما
حين لا ليل في المكان ولا يوم | ولا مجهولاً ولا معلوما
قيل: لا شيء، قيل: سرّ بعيد | من عماء أن لا نراه سديما
عدم من وجوده وهو صفر | في فراغ لا يقبل التقسيما
أهو نفي، وكيف يدرك نفي؟ | أم ثبوت، فما وعَمَّ وفيمَ؟

ثم كانت الخليقة وكانت الآلهة وكان الصراع والحرب. وكانت بعد ذلك بابل وحمورابي ونينوس، وهذه سميراميس ترقى العرش فتخاطب شبح بعلها قائلة:

هَوِّنْ، وحسبك مني أنني امرأة | لا يثقل التاج أحلامي ويلهيني
نم مطمئناً فإنّ الملك يشغلني | عن احتفال بتحسين وتزيين
يكفي النساء عبير يدّهنّ به، | وليس إلاّ عبير المجد يكفيني
إن الكياسة في الأنثى مظاهرة | جمالها تقلب الدنيا مع الدين
حورية أنا لا غول نزلت بهم | من عرش مردخ[1] ذي الخمسين أو«سين»[2]
ويشهدان بأني غير قانعةٍ | حتى أرى مصر في ملكي الى الصين
فأملأ الأرض من حرب ومن ظفر | ومن سلام ومن فتح إلى حين

لكن الدسائس والمؤامرات لا تلبث أن تسري في أروقة القصر الملكي فيقول الكاهن الأشوري:

إذا سكتوا فعن داء دفينٍ | وإن نطقوا علانيةً فهلكُ
يداهن بعضنا بعضاً ويحيى | حياة الموت، إنّ الموت تَرْكُ
عزيز النفس ذلّ، وكل حرّ | له عيش وراء العزّ ضنك
وقيد الليث إن يصبرْ عليه | يحصّ اللبدتين ولا يفكّ
وما شمّ الأذى أنف حَمِيّ | ولو أن الأذى ورد ومسك
ومن حلم اللبيب مغامرات | تدكّ بها الجبال ولا تدكّ
أرى بشرية تدمى وهدر | دم حرّ على يدها وسفك
وقل: كيف الإقامة في بلاد | مشقّة عيشها معك ودعك
وليس الملك من تاج وعرش | وحاشية بل الأخلاق ملك
صلاتك للحسام العضب دين | وصومك عن مذاق الذلّ نسك

(١) مردخ إلـٰه بابلي.
(٢) «سين» القمر وهو «ود» عند العرب.

ويحلّ رأس السنة فيهرع أهل بابل للاحتفال بالمهرجان و إقامة طقوس العيد :

صبـــاح غـد عيـــد وجـاءت وفــوده ... ليحتفلـــوا والـــوافـــدون جموع
سما بهم شــــوق الى أمّ بـــابـل ... وغصّـت ديـــار منهـم وربـــوع
وصفت جنـــود واستعـــدّت تحيّــــة ... فمنهـم سجـــود دونها وركــــوع
وآلهة في فلكهـــا ووفـــودهــــا ... أتـــوهـــا وكلٌّ ســامع ومطيع . . .
هنـا معـرض الـدنيا فما شئت فـاقتبس ... بــروعـــاً، وآيـات النبــوغ بــروع
فهــذا يـــريك العلم كيف فنـــونـــه ... وهـــذا يــريك السّحــر كيف يــروع
وهم زُمَــرٌ والنـــاس فـــوضى بأنهم ... لكـلٍ الى مـــا يشتهيـــه نـــزوع
وهـزل وجـدّ بـالسيـوف وبـالقنـا ... ووثب وقفـــز تـــارةً ووقـــوع . . .

تشهد سميراميس مشاهد المهرجان فلا تني تقول :

ســــلام وحـبّ أيها البلـــد الخَصْبُ ... بحبّك فلتصبـــو القلــوب التي تصبـــو
على خير أرض فـــوقهـــا خير أمــــة ... إذا ذكـــرت بـــالمجـد قيـل لها : حَسْبُ
وجنّــة عــدن رافــداهـــا وأرضهـــا ... بها النخل والكـــرم المعـــرّش والعشب
جــــرى كل إقليـم اليهـــا بمائه ... لها الشرق مـن أنهارهـــا ولها الغـــرب
مفجّـــرة الماءين في كـلّ بقعــــة ... فتروى ويـروي مـا بها مـاؤهـا العـذب
خصـــوبـــة صقع من زكـــاة تـــرابــه ... فــلا القحط معهـود عليهــا ولا الجدب
وكـــالتّبر لـــون الماء جـــارٍ سبيكـــه ... وكنـــز عليهـــا الطين والـــرّمل والتّرب
وغـــاب نخيـل ســـابغ الظـل والجنى ... وفـــاكهـــة مـــا تشتهـي العين والقلب
ومـــا الشهـــد إلاّ تمرهـــا لـــو تـــذوقـه ... لقلت : أشهـــد في الكـــوارة أم قسب . .

لكن الحياة لا تلبث أن تجور على الملكة فتبدّد أحلامها وتخيّب آمالها ، فتقول :

هـــــذه حيرة الحيـــــاة انتظـــــار ... يُـــذْكـــر المرءَ مـــا يكـــون وَيُنْسي
والأمــــاني شعـــاعــــه في سراب ... مـن ضيـــــاء على ظهــــور وطمس
لا تقل في الغنـــاء نغمـــة سعــــد ... إن تقـل في البكـــــاء أنّــــه نحس
هــــذه الشمس كلهـم عبـدوهـــا ... وإذا مـــا انفـــردت أعبـــد نفسي
مَنْ دليلي على ابتكـــار؟ فقـد طـــال ... وقـــــوفي على قـــــرائح دُرْس
خـــذ إليك الكـأس التي لـك واشرب ... فلغيري لا ينبغـي أخــــــذ كـأسي
قتـل الأذكيـــــاء مـــــا وجـــدوه ... مـن فســـاد على النفـــوس ورجس
حيّرتها دلائل الحرص حتّـــــــــى ... عقـــدت حظهـــا بختم وكـــرسي

وكانت الخاتمة، فإذا نينياء الشاب يرقى عرش أمّه وإذا سميراميس الملكة المخلوعة تنسخ حمامة فتنوح قائلة:

صورٌ: بـرج لـه سبعتـه صـور فيهـا رعـايـا وملـوك
صـور: يـوم وأمس وغـد وخيـال وظنـون وشكـوك

وتقول القهرمانة ناناث:

آخـر العهـد كـان في بـاب إيـلا مسحت وجنتيك أنمل بيـلا
خلعت ثـوبها إليك وطـارت بعـد أن مسّهـا التراب قليـلا
وأثـارت في الأرض حـربـاً وسلماً وأطـالـت إقـامـة ورحيـلا
الـوداع، الـوداع، أيّتهـا الأرض احتملنـا عليك حملاً ثقيـلا
إفتحـوا لي بـاب السماء فبئست حفـرة الأرض من سماءٍ بـديـلا

رشيد الهاشمي

محمّد رشيد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي، ولد في بغداد من أسرة فقه وأدب في سنة ١٨٩٦، ودرس اللغة العربية وآدابها على يد أخيه عبد المجيد، ولازم بعد ذلك محمود شكري الألوسي فأفاد من دروسه. ونظم الشعر، ومال الى الأدب، وآمن بالمبادىء القومية والوطنية، فقصد الحجاز سنة ١٩١٦ والتحق بالثورة. ثم شخص الى القاهرة في بداية سنة ١٩١٨. ومضى الى الشام عند تأسيس حكومتها العربية فعيّن كاتباً في المجمع العلمي العربي عند تأليفه سنة ١٩١٩.

عاد الى بغداد سنة ١٩٢٠، فعمل في ميدان الصحافة. وكان محرراً لجريدة «دجلة» التي أصدرها داود السعدي (٢٥ حزيران ١٩٢١) وجريدة «الرافدين» لصاحبها سامي خوندة، وقد صدرت في ١٦ أيلول ١٩٢١ ودامت الى ٢٤ آب ١٩٢٢. ونشر شعره وبحوثاً أدبية واجتماعية في مجلة اليقين التي أصدرها شقيقه محمد الهاشمي (١٩٢٢ ـ ٢٥). ونشرت مقالاته وقصائده في الجرائد العراقية كالعراق والاستقلال والفلاح والصحف الحجازية والسورية والمصرية كالقبلة والعقاب والمقطم والنور ولسان العرب والمفيد والنهضة الخ.

وغالى في تطرّفه فهجا الملك فيصل الأول وحكومته، وكان قبل ذلك قد مدحه حين إعتلائه العرش سنة ١٩٢١، فقال:

رقـاك، يـا عـرش، من تـرجـو وتنتظـر وزانك العلم لا اليـاقـوت والـدرر
يهنيـك فيصـلُ الجليـل ومـن في راحتي جـدّه قـد سبّح الحجـر
يـا ابن النبّي، وأحلى الشعـر أصدقـه، سيل المفـاخـر من واديـك ينحـدر
.... الـخ.

إنتمى الى مدرسة الحقوق في أواخـر سنة ١٩٢٢ ومكث فيها أربع سنوات، حتى إذا ما آن أوان التخرّج، أصيب برجّة عصبيّة فأودع مستشفى الأمراض العقلية حيث قضى نحـواً من سبع عشرة سنة. وتـوفي ببغداد في أوائل سنـة ١٩٤٣. وقد رثـاه أخوه محمـد الهاشمي فقال:

قـل لهم: مـــا وفـــاء حق الأديـب؟	شغلـوا عنك بـــالــزمـــان العصيب
ليـس داء الأعصـــاب فيـك عيـــاء	بـل دليل القضـــاء عجـــز الطبيـب
كلهـم يسـألـــــون عنـك وعنّي	فيقـــولـــون للــدمـــوع: أجيبي
مــا افترقنـــا، وليس كـــالموت بُعْـــدٌ	فيــه عهـــد القـــرب غير قـــريب
ونحيبـي حـــــزن عليـك وشعـــر	وغنـــاء الحزين صـــوت نحيـب

وقد طبع ديوان رشيد الهاشمي سنة ١٩٦٤ بعناية عبد الله الجبوري ـ وصدّر بمقدمة لمحمد بهجت الأثري.

وقيل إن رشيد الهاشمـي توفي في ١٥ تموز ١٩٤٦ في دار الشفاء ببغـداد حيث قضى الـ ١٩ سنة الأخيرة من حياته لمسّ أصابه في عقله.

مأساة النبوغ:

إن النبــوغ إذا اقترن بإرهـاف الحسّ ورقـة الشعـور، وامتحن بـالحرمـان والفشل والجحـود، وصهـر في بودقـة ألم النفس وعـذاب الجسم، كثيراً مـا يدفع بصـاحبـه الى الإرهاق العصبّي والجنون أو الموت. وقد سجل التاريخ الأدبيّ فواجع رهيبة في إطار من البؤس والهوان والرثاثة والدم: فهذا الفيلسـوف المتصوّف أبو حيّان التوحيدي الذي اتّهم بالزنـدقة ولقي من العنف والاضطهاد ما حملـه على إحراق مؤلفاته واستتـاره عن الوزير المهلبي الذي ألحّ في طلبه، حتى مات في نحو سنة ١٠١٠م.

وهذا الشاعر الإنكليـزي توماس شاترتون (١٧٥٢ ـــ ١٧٧٠)، رأى نور الحياة يتيم الأب، وتمرّغ في أوحال الفـاقة والجوع والحرمان، حتى إذا مـا غلب عليه القنـوط، مزّق آثاره المخطوطـة وتناول السمّ في ربيعه الثامن عشر. كان شعره يفيض بـاللوعة والمرارة، دعا القارىء الى البكاء معـه، فقد مات حبّه تحت شجرة الصفصاف. كـان حبّه فاحم الشعر كليل الشتاء، أبيض البشرة كثلج الصيف، أحمر الخدّ كضوء الصباح، وهو يرقد الآن بارد الجسم في حفرة القبر.

وتصّور الحرية ترتدي معطفاً ملوّثاً بالدماء، وقد كلّل رأسها بالأعشاب البرّية.

وذلك الشـاعـر الفـرنسي هيجيسيب مورو (١٨١٠ ـــ ١٨٣٨) قضى الحيـاة هـائماً شريداً، وعمل ممرّضـاً في أثناء تفشّي وافدة الهيضة في باريس سنة ١٨٣٢ سـداً لرمقه. باع شعره لبعض الناشرين بدريهمات معدودة، وانتهى به المطاف الى ملجأ حيث وجد

الراحة أخيراً في الموت. قال في بعض قصائده: «لقد كنت تلميذاً فقيراً حالماً غريب الأطوار، ولكم نثرت فتات الخبز لطير الشاطىء فقال لي الماء: تمسّك بأهداب الأمل، فإنّ الله سوف يعيد لك خبزك! لكنّ الله لا يزال مديناً لي به».

وماذا عن جيرار دي نرفال الأديب الشاعر (١٨٠٨ ـ ١٨٥٥) الذي هام بفاوست، رواية غوتي، ونقلها الى اللغة الفرنسية بما يكتنفها من سحر وإغراء وظلمات جهنميّة؟ لقد ألم بشيء من العربية والفارسية، وانصرف الى قراءة كتب التصوّف وما وراء الطبيعة، وهام على وجهه في القسطنطينية وربوع سوريّة وجبل الدروز. وزادت هواجسه يوماً بعد يوم، واستغرق في لجج مظلمة بعيدة الغور من الرؤى والآمال، حتى انتهى به المطاف الى مصحّ للأمراض العقلية. وفي مساء يوم قارس البرد، وجد مشنوقاً في شبّاك بعض الدور المنزوية بأحد الأزقة الباريسية. لقد انتحر ذلك الشاعر الذي يقول: «إنني فتى الظلام الثاكل الذي لا يعرف السلّوان، أنا الأمير الذي هدمت قلعته. أفل نجمي الوحيد، وصدح قيثاري بأنغام الشمس السوداء والملنخولياء...».

ومأساة الشاعر الأديب المرهف الحسّ محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) ابن العلامة أحمد تيمور باشا أشهر من أن تعرّف: فقد ضاق ذرعاً ببيئته الأرستقراطية وعزف عن دراسة الطب، ثم احترف التمثيل وخالط المحافل الأدبية والفنية. ألحّ عليه المرض فقال:

هيّئوا لي في باطن الأرض قبرا ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي ومن النور شقوتي وعذابي...

وقضى في ميعة الشباب.

وذلك الشاعر المصريّ أحمد العاصي (١٩٠٣ ـ ١٩٣٠) الذي قال فيه شوقي:

هذا شباب الشعر يلمح ماؤه من جدول العاصي ومن ديوانه

مرض بداء الصدر وعاش متبرماً بالحياة، غلبته هواجسه فأغلق نوافذ حجرته في مسكنه بالقاهرة وصبّ على نفسه مادة كاوية أودت بحياته.

والأديب الغريب إسماعيل أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) الذي اختلف الناس في سيرته ودراسته، نبغ في الرياضيات وألف في التاريخ الإسلامي والزهاوي الشاعر والإلحاد ونظرية النسبية وعلم الأنساب. أضناه داء السلّ، فلم يجد خيراً من الانتحار غرقاً في ساحل الإسكندرية اللازورديّ.

والشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي (١٩٠٢ ـ ١٩٦٢) رأيناه بيننا غريب الأطوار، عجيب الأخبار، يجمع العنف الى الطيبة وسلامة الطويّة، ويمزج الورع الشديد بالتصوّف والتحلّل، يحبّ الناس حباً أفلاطونياً خالصاً ويحتقرهم ويسيء الظنّ بهم في آن واحد. ولقد طالما شهدناه يجلس في المقهى أو يسير في الشارع متثاقل الخطوات وقد أطلق لحيته وتهدّل شعره على كتفيه ورثّت ملابسه، وهو يحدّق في الفضاء ويرسل الى اللانهاية نظرات شاردة جوفاء.

أما شاعرنا رشيد الهاشمي فقد توفي والده وهو يدلف الى التاسعة، فتركه لرعاية أخويه الكبيرين، ونشأ مرهف الحسّ ثائراً تتوقد بين أضالعه النار وتنطلق في ذهنه العواصف. إنتمى الى الجمعيات السرية الوطنية، وهجا الأتراك مرّ الهجاء. ورغب في التطوّع للقتال في صفوف جيش الثورة الحجازية، ونطق بالشعر الحماسيّ الذي يلهب النفوس ويثير الهمم والعزائم.

رافقته المصائب والأحزان منذ طفولته فخاطبها قائلاً:

نوب الليالي، خفّفي، أو ما سمعت تأفّفي؟
رافقتني طفلاً، وذا زمن الصّبا، فتخلّفي...

ثم تمرّد وقال:

زيدي عداءك، إنّ نور قريحتي لا يختفي
لا تحسبي أني أذلّ ونار عزمي تنطفي

وعاش رهين أسرين فقال:

بين أسرين عشت عيش اضطرار خاضعاً للأجسام والأقدار
تلك للروح قد قضت بالأسار والأخيرات حيّرت أفكاري:
ما نجاتي، وأين أين قراري؟

ظلمات الضلوع تزعج قلبي هي كالليل لا يضيء بشهب
غير أني لما شعرت بحبّ قلت: رفقاً بقلب عبدك، ربّ،
كلّ حبّ مخفف أكداري

آمن الشاعر بالحبّ شعاعاً لمعنى الجمال والخلود، لكن الشكوك ساورته: ما مغزى الحياة، وما الفكر، وما أسرار الوجود؟

يا نياماً تحت التراب، إلا ما لا تحيرون عن سؤالي كلاما؟
أضياءاً رأيتم أم ظلاماً أم رأيتم في نومكم أحلاماً؟
لا تناموا، قد لاح ضوء النّهار.

وقد راعه حال أمته وما بلغته من جهل واستكانة فقال:

يا نائمين على جور الهوان، كفى ذلّ يغادر صدر الحرّ موقودا
هبّوا وذبّوا عن استقلالكم بظبىً تخلّف الدهر مضنى القلب معمودا
لا بدّ للعرب أن تحيا بوحدتها وأن ترى تاجها للكف موسودا

وهاج بلابله الليل البهيم فحدّثه قائلاً:

أيها الليل، يا أبا الأسحار، أين زهر النجوم والأقمار؟

كـــان للبـــدر في ســـوادك ضـــوء ... مـــــلأ الخافقين بـــــالأنـــــوار
كنت، يـــا ليل، عبـده، ولقــد كـان ... مليكـــاً لـــه النجـــوم جـــواري
كـــان يـــوليك رحمة وحنـــانـــاً ... كـــان يكســـوك حلّـــة الأحـــرار

ويشعر، وهو الشاعر الشابّ الذي لا حـول له ولا طول، كأنـه مسؤول عمّا آل إليه أمر أمته وبلاده، فيقول:

دافعـت عن حق قـــومي حيث أنهمُ ... قــد قلّــدوني هـــاتيك المقـــاليـــدا
بمنطـق تـــرك الأسماع واعيـــة ... والـــروح تطلب منيّ فيــه تـــرديـــدا
إنّـــا لقـــوم ورثنـــا الفضـل من قـــدم ... والحلـم والعلم والإخـــــلاص والجودا
جَـدّي الـذي قهـر التيجـان قـاطبـةً ... وشـــاد للعـــرب ملكـــاً ليس محدودا
إنّـــا هجمنـــا على كسرى ودولتـــه ... وبـــدّدت خيلنـــا الأروام تبـــديـــدا

ويعيد النظر في حال بلاده فيصيح:

يـــا للـــرجـــال ويـــا للصيـــد من مُضَرٍ ... ضـــاع العـــزيـــزان: ديـن الله والحسبُ
أين الحميّـــة، بل أين الشهـــامـــة، بل ... أين الشجـــاعـــة والهنـــديـــة القضب؟
أين الأُلَى تـــزأر الـــدنيـــا إذا زأروا ... ويغضب الله والأمـــلاك إن غضبـــوا؟ . .
بغـداد بـاكيـة، والشـــام شـاكيـة، ... والقـــدس مـــرتهب للشرّ مـــرتقب
لا تبخلنّ بـــروحٍ أنت حـــاملهـــا ... فـــالموت، يـــا شهم، في نيل العُلَى ضَرَبُ

ويغضب أخيراً ويثـور فيخاطب ملك العـراق خطابـاً شديـداً ويعاتبـه عتابـاً مراً، فيقول:

يـــا لابس التـــاج في بغـــداد هُنِّتَـــا ... بـــه، إذا كنـت لاستقـــلالـــه جيتـــا
لا يكمل التـــاج إلاّ أن يكـــون لـــه ... جيش يشتّـت شمل الـــذلّ تشتيتـــا
فـــزنـــه بـــالحقّ والعـــدل الأعمّ، ولا ... تـــرصع لـــزينتـــه دراً ويـــاقـــوتـــا
واستعمل الحزم وانقـــذ أمـــة نصبت ... من بعـــد نهضتهـــا لـــذلّ طـــاغـــوتـــا
نحن الـــذيـن بنينـــا في جماجمنـــا ... عـــرش المليـك وثبتنـــاه تثبيتـــا
شيخ الـــوزارة ميـت لا حـــراك بـــه ... إن جئت مجلســه تلقـــاه تـــابـــوتـــا

طغت الهواجس على نفس الشاعر وجثمت على صدره كـالليل الرهيب، فنـاء بها جسمه الواهن ولم تحتملهـا أعصابه المرهقة. وكذلك ذُهِبَ بلبّه وطُوِّح بعقله، وعاش بقيّة عمره في فراغ ذهني، حتى انتقل من ضباب الخبل الى ظلمة الموت.

* * *

في تقرير سرّي للآنسة جرتـرود بل كتبته إثر زيارتها لسورية في تشرين الأول ١٩١٩، حين كـان الأمير فيصل يرأس الحكـم في دمشق، قالت إنها استـدعت رشيـد الهاشمي

الذي كانت تعرفه في بغداد، ثم مضى فجأة الى الشام. قال لها إنه فرَّ من العراق بعد اتهام أخ له بالاتصال بالأتراك.

قالت المس بل إن رشيد وأخاه محمد الهاشمي مناوئان بشدة للأوروبيين، ورشيد يعمل سكرتيراً لياسين الهاشمي. وقد خطب قبل أسابيع فقال إن دجلة ستجري دماً، ولم يصرّح أهو دم عربي أو بريطاني. وعلى أثر ذلك أمر علي رضا باشا الركابي حاكم دمشق بالقبض عليه وسجنه أمداً قصيراً. وقد بدأت علاقة رشيد بالبريطانيين سنة ١٩١٦ في البصرة جاءها هارباً من الترك، فمنحه الإنكليز مخصصات الى ما بعد سقوط بغداد. . .

ولم يحصل بعد ذلك على وظيفة لأن عقله ـ كما قالت المس بل ـ لم يكن ثابتاً وظهر لها كأنه «ضئيل المسؤولية».

إبراهيم منيب الباجه جي

الشاعر إبراهيم منيب الباجه جي ينتمي الى الأسرة الباجه جية المعروفة، وهو ابن أحمد بن محمد سليم بن عبد الرحمن. ولد في بغداد في سنة ١٨٧٦، وأحسن والده تربيته وتعليمه. ثم أدخل إحدى المدارس الابتدائية عهداً قصيراً، ووضع بعد ذلك في دائرة تحرير ولاية بغداد للتمرّن على الأعمال الكتابية (١٨٨٩). وتقدم في سلك الخدمة، ومهر في النظم والنثر باللغتين العربية والتركية. واستقال من الوظيفة سنة ١٨٩٦، وسافر الى استانبول، ثم عاد منها واستأنف العمل في دائرة الولاية (١٩٠٠)، وعيّن أخيراً معاون رئيس التحرير في إدارة الأملاك السّنية.

كان ابراهيم منيب من فتيان زمانه المولعين بالخيل واللهو والغناء. وقد أطلق الرصاص على بعض شباب الملاهي سنة ١٩٠٧، فحكم عليه بالسجن. وسجّل معروف الرصافي تلك الحادثة ـ التي قامت لها بغداد وقعدت ـ شعراً في قصيدة رثى بها القتيل وبرّر فعل القاتل، وقال:

قضى، والليل معتكر بهيم، ولا أهل لديه ولا حميمُ

وأصدر بعد ذلك جريدة أدبية باسم «الرياحين» في ٢٨ آذار ١٩١٣.

واحتلّ الإنكليز بغداد فعيّن إبراهيم منيب مفتشاً في دائرة الشرطة (١٩١٧) أمداً وجيزاً، ثم عيّن كاتباً في وزارة الدفاع (١٩٢١). وأحيل على التقاعد في آخر آذار ١٩٣٧، ثم أعيد استخدامه في تموز من نفس العام لعهد غير طويل.

وتوفي في بغداد في ١١ حزيران ١٩٤٨.

مؤلفاته وشعره :

وضع رسالتين في «التبصرة لمولعي الخمرة» و «نزهة الأحداق في مباحث السباق» ، ورسالة ثالثة باللغة التركية عن رحلته الى الإستانة .

وطبع ديوانه الأول سنة ١٩١٣ ، ثم طبع مجموعة ثانية من شعره باسم «زنابق الحقل» (١٩٣٨) .

ويتسّم شعره بالرقّة والسّهولة ، ويزخر بالمعاني التقليدية والأفكار السائدة في عصره ، فقلّما تجد فيه ابتكاراً أو التماعة ذهنية .

نظر شاعرنا الى طاق كسرى فقال :

بنـــــاء شــــــاده ملك كبير ... دعـــائمـــه العـــدالـــة لا الصخـــور

تســـامى مشمخـــراً بـــارتفـــاع ... لـــــديـــــه كلّ ذي طــــولٍ قصير

كـأني بـــالسماء عليـــه شيـــدت ... كطـــاقٍ حـــولـــه الآفـــاق سُـــورُ

تفـــــرّد في الفـــــلاة ولا أنيس ... ولا خـلّ لـــــديـــــه ولا سمير

تعـــالجه الـــزعـــازع وهـــو راسٍ ... كطـــود لا يـــزول ولا يمـــور

فكـم عصر تقضّى بعـــــد عصر ... ومـــا أبلت معـــالمه العصـــور

ومـــا قـد كـــان شيّـــد فـوق عـدلٍ ... فـــلا تبلي معـــاليـــه الـــدهـــور

ونزعت به نفسه الى المعالي فقال :

طلبت العلى ، لا بـــالحســـام المهنّـــد ... ولكن بـــرأي كـــالسّهـــام مســـدّد

فـأدركتـــــه حتى ملكـت قيـــــاده ... وأصبح عنـــدي وهـــو واحـــد أعبـدي

لقـــد رام إذلالي العـــداة بكيـــدهم ... وهيهـــات من إذلال أروعَ أصيـــد

فإني ، وإن أمسيت في السجـن غـاربـاً ، ... سأشرق بعـد اليـوم كـالشمس في غـدِ

ولا بأس أن أصبحت كـالسيف مغمـداً ... فكل حســام إن مضى الحرب يغمـــد

ومـــا ضرّني سجني وتقييـــد أرجلي ... فعضب لســـاني مطلق دون حُسَّـــدي

حدت به تجاربه في الحياة على العزلة والانفراد فقال :

تجرّد مـــا استطعـت وعـش وحيـــدا ... إذا مـــا رمـت أن تحيـــا سعيـــدا

أرى الإنســـان في دنيـــاه يشقـى ... إذا هـــو لم يعـش فيهـــا فـــريـــدا

وقال على لسان طاق كسرى :

يـــــد الأيـــــام لم تعبـث بمثلي ... وإن أضحـت دوائرهـــا تـــدور

ولكـن قـــد رأيـت العـــدل ولى ... وحـــلّ محلّـــه الظلـم الكبير

فملت الى التـــزهّـــد بـــانفـــرادي ، ... ومثلي يفعـل الــــرجـل البصير

وشعره طافح بالمعاني الإنسانية، فهو يحبّ أمه ويقول:

ولـــدت خليـــاً لست أدري بما عنـــدي | ولم أدر مــــا همّي ولم أدرِ مـــــا قصـــدي
فــأوّل شيء حــلّ قلبي محبّـــــــــة | لأمي التي لم تنأى عنّـي مـــــا يجدي
يـــلاطفنـي منهـــا حنــــان ولم يكن | يقــابلــه مني ســوى الضحك في المهــد
وذاك لـــديها نعمـــة عـــزّ مثلهـــا | تـــراقبهـــا منّي ببـــاصرة الحمـــد.

وهو في قصيدته «في سبيل البؤساء» يأسى للبشرية المتألّمة ويقول:

وافى بـــــدمع ذارف هتّــــــانِ | يشكـــو الــزمـــان وقســوة الخلاّن
شيخ مـــلامح وجهـــه دلّـت على | مـــاضي وجـــاهتــه بكـلّ معـــاني
وعليـــه أطمار تـــراهـــا رقّعت | مـن فقـــره بغــرائب الألـــوان
يمشي فتــوقفــه طــواريء ضعفــه | متعكّـــزاً عـــوداً من العيـــدان
والــوجــه منـه قــد علتــه صفــرة | تحكي هنـــالك صفــرة اليرقـــان

وقف الشيخ يسأل ذليلاً وهو يتضوّر جوعاً، فأخذه الشاعـر الى داره وأتاه بأطايب المأكل والمشرب. ثم استعلم عن حـاله فقال إنـه عاش ستين عامـاً هانئـاً سعيداً، ثم تـوالت عليـه المصائب، فبـارت تجارتـه وبقي بـلا مال ولا ولـد ولا سكن، ونأى عنـه الصحّاب حتى لقد تمنّى الموت فلم يسعفه الموت:

مــا لي أرى الإنســان يقســو قلبـــه | تلقـــاء رقّـــة دمعـــة الإنســــان؟
مــــا لي أرى الإنســـان لم يعطف على | حـــــال الفقير البـــــائس الحيران
أُفٍّ لقلـب لم يـــــرقّ لبـــــائس | لهواً مـن الـــدنيـــا بعيشٍ فـــان

وهو مولع بـالقصص الشعري، ففي قصيدته «إقبال وادبار» يـروي قصة فتاة هيفاء جميلة من الأعراب، نشأت في عز وحشمة بين أبيهـا وأمّها. ثم قضى الأب وقد فتك به خنجـر ظالم شرّيـر أراد خطف فتاتـه. ولم يمض وقت طويل حتى قضت الفتـاة حزنـاً وأسى، فشيّعهـا الشاعـر الى القبر أسيفـاً. وشاء أن يكمـل خطوط المأسـاة فجعل الأم تلقي بنفسها في بئر قريبة من تربة ابنتها، فدفنوا الثلاثة جنباً الى جنب.

إن شعر إبـراهيم منيب يطفح بالألم، لكنـه يذكر أحيـاناً لهو شبابـه وأنسه فيحن الى أيامه السّالفات ويقول:

رعى الله ســاعــات تقضّـت من العمـر | بـــدجلـــة، والأرجـــاء تـزهــر بــالبـــدر
وزورقنـــــــا إذ ذاك طيراً تخالــــــه | يمـــدّ جنــاحيـــه مـن الشــوق كــالنّسر
ودجلـــــة تجري في مـــــذاب مفضّض | يمازجـــــه ضـــوء المقـــاصير بـــالتّبر
يـــــلاعبـــــه نفح النسيم فتنجلي | مـــويجاتـــه عـن نسج درع من الـــدرّ
ويطـــرب سمعي من بعيـــد خـريـــره | إذا انحـطّ من عـــــالٍ الى أسفـلٍ يجري

وتغرق الباخرة «تيتانيك» سنة ١٩١٢، فيتبارى شعراء العراق في رثائها. ويدلي شاعرنا دلوه في الدلاء فيقول:

سرت والبـــــدر في أفق السّماء ... يســـاريها بـأجنحـــة الضيـــاء
سبـــوح تـــزدري بـــالبـــدر زهــواً ... منـــوّرة بنـــور الكهـــربـــاء...
ولما أن نـــأت عـــن كـــل أرض ... ولم تـــرَ غير آفـــاق السّماء
أتـــاهـــا تحت طيّ الماء طـــود ... يطـــوف من الجليـــد على عماء
فشتّت شملهـــا الموصـــول قسراً ... الى مـــا غير وصلٍ والتقـــاء
وأغـــرقهـــا بمن فيهـــا ســـوى مَنْ ... تـــوصّل بـــالسّـــلامـــة للنّجـــاء
وأمسـت وهـي راسيـــة بقعـــر ... مـن الظلماء من بعـــد الـــزّهـــاء
على حين الكـــواكـب زاهـــرات ... ووجـــه البحـــر يشرق بـــالضيـــاء

وكذلك الحياة الى فناء، والكواكب زاهية والطبيعة ضاحكة:

فـــلا عيـــش يـــدوم ولا صفـــاء، ... وهـل بعـــد الحيـــاة ســـوى الفنـــاء؟

حدثني أحمد حامد الصّراف قال: كان إبراهيم منيـب الباجه جي مولعاً بالسباق لا يفوته يوم من أيامـه. وكان حلاّقه يشاركه نفس الهواية، فلقيه يـوماً في الحلبة وسأله عن الحصان الفائز ليراهن عليـه، ودلّه إبراهيم منيب على حصان أو حصـانين فلم تصدق فراسته.

وفي صباح اليوم الثـاني مضى الشاعر كعادتـه الى دكان الحلاق وجلس على الكرسي ليحلق ذقنه. وسلّم عليـه صاحبه هاشـاً باشاً. وشدّ الفوطـة على صدره، ووضع على وجهه الصابون ثم قال:

يا أستـاذ، لم تصدقني البـارحة في سـاحة السباق. لقـد دللتني على الخيل الخاسرة وراهنت على الفرس «الصقلاوية» التي فازت فربحت مبلغاً جسيماً.

واعتذر البـاجه جي بأنـه إنّما دلّه على الخيل المعروفـة، أما «الصقـلاوية» التي راهن عليها ففازت مصادفة، وهو ما يعرف في اصطلاح أهل السباق بـ«فلوك» أي حظّ.

ولم يقنع الحلاق بهذا الجواب، بل ظلّ يجمجم ويدمـدم، وصاح: يا غـلام، هات الموسى «الصقلاوية» لنحلق وجه الأستاذ. قال ذلك وهو يفـرك وجهه بالصابون بحركة عصبية.

وبادر الباجه جي فنزع الفوطة وقام من الكرسي وجرى قائلاً: عفواً، لقد نسيت أمراً مهماً ويجب أن أعود الى الدار. وخـرج الى الشارع راكضاً لا يبالي بالصـابون الذي يلطخ وجهه.

قال الصراف: رأيتـه مضطربـاً فهدأت من روعـه وقلت لـه: ماذا دهـاك، ولم هذا الخوف؟

فأجاب: رأيت الشرّ في عيني الحلاق وحركاته فنجوت بنفسي. ولو ذبحني بالموسى لرقدت تحت التراب مضرّجاً بدمي، مستعجلاً قدري، مبتدراً منيّتي. وهل كان يعزيني أو يخفّف عني أن يقبض على الحلاق ويحاكم ويلقى به في غيابه السجن؟

من شعر إبراهيم منيب الباجه جي

حماسة لا سياسة:

طلبت العلى، لا بالحسام المهنّد ... ولكن برأي كالسهام مسدّد

فأدركته حتى ملكت قياده ... وأصبح عندي وهو واحد أعبدي

لقد رام إذلالي اللئام عداوةً ... وهيهات من إذلال أروعَ أصيد

فإني، وإن أمسيت في السجن غارباً، ... سأشرق بعد اليوم كالشمس في غد

ولا بأس أن أصبحت كالسيف مغمداً ... فكل حسام إن مضى الحرب يغمدِ

وما ضرّني سجني وتقييد أرجلي ... فعضب لساني مطلق دون حُسدّي

فإنّ يراعي مفلق وفعاله ... لدى الحرب أمضى من فعال المهنّد

وإني بآرائي على الرغم منهُمُ ... بنيت مقاماً فوق نسر وفرقد

فإن يقدروا فليهدموا ما بنيته ... وأنّى لهم لمس الكواكب باليد

سيعرفني قومي إذا سلّ صارمي ... وراح جوادي سابقاً كلّ أجود

فإنّي مقدام وفارس نجدة ... إذا الحرب شبّت كنت أوّل منجد

وإني كطود في الثبات لدى الوغى ... وإن ماد سطح الأرض لم أتميّد

وإني ذو سلم لكل مسالم ... وحرب لأعدائي ولست بمعتدي

وإني أراعي للصديق ذمامه ... كراعي السُّهَى وجداً بجفن مسهّد

وإني على عهد الصديق محافظ ... وإن خان يوماً لم يخنه تودّدي

وإني مقيل للكريم عثاره ... إذا جاء في ذنب بغير تعمّد

وإني حليم دون ذي الجهل عالماً ... بأنّي إن أغفر له الذنب أُحْمَدِ

وهذا يراعي ناطق عن حقيقتي ... ومالي سواه من فخار وسؤدد

قضى الباجه جي في السجن أعواماً حتى أطلق سراحه بعفو سلطاني سنة ١٩١٣. ومما قاله في الحبس عند نشوب حرب طرابلس:

وذي عزمات أوقفته الموانع ... فظلّ يدكّ الأرض وهو يمانع

يروم حراباً بين مشتبك القنا ... لنصر ربوع زعزعتها الزعازع

فيمنعه سدّ فيفزع صارخاً ... وتنهلّ مثل السّحب منه المدامع

يروم السُّرى نصراً إليها بنفسه ... ولكنّما سدّت عليه الشوارع

لقد سدّها كفّ من الدهر ظالم ... فأقعده عمّا نوى وهو جازع

وقال في السجن أيضاً:

أمـا والـذي في صنعـه حيّر الفكـرا	لفي السجن مـا ينسي القيـامـة والحشرا
تـرى النـاس فيـه في ازدحـام وضجّـة	فمـن مـرتـجٍ يسراً ومن مشتـكٍ عسرا
يقـاسـون أنـواع الهوان بمـوقف	تحكّم فيـه العبـد واستعبـد الحّرا
ولا تحسبـنّ القبر أقـوى مـرارةً	من السجـن، لا لا والـذي فلق البحـرا

فاضل الصيدلي

الشـاعر فـاضل حامـد المعـروف بالصيـدلي، ولد في الموصل سنـة ١٨٨٢، وتعلّم الصيدلة في استانبـول دار الخلافة. ودرس اللغات العربية والتركية والفـارسية والكردية وشدا شيئاً من الفرنسية.

وقد عيّن صيدلياً في نجد، ثم عاد الى العراق، فأسندت إليه وظيفة كتابية في بغداد، واختير من بعـد مديـراً لبعض نـواحي قضاء سنجـار. وعيّن في المعهـد الوطني مفتشـاً صحياً في الموصل، وعمل صيـدلياً في الجيش في الموصل وبغـداد وكركـوك والسليمانية، حتى استقال في سنة ١٩٢٧. وعيّن كاتباً للضبط في مجلس الأعيان (١٩٢٨)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٣٣. وعـاد الى الموصل ملازماً للعزلـة، منصرفاً الى الشعر والأدب حتى توفي فيها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٩.

مال فاضـل الصيدلي الى الشعر يافعاً. وأصـدر في سنة ١٩١١ كرّاساً بـاسم «بدائع الأفكار» باللغتين العـربية والتركية. ونشر ديوان شعره في دمشق بعنوان «هـدية الأحرار» (١٩٢٧)، ونظم بعـد ذلك شعراً كثيراً لم ينتظم في مجمـوعة. وكـان له شعـر غزليّ كثير أحرقه حين اعتنق مذهب التصوّف.

قـال فيه إبـراهيم الواعظ: «تعـرّفت بـه فعرفت فيـه الروح الأبيّ والـوطني المجاهـد والأديب الكامل والشاعر الذي أخلص لأمته ووطنه إخلاصاً منقطع النظير».

وقال عنه ذو النون أيّوب: «. . . مـؤمن متديّن الى حدّ التعصّب، متزمّت متمسّك بالقوالب الأخلاقيـة تمسّكاً لا يقبل تأويلاً ولا تعليلاً، كاره للتجديـد الذي يجد فيه كل الجراثيم التي سبّبت انهيـار هـذا المجتمع وتفسّخه السيـاسي والاجتماعي والأخـلاقي، وذلك طبيعي جداً عنـد من حبس نفسه في داره بعد أن يئس من إمكان تبـديل الفاسد وتقويم ما اعوجّ من أمر هذا البلد».

وقـال محمد تـوفيق حسين أستاذ التـاريخ العربي في جـامعة بيروت الأميركيـة: «ولم يسعد في حيـاته العائليـة فحوّل حياة العائلـة كلها شقاءً. ولم يسعـد في حياته العـاملة فانسحب من معترك الحياة مخفقـاً بائساً. ولم يسعـد في آماله الأدبية. . . ورأى آمـاله في

الحياة وآراءه الدينية والوطنية تتهاوى مندحرة، فحزن وابتأس وعاش شقياً».

وقال مجيد شوقي البكري في تقديم ديوانه «هدية الأحرار»: «فهو لم يكتب إلا ما شعر ولم يعرب إلا عن هاجس، وما انقاد في كل ما كتب، (اللهم غير الغزل والنسيب اللذين هما مسرح الخيال وفاكهة الشعراء) إلا لإحساسه وقلبه السليم. وليس له رائد إلا الإخلاص، ولا قصد إلا وجه الله وخدمة الوطن والدين فالأخلاق فالانسانية».

شعره

كان فاضل الصيدلي من أوائل شعراء الموصل الذين تأثروا بالنهضة الأدبية الحديثة، فترك الأساليب القديمة وسار على نهج الزهاوي والرصافي وحافظ وشوقي وأندادهم. وقد نظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية، واستنهض الهمم المتقاعسة، ووصف الأدوية والقطار والسيّارة والسينما وكرة القدم. ووضع الأشعار الروائية على لسان المعتصم وموسى بن نصير والمقوقس صاحب مصر والأرمانوسة وعمرو بن العاص وغيرهم من الشخوص التمثيلية.

وقد عدّ الصيدلي رسالة الشعر رسالة خلق وهداية فقال:

ألا إن شعراً ليس يدعو الى هدى ... فذلك شعر لا يقام له وَزْنُ

لكن بيانه كثيراً ما يقصر عن شأو شعراء النهضة الحديثة البارزين.

رأى أهوال الحرب العظمى التي فتكت بالبشرية سنة ١٩١٤ فقال:

لقد فاجأتنا بالمصائب والردى ... ليالٍ تردّت بالمكايد والغدر

فليت الذي قد حلّ فينا من العنا ... بأعدائنا، بل بالليالي وبالدهر

فيا ليت شعري، ما يكون مصيرنا ... وماذا لنا قد أضمر الدهر من نُكُرِ؟

فإن كان خيراً فالمراد، ولم أخل، ... وإن كان شراً فالزمان أبو الشرّ

وإنّا لفي يوم تشيب لهوله ... نواصي الرزايا السّود لو أنّها تدري

وإنّا بهذا اليوم في وسط لجّة ... فإمّا الى قعر وإمّا الى قفر

وإمّا حياة بعد موت مريئة ... وإلاّ فمن قبل الممات الى القبر

وأنكر على الإنسان عدوانه على أخيه الإنسان وخوضه غمار الحرب الطاحنة فقال:

ألا هل ترى الإنسان قد فقد اللُّبّا ... إذ اختار غير الخير واستهل الصّعبا

طغى فبغى واستبدل الغيّ بالهدى ... فجرّ على أبنائه الويل والكربا

لماذا، لماذا ذي الرجال تطاحنت، ... وما ذنب هاتيك النساء التي تُسْبَى؟

لِمَ البغي والعدوان في غير طائلٍ؟ ... ألا شاه وجه الحرص كم أمّة أصبى...

ونعى على المجتمع ضعة الأخلاق ورواج النفاق فقال:

شكـــوت لصـــاحـب إدبـــار حظّي | لــدى أهل الـــزمـــان، وكـــان حـــاذق
وقلت لـــه: اهـــدني، جـــوزيت خيراً، | الى نهج السلـــوك، فقـــال: نـــافق!
فجئت الســـوق، ســـوق العصر، أبغي | نفـــاقـــاً أشتريـــه ولـــو بـــدانق
رأيت النـــاس قـــد حـــامـــوا عليـــه | جميعـــاً بين مسبـــوق وســـابق
فلـم أظفـــر بشيء منـــه، لكن | تيقّنت النفـــاق اليـــومَ نـــافق

وقد آمن بالعزة، والإباء والكرامة، فلنستمع إليه يقول:

إنما العيش عـــزة وإبـــاءُ | وعلى العيش دون ذَيْـن العفـــاء
والـــذي يبتغي الحيـــاة صفـــاءً | ليس تطفي أوامـــه الاقـــذاءُ...
فحيـــاة الانســـان علم وعـــز | وحيـــاة الانعـــام تبن ومـــاءُ

ومـــا لـــذّة الحيـــاة في مـــذهبـــه؟

لـــذة العيـــش صحـــة وشبـــاب | واقتنـــاع مـع التقى وكتـــاب
وكفـــاف وكـــفء زوج لهـــا مـــن | نعمـــة العلـــم والخـــلاق نصـــاب

وقد هوى الشعر فقال:

إني ليطـــربني السماع فـأسكـــر | ويـــروقني نظـــر الجمال فـأشعـــر
ويميـل قلبي للغـــرام مـع الصبـــا | فـأروح نشـــوانـــاً بـــه أتبختر
فـــالشعـــر لهوي والمحـــاسـن لـــذتي | والصـــوت كأسي لست عنـــه أصبر
فـأظل أشـــدو كـــالهزار مغـــرداً | بـــرقيق وصـف كـــالمدامـــة يقطـــر

ودعا الى العلم والنهوض فقال:

طـــلول العلـم والعـــصر الخـــوالي | ويـــا عهـــد المفـــاخـــر والمعـــالي
ألا يـــومـــاً لنـــا بـــين الليـــالي | رجـــاء في تـــلاقٍ كـــالمحـــال

فيرجع فيـــك جـــيد العيـــش حـــالي؟

وصـــالاً منك، يـــا علم، جـــديـــدا | وعـــد عَـــوْداً ولا تَعـــدِ الـــوعـــودا
بحقـــك لا تضـع فيـــك النشيـــدا | وبـــدّل نحس طـــالعنـــا سعـــودا

فنـــدرك صبحنـــا قبل الـــزوال...

بهجرك شرقنا أمسى ظلاما وأضحى الغرب فيك لنا إماما
مشينا القهقرى ومشى أماما ويا ليت اقتدينا حين قاما

لسعي فيه قد بلغ المعالي . . .

متى هذا العراق يقرّ عينا ونجلو عن نُهانا فيك رَيْنا
فبادر قبل أن يُقضى علينا جعلتُ بذمّتي إن عدتَ دينا

بأن أقضي بخدمتك الليالي

هام الصيدلي بحبّ وطنه وقومه فندب تأخرهم وطلب لهم اليقظة والمجد والحرية والعلى، ونظم في ذلك قصائد كثيرة. قال:

أيشرب الغير برداً من مواردنا ونحن نشربها حَراً وغِسْلِينا؟
أعيذ قومي، وقومي من عرفتهُمُ، من أن يساموا على الإذلال توطينا
يا آل يعرب، نَهْضاً للرجوع الى عهود مجد لنا أضحت تنادينا
لقد كفانا رقاد ملء أعيننا فإنّ هذا التواني كاد يُرْدينا
واهاً لأيامنا الغرّ التي سلفت متى تقرّ بلقياها مآقينا؟

وقال:

وطني، كيف، والحبيب حبيب، لك أسلو أو عن هواك أتوب؟
كيف أنسى منك الأيادي وفضلاً له منّي بكل عِرْقٍ دبيب؟
كيف أجفوك، والجفاء عقوق، وأنا في حمى ثراك ربيب؟
وطني، أنت ملجأي وملاذي وشفائي في علّتي والطبيب
عقدت بينك الولاء وبيني فطرة حرّة ودين صليب

وقال نادباً:

تولّت عن حِمانا المكرُماتُ فلا صدق هناك ولا ثبات
وساد على النفوس هوى الأعادي لحبّ الذات، فلتهنا العداة!
تعالى الله، يا قومي، لماذا وحتّى مَ التهاون والسّبات؟
هدمتم مجد آباءٍ مَشيداً فمن يبني وقد عدم البناة؟
بنوكِ، بنوك، يا أوطان، خانوا فمن يحمي إذا سرق الحماة؟
لقد عاد العراق غريب قوم فلا أهل تقيه ولا رعاة
وأضحى العرب عُرْضَة كل رام وأمسى العرب ليس بهم رماة
وصار الشرق مطمح كلّ عين ولا عين تردّ ولا رُقَاةُ

بمـن تثق المواطـن بعــــد هـــذا وقــد خــانت بــذمّتهـا الثقــات؟
فـلا تــذكــر أبــاة الضيم يــومــاً لــدى ضيم فقــد رضي الأُبــاة

وقد بكى شاعرنا الحق الهضيم فقال :

قضـى الحقّ إلا مــا بــه يُتمطّق وأخلق ثـوب العـدل أو كــاد يخلق
فـلا العهـد مسـؤول ولا الشرط أملك ولا الـوعـد مفعـول ولا القـول مـوثق
يقـولـون : نبغـي الحقّ ، والفعل عكسه ، فقلت : كـذبتم ، هـا هـو الفعل أصـدق
يقولـون : نقضي العدل ، والنقض ظـاهر ، ولـو سكت الأشهـاد فـالحال ينطق
ومـا رزىء الأقـوام تـالله رُزْءَهُمْ بمـوت حقـوق دونها النفس تـزهق

***

الشقاء والصيدلي :

وسم الشقاء شـاعرنا الصيدلي بميسمـه ، فرافقه رفقة العمـر وناء بأثقاله وأوصـابه . ولقـد وصف الشاعـر الفـرنسي ألفرد دي فنيي (١٧٩٧ ــ ١٨٦٣) Alfred de Vigny الشقاءفي قصيدة له فقال :

«يجوس الشقاء خلال المدائن الباهتة ، وقد لاذ بأذيـاله شبح الانتحار العاقّ ، يرقبنا على عتباتنا الوجلة طالباً فريسته .

فيسمع الشباب المنغمس في ملذّاته ويتأوّه ويذبل ريعانه ، ويهبط الشيخ الى قبره كما تسقط أوراق الشجر ، وقد حرم الجذوة التي تنعشه وتغذّيه .

«أين المفرّ؟ لقـد جلس الشقاء ذات يوم على عتبة داري ، وأنا أحملـه منذ ذلك الحين في غضون أيامي المكفهّرة .

«تلك أجنحته المفجعة تطبق عليّ كالرداء القاتم ، في وهج الشمس وغيابة الدياجي وفي كلّ صقع ومكان . تلفّني ذراعاه الجشعتـان بآلامها ، وتشهر يداه الـدّكناوان المدية على فؤادي . . . »

ونظم الشاعر الإنكليزي توماس غراي (١٧١٦ ـ ١٧٧١) Thomas Gray نشيداً الى الشقاء ، فخاطبه قائلاً :

«أيها الشقـاء ، ذو الحول والطول ، مـروّض القلـوب البشرية ، يـا من يخيف الأشرار بسوطه الحديدي وساعته الرهيبة ويبتلي الأخيار الطيّبين . . . » .

ووصفـه بأنـه يربـط بسلاسلـه المتجبّرين فيـذيقهم طعم الألم ويترك الطغـاة لابسي الأرجـوان بئنّون ، وقـد عصرت الغصص أرواحهم عصراً ، لا يـرحمهم أحد في وحـدتهم القاسية .

ثم يبتهل الشاعر الى ربّة الشقاء ويسألها أن تسبغ على قلبه الرّقة لا الجروح والكلوم، وأن توقد شرارة النّبل المنطفئة في أعماق ذاته، وأن تلقّنه المحبّة والصفح والغفران، وتستلّ شوائبه ومعائبه ليعرف نفسه رجلاً.

أمّا شاعرنا الموصلي فتغنّى بالبؤس والشقاء في أكثر من قصيدة. قال:

خلقت، ويا ليت لم أخلق، لكل شقاء، ومن للشقي؟
تطاردني عاديات الخطوب ولو أنني لذت بالأَبْلَقِ
سئمت الحياة وعبء الحياة وصرت من الموت لا أتّقي
حياة مضت كلّها مُرَّةً وهيهات تحلو بما قد بقي
فحظي استعار سواد الشباب ولون ضميري دهى مفرقي
شباب تولّى بلا طائل وغصن تدلّى ولم يورق
ولكنّما أثقلته الهموم فأوهت قواه فلم يبسق..
ولي طالع أين وجّهته أبى أن يعود ولم يُخْفِقِ
وأحلام سؤل تعلّقتها ولكن بها الكفّ لم تعلق
وليس طِماحي لمال ولا منالٍ له لست بالشَّيِّق
ولكن لما لم يَحُمْ حوله سواي وفي العصر لم يَنْفُق
ونُصرة حقّ وقوم ودين وخُلْق أراه على مَزْلَق

وقال:

سئمت حياتي بعد فقد شبابها ولو تشترى بالموت كنت أبيعها
حياة الفتى عام به الصيف والشّتا حروراً وبرداً والشباب ربيعها
إذا ما انقضى عهد الشباب تقلّصت ظلال حياة ثم أقوت ربوعها
على أنني ما فزت في لذّة الصبا ومرّت حياتي بالهموم جميعها

وقال:

يا عيش، إنك نُكْرُ فهل لذنبك عُذْرُ؟
إن لم تكُ الموت حقاً فأنت منه أَمَرُّ
إن كان بعضك خيراً فإنّ جلّك شرّ

وقد رأى النحس حتى في طلعة القمر، فقال:

أطلّ علينا البدر جذلانَ ضاحكاً يبشرّنا بالنحس والويل والشَّقَا
فلا كنت، يا شهر الفجائع، طالعاً ففيك قضت آمالنا ولك البقا

ساء ظنّه في الناس والإنسانية فقال:

بلـــوت النّـــاس حتى ســـاء ظنّي بكـل النـــــاس حتى فيَّ نفسي
وعـــاشرت الأنـــام فشبت غماً لما قـــد مـــرّ من عجب بـــرأسي
وكـــدت أمـــوت من أسف وحـــزن ومـــا أغنى التصبّر والتأسّي
وصرت أودّ لـــو آنست جنـــاً وأنفـــر وحشـــة من كل إنْسِي
وأخجل مطـــرقـــاً لّما أراني بأن القـــوم من أبنـــاء جنسي

لقد ساء ظنه حتى في نفسه، وقال نظير ذلك محمد رضا الشبيبي:

كلّنـــا يطلب مـــا ليس لـــه كلّنـــا يطلـــب ذا حتّى أنـــا

وضجّ الصيدلي بالشكوى من سقوط الأخلاق وموت الفضيلة وانتشار الرذيلة فقال:

هـــوت رفعة الأخـــلاق للهـــوّة السّفلى فيـا ويح قـومي للـــرزيّـة، واويـــلا
أضلّـــوا طـــريق الحق والـــرشـــد حينما أحبّـــوا على بـاقي الثنـا عـرضـاً يبلى؟
أضاعـــوا نُهاهم مـــذ شروا بـالهدى الهوى وبـالجهل بـاع العلم أكثرهم جهـلا
وعن كـرم الأخـــلاق زاغـــوا، فما تـرى لها أثـــراً في العصر فعـــلاً ولا قـــولا

حتى يقول:

وإني لأزري بـــالحضـــارة عنـــدمـــا أراهـــا أذاعت بيننـــا الغشّ والغـــلاّ

وقال في قصيدة أخرى:

مـــات الـــوفـــاء وخـــانت الإخـــوان وتلـــوّنـت في طـــورهـــا الأزمـــان
وتقلّبت ظهـــــراً لبطـن مثلـــــه أهـل الـــزمـــان فإنّهم أقـــران
لهفي على خـــالي العصـــور وأهلهـــا مـــا كـــان أعلى شأنـــه الإنســـان!

وقد بلغ من ريبته وسوء ظنّه أنه حذّر القمر قبل أن يغزو الإنسان القمر، فقال:

إن رمت تسلم فـــاغـــرب، أيّها القمـــر، فقـــد نـــوى لك شراً، ويحك، البشر
جاســـوا خـلال نـواحي الأرض قـاطبـةً فـــدمّـــروهـــا وظنـــوا أنهم عمـــروا
واليـــوم مـــدّوا شبـــاكـــاً للسماء لكي يـــرمـــوك في شرك الأنكـــاد، فـــالحذر

وقال:

ليلي وليلك، يـــا بـــدر الـــدجى، سهـــر هـل أنـت مثلي معنّى، أيها القمـــــر؟
هل غـــازلتك لحاظ الغيـــد من بُعُـــدٍ فـــــراح يعبث فيـك الكحـل والحَوَر؟
أم قـــد دهـــاك هـــوى الغـــزلان أم سلبت قـــرارك الـــوجنـــات البيض والطّـــرر؟
أم هـــاج وجـــدك ألحان البـــلابل في ريـاضهـــا أم شجـاك العـــود والـــوتـــر؟

أم أنت تعشق من ذي الشهب جارية ... وحال بينكما التغريب والسفر
أم أنت مثلي من الأيام في نكد ... فصرت تطلع حيناً ثم تستتر

وكذلك نرى شاعرنا قد افتقد البهجة والهناء ولم يجد صديقاً يبثّه ألمه وشجاه، فخاطب القمر وباح له بأسراره:

هيهات، يا بدر، ما ليلي كليلك في ... صفو، ولكنّ ليلي كلّه كدر
أبيت منفرد الهجران محتجباً، ... وأنت حولك تزهو الأنجم الزُّهُرُ
وأنت تمرح في علياءَ واسعة ... وإنني رهن ضيق فيه أنحدر
وإن هوى لك نجم بتَّ مكتئباً، ... فما أقول وفي قومي هوى القَدر؟

أحبّ الصيدلي التمثيل المسرحي فقال:

إنّ للماضين روحاً تنجلي ... ما لها غيب وإن هم غُيّبوا
إن للغيب لمرآةً بها ... يُجْتلى منه الحجى والأدب
وهي التمثيل والفنّ الذي ... ليس عنه غائب يحتجب
فهي من جدّ علوم وحجى ... ما بها هزل يُرى أو لعب
وهي النزهة للنفس، بها ... يُجتنى أنس ويحلو طرب

ووصف كرة القدم قائلاً:

كمروق السّهام بعد السّهام ... وانقضاض الرجوم من أجرام
ترتقي للفضاء شوطاً وتهوي ... مثل صقر يخرّ فوق حَمَام
كرة حوّم الرماة عليها ... ترتميها الشبّان بالأقدام
بين خطف وبين جذب ودفع ... واقتحام وحملة وازدحام
بين كرّ وبين فرّ وزحف ... واستباق وخلفة والتحام
حيّرتها الأضداد أين تولّي ... وجهها من تقاذف واصطدام
ذا ليُمْنَى وذا ليُسرى وهذا ... للوراء يرمي بها وأَمام
لا تكاد الأنظار تثبت فيها ... لمرور بسرعة الأوهام
أو خيال الأديب عند ارتجال ... أو كطيف الحبيب في الإلمام
أو كقلبي من الوجيب وجيفاً ... واضطراباً لكربة أو سقام

ووصف فوّارة ماء فقال:

وفّوارة ترمي بقضبان فضّة ... من الماء يعلو للفضا ويرفرف
ويخرج كالسّلك النضيد مُسَلْسَلاً ... ويلوي كمنثور اللآلي ويعطف

إذا صعّــدت فهي السّهــام صــواعــداً وإن هبطت فهـي الثـــواقب تقـــذف
فما هــو إلاّ اللــؤلـؤ الـرّطب ســاقط على الأرض نثـــــراً حين يهدي فيرجف

وهذا الوصف قد جاء على طريقة ابن المعتزّ العباسي الذي قال في الهلال:

أنظـــر إليــــه كـــزورق مـن فضـــة قـــد أثقلتـــه حمولـــة مـن عنـــبر

وقد سئل ابنِ الـرومي لِمَ لم يبلغ في تشبيهاتـه مبلغ ابن المعتز، فأجاب: واغـوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ما عـون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أيّ شيء أصف؟ . . .

ونظم فاضل الصيدلي في الغزل والنسيب، لكنه طـوى هذا الباب من شعره في عهد كهولته وعفا عنه، وكان تشبيبه مصنوعاً لا عاطفة فيها ولا حياة، فممّا قاله:

واعـــدتنـــا بـــوصلهـــا الحسنـــاء ثـم لم يعقب الـــوعـــود وفـــاء
تصـل الليل بـــالنهـــار وعـــوداً فصبـــاح يمضي ويأتي مســـاء
ولنـــا الـــوعـــد والـوفـــا لسـوانـــا قسمـــة مـــا قضى بها الإفتـــاء
نحن همنـــا بحسنهـــا فحـــرمنـــا ثم فـــازت بـــوصلهـــا الـــرقبـــاء
وأتت مـن تشـــاء قـــربـــاً ولقيـــا وكـــذا تمنـع اللّقـــا مـن تشـــاء
أنفتنـــــا وآلفـت بهواهـــــا لأنـــاس مـــا هـم لها أكفـــاء
قـــاضي الحبّ، هل يجوز لـــديكم مثـل هـــذا؟ إذن فبئـس القضـــاء
أنـــا أهـــوى والـــوصل يجنيـــه غيري فعلى العشـق، إن يكـن ذا، عفـــاء

وقال:

يـــا حمى ليلى، ويـــا أهل الحمـى، كيف ليلى، هـل تـــراعـي خلّتي؟ . . .
قـــاتـل الله وشـــاة بيننـــا فلكـم قـــد سلبـــوا من نعمـــةِ
ليـــت ربي في الهوى أوقعهـــم ليروا كـم للهـــوى مـن غصّـــة
لـــوعـــة الـــوجـــد وتبريح الهوى ولظـى العـــزل وحـــرّ الغيرة
وتصـــاريـف زمـــانٍ لم يـــزل كـلّ يـــوم بـــارزاً في محنـــة

وقال:

أمـن الحور أم ظبـــاء الفـــلاة أم سراج يضيء في الظلمات؟
غلط القـــائلـــون عنهـــا فتـــاة، أيّ شيء يعنـــون؟ أيّ فتـــاة؟ . . .
هـي شمس، وفي الملاحـــة بـــدر، وهي الـــريـم، وَيْكَ، في اللّفتـــات
ودعـــا حسنهـــا الأنـــام ينـــادي: أيّها النـــاس، فـــانظـــروا معجـــزاتي

الموصل والربيع :

وصف شعراء العرب فصل الربيع في مختلف عصورهم وأجاد الأندلسيّون في ذلك أيّما إجادة لجمال رياضهم وسناء طبيعتهم وشغفهم بالماء والخضراء. ولم يقصّر المشارقة في ذلك، فقال صفّي الدين الحلّي :

ورد الربيع فمرحباً بوروده	وبنور بهجته ونَوْر وروده

وقال أيضاً :

خلع الربيع على غصون البان	حللاً فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدَّوْح حتى صافحت	كَفَل الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوّجت هام الغصون وضرّجت	خدّ الرياض شقائق النُّعمان
وتنوّعت بُسُط الرياض، فزهرها	متباين الأشكال والألوان
والظلّ يسرع في الخمائل خطوه	والغصن يخطر خِطْرة النشوان . . .

وقد كان لشعراء الموصل القدح المعلّى في وصف الربيع والتمتّع بحسنه ومباهجه، ولعلّ مردّ ذلك لبرد صقعهم، فيقبع أهل الموصل في دورهم طوال الشتاء، حتى إذا ما حلّ فصل الربيع، اكتست البرّية المحيطة بالمدينة والمطلة على دجلة بالورود والأعشاب وخرج إليها أبناء البلد زرافات ووحداناً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، للنزهة والاستجمام واجتلاء محاسن الطبيعة، يعقدون مجالس الأنس واللهو البريء على بُسُط الحشائش السندسية ويتلذّذون بالغناء والموسيقى تحت قبّة السماء الزرقاء بين خرير الماء وحفيف الشجر. وصف شعراؤهم مجالس الربيع ومآدبه وتغنّوا بالطبيعة التي نضت عنها سربال الغيث والصقيع والضباب، كما قال الشاعر الفرنسيّ القديم شارل دورليان Charles D'Orléans (١٣٩١ ـ ١٤٦٥م) في مقطوعته الربيعية اللطيفة :

«إنّ الزمان قد خلع رداءه، رداء الريح والبرد والمطر

وائتزر بوشاح مطرّز من السماء الساطعة الصافية الجميلة .

ولم يبق من حيوان ولا طير إلاّ تغنّى بلغته وصاح . . .

وقد لبس النهر والغدير والجدول حلّة أنيقة موشّاة باللّجين والنّضار، وجدّد كلّ شيء لباسه . . . »

ومن شعراء الموصل المحدثين الذين وصفوا الربيع أحمد الفخري ومحمد حبيب العبيدي. ومنهم شاعرنا فاضل الصيدلي الذي قال في تحيّة فصل الزهور:

بسم الربيع بزهره ووروده	فأقرّ عين الكون عند شهوده
وشبيبة الأيام عادت غضّة	فرحاً بإدبار الشتا وجموده

فـالـروض يـزهـو في بـديـع حليّـه ... والنبت يمـرح في بهاء بـروده
والطير بـالألحان غنّى مطـربـاً ... والـورد حـرّك عُـودَه لنشيـده
والغصن والأوراق هـذي صفّقت ... واهتـزّ ذا طـربـاً بكلّ وجـوده
والشمس فـوق الـورد ألقت نفسهـا ... شغفـاً لترشف من رحيق خـدوده
والنـرجس الـزاهي تطلّع شـاخصـاً ... من كُمّـه بعيـونـه وبجيـده
كبّرت إذ شـاهـدتـه متخـاشعـاً ... متـواجـداً بـركـوعـه وسجـوده

وقال من قصيدة أخرى :

مـا لهذا النسيم هـبّ عليـلاً ... وأتـى وانيـاً يجرّ الـذيـولا؟
ليـت شعـري أزهـوةً واختيـالاً ... أم سقـامـاً بـه دعـاه كليـلا. . .
إنّ فصل الـربيع ـ طـال بقـاه ـ ... لَهُوَ العيش لـو يعيش طـويـلا
فيـه تحيي الأرض الموات فتُـزهَى ... فهـو ينفي العنـا ويفني المحـولا
هـو سرّ الأزمـان والـدهـر، لكن ... غير خـافٍ معنى بليغـاً جليـلا
هـو بيت القصيـد في العمـر، فـاصدع ... ثـم رتّل آيـاتـه تـرتيـلا
غـرّة الـدهـر، شـامـة الحَوْل، فيـه ... عـاد طـرف الـزمـان أحـوى كحيـلا
مـا أحيلى الـربيع في العيش، لـو دام، ... وإن كـان دومـه مستحيـلا

ثم يقول :

يـا زمـان الـربيع، أنت شبـابي ... وشبـاب الأيـام جيـلاً فجيـلا
أنت أوفى مـن الشبـاب ذمـامـاً ... كـلّ عـام تـردّداً ومثـولا
أنـت تأتي فتـوسع الأرض خصبـاً ... ورواءً وبهجـة وبقـولا

ولئن كان ربيع الموصل فصل السرور والزهـور، إنّ خريفها حزين يحمل النفس على الأسى والانقباض. وقد قال الصيدلي في ذلك :

تسـاقطت الأوراق وانتثـر العقـد ... فـلا شـاعـر يهفـو ولا طـائر يشـدو
إذا القيظ ولّى والـربيع تقـوّضت ... خيـام لـه فـالعيش وجهـه مُسْـوَدُّ
ويبـدو محيـاً للطبيعـة كـالح ... عبـوس كئيب قـاحـل سبطـه جعـد
ويكشف عن سـاقٍ بـه الـروح حـاسراً ... هـزيـلاً نحيفاً أو هـو العظم والجِلْـدُ
ويغبّر وجـه الجدّ كـالأرض كـاسفـاً ... فتبكي السّما وجـداً، ومـا إنْ بها وجـد
فـلا الأفـق بسّـام ولا الشمس تـزدهي ... ولا نـورهـا فـوق البسيطـة ممتـدّ
تـولّى شبـاب للطبيعـة زاهـر ... يليـه مـن الثلج المشيب لَـدُنْ يبـدو

إنّ حياة الشاعـر الصيدلي كانت كهذا الخريف الموصلي الذي أجاد وصفـه، تناثرت أوراقـه وتصوّحت أزهـاره وصمتت عنادلـه بعـد التغريـد والغناء، فـلا عجب أن ودّع الأرض غير مشفق ولا آسف، يرجو في الموت أملاً لم تجد به الأيام.

عرف من أبناء الشاعر فاضل الصيدلي عبد الحق وأكرم.

عبد الحـق فـاضـل

الأديب القاصّ اللغـوي الدبلومـاسي عبد الحق ابن فاضل الصيـدلي ولد في الموصل سنـة ١٩١١. تخرّج في كليـة حقـوق بغـداد، ووظف أمـداً في وزارة الماليـة (١٩٣١) ومديرية الأوقـاف العامة. ثم عاد الى الموصل ومارس المحامـاة، وكان رئيس تحرير مجلة «المجلة» التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٨.

إلتحق بـالسلك الخارجي فعيّن ملحقـاً في المفوضيـة العـراقية في طهـران (١٩٤٥) فملحقاً أول في مفوضيـة آنقرة (١٩٤٦) فمفوضية كابل (١٩٤٨). ونقل سكـرتيراً ثالثاً في طهران أيضـاً (١٩٤٩) فسكرتيراً ثـانياً في مفوضيـة روما (١٩٥٤). وأعيـد الى ديوان وزارة الخارجية سنة ١٩٥٧ مـديراً عاماً للشعبة الشرقية. عين بعـد ثورة ١٤ تموز وكيلاً لوزارة الخارجية فسفيراً في بكين (١٩٦٠)، ولما سقط حكم عبد الكريم قاسم فصل من منصبه في نيسان ١٩٦٣.

مضى الى المغـرب وانصرف الى الدراسـات اللغويـة. وعاد الى بغـداد بعد نحـو ٢٠ سنة، وتوفي بها في كانون الثاني ١٩٩٣.

أصدر مجمـوعات قصصيـة: مجنونـان (١٩٣٩) فرح ومـا أشبه (١٩٤٠) حـائرون (١٩٥٨) طـواغيت (١٩٥٨). وله أيضـاً: ثورة الخيـام (١٩٥٢) ٤ نساء و٣ ضفـادع (مسرحية، ١٩٦٨) مغامرات لغوية (١٩٦٨) الخ.

الدكتور أكرم فـاضـل

أكرم فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنـة ١٩١٨ ودرس في مدرسة الصناعة، وعين معلم مدرسة ابتدائية في بعض القرى. ثم مضى الى بغداد ودرس في كلية الحقوق. وقد أولع منذ حداثتـه بالأدب الفرنسي المترجم واللغة الفرنسية فـدرسها على نفسه. وأوفد في بعثة دراسية الى باريس فدرس الحقوق في جامعتها وحصل على درجة الدكتوراه.

كان حيناً مـا كاتباً في محاكم الموصل. وعيّن أخيراً مديراً للفنون والثقـافة الشعبية في وزارة الإعلام في العهد الجمهوري فقضى في منصبه أعـواماً طويلة، وأشرف على إصدار مجلة «بغداد» بالفرنسية.

أدركته الوفاة ببغداد سنة ١٩٨٧ .

أصدر مجموعة شعر بعنوان «الكوميديا البشرية» (١٩٤٨) . وله كتب منها : مأساة الشعب الجزائري (١٩٦٠) . وقد اشترك في ترجمة رواية «الآباء والبنون» لإيفان تورغنيف (١٩٥٠)، كما ترجم الى العربية : يا لحياة المنفى من مهنة شاقة للشاعر التركي اليساري ناظم حكمت (١٩٥٩)، اللقيطة للسيدة لوسيت توفيق (١٩٦١) الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ ـ ١٩١٤ للسفير الفرنسي بيير دي فوصيل (١٩٦٨) أسطورة الشعب المختار (١٩٦٩)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٩٧١) . وله أيضاً : تعليقات على لهجة بغداد العربية للويس ماسّنيّون (١٩٦٢) .

أكرم فاضل شاعر خفيف الروح إنسانيّ النزعة يرى العالم كله مهزلة ، فجعل عنوان مجموعته «الكوميديا البشرية» . لكن هذه «الكوميديا» في الحقيقة تخفي في طياتها «دراما» بل مأساة . وأبطال شعره البخيل والغانية والضحية والراقصة والحلاق والفلاح والحمّال والشحاذ والفنانة البائسة ، فضلاً عن دون جوان الجاري وراء الحبّ ومحاكمة الهررة والحظوظ بين المعدمين والمتخمين ومهزلة الغرام ودموع البائسين .

خاطب القارىء في مقدمة شعره :

أيها القارىء، هذا ديدني	فارضَ أو لا ترضَ، فالأمر سواء
وإذا ما هجت أحسنت الى	شاعر يهوى هياج السخفاء
وإذا لم تستسغ لفظي ولم	تتقبّل فكرتي دون عناء
فاطرح «الديوان» واعلم، يا أخي،	أنني لا أستضيف الثقلاء . . .

كان شاعرنا رقيق القلب يحنو على البائسين ويتألم للمتألمين أشخاصاً وأمماً . وبلغ به الحال أنه كاتب مجلة فرنسية تختصّ بالغجر البوهيميين . وقد نظمتُ قصيدة في الغجر فطلب منّي ترجمتها الى الفرنسية وأرسل بها الى تلك المجلة لنشرها .

قال ذنّون أيوب في مقدمة «الكوميديا البشرية» مقدماً صديقه الناظم إنه «شاب صغير السنّ، رقيق المزاج، تضيق نفسه ويضيق عقله وحسّه بكل ما في الوجود من قيود، فينطلق على سجيّته بعض الأحيان ثائراً متجاهلاً كل عرف وتقليد، ثم ينتبه فجأة كما ينتبه المرء من حلم فيدرك أنه قد اشتطّ في سلوكه ، فينكص على عقبيه خائفاً خائباً تعباً . . . » ثم قال : «إني أعتقد أن أكرم من أولئك الذين لا يتقصدون أن يكونوا شعراء، ولكنهم يجدون أنفسهم شعراء، فيندفعون مع الشعر محاولين أن يثبّتوا لهم قدماً فيه ويقطعوا شوطاً في مضماره» .

وقال إن شعره ليس من النوع الذي يرتفع الى السماء السابعة ليشرف على العالم من عليائه ويعطي نتائج قطعية جازمة في الأخلاق والسلوك ومصير البشرية وعلل العالم،

بل يزحف على الأرض محتكاً بالمخلوقات الزاحفة مثله من حيوان وانسان، فيتبادل معها العواطف والإحساس بل والآراء أيضاً! فما أكثر ما نراه في شعره «مشاهداً» في محكمة عقدت لعقاب القطط أو محامياً عن شحاذ أو متآخياً مع كلب... وهو بذلك صوفيّ بطبعه، لكن شطحاته مع المخلوق لا مع الخالق.

محمّد علي اليعقوبي

الشيخ محمد علي بن الشيخ يعقوب الحاج جعفر النجفي، الشاعر الخطيب، ولد في النجف في ٢٩ شباط ١٨٩٦، وكان والده الشيخ يعقوب شاعراً (١٨٥٤ ـ ١٩١١)، ولد في النجف وتوفي في الحلة. وقد حقق ابنه ديوانه ونشره سنة ١٩٦٢.

وانتقل والده الى الحلة سنة ١٨٨٣ إثر نزاع وقع بينه وبين إخوته على وقف لهم في النجف، وكان لهذا الاغتراب أثر عميق في نفس الشاعر الشيخ فقال:

تغرّبت عن أرض الغريّ، فلم تكن ... تقرّ عيوني أو تطيب حياتي

حبست ركابي عندها اليوم بعدما ... أذبت عليها النفس بالزفرات

مواطن آبائي بها وأحبّتي، ... وفيها مغاني أسرتي وسراتي

فمن تربها أصلي ومبدأ نشأتي، ... وأرجو بها مثواي بعد وفاتي

ونشأ الفتى محمد علي في الفيحاء وأخذ عن والده مبادىء علوم العربية والدين، حتى إذا ما أدركته الوفاة سنة ١٩١١، انقطع فتانا الى السيد محمد القزويني الذي أحسن تربيته وتهذيبه. ثم خرج الى قرية جناجة على ضفة الهندية اليسرى واتصل بمحمّد حسن أبي المحاسن وأفاد منه فوائد جزيلة في الشعر والأدب. ولمانشبت الحرب العامة التحق بالمجاهدين في الشعيبة تحت لواء السيد محمد سعيد الحبوبي (١٩١٥). وعاد اليعقوبي الى النجف سنة ١٩١٧ بعدتنكيل الأتراك بقيادة عاكف بك الأرناؤوطي بأهل الحلة، واشتهر خطيباً من خطباء المنبر الحسيني وداعية من دعاة الإصلاح الديني. وظلّ يتنقل بين الحيرة والكوفة حتى استقرّ في النجف، وتولى رئاسة جمعية الرابطة الأدبية فيها في كانون الأول ١٩٣٦. وتوفي بالنجف في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٥.

كان الشيخ محمد علي اليعقوبي شاعراً مجيداً عرف بقصائده الوطنية التي أشادت

بـذكـر العـرب من الـريف والجزائر الى العراق وفلسطين، ولـه ديـوان خـاص بمأسـاة فلسطين. وكان الى ذلك عالماً بتاريخ الأدب، اشتهرت خـزانته بما ضمته من كنوز أدبية مجهولة تصدّى لنشر بعضها في أعوامه الأخيرة.

شعره وأدبه:

نشر ديوان الشيخ محمد علي اليعقوبي سنة ١٩٥٧، ومن آثاره الأخرى «البابليات»، وهي مجموعـة أدبية تاريخية في ثـلاثة أجزاء (١٩٥١ ـ ١٩٥٥). ولـه «المقصورة العليّة» (في سيرة الإمـام علي ١٩٢٦) «وعنـوان المصـائب» (في مقتل الإمـام علي ١٩٢٩) والذخائر (في مدح آل البيت ١٩٥٠) وجهاد المغرب العربي» (شعر، ١٩٦٠).

وقـد حقق ونشر دواوين كثيرة، منهـا: الجعفـريـات (شعـر جعفـر القـزويني، ١٩٥٠)، ديوان الشيخ عبـد الحسين شكر (١٩٥٥)، ديـوان الشيخ عبّاس الملا علي (١٩٥٥)، ديوان أبيه الشيخ يعقوب (١٩٦٢)، ديوان الشيخ محمد حسن أبي المحاسن (١٩٦٤)، ديوان الشيخ صالح الكـواز (١٩٦٥)، ديوان الحاج حسن القيّم (١٩٦٥) الخ. وترك في خزانتـه دواوين شعرية أخرى لم يهيّأ له طبعهـا، منها: ديوان الشيخ مير رشيد الهنـدي، وديوان سبط ابن التعاويـذي، وديوان صادق الفحـام، وديوان الشيخ علي الناصر.

وعرف اليعقـوبي بارتجال الشعـر وسرعة البديهة وحـدة الذاكـرة والظرف والفكـاهة المشوبين بالحشمة والوقار.

ويتّسم شعر اليعقوبي بنزعة إنسانية، فقد نشأ بين الشعب وعاش في أنديتهم وشارك في سرّائهم وضرّائهم، فلا عجب أن رثى لحال فقيرهم ومـريضهم وجاهلهم. وممّا قـاله في ألم الفقر ووطأة المرض:

يـا شعب، مـا أكثـر هـذا العنـا	من هـاهنـا طـوراً ومن هـاهنـا
قـد علقت فيـك، ولا منقـذ،	مخالـب الفقـر ونـاب الضّنـا
خطـب عظيم الـوقـع، لكنـه	يـراه مـن لم يعنـه هيّنـا
ألمّ كـالضيـف ثقيـلاً، أمـا	آن لهذا الضيـف أن يظعنـا؟
في مـدن الشعـب وأريـافـه	مـا شطّ منهـا نـائيـاً أو دنـا
مـا أكثـر الشـاكين، لـو أنهم	تمكنـوا أن يطلقـوا الألسنـا
مـن يَـرَ أهليك ومـا نـابهم	لم يَـرَ إلا منظـراً محزنـا

وكم لــــذي الفقـــر بجنح الـــدجى
من لـــوعــــة مـــا ذاقهـــا ذو الغنى

مستعــــذبـــاً من دون آلامــــه
ورد المنـــايـــا، وهـي أقصى المُنَى

يكتم مـــا فيـــه لفـــرط الإبـــا،
والبـــؤس يبـــدي سرّه معلنـــا...

يـــا مـــوطنـــاً كنّـــا سعـــدنـــا بـــه
دهـــراً فـأضحى للشقـــا مـــوطنـــا،

حملت أعبـــــاء الخطــــوب التي
تكـــاد منهـــا الهضب أن تـــوهنـــا

تئـنّ من سقـم ومـن فـــــاقـــــةٍ،
هـل غـــايـــة الحالين إلا الفنـــا؟

ومن شعره في رثاء يوسف رجيب:

مـــا مـــرّ ذكـــر أولي المكـــارم والـــوفـا
ألاّ وكنت لـــذكـــرهم عنـــوانـــا

أولسـت في الأحـــــداث أربـط منهُـمُ
جأشـــاً وأثبت في الخطـوب جَنَـــانـــا؟

لـك نفس حـــرّ للعلى وثـــابـــة
تستصغـــر الأهـــوال والحدثـــانـــا

كم مـــوطـن قـــد كنت أشجـع واقف
فيـــه وكـــان سـواك عنـــه جبـــانـــا

لا قستُ فيـك معـــاشراً لم يعـــرفـــوا
للفضل مقيـــاســـاً ولا ميـــزانـــا

العـــابـــدين هيـــاكـــلاً منصـــوبـــة
كـــالجاهليـــة تعبـــد الأوثـــانـــا

جهلـــوا مبـــادئك التي مـــا شـــابها
دنس، فكنـت أجلّ منهـم شـــانـــا

كم محنــــة في الشعـب غضّـــوا دونها
طـرفـــاً وكنت السّـــاهـــر اليقظـــانـــا

فمضـــوا وسلطتهم مضـت في إثـــرهـم
وبقيـت أنفـــذ منهمُ سلطـــانـــا

وتـــركت دنيـــا لم تـــدع من وفـــرهـــا
إلاّ الثنـــا والمجـــد والإحســـانـــا

وقال في رثاء سعد زغلول:

يـــا مصر، مـــا لصبـــاح شعبك حـــائل؟
غـــربت ذُكَـــاك وبـــدر سعـــدك آفل

يـــا مصر، مـــا نـــزلت حِماك كهـــذه
طخيـــاء جـــاء بها القضـــاء النـــازل

عصفـت على مصر فمالـت دهشـــة
هضب الشـــآم لها ومـــاجت بـــابل

مـــا خصّ هـــذا الـــرزء شعبـك وحـــده
لكنـــه لشعـــوب يعـــرب شـــامل...

فجعـت بنـــــوك بمنقـــــذٍ ومحرر
وأب يكـــــافـح دونها ويـنـــــاضـل

ذهـب المؤمّـل والـــــزعيـم المرتجى
فـــاستيأس الـــراجي وخـــاب الآمل

حتى يقول:

يـــا قطـب دائرة السيـــاســـة كلما
طـــاش الحليم بها وحـــار العـــاقل

مـــا قمت عـن مصر تجادل وحـــدهـــا
بـل عـن جميـع الشرق قمـت تجادل...

إن تمضِ فـالشرف الـذي خلّـدتـه | بـاقٍ وذكـرك في حيـاتك كـافل
أو يخلُ منك بمصر أكـرم منـزل | فلك الخواطـر والقلـوب منـازل
ولأن طُـويتَ فقـد نشرت صحـائفـاً | عنـوانهن منـاقب وفضـائل
خلّفت بعـدك أمـة أيقظتهـا | للعـزّ، ليس بها نـؤوم كـاسل
نهضت بأعبـاء نهضت بها ومـا | وهنت لها عـن حملهـنّ كـواهل
مـا مـات من بقيت بأنـديـة العلى | تثني عليـه أواخـر وأوائل

***

ومن لطيف شعر اليعقوبي :

من عـادة النّاس لـلأصنـام تعبـدهـا ، | من حطّـة النـفس لا مـن رفعـة الصّنم

ولا أنسى سفـرة لطيفـة الى النجف وربوع الفـرات قمنـا بها في شتـاء ١٩٥٠ برفقـة الصديقين أحمد حامد الصّراف ومصطفى جواد، ثم صحبنا الشيخ محمد علي اليعقوبي الى كـربلاء . كـان الطريق وعـراً غير معبّـد ، كثير الغبار تثيره عجـلات السيّارة فيمـلأ الخياشيم ويعلق بالـوجوه والثياب ، لكننا قضيناه نستمع الى لطائف اليعقـوبي وبدائعه الشعرية والنثرية ، حتى بلغنا مدينـة الحسين ولم نكد نصدّق أننا قطعنا تلك المرحلة ولم نشعر بمزعجـاتها . ولعلّها كانت المرة الوحيـدة التي رضي فيها الصّراف أن يفسح لغيره مجال الكلام فلا يحتكره ويستأثر به على جاري عادته .

إشتهر محمد علي اليعقوبي خطيباً من خطباء المجالس الحسينية ، وكان يقيم في بداءة أمره في بلـدة الحيرة المعروفـة باسم «الجعـارة» . ثم علت شهرته وانتقـل الى النجف سنة ١٩٢٩ أو بعيـدها وصـار ينافس أبـرز خطبـاء ذلك العهد وهـو السيد صـالح الحلّي . وتطرق جعفـر الخليلي في الجزء الثاني مـن كتابه «هكـذا عرفتهـم» الى ذكر المنـافسة بين الخطيب المخضرم والخطيب الناشىء ، فقـال إن نجم السيد صالح بدأ بـالأفول ، وبدأ نجم اليعقوبي بالصعود ، على الـرغم مما كان يوجهه الحلي اليه من نقـد وتنديد وصراحةً وكنايـة . فقد كان السيـد صالح ـ كما قـال الخليلي ـ سليط اللسـان جريئاً يخشـاه أجرأ العلماء . وكان اليعقوبي مسالماً عفّ اللسان بعيداً عـن اللمز والغمز، ولذلك لم تبد منه ولا كلمة شائنة في حق السيد صالح وإنما كان يظهر عليـه باطلاعه الواسع ووقوفه التام على التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب : فقد كان اليعقـوبي موهوباً ، وكانت له ملكات طبيعية ممتـازة نماها وصقلها أبـوه الشيخ يعقوب الـذي كان هو الآخـر من خطباء المنبر الحسيني البارعين .

وقال الخليلي إن اليعقوبي عرف بسعة الاطـلاع والعلم والظرف والأدب وصوغ النكتة وسرعة الخاطر، كما عرف بارتجال الشعر وصناعة التاريخ المنظوم . ويزخر شعره بالبديع من الجناس والتورية والأمثال والتضمين يرسله عفو الخاطر بلا تكلف ولا تعقيد . ومن

طرائفه أنه هجا شاعراً تنقَّص المتنبي فقال :

يـا هـاجيـاً ربّ القـوافي «أحمـداً» بلـواذع مـن قولـه وقـوارص
حسبـي وحسبـك في جوابـك قولـه : «وإذا أتتك مـذمّتـي من نـاقـص»!

ابراهيم أدهم الزهاوي

الشاعر إبراهيم أدهم بن الحاج صالح بن المفتي محمد فيضي الزهاوي، ولد في بغداد في ٣٠ كانون الأول ١٩٠٣، ودرس في مدارسها الابتدائية ثم حضر دروس عبد المحسن آل بكتاش وقاسم القيسي وأمجد الزهاوي. وانتمى الى جامعة آل البيت وتخرّج فيها سنة ١٩٣٠. وقرض الشعر صبياً، فبرّز فيه تبريزاً حتى لقد أمل عمه جميل صدقي الزهاوي أن يكون خليفته.

كان عنيفاً في وطنيته وتدّينه، غريباً في أطواره، متقلّب النوازع والأهواء، فحفلت حياته بالمآسي والمناقضات والآلام. وقد اشترك مع عبد الستار القراغولي في طبع ديوان صديقهما نعمان ثابت عبد اللطيف باسم «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابه «الجندية في الدولة العباسية» (١٩٣٩). ووظف كاتباً في وزارة الشؤون الاجتماعية (كانون الثاني ١٩٤٠) فلم يطق قيد الوظيفة طويلاً وتوفي ببغداد في ١٥ آب ١٩٦٢.

ألّف كتاب «إبطال اللانهاية في الفلسفة» (١٩٤٧). وجمع شعره عبد الله الجبوري وطبعه في القاهرة بعنوان «اللهفات» (١٩٦٩).

شعره :

له شعر وطني واجتماعي متين، شديد اللهجة.

فمن شعره الوطني :

لنـا مثلها للغـاصبين سـواعـد فما بـالنـا عـن مجدنـا لا نجـالـد؟
وأيّ حيـاة هـذه فنلـذّهـا لأيسر منهـا يشتهي الموت خـالـد
وإنّـا لفي عصر تيقّـظ أهلـه فـأدرك معنـى العيـش حتـى الخرائد
فـلا تطمعنّ الغـرب فينـا فنـونـه فما هـي إلا رغبـة وعـوائد
لنـا أصلهـا النـامي، وهل من عجيبـة إذا انتقلت منـه إلينـا الـزوائد؟
فنحن الألى لـولا نتـاج عقـولنـا لما كـانت الـدنيـا على مـا نشـاهـد
لئن قـابلـونـا بـالإسـاءة والأذى فما عـرفـت غير العضـاض الأسـاود

جـــزى الله عنّـــا الحادثـــات فإنها تقـــارب مـــا بين الـــورى وتبـــاعـــد
فيثبت ودّ بين شعبين خـــــالص ويمحـــق ودّ بين شعبين فـــاســـد
فـــلا يـــرتجوا مـــن بعـــد هـــذا ودادنـــا لقـــد خـــابت الآمـــال والترك شـــاهـــد
خـــرجنـــا عليهـــا وهـــي منّـــا قـــريبـــة إن اختلف الأصـــلان فـــالـــدين واحـــد
فهل وضعـــت أغـــلالها عـــن رقـــابنـــا لتخلفهـــا أغـــلالهم والمقـــاود؟
فأيـــن ادّعـــاءات لهم يـــدّعـــونها : أتلك ثعـــابين وهـــذي قـــلائد؟

ومنه :

يـــا بني العـــرب، والحروب سجـــال، والليـــالي بمن تحطّ تقـــوم
وحـــدوا وحـــدوا الصفـــوف ولا تستـــ ـــصعبوا السهل فهـــو خلـق ذميم
لا تميّـــزكم الـــديـــار ولكـــن لغـــة الضـــاد والنّجـــار الكـــريم
فهـــي لـــولا تخاذل الســـائسيهـــا لم يفـــرّق مـــا بينهـــا التقسيم

وقال :

أنـــا الـــداعي الى أمجاد قـــومـي أذكـــرهـم عهـــود الأوّلينـــا
وأدفـــع عنهـــم طعـــن الأعـــادي فأتـــرك شلـــو طـــاعنهم طعينـــا
أعـــدّد منهمُ بيض الأيـــادي على أهـــل البسيطـــة أجمعينـــا
فكـــل يـــد لهم جحـــدت سنـــان تـــراه بقلـــب جـــاحـــدهـــا مكينـــا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر:

هـــي الأعمار أثـــواب تعـــار وأوقـــات تـــزور ولا تـــزار
وأيـــام تـــديم النحس حتى تســـاوى الليـــل فيهـــا والنهـــار
تغير خطـــوبها في النـــاس تترى ومـــا غير النفـــوس لها مغـــار

حتى يقول :

كـــذا الـــدنيـــا شـــؤون الـــدهـــر فيهـــا شـــؤون في مجاريها بحـــارُ
لحاهـــا الله لم تترك عليهـــا مكـــانـــاً يجتبى فيـــه الجوار
فملـــك العجـــم مغبّر النـــواحـــي وملـــك العـــرب أنـــذره البـــوار
فـــلا أمـــر الجزيـــرة مستقـــرّ ولا قطـــر العـــراق لـــه خيـــار
ولا حكـــم الجزيـــرة في بنيهـــا ولا في الشـــام لـــلأحـــرار دار
فقـــد أمســـوا حيـــارى في ديـــار شعـــار القـــاطنين بها الصَّغـــار

تنيلهم – إذا طلبوا – العوالي ... وتخبرهم – إذا سألوا – الشّفار
وتلك دماؤهم نادت نزاراً ... فما لبّت لها الدعوى نزار
ووادي النيل لم يفتأ مضيماً ... يهدّده إذا وثب الدمار
وفارقه الزعيم فزاد كرباً ... على كرب وتمّ له الخسار
سرت بنعيّه الأنباء حتى ... أذاعتها المفاوز والبحار
فضّج لها بقاع الشرق حتى ... خشينا أن تشبّ بهنّ نار
وقيل: دم الحقوق، حقوق مصر، ... أُمِيرَ وسعدها ذاك المهار
ولو غير الزمان رماه نالت ... مناها من حشاشته الشفار
ولكن دهره أخنى عليه ... فلم يؤخذ لها فيهنّ ثار. . .

وكان سيء الظن بالناس، يراهم يميلون الى الشرّ، يحفلون بالغنيّ ويظلمون الفقير والضعيف، لا يخضعون إلا للقوة القاهرة ولا يتمسّكون إلا بأهداب الغيّ، ويسعون الى المنافع ويغترّون بالمطامع. فإذا جادوا بالمال أو طلبوا العلم قصدوا التباهي والتعالي والتفاخر. وهم يثيرون الحرب تارة باسم الدين وطوراً بحجة نشر العلوم والفنون وإحياء المكرمات وجمع الشتات:

محال، وإن خيل في الممكنات، ... ركون الأنام الى الصالحات
خلا نفراً شذّ في طبعه ... فكاد يعدّ من المعجزات
وقد يخرج الحيّ من ميّت ... وقد يخرج الميت من ذي الحياة
فرفقاً بنفسك أن تستغرّ ... بماء يساق لأرض موات
فما الناس مزرعة للصلاح ... ولا معدن الفضل والطيّبات

***

كتب إبراهيم أدهم الزهاوي في سنة ١٩٣٦ كلمة خطية موجزة يترجم فيها لنفسه بضمير الغائب، قال منها:

«إبتدأ ينظم الشعر وعمره ١٧ أو ١٨ سنة، ولو قرأ العربية قبل ذلك لنظم الشعر قبل هذه السنّ. وهو شديد النقد لشعره، لا يثبت منه إلا ما جزل لفظه وحسن معناه. وينظم في كل زمان ومكان، وأكثر ما ينظم في المقاهي، ولا يبالي بما يكون حوله من الضجيج، لأنه لا يحسّ به أثناء النظم لاستغراقه فيه. وهو لا يكتب شيئاً مما ينظم حتى تتمّ القصيدة، فيكتبها حينئذٍ بنفسه أو يمليها على أحد معارفه. وأحب الشعراء إليه من المتقدمين أبو الطيب المتنبيّ، ومن المتأخرين أحمد شوقي، ولا يقدم على المتنبيّ شاعراً، ويحفظ كثيراً من شعره، ويعتبره أستاذه. وفي ذاك يقول من قصيدة طويلة

ترجم فيها المتنبيّ :

أنت علّمتني نظام القوافي أنت أعليت في البلاغة كعبي
لم يحل بيننا التراب، وأنى للثرى أن يغيب بالمتنبيّ

وهو شديد الولع بمطالعة الكتب القديمة والحديثة، ولا تكاد تراه إلا ومعه كتاب يطالعه، ويرى في ذلك سعادته. وهو لا يحب الظهور ولا يسعى له، لأن حب الظهور عنده رياء، والرياء من أقبح خلائق الإنسان وآلامها، لأنه غشّ، ومن غشّنا فليس منّا. وقد حرق شعره مرة وصمّم على ترك نظم الشعر، فلم يلبث طويلاً حتى عاد إليه، لأن الشاعر غير مختار في نظم الشعر، ولو ظنّ أنه مختار بحسب الظاهر، بل ليس في الكون كله حركة اختيارية إذا أمعنت النظر ولم تنخدع بالظواهر. والنثر عنده أفضل من الشعر، لأنه الأساس الذي قام عليه رقيّ البشر، والله لم يخلق الإنسان إلا للرقيّ، وليس في استطاعة الشعر أن يقوم مقامه، بل متى تورّط في ذلك خرج عن أن يكون شعراً. ويرى أن النثر العربي قد بلغ في هذا العصر شأواً بعيداً من الجودة لم يبلغه الشعر، إلا فيما خلّده شوقي من الآيات البيّنات. ولا يرى في ذلك عيباً على اللغة ولا قصوراً منها، لأن الشاعر من مواهب الطبيعة تهبه متى تشاء، وقد تشحّ الطبيعة بالشاعر النابغ وتتمادى في شحّها أجيالاً كثيرة وعصوراً متطاولة».

قال حسين الظريفي :

«. . . . والمرحوم إبراهيم أدهم الزهاوي كان معجباً، بل كلفاً، بشعر المتنبّي، فتراه متأبّطاً ديوانه في كل آنائه، وإني لأعجب كيف لم يحفظه مع طول قراءته له، كما كنت قد حفظته في صيف العام قبل الماضي وكما حفظه أخوه عبد الرزّاق الزهاوي.

«إن بين المتنبّي والزهاوي أكثر من شبه واحد، وقد انعكست هذه المشابه في شعر الرجلين. وهي مشابه موروثة لا يد فيها لأيّ منهما. وإن وقائع الحياة التي يمرّ بها الإنسان تتولّى ما انتقل إليه إرثاً من الآباء والأجداد بالصقل آناً وبالطمس آناً آخر، بحسب ما تكون عليه تلك الوقائع من تفاعل مع المواريث تفاعلاً موجباً أو غير موجب.

«وأول هذه المشابه تلك الشخصية القوية التي يتأثر بها القارىء تأثراً يصل به الى عمق الانفعال، فتراه مأخوذاً ببريق ما يقرأه وكأنه يركض به في فهم المعنى الطافي على وجه ألفاظه فهماً مبهراً، ومن ثمّ يكون مؤثراً، حتى إذا تكرّرت النظرة ظهر له في ما يمكن أن يحمل عليه من مأخذ. . .».

وأضاف حسين الظريفي أن المتنبّي سلك في شعره كله طريق الغوص على المعاني أولاً، ثم إيجاد القوالب الشكلية لها بعد ذلك، مستجيباً فيما قدم وأخّر الى نداء الطبع فيه. وكذلك فعل إبراهيم أدهم الزهاوي، فإنّ المعنى الطافي على وجه شعره يكاد

يخطف البصر. ولكن متى انتهت الهزّة الأولى وأعاد القارىء أو السامع مع النظر في البيت إعادة الناقد الهادىء، تبيّن له أن وراء ما عليه من طلاء ظاهر باهر شيئاً يستوقف النظر. . . (جريدة التآخي، في ٩/ ٣/ ١٩٧١).

وكتب عبد القادر البراك عن إبراهيم أدهم الزهاوي فقال: «إن الزهاوي الصغير كان من الكتاب المقتدرين وقد تجلّت قدرته الكتابية وأحاطته بالعديد من العلوم العقلية والنقلية في الفصول التي ردّ بها على آراء عمه الشاعر المتفلسف المرحوم جميل صدقي الزهاوي في الفلسفة والفلك والكون وغير ذلك مما تضمّنه كتابه «المجمل مما أرى». . . كما سبق له أن نشر مقالات في الدفاع عن الشعر العمودي يوم انطلقت الدعوات الى الشعر المرسل والشعر المطلق والشعر الحر في مطلع القرن الحالي، فكان بحق أول المدافعين عن عروض الخليل والذابّين عن اتهامه بعدم وفائه بالتعبير عمّا استجدّ من أغراض الشعر الحديث. هذا إضافة الى المقالات العديدة التي ناقش بها فيلسوف الفريكة أمين الريحاني حول ما تضمنّه كتابه «قلب العراق»، والمقالات الأخرى في الملل والنحل والمعتقدات والتي يعتبر كتابه «إبطال اللانهاية» المطبوع في القاهرة في أواخر الأربعينات من أهم نماذجها».

هذا وقد جمع عبد الله الجبوري ديوان شعر إبراهيم أدهم الزهاوي وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٩ مع دراسته بقلم الدكتور شوقي ضيف.

عبّاس الخليلي

الشاعر الأديب العراقي المغترب في إيران عباس بن أسد بن المولى علي بن الخليل الطبيب الطهراني الأصل، المتوفى سنة ١٨٦٤ في النجف.

قدم الخليل الذي تنتسب إليه الأسرة الى العراق في نحو سنة ١٨٠٠ ومارس الطب وعمّر زهاء مائة سنة. واشتهر ابنه المولى علي (١٨١١ ــ ١٨٨٠) عالماً زاهداً بلغ رتبة عالية في الاجتهاد وألف خزائن الأحكام وسبيل الهداية وغيرهما من كتب الفقه والأصول. واشتهر أيضاً الشيخ حسين الخليلي الذي انتهت إليه الزعامة الدينية بعد وفاة السيد حسن الشيرازي، وتوفي سنة ١٩٠٨ عن نحو تسعين عاماً.

ولد عباس الخليلي في النجف سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها، وقرض الشعر وهو شاب يافع. وقد اشترك في ثورة النجف الأولى على الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ ـ وهي الثورة التي قام بها الحاج نجم البقال ــ فحكم عليه بالاعدام، ولكنه استطاع الهروب والاختفاء في الآبار حتى بلغ إيران آمناً. وأقام عباس الخليلي في طهران، وأصدر فيها جريدة «إقدام» الفارسية اليومية، فظهرت أكثر من عشرين عاماً حتى سنة ١٩٤٨. وأبعد عن البلاد الإيرانية سنة ١٩٣١، فجاء الى بغداد وأقام فيها بضعة

أشهر، ثم سمح له بالعودة الى طهران.

وقد وظف في دائرة بلدية طهران، ثم كان وكيلاً لدائرة القوانين في وزارة العدلية فرئيساً لها. وعمل في وزارتي الداخلية والخارجية، ثم عيّن في سنة ١٩٤٨ سفيراً لإيران في الحبشة واليمن، وكان بعد ذلك عضواً في لجنة مصايد أسماك بحر قزوين.

قال حين فرّ من العراق:

رويداً، رجال الإنكليز ورأفةً ... إن اليوم أسرفتم فإنّ لنا غدا...

ثم التفت الى أبناء وطنه يحييهم قائلاً:

يحيّيكم، أهل العراق، على النّوى ... فتى في سبيل المجد أمسى مشرّدا
تحيةَ عانٍ كلما هبّت الصَّبا ... ينوح كما ناح الحمام مغرّدا
إنِ اليوم أطلقت اللسان بحبكم ... فبالأمس عنكم قد سللت المهنّدا

وهو كاتب باللغتين العربية والفارسية وشاعر عربي نشرت قصائده مجلة المقتطف والهلال والعرفان الخ.

ومن شعره بعنوان «الرائد»:

أبثّك ما بي من جوى يقلق الصمّا ... يجيش إذا ما رائد الأمل احتمّا
وأخشى على نفس بجنبك حرّة ... إذا بحثت أن لا تحمل البثّ والهمّا
جوى كلما أخفيته عنك يلتوي ... على القلب صّلاً أرقماً ينفث السمّا
رعى الله قلباً قلّبته يد الهوى ... على الجمر إن سار الظلام رعى النجما
تحيّر بين الحبّ والمجد تائهاً ... فمن جانب عفواً ومن جانب رغما

وقال حين عاد الى العراق سنة ١٩٣١:

قبّلت منك بعيني الأرض لا بفمي ... وجفّ دمعي فروّاك الحشا بدمي
عفّرت بالترب وجهي إذ سجدت ضحى ... فناب للسعي رأسي فيك عن قدمي
وكاد ينطق طرفي بالسّلام على ... أرض العراق فهذي أدمعي كَلِمي
ما الدمع واللفظ إلا لؤلؤ رطب ... خلطت منتثراً منه بمنتظم
رضعت فيك لبان المجد من صغر ... فلست حتى الردى عنه بمنفطم...

توفي في طهران في ١٠ شباط ١٩٧٢.

وضع مؤلفات عديدة ونقل الى اللغة الفارسية تاريخ ابن الأثير وكتاب «ضحى الإسلام» لأحمد أمين الخ. وترجم الى العربية ١٧ ألف بيت من شاهنامة الفردوسي. ومن مصنفاته: إيران بعد الإسلام، إيران والإسلام، الخ.

وكانت آخر قصائده «اللوح» نظمها قبيل وفاته، قال في مطلعها:

مـــا على الصبح لـــو أزال الإزارا فمحـــا الليـل ثم خـطّ النهـــارا
بمـــداد من عسجـــد ويـــراع من شعـــاع الشمس استمـــدّ النّضـــارا
وبسفـــر زمـــرّدي وكـفّ مـــن لجين تنمّـق الأسفـــــارا
هـي كفّ الفجـــرالتي لاح فيهـــا رمـــز خطّ تمحـــو بــه الأسحــارا...

قال من قصيدة نظمها بعد فراره الى إيران سنة ١٩١٨:

أمـــا وغمام يشبـــه الظلم أســـودا ورعـد حكى قصف المدافع بـالصّـدى
وبــرق يــرينـا ومضــه الحقّ خــافقـاً، فسرعــان مــا يخفى عن الطـرف إن بـدا
وغيث همى هطــلاً يـذكّـرني الـوغى يمثّل رشــاشـــاتها تمطـــر الـــردى
وأفق على فقـــد السيـاسـة صـدقهـا جـــداداً بمســـودّ من الفشـل ارتـــدى
وعــاصف ريـح مـرّ كـالموعـد الـذي لنــا ضرب «السكـون» نـاهيك مـوعـدا
وليل هـــو الحكـم الحديـديّ حــالك قضـى لي قهـــراً أن أبيـت مسهّـــدا
يمينــاً، ولم يقسم فتـى قبل بـــالـــذي وصفـت ولكنّـي حلفـتُ تعمّـــــدا
لقــد صبغـت منّــا الــدّمـا كـلّ بقعـة زهت فبـدت غنّــاء في أعين العِـــدَى

عبد الكريم العلاّف

الشـاعـر الأديب، نـاظم الأغـاني الشعبيـة، عبـد الكـريم بن مصطفى بن سلمان العلاف العزّاوي، كان أبوه مصطفى العلاّف ينظم الشعر وله تواريخ منظومة بحساب الجُمَّل. ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٤ ودرس على الشيخ عبد الـوهاب النـائب. ومال الى الأدب ونظم الشعـر منذ فجـر شبابـه، فقـال أولى قصائده في مـدح أستاذه النـائب، ومطلعها:

رعـــى الله صبـاً عنـــّفـــته عـــواذلــه وشطّت بـــه نحـــو البعـــاد منـــازلـــه

وكـان من شعـراء الثـورة العـراقيـة سنـة ١٩٢٠، ألقى قصـائد حماسيـة في جـامع الحيدرخـانة والاجتماعات الـوطنية. ثم فـرّ الى مضارب عشيرته العـزّة وسجن في دلتاوة (الخالص).

وعيّن سنة ١٩٢٦ كاتباً في دائرة المال بقضاء الكاظمية، ثم عمل أعمالاً مختلفة وتولى تحرير مجلة الفنون الأسبوعية (شباط ١٩٣٤).

وقد نظم أشعاراً رائقة لحّنت وغنّيت. من تآليفه: بغداد القديمة (١٩٦٠) الطرب عند العرب (١٩٤٥) الموال البغدادي (١٩٦٣)، نيل المرام في قاموس الأنغام، الأغاني والمغنيات (١٩٣٣) أيام بغداد (١٩٦٩) قيان بغداد (١٩٦٩) مجموعة الأغاني والمغنيات (٢٤ حلقة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٦) موجز الأغاني العراقية (١٩٣٠)، قطف الأثمار في الأشعار والأخبار.

من شعره في رثاء شيخه النائب:

ترحل صاحب الفضل العميم	وخلّف في القلوب لظى الجحيم
مضى عنّا وكان العيش غضاً	بجانب ذلك الفذّ الرحيم
ومادت راسيات الأرض حزناً	عليه وقد هوت زهر النجوم
وقد فاضت عليه كلّ عين	ولم تنجُ القلوب من الكلوم

حتى يقول:

لقد عفت الحياة، ونحن فيها	نكابد لوعة العيش الذميم
وحقّك ما الحياة حياة عزّ	تطيب لكل شيطان رجيم
خيار القوم تلقاهم نياماً	على مضض كأصحاب الرقيم
فكيف يطيب عيش في بلاد	يدلّ بها الكريم على اللئيم؟...

وقد اشتدّت به الفاقة في أيامه الأخيرة وهدّ جسمه المرض، فاضطرّ أن يمتهن كتابة العرائض في دائرة طابو بغداد سداً لرمقه. ثم عيّن مشرفاً أدبياً لفحص الأغاني بمصلحة المسرح والسينما.

وتوفي العلاف في بغداد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٩.

كان العلاف شاعراً عاطفياً، سئل عن رأيه في الشعر الحرّ فقال: «ليس هناك شعر حرّ، فالشعر يلتزم بالقافية والوزن. وهو كما هو معروف ينمّ عن العاطفة والوجدان. وإذا تحرّر الشعر من القافية والوزن فقد أهم ميزاته ولا تكفي العاطفة وحدها لتسميته بالشعر. فنحن نقول أحياناً كلاماً عاطفياً جميلاً بكلمات منمّقة رشيقة، لكنها بعيدة من أن توصف بالشعر».

نظم العلاف مئات الأغاني الشعبية التي انطلقت من حناجر مغنيات فترة ما بين الحربين فهزت النفوس وترددت على الألسنة، وأشهرها: يا نبعة الريحان، خدّري الشاي خدّري، قلبك صخر جلمود الخ. ويصحّ مقايسة العلاف بأحمد رامي شاعر الشباب المصري لولا الفارق الفنّي الجسيم بين مصر والعراق في تلك الآونة.

وقد أعجب العلاف بالملا عثمان الموصلي فسار على نهجه في أغانيه الشعبية.

قال عبد الكريم العلاف من قصيدة له «هيا الى الحرب» في ثورة ١٩٢٠ :

أيـن أهل الحفـــاظ، أهـل الحميّـــة | أين أحفـــاد قـــادة القـــادسيّـــة
أيـن أبنـــاء يعـــرب ونـــزار | أين تلـك الشهـــامـــة العـــربيّـــة
يـــا أســـود العـــراق، أنتم حماه | من قـــديم الـــزمـــان بين البريّـــة
لكم في الـــوغى مـــواقـف حـــرب | هي كـــالشمس في النهـــار جليّـــة
وثبـــات في الحادثـــات وعـــزم | ونفـــــوس عن الهوان أبيّـــــة
كلما الحرب جـــاش فيهـــا عبـــاب | خضتم كلّكـم عبـــاب المنيّـــة
كيف تغضـــون عن إغـــاثـــة شعب | مستجيراً يأبى قبـــول «الـــوصيّـــة»
كيف تـــرضـــون، يـــا أبـــاة، وفيكم | رامـت الحكـم دولـــة أجنبيّـــة
حكمت في البـــلاد ظلماً وقـــالـت: | إن هـــذي حكـــومـــة وطنيّـــة
آل قـــومي، هيّـــا الى الحرب هيّـــا، | إنّ فيهـــا حيـــاتنـــا الأبـــديّـــة
وامـــلأوا مسمـع العـــداة دويّـــاً | كـــدويّ الـــرعـــود وقت العشيّـــة
إنّ عين الإلـــه تـــرعـى حماكـم | وتنير المسعـى بكـل قضيّـــة

القصص الشعري :

نظم عبد الكريم العلاّف قصصاً شعرياً على منوال معروف الرصافي في «أمّ اليتيم» و «المطلّقة» و «اليتيم في العيـد»، وخيري الهنداوي في قصيدتـه «زينب وخالـد» أو «فتاة بغداد وفتاها»، وكاظم الدجيلي في «بوليس بغداد». رسم العلاف في قصيدته «الوحش الكاسر» صورة من صور بغداد في عهـد الاحتلال البريطاني، ولم ينس في مطلع قصيدته أن يصف حالته النفسية فيقول :

أرقتُ، وضـــوء البـــدر في الليـل يسطع | ونجم الـــدجى سهـــران والنـــاس هُجَّعُ
تحيط بي الأرزاء مـن كـل جـــانـب | وقلبي على مـــا حلّ فيـــه مـــوجّع
كـأنّي في دنيـــا الهمـــوم أراكـــة | يميـل بها عـــاتي النسيـم فتركـع
وصرت أنـاجـي الفكـر في حـــال أمتّي | وأحسـب أشتـــاق الأمـــور وأجمع
وطـــرفي على أطـــلال بغـــداد مـــرسل | سحـــائب دمع مـن جفـــوني تنبع

على موطن قد كان بالأمس آهلاً وأصبح هذا اليوم والدار بلقع
سمعت به صوتاً على البعد راعني وأيّ فؤاد بالأسى لا يروّع؟
نشيج له في ظلمة الليل رنّة كأنّ به سيفاً لقلبي يقطع

قام من فراشه وسار يتحرّى مصدر البكاء، فجاء الى دار خيّم عليها الحزن والكآبة. ووجد فيها امرأة حسناء تبكي بحرقة، وقد أحاط بها فتيات أربع، وفي حضنها طفل ألمّ به الطوى... تقرّب منها يستطلع حالها:

تقرّبت منها، وهي تخشى تقرّبي، أودّ على أحوالها أتطلّع
وقلت لها: من أنتِ؟ بالله خبّري، لقد ساءني منك النشيج المرجّع
فقالت: أنا سعدى فقدت سعادتي ويا ليت لي تلك السعادة ترجع
بكيت على حظي، على ما أصابني، على بدر عزّ غاب هيهات يطلع

بكت سعدى على قرينها الذي كان ملازماً عسكرياً، دعاه داعي الحرب فودّع زوجه وأطفاله، ومضى يؤدي واجبه في ساحة الوغى، ومات شهيداً يناضل عن قومه ووطنه، مخلفاً أسرته بين فكّي الحزن والمذلّة والفاقة.

وقد دخل الأعداء بغداد عنوة وصار لهم فيها نفوذ ومطمع
وجاروا علينا واستبدّوا بحكمهم وخانوا عهود الإتفاق وضيّعوا
وبالأمس منهم واحد حلّ دارنا يهيم كوحش بالفريسة يطمع
و مال على إحدى البنات بقسوة فجاذبها بالرغم والبنت تدفع
ولما رأيت الغدر يبدو بوجهه وقد أوشك الملعون للبنت يصرع
صرخت بصوت من فؤاد مروّع: الينا، الينا أيها الناس أسرعوا
أنادي فلا ألقى مجيباً سوى الصدى ولا واحد وافى الى الخطب يدفع
وقاومت ذاك العلج في عزم حرّة فباء بخسران الى حيث يهرع

وأسفت المرأة على ضياع النخوة وصبر القوم على الأذى وانغماسهم في الملاهي والملاذّ وتقويضهم صروح العلم لينشئوا المسارح والمراقص. ولا يبخل الشاعر عليها بالتسلية والعزاء، آملاً أن تكون الحال التي ذكرتها سحابة صيف عن قريب تقشّع، فيرتفع في البلاد علم العرب الميامين، وتزدهر الأوطان وتخضرّ المزارع والمرابع، ليعيش الناس في عزّ ونعمة.

من شعره في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

شعب العراق :

لـك الخير، لا راعت حِماك الأجـــانـب ... ولا بلغـت للخصـم فيـك مــــآرب
أبـى الله إلاّ أن تعيش مــــؤيّـــداً ... بــرغم العــدى، والله لا شك غــالب

وقال :

نهضتم، بني قــومـي، الى عــزّكم نَهْضَـا ... وقــوّضتمُ صرح التخــالف والبغضــا
نهضتم إلى استقـــلال شعبكـم الــذي ... يكــاد عليــه من يـد الجور أن يُقْضَى
طلبتم حقـوق الشعـب، والشعب قـائم ... على قـدم يبغي التقـدّم لا الفـوضى

عبد الحسين الحلّي

الشاعر العـالم الأديب الشيخ عبد الحسين بن القاسم بن صـالح الحلّي ولد في الحلة سنة ١٨٨٣ ودرس في معاهـد النجف وتصدّى للتدريس بها واشترك في الحركـة الوطنية في النجف سنة ١٩١٨ ـ ٢٠، ثم عيّن قاضيـاً للبحرين، قال في ذلك جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» :

«لا أدري كيف رضيت (النجف) لنفسها أن تراه يغـادرها الى البحرين بصفة رئيس للتمييز الشرعي دون أن تحرّك النجف ساكناً؟ وهي تعلـم ـ أي النجف ـ أن الشيخ عبد الحسين قد أفنى زهرة عمره في سبيل عزتها العلمية وشهرتها الأدبية . . . وإني لأذهب الى أن موقف أهل بغداد مع عبـد الوهاب المالكي في القرن الـرابع، الذي حمله ضيق ذات اليـد على السفـر الى مصر والذي اجتمع حـولـه العلماء والفضـلاء ليحولـوا بينـه وبين الهجرة، فقـال أنه لو وجـد من يدفع لـه كيلاً من الباقـلاء في اليوم لعـدل عن الهجرة، فبكى الجميع ولكن لم يظهـر أحد استعداده لسـدّ هذه الخلّـة، أقول : إنني لأذهب الى القول بأن مـوقف بغداد في القـرن الرابع (الهجري) مع عبـد الوهـاب ـ على نبوّه ـ كان ألطف بكثير من موقف النجف مع الشيخ عبد الحسين في القرن العشرين .

وقد أمضـى في قضاء البحريـن نحواً من عشرين سنـة وتوفي بها سنـة ١٩٥٥ . وقد قال :

تطلعـــــت مــــــن المربـــــأ ... الى العــــــود الى المبـــــــدأ
وسرّحـت بـــــه طـــــرفـــــاً ... حـــــديـــــد الطـــرف لا يخسأ
وفكــــــراً لم يــــــزل يخطـــــو ... ولكـــــــن قلّما يخطــــــــأ . . .

نظم شعراً كثيراً نشر بعضه في مجلة الهاتف النجفيّة وسجل نماذج منه علي الخاقاني في

الجزء الخامس من «شعراء الغريّ». وألّف الحلي كتباً منها: نصرة المظلوم، النقد النزيه لرسالة التنزيه (١٩٢٩) مسائل فقهية (١٩٦٤) حياة الشريف الرضيّ (١٩٦٨) الخ.

***

روى جعفر الخليلي أن عبد الحسين الحلّي رشّح قاضياً شرعياً، لكن زعم أنه أخفق في الامتحان وعيّن بدلاً منه الشيخ مهدي سميسم. وزار هذا الأخير الشيخ جواد الشبيبي في أثناء ذلك، فقال الشبيبي وهو لا يدري أن سميسم قد حلّ محل الحلي: حسناً فعلت الحكومة، فإني لا أجد برهاناً أكبر على غباوتها وتحيّزها من رفض تعيين رجل فاضل كالشيخ عبد الحسين وترشيح حمار لا يدري أي طرفيه أطول ليحلّ محلّه...

فامتقع وجه مهدي سميسم وظهر عليه الاضطراب والخجل وقال: أؤكد لكم أنني رفضت قبول القضاء لولا إلحاح وزارة العدلية وإصرارها.

قال عبد الحسين الحلي يحيّي النجف:

حيّ أوطاني اذا سعدت	بالتحايا الغرّ أوطان
وأصيحاباً عهدتهُمُ	وهم في الله إخوان
لهم في كل مكرمة	أثر بالفضل ملآن
كيف يخفى فضلهم، وله	بينهم من لطفه شان؟

جعفر نقدي

الشيخ جعفر محمّد تقي نقدي القاضي الشاعر الأديب، وهو جعفر بن محمّد بن عبد الله النقدي من أسرة تنتمي الى ربيعة، ولد في العمارة سنة ١٨٨٥، ودرس الفقه والعلوم العربية والدينية. وقد عيّن قاضياً للعمارة في حزيران ١٩١٩، وكان عضواً في مجلس التمييز الشرعي الجعفري، ثم تولّى القضاء الشرعي في كربلاء (كانون الأول ١٩٣١)، وعيّن بعد ذلك قاضياً في البصرة (حزيران ١٩٤٥)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٤٧.

توفي سنة ١٩٥١.

نشر علي الخاقاني جانباً من شعره في الجزء الثاني من «شعراء الغريّ». ووضع جعفر نقدي مؤلفات كثيرة، أهمها: الإسلام والمرأة (١٩٣٠) الحجاب والسفور (١٩٣٠) أباة الضيم في الإسلام، تنزيه الإسلام (١٩٤١) الدروس الأخلاقية (١٩٣٨)، ذخائر العقبى، زهرة الأدباء (١٩٣٨)، زينب الكبرى (١٩٤٧) ضبط التاريخ بالأحرف (١٩٤٧) نزهة المحّبين في فضائل أمير المؤمنين (١٩٥٠) وسيلة النجاة في شرح الباقيات

الصالحات لعبد الباقي العمري، الأنوار العلوية (١٩٥٨) تاريخ الإمامين الكاظمين (١٩٥٠) غزوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (١٩٦١) فاطمة بنت الحسين (١٩٦٤)... وحقق ونشر كتاب تدابير المنازل أو السياسات الأهلية للرئيس ابن سينا (١٩٢٩).

قال جعفر الخليلي: والشيخ جعفر نقدي عالم فقيه كان لفتاواه في أحكام القضاء حين كان يشغل القضاء الشرعي أثر كبير في التيسير. وكان من كبار العلماء في تاريخ الأدب العربي، وهو بعد ذلك من الشعراء المعروفين في عصره.

كان لجعفر نقدي مطارحات شعرية مع محمد مهدي الجواهري الذي خاطبه بقصيدة مطلعها:

مرّ النسيم بريّاكم فأحيانا ... فهل كذكراكمُ في القلب ذكرانا؟

فأجابه جعفر نقدي:

لو كان يألف قلب الصبّ سلوانا ... ما بات يصلى بأيدي الشوق نيرانا

أو لم يكن ذاب وجداً في محبّتكم ... لما تعذّب بالأشجان ألوانا

حمّلتموه هموماً لو تجشّمها ... ثهلان دكت على الغبراء ثهلانا

مقدّمات على دعواه أنتجها ... قياسها مدمع الأجفان برهانا

إنسان عيني جرى دمعاً فأغرقني ... وربّما أغرق الإنسان إنسانا...

وقال الجواهري:

أنا مذ همت فيكم كان دأبي ... إنّ ما تشتهوه يحمله قلبي

فأجاب نقدي:

يا أخلاّي في الحمى، أي وربّي ... أنتمُ في الحياة منية قلبي

بهواكم أنست لا بسواكم ... ولكم في الوداد أخلصت حبّي...

وقال الجواهري:

الله يصحب بالسلام مودّعي ... عجلاً وإن أخنى عليَّ بعاده

فأجاب نقدي:

أحبابنا، بعض العتاب لواجد ... شوقاً للقياكم يحنّ فؤاده

مهما تشبّب في الغريّ فأنتمُ، ... يا ساكني أرض الغريّ، مراده

قاسم الشعّار

القاضي الفقيه الشاعر الشيخ قاسم الشعّار، ولد في الموصل سنة ١٨٨٧ . وكان أبوه الشيخ محمّد ضياء الدين الشعار القادري الحاتمي عالماً شاعراً ناثراً، ألف كتاب «السعادة» المطبوع في استانبول سنة ١٨٩١ ، وتوفي في تموز ١٩١٢ .

درس قاسم الشعار على أبيه وغيره من علماء الموصل وتصدّى للتدريس سنة ١٩١٠ . وعيّن قاضياً في المحاكم الشرعية في شباط ١٩١٩ ، وأصبح قاضياً في يعقوبا (أيلول ١٩٢٥) والموصل في كانون الثاني ١٩٣١ ، فكركوك فالموصل ثانية (آب ١٩٣٧) فالبصرة (أيار ١٩٤٢) فكركوك (شباط ١٩٤٦)، فالموصل أيضاً حتى اعتزل الخدمة في كانون الأول ١٩٤٩ .

توفيّ في ٨ شباط ١٩٥٥ . وكان شاعراً عالماً، وضع تصانيف في الأصول والفرائض والفقه والتصوّف .

محمّد رضا الخطيب

الشاعر محمد رضا الخطيب الذي اشتهر بقصيدته في هجاء الطبيب، ولد في بلدة طويريج المعروفة بالهندية على الفرات سنة ١٨٩٣ ، وهو محمد رضا بن هاشم الموسوي، واتصل بآل القزويني فتأدّب عليهم، ونظم الشعر فأجاد فيه وأحسن .

كتب عنه عبد القادر البرّاك الذي عرفه حقّ المعرفة فقال : « . . . فرأيت أن أردّ بهذه الكلمة المحضة الى الأذهان صورة ذلك الشيخ الذي كان يضطرب في الحياة، فلا يشعر بوجوده أحد لإيثاره الدعة ولطول الكبت الذي أقعد هممه عن كل طائلة يكسب من ورائها الراحة والاطمئنان . . . » .

وكان الخطيب برماً بمحيطه الضيّق، فكان يزور بغداد بين الحين والحين فيلتقي بأدبائها ويحضر ندواتها . وقد حظي بتقدير الزهاوي الذي قال فيه الخطيب :

تنتاب نفسي النائبات فتلتوي ... لكن بقربك تستعيد جمالها

وخاطب محمد رضا الخطيب معروفاً الرصافي بقصيدة قال منها :

لك في القريض مواقف مشهودة ... في الشرق هزّ الغرب صوت دويّها
وسياسة كفكفت من غلوائها ... وجعلت علياها على سفليّها
وكأنني بك قد رفضت بأن ترى ... متربعاً يوماً على كرسيّها
ولو أنها قد أنصفتك لأصبحت ... ولك التصدّر في رفيع نديّها

فأجابه الرصافي قائلاً :

إني لأشكـــر من محمـــد الــرّضـــا | شعــراً ذكــرت بـــه زمـــانـــاً قـــد مضى
شعـــراً غـــدوت على جـــريـــر فـــاخـــراً | فيـــه، ورحت عن الفـــرزدق معـــرضـــا
قـــد دبجّتـــــه يــــــراعـــــة لمحمـــــدٍ | أخـــذت تقيم مـــن القـــريض مُقَـــوَّضَـــا
هـي في التفنّـن ريشـــــة لمصـــــوّر | ولـــدى القـــراع هـي الحســـام المُنْتَضَى
لـــو كـــان في كفّ الـــرضيّ نظيرهـــا | حســـد الـــرضيَّ بها أخـــوه المرتضى . . .

وقد توفي محمد رضا الخطيب في مسقط رأسه في ٩ شباط ١٩٤٦ . ونشرت نماذج من شعره في «بـابليات» محمـد علي اليعقوبي (١٩٥٥). وألف : «الخبر والعيان في أحوال الأفاضل والأعيان» (في مجلدين).

هجاء الطبيب

فكّـــر لنفسك، أيها الـــدكتـــور، | إن كـــان ينفع قـــاسيـــاً تفكير
أصبحت تحكم بـــالنفـــوس فمـــوتها | وحيـــاتها أبـــداً عليك يـــدور
يمسي الفقير يئـنّ مـــن آلامـــــه | ليـــــلاً وليلـك ضـــــاحـك مسرور
لا أنـت تــــرحمه وليس يجيبـــــه | مـــال ســـوى كفّ إليـك تشير
متـــوسّـــداً حسـك القتـــاد ومـــالـــه | منـــه فـــراشـك سنـدس وحـــريـــر
بـــدمـــائه أبـــواب قصرك صبّغت | وعلى الجماجـــم أُسِّسَـــتْ لـــك دور
كـم بـــائس هـــدمت بظلـم داره | كيما تشيّـــــد للطبيب قصـــــور
بـك يستجير ولا يجار فعنـــــد من | يشكـــو إذا كـــان المجير يجور
أمقطّـــراً مـــاء الشراب وكـــان من | عبرات ذاك البـــــائس التقطير. . .
تـــالله إن شهـــادة طبيـــة | صـــدرت بحقك كلهـــا تـــزويـــر. . .
قلـب الغنـيّ تعيره سماعـــــة | وتصـمّ أذنـك إن أتـــــاك فقير
وإذا دعـــاك أخـــو الثـــراء لـــداره | تسعـى كأنـك خـــادم مأجـــور
وإذا جفـــــا أكـل الشعير حماره | وعـــــراه مـن أكـل الشعير شخير
أصبحت بيطـــاراً لـــه ومضمّـــداً | وحـــداك نحـــو عـــلاجـــه التـــدبير
والبـــائســـون إذا أتـــوك فحظّهم | مـــن لطفـــك الإزراء والتحقير. . .
وأخـــوك عـــزرائيل أنـت وكيلـــه | فينـــا وصهـــرك منكـــر ونكير. . .
أمقصّر العمـــر الطـــويل، وسعيـــه | عنـــد الحكـــومـــة صـــالح مشكـــور
بـــاعُ المحـــاكم للبريء ينـــالـــه | عسفـــاً وأمـــا عنك فهـــو قصير

وسلمت من وخـز الضمير لأنـه	من أين للرجل الخؤون ضمير؟

وهي طويلة اكتفينا منها بالأبيات المتقدمة. ومن الطريف أن الشاعر جعفر الحلّي ابتلي بطبيب نجفي اسمه صادق فقال يهجوه:

في كلّ شيء صـادق	إلاّ إذا جـاء اليـه العليل
يقـول: هـذا داؤه قـاتل	ويـوجب الإفطـار لا عن دليل
ليس لـه في الطب شيء سـوى	نسبتـه للشيخ مـرزا خليل

والمرزا خليل طبيب نجفي شهير طهرانيّ الأصل.

عبد الوهاب الصافي

الشاعر القاضي عبد الوهـاب الصافي ابن عم الشاعر أحمد الصافي النجفي، ينتمي الى الأسرة النجفية المعروفـة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٩٩ ودرس في معـاهدها. وكلّف في أثناء ثورة العشرين بالإشراف على الأسرى الإنكليـز والهنود في الجعارة والنجف تحت إمرة عبد المحسن شلاش (آب ١٩٢٠).

كان أحـد مؤسسي جمعيـة الرابطـة سنة ١٩٣٢ وتولّى رئاستهـا. ثم انتمى الى سلك القضاء (٢٨ كانون الأول ١٩٣٦)، فعيّن قاضياً شرعياً للبصرة (أيار ١٩٣٨) فالناصرية (١٩٤١) فالنجـف (آذار ١٩٤٢) فالبصرة ثـانية (كـانون الثـاني ١٩٤٣) فبغداد (آب ١٩٤٤) فالعمارة (أيار ١٩٤٥) فالنجف (حزيران ١٩٤٧).

واعتزل القضـاء سنة ١٩٥٠، وخوّل ممـارسة المحامـاة. ثم وظّف في مديريـة ميناء البصرة حيث قضى عدة سنين.

وهو شـاعر أديب، يحسن اللغة الفـارسية وقد تـرجم عنها روائع من شعر شعـرائها نظماً.

أخبرني عبـد الـوهاب الصـافي أنـه اعتـزل القضاء قبل أن يكمل المدة التي تـؤهلـه لاستحقاق راتب التقاعـد، فتشبّث للعودة الى الخدمة الحكوميـة، وعيّن موظفاً في إدارة ميناء البصرة على عهد وزير المواصـلات والأشغال عبد الوهاب مرجـان. ولم يعهد إليه بعمل ما، بل أعطي كرسياً ومكتباً في غرفة واحدة مع موظف مرهق بالأعمال يشتغل ليلاً ونهاراً لإنجاز مهامّه. فقال الصافي له: لا يصحّ أن نجلس في غرفة واحدة، أنت تعمل كثيراً وأنـا عـاطل لا أدري كيف أقضي سـاعـات الـدوام. فأعطني جـزءاً من عملك لأساعـدك على قدر إمكـاني. فأجابـه: وهل تعرف اللغـة الإنكليزيـة أو تعلم أوليّات شؤون الملاحة الفنية؟ إذا كنت تعرف شيئاً من ذلك فهلّم ساعدني.

ومضى الصافي إلى رئيس الدائرة وقال له : أعطني عملاً أستطيع القيام به ، فلا يصحّ أن أقبض راتباً ولا أنجز عملاً . وبعد لأي عهد إلى الشاعر الصافي بمديرية زراعة الميناء ، وكلّف بالإشراف على تنظيم الحدائق والبساتين ، فصار يعمل ليل نهار ولا ينجز مهام وظيفته . فقال : ألا يوجد شيء وسط ؟ فإما أن تبقى عاطلاً وإما أن تشتغل آناء الليل وأطراف النهار؟

وعيّن اللواء مزهر الشاوي الجندي الشاعر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مديراً عاماً للميناء ، فأصبح عبد الوهاب الصافي ، على ما حدّثني به ، سكرتيراً شعرياً له ينظر في منظوماته .

توفي عبد الوهاب الصافي في بغداد شيخاً هرماً سنة ١٩٨٩ .

الشيخ محمد حسن حيدر

محمد حسن حيدر ابن الشيخ باقر بن علي بن محمد علي حيدر من أسرة معروفة في سوق الشيوخ بالمنتفق ومن رؤساء قبائل الأجود . ولد في سوق الشيوخ سنة ١٨٨٨ ، وكان أبوه من رجال الدين جاهد في الشعيبة في بداية الحرب العظمى ، ثم مرض ونقل الى بلده حيث توفي سنة ١٩١٥ .

درس محمد حسن العلوم العربية والدينية وحاز على مكانة روحية وأدبية ، ونظم شعراً نشر أغلبه في مجلة العرفان وجريدة دجلة والهاتف والغريّ ومجلة الاعتدال . واشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩٢٠ . فلما استولت العشائر على بلدة سوق الشيوخ في إبّان الثورة (آب ١٩٢٠) عهد إليه بإدارتها .

إنتخب نائباً عن المنتفق في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) لكنه استقال . وانتخب بعد ذلك نائباً عن المنتفق في مجلس النواب سنة ١٩٢٨ ـ ٣٠و١٩٣٣ ـ ٣٤و١٩٣٤ ـ ٣٥ ، فنائباً عن العمارة ١٩٣٥ ـ ٣٦ ، فنائباً عن المنتفق أيضاً في شباط ١٩٣٧و١٩٣٧ ـ ٣٩و١٩٣٩ ـ ٤٣ و١٩٤٣ ـ ٤٤ . وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس النواب في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٠ .

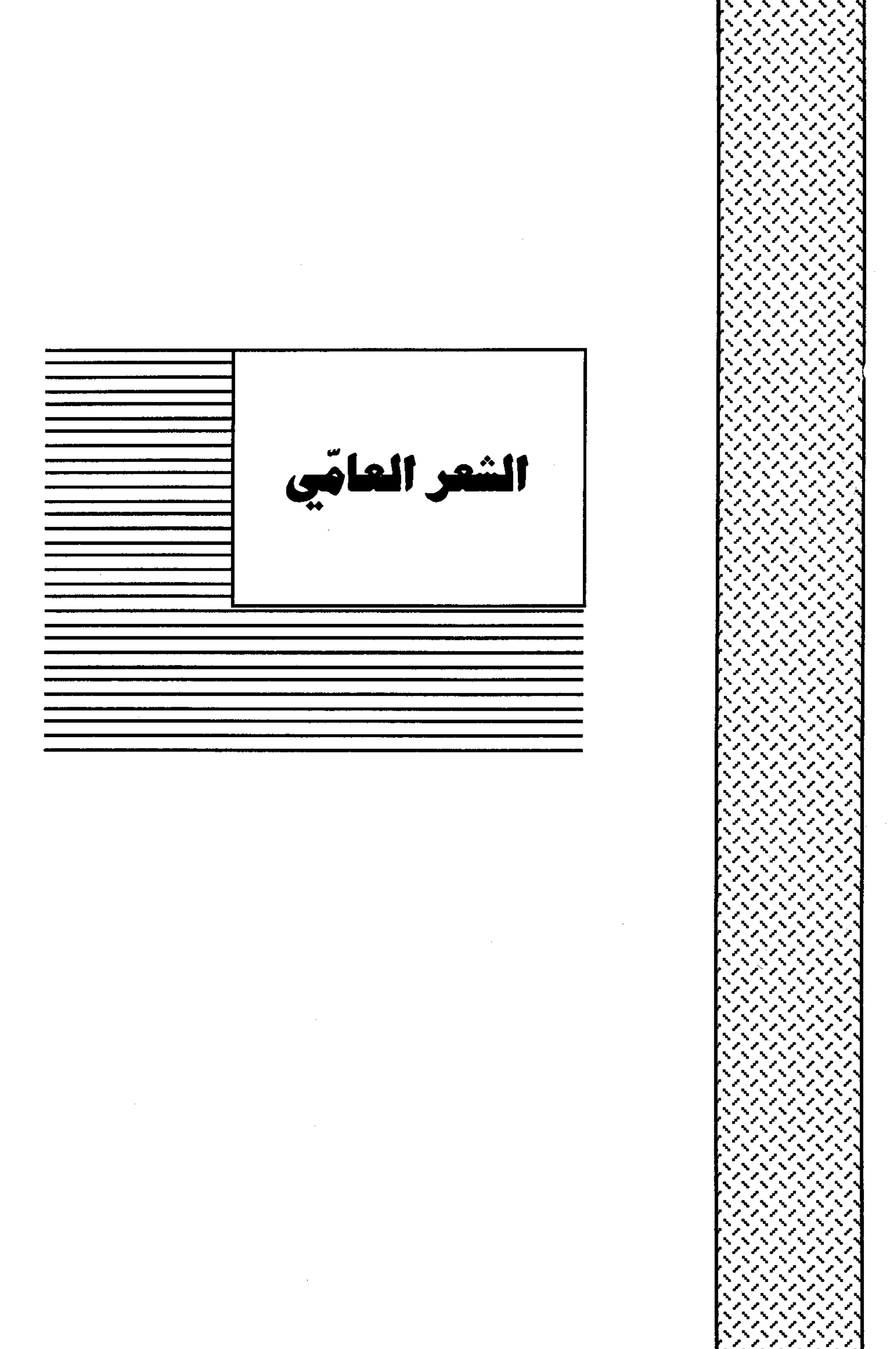
عارض المعاهدة العراقية البريطانية في المجلس التأسيسي عند المذاكرة فيها (١٩٢٤) . وقال : إن إعطاء زمام البلاد للأجنبي خيانة ، والخيانة خسران الدين والشرف والعيش الحرّ . واضطر بصفته نائب رئيس مجلس النواب في عهد حركة رشيد عالي الكيلاني (نيسان ١٩٤١) الى دعوة المجلس للانعقاد واختيار الشريف شرف وصياً على العرش في محلّ الأمير عبد الإله . فلما قضي على الحركة وعاد الأمير الى بغداد لوحق الشيخ محمد حسن وأهين ، فاعتذر بأنه كان مرغماً في فعلته غير مخيّر . وبقي منكسر النفس مكسوف الخاطر حتى أدركه الموت في بغداد في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٤ .

له مراسلات شعرية إخوانية مع إبراهيم الواعظ والملاعبود الكرخي والشيخ عبد الغني الخضري وغيرهم. ونشر شعراً كثيراً في جريدة دجلة الصادرة في بغداد سنة ١٩٢١ ـ ٢٢، منه:

هي أمّة العرب التي نهضت، وقد … رفعت بنهضتها منار جلالها
نهضت بعبء المكرمات فأحرزت … علياءها بجلادها وجدالها
حتى أشادت وحدة عربية … في أسد غابتها وفي أشبالها
نهضت فنالت دولة عربية … قومية قد شيّدت برجالها
نهجت بمنهاج الفخار فخلّدت … عزاً لها يبقى الى أجيالها
ما كان لولا الإتفاق تنال ما … رامت بمبدأ أمرها ومآلها
ما كان لولا الإتحاد بسعيها … تحظى بسؤددها وباستقلالها
سل أمّة الفرس الأُلى والروم في … ذي قار ما فعلته في أقيالها
سل عن معاليها المواضي والقنا … والخيل يوم الحرب عند نزالها
بخصالها يزهو الزمان سناً غداً … يزهو الزمان سناً غداً بخصالها
بنوالها عمّت بني الدّنيا ندى، … عمّت بني الدنيا ندىً بنوالها
يا شرق، تِهْ فخراً فأنت مؤيّد … ومعزّز لا زلت في أبطالها...

وله أيضاً:

أقرارٌ ولا أرى لي قراراً … بمحيط فيه الخمول استدارا...
كم أنادي ولا حياة لمن قد … غار في منهج الخمول وسارا
فإلى مَ الخمول باق، وهذي … أهل بغداد قد تسامت فخارا؟
نهجت منهج الكمال الى أن … تخذت أنجم السّماء سمارا...



الشعر العامّي



الملاّ عبّود الكرخي

الشاعر الشعبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في فترة ما بين الحربين، عبود بن الحاج حسين السهيل الكرخي، ينتسب الى فرقة البوطيف من عشيرة البوسلطان الزبيدية، ولد في بغداد في ٢٢ حزيران ١٨٦٩، ودرس في الكتاتيب وحلقات الدرس في مساجد بغداد والكاظمية. ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره انضمّ الى والده الذي كان يتاجر بالإبل والجلود ورافقه في سفراته بطريق القوافل الى إيران والشام والحجاز ومصر والأقطار التركية[١].

واستقرّ في بغداد بعد وفاة والده سنة ١٨٩٦، وتعاطى أعمالاً مختلفة من متاجرة ونقل وأنشأ سنة ١٩٠٨ شركة مع آل عارف آغا لنقل المسافرين بين أمهات المدن العراقية. ثم أصبح متعهداً للبعثة الألمانية التي قامت بمدّ خط السكة الحديد الى سامّراء سنة ١٩١١ وألمّ بشيء من اللغة الألمانية، علاوة على ما كان يعرفه من التركية والفارسية والكردية.

ولما أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤، رافق الحملة التركية الى إيران ترجماناً ومجهزاً للمواد الغذائية والمواشي والخيول. وأسره الروس في بعض المعارك، لكنه استطاع الفرار والعودة الى صفوف الجيش التركي. وسمع بأخبار الثورة التي أعلنها الشريف حسين في مكة سنة ١٩١٦، فترك القوات العثمانية ولجأ الى بعض القرى والأرياف حتى آذنت الحرب بالانتهاء.

عمل بعد ذلك في الزراعة فلم يؤاته النجاح، وعاد الى بغداد. واندلعت نار الثورة سنة ١٩٢٠، فأخذ ينشد قصائده الوطنية في جامع الحيدرخانة. وطبقت شهرته الآفاق، وتسابقت الجرائد الى نشر شعره العامي الذي لقي من الجمهور إقبالاً. ثم أنشأ

---

(١) ذكر عبود الكرخي في ترجمة له كتبها سنة ١٩٣٥ انه ولد في ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ويوافق ذلك الثلاثاء ٢٢ حزيران ١٨٦٩. أما في ديوانه فذكر تاريخ ميلاده سنة ١٨٦١. وذكر فائق بطي تاريخ ميلاد الكرخي في كتابه «أعلام في صحافة العراق» ١٩ حزيران ١٨٦١.

جريدة «الكـرخ» في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٧، فكانت من الصحف الشعبيّـة الرائجة. وعطلتهـا الحكومـة فاعتـاض عنها بجـريدة «صـدى الكرخ» (١٧ نيسـان ١٩٢٨) و «صدى التعاون» (٢ نيسان ١٩٣١) و «الكرخي» (٢ تموز ١٩٣٢) و «الملاّ» (٣٠ أيلول ١٩٣٣) و «المزمار» (٤ حـزيران ١٩٣٤). وعادت الكرخ الى الظهـور خلال تلك المدة وبعدها، فقضى في الصحافة نحواً من خمسة عشر عاماً (الى سنة ١٩٤٢).

وأسس مطبعة سنة ١٩٣٣، ونشر في تلك السنة الجزء الأول من ديوانه. ثم نشر بعد وفـاتـه جـزآن من شعـره (١٩٥٥ ـ ٥٦) ونشر الجزء الثـالـث سنـة ١٩٦٧، والأدب المكشوف (١٩٦٧) أيضـاً. وساءت صحتـه في سنواته الأخيرة، فلـزم داره حتى قضى نحبه ببغداد في ٩ تشرين الثاني ١٩٤٦.

شعره:

يمثل شعر عبود الكرخي نهجاً خاصاً في الأدب الشعبي العراقي، وقد اتّسم بسّمات المرحلة الانتقـالية التي مـرّ بها العراق خـلال السنين التي عقبت الحرب العظمي الأولى (١٩٢٠ ـ ٤٠). قرض الكرخي الشعر العامي منـذ فجر شبابه، وبرّز فيه تبريزاً، وذاع بعد ذلك على ألسنة الناس وتناقلته الصحف والإذاعة والمجالس الخاصة. وهو يبدع في النقد والهجاء، ولـه في سائر الأغراض كالسيـاسيات والوطنيات والاجتماعيـات والغزل والنسيب صـولات وجولات. وهـو يحسن إستخدام اللغـة العاميـة العراقيـة بمختلف لهجـاتها والقـديم والحديث من عبـاراتها، ويطعّم شعـره بـالقصص والحكم والأمثـال الشعبية، ويرصّعه بالكلمات الفصيحة والكردية والفارسية والتركية والهندية والانكليزية والعبريّة وغيرها ممّا هو مألوف لدى أبناء الشعب.

وكانت للكـرخي مساجلات ومطـارحات شعـرية مع شعراء العـامية في عصره وفي مقدمتهم حسين قسّام.

حظي شعر الكرخي بتقدير شعراء الفصحى وأدبائها، فقال الرصافي:

لله درّك، يـــا عبّــــود، من رجـل	يـــا رافعـاً في القـــوافي رايــة الـــزجل
جــريت جــري قــديــر في مــزالقــه،	لم تخش مـن زلـق فيــــــــه ولا زلـل

وقال الزهاوي:

الشعــر مــا قــالــه الكــرخيّ عبّـود	ففيــــه لـــلأدب الشعبيّ تجديـــــد
شعـــــر يفيض من القلب المشعّ لــــه	على اللســـان، فما إن فيــه تعقيــد...
عبـــود إن عـــدت الأفـــذاذ في بلـــد	فـأنت في أول الأفــــذاذ معـــدود
فتحت للشعــر أبـــوابــاً، ولا عجب	ففـي يمينك للنظـم المقـــاليــــد
إذا هجــوت فنيران مـــؤججّـــة،	وإن شـــدوت فـأغـــرود وأغـــرود

وقال عبد الرحمن البناء :

إن رمت للجمهــــور مـن شـــاعـــــر فشـــاعـــــر الجمهـــور عبّـــود

وقال محمود الملاح :

من بعـــد عبّـــودٍ الكـــرخيّ لا تثقـن بـــالشعـــر يخلب ألبـــاب الجماهير

وشبَّهه بالحطيئة الذي سنّ سنّة الهجاء لما رأى الفضل في الناس منكوراً غير مشكور.

وقال فهمي المدرّس : «جمع أسلوبه بين لغة العوام وما يقارب اللغة الفصحى تدريباً للعوام على الفصيح من القول، وهو أسلوب حديث في الأدب العامي، والأدب العامي في بلاد تتغلب عليها الأميّة لا يقلّ شأناً عن أدب الخواصّ. . . » .

وقال محمد بهجت الأثري : «والشاعر قدير بلا شك، وهو رافع لواء الشعر العامي في العراق. . . وشعره صورة للمجتمع، فإنّ فيه كثيراً من الحقائق الاجتماعية والسياسية وفّق في تصويرها الى مدىً كبير. . »

وقـال رفائيل بطي : « . . . وهـو يكنز في أشعـاره ثروة طـائلة من إحسـاس العامـة وصـور أفكارهـا ونظـراتها الى الحياة، وهـو يمثل عيشـة طبقات الشعب ذات الصبغـة المحلية البحتة. . . »

وقال انستـاس الكرملي يخاطب الكـرخي : «وامتاز شعـرك أيضاً بحفظ لغـة العراق الخاصّة به، بآدابه وأخلاقه وآرائه. . . » .

وقال علي الشرقي : «تفضل عليّ الشاعر الـزجلي الاجتماعي الملا عبود بتقديم نسخة من ديوانه العام. ولما تصفحته وجدتني قد تصفحت العراق كله. نعم، فإنّ بين دفتي ذلك الديـوان عراق الثلث الأول من القرن العشرين، فهـا أنا أتجوّل في شوارعه ونـواديه ومراسحه ومقاهيه، في ريفه وحواضره، أسمع الحوار السياسي والاجتماعي والنقد الأدبي واللـوعة الاقتصـاديـة، والصبر إبتسامـة الأمل، وأسمع أنّـة الألم بلغـة عراقيـة وتمثيل صحيح يقوم به شاعر الجمهور. . . » .

وقـال القـاضي جعفر نقـدي : «إن شعـر الكـرخي يشتمل على أبّهة امـرىء القيس وطرب الأعشى ورغبة زهير واعتذارات النابغة وغضبـة جرير وفخر الفرزدق ومدائح أبي تمّام ومحاسن البحتري ونفسيـة المتنبّي ولطائف كشـاجم وظـرائف ابن الحّجاج وبـدائع بديع الزمان، كلّ ذلك بلغتنا العراقية العاميةالتي يألفها عشاق الأغاني الشعبية. . . » .

وقال عباس العزاوي : «وفي ديوان المترجم ما يعيّن سعة اللغة العامية. . وقد اتفقت كلمة أدبائنا على أن شعره من أفضل الشعر في الأدب العامي، ولم يبخسه أحد حقّه» .

والكرخي بعد ذلك ظريف له دعابة حسنة وفكاهة مستملحة. وينقل عنه أنه قال : لم يغلبني أحـد سـوى أعرابيّ لقيتـه في زورق في شط العـرب، وكـان هذا الـزورق يسير

بمحاذاة الشاطىء ويقوم مقام الباص، يأخذ الركاب وينزلهم بين القرى المنبثة على ضفاف النهر. وقد ركبته ذات يوم قاصداً بعض الأنحاء لجمع بدلات اشتراك جريدة الكرخ، فإذا بأعرابي يجلس الى جانبي ويحدثني بأحاديث لقطع الطريق. وسألني الأعرابي: ما اسمك، يا ملاّ؟

- ملا عبود.

- نعم، ماذا كنّا نقول، يا ملا أحمد؟

- إسمي الملا عبود. . . عبود. .

- عفواً، عفواً، يا ملا. . .

وناداه الأعرابي في خلال حديثه بكل الأسماء، فتارة ملا حمد وطوراً ملا علي أو جواد، والكرخي يقاطعه قائلاً: إسمي الملا عبود، فيعتذر صاحبنا ويعود الى تسميته باسم آخر في سياق الكلام. وضاق الكرخي ذرعاً بالأعرابي المتغابي، فقبض على ساعده وهزه هزاً عنيفاً وقال: اسمي جرو. . . جرو. . . ألا تعرف ما الجرو؟

وهنا بلغ الأعرابي المكان الذي يقصده وأشار الى صاحب الزورق بالوقوف، فلما خرج الى الشاطىء صاح بملء فيه: «في أمان الله، يا ملاّ جرو!» قال الكرخي: «قاتلك الله، لقد نسيت الملا عبود عشرات المرات، ولم تنس الجرو مرة واحدة!».

حدثني مصطفى علي أن محمد مهدي الجواهري أصدر جريدته «الفرات» سنة ١٩٣٠ وسرعان ما دخل في مهاترات صحفية مع عبود الكرخي صاحب جريدة «الكرخ» ونوري ثابت (جزبوز) الذي كان آنئذٍ موظفاً بوزارة المعارف ويكتب في الوقت نفسه حقلاً هزلياً في جريدة رفائيل بطي «البلاد». وقد هجا الكرخي محمد مهدي الجواهري هجاءً مقذعاً بقصيدة عامية ختمها بأبيات يقرنه فيها بملهى الجواهري (وهو من ملاهي محلة الميدان المعروفة في ذلك العهد)، فلم يكن من الجواهري إلاّ أن أقام عليه الدعوى بتهمة القذف والتشهير.

وكان حاكم جزاء بغداد آنذاك عبد العزيز الخياط، فمثل الكرخي أمامه وقال: إن هذه القصيدة قديمة نظمتها في العهد التركي ولا علاقة لها بالجواهري.

قال الحاكم: وهل كان ملهى الجواهري قائماً في العهد التركي؟

فالتفت الكرخي الى نوري ثابت الواقف وراءه وقال: كيف فاتنا هذا الأمر، يا نوري؟

وقد حكم على الملا عبود بغرامة قدرها ٣٠٠ روبية دفعها عنه - على ما قيل - عبد الكاظم الشمخاني.

أصبح شعر الملا عبود الكرخي مصدراً من مصادر الفولكلور العراقي واللغة العامية

وصورة المجتمع في النصف الأول من القرن العشرين، وكان في الغالب مجتمعاً راكداً محافظاً على حالته قبل تطوره بدخول الإنكليز وتأليف الحكومة الوطنية. أما العامية فقد تطورت بعد ذلك كثيراً بتأثير الصحافة والإذاعة وانتشار المدارس. وقد استمد الكرخي ثقافته من التراث الشعبي، في حين أن شعراء الفصحى استوحوا أدبهم من التراث العربي الخالد والانفتاح الحديث على الآداب العالمية.

أشيع نبأ وفاة الملا عبود الكرخي في البصرة كذباً فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أعبود إنك ذو فطنة	تعيش بها عيش حرّ سعيد
قريحة شعرك فياضة	لها في الأناشيد مرمى بعيد
أتيت من الشعر بالمضحكات	وبالمبكيات التي لا تبيد

حتى يقول:

يباهي بك الكرخ أبناءه	ويثني عليك بها لا مزيد
ولكن حسّادك الخاسرين	يبيتون منك بغيظ شديد
أشاعوا نعيّك من غيظهم	يريدون للشعر ما لا يريد
ولما تبيّن بهتانهم لدى الناس	عادوا بغيظ جديد...

شعر عبّود الكرخي

صوّر الكرخي في شعره حياة الفلاحين والنساء القرويات والمشاكل الاجتماعية، وذكر الأمثال والخرافات العامية. ودعا الى العلم والاستقلال الوطني، حارب السفور مع الحجابيين سنة ١٩٢٤ ــ ٢٥، ورحب بالتجنيد الإجباري، وبكى على نكبة دمشق وفلسطين. نوّه بمتاعب الزراعة وبؤس الفلاح وآلام الصحافة، وانتقد العادات الشعبية المستهجنة ومهازل الانتخابات النيابية وجهل بعض النواب. ونظم شعراً غزلياً على الطريقة القديمة. وله أشعار بذيئة منع نشرها في العراق فطبعت بعد وفاته في بيروت.

المحالات:

قصيدة طويلة نظم فيها الأمور المستحيلة في رأيه. فقال: هل يتزوج وهو الشيخ الفاني بفتاة أم تكون له حورية في الجنّة؟ هل يصعد الى السماء بسلّم وهل يطلب الفرج من المصلوب؟ هل تباع الخيل في سوق الهرج، وهل يحيى الأموات في المقابر؟ هل يجمد النهر في الصيف أم يعود الشيخ الى الشباب؟ هل يأتلف القطّ والفأر أو يتساوى الفحم والماس؟ هل يغلب الحمار الحصان في السباق؟ هل تنشأ السفن من الورق وهل يأكل الأسد التبن والحشيش؟ هل يكون الهندي خطيباً في البدو؟ هل يفترس الحمل الذئب،

وهل يؤكل لحم الكلاب؟ هل يدرس العالم على الأغبياء وهل ينسج البدو القزّ والحرير؟ هل تربط البقّة بالحبل، وهل يسحب النمل السفينة؟ هل يؤسس معمل ورق في الهندية؟هل يكون الصُّلَيبي أعلم من أديسن وهل يكون ماركوني غبياً؟ هل يظهر نبيّ من زرباطية وهل يكون طلاب اكسفورد وحوشاً؟ هل يطيل فورد ذقنه؟ هل يزرع التبغ في الشامية، وهل ينبت جناح للجاموس فيطير؟ هل يصدر الغبار من أمواج البحر، وهل يدخل الفيل في شقّ الإبرة؟ الخ.

حسين قسّام

الشاعر الشعبي الذي نافس عبّود الكرخي فلم ينل شهرته وذيوع صيته، وهوحسين بن عبّود قسّام الخفاجي، ولد في النجف سنة ١٨٩٧، ونشأ في محافلها ومجالسها، وتفتّحت قريحته بوحي المنابر الحسينية. وأولع بالأدب العامي، وهو غضّ العود، ومال الى النظم والظرف والمفاكهة. قست عليه الحياة ومنحته البؤس والحرمان، فلاذ بالسخرية والهزء. نمت في نفسه نزعة الى الدعابة والهزل، فظهر أثر ذلك في شعره كما ظهر في مساخره وحكاياته. وقد زار بغداد مراراً وطوّف في أنحاء الفرات الأوسط، وعرف شعره وانتشر في المحافل الشعبية ومجامع العوامّ، وكانت له مع أقرانه من شعراء اللغة العامية صولات ومساجلات ومفاخرات. وقد توفيّ سنة ١٩٥٨. طبعت مجموعات من شعره، منها: الأفكار المطلسمة (١٩٥٧) سنجاف الكلام (١٩٦٣) قيطان الكلام (١٩٦٣) محراث الكلام (١٩٦٤).

ولعلّ شاعرنا قد أشبه في هزله والقياس مع الفارق الزمني ـ محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي المتوفّى بالقاهرة سنة ١٣١٠م، ذلك الشاعر الذي نعت بالأديب الحكيم الخليع وألف «طيف الخيال» وكان صاحب نكت ونوادر ومجون، وقد قال:

قد عقلنا والعقل أيّ وثاق وصبرنا والصبر مرّ المذاق
كلّ من كان فاضلاً كان مثلي فاضلاً عند قسمة الأرزاق

وقال سعيد الديوه جي أن ابن دانيال تفوّق في فنّ «خيال الظلّ» وكان يضع له القصة وينظم الأصوات ويلحنها ويعيّن الأزياء لها... أما حسين قسام فكان يسخر من السذّج الغرباء ولا سيّما الزوّار الهنود والفرس، ويمثّل في جموعهم مسرحيات يخرجها على قارعة الطريق، ويضفي عليها لبوس الجدّ والصرامة، ويكون في أكثر الأحيان مبدعها ومؤلفها وممثلها الوحيد.

كنّا ذات يوم نزور صديقاً لنا من أصحاب دور السينما، فجاء حسين قسام، ولم نكن نعرفه، فتقمّص دور صاحب دار سينما في بعض الألوية وأخذ يساوم صاحبنا على

شراء أفلام. وظلّ يتكلم في الموضوع كلاماً طويلاً ويجادل ويناقش ويوافق ويعارض، وصديقنا يلاطفه ويداريه ولا يشكّ في حقيقة أمره. ولما كشف أمره أخيراً أحد الحاضرين العارفين له، استذكرنا كلامه فوجدناه سفسطة خالية من المعنى!

ومثّل في يوم آخر دور قرويّ ساذج، فجاء الى دار السينما واشترى بطاقة الدخول، ثم دافع الناس وحاول أن يدخل من شبّاك بيع التذاكر، والناس تضجّ بالضحك ولا تشك أنه جاهل يسير على سجيّته.

ترجمه محمّد هادي الأميني في مجلة التراث الشعبي البغدادية (أيلول ١٩٦٣)، فقال إنه طرق جميع أبواب الشعر الشعبي ونظم فيها، فأبدع في تصوير مشاهد الحياة وآلامها وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها، وأطلق صرخات الأنفس الحرّة التي يعذّبها الظلم ويكويها الألم فلا تخور ولا تستكين. ونظم القصص والحكايات والنوادر والأمثال، ونقد عيوب المجتمع، وبرع في فنون الشعر كالموال والميمر والعتاب والأبوذيّة والحزّورات والهوسات... وأدخل في نظمه من المصطلحات الشعبية ما هو متداول في أنحاء العراق وسائر الأقطار العربية كلبنان ومصر والمغرب. ومن أمثلة شعره السّاخر وصيّة ريفي معدم لا يملك شروى نقير، فهو يوصي أهله بترك البكاء والتفّجع ويعدّد الأشياء التي خلّفها فإذا هي لا تخرج عن حيوانات هزيلة وخنجر بلا قراب وأثاث محطم ولوازم بيتية عتيقة، ويشدّد على أهله بالعناية بكل تلك الأشياء والمحافظة عليها...

ومن شعره الساخر قصائد يحسبها السامع هراء لما حوت من مبالغات وغرائب تفوق حدّ المعقول، ولكنها تظهر لدى التأمّل عميقة المغزى، بعيدة الغور في الهزل القائم على فكرة التناقض والتعجيز والتلميح. فمن ذلك قصيدته التي قالها يواسي صديقاً له سرق اللصوص متاعه القليل، فهو يعده بنصره ومساعدته، ويقول له: إنني لمرسلٌ لك جنوداً من الهنود تكرّ على خيولها في منتصف الليل وعند الظهر، بنادقها من الخشب ورصاصها نارنج، ترجّ البلد رجاً، وقد ساندها جموع العرب والكرد والبربر، رجالهم تمشي على أطراف النخيل وفرسانهم تجول فوق السطوح...

***

ذكر جعفر الخليلي حسين قسّام في الجزء الثالث من كتاب «هكذا عرفتهم» عند كلامه على الظرفاء الذين عرفهم، فقال إنه تجاوز الخامسة والستين من عمره فافتقد تلك المقدرة التي كانت تعينه على تمثيل أدوار المساخر المضحكة وضاقت به الدنيا، وأعسر فلم يكن له مورد سوى راتب ضئيل يتقاضاه من دائرة الأوقاف لقاء سدانته لمقام هود وصالح بمقبرة وادي السلام في النجف.

ثم قال إن حسين قسّام نسيج وحده في تمثيل الأدوار الفكاهية والظرف ونسج الأهابيل والنكات ونظم الشعر الهزلي. وهو يجيد تقليد أغلب اللغات ويجيد حكاية اللهجة في أية لغة ولكن بدون معنى. وكثيراً ما يراه الرائي وهو يكلم أحد الهنود أو الترك

أو الإيرانيين أو الإنكليز بلغة لا ينقصها شيء غير المعنى، فيهّزون رؤوسهم أمامه ويضربون عنه صفحاً. وهو يتكلم العربية بهذه الطريقة فلا يدعك تفهم منه شيئاً. وقد يقصد بعض الحكام شاكياً، فينصت له الحاكم ويسعى ليفهم شيئاً من كلامه، فلا يفهم إلا النهاية التي يتركها واضحة ليقضي على الشك الذي يبعثه سرعة كلامه وعدم اتزانه. وهو فوق ذلك يحسن تكييف نفسه وقلب سحنته كما يشاء دون أن تبدر منه بادرة تفسر عمله أو تشكك فيه. وقد سيق في أثناء الاحتلال الإنكليزي ليعمل في السخرة ويحمل أكياس الرمل لتقوية سداد النهر. فحمل حسين قسّام أول كيس مكرهاً، فحين عاد مع العائدين، انطوى على نفسه في غفلة من الحرّاس وعوّج إحدى رجليه وصعّد حاجبه الى لأعلى وجعل أعضاءه تهتزّ كمن به رجفة، ومرّ على هذا الوجه بين المراقبين وهم لا يشكّون أنه بعض العاجزين المشلولين المشوّهين. ولم يزل هذا شأنه حتى تجاوز حدود المراقبة فأطلق عند ذلك ساقيه للريح...

يذكرنا حسين قسّام المعوز الدائم الذي قلما يجد ما يقيت به أسرته بأبطال المقامات كأبي الفتح الاسكندراني صاحب بديع الزمان الهمذاني وأبي زيد السَّروجي صاحب الحريري وميمون بن خزام صاحب الشيخ ناصيف اليازجي، وغيرهم من الذين يحتالون لنيل رزقهم بشتى الحيل الأدبية واللغوية والتمثيلية. وكان حسين قسّام ينتظر قدوم الزوار الهنود والأفغانيين والأعجام الى النجف، فيقيم لهم المآتم الحسينية والعلوية ويستدرّ بكاءهم بخطبه الرنانة الفارغة وتعازيه السفسطائية، وهم لا يفهمون كلامه بل يتأثرون بكلماته وحركاته، ولا يبخلون عليه في آخر الأمر بالنقود، ثم يمضون راضين حاسبين أنهم قضوا واجباتهم الدينية.

أدب اللامعقول

LITERATURE OF THE ABSURD, OR IRRATIONAL LITERATURE

ظهر في أوربة في منتصف القرن العشرين مسرح اللامعقول، وهو تطوّر حديث للرمزية والوجودية والسريالية وما يكتنفها من غموض وإبهام، يرمي الى تجسيم سخافة الحياة وتهافتها واستحالتها. وممن برّز فيه أوجين يونسكو EUGENE IONESCO والأديب الفرنسي الإرلندي الأصل صموئيل بيكيت SAMUEL BECKETT. وحذا توفيق الحكيم حذوهم فوضع مسرحيته «يا طالع الشجرة».

وإذا دققنا شعر عبود الكرخي وحسين قسّام وغيرهما من شعراء العامية نجد أنهم سبقوا أولئك الأدباء الغربيين في أدب اللامعقول. ومن أمثلة ذلك قصيدة المستحيلات المنشورة في ديوان الكرخي والكثير من قصائد حسين قسّام كتلك التي نظمها يواسي صديقاً له سرق متاعه القليل ووصية الريفي المعدم عن توزيع تركته الهزيلة الخ.



عصر النهضة

النثر



محمود شكري الألوسي

العالم البحّاثة الذي أحيا سنّة جدّه شهاب الدين محمود الألوسي وضرب مثالاً سامياً في الزهد والقناعة والتجرّد للعلم. ولد في بغداد في ١٢ أيار ١٨٥٧ وتوفي بها في ٦ أيار ١٩٢٤. وقد ترجمت له ترجمة وافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

قال الدكتور علي المحافظة الأردني في كتابه «الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩١٤» (بيروت ١٩٧٥): «كان محمود شكري الألوسي مصلحاً دينياً سلفياً جمع بين مبادىء الدعوة الوهابية في الاعتماد على القرآن والسنّة ومحاربة البدع الدينية والطرق الصوفية وبين مبادىء النهضة العلمية العربية الحديثة في الاهتمام بالعلوم غير الدينية مثل التاريخ والفلك».

علي علاء الدين الألوسي

قاضي بغداد علي علاء الدين بن نعمان خير الدين بن محمود شهاب الدين الألوسي، ولد في بغداد في ١٧ شباط ١٨٦١. أخذ العلوم العقلية والنقلية عن والده وعن الشيخ عبد الوهاب النائب وإسماعيل الموصلي وابن عمّه محمود شكري الألوسي. وقد أرسله والده سنة ١٨٨٢ الى الهند، فاجتمع بالسيد صدّيق حسن خان (١٨٣٢ ـ ١٨٨٩) ملك بهوبال وفاتحه في طبع مؤلفات أبيه وجدّه، وأخذ عنه الحديث فأجازه إجازة عامة. ثم قصد الأستانة مع والده سنة ١٨٨٣، فانتمى الى مدرسة القضاة وتخرّج فيها.

وولي القضاء في عدة مدن في فلسطين وبعلبك والعمارة والديوانية. وعهد إليه، على أثر وفاة أبيه سنة ١٨٩٩، بالتدريس في مدرسة مرجان وجامع الشيخ صندل ببغداد.

وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب العثماني بعد إعلان الدستور (١٩٠٨) الى حلّه في ١٨ كانون الثاني (١٩١٢). ولما نشبت الحرب العامة أوفد مع محمود شكري الألوسي بمهمّة الى أمير نجد عبد العزيز آل سعود (تشرين الثاني ١٩١٤). وعاد الوفد

في نيسان ١٩١٥ ولم يفلح في مسعاه لحمل الأمير على مناصرة الدولة العثمانية. واختير بعد ذلك عضواً بمجلس الولاية العام.

احتلّ الإنكليز بغداد، فعيّن علي علاء الدين قاضياً لها سنة ١٩١٧. ثم أصيب بالفالج وتوفيّ ببغداد في ٧ كانون الثاني ١٩٢٢.

ذكره إبراهيم الواعظ فوصفه بالرزانة والخلق المتين، وأشار الى معارضته لسياسة الاتحاديين الأتراك. وقال: «ثم عرفته قاضياً بعد الاحتلال البريطاني، وكان صلباً في رأيه، متمسّكاً بدينه. وقد كلفه ناظر العدلية بونهام كارتر البريطاني بالموافقة على استبدال أموال الأوقاف، فلم يوافق وبقي مصراً على رأيه الى أن توفاه الله».

مؤلّفاته وشعره

ترك علي علاء الدين الألوسي مؤلفات، منها كتاب الدرّ المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (طبع ١٩٦٧)، ومجاميع ضمّنها نوادر وأخباراً وطرائف من شعره. ونظم الأجرومية وكتب تعاليق وحواشي على كتب كثيرة. وقد آلت معظم تصانيفه المخطوطة الى عبّاس العزاوي تلميذه وكاتب المحكمة الشرعية في عهده.

ونشر كتباً منها: نقد مقامات الحريري لابن الخشّاب (١٩١٠) والحباء في الإيصاء لنعمان الألوسي (١٩١٠) وسيرة الرسول لعبد الباسط زين الدين الملَطي القاهري الحنفي المتوفّى سنة ١٥١٤م (١٩١٠) وكتاب التوحيد للإمام جعفر الصادق (١٩١٢).

ونقل عن الفارسية رسالة للطوسيّ في معرفة التقويم.

كان ينظم الشعر مقلاً. وقد نظم ارجوزة في سور القرآن وقصائد في مدح جمال الدين شيخ الإسلام سمّاها «روضة الإفهام».

ومن شعره رثاؤه لصديقه مصطفى نور الدين الواعظ، قال:

أسفاً لقد حلّ الحِمام بفاضِل	من فقده الزَّوْرا بأمر باهظِ
قد كان في علم الشريعة حافظاً	ولسنة المختار جدّ محافظ
وله اليراع العضب يرعف ثغره	للدين خير مؤازر وملاحظ
فقضى حقوق العلم غير مقصّر	بكتابة وخطابة ومواعظ

وقال في السمر والبيض:

قالوا: جعلناك فيما بيننا حكماً	في السُّمْر والبيض، قلتُ: أصغُوا لتعريضي
كلا الفريقين عندي حبّهم حسن	لكنّ في السّمر معنى ليس في البيض!

وذكر إبراهيم الواعظ أنّ محمد رشيد رضا صاحب المنار زار بغداد سنة ١٩١٣ فحلّ

ضيفاً على بعض وجهائها. ولم يتمكن علي علاء الدين الألوسي من زيارته لبرود كان بينه وبين الوجيه صاحب الدار، فأرسل إليه بالأبيات التالية معتذراً:

أهلاً ببدر دنا، والدار نائية، والقلب من أهلها ـ حاشاكَ ـ نفّار
إنّي أحيّيك من بعد على ثقة بالودّ منك ودون القرب أعذار
قد يترك الماءَ محتاج اليه وقد تُعاف للهون أوطان وأوطار
لو كانت النار ما عاقتني ثانيةً عن الزيارة، إلاّ أنّه العار

***

ولي علي علاء الدين القضاء أعواماً طويلة في العهد العثماني وعهد الاحتلال، وكان يرى فيه رسالة سامية لإعزاز الحقّ ونصرة الضعيف. قال في ذلك:

إنّ القضاء هو البلاء، فلا تكن متعرّضاً فتصابَ من سوء القَضَا
وإذا ابْتُليتَ به على كُرْه فخذ نهج العدالة إنّها سبب الرّضا

وقال متشوّقاً الى بيروت:

لإخوان الصفاء محضت ودّي فأغنوني بهم عمّن عداهم
ترى عيني جميع الناس فيهم وإنّي لست في المعنى سواهم

وقال يحنّ الى العراق:

أومض البرق من ثنايا العراق فاستفاضت له شؤون المآقي
وبدا لامعاً فأجّج ناراً تتلظّى بين الحَشَا والتّراقي
ليت شعري، وللزمان شؤون، هل يضمّ الأحبابَ شملُ التّلاقي؟
وديارى كما أحبّ دياري ورفاقي كما أحبّ رفاقي؟

وقال:

روحي وجسمي لمّا بنتُمُ افترقا فالروح في بلد والجسم في بلد
بالله جودوا بطيف من زيارتكم كي تجمعوا لي بين الروح والجسد

عبد المجيد الشاوي

الأديب البغدادي الظريف صاحب الكلمات اللاذعة والاشارات البارعة. ولد في بغداد سنة ١٨٦٢ وتوفي في بيروت في ١٦ أيلول ١٩٢٧. وكان في العهد العثماني نائباً في مجلس المبعوثان. وأصبح في العهد الوطني وزيراً بلا وزارة ورئيس بلدية بغداد ومتصرف لواء الدليم ونائباً. وعين عضواً بمجلس الأعيان وقد اشتدّ عليه المرض، فقال

لما بلّغ بالإرادة الملكية :

أتت وحياض المـوت بيني وبينها   وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية ، ورويت طرفاً من أدبه ونوادره . وقد ذكره أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» فقال إنه حضر مأدبة في البلاط الملكي بثوب افرنجي عادي ولم يرتدِ اللباس الرسمي . وصفه بأنه ذلك العربي الحرّ الجريء الجامع بين محاسن البدو والحضر، ذلك الفيلسوف الذي نثر الحكم وما كتبها . وقال : كان له رأس كرأس سقراط شكلاً ومعنى ولسان كلسان صموئيل جونسن سقراط الإنكليز بفصاحته ولواذعه .

سمع الريحاني عبد المجيد الشاوي يقول في تلك الليلة : «وهذا الاستبداد الحديث العهد ، استبداد «الموضة» جاءنا كذلك من الغرب . أما نحن العرب فلا نضيع وقتنا ومالنا وتعقّلنا في سبيل «الموضة» ، فقد كان ، ولا يزال ، خلاصنا في بسيط عاداتنا وسذاجة طباعنا . أنتم تبدأون حيث يمكنكم أن تنتهوا . أقول : يمكنكم ولا أقول : يجب أو يجوز أن تنتهوا بهذه الرسميات ، بهذه الترّهات» .

فقال رستم حيدر: ولكنك أنت أيضاً خاضع لسلطة الموضة في ثوبك الإفرنجي هذا ، قابل باستبدادها . فأجاب الشاوي على الفور: وأنا أيضاً حمار! .

رويت عدداً من النوادر المحفوظة عن الشاوي في كتابي المذكور. وأروي هنا بعض الطرائف الأخرى :

وقف وزير المالية ذات يوم في مجلس النواب وقال في معرض كلامه : أبشركم بزيادة الضرائب في الميزانية المقبلة . فقال النائب ثابت عبد النور: يا لها من بشرى سعيدة يبشرنا بها معالي الوزير! ولم يكن من عبد المجيد الشاوي إلا أن قال : النائب معذور، فإنه لم يقرأ قوله تعالى : وبشرّ الذين كفروا بعذاب أليم (سورة التوبة) .

وكان الشاوي النائب إذا خرج من الجلسة مرّ بكتّاب الضبط وقال لهم ما معناه : «هنيئاً لكم ، يا أولادي ، تخرجون كلاماً منمقاً من الأحاديث السخيفة التي تسمعونها في المجلس» . وقيل إن بعض النواب كانوا يمرون بكتاب الضبط فيلاطفونهم ويرجونهم أن يصلحوا من الخطب والكلمات المرتجلة التي كانوا يلقونها في قاعة المجلس قبل إثباتها في المحاضر.

وكان الشاوي في مجلسه عصراً يحفّ به رجالات بغداد ولفيف من أبناء الأسرة الشاويّة ، فإذا به يسمع منادياً في الطريق ينادي على حمار ضائع ويعد بالحلوان لمن يدلّ عليه . فأمر بإدخال الرجل وقال له : هل حمارك حساوي أم شاوي ، يا ولدي؟ فقال : إنه شاوي ، يا سيدي .

وأشار عبد المجيد بك الى أفراد أسرته وقال له : دونك هؤلاء الشاوية ، فاختر واحداً

منهم بدل حمارك، والعوض على الله.

قام الملك فيصل الأول ذات مرة بزيارة للألوية مصطحباً بعض وزرائه وخواصّه ومنهم عبد المجيد الشاوي. ولما وصل الموكب الملكي الى العمارة، وكان متصرف اللواء عبد الله الدليمي، نزلوا في دار المتصرف الذي وقف وموظفيه في خدمة الملك. وكان الشاوي يكره الدليمي ويعلم أن هذا الضابط العسكري السابق والإداريّ اللاحق قد تزوّج من مطلقة الأمير زيد، فأسرّ الأمر في نفسه.

وفي الصباح بينما كان الملك وحاشيته يتناولون طعام الفطور والمتصرف واقف في خدمتهم، قال الشاوي: أليس من المناسب، يا سيدي صاحب الجلالة، أن نقرأ شيئاً من القرآن الكريم؟ وعجب الملك، وهو يعرف مخاطبه لا يعبأ كثيراً بأمور الدين، فقال له: تفضل اقرأ. وقرأ عبد المجيد الشاوي في سورة الأحزاب ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها..**﴾، فخجل المتصرف وانصرف.

والأسرة الشاوية التي ينتمي إليها عبد المجيد من أسر العراق القديمة تنتسب الى شاوي الشاهري الحِمْيَري رئيس قبيلة العُبَيْد من عشائر زُبَيْد، ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧٠٧ حين ذهب مع والي بغداد حسن باشا لتأديب قبائل زبيد والدليم. وكان ابنه عبد الله بك الشاوي «باب العرب» أي مدير شؤون العشائر في مقرّ الولاية، قتله الوالي عمر باشا سنة ١٧٦٩. وعلى أثر ذلك نهض ولداه سليمان بك وسلطان بك فحشدا عشيرتهما في ناحية الدجيل وأحدثا اضطراباً.

وكان سليمان بك بن عبد الله بك أديباً شاعراً تولّى منصب «باب العرب» أيضاً، وقد قتله الوالي سليمان باشا سنة ١٧٩٤. وانتدب محمد بك بن عبد الله الشاوي في حملة أرسلها الوالي سليمان باشا الى الأحساء لمحاربة الأمير سعود بن عبد العزيز. واتهم إثر عودته بالميل الى المذهب الوهابي فقتل سنة ١٨٠٢.

وعرف من متأخري أبناء الأسرة الشاعران أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩) وولده عبد الحميد بك المتوفى في البصرة سنة ١٨٩٨، وأحمد توفيق بك بن سالم بك (١٨٤٤ ـ ١٨٩٥) وكان موظفاً إدارياً تولى قائمقامية أقضية الشامية والسماوة والديوانية وخانقين.

***

رثاه إبراهيم صالح شكر عند وفاته فقال: «شعلة ذكاء متقدة عصف المنون بها فانطفأت وتركت في جوانب النفوس كآبة مظلمة ولوعة مدلهمّة».

وصف نفسه المراحة التي لم يلاطفها غير الأدب الغضّ وروحه اللطيفة الجذابة التي ملؤها الظرف والكياسة. وذكر دعابته الحلوة اللذيذة والبداهة الحافلة والحديث الطلي

الشهي المملوء عظـة وعبرة والروعة اللامعـة المبتسمة . ونعته بشيخ الشباب النـابه وفتى الشيوخ الأفاضل .

إغناطيوس أفرام الرحماني

إغناطيوس مـار أفرام الثاني الرحماني بطـريرك أنطاكية على السريان الكـاثوليك ومن علماء التاريخ واللغات الشرقية ، ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٤٨ ، وكان اسمه لويس بن إبـراهيم رحماني . درس اللاهـوت في روما ورسم كاهنـاً (١٨٦٣) ثم عاد الى مسقط رأسه واختير نائب أبـرشية الموصل سنة ١٨٨٠ . ثم كان أسقفـاً للرها (١٨٨٧) وبغداد (١٨٩٠) وحلب (١٨٩٤) واختير بطريركاً لطائفته في ماردين (ت١ ١٨٩٨) .

وقد نقل مـركز البطـريركيـة الى بيروت سنة ١٩٠٢ وأصدر مجلـة الآثار الشرقيـة سنة ١٩٢٦ . واختاره البابا بنديكتوس الخامس عشر مستشاراً للمجمع الشرقي في روما .

كـان يحسن لغات متعـددة قـديمـة وحديثـة منهـا العربيـة والفـرنسيـة والإيطاليـة والسريانية واليونانيـة واللاتينية والعبرية ، وله معرفة بالخطـوط المسمارية والكوفية . وقد توفي في القاهرة في ٧ أيار ١٩٢٩ ودفن في لبنان .

من مؤلفـاته : مقالـة في سوريا (١٩٢٦) مقـالة في مملكة أشـور (١٩٢٦) المباحث الجليّة في الليتورجيات (الطقسيات) الشرقيـة والغربية (١٩٢٤) مختصر التاريخ القديم (١٨٧٧) مختصر تاريخ الأجيال الـوسطى (١٨٧٧) مختصر التاريخ المقدس (١٨٨١) الخ . ووضع عـدا ذلك قـامـوس اللغة السريـانيـة ومصنفـات بـالـلاتينيّة والفـرنسيـة والسريانية .

قـال يوسف أسعـد داغـر في الجزء الثاني من كتـابه «مصـادر الـدراسة الأدبيـة» إن البطريـرك رحماني «استخدم معـارفه الواسعـة في علوم الـدين والدنيـا في حرث البحث العلمي الدقيـق وأمدّ الثقافـة والتاريخ المدني والكنسي بهذه الـدراسات المخـدومة التي نشرها بمختلف اللغات وبتلك المقالات المستفيضة البحث التي دبّجها في شتّى العلوم والموضوعات التاريخية واللغوية والكتابية . . . » .

أدِّي شير

المطـران أدّي شير إبراهينـا ولـد في شقلاوة في شماليّ العـراق في آذار ١٨٦٧ ، ودرس بمـدرسة الآبـاء الدومنيكييّن في الموصل ، وتعلّم اللغـات العـربية والكلـدانية والتركيـة والعبرية والفارسية والكردية واللاتينية والفرنسية . ورسم مطراناً على سعرد سنة ١٩٠٢ ،

وقتل في بعض قراها في أوائل الحرب العامة في آب ١٩١٥ خلال المذابح التي تعرض لها أبناء أبرشيته .

وضع مؤلفات كثيرة منها : الألفاظ الفارسية المعرّبة (١٩٠٨) التاريخ السعردي (لمؤلف نسطوري مجهول ، حققه وترجمه الى الفرنسية في جزءين ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) تاريخ كلدو وآثور (في جزءين ١٩١٢ ـ ١٩١٣) . مدرسة نصيبين الشهيرة (١٩٠٥) . ومن مؤلفاته الفرنسية المطبوعة في باريس : حوادث من تاريخ كردستان (١٩١٠) تاريخ محمد باشا المعروف بمير كور (١٩١٠) دراسة إضافية عن الكتاب السريان الشرقيين (١٩١٠) الخ . وعرّب كتاب «شهداء الشرق» في مجلدين (١٩٠٠) .

كان المطران أدّي شير في مقدمة العلماء الباحثين الذين تحرّوا أصول الكلمات واجتهدوا في إرجاعها الى مصادرها . وقد قال اللغوي الدكتور إبراهيم السّامرائي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة بغداد :

«أظنّ أن تجربة أدي شير صاحب «الألفاظ الفارسيّة المعّربة» وتجارب الآخرين . . . غير موفّقة ، لأنهم جاروا على العربية . فقد زعم غير واحد من هؤلاء الآباء الموقرين أن «كتب» و «قرأ» من المواد السريانية وهي دخيلة في العربية . ولا أدري كيف فاتهم أن هذه المواد العربية هي ساميّة الأصول ، فوجودها في العربية والسريانية والعبرانية والأكدية والأشورية وغير هذه من وجود اللغة الساميّة الأم .

على أني لا أنكر أن يكون في العربية دخيل معرّب اقتبسته العربية في عصور مختلفة من لغات عدّة لسبب من الأسباب ، وقد أشار الى ذلك القدماء والمحدثون» .

انستاس ماري الكرملي

البحاثة اللغوي والمؤرخ المحقق الأب انستاس ماري الكرملي ، واسمه قبل أن يترهب بطرس ميخائيل ماريني ، ولد في بغداد في ٥ آب ١٨٦٦ وتوفي بها في ٧ كانون الثاني ١٩٤٧ . أصدر مجلة لغة العرب الشهيرة وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام عند تأسيسه سنة ١٩٢٠ وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة .

وضع قاموساً ضخماً بعنوان «المساعد» ، طبع منه جزآن سنة ١٩٧٢و١٩٧٦ بعناية وزارة الإعلام العراقية وتحقيق كوركيس عوّاد وعبد الحميد العلوجي ، وهما يتناولان حرف الهمزة وقسماً من حرف الباء فقط . والمساعد إنما هو قاموس القاموسيين ، فليس هو بالمعجم الاعتيادي الذي يفيد منه القارىء والمتعلم والأديب ، بل هو ثبت للكلمات الغريبة والأصول اللغوية وقياس اللغات واللهجات مع جولات في الجغرافية والتاريخ وأساطير الأمم وتتبّعات في الكتب القديمة والحديثة ومناقشات للآراء والأسماء والأقوال والأفعال واستطرادات أدبية وعلمية وفكرية وشعبية عامية . . .

وعني الأب انستاس بتحرّي تطور معاني الكلمات ودلالاتها وإن كان يشدد على المعنى الأصلي ويعدّ المعنى الجديد في كثير من الأحيان غير فصيح. وقد ناقشته مراراً في هذا الموضوع وقلت إن اللغة كائن حيّ يتطور بتطور الزمن وظهور حاجات التعبير عن معاني العصر. فلا بدّ إذن من الاعتراف بأن الكلمات في جميع اللغات تتحوّر وجوه استعمالها: مثال ذلك أن (القهوة) في العربية كانت تطلق على اللبن المحض والخمرة ثم اتخذها المولّدون علماً للبنّ. و (القرن) يعني حقبة من الزمن ثم اختص بمائة سنة فقيل: القرن التاسع عشر والعشرون... و (الوجدان) مصدر للوجود ثم أطلق خصيصاً على الضمير والنفس. و (المقارنة) في الأصل المصاحبة والاقتران والجمع ثم أخرجت الى معنى المقايسة والمفاضلة. و (الثقافة) أتت بمعنى التقويم والحذق فصرف الى معناها الحاضر وهو الحضارة الفكرية وتهذيب العقول والأخلاق، لتنظر الى معنى كلمة (كولتور) الألمانية والفرنسية و (كلشر) الإنكليزية. وهذه الكلمة الغربية نفسها (كولتور) كانت تعني في بادىء الأمر الزراعة والعبادة والتحسين ولم تطلق على مفهوم الثقافة الحاضر إلا في أوائل القرن التاسع عشر.

ولا يزال الكتاب والمتكلمون يخرجون للكلمة معنى جديداً على صواب أو على خطأ فيشيع ويعمّ استعماله ويعسر على الفصحاء استئصاله. وليس ذلك بدعاً في العربية: فقد نبّه الدكتور مصطفى جواد على كلمة (الصمود) وقال إن العرب لم تعرف الصمود مصدراً وإنما المصدر (الصَّمْد) كالقصد وزناً ومعنى. فإذا كان العرب قد استعملوا الصمد في حروبهم للقصد والسير الى العدوّ، فكيف يستعمل للثبات والقرار وهو عكس معناه؟

ونبّه الدكتور جواد أيضاً، وهو تلميذ الكرملي، على كلمة (الاستهتار) فقال إن معناها الغرام والولوع بالشيء وأخطأ المحدثون في استعمالها بمعنى التهاون بالشيء والاستهانة به، كأن يقال: فلان مستهتر بالقانون. وقالوا (الهاوي) وجمعها (الهواة) بمعنى المحبّ وغير المحترف كالموسيقيّ الهاوي والمصارع الهاوي وهواة الطوابع وفصيحها (الهوي) بلا ألف، إذ معنى الهاوي لغةً: الساقط والجراد الخ. وكرّر مصطفى جواد تنبيهه وبحّ صوته في «قل ولا تقل»، لكن جمهور الكتاب والقراء لم يبالوا بذلك التنبيه واستمروا على أخطائهم لا يرضون عنها بديلاً.

وقد ترجمت للكرملي ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية» فليرجع اليها.

الأب أوغسطين مرمرجي

من علماء اللغة العربية الراهب الدومنيكي أوغسطين مرمرجي، وهو أوغسطين سِبَسْتيان ابن يوسف المعروف بالمرمرجي ابن جرجَس بن شمعون الحائك الموصلي الأصل. ولد ببغداد في ٣١ تموز ١٨٨١ من أبوين موصليين ودرس في مدرسة الإتفاق

الكـاثوليكي . ثم أرسل الى الموصل وانتمـى الى المدرسة الأكليركيّـة الدومنيكيّـة ، ورسم قسّيساً سنة ١٩٠١ .

عاد الى بغداد سنة ١٩٠٦ وعيّن معلّماً للعـربية في مدرسة الطائفة السريـانية . وأخذ يكـــاتب المجـــلات الشهيرة كــــالمشرق والبشير البيروتيّتين والمقتطـف والهلال المصريّتين . وبعد ستة عشر عاماً مضى الى فرنسة واعتزل في بعض أديرتها سنتين . واختير سنة ١٩٢٥ مـدّرساً في المعهد الكتـابيّ والآثاريّ الفرنسي بـالقدس الشريف . وانتخب عضـواً بالمجمـع العلمي العربي في دمشق وعضـواً مـراسـلاً في مجمع اللغـة العربيـة في القاهرة .

إختصّ الأب مرمـرجي بدراسة العربيـة ومقايستها بسائر اللغات السـاميّة ، ووضع مؤلفات في هذا الموضـوع ، منها : المعجمية العربية على ضوء الثنائيـة والألسنيّة الساميّة (١٩٣٧) هل العربية منطقيّة؟ (١٩٤٧) معجميّات عربيّة ساميّة (١٩٥٠) .

وألّف أيضـاً : بلدانيّـة فلسطين العربيـة (١٩٤٨) ، [وقد تـرجمه الى الفرنسيـة أيضاً وطبعـه في باريس] ، العـلاقات بين الأسرة والألفـة الاجتماعيّة ، محاضرات مختـارات في الدين والفلسفة والاجتماع (١٩٤٧) ، الخ .

وكانت له مناقشـات لغوية مع الأب أنستاس ماري الكرملي والبطـريرك إغناطيوس أفرام برصوم .

أدركته الوفاة في القدس في ٢٩ نيسان ١٩٦٣ .

يعقوب سركيس

أمضي فتبقى صــــورتي ، فتعجبـــوا : تمضي الحقـــائق والـــرســـوم تـــدوم

أهـداني يعقـوب سركيس صـورتـه قبل سنـوات فكتب عليهـا هـذا البيت من نظم نـاصيـف اليـازجي . ولم تمض على ذلك أشهـر قليلـة حتى أعيـاه الصمـم وأوصـاب الشيخوخـة فاعتكف في داره منقطعـاً عن أصدقائه مخلـداً الى وحشته وانفـراده . ووافته منيته ببغـداد في مساء الأربعـاء ٢٣ كانون الأول ١٩٥٩ قبيل منتصـف الليل . وكذلك انطوت صفحة ناصعة من صفحات الحيـاة الإنسانية ، صفحة حياة شيخ وقور انصرف الى البحث والتحقيق ودقق صحائف مجهولة من تاريخ وادي الرافدين وجمع خزانة كتب فريدة حافلة بنفائس المخطوطات والمطبوعات .

ولد يعقوب نعوم سركيس في بغداد في ٢١ آب ١٨٧٦ من أسرة حلبية الأصل ودرس في مدرسـة اللاتين فتعلم العـربية والفـرنسية والتركية . ولما تخرج في مـدرسته عهـد إليه بالتدريس فيها أمداً وجيزاً في محل أحـد المعلمين الغائبين . ثم ألحقه أبوه بعمل كتابي في

بعض البيوتات التجارية ليتعلم المراسلة والمعاملات. ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى توفي أبوه نعوم سركيس، وكان ملتزماً لمقاطعات في أنحاء المنتفك وملاكاً فيها، فتعهده عمه بولس وأخذه معه الى الشطرة للإشراف على مزارع الأسرة. ومنذ ذلك الحين أمضى أربعين سنة أو نحوها يخرج في كل سنة الى أنحاء الشطرة والحي وقلعة سكر والناصرية ليعيش أشهراً في الخيام أو الدور القروية متعهداً أملاكه وزراعته. ولم يشذ عن تلك القاعدة إلا في سني الحرب العالمية الأولى وبعض السنوات الأخرى، ثم انصرف عنها بعد أن اجتاز سن الكهولة. وكثيراً ما كان يبتهج بأنه نصف بدوي أو فلاح لقضائه معظم أيام حياته في القرى والأرياف واعتياده معيشة الخيام وركوب الخيل ومجالسته للزراع ورجال العشائر ومعرفته بعاداتهم وآدابهم وأهازيجهم. وكان محافظاً يلزم نفسه بالتقاليد القديمة ويقول في كل مناسبة تعرض: «قطع الخشوم ولا قطع الرسوم» يريد بذلك وجوب التقيد بالأصول والرسوم ولو أدى الأمر الى جذع الأنوف والإرهاق والأذى. وكذلك أصبح يعقوب سركيس قطعة من تربة الوطن وجزءاً لا يتجزأ من تاريخه قبل أن يتصدى لتدوين صحائف من أحداثه وشؤون رجاله وبقاعه. وقد ورث عن آله ميلاً الى جمع الوثائق والرسائل والمخطوطات، فانصرف الى هذه الهواية منذ نعومة أظفاره. ثم استبدت به هذه الهواية فجمع خزانة كتب ضخمة ضمت نفائس لم يتيسر اقتناؤها إلا ببذل المال الوفير وإنفاق سنين تربو على الخمسين. وقد حدثني مراراً عن المتاعب التي لقيها في شراء الكتب، لا سيما في صدر شبابه في أثناء عهد الاستبداد الحميدي. فلقد كان بيع عدد كبير من الكتب ودوائر المعارف محظوراً لاحتوائها على مباحث في الحرية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية. واضطر الشاب يعقوب سركيس أن يكلف صديقاً له زار أوربة في مطلع القرن الحاضر ـ وكانت تلك الرحلة من الأحداث النادرة آنذاك ـ كلفه بتهريب نسخة من دائرة المعارف الفرنسية ليضمها الى مكتبته، وبقي بحاثتنا يحتفظ بهذه النسخة ويحرص عليها الى آخر حياته.

وقد أشرف بحاثتنا على الأربعين من عمره دون أن تخطر الكتابة بباله. ثم أصدر الأب انستاس ماري الكرملي مجلته «لغة العرب» فشجعه على تدوين معلوماته عن المنتفك، فكتب نبذة عنوانها «خواطر في المنتفق وديارهم» بتوقيع مستعار. لكن يد الأب تناولت هذه النبذة بالتنقيح والتصحيح حتى «شوهتها» فطواها يعقوب سركيس وأغفل نشرها في مجموعته.

بيد أن تلك النبذة كانت فاتحة عهد جديد في حياة الأستاذ يعقوب، فقد واصل الكتابة منذ سنة ١٩١٣ ونشر مقالاته وبحوثه الممتعة في مجلات وصحف عديدة كمجلة لغة العرب وغرفة تجارة بغداد والنجم الموصلية والاعتدال النجفية والأدب والفن اللندنية ومعالم الغد والبيان والجزيرة وسومر والنور والمجمع العلمي العراقي وجريدة البلاد والزمان والعراق والأخبار والشعب والطريق والأوقات العراقية الخ. وقام بعد

إلحاح شديد من أصدقائه بجمع مقالاته في كتاب «مباحث عراقية» في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ , فأصدر القسم الأول سنة ١٩٤٨ بتقديم محمد رضا الشبيبي ، وأردفه بالقسم الثاني سنة ١٩٥٥ وقد قدمه رفائيل بطي ومير بصري . تضمن هذان الجزآن أغلب كتاباته التي تستوعب مجلدين آخرين .

واختاره المجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٤٩ عضواً فخرياً فكتب مقالات نفيسة في مجلة المجمع أهمها بحثه في النقود العراقية الذي جاء بشكل تعليق على كتاب الأب انستاس الكرملي في النقود العربية وعلم النميات ، وهو بحث مسهب يشكل كتاباً متوسطاً قائماً بذاته . وترجم يعقوب سركيس في أخريات أيامه الفصول المتعلقة ببغداد من رحلة أوليا جلبي ، نقلها عن اللغة التركية وشرع بكتابة الحواشي والتعليقات مما قدر له أن يتجاوز المتن ، لكن الزمن لم يسعفه لإنجازها .

وطريقته في الكتابة والبحث أن يراعي الدقة ويتحرى التفصيل ، لكن قلمه لم يكن يطاوعه ـ على ما كان يقول ـ فكان يصرف في كتابة البحث أو المقالة أياماً وأسابيع يراجع المصادر وينقل النصوص ويزن كل كلمة وعبارة خشية مجانبة الحق أو إساءة التعبير. وكان قلما يعنى بطلاوة الأسلوب وجمال الصياغة ، فلم يكن يعتبر نفسه أديباً وإنما كان يرمي الى الإفادة دون أن يهمه الإمتاع . وكنت أعرض عليه أحياناً شيئاً من شعري أو كتاباتي الأدبية فكان يقرأها بإمعان ثم يقول متواضعاً في صراحته المعهودة : «لعل هذا جيد ، ولكنني لا أستطيع الحكم» . أو ما كان في هذا المعنى . ومن أمثلة دقته أنه كتب ذات يوم يرد على أحد الأدباء في موضوع تاريخي فأشار الى إسم الكاتب «فلان الملقب نفسه بالفلاني» . فلما سألته لماذا لم يكتب «فلاناً الفلاني» كما هو المألوف قال «إن هذا الرجل يدعي الانتساب الى قوم مضوا ، فإذا ذكرت اسمه على علاته حسب مني ذلك إقراراً بنسبه» .

ولقد تحدثت قبل سنوات طويلة عن يعقوب سركيس البحاثة المؤرخ فقلت : حظي يعقوب سركيس بالصفات المطلوبة في المؤرخ المحقق ، فأولع منذ حداثته بتتبع الأخبار واستقصاء الأنباء ، وأوتي جلداً على التمحيص والتنقيب ، ومعرفة بلغات تعين على الإستطلاع والاستقراء ، وبصيرة نقادة تحاكم الوقائع وتميز بين المعقول والمختلق ، وغيرة على الحقيقة لا ترضى عن الصدق بديلاً ، وروحاً علمياً ينزع الى التدقيق والتحقيق يذلل الصعاب ويهزأ بالنصب والعناء . ورزق الى جانب ذلك قلما إن يكون رزين العبارة غير مشرق الديباجة ، فإنه واضح الأسلوب قريب المتناول بعيد عن التعسف والتكلف لائق بالبحث العلمي التاريخي . . إختص سركيس بعهود مجهولة من تاريخ هذه البلاد وأتيح له أن يجمع وثائق ومخطوطات نادرة ثمينة ذات صلة بهذه الحقبة من الزمن وأن يرث من أسرته أوراقاً يرجع أقدمها الى نيف ومائة سنة ، ويحوي بعضها معلومات ذات شأن لم ترد في مرجع معروف ويفسر وجودها هذا الميل المتأصل في نفسه الى التحقيق والتدوين .

ومن أثمن ما ضمته خزانة كتبه مجموعة كبيرة منقطعة النظير من الرحلات الى العراق لمختلف الرحالين الذين أتوا هذه البلاد منذ أقدم العصور حتى عهدنا الحاضر. وهذه المجموعة التي بذل صاحبها في سبيل الحصول عليها جهداً ومالاً وفيرين، كتبت بلغات مختلفة وفيها المطبوع والمخطوط، ومعظمها نادر عسير التطلاب. وإذا كان بحاثتنا قد جد في طلب هذه المصادر القليلة الشهيرة وأنعم النظر في ثناياها، فلا بدع أن جاءت أبحاثه غزيرة المادة طريفة الموضوع كاشفة لمناح مجهولة من تاريخ هذه البلاد في الأزمنة الأخيرة. ولا شك أن هذه الأبحاث سوف تبقى أسانيد تاريخية جليلة القدر كبيرة القيمة.

لقد عرفت الراحل الفاضل عشرين سنة ونعمت بصحبته وتمتعت بأحاديثه وأخذت من علمه وفضله وطالعت من مكنونات خزانته ما شئت ورغبت، فوجدته، على ما بيننا من فارق السن، نعم الصديق الوفي الكريم والرجل المهذب الوقور والعالم المتخلق بأفضل الأخلاق والمتبع لسنن العدالة والحق والمتسم بالرصانة والصراحة والصدق. لقد كان عصامياً بالرغم من ثروته وجاهه، وكان معتدلاً في كل أموره مبتعداً عن التفريط والإفراط، وكان حليماً واسع الصدر متواضعاً للصغير والكبير، فيا لأسفي على فقده ويا للوعتي وأساي على وفاته. إن الجيل الذي أنجبه قد مضى وانطوى في ذمة التاريخ، وقد بقي فقيدنا الى آخر أيامه مثالاً حياً لآبائنا الجادين الأخيار البسطاء وأنموذجاً طيباً لأحسن صفاتهم وشمائلهم. فيا أيها الشيخ النبيل والراحل الفاضل الجليل، لقد آلمني المصاب وأخرسني الحزن والشجن، فماذا أقول في تأبينك وكيف أثني عليك وأعدد ما شهدت من مزاياك وسجاياك؟ إنك حي في نفوس عارفيك، مأثور الفضل منشور الذكر، وقديماً قال المتنبي:

كفل الثناء له برد حياته ... لما انطوى فكأنه منشور

آثاره ومصادره:

إن أبحاث يعقوب سركيس ودراساته سوف تبقى مصدراً من مصادر تاريخ العراق في العهد العثماني الأخير يرجع اليها مؤرخ المستقبل في تحقيق موضوعه وتدوينه. وقد كان فقيدنا مولعاً بمباحثه يحبها حباً جماً ويتلذذ بكتابتها وتدقيقها وإعادة النظر فيها. وكان يقول: «أظن كتاباتي جيدة، ولكنني كالأب يحب أولاده في جمالهم ودمامتهم». وكان يتبجح ـ وهو الرجل المتواضع الذي يؤثر العزلة ويتحاشى الظهور ـ فيقول: «إن المصادر التي هيئت لي قلما هيئت لغيري...».

إن دراستنا لسيرة البحاثة الراحل لا تكون كاملة إذا لم نردفها بنظرة عامة في آثاره ومراجعه. إن كتابات يعقوب سركيس التي دونها ونشرها خلال حقبة تنيف على

الأربعين سنة تتناول مواضيع شتى وتستند جميعها الى مراجع مخطوطة أو نادرة . ومن أهم هذه المواضيع :

١ ـ تاريخ المنتفق وآل السعدون ، وقد كتب في هذا الموضوع صفحات كثيرة اعتمد في أغلبها على وثائق ذات شأن وصلت إليه من أبيه الذي كان وثيق الصلة بآل سعدون .

٢ ـ خطط بغداد وآثارها كمنارة سوق الغزل وجامع الخلفاء والمدرسة المستنصرية وجامع قمرية والمدرسة العمرية ودار المسناة والقصر العباسي وخان جغالة زادة المعروف بخان جغان الخ .

٣ ـ بحوث أثرية كموقع خرائب تلو (تل هوارة) وواسط وطاق كسرى .

٤ ـ بحوث في طائفة من مدن العراق كالبصرة والنجف والعمارة والكوت والبغيلة وآلتون كوبري .

٥ ـ بحوث في الملل والنحل كاليزيدية وعقائدهم .

٦ ـ تراجم أشخاص كنظمي وآله وإبراهيم يحيى العاملي وحكيم زاده البغدادي .

٧ ـ شؤون العشائر كآل قشعم وقبيلة العزة .

٨ ـ طرائف تاريخية كرحلة أول عراقي الى العالم الجديد وظهور حوت في دجلة والأسود في العراق واشتداد الحر وسقوط الثلج ومقاييس الماء وظهور أول سيارة وأول طيارة في بغداد وهلم جرا .

٩ ـ مباحث في تاريخ العراق الاقتصادي . وضع يعقوب سركيس دراسات ذات قيمة في هذا الموضوع . وقد سألته ذات مرة أن يجمع هذه الشذرات والمقالات بين دفتي كتاب يطلق عليه اسماً ذا دلالة على الموضوع ، فقال إنه يؤثر إدراجها في محلها من مجموعة مقالاته بحسب تسلسل تاريخ كتابتها . وقام فعلاً بذلك فنشرها في القسم الثاني من مجموعته «مباحث عراقية» فاستوعبت زهاء ١٦٠ صفحة من القطع الكبير . ويصح أن يضاف إليها بحوث أخرى منها «بعثة جسني رائد الفرات» بصدد الملاحة في هذا النهر (مجلة دار المعلمين العالية ـ ١٩٤٨) ورسالة مطولة في «النقود والنميات» (مجلة المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٥٠) الخ .

وأستطيع أن أقول إن إقدام يعقوب سركيس على تدوين مباحث في التاريخ الاقتصادي قد كان بطلب وإلحاح مني . فقد تعرفت عليه في مجلس أنستاس الكرملي في سنة ١٩٤٠ فلم ألبث أن دعوته الى الكتابة في مجلة غرفة تجارة بغداد التي كنت أشرف على تحريرها ، كما دعوت فريقاً من أفاضل الكتاب والعلماء أمثال انستاس الكرملي وعباس العزاوي ويوسف غنيمة ومصطفى جواد وداود الجلبي وهاشم جواد وعبد القادر رشيد وشيت نعمان وغيرهم .

وقد واصل يعقوب الكتابة في هذه المجلة من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٤٤، فتناول في مواضيعه مبدأ زراعة بعض الثمار والخضر في وادي الرافدين، وتاريخ التبغ والقهوة والنقود العثمانية وآخر العهد بضربها في بغداد، وواردات العراق بين عهدين، ورسم الاستهلاك في القرن التاسع عشر، وكمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع، وتعرفة الاحتساب، وواردات المنتفق، وتجارة البصرة في صدر المائة الماضية وهلم جرا. وفي وسعي أن أقول إن كل كلمة خطها وكل رقم ذكره يستند الى مصدر من كتاب قديم أو رحلة نادرة أو وثائق وأوراق خطية عثر عليها في الزوايا والخبايا. ومن المعلومات التي حققها أن زراعة الطماطة والفاصولية والبطاطة حديثة عهد في هذا القطر، وإن التتن قد عرف في العراق منذ مطلع القرن السابع عشر وعرفت القهوة قبل ذلك، وقد بني أول مقهى في بغداد سنة ١٥٩٠ م. وكانت واردات ولايات العراق الثلاث في أواخر العهد العثماني قبل الحرب العظمى الأولى ـ على ما خمنه ـ لا تزيد على ٩٠٠ ألف ليرة. وكان والي بغداد مفوضاً بسك النقود في دار الضرب (السكة خانة) ثم انقطع الضرب في سنة ١٨٣٥ على عهد الوالي على رضا باشا اللاز.

أما مصادر يعقوب سركيس التي كان يرجع إليها في تدوين مباحثه فأهمها، بلا ريب، رحلات الرحالين الذين أموا العراق في القرون الماضية. وقد جمع في مكتبته من هذه الرحلات الشيء الكثير ولا سيما كتب الرحالين الإفرنج الذين جاؤوا الى بلاد الرافدين منذ سنة ١٥٦٥ الى أوائل القرن العشرين. وهذه الكتب بلغات مختلفة كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والتركية، ومعظمها مطبوع قبل مئات السنين، وهي تجلو صفحة خفية من تاريخ هذا القطر وأحواله المعاشية والاقتصادية والسياسية.

ومن المصادر النادرة التي هيئت لبحاثتنا وثائق آل سعدون التي سبق الإشارة إليها وأوراق ورسائل لآل عبود أسرة والدته ـ وترجع هذه الأوراق الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ وقد استخرج منها فوائد كثيرة تتعلق بأخبار العراق وتجارته في ذلك العهد. وقد رأيت لديه سجلات يومية مخطوطة لعدد من الأشخاص باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية، منها ما يعود الى أوائل القرن الماضي وكان يرجع إليها بين الحين والحين لاستخراج معلومات طريفة وأخبار فريدة. ولا ريب أن أهم تلك السجلات يوميات يوسف زفوبودا البغدادي المتوفى سنة ١٩٠٨. كان هذا الرجل كاتباً في باخرة شركة لينج التي كانت تمخر عباب دجلة بين البصرة وبغداد، وقد حرص على تدوين مذكراته يوماً فيوماً باللغة الانكليزية خلال ٤٦ سنة فجاءت في ٦١ دفتراً وقع أغلبها في يدي يعقوب سركيس. كان زفوبودا يدون يومياً ما يسمعه من الأخبار والوقائع وما يحدث له من الأمور غثّها وسمينها، وقد كتب آخر كلماته قبل يومين اثنين فقط من وفاته.

إنني لأذكر هذه الدفاتر جيداً فهي على وفرة عددها بحجم واحد تفتح طولاً ومجلدة بجلد أحمر وقد كتبت بخط دقيق ظهر عليه الضعف واضحاً في الدفتر الأخير. ولغة الكاتب الانكليزية تتسم بالركة والخطأ، وأكثر مدوناته لا تعدو أخباراً شخصية أو عائلية تافهة، حتى ليحتاج قارئها الى حظ وافر من الصبر والجلد. ومع ذلك عكف يعقوب سركيس على مطالعتها سنين طويلة ووضع لها فهارس وجداول واستخرج من آلاف سطورها طائفة من الأخبار والوقائع والطرائف. وحري بالذكر أن معظم هذه الدفاتر آلت الى بحاثتنا قبل أعوام طويلة، ثم وجد في السنوات الأخيرة عدداً من الدفاتر الناقصة فكان فرحه بها عظيماً أشدّ من فرح الطفل بدمية جديدة يعثر عليها. وكانت معرفة سركيس باللغة الانكليزية ضئيلة فكان يستعين بي وبغيري من الأصدقاء لترجمة ما يريد من أخبارها.

يعقوب سركيس ومخطوطاته

خلف لنا أناتول فرانس، أديب فرنسة الفذّ، في بعض رواياته شخصية حيّة عجيبة هي شخصية «سلفستر بونار» عضو المجمع العلمي الذي يمثل البحاثة المدقق المنصرف الى التنقيب والتحقيق، المعتكف بين كتبه وأوراقه، الناظر بروحه وفكره الى زمان سالف. أولع الأستاذ بونار في صدر شبابه بالتحقيق التاريخي حتى انشغل به عن الزواج. واختص بتاريخ القرون الوسطى التي حجبتها سدل من الظلام كثيفة، فأكبَّ على دراسة مظانّها وتحرّي أخبارها وكشف مجاهلها.

وقف صاحبنا اتفاقاً، في بعض المراجع القديمة، على ذكر مخطوطة فريدة في بابها تضمنّت طرفاً نادرة من أنباء الحقبة التي أنفق عمره في تحقيق تاريخها، فهام بها وهو لا يدري أباقية هي في إحدى الزوايا أم قد ذهبت بها يد الحدثان. أصبحت هذه المخطوطة العدمليّة منية فؤاد أستاذنا، يحلم بها في يقظته ومنامه ويتغزل بها ويشتاق إليها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً. ومرت السنون وهو على عهدها مقيم، حتى أتيح له ذات يوم أن وجد اسمها في فهرس لأحد الكتبيّين الإيطاليين. فطار لبه فرحاً بها، وشدّ الرحال الى صقلية في سبيل شرائها، وهو الشيخ الذي مضت عليه ثلاثون سنة في دار واحدة لا يكاد يبرحها. لكنه تجشّم مشاقّ السفر الى ذلك البلد البعيد ليجد مخطوطته الحبيبة قد انتقلت الى نفس باريس التي خرج منها، فعاد اليها على عجل، والمخطوطة تمعن في الفرار منه، وهو يجدّ في أثرها، حتى حظي بوصلها، ولأياً ما فعل، إذ أهدتها إليه، بعد أن يئس من اقتنائها، جنّية من بنات الإنس راعية للجميل.

لم يدر في خلدي أن آنس ذات يوم بلقاء «سلفستر بونار» بشراً سوياً حتى هيء لي التعرف بيعقوب سركيس المؤرخ المحقق والتنعم بصحبته الكريمة وصداقته النبيلة.
أنفق سركيس سنين طويلة في جمع خزانة كتبه التي تضمّنت كل ما استطاع حيازته من مصادر تاريخ العراق، وفي مقدمتها رحلات الرحالين الشرقيين والغربيين الذين زاروا

بلاد الـرافدين خـلال الأعوام الألف الأخيرة، من ابـن جبير وابن بطوطـة وسيدي علي وأوليـا جلبي ودرّي أفنـدي ومصطفى الصدّيقـي وأبي طالب مـرزا، الى بـالبي وتكسيرا وديلا فالي وتيفنو وتافرنية ونيبوهـر وروسو وشيزني وجونس ولوفتس وسون وجرترود بل. لكن هذه المجموعة الفريدة في بابها قد أعوزتها مخطوطة لا تقوّم بثمن: فقد علم الأستاذ سركيس في أثناء مراجعاته، بوجود رحلة مخطوطـة لرحالة برتغالي قديم مجهول الاسم زار العراق في نحو سنة ١٥٥٤، وكانت هذه المخطوطـة النادرة في حوزة الميجر مارتن هيوم الانكليـزي في مطلع المائة العشرين. أشار الى هـذه الـرحلة البرتغـالية المستشرق غـاي لسترانج في هامـش كتابه «أراضي الخلافـة الشرقية» مستنـداً في ذكرهـا الى ما كتبـه عنها مـالك نسختهـا الفريـدة نفسـه في صحيفـة «الأثينيوم» في عـددهـا المؤرخ في ٢٣ آذار ١٩٠١. ولم يقرأ بحاثتنـا العراقي خبر هذه الرحلة في هـامش لسترانج حتى ملكت لبّه وشغلت بـاله، فشرع يبحث عن عـدد الصحيفة الانكليزيـة التي وصفتها. لكـن هذا العدد نفذت نسخه، وقد مرّت على صدوره عشرات الأعوام، فلم ينل ذلك من عزيمة البحاثـة المحقق، بل استمر على طلبه حتى وفّق للحصـول على نسخة منه ــ بعد بضع عشرة سنة! وقد سرّه أن يجد على صفحات هذا العدد رسالة من الميجر هيوم يصف فيها مخطوطته المجهولـة المؤلف ويسأل القراء أن يرشدوه الى صاحبها الـذي خرج من لشبونة في منتصف القـرن الســادس عشر، وجـاب أوربـة غـربيّهـا وشرقيهـا، ثم عـرج على الأناضـول وسوريـة وفلسطين ومصر ووصل أخيراً الى وادي الرافـدين والخليج العربي. وقد كتب البرتغـالي الذي غمـر اسمه وشخصـه حجاب النسيان يصـف البلدان التي زارها والمغامـرات التي خاضها في رحلته الطويلة الشـاقة، فكانت مدوّناتـه بعد مئات السنين سجلاً رائعاً لعهود بعيدة وأقطار مغمورة.

يـا لسرور الأستـاذ بـالعثور على وصـف مخطوطتـه الحبيبـة بقلم من حـاز نسختهـا الوحيدة! لكن هذا الوصف لم يكن ليبلّ الغلّة، بل إنه لم يكن إلا ليزيد الظمأ الى الرحلة الموصوفة كما يشتدّ جوع الجائع عند ذكـر الطعام السائغ المريء. فكيف الحصول عليها وأين الوصول إليها؟ لقد امتلكها ضابط انكليزي في مطلع القرن، فماذا فعل الدهر بهذا الضابـط وماذا حلّ بمخطـوطته الثمينة؟ أهـي لا تزال في قيـد الوجود خبيئـة في بعض الزوايا، أم قد ذهبت بها يد العبث والإهمال فزال أثـرها وزال بزوالها آخر سجلّ لمغامرات عجيبة شـائقة؟ أم لعلها قد وقعت في قبضـة هاوي كتب متبلّد الـذهن، فعضّ عليها بالنواجذ وضمّها في خزانة مغلقة ينفس عليها نور الشمس وأعين الناس... لقد نقب بحـاثتنـا وأمعن في التحقيق والتـدقيـق، وراجع فهـارس دور الكتب وقـوائم الكتبيّين والهواة، وكتب الى «لوزاك» وأمثال «لوزاك» من قنـاصة الآثار الشرقية النادرة... ولكن هيهات أن يجد الى ضالتّه المنشودة سبيلاً...

وقد أهـديت كتب يعقـوب سركيس ومخطوطـاته بعـد وفاتـه الى جامعـة الحكمة في

بغداد، فعهد الى كوركيس عوّاد بوضع فهرست للمخطوطات صدر سنة ١٩٦٦ . ثم نقلت الى مكتبة المتحف العراقي في تموز ١٩٧١ .

كان ليعقوب سركيس دائرة معارف بريطانية تتألف من عشرات الأجزاء مطبوعة قبل سنة ١٩٠٠ ، وكان يعتز بها كل الاعتزاز. وقد اشترى طبعة جديدة بعد ذلك، لكنه بعد أن أهدى الطبعة القديمة عاد فاسترجعها وضمّها الى مكتبته . وقد سألته عن السبب فقال : إن طبع الكتب والجرائد واستيرادها كان ممنوعا في عهد الاستبداد الحميدي يعاقب عليه بأشدّ العقوبات، لا سيّما تلك التي تذكر الحرية والحقوق المدنية والثورة والتاريخ الحديث . وقد سافر صديق له الى أوروبة سنة ١٩٠٠ فكلفه بجلب دائرة المعارف له، فتحمل مشقة كبيرة في إدخالها الى ميناء البصرة وحملها الى بغداد خوفاً من الكمارك والرقباء . ووضعها يعقوب سركيس في مكان خفيّ من داره حذراً من العيون يطالعها سراً، حتى إذا ما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وتم تحرير المطبوعات، أخرجها الى النور بلا وجل .

كان يعقوب سركيس يمتلك مخطوطاً في تاريخ آل سعود والوهابيين كتبه أحد كتابهم في نحو سنة ١٨٧٥ . وقد ترك المؤلف خدمتهم والتحق بخدمة آل سعدون في المنتفق، فأجرى في مخطوطته بعض التصليحات .

وكان يعقوب سركيس يحرص على هذه المخطوطة ويعدّها فريدة في موضوعها، وقال لي إنه يرضى ببيعها الى الحكومة السعودية إذا دفعت فيها ثمناً كبيراً، لا سيّما أنها تقبض إيراداً جسيماً من مواردها النفطية .

ودعونا الشيخ عبد الله الخيّال سفير المملكة العربية السعودية في بغداد ورفائيل بطّي لفحص المخطوطة، فأبدى السفير اهتمامه بها ووعد أن يكتب الى حكومته حاثاً إياها على شرائها . ولكن لم يحصل أي نتيجة .

ولما توفي يعقوب وقام أخوه يوسف بإهداء مكتبته الى جامعة الحكمة، أخبرته بقيمة المخطوطة، فآثر الإحتفاظ بها ولم يهدها مع الكتب والمخطوطات الأخرى التي آلت بعد ذلك الى الحكومة العراقية عند تأميم الجامعة .

هذا وقد جمعت مقالات سركيس في كتابه «مباحث عراقية : في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ . (الجزء الأول ١٩٤٨ ، الثاني ١٩٥٥). وله أيضاً : تلّو أي تل هوارة (١٩٣١) شهداء حلب (١٩٣٤) التتن والقهوة في العراق (١٩٤١) كمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع وخلفه السلطان إبراهيم (١٩٤٢) واردات العراق بين عهدين (١٩٤١) . وعني بنشر الجزء الثالث من «مباحث عراقية» معن حمدان علي سنة ١٩٨١ .

أصيب يعقوب سركيس في السنتين الأخيرتين من حياته بمرض الشيخوخة فصار

ينسى الحوادث القريبة . سألته يوماً عن الجزء الثالث من مباحثه العراقية الذي جمع مقالاته وهيأها للنشر فقال لي لا أذكر ذلك . ثم سألته عن مجيء سليمان البستاني مترجم الإلياذة الى العراق قبل سبعين سنة ، فانبرى يذكر التفاصيل بدقة وقال إن البستاني جاء الى بغداد والبصرة وأقام فيهما ثماني سنين ومارس التعليم والتجارة واقترن بفتاة عراقية . . . ولم ينس بحاثتنا الشيخ الأحداث التي مرت قبل عشرات السنين .

رشيد السعدي

محمّد رشيد بن داود السعدي ، كان أبوه الشيخ داود من علماء بغداد وعيّن مدرساً ومفتياً للمنتفق سنة ١٨٥٥ . ثم تولّى إفتاء الجيش في الاحساء وألف رسالة في «طريق الحج من الاحساء الى الرياض فالحجاز» طبعت سنة ١٨٧٢ . وتوفي ببغداد سنة ١٨٧٦ .

درس محمد رشيد على علماء عصره وأنشأ مطبعة في بغداد سنة ١٩٠٣ . وألف كتباً منها : غاية المراد في الخيل والجياد (١٨٩٦) قرّة العين في تاريخ الجزيرة والعراق وبين النهرين (١٩٠٧)، ونشر من الكتب : سبائك العسجد لعثمان ابن سند (١٨٩٧!) وديوان الشيخ كاظم الأزري (١٩٠٢)وقد طبعت تلك الكتب جميعها في بومبي بالهند .

قال إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون» : «كان هذا الرجل أعجوبة في قوة الحجة وبعد النظر والاطلاع الواسع على قياسات أغلاط أهل المنطق ، يناظر ويبحث في علوم الملل والأديان فلا يجعل للخصم حجة ولا يبقي له كلاماً . كان آية في عرض الكلام في معارض بلاغية متنوّعة . . » .

كان له شعر، وتوفي ببغداد سنة ١٩٢١ .

الدكتور سليمان غزالة

الطبيب الشاعر الأديب الدكتور سليمان غزالة ، وهو عبد الأحد سليمان بن جرجس بن يوسف غزالة ، ولد ببغداد في ٢١ أيلول ١٨٥٣ ودرس فيها . ثم قصد الموصل لمواصلة الدراسة ، وعاد الى مسقط رأسه سنة ١٨٧٠ ، وعيّن معلماً في مدرسة الأليانس الأهلية (١٨٧٣)، وشدّ الرحال بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٧٩ فكان معلماً بمدرسة اليسوعيين ، لكنه أكبّ على الدرس في الوقت نفسه .

وسافر الى باريس في السنة التالية فانتمى الى كلية الطبّ (١٨٨١) وتخرّج طبيباً سنة ١٨٨٦ . واختصّ بالقبالة وطبّ العيون والبكتريولوجية ثم عاد الى الاستانة سنة ١٨٨٧ وحصل على وظيفة طبيب صحة العراق .

وقد وصل الى البصرة في حزيران ١٨٨٨ ، وجعل مقرّه في الحلة ، وعهد إليه بمكافحة وباء الهيضة والطاعون في الألوية الجنوبية . وفي سنة ١٨٩٣ أوفد بمهمة صحية الى طور سيناء ، ورحل منها الى الاستانة وسيواس ونواحي الأناضول وحلب في سبيل أداء أعماله الطبية .

عيّن طبيباً في طرابلس الغرب في كانون الأول ١٨٩٥ ، ثم نقل الى دمشق سنة ١٨٩٧ . وتوفيت زوجته الأولى صوفي كرومي ، فسافر الى باريس مجازاً . وتعرّف بالأديبة الفرنسية جان التي اشتهرت باسمها المستعار غي دافلين GUY D'AVELINE واقترن بها في العاصمة الفرنسية في ١٢ آب ١٨٩٧ ، وعمرها آنذاك نحو ٣٠ سنة .

وعاد الدكتور غزالة بزوجته الى الأستانة فأعيد تعيينه الى طرابلس الغرب (شباط ١٨٩٨) . وظلّ فيها الى الاحتلال الإيطالي ، فغادرها الى مالطة (تشرين الأول ١٩١١) ، ومن ثمّ قصد الأستانة فعيّن طبيباً للسفارة التركية في طهران . وقد وصل إلى إيران في آذار ١٩١٢ ، واختير رئيساً لمجلس الصحة الدولي في العاصمة الفارسية في تشرين الأول ١٩١٤ الى كانون الثاني ١٩١٦ .

وقد رجع الى بغداد بعد غياب طويل في كانون الثاني ١٩٢٠ . واتخذ مقامه في البصرة وانتخب نائباً عنها في المجلس التأسيسي (أيار ١٩٢٤) ، وبعد ذلك في مجلس النواب (١٩٢٥ ـ ٢٨) . وأدركته الوفاة في بغداد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٩ .

مؤلفاته

وضع سليمان غزالة مؤلفات كثيرة بالعربية منظومة ومنثورة ، منها : رواية لهجة الأبطال (١٩١١) سوانح الفِكَر (١٩١٥) سوانح الكَلِم (١٩١٥) السّبيل الأقصد (١٩١٧) سبب الموت الطبيعي (بالعربية والفرنسية) ، القصيدة الفيصلية (١٩٢٤) الحرية فلسفياً (١٩٢٤) الاعتماد على النفس (١٩٢٧) المعضلة الأدبية (١٩٢٧) حياتي الشخصية والوظائفية (١٩٢٩) الخ .

وصنّف «الوضيعة في الحكمة الخلقية في ١١ كتاباً (١٩٢٤ ــ ٢٧) ، وهي تتناول : الحياة الاجتماعية (١٩٢٤) منهاج العائلة (في جزءين ١٩٢٤ ــ ٢٦) خلاصة أركان الاقتصاد السياسي (١٩٢٦) العشق الطاهر (١٩٢٥) القصيدة الفردوسية (١٩٢٤) تاريخ الحرية البشرية (١٩٢٦) الهوى (١٩٢٦) الحبّ البشري (١٩٢٦) خلاصة الأدب الرياضي العملي (١٩٢٧) الاقتصاد السياسي (١٩٢٧) الأدب النظري العمومي (١٩٢٧) .

أما زوجته الثانية الفرنسية فكانت روائية معروفة ولها مشاركة في الفنّ كالرسم بالزيت على قماش الكتان . ولدت سنة ١٨٦٧ ، وعاشت مع قرينها في طرابلس الغرب وطهران والبصرة وبغداد وتوفيّت بعده . ونشرت باسمها المستعار «غي دافلين» روايات لطيفة باللغة الفرنسية أشهرها «أتيلا» ملك الهون الذي دمّر الحضارة الأوروبية في القرن

الخامس الميلادي، وكان يقال إنّ العشب لا ينبت حيث وقعت سنابك خيله. وقد قال الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في هذا الفاتح الطاغية:

إنّ آتيــلا، ومــا كـــان ســـوى ... نقمـــــــة الله وسيـف الغضب
مـــلأ الأيـــام هــــولاً ودمـــاً ... فحَشَــاهـــا خـــافق من رهـب
وهـــو المأثــور عنـــه قـــولـــه ... في سبيل الفخـــر فـــاسمع واعجب:
«لم يغـــادر بي جـــوادي تـــربـــة ... وعليهـــــا أثـــــر للعشب!»

ومن رواياتها الأخرى: رسّام السيّدة، سكن بيننا، كنز علي خوجه، نجم بزغ، وردة الشواطىء، مريم المجدليّة (١٩٢٧) الياقوت القتّال (١٩٢٧)، الخ.

وكان للدكتور غزالة وقرينته، بعد إقامتها في بغداد سنة ١٩٢٤، مجلس يؤمّه رجال البلد وتبحث فيه موضوعات العلم والأدب والفن والاجتماع.

آغا بزرك الطهراني

الشيخ محمّد محسن بن علي الرازي المؤرخ البحاثة المعروف باسم «آغا بُزُرْك الطهراني»، ولد بطهران في ٧ نيسان ١٨٧٦ ودرس على علمائها.

قدم النجف سنة ١٨٩٥، فتتلمذ على يد الشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمّد طه نجف وغيرهم. ثم قصد سامرّاء ولازم محمد تقي الشيرازي أعواماً. وعاد الى النجف سنة ١٩٥٥ فانصرف الى التأليف والتصنيف. وجمع خزانة كتب حفلت بنفائس المطبوع والمخطوط، وقفها على طلبة العلم سنة ١٩٥٥. ورحل الى إيران والهند وسائر الأقطار الإسلامية والعربية بحثاً عن المصادر للموسوعة التي عكف على وضعها في تصانيف الشيعة.

توفي بالنجف في ٢٠ شباط ١٩٧٠.

قال فيه سلمان هادي الطعمة: «إنّ هذا المفكر الذي عرفته عالماً بارعاً وأديباً فذاً ورجل بيان أمضى حياته بالتتبّع والدراسات العميقة، أوتي مكانة فريدة في الثقافة الجامعة وأحاط بأسرار اللغتين العربية والفارسية...».

وضع مصنفات كثيرة أهمها: الذريعة الى تصانيف الشيعة (صدر منه ١٨ جزءاً في ٢١ مجلداً، ١٩٣٧ ـ ٦٧)، الكرام البررة (في جزءين ١٩٥٤ ـ ٥٨)، نقباء البشر في القرن الرابع عشر (٤ أجزاء ١٩٥٤ ـ ٦٨). وله أيضاً: حياة الشيخ الطوسي (١٩٥٧) ذيل كشف الظنون (١٩٦٧) المشيخة (١٩٣٧) مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال (١٩٥٩) الخ.

اسماعيل باشا البابان

من فضلاء الأسرة البـابانية اسماعيل بـاشا المعـروف بالبغدادي أو النـوري ابن محمد أمين باشـا بن سليم بـاشا، ولد ببغـداد ودرس في استانبـول. وكان من رجـال الجيش التركي في عهد السلطـان عبد الحميـد الثاني، نـال رتبة أمير لواء. وكـان آخر منـاصبه مديـرية الشعبـة الثانيـة لدائرة الضبطيـة (الشرطة) في استـانبول قبل أن يعتـزل الخدمة وينصرف الى التأليف.

إشتهر بكتابـه «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنـون» (طبع في مجلدين سنة ١٩٤٥ ـ ٤٧)، وقـد أنفق في تأليف هذا الذيل نحـواً من ثلاثين سنة وفـرغ من تصنيفه سنة ١٩١٢. وألف أيضاً «هدية العارفين» في أسماء المؤلفين وأثار المصنّفين (في مجلدين ١٩٥١ ـ ٥٥).

توفيّ إسماعيل باشا في استانبول سنة ١٩٢٠.

قال عباس العزاوي إنه كان دؤوباً على العمل، عارفاً بالكتب والمخطوطات، وكان الى ذلك خطاطاً ماهراً يشار اليه بالبنان.

يوسف رزق الله غنيمة

الوزير البحاثة الأديب يوسف رزق الله غنيمة ولد في بغداد في ٩ آب ١٨٨٥ وتوفي في لندن التي قصـدها مستشفياً في ١٠ آب ١٩٥٠. كـان وزيراً للمالية والتمـوين وعضواً بمجلس الأعيان ومديرا عاماً للآثار الخ.

من مـؤلفاتـه: تجارة العراق قـديماً وحديثاً، نـزهة المشتـاق في تاريـخ يهود العراق، محاضرات في مدن العراق، الحيرة: المدينة والمملكة العربية الخ.

أسهبت في ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

***

نشر المحامي حارث ابن يوسف غنيمة كتاباً في سيرة والده: يوسف غنيمة من أركان النهضـة العلمية في العـراق الحديث (طبع ببغـداد، ١٩٩٠) وكـان قد نشر أيضـاً قبل ذلك «يوميات يوسف غنيمة: رحلة الى أوروبا ١٩٢٩» (بغداد، ١٩٨٦).

ذكر حارث ان الجدّ الأعلى للأسرة القسّ يشوع بـن الشماس غنيمة كان من النساطرة متزوجـاً حسب عادة الكهنة الشرقيين، وكان يقيم في بغـداد في النصف الأول من القرن السابـع عشر. وانتمى حفيده عيسى بن الشماس غنيمـة الى الكنيسة الكـاثوليكيـة سنة ١٧٤٣. أما والد يـوسف، وهو رزق الله غنيمة، فكان رئيس كتـاب المكوس في بغداد

وتوفي في الثامنة والثلاثين من عمره. ولما ولد يوسف سمي يوسف نعمة الله قرياقوز لكنه عرف باسمه الأول. وتوفي والده وهو في الخامسة من عمره فكفلته والدته ورعاه عمّاه شكر الله ونصر الله.

درس في المدرسة الكلدانية الابتدائية ثم انتقل في أوائل سنة ١٨٩٨ الى مدرسة الأليانس وتخرج فيها سنة ١٩٠٢، وقد تعلم فيها اللغات العربية والفرنسية والانكليزية وشيئاً من التركية والعبرية إضافة الى العلوم والرياضيات والجغرافية والتاريخ. وألم بعد ذلك باللغة السريانية، ودرس العربية على الأب انستاس ماري الكرملي. وافتتح سنة ١٩٠٦ محلاً تجارياً وحصل على وكالات لاستيراد المضخّات والمحرّكات الخ.، وأسس فندقاً عصرياً بعد الاحتلال البريطاني. وأنشأ سنة ١٩٠٩ بالاشتراك مع المعلم داود صليوا جريدة «صدى بابل».

انتخب عضواً في مجلس إدارة لواء بغداد (شباط ١٩٢٢)، وتولى تدريس تاريخ المدن العراقية في مدرسة المعلمين العالية المؤسسة في كانون الأول ١٩٢٣. وانتخب نائباً في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) وكان مقرراً للجنة تدقيق لائحة القانون الأساسي. وأصدر جريدة «السياسة» اليومية في ٣ آذار ١٩٢٥، الى ٣ تموز ١٩٢٥، وانتخب نائباً عن لواء بغداد (حزيران ١٩٢٥) ثم أوقف صدور جريدته.

أصبح وزيراً للمالية (١٩٢٨ ـ ٢٩) و ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ـ ٣٥ و١٩٣٥، ووزير التموين (١٩٤٤ ـ ٤٦) ووزير المالية (١٩٤٦) مع وكالة وزارة التموين، ووزير المالية (١٩٤٧ ـ ٤٨).

غادر العراق بإجازة مرضية في تموز ١٩٢٩ قاصداً الاستشفاء فزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر وإيطالية وفرنسة وانكلترة وعاد عن طريق فرنسة وايطالية وتركية وسورية ولبنان في تشرين الأول ١٩٢٩.

أعاد إصدار جريدة السياسة بعد تعطيل جريدة نداء الشعب لتكون لسان حال حزب الآخاء الوطني (٣٠ كانون ثاني ١٩٣١) ثم عطلتها الحكومة في ٢٤ آذار ١٩٣١. ثم عين مديراً عاماً للواردات (٢٤ كانون أول ١٩٣٢) فمديراً عاماً للمالية (١٦ حزيران ١٩٣٤) فوزير المالية (٢٧ آب ١٩٣٤) نائب بغداد (كانون أول ١٩٣٤) الى نيسان ١٩٣٥. وزير المالية (٤ آذار ١٩٣٥) الى ١٦ منه. عين مديراً عاماً للمالية للمرة الثانية (٢٧ حزيران ١٩٣٥)․تولى مديرية الأملاك والأراضي الأميرية العامة أيضاً بالوكالة (تموز ١٩٣٥) ثم عين مديراً عاماً للمصرف الزراعي الصناعي بالوكالة (آذار ١٩٣٦). ثم نقل من مدير المالية العامة مديراً عاماً للمصرف أصالة (١٢ كانون أول ١٩٣٦). الى ١٩ تشرين ثاني ١٩٤١ حين نقل مديراً عاماً للآثار مع بقائه مديراً عاماً للمصرف بالوكالة الى ١٧ آذار ١٩٤٢. ثم تولى مديرية المصرف بالوكالة أيضاً من ٢٧ تشرين أول ١٩٤٣ الى ١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ بالإضافة الى مديرية الآثار وبعد ذلك مديرية

التموين العامة. وقد قام المصرف بإمداد الزراع بالسلف والتدخل في الأسواق لرفع أسعار المحاصيل كالقطن وبذر الكتان والمساهمة في المشاريع الصناعية كشركة السمنت العراقية وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة تجارة وطحن الحبوب ومشاريع أخرى تتعلق بنسج القطن وأهراء الحبوب ودباغة الجلود وصيد الأسماك.

عين مديراً عاماً للآثار القديمة (٢٠ تشرين ثاني ١٩٤١) وكان نائب رئيس لجنة التموين الاستشارية أيضاً (نيسان ١٩٤٢). ونقل مديراً عاماً للتموين (٢٥ حزيران ١٩٤٤) وأصبح وزير التموين (١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ الى ٢٣ شباط ١٩٤٦. وعين عضواً بمجلس الأعيان خلفاً للبطريرك يوسف عمانوئيل الثاني المستقيل (١٤ أيار ١٩٤٥). ودخل في وزارة أرشد العمري وزيراً للمالية ووزير التموين بالوكالة (١ حزيران ١٩٤٦). وقد استقال من وكالة التموين في ٣١ تموز ١٩٤٦. واستمر في المالية الى استقالة الوزارة في ٢٠ تشرين ثاني ١٩٤٦. وتقلد وزارة المالية أيضاً في وزارة صالح جبر (٢٩ آذار ١٩٤٧)، وتم في عهده تأسيس البنك المركزي الذي عرف باسم المصرف الوطني العراقي (تشرين الثاني ١٩٤٧). واستقال من الوزارة بعد أحداث الوثبة المعارضة لمعاهدة بورتسموث في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨.

تكلمت عن أدبه ومؤلفاته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية». وقد ذكرت مقالاته التي نشرها سنة ١٩٢٩/ ٣٠ عن «حقوق الفلاح والعامل في العراق». وقد قال هاشم جواد عنه إنه سبق الصحفيين والتقدميين في ميدان المطالبة بحقوق الفلاح والعامل وأشار بكل قوة وحماس الى ضرورة العناية بالطبقة العاملة في المعامل والمزارع. وذكر ما كتبه يوسف غنيمة سنة ١٩٢٩ إن من واجب العدل ومقتضيات النظام الاجتماعي الراقي أن تضمن راحة كل أفراد الأمة وتكفل طمأنينتهم مدى الحياة، فضلاً عن وجوب الاهتمام بإعالة ذويهم بعد موتهم، وذلك بتحديد ساعات العمل وتوفير شروط الصحة في محلات سكناهم وأعمالهم وأمان ومستقبل كل فلاح وعامل وغيرهما ويفكر في وسائل معيشتهم عند العجز والهرم وحلول العاهات، ويقام بإعالة أيتامهم وأراملهم بعد موتهم.

وتساءل هاشم جواد هل قال لورد بيفيريج أكثر مما قاله هذا الرجل العراقي قبله بستة عشر عاماً؟

وقال يوسف غنيمة إن مطالب الفلاح يجب أن تشمل بقاء الحكومة مالكة لرقبة الأرض، وتفويض الأراضي للفلاح والعامل بيده وترجيحه على من سواه، وتشجيع الملكية الصغيرة والحدّ من مساحة الأراضي التي يملكها الشخص الواحد، وتأليف مصرف زراعي ونقابات زراعية، وحماية الإنتاج الزراعي وإيجاد الأسواق له، الخ.

أما مطالب العمال فلخصها في تحديد سنّ العمل وساعات العمل والأجرة الصغرى، وضمان العمال في حالة المرض وعند وقوع الحوادث المهنية وعند الشيخوخة

والعجز، ومعاونة العمال في أيام العطل، ومكافحة البطالة، والمساعدة في إيجاد مساكن صحية ورخيصة، ورفع مستوى التهذيب، الخ.

طـه الـراوي

الكاتب المحقق اللغوي «معلم الجيل» طه الراوي ولد في بلدة عانة المقابلة لراوة على الفرات (كما أعلمني بذلك ولده حارث) سنة ١٨٩٠ وتوفي في بغداد في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦. كان أستاذاً في جامعة آل البيت ودار المعلمين العالية ومديراً عاماً للمعارف وعضو المجمع العلمي العربي في الشام ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. نشرت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

كتب الشاعر المصري علي الجارم إلى طه الراوي يقول:

«هذه والله، يا طه، صلة الروح التي لا تنفصم وإن بعد المكان وتعاقبت الأزمان. ماذا أكبر فيك؟ والله لا أدري. أهو علمك؟ أهو أدبك؟ أهو كريم خلقك، أم هؤلاء جميعاً؟ أم هناك أخوة بعيدة المدى منذ خلقت الأرواح لا أعرفها. رأيت كثيراً من العلماء وعاشرت عديداً من الأدباء وخالطت جمهرة من ذوي الخلق الكريم. فما كانوا لك نداً ولا لشخصك العظيم في نفسي ظلاً...»

وقال توفيق السويدي:

«وقد أحببت صديقي الفقيد لميزة زادته في نظري إعجاباً، وهو أن تفكيره كان بعيداً عن تفكير بعض المعمّمين. وأريد بهذا أن الراوي لم يكن يتسّم بالجمود بل كان يريد أن يساير الزمن ويواكب تطوراته، ولكن تقدّميته هذه كانت تقف عند حدود معيّنة بحكم النشأة والتربية التي نشأ وتربّى عليها.

«وفي رأينا أن المرحوم الراوي كان يعتقد برسالة روحية سامية دأب على التغنّي بها منذ حداثته الى اليوم الذي ودّع فيه الحياة، رحمه الله».

وقال عباس العزاوي:

«... ولا أخالني مبالغاً إذا قلت أن الفقيد استكمل أدب النفس، وهو أصل التهذيب الحقّ وأداة العلم الوافر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل خدم بها عنده مدارك الأمة في تعليمها وتلقينها، ولا زال على ذلك الى أن لفظ نفسه الأخير. فهو أستاذ معروف، وفاق أكثر في توجيه اللغة العربية، وكان وافر الاطلاع فيها، عارفاً بحقائقها، مشبعاً في حبها...».

وقال الدكتور مصطفى جواد في رثائه:

أرى الموت لم يترك لـذي اللّبّ مفـزعـاً غـداة رمى طـه فأصمى وروّعـا . . .
فقـدنـا عميـد الألمعيّين ذا النّهى وذا الـرأي، محمـود المفـارس مـونعـا
هـوى كهـويّ العبقـريّين لم يكن لقلبهـم صبر على حمل مـا وعى
قضى عمـره في نصرة العلم سـالكـاً سبيل خـلال الخير مـا حـاد إصبعـا
أبـا هـاشم، أضحى مصـابك شـامـلاً، فكيف التـأسي والأسى قـد تـوزعـا؟
لقـد كنت لـلآداب والعلم مـوئلاً فـلا غـرو أن أضحى ممـاتك مفـزعـا
وقـد كنت قـوّالاً بحقّ وآمـراً بعـرف ومـدعـاة الى الخير مقنعـا
تسـاميت عن جهل التعصّب مبغضـاً لأربـابـه، عن خبثهـم مترفّعـا
طـوتك يـد الأقـدار سفـراً مكـرّمـاً ستقـرأه الأجيـال أجلى وأنصعـا

وقال الدكتور زكي مبارك:

فجعـت بـألطـف العلماء روحـاً وأفصحهـم إذا اشتجـر الجدال
أديـب لا يسـاميـه أديـب لـه في كل معضلـة مقـال . . .

***

كتب أحمد حسن الزيات الى طه الراوي سنة ١٩٣٨ رسالة جاء فيها:

«لا أحب أن أتحدث في هـذه الرسـالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثـر، وأكنّ لك في نفسي من عظيم التجلّة، فإنّ معرض ذلك في خطاب يشبـه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي. فلأترك ذلك إذن الآن . . .».

قال طه الراوي:

أميـل مع الحقيقـة حيث مـالـت وأجعـل ظـلّ رايتهـا شعـاري
وأدمغ بـالـدليل هـراء خصمي فـإن مـارى فـإني لا أمـاري

وكتب معروف الرصافي الى طه الراوي يقول:

أبلغ أبـا هـاشم عنّي مغلغلـةً يعجّ فيهـا القـريض الغضّ شكـرانـا
إنّي عهـدتك حـرّ النفس متخـذاً لك العـلا مـأربـاً والصـدق ديـدانـا
نماك جـدّ كـريم للعلى، فلـذا زكـوتَ نفسـاً كما قـد فقت تبيـانـا
ظننتني قـد هجـرتُ الشعـر مُـذ زمنٍ، وهل أطيـق لحبّ النفس هجـرانـا؟

***

طه الـراوي كاتب مشرق البيان، جميل الأسلوب. وقـد كتب في المواضيع الاجتماعية

فدعا الأغنياء الى التنبّه لموجة السخط من الطبقة الكادحة الفقيرة وترك البذخ وإنفاق جزء من ثرواتهم في التخفيف مما يعانيه إخوانهم في البشرية وبناء المشاريع المفيدة كالمستشفيات والمدارس والملاجىء. وقال:

«تنبّه البشر اليوم الى ما لم يكن يحلم به البشر القديم. وتكتسح العالم اليوم موجة سخط من هذا التفاوت الهائل بين الإنسان والإنسان: فألوف من الناس لا يصلون الى قوتهم اليومي وإلى ما يستر أبدانهم من الكساء والى ما يأوون إليه من المسكن إلا بعد الكدح المضني والكدّ المجهد..

وقد قام أولئك الألوف يطالبون بالمساواة الاجتماعية ويقولون لأصحاب التكاثر: نحن وأنتم في البشرية شرع، ولولا جهودنا لما أصبتم هذه الكنوز. فنحن نريد المساواة، نريد العدل الاجتماعي...».

وارتأى لذلك وجوب النزول على حكم الواقع ورفع مستوى العيش بين الفئات الكادحة وتخفيف الضنك عن تلك الطبقات البئيسة لتهدئة سورة الغضب التي كادت توقد حرباً شعواء بين الفقراء والأغنياء. فإذا أراد الأغنياء أن يخففوا من حدة هذا الغضب الذي أخذ يتطاير شرره حولهم فما عليهم إلا أن يعالجوا ذلك بالأفعال لا بالأقوال.

هذا ولقد قلت في ترجمة الراوي أن تلامذته خير آثاره. وقد سئل المؤرخ المصري الأستاذ محمد شفيق غربال عن أهم مؤلفاته فأشار الى تلامذته المتحلّقين حوله في مجال الجواب على ذلك السؤال.

طه الراوي

عتب طه الراوي على معروف الرصافي في كانون الثاني ١٩٤٢ هجره للشعر بقصيدة أرسلها الى راويته مصطفى علي مطلعها:

أمصطفى بن عليّ، يا أخا ثقتي، ... إنّي عهدتك للإخوان معوانا
أبلغ مليك القوافي كلّ خالصة ... من التحايا تمجّ العطر ألوانا
ما باله، حرس الرّحمن مهجته، ... قد أوسع الشعر إعراضاً وهجراناً؟

فأجابه الرصافي بقصيدة منها:

أبلغ أبا هاشم عني مُغَلْغَلَةً ... يعجّ فيها القريض الغضّ شكرانا:
أحسنت ظنّك بي إذ جئت تمدحني ... بما به زدت حسن الظنّ إحسانا
ظننتني قد هجرت الشعر مذ زمن ... وهل أطيق لحبّ النفس هجرانا؟
ذاك الحبيب الذي أوسعته مِقَةً ... منّي، وصيّرته للمجد عنوانا...

ومضى الرصافي يقول أن حبّ الشعر قد شفّه حتى هجر له طيب المنام، يصحو بصحوته وينتشي بنشوته، يسلّيه إذا اعتلجت همومه، ويشدو به في المحافل مفتخراً. وختم قصيدته في لهجة حزينة مشفقاً أن يبوح بشعره في معشر الطغاة الذين لا يقيمون وزناً لحرية الفكر.

منير القاضي

العالم الفقيه الحقوقي منير القاضي ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٦٩. كان رئيس المجمع العلمي العراقي وعضو مجمع دمشق وعميد كلية الحقوق ورئيس ديوان مجلس الوزراء ووزير المعارف. ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

كان منير القاضي لطيفاً حسن الدعابة على وقاره. ذكر جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» أنه جرى في الندوة الأدبية لصبيحة الشيخ داود بحث الطلاق وهل يجوز للمرأة أن تمنح حق الطلاق. وكانت المناقشة عنيفة، وارتأت صاحبة الندوة وجوب تعديل قانون الأحوال الشخصية لمنح المرأة هذا الحق. وكان منير القاضي يخالف هذا الرأي ويرى فيه خروجاً على الشريعة الإسلامية.

وقال الخليلي إن المذهب الجعفري يجيز منح المرأة حق تطليق زوجها إذا نص عقد الزواج على هذا الحق. وأراد منير القاضي أن يمزح فقال: لو أردنا أن نجعل الطلاق بيد المرأة لما غبن أحد غيري في عالم الرجال، لأنني سأكون أول من تطلقه زوجه لإنعدام المزايا التي تتطلبها الزوجة في زوجها في شخصي.

وضجّ المجلس بالضحك.

عباس العزاوي

مؤرخ العراق عباس العزاوي ولد في أنحاء ديالى سنة ١٨٩١ وتوفي في بغداد في ١٧ تموز ١٩٧١. كان محامياً معروفاً وعضواً في المجمع العلمي العراقي ومجمع دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع القاهرة وعضواً في جمعية الدراسات التاريخية المصرية ومجمع اللغة التركية في أنقرة. إشتهر بمؤلفاته عن تاريخ العراق وفي مقدمتها «تاريخ العراق بين احتلالين في ثمانية أجزاء». نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية».

عين العزاوي معلماً في بعض المدارس الابتدائية في بغداد سنة ١٩٠٨، لكنه واظب على الدراسة. ونقل بعد ذلك معلماً أول في كربلاء، وكان جندياً كاتباً خلال الحرب العامة. وعيّن سنة ١٩١٧ كاتباً في المحكمة الشرعية، لكنه استقال من الوظيفة حين تخرجه في مدرسة الحقوق (١٩٢١) وانصرف الى المحاماة. وتولى التدريس أمداً غير

طويـل في المـدارس الأهليـة .

جمع عباس العزاوي مكتبة ضخمـة تعدّ عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات . وقد رأيتـه يومـاً يستعير كتاباً من مكتبـة المتحف العراقي لمراجعتـه . فقلت : أليس هذا الكتاب في خزانتـك؟ قال : بلى ، لديّ عدة نسخ منـه مخطوطة ومطبوعـة ، لكنها كلها ليست في متناول اليد ، وأيسر عليّ أن أراجع الكتاب في مكتبة المتحف! .

حين ابتنى عبـاس العـزاوي داره الجديـدة على شـاطىء نهر دجلـة خصّص الـدور الأسفل جميعه لمكتبته العظيمة . لكن الكتـب بقيت تتوارد وتتراكم وتملأ الغرف الأخرى حتى وصلت الى غرفة النوم . فقالت له زوجته : «آن لك أن تختار بيني وبين كتبك!» .

وقد روي عن الشاعر الانكليزي جون درايدين (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) John Dryden أنه كان مكباً على كتبه حتى ضاقت زوجته بالأمر ذرعاً وقالت له : «ليتني كنت كتاباً فأجد في رفقتك وقتاً أكثر» . فقال لها الشاعر الشيخ : «يا عزيزتي ، إذا أصبحت كتاباً فلتكوني تقويماً لأستطيع استبداله كلّ عام» .

حاولت جـامعة بغـداد شراء مكتبة عبـاس العزاوي وفـاوضته على السعـر ، وكانت مستعـدّة لدفع مـائة ألف دينار أو دون ذلـك لجميع المطبوعـات والمخطوطـات . لكن العزاوي رفض العرض وقال : لا أقبل بيعها بأقلّ من ٢٥٠ ألف دينار .

وزاره ذات يـوم وفـد أدبي مصري بصحبتـه سفير مصر وبعض الأدبـاء العـراقيين . وتناول الكلام بيع مكتبته الى الجامعة أو الحكومة فقال إنه ليس على استعداد لبيعها مهما دفع لـه من ثمن . وقال السفير المصري : ألا تخشى أن تـؤممها الـدولة وتأخـذها قسراً؟ فقال العزاوي مشيراً الى نهر دجلـة الذي يطلّ عليه من شرفة داره : إننـي أرميها كلها في النهر قبل أن يستولي عليها أحد!

وتوفي مؤرخ العراق . وكنت سائراً ذات يوم على شاطىء دجلة فرأيت موظفي مكتبة المتحف ينقلـون الكتب والمخطوطـات الثمنية من دار العـزاوي ويضعونها في سيـارات الحمل بلا عناية ولا اهتمام . أما الثمن الـذي قدّر لها فلم يتجاوز ، على ما أذكر ، ١٧ أو ١٨ ألف دينار .

طريقة العزاوي في تدوين التاريخ :

طريقة عباس العزاوي في تدوين التاريخ هي كتابة تسلسل الوقائع حسب السنين ، بعد الـرجوع الى المصادر المتيسرة . وكانت أكثـر مصادره للحقبة التي بدأت بـالاحتلال المغولي مخطوطـة ومكتوبة بالتركية القـديمة أو الفارسية . وكثيراً ما شكـا من قلة المصادر لفترات معيّنـة . لكنــه استعمل مصـادره الى أبعـد مـا استطـاع ، وسرد الحوادث التي سجّلتها دون تمحيـص في معظم الأوقات ، نـاقلاً أخبـاراً متضادّة أو متنـافرة حينـاً بعد حين .

ومما يروى أن أحمد حامد الصرّاف قال عنـد صدور بعض أجزاء «تاريخ العراق بين

احتلالين» وفيها نقل عن كتاب «كُلْشَنَ خلفا»: «وهل يعرف العزاوي اللغة التركية القديمة العويصة لنعتمد على ترجمته لما جاء في «كلشن خلفا؟»».

فقال العزاوي حين نقل إليه ذلك الكلام: «وهل رأى الصرّاف مخطوطة «كلشن خلفا» ليستطيع الحكم على ما جاء فيها ونقل عنها؟»».

ثم لما بلغ العزاوي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتيسّرت له مصادر كثيرة عربية وتركية، مخطوطة ومطبوعة، وصحف منشورة تذكر الأخبار والأحداث على علاّتها. فقال:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراش ما يصيد!

وخراش كلب صيد كان لا يجد ما يصيده، ثم تكاثرت عليه الظباء فحار أيّها يصيد.

قال العزاوي في مقدمة الجزء الثامن من «تاريخ العراق» بين احتلالين: «تزايدت المراجع وتكاثرت بسبب تكاثر المطبوعات. وتأسست خزائن الكتب فوصلت الى درجة الإشباع. وصرتُ في حالة تردّد أو حيرة في الاختيار...»

ثم يقول: «وعهدنا هذا أدركنا الكثير من أيامه وذقنا حلوه ومرّه. شاهدنا أيام الاستبداد وزمن الدستور وأوقات الحرب بما فيها من غوائل وآلام ومحن وما فيها من أفراح وأتراح. وصفحات هذه الحقبة تدعو الى تنقّل الكاتب تنقلاً عير مطّرد، بل تضطره الى تحوّل مضطرب. يرى المرء نفسه في حاجة ماسّة الى تدوين صفحات قد يكون شاهد عيانها أو من المطلعين على كثير من أوضاعها. ولكن المرء تعوزه المعرفة التاريخية المتقنة الصحيحة أو الى ما يذكّر بالحالة المشهودة والتبصّر بما لم يكن من شهوده...».

لقد اكتفى العزاوي بتدوين الوقائع خطِيرها وتافهها، صارفاً النظر عن المحاكمة والغربلة والتحليل، تاركاً مهمة المؤرخ لمن يأتي بعده فيستعمل المادة التي جمعها له بجهد كبير وعناية فائقة خلال عمر كامل.

قال الشاعر كمال عثمان:

رأيت الرجال بآثارهم وتاريخ «عبّاس» آثاره...

فمن كأبي فاضل في الرجال وأصل التواريخ أسفاره

نشر عباس العزاوي سنة ١٩٥٣ «سمط الحقائق في عقائد الاسماعيلية»، وهو منظومة لداعي الدعاة علي بن حنظلة أصدرها له المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. وعلى أثر ذلك تلقى كتاباً من أحد المستشرقين المقيمين في حيدر آباد بالهند ـ وأظنه فريتز (سالم) كرينكو ـ يدعوه الى الانتماء الى الجمعية الاسماعيلية، وهي جمعية علمية تضم المؤرخين والعلماء المهتمين بتاريخ الاسماعيلية وعقائدهم، ولا ينتمي هؤلاء

بطبيعة الحال الى فرقة الغلاة .

قرأت الكتاب للعزاوي ـ وكان باللغة الإنكليزية ـ فقال العزاوي : يريدني أن أصبح إسماعيلياً؟

قلت : إنها جمعية علمية لا شأن لها بالعقيدة . ولما نشرت سمط الحقائق أصبحت أهلاً للانخراط في سلك أعضائها .

فهزّ رأسه وقال : كلا . من ذا يصدّق أن العزاوي قد أصبح من أعضاء الجمعية الاسماعيلية ، وهو لا يؤمن بالفكرة؟

وزار المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسّينيون بغداد في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وأتى يوم الجمعة الى دير الأب أنستاس الكرملي ، وكان هناك فريق كبير من رجال العلم والأدب والفضل . ولم يكد يستقر به المقام حتى أخذ كعادته يتكلم عن الحلاج ويشرح مأساته ويسأل هل عثر على آثار أو مخطوطات جديدة له؟ فقال عباس العزاوي : «ما قيمة الحلاج وأية مأساة حلت به؟ لقد كان كافراً زنديقاً فكفّره علماء المسلمين واستحلّوا دمه . وأنا ، كفقيه إسلامي معاصر، لو جيء به اليّ الآن بعد ألف عام، لأفتيت بتكفيره وقتله عوداً على بدء!» .

وكان هذا الكلام مثار دهشة الحاضرين وإشفاق ماسّينيون .

نوادر العزاوي :

كان عباس العزاوي يطبع الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الأدب العربي في العراق» . وكان على عادته يجلس في غرفة المحامين أو المقهى أو إحدى المكتبات ويسأل أوّل قادم أن يساعده في تصحيح مسوّدات الطبع .

وجلس ذلك اليوم في المكتبة العصرية ، فجاءه ولده فاضل بآخر مسودات الكتاب ، وقد تناولت مبحث الشعر في العهد العثماني الأخير. وألقى بعض الجالسين نظرة عليها فقال للعزاوي : إنك لم تفِ الحبوبي حقه ولم تذكر شعراء لهم مكانتهم كحيدر الحلي وجعفر الحلي . . .

فغضب العزاوي وصاح بابنه فاضل : إحذف هذا الفصل برمته ، أخرج هؤلاء الشعراء من الكتاب، أخرجهم! .

فضحكت وقلت : يا أبا فاضل ، هل أنت رضوان خازن الجنان وهل كتابك فردوس الأدب لتدخل من تشاء وتخرج من تشاء؟

وضحك المؤرخ واحتفظ بذلك الفصل من كتابه وأشار في آخره الى الشعراء الذين أغفل ذكرهم من أصحاب الدواوين .

كنت ذات يوم في زيارة لمنير القاضي رئيس ديوان مجلس الوزراء في دائرته ، فجاء

عباس العزاوي، وقد طبع كتاباً جديداً له، فأهدى نسخة منه الى السيد منير. ثم دفع اليه نسخة ثانية ورجاه تقديمها هدية الى رئيس الوزراء، فاستدعى رئيس الديوان أحد موظفيه وقال: هذا كتاب الأستاذ العزاوي يهديه الى رئيس الوزراء فقدّمه الى فخامته.

وخرج عباس العزاوي، فلم تمض هنيهة حتى عاد الموظف يحمل الكتاب وسأل رئيسه: كم أعطي للعزاوي، ديناراً أو دينارين؟ فقال منير القاضي: إنك على ما يظهر لا تعرف أقدار الناس، وعباس العزاوي محام ومؤرخ جليل، وهو يهدي كتابه تفضلاً منه لا طلباً لمبلغ زهيد أو كبير. . .

وخرج الموظف الجاهل وهو يجرّ أذيال الخيبة.

***

كثرت المداعبات مع عباس العزاوي في المقهى الذي اتخذه منتدى له أعواماً طويلة على شاطىء دجلة وفي نادي القلم وغرفة المحامين.

وقد قال له بعض الأدباء: إنّك لا تحسن الأدب ولا تعرف كتابة التاريخ، ولكن لديك مصادر من المخطوطات والمطبوعات النادرة، مناجم زاخرة بالمعلومات الثمينة والعوائد والفوائد، فأعرنا طائفة من هذه المراجع لنفيد منها وندوّن جوانب من تاريخ العراق وأدبه في عصور الانحطاط.

فغضب العزاوي وقال: إنني حصلت على هذه المخطوطات والمطبوعات بالجهد الجهيد، وبذلت في سبيلها النفس والنفيس، وسعيت أجمعها آناء الليل وأطراف النهار، ولم تأتني عفواً ولا هيّأتها لي الدولة أو أية مؤسسة عامة. فلماذا أنتم قاعدون متقاعسون، تعضون على الفلس والدّانق بالنواجذ وتريدون الشيء بلا بذل ولا جهد؟ والله لأحفظنّ هذه النوادر في الخزائن المغلقة وأنفس عليها النور والهواء، لأرجع إليها في مباحثي دونكم وأجيئكم كلّ يوم بالأخبار الغريبة والآثار التي يجهلها عالمكم وجاهلكم.

وقد مضى العزاوي الى الرفيق الأعلى وآلت مكتبته الى خزانة دار الآثار، فأين الذين حلموا بتقليب صفحاتها والنهل من ينابيعها الصافية؟ لقد مات أكثرهم ولاذت بقيّتهم بالعزلة والخمول.

وأخبرني عباس العزاوي أنّ في الاجتماع الذي عقده نادي القلم لتأبين جميل صدقي الزهاوي عند وفاته، قال محمد رضا الشبيبي: رحم الله الزهاوي، هل كان شاعراً، أو أنه لم يكن شاعراً؟ ولعلّ الشبيبي قصد الإشارة بذلك إلى ما قاله النقّاد الأقدمون من أنّ أبا تمّام والمتنبّي حكيمان والشاعر البحتري.

وكان عباس العزاوي وأخوه علي غالب كثيراً ما يمرّون بدارنا عند عودتهما من المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه مساء، فأقول لهما: تفضّلا واشربا القهوة، فيعتذران بتأخر

الوقت . وأجيبهما مداعباً ببيت الشاعر القديم :

تمرّون الـــديـــار ولا تعــوجـــوا، كــلامكمُ عـــليَّ إذن حـــرامُ!

والبيت من شـواهد النحـو على حذف الخافض لاقتضـاء الضرورة ، فقال الشـاعر «تمرون الديار» بدلاً من «تمرّون بالديار» .

وكان العزاوي يقسو أحيـاناً في مداعبته لأصدقائه وزمـلائه فيردّون عليه بالمثل . وقد سألوه بعد يوم تسجيل النفوس : كم سجّلت عمـرك؟ فقال : دون التسعين! وقالوا له : إنك قد شخْت وهرمت وبلغت من العمر عتيّاً ، فأجاب متمثلاً بقول الشاعر البدوي :

شـــــايب وعـــــايـب والهوى مـــــا نسينــــــاه!

وذلك أن فتيـات الحيّ رأين شاعـر القبيلـة الشيخ وهنّ يجلبن الماء ، فقلن له : قـد كبرت! فقال : أجل ، قد شخت ونحلت ، لكنني لم أنسَ الحب .

وقد قال جميل صدقي الزهاوي :

ليس الحـــديث عـــن الهـــوى مـن شـــاعـــر شيخٍ جـــريـــرة

وروى عبّود الشالجي في كتابه «الكنايات العـاميّة البغدادية» أن المحامين في غرفتهم كانـوا يقسون في مداعبة عبـاس العزاوي ويعيرونه بأنفه وقسمات وجهـه . وفي ذات يوم دخل الشالجي فوجـد المحامي محمد جواد الخطيب جالساً بين عبـاس العزاوي وعباس عبد اللطيف البلداوي فدسّ في يده رقعة كتب فيها :

إنّي رأيتـك جـــــالســـــاً في مجلس حلـــــو ظـــــريـف

مــــــا بين عبـــــاس اللطيـف وبين عبـــــــاس «الكسيـف»

يريد بالكسيف الكثيف أو الثقيل أو الغليظ المعاشرة .

انتخب عباس العزاوي عضـواً بـالمجمع العلمي العربي ، فقـال صـديقنا إبـراهيم الواعظ : إ ذا لم يكرّمـه الأدباء فنكرمه نحن المحـامين . وسعى لدى نجيب الراوي نقيب المحامين فأقام للعزاوي حفلة تكريم شائقة .

تأخر افتتاح الحفل حتى جـاء فاضل العزاوي بمعروف الـرصافي وأجلسه في الصفّ الأمامي ، وكان يلبس الكوفية والعقال والعباءة وتبدو عليه آثار الشيخوخة .

وتكلم الـواعظ فداعـب المحتفى به دعـابـة ثقيلة لم يكن منـاسبـاً ، ويا لـلأسف ، ورودها في خطاب تكريم .

ثم تكلمت ووفيّت مـؤرخ العـراق حقّـه على مـا أعتقــد . وأشرفت ، وأنـا أستهلّ كلامي ، على الحفل فوجـدت النادي يغصّ بالرجال وليس بينهم سـوى سيّدة واحدة ، فقلت : سيّدتي وسادتي ، وكان ذلك مثار بهجة الحاضرين وضحكهم .

كان عباس العـزاوي يكثر من التنادر بأخبار عشيرتـه، فيقول إن العزاوي يخرج على فرسه ويدور بين مضارب العشائر وقرى الريف سنة واحدة، ويقضي في كل مكان مدة الضيافة المألوفة، وهي ثلاثة أيام. فإذا ما عاد الى ديار قبيلته واستشرف خيامهم، قال: وأأسفاه، عدنا الى مهجّهات أهلنا!.

وكان عباس العزاوي يتوكل في الدعاوى في كربلاء والنجف وكركوك وبعقوبا وسائر أنحاء العراق ويذهـب للمرافعة أمام محاكمها. فيقول لـه موكّله: ماذا تحب أن نحضر لك في الغداء؟ فيعدّد العزاوي أصنافاً مختلفة مـن الطعام، ثم يقول: هذه بالإضافة الى ما تعدّونه عادة للضيف!.

وقال إن عزاويـاً تطوّع في الجيش التركي وخدم فيه عدة سنين. وعاد إلى أهلـه فقالوا له: هل تعلّمت التركيـة؟ قال: نعم، لقـد أتقنتها. فقالـوا: إذن، يا مسيعد، تفيـدنا حين يأتي موظفوا الكودة (ضريبة الأغنام) فتتفاهم معهم وتخفّف عنّا عبء الضريبة.

وفي ذات ليلـة جاءت الخيل تحمل مـوظفي الكودة، فصـاح رجال القـرية: اليـوم يومـك، يا مسيعد، فتعـال وكلّم الجماعة. لكن مسيعـد هرب واختبأ في بعـض الخيام قائلاً: إنني أحسن التركية في النهار، فكيف تريدونني أن أعرفها في الليل؟

قرر مجلس أمانة العاصمة تسمية شوارع بغداد، فاختار لها أسماءً بعضها لأشخاص مغمورين ذكرتهم الكتب الصفر القديمة وعثر عليها عبد اللطيف ثنيّان.

قال عباس العزاوي: أقترح أن تسموا شارعاً باسم هولاكو، فإنه على طغيانه، أشهر في الأقل من النكرات التي أطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع.

عاد عباس العزاوي من فينّا سنة ١٩٦٢ وقد أجرى جراحة لعينيه فقال:

وجـدت في مستشفى العيـون بعـاصمـــة النمســا رجلين عـراقيين أعميين من أهل الكاظمية، وقد جاءا المعالجة بصرهما. وقاما بناءً على إشارة الطبيب بابتياع قرنيتين لترقيع باصرتيهما من عجوزين فقيرين مشرفين على الموت.

وكان الـرجلان يقيمان في المستشفى وينتظران مـوت صاحبيهما لكي يتمكن الطبيب من قلع قرنية المتوفى فوراً وتركيبهـا خلال ساعات معدودة على شبكة عين الأعمى فيتاح له أن يبصر النور.

لم يكن للـرجلين من حـديث سـوى التمنّي على الله أن يعجّل بقبض روح الشيخين اللذين اضطرتهما الفاقة على بيع عينيهما بيعاً آجلاً. وبعد أيام توفي أحد البائعين، فهرع صاحبه إلى غرفة الجراحة وغـرزت قرنية عين الميّت في عينه، فلم تمض أسابيع حتى تمّت المعجزة.

أما الثاني فانتظر طويلاً، ولم يمت صاحبه، بل انتعش وعادت قواه وحسنت حاله. وكان يقول كل يوم: ربّاه! أليس لهذا الليل من آخر؟ كم أنتظر وقد عددت لهذا الرجل قيمة عينيه نقداً، وهو يرفض أن يموت! ربّاه، أنقذني من هذه الحال التي لا تطاق وعجّل بخلاصي! . . .

وعاد العزاوي إلى بغداد، والأعمى لا يزال يبتهل إلى الله أن يميت صاحب عينه ليستردّ البصر.

ذكّرتني هذه القصة بما كتبه الأديب الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) عن طبيب كان بحاجة إلى جثّة لتشريحها. فسأل الممرّض الذي قال: لقد جئت في الوقت المناسب حقاً، فلدينا رجل محتضر لن يعيش ساعتين.

قال الطبيب: ساعتين؟ لا، إنّ هذا لا يفيدني، فأنا ذاهب هذا المساء في رحلة قصيرة لن أعود منها قبل مساء الغد.

ـ لا بأس امض لطيّتك. وسنحاول إطالة عمر المريض قليلاً في انتظار أوبتك.

وذهب الطبيب، أما الممرّض فمرّ بالصيدلية وجلب دواءً منعشاً ناوله إلى مريضه فنام نوماً هنيئاً طوال الليل. وجاء الممرض صباحاً فوجد صاحبه جالساً يسعل ويبصق، وقد خفّت وطأة الحمّى وسكن الألم. وشكره المريض قائلاً: لا أدري أي دواء أعطيتني، ولكن يحقّ لك أن تفخر بأنك أعدتني إلى الحياة.

قال الممرض: حسناً، حسناً، ولكن ماذا سيقول الطبيب؟

ـ ماذا سيقول الطبيب؟

ـ لا شيء، لا شيء.

واستمرّت حال المريض على التحسّن. وعاد الطبيب في المساء فبادر الممرّض قائلاً: أين الجثة؟

ـ ليس هناك جثة.

ـ كيف، ألم يمت المريض؟

قال الممرض: إنها غلطتك، فقد كان مشرفاً على الهلاك، غير أنك ذهبت وتركته يبدّل رأيه ويتمسّك بأهداب الحياة.

فقال الطبيب: لا بأس، اترك الأمر إلى فرصة ثانية.

ومن قبيل ذلك ما حدّثني به أحد الاصدقاء قال: كان في الكوت حفّار قبور شيخ فقير مختلّ الشعور يعيش من تكفين الأموات ودفنهم ولا يكاد يصيب كفافاً من القوت. وكان، إذا شحّ الرزق، يجيء إلى مقهى التجار فيرفع يديه ضارعاً إلى الله تعالى وصائحاً

بأعلى صوته: يا ربّ، ألا يموت أحد مـن الناس؟ هل أموت جوعاً لأن عبادك في خير وعافية؟ اللهم، افتح علينا ووسع لنا. . .

فما يكاد يمضي في استغاثتـه وشكواه حتى يبادر التجار إلى نفحه بالـدراهم واسكاته وصرفه.

العـزاوي في أيـامه الأخيـرة:

لقي عباس العزاوي في أعوامه الأخيرة معارضة واضطهاداً. لقد أصبح النشر والطبع يكاد يكون محصوراً في أيدي وزارة الاعلام، فقدم كتاباً له عنوانه «برج الأولياء» إلى الوزارة لنشره، فقيل لـه إنـه يجب أن يعـرض على لجنة للنظـر فيـه وإقـراره. فغضب وسحب مخطوطته وقال: وأية لجنة تنظر في مصنّف لرجل وضع ونشر عشرات الكتب؟

وقد سلق موظفي وزارة الاعـلام بألسنة حداد، فامتنعـوا عن نشر مقالاته في مجلات الوزارة وحـالوا دون إعـادة انتخابه عضـواً بالمجمع العلمي العـراقي. واضطرّ على نشر بحوثه في المجلات السعودية ومجلة المجمع العلمي الكردي في بغداد. وظل متألماً إلى أن أدركه الحمام، لكـن ولده فاضـل واصل شنّ الحرب الكلاميـة على المؤسسات الثقـافية الرسميـة وشهد الاستيلاء على مكتبة أبيـه الفريدة ونقلهـا إلى المتحف العراقي. ورفض تسلّم حصته من المبلغ الضئيل الـذي قدّر ثمنـاً للمكتبة التي أنفق والده سنين طـويلة من حياته وأموالاً وفيرة حصّلها بعرق جبينه لانشائها وتوسيعها.

وكان عبـاس العزاوي يضيق ذرعاً بـالنقد الذي يـوجّه إليه، فيقـول: الانتقاد سهل والتأليف شاقّ عسير. ثم يقول: لا بأس، من ألّف فقد استهدف.

الدكتور مصطفى جواد

العـلامة اللغـوي المحقق المؤرخ مصطفى جـواد ولد في بغـداد سنة ١٩٠٤ وأدركتـه الوفاة فيها في ١٧ كانون الاول ١٩٦٩. كـان استاذاً في دار المعلمين العالية وكلية التربية وعميداً لمعهـد الدراسـات الاسلامية العليـا وعضواً بالمجمـع العلمي العربي في دمشق ونـائب رئيس المجمع العراقي وعضـواً مراسـلاً لمجمع القـاهرة. تـرجمت له في «أعـلام اليقظة الفكرية».

ألف الـدكتور مصطفى رسـالة في «جـاوان القبيلة الكـردية المنسيـة» نشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم نشرها المجمع العلمي الكـردي سنة ١٩٧٣. وترجمت إلى اللغة الكردية.

أخبرني مصطفى علي أنّ مصطفى جـواد كـان في أثنـاء دراستـه في دار المعلمين الابتدائية ينشر نظماً ونثراً في مجلة «التلميـذ العراقي» التي أصدرها سعيد فهيم في تشرين

الاول ١٩٢٢، وكان توقيعه «مصطفى جواد الدلتاوي».

وقال مصطفى علي ايضاً: كنت كاتباً عدلاً في بغداد سنة ١٩٣٤، فجاءني مصطفى جواد لتصديق كفالته حينما أوفدته وزارة المعارف للدراسة في باريس. ومن غريب الاتفاق أن المكفول كان مصطفى (جواد) والكفيل السيد مصطفى (من أهل الكاظمية) والكاتب العدل مصطفى (علي)، وكذلك كان اسم الكاتب في دائرة الكاتب العدل الذي أنجز المعاملة مصطفى ايضاً!.

كان مصطفى جواد، وهو طالب في باريس، يقضي معظم أوقات فراغه في المكتبة الوطنية. وقد نقل بخطه اللطيف عشرات الدفاتر من المخطوطات القديمة النادرة والمجهولة وأطلق عليها عنوان «أصول التاريخ والأدب». وصار بعد ذلك يرجع إليها في كتاباته ويشير إليها في الهامش، فيذكر «الأصول» ج (كذا) ص (كذا) دون أن يصرّح بالمصدر الأصلي. وقد سألته يوماً لماذا لا يذكر المرجع المخطوط عنه مع الإشارة إلى رقمه في المكتبة الوطنية، فقال: لقد أجهدت نفسي وأفنيت أيام شبابي في البحث عن مصادر لم يلتفت إليها أحد، ونقلتها بخطّ يدي حرفاً حرفاً، ومحّصت معروفها من مجهولها وصحيحها من مغلوطها، ثم أصرّح بعنوانها ورقم تسلسلها ومحلّ وجودها، ليطلبها كل طالب ويفحصها كل راغب؟ ذلك ما يأباه العقل وينكره الفضل ولا ترضى به المروءة! وليذهب من شاء وليبحث ويحقّق ويدقّق، وليهنأ بما يعثر عليه بكدّه وتعبه، ولا يكون كلاًّ على السابقين ولا عائلاً على العاملين.

قال ذلك مصطفى جواد، لكنه لم يكن بخيلاً على السائلين والطلاب، بل كان يدلّهم راضياً مسروراً على المراجع التي يرجعون إليها والمصادر التي تيسّر لهم مواد بحوثهم وكتاباتهم. وكان عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني الكاتب قد صنّف «الألفاظ الكتابية»، فقال الصاحب ابن عباد: «لو أدركته لأمرت بقطع يده! فقد جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدّبين تعب الدرس والحفظ الكثير».

عرفت مصطفى جواد في باريس سنة ١٩٣٧ مع حقي الشبلي ونفر من الطلاب العراقيين الذين كانوا يدرسون فيها. لكن صلتي به لم تتوثق الا بعد عودته إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩٣٩، وكان صلة التعارف بيننا أحمد حامد الصراف.

وقرّر سنة ١٩٣٨ إنهاء بعثة مصطفى جواد، فجاء إلى بغداد وراجع وزير المعارف الشيخ محمد رضا الشبيبي وكلّمه في استئناف دراسته. ونصحه الشيخ بمراجعة رئيس الوزراء جميل المدفعي، فنظم مصطفى قصيدة في مدح المدفعي نشرها في جريدة الزمان، يتوسّل فيها بالحصول على عطفه. وأثمر مسعاه، فأوعز الرئيس إلى وزارة المعارف بإعادة ايفاده للحصول على شهادة الدكتوراه.

وكان مصطفى جواد قد تزوج في بغداد قبل ايفاده إلى القاهرة وباريس، لكنه ترك

قرينته وأولاده في بلد الرشيد. وتعرّف في باريس بفتاة فرنسية ساعدته في كتابة أطروحته عن الناصر لدين الله العباسي باللغة الفرنسية ـ على ما رواه لي ـ فصاحبها طوال إقامته في ربوع السّين وأنجبت له ولداً. ولما عاد إلى بغداد ترك لديها كتبه، وكثيراً ما كان يشكو لنا في أثناء الحرب أنها باعت كتبه وتصرّفت في الاشياء التي أودعها لديها. فقال له الصرّاف: وهل أرسلت لها ولابنها بشيء من المال تستعين به على العيش؟ فصمت ولم يجب.

وعلمنا منه بعد ذلك أنها توفيت هي وولدها بداء السلّ خلال سني الحرب العجاف.

وحريّ بالذكر أنّ مصطفى جواد أنهى دراسته الجامعية ووضع أطروحته وقدّمها إلى «السوربون». ونشبت الحرب العالمية قبل أن يهيّأ له مناقشتها وقبولها وتسلّم شهادة الدكتوراه، فترك فرنسة عجلاً خوف انقطاع الطرق مع طلاب آخرين كانوا يدرسون في باريس.

ولمّا جاء إلى بغداد، لم تعترف وزارة المعارف بشهادته. وظلّ يراجع أشهراً محتجاً بالظروف الاستثنائية التي حالت دون مناقشة أطروحته وحرمته إعلان حصوله على الدكتوراه رسمياً، فقبل الوزير صالح جبر عذره أخيراً وأوعز بتعيينه للتدريس في دار المعلمين العالية في الدرجة التي تؤهله لها الشهادة.

ودعي مصطفى جواد على أثر عودته من باريس إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط (١٩٣٩) مع احمد حامد الصراف وغيره من خريجي الكليات والمدارس العالية. وقد داوم أياماً، وكان ينتقد العريف الموكل بالتدريب على الأخطاء اللغوية في ايعازاته العسكرية. وظهر بعد ذلك في الفحص الطبيّ أن قدمه رحّاء (أي منبسطة لا أخمص لها) فأعفي من الخدمة.

مصطفى جواد وشكيب أرسلان

حدثني الدكتور مصطفى جواد أنه، حينما كان يدرس في باريس، نشر نقداً لمقال كتبه الامير شكيب أرسلان الذي كان يقيم آنذاك في جنيف من أعمال سويسرة. وردّ الامير على منتقده ساخراً من الطالب العراقي المغمور الذي يتطاول على أمير البيان ويتصدى لدحض آرائه.

ولم يكن من مصطفى جواد الاّ أن كتب رسالة شخصية إلى شكيب أرسلان، يؤيد انتقاداته ويسندها إلى مصادر لا يرقى اليها الشك. ثم قال ما معناه: انكم، أيها الأمير المجاهد الجليل، ترفعون نسبكم إلى التنوخيين ملوك الحيرة وإلى النعمان بن المنذر اللخمي ابن ماء السماء، وليس لديكم سند تاريخي يؤيد هذا النسب. ثم ذكر له

المراجع الكثيرة التي تفسد هذا الادعاء وتخرجه عن إطاره التاريخي الصحيح وتجعله بعيد الاحتمال غير معزّز بالأسانيد المعتبرة.

وقرأ الارسلاني رسالة مصطفى جواد، فكتب إليه معتذراً، مقراً بفضل الطالب العراقي، معترفاً بعلمه وطول باعه. ثم سأله أن لا ينشر رأيه في نسب آل أرسلان ولا يطعن فيه، وقال: لقد اضطربت حين قراءة رسالتكم اضطراباً شديداً، وكنت مزمعاً السفر فأسقط في يدي وفاتني موعد القطار! . . .

كان مصطفى جواد آية من سعة المعرفة وقوة الحافظة وشمول الاطلاع. وقد أفاد من دراسته في باريس وألمّ بأساليب البحث المنهجية الحديثة وطرق التأليف والتصنيف. لكنه، وقد كتب مئات بل آلافاً، من المقالات والمباحث في التاريخ واللغة والأدب والخطط والتراجم، وأضاع أوقاتاً ثمينة في الردّ على المؤلفين والكتّاب وتغليطهم وتعرية جهل جاهليهم وخبط عالميهم، لم يتفرّغ لتأليف كتاب مستقلّ جامع في بعض تلك المواضيع يدلّ على نبوغه وتتبعه ويبقى أثراً للأجيال الآتية وشاهداً على فضله ومبرراً للشهرة التي حازها في حياته.

لقد وضع عباس العزاوي تاريخه وعشائره وسائر مصنفاته التي أصبحت مراجع في بابها بالرغم من ضعف أسلوبها وجمعها للغثّ والسمين. وهيّأ عبد الرزاق الحسني مصادر ووثائق لا تقدّر بثمن للباحثين في تاريخ العراق الحديث. ووضع انستاس ماري الكرملي معجمه «المساعد» فكان خلاصة وافية لجهود حياة كاملة. . .

أما مصطفى جواد وأكثر الباحثين والمؤرخين المعاصرين له فبعثروا جهودهم وشتتوا أبحاثهم، وقلما نسّقوا ثمار علمهم في مؤلف جامع في موضوعه تحتفظ به الاجيال الآتية وترجع اليه. ومع ذلك يجد الكتاب والباحثون في كتابات مصطفى جواد وبحوثه المبعثرة في الكتب والمجلات والصحف وفي الأصول والمراجع التي نقل عنها ونوّه بها موادّ دسمة تغذّي المواضيع التي وقف عليها حياته.

أوفد مصطفى جواد إلى انكلترة في حاشية الملك فيصل الثاني حين أرسل للدراسة سنة ١٩٤٧، وكان معه ايضاً الأميرة عبديّة بنت الملك علي واللواء عبد المطلب الامين الهاشمي مدرّس التاريخ والجغرافية وبعض رجال الحاشية.

حدّثني مصطفى جواد أنّ المدرسة كانت بجوار بلدة سالسبوري، فاشترت العائلة المالكة داراً نزل فيها الملك، أمّا مصطفى فاستؤجرت له غرفةً في بعض الفنادق. وكان يذهب مرتين في الاسبوع إلى دار الملك لتدريسه اللغة العربية. كان أول الأمر يذهب بسيارة أجرة، ثم طلب منه أن يتعلم السياقة فتمرن عليها في دروس قليلة وأعطي سيارة يتنقل بها ويسوقها بنفسه.

وذهب الملك وحاشيته في السنة التالية الى سويسرة للتزلّج في جبالها، فحاول مصطفى ممارسة تلك الرياضة وسقط وأصيب برضوض وكسور بسيطة.

بين مصطفى جواد
ومحمد رضا الشبيبي

أولع مصطفى جواد منذ عهد شبابه بالمؤرخ البغدادي كمال الدين عبد الرزاق ابن الفُوَطي المتوفى سنة ١٣٢٣م. وقد حقق كتاباً في التاريخ ناقص الأول مغفل العنوان ظنه - كما ظنه غيره - كتاب «الحوادث الجامعة» لابن الفوطي وأصدره سنة ١٩٣٢. واهتم الشيخ محمد رضا الشبيبي ايضاً بالمؤرخ نفسه ووضع مقدمة للكتاب المنسوب اليه.

ولابن الفوطي كتاب آخر اسمه «تلخيص مجمع الألقاب» وجدت نسخة مخطوطة من المجلد الرابع منه في الخزانة الظاهرية بدمشق، لكنها نسخة مشوّهة. فصفحاتها على شكل جداول ذكر اسم الشخص في الصفحة اليمنى وجاءت ترجمة موجزة له في اليسرى، لكن الصفحات تفرقت وتداخلت، ثم أعيد جمعها وتصحيفها بغير ترتيب لعدم ترقيمها، فظهرت التراجم على وجه مضحك. فربّ شاعر نشرت أمام اسمه ترجمة قائد أو فقيه، وربّ رجل عاش في المائة الثالثة نقل إلى المائة الخامسة أو السادسة، وهلم جراً.

عانى مصطفى جواد جهداً كبيراً في إعادة ترتيب التراجم وإلحاق كل ترجمة بصاحبها مستدلاً بمعلوماته الواسعة في التاريخ ومستعيناً بكتب التراجم والرجال لحلّ الألغاز والمعميّات في هذه المخطوطة الغريبة. ولما فرغ من عمله وأيقن أنه صحّح النسخة وأعطى كلّ ذي حق حقه، تقدم إلى المجمع العلمي العراقي ملتمساً نشر كتابه المحقق. لكنه فوجىء بأن الشيخ الشبيبي يقوم بنفس العمل ويرغب أن لا يسبقه أحد في نشر الكتاب. وكظم مصطفى جواد غيظه، لكنه كان يقول لأخصّائه أنه لا يحق للاستاذ الشبيبي أن يحول دون نشر كتابه وأنه يعتقد أن الشبيبي على سعة علمه وفضله لا يستطيع أن يعيد المخطوطة المشوّهة إلى أصلها الصحيح.

وأخيراً نشر الشبيبي الجزء الأول من كتابه «مؤرخ العراق ابن الفوطي» سنة ١٩٥٤، وقد باشر طبعه قبل أربع سنوات وتلكأ في إكماله وإصداره خوفاً من مصطفى جواد. ثم أصدر الجزء الثاني بعد خمس سنوات. فجرّد مصطفى قلمه وكتب في نقد الشبيبي مئات الصفحات نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي خطّأه تخطئة فاضحة وأحصى عليه أغلاطه التاريخية وجهّله تجهيلاً ولكن بأسلوب أدبي جميل واحترام غير قليل.

وقد سكت الشبيبي على مضض ولم يردّ على النقد بكلمة، - عالماً أنه، ولا ريب، شاعر كبير وأديب قدير، لكنه لا يداني مصطفى جواد في التاريخ ولا يلحق به.

رثاء سعد زغلول :

رثى سعد زغلول عند وفاته سنة ١٩٢٧ بقصيدة مطلعها :

نــاشــدتك الله قُلْ مــا حلّ في مصرا ... من المصـائب إذ لم استطـع صـبرا

قال منها :

أمـات سعـد حبيب الشعب عن عُمـرٍ ... منـزّه عـاش فيـه مخلصـاً حـرا؟

أمـات سعـد رئيس الـوفـد؟ واحَـرَبي ... على الـذي كـان في مصرٍ لها ذخـرا . . .

عليك ، يـا سعـدُ ، أبنـاء العـراق غَدَوا ... حمّال حـزن يـزيل الصبر والفكـرا

أودعت حبّك في كل القلـوب ، ومـا ... أبقيت قلبـاً يكمن الحقـد والنكـرا

إن العـراق ليبكي آسفـاً كَـدِراً ... حـزنـاً عليك ، وقـد سـاءت بـه البشرى

كان مصطفى جواد يقيم في محلة شعبية ، وقد وضع على باب داره لـوحاً كتب عليه «الدكتـور مصطفى جـواد» . وفي ذات ليلة طرق البـاب عليه طـرقاً عنيفـاً في منتصف الليل ، فقام إلى الباب وفتحـه ، فإذا بامرأة عجوز تقول له : إن ابنتي مـريضة وفي حالة شـديـدة من الألم . ونحن جيرانك ، يـا دكتـور ، فتعـال افحصهـا لعل الله يمنّ عليهـا بالشفاء على يدك المباركة .

فقال مصطفى : لست طبيباً ، يا خالة ، وإنما أنا استاذ ودكتور في التاريخ .

وعبثاً حـاول اقناع المرأة انـه ليس طبيباً . وأخيراً قـالت له بغيظ : إذا لم تكـن طبيباً ، فلماذا تغرّ الناس وتضع على دارك لافتة باسم دكتور؟

وفي الصباح بدّل مصطفى جواد اللافتة ورفع عنها كلمة الدكتور .

ومما يروى من قبيل ذلك أن ممثلي الدول العربية في الجامعة بالقاهرة كانوا في حين من الأحيان الدكتور فاضل الجمالي (العراق) وفارس الخوري (سورية) والدكتور فوزي الملقي (الاردن) . وكانوا يحترمـون الخوري لكبر سنّه ويدعونه بـ «العمّ» . وكـان الدكتور الملقي بيطاراً ، لكن الجمالي كان يظنه طبيباً .

وفي ذات يوم شعر فارس الخوري بوعكة ألزمته الفراش ، فعاده الجمالي وقال له : لماذا لا نستدعي الـدكتور فـوزي الملقي لفحصك؟ فردّ عليه الخوري مـن فوره : وهل عمّك حمار؟

كنت سـائراً مع الـدكتور مصطفى جـواد في شـارع الرشيـد فقـرأنـا على باب أحـد الـدكاكين عبـارة مكتوبـة بخطّ قبيح غير متناسق : «هنـا تنباع البـوال» ، فلم يكن من الدكتور إلا أن دخل وخاطب صاحب الدكان العامي قائلاً :

ـ هل تبيع الطوابع ؟

ـ أجل، ولديّ منها أنـواع نادرة شرقية وغربية . . . ماذا تـرغب أن أريك؟ هل تريد «البوم»؟ . . .

ـ لا ، يا عزيزي، لا أريد شيئاً منها، ولكن. . .

ـ ولكن لدينا كل ما تريد . . . إصدارات خاصة لا يوجد مثلها . . .

ـ يا سيدي، أنا لا أريـد الشراء، ولكن يحسن بك أن تكتب على باب الدكان قطعة بعربية صحيحة: «هنا تباع الطوابع».

واغتاظ البائع وقال:

ـ إذا كنت لا تريد الشراء فلماذا تـدخل وتعترض على الناس؟ وماذا يهمّك أن نكتب بعربية صحيحة أو غير صحيحة. . .

وأسرعنا بالخروج إلى الشارع. وقد ذكرتني هذه الحادثة بقصة الشاعر الفرنسي Mal-herbe ماليرب (المتوفّى سنة ١٦٢٨). كـان محتضراً يعالج سكرات الموت، والراهب إلى جنب سريـره يلقّنه التعاليـم الأخيرة. وفتح عينيه بعـد غفوة قصيرة، فسمع ربّـة الدار تكلمـه بكلمات لم تكن آية في الفصـاحة، فقـال: «يجدر بك، يـا سيدتي، أن تـراعي قواعد اللغة. . .».

فقـال الراهب: «الأولى أن تهتم بـآخرتك». وأجـابه الشـاعر على الفـور: «انني لا أستطيع، ولو في مقام الموت، أن أغضّ النظر عن فصاحة اللغة الفرنسية!».

وروي عن اللغوي الفـرنسي دومنيك بوهـور (١٦٢٨ ـ ١٧٠٢) Dominique Bou-hours إنه قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «إنني مشرف على الموت، أو أنا أموت، يصحّ استعمال كلا العبارتين»:

وقال نحويّ عربيّ قديم: أموت وفي نفسي شيء من «حتّى».

كـان لنـا صديق أديـب لا يحسن النظم ولا يكـاد يفرق بين الشعـر والنثر. وأعلن الملحق الصحفي للسفـارة البريطانيـة في بغداد خـلال الحرب العـالمية الثـانية، وأمّتـه تخوض غمار حرب ضارية يتوقف عليه بقاؤهـا، عن مسابقة شعرية تتعلق بمواضيع لها صلة بانتصار الحلفاء وعدالة قضيتهم، وخصّص لها الجوائز، واختار لجنة التحكيم من شعراء وأدباء معروفين في طليعتهم الدكتور مصطفى جواد.

وجاء صديقنا الأديب إلى مصطفى جواد وقال: رغبت في الاشتراك في هذه المسابقة، وقد نظمت قصيدة أرجو أن تنظر فيها قبل الارسال بها. فتناول الدكتور القصيدة ونظر فيها فقال: اسمح لي أن أصارحك، يا عـزيزي. فهذه ليست شعراً ولا يستقيم لها وزن ولا قافية ولا معنى. قال صاحبنا: فهل تصلحها؟.

قال : لا سبيل إلى إصلاحها ، ولكنني أنظم لك قصيدة تقدمها إن شئت إلى لجنة التحكيم .

ووافق الصديق شاكراً ، فنظم الدكتور مصطفى قصيدة على لسانه في الموضوع المقرّر وقدمها الأديب المتشاعر إلى لجنة المباراة باسمه ، فنال بها الجائزة الثانية أو الثالثة ! .

حين توفي الشيخ محمد رضا الشبيبي عضو مجمع اللغة العربية بمصر رشح مصطفى جواد وعبد الرزاق محيي الدين لملء الكرسيّ الشاغر في المجمع . وقد اختار الأعضاء مصطفى جواد ، لكن عبد الرزاق محيي الدين ، وهو آنذاك وزير الوحدة ، أسرع إلى مقابلة جمال عبد الناصر ورجاه أن يؤيد ترشيحه ، ففرضه الرئيس المصري على المجمع وصدر الأمر باعتماده .

وقد بلغ ذلك مصطفى جواد وهو في بغداد فآلمه الخبر ألماً شديداً .

كان مصطفى جواد يدّعي معرفة علم الفراسة ، فإذا نظر إلى رجل في الطريق يقول : هذا فارسيّ وهذا كردي وهلم جراً . فإذا سألناه : كيف علمت؟ يقول : سيماؤهم في وجوههم . . . وقال إنه كان ، وهو طالب في باريس ، يدخل إلى بعض المخازن لشراء حاجة له ، فينظر إلى وجه البائع فيعرف انه يهودي أو أرمني ، فيحدثه بحديث قريب من نفسه يحصل منه على سماح أو مهاودة في الأسعار .

وذهب مصطفى جواد إلى طهران مع جعفر الخليلي بدعوة من الحكومة الايرانية ونزلا في بعض الفنادق الراقية . وكانت موظفة الاستقبال في الفندق لطيفة لم تنِ جهداً في خدمة الأديبين ورعايتهما ، فانتحى مصطفى جواد ناحية بصاحبه وقال له : أترى هذه الفتاة الجميلة ، إنها يهودية .

قال الخليلي : كيف عرفت؟

- إن ذلك ظاهر في سيمائها !

ومضى الخليلي إلى مدير الفندق وكلمه بالفارسية قائلاً : إن موظفة الاستقبال بذلت جهدها في خدمتنا ، فهل لك أن تدعوها لنشكرها؟ فصاح المدير : علوية فاطمة ، تعالي إلى هنا فالسيد يريد أن يشكرك .

وضحك الخليلي وقال لمصطفى جواد : أين فراستك؟ إنها علويّة وفاطمة !

ظل مصطفى جواد يتحدث أعواماً طويلة في الاذاعة والتلفزيون . وكانت برامجه الاسبوعية في التلفزيون تجتذب الناس عامّتهم وخاصتهم ، إذ كان له أسلوب محبّب يبسّط به أحداث التاريخ وقصص الخلفاء والوزراء والشعراء ومواقع الآثار والبلدان . وإذا كان لي أن أشبّهه بأحد في هذا المجال فأنا أشبهه بأديب مصر الكبير الشيخ عبد

العزيز البشري (١٨٨٦ ـ ١٩٤٣)، فقد كان له مريدوه الكثيرون في ندواته الاذاعية. قال الدكتور ابراهيم علي أبو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر»:

«وأنا أذكر أن أول عهد الناس بالاذاعة، هنا بمصر، اختار القائمون على الاذاعة رجلين اثنين توسموا فيهما أن يربطا الاذهان والقلوب بها. وكان الرجلان هما الصحفي الظريف فكري أباظة والأديب الكبير البشري. وكان ترقب الناس لكل واحد منهما يفوق الحدّ ويتجاوز المعقول، إلا أن جمهور البشري كان أضعافاً مضاعفة...» ويضيف قائلاً إنك لا تسأل أحداً إلاّ أخبرك أن الشيخ البشري إنسان جذاب إلى أبعد الحدود، وقد أكبرته في عيون الناس خفة الروح والألمعية والذوق وحضور البديهة... ولعلّ كل تلك الصفات تنطبق على مصطفى جواد في ندواته التلفزيونية، يضاف إليها، شخصه الماثل على الشاشة الصغيرة ببساطته وهدوئه ومسبحته التي لا تفارق أصابعه، وعينيه اللتين كثيراً ما يغمضهما للتركيز على حديثه المتسلسل الذي يلقيه في أناة وصوت لطيف راتب، مما يضفي على المواضيع الأدبية والتاريخية الجامدة لذة وحلاوة ويقربها إلى أفهام عامّة الناس.

وقد سألته مرة لماذا يغمض عينيه في أكثر الأحيان وهو يتكلم في التلفزيون؟ قال: لو رأيت الاضوية وآلات التصوير الموجهة إليك وأنت تتكلم لشرد ذهنك واختلّ رأيك وعيّ لسانك!.

المطران سليمان الصائغ

ولد سليمان بن داود الصائغ في الموصل في ١٨ أيلول ١٨٨٦، وانتمى الى مدرسة مار بطرس البطريركية في مسقط رأسه سنة ١٩٠١، فأتم دروسه الاعدادية والفلسفية فيها في تموز ١٩٠٨ ورسم كاهناً.

وعمل في سلك التعليم وإدارة المدارس الابتدائية، وعيّن سنة ١٩١٤ مديراً للمدرسة الاعدادية الكلدانية، وكان عضوا في لجنة المدارس الابتدائية في الموصل على العهد العثماني.

عهد إليه على أثر احتلال الموصل تحرير جريدة «الموصل» التي أصدرتها الحكومة في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٨، فتولى العمل بها أكثر من سنة. ولمّا نظر في قضية الموصل وألفت لجنة الدفاع الوطني لضمّها الى العراق، كلف بكتابة القسم التاريخي من تقرير اللجنة في سنة ١٩٢٥.

وأصدر في ٢٥ كانون الأول ١٩٢٨ في الموصل مجلة «النجم»، وهي مجلة علمية أدبية بقيت تظهر الى سنة ١٩٤٠. واختير سليمان الصائغ عضواً مراسلاً بالمجمع

العلمي العراقي في أيار ١٩٤٩ . وقد رسم مطراناً في حزيران ١٩٥٤ وعيّن نائباً بطريركياً للكلدان في الموصل .

وتوفي في تلك المدينة في ١٨ أيلول ١٩٦١ ، وهو يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين .

وللمطران صائغ مؤلفات تاريخية ، منها : تاريخ الموصل (الجزء الأول ١٩٢٣ ، الثاني ١٩٢٨ . الثالث ١٩٥٦)، كتاب يزدان دوخت (صفحة من تاريخ العراق في العهد الساساني، ١٩٣٤)، تاريخ الكنيسة الكلدانية (١٩٣٩) . وقد سعى لتنشيط التمثيل في المدارس وألف مسرحيات، منها : الزبّاء (١٩٣٣) مشاهد الفضيلة (١٩٣١) الأمير الحمداني (١٩٢٨)، وترجم مسرحية هوراس لبيير كورناي (١٩٥٢) .

شكري الفضلي

شكري بن محمود بن أحمد آغا ؛ من رؤساء عشيرة الكروية ، ولد في بغداد سنة ١٨٨٢ ، وقضى في السليمانية أربع عشرة سنة برفقة خاله صالح أفندي إسماعيل الذي كان رئيس كتاب الحامية العسكرية ، ودرس فيها دروسه الإبتدائية . وعاد الى بغداد سنة ١٩٠١ ، فانتمى الى المدرسة الرشدية العسكرية ودرس اللغات العربية والكردية والفارسية . وعيّن بعد ذلك معلماً في مدرسته الرشدية ومدرسة القديس يوسف .

شدّ الرحال الى الأستانة سنة ١٩٠٨ فأمضى فيها عامين ، ثم عاد الى بغداد ، وحضر دروس الشيخ عبد الوهاب النائب ، وألمّ بشيء من الانكليزية والفرنسية . واطلع على الثقافة التركية الحديثة ، ومن طريقها على الأدب العصري الغربيّ ، فتأثر بمبادىء الحرية والتقدم الاجتماعي ، ولقي في سبيل ذلك عنتاً وإرهاقاً . فقد سجنه الفريق رفيق باشا في كركوك ، ثم ألقي القبض عليه مع فريق من رجال العراق المناوئين لحزب الاتحاد والترقي ، وطلب إرساله الى الأستانة لمحاكمته أمام ديوان الحرب العرفي بأمر من طلعت باشا وزير الداخلية التركية ، لكن أطلق سراحه مع رفاقه بشفاعة الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني .

ولما احتلّ الإنكليز بغداد وجلا عنها الأتراك ، عيّن سنة ١٩١٧ رئيساً لكتاب محكمة الصلح ، ثم اختير عضواً بلجنة ترجمة القوانين العثمانية على عهد ناظر العدلية بونهام كارتر . وحرّر في الوقت نفسه في صحيفة «العرب» وبعض الصحف الفارسية والكردية التي أصدرتها سلطات الاحتلال . وكتب في الجرائد الصادرة في بغداد كجريدة الشرق والعراق والاستقلال . ونقل في سنة ١٩٢١ رئيساً لكتاب ديوان مجلس الوزراء . وأصيب بالسلّ ، فتوفيّ ببغداد في أول حزيران ١٩٢٦ . ورثاه جميل صدقي الزهاوي قائلاً :

حـــال بيني وبين شكـــري التراب | إذ قضى نحبــه، فجـلّ المصــاب...
قـــد بكتـــه الأقـــلام منكسرات | وبكتـــه الأخــــلاق والآداب

وكان شكري الفضلي نفسه قد حيّا الزهاوي بقصيدة قال فيها:

لقــد قلـت شعــراً، بل نظمـت شعــوراً | نـــذيـــراً لقـــوم تـــارة وبشيرا
يغيّر منهـــاج الحيـــاة بسرعـــة | ويحدث من بعـــد الأمـــور أمـــورا
يكلم جهــراً في الجبــان شجــاعــة | ويجعـــــل همس الخائفين زئيرا
يـــريك شحيح القـــوم يبسط كفّـــه | ويشرك في مــــال الغنــيّ فقيرا
يثقف أحـــلام الـــرجـــال ليتّقـــوا | بها الـــدهـــر خطبـــاً منكــراً ونكيرا
يـــوحّـــد غـــايـــات الهداة ليـدركـــوا | نعيماً وملكـــــاً لا يــــزال كبيرا
فـدونـك شعــراً للــزهــاويّ خــالــداً | تـــريك قـــوافيـــه الشعــور بحـــورا

مؤلفاته وشعره:

نشر شكـري الفضلي بحوثـاً في مجلة «لغـة العـرب» وغيرها من المجـلات والجرائد. ووضع كتباً في تـاريخ العراق قديماً وحديثـاً، وذيل جغرافية العراق التـاريخية، وفلسفة الخيام، ونظـرات سياسية واجتماعيـة. وله ديوان شعـر ومؤلف بـاسم «مكتبة الفضلي» يبحث في العلـوم المختلفـة كـالحكمـة الطبيعيـة والكيميـاء والفلك وطبقـات الأرض الخ. وقد بقيت آثاره متفرقة في الصحف والمجـلات وأوراقه المخطوطة لم يقدر لها الجمع والطبع.

وأدب شكري الفضلي كثقـافته مـزيج من القديم والحديث، وقـد أطل على الآداب العصريـة من نـافذة الأدب التركي الجديـد. وأفقـه واسع شأن الأدبـاء المخضرمين من أقرانه، فهو ينظم وينثر ويبحث في التاريخ والجغرافية والاجتماع وهلم جراً.

ومن شعره في «المستنصرية»:

نهضنـا، وكـــان الـدهـر تترى كتـائبـه، | يحاربنـــا طـــوراً وطـــوراً نحـــاربـــه
فكم قـــد قتلنـــا الـــدهـــر خُبْراً فـزادنـا | ببلـــواه علماً حينها نـــاح نـــادبـــه
وكم قـــد حلبنـا أشطـــر الـــدهـــر دربـة | وفـــزنـــا بَـــدرّ الحقّ، لله حـــالبـــه!
وكم قـــد علـونـا هـــام أســـود يـومـه | بأبيض عـــزم فـــاستنـــارت غيـاهبـه..
فهـــــذي هـي المستنصريـــــة تشتكـي | بـــلاهـــا وبـــالصمت البليغ تخاطبـــه
ألا دولـــة المستنصر اليـــوم قـــد علت | بـــدولتكم واعتـــزّ بـــالعلم طـــالبـــه
إذا مـــا أتخذت العلم للشعـب سـاعـــداً | ضربت بسيـف لم تخنك مضـــاربـــه..
الى العلم، يـــا أهل العـــراق، فـإنـــه | لموردُ عـــذبٍ لم تعكّـــر مشـــاربـــه

صدّيق الدملوجي

البحّاثة الإداري صدّيق بن سعيد الدملوجي ولد بالموصل سنة ١٨٧٧ ، وكان موظفاً إدارياً في العهد التركي . وعلى أثر تأليف الحكومة العراقية ، عيّن في أيلول ١٩٢٣ قائمقاماً للشطرة فالقرنة (تموز ١٩٢٥) ، وكان أيضاً قائمقاماً للأقضية الشمالية العمادية والشيخان وسنجار وتلعّفر .

إنصرف الى البحث والتأليف بعد اعتزالة الخدمة الرسمية . وأدركته الوفاة في مسقط رأسه الموصل في ١٥ نيسان ١٩٥٨ . من مؤلّفاته التاريخية : الأنقاض ، الموصل (١٩٤٩) اليزيدية (١٩٤٩) إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية (١٩٥٢) مدحت باشا (١٩٥٣) .

وهو أخو الدكتور عبد الله الدملوجي وفاروق الدملوجي .

رزّوق عيسى

ولد رزوق بن عيسى بن زكـرّيا الموصلي ، في بغداد في ٦ حزيران ١٨٨٥ ، ودرس في المدرسة الانكليزية الثانوية ونال شهادتها سنة ١٩٠٠ . وعمل موظفاً في بعض الشركات التجارية في البصرة ، لكنه لم يلبث أن عاد الى بغداد وقام بالتدريس في المدرسة الانكليزية (١٩٠١ ـ ١٤) .

وأصدر مجلة العلوم في أول تشرين الثاني ١٩١٠ فلم يظهر منها سوى عددين . وأعلن النفير العام في أواخر سنة ١٩١٤ فجنّد ، ثم اعتقل في آذار ١٩١٥ بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن ستة أشهر . وعيّن على أثر الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٧ مترجماً ومعاوناً للحاكم السياسي في العزيزية والنعمانية . لكنه استقال من منصبه بعد أمد وعاد الى التعليم في المدارس الأهلية عدة أعوام . وأصدر مجلة المؤرخ في كانون الثاني ١٩٣٢ ، فاستمرت سنة واحدة .

وقد وضع مؤلفات متعددة منها المطبوع والمخطوط ، منها : بغية الأنام في لغة دار السلام ، تاريخ العراق قديماً وحديثاً ، تاريخ التمدّن العراقي ، حضارة بابل وأشور ، تاريخ مدن العراق القديمة والحديثة ، حضارة العرب في الجاهلية والإسلام ، تاريخ الصحافة في العراق ، جغرافية العراق الخ . وألف روايات وكتباً مدرسية ، ونشر مقالات وبحوثاً كثيرة في الصحف والمجلات .

ومن رأيه أنه لا يصلح العالم إلا المذهب الإشتراكي المعتدل الذي بشّر به الأنبياء ، وقال به الفلاسفة ، وأقرّه الساسة والمشترعون في كل العصور . ومن رأيه أيضاً أن الدكتاتورية لا يطول عهدها لأنها عدوّة حرية جماهير الناس . وقد قال : «أليس من

الظلم أن تكون حياة الأمة تتوقف على كلمـة ينطق بها فرد من أفرادها؟ أليس من الظلم أن يكون الضعيف سنداناً لمطرقة القويّ؟» .

وقد توفي في ٢٣ أيلول ١٩٤٠ في بغداد .

محمّد جواد البلاغي

من رجال العلم والتأليف الشيخ محمـد جواد بن حسن بن طـالب البلاغي ، ينتمي الى أسرة معـروفة تنسب الى قبيلـة ربيعة ، وقـد ولـد بالنجف سنـة ١٨٦٤ ، ودرس على محمد طـٰه نجف ورضا الهمـذاني وغيرهما . ثم انتقل الى سامـرّاء ولبث فيها عشر سنين درس فيها علي محمد تقي الحائري الشيرازي الذي اشتهر في إبان الثورة العراقية . وغادر سامـراء حين احتلتها الجيوش البريطانيـة سنة ١٩١٧ ، فأقام في الكـاظمية سنتين ، ثم عاد الى النجف .

أكبّ على التأليف والتـدريس واشترك في الثورة العراقيـة سنة ١٩٢٠ . وكـان يعرف الفـارسية وشيئـاً من اللغة الانكليـزية . قـال جعفر محبـوبة في كتـابه «مـاضي النجف وحاضرها» (الجزء الثـاني) إنه كان لجواد البلاغـي اليد الطولى في الدعـوة الى إنقاذ الدار التي اتخذها البهائيون محفلاً لهم في جانب الكـرخ من بغداد ، وقد اشتدّ النزاع على هذه الدار ورفعت الشكاوى بشأنها الى عصبة الأمم سنة ١٩٣١ .

توفيّ بمسقط رأسه النجف في ١١ كانون الأول ١٩٣٣ .

كان عالماً شـاعراً أديباً وضع مـؤلفات عديدة ، أهمّهـا : آلاء الرحمٰن في تفسير القرآن (طبع منه ٣ أجـزاء ١٩٣٣ ـ ٣٤) أنـوار الهدى ، أعاجيب الأكـاذيب (١٩٢٧) البلاغ المبين (في الإلهيات) ، التوحيد والتثليث ، الرحلة المدرسية (١٩٢٤) العقود المفصّلة (في الفقه) نسمات الهدى ، مسألة في البداء (١٩٥٥) الهدى الى دين المصطفى (في جزءين ، ١٩٦٥) الخ .

ردّ على الماديين والطبيعيّين والدهريّين ورمى بسهامـه أرباب الالحاد ودافع عن أركان الدين . ونظم الشعر ، فمن نظمه رثاء محمد سعيد الحبّوبي ، ومطلع قصيدته :

شـاقك الـبرق فأسـرعت سِبـاقـا وتـركت الصبّ يلتـاع اشتيـاقـا

ومعارضة قصيدة ابن سينا الشهيرة في النفس ، قال :

نعمت بـأن جـاءت بخلـق المبـدع ثمّ السعـادة أن يقـول لها : ارجعي

محمد صادق الأعرجي

الصحفي الكاتب المدرس محمد صادق الأعرجي، ولد سنة ١٨٨٣ ودرس علوم العربية والدين في المعاهد القديمة. ومال الى الكتابة في شبابه، فأصدر في بغداد جريدة الرصافة (١٧ حزيران ١٩١٠). وعطلتها الحكومة بعد سنة واحدة، فاعتاض عنها بجريدة الصاعقة التي أنشأها عبد الكريم الشيخلي في ٨ حزيران ١٩١١. وأدّت به جرأته في الكتابة الى السجن، ولم يفرج عنه إلا بأمر من استانبول بعد مراجعة برقية من بعض الوجهاء. وأصدر في نيسان ١٩١٣ مجلة الرصافة، لكن لم يبرز منها سوى عدد واحد. واختير الأعرجي بعد ذلك عضواً في مجلس ولاية بغداد (١٩١٤) على عهد الوالي جاويد بك.

وامتهن التعليم على أثر الاحتلال الانكليزي فعيّن مدرساً (أول تشرين الأول ١٩١٧)، وزاول هذه المهنة في المدارس الثانوية الرسمية للبنين والبنات أكثر من ثلاثين سنة.

وتوفي ببغداد في أوائل شهر آب ١٩٦٠.

كان الأعرجي شاعراً، قال من قصيدة له في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

أسد العراق، بلغتم شأو عزكمُ ... ونلتم بعلاكم أرفع الرتب

في باب روض علاكم آية كتبت: ... حمالة المجد لا حمّالة الحطب

هذا العراق حماكم، وهو خير حمى، ... فعالجوه لكي يشفى من الوصب

عار عليكم، بنيه، أن تمدّ يد ... إليه مالم تعالجها يد العطب

إن لم تذّبوا حفاظاً عن حريمكمُ ... فمن يذبّ وينجيه من الرهب؟

***

أرض العراق بأهليها محصّنة ... محمّية بهمُ من سالف الحقب

كم قام فيها مليك جيشه لجب ... وحلّها خير جيش باسم خير نبي

شبانها لحماها خير مدّخر ... أنتم فجدّوا فليس الوقت للّعب

ألقوا على الشعب ضوءاً من بسالتكم ... كي ينجلي عنه ليل الشكّ والريب...

حتى يقول:

لا تخضعوا لعداكم في مساومة ... عار على الرأس أن ينقاد للذنب

صبّوا عليهم جحيماً من مدافعكم ... وأحرقوهم بنيران من الغضب

روّوا صعيد حماكم من دمائكُمُ ... كيما يجيد ثمار العزّ والنشب

واسقوه ماءً نميراً من مكارمكم ... كيما يجيد ثمار العلم والأدب

علي ظريف الأعظمي

الصحفيّ المؤرخ علي ظريف الأعظمي ولد بضاحية الأعظمية من بغداد سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥٨ . عمل في التدريس . وأصدر مجلة الأقلام (شباط ١٩٢٨)، فاحتجبت قبل أن تكمل عامها الأول. وقد عين رئيساً لبلديةالأعظمية سنة ١٩٢١ .

وضع كتباً منها: دروس التجويد (١٩١٣) الدرّ والياقوت في محاسن السكوت (١٩١٣) دروس الصحّة، تاريخ ملوك الحيرة (١٩٢٠) تاريخ الدولة اليونانية في العراق (١٩٢٣) مختصر تاريخ بغداد (١٩٢٦) مختصر تاريخ البصرة (١٩٢٧) تاريخ الدولة الفارسية في العراق (١٩٢٧).

ولده: الشاعر حسين الظريفي، ولد بالأعظمية سنة ١٩٠٩ . وعيّن مدرساً في البصرة (١٩٢٨)، لكنه انتمى في السنة التالية الى كلية الحقوق في بغداد وتخرّج فيها سنة ١٩٣٣ . وعيّن حاكماً في المحاكم المدنية (١٩٣٥)، ثم انصرف الى مزاولة المحاماة.

من مؤلفاته: حاكم التحقيق (١٩٣٦) البيّنات العامة (١٩٤٥) في سبيل الوطن (مسرحية شعرية، ١٩٤٨) جميل صدقي الزهاوي في بعض مجالسه (شعر روائي). وله أيضاً: أناشيد (١٩٢٢)، ظرائف الأعظمي (١٩٢٥).

قال الظريفي من قصيدة له بعنوان «من وحي الفنّ».

للنفس في فنّ الغناء إذا وعت ... ما تشتهي من طاعم أو كاس

وإذا أمضّ الحزن في قلب امرىء ... واساه من حسن الغناء مواسي

ولطالما أحيا به ميت الهوى ... من كان قد واراه بالأرماس

وبه لدى الجُلّى يذبّ عن الحمى ... كالماء من حجر تفجّر قاس. . .

قلم الأديب كنغمة الشادي به ... ينجاب ما يضنيه من إيلاس

ويبثّ من مرَّ الهوى حرّ الجوى ... وصنوف ما قاسى به ويقاسي

ولقد يبيت به الفتى وكأنه ... يحيا على عرس من الأعراس

كم لذة لي في الحياة غنمتها ... ويراعتي بيدي على قرطاسي

أملي عليها من بنات خواطري ... ما هنّ كالريحان أو كالآس

إنّي لأغفل عن حياتي ساعة ... فيها أعبّر عن مدى إحساسي

لي من بياني صورة ليست على ... شيء من الإغماض والإلباس

عبد الحميد عبادة

من الكتاب الباحثين، ولد في خانقين سنة ١٨٩١، واستقرّ في بغداد حيث توفي سنة ١٩٣٠. مال الى البحوث التاريخية والتحقيقات العمرانية شاباً وكتب مقالات في مجلة لغة العرب وغيرها من المجلات والصحف.

وألف كتاب مندايي أو الصابئة الأقدمين (١٩٢٧)، وترك مصنفات مخطوطة منها «العقد اللامع في ذكر الآثار والمساجد والجوامع»، و «شجرة الزيتون في نسبة آل السعدون».

قال عبد القادر البّراك: «من يستعرض أمّهات المجلات العلمية والأدبية والتاريخية التي صدرت في العراق وبعض الأقطار العربية في أوائل القرن العشرين، يجدها حافلة بالعديد من المقالات والبحوث التاريخية القيّمة التي تحدّد مواقع بعض معالم الحضارة وتعرّف بالعديد من الملل والنحل والمعتقدات والآراء، للمؤرخ البغدادي المرحوم عبد الحميد عبادة، صاحب أهم مصدر عن تاريخ «الصابئة» ومعتقداتهم، لكونه قد كتبه بعد أن سكن في قراهم وعايش أقطابهم. . .» وقال البرّاك أن الدكتور مصطفى جواد كان يعتمد على آرائه فيما كان يكتبه عن خطط بغداد القديمة وغير ذلك من المواضيع.

مير بصري

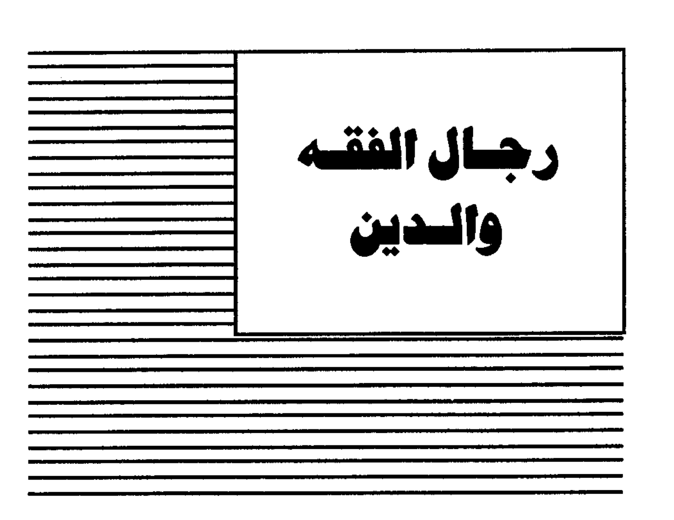
أعلام الأدب في العراق الحديث

الجزء الثاني

تقديم

د. جليل العطيّة

دار الحكمة


رجال الفقه
والدين

حسين الخليلي

من كبار مجتهدي الشيعة الإمامية، كان أبوه خليل بن علي بن إبراهيم بن محمد علي الطهراني يمارس الطب القديم، هاجر الى النجف في نحو سنة ١٨٠٠ وأسّس أسرة اشتهر أكثر أبنائها بالتطبيب، كما نبغ منها علماء دين منهم المولى علي بن خليل المومأ اليه (١٨١١ ـ ١٨٨٠) وأخوه المترجم.

ولد المرزا حسين الخليلي في النجف في نحو سنة ١٨٢١، ودرس على الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر والشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٨٦٤ وغيرهما. وبرّز في الفقه، وتصدّى للتدريس فاشتغل فيه عهداً طويلاً، وكان من تلامذته السيد حسن الصدر ومحمد تقي الحائري الشيرازي وأحمد ومحمد حسين آل كاشف الغطاء الخ. ووضع كتباً في الغصب والإجارة وبعض الشروح والتقريرات.

انتهت إليه زعامة الإمامية بعد وفاة المرزا محمد حسن الشيرازي سنة ١٨٩٥. وقد سعى في تشييد قناة تجلب الماء الى النجف ظلت تسقي البلد حتى طمست بعد عدة سنين. ومن آثاره أيضاً مدرستان دينيّتان في النجف وخان للمسافرين في الهندية. وقد توفي في الكوفة في ٥ تشرين الثاني ١٩٠٨.

كان حسين الخليلي من أركان النهضة الإيرانية مع المرزا الشيرازي وغيره من العلماء. وكان، كما وصفه بعض عارفيه، حلو الشمائل، عذب الكلام، أريحيّ الطبع، شديد الورع، معظماً للعلماء وأهل الدين. رثاه الشعراء فقال محمد حسن سميسم:

حديث الدهر أصدقه الفناء ... وأكذب ما ينمّقه البقاء

وقال عبد الحسين الحويزي:

عليك بناء الدين مارت جوانبه ... وبحر الندى والعلم غارت غواربه

وقال رضا الهندي:

حاولت نظم الرّثا فاستعصت الكلمُ، ... وهل لأهل النّهى بعد الحسين فم؟

محمّد حسن المامقاني

الفقيه الإمامي محمد حسن بن عبد الله المامَقَاني، ولد في مامقان المجاورة لمدينة تبريز الإيرانية سنة ١٨٢٢ . وشدّ الرحال الى كربلاء والنجف فدرس فيهما. وتنقل في أقطار كثيرة، ثم قضى نحبه في النجف في آذار ١٩٠٥ . وقد ألف كتباً، منها: ذرائع الأحلام في شرح شرائع الإسلام (في مجلدين)، غاية الآمال (في الفقه)، بشرى الوصول الى أسرار علم الأصول (في ثمانية أجزاء)، الخ .

عرف أيضاً باسم المغمغاني وكان معاصراً وصديقاً للشيخ محمد الشربياني، وكانت تصلهما الأموال الضخمة من أنحاء إيران والقفقاس فيوزعانها على طلبة العلم وذوي الحاجة ولا يستأثران بشيء منها سوى النزر اليسير.

محمّد طٰه نجف

الفقيه الإمامي محمّد طٰه بن مهدي بن محمد رضا التبريزي المعروف بمحمد طٰه نجف، من شيوخ المدرّسين، ولد ببلدة النجف سنة ١٨٢٥ ، ودرس على أئمة رجال عصره كعلي الخليلي ومحسن خنفر وغيرهما. كان طويل الباع في الفقه والأصول والحديث، تتلمذ عليه وأفاد منه الكثيرون.

وقد ألف كتباً في الفقه والتراجم، منها: حاشية على المعالم، الدعائم في الأصول، غناء المحصّلين، إحياء الموات في أحوال الرواة، الفوائد السنيّة والدرر النجفية (١٨٩٦) الإنصاف في مسائل الخلاف (١٨٩٧) نعم الزاد (١٨٩٧) كشف الحجاب (١٩٠٢) كشف الأستار (١٩٠٦) إتقان المقال في أحوال الرجال (١٩٢٢)، الخ .

كفّ بصره في أواخر عمره، وأدركه الحِمام في ١٠ كانون الأول ١٩٠٥ .

توثّقت صلته بأدباء زمانه، فعزّاه الشاعر جعفر الحلّي بولد له احتسب به، وقال:

أرائد قومه اغتنم الرجوعا، ... فريح الموت صوّحت الرّبيعا؟

وهي قصيدة طويلة تعدّ ٦٨ بيتاً يقول منها:

أبا المهديّ، كيف أقول صبراً ... ولست أراك من قَدَرٍ جزوعا؟

لسان هُداك قد عزّاك عنّا ... وكفّ تقاك كفكفت الدموعا

أصول الدَّوْح حالاها سواء ... وإن جذّ الردى منها الفروعا

وليس يضير نور الشمس نجم ... هوى من برج مطلعه وقوعا . . .

وتوفّي الشيخ محمد طه نجف فرثاه عبد المطّلب الحلّي ومحمد حسن أبو المحاسن

ومحمد رضا الشبيبي وسائر الشعراء. وقال الشيخ جواد الشبيبي:

محجّة الملّة البَيْضَا مطالعها لفقد شارعها سُدَّت شوارعها

هدّت مصانعها من بعد رافعها بهمّة تملأ الدّنيا صنائعها

وحوزة الدين لم تمنع جوانبها وقد أبيح لخطب الدهر مانعها

وقال الشيخ إبراهيم بن مهدي آل أطيمش (١٨٧٣ ـ ١٩٤١):

فهو الذي كانت مواهب فضله للناس كالأطواق في الأجياد

لمعت بأفق الفضل غرّ صفاته شهباً له الجَوْزَا من الحسّاد

فيه تزيّنت المنابر واغتدت من قبله مخضرّة الأعواد

وتدفقا، من علمه ونواله، بحران للطلّاب والوفّاد...

رضا الهمذاني

من فقهاء الإمامية الشيخ رضا بن محمد هادي الهمذاني، ولد في همذان سنة ١٨٢٥. وهاجر الى النجف فدرس على مشايخها كمرتضى الأنصاري ومحمد حسن الشيرازي.

أدركته الوفاة في سامّراء سنة ١٩٠٤.

وقد وضع مؤلفات، منها: مصباح الفقيه، حاشية على رسائل أستاذه الأنصاري (١٩٠٠)، كتاب الصلاة (١٩٢٩) العوائد الرضوية، الخ.

محمّد الشربياني

الشيخ محمد بن فضل بن عبد الرحمٰن الشربياني الفقيه الإمامي ولد سنة ١٨٣٢، وأقام في تبريز ثم انتقل الى النجف (١٨٥٧)، واتخذها له سكناً.

درس على السيد حسين الترك وأصبح من أئمّة المدّرسين والمجتهدين. وقد ألف كتاباً في «أصول الفقه» وكتاب «المتاجر» في الفقه أيضاً الخ. وتوفي سنة ١٩٠٤.

وكان الشربياني الذي ينتسب الى قرية من نواحي تبريز يعرف بالفاضل. جرت له مطارحات أدبية مع الشاعر جعفر الحلّي الذي مدحه قائلاً:

محمّد الفاضل الميمون طالعه قد خصّص الله فيه العلم والعملا

الله قيّضه للناس يرشدهم حاشا الإله بأن يبقى الورى هملا

وداعبه بقوله:

للشربيـــاني أصحـــاب وتلمـــذة تجمّعـوا فـرقـاً مـن هـاهنـا وهنـا

مـا فيهمُ من لــه بـالعلم معـرفـة يكفيـك أفضل كـلّ الحاضريـن أنــا!

وقد شـاد الشربياني مـدرسة في النجف عـرفت بـاسمه. وكان مـن أشهر تـلاميذه الشاعر جعفر الحلي الحسيني من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧).

حرم الشيخ محمد الشربياني على الحجاج سلوك الطريق البري النجف ـ حائل لتكرر اعتـداء البدو على الحجيج، فـانقطع سلوك الطـريق ثـلاث سنوات، حتى تعهـد ابن الرشيد أمير حـائل بالمحافظة على أرواح الحجاج وأموالهم، فأفتى الشربيـاني باستئناف سلوك الطريق البري.

حسين النوري

الفقيه الإمامي الجعفري حسين بن محمّد تقي النوري ولد في قرية «يالو» من قرى نور في طبرستان سنـة ١٨٣٨. وقدم النجف فتصـدّى فيها للتأليف والتـدريس، وتوفيّ بها سنة ١٩٠٢.

من مصنفـاتـه: دار السلام فيما يتعلق بـالـرؤيـا والمنام (في جـزءين ١٨٨٨)، جنـة المأوى، كشف الأستـار، فصل الخطـاب في تحريف كتـاب ربّ الأربـاب (١٨٨١)، اللؤلؤ والمرجان في نقـد قراءة التعازي، مستدرك الوسائل في الفقـه (في ٣ أجزاء)، معالم العِبَر، النجم الثاقب، المولودية (شعر فارسي) الخ.

كان النوري مشغـوفاً بجمع الكتب واستنساخها، ذكـر علي الشرقي أنه أعياه طلب بعض الكتب، فعثر عليه اتفـاقاً في السوق وقد عرضته امـرأة للبيع. ولم يكن لديه المال لدفع الثمن، فخلع عبـاءته وسلّمها للمنـادي لبيعها في المزاد حتى تمكن من أداء ثمن الكتاب. وعاد به مسروراً الى داره وهو بدون عباءة!

وقـد روي عن جيمس لاكنجتن James Lackington (١٧٤٦ ــ ١٨١٥) الكتبي الانكليزي أنه ذهب الى السوق عشيّة عيد الميلاد، وفي جيبه بضعة دراهم، لشراء طعام العيد. لكنه وجـد كتاباً كان يريـد الحصول عليه معروضـاً للبيع، فنسي الطعام والعيد واشترى الكتاب بالمبلغ الزهيد الذي في يده وعاد به الى منزله فرحاً. وسألته زوجته: أين الطعام؟ فقـال: إن الطعام نأكله الليلة فيـذهب. وأنا اشتريت كتاباً نتمتع بلـذّته على مدى السنين.

وقال الامبراطور الروماني الفيلسوف مرقس اوريليوس (١٢١ ـ ١٨٠م) في خواطره: إنّ الرجل قـد لا يملك عباءة، والآخر قـد لا يملك كتابـاً في العالم، ولا يمنع ذلك أن يكون كلاهما فيلسوفاً.

وقد قال الشاعـر جابر الكاظمي، وهو الشيخ جابـر بن عبد الحسين من ربيعة نزار

(١٨٠٧ ـ ١٨٩٥) في الشيخ النوري :

ندب لديه الفضل ألقى رحله ... وعنه طول الدهر لم يرتحلِ
آراؤه في العلم أنجم بها ... للعلم يجلي كل ليل أليل

غلام رسول

العالم الشهير غلام رسول المولوي الهندي الأنصاري نزح الى بغداد وتولّى التدريس في جوامعها فطار صيته وتقاطر عليه طلاب العلم . تخرّج عليه عدد عديد من العلماء ورجال الدين ، وفي مقدمتهم عبد الوهاب النائب وعباس حلمي القصاب ومحمد سعيد النقشبندي ويوسف العطاء وعبد الملك الشواف ونجم الدين الواعظ وقاسم القيسي .

ولمّا اختارت الحكومة العثمانية مدّرسين للألوية والأقضية سنة ١٨٩٢ لنشر لواءالدين وتثقيف الأهلين ، اختير الشيخ غلام رسول مدرساً لقضاء مندلي لكنه استقال بعد أشهر قليلة ، قائلاً : القرى تضيع العلم .

وعاد الى بغداد يواصل رسالته العلمية حتى قضى نحبه فيها في أول تموز ١٩١٢ . وقد درّس ردحاً من الزمن في مسجد نعمان الباجه جي بجانب الرصافة .

ذكره ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون : أخبارهم ومجالسهم» فأثنى عليه وقال إنه كان بارعاً في العلوم العقليّة على وجه التخصيص . وكانت حلقات دروسه في جانبي الرصافة والكرخ عامرة تقصدها نخبة ممتازة من طلبة العلم ولا سيّما مجلسه في جامع حبيب العجمي . وكان تلاميذه يتناوبون في خدمته لأنه كان غريباً لا أهل له .

وروى الدروبي أن الشيخ غلام رسول كان شديداً في محاربة البدع والخرافات : فقد علم أن بعض تلامذته يكتب الأدعية والرقى ويتعاطى الرمل والجفر وتفسير الرؤى والأحلام والكشف عن الغيب ، فلم يكن منه إلاّ أن ثارت ثائرته فعنّف التلميذ المشعوذ وزجره وطرده من درسه .

وقد اشتهر الشيخ غلام رسول بتدريس الفلسفة الإسلامية . ذكر عبد الله عبد السلام ، عضو محكمة التمييز العراقية الذي تتلمذ عليه في شبابه ، أن شهرته قد طارت حتى بلغت مسامع الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية ، فكلفه عن طريق أحد المصريين الذي اجتمع به في الاستانة ، أن يشخص الى مصر لتدريس الفلسفة . لكن غلام رسول رفض الطلب لأسباب عائلية .

***

بهاء الحق

ومن علماء الهند الذين هاجروا الى بغداد وكان لهم شأن فيها الشيخ بهاء الحقّ ابن

الشيخ قادر بخش بن غلام محمد الأسدي نسباً. ولد سنة ١٨٤٠ ، و كان والده وجدّه من علماء الدين في الهند وسالكي الطريقة النقشبندية. وقد اتخذ بهاء الحق مقامه في بغداد وتولّى التدريس في المدرسة القادرية والمدرسة الأعظمية. وكان أستاذاً في علم الأصول والحديث والتفسير والكلام، على ما ذكره محمود شكري الألوسي في «المسك الأذفر».

وقد تخرّج عليه علماء كثيرون، وتوفي ببغداد في نحو سنة ١٨٨٣ .

قال عبد الرحمن البناء يرثي الشيخ غلام رسول الهندي:

علم الكلام تنحى بعد مولاه ... وظل يلطم بالأيدي محياه

وهيئة الدين أضحت وهي باكية ... لما غدت لغة القرآن تنعاه

وأصبحت أربع التدريس مقفرة ... لما تلامذة الهندي قد تاهوا

العالم العامل الحبر التقي ومن ... بزهده شهد الاملاك والله

ورثاه إبراهيم منيب الباجه جي فقال:

أيها الموت، قد فجعت البرايا ... بهمام علومه لا تجارى

أيها الموت، قد فجعت البرايا ... بالتقيّ البرّ العفيف ازارا

كان بحراً من العلوم خضمّاً ... لا يرى العائمون فيه قرارا

يا غلام الرسول، ما أنت ميت، ... ليس ميتاً من خلّد الآثارا

أسعد الدوري

من علماء بغداد المشهورين في عصرهم أسعد الدوري، وهو السيد محمد أسعد بن جواد بن عبد الرحمن. أصل أسرته من الحجاز، وكانت تعرف بآل البعّاج، انتقلت إلى دير الزور، ثم نزح جدّه إلى بلدة الدور القريبة من سامراء.

ولد في الدور سنة ١٨٢٦ وتلقى فيها مبادىء دروسه. ثم جاء إلى بغداد ولازم الشيخ داود النقشبندي والمفتي محمد فيضي الزهاوي فأخذ عنهما.

وقد عيّن أميناً للفتوى وخطيباً في الحضرة الكيلانية سنة ١٨٧٠ ، وكان بعد ذلك مدرساً لمدينة تكريت. ونقل مدرساً لمدرسة نائلة خاتون في بغداد سنة ١٨٧٤ .

وحج سنة ١٨٩٣ واجتمع بعلماء الحجاز، ومرّ بالشام، ثم قصد الحج مرة ثانية بعد سنتين. وواظب على التدريس، فتخرّج عليه كثير من أرباب العلم. وعمّر طويلاً حتى أدركه الحمام ببغداد في ٨ شباط ١٩٢٣ .

ذكره محمد صالح السهروردي في «لبّ الألباب» فنعته بالورع والزهد، وقال إنه كان متضلّعاً من الفقه والأصول والحديث حتى لقّب بفقيه العراق، وله شعر رائق ومؤلفاته ذهبت بذهابه.

قاسم البياتي

الشيخ قاسم خير الدين ابن الشيخ محمد الحنفي البغدادي البياتي، من علماء بغداد ومتصوّفتها. درس على الشيخ عبد المحسن السهروردي الذي أجازه إجازة عامة في نحو سنة ١٨٦٤، وعلى الشيخ عيسى البندنيجي الذي أجازه سنة ١٨٥٩. ومن أساتذته الآخرين السيد شهاب الدين محمود الألوسي (أجازه بقراءة دلائل الخيرات سنة ١٨٤٨).

تولّى التدريس في جامع النعمانية وإقامة حلقات الذكر الصوفية في داره. ووضع مؤلفات في التصوف والوعظ وعلم الكلام. وأدركته الوفاة في بغداد سنة ١٩٠٧، فرثاه معروف الرصافي بقصيدة مطلعها:

على قاسمٍ شيخ الطريقة قد بكت جواهر فضل ما لها الدَّهْرَ قاسمُ
بكاه التقى والعلم والحلم والنّهى وحسن السجايا والعلى والمكارم...

وقال جميل صدقي الزهاوي:

كبير موت كبّار الأعاظِمْ فإنّ بهم عماد الدين قائم
قضى، والهفتا، من كان يحيا لتزكية النفوس من المآثم...

درس عليه الكثيرون منهم عبد الوهاب النائب ومحمد سعيد النقشبندي ويحيى الوتري وعلي الخوجة الخ.

محمد آل بحر العلوم الطباطبائي

الفقيه الإمامي محمّد بن محمد تقي بن رضا آل بحر العلوم الطباطبائي ينتهي نسبه الى جدّ الأسرة الحسنية العلوية السيد محمد مهدي (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧) الشهير ببحر العلوم صاحب «المصابيح».

ولد محمد الطباطبائي سنة ١٨٤٥ بالنجف، وتتلمذ على علمائها وبلغ منزلة رفيعة في الزعامة الدينية. وقد ألف «الوجيزة» (١٩٠٦) و «بلغة الفقيه» (طبع سنة ١٩٦٨). وتوفي في النجف في ١٥ حزيران ١٩١٣.

كانت له مطارحات أدبية مع رجال عصره. وقد داعبه وصاحبه محمد بن مهدي

القزويني (المتوفّى سنة ١٩١٦)، داعبهما الشاعر جعفر الحلّي قائلاً:

شتّان بين محمّد ومحمّد: ذا طبطبائيّ وذا قزويني
أنا أعرف الرجل المهذّب منهما بالله لا تسأل عن التعيين

وكان للسيد محمد بحر العلوم خزانة كتب عامرة بالمطبوعات ونادر المخطوطات.

وقال جعفر الحلي أيضاً يهنىء محمد الطباطبائي حين قدومه من الحجّ:

حيّيت، يا ابن العمّ، من قادم عَوْدك عيد لبني هاشم
أضحى بك العالم ذا بهجة، يا حجّة الله على العالم
قمت بأعباء العلى ناهضاً ونبت في الأمر عن القائم..

وقال فيه أيضاً:

عاد الى قبيله محمّد بل عادت الروح الى الأشباح
حيّيت، يا من كفّه عن الحَيَا نائبة في الأعصر الشِّحاح
باهى بك العراق إذ وطأته حيث أبوك سيّد البطاح...

ومدحه الشاعر أحمد بن راضي القزويني (١٨٤٤ ـ ١٨٩٧) فقال:

محمّد من ينمى له كلّ سؤدد إذا ما احتبى في مجلس النهي والأمر
قرنت العلى بالعلم والحلم والندى وشتّتّ شمل المال والنعم الوفر
وبدّهت ما أضحى من الرمس عافياً وقرّبت ما أمسى بعيداً عن الفكر
أرى آل بحر العلم فاقوا الورى كما تفوق الليالي كلها ليلةُ القدر...

وقال فيه أيضاً:

يا ربيب العلى وربّ الأيادي وعميد الورى على الإطلاق
كم بأفق العلى فضائل سارت لك مسرى النجوم في الآفاق
علم مفرد بجمع علوم قصرت عنه ألسن الحذّاق
رافل في غلائل الحسب الوضّاح (م) أو في مكارم الأخلاق

حسّون البُراقي

وهو حسين بن أحمد بن الحسين الحسني المعروف بحسّون البراقي نسبة الى محلّة البُرَاق في النجف، ولد بها سنة ١٨٤٥. كان قويّ الحافظة، كثير التتبّع، خلّف كتباً تاريخية في لغة عامية، منها: تاريخ الكوفة (١٩٣٨) بهجة المؤمنين في أحوال الأولين والآخرين (تاريخ عام في أربعة مجلدات ضخمة)، تاريخ الحيرة، تاريخ النجف، فضل

كربلاء، مشاهير الرجال، الخ.

وقد توفي في بعض قرى الحيرة سنة ١٩١٤.

مصطفى نور الدين الواعظ

مصطفى نور الدين بن محمد أمين الشهير بالواعظ ابن محمد بن جعفر الأدهمي، ولد لأسرة دينية معروفة ببغداد في ٢٦ شباط ١٨٤٧، فأرخ ولادته الشاعر عبد الباقي العمري قائلاً:

وشرّف الـــزورا فقلت: أرّخـــوا شرف أحيـــاء العـــراق المصطفى

توفي والده وهو في العاشرة من عمره، فكفله عمّه محمد سعيد. ودرس علوم العربية والدين على علماء عصره كالشيخ عبد السلام مدرس الحضرة القادرية والشيخ بهاء الحق الهندي والشيخ داود النقشبندي، فنصب مدرساً في المدرسة الخاتونية (١٨٦٨). ثم عيّن مدرساً وواعظاً بالبصرة سنة ١٨٧٢ وعضواً بمحكمة التمييز فيها (١٨٧٤)، وكان بعد ذلك رئيساً لمحكمة جزاء البصرة (١٨٨٠ ــ ٨٢). وعيّن مفتياً للحلة في أيلول ١٨٨٣، فقضى في هذا المنصب ربع قرن وكان في أوقات مختلفة خلال تلك المدة أيضاً مديراً للأوقاف ومديراً للمعارف ووكيل القاضي ووكيل قائمقام السماوة ووكيل متصرف لواء الديوانية (١٩٠٣) الخ.

ولما أعلن الدستور العثماني انتخب نائباً عن الديوانية في مجلس المبعوثين (تشرين الثاني ١٩٠٨) حتى حلّ الدورة النيابية في أوائل سنة ١٩١٢.

وضع مصطفى الواعظ مصنفات دينية منها: عنوان الهداية في ردع أرباب الغواية، البرهان الجليّ في الفرق ين الرسول والنبيّ والوليّ، الدرّ النضيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، كشف الدستور عن مطالع البدور الخ. وله أيضاً: الروض الأزهر (وقد أكمله ونشره ولده إبراهيم الواعظ سنة ١٩٤٨).

وتوفي في بغداد في ٣ حزيران ١٩١٣.

وقد كتب ولده إسماعيل الواعظ في كتاب (الروض الأزهر) يقول إنّ السيد مصطفى الواعظ كان متمسّكاً بالشريعة الغراء ذاباً عنها محامياً لها. وقد وقف من جميل صدقي الزهاوي حين نشر مقالته عن المرأة في جريدة المؤيد القاهرية سنة ١٩١٠ موقفاً شديداً، فذهب الى الوالي ناظم باشا وطلب عزله من وظيفته.

رثاه الشعراء، منهم رشيد الهاشمي الذي قال:

كل امرىء بأماني الدهر مشغول لا بدّ، لا بدّ أن يغتاله غول...

يا راحلاً طالما أبكى العباد دماً بكتك والله آيات وتنزيل

بكاك، يا مصطفى، الدين الحنيف كما بكاك علمك معقول ومنقول

ولده: إسماعيل حقي بن مصطفى الواعظ (١٨٧٩ ـ ١٩٤٤) كان مفتياً للديوانية (١٩٠٩ ـ ١٧) ومدير أيتام بغداد (١٩٢٢).

علي كاشف الغطاء

الشيخ علي بن محمّد رضا بن موسى بن جعفر كاشف الغطاء (المتوفّى سنة ١٨١٣) من رجال الدين والفضل، ولد بالنجف سنة ١٨٥٠ . وقد رحل الى إيران فأقام سبع سنين متنقلاً بين أصفهان وشيراز وخراسان وطهران. وعاد الى العراق واتّصل بالوالي سرّي باشا (١٨٩٠) فقدّر فضله وعرف منزلته. وسافر الشيخ علي بعد ذلك الى استانبول ولبث فيها زهاء أربعة أعوام، وزار الحجاز وسورية والهند.

ألّف كتباً منها «الحصون المنيعة في طبقات الشيعة» في عشرة أجزاء و «سمير الحاضر» في خمسة أجزاء. وصنّف مجموعة بعنوان «النوافح العنبريّة» قرّظها الشاعر جعفر الحلّي قائلاً:

هـٰذي النوافح فانشق طيبها العَطِرا ... واستَجْلِها سترى ألفاظها زُهُرا
من كلّ نظم يُرَى كالعقد منتظماً ... فيها ونثر يرى كالدرّ منتثرا...

وكتب إليه جعفر الحلّي أيضاً الى استانبول:

سلام حبته الطيب منك الشمائلُ ... ومدح عليه من علاك دلائل
أسائل عنك البرق إن لاح ومضه ... فتسبقه منّي الدموع الهوامل
وأنتشق الأرواح مهما تنسّمت ... فتذهب في روحي الصَّبَا والأصائل
عليك سلام الله ما هبّت الصَّبَا ... وما سجعت فوق الغصون العنادل...

وجمع خزانة تضمّ كتباً ومخطوطات نادرة. أدركه الحمام في النجف في ١٩ أيار ١٩٣١ . وعرف من أبنائه أحمد ومحمد حسين آل كاشف الغطاء.

أما ابنه الشيخ أحمد بن علي فولد بالنجف سنة ١٨٧٦ ودرس في سامرّاء وفي مسقط رأسه، وأخذ الفقه عن الشيخ الشيرازي ورضا الهمداني ومحمد كاظم الطباطبائي وغيرهم. وعرف عالماً فقيهاً تقدّم في مراحل الزعامة الدينية ومراتب الاجتهاد، لولا أن المنيّة اختارته سنة ١٩٢٦ ، وهو في بغداد. ألف: «سفينة النجاة» في الفقه و «قلائد الدّرر» و «أحسن الحديث في الوصايا والمواريث».

وعرف من آل كاشف الغطاء أيضاً الشيخ هادي بن عبّاس بن علي (١٨٧٢ ـ ١٩٤٢)، وكان فاضلاً شاعراً. ولد بالنجف وألف: «أوجز الأنباء في مقتل سيّد الشهداء»، مستدرك نهج البلاغة (١٩٣٦) المقبولة الحسينيّة (١٩٢٤)، مناسك الحج (١٩٢٤) الخ.

وكان للشيخ هـادي مطارحات شعريـة مع أدباء عصره كالسيد جعفـر الحلي ورضا الأصفهاني وجواد الشبيبي .

وقد كـان لآل كاشف الغطاء مكانـة مرموقـة مند عهد الشيخ جعفر، وتـوسّط ولده الشيخ موسى في الصلح بين الوالي داود باشا والشـاهزادة محمّد علي ميرزا القاجاري وليّ العهد الإيراني سنة ١٨٢١ ، فأثمر مسعاه ثمراً طيباً، ولقّب بمصلح الدولتين .

محمد سعيد الزهاوي

ابن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهاوي . وقـد ولد أبوه محمد فيضي في بلدة زهاو سنـة ١٧٩٧ . وجـاء الى بغـداد فعيّن مفتياً سنـة ١٨٥٤ ، وقـال في ذلك عبـد البـاقي العمري :

قـد قيل لي، إذ رحـت أنشـد عنـدمـا شـاهـــدت دين محمّـــد يتجـدّد،

في مــــذهب النعمان في الـــزوراء قـــد أفتى الإمــــام الشــــافعـيّ محمّـــــد

وتوفي في ١٥ كانون الأول ١٨٩٠ . وقد اشتهـر الكثير من أبنائه، منهم الشاعر جميل صدقي .

ولـد محمد سعيـد الزهـاوي في بغداد سنـة ١٨٥٢ ودرس على أبيه . ثم عيّن عضـواً بمحكمـة الاستئناف سنـة ١٨٧٦ ، وأصبح نائبـاً لرئيسهـا (١٨٨٣). ولما توفي والـده اختير مفتياً لبغداد في محله (شبـاط ١٨٩١) فشغل هذا المنصب الى أيار ١٩١٦ . وتولّى خـلال تلك المدة، علاوة على منصبـه، وكـالة القـاضي ومديـريـة الأوقاف ومـديريـة المعارف، وقام بالتدريس في مدرسة السلمانية .

وعيّن بعـد الاحتـلال الانكليزي رئيسـاً لمجلس التمييـز الشرعي (١٩١٨). وتـوفي ببغداد في ١٣ أيار ١٩٢١ .

وضع مؤلفـات في علم الكلام . قال محمد صـالح السهروردي إنه كان عـالماً فاضلاً دّيناً تقياً صالحاً محبوباً لدى الأمة، كثير الصلاة وقراءة القرآن .

محمد سعيد النقشبندي

الشيخ محمـد سعيد بن عبـد القادر بن عبـد الغني العبيدي، ولـد في بغداد في ٢٩ كـانون الثـاني ١٨٦١ ودرس على علمائهـا كالمفتي محمـد فيضي الـزهاوي والشيخ عبـد الوهـاب النائب أخيه الكبير وعثمان الـرضواني والشيخ داود النقشبندي ومحمـد الهندي المولوي . ومال الى التصوف فاعتنق الطريقة النقشبندية وعرف بها .

سـافر الى الحجـاز حاجـاً سنـة ١٨٩٠، ثم قصد الاستـانـة سنة ١٨٩٤ فـاجتمع بالسلطان عبد الحميد الثاني وحصل منه على أمر ببناء مدرسة دينية في سامراء. وقد قام بتعمير تلك المدرسـة ودرّس فيهـا، ثم نقل مـدرسـاً وواعظـاً بجـامع الإمـام الأعظم (١٨٩٨). وعيّن شيخاً للإرشاد في التكية الخالدية سنة ١٩١٨. وكانت له مساع وطنية حميدة في عهد الترك أدّت الى توقيفه سنة ١٩١٣، وبعد ذلك في زمن الاحتلال البَرِيطاني ولا سيّما في ثورة ١٩٢٠.

وتـوفي ببغداد في ١٧ أيلـول ١٩٢٠، فرثـاه الشعراء جميل صـدقي الزهـاوي ونعمان الأعظمي وعبد الرحمن البناء وغيرهم.

قال الزهاوي:

أصبـح الشيـخ سعيـــــــــــد	راحـــــــلاً ليـس يعـــــــود
ســـــار ينـأى عـن ذويـــــه	رجـل الفضـل الـــــوحيـــــد
فبكــــــاه العلـم والإرشـــــاد	والــــرأي السـديـــــد...

وقال البناء:

لمّا تــــوفي في العــــراق سعيـــد	كـــادت لـــه أرض العـــراق تميـــد
وجـــرت دمـــوع المسلمين لفقـــده	من حيـث بـــات العلـم وهـــو فقيـــد

وله تصانيف عديدة منها: النفحـات القدسية في تبرئة الصوفية، والعارف في أسرار اللطـائف، ونخبة الفكـر فيما جرى في السفـر، وغيرهـا من الكتب الدينيـة والصوفيـة والشروح والردود.

ومن شعره الصوفي:

أرى حبكـم ديني وقـــــوتي وقـــوّتي	فإن تهجـروني فـالصـدود هـو الـوصل
فهجـــركُمُ والـــوصل عنـــدي واحـــد	علمـت يقينـــــاً أن حكمكـمُ الفصـل
وإني وحـق الحب فيكـم معـــــــذب	وتعـــذيبكم عـــذب إذا كـــان لي نهل
إذا ظهـــرت شمس الـــوجـــود بأفقنـــا	تفـــانـت لها الأضـــواء وانمحـق الكلّ

ولده: الشيخ الأنيق بهاء الدين سعيد النقشبنـدي، ولد في بغداد سنة ١٨٩٦ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٤٩. كـان عالماً فـاضلاً، تولّى نيـابة رئاسة جمعيـة الهداية الإسـلامية ووضع بحوثاً ومقالات دينية واجتماعية.

درس على والـده وعمّـه عبـد الوهـاب النـائب وعيّن مـدرسـاً لجامع الفضل سنـة ١٩١٩، . وكان له نشـاط في الحركة الوطنية. ثم خلف أباه في التـدريس بجامع الإمام الأعظم. وعيّن وكيلاً لعميـد دار العلوم في الأعظمية (حزيران ١٩٤٠). وانتخـب نائباً عن لواء ديالى (١٩٣٠) فنائباً عن الديوانية (كـانون الثاني ١٩٣٤). وأعيد انتخابه نائباً

عن ديالى (كانـون الأول ١٩٣٤) وآب ١٩٣٥ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣ . وانتخب نائباً عن بغداد في آذار ١٩٤٧ الى شباط ١٩٤٨ .

وصفه خالد الدرّة في مجلة «الوادي» فقال : «عطور فوّاحة تنبعث من جبّته المكوّاة لا يستغني عنها المجلس ، وابتسامات عذاب يوزعها على بعض النواب . . . ونبرات حلوة يطلقهـا لا كخطيب كما يأمل الناس ذلك منـه ، بل إشـاعات يـروّجها بين النـواب في داخل المجلس وفي خـارجه . . . إنـه لا يفـرّق بين أن يكون في صـالون الجمعـة في دار الدفتري أو في ندوة مجلس النواب . وهو ظريف على كل حال . . . » .

وكان بهاء الدين في الثلاثينات ركناً من الثـلاثيّ المؤيّد لنوري السعيد مع الدكتورين فائق شاكر وسامي شوكت .

الشيخ محمد سعيد النقشبندي

ألف بعد أشهـر من قيام الدستـور التركي سنة ١٩٠٨ حزب المشور لإعـادة أحكام الشريعة الإسـلامية ومناهضة الاتحاديين . وقـد تولى رئاسته ، وكان من أعضـائه الفريق كاظم باشا ومحمـد فاضل باشا الداغستاني والسيد عبـد الرحمن النقيب والسيد عبد الله والسيـد محمـود من آل النقيب ، ومن آل الجميل عيسى وفخـري وعبد الـرحمن ، وعبـد الرحمن باشا الحيدري وجميل الخطيب أمين الإدارة وعطاء الخطيب وغيرهم .

لكن الحزب انحلّ في السنة التالية بعد فشل الثورة الرجعية .

وشكل النقشبندي سنة ١٩١٤ حـزباً سرياً لبثّ الفكرة العربيـة ، وكان هذا الحزب وليد فكرة نوري السعيد حينما فرّ من استانبول .

حسـن الصـدر

السيد حسن الصدر من أئمّة رجال الـدين في عصره ، وهو ابن هادي بن محمد علي بن صالح بن محمـد الحسيني النسب العامليّ الأصل . ولـد في الكاظمية في ٣ حـزيران ١٨٥٦ ، ودرس على أبيه وشيـوخ بلده . ثم شـدّ الرحال الى سـامراء وتتلمـذ على الامام محمد حسن الشيرازي (١٨١٥ ـ ١٨٩٤) .

وعاد الى الكـاظمية منصرفاً الى التأليف والتـدريس . وكان لـه مقام رفيع ، زاره أمين الريحاني في شيخوختـه فوصفه في كتابـه «ملوك العرب» ، قال : «قـد زرت السيد حسن صـدر الدين في بيتـه بـالكـاظمية ، فألفيتـه رجـلاً عظيم الخَلْق والخُلُق ، ذا جبين رفيع وضّاح ، ولحية كثّة بيضاء ، وكلمة نبويـة . له عينان هما جمرتان فوق خدين هما وردتان . عريض الكتف ، طويل القـامة ، مفتول الساعد . وهـو يعتم بعمّة سوداء كبيرة ويلبس

قميصاً مكشوف الصدر رحب الأردان، فيظهر ساعده عند الإشارة في الحديث. ما رأيت في رحلتي العربية كلها من أعاد إليّ ذكر الأنبياء كما يصورهم التاريخ ويمثلهم الشعراء والفنانون مثل هذا الرجل الشيعي العامليّ الكبير، وما أجمل ما يعيش فيه من البساطة والتقشّف. . . وعندما رأيته جالساً على حصير في غرفة ليس فيها غير الحصير وبضعة مساند، وقد كنت علمت أن لفتواه أكثر من مليوني سميع مطيع، وإن ملايين من الروبيّات تجيئه من المؤمنين في الهند وإيران ليصرفها في سبيل البرّ والإحسان، وأنه مع ذلك يعيش زاهداً متقشّفاً أكبرت الرجل أيّما إكبار. . . ».

وقد وضع السيد حسن الصدر مؤلفات عديدة بقي معظمها مخطوطاً، منها: تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام (طبع ١٩٥١) الشيعة وفنون الإسلام (١٩١٣) تكملة أمل الآمل في علماء جبل عامل (٣ أجزاء)، نزهة أهل الحرمين (١٩٣٥) مجالس المؤمنين، تعريف الجنان في حقوق الإخوان، البراهين الجليّة في تصديق علماء الأشعرية، الدرر الموسوية، وفيات الأعلام من الشيعة الكرام، سبيل الصالحين، رسالة في الردّ على الوهابية، عيون الرجال، نهاية الدراية (١٩٠٥) الخ.

وقد توفي بالكاظمية في ١٢ حزيران ١٩٣٥.

الشيخ إبراهيم الراوي

العالم الزاهد الشيخ إبراهيم بن محمّد بن عبد الله بن أحمد بن رجب الرفاعي الراوي ولد في بلدة راوة سنة ١٨٦٠، وكان أبوه الشيخ محمّد مفتياً في عنة. ودرس علوم العربية والدين، ثم شدّ الرحال الى بغداد سنة ١٨٧٥، ولازم شيوخ العلم فيها كالشيخ داود النقشبندي وعلي الخوجة.

وقصد الموصل فأخذ عن عبد الله الفيضي ويحيى خضر وغيرهما وعاد الى بغداد. ومضى سنة ١٨٨١ الى الشام وقرأ الحديث على الشيخ بدر الدين الحسني (١٨٥١ ـ ١٩٣٥)، ثم عاد الى بغداد وأتم دراسته على الشيخ عبد الوهاب النائب.

وسافر الى الاستانة لأول مرة في أيلول ١٨٨٧ فلقي الترحيب والاكرام من الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي (١٨٥٠ ـ ١٩٠٩).

عيّن مدرساً في جامع السيد سلطان علي ببغداد، ونال أوسمة ورتباً من الحكومة العثمانية. ووضع مؤلفات، منها: الطريقة الرفاعية، الأجوبة العقليّة (١٩٢٨) بلوغ الأرب في ترجمة الشيخ رجب الراوي الرفاعي (١٩١٢) النفحة المسكيّة، سور الشريعة، الأوراق البغدادية في الحوادث النجدية (١٩٢٧)، اللمعات الفريدة في المسائل المفيدة، داعي الرشاد الى سبيل الاتحاد (١٩٣١) الفلسفة الاسلامية في إثبات الحقانية (١٩٣٢) الخ.

توفي الشيخ إبراهيم الراوي ببغداد في ٢ كانون الأول ١٩٤٥ . وقد كان صاحب السّجادة الرفاعية، عالماً متصوّفاً جليل القدر متسامحاً واسع الأفق. وصفه محمد صالح السهروردي فقال إنه كان متخلّقاً بأخلاق السّلف الصالح، كثير العبادة والصيام، حليماً واسع الصدر، مجبولاً على الكرم، يجلس مع الناس كأحدهم، يدعو الناس الى الصلاح والمحبة والولاء . . . كان أحمر الوجه أبيضه، أشهل العينين، خفيف الشفتين، لا هو بالقصير ولا الطويل، وليس بملتحم بل وسطاً في ذلك، ذا بشاشة وطلاقة وجه، ليّن العريكة، سالم السرّ والسريرة.

وله شعر، منه قوله في الشعر والشعراء:

مقال صحيح: إنّ في الشعر حكمة، ... وما كل شعر في الحقيقة محكم

وإن قيل في التنزيل قد جاء ذمّه، ... فقد جاء فيه مدحه فتوسّموا . . .

وقال فيه معروف الرصافي:

للسيد الراويّ إبراهيما ... فضل أظلّ الخافقين عميما

ومناقب لهج الرواة بذكرها ... وبها استحقّ من الورى تكريما

شيخ إذا جالسته في مجلس ... جالست منه مرشداً وحكيما

وإذا نظرت لشخصه متأمّلاً ... أحسست فيك لشخصه تعظيما

داوى قلوب ملازميه بهديه ... فأصحّ منها ما رآه سقيما . . .

وقال رفائيل بطّي:

عاش الشيخ الجليل لنشر دين الله وخدمة الشعب وإعلاء منار الحق والدعوة الى الصراط المستقيم وإرشاد الأمة في ما يقوّي إيمانها وينفعها في دنياها ويزيد في المجتمع الألفة والاخاء والتضامن . . .

من شعر الشيخ ابراهيم الراوي

قال في مدح سلاطين آل عثمان:

ملوك بني عثمان ألوية الحمد ... لهم فوق هامات العلى طالع السّعد

لقد عظموا في صولة الحقّ واعتلوا ... منار فخار دونه رتب المجد

وقاموا بأعباء الخلافة مثلما ... أقاموا شراع الدين بالحزم والجدّ

وقال:

ربِّ، إني قد امتلأتُ كروبا ... لذنوب ملأت منها جيوبا

قيّدتني حبائل الوهم حتّى ... تركتني عن النّهى محجوبا

حسنـــــاتي أخـــــالها سيّئــــات لقصـــوري وحسـن حــالي عيــــوبـــا
فـإلى الله أشتكـي ســـوء حـــالي والى بــــابـــــه أتيتُ منيبـــــا
وعلى فضلـــه عقـــدت رجـــائي والتجـــائي، حــاشـا لـــه أن أخيبـــا

وقال:

خلّ المطيّ يشـوقهـــا صـــوت الحِدا ويســوقهـا ويقــودهـــا رجع الصـدى
ودعِ الجيـــاد تقـــدّ أفـــلاذ الحصى وتمدّ للجـــوزا، إذا تعـــدو، يـــدا
وإذا بـــدت أعـــلام أمّ عبيـــدة فـــارفق بها فلقـــد بلغت المقصـــدا
وانـزل، هـديت، وقل لها: هـذا الـذي أضحـى بأم عبيـــدة متـــوسّـــدا
هـــذا مقـــام الغـوث أحمد قـــد بـــدا ومنـــاره العـــالي الـــذي قـــد شيّـــدا
وقبـــابـــه الشمّ التي قـــد أشرقت يحكي الـــلآلىء حسنهـــا والعَسْجَـــدا

وقال:

حبّـــي لشيخــي حبّـــي لم يحوه غير قلبــــــي
وإنّـي عبـــــد رقّ لـــلأمـــر منــــه ألبّي
لا أستفيـق غـــرامـــاً في حبّـــه طــــول دأبي
ومـــا سرى منـــــه سرّ إلاّ أهيـم بجــــــذب...

الشيخ محسن الراوي

ذكر السر جون غلوب، المعروف باسم غلوب باشا، في كتابه «مغامرات عربية» الشيخ محسن الراوي أخا الشيخ إبراهيم.

كان غلوب ضابطاً سياسياً في لواء الدليم سنة ١٩٢٣، فزار عنة وراوة. قال إن راوة تقع على شاطىء الفرات الشرقي مقابل عنة، وهي معزولة عن العالم وعن التجارة، وأهلها يعيشون من المتاجرة مع شمّر وقبائل الجزيرة الجفاة. وقال انه زار كبير علماء راوة الشيخ محسن في دار ضيافته القائمة في درب ضيق والمفتوحة أبوابها ليل نهار لكل غاد ورائح. وقد فرش صحن الدار بالسجّاد الخشن وغلت أباريق القهوة على النار. زهد الشيخ في الدنيا، فهو لا يملك شيئاً من متاعها، لكن الورعين من أتباعه يأتون بهدايا الدقيق والقهوة...

وجاء الشيخ فجلس أمداً قصيراً، لكنه لم يكد يتكلم. ويدلّ مظهره على شيخوخة متقدمة ضعيف البنية، أبيض الإهاب كالرق الجاف. وهو يسبح في ماء الفرات في فجر كل يوم حتى في أيام الشتاء القارسة. وقال: لعلّ هذا القدّيس المسلم يشبه الرهبان

المسيحيين القدماء الذين كانوا يعتزلون العالم ليعيشوا في الصحراء، منصرفين إلى الله تعالى.

وقال غلوب إنه علم ان فرقة من رعاة الغنم الرحالين قد نزلت في الصحراء على مسافة أميال غربيّ عنة، فركب مع تابعه علي اليونس لزيارتها وقضاء الليل في مضاربها. ووجد جماعة من الدراويش أيضاً حلّوا ضيوفاً على الفرقة، وهم سوريون من الخابور يعرفون باسم «أولاد الشيخ عيسى».

ولما فرغ الجمع من تناول العشاء، أحيى الدراويش حفلة ذكر، وأخذوا يرتلون الأذكار ويضربون على الطبول. بدأوا بهدوء، ثم اشتدت الحماسة وارتفعت الأصوات. وقام أحد الدراويش حاملاً بيده سفّوداً من الحديد المصقول، فتح قميصه وتحسّس المكان الملائم في صدره وأدخل فيه رأس السفّود بدقة حتى خرج من ظهره. وفي خلال ذلك حمي وطيس الضرب والترتيل واستولى على الجمع هيجان شديد، وجاء بعد ذلك درويش آخر فسحب السفّود بلطف قليلاً قليلاً حتى أخرجه من صدر الرجل الذي جلس يستعيد أنفاسه ويحتسي القهوة.

الشيخ شكر أحمد

الشيخ شكر الله الشيخ أحمد قاضي بغداد الجعفري ولد في بغداد سنة ١٨٦٨.

وقصد النجف فدرس الفقه والعلوم العربية على الشيخ محمد طه نجف ومحمد حسين الكاظمي وغيرهما. ثم عاد إلى مسقط رأسه وانقطع إلى الإرشاد والتعليم بجانب الكرخ. وذاع صيته وكثر طلابه، فانتقل إلى جامع المصلوب في جانب الرصافة يواصل رسالته الثقافية. وكان أحد الساعين لتأسيس المدرسة الجعفرية الأهلية سنة ١٩٠٨، فاختير مديراً لها.

وعيّن قاضياً جعفرياً لبغداد في شباط ١٩١٨، ثم نقل عضواً بمجلس التمييز الشرعي في آب ١٩٢٣. وتوفي في ١٥ نيسان ١٩٣٨.

قال خيري العمري: «وقد احتلّ الشيخ شكر بمتانة خلقه وهدوء طبعه منزلة في قلوب الناس، وظفر بتجرّده ووقاره باحترامهم، فكان يتميّز بوجه صبوح أقرب إلى الحمرة وقامة معتدلة في الطول ولحية خفيفة شقراء وصوت هادىء النبرات تتخلّله خنّة واضحة».

الشيخ عبد الكريم الجزائري

المجتهد العالم الأديب الشيخ عبد الكريم الجزائري من زعماء الدين في النجف الأشرف حيث ولد سنة ١٨٧٢. وهو ابن الشيخ علي المتوفى سنة ١٨٨٥ ابن كاظم بن

جعفر بن حسين بن محمد بن الشيخ أحمد الأسدي (المتوفى سنة ١٧٣٨) صاحب كتاب آيات الأحكام ورأس الأسرة.

درس عبدالكريم الجزائري على فضلاء عصره كالشيخ حسن الجواهري والشيخ محمد طه نجف وشيخ الشريعة الاصفهاني والسيد محمد كاظم صاحب العروة الوثقى. ثم تصدّى للتدريس ونال مكانة سامية في العلم والاجتهاد. وقد ساهم في الجهاد خلال الحرب العظمى الاولى وحارب مع الجيش التركي في الحدود الإيرانية وجبهة الحويزة، ثم اشترك في الثورة العراقية وكان له فيها شأن مرموق.

دعي إلى تقلّد وزارة المعارف في الوزارة النقيبية الثانية (١٠ ايلول ١٩٢١)، لكنه اعتذر عن قبولها فأسندت مهامّها إلى محمد علي هبة الدين الشهرستاني.

وله مصنفات منها: تعليق على مكاسب الأنصاري، وتعليق على كتاب الرياض للسيد المجاهد، وشرح على مباحث الظنّ والقطع من رسائل الشيخ الأنصاري، وشرح على العروة الوثقى، الخ.

قرض الشعر في شبابه، فقال يرثي الميرزا حسن الشيرازي المتوفى سنة ١٨٩٤:

مصابك طبقّ الدنيا مصابا ورزؤك هوّن النُّوب الصعابا

ونظم في أغراض اخرى كالمدح والغزل والتهنئة.

وقال جعفر الخليلي ان الشيخ عبد الكريم الجزائري كان في شبابه من اعضاء حلقة أدبية ضمّت جواد الشبيبي وجعفر الحلي وباقر الهندي وغيرهم، فكانوا يقرضون الشعر ويتطارحون النكت والفكاهات.

وتوفي في النجف في ٨ تموز ١٩٦٢.

قال محمد رضا الشبيبي إن الشيخ عبد الكريم الجزائري كان من الأقطاب الذين دارت عليهم رحى الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، وكان عضداً اعتضد به الثوار، وعوناً لكبار العلماء الذين صدرت عنهم الأحكام المعروفة في وجوب الدفاع عن حوزة البلاد وكرامتها وتحقيق حريتها وسيادتها.

محمد جواد الجزائري

العالم النجفي محمد جواد بن الشيخ علي الجزائري، وهو أخو الشيخ عبد الكريم، ولد بالنجف في ١٦ شباط ١٨٨١ وتخرج على علمائها. وكان من زعماء ثورة النجف سنة ١٩١٨، قبض عليه عند خمود الثورة في نيسان ١٩١٨ وحكم عليه بالإعدام. لكن سمح له ولزميله محمد علي بحر العلوم بالشخوص إلى المحمّرة بوساطة الشيخ خزعل خان أمير عربستان.

وأذن له بالعودة بعد سنة وعشرة أشهر (آذار ١٩٢٠).

كان شاعراً، قال من قصيدة له وهو معتقل في سجن بغداد:

مـددنـا بصـائرنـا لا العيـونـا وفـزنـا غـداة عشقنـا المنـونـا
عشقنـا المنـون وهمنـا بها وعفنـا أبـاطحنـا والحجـونـا

ونظم «حلّ الطلاسم» (١٩٤٦) معارضاً طلاسم إيليا أبي ماضي.

أدركته الوفاة في النجف في ٢٣ نيسان ١٩٥٩.

عارض محمد جواد الجزائري «طلاسم» ايليا أبي ماضي الشهيرة التي يشكّك فيها بالوجود ويقول:

كيـف جئـتُ، كيـف أبصرت طـريقـي؟
لسـت أدري

فردّ عليه الجزائري بقصيدته «حلّ الطلاسم» مجيباً على «لا أدرية» أبي ماضي بـ «أنا أدري، أنا أدري».

ولم يكن من علي الشرقي الاّ أن نظم أبياتاً يسخر فيها من الجزائري ختمها بقوله:

أنـت مجنـون ولكـن لست تـدري،
أنـا أدري!

وله أيضاً من المؤلفات: الآراء والحكم، وفلسفة الإمام الصادق (١٩٥٢).

قال جعفر باقر آل محبوبة إن الشيخ محمد جواد الجزائري ضليع بالعلوم العربية والفلسفة الإسلامية، وقد كان رجلاً صريحاً في القول والعمل، ذا شمم عربي وروح إسلامي، ساءه أن يرى وطنه يئن تحت وطأة الأجنبي فعمد إلى تأليف جمعية سرية (١٩١٨) لإنهاض الأمة وتحرير البلاد. فكانت الحرب النجفية التي لم يكتب لها النجاح، واعتقل محمد جواد وقضى في السجن سنة وعشرة أشهر.

عبد الحسين شرف الدين

عبد الحسين بن يوسف بن جواد شرف الدين الموسوي ينتمي إلى أسرة علوية معروفة بالزعامة العلمية، ولد في الكاظمية سنة ١٨٧٣ ودرس علوم اللغة والفقه في سامراء والنجف وأخذ عن محمد كاظم اليزدي ومحمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الاصفهاني ومحمد طه نجف وغيرهم.

ثم مضى إلى جبل عامل موطن أسرته سنة ١٩٠٤ وصارت له منزلة دينية سامية. وشدّ الرحال إلى مصر (١٩١١) واجتمع بعلمائها وألف كتابه «المراجعات» الذي طبع في صيدا بعد أعوام طويلة (١٩٣٦) وأعيد طبعه في بيروت والنجف وترجم إلى بعض اللغات الأجنبية.

وناضل ضدّ الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان فاضطّر على التخفي حيناً والتنقل في البلدان العربية مشرداً وقد أحرقت داره في صور وذهبت كتبه وطائفة من مؤلفاته المخطوطة طعمة النار. ولم يعد إلى وطنه الا بعد صدور العفو عن المجاهدين.

وكان من دعاة الإصلاح، أقدم على تأسيس مدارس للأولاد والبنات وشيد الكلية الجعفرية في بلدة صور، وتوفي ببيروت في ٣٠ كانون الاول ١٩٥٧ .

من مؤلفاته: الفصول المهمة في تأليف الأمة (١٩١٢) أجوبة مسائل موسى جار الله (١٩٣٦) ثبت الإثبات في سلسلة الرواة، الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء (١٩٢٩) مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام، مسائل خلافية (١٩٥١) مسائل فقهية (١٩٦٤) النصّ والاجتهاد (١٩٥٦) أبو هريرة (١٩٤٧) فلسفة الميثاق والولاية (١٩٤١) زكاة الأخلاق، الخ.

وقد عرف ولده صدر الدين شرف الدين صحفياً وكاتباً أنيق العبارة. ولد صدر الدين في النجف سنة ١٩١٢ وأصدر جريدة ««الساعة» في بغداد آب (١٩٤٤) ثم أقام في لبنان وأصدر مجلة «الألواح» فمجلة «النهج» في صور وتوفي في كانون الثاني ١٩٧٠.

من مؤلفاته : محنة العراق (١٩٤١) في قطار الزمان (١٩٤٩) سحابة بورتسموث (١٩٤٨) حليف مخزوم، هاشم وأمية في الجاهلية الخ.

جواد الجواهري

الشيخ جواد بن علي بن محمد ابن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر كان من رجال النجف الذين يشار اليهم بالبنان، قال فيه جعفر آل محبوبة صاحب «ماضي النجف وحاضرها» إنه «زعيم الأسرة في عصره وعمادها، بل موئل النجف وسنادها كانت تلجأ إليه في الملّمات وتستظل بظلّه عند المهمات. . . »

اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، فلما استسلمت النجف في تشرين الاول من تلك السنة، قبضت عليه السلطات البريطانية واعتقلته ثم أفرج عنه.

وقد توفي في النجف في ١٦ ايار ١٩٣٦ . وممّن رثاه محمد مهدي الجواهري بقصيدة مطلعها:

هتفوا فأسندت اليدان ضلوعي وشرقت بالحسرات قبل دموعي

وعرف من آل الجواهري أيضاً والد الشاعر محمد مهدي، وهو الشيخ عبد الحسين ابن عبد علي بن محمد حسن صاحب الجواهر. وقد كان عبد الحسين الجواهري (١٨٦٦ ـ ١٩١٧) شاعراً ناثراً فقيهاً، له قصائد في رثاء الإمام الحسين وغيرها في الرثاء والمدح والتهنئة والاخوانيات.

عبد الملك الشواف

من علماء بغداد المرموقين، الشيخ عبد الملك ابن الشيخ طه ابن الشيخ عبد الرزاق البغدادي المعروف بالشوّاف. كان الشيخ عبد الرزاق عالماً معروفاً توفي سنة ١٨٥٢، أما ابنه الشيخ طه فكان عالماً شاعراً ولد سنة ١٨٣٦، وعيّن مفتياً لسامراء. ثم وجّه إليه افتاء البصرة سنة ١٨٩٩ وتوفي بها في شباط ١٩١٠.

ولد عبد الملك الشواف في بغداد سنة ١٨٧٣، ودرس على علماء عصره كعمّه الشيخ أحمد الشواف وعباس حلمي القصاب وغلام رسول المولوي الهندي وعبد الرحمن القره داغي ويوسف العطاء. وعيّن مدرساً للمدرسة القادرية، فكثر طلابه ولا سيّما في علوم العربيةمن بلاغة وبيان.

ولما توفي والده خلفه في افتاء البصرة سنة ١٩١٠، وقام بالتدريس في المدرسة الرحمانية. وسجن بعد الاحتلال الانكليزي أمداً وجيزاً لدواعٍ سياسية.

وعاد إلى بغداد فعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي (آب ١٩١٨) فقاضياً لبغداد (١٩٢٢) فرئيساً لمجلس التمييز الشرعي السنّي (تشرين الاول ١٩٢٢) واعتزل منصبه في ايلول ١٩٣٣. وتوفي ببغداد في ٣ شباط ١٩٥٣.

وقد كان أخوه علي الشوّاف من رجال القضاء الموصوفين بالعلم والنزاهة، ولد سنة ١٨٨٤ وعيّن قاضياً لبلدة الحيّ سنة ١٩٢٢. وتولّى القضاء الشرعي بعد ذلك في البصرة والموصل، وتوفي في المدينة الأخيرة في تشرين الاول ١٩٣٠.

وممّا رواه ابراهيم الواعظ عن الشيخ طه الشوّاف أنه ذهب وهو طالب علم إلى دائرة الأوقاف لحاجة له فلم يؤبه به. وحاول أن يصرف ليرة عثمانية وكانت سوقها كاسدة، فهاله بخس قيمتها وقال:

قل لأمير المؤمنين الذي ... قد عمّنا بالجود واللطف

درهمه أضحى ودينــاره ... في سوق بغداد لدى الصّرْفِ

أذلَّ من طالب علم أتى ... لحاجة دائرة الوقف

السيد أبو الحسن الموسوي الاصفهاني

من كبار مجتهدي الشيعة الإمامية والمرجع الديني الكبير في عصره، ولد سنة ١٨٦٧ في اصفهان، وتتلمذ على الشيخ محمد كاظم الخراساني في النجف ونشأ محباً للتقدم والإصلاح، فشدّ أزر استاذه في الدعوة إلى الحرية والدستور. عرف بعد ذلك مناوئاً للبدع السقيمة والعادات المضّرة. شنّ على دعاة التزمت والتعصب حرباً لا هوادة فيها ولا لين.

ولما نشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ كان من رجالها المرموقين بعد الإمامين محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني. وكان من الداعين إلى عقد مؤتمر كربلاء في نيسان ١٩٢٢ لمناقشة هجوم الاخوان النجديين على القبائل العراقية. ثم عارض انتخاب المجلس التأسيسي وأفتى بمقاطعته مع زملائه العلماء حسين النائيني ومهدي الخالصي وغيرهما، فخرج من العراق في حزيران ١٩٢٣ ومضى إلى قم في إيران، ولم يعد الا في نيسان ١٩٢٤ بعد أن تعهّد للحكومة العراقية بمجانبة العمل السياسي.

وتألق نجمه بعد ذلك فلم يلبث أن انفرد بالزعامة الروحية للشيعة الإمامية في العراق وإيران وسائر الأقطار، وظلّ المرجع الاكبر نحواً من عشرين سنة لا يكاد ينافسه في منزلته منافس حتى أدركته الوفاة.

كان زاهداً متقشّفاً جمّ التواضع، موصوفاً بالتسامح وسعة الفكر، إلى جانب حزمه واعتداده بنفسه وإيلائه مركز الزعامة حقّه وسخائه في توزيع الاموال الجسيمة التي كانت تصله على المعوزين وطلبة العلم.

وتوفي في الكاظمية في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٦. وله مؤلفات أشهرها: أنيس المقلّدين (١٩٢٦) حاشية العروة الوثقى (١٩٢٨) مناسك الحجّ (١٩٢٩) ذخيرة العباد (بالفارسية ١٩٢٣) صراط النجاة (بالتركية ١٩٥٦) وسيلة النجاة (١٩٥٦).

قال جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» (الجزء الاول) يصف تقدم السيد أبي الحسن إلى الزعامة بعد وفاة شيخ الشريعة الاصبهاني: «.. وحين عاد العلماء من ايران وعاد هو إلى العراق، كان هو السابق إلى المرجعية الكبرى والزعامة الشيعية، خصوصاً وأن شيخ الشريعة كان قد توفي قبل ذلك، وقد فرغ الميدان الا من بعض أقران السيد أبي الحسن، وإذا بالطلاب الذين يحوطون منبره يغصّ بهم مجلس الدرس أو «البحث» كما يسمّى، حتى لم يبق متّسع لأحد، وإذا بهذه الجهة الخاصة من الصحن الشريف تضيق بالمصلّين خلفه، ثم تحفّ به جماهير الطلاب والمراجعين في أثناء الخروج من بيته وعند العودة، قبل الصلوة وبعدها، فتحدث ضجّة كبيرة، وكثيراً ما تقدمتها موجات من التكبير والتهليل. ومع ذلك كله فقد كان السيد أبو الحسن لا يملك داراً ولا يحمل أمامه فنر وسراج إن مشى ليلاً، وليس لديه من المستخدمين الخاصين أحد بالرغم من تلك الأبّهة والعظمة التي تحيط به عند خروجه من البيت للصلاة والدرس وعودته إليه...»

وقال الخليلي بعد ذلك: «وفي السنوات العشر الأخيرة ثقل كاهله بالعمل أكثر واكثر وصار عليه أن يقابل عدداً كبيراً من الزائرين من ارباب الحاجات ويقرأ كثيراً من الكتب والاستفتاءات التي كانت ترد من مختلف الأقطار وبمختلف اللغات ويجيب عليها بخطه، ولا يسمح لأحد أن ينوب عنه في استعمال خاتمه كائناً من كان. ولقد كان ختمه معه إلى آخر ساعة من حياته. وكان طبيعياً أن يكلّ وطبيعياً أن يمرض ولو كانت

أعصابه من حديد. ولقد كان بميسوره أن يرتاح لو كان يريد الراحة، . ولكنه أخذ على نفسه أن يضرب الرقم القياسي للعمل، فعمل الكثير مما لا طاقة لغيره أن يعمله وهو في مقتبل العمر، فكيف وهو في آخر مراحل الحياة. . »

ورثاه الشعراء فقال عبّاس الملاّ علي:

عيـــد تحوّل مـأتماً ومصـــابـــا ... أرأيت شهـــداً قـــد تحول صـابـــا؟ . .

يـــا راحـــلاً مـــلأ الـــزمـــان مـــآثـــراً ... أعيى تـــواتـــر وصفهـــا الكتـــابـــا

أدّيت للعليـــــاء واجب حقهـــــا ... ومضيت يحزن فقـــدك المحـــرابـــا

بكت المحـــابـــر والمنـــابـــر، وانثنى ... ينعى اليراع مليكـــه الـــوهّـــابـــا

وقال محمد علي اليعقوبي:

هـــدّ سمـك الهدى وطـــاح عماده ... واستحـــالـــت مـــآتماً أعيـــاده

أيّ خطـب قـــد حلّ في الشرق، لكـن ... جلّـل المغـــرب القصّي حـــداده

أيّ ظلّ للـــدين قلّصـــه الـدّهــر (م) ... وقـــد طـــاول السّحـــاب امتـــداده

كهـف أمن يـأوي المخـــوف إليـــه ... وعليـــــه بعـــد الإلـــــه اعتماده

آيـــة الله بـل وحجّتـــه الكبرى (م) ... التـي تلتجـي اليهـــا عبـــاده

سـنّ للمصلحين نهجـــاً قـــويـاً ... سنّـــه قبـلُ للـــورى أجـــداده

وقال عبد الرسول الجشّي:

العيـــد وافى، قم فصلّ العيـــدا ... وأعـد لنـا عهـد الـرسـول جـديـدا

هـذي الصفـوف وقـد تحشّـد جمعهـا ... فـانظـر اليهـا ركّعـاً وسجـودا

يـا قـائد الإسـلام، رافع بنـده، ... كيف انثنيت عن الصفـوف بعيـدا؟

حدثني ثقـة من رجال النيابـة وهو جواد جعفـر، قال: طلب السفير الأميركي ذات يوم زيارة النجف، وكنت بـرفقته. واتصلت بكبار رجال الـدين وأخبرتهم برغبة السفير في زيارتهم، فاستقبلوه في دورهم في الحال. ورآهم على هيئتهم الطبيعية في صحن الدار المفروش بالبسط العـادية، وكانوا مثال الـزهد والتقشف، جالسين على أفرشـة قديمة، ولا يقوم بخـدمتهم سوى واحـد أو اثنين من تلاميـذهم، كلّ ذلك على جلالـة شأنهم وعظيم منزلتهم.

ولما اتصلت بـالسيـد أبي الحسن، اعتـذر وأجّل استقبـال السفير إلى صبـاح اليـوم الثـاني. وحضرنا إلى دار المجتهـد في الموعد المضروب، فـإذا الشارع المؤدّي إليهـا يزخـر بالمشايخ والمريدين، استقبلوا السفير وحيّوه وأدخلوه على السيد. وكانت الدار مفروشة بالسجّاد الثمين وقـد صفّت فيها الأرائك بترتيب جميل وازدحم الناس وقـوفاً في أروقتها

برسم الخدمة. ورأى السفير عجباً في مجلس حجّة الإسلام، وشاهد الفرق واضحاً بينه وبين سائر مجالس العلماء التي حضرها في اليوم السّالف. ولم تكن تلك عادة السيد أبي الحسن الزاهد، لكنه أجّل الاستقبال إلى الغداة ليطلع الممثل الاميركي على مكانته وهيبته ومنزلته في العالم الإسلامي.

روى جعفر الخليلي إنّ الشاعر محمد علي اليعقوبي كان يسير مع السيد أبي الحسن وهو يتعثر، فسأله العالم الكبير: أين عصاك؟ فقال اليعقوبي: لقد كسرت أمس. وناوله السيد عصاه الثمينة، فتقبّلها الشاعر شاكراً وارتجل قائلاً:

أبا حسنٍ، لا غرو أن ألقت العصا ... يدٌ منك أبصرنا مواهبها فيضا

كأنّك موسى، والعصا عندك العصا، ... وأن اليد البيضاء منك اليد البيضا

السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

قتل السيد حسن نجل أبي الحسن سنة ١٩٣٠ وهو يصلي في الصحن بالنجف إذ هجم عليه المدعو علي القمي وذبحه بسكين. وقد ظهر أن الجاني مختّل الشعور وحكم عليه بالسجن المؤبد. ونقل بعد ذلك إلى مستشفى المجانين.

قال جعفر الخليلي إن السيد أبا الحسن انتهى من صلاته فعلم بمقتل ابنه فلم يقل شيئاً سوى الترجيع «إنّا لله و إنّا إليه راجعون». وطلب العفو عن المجرم.

يوسف العطا

مفتي بغداد العالم الفقيه السيد يوسف العطا، وهو صلاح الدين يوسف بن محمد نجيب بن أحمد بن خليل، ينتهي نسبه إلى السيد عطاء الحسني الذي عرفت به الأسرة، وهي من أسر بغداد القديمة المشهورة بالفضل والثراء. ذكرها ابراهيم فصيح الحيدري في كتابه «عنوان المجد» ووصفها بأنها «بيت تجارة وخير». وقال الشيخ محمد صالح السهروردي في كتابه «لبّ الألباب» إنّ جد المفتي يوسف العطا كان، في بعض سني القحط والمجاعة، يمتلك مخازن واسعة مشحونة بأنواع الأطعمة والحبوب وقد دفع له التجار أثماناً باهظة لشرائها، لكنه قال: لقد بعتها للذي يربي الصدقات، وفرّقها على الفقراء والجياع.

ولد يوسف العطا في بغداد سنة ١٨٦٩ ونشأ في نعمة ورفاهة عيش. ودرس على أجلّة علماء عصره كعبد السلام الشّواف وغلام رسول الهندي وعبد الوهاب النائب. وظهر نبوغه وهو شابّ طريّ العود، فأسند إليه التدريس والوعظ في جامع القبلانية وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٨٩٢). وعيّن عضواً بمجلس المعارف على عهد

الوالي ناظم باشـا ، وعهد إليه بالتدريس في مدرسـة الحقوق على العهد العثماني واستمّر على ذلك في العهد الوطني أعواماً طويلة .

وقـد عيّن مفتياً لبغـداد في تشرين الثـاني ١٩٢٣ ، وواظب على التدريس والارشـاد حتى توفي ببغداد في ٤ ايلول ١٩٥١ .

كانت لـه منزلة إجتماعية مـرموقة لعلمه وفضلـه وسعة صدره وكرم نفسـه وسعيه في مصالح الناس وحدبه على ذوي الحاجة والمعوزين .

وكـان مجلسه في جـامع الشيخ عبد القـادر الكيـلاني ملتقى طبقات رجـال الدولـة والادب والفضل والوجـاهة . وكان هو نفسه يحضر مجالـس بغداد ودواوينها ، ولا سيّما مجلس الملك علي عاهل الحجاز السابق . ذكر أحمد حسن الزيّات الأديب المصريّ الذي درّس أمداً في بغداد إنه كان يلقـاه في مجلس الملك علي وكان يوسف العطا لا ينقطع عن حضوره فكان يقول في كلّ شـيء ويجيب في كلّ شيء ، ولا ينطق الا ببيت من الشعر أو أثـر من الحديث أو آيـة من القـرآن . . .

وقال جمال الدين الألوسي إن المفتي قد أصيب في أيـامه الأخيرة بمرض عقل لسانه ، فكـان يجلس إلى الشيخ ابراهيم الـراوي كلّ أمسية يقـرأ له على مـاء فيبلّ به فمـه . فإذا حضر الألوسي سأله أن يقرأ له في كتاب أو مجلة أو ديوان شعر .

وذكر المفتي أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابـه : «البغداديون أخبارهم ومجالسهم» فقال إنه ورث عن أبيه ثـروة طائلة فعاش في بلهنيـة ونعمة ، لكنه لكرمه وانبسـاط يده أضاع معظم أمـواله . وقـال إن مجلسه يختلف إليـه الملوك والأمـراء والوزراء والعلماء والسـاسة والقادة والأشراف والتجار . . . وقد وقف كتبه على الحضرة القادرية .

وقد حـدثني مصطفى علي إن يوسف العطا كـان رفيع المنزلة ، واسع المعرفـة ، لكنه عرف بالتعصّب . وقد كفّـر معروف الرصافي فهجاه هجاءً مقـذعاً . وكان ذلك على أثر إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، إذ جـاء بغداد وفد من حزب الاتحاد والترقي وزار محمود شكـري الألوسي وكلفـه بقراءة منشـور على الناس بعـد صلاة الجمعـة في بعض المساجـد . واعتـذر الألـوسي ، لكنه قال : إن تلميذي الرصافي يقـرأ المنشور على جمهور المصلين .

وفي يـوم الجمعة المعيّن نبّـه على الناس بأن لا ينصرفـوا عنـد انتهاء الصـلاة ، ووقف الرصافي فقرأ منشـور الحزب بحضور الوفد ورهط من أعيان بغداد ، وقـد افتتحه بقوله : أيها الوطنيون !

وشاع بعـد ذلك ان الـرصافي قـال : أيها الطبيعيون ! وأذاع خطبـة تدعـو إلى المادية اللادينية ، فهاج العوام وقضى يوسف العطا وغيره من العلماء بتكفير الشاعر .

واتخذ العطا وسـائر العلماء موقفـاً مناوئاً لـدعاة السفـور في سنوات العشريـن . قال

مصطفى علي: كان العطا يدرّسنا في مدرسة الحقوق. وعلم أنني وحسين الرحال من السفوريين فكان يعنفنا في أثناء الدراسة.

أقول: عرفت يوسف العطا يوم كنت موظفاً في وزارة الخارجية، فكان يزورني في ديوان الوزارة ويصّر عليّ بأن أحضر مجلسه ظهر الجمعة في الطابق الاعلى من جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، (وقد اتخذت غرفه بعد سنوات من وفاته مكتبة عامة جمعت فيها آلاف الكتب والمخطوطات). وكان مجلسه يلتئم بعد صلاة الظهر فيؤمه الوزراء ورجال الدين والدنيا وممثلو الدول العربية، يتناولون طعام الغداء ويظلون يتحدثون ويتسامرون إلى العصر.

وأذكر ان يوسف العطا زارني في وزارة الخارجية صباح أحد أيام رمضان، وكان إلى جانبي عبد الحميد الباجه جي مدير التشريفات جالساً وهو يدخن. وفجأة دفع المفتي باب الغرفة ودخل بدون استئذان، على عادته، فاضطرب الباجه جي وأسرع ففتح دُرْج مكتبي ووضع السيكارة فيه دون أن يطفئها، ثم أغلقه. وقمت أرحب بالمفتي وأسلم عليه، ثم عدت وفتحت الدرج بسكون وأطفأت السيكارة التي كادت تحدث حريقاً. ومرّ الأمر بسلام.

وقد نقل الباجه جي بعد أشهر مديراً لأوقاف بغداد.

الرصافي والعطاء:

كفّر معروف الرصافي فهجاه بقصيدة لاذعة منها:

إن كنت قد كفّرتني بجهالة	فبالبُهت كم كفّرت من مسلم قبلي
إنك في تكفيرك الناس كافر	تهاونُ بالله الذي جل عن مثلي
وأنت من الإسلام في كل حالة	بمنزلة الظّلم الصّريح من العدل

وقال:

لئن كنت تنمى للعطاء فإنه	عطاء الذي تزكو الورى فيه بالبخل

وقال فيه أيضاً:

يا أيها المفتي بتكفيرنا،	مهلاً فقد جئت بأمر نكير
بأي جهل فيك مستأصلٍ	علمت، يا جاهل، ما في الضمير؟...

نعمان الأعظمي

الواعظ الخطيب المفوّه الحاج نعمان بن أحمد بن اسماعيل بن أحمد العبيدي الأعظمي، ولد في ناحية الأعظمية بظاهر بغداد سنة ١٨٧٦، وانخرط في سلك طلبة مدرسة الإمام الأعظم ونال الإجازة العلمية (١٩٠٦). وقد عيّن معلماً بمدرسة الاعظمية

الرسمية (١٨٩٩) ثم نقل إلى مدرسة الكرخ (١٩٠٨). وعرف بطلاقة لسانه وقوة بداهته وارتجاله. وأصدر في آب ١٩١٠ مجلة شهرية دينية باسم «تنوير الأفكار» فدامت سنة واحدة.

ولما نشبت الحرب العامة انتدبته الحكومة التركية في وفد مع محمود شكري الألوسي وعلي علاء الدين الألوسي والرئيس الاول الحاج بكر افندي إلى أمير نجد عبد العزيز آل سعود لحمله على شدّ أزر الأتراك، لكن البعثة أخفقت في مهمّتها. وعيّن سنة ١٩١٥ واعظاً عاماً وألحق بقائد الجيش نور الدين بك في ساحة الكوت. واحتل الجيش الانكليزي بغداد فاعتقل نعمان الأعظمي في آخر ايار ١٩١٧ وأبعد إلى الهند، حتى أطلق سراحه سنة ١٩١٩.

وقد عاد إلى التدريس في كلية الإمام الأعظم، وأصبح مديراً لها سنة ١٩٢٤ فمديراً لدار العلوم العربية والدينية كما أصبح اسم الكلية المذكورة في تشرين الأول ١٩٣١. وتوفي ببغداد في ٢ ايلول ١٩٣٦.

وله مؤلفات منها: التاريخ العام، ارشاد الناشئين (١٩١٤) وخطب ومقالات كثيرة.

الشيخ قاسم القيسي

قاسم بن أحمد الفرضي القيسي ولد في بغداد سنة ١٨٧٦، ودرس علوم العربية والدين واللغتين التركية والفارسية، وكان من شيوخه عبد المحسن الطائي وعبد الوهاب النائب وغلام رسول. عيّن مدرساً لقضاء خانقين (١٩٠٠) فالجزيرة (الصويرة) (١٩٠١). وعمل بعد ذلك عضواً في مجلس المعارف ببغداد (١٩٠٩) وعضواً بالمجلس العلمي للاوقاف (١٩١٧) ومدرساً بولاية بغداد ومدرساً في دار المعلمين ومدرساً لمدرسة نائلة خاتون.

عيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي في كانون الاول ١٩٢٢ وظلّ في ذلك المنصب سنين طويلة حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٣٧ وقد درّس في كلية الشريعة وخلف السيد يوسف العطا مفتياً لبغداد اثر وفاته سنة ١٩٥١. وتوفي الشيخ قاسم القيسي ببغداد في ١١ ايلول ١٩٥٥.

له مؤلفات في اللغة والفقه والمنطق، منها: رسالة في مصطلح الحديث (١٩٣٨) الزهر اللطيف في مسلك التأليف (١٩٤٠) الحديقة الندية (١٩٤٠) النزهة البهيّة (١٩٥٤) تاريخ التفسير (١٩٦٦).

كان الشيخ قاسم القيسي عالماً وقوراً مهيباً تخرّج عليه عدد عديد من العلماء ورجال الأدب والفضل. وقد قال فيه تلميذه معروف الرصافي:

إذا قاسم القيسي مرّ بخاطري تذكرت عهداً في الصّبا مرّ كالحلم
تذكرته إذ كنت للعلم طالباً بفكري وسعيي مجهد النفس والجسم
فقد كنت أحياناً أزور فناءه وأنتابه للرشف من منهل العلم
هو العالم الحَبر الذي من يلُذ به يكن فائزاً بالعلم والأدب الجم
بقيّة أعلام مضوا، وكفى به من العلم طوْداً فوق أطواده الشُّمّ
له نظر في غامض العلم نافذ ورأي سديد لا يحوم على الوهم
إذا ما نحا في العلم قتل عويصة رماها بسهم من فطانته مُصمي

أمجد الزهاوي

الفقيه العالم الشيخ أمجد بن محمد سعيد بن محمد فيضي الزهاوي. كان أبوه الشيخ محمد سعيد مفتياً لبغداد، خلف في ذلك المنصب أباه محمد فيضي سنة ١٨٩١.

ولد أمجد الزهاوي ببغداد في سنة ١٨٨٢، ودرس على أبيه وعلى عباس حلمي القصاب وغلام رسول الهندي وسائر علماء عصره. ثم شدّ الرحال إلى استانبول وانتمى إلى مدرسة القضاة فتخرّج فيها سنة ١٩٠٩. وعاد إلى بغداد فأسندت إليه رئاسة محكمة الاستئناف على العهد العثماني.

زاول المحاماة، ثم عيّن مشاوراً حقوقياً لدائرة الأوقاف (أول حزيران ١٩٢٠)، وخلف أباه في التدريس بالمدرسة السليمانية. وقام بالتدريس أيضاً في مدرسة الحقوق، وألقى فيها محاضرات في المجلّة والفرائض جمعت في كتاب الوصايا والفرائض (١٩٢٥). وعيّن في ١٨ أيلول ١٩٣٣ رئيساً لمجلس التمييز الشرعيّ السنّي، فقضى في منصبه نحواً من ١٣ عاماً واعتزل الخدمة في صيف ١٩٤٦.

كان معجباً بالإمام الغزالي مفضّلاً له. وجاور في المدينة المنوّرة أمداً بعد ثورة تموز ١٩٥٨، ثم عاد إلى بغداد وتوفّي بها في ١٧ تشرين الثاني ١٩٦٧.

قال إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» إن أمجد الزهاوي قد نال مكانة سامية في العالم الإسلامي وانتخب رئيساً للمؤتمر الإسلامي العام. وجاب الأقطار العربية وغيرها داعياً إلى الإصلاح والتضامن الدينيّين ومنافحاً عن قضية فلسطين والجزائر. وقد عاش عيشة الزهد والتقشّف والورع، وعرف بسعة الاطلاع والتبحّر في العلوم العقلية والنقلية.

وكان أمجد الزهاوي متشدّداً، قال عبود الشالجي إنه كان يحرّم التبغ والتدخين لاعتقاده بأنه تبذير مخلّ بصاحبه.

حمدي الأعظمي

العالم الفقيه الحقوقيّ الحاج حمدي الأعظمي، وهو ابن الملا عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن خضر العبيدي. ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد في أيلول ١٨٨٢، ودرس في المدرسة الرشدية، ثم حضر دروس نعمان الألوسي وعبد الرزاق الأعظمي ومحمد سعيد النقشبندي ومعروف البشدري وغيرهم من علماء عصره. وانتمى بعد ذلك إلى مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩١٢.

عمل في التعليم منذ آذار ١٨٩٨ في مدارس الأعظمية وبعقوبا. وبعد زيارة للأستانة سنة ١٩٠٧، عاد معلماً في العمارة وبغداد. وعيّن سنة ١٩١٢ مديراً للمدرسة الأنموذجية، فمدرساً بالمدرسة السلطانية (١٩١٤) إلى احتلال بغداد سنة ١٩١٧. وكان علاوة على ذلك عضواً في مجلس المعارف.

عيّن على أثر احتلال بغداد مدرساً بمدرسة الإمام الأعظم (١٧ نيسان ١٩١٧) ومدرساً بدار المعلمين (آب ١٩١٧) ومدرسة الهندسة (شباط ١٩١٨). ثم نقل مفتشاً للأوقاف (أيلول ١٩١٨) فمديراً لأوقاف بغداد (١٩١٩) حتى استقال في نيسان ١٩٢٣، وزاول المحاماة.

وعاد إلى دائرة الأوقاف سنة ١٩٢٤ مديراً للأملاك فمديراً للواردات. وأوفد في أيلول ١٩٢٦ إلى تركيا لاستنساخ القيود الوقفية، وكان معه عبد الحميد الباجه جي. ثم عيّن مدوناً قانونياً في وزارة العدلية في آذار ١٩٢٨، فظلّ في وظيفته إلى سنة ١٩٤٣ حين اعتزل الخدمة. وعهدت له في تشرين الثاني ١٩٣٨ إدارة دار العلوم العربية والدينية بالوكالة خلفاً لفهمي المدرّس. ثمّ عيّن عميداً لكلية الشريعة (١٩٤٦ ــ ١٩٥٣). واختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣.

وقد درّس الأحوال الشخصية في كلية الحقوق أعواماً طويلة، ووضع مؤلفات عديدة، منها: الدرّ المنتقى (١٩٠٧) مرقاة العقائد (١٩٠٧) خلاصة الهندسة (١٩١١) زبدة الحساب (١٩١١) علم الكلام (١٩١١) المحاضرات في الأحوال الشخصية (١٩٣٥) مذكرات في أصول الفقه (١٩٣٨) خلاصة المحاضرات في علم الكلام (١٩٤١) علم العقائد (١٩٤١) غاية المرام في عقائد أهل الإسلام (١٩٤٨) تاريخ الفقه الإسلامي (١٩٤٩) المرشد إلى أصول الفقه (١٩٥٤) أصول الفقه (١٩٥٤) إلخ. وله عدا ذلك فهارس للقوانين ومحاضرات ومقالات في شتى الصحف والمجلات. وقد وقف خزانة كتبه وجعلها مكتبة عامة في قصبة الأعظمية (١٩٦٢).

وقد توفّي حمدي الأعظمي ببغداد في ١٤ آذار ١٩٧١ بعد مرض طويل.

محمد سعيد الراوي

محمد سعيد بن عبد الغني بن محمد بن حسين بن عبد اللطيف الراوي ولد في عانة سنة ١٨٨٣ في بيت علم وورع. ودرس على والده. ثم جاء إلى بغداد وأخذ العلم عن شيوخها كيوسف العطا ومحمد سعيد التكريتي وعباس حلمي القصاب وعبد الوهاب النائب ومحمود شكري الألوسي وغيرهم.

وتوفي والده سنة ١٩٠٦ فخلفه مدرساً في جامع خضر الياس، ثم عيّن خطيباً بالتكية الخالدية وإماماً في جامع الشيخ معروف الكرخي. وانتخب عضواً بالمجلس العمومي لولاية بغداد، فلما احتلها الإنكليز اعتقلوه وأرسلوه أسيراً إلى الهند.

وعيّن بعد إطلاق سراحه مدرساً في دار المعلمين الابتدائية (١٩٢١) فأستاذاً بجامعة آل البيت (١٩٢٤)، ، وتولى تحرير المجلة التي أصدرتها باسم «الجامعة» (آذار ١٩٢٦). ثم نقل مدرساً في المدرسة الثانوية المركزية. وعيّن بعد ذلك نائب عضو ورئيساً لكتاب مجلس التمييز الشرعي السنّي في بغداد (كانون الأول ١٩٢٨)، فظلّ في منصبه إلى وفاته في بغداد في ١٥ شباط ١٩٣٦.

من مؤلفاته: شرح مجلة الأحكام العدلية (١٩٢٤) وكتاب معلّم الفرائض (١٩٢٥) والمعلومات الدينية للمدارس الابتدائية. وله أيضاً خطب ومواعظ وشعر، وبحوث ومقالات في تاريخ العراق ومعاهده ومساجده ومساجلات مع مؤرخي عصره في هذا الباب.

قال في أسره:

لعمرك ما حال الفتى بعد سجنه ... وتقييده في الأسر يمسي ويصبح؟

حنانيك لو أبصرتنا لرأيتنا، ... ونحن سكوت، حالنا لك يفصح

نطأطىء رأساً ما رأى غير رفعة ... ونخضع للأدنى وما ثمّ مفلح

بقفر بأرض الهند بين وحوشها ... أصاغر في ذلّ الأسارة نسرح

عبد الكريم الزنجاني

الشيخ عبد الكريم الزنجاني من علماء النجف وفقهائها المعروفين، ولد في النجف سنة ١٨٨٧. ودرس على مشايخها وعلى الشيخ كاظم اليزدي وأجيز بالاجتهاد (١٩١٤). وانصرف إلى التدريس والتأليف، حتى توفي في ١٠ أيلول ١٩٦٨.

وضع مؤلفات كثيرة منها: جامع المسائل في الفقه، دروس الفلسفة (في جزءين ١٩٤٠ ـ ٦٢)، طريق النجاة، برهان إمامة ووحي وإلهام (بالأوردية ١٩٣٥) مسائل

شرعية (بالفارسية ١٩٥٧) ابن سينا خـالد بآثاره وخصاله (١٩٥٢) ذخيرة الصالحين، الفقـه الأرقى في شرح العـروة الـوثقـى (١٩١٤)، محاضرات (١٩٤٦) المثل العليـا (١٩٤٦)، صفحـة من رحلة الإمـام الزنجـاني وخطبـه في الأقطار العـربية والعـواصم الإسلامية (جـزآن ١٩٥٦ ـ ٥٧) الوحدة الإسـلامية (١٩٦١) الكندي خالـد بفلسفته (١٩٦٢) الإعداد الروحي للجهاد الإسلامي في فلسطين (١٩٦٧) إلخ.

عرف الزنجاني بـروحه الإصلاحية وسعيه في سبيل توحيـد كلمة الإسلام. وقد رحل إلى الأقطار الإسلاميـة وطوّف بها يخطب ويكتب للدعوة إلى آرائه سنـة ١٩٣٦، ثم عاد إلى مسقط رأسه منقطعاً للتدريس والتأليف.

محمد جعفر الحسيني

ولد محمد جعفر الحسيني الحائري في كربلاء سنة ١٨٨٣ ودرس الفقه وعلوم الدين. عيّن قاضياً جعفرياً في البصرة في شبـاط ١٩١٩، وظلّ في منصبه حتى انتخب نائباً عن لواء البصرة في أيار ١٩٢٨ إلى تموز ١٩٣٠. ومارس المحاماة بعد ذلك في البصرة.

وقد توفي سنة ١٩٥٧.

من مـؤلفاتـه: الزلال المرشـوف في وضع الأسماء والحروف (١٩٣٠) قلائد الـلآلىء (١٩٢٩) مرآة الفقاهة (١٩٢٩).

الكردينال أغناطيوس جبرائيل تبّوني

من أمـراء الكنيسة الكـاثـوليكية، ولـد أغنـاطيوس جبرائيل تبـوني في الموصل في ٣ تشرين الثاني ١٨٧٩ وانتمى إلى السلك الكهنوتي، فـرسم راهباً سنة ١٩٠٢. وقد أقيم نائباً بطريركياً عاماً في مـاردين في كانون الثاني ١٩١٣، وأصبح رئيساً لأساقفة حلب في شباط ١٩٢١.

انتخب بطريركاً على أنطاكية للطائفة السريانية في ٢٤ حزيران ١٩٢٩، ورفّعه البابا إلى مرتبة الكردينال في ١٦ كانون الأول ١٩٣٥، وكان أول شرقي ينال هذه المنزلة.

وقد توفي في ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٨. وضع رسائل ومصنفات دينية باللغتين العربية والسريانية.

وهو ليون بن داود بن بطرس تبّوني، ووالدته أمينة بنت سليمان زبوني من أسرة السيد أقليميس يـوسف داود (١٨٢٩ ــ ١٨٩٠) مطران دمشـق والباحث المؤلف بـاللغـات العربية والفرنسية والآرامية.

أغناطيوس افرام برصوم

من علماء التاريخ والمباحث الشرقية مار اغناطيوس افرام الأول بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، وهو ابن اسطيفان برصوم. ولد في الموصل في ٥ حزيران ١٨٨٧ وانتمى سنة ١٩٠٥ إلى المدرسة البطريركية بماردين فتخرّج فيها واتّشح بثوب الرهبنة (١٩٠٧). وقام بسفرة إلى الأقطار الأوروبية سنة ١٩١٣ فزار خزائن الكتب.

انتخب مطراناً للأبرشية السورية سنة ١٩١٨. وأوفد في السنة التالية إلى أوروبا قاصداً بطريركياً بعد أحداث الحرب العامة، ثم أرسل قاصداً بطريركياً إلى أميركا سنة ١٩٢٧ لتفقد الجاليات السريانية فيها. وقد انتخب بطريركاً للسريان الأرثوذكس في حمص وتم تنصيبه في ١٢ شباط ١٩٣٣.

كان يحسن اللغات العربية والسريانية والفرنسية وشيئاً من التركية والإنكليزية. وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي بالشام سنة ١٩٣٣. ووضع مؤلفات وبحوثاً كثيرة منها: الألفاظ السريانية في المعاجم العربية (١٩٤٨ ـ ٥١)، تاريخ دير الزعفران (١٩١٧)، تاريخ الكنيسة (١٩٤٠)، تاريخ الآداب السريانية (١٩٤٣)، قيثار القلوب (١٩٥٤)، مار أنطون التكريتي (١٩٣١)، مزارع الجزيرة (١٩٥٥)، نوابغ السريان في اللغة العربية الفصحى (١٩٣١) إلخ.

وقد توفي في ٢٣ حزيران ١٩٥٧.

قال الأب يوسف سعيد: «... فكان البطريرك مؤرخاً قديراً ومحاضراً طويل النفس، وشاعراً يتحسّس المرء في كل بيت من قصائده أنفاس الشرق، وبحاثة ذو جلد عجيب».

وذكره رفائيل بطي فقال إنه بطريرك عراقي يكتب بلغة قسّ بن ساعدة.

محسن الطباطبائي الحكيم

مرجع الشيعة الإمامية الأكبر في عصره، السيد محسن بن مهدي الطباطبائي الحكيم. كان أبوه مهدي بن صالح بن أحمد بن محمود الطباطبائي الحكيم النجفي من الفقهاء المعروفين، ألّف «تحفة العابدين» و «معارف الأحكام»، وتوفي بجبل عامل في نحو سنة ١٨٩٤.

ولد محسن الحكيم في بلدة بنت جبيل في لبنان سنة ١٨٨٩ ونشأ في النجف ودرس في معاهدها وكان من أساتذته محمد كاظم الخراساني وضياء الدين العراقي ومحمد حسين النائيني وعلي باقر الجواهري. وانضمّ إلى المجاهدين في جنوبيّ العراق سنة ١٩١٥ بزعامة محمد سعيد الحبوبي وهادي مكوطر.

واصل التدريس والتأليف وبرزت شهرته الروحية حتى انفرد بزعامة الشيعة في العراق وإيران وسائر الأقطار بعد وفاة السيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني سنة ١٩٤٦ . وعرف بسعة علمه وزهده وتواضعه وبعده عن التعصّب .

وقد وضع مؤلفات، منها : مستمسك العروة الوثقى (في الفقه، ١٢ مجلداً)، منهاج الصالحين (في جزءين ١٩٤٨)، شرح كتاب المراح (في الصرف) توضيح المسائل (١٩٦٢)، حقائق الأصول (في جزءين ١٩٥٤)، دليل الحاج، دليل المناسك (١٩٥٩) ، شرح الكفاية (في جزءين)، الصلاة، المسائل الدينية، منتخب الرسائل (بالفارسية)، منهاج الناسكين (١٩٤٨) نهج الفقاهة (١٩٥٣)، إلخ .

توفّي ببغداد في أول حزيران ١٩٧٠ .

أصدر السيد محسن الحكيم في شباط ١٩٦٠ فتوى ندّد فيها بالشيوعية وعدّها مخالفة لروح الإسلام .

لكنه على أثر تولي حزب البعث مقاليد الحكم في العراق سنة ١٩٦٨ واضطهاده لبعض العناصر الشيعية، سئل أن يدعو أبناء الشيعة إلى الإضراب أو أن يتخذ إجراءات أخرى ملائمة، فرفض قائلاً إنه رجل دين لا رجل سياسة .

قال حسن العلوي في كتابه «الشيعة والدولة القومية في العراق» (١٩٩٠) إنه يمكن اعتبار عهد الحكيم واحداً من أصعب عهود المرجعية الشيعية .

شهد الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ فأفتى بدعم نضالها في أثناء العدوان على بور سعيد .

وشهد ثورة العراق سنة ١٩٥٨ فأفتى بنصرتها . وقامت الثورة الكردية فأفتى بتحريم قتال الأكراد المسلمين .

ظهر قانون الإصلاح الزراعي والقطاع الاشتراكي فأفتى بحرمة الصلاة في الأراضي المغتصبة وحرمة التعامل مع بضائع المصانع المغتصبة أيضاً . وطلب من رئيس الوزراء طاهر يحيى أن تنظر الحكومة إلى مختلف أبناء الشعب نظرة واحدة دون تمييز أو تفريق بين قومياتهم أو مذاهبهم . وطالب بتأكيد حقيقة العراق الإسلامية وروحه العربية وتراثه الرفيع .

وقد أصدر السيد محسن في ١٢ شباط ١٩٦٠ فتوى بعدم جواز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإنّ ذلك كفر وإلحاد وترويج للكفر والإلحاد .

نجم الدين الواعظ

نجم الـدين بن السيد عبـد الله الواعظ ، ولـد في بغداد سنـة ١٨٨١ ، ودرس علوم العـربية والـدين على عبـاس حلمي القصـاب وغلام رسـول الهنـدي الأنصاري وعبـد الوهاب النائب . وعيّن مدرساً لجامع العادلية سنة ١٩٠٤ ، فلبث أعواماً طويلة يدرّس فيه وفي مدرسة نائلة خاتون وجامع حنان وجامع القبلانية .

وقد عيّن مدرسـاً في دار العلوم الدينية والعربيـة سنة ١٩٣٤ ، وخلف الشيخ قاسم القيسي مفتياً لبغداد عند وفاته سنة ١٩٥٥ .

لـه مؤلفـات منها : غـاية التقـريب (في الأصـول) وبغية السـائل في شرح منظومـة العوامل للشيخ عبد الوهاب النائب، الدين الحنيف (١٩٥٤) إلخ .

ونجم الدين الواعـظ من رجال الدين الذين يقرنـون العلم الغزير بالأخـلاق الرفيعة والدعوة إلى الإصلاح والتسـامح بالرغم من موقفه الشديد سنـة ١٩٢٥ ضد دعاة تحرير المرأة .

وقد توفي ببغداد (الأعظمية) في ٧ شباط ١٩٧٦ .

أبو عبد الله الزّنجاني

العالم الإسلامي المصلح أبو عبد الله بن عبد الرحيم بن نصر الله ولد في زنجان شمالي إيران في ١٥ كـانون الأول ١٨٩١ . وارتحل إلى النجف فدرس على كـاظم اليزدي وشيخ الشريعة الأصفهاني وحسين النابيني . ثم درس الفلسفة في طهران .

دعا إلى الإصلاح الديني وتوحيد الكلمة وعقد الصلة بين المذاهب الإسلامية ، فقام برحلات إلى الشام والأردن وفلسطين ومصر والحجاز، ثم قفل عائداً إلى زنجان . ورحل ثـانيـة إلى مصر سنـة ١٩٣٤ ، وعرّج على دمشق . وانتخـب عضواً مـراسـلاً بـالمجمع العلمي العربي في الشام .

وقد توفّي في ٢٣ تموز ١٩٤١ .

من مـؤلفاتـه : تاريخ القـرآن (١٩٣٥) بقاء النفس بعـد فساد الجسـد ، الفيلسوف الفارسي صدر الـدين الشيرازي ، طهارة أهل الكتاب (١٩٢٧) عظمـة الحسين (باللغة الفـارسيـة) ، أصـــول القــرآن الاجــتماعية ، فلسفـة الحجـاب (١٩٢٤) رسـالـة في التصوّف .

الشيخ كمال الدين الطائي

محمد كمال الدين بن الشيخ عبد المحسن آل بكتاش الطائي، من علماء الدين. كان أبوه مدرس جامع المصرف وخطيب جامع علي أفندي، ولد في بغداد سنة ١٨٥٧ وتوفي سنة ١٩٤٥. وقد وضع تآليف في المنطق وعلم الكلام والتصوف.

ولد كمال الدين في بغداد سنة ١٩٠٣ ودرس في المدارس الرسمية التركية، ثم سلك مسلك التحصيل الديني على كبار العلماء. عيّن إماماً في جامع منوّرة خاتون، واختير محاضراً في دار العلوم العربية والدينية سنة ١٩٣٢. وكان واعظاً في عدة جوامع، واشترك في تأسيس جمعيات خيرية ودينية، منها جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية ونادي الإرشاد.

تولى تحرير المجلات التي أصدرتها جمعية الهداية الإسلامية: الهداية (أيار ١٩٣٠) وصدى الإسلام (كانون الأول ١٩٣٠) والصراط المستقيم (١٩٣١) وتنوير الأفكار (١٩٣٢) والاعتصام (١٩٣٢) والكفاح (١٩٣٤) ولسان الهداية (١٩٣٥). وأصدر مجلة دينية بإسم الذكرى (١٩٣٥) ورئس تحرير مجلة الراية لصاحبها نهاد الزهاوي (١٩٣٦).

اعتقل في تشرين الثاني ١٩٤١ وأبعد إلى العمارة والفاو. وفي أيلول ١٩٤٧ تولى رئاسة تحرير مجلة الكفاح لجمعية الآداب الإسلامية، وقد عادت هذه المجلة إلى الصدور سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩. ووضع مؤلفات شرعية وأدبية، منها الذكرى المحمدية (في عشرة أجزاء، ١٩٣٢ ـ ١٩٤١)، الفقر في الإسلام، إلخ.

توفي في بغداد في ١٢ آب ١٩٧٧.

محمد باقر الصدر

المجتهد الإمامي ذو النظرة العصرية والنزعة الإصلاحية السيد محمد باقر حيدر الصدر ينتمي إلى الأسرة المعروفة في الكاظمية التي شهدت مولده سنة ١٩٣٥. توفي والده وعمره لا يتجاوز الأربع سنوات. وقد درس العلوم العربية والدينية في الكاظمية والنجف، وكان من أساتذته السيد محسن الحكيم ومرتضى آل ياسين وإسماعيل الصدر. ونال درجة الاجتهاد، فأكبّ على التأليف والإرشاد. وأنشأ حزب الدعوة الإسلامية في النجف سنة ١٩٥٧. واعتقل في النجف لمعارضته لحكم البعث في ٥ نيسان ١٩٨٠ ونقل إلى بغداد واغتيل شهيداً بعد ثلاثة أيام (٨ نيسان ١٩٨٠).

حدّد في أواخر أيام حياته المهام العاجلة للمعارضة العراقية ولخّصها بأربع مهامّ:

١ ـ إسقاط نظام صدّام حسين والنضال في سبيل ذلك داخل العراق وخارجه.

٢ ـ إعادة السلطة للشعب ومنحه الفرصة الكاملة للتعبير عن رأيه .

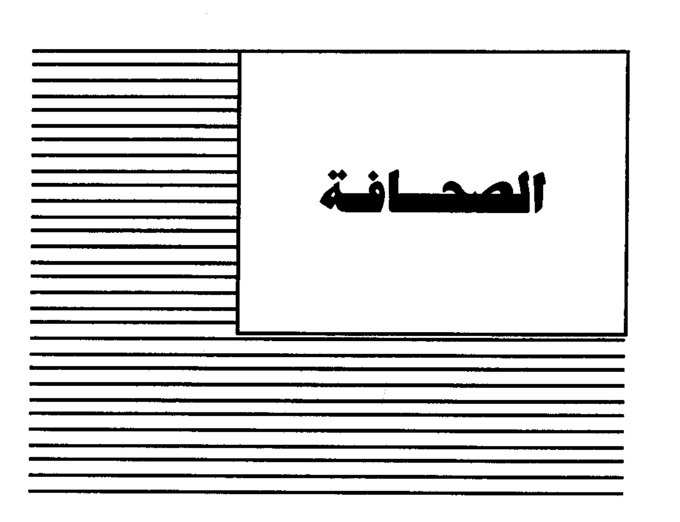
٣ ـ تحقيق وحدة الكفاح بين قوى المعارضة والشعب وتوحيد الكلمة .

٤ ـ إقامة نظام يعبّر عن إرادة الشعب ويحقق له الكرامة .

وضع محمد باقر الصدر مؤلفات كثيرة طبعت في النجف وبيروت والكويت ، منها : غاية الفكر في الأصول (١٩٥٥) فدك في التاريخ (١٩٥٥) فلسفتنا (١٩٥٩) اقتصادنا (جزآن ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٨) ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي ، المعالم الجديدة للأصول (١٩٦٥) المدرسة الإسلامية (جزآن ، ١٩٦٥) الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية (١٩٦٥) البنك اللاربوي في الإسلام (١٩٦٩) الأسس المنطقية للاستقراء ، إلخ .

قال لي عبد الهادي الجلبي : لو طال به الزمان لاجتهد اجتهادات كثيرة تتفق مع روح العصر.

وقال الدكتور محمد بحر العلوم إنّ محمد باقر الصدر «قاد الثورة الإسلامية في العراق في السبعينات وأعطى من نفسه لها كأي قائد رسالي الغالي والنفيس ، وكان آخرها حياته الغالية وحياة أخته الطاهرة المجاهدة بنت الهدى» . وقال إنه كان رائداً فذاً للحركة العلمية الدينية في النجف وكربلاء وقم وخراسان وغيرها من مراكز المرجعية الإمامية . ورأى أن الطليعة من أبناء الأمة في العراق بحاجة إلى توعية إسلامية ثورية وبناء جيل يتحمل مسؤوليته الدينية والتاريخية في رسم خط إسلامي فكري هادف ينقذ الأمة من التذبذب وعدم الرسوخ في المعتقد والالتزام في العطاء العلمي بما يتناسب وحاجة الظرف المُعاش . ولذلك كان لعطائه المتجسّد في مؤلفاته من تفسير وفقه وأصول وفلسفة واجتماع واقتصاد الأثر الكبير في خلق طبقة علمية رائدة . . .


الصحافة



داود صليـوا

من قدمـاء رجال التعليم والصحافـة، المعلم داود صليوا ابن الشمّاس يوحنّـا صليوا ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٥٢، وفقد حنـان الأمومة طفلاً. درس في المدرسة الكلدانية، ثم تلقى اللغـة العربية وآدابها على المطران ميخائيل نعمو ويـوسف باشعالم والبطريـرك عبد يشـوع خياط. وعيّن وهـو بعد صبيّ معلماً في مـدرسته، ثم عهـد إليه بإدارتها فأمضى في تلك المهمة أربع سنوات.

وانتقل إلى بغـداد سنة ١٨٧٤ وزاول التعليم في المدارس الأهليـة ثـلاثين عامـاً. ثم أعلن الدستـور في البلاد العثمانية وأطلقت حـرية الصحافـة، فأصدر جريـدة «صدى بابل» في ١٣ آب ١٩٠٩، وقد اشترك في إصدارها معـه في باديء الأمر يوسف رزق الله غنيمة. وأصدر بعـد ذلك مجلة فكاهية روائيـة نصف شهرية باسـم «الغرائب» (شباط ١٩١٣) نشر منها ١٢ عدداً.

نشبت الحرب العامـة وخاضت تركيـة غمارها، فنفي داود صليـوا مع الأب أنستاس الكرملي وعبد الحسين الأزري وغيرهما إلى قيصرية الأناضول، حيث قضى قرابة السنتين (١٩١٤ـ١٩١٦).

وقد فقد بصره في أعوامه الأخيرة، وقضى نحبه ببغداد في ٤ تشرين الثاني ١٩٢١.

وضع رسـالـة في ترجمة الـوالي نـاظم بـاشا (١٩١٣) وألف كتبـاً في الصرف والنحـو والمنطق واللغـة العربيـة. ودعا في جـريدتـه إلى استعمال العربيـة في العراق في الشـؤون الرسمية بدلاً من التركية، ونادى بأهمية الصحافة في تثقيف أبناء الشعب وإصلاح أمور البلاد ونشر العلم والأدب وشدّ وثاق الروابط الإنسانية. ونظم شعراً في التهنئة والمديح، كقوله:

غـرست لكم في المدح مـا اخضرّ روضـه ... وألقت إليـه الـزُّهْـر عقـداً من الـزهـر
وسطّـرت في خـدّ الـزمـان حقيقـة ... ملخّصهـا فخـر يـدوم على فخـر
لقـد جمع الله المحـاسن فيكـم ... كما جمع الأضـواء في مطلع الفجـر

سليمان الدخيل

الكاتب الصحفي المؤرخ سليمان الدخيل وهو ابن صالح بن دخيل بن جار الله النجدي، ولد في القصيم من أعمال نجد سنة ١٨٧٣ . وقدم إلى بغداد فتتلمذ على محمود شكري الألوسي . وقد طاف في بلاد العرب والهند، وكان واسع الاطلاع على أحوال الجزيرة العربية والخليج وعادات العرب وأخبارهم .

أصدر في بغداد جريدة أسبوعية باسم «الرياض» (٧ كانون الثاني ١٩١٠)، أعانه على إصدارها عمه الشيخ جار الله الدخيل، وكان وكيل الأمير ابن رشيد وصاحب تجارة واسعة مع نجد وجزيرة العرب. وكان إبراهيم حلمي العمر محرراً لهذه الجريدة. ثم أصدر سليمان الدخيل وإبراهيم حلمي مجلة بإسم «الحياة» (كانون الثاني ١٩١٢) احتجبت بعد صدور أربعة أعداد .

نشبت الحرب العامة وخاضت الدولة العثمانية غمارها فشرّدت رجال الفكر وأصحاب الأقلام، وفرّ سليمان الدخيل إلى نجد. وعاد بعد الحرب إلى بغداد فعين قائممقاماً لقضاء عانة في نيسان ١٩٢١ . ثم عيّن مديراً لناحية بلد في كانون الثاني ١٩٢٣ ، ونقل إلى المحمودية فالكوفة (حزيران ١٩٢٥) وكان وكيل قائممقام الجبايش في كانون الأول من تلك السنة. ثم عاد إلى الصحافة في كانون الأول ١٩٣١ رئيساً لتحرير جريدة «جزيرة العرب» الأسبوعية لصاحبها داود العجيل، ولم تستقم سوى ثلاثة أشهر.

ورجع إلى الوظيفة بعد ذلك فكان مديراً للتحرير في لواء كربلاء (١٩٣٤) فالناصرية (آب ١٩٣٨). وتوفي ببغداد سنة ١٩٤٥ .

كتب سليمان الدخيل مقالات عن الجزيرة العربية في مجلة لغة العرب وغيرها . وألف : القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد (١٩٦٦) الوهابية (١٩١٤) العقد المتلألئ في حساب اللآلىء، تحفة الألباء في تاريخ الاحساء (١٩١٣). ومن الكتب التي قام بنشرها : عنوان المجد في تاريخ نجد (١٩١٠) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (١٩١١)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (١٩١٤).

وكان أبوه الشيخ صالح بن دخيل بن جار الله النجدي من رجال العلم كتب بحوثاً في مجلة المقتطف المصرية في الدفاع عن المذهب الوهابي وذلك في السنوات الأولى من القرن العشرين .

محمد كامل الطبقجلي

ينتمي إلى الأسرة البغدادية المعروفة . أصدر في ٦ كانون الأول ١٩٠٩ جريدة عربية

تركية بـاسم «بين النهرين» . كان ائتلافياً مناوئاً للاتحاديين ، فلما اغتيل الصدر الأعظم محمود شـوكت باشا في استانبـول سنة ١٩١٣ ، أقام الأفـراح في داره ثلاثة أيام ابتهـاجاً بمقتله ـ على مـا حدّثنـي به سامي خوندة . واعتقل على أثـر ذلك في حزيران من تلك السنـة . ثم رأى استفحال سلطـة رجال الاتحاد والترقي فغـادر بغداد نـاجياً بنفسـه إلى الهند ، وأقام في بمبي .

قال سامي خوندة إنه كان يصدر جـريدة «الرافدين» سنة ١٩٢١ فإذا برجل يدخل عليه في الإدارة ، وكـان معتمراً الطـربوش ولابسـاً السّراويل الهنـدية والجلبـاب ، وعرّف نفسه بأنه محمد كامل الطبقجلي . رحّب به سـامي ، فقال الرجل : لقد قمنا بواجبنا تجاه الترك ، فعليكم ، يـا أولادي ، أن تواصلـوا جهادكم ضـد الإنكليز وتستخلصـوا حقوق الشعب منهم .

وعاد محمد كامل إلى الهند ثانيةً وأدركه الحمام فيها .

وهو والد الزعيم ناظم الطبقجلي الذي اشترك في حـركة العقيد عبد الوهاب الشوّاف في الموصل سنة ١٩٥٩ وأعدم معه على عهد الزعيم عبد الكريم قاسم .

داود نيـازي

من رجال الصحـافة القدماء ، مـارس داود نيازي المحاماة في البصرة وأصـدر فيها ، على أثر إعلان الدستـور العثماني ، جريدة عربية تركيـة باسم «الفيض» (أيار ١٩١٠) . وقد ظلّ يصدر جريدته حتى انتحر في نيسان ١٩١١ .

قاسـم جلميـران

من قـدامى رجال الصحـافة ، مـوصليّ المنبت ، كان من ذوي الأمـلاك في البصرة . أصدر فيهـا جريدة «إظهـار الحق» باللغتين العـربية والتركية في أول حـزيران ١٩٠٩ ، وعهد بتحرير القسم العربي إلى الشاعر عبد القادر العبادي .

وقد اغتاله فلاحوه في نيسان ١٩١٠ .

فتـح الله سـرسـم

فتح الله بن جـرجيس سَرْسَمِ ولـد في الموصل سنـة ١٨٧٥ وتعلم اللغـات العـربيـة والتركية والفـرنسية . عيّن عضواً بمحكمـة البداءة سنـة ١٩٠٥ ، فعضواً بمجلس إدارة الولاية ومحكمة الاستئناف .

ولما أعلن الـدستور العثماني أصـدر جريـدة أسبـوعية في الموصل بـاللغتين العربيـة والتركية بـاسم نينوى (١٥ تموز ١٩٠٩)، وكان مـديرها المسؤول محمـد أمين الفخري . وعاد بعـد ذلك عضواً بمجلس الإدارة (١٩١٢) فعضو مجلس الولايـة العام (١٩١٤ ـ ١٩١٨).

واحتلّ البريطانيـون الموصل سنة ١٩١٨ فعينوه عضواً بـالمجلس البلدي (١٩٢٠) فعضواً بمجلس الإدارة ونائب متصرف لواء الموصل (١٩٢١) . وانتخب نائباً عن اللواء المذكور في المجلس التأسيسي العراقي سنة ١٩٢٤ . وقد توفي في سورية في تشرين الثاني ١٩٢٧ .

كانت له عناية بالمخطوطات ولا سيّما ما يتعلق منها بالموصل وتاريخها .

ولـده: متّى فتح الله سرسم أصـدر في الموصل جـريـدة «فتى العـراق» (١٩٢٩) و «الإخلاص» (١٩٣٠) فجريدة «البلاغ» (١٩٣٠) وانتخب نائباً عن الموصل في حزيران ١٩٣٩ ، وأعيد انتخابه في آذار ١٩٤٧ وظلّ نائباً إلى ثورة تموز ١٩٥٨ .

عبد الوهاب الطباطبائي

ينتمي إلى أسرة بصريّة قديمة حسنيّة النسب، وهو عبد الوهاب بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجليل الطباطبائي . كان جدّه عبـد الجليل شاعراً فقيهاً معروفاً في عصره ولد في البصرة سنة ١٧٧٦ وارتحل إلى البحرين فالكويت حيث أدركه الحمام سنة ١٨٥٤ .

وقـد ولد عبـد الـوهاب في الكـويت سنـة ١٨٧٥ ودرس على علمائها . ثم جـاء إلى البصرة فأتم دراسة الأدب واللغـة وعلوم الـدين . ولازم السيد طـالـب النقيب وزار معه مصر والأستانة، والتحق بالجمعية الإصلاحية التي أسّسها قبيل الحرب العامة . وراسل جريدة المؤيد المصريّة لصاحبها الشيخ علي يوسف .

وحرّر جريـدة «الدستور» التي أصدرهـا في الثغر عبد الله الزهير في ٢٢ كـانون الثاني ١٩١٢ . وأصدر بعـد ذلك جريدة «صدى الـدستور» باللغتين العربيـة والتركية في ٢٥ أيلول ١٩١٣ ، فظلت تصدر إلى احتلال البصرة في كانون الأول ١٩١٤ .

وعيّن على أثر تأليف الحكومة العراقية مديراً لناحية الزبير (كانون الثاني ١٩٢٣)، ثم أصبح رئيساً لكتـاب بلدية البصرة في سنـة ١٩٢٩ . واعتزل الخدمة سنـة ١٩٤٩ . وله مقالات كثيرة في الصحف .

وقد توفي في البصرة في تموز ١٩٥٧ .

أخوه عبد المحسن بن عبد الله الطباطبـائي (١٨٨١ ـ ١٩٢١) ولد في الكويت ونشأ

في البصرة واشترك مع أخيه عبد الوهاب في تحرير جريدة الدستور. وكان كاتباً أديباً وشاعراً ينظم بالفصحى والعامية، ويعمل في التجارة.

علي الجميل

الصحفي الأديب علي الجميل ولد في الموصل سنة ١٨٩٠، ودرس في المدارس الدينية. ووظف كاتباً في المحكمة الشرعية بمسقط رأسه (١٩١٠)، ثم انتقل إلى دائرة الأوقاف. وظهر ميله إلى الكتابة، وهو في عنفوان الشباب، فنشر مقالاته في جريدة «النجاح» الموصلية لصاحبها خير الدين العمري وراسل جريدة «المصباح» التي أصدرها عبد الحسين الأزري في بغداد قبيل الحرب العظمى. وتولّى تحرير القسم العربي في جريدة «الموصل» الرسمية والترجمة في مطبعة الولاية. وألف: التحفة السنية في المشايخ السنوسية (١٩١٣).

مضى إلى حلب طلباً للاستشفاء من مرض ألمّ به، فلما عاد إلى الموصل، زاول أعمال والده التجارية، ثم عيّن رئيساً لكتّاب غرفة تجارة الموصل. وأنشأ جريدة «صدى الجمهور» سنة ١٩٢٧ نصف أسبوعية واستمرّ على إصدارها إلى وفاته. وقد توفّي في حلب في أول تشرين الأول ١٩٢٨ ونقل جثمانه إلى الموصل ودفن بها.

كان شاعراً أديباً رقيق الحاشية، حاضر النكتة، سريع البديهة، عرفه إبراهيم الواعظ في أثناء إقامته بالموصل سنة ١٩١٧/١٩١٨ وتوثقت صلته به وحصلت بينهما مطارحات شعرية ونثرية. فمما قاله علي الجميل يهنىء الواعظ بعيد الأضحى:

يميناً بربّ البيت والليل إذ يسري، بك ابتزّ قدّ العيد في حلل الفخر
تكامل حسناً من معانيك سعده فأضحت به الأيام باسمة الثغر
وأبدى من الإقبال ما أنت أهله وقد جاء للتبريك، يا طلعة البدر
فدم رافلاً بالعزّ والسّعد والبقا حبيباً لكلّ العالمين مدى الدّهر

وقال أيضاً:

لك منّي بين الجوانح قلب صادق الودّ معجب بولائك
وكأنّي به إليك اشتياقاً خافق لا يقرّ دون لقائك

رزّوق غنّام

شيخ الصحافة العراقية في عصره ولد في بغداد سنة ١٨٨٢ وتوفي بها في ٢٤ آذار ١٩٦٥. أصدر جريدة «العراق» سنين عديدة. وقد ترجمت له في «أعلام اليقظة الفكرية».

كان رزّوق غنام، مثل أمين الريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠) ومارون عبّود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢) في لبنان، مؤمناً بكل جوارحه بالقومية العربية والوحدة العراقية. وكان كثيراً ما يقول إنّ على المسيحيين وسائر الأقليات في العراق أن يؤمنوا بالإسلام أو، في الأقلّ، أن يتقاربوا مع الأكثرية المسلمة ويتركوا ضيق أفكارهم الطائفية ليندمجوا ويذوبوا في الوحدة الوطنية الجامعة. وكان مخلصاً للمبادىء العربية منذ شبابه حين كان موظفاً في بعض الشركات الإنكليزية العاملة في العراق في العهد التركي. فلما احتلّ الإنكليز العراق كان سهلاً عليه أن يصدر جريدته ويصبح داعية من دعاة القومية العربية، منضوياً إلى لواء نوري السعيد ورفاقه من رجال الثورة العربية.

وقد قال سلامة موسى: إنّ الإسلام دين بلادي ومن واجبي أن أدافع عنه. وفي سنة ١٩٣٦ قال مكرم عبيد باشا وزير المالية المصرية: أنا مسيحي ديناً، ولكنني مسلم بالنظر إلى بلادي المسلمة. وكان مارون عبّود الأديب الناقد الشهير يدعو إلى إسلامية مسيحيّي الشرق.

كان رزوق غنام يرى أن الدولة العثمانية التي استعمرت البلاد العربية قروناً طويلة قد وقفت سداً منيعاً في وجهها وحالت دون تقدمها وأخذها بأسباب النهضة الحديثة ودون إبراز شخصيتها الأصيلة في مجال الآداب والعلوم. وكان يضرب مثلاً على ذلك بمصر التي، حالما انفصلت فعلاً عن جسم الدولة وتولّى أمورها محمد علي باشا سنة ١٨٠٥، اتجهت وجهة جديدة نحو النهضة جعلت منها الرائدة في ميدان التقدم بين العرب.

قال إبراهيم صالح شكر يذكر رزوق غنام (تشرين الثاني ١٩٢٣) إنه أقدر صحافي عرفناه في هذه الديار يعمل على جعل جريدته في مقدمة الجرائد العراقية. وقال إن ثمرات جريدة العراق تنطق له بالجهاد، وهذه خدمة «العراق» للآداب العربية بإصدارها الأعداد السنوية الممتازة المحتوية على «الجليل والبليد» من آثار أدبائنا. وقال إن سياسة رزوق عربية منذ كان المتبجّحون بالعروبة في صفوف أعدائها الاتحاديين...

إبراهيم حلمي العمر

الكاتب الصحفي البارع إبراهيم حلمي العمر ولد في بغداد سنة ١٨٩٠ وتوفي بها في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٢. فصّلت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

لقيته في دمشق الآنسة جرترود بيلّ التي زارت سورية في تشرين الأول ١٩١٩ في أثناء

حكم الأمير فيصل وقدّمت إلى الحكومة البريطانية تقريراً سرياً عن الوضع هناك والرجال الذين يضطلعون بالحكم، وجلّهم من الضباط العراقيين كنوري السعيد وياسين الهاشمي وجعفر العسكري ومولود مخلص وناجي السويدي إلخ.

قالت إن الصحفي إبراهيم حلمي العمر زارها مراراً، وهو يصدر صحيفة اسمها «لسان العرب». وقالت إن معرفته للّغة العربية ممتازة حتى أن الأب أنستاس ماري الكرملي، وهو خير حكم في هذا الموضوع، حاول استدراجه إلى المجيء إلى بغداد ليعاونه في تحرير الصحيفة العربية التي تصدرها الإدارة البريطانية.

وقالت إن إبراهيم حلمي ميّال إلى بريطانية، وقد نشر في «لسان العرب» عدداً من المقالات المحبّذة للإدارة البريطانية. وتفاوض مع المس بيل عن إمكان انتشار جريدته لديها، وقال إن دعوته الصادرة من سورية تكون أكثر نفوذاً مما لو كانت تصدر من مطبعة الحكومة في بغداد. وهو يأمل أن تعضد السلطات صحيفته، وأشار إلى إمكان موافقته على العمل في بغداد «إذا منحناه شروطاً سخيّة». وختمت كلامها قائلة إنه، ولا ريب، شابّ قدير.

عاد إبراهيم حلمي إلى بغداد فأصدر فيها جريدته «لسان العرب» ثم استعاض عنها بجريدة أسماها «المفيد». وقد غيّر لهجته وصار ينتقد سياسة الانتداب البريطاني وظاهر الحركة الوطنية وتحدث عن المعاهدات والعهود بأنها «قصاصات ورق»... وقد عطلت جريدته في آب ١٩٢٢ وفرّ إلى إيران.

رجع إلى بغداد سنة ١٩٢٣. ولما لم يمنح امتيازاً لإصدار جريدة، قام صديقه معروف الرصافي باستحصال امتياز جريدة باسم «الأمل» وعهد بتحريرها إليه. أخبرني مصطفى علي أن الرصافي قال لإبراهيم بعد ذلك: إنك تحسن جيداً تعليق الطبل في عنق البعض، ثم تدقّ عليه دقاً عنيفاً!

وأخبرني صبحي البصام أن الشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي سئل أن يرثي إبراهيم حلمي العمر عند وفاته، فقال ارتجالاً:

قالوا: ألا تبكي على مثله؟	فقلت: صونوا الدمع عن طيشه
وإنّا لفي دهر وجدنا به	موت الفتى أفضل من عيشه!

كان إبراهيم حلمي كاتباً قديراً يحمل على الحكومة باسم المعارضة حملات شعواء ناشراً مقالاته غفلاً من التوقيع، ثم يصبح في الغداة فإذا به ينبري للردّ باسم الحكومة على مقاله بالأمس، وهو في كلا المقالين قويّ الحجة ناصع البيان. وقيل إن السيد جمال الدين الأفغاني كان ذا موهبة خاصة في قوة الإقناع، فكان يستطيع أن يأتي بما يدلّ على استحسان الشيء واستهجانه في آن واحد. وسئل في ذلك فقال: إن لكل شيء وجهين، ولكل إنسان صفات طيبة وقبيحة. وإن الحكم على الأشخاص والأشياء إنما

يختلف باختلاف الظروف واختلاف رغبة النـاظر وموقفه. فإذا نظرنا إلى الشخص من جهة المحاسن مدحناه، وإذا نظرنا إليه من جهة المساوىء ذممناه.

قاسم العلوي

قاسم السيد خضر العلوي من رجال الصحافة الوطنية في العراق ولد في جانب الكرخ من بغداد سنة ١٨٩٦، ودرس في المدرسة الرشدية العسكرية. ثم قصد الأستانة سنة ١٩١٢ وانتمى إلى المدرسة العسكرية، لكنه تركها عند نشوب الحرب العظمى بعد سنتين والتحق بمدرسة الهندسة.

عاد إلى بغداد في أوائل سنة ١٩١٧. وأنشئت دار المعلمين في حزيران من تلك السنة فعيّن مدرساً بها. ثم عمل مهندساً في دائرة الريّ بمنطقة الفرات الأوسط، وتولّى التدريس في مدرسة الهندسة ببغداد حيناً.

وأصدر عبد الغفور البدري جريدة الاستقلال في أيلول ١٩٢٠ فعهد بتحريرها إلى قاسم العلوي. قال رفائيل بطي في محاضراته عن الصحافة في العراق: «تولّى تحرير (الاستقلال) قاسم العلوي... وأعظم ما صرفت إليه الجريدة جهدها المقال الافتتاحي ـ وكان العهد عهد مقالات ـ فكان في الغالب يعالج القضية العراقية ويطالب بفسح مجال الحرية ويبرهن على استعداد الشعب للاستقلال. وقد عنيت الجريدة بمشروع الحكومة العراقية المؤقتة التي كوّنتها سلطة الاحتلال البريطانية تخلّصاً من أزمة الثورة وتمهيداً لتأسيس دولة العراق...» وقد عطلت الجريدة بسبب مقالاتها التي تلهب الشعور الوطني وسجن صاحبها وقاسم العلوي وفريق من كتابها كمحمد مهدي البصير وعلي محمود الشيخ علي (شباط ١٩٢١)، وأفرج عنهم بعد ستة أشهر.

قام بعد ذلك بالتدريس في مدرسة التفيّض والمدرسة الثانوية المركزية، وكان يدرّس الرياضيات وعلم الطبيعة. وفي سنة ١٩٣١ انتمى إلى كلية الحقوق، وتخرّج فيها سنة ١٩٣٤. وزاول المحاماة ثلاثين عاماً حتى سنة ١٩٦٤ حين اعتزل مهنته لمرضه. وأدركه الحمام ببغداد في أول آب ١٩٦٧.

كان كاتباً سياسياً ألمعياً، ضليعاً بالعربية والفقه والأدب، يحسن من اللغات التركية والفارسية وشيئاً من الفرنسية والألمانية.

حسن غصيبة

من رجال الصحافة والإدارة والمحاماة، ينتمي إلى شيوخ قبيلة العزّة. وهو حسن بن محمود الخلف الغصيبة الفارس. ولد سنة ١٨٨٩، وتخرّج في مدرسة العشائر في استانبول، وعيّن مديراً للمدرسة الرشدية في بعقوبا سنة ١٩١٢. ثم كان ضابطاً في الجيش العربي في أثناء ثورة الحجاز.

عاد إلى بغداد بعد الحرب العظمى، فاشتغل في الأحزاب الوطنية. وأصدر جريدة «العاصمة» في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ لتنطق باسم الحزب الحرّ العراقي. قال رفائيل بطّي في محاضراته عن الصحافة في العراق: «عرفت مقالات حسن غصيبة رئيس تحرير «العاصمة» الافتتاحية بأنّها من أحسن المقالات الصحفيّة في يومها، بل من أحسن المقالات في الصحافة العراقية، مكتوبة بأسلوب فصيح، معتدلة اللهجة، ناضجة التفكير. . .» وسجلت هذه الجريدة موقفاً مشرّفاً في الدفاع عن الحرية الفكرية وعن كرامة الصحافة والصحفيّين. وعطّلت في ٢٤ آب ١٩٢٣.

درس حسن غصيبة في الوقت نفسه في مدرسة الحقوق فتخرّج فيها سنة ١٩٢٣. وعيّن في آذار ١٩٢٤ رئيس ديوان الإنشاء في المجلس التأسيسي. ونقل إلى السلك الإداري فكان قائممقاماً لقضاء شط العرب (تشرين الأول ١٩٣١) فعلي الغربي (آب ١٩٣٣) فتلّعفر. ونقل مدعياً عاماً في بغداد (تشرين الثاني ١٩٣٤)، ثم اعتزل الخدمة وزاول المحاماة في أوائل سنة ١٩٣٨.

وقد توفّي ببغداد في ١٢ آذار ١٩٦٠.

وعرف أخوه محمد شاكر غصيبة من الكتاب والمحامين البارزين، وقد ولد في نحو سنة ١٨٨١. وهو ظريف، راوية للشعر الجيد والأخبار اللطيفة، قال إبراهيم الواعظ في أسبوعياته (١٩٤٤): وقد قرأ لي الأستاذ شاكر غصيبة المحامي هذين البيتين:

وأصحابٍ عهدتهم دروعاً ... فكانوها ولكن للأعادي

وخلتهم نصالاً صائبات ... فكانوها ولكن في فؤادي

ولا يزال شاكر غصيبة حياً (١٩٧٤).

سليم حسّون

الصحفي الكاتب المعلّم سليم حسّون، وهو سليم بن سمعان بن إبراهيم حسّون، ولد في الموصل سنة ١٨٧١ ودرس في مدرسة الآباء الدومنيكيّين، ثم أصبح مدرساً بتلك المدرسة سنين طويلة، ووضع كتباً مدرسية منها: تعليم الطلاب أصول التصريف والإعراب (١٨٩٩) الأجوبة الشافية في فنّي الصرف والنحو (١٩٠٦) مختصر مفيد في أصول الصرف والنحو (جزآن ١٩٠٦) خلاصة الجغرافية، كتاب الذهب لتهذيب أحداث العرب (في جزءين، ١٩١١). وترجم مسرحية استشهاد مار نرسيسيوس (١٩٠٢) وألف مسرحية شَعُو (١٩٠٥)، وقد مثّل كلاهما في الموصل.

ولما أعلنت الحرب العظمى انصرف عن التعليم واشتغل بالرسوم الفنّية، حتى إذا ما احتلّ الإنكليز الموصل وأصدروا جريدة «الموصل» الرسمية في تشرين الثاني ١٩١٨،

عمل محرراً بها أمداً، ثم عيّن مفتشاً للمعارف في مسقط رأسه. ونقل إلى البصرة فلم يلبث طويلاً حتى استقال وزار أوروبة وأسس دار الطباعة الحديثة في بغداد. وأصدر جريدة «العالم العربي» اليومية في آذار ١٩٢٤، فظلت تصدر إلى ما بعد سنة ١٩٤٧، وإن كان سليم حسون قد ترك الإشراف عليها في سنواتها الأخيرة لمرضه وعجزه. وكانت هذه الجريدة من الصحف الشعبية تعنى بشؤون الناس ومعيشتهم اليومية وتنتهج الاعتدال في أسلوبها وسياستها.

انتخب سليم حسون نائباً عن الموصل سنة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ و ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥، ثم انتخب نائباً عن البصرة خلفاً لرفائيل بطي (أيار ١٩٣٧). وناب عن بغداد بعد ذلك في مجلس ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩.

وتوفي ببغداد في ٤ تشرين الأول ١٩٤٧.

كان سليم حسّون كاتباً ميسّر الأسلوب، قريب المعاني إلى أذهان الجمهور، كتب «نقدات الحسّون» وسواها من الأبواب الصحفية. وقد عني بقضية فلسطين والدفاع عن عروبتها، واهتمّ بالبحوث والكتب التي تناولت شؤون العراق فعهد بترجمتها وتولى نشرها في جريدته بصورة متسلسلة.

قال جلال بابان: إنّ الأستاذ سليم حسّون يعتبر في نظري مثالاً طيّباً للخلق الصحيح لوفائه وأمانته وتحلّيه بالصفات الحميدة العالية، هذا إلى مواهبه الكثيرة وقابلياته الفذّة التي استثمرها في سبيل المصلحة العامة...

وقال صبيح نجيب: إنّ (سليم حسّون) يعتبر من أوائل المناضلين في سبيل القضية العربية وخاصة القضية الفلسطينيّة... وثمة ناحية ينبغي الإشارة إليها، وهي صراحته في القول والعمل...

وقال نور الدين داود: كان (سليم حسون) إلى جانب كونه من الصحافيّين البارعين مربّياً صالحاً تخرّج على يديه عدد غير قليل من الطلاّب النابهين... وأذكر أن صحيفته «العالم العربي» قد صدرت في يوم افتتاح المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤ واعتبرت فتحاً جديداً في عالم الصحافة لأنها جاءت بنوع جديد من النقد الهادىء الرزين والموجع في نفس الوقت. ولم يكن في بغداد آنذاك سوى صحيفتين سياسيتين: العراق والاستقلال، وكانت الأخيرة صحيفة الوطنية الملتهبة، والعراق صحيفة الاعتدال المتطرّف، فكانت العالم العربي بين الاثنتين تعتدل وتتطرف كما يقضي الزمن وتقضي المصلحة العامة...

بولينا حسّون

وهي ابنة عمّ سليم حسّون، ولدت في الأردن في نحو سنة ١٨٩٥. وقدمت بغداد مع أسرتها سنة ١٩٢٢ فأصدرت مجلة «ليلى» وهي أول مجلة نسائية عراقية في تشرين

الثاني ١٩٢٣ واستمر صدورها سنتين. وعملت بولينا حسون في الوقت نفسه مديرة لإحدى مدارس البنات، ثم عادت إلى الأردن. وتوفّيت هناك سنة ١٩٦٩.

وخال بولينا حسون: الشاعر الباحث إبراهيم الحوراني (١٨٤٤ ــ ١٩١٦)، وهو حمصيّ الأصل حلبيّ المولد بيروتيّ الوفاة، كان معلماً في الكلية الأميركية ببيروت ومحرراً للنشرة الأسبوعية، وفي شعره جزالة ورقّة.

رفائيل بطّي

دعاه أمين الريحاني ابن خلّكان العراق، وسار ذكره في الآفاق، وكان واسطة عقد الأدباء ودائرة معارفهم ولم تتجاوز سنّه الثانية والعشرين.

ولد رفائيل بن بطرس بن عيسى بن بطّي في الموصل سنة ١٩٠٠، ودرس في مدرسة الآباء الدومنيكيّين بها، ثمّ أصبح معلّماً. وأقبل على المطالعة بنهم شديد وأخذ بالكتابة والتحبير. وتوفّي أبوه، وكان حائكاً رقيق الحال، وجاء إلى بغداد سنة ١٩١٩، وانتسب إلى دار المعلمين الابتدائية وتخرّج فيها سنة ١٩٢١. وعيّن معلماً، لكنه ترك مهنة التعليم وعمل محرراً في جريدة «العراق» (١٩٢١ ــ ١٩٢٩). ونهض في الوقت نفسه بأعمال جمّة، فكاتب الصحف والمجلات في سورية ومصر. وأصدر مع عبد الجليل رزق الله اوفي مجلة «الحرية» (تموز ١٩٢٤)، فدامت سنتين وكانت من المجلات العربية الراقية. وخدم في دوائر الحكومة، فكان مديراً للتحرير في مديرية الزراعة العامة (أيار ١٩٢٤) فمعاون سكرتير وزارة الداخلية (كانون الثاني ١٩٢٦). ودرس في مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٩.

وأصدر في ذلك العهد كتباً، منها: الأدب العصري في العراق العربي (جزآن ١٩٢٣) سحر الشعر (١٩٢٢) أمين الريحاني في العراق (١٩٢٣) الربيعيّات (١٩٢٤). وترجم رواية «يوم زلزلت الأرض زلزالها» نشرت تباعاً في جريدة العراق.

كانت سنة ١٩٢٩ عام تحوّل في حياة رفائيل بطّي، إذ أصدر جريدة «البلاد» في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٩، وابتكر فنوناً وأبواباً صحفية لم تعهد من قبل في الصحافة العراقية. وعطّلت البلاد في ٨ أيار ١٩٣٠، فأصدر بدلاً منها جريدة صوت العراق (١٠ أيار) فالجهاد (٢٧ تموز) فالشعب (٢٧ آب) فالزمان (آخر آب). وسيق إلى المحاكمة بعد تعطيل هذه الجريدة في ٢٧ تشرين الأول ١٩٣٠ بتهمة الطعن في الذات الملكية.

ثم استأنف إصدار جريدة البلاد في ٢٧ آذار ١٩٣١، فعطّلت بعد ٥ أيام. وأصدر جريدة الأخبار (١٨ حزيران ١٩٣١) فالاخاء الوطني (٢ آب ١٩٣١). وأعاد إصدار الأخبار في ٢ تشرين الثاني، فظلت تصدر وتغيب، حتى صدرت البلاد مرة أخرى في

١١ كانون الأول ١٩٣٤ ، وعطلت في ٣٠ آب ١٩٣٥ . وعادت إلى الصدور حتى أوقفها في أول حزيران ١٩٤١ .

كانت هذه الحقبة من الجهاد الصحفي حافلة ، أوقف في أثنائها (١٩٣١) وأقصي إلى أربيل وكركوك وكويسنجق مع فهمي المدرّس في آذار ١٩٣٢ فأمضيا في المنفى نحواً من ستة أشهر. وانتخب نائباً عن البصرة (كانون الأول ١٩٣٤) وعن الموصل (آب ١٩٣٥) وعن البصرة والموصل في شباط ١٩٣٧ فاحتفظ بنيابة الموصل . وناب بعد ذلك عن البصرة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٣) . واعتقل خلال الحرب العالمية الثانية في العمارة من تموز ١٩٤٢ إلى تموز ١٩٤٣ .

أعاد إصدار جريدة البلاد سنة ١٩٤٥ . وسافر إلى مصر في منتصف سنة ١٩٤٦ ، لكن الجريدة استمرّت على الصدور إلى أواخر تلك السنة . وأقام في القاهرة نحواً من سنتين ، عمل خلالها محرراً في جريدة الأهرام وجريدة الأسبوع ، وألقى محاضرات عن الصحافة العربية في الجامعة الأميركية .

وانتخب نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٤٨ ، وقد عاد من القاهرة . واستقال من النيابة في آذار ١٩٥٠ ، ثم عيّن مديراً عاماً بوزارة الخارجية (كانون الأول ١٩٥٠) وعهدت إليه شؤون الدعاية . ونقل بعد شهرين مستشاراً صحفياً في سفارة القاهرة ، وأعيد إلى العمل في ديوان الوزارة بعد ذلك . وترك الوظيفة في كانون الأول ١٩٥٢ حين انتخب نائباً عن بغداد ، وأصبح وزيراً للدولة في وزارة فاضل الجمالي الأولى (١٧ أيلول ١٩٥٣) والثانية (٨ آذار ١٩٥٤) إلى ٢٩ نيسان ١٩٥٤ .

وأعاد إصدار جريدة البلاد في تموز ١٩٥٣ ، ثم أوقفها حين استوزر ، واستأنف إصدارها في ٢١ نيسان ١٩٥٥ . ودعي في تلك السنة لإلقاء محاضرات عن الصحافة العراقية بمعهد الدراسات العليا في القاهرة ، فجمعت في كتاب «الصحافة في العراق» (١٩٥٥) . وألف أيضاً : فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله (١٩٤٥) .

وثابر على عمله الصحفي حتى أدركته الوفاة في بغداد في ١٠ نيسان ١٩٥٦ .

وقد شغلته أعماله الكثيرة في الصحافة والنيابة عن طبع آثاره وجمع مقالاته العديدة في الصحف والمجلات العربية ، منها : كتاب «في قفص الأسلاك الشوائك» (عن اعتقاله سنة ١٩٤٢) ، وتراجم لرجالات العراق والعرب ، وتاريخ شامل للصحافة ، إلخ .

رثاه الشاعر مهدي مقلّد فقال :

أ أبا بديع ، قد نجوت فما	في داركم فند ولا كند
لكنّما غرّ الحقائق في	مثواك تنطق بالّذي تجد
لا معتدٍ غرّ هناك ولا	أحد يشيع بقلبه الحسد

واسلم، ظفـــرت بعـــالم شرفت أخـــلاقـــه والأهـل والـــولـــد
قـــد زالت الأحقـــاد وارتفعت بعـــد الـــردى وقـــد انطـــوى اللّـــدد
لا يظلم التـــاريخ مـن خــدمــوا أوطـــانهم، وسيـــذهـب الـــزبـــد
قـــد كنت سيفـــاً للحِمَى، وإذا بـــالسيف من فـــوق الحمى قعـــد
تكفيـك، روفـــائيـل، مفخـــرة يـــوم النعيّ مشـى لـك البلـــد

وقال طالب الحيدري:

يـــا صـــاحب الأدب العـــالي يصـــوّره يـــراع متّـــزن التفكير، نسّـــاجِ
ويـــا أبـــا النثـــر تمليـــه مهـــذّبـــة ألفـــاظـــه ومعـــانيـــه كـــديبـــاج،
-حتى ولجت مضيقـــاً مـن مـــذاهبـــه، خـــرجتَ أكـــرم ولّاج وخـــرّاج
تمثل «الـــدور» مطبـوعـــاً، وأكثـــرهم يمثلـون وهم في ثـــوب «مكيـــاج». . .
يـــا غـــارس الـــورد يسقيـــه بأدمعـــه، الأرض غـــابـــة أشـــواك وأحـــراج
هي الحيـــاة، كما فـــارقتهـــا، نكـــد ومنـــزل ليس فيـــه غير إزعـــاج
شبّهت أوضـــاعهـــا في كل مـــرحلـــةٍ بـــزئبـق قلق الأوضـــاع رجـــراج
تجفـــو الحيـــاة عليـــاً في عـــدالتـــه وطـــالما ترضّى ظلـم حجّـــاج!

وقد كتبتُ عند وفاته الكلمة الآتية:

في سنة ١٩١٩ قـدم بغـداد من الموصل فتى نحيل الجسم، أقنى الانف، مـرفـوع الرأس، حـادّ النظرات، لم يبلغ العشريـن من عمره ليجـرب حظه في خضّم العـاصمة الزاخرة.

كان ذلك في اعقـاب الحرب العالميـة الاولى. وكانت تلك الأيـام عجيبة حقـاً مثقلة بالأحداث المرتقبة، متألقة كالفجر الطـالع على نهار يعد بالضوء والدفء وضروب الهناء والنشاط. لقد انتهـت الحرب بويلاتها وكوارثها، وانقشع ظـل الاحتلال العثماني الذي دام مئات الاعوام وأعلنت الدول العظمى حق الشعوب المستعبدة في الاستقلال وتقرير المصير، وبدت تباشير عهد العلم والمعرفة والرخاء. ولئن كانت البلاد لا تزال تئن تحت نير الاحتلال، ونيـل الحرية والرفـاهية والسيـادة لم يزل رهين الغيـوب، ولم يتضح حتى الطريق الـذي يؤدي إلى تحقيق الاماني الوطنيـة والشخصية، لقد كانت النفـوس عامرة بالأمل والإيمان، متطلعة إلى أيام مقبلة حافلة بمشاق الجهاد ولذاته على السواء. كانت تلك الأيـام شبيهة بعهـد الشباب الفـوار بما يتسم من رجاء وارتقـاب وتلهف واندفـاع وتطلب للمعالي واستهانة بالمتاعب والمصاعـب، فوفدت على مدينة السلام التي عادت تحلم بمجد الملك ولذة السلطان جموع الشبـان المتحضرين الطامحين، جاؤوا من البصرة والموصل ومن الحلـة والنجف ومن سائر الحواضر والقصبـات ليشاركـوا في حياة البـلاد الجديدة.

لكن الشاب الموصلي لم يكن يماثل الشبان الوافدين، بل يفوق معظمهم ثقافة والمعية وذكاء. نشأ في الموصل حيث درس في بعض مدارسها المتواضعة اللغة العربية وشيئاً من الفرنسية والسريانية. وكان ولوعاً بـالمطالعة يقرأ كل ما يقع في يده ويعي كل ما يقرأ ولا يني جهداً في سبيل الحصـول على الكتب في عهد كانت عسيرة المنال، وقـد أتيح له إلى ذلك أن يـزاول التعليم آنا قصيراً وأن يحاول الكتـابة والنشر. فلما وصل بغـداد انتمى إلى دار المعلمين التي كـانت آنذاك مـلاذ الشبان الـراغبين في التعلّم وسرعان مـا تعرف إلى الحلقات الادبية والصحفية وأصبح من روادها ومحاور حركاتها.

لم يكن ذلك الشاب الموصلي الطمـوح الذي نتحدث عنـه سوى رفـائيل بطي الذي عرفه العراق والعالم العربي فيما بعد من أسـاطين الصحافة ومن رجال السياسة والقلم. احتضنته بغداد فجعلـت منه كاتباً ونائبـاً ووزيراً، وردّ الجميل لها فرفع لـواء صحافتها وترجم اعلامها وزان ندواتها ومجالسها بأدبه وفضله.

كـانت السنون العشر الاولى التي قضـاها الشـاب رفـائيل في العاصمـة سني عمل ونشاط جمّ: فقد درس في دار لمعلمين ومدرسة الحقـوق، وعمل في الصحافة ووظائف الدولـة، وكتب وألف وترجم ونشر، ووجد الـوقت إلى جانب ذلك كله ليكـون اللولب النابض للحركة الأدبية وليتزوج ويكون اسرة. أي طموح كان يحفز تلك الشعلة الملتهبة من العزم والنشاط، فيرضيها بالقليل من المتعة والراحة والنوم، ويحملها على الكثير من العمل والـدرس والاستطـلاع! لقـد كـان هـذا الشـاب المغترب في بعض تلك السنين العجاف ينهض صباحـاً فيقبل على مكتبه في دائرة الزراعة أو وزارة الـداخلية، ولا يكاد يفرغ من عمله الرسمي حتى يكتب المقالات ويباشر اعمال التحرير في صحيفته، حتى إذا ما حل المساء وجدته مكباً على الدرس شأن الطالب المجتهد.

ولم يكن يفوته على كثـرة مشاغله ومطالب معيشته المسـاهمة في تكريم الريحاني وغير الـريحاني، والاشتراك في مجالس الثقـافة والادب المنعقـدة بـلا انقطـاع في دير انستـاس والمعهد العلمي وفي نـدوة جريـدة العراق ومجالس الـزهاوي والـرصافي وفهمي المدرس وأضرابهم.

أخرج رفائيل بطي في هذه الحقبة «الأدب العصري في العراق العربي» بجزئيه «وسحر الشعر» و «أمين الـريحاني في العراق» و «الربيعيات». وكـان «الأدب العصري» الذي لم تتم اجـزاؤه أول محاولة لتسجيل الأدب العـراقي الناهض وتعـريف اركانـه ومقومـاته. وأصدر مجلة «الحرية» فكانت من المجلات العربيـة الراقية التي لم يهيأ للعراق ـ بعد ربع قرن من الزمن ـ أن يشهد مثيلها ومثيل زميلتها «لغة العرب» الانستاسية الكرملية.

في سنة ١٩٢٩ تخرج رفـائيل بطي في مدرسة الحقـوق، فأصدر جريـدة «البلاد» مع جبران ملكون وانصرف إلى تحريرها. وكان ذلك بدء عهد جديد في حياته.

حقق تقدماً لامعاً للصحافة اليومية العراقية وأساليبها، وخاض غمار المعامع السياسية والحزبية، فلم يلبث أن أغلقت صحيفته المرة تلو المرة، وأن قاسى مرارة الابعاد والسجن والتشريد. وفي هذه الحقبة انتخب نائباً مرات فسمعت الأمة صوته من منبر المجلس بعد أن قرأت مقالاته ووعت آراءه ونزعاته الإصلاحية.

ونشبت الحرب العالمية الثانية تنذر بالويل والثبور، ففتحت في حياة صحفينا صفحة جديدة لعلها كانت أزخر ايامه بالتقلبات والمفاجآت. قضى عهداً في معسكر الاعتقال، ثم خرج ليستأنف جهاده الصحفي. وضاقت به سبل العيش في بلده، فشدّ الرحال إلى مصر حيث عرفت مكانته وقدر فضله في المحافل العربية والأدبية. وعاد إلى بغداد فكان نائباً حينا وموظفاً حيناً آخر. ولم يلبث أن أعيد إلى مصر مشاوراً صحفياً للسفارة العراقية. ثم آب إلى بغداد ليقضي عهداً قصيراً في وزارة الخارجية، ثم يستأنف إصادر «بلاده». وحظي بالوزارة شهوراً معدودات ثم عاد إلى جهاده الصحفي، فأخذه الموت على حين غرّة وقلمه في يده، وفي نفسه آمال بعيدة لم يسمح الدهر بتحقيقها.

كان رفائيل بطي في هذا العهد من حياته كثير التلهف على عهد من الراحة والطمأنينة المادية والذهنية ينصرف فيه إلى تدوين المؤلفات التي عزم على وضعها وهيّأ لها المادة النادرة الغزيرة. لقد جمع خلال نحو من اربعين سنة معلومات شاملة تتناول سير الآلاف من رجالات العراق والعروبة خلال المائة سنة الاخيرة، ودونها على الجذاذات والبطاقات، وحقق لها المصادر والمراجع. وقد عزم ان يدوّن سير الرجال فيسهب في ترجمة العباقرة والنابغين في حقول السياسة والإدارة والعلم والادب، ولا يبخل على التابعين بإيجاز يبل الغليل. ونشر نماذج مقتضبة من هذه التراجم في جريدته في عهدها الاخير، لكن الدهر لم يمنحه ما تاق إليه من سعة وفراغ لاخراج مشروعه الضخم الذي أعد له العدة وهيأ له الاسباب.

كنت وثيق الصلة برفائيل بطي في سنواته الاخيرة، فكثيراً ماكنا نجتمع هنا أو هناك لنتكلم في الأدب والتاريخ وسير الرجال ولنتبادل الرأي في المواضيع الكثيرة التي عنينا بها كلانا. كان يحدثني عن آماله ومشاريعه الأدبية الضخمة، وعن التراجم التي شغف بها والتي كان يود ان يتفرغ يوماً ما لكتابتها بشكل يرضي نزعته الأدبية والتاريخية. وكان واسع الإطلاع على تواريخ الرجال الذين نبغوا في العراق وسائر الاقطار العربية منذ عهد النهضة الحديثة، يحفظ سيرهم وآثارهم ولا تفوته من أمرهم شاردة ولا واردة. ولعله كان أعرف أهل زمانه بالمظان التي تضم أخبارهم خطيرها وصغيرها، وكان يفرح بالعثور على خبر جديد لشخص مشهور أو مغمور أو الوقوف على مصدر أنفٍ لتراجم الرجال الذين نذر نفسه لتحقيق سيرهم.

لم يشك رفائيل بطي على ما أعلم من مرض أو هزال، فجاءت وفاته المفجعة المفاجئة

ضربة قاصمة صمّت لها الآذان وجزعت النفوس. قضى وهو أكثر ما يكون قوة ونشاطاً وأوسع ما يكون أملا ورجاء. ولقد وقف في بيروت قبل شهر واحد من وفاته يرثي زميله اللبناني كميل يوسف شمعون، فقال: «وعند اجتماعكم لتمجيد أحد أجناد الصحافة بعد ان غيبّه الثرى، أعرب عن أمنيتي بأن يلتفت رجال البلد الشقيق ـ ونساؤه طبعاً ـ إلى من سبقوا صاحب الاحرار إلى دار البقاء، فيعترفوا بأياديهم على النهضة بل على الكيان الاستقلالي للبنان العزيز. فإن الوعي المتغلغل في العالم العربي قد بثه هؤلاء الرواد الذين جازوا العقبات واقتحموا المخاطر.، وبينهم شهداء ضحّوا بأرواحهم في سبيل الحرية والاستقلال والمجد القومي. فمن واجبنا أن نلتفت إلى الرعيل الأول من صحافييهم، فنخلدهم بتدوين سيرهم والمباهاة بأعمالهم رعاية للوفاء، ولخلق معالم تحفز الشباب ليندفعوا في ساحة العمل والجهاد وهم واثقون بما ينعمون به من راحة الضمير وسعادة الخلود..»

ان هذه الكلمات التي نطق بها رفائيل بطي قبل أن يصرعه الموت وهو في حلبة الجهاد جديرة أن تلقى أسماعاً صاغية وقلوباً واعية من أبناء الجيل الجديد، فيخلدوا سيرته وسيرة اخوانه من أبطال الصحافة ويتخذوهم قدوة حسنة ونبراساً مضيئاً في السعي والجهاد.

* * *

عرفت رفائيل بطي أعواماً طويلة، وكتبت في جريدته وربطتنا بعد ذلك أواصر صداقة وثيقة لم تنقطع إلى يوم وفاته. وقد زارني في مكتبي على عادته كلما مرّ به صباحاً قبل أن يذهب إلى ادارة جريدته. وفي اليوم الثاني رنّ جرس التلفون قبيل الظهر، فإذا بالناعي ينعاه فجأة، ولم يكن مريضاً بل ربما كان مجهداً مرهق الأعصاب.

كان كثير الطموح، ولا يعتني بصحته وراحته، ويريد أن يستفيد من وقته أكثر مما يتاح لكهل في سنّه. كان يريد أن يكون كاتباً أديباً وصحفياً وسياسياً وطنياً ورجلاً اجتماعياً ويريد لو استطاع أن يحضر في مكانين في آن واحد وأن يكون موضع ثقة الحكومة والمعارضة معاً. وحاول مراراً أن ينشىء مشاريع صحافة ونشر مشتركة بين العراق ومصر وبين رجال المال والسياسة والأدب. أذكر على سبيل المثال أنه جمعنا في داره مراراً لانشاء شركة نشر يساهم فيها المصريون والعراقيون، فلم يخرج المشروع إلى حيّز الوجود لأن أكثر الذين دعاهم إلى بحث الأمر لم يكونوا من رجال الأعمال بل من رجال السياسة ومنتهزي الفرص.

وقد أصدر جريدته «البلاد» لأول مرة في خريف سنة ١٩٢٩ بالإشتراك مع جبران ملكون الذي كان يعمل إلى ذلك الحين محاسباً في جريدة العراق. وكان جبران رجلاً عملياً يعرف من أين تؤكل الكتف ويعلم أن المال قوام الجريدة الناجحة، فيهتم بالاعلانات والاشتراكات. أما رفائيل بطي فكان يريد الجريدة للتعبير عن آرائه ولخلق

صحافة متفنّنة تكون فتحاً جديداً في عالم الصحافة العراقية. ولذلك سعى إلى اجتذاب أقلام الكتاب اللامعين، وفتح أبواباً في صحيفته للشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ولم يغفل عن الرياضة والهزل. وأراد في الوقت نفسه أن يتصل بالأحزاب الوطنية ويعرب عن أفكارها وأهدافها، وأراد أن يتخذ من جريدته وسيلة للوصول إلى النيابة والوزارة والمشاركة في الحياة العامة (وقد حقق ذلك، ولكن بعد جهاد مرير طويل).

ولم يلبث الخلاف أن دبّ بينه وبين شريكه جبران ملكون فانفرد كل منهما باصدار جريدته. ومن اللطائف التي تروى في عهد عملهما معاً في جريدة البلاد، ان جبران كان يأتي مساء إلى المطبعة فيجد حقول الجريدة مليئة بالأخبار والمقالات وليس فيها متّسع كافٍ للاعلانات التجارية، فيأمر في غفلة من صاحبه أن ترفع أخبار وبحوث وتوضع الاعلانات في محلها.

ثم يأتي رفائيل بطي في منتصف الليل حاملاً خبراً مهماً أو مقالاً طريفاً، فيوعز برفع اعلانات معينة ووضع المادة التي جلبها معتزاً بها في محلها.

وقد تكرّر هذا الأمر وسبب عتاباً ونزاعاً بين الشريكين حتى انتهيا إلى الفراق.

توفيق السمعاني

الكاتب الصحفّي الأديب، توفيق بن بهنام بن يونان بن سمعان، عرف في بادىء أمره باسم الشماس اسطيفان، ثم اتخذ اسم توفيق السمعاني، ولد في الموصل سنة ١٩٠٢ ونشأ في قرية بعشيقة المجاورة ودرس في احدى المدارس الاكليركيّة. وقصد بغداد سنة ١٩٢٢ فدرّس في مدارسها الأهلية، وحرّر في جرائد مختلفة، وكتب المقالات الأدبية والاجتماعية مشاركاً في المساجلات الفكرية والثقافية التي احتدمت في العاصمة العراقية في تلك الحقبة.

ساهم في إصدار مجلة الزنبقة سنة ١٩٢٢، والتحق بمدرسة الحقوق ثم تركها بعد مضيّ سنتين. وعمل محرراً في جريدة العراق فالبلاد، ثم تولّى تحرير جريدة «صدى العهد» سنة ١٩٣٠. وأصدر بعد ذلك جريدة «الطريق» (٦ آذار ١٩٣٣) فجريدة «النداء» (٢١ ايار ١٩٣٦) فجريدة «الزمان» (أول أيار ١٩٣٧). وقد أصبحت هذه الجريدة الأخيرة من كبريات الصحف السياسية اليومية في بغداد، وكانت منبراً للأدباء والكتّاب أكثر من ربع قرن، حتى قدّر لها التعطيل في شباط ١٩٦٣.

انتخب السمعاني نائباً عن البصرة في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٧ ـ شباط ١٩٣٩)، ثم ناب عن الموصل في المجالس النيابية المتعاقبة في كانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وايلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨. واختير بعد ذلك نائباً لرئيس

نقابة الصحفيين (حزيران ١٩٦١).

وهو صحفي بارع وأديب سلس العبارة، جميل الأسلوب، سئل عن مساهمته في بناء النهضة الأدبية، فأجاب بتواضع قائلاً (جريدة الزمان، ٣ آذار ١٩٥٨):

«ليس من المستحسن أن يفاخر الإنسان بنفسه وأعماله. . فإني صحافي قديم، وقد قضيت القسم الاكبر من عمري في الصحافة بين المحابر والكتب والاوراق والدفاتر والكتابة. وكلها عمل يتصل بجوهر الأدب وحياته وتطوره. وقد كانت صحيفتي، ولا تزال، ميداناً للكتاب والادباء ومدعاة لتشجيعهم وإظهار فضلهم ومواهبهم، وهذا أيضاً مساهمة في النهضة الأدبية».

وضع توفيق السمعاني في صدر شبابه قصصاً نشرت في الجرائد والمجلات كمرآة العراق والحاصد والبلاد. وقد زار الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٥٧ فكتب مشاهداته في مقالات متسلسلة نشرت في جريدة «الزمان» توفي في بغداد في ١١ نيسان ١٩٨٢.

سلمان الشيخ داود

من رجال الصحافة والنيابة والمحاماة سلمان الشيخ داود، ولد ببغداد سنة ١٨٩٧ ونشأ في كنف والده الشيخ أحمد الشيخ داود وتخرج في المدرسة السلطانية سنة ١٩١٦، وانتمى إلى دورة المعلمين الابتدائية في حزيران ١٩١٧ وعيّن مديراً لمدرسة الفضل. ولم يلبث أن نقل كاتباً في محكمة البداءة (١٩١٨) فسكرتيراً لأمانة العاصمة (١٩٢٢).

ودرس في الوقت نفسه في مدرسة الحقوق فنال إجازتها سنة ١٩٢٣. وكان في السنة نفسها سكرتيراً للوفد العراقي إلى مؤتمر الكويت الذي عقد لحسم النزاع بين العراق ونجد والحجاز وشرقي الأردن.

بدأ بالكتابة في جريدة الإستقلال وغيرها من الصحف سنة ١٩٢٠. ولمّا تخرّج في مدرسة الحقوق، طلّق الوظيفة وانصرف إلى المحاماة والصحافة. وكان مديراً لجريدة المداعب التي أصدرها حسين يحيى في كانون الثاني ١٩٢٦، ثم تولّى تحرير جريدة التقدم لسان حال حزب التقدّم (١٦ تشرين الثاني ١٩٢٨). وأصدر بعد ذلك جريدة النّاقد (١٣ حزيران ١٩٢٩) وبريد الجمعة (نيسان ١٩٤٧).

وانتخب نائباً عن الديوانية (شباط ١٩٣٧) فنائباً عن بغداد (شباط ١٩٤٢) وتشرين الاول ١٩٤٣، فنائباً عن ديالي (آذار ١٩٤٧). وانتخب نائباً عن العمارة في آذار ١٩٤٩ وثم في حزيران ١٩٥٥. واعتقل في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وأطلق سراحه بعد أمد وجيز.

توفي سلمان الشيخ داود ببغداد في صيف سنة ١٩٧٧. وكان قد اعتقلته سلطات

الأمن أياماً بوشاية مغرضة، فاشتد عليه المرض وأسرع بإخلاء سبيله ولم يلبث أن قضى نحبه.

وهو كاتب سياسيّ واجتماعي لمع اسمه في أوائل سني العشرين. قاله فيه خالد الدّرة في مجلة الوادي (١٥ آذار ١٩٤٧): «صريح ومشاغب وبغدادي، وخطيب لبق رغم لثغته لمزاولته مهنة المحاماة أعواماً طوالاً. وإذا قلت بأن ابن الشيخ خطيب فأنا أعني ما أقول... لأنه لا يتوغل إلى هذه المقدمات المهلكة ولا يلجأ إلى المواقف الخطابية الرعناء، كما لا يعبأ بأن تكون جميع عباراته بالفصحى وهو القادر على الخطابة فيها، ولكنه يدخل إلى الموضوع رأساً ويعلن فكرته فوراً ويجلس بأسرع ممّا نهض.. وسلمان إن لم يكن بارد الطبع فهو سكسونيّ الدم».

كتب سلمان الشيخ داود في صدر شبابه نثراً عاطفياً جميلاً منه أقصوصة لطيفة بعنوان «العاطفة الذابلة» روى فيها حكاية فتاة «في الربيع الخامس عشر من عمرها لا يغمر قلبها سوى أنوار السرور ولا تعرف من الحياة غير الضحك والابتسام». كانت الزهرة الوحيدة لوالديها الموسرين فرمقتها أعين الشباب حباً بجمالها وطمعاً بثروتها، لكن راحت هي تبحث عن الحبّ الصحيح حتى وجدته. واقترنت بحبيبها وأنجبت طفلاً ثم مرض زوجها وقضى نحبه وداهمتها الاحزان وهي لم تتجاوز العقد الثاني من حياتها.

وتنازعت الأرملة الشابة عاطفتان: عاطفة الفتوة العارمة التي تدفعها إلى التمتع بلذائذ الحياة، وعاطفة الوفاء لذكرى قرينها الراحل. ويختتم الكاتب هذه القصة فيقول:

«فإذا ما هجعت تمّر أمام ذاكرتها أشباح كثير من الشبان الذين خطبوا ودّها، فيبتسمون لها ويسجدون أمام جمالها الفتان. وعندما تحاول أن تجزي الابتسامة بمثلها، يمّر من أمامها شبح زوجها فتمدّ ذراعها لتضمه إلى صدرها. لكنها لا تلبث حتى تنتبه مذعورة، فلا ترى في القرب منها سوى ولدها الصغير، فتأخذه صبيحة كل يوم إلى قبر والده حيث تنثر عليه الدموع والازهار. وقد ظلت محافظة على ذكرى زوجها عشرين عاماً.

ورغم أن ولدها قد بلغ مبلغ الرجال وتزوج وولد له ولد، لم تحفظ في مخيّلتها له سوى صورة الطفولة التي كان بها عندما لفظ والده النفس الأخير.

«وعندما بلغ حفيدها الشهر الثالث من عمره، انتابتها حمّى شديدة أفضت إلى موتها. وقبل أن تودّع أنفاسها الأخيرة مدّت يدها وقبضت على مهد حفيدها حاسبة انه مهد طفلها الذي خلّفه زوجها الراحل، لأنه لم تنطبع في مخيّلتها ذكرى جديدة منذ فقدت زوجها قبل عشرين عاماً. ولم تبتسم منذ ذلك التاريخ، لكن الذين وقفوا

حول جسدها الهامد في موقفها الأخير رأوها باسمة، على محياها علائم السرور، لأن أرواح المحبين لا يهدأ لها روع الاّ أن تتعانق في العالم الخالد، مقرّ النفوس الأبدي».

وكذلك ختم سلمان الشيخ داود أقصوصته الشجية خاتمة حزينة هادئة شأن شعراء الروما نتيكية وأدبائها في كل عصر ومصر.

سلمان الشيخ داود والرصافي:

كان موالياً للحلف والتعاون مع بريطانية العظمى، وقد ألقى في مجلس النواب في ١٩ نيسان ١٩٤٢ خطبة مسهبة مدح فيها بريطانية واستنكر حركة ايار ١٩٤١ ووصم القائمين بها بالخيانة والمروق. وقد حبّذ السياسة الموالية للأمم الحرة والاستفادة من خبرة الاستشارة الانكليزية. وقال إنه يرجح ادارة عالمة نظيفة متّزنة ولو يرأسها أجنبي على إدارة مذبذبة مترجرجة مفككة فاسدة يرأسها عراقي.

وقد ردّ عليه معروف الرصافي بقصيدة قال في مطلعها:

قل لسلمان، بعد ما كان حراً، كيف قد جاز رقّه والإسار؟
ان ماقلته من القول هُجر منكر لا تقوله الأحرار

حتى قال:

كيف نسعى إلى العلا في أمور ليس فيها رأي لنا واختيار؟
فبذا ركن عزّنا يتداعى وبذا صرح مجدنا ينهار
انّ للأجنبي فينا لحكماً أسدلت دون جوره الأستار

محمد عبد الحسين

من رجال الصحافة العراقية الذين اشتهروا في فترة مابين الحربين العالميّتين، محمد بن عبد الحسين بن أحمد الحسني، ولد في الكاظمية في سنة ١٨٩٩ من أسرة لها خدمة في الحضرة الكاظمية، وكان عمّه باقر سركشك (١٨٩٣ ـ ١٩٥٨) معاوناً لرئيس التشريفات الملكية (١٩٢٤) فمدير البريد والبرق العام (١٩٤٥) فمدير النفوس العام ١٩٥٠). وقد انتخب نائبا عن الكاظمية في مجلس النواب ايار ١٩٥٥ وايار ١٩٥٨.

نشأ محمد عبد الحسين في الكاظمية وبها تثقّف، ثم مضى إلى النجف في ابان الثورة العراقية وأصدر جريدة «الاستقلال» (أول تشرين الاول ١٩٢٠)، وقد ظهر منها ثمانية أعداد. ولما اقتربت القوات الإنكليزية من النجف ذهب إلى البصرة وعمل في جريدة الأوقات البصرية.

وعـاد إلى بغداد، فأخـذ بـالتحريـر والكتـابة في صحفهـا، كـالعراق والاستقـلال والنهضة العراقية، وطارت له شهـرة، كاتباً سياسياً في رعيل الصحفيين الشبّان. وعيّن مفتشاً لمعارف منطقة الفرات في حزيران ١٩٢٢، لكنه لم يلبث أن عاد إلى الصحافة.

أنشأ جريـدة «الشعب» في ١٠ نيسان ١٩٢٤ فلم يطل عهدها أكثـر من اسبوعين. وقد وقّف جـريدتـه ـ كما قال رفـائيل بطي في محاضراته عن الصحـافة في العـراق ـ على مناقشـة المعاهدة العراقيـة البريطانية والـدفاع عن وجهة نظر المعـارضين لهـا، وكانت «الشعب» شديدة الوطأة في مقالاتها وبحوثها السياسية.

درس محمد عبـد الحسين الحقوق في الوقت نفسـه، ونال إجازتها ومارس المحـاماة. وألّف كتاب «المعـارف في العراق على عهد الاحتـلال» (١٩٢٢) و«ذكرى فيصل الأول» أو «العـراق في اثني عشر عـاماً» (١٩٣٣). وانتخب نـائبـاً عن الحلـة في كانـون الأول ١٩٣٤.

اعتقل في أثنـاء الحرب العـالمية في تشريـن الثاني ١٩٤١ وأُقصي إلى الفـاو. وأدركتـه الوفاة سنة ١٩٥٢.

له أيضاً: محنة العرب (١٩٣٦).

سلمان الصفواني

الصحفي الأديب سلمان آل ابـراهيم الصفـواني القطيفي، ولـد في قريـة صفـوة من أعمال نجـد سنة ١٩٠٠، وجـاء إلى العـراق فتلقى دروس العربيـة والـدين في معاهـد النجف وكربلاء.

اشترك مع الشيخ مهـدي الخالصي في منـاهضـة انتخـاب المجلس التأسيسي في الكـاظمية، فأبعـد عن العـراق في حزيـران ١٩٢٣. وعاد إلى بغـداد فأصـدر جريـدة «اليقظـة» (٥ ايلـول١٩٢٤) فجريـدة «المنبر العـام» (كـانون الاول ١٩٢٥) فجـريـدة «المعارف» مع عبد الملك حافظ (ايلـول ١٩٢٦). وعيّن في سنة ١٩٢٧ سكرتيراً خاصاً لوزير المواصلات والاشغال، لكنه استقال بعد ذلك واستأنف إصدار جريدة «اليقظة» (تشرين الثاني ١٩٢٩) فجريدة «النهضة» (١٩٣٠).

وعاد إلى الوظيفة معـاوناً لسكرتير أمانة العاصمة، ونقل إلى وزارة الداخليـة فمديرية المحـاسبات العـامة. وكـان بعـد ذلك مدرسـاً للغـة العربيـة في دار المعلمين الريفيـة والمدرسة الثانوية المركزية للبنات ومدرسة التفيّض الأهلية.

ساهم في الحركة الـوطنية خلال الحرب العالميةالثانيـة فاعتقل في الفاو (تشرين الاول ١٩٤١)، إلى تموز ١٩٤٣، ثم أبعد إلى الهند وعدن.

وعـاد إلى بغـداد (آذار ١٩٤٦)، فـاستأنف إصـدار «اليقظـة» وكـانت من الجرائد العنيفـة في قوميّتهـا. ثم أصـدر جريـدة «صـدى اليقظـة» ايار ١٩٥٣). وقـد حطم مطبعتهـا الجمهور بعـد فشل حركـة العقيـد عبدالـوهاب الشـوّاف في الموصل في آذار ١٩٥٩.

وسكن في القاهرة من ١٩٥٩ إلى ايلول ١٩٦٥، ثم عاد إلى بغداد إذ عيّن وزيراً للدولة في وزارة عميد الجو عارف عبدا الرزاق (٦ ايلول ١٩٦٥) ووزارة عبد الرحمن البزاز التي تلتها في ٢١ ايلول ١٩٦٥ إلى ٩ آب ١٩٦٦. واعتقل بعد ثورة تموز ١٩٦٨ البعثية، وأفرج عنه في شباط ١٩٦٩.

وقد ألف: رواية الرزقاء(١٩٢٥) ذيول صِفّين (رواية) أذن وعين (١٩٤٧) محكوميتي (١٩٥٢) هذه الشعوبية. ونشر كتاب تاريخ الحروب العربية أو حرب البسوس لمحمد بن اسحق (١٩٢٨).

قالت مجلة «الأديب» البيروتية (ايلول ١٩٤٧) تذكر صدور كتابه «أذن وعين»: «.. قلم، سيّال لكاتب جريء يعبّر عمّا يخالجه من احساسات وآراء جلا فيها مكامن الداء... ولعلّ الشيء الذي يتميّز به الكاتب هو نزعته العربية القوية ودفاعه المجيد عن الوحدة العربية فكأنّ سني الاعتقال لم تزده الا مضيّاً في الكفاح وروسوخاً في العقيدة. فيدعو القائمين على أمور العرب في الخروج من ميدان النظريات إلى ميدان العمل والاسراع في توحيد الثقافة العربية، بعد أن يعالج قضية القومية العربية معالجة دقيقة بأسلوب خطابي قويّ النبرات، واضح الغاية، عذب المنال».

توفي سلمان الصفواني في بغداد في تشرين الثاني ١٩٨٨.

نوري ثابت

الكاتب العراقي الهزلي نوري ثابت المعروف باسمه المستعار «حبزبوز»، ولد في السليمانية في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٩٧، وكان والده ثابت بك الكروي عقيداً في الجيش التركي، فانتقل معه إلى الأحساء حيث أتم دراسته الابتدائية. وكلف ثابت بك بتأديب أهالي السماوة لإخلالهم بالأمن على عهد والي بغداد جلال بك (١٩١٤). انتمى نوري إلى المدرسة الاعدادية ببغداد، ومضى إلى الاستانة فولج مدرستها العسكرية (آب ١٩١١) وتخرج فيها ملازماً ثانياً.

حارب في اثناء الحرب العظمى في الدردنيل والقفقاس، وجرح في المعارك فأعيد إلى الاستانة واستخدم ضابط استخبارات في مقر وزارة الحربية التركية حتى عقد الهدنة. وعاد إلى العراق سنة ١٩٢٣ فعيّن معاوناً لمدير المدرسة الجعفرية الأهلية (تشرين الأول ١٩٢٣) ثم انتقل إلى وزارة المعارف وكان مدرساً ومدير مدرسة ثانوية. وعين مفتشاً في ايلول ١٩٢٥ وأخذ يكتب نقداً اجتماعياً باسلوب طريف في الصحف المحلية، فلما أنشأ رفائيل بطّي جريدة «البلاد» سنة ١٩٢٩ كلفه بكتابة باب خاص بالهزل والتفكهة فيها.

فصل من الوظيفة في ٢٤ آب ١٩٣١، فأصدر جريدة فكاهية اسبوعية باسم «حبز بوز» (٢٩ ايلول ١٩٣١) ووالى اصدارها إلى وفاته ببغداد في ١٢ تشرين الاول سنة ١٩٣٨.

قال رفائيل بطي في وصف اسلوبه: «وحبزبوز كاتب خفيف الظل، أسلوبه محبّب إلى النفوس، تمازجه تعابير دارجة عند الدهماء، مطعمة بالأمثال السائرة على ألسنة الناس على اختلاف طبقاتهم وتحلّيها حكايات ونوادر مما يتناقله الجمهور من عهد العثمانيين، ويختزن الكاتب في ذاكرته منها محصولاً وافراً». ونقل بطّي عن ياسين الهاشمي قوله: «ان نوري ثابت خير من يصف أخلاق المجتمع وأهله وصفاً فيه الإجادة كلها والعبرة البالغة».

جبل نوري ثابت على روح فكاهية أصيلة، وتأثر بكتاب الأتراك الهزليين تأثراً بليغاً. وعني بالمأثورات والحكايات الشعبية العراقية فوعاها وحلّل ما تنطوي عليه من تهكم لاذع وحكمة فطرية.

ولقد أثر تأثيراً عميقاً في الجيل العراقي الذي كان يقرأ كتاباته بلهفة واشتياق. وإذا كان أكثر الكتاب يحاولون رفع القراء إلى مستواهم، فإنّ نوري ثابت وأمثاله من الكتاب الشعبيين يحاولون أن ينزلوا بأدبهم إلى مستوى العامّة ليؤدّوا رسالة التثقيف والتهذيب التي اضطلعوا بها. وكذلك وفّق «حبزبوز» للتغلغل في المحافل الشعبية وابلاغ آرائه الإصلاحية إلى مختلف الطبقات.

وقد قال جميل صدقي الزهاوي في تحية جريدة حبز بوز:

الهزل في الكلام ... كالملح في الطعام
قليله كثير ... ومرّه نمير
ربَّ عتاب حمد ... وربّ هزل جدّ
طرائف الهزال ... كالدرر الغوالي...

وروى عبد القادر المميّز الكاتب الهزّال صاحب جريدة «أبي حمد» وصديق نوري ثابت الأمين أنه أبلغ تلفونياً في ليلة من ليالي الشتاء القارسة نبأ وفاته، فهرع إلى داره ووجده جالساً يطالع في ديوان المتنبي. فحياه وقبّله وعاتبه عتاباً مراً على هذه الدعابة القاسية، فأجابه نوري ثابت:

كان رفيق خالد بك من كتاب الأتراك المعروفين، نال منصب الوزارة. ثم تقوّض عرش آل عثمان وهرب بقية الخلفاء والسلاطين وأرباب الدول، فلجأ صاحبنا إلى مدينة حلب وأنشأ فيها جريدة تركية. ورأى أن يداعب الجرائد التركية فأبرق إليها ينعى نفسه بتوقيع بعض أصحابه، فخرجت الصحف في الغداة تؤبّنه وتشيد بذكره وتطري مواهبه. ورأى في حياته كيف يكون منعاه بعد موته.

قال نوري ثابت لصاحبه المميّز: وأنا أيضاً دبّرت هذا النعي التلفوني لأقف على موقعي من نفسك!

ولقد أشاع المرجفون موت الشاعر الشعبي عبّود الكرخي فخاطبه معروف الرصافي قائلاً :

أشــــاعـــــوا نعّيك من غيظهـم	يـــريـــدون للشعــر مـــا لايـــريـــد
ولما تبّين إخفــــــــــاقهـم	لـــدى لنّـاس عـــادوا بغيظ جـديـــد
فعش وادعـــــاً رغـم آنـــــافهـم	بعمـــر جـــديـــد وعيش رغيـــد

قال مهدي مصطفى القزّاز ان نوري ثابت كان ضابطاً مقداماً في الجيش العثماني ينافح عن قوميته وبلاده ويعمل سراً وجهاراً على رفع شأن الأمة العربية وتعزيز مكانتها . . ويوم أن كان مدرساً في المدارس الأهلية والرسمية في العراق يهذب ناشئة البلاد ويسدّد خطواته نحو المجد والسؤدد باثاً في نفوسهم روح الاقدام والفضيلة. ولقد كانت له من تجاربه في الجيش خير عون على قيادة الطلاب نحو الاقبال على الدرس وارتشاف مناهل العلم. . . ولما كان بطبعه رياضياً فذاً فقد بثّ هذه الروح في نفوس طلابه، فخلق منهم شباباً قوياً جريئاً مقداماً ممتلئاً فتوّة ونشاطاً. . . وقد سماه بعض زملائه المدرسين «معلم عقل وبدن».

ثم أشار القزاز إلى حبزبوز الصحفي فقال انه اكتسب محبة الجماهير لأنه كان يكتب بلغة يفهمها الجمهور، باللغة الدارجة على الألسن وفي البيوت والمجتمعات ونوادي السّمر خالية من التكّلف وممزوجة بروح الدعابة والهزل والفكاهة ومطعّمة بالنقد اللاذع والتهكم المرّ، متناولة لما يجري من أوضاع في البلاد من سياسة واجتماع وأخلاق وأحداث كانت الدهماء من أبناء الشعب لا تعرف عنها شيئاً إلى أن صدرت جريدة «حبز بوز» فأخذت تنقلها اليهم بلغتهم الدارجة وأحاديثهم العادية مقدمة لها بمقدمة فكاهية تفهمها العامة وتعرف المقصود منها. . .

ميخائيل تيسي

ميخائيل نجاتي بن يوسف تيسي الكاتب الناقد الهزلي المعروف باسم «كنّاس الشوارع»، ولد في بغداد في ١٢ آب ١٨٩٥، ودرس في مدرسة القديس يوسف، وعمل في التجارة. ووظّف في تموز ١٩١٨ مترجماً بنظارة المالية، ثم نقل إلى دائرة الاوقاف فوزارة الدفاع.

أخذ بكتابة نقدات اجتماعية في جريدة الرافدين ودجلة باسلوب فكاهي، وسرعان ما ابتكر لنفسه أسلوباً هزلياً خاصاً مطعماً بالعبارات العامية والحكايات الشعبية لقي رواجاً من القراء، فكان ميخائيل تيسي من روّاد الصحافة الهزلية في العراق. وأصدر سنة ١٩٢٢ كتاب «ماهيّة النفس وروابطها بالجسد» أحدث ضجة

في المحافل الدينية . وأصدر جريدة اسبوعية هزلية باسم «كناس الشوارع» في أول نيسان ١٩٢٥ ، ثم اغلقهـا بعد اطلاق النـار عليه واصـابته بجـرح خفيف . وانشأ في تشرين الاول ١٩٢٦ سلسلة روايات باسم «مرآة الحال» ، ثم أصدر في ١٧ كانون الاول ١٩٢٦ جـريدة اسبـوعية ادبيـة اجتماعيـة مع حسين الرحّـال بـاسم «سينما الحياة» ، فلم تـدم طويلاً .

وعاد ميخائيل تيسي إلى الـوظيفة مديراً لناحية تلكيف (١٩٣١) فقـائممقاماً لقضاء الشيخان (حزيران ١٩٣٢) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (شباط ١٩٣٤) حتى فصل من الخدمـة في شبـاط ١٩٣٦ . وعـاوده الحنين إلى الصحـافة فأصـدر جـريـدة اسبوعية جديدة باسم «النـاقد» (٦ ايار ١٩٣٦) وظلّ يصدرها إلى ٢٦ شباط ١٩٣٩ ، وكانت تجمع الجدّ إلى الهزل وتعنى بالإصلاح الاجتماعي والسينما والمسرح وغير ذلك من الشؤون .

ووظف بعـد ذلـك مميـزاً في دائرة الإذاعـة (آذار ١٩٤٢) ونقل إلى الـديـوان الملكي وأصبح مديراً فيه في تشرين الاول ١٩٤٩ ، واعتزل الخدمة سنة ١٩٥٧ . وتوفي في كانون الأول ١٩٦٢ في بغداد . وقـد جمعت طـائفة من مقـالاته الانتقـادية في كتـاب «نقدات كنّاس الشـوارع»صدر منـه ٥ أجزاء (١٩٢٢ ــ ٢٦) . وألف روايـة «ضحية العـدالة» (١٩٢٩)الخ .

قال رفـائيل بطي في محـاضراتـه عن الصحافـة في العراق : «سألتـه يومـاً : لـماذا اخترت «كنـاس الشوارع» اسماً قلمياً لك؟ فأجابني : أردت أن أختـار شخصية آدميـة كثيرة التجـوال في شرايين المدينـة وقلبها ، دوّارة تقترب مـن الأبواب وتدخـل البيـوت ، بيـوت الفقراء وقصـور الأغنياء ، فلم أجـد خيراً من كناس الشـوارع . ثم وددت ، واني أعتـزم الانتقـاد والحملة على العـادات والنواقـص في النـاس والمجتمـع ، أن اختـار اسماً يـوافقـه حمـل سـلاح للتهـويش والضـرب ، ولسميّـي مكنسة مشهرة دائماً يحملها على كتفـه ويكنس بها وينظف ، وقـد يستخـدمها للضرب والـدفـاع عن النفس عنـد الحاجة» .

ثم يقول :

«وتـدور أكثر مـلاحظـاته حـول النظـافة ووجـوبها ، والتشنيع بحـركات الآخـرين وأصواتهم المزعجة ، وفضح جيـل الباعة والدوارين ، ثم تنبيـه بعض الدوائر الحكوميـة ولا سيما البلـديات إلى مـا هـو من واجباتها مـن تنظيف وانارة الطـرق وتجفيف البرك في الشـوارع . ويعمد كنـاس الشـوارع أحيانـاً إلى النقـد الأخلاقي والاجتماعي ، فيعـرّض بـالعادات السيّئـة والطبع اللئيم ، ويصف أمـراض الحيـاة والبيئـة ومساخـرهـا وحيل النسوان وبلادة الرجال ـ وبتعبير محكم ـ الأزواج .

«وكتابات هذا الكاتب الهزلي طراز لتفكير طبقة كبيرة ممّن أصابوا حظاً من التعليم. ومع أنه يجيد الفرنسية ويحسن الانكليزية فلم يعنَ أن يسلك طريقة أحد الكتاب الفرنسيين أو الانكليز الهزّالين، بل اهتم بأن يفكر ويستوحي من الجوّ المحلي. وهذا سرّ اقبال الجمهور على قراءته..»

خلف شوقي الداودي

ينتمي إلى قبيلة الداودة الكردية التي تقطن في لواء كركوك، وكان أبوه أمين ضابطاً في الجيش التركي، وقد ولد خلف شوقي في بلدة الديوانية سنة ١٨٩٨، وقضى سني صباه في الحلة. ثم جاء إلى بغداد وانتمى إلى دار المعلين، وجنّد ضابطاً احتياطياً في اثناء الحرب العظمى، فحارب في جبهة العراق. وأسره الانكليز فاعتقلوه في الهند، وهيّء له فيها تعلّم اللغتين الانكليزية والهندية، إلى جانب التركية والفارسية والكردية التي عرفها في بلاده.

عاد إلى العراق فانخرط في سلك الوظيفة في ايار ١٩١٩. وعمل بعد ذلك في الصحافة، فكان محرراً في جريدة الاوقات العراقية في البصرة. وأصدر في تلك المدينة مجلة باسم «شط العرب» (كانون الثاني ١٩٢٣)، فلم يصدر منها سوى عدد واحد. وحرّر بعد ذلك في جريدة الاوقات البغدادية، وأصدر جريدة «شط العرب» في بغداد في آذار ١٩٢٤، فدامت نحواً من ستة أشهر.

عيّن مترجماً في وزارة المالية فمفتشاً مالياً (تشرين الأول ١٩٢٦) فسكرتيراً مالياً لوزارة الاقتصاد والمواصلات (حزيران ١٩٣٥) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (كانون الثاني ١٩٣٨). وتوفي ببغداد في ٢ شباط ١٩٣٩.

كان خلف شوقي ميالاً إلى الدعابة والفكاهة منذ صباه، فلا عجب أن أصبح كاتباً هزلياً فكهاً ينتقد المجتمع العراقي انتقاداً ساخراً لاذعاً. أما اسلوبه الكتابي فكان، كما قال جعفر الخليلي، اسلوباً صحافياً قليل الغور، لكنه مطبوع بطابع جذاب فيه الشيء الكثير من الحلاوة والمتعة على الرغم مما يعتوره من المآخذ اللغوية والنحوية. وكتب قصصاً جمعها في كتاب باسم «سفينة نوح» نشر بعضها في مجلة الهاتف النجفية وحال موت المؤلف دون طبعها.

وله مؤلفات أخرى، منها: قصص مختارة من الأدب التركي (١٩٣٦) الفلقة (١٩٣٨)، قضية فلسطين (مجموعة مقالات مترجمة، ١٩٢٤)، نقدات الملا نصر الدين (١٩٢٣) وساوس السلطان عبد الحميد (مترجم)، زاد المسافر (رسالة تاريخية للشيخ فتح الله الكعبي، حققها ونشرها سنة ١٩٢٤)، ذكرى سعد زغلول (١٩٢٧).

ومن مصنفاته المخطوطة: مائة فكاهة وفكاهة، حقيبة الداودي، الخ.

قال جعفر الخليلي مشيداً بأثر خلف شوقي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً»:

«وبالاجمال فإنّ خلف شوقي من أوائل روّاد القصة العراقية الحديثة ومن الذين انفردوا بنوع خاص منها، لا من حيث امتزاجها بالفكاهة فحسب، وإنما من حيث جوهرها وسبكها وكونها قصصاً تحوم حول ذاته على الغالب». وأشار إلى النقص الفني، حسب رأيه، في هذه القصص فقال إنه الإطالة أو الإيجاز في غير مواقفهما، وعدم مراعاة الخبن الفني الذي تقتضيه قواعد القصة ووضع الحوار. . وقال: إن الداودي قد وفّق في الكثير من قصصه توفيقاً غير قليل من الناحية الفنّية.

مريم نرمة

الصحفية مريم نرمة بنت رفائيل يوسف رومايا، ولدت ببغداد في ٣ نيسان ١٨٩٠ ودرست في مدراسها. وقد أخذت تكتب المقالات الاجتماعية في الصحف بعد الحرب العظمى الاولى ومارست التعليم. واقترنت بمنصور كلّوزي الموظف في دائرة الكمارك والمكوس، ولم تنجب ولداً.

أصدرت صحيفة «فتاة العرب» في ايار ١٩٣٧ وواظبت على إصدارها نحواً من ستة أشهر. وقد أخبرني يوسف يعقوب مسكوني أنه ساعدها في تحرير صحيفتها. وعاشت بعد ذلك في عزلة هادئة، لكن أقيم لها في ايار ١٩٤٥ احتفال في ذكرى اليوبيل الفضّي لمشاركتها في النشاط الأدبي. وكرّمتها وزارة الإعلام العراقية سنة ١٩٦٩ بأنها من رائدات الصحافة النسائية، وذلك في أثناء الاحتفال بمرور مائة سنةعلى الصحافة العراقية وصدور جريدة الزوراء.

توفيت مريم نرمة ببغداد في ١٥ آب ١٩٧٢. واسمها «نرمة» كلمة فارسية تعني «لطيفة».

كانت مريم نرمة في مقدمة الداعيات إلى نهضة المرأة العراقية وتعلمها. وقد كتبت سنة ١٩٢٤ مقالاً في مجلة المصباح البغدادية بعنوان «العيشة الزوجية». قسمتها هذه العيشة إلى قسمين: هنية وشقية. وقالت ان العيشة الهنية ترتكز على الحب والطاعة والعفة والصفات المحمودة والاخلاق الحسنة. وقالت ان سعادة الزواج تكون بالمحبة واتحاد الزوجين بقلب واحد ونفس واحدة. وصاحب الأخلاق الراقية يجب ان يكون معلماً حاذقاً ومدبراً نشيطاً لزوجته يجد ويجتهد لاعالة زوجته واولاده.

وارتأت أن تكون الزوجة تلميذة ذكية فطنة تسمع نصائح زوجها وتنفذ أوامره، وتقوم بجميع أعمال منزلها وتربي أولادها خير تربية وتمارس طرق الاقتصاد لتكون زوجة صالحة وأماً فاضلة.

ووصفت الشقاء الـزوجي وما يلابسـه من القسوة والشراسة والعجـرفة ، ولا سيما في العوائل التي قـامت على الزواج طمعـاً بالمهـور العالية أو شغفـاً بالجمال الـزائل والمحبة الفاسدة . ولم تبخل الكاتبة في نهاية الأمـر بنصائحها في الزواج وتكوين الأسرة الصالحة القائمة على الأخلاق والحب والفضيلة .

يوسف هرمز

من رجال الصحـافة يوسف هـرمز جَمُّو ولد في بلـدة تلكيف سنة ١٨٩٢ وعمل في الزراعة والحيـاكة . وقدم إلى بغداد سنـة ١٩١١ ، ثم رحل إلى البصرة ودرس في المدرسة الأميركيـة (١٩١٥) . وفي سنـة ١٩١٧ عيّن معلماً في نفـس المدرسـة فمارس التعليم ١٦ عاماً .

أصدر جريدة «صوت الشعب» في البصرة (١٩٣٥) ثم نقلها إلى بغداد وواظب على اصدارها أعواماً طويلة .

وقد توفي سنة ١٩٦٥ في بغداد بحـادث سيارة . ألف كتباً منها : الضعفاء (١٩٢٧) آثـار نينوى أو تـاريخ تلكيف (١٩٣٧) ستـة أشهـر في أميركة (١٩٤٨) . وتـرجم عن شكسبير «الضلالة» و«الكيل بالكيل» .

عبد القادر المميّز

من كتّاب الصحـافة الهزلية ، لازم نـوري ثابت (حبزبوز) أعـواماً طويلـة وسار على نهجه في كتاباته الفكاهية ونقداته الاجتماعية .

وهو عبـد القادر بن عبد الـوهاب بك بن عبـد القادر المميّز بن محمـد صالح بك . ينتمي إلى أسرة بغداديـة معروفة تتـولّى أوقاف عادلة خـاتون بنت أحمد باشـا والي بغداد وزوجـة الوالي سليمان بـاشا المتـوفّاة سنـة ١٧٦٧ . وكان جـدّ الأسرة ابراهيم المميـز من موظفي الدولة العثمانية .

ولد ببغداد في نحو سنة ١٩٠٠ ، ودرس في المدرسـة السلطانية على العهد العثماني . وعمل في الحكومـة العراقية مـوظّفاً مالياً ، وتنقّل في الألـوية ، حتى اعتزل الخدمـة سنة ١٩٣١ . ثم أصدر جريدة فكاهية في بغداد باسم «أبو حمد» (١٩ تشرين الاول ١٩٣٣) وظلّ يصدرها أعواماً .

أدركته الوفاة في بغداد في ١٢ تشرين الاول ١٩٥٤ .

يوسف رجيب

الصحفي الأديب يوسف بن حمود بن مهدي رجيب ولد في النجف سنة ١٩٠٠ من أسرة خفاجية متواضعة. وكان والده عطاراً، وقد توفي ويوسف طفل يحبو إلى الرابعة من عمره، فكفله عمه ناصر. مال إلى الدرس صغيراً، فأكبّ على تحصيل اللغة والأدب وواظب على المطالعة حتى كوّن لنفسه ملكة أدبية ومقدرة كتابية. وقد استهوته الآراء الإصلاحية والافكار الحديثة، فلما أسست مدرسة الغريّ سنة ١٩٢١، انتمى يوسف رجيب إلى قسمها المسائي ارواء لظمأ العلم في نفسه. وقد قال حسن الأسدي فيه: «وعاش ثورة النجف على الأتراك في عام ١٩١٥، وثورتها على الانكليز في عام ١٩١٨، وأحداث الثورة العراقية الكبرى على الانكليز في عام١٩٢٠ والتي كانت النجف مركزها الرئيسي، عاش كل هذه الأحداث، وهو يجمع بين عمله المعاشي في دكان العطارة، وبين دراساته الأدبية وتتبّعاته الثقافية في الصحف والمجلات».

وأصدر في نيسان ١٩٢٥ جريدة اسبوعية باسم «النجف» فواصل إصدارها نحواً من سنتين، وكان في الوقت نفسه يقوم بالتدريس في مدرسة الغريّ.

وترك النجف إلى بغداد سنة ١٩٢٧، وعيّن مدرساً في المدرسة الحسينّية. وشارك في تحرير جريدة «الزمان» التي ربطته أواصر الصداقة بصاحبها ابراهيم صالح شكر. ثم عهد إليه برئاسة تحرير جريدة «النهضة العراقية» التي أصدرها حزب النهضة في آب ١٩٢٧.

واضطرته الحاجة بعد ذلك إلى قبول وظيفة مفتش استهلاك في الهندية والمسيّب (١٩٣٤) فمدقق ماليّ. وقد أوفد إلى سوق الشيوخ، فلما وقع التمرّد فيها سنة ١٩٣٥، اعتقل يوسف رجيب وأحيل على المجلس العرفي في الناصرّية. ثم أطلق سراحه وأعيد إلى الوظيفة منقولاً إلى الفلوجة، ونقل إلى بغداد سنة ١٩٣٨، وعيّن ملاحظاً للرسائل في ديوان وزارة المعارف. ثم عيّن ملاحظاً في المفوضية العراقية بدمشق سنة ١٩٤٥. وأصيب بالسّل فدخل مصح ظهر الباشق في لبنان، وقضى نحبه فيه في ٨ حزيران ١٩٤٧.

كان كاتباً سياسياً واجتماعياً لطيف الأسلوب وجندياً مجهولاً من جنود الصحافة العراقية في سنوات العشرين. وألف قصة «المهادي الشمري» (١٩٤٢).

رثاه الشاعر عبد الحسين الأزري فقال:

قـــابلتُ نعيك مــن ربـــوع الشّـــام | في مقلـــــــــــة عبرى وقلــبٍ دام
أنكـــرتُ مــن جــزعي عليـك سماعـــه | وظننتــــــــه مــن مُــــــرجـفٍ نمّام
ولَبِثْتُ بين مصـــــدّق ومكــــذّب، | والنفـس تغـــــري الشك في إيهامـي . .

حتى يقول :

نم هـــــادئاً، إنّ المنيـــة فُـــرجـــةٌ | تُحمـى الأبـــــاة بها مـن الإرغـــــام
مــــا قيمـــة الـدنيـــا إذا جبلت على | أن لا يعيـش الحرّ غير مُضـــــــام؟
مــــا العمـــــــر الاّ فترةٌ محدودة، | يـــــا ليتهـــا لـــو تنقضي بســـلام

محمد طه الفيّاض

محمـد طه الفيـاض العـاني ينتمي إلى قبيلـة المشاهـدة الحسينيـة، ولـد في عنة سنـة ١٨٩٨، ودرس على والده وفي المدارس الرسمية. وعيّن أميناً لصندوق البلدية، ثم جاء إلى بغداد سنة ١٩١٥ وولج دار المعلمين. وأخذ إلى الاستانة حيث أدخل دورة عسكرية منح على أثرها رتبة نائب ضابط.

اشترك في الحرب العظمى في صفـوف الجيش التركي، فـرفّع ملازمـاً ثـانيـاً وشهـد معـارك الحجـاز وفلسطيـن. وأسره الانكليز فـاعتقلوه في مصر، حتى إذا مـا عقـدت الهدنة أخلي سبيله وعـاد إلى مسقط رأسه عن طريـق البصرة. وعمل كاتباً لناحية عنة، ثم شخص إلى البصرة حيث مـارس التجـارة وعني بـالشـؤون الـوطنيـة والاسلاميـة، فاشترك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهدايـة الإسلاميـة وجمعية الدفاع عن فلسطيـن. وأبعـد إلى اربيـل في حـوادث سنة ١٩٣١، ثـم عاد إلى البصـرة واستأنـف نشاطـه. واقتحـم ميـدان الصحافـة، فأصدر مجلـة الشبـان المسلميـن سنة ١٩٣٤، وشفعها عنـد اغلاقهـا بمجلة صـدى الشبـان المسلميـن وصـوت الشبان المسلمين. وأنشأ جريـــدة السجّل اليوميـــة سنـة ١٩٣٧، وكـــانت مـن الجرائـد السياسيـــة الإسلاميـة.

وجاء بعـد ذلك إلى بغداد فأصدر جـريدة اللـواء، ثم اعاد اصدار جـريدة السجل (تشرين الاول ١٩٤٦). وبعد نشوب ثورة تموز ١٩٥٨ أنشأ جريدة «الفجر الجديد» في كانون الثاني ١٩٥٩.

وفي آذار ١٩٥٩، بعـد انهيـار تمرّد العقيـد عبـد الوهـاب الشوّاف في الموصـل، هاجم الجمهور مكتب جـريدته ومكاتب جريدة اليقظـة وغيرها وحطمت مطابعهـا. ثم أعاد طه الفياض إصـادر جريـدة «الفجر الجديد» بعد انحســار المدّ الشيوعـي في تموز من تلك السنة.

وانتخب نقيباً للصحفيين في حزيران ١٩٦١ خلفاً لمحمد مهدي الجواهري وأعيد انتخابه في نيسان ١٩٦٢ .

أدركته الوفاة في بغداد في أواخر تشرين الاول ١٩٦٤ بعد جهاد صحفي طويل .

من مؤلفاته : صولة الحق على جولة الباطل ، اللغة العربية رابطة الشعوب الإسلامية (١٩٣٥) الاعصار الشديد في تنفيذ سياسة السعيد (١٩٥٦) الظلم لا يدوم (١٩٥٩) عدوان الانكليز على واحة البريمي (١٩٥٥) كيف تحارب الشيوعية الخ .

عبد القادر السيّاب

من رجال الصحافة ، ينتمي عبدالقادر السيّاب إلى أسرة عربية من عشائر ربيعة نزحت إلى البصرة منذ عهد عهيد . وهو ابن الشيخ سيّاب المرزوق ، ولد في أبي الخصيب في نحو سنة ١٩٠٠ وأتم دراسته الثانوية في بغداد .

انتمى ، وهو شاب ، إلى الحزب الوطني العراقي وأصدر صحفاً أدبية مع أحمد جمال الدين كجريدة الحوادث (آذار ١٩٣٠) . ثم انفرد باصدار جريدة الناس اسبوعية مصورة (كانون الثاني ١٩٣١) . وأصبح في شباط ١٩٣٢ سكرتيراً لتحرير جريدة بهلول التي احتجبت سريعاً .

وعاد إلى البصرة فأسّس فرعاً للحزب الوطني في أبي الخصيب ، وبعد ذلك في مدينة البصرة ، ثم أسس فرعاً لحزب الاخاء الوطني فيها . وأعاد إصدار جريدته «الناس» سياسية يومية في البصرة (١٩٣٥) فعطّلت واعتقل صاحبها مراراً . وأبعد إلى كويسنجق في كانون الاول ١٩٣٨ مع فريق من رجال السياسة والشباب الوطني .

وقد انتخب نائباً عن البصرة في حزيران ١٩٣٩ إلى حزيران ١٩٤٣ . وأصدر جريدة «الجهاد» (نيسان ١٩٤١) ، ثم اعتقل خلال الحرب العالمية الثانية وأبعد إلى الفاو والعمارة . وأعاد إصدار جريدة الناس أعواماً طويلة ، وتولّى بعد ذلك إصدار جريدة «الحياة» .

أدركته الوفاة بالبصرة في ٢٠ شباط ١٩٧٠ .

محيي الدين أبو الخطّاب

محيي الدين الشيخ شهاب المعروف بـ «أبي الخطّاب» ، الصحفي الحقوقي الأديب ، ولد بالموصل سنة ١٨٩٦ . وتخرّج في دار المعلمين سنة ١٩١٥ ، وألحق بمدرسة ضباط الاحتياط خلال الحرب العظمى فمنح رتبة ملازم ثانٍ في الجيش التركي .

ودرس بمدرسة الحقوق في بغداد فنال اجازتها سنة ١٩٢٦ ، وزاول المحاماة . ثم أصدر جريدة «الأديب» الاسبوعية في الموصل سنة ١٩٣٤ ، فثابر على إصدارها وجعل اسمها «الرقيب» (١٩٦٣) .

توفي في مسقط رأسه سنة ١٩٧٠ . وكان أبو الخطاب ظريفاً حسن الدعابة . وله مطارحات أدبية مع شعراء عصره ولا سيّما محمود الملاح الذي نظم فيه شعراً كثيراً على سبيل التفكهة . وداعبه عبد الجبار الجومرد يوم أصدر جريدته «الأديب» فقال :

لم يكن كـاتبـاً أبـو الخطّـاب	بل طبيب الأرواح والألبـاب
الكسـائي يستقي النحـو منـه	والحريـريّ واقف بـالبـاب

قال الدكتور أكرم فاضل : سئل عن علة وقوف الحريري بالباب فأجاب : لقطع التذاكر.

حدثني الدكتور أكرم فاضل قال : كنت ، قبل أن أشدّ الرحال إلى باريس وأحصل على شهادة الدكتوراه في القانون ، كاتباً في محاكم الموصل ، فعرفت المحامي محيي الدين أبا الخطّاب الذي كثيراً ما كان يترافع أمامنا . وجاءني في يوم من أيام الربيع قبيل الظهر وقال لي : أتخرج معي في نزهة خلوية إلى ظاهر المدينة حيث العشب العطر والزهور والرياض؟ قلت : ولكن كيف أصنع وأنا مقيّد بالدوام؟ فذهب إلى الحاكم واستأذن لي بالخروج .

وكانت سيارة فخمة في انتظارنا عند باب المحكمة ، وفيها شاب وسيم من أبناء العشائر يرتدي حلة أنيقة من ثوب وعباءة وكوفية وعقال . فامتطينا سيارته ، ومضى بنا بأمر من أبي الخطاب إلى السوق ، فاشترى أطيب المأكولات والفاكهة .

وقال الشاب : والآن هل نذهب إلى حيّ العرب لأداء مهمتنا؟ فأجاب أبو الخطاب : بل نمضي أولاً إلى ضفاف دجلة حيث الماء والخضراء لنتناول الطعام ونتمتع بأفياء الربيع ، ولدينا بعد ذلك متّسع من الوقت لانجاز العمل الذي أوكلته إليّ .

وكان الكلأ يمتّد بساطاً أخضر يصل الأفق بالنهر الرقراق . فجلسنا ، ساعة وبعض ساعة نأكل ونشرب ، وأبو الخطاب يقصّ علينا ما لذّ وطاب من نوادره وأخباره مرصّعاً قصصه بالأمثال والأشعار.

ثم ركبنا السيارة واتجّه الشاب إلى البّر حتى بلغنا بعد لأي حياً من البدو يخيمون في الأرض الملساء . ووقف بنا على مبعدة من الخيام ، ونزل أبو الخطاب يتبعه الشاب وسارا يقصدان مضارب الأعراب ، وصاحبنا المحامي يتلكأ في سيره ، ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى ويتلفّت إلى الوراء ، والشاب يستحثّه ويستعجله . وسرعان ما نبحت الكلاب وخرجت نسوة من الحيّ لاستطلاع الخبر، ثم تبعها الرجال والاولاد ، ورأوا أبا الخطاب

يأتي اليهم فتقدموا نحوه، ولم يروا صاحبه الشاب وراءه حتى علموا مغزى الزيارة، فصاحوا بالقادمين: ما لكم ولنا تجيئون إلى بيوتنا وتقلقون راحتنا؟ وأمطروهما بوابل من الشتائم وحصبوهما بالحصى والحجارة. وعاد أبو الخطاب أدراجه يجري كالكتيبة المهزومة، ولا تكاد تحمله رجلاه، والشاب يسير خلفه ويقول بأعلى صوته: انّ مقصدنا شريف، ولا غاية لي الا الزواج على سنة الله ورسوله!

بيد أنّ الكلاب بادرت بالهجوم وهي تنبح نباحاً مخيفاً، ووراءها الرجال والنساء يقذفون الشتائم ممزوجة بالحجارة. فجرى أبو الخطاب وصاحبه، ولم يصدّقا أن دخلا السيارة التي انطلقت تسابق الريح.

ولما ارتاح أبو الخطاب وسكن جأشه وهدأت نبضات قلبه، قلت: يا أستاذ، ما هذا المشهد المثير بعد تلك النزهة اللطيفة والغداء اللذيذ؟

فقال ضاحكاً: أنا وكيل هذا الشاب المترف النبيل. لقد رأى جارية حسناء من جواري ذلك الحيّ فشغف بها حباً، وخطبها الى أهلها فردّوا طلبه. وقد وكلني، وأنا المحامي المِدْرَه والخطيب المفوّه، لأقنعهم بمصاهرته، فرأيت من أمرهم ما رأيت.

قال أكرم فاضل: وكان ذلك آخر عهدي بنزهات أبي الخطاب.

كان أبو الخطاب أكولاً، وكأنه ذلك النهم الذي وصفه ابن الرومي في شعره الرائع. قال توفيق السمعاني:

جاء أبو الخطاب يوماً الى بغداد، فلما قضى أشغاله وودّع أصحابه، قال لي: إنني أزمع العودة مساء اليوم بالقطار، فأحضر لي عشاء يشبعني وأتِ به عصراً الى الفندق لتأخذني بسيارتك الى المحطة، وذلك أقلّ ما يقوم به الصديق. قلت: على العين والرأس.

أخذته الى المحطة قبل موعد قيام القطار، وقد أحضرت زنبيلاً كبيراً فيه عدد من كبّة الموصل يكفي لعدة أشخاص، مع الفاكهة وغيرها. ووصلنا الى المحطة مبكّرين، فاقترح أبو الخطاب أن نجلس في المقهى ونلعب النرد ريثما يحين موعد السفر. وقال: أين زاد الطريق؟ فجلب السائق زنبيل الطعام ووضعه عند قدميه.

وأخذ أبو الخطاب يرمي الزهر ويتناول شيئاً من الزنبيل ويضعه في فمه، وهو يواصل اللعب. ولم نسمع صافرة القطار حتى كان صاحبنا قد أتى على كلّ ما في الزنبيل من كبّة وفاكهة. فدفع بالنرد جانباً وقال ضاحكاً: خذ زنبيلك، يا رجل. وسنمضي الليلة جائعين، سامحك الله وأغدق عليك!.

***

قلتُ: جاءني أبو الخطاب يشتري سيارة من طراز «شفروليت»، فألحّ في طلب السماح وتخفيض السعر. وقال: ليست هذه السيارة لي، وإنما هي لمساكين الموصل

وأيتامها وأراملها! قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنني سأقف في شوارع الموصل صباحاً ومساءً وأنقل بها الضعفاء وأبناء السبيل مجاناً لوجه الله تعالى.

وابتاع السيارة بسعر متهاود وشروط سمحة، فأنشأ في جريدته «الأديب» مقامة يصف فيها السيارة وشراءها على طريقة الحريري وبديع الزمان.

وقد قلت فيه مداعباً:

أبـو الخطـاب، يـا نعم المحـامي!	أبـو الأيتـام والـرّهـط الصِيَـام
أديب كـاتـب فـذ خطيـب	لـه في الصُحُف مـرمـوق المقـام
رؤوف بـالمسـاكين الأيـامَى	وخصـم المعتـدين من اللئـام
قنـوعـاً زاهـداً تلقـاه حقـاً	وطمّاعـاً لإسعـاد الأنـام
فبـاسم العطـف قـد «ضرب» الأراضي	ليبـذل مـالـه بـذل الكـرام
فـإنّ المال أودع في يـديـه	لكـي يحبـو الأرامل بـالطعـام
ويـركب مـركبـاً رهـواً سريعـاً	فيحمـل من يـدبّ من الطَّغـام
ويـأكـل مـأكـلاً دسماً وفيراً	لـيـدمـغ آكلي السُّحْت الحرام
يـوافي الأصـدقـاء بغير وعـد	ويبـدي الـودّ رعيـاً للـذمـام
ويشكـر نعمـة البـاري عليـه	فيلتهـم الطعـام مـع الإدام
ويقضي بين أصحـاب القضـايـا	قضـاء مقسّط سلس الكـلام
يـريـد رضـاءهـم ليفـوز منهم	بـأجـر بـزّ تَهْطـال الغمام
وتلك خصـالـه: كـرم وبـرّ	وإفشـاء المروءة والسـلام

إبراهيم الجلبي

من رجال الصحافة إبراهيم بن محمود بن عبد الرحمن الجلبي، ولد بالموصل سنة ١٨٨٢، وبدأ عمله الصحفي سنة ١٩٣١ في جريدة «العمال» لصاحبها سعد الدين زيادة. وأصدر جريدة «فتى العراق» سنة ١٩٣٤ وحرّرها ثلاثين عاماً، ثم استعاض عنها بجريدة «فتى العرب» (١٩٦٤).

وأسّس مطبعة «أم الربيعين» واشترك في جمعيات البرّ والإحسان والثقافة في مسقط رأسه. وساهم في تحرير جريدة «الرقيب» التي صدرت سنة ١٩٣٧.

أدركته الوفاة بالموصل في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٢.

شفيق نوري السعيدي

من رجال الصحافة والقانـون شفيق نوري السعيدي ينتسب الى أراضي السُّعَيْدة على نهر ديالى جنوبيّ بغـداد. ولد ببغداد سنة ١٨٩٥ ودرس في مدرسة الحقـوق فتخرج فيها سنـة ١٩٢٣، واتّهم سنة ١٩٣١ بـالاشتراك في قضيـة الرسـائل السريـة في عهد وزيـر الـداخلية مـزاحم الأمين البـاجة جي مع أخـويـه رفيق وجميـل وفاضـل قـاسم راجي وغيرهم.

وقبض عليه في كـانون الثاني ١٩٤٠ إثـر مقتل رستم حيدر وزير الماليـة مع إبراهيم كمال وعارف قفطان وصبيح نجيب الخ، ثم أطلق سراحه. وأصـدر جريدة «الشهاب» اليومية في تموز ١٩٤١، فظلّت تصـدر خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أعـاد إصدارها في تشرين الثاني ١٩٥٢. وكان شعارها:

إنّ الشهـــاب لنــــور يستضـــاء بــــه حينــــاً، وحينـــاً رجـــوم للشيــــاطين

وانتخب نائباً عن لـواء بغداد في نيسان ١٩٤٢ خلفاً لعلي جـودت الأيوبي، ثم أعيد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ الى تشرين الثاني ١٩٤٦.

وقد توفي ببغداد في ٩ تشرين الأول ١٩٥٨.

كان له مجلس حافل يحضره رجال السياسة والصحافة والأدب.

محمد علي البلاغي

من الصحفيين الألمعين، وهـو محمـد علي بن حسن بن مهـدي ينتسب الى أسرة البلاغـي الدينيـة النجفية المتحدّرة مـن جدّها الأعلى الفقيـه المتبحِّر الشيـخ محمد علي البلاغي المتوفى سنة ١٥٩٢م.

ولد محمـد علي في النجف سنة ١٩١٣ ودرس في معاهـدها. وأصدر فيهـا في شباط ١٩٣٢ مجلته «الاعتـدال» الشهرية التي أصبحت مـن مجلات العراق الراقيـة واجتذبت أقـلام أشهـر الكتّاب والشعـراء. واحتجبت المجلـة سنـة ١٩٤١ حين اشتـدّت وطأة الحرب، ثم عادت الى الصدور سنة ١٩٤٦ سنة واحدة.

ترك البـلاغي مجلته بعـد ذلك، ثم لجأ الى ميدان الوظيفـة فعيّن مديـراً لفرع مصرف الرافدين في النجف (تشرين الثاني ١٩٤٩) وأقام في منصبه أعواماً طويلة.

توفي في ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٦.

نـور الـديـن داود

من رجـال الصحـافة نـور الـدين داود سليم، ولـد سنة ١٨٩٨ ودرس في مـدارس بغـداد، ووظّف في دائرة البرق في تشرين الثـاني ١٩١٩. وأصـدر بعـد ذلك مجلّـة «الحديث» (تشرين الثاني ١٩٢٧)، فدامت سنة واحدة.

وعاد موظفاً في مديرية الواردات العامـة، ونقل معاوناً لمدير كمرك بغـداد (حزيران ١٩٣٦). وعيّن مديراً عاماً للدعاية في حزيران ١٩٤١ فنهض بأعباء منصبه أشهراً، ثم أعيد في أواخر تلك السنـة معاون مدير كمرك ومكوس. وأصبح معاونـاً لمدير التموين العام (آذار ١٩٤٢) وعهـدت إليه وكالـة مديـرية وسائل النقل العـامة (آب ١٩٤٢). وكان بعـد ذلك مفتشاً مالياً (شبـاط ١٩٤٣) فمعاون مدير انحصـار التبغ العام (تموز ١٩٤٣).

واعتزل خـدمة الحكومـة فأصدر جريدة «النـداء» اليوميّة (آب ١٩٤٤)، فجـريدة «الرائد» (كانون ثاني ١٩٤٧). وانتخب رئيساً لجمعية الصحفييّن (١٩٤٧).

ألّف كتباً منها: حقوق الإنسان (١٩٤٩) محنة في الفردوس: بلاد كشمير (١٩٥٠) ضحيّة المكائد (١٩٥٠).

توفي ببغداد سنة ١٩٥٥.

إبنته: الشاعرة أميرة نور الدين داود، ولدت ببغداد في تموز ١٩٢٥ وتخرّجت في كلية الآداب بجامعة القاهرة (١٩٤٧). وزاولت التعليـم في المدارس الثانوية، ثم عادت الى القـاهرة ونـالت درجة «الماجستير» في شبـاط ١٩٥٧، وكان مـوضوع رسـالتها «الشعـر الشعبي في منطقـة الفـرات الأوسط». وعيّنـت مـدرسـة في دار المعلمات الابتـدائيـة في بغداد.

نظمت الشعر منذ حداثتها ودرست العروض على صديق والدها الشاعر جميل أحمد الكـاظمي (١٩٠٧ ـ ١٩٧٠). ونقلت الى العـربيـة نظماً «درراً من شعر إقبـال شاعـر الإسلام وفيلسوفـه» (١٩٥١). قالت الشعر في المناسبـات الوطنية والقوميـة، وطرقت أبواب الـوصف والرثاء، وتمسّكت ـ كما ذكـرت صبيحة الشيخ داود ـ بأهـداب المدرسة الكلاسيكية القديمة.

قالت أميرة نور الدين في الربيع:

ربيـع ولكـن الفـــؤاد ملـــوع	وفي العين في إثـر الـدمـوع دمـوع
ربيـع ونـــار الحزن تحرق مهجتي	كما احترقت للسّـامـرين شمـوع
ربيـع وقـد عـزّ التصبر مطلبـاً	وغـادر منّي القلب وهـو جـزوع...
ربيـع ألا ليـت الـربيـع بما مضـى	يعـود ففـي قلبي اليـه نـزوع

وصرّحت أميرة نـور الـدين أنها تـأثـرت بطـه حسين وأحمد أمين والـدكتـورة سهير القلماوي التي أشرفت على رسالة «الماجستير». وقالت، وهي من الشـاعرات الملتزمات بـالشعر العمـودي، إن النتـاج الأدبي الحديث فيـه الغثّ والسمين، وإن التجديـد في الشعر قسمان: مستساغ جيد ورديء ممسوخ. ونصحت من لا تتوافر له الموهبة الشعرية أن ينصرف الى كتابة النثر، ودعت الجيل الصاعـد الى قراءة التراث القديم والإفادة منه. وقـالت إنها لم تتأثر بـالأدب العـالمي إلا في نطاق محدود، لا يتجـاوز تـرجمة طائفـة من القصائد من اللغتين الفارسية والانكليزية.

هذا وقد نظمت أميرة قصيدة في رثاء والدها مطلعها:

أبي، صـــدفت عن الـــدنيـا على عجل   أبي، حنـــانيك قـــد حطّمت لي أملي...

سعد الدين زيادة

من رجال الصحافة والمحاماة والقضاء، أحمد سعد الدين زيادة ابن الشاعر الأديب داود سليمان الملاح المتوفى سنة ١٩١١.

ولد بـالموصل سنة ١٩٠١ ودرس الحقوق وزاول المحـاماة. وأصـدر في مسقط رأسه جريدة «العمال» (أيلول ١٩٣١)، ثم تولى تحرير جريدة «فتى العراق».

وبعد أعـوام طويلة قضاهـا في الصحافة والمحامـاة، انتمى الى سلك القضاء وعيّن مدوّناً قانونياً (حزيران ١٩٤٥). ونقل حاكماً بمحكمة استئناف حقوق الأراضي ببغداد (نيسان ١٩٤٩) فرئيس المنطقة العدلية في لواء ديالى (حزيران ١٩٥٤) فحاكم استئناف التسوية بالموصل (حزيران ١٩٥٦). واعتزل الخدمة بعد ذلك.

يونس بحري

يونس بحري الجبوري المعروف في شبابه بـ«السائح العراقي» كاتب وصحافي ومذيع كثير المغامرات والأسفار، ولد في الموصل سنة ١٩٠٤ لأسرة كادحة رقيقة الحال. وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية في بغداد سنة ١٩٢١، لكنـه لم يكمل دراسته والتحق بوظيفة كتابية في وزارة المالية.

وتـرك وظيفته سنـة ١٩٢٣ ومضى الى خارج العـراق في سياحـة معتمداً على نفسـه وسائراً في معظم الأحيـان على قدميه، فجـاب أنحاء أوروبـة وآسية واشتغل في مختلف المهن. وعـاد الى بغداد بعـد سنتين، لكنه لم يلبث أن عـاود السفر في السنـة التاليـة في البلـدان المختلفـة فسجن في بـاريس وزار تـونس وليبيـا وحضـرمــوت وجـاوة والهنـد

والأفغـان وإيـران ورجع سنـة ١٩٣٣ ، نـاسجاً حـول أسفـاره قصصـاً تمزج الحقيقـة بالخيـال. وأصدر في أثناء سياحتـه، على ما رواه، صحفاً منها «الكـويت والعراق» و «الحق والإسلام».

أصدر في بغـداد جريـدة العُقاب في تشرين الثـاني ١٩٣٣ ، و «الميثاق» (١٩٣٤)، ففرض الأتاوة على التجار والموظفين. ثم سافر الى المغرب العربي سنة ١٩٣٧ ومضى الى باريس فكلفـه السيد قـدّور بن غبريط بتعهد شـؤون الجامع الذي أنشأه فيهـا سلطان مراكش سيدي محمد بن يوسف والمقهى والحمّام الملحقين به.

ولما بـدت سحب الحرب العـالمية ذهب الى بـرلين في نيسـان ١٩٣٩ وأصبح مـذيع محطتها العـربية الـداعية لهتلـر والنازيـة، واشتهر بحماستـه المثيرة وندائه اللاهـب «هنا برلين، حيّ العـرب!» لكنّه أخذ بالدسّ لمفتي فلسطين الحاج محمـد أمين الحسيني تارة ولرشيد عالي الكيلاني الزعيم العراقي أخرى، فأبعد الى بريسلاو مراراً. واندحرت ألمانية النازيـة فاستطاع أن يجد طـريقه الى عمّان بعـد أهوال شديـدة. إلتجأ الى الأمير عبد الله عاهل الأردنّ الـذي طالما نـدّد به وشتمـه من إذاعة بـرلين، لكن الأمير عفا عنـه وأكرم وفادته بما عرف عنه من سماحة وطيبة نفس.

وأقام بعـد ذلك في بيروت وأصدر كتبـاً مختلفة. ثم جـاء الى بغداد في تموز ١٩٥٨ ، فاعتقل عند قيـام الثورة. وأطلق سراحه فعمل طبّاخاً في بعض المطـاعم، ومنها الذي أنشأه عادل عوني عبد الله صاحب جريدة «الحوادث» المغلقة.

وعاد الى لبنان في آخـر سنة ١٩٥٩ وتنقل بينه وبين إمارات الخليـج العربي. وأدركه الحمام في بغداد في شهر نيسان ١٩٧٩ .

تزوج يونس بحري زيجات عديدة في مختلـف البلدان التي أقام فيها، لكنه كان يترك زوجاته وأولاده ويمضي ميمّماً شطر بلد آخر لمغامرة جديدة وزواج جديد.

من مؤلفـاته: العراق اليوم (بيروت ١٩٣٦) تـاريخ السودان (القاهـرة ١٩٣٧) هنا بغداد (١٩٣٨) الجامعـة الإسلاميـة (باريس ١٩٤٨) تـونس (بيروت ١٩٥٥) الجزائر (بيروت ١٩٥٦) الحرب مع إسرائيل وحليفاتها (بيروت ١٩٥٦) دمـاء في المغرب العربي (بيروت ١٩٥٥) ليبيا (بيروت ١٩٥٦) المغرب (بيروت ١٩٥٦) هنا برلين، حيّ العرب (٨ أجزاء، بيروت ١٩٥٦) سبعـة أشهـر في سجـون بغـداد (بيروت ١٩٦٠) محاكمـة المهداوي (بيروت ١٩٦١) موريتانيا الإسلامية (بيروت ١٩٦١) ثورة ١٤ رمضان المبارك (بيروت ١٩٦٣) ليالي باريس (باريس ١٩٦٥) أسرار ٢ مايس ١٩٤١ (بغداد ١٩٦٨) الخ.

عـرفتُ يونس بحـري شخصيـاً لأول مرة سنـة ١٩٣٥ حين شرعنـا بإصدار الـدليل العراقي، فأخـذ يكتب عنه في جريدتـه «العقاب» وصار يهدّد بانتقـاد المشروع والتنديد

بـه . فـاستـدعينـاه ونفحنـاه بالمال وأعطينـاه إعـلانـات عن الـدليل فـانقلب يـؤيـده ويستحسنه .

ثم رأيته في المفـوضية العـراقية في باريـس سنة ١٩٣٧ ، وقد جـاء يفاخـر بأعماله في المشرق والمغرب ويطلب التوسط له في الحصول على وسـام جوقة الشرف الفرنسي . وقال إنه ذهب الى جاوة في الشرق الأقصـى ، (وكانت آنذاك مستعمرة هولنـدية ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية جمهوريـة أندونيسية المستقلة) وشدّ أزر بعض الأحزاب المحلية بالمطالبة بالاستقلال وأصدر جرائد عربية تنطق بلسان الشباب الأحرار . وقال إنه ذهب الى الربـاط وأسدى الخدمات لسلطـان مرّاكش محمد بن يـوسف (الملك محمد الخامس عاهل المغرب فيما بعد) فمنحه وساماً . . . ورأينـاه بعد ذلك في جامع باريس وشاهدناه يضرب على الطبلة وينقر على الدفّ في المقهى ليلاً ويقف في باب الحمام الملحق بالجامع نهاراً . . .

وسمعناه خـلال الحرب يرغي ويزبد ويصرخ ويتـوعد من إذاعة برلين العـربية . ثم رأيناه في بغـداد سنة ١٩٥٩ لابسـاً المئزر في مطبخ مطعم «بـوران» الذي أنشأه صـديقنا الصحفي عادل عوني عبد الله . وكان يونس بحري الـذي عرفناه فيما مضى بديناً موفور الصحة قد رقّ بدنه واستدقّ وأصبح صورة كـاريكاتورية لشخصه السابق . وكان ذلك آخر العهد به حتى قرأنا نبأ وفاته في بغداد أخيراً .

عبد الرزاق الناصري

من رجال الصحـافة والتعليم عبد الـرزاق الناصري ولد بـالبصرة سنة ١٩٠٤ لأسرة تكريتيّـة الأصل نزحت الى جنوب العراق قبـل عهد بعيد . وقد عني والـده الشيخ عبد العـزيز النـاصري بتربيتـه ، ثم مضى الى بغـداد وانتمى الى دار المعلمين العاليـة وتخرّج فيها .

عيّن مدرساً في المدرسة الثانويـة المركزية . ثم أصدر مجلة «النشء الجديد» في البصرة في شبـاط ١٩٢٧ ونقلها الى بغـداد في تموز ١٩٢٨ . وتـولّى بعـد ذلك إصـدار جريـدة سياسية بـاسم «الأيام» ظهرت في البصرة في كانون الثـاني ١٩٣٠ ودامت نحواً من ثمانية أشهر .

وعاد بعد ذلك الى التدريس وكان مديراً للتحـرير بوزارة المعارف فمدرساً في المدرسة الثانوية في مسقـط رأسه . وطلّق التدريس مرة أخرى فاستقـرّ في البصرة وأصدر جريدة «الأنباء» في شهر تموز ١٩٣٦ . وتوفي في البصرة قبل سنة ١٩٤٩ .

كان عبد الرزاق الناصري صديق الشبـاب للشاعر محمد مهدي الجواهري ، ذكره في قصيدته «ليلة من ليالي الشباب» (١٩٢٩) ، فقال :

ومعي صـــاحـب تفـــرّست فيـــه / كـلّ خير فلم تخّني الفَـــراســـة
أريحيّ مـلء الطبيعـــــة منـــــه / عـــزّة وانتبـــاهـــة وســـلاســـه
خـدن لهو. . إني أحبّ من الشـاعـر (م) / في هـــذه الحيـــاة انغماســه. . .

فاضل قاسم راجي

من رجال الصحافة فـاضل قاسم راجي، ولد سنة ١٩٠٤ . ومال إلى الكتـابة شاباً فكـان مخابـراً ومحرراً في جريـدة الاستقـلال وصـدى العهـد والـزمان. وحـرّر أيضـاً في الصحف الأدبية والهزليـة كالمداعب لصاحبهـا حسين يحيى (١٩٢٦) والصراحة لهاشم الرفاعي (١٩٢٨) والصرخة إلخ.

واعتقل سنة ١٩٣٢ بتهمـة التعرّض للحكم الملكي في قضيـة الرسـائل السريّة التي اتهم فيها مزاحم الأمين الباجه جي. ثم رئس تحرير مجلة المرأة الحديثة لصاحبتها حمدية الأعرجي (حزيـران ١٩٣٦)، صدر منها ٨ أعداد، ثم أصـدر بعد ذلك في تلك السنة مجلة فتاة العراق لصاحبتها حسيبة راجي، وظلت تصدر نحو ٤ سنوات، ثم عادت إلى الصدور أمداً قصيراً بعد الحرب العالمية الثانية.

وأصـدر سنة ١٩٤٧ صحيفتـه الهزلية «قـزموز» على نسق جـريدة حبـزبوز وكنـاس الشوارع وأبـو حمد، فكانت من الصحف التي تستهـدف الفكاهـة والنقد الاجتماعي، ودامت إلى ١٩٥٢ . وأصدر أيضاً جريدة الصراع في تموز ١٩٤٨ .

توفي ببغداد في ٢٣ كانون الأول ١٩٥٤ .

قـال هـاشم النعيمي: «لقـد كان رجـلاً طيب القلب هـادئاً لطيف المعشر، وكـان صحفياً مطبوعاً وكاتباً هزلياً قـديراً. وقد ترك بعض الكتب، من بينها: ولدي أسامة، ومذكرات بائس. . . ودنيا الكمال في مملكة الخيال».

وكان بائساً صارع الحياة وذاق شظف العيش وسقط في معركة الداء والحاجة.

خالد الدرّة

من الكتاب الصحفيّين البـارزين، ولد خالد الـدُّرَّة ببغداد سنة ١٩٠٨، ودرس في معهد الحقـوق بدمشق، وتخرّج في كليـة الحقوق ببغـداد (١٩٣٨). وقد زاول المحـاماة وعمل في الصحافة أعواماً طويلة، وأصدر جريدة «الشعلة» سنة ١٩٣٠ .

أنشأ مجلـة «الوادي» سنة ١٩٣٦، وقـد صدرت سنين كثيرة وكـانت من الصحف الهادفة النـاقدة التـي عرفت بنـزعتها الحرة وخطّتها الجريئـة. ثم حـرّر الدرة في مجلات

وجرائد مختلفة منها «العهد الجديد» و «الفلقة» بعد ثورة تموز ١٩٥٨ .

وخالد الدرة من الكتاب الذين ترسّموا خطى إبراهيم صالح شكر في نقداته اللاذعة، ولا سيّما في تحليله للأحداث السياسية والصور القلمية البارعة التي رسمها لرجال السياسة والمجتمع. وهو إلى ذلك كاتب قصصيّ يدعو إلى الإصلاح ويحمل بعنف على الفساد والتقهقر الاجتماعي. قال الدكتور صفاء خلوصي في فصل «أدب القصة في العراق» (دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠): « . . . ولكن يجب أن لا ننسى أن الدرّة متأثر بالطريقة العربية القديمة في كتابة القصص، فطريقته ليست قصصية وإنما روائية على نحو ما نجده في ألف ليلة وليلة. ولذلك لم يعالج الأقصوصة لأنها تحتاج إلى قدرة فنية خاصة تختلف عن القدرة على كتابة الروايات. وكان أكثر ما كتب القصة الطويلة . . . وأبطال روايات الدرة في بعض الأحيان ـ كأكثر شخوص القصص العراقية ـ ليسوا أكثر من دمى تتحرك، ولكنها تفعل الأفاعيل».

من مؤلفاته: لقتل الضجر (١٩٣٥) المشعوذ (١٩٣٧) حول المنهج القومي العربي (١٩٤١) في قفص الاتهام (١٩٤٦) أفول وشروق رواية (١٩٥٣) طبيعة الأشياء (١٩٥٥).

توفي ببغداد سنة ١٩٨٠ (؟).

لطفي بكر صدقي

من رجال الصحافة لطفي بكر صدقي، وأبوه بكر صدقي أخو المؤرخ الصحافي علي ظريف الأعظمي. ولد ببغداد في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٢ وأنجز دراسته الثانوية في مسقط رأسه. واشترك وهو طالب في المظاهرات الوطنية. ومال إلى الأدب والصحافة يافعاً، فكتب في جريدة الاستقلال والبلاد والزمان والأهالي.

وأصدر صحيفة «الوميض» في تشرين الثاني ١٩٣٠، فلم يطل عهدها. ثم اشترك في الحركة الوطنية في أيار ١٩٤١، وفرّ إلى طهران، فقبض عليه وأبعد إلى روديسية الجنوبية. وأعيد إلى بغداد في أوائل سنة ١٩٤٤ فاعتقل في العمارة.

وعاد إلى ميدان الصحافة بعد نهاية الحرب العالمية، ثم التحق بتحرير جريدة صوت الأحرار (١٩٤٦). وأصبح مالكاً لهذه الجريدة سنة ١٩٤٩، وأصدر عند تعطيلها جريدة العالم العربي والاخاء. وطلّق الصحافة بعد ذلك ليمضي إلى أوروبة ويقضي فيها سنوات.

عاد إلى بغدادبعد ثورة تموز ١٩٥٨ واستأنف إصدار جريدة صوت الأحرار أمداً، ثم اعتزل الحياة الصحفية.

نشر قصصاً في مجلة الوميض وجريدة البلاد والاخاء الوطني والأخبار وغيرها (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤).

أخوه: عوني بكر صدقي من رجال التعليم والأدب ولد ببغداد سنة ١٩٠١ وتوفي سنة ١٩٦٨. وقد تخرّج في دار المعلمين (١٩٢٥) وزاول التدريس أعواماً طويلة، ثم نقل مديراً لمعارف لواء الدليم (١٩٤٥) فمديراً للمناهج والكتب بوزارة المعارف (١٩٤٦)، فمدير التدريس الابتدائي (١٩٥٠)، فمدرساً في مدرسة الصناعة (١٩٥٣). وكان من رواد الحركة الكشفية في العراق، أصدر كتاب «الكشاف العراقي» (١٩٢٢) واشترك مع محمود أحمد السيّد في كتابة «السّهام المتقابلة» (١٩٢٢).

عادل عوني

عادل عوني عبد الله، من رجال الصحافة، ولد بالموصل سنة ١٩٠٦، وترك الدراسة بعد أن وصل إلى الصفّ الثاني الثانوي. وقد أولع بالصحافة، فقدم إلى بغداد وعمل محرراً ومراسلاً في جريدة العراق والعقاب والبلاد. ورئس تحرير مجلة الميثاق (كانون الأول ١٩٣٣)، ثم أصدر مجلة الحديث وجريدة البعث (تشرين الأول ١٩٣٤) فجريدة الوحدة (١٩٣٥).

وأصدر جريدة الحوادث اليومية المسائية في أيلول ١٩٤١، فظلّت تصدر إلى ثورة تموز ١٩٥٨. واعتقل على أثر الثورة، ولما أطلق سراحه افتتح مطعماً في بغداد فلم يصب نجاحاً. وعاش بعد ذلك متنقلاً بين بغداد وبيروت.

وهو كاتب لطيف الأسلوب، ظريف الطبع، خفيف الظلّ، جعل جريدته أداة لتأييد نوري السعيد والحكم الملكي والحملة على المعارضة بشدة وقساوة.

توفي في بيروت سنة ١٩٧٩.

عبد المجيد الونداوي

من رجال الصحافة والأدب، عبد المجيد عبد العزيز الونداوي، ولد في بلدة الكوت سنة ١٩٢٤ وتخرّج في كلية الحقوق ببغداد. ومارس المحاماة، لكنه انصرف إلى الصحافة فحرّر في جريدة الأهالي لصاحبها كامل الجادرجي. ثم تولّى التحرير في صحف متعددة أمداً يربو على ربع القرن، وكان في أعوامه الأخيرة محرراً في جريدة الثورة.

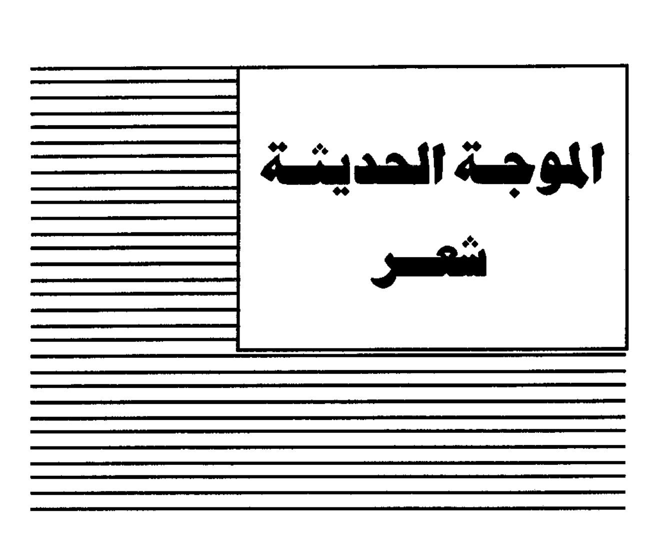
وقد أدركته الوفاة في بغداد في ٨ آب ١٩٧٤.

كتب عبد المجيد الونداوي مقالات سياسية وأدبية عديدة. وألف: محاكمة كامل الجادرجي (١٩٤٩) الحلف التركي الباكستاني والمشاريع الاستعمارية في الشرق الأوسط (١٩٥٤) من يوم إلى يوم (١٩٥٤) المانية أخطر المشاكل العالمية القائمة (١٩٥٥). وترجم مختارات من همنغواي (١٩٥٧).

كان عبد المجيد الونداوي من الكتّاب الأحرار المؤمنين بالديمقراطية والمناضلين في سبيل مبادئها. قال عبد القادر البرّاك أن الونداوي تعرّض للاضطهاد والاعتقال والمطاردة خلال عمله الصحفيّ في العهد الملكي دون أن يصرفه ذلك عن المضيّ في خطه الوطني الديمقراطي الذي آمن به.

ثم قال: «فلقد كان في أحلك الظروف يكتب المقالة والخاطرة ويترجم الرأي والخبر، ويعدّ ما تتطلّبه منه طبيعة عمله كرئيس لتحرير عدد من الصحف، وهو مشرق الأسارير ساكن الجوارح، يشارك أصدقاءه وخلطاءه فيما هم فيه من أحاديث بعيدة عن هموم العاملين في حقول صحافة الكفاح الوطني، طاوياً ضلوعه على كثير من الشجون والآلام التي كان يأنف من إظهار جزءه منها... إن صحف الكفاح الوطني التي صدرت قبل اندلاع ثورة ١٤ تموز وبعدها طافحة بآثار الفقيد... وهي تسلكه في مقدمة رجال القلم والرأي الجديرين بالاعتزاز والتقدير...».





الموجـة الحديثـة
شعـــر



حافظ جميل

شاعر الغزل والخمرة حافظ بن عبد الجليل بن أحمد بن عبد الرزاق بن خليل بن عبد الجليل آل جميل. كان أبوه الشيخ عبد الجليل جميل (١٨٧٠ ـ ١٩٥٧) مدرس جامع العدلية الكبير والآصفية ومفتي الكاظمية وأستاذاً في جامعة آل البيت. وقد نفاه الإنكليز إلى الهند بعد احتلال بغداد (١٩١٧ ـ ١٩١٩)، ثم أصدر صحيفة الإرشاد في تشرين الثاني ١٩٢٦. ووضع مؤلفات منها: إرشاد العباد في علم الاعتقاد، تنوير الأذهان (في المنطق، ١٩٠٣) العجالة في النحو، المحاضرات في الأصول، إلخ.

ولد حافظ جميل في بغداد سنة ١٩٠٨ والتحق بالجامعة الأميركية في بيروت (١٩٢٥) فنال شهادة بكلوريوس علوم سنة ١٩٢٩. وتتلمذ في الوقت نفسه على أبيه وعلى منير القاضي فأخذ عنهما اللغة والأدب والشعر. وأصدر، وهو طالب لا يتجاوز عمره السادسة عشرة، مجموعة شعرية باسم «الجميليات» قدّم لها الأستاذ منير القاضي.

عاد إلى بغداد فعيّن مدرساً في المدرسة الثانوية المركزية (تشرين الأول ١٩٢٩) فدار المعلمين الابتدائية (١٩٣٠). واستقال من التدريس في شباط ١٩٣٢. ثم وظف في السنة التالية في وزارة المالية فكان مخمناً لضريبة الدخل فمميزاً بمديرية الريّ العامة (تموز ١٩٤٠) ونقلت خدماته إلى مديرية البريد والبرق العامة (آب ١٩٤١) فكان مدير التلفونات (آذار ١٩٤٩) فمدير دائرة البرق المركزية (نيسان ١٩٥٠) فمدير الحسابات فمعاون مدير البريد والبرق العام (نيسان ١٩٥٢) فمفتش البريد والبرق العام (شباط ١٩٦٢) حتى اعتزل الخدمة في حزيران ١٩٦٣. وقد منحته الحكومة اللبنانية وسام الأرز (١٩٧٤). وتوفي في بغداد في ٤ أيار ١٩٨٤.

شعره وأدبه:

نشأ حافظ جميل في جوّ ديني متزمّت ودرس اللغة والأدب وقرض الشعر صبياً وهو لا يزال على مقاعد الدراسة الثانوية. لكنه لم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى شدّ الرحال إلى بيروت وانتمى إلى الجامعة الأميركية وانصرف إلى دراسة العلوم، فتفتحت لعينيه، وهو الشاب الغضّ كالطين في يد الخزّاف، آفاق رحيبة وعوالم جديدة لم يألفها في بغداد ولم يشهد مثيلها في بيئته الوقورة المحافظة. رأى الفتيات يزاملنه في الجامعة

ويلتقين به في الأندية والمجتمعات، ورأى معالم الحضارة طيّبها وخبيثها تغشاه وتحيط به وتسدّ عليه المنافذ. ورأى كؤوس الخمرة تترع وتكرع، وحلقات الرقص تنتظم وتندفع وتتقدم وتتراجع بنظام وغير نظام، فانطلق بحافز من روح الشباب ونظم الشعر في المرأة وبنت الحان، وتنفس ملء رئتيه الهواء الطلق الذي غمر روحه وفاض على لسانه.

عاد حافظ بعد ذلك إلى بغداد وانتظم في سلك التدريس والوظيفة، واختلف إلى مجالس صباه ومراتع شبابه، فظلّ حياته تتجاذبه عوامل متباينة متناقضة تقرن القديم بالجديد وتجمع روح التزمّت والجمود إلى الوثبة والتفتح والانطلاق. وظهرت آثار ذلك في شعره فطبعته بطابع خاص وشرّقت به وغرّبت، لكن شيئاً واضحاً بقي في هذا الشعر على ما عصفت به من عواصف المحافظة والتجديد، ذلك هو تقيّده بالطابع العربي الأصيل في مبانيه ومعانيه وترسّمه خطى السابقين من شعراء العربية الأقدمين وشعراء النهضة الحديثة. والغريب أن حافظ جميل الذي أتقن اللغة الانكليزية واطلع على آدابها وفنونها لم يتأثر بالأدب الانكليزي بصورة مباشرة ولم يحاول أن يصطنع أساليبه ومناهجه.

أصدر حافظ أربعة دواوين: الجميليات (١٩٢٤) نبض الوجدان (١٩٥٧) اللهب المقفى (١٩٦٦) أحلام الدّوالي (١٩٧٢). وله أيضاً: كتاب «عرفت ثلاثة آلاف مجنون» (١٩٤٤) نقله عن الانكليزية بالاشتراك مع الدكتور فائق شاكر، رسالة في القرآن (محاضرات ألقاها على طلبة دار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٣١).

وشاعرنا غمر البديهة، طويل النفس، ينقد القصيدة التي ينظمها نقداً قاسياً ويزن كلماتها وأبياتها بميزان الدرّ والذهب، كما كان يفعل من قبله زهير بن أبي سلمى في حولياته ومروان بن أبي حفصة في أماديحه، وكما كان يفعل الأديب الفرنسي غستاف فلوبير صاحب «التربية العاطفية». وقد تأثر، على ما قال، بالشعراء أبي نواس وابن الرومي والمتنبي وشوقي والأدباء أحمد حسن الزيّات وطه حسين والمنفلوطي والعقاد.

يبرز حافظ جميل أكثر ما يكون تبريزاً في غزلياته وخمرياته التي يصدر فيها عن قلب فتيّ لا يؤمن بالهرم وعاطفة مرهفة مشبوبة.

لقد بلغ الشاعر سنّ الكهولة، لكنه لم يزل يعيش بـ (الآمال) ويترقب (بريد القبل) ويستذكر (ليالي لبنان) ويأنس إلى (كأسه). فلنستمع إليه يقول:

حيّي بما يحلو لديك وسلّمي	بالعين إن أحببت أو بالمبسم
حسب الحبيبة لحظها إن سلّمت	وشفاهها إن أومأت لمسلّم
أعيا بصمتك ناظراك فأفصحا	عمّا بقلبك من جوى متضرّم
وتبلّجت شفتاك عنه، فما عسى	تبغين من كتمان ما لم يكتم؟...

وهو يكتئب للوعة الحبيبة فيهتف قائلاً:

مـــــاذا أردّ عـــلى اكتـــئابـــك   إن كـــان مـــا بي فـــوق مـــا بك؟

وهو يسخط لجفاء الحبيبة فيخاطبها قائلاً:

ودّعـت عهـــــدك وانتهـــــيت   وخـــــرجت منـــــه بما اكتفيت

وهو يناجي الراح ويرتضي الخمرة دواءً لكلوم نفسه، فينشد قائلاً:

ألا مـــا كـــان أعظمني شقـــاءً   وأكثـــرني بـــلا سكـــر عنـــاءَ

وأنـــزلني على أحكـــام دهـــر   قضـى أن لا أرد لـــه قضـــاءَ

وهل كـــالـــراح من محمـــود عقبى   لمن ســـاءت عـــواقبـــه وســـاءَ؟

وشعر حافظ جميل بعد ذلك في لبنان وفي بغداد سائر على الألسنة، محبّب إلى القلوب. فبغداد مسقط الرأس وملعب الطفولة ومدرج الصبا فلا عجب أن يخاطبها الشاعر فيقول:

لغيرك، يـا بغـداد، لم يهف جـانحي   ولا شـاقني في غير ظلك أن أشـدو

ولا طـاب لي في غير دجلـة مـرتع   ولا لـذّ لي في غير شـاطئهـا الـورد

وكيف اصطبـاري عن حنـان ربيبـة   سريـراي في أحضـانها القبر والمهـد!

أما لبنان فهو كهف الشاعر الروحيّ لا يفتأ يردد ذكره ويشيد بمحاسنه ومحامده، فهو تارة يقول:

ذر الـدمع الملحّ يـزيـد وكفـا   فما لـك غير لبنـــان وتشفـى...

أظلّك في الشبـــاب فكـــان وكنـــاً   وحـــاطك في المشيب فكـــان كهفـــا

ومـن لـك في النـــوازل إن ألمت   بـأرعـى ذمّـــة منـــه وأوفى

ويقول طوراً في ليالي لبنان:

ليـــــال بعثـت فيـك   مـن النشـــوة أقصـــاهـــا

وزانـت لـك دنيـــاك   وأنستـك رزايـــاهـــا

ليـــال غسـل الطـلّ   حـــواشيهـــا فنـــدّاهـــا

وجـــال الـــزهـــر في خضر   روابيهـــا فـــوشّـــاهـــا..

أو يقول:

أيـن من أرضهـــا أديم سماهـــا   أين وضّـــاح صبحهـا مـن دجـاهـا؟

ربـــوة من جنـــان لبنـــان حلّت   من أعـالي الشـويـر عـالي ذراهـا

أو يقول:

يقولون: ما شأني ولبنان كلّما ... تغنّيت فيه جنّ في الشعر شيطاني
فقلت: هبوني فخر بغداد محتدا ... فمن غير لبنان رعاني وربّاني
ومن غير لبنان شكوت فرقّ لي ... ومن غير لبنان بكيت فواساني
ومن غير لبنان، إذا ما وهبته ... حياتي، أحال الأرز قبراً فواراني؟

وقد تقدم الشاعر في العمر، واعتزل الوظيفة، وزادت أوصابه وآلامه، ونزفت جراحات جسمه وروحه، فداواها بمودّة وثيقة ربطته بأخ مواس أديب هو الأستاذ يوسف يعقوب مسكوني الرجل الطيب الباحث المحقق. وتوفي هذا الأخ فثارت لواعج الشاعر وأرسلها نفثة جسّمت الحزن واللوعة والشكوى والإشفاق والمرارة والألم. حزن داود النبي قبل عصور طويلة لمقتل شقيق روحه يوناثان فرثاه بكلمات مؤثرة وقال: «أسفاً عليك، يا أخي، لقد طابت مودتك لي فكانت أعجب من حبّ النساء». وفقد الشريف الرضيّ صديقه الصابىء فقال: أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟ وقديماً مزق كلكامش ثيابه وحثا التراب على رأسه حين مات صاحبه انكيدو وقال: «من أجل انكيدو خلّي وصاحبي أبكي وأنوح نواح الثكلى، فقد كان الفأس التي في جنبي وقوس يدي والخنجر الذي في حزامي والمجنّ الذي يدرأ عني، وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي...».

وروى صاحب الألياذة حزن البطل آخيل على خدينه بطروكلس الذي سقط صريعاً في القتال على أسوار طروادة ورثاءه له متمنياً لنفسه الموت لأنه تخاذل في نصرة صديقة وإنقاذه.

أما حافظ جميل فبكى في يوسف مسكوني طبيب نفسه وصديق روحه وموضع سرّه وشكواه، بكى الذي كان يشفي كلومه بلقائه ويؤاسيه في البلوى ويصرفه عن تشهّي طعم المنون. ثم قال:

غب حيث شئت فما كانت مودّتنا ... لتنتهي عند هذا الحدّ أو ذاكا
ولح خيالاً فإني رافع بصري ... وسامع من وراء القبر نجواكا
لا تشكُ في الموت أحباباً فجعتهم ... وعشرة وألوفاً من يتاماكا
لا أوحش الله قبراً أنت نازله ... لو أستطيع جعلت القلب مثواكا

إن رثاء حافظ جميل ليوسف مسكوني صلاة على فم شاعر مرهف الحس حلّق على أجنحة المودة والوفاء، وطاف في عوالم هيولية من الطيبة والصفاء.

***

ولا بدّ لنا بعد ذلك أن نقول كلمة في خمريات حافظ جميل. برع الأقدمون والمتأخرون في وصف الخمر. وجاء ابو نواس فكان مجدداً في عصره، مبتكراً للمعاني، متصرفاً في

أساليب البيان. وإذ وقف الشعراء قبله على الطلول وبكوا على المنازل والديار وحنّوا إلى ساكنيها الذين فرّق شملهم الدهر، وقف ابو نواس على مربع القصف واللهو، وذكر مجالس الشرب والندامى والأخلاء فقال:

ودار ندامى عطلّوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس

وابتدع أرباب التصّوف الخمرة الروحية فقال ابن الفارض سلطان المحبّين:

شربنا على ذكر الحبيب مُدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وجاء حافظ جميل فجدّد في بغداد عهد النواسيّ. وشعر حافظ في هذا الباب رائق لطيف تستسيغه النفس ويطرب له اللبّ لكنه لا يكاد يأتي بمعنى جديد أو وصف مبتكر كما فعل أبو نواس في عصره.

فحافظ يشرب قبل كل شيء لمداواة كلوم قلبه ونسيان همومه وأوصابه، وهو يردّد هذا المعنى فيقول:

عركت الليالي ساهراً وعركتني فما راعني منها سوى مطلع الفجر
إذا دهمتني رعشة الصحو بغتة فزعت لكأسي أدفع الشرّ بالشرّ
كأني، وما غير الكؤوس عصابتي، أشاغل دهراً من نكال ومن غدر
يزايلني غمّي بجرعة خمرة وأصحو وما غمّي سوى جرعة الخمر
وأبدو كمعلول به ألف علّة وما بي من داء سوى تعب الفكر
ومن كان مثلي فكره الدهر متعب فأخلق به أن لا يفيق من السّكر

وجد الشاعر في الراح مسلّياً ومسعفاً ومعيناً فتعاطاها، وكانت دواءه وداءه، وقال:

ألا ما كان أعظمني شقاء وأكثرني بلا سكر عناءا
وهل كالراح من تلقاه عوناً على البلوى ودرعاً واتّقاءا؟
وهل كالراح من محمود عقبى لمن ساءت عواقبه وساءا؟
لئن عانيت صرعتها طويلاً كفاني أن وجدت بها العزاءا
وكم في زحمة الآلام صاح رأى في سكرة الموت انتشاءا
نظرت فلم أجد كالراح طبّاً لمن فقد الطبابة والدواءا
ولا كجوارها للنفس أنساً إذا برمت من الدنيا استياءا
ولا كدبيبها في الجسم لطفاً وقد خدرت مفاصله ارتخاءا
ولا كأريجها في الطيب نفحاً إذا راح النسيم به وجاءا
ولا كرضيعها نهماً وجوعاً إن أتخمته لقد زاد اشتهاءا

ولا كطـــريحهـــا إن نـــام دهـــراً شكـــا من طـول صحـــوتـه العيـــاءا
وهل كـــالصحـــو من كـــابـوس همّ لعـــانٍ لان بـــالسّكـــر احتماءا؟ . . .

وهذه الابيات، ولا ريب، جميلة أخاذة: كلماتها حلوة الرنين، متّسقة واضحة تتدفق كالجدول الرقراق. والغرض الذي تفصح عنه وترمي اليه واضح أيضاً. فهو اعتذار ضمنيّ عن شرب الخمرة، لولا أنها دواء لا مفّر من الاستعانة به والخضوع له. ولننظر بعد ذلك إلى ذكر محاسن الخمرة، فهي طبّ لمن برّح به الداء واستعصى علاجه، وهي سلوى النفس التي ضاقت بالدنيا ذرعاً، وهي مخدّر يسكّن الآلام ويولّد الأحلام. وكّلنا نعلم أن معاقرها يزيد ظمأً كلما زاد شرباً، وقد رأينا طريحها لا يعبأ أين يسقط ليغفو في حلم هنيء.

ويهيب حافظ بكأسه أن ترعى له الودّ والذمّة فلا تهجره ولا تغدر به، فيقول:

دومي دوام العمـــــر، يـــا كـأسي، يـــا كـــوثـــري العـــذب وفـــردوسي
لـــولاك غـــام الكـــون في نـــاظـــري وعشـــــت في داجٍ مـــــن اليـــــأس
وظلّ صـــدري جـــدثـــاً حـــالكـــاً لم يَـــــــرَ لــــولاك سنـى الشمس

وهكذا نرى شاعرنا يردّد هذا المعنى ويلبسه في كل قصيدة ثوباً جديداً وينحو به منحىً فريداً: فالخمرة بيضاء تحبّب حتى بياض الشيب، وهي تدور في الرؤوس فتمنح الرعديد بأساً وشجاعة، وهي تميّز الشهم عمّن لا خلاق له ولا خير فيه، وهي بلسم الجراحات والأسقام . . .

ويخاطب المدام بعد ذلك فيقول:

وفيتِ، يـــا راح، فـــلا تغـــدري مــــــا دمـتُ في حبّـك لم أكفـــــــر
أفنيـت عمــــــــــري فيـكِ لم أفترق عنـك ولم أســأم ولم أضجـــــــــر

حتى يقول:

شهـــدتِ فـــرعـــون وأهـــرامـــه وعـــرش بلقيـــس فلم تكبـــري

وهذا المعنى افتتن به القدماء، فطالما ذكروا قدم الخمرة وشهودها عصوراً خلت ودولاً دالت واحتفاظها بشبابها ورونقها برغم مرور الأجيال والأزمان. ثم يتطرق حافظ إلى وفاء الخمرة لأحبابها، فهي ليست ممن يغريه شرخ الصبا ولا ممن يطوي كشحاً عن الشيوخ الذين ذهب رواؤهم وذبلت أجسامهم. وهي لم تكن سلعة في سوق الغرام تباع وتشرى.

وأعرب حافظ، ومن قبله أبو نواس، عن عدم اكتراثه باللاحين والناصحين. ثم أغرق في خمرياته فحسب النهار الذي يخلو من الشرب يوماً ضائعاً من أيام العمر

وصفحة بيضاء من صفحات الحياة. ثم يقول:

أَفَحَتْمٌ عليّ أن أهجع الليل وتأبى أن تهجع الأوطار
ولِمَ النوم ما وجدت حبيباً همّه الليلَ شاعر وعقار؟
ولِمَ الصحو، والحياة شراب ونديم وقبلة وحوار
ولِمَ الصبح إن تجهّم يومي واكفهرّت بوجهي الأنوار؟

كلاّ، أيها الشاعر، إنّ الليل حبيب الشعراء فتمتع به ما شئت وارشف من قبلات الحبيبة والكأس ما وجدت إلى شفاهها سبيلاً. ولتكن الحبيبة كما تشتهي وتتمنى، جنّة في عينيك وجحيماً في أحداق سواك من النظّار. ولتكبح الشوق الجامح في فؤادك، ولتتعرف إلى شعورك من وراء أبيات الشعر التي توحيها إليك.

أجل، أيها الشاعر، أنشد أغانيك وتمتع بالحب والحياة، وردّد قولك:

ربّ حسناء من بنات الشقيق يزدري حسن لونها بالعقيق
مزجت رطب لؤلؤ برحيق وتحسّته من فم الإبريق
والحشا بعد ظامىء حرّان
وصحا نائم القرنفل فجرا فانبرى للزّقاق حلباً وعصرا
كلما رقّصت به الراح سكرا خنق الزّق وهو يقطر خمرا
فتندّت شفاهه والبنان...

وهكذا ينعت حافظ الخمرة ويثني عليها كما أثنى من قبله أبو نواس وغير أبي نواس. ومثلما قال أبو نواس:

يا ربّ، إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

ومثلما قال أبو نواس في التوبة والندم، قال حافظ جميل:

غفرانَكَ، اللّهم ربي لكبير معصيتي وذنبي
تتابعت غيّي سادراً بين الغواة فجلّ خطبي
وأمرتني بالصالحات فأعمت الشهوات قلبي
وتركتني، وأنا الضعيف، حليف أسقامي وكربي
ومنحتني الصبر الجميل فكنت تعزيتي وطبّي
وجعلت من فزعي لديك مزيد أشواقي وحبيّ...

ومهما يكن في شعر شاعرنا وخمرياته من تجديد وتقليد فإنه شاعر غمر البديهة، صادق اللهجة، عذب الجرس، ناصع البيان، وحسبه ذلك مرتبة بين شعراء العصر.

علي الخطيب

الشاعر المبدع علي بن محمد جميل بن عبد القادر الخطيب، وهو أخو المفتي عطا الخطيب. كان أبوه رئيس بلدية بغداد أمداً قصيراً، وقد ولد شاعرنا في بغداد سنة ١٩٠١ ودعي «شوكت علي». درس في دار المعلمين الابتدائية (١٩١٩ـ ٢١) ثم تخرج في مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٧. وظف في وزارة العدلية ومحكمة التمييز، وعيّن ملاحظاً للمطبوعات في وزارة الداخلية سنة ١٩٣٠. ونقل في السنة التالية ملاحظاً في ديوان مجلس الوزراء، لكنه ابتلي بمرض عصبي اضطره على ترك الوظيفة (١٩٣٣) وأقعده عن العمل وألزمه العزلة. وعين بعد ذلك موظفاً في مديرية الشرطة العامة (١٩٣٨) ودعي في ايلول ١٩٣٩ إلى الالتحاق بدورة ضباط الاحتياط. ثم انطلق من قيد الوظيفة فكان مديراً مسؤولاً لجريدة العراق وجريدة الاخبار.

وعاد إلى الوظيفة سنة ١٩٦٣ ملاحظاً للحقوق في مديرية السياحة والاصطياف العامة إلى ١٩٦٦. وانزوى في عقر داره في أعوامه الأخيرة حتى وافاه الأجل في بغداد في أواسط شهر ايار ١٩٧٧.

نظم علي الخطيب شعراً رائقاً في الاجتماع والوطنية والوصف والغزل. وكم ألقى من قصيدة صارخة عرضته لسخط الحكومة ونقمتها وهو موظف في دوائرها العدلية.

علي الخطيب شاعر الغزل، من المرأة التي يصفها ويتغزّل بها؟ ــ انها ليست الفتاة الغامضة، الحيّية الجريئة، القابعة في خدرها والتي، على الرغم من ذلك، لا تخشى الحب والمغامرة، تلك التي يقول فيها عمر بن أبي ربيعة:

أشارت لأختيها: أعينا على فتى أتى زائراً، والأمر للأمر يُقْدَرُ

انها ليست القينة العابثة اللّعوب التي يقول فيها أبو نواس:

نضت عنها القميص لصبّ ماء فورّد وجهها فرط الحياء

ويقول:

يطمعني لحظها ويؤيسني باللفظ منها فؤادها القاسي

وهي ليست الفتاة الرمزية التي يردّد ذكرها الزهاوي، ولا الخطيبة أو الزوجة التي يومىء إليها الهنداوي في قصصه الشعريّ، ولا المرأة التي يدافع عنها الرصافي ويحكي مأساتها فيقول:

تَبَسّمُ حيناً ثم تجهش بالبكا فمن لؤلؤ تبدي ومن لؤلؤ تذري

كأنّ تلاميح الأسى في جبينها بقايا ظلام الليل في غرّة الفجر

وهي بعد ذلك ليست الكاعب الفاتنة المتحررة التي يهيم بها نزار قبّاني أو تهيم به في التعبير الأصحّ. فمن المرأة التي يتغزّل بها علي الخطيب؟

انها الفتاة العراقية النافرة الخَفِرة ـ فتاة سنة ١٩٣٠ التي لم تكد تسفر عن جبينها وتظهر أمام الرجال، فهي تخفي جمالها ودلالها تحت نقاب من الوقار شفّاف، وهي تدير وجهها لتبتسم خوفاً من النظرات والأقاويل. هي واحدة من سرب يخرجن معاً إلى النزهة ليزددن جسارة ومنعة.

يقول علي الخطيب في موشحه «عند اللقاء»:

أقبل الغيد على الجسر مساءً سافرات

بقدودمائسات

وخطى متزّنات،

مشرقات القسمات،

فرحات، مرحات،

فانثنى الصحب وحيّوا الصاحبات القادمات

بوقار وأناة

ووجوه ضاحكات

وعيون خاشعات

وقلوب خافقات

فتلقّين تحايانا بأحلى الحركات

من رؤوس مومئات

وثغور باسمات

ناظرات، مغضيات،

فتهامسن ببعض الكلمات . . .

ثم تابعن الخطى في خفر محتشمات

لكنّ شاعرنا يلقى الحسناء التي تعبث به وتُدِلّ عليه، وتأخذه بالجذب والدفع، وتطالعه بالإعراض والرّضا، وتبعده ثم تدنيه، وتكلمه وتزورّ عنه، فيصفها قائلاً في «وصل وهجر»:

تكايدني الحسناء في شغفي بها ... فلا تتحاماني ولا هي تسلس

تحاورني حتى إذا ما طلبتها ... تناءت صدوفاً وهي بي تتفّرس

فأبهت، لا أعدو مكاني، وتنثني ... إليّ، فأستبقي أناتي، فتأنس

أقاربها مستبشراً في تهيّب، ... أمدّ يدي من عطفها أتلمّس

وعيني بعينيها تلوذ، ومهجتي خفوق، وفي نفسي التظنّن يهجس
أتأبى، أترضى؟ لست أدري، وإنما أنطت يدي الأخرى بها أتحسّس
فآنست من طلق المحيّا بشاشة فما عدت منها خيفة أتوجّس
فأدنيتها حتى ضممت قوامها فلان، وكانت عند ذلك تهمس:
أخاف إذا واصلت منك قطيعة تهدّم ما يبني الهوى المتحمّس
نظرت إليها في عتاب فأعتبت وجادت بما أخفى الرضا المتحرّس
فكان عناق وارتشاف، ولم نزل على ظمأ، والشوق أحلى وأنفس
وظلّ هوانا بين لقيا وفرقة، فلا الوصل موصول ولا الهجر مؤيس

ان في هذه الأبيات لنفس من أنفاس ابن أبي ربيعة، لكنه نفس معطّر بشذا حضارة العصر. ولئن كان شوقي قد أوجز رواية الحب في بيت واحد:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

انّ الخطيب قد فصّلها في اثنى عشر بيتاً من الشعر الرقيق الطريف، المتماوج المتوهج.

وقد قرأ علي الخطيب رواية الزنبقة الحمراء لأناتول فرانس، وقرأ «أناتول فرانس في مباذله» في ترجمة شكيب أرسلان، فظل معجباً بالروائي الفرنسي العظيم وببطلات حبّه وقصصه، لا يفتأ يردّد ذكرهن ويكبر هيامهن ويشيد بمآثرهن ومحامدهن. ولست أعلم مقدار أثر ذلك في شعره، لكنني أعلم أن أثر ذلك في نفسه بليغ كبير: فهو يعظّم الحبّ ويتهيبّه ويشفق على نفسه منه. ألا يقول في «تساؤلات»:

ما للفؤاد، إذا لاقيتني، يجبُ وما لنفسي، إذا ما غبت، تكتئب؟
وما لجسمي إذا صافحتني بيد سرت به هزة عجلى فأضطرب؟
إن ضمّنا مجلس فالصمت يشملني مشتّت الفكر مشدوهاً، فما السبب؟
إني أحسّ التياعاً ناره اتقدت ما بين جنبيَّ أخفيها فتلتهب
هذا هو الحبّ أو هٰذي بوادره ولست تدرين ما ألقى وأصطحب!

وهو ينصح قلبه أن يجتنب الحبّ فيقول:

هو الحبّ لا يبقي على المرء قلبه فإني أراه اليوم للقلب قاتلا
فيا قلب، لا تحمل من الحبّ لوعة مخافة أن تفنى بها كنت حاملا
أراك كفرخ بين فرعاءَ والهوى كريحٍ إذا هبّت تطوّحت عاجلا

وهو يرى الشاعر أسير الحبّ وضحيّته فيقول:

ومـــا الشـــاعـــر المفـــؤود الاّ متيّم	لــــه شقـــوة في حبّـــه وحيـــاة
فبينـا يـرى والـدمع ملء جفـونـه،	إذا الثغـــــر منـــــه تلمع البسمات
وبينـا يـرى بـالبشر يطفح وجهـه،	إذا الصـدر منـه تصعـد الـزفـرات
وكم نـــوبـــةٍ تنتـــابـــه عصبيّـــة	يلطّـف منهـــا الشعـــر والعبرات
وكـم تعتريـــه حـــدّة مـن صغيرة	مصـــادرهـــا نـــاسٌ هُم النكـــرات
إذا هّـم في خبـث تلكـأ وافيــــــاً	وتمنعـــه مـن نفســـه زجـــرات
مــلامحه تبــدي كــواتـم صــدره	إذا حـــاول التمـــويـــه، والنّظـــراتُ
فيــــالـك من طفـل كبير يعـــوزه	دهـــاء بـــه تستحضر الـــرغبـــات
لـــه عـــالم مـن نفســه متحـــدّر	تحفّ بــــه الأحــلام والــــذكــرات
خيـــالاتــه شتّى إذا مـــاعـــددتها	وحسبـك منهـــا أنها نـــزعـــات

الرّقص:

نظم علي الخطيب قصيدة لطيفة «في ردهـة الرقّص» طبعت في كـرّاس خاص سنـة ١٩٥٠. والرقص فنّ قديم عـرف في الشرق والغرب، وقال الشاعـر الفرنسي ألفرد دي موسيه (١٨١٠ ـ ١٨٥٧) Alfred de Musset :

«إنّ شهر آذار يشهـد تفتّح الزهـور، وحينئذٍ تزيـد المراقص حبوراً وتطيل معـازفها. فترتمي الراقصة بين يـدي مراقصها في استرخاء أكثر، وتشتّد العيـون جرأةً، وتقلّ الشفاه بخلاً، ويثمل الراقصون تعباً، ويطفح القلب هياماً».

ثم يقـول: «أيتّها الجنّيـة الألمانيـة ذات الحذاء الذهبـي، يا قينـة الـرقص، يا زهـرة الشعـر، من ذا الذي يستطيع أن يتغنّى بقـدميك الماهـرتين في إيقاعهما وأسرارك الإلهيـة التي يجهلها السـذّج؟ وأين في زماننا شـاربو رحيق الآلهة الجديـرون بنسيان أنفسهم بين ذراعيك المعبودتين؟..»

وقال معروف الرصافي في قصيدته «ليلة في ملهى» يصف راقصة:

وتجلّـت في مسرح الــــرّقـص حتى	أرقصت بـــالغـــرام منّـــا القلـــوبـــا
أقبلـت تنثني بقــــــدّ رشيــق	ألبستـــــه البُرد القصير قشيبـــــا
قصّرت منـــه كُمَّـــه عـن يـــديها	وأطـــالـت إلى النهـــود الجيـــوبـــا
حبس الخصَر حيث ضـــاق ولكـن	أطلق النحـــر بـــاديـــاً والتريبـــا
خطـــرت والجمال يخطــــر منهـــا	في حشـــا القـــوم جيئـــةً وذهـــوبـــا

وعلى أرؤس الأصـــابع قـــامت تتخطّى تبختراً ووثـــوبــــا . . .

وقال خليل مردم بك شاعر الشام (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩) من موشّح في الرقص :

نفـخ الصّـــــور فهبّــــوا مسرعين مثلما نفّــــرت طيراً بــــالصفير
وعلى الصهبـــاء كــانــوا عــاكفين من رأى سرب قهــاً حــول غــديــر؟

***

كـم فتـــاة فتنـــةٍ بـــالمقلتين واعتـــدال القّـــد والجيـــد التّليع
جمّت الشّعـــــر إلى الســـالفتين فـــاستبـدّت بــابـن هــاني والصريع
أخــذت مـن ذيلهـــا للــركّبتين ومـن الطـــوق إلى أقصـى الضلــــوع
ومــــن الكمين حتـــى المنكبين فبـــــدت في درعهـــا غير المنيع
مـن عـــــراء واكتســـاء بين بين بـل من الحسن بجلبـــاب بـــديع
وفتـى من حسنــــه ملءُ العيـــون حسن اللفتـــة كـــالظبي الغــريــر
هـــو لـــو لم يتخـــذ زيّ «الّــذين» عُــدّ من حـزب «اللــواتي» في الأثير

***

كـلّ إلفِين انضـــــــوى شملهما أقبـــلا فـــاعتنقـــا أيّ اعتنـــاق
لـــــو صببت الماء مـــــا بينهما لم يكـــد يخلصُ مـن فـــرط اعتــلاق
علقـــت كـــفّ بكـــف منهما شركـــاً واختلفت ســـاق وســـاق
ودنـــــا الخدّان مـــن بعضهما حينما الجيـــدان همّا بـــالتــلاق
وعلى الانغـــــام كـــانـت لهما خطـــوات بـــاتـــزان واتّســـاق
رقصـــا شتّى ضروب وفنـــون مـن دبيب خـــافت أو ذي صريــــر
بينما عـــــومهما عـــوْم السّفين إذ هما بـــالحجـل كـــالطير الكسير

ثم يصف سكـرهما بـالمدام والغـرام والشبـاب وامتزاج الأنفـاس واعتـلاج تبـاريح الغرام .

أما ا لشاعر عدنان مردم ابن خليل مردم فيصف راقصة (الباليه) فيقول :

سطعت في عبقـــريّ مـن صبـــاهـــا أين منـــه الشمس في رأد ضحـــاهـــا؟
فتـــنٌ في كـــل قلـــب أيقظـــت فتنـــاً للشرق مـــا أومـت يـــداهـــا
حـــركـــات الموج في أشكـــالـــه حققت أشكـــالـه نسجـــاً خطـاهـــا . . .
ضربـت كـــالنسر في أجنحـــة للهـــوى وانطلقت دون هـــواهـــا

وانبرت تفتل في حلبتها ... كرياح عصفت ملء رباها...
عمدت تجري على ابهامها ... لمدىً يقصر شأواً عن مداها
وانثنت عاصفة في قطب ... عاصف يلهب من حمّى لظاها
كل عضو شعّ من أعضائها ... كشعاع وانثنى طوع مناها
لطفت أعضاؤها واتّسقت ... كدرارٍ يسحر العين سناها
تلتوي منسابة في شاسع ... مثل أفعى تتلوّى في سراها...
حسبها ما حققت من صور ... كست الفنّ فتوناً وكساها
ليس رقصاً ما جرت ترسمه ... بخطاها، إنه وحي صباها

وقال الشاعر الضابط المصريّ محمد توفيق علي (١٨٨٧ ـ ١٩٣٧) من قصيدته في «مصيف الرمل»:

ربّ مشغوف بغانية ... بارك الرقص لها سببا
ضمهّا شوقاً مخاصرة ... ثم دارا دورة خبَبَا
كفّها في كفّه سكنت ... انما قلباهما ضربا
كلما هاجت لواعجه ... وهي في أحضانه جذبا
صدره في صدرها نشبا ... ثغره من ثغرها قربا
واختلاسات حديثهما ... في خفوت يبعث الريبا
ما الذي قالت وقال لها؟ ... ليس الاّ موعداً ضربا
ربّما قالت تناظره: ... أنا أهواك، وقد كذبا
هو يهوى كلّ راقصة ... وهي تهوى المال والنّشبا...

وقلت في وصف راقصة:

«فهي اذا ما اعتلت خشبة المسرح وانسابت في حلقة الضوء المسلّط عليها في الظلام الخافت، تجرّدت من ذاتها البشرية وأصبحت طيفاً نورانياً متموجاً أبلغ في تعبيره وأدائه من الموسيقى التي ترافق حركاته. وكان المشاهدون يؤخذون بسحر رقصها فينسون الزمان والمكان ويذهلون عن سماع الأنغام الموسيقية، ويشخصون بأبصارهم وكل جارحة من جوارحهم إلى ذلك الجسم اللّدن الذي يتمدد ويتقلص، ويتلوى ويتثنّى وينعطف ويعتدل، ويتقلب ويتراخى، ويتدافع ويتماسك، ويتهافت ويتمايل ويتخايل ويدور، وإلى الرأس المتعالي والمتهاوي، والجيد المشرئبّ والمتلّفت، والنهد النافر والضامر، واليدين المتموّجتين والساقين المترجرجتين والرجلين المتقاربتين

والمتباعدتين، والأقـدام المتطاولة والمتقوّسة والمنبسطـة في ايقاع رائع أخاذ. لم يكن ذلك رقصاً بل تعبيراً فنيـاً ينطق تارة بالحزن، فإذا النظـارة تنفطر قلوبهم كمـداً وأسى، وطوراً بالفـرح، فإذا هم لا يملكون نفـوسهم بهجة وسروراً. ولقـد ينطق أحيانـاً بسكرة الحبّ ولـوعة الشـوق وحرقـة الـوجد وعـذاب الشك وسعـادة الثقة والإيمان ومـرارة الوحـدة والحرمان وغبـاوة الذهول والنسيان وعبث الطفـولة وغرور الشباب ووقـار المشيب ولذة الحياة ووحشة الموت وفتنـة الجمال وذلّة البؤس والشقاء وعذوبة الأحـلام الجميلة وقسوة القوة الجامدة وحياة الفتاة البريئة وصلف الغانية المتغنجة. . . »

وقال الشاعر الفرنسي ألفرد دي فنيي (١٧٩٧ ـ ١٨٦٣) Alfred de Vigny :

«ارتجف القيثار وأرسل المزمار أنينه، فقد انطلق الرقص في مملكته الدائرية.

وبهرت العيون الأزواج العابرة، وطاروا متشابكين في دوائر رشيقة.

وقفوا وقفات ينتظمها الإيقاع، وازدهوا بـزينتهم إذ عكستها المرآة، ثم اندفعوا ثانية، وتعثروا بأذيال جمعهم الضـاحك، فكانت حركاتهم أقلّ مهـارة، وكان تزاحم وصخب وضجيج.

وثملت الراقصـة بحماسة المهرجان، فبعثرت في مـرورها الأزهـار التي تكلل رأسها وسحقتها بالأقدام، واستسلمت إلى الذراع الـذي يسندها، ودارت وقد شحب لونها، وخفضت أنظارها إلى صدرها الخافق. . . »

وقال الشاعر الألماني هنريك هيني Heinrich Heine (١٧٩٧ ـ ١٨٥٦):

«يا مـلاكي النبيل، لا تكفّي عن الرقص، فـرقصك القادم من عـالم الأحلام بلسم حاني لجراح نفسي وخير دواء لسقم جسدي الذي أنهكته الأعوام».

وقـال أحمد شـوقي يصف حفلـة راقصـة في قصر الخديـو عبـاس حلمـي الثاني (١٨٩٦):

يـا ليلـة (البـال) مـا خـالـوك راقصـة	الاّ وأنت جمال الـدهـر والحقب. . .
أهـاجهـا هـائج الألحان فـانعطفت	مثل النسيـم سرى سـاريـه في القصب
ودارت الـراح بـالأجيـاد مثقلـة	بـالحلي فـاستسلمت من شـدة الـوصب
وبـالخصـور فمـن واهٍ ومن قلـقٍ	ومـن سقيـم ومن فـانٍ ومـن تعبِ

ولكن لنعـد إلى قصيـدة علي الخطيب. ويصـحّ القـول ان هـذه القصيـدة تمثل فنّ شاعـرنا، فهي شريط سينمائي بطـيء الحركة يسجّل كل خطـوة وسكنة ونأمـة في حلبة الرقص. يدخل الشاعر إلى ندوة القصف واللهـو فيرى الحسان يخطرن فاتنات ويعطّرن الجّو بـالبهجة والصّبـا والجمال. شفاههنّ الحمـر كـالورود، وأعنـاقهن فوق الأكتـاف العارية مشرئبة إلى المرح والاستمتاع:

تهادي حســان الحيّ في ردهــة القصر منضرّة المرأى، مصفّفــة الشَّعــر
يفضن شبـابــاً في فتــونٍ وبهجــة لــدى أعين نجـل، لــدى أوجــه غــرّ
كـأنّ الشفــاه الجون بين صفيحهــا أزاهير حمر في أضــاميم مـن نَــوْر
نــواهــد أبــدين الترائب والطّلى وكشّفـن عن أعلى المتــون إلى الخصر
وأبــرزن أكتــافــاً وعــرّين أيــديــاً وكـنّ بها أظهــرن في رونـق مُغْــر
على البشَرِ البــضّ الغضير تـألقّــت أســاور مـن مــاسٍ، قــلائد من درٍّ
جــوارحهّن الكــاسيــات مــواثل كما شــاءت الأزيــاء من بــدع العصر
محاسن أعضــاء تنــاهـى انسجـامهــا نسبن القــدود الفــارعــات إلى السّمـر
تـأنقن في زينــاتهن عــرائســاً بنــات خيــال مــاخطـرن على فكــر
فـأشرقن والأنــوار في كـلّ جــانـب فـولّى ظــلام الليل من طلعــة الفجـر
وظلّت عيــون القــوم فيهـن رُتّعــاً تَنَقَّلُ بين البيـض والسّمــر والشّقــر

وقـد جلس حول الموائد الغيـد والفتيان، وتـلامست الاقداح، وتمايل النـدامى بين الصحو والسكر، وتبودلت الأحاديث العذبة كقطرات الطلّ المتساقط، وتردّدت الألحان وتماوجت في رقة وانسجـام تدعـو السّامـرين إلى الرقص على نغم الموسيقى الـذي يعلو ويهبط، ويشتــد ويلين، ويئن ويهدر. . . وانتظمت الحلقـات، وسلّمت كـل غـادة قامتها إلى صنوها في نشوة من الفرح والحبور.

ومــا اتّحد الصّنــوان حتـى تـدافعــا، فطــوراً بها يجري وطــوراً بــه تجري
يمـور بها، والصــدر بـالصــدر لائذ، وكـفّ إلى كـفّ، وكـفّ إلى الظهــر
ويقبل حينــاً ثم يــدبــر تــارة تســايـره الهيفـاء بــالكـرّ والفـرّ
يــرى الحفل فــوضى بين غــادٍ ورائح فهــذا على طــور وهــذا على طــور
عجبت لفــوضـى يستتبّ خــلالها نظــام يســود الــراقصين بــلا أمــر
يــدورون مثنـى والخطـى تتبع الخطـى تشــايع ايقــاع المعــازف والنقــر
يجولــون جــولاً يبتــدي حيث ينتهي يــروح مع الأنغــام كــرّاً على كــرّ
فمـن دوران يستقيـم ويلتــوي إلى جــولان يستــديــرعلى حــذر

ثم يرى الشاعر بين جمع الراقصين زوجين يسترعيان نظره فيصفهما قائلاً:

وصنــوين جــدّا فــاستقـلاّ بحيّــز تــوقف منــه الــراقصــون عن السّير
وشيكــاً ومهــلاً يمضيــان، سراهما طليـق على قيــد، يسير على عسر
وبينـا بها يــرتــدّ عجــلان ينثني بها ذاهبــاً نحــو الأيــامن واليسر

ويفصلهــــا عنـــه فتنأى وتـــدّني، فنشر إلى ضـــــمّ وضـــــمّ إلى نشر
تـــدور حـــواليـــه فيرعـى مـــدارهـــا فكيف اغتـــدت يغـــدو وأنّى سرى تسري
يعلّـق احـــدى راحتيهـــا بكفّـــه ويطلقهـــا تفتنّ في رقصـــة بكـــر
ومـــا انفلتـت الا استـــدارت حبـــائكـــاً شراشر ذيل مـن حـــرائرهـــا الخضر
تلفّ بســـاقيهـــا الـــذلاذل ان ونت عن الفتـل حتى تسحـب الـــذيل في كبر
إلى صنـــوهـــا السّاعـي اليها مـــراقصـــاً فكـــانـــا كبيت الشعـر شطـراً إلى شطـر

ويلحظ الشاعر حركات الراقصين ونجواهم فلا يفوته تسجيلها :

تـــرى حـــركـــات الـــراقصين كثيرة فمنهـــا على سّر ومنهـــا على جهـــر
فمـن همســـات لست تبلـغ كنههـــا ومـن بسمات ينطـــــويـن على سرّ
أبقيـــا على ودّ؟ أوعـــداً، أدعـــوة؟ أم أن ابتســـام الخود لـــون مـن المكـــر؟
ومن لفتـــات تستبيك رشـــاقـــة ومـن نظـــرات لا لجّد ولا هـــزر
ســـواحـــر تبـــدي المبهمات مـن المنى وتـأبـى عليـك المفضيـــات إلى الحزر
غمـــوض كأطـــوار الملاح محيّر فأنـت بتيـــهٍ من غـــوامضهـــا الكثـــر
إذا لم تحد عّما أسرّت وأبهمـــت بليت بحـــال من مكـــايـــدهـــا وعـــر

ولا ريب ان هذه القصيـدة من القصائد الفـريدة في موضـوعها وسلسـالها ووصفها الطلّي الدقيق لا في الأدب العربي وحده ولكن في الآداب العالمّية قاطبة .

في الطريق :

ان شعر علي الخطيب لا يمثل مرحلة من مراحل تطور الشعر العراقي فحسب، بل يمثل ايضاً مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي : فقد لقي ثلاثة شعراء ـ كل في عصره ـ فتاة في الطريق، وهو يسير الهوينا في بغـداد، تلك المدينة التي فيها للمشاة دروب، كما قال جميل صدقي الزهاوي . قال أولهم، معروف الرصافي :

لقيتهـــا في الطـــريق عـــابـــرة يهصِرُ مـن قـــدّهـــا تبختُرهـــا
أعجبهـــا منظـــري وأعجبنـي بـــالحسن عنـــد اللقـــاء منظـــرهـــا
فصـــار قلبـي بـــالحّب يـأمـــرني وقلبهـــا بـــالغـــرام يأمـــرهـــا
وحين مـــرتّ والشـــوق يسكـــرني بخمـــرة تـــارة ويُسكـــرهـــا
لَفَـتُّ جيـــدي أرى أتنظـــرني والتفتـت لي تـــرى أأنظـــرهـــا
فقلـتُ، والشـــوق فيَّ ملتهـب : إن عـــذرتني فســـوف أعـــذرهـــا

وقال الثاني، علي الخطيب:

لعيني لاحت غادة، فتلكّأت خطاي أراعي ما لها من روائع
على النظر العجلان هزّت مشاعري ملامح وجه للمفاتن جامع
أرى الشَّعرَ المركوم فوق جبينها تراوح لوناً بين قانٍ وفاقع
تجاعيده كالتاج من فوق بعضها تراكبن في حسن من الصنع بارع
لها الأعين النجّل اللواتي، إذا رنت، أثار فؤادي ضجة في أضالعي
على شفتيها رفّ روحي محوّماً كأن لم يجرب جامحات المطالع
لقد خطرت تحت العباء فعبّرت عباءتها عمّا لها من بدائع
تجلّى المحيا في دجاها، فزانه كما زان عرض الليل إيماض طالع
تلفّعتِ صوناً أم تلفّعتِ فتنة؟ وما أنت لو غادرت سود الملافع؟

وكان الثالث مير بصري (مؤلف هذا الكتاب) فقال:

بسمت لي مدلّةً في الطريق فكوت مهجتي بنار حريق
ومضت تحمل الفؤاد أسيراً بلحاظ العيون ذات البريق
انّ قلباً يهتاجه اللحظ وجداً لهو قلب في الحبّ غير عريق الخ...

وقال أيضاً:

لبست سراويل الرجال تأنقاً ومشت كما يسري النسيم رخاءا
هيفاء أولتها الأنوثة رقة والحسن يقطر فتنة ورواءا
خشع الطريق، كأنما هو أعين ترنو وأفئدة ترف رجاءا
أجميلتي، رفقاً بفتنة كاعب أن ترتدي حُلل الرجال رياءا
فأجابت الحسناء، وهي مدلّة، والثغر يبسم خيلة وحياءا:
إنّي رأيت من الزمان خشونة فطلبت في خشن اللباس وقاءا

وقد طرق هذا المعنى شاعر الحماسة القديم، رأى الحبيبة الحسناء تعرض عنه وتمضي في سبيلها، ثم تلتفت إلى الوراء لتنظر اليه، فقال:

وممّا شجاني أنّها يوم أعرضت تولّت، وماء العين في الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة إليَّ التفاتاً أسلمته المحاجر

وروى شاعر الغزل الرقيق عبد الله بن الدمينة، المتوفّى في نحو سنة ٧٤٧م، أنه لحق بالحبيبة ودونها صاحبها الجبار الغيور، فلما دنامنه وسلم عليه ردّ السلام مغتاظاً كارهاً.

ثم يقول :

فسايرته مقدار ميلٍ، وليتني ... بكرهي له ما دام حياً أرافقه

فلما رأت أن لا وصال وأنّه ... مَدَى الصُّرم مضروب علينا سُرادقه

رمتني بطرف لو كمياً رمت به ... لبُلَّ نجيعاً نحره وبنائقه

ولمحٍ بعينيها كأنّ وميضه ... وميض الحيا تُهدى لنجد شقائقه

ويا لها نظرةً تفتك كالسّهم القاتل وتحيي كالغيث الهاطل .

أطلال بابل :

أكثر الشعراء العصريون في العراق ومصر وسائر الأقطار العربية من وصف الآثار القديمة والاشادة بذكرها والتغنّي بالأهرام وأبي الهول وبابل ومدائن كسرى . وقد ثار علي الخطيب على هذا الشعر كما ثار أبو نواس على الوقوف في الأطلال الدوارس والبكاء عليها . قال أبو نواس :

ودار ندامى عطّلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جرّ الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنيّ ويابس

لقد سخر أبو نواس من الباكين على الطلول وسفّه أحلامهم وذكر مغاني الانس وملاعب البهجة والسرور ودور الخمر التي جمعت الندماء والظرفاء ، ثم خلت من أصحابها وتفّرق شملهم ، فحنّ إليها وردّد ذكرياتها ورسم صورها وأخبارها .

واستعار الخطيب الوزن والقافية وكسر الرويّ المضموم فقال :

أممنا ديار الغابرين ببابل ... فلم نَرَ فيها غير خاوٍ وطامس

ولم توحِ لي ما كنت أرجو وإنما ... عرائس أحلامي انطوت بالدّوارس

ركام من الأحجار فوضى شتيتة ... عرضت لها ما بين ضحل ويابس

وقفت أراعي ما استقرّ وما عفا ... وبالنفس قامت موحشات الهواجس

كأنّ نجاد الأرض دون وهادها ... غضون بوجه الحادثات العوابس

كأنّ ركود الماء أصفر آسناً ... صديد بجسم الأرض قنْد الملامس

ولم أر من صرح أقيم ممرّداً ... ولا من ميادين ولا من مجالس

وما لنتت ذهني إليها عجيبة ... ولا راقني فيها بديع النفائس

هنالك أنقاض ترامت على الثرى ... وحيطان قامت مثل سور المحابس

وذو أربع من تحته نام ذو ثُنىً ... وما لهما من سحنة وتجانس

تعاودنا الريح السّموم خلالها ... وقد عفّرت حتّى خبيء الملابس

فـأسماعنـــا مخدوشـــة بصفيرهـــا ... ولم تتعّـــود غير همســـة هـــامـس
طلـــول وإعصـــار وشمس ووحشـــة ... ونحـن بها مـــــــابين لاهٍ ودارس
لقـد أقفـرت حتى خلت من أنـاسهـا ... فليـس بها من مــونـق أو مــؤانـس
ومـــا هلك السكّـــان لكن تـرحّلـوا ... إلى غيرهـــا مـن طيبّـــات المغـــارس
فظلّت خـــلاءً في تقـــادم عهـدهـــا ... إلى أن عفت مطمـــورة في البســـابس
ولـــولا فضـــول بـــالطّبـــاع مـركّب ... لما نُبِشَـتْ آثـــار مـــاضٍ ودارس

وكذلك خـالف علي الخطيب شعراء عصره، فلم ير في اطـلال بابل عظة نـافعة ولا ذكـرى جاذبـة، لم توح إليـه بعظمـة الماضين ولا تطلع الحاضرين. وقد استغـرب كيف تُنبش آثار الماضي المندرس وتخرج إلى النور بقايا الـدول المنقرضة، فكأنه فكّر، كما فكّر من قبله معروف الرصافي، ان الدهـر جدّد للموتى مناقب لم تكن لديهم، فعظّم الناس القبور وتناولوا سكانها بالمدح والاطراء. قال الرصافي:

سقى الـدهـر لـلأموات غـرس مناقب ... يمَيْنٍ فظـل الغـــرس ينمـــو فيبسُـق
أرى كلّ ميـت مـــا تقـــادم عهـــده ... تقـــام لـــه ســـوق الثنـــاء فتنفُق
فأقـــربهم عهـــداً أقـلّ غضـــاضـــة ... وأقـــــدمهم عهـــداً أغضّ وأسمـق
إذا شطّ جيـل خطّ مـن جـــاء بعـــده ... أكـــاذيب عنـــه بـــالثنـــاء تُـــزَوّقُ

من غزليات علي الخطيب:

إلى الحبيبة

أحبّـك حبّـــاً ليس ينسى ويجحـــد ... ومهما يكن فـــالحبّ عنـــدي مخلـــد
أحبـك حبـــا في فنـــون كثيرة ... وأزيـــاء في ألـــوانها تتعـــدّد:
أحبك لـــو أقبلت خُـــوداً رشيقـــة ... لها مثل مـــا للـــورد طيب ومشهـــد
محيّـــاك ميمـــون المطـــالـع مشرق ... تحوم حـــواليـــه عيـــون وأكبـــد
ولحظك فتّــــــان وأنفك أسنـع ... وثغـــرك مفتر وجيـــدك أغيـــد
وشعـــرك مصفـوف الأفـــانين مـرسل ... غـــدائر سبط بعضـــه ومجعّـــد
أحبك لـــو لـفّ القـــوام غـــلالـــة ... تـــريني مـن الأعضـــاء مـــا يتجسّـــد
أحبـك غضبى في فنـــون ورقّـــة ... فأسعـى إلى استرضـــائهـــا أتـــودّد
أحبّك لـــو وليـت وجهك جـــانبـــاً ... كـأن لم يكن بيني وبينك مـــوعـــد

أحبك حبـــاً زاده البين لـــوعـــة فكـــان عنيفـــاً ثـــائراً يتجـــدّد
كأني وهـــذا الحبّ يشتـــدّ صـارخـــاً، خضم بـــه هـــوج الـــريـــاح تعـــربـــد
أحبّك حبـــاً تخوفت أن يُـــرى فيغمـــزه الـــواشي الـــذي يترصّـــد
فكنت حـــريصـــاً في التكتّـم، انها ينم على المكنـــون مـــا ليس يجحـــد:
نحـــول بجسمي واصفـــرار بسحنتي وآهـــات أشـواقـي تصـوب وتصعـــد
أحبك حبـــاً مـــا ارتشفت رحيقـــه على أنـــه زادي الـــذي أتـــزوّد
أحبك حبـــاً سلسبيل فـــراتـــه يثـــرّ واني الظّـــامىء المتـــوجّـــد
أحبك حبـــاً دانيـــات قطـــوفـــه على قـــربها منّـي تنـــاءى وتبعـــد
وقفت على حبّيـك مـــا ملكت يـــدي ومـــا يحتـــوي أمسي ويـــومي والغـــد
أحبك حبـــاً جـلّ شأنـــاً عـن الهوى بـــه النفس مـن أدرانها تتجـــرّد
أحبك حبـــاً عبقـــريـــاً مـــؤاتيـــاً بـــوضع مـن الأوضـــاع لا يتقيّـــد
وحبـــاً وديعـــاً هـــادئاً مترقّقـــاً وحبـــاً جنـــونيـــاً يغـــار ويحقـــد
تـــريـــدينني أن ألـــزم الصبر وادعـــاً ومـــا أنـــا ممّن للسّكينـــة يخلـــد
لئن تصرمـي حبلي ففي الـــذكـــر مـــوئل يخفّف مـن حـــزني الـــذي يتجـــدّد

حـال ومـآل

جـلّ خطبي ومـــــا إليـك سبيـل فلمـن أشتكي ومـــاذا أقـــول؟
كـــم مشير إليّ يســـأل عنّـــي: أفهـــذا متيّـم متبـــول؟
لست أدري مـــا راعـــه غير أني ســاهـم الـوجـه قـد بـراني النحـول
أتهادى في مشيتي كـــالسّكـــارى يعتريني كـــآبـــة وذهـــول
لي من طيفـك الحبيـب مـــلاذ من شجـــون على فـــؤادي تصـــول
انّ يـــومـــاً لقيـــاك تسنح فيـــه غـــرر الـدهـر دونـه والحجـول..

قـضـي الأمـر

قضي الأمـــر وانتهت أيـــامـي وتـــلاشى مـــا كـــان من أحـــلام...
أنـــا مـن ظلّ في الحيـــاة شقيـــاً يتـأسّى بـــالـــوحي والإلهام
أنـــا مـن ظلّ عـــاشقـــا يتفـــانى بـــالهوى الجهـم والهوى البسّـــام
أنـــا مـن أنشـــد الحبيبـــة شعـــراً رائع النّسـج، عبقـــري الغـــرام

ثم صـــار الـــزمـــان غير زمـــاني ... ومقــــامي لـــديك غير مقـــام
وتــــوالـت عليّ ســـود الليـــالي ... أنــــا منهـــا أشقـى عليّ حمامي
ثم ســـاءت مع الـــزمـــان شـــؤوني ... وابتــــلاني بـــالفقــــر والأسقـــام
ثم لان الـــزمـــان شيئـــاً فشيئـــاً ... واشتـــداد الخطـــوب في إيـــلامي
فتنفّسـت في صبـــاح الأمـــاني ... وتبيّنـت مـــوطـىء الأقـــدام
وتماسكـت في مجال المنـــايـــا ... وتـــرفعـت عـن لجاج الخصـــام
وتـــدافعت في زحـــام المعـــالي ... وطـــريقـاً شققت وسط الـــزحـــام
وإذا بي مضيـع، لا المســـاعي ... نـــاجحـــات ولا بلغت مـــرامي
غير أني أقـــــول، والقلـب دام ... لـك منّـي تحيتي وســــلامي

كيف الحال؟

حـــال... كما شـــاء اللئـام بليـــدة ... لا تعـــرف الأفـــراح والأحـــزانـــا
مـــا ميّـــزت شرّ الـــورى وخيـــارهم ... تستقبـل الأحـــرار والعبـــدانـــا
بلهـــاء ســـائرة بغير رويّـــة ... تستصحب الجبنـــاء والشجعـــانـــا
سحقـــاً لها مـا استحسنت مـا استقبحت ... تتقّبل الأضـــداد أيّـــاً كـــانـــا
من حــولها الأحــداث في ضــوضـائهـا ... تترى فما مسّــت لها آذانـــــــا
كــالطّـــود راسخــة فقـــرّ قـــرارهـــا ... لم تلتفــت يسراً ولا ايمانـــــــا
العيش عيش ليس تبلـــو طعمـــه ... سيّـــان إن هـــو قـــد قسـا أو لانـــا
مغمـــورة فيـــه على عـــلاتـــه ... مـــا إن تبـالي عـــزّ أو إن هـــانـــا
وإذا تجمعّـت الشكـــوك حيـــالها ... لا تطلب الإيضـــاح والبرهـــانـــا
قـــد تستقيم صريحة لا تلتـــوي ... والـــوضع يستـــدعي لها البهتـــانـــا
مغـــرورة لا تتّقي مـــا يُتقى ... فبقيت منهـــا مشفقـــاً خشيـــانـــا...
شمطـــاء عـــاطلـــة وكنـت أريـــدهـــا ... حسنـــاء حـــاليـــة حلىً أفنـــانـــا
بخـــلالها ومقـــالها وفعـــالها ... ووصـــالها وصـــدودهـــا أحيـــانـــا
بـــرواحهـــا وغـــدوّهـــا وقـــرارهـــا ... تتعـــرّف الأحـــوال والأزمـــانـــا...
مـــا كنت أحسبُني أنـــاضل حـــالـــةً ... قـــد أتعبتني فكـــرة ولســـانـــا
فلكم رأيـت المخـــزيـــات وأهلهـــا ... فظللـت منهـــا واجماً حيرانـــا

لـــــو لم تكن لي في النضــــال بقيّـــــة للـــزمت حـــالاً فـــاتت الحسبـــانـــا

ظلـــــم

تخبّطت في ليل من الظلم حـــــالك فلم أتبين مسلكـــــاً في المســـالكِ
إذا ســــدّدت لي ضربـــة واتّقيتهـــا فقـــد دفعتني غيرهــــا للمهـــالك
فإن أنْـــأً عن ســوح الخصام مســالماً ففي أثـــري شر الخصـــوم الفـــواتك
إذا نـــافســـوني في طـــريقي تـــركتـــه دعـــــوت لمن يحويـــــه: ربي بـــــارك
لعلّي أغـــــدو من أذاهم بنجـــــوة وأصبح مـن أفعـــالهم غير هـــالك...
كبحت جماح النفس حتى ملكتهــــا ولما ابتغـــــــــاني الهون لم أتمالـك
فأرسلتهـــا هــوجــاء غضبــة حـــانق إذا قـــال: مـــا بـــالي، ولم يتـــدارك
أرى النـاس مـا عـاشـوا نفـوسـاً ضعيفـة إذا رغبـت هـــــــانت ولم تتماسك
أرى النـاس مـا عـاشـوا نفـوسـاً ضعيفـة إذا رغبـت عفّـت ولم تتهـــــــــالك
تلمّست في دنيـــــاي سلماً فلم أجـــد ســوى سـافك يمشي على إثـر ســافك
أخـوض غمار النـــاس لـو كنت مثلهم على أنني لا حــــول لي في المعـــارك
وحيـــد غـــريب لا صحـــاب ولا حمى طـــريـــد شـــديـــد بين شتّى الممالك
وأعجب شيء في بـــــلادي رأيتـــــه عمار الأراضي في خـــــــراب المدارك

وزن وقافيــة

لم يبق عنـــدي مـن حـــول أذود بـــــه إلا كـــلامـــاً مقفّى وهـــو مـــوزونُ
مـــا يصنع المرء في وزن وقـــافيـــة، والظلم مـن حـــولـــه والكيـــد والهون؟
ولا قـــرار لـــه في ظـل مـــوطنـــه وليس تـــؤويـــه دور أو ميـــاديـن
يسعـــى ولا أمـــل يحدوه في عمـــل مصيره بيـــد الأقـــدار مـــرهـــون
مـــا شـــاء من عمل الاّ وضعضعـــه مـن المصـــــاعـب تحريك وتسكين
فـــالعيش مضطـــرب والكسب ممتنع والعقـل في حيرة والجسم مـــوهـــون
بلـــواه بـــالغـــة شكـــواه صـــارخـــة لم يلفـــه النـــاس الا وهـــو محزون
حـــرّ ينـــاضل دون العـــزّ مضطهـــداً ولا قـــــوانين تحميـــــه ولا ديـن
خـــابت مطـــامحه، ســـاءت عـــواقبـــه، صفـــر اليـــدين وفي دنيـــاه مغبـــون
فما انتفـــاعيَ مـن وزن وقـــافيـــة؟ حتى المقـــاييس ضـــاعـت والموازين
أين المفـــرّ، ومـــالي مـن يعـــاضـــدني لي الملائك خصـم والشيـــــاطين

لا ينفع المرء أمـــوال ومـــوهبـــة ... ولا المجـــالس تجدي والـــدواويـن
أعيـذكـم، أهل ودّي، من مشـــاطـرتي ... حـــالاً تحيط بها الأخطـــار والـــدون
حسبي وحسبكـم مــا كـــان من خبري ... إن كـــان تعـــوزكم بعــدُ البراهين

أسائل نفسي

إلامَ خطـــوبي تستفـــزّ شعـــوري ... ويكبـت حلمـي مـــا يجنّ ضميري
تـــردّدت بين الصمت والنطـق حقبـة ... أقـــول لعلّي تستقيم أمـــوري
وضـــاعفت صبري في سراهـــا تعلّـة ... ولكنهـــا ســـاءت فســـاء مصيري
ولست ألـــوم الـــدهـــر أكبر شأنـــه ... بلـــومي على مـــا كـــان غير جـديـــر
ولكن ألـــوم الحلـم عنـــدي وحكمتي ... وطـــول أنـــاتي وانعـــدام شروري
فإني رأيـت القـــوم يخشـــون بعضهم ... إذا مـــا استـــووا في شرّة وغـــرور
وجـــاروا ومـــا عفّـــوا وكـــادوا وزوّروا ... إلى أن تـــراءى الـــزور ليس بـــزور
وقـــد عظّمـــوا مـن لم يكن بمعظّـم ... وقـــد صغّـــروا من لم يكـن بصغير
وليـــــــــس صغير دائماً بصغير ... وليـــــــــس كبير دائماً بكبير
ولكن هـي الأهـــواء تعمـي صحـــابها ... تعيـــد بصير القـــوم غير بصير
كم استمـــرأوا حلـــواً ومـــراً ولم أكن ... لأحسبهـم يستسهلـــون وَعـــور
إذا مـــا ادلهمّ الخطب عـانيت مـوضعي ... فـألفيتنـي وحـــــدي بغير ظهير
تلفـتُّ حـــولي لا أرى لي مخرجـــاً ... كـأني مــــوكـــول بكـلّ عسير
أكـــابـــد عيشـــاً مثـل حظي ســواده ... شغلـت بـــه عـن بهجتـي وسروري
وأدمت يمينـي شـــائكـــات زهـــوره ... تعـــودت منهـــا أن أعـــاف زهـــوري
وأمسكت عـن هـــزل الكـــلام وجـــدّه ... أســـائل نفسي: مـــا يكـــون مسيري
وبعـــد اللّتيـــا والتـي سرت مطـــرقـــاً ... أتمتـم ألفـــاظ الأسـى بـــزفير:
سـأبقى وحيـــدا مـــا حييت محاولاً ... تنـــاسي آمـــالي وكبـت شعـــوري

الشعر الذي أريد

أحـــاول قـرض الشعـــر، وهـــو جموح ... وبـــالنفس تغـــدو حـــاجـة وتـــروح
أجـــاذبـــه حبل القـــوافي أروضـــه ... فينصـــاع منـــه بـــارع وفصيـح
يفيض على عضـب اللســـان بـلاغـة ... يـــرفّ عليهـــا مـن كيـــانيَ روح
إذا كـــان آمـــالاً تفتـح بـــاسماً ... كما افترّ زهـــر بـــالعبير يفـــوح

يمسّ شغـــاف البائـسين بلطفـــه | فيجلـــو هومـــاً مـــا لهنّ مـــزيح
وإن يـك آلامـــاً سكبت عـــواطفي | أكـــــاد بها أبكي أسىً وأنـــــوح
وان يكُ عشقـــاً فـــالفـــؤاد خـــلالـــه | صريع هـــوى قـــد أثخنتـــه جـــروح
يشير ويـــــومي لا يبين، وتـــــارة | يهّم بمكتـــوم الغـــرام يبـــوح
ويعـــــرب عما يعتريـــــه فـإنّـــــه | حليف ضنـى ممّـــا أصيب طـــريـح
وان يك إيقـــاظـــاً هببت أصـــوغـــه | وفي كـــل بيـــت وازع ونصيـــح
إذا استنهض الـــوانين قمنـــا جميعنـــا | خفـــافـــاً ومـــا بـــالنـــاهضين طليح
وفي معـــرض الشـــورى حكيم أخـــو نهىً | يســـود لـــــه رأي أغـــرّ رجيـح
وينقـــد أغـــراض الـــزمـــان وصرفـــه | متـــون لـــــه مـــــا تنقضي وشروح
يـروعـك كـالبحـــر الخضم مهـابـــة | وليـس بـــــه الاّ الضّليـع سَبـــوح
شـــديـــد على الأخصـــام يكبت بأسهم | وعنهـم إذا زال الخصـــام صفـــوح
ولـــوع بتبيـــان الحقـــائق نصّعـــاً | ولـــو كـــان مـن جـــرّائهن ذبيـح
أتحت لـــه صـــدق الشعـــور، وفـــاتني | بـــدنيـــاي من صـــدق الحظـــوظ متيح
ومـــا همني فـــوت المنى، وقـــريحتي | بكـل مجالٍ في القـــــريض تشيـح
فللّـــه شعـــر لم يسعـــه زمـــانـــه | وبعض دنـــاه للـــزمـــان فسيح . . .
عجبت لـــه في السعـد والنحـس عـامـلاً | على جـــانبيـــه ســـانح وبـــريح
بعيـــد عن النقصـــان فيما يـــرومـــه | نـــزوع إلى المجـــد الأثيل طمـــوح
رفيع، عـــزيـــز مـــا أسفّ ومـــا وهى | عليـــه كمال النّـــابغين يلـــوح
ونـــزهتـــه عـن أن يكـــون بضـــاعـــة | مـــداه هجـــاء أو مـــداه مـــديح

السيـاســة

من قصيدة :

تسلمت السيـــاســـة مـــا ملكنـــا | فما أحيت لنـــا أرضـــاً مـــواتـــا
ولا شـــادت لنـــا مجداً رفيعـــاً | ولا عـن حـــوضنـــا ذبّـت عـــداةَ
وكـــافحـت المواهـب واستمـــرت | تحطّـم أهلهـــا ذاتـــاً فـــذاتـــا
إليك القـــوم عـــاينهم تجدهـم | عيـــونـــاً أو سعـــاةً أو جبـــاةَ
فما نبـغ النـــوابـغ في ذراهـــا | ولا ضمّـت عبـــاقـــرة هـــداة
وكـل مفـــوّه أمسـى عيّـــاً | تضـــايقـــه ومـــا يبـــدي شكـــاة

عجبت لأمـــرهـــا قبـــلاً وغبـــاً … تخال المرجفين لها دعـــــــــــاة
ومـــا اختطّت تصـــاميم المعـــالي … وعن أهـــدافهـــا الإصـــلاح فـــاتـــا
وأفســـــدت الخلائق، وهـي غـــرّ، … وصـــار العقل ميـــلاً أو بـــداة
قضـت ظلماً على جلّ الأمـــــاني … وعـــاشـت في تنطّعهـــا افتئـــاتـــا
وضـــاهـت في تبرجهـــا الغـــواني … وبـــرّت في بهارجهـــا الغـــواة
فما اجتـــذبت ســـوى نـــاس أتـوهـــا … عبيـــداً يـــرفعـــون لها الصـــلاة
وصـــــارت للضعيـف سبيـل رزق … وفي دنيـــا التحكم مشتهـــاة
فضلّـت في تخبطهـــا سبيـــلاً … وطـــاشـت في تقلبّهـــا حصـــاة
ومـــا غـــرست بحقـل العلم غـــرسـاً … وفي الآداب مـــا بـــذرت نـــواة
ومـــا اتخذت لـ ـــذي داءٍ دواءً … ولا جعلـت لمرضـــانـــا أســـاة
إذا مـــا الجدّ جـــدّ مضـى خفـــافـاً … مـــريـــدوهـــا يـــرومـــون النجـــاة. . .
ألا ويـح المواطـن مـن بنيهـــا … إذا أضحـى الجنـــــاة لها حماة
ويـــا ويل السيـــاســـة مـن رقيب … يـــريها الموت أحيـــانـــاً حيـــاة
يسيّرهـــا على نهج قـــويـم … يثقفهـــا ويمنعهـــا التفـــاتـــا
والاّ فـــالمواطـن في ظـــلام … يعيـث المفســـدون بها عُتـــاةَ

وقال في انتماء العراق إلى عصبة الأمم (١٩٣٢):

أأعـــلام نصر مـــا أرى في الشـــوارع … ولا نصر الاّ للهـــوى والمطـــامع
يقـــولـــون: نلنـــا لامع الفـــوز عـــاجـــلاً … ومـــا لامعـــاً شمنـــا ولا غير لامع
ولكـن رأينـــا كـلّ مبـكٍ ومضحـك … فـدلّـت على العقبى شكـول الطـلائع

وله:

وكـم هنـــا وطنّي في مظـــاهـــره … بـــالمكـــر ملتفع، بـــالـــدسّ مقتبع
يقـــدم البعض رجـــلاً ثـم يـــرجعهـــا … فكـــان أول مـن لبّـــوا ومـن رجعـــوا
وتلـك شعـــوذة جـــازت على وطـن … أحـــوالـــه فتن، أبنـــاؤه شيع
يـــا ليت أذنـــاً إلى الأحـــرار مصغيـــة … أو ليـت عينـــاً على الظّـــلام تطّلع

أنـور شـاؤل

الشاعر الأديب القـاصّ المحامي أنور شاؤل ولد في الحلـة سنة ١٩٠٤ وتوفي في ١٤ كانون الأول ١٩٨٤ . أصدر مجلة الحاصد الأسبـوعية أكثر من ست سنوات . قال أحمد حسن الزيـات في مجلة الرسـالة المصريـة أن أنور شاؤل ثـاني اثنين مهَّدا لكتابـة القصة الحديثة في العـراق (أما الأول فكـان محمود أحمد السيـد) . وأثنى عليـه جعفر الخليلي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً» فقال إنه من أوائل ممارسي أدب القصة الحديثة وأن مجلته الحاصد كان لها أبلغ الأثر في تشجيع كتابة القصة والفنون الأدبية الأخرى .

ترجمت لأنور شـاؤل ترجمة وافية في كتابي «اعلام اليهـود في العراق الحديث» الصادر سنة ١٩٨٣ . وقـد نشر مجموعـات قصصية ، منهـا : الحصاد الأول (١٩٣٠) في زحـام المدينة (١٩٥٥) أربع قصص صحية (١٩٣٥) قصص من الغرب (١٩٣٧) .

كان شاعراً مطبـوعاً نشر من الدواوين : همسات الزمن (١٩٥٦) وبـزغ فجر جديد (١٩٨٣) . ولـه أيضاً : قصـة حياتي في وادي الـرافدين (١٩٨٠) عليـا وعصام (قصـة سينمائيـة ، ١٩٤٨) وليم تل (مسرحيــة مترجمة ، ١٩٣٢) الطبـاعـة العـامــة : فنـونها وصناعاتها (١٩٦٧) إلخ .

شارك في الحياة الأدبية العـامة بشعره ونثره أعواماً طويلة ، فحيّـا في قصيدته «عذراء أثيوبيـا» جهاد الأحبـاش ضد الغازي الإيطـالي سنة ١٩٣٥ وجلجلت قصـائده خلال الحرب العالمية الثانية تشجب النظام النازي :

نظــــام أقــامـــوه على النـــار والـــدم   وفيــــه استبــاحـــوا كل فعــــل محرّم

وحيّا انتصـارات الحلفاء ودعـوتهم إلى الحرية واستقـلال الشعوب وسيـادة القانـون والنظام . وقد قال :

إن كنت مـن مـــوسى قبسـت عقيـــدتي   فـأنــــا المقيم بظـل ديـن محمّــــد
وسماحـــة الإســـلام كــانـت مـــوئلي   وبـــلاغـــة القـرآن كــانت مـوردي
مــــا نــــال من حبي لأمـــــة أحمد   كـــــوني على ديـن الكليـم تعبّـــدي
سأظـل ذيــاك السمـــوأل في الـــوفـــا   أسعـــدت في بغــــداد أم لم أسعـــد!

أكـرم أحمـد

شـاعر الشبـاب الذي ظـلّ شابـاً بالـروح بـالرغم من كهـولتـه وتمرّسه بـالوظـائف والأعمال .

وهو أكرم بن أحمد أفندي محاسب لواء المنتفق ابن توفيق من عشيرة الكرخية . ولد في البصرة سنة ١٩٠٦ ونقل رضيعـاً إلى بغداد فنشأ بها وتـرعرع في كنف خـاله فـؤاد أفندي

الموظف بالدائرة السنّية. وقد أتم دراسته الثانوية واضطرّ إلى الانصراف إلى العمل لوفاة والده. ولازم عبد الوهاب النائب فأخذ عنه طرفاً من علوم اللغة العربية، واتصل بجميل صدقي الزهاوي وكان من أشياعه ومريديه.

انتظم في سلك الوظيفة كاتباً في مديرية السجون العامة في ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٦، ثم نقل معاون مدير التحرير في متصرفية لواء البصرة فمدير تحرير لواء ديالى (أيلول ١٩٣١) فالحلة فالبصرة (١٩٣٥). وعيّن بعد ذلك مدير ناحية فتنقل في أنحاء العراق حتى أصبح مدير ناحية الأعظمية، ثم رفّع قائممقاماً لقضاء عفك (كانون الأول ١٩٤٢) فأبي صخير (تموز ١٩٤٣) فالصويرة (آذار ١٩٤٤) فالحيّ (أيار ١٩٤٦) فخانقين (١٩٤٦) فعنة (كانون الأول ١٩٤٧) فالحيّ ثانية (نيسان ١٩٤٨) فالمحمودية (نيسان ١٩٥٠) فالصويرة أيضاً (شباط ١٩٥١) فالكاظمية (تشرين الأول ١٩٥١). ورفّع مفتشاً إدارياً (أيلول ١٩٥٢) فمتصرفاً للواء المنتفك (آذار ١٩٥٣) فمتصرف الدليم (كانون الأول ١٩٥٣) حتى أحيل على التقاعد في تشرين الثاني ١٩٥٦، بعد خدمة ثلاثين سنة تدرج خلالها من كاتب صغير إلى موظف إداري كبير.

وقد توفي ببيروت في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٦٨ أثر نوبة قلبية لم تمهله سوى أيام.

شعره وأدبه:

بدأ أكرم أحمد ينظم الشعر شاباً، وكان شعره في أول الأمر تقليدياً جامداً، فمن ذلك رثاؤه لأستاذه عبد الوهاب النائب المتوفى سنة ١٩٢٧:

جفا الحياة وجدّ السّير مضطعنا ... عن معشر حالفوا الأحقاد والإحَنَا
رأى غمار المنايا وهي ثائرة ... فخاضها غير هيّاب وما جبنا
لم يدفنوا ذكره بل ظلّ منتشراً ... وإن هُم دفنوا في قبره البدنا

ثم قرأ عيون الشعر العربي القديم والحديث واتصل بالزهاوي وشعراء المدرسة الحديثة، فصار يقرض الشعر الرقيق ويتصرّف في فنونه وأغراضه، وبرّز في الغزليّات حتى لقّب بشاعر الشباب، ولازمه اللقب سائر حياته.

زاره خيال الحبيبة بعد هجر وفراق، فسرّ به واحتفى وقال:

رسول من خيالك زار وهناً ... وما غير النجوم له رقيب
فقلت، وقد هتفت به حفيّاً ... أعانقه: تذكرني الحبيب
أبحت لك الفؤاد فَحُلَّ فيه ... ففي جفني مقامك لا يطيب
أخاف عليك من جفن قريح ... تؤرقه الطوارق والخطوب
نعمت بقربه أشكو إليه ... صوادع في الفؤاد لها ندوب
وخلت الليل مثل الروض يندى ... به من نشرك الفوّاح طيب...

وحنّ إلى ليالي السعادة والصفاء فتأوّه وتلهف وقال :

حننت إلى الليالي البيض ولّت ... وطاف بخاطري منها خيال
وأنت بجانبي فردوس حبّ ... تبسّم كالربيع به الجمال
تضوّع من مُقَبَّلكِ الغوالي ... ويغمر عينك السّحر الحلال
ومجلسنا حيال الشام تحنو ... علينا من خمائلها الظلال
تناولنا الوشاة بما أحبّوا ... فتمّ لهم لما قصدوا منال
دعينا نغنم اللذات هوجاً ... وخلّيهم وما زعموا وقالوا
ألفت الحبّ تيهاً أو دلالاً ... فهل أغناك تيهك والدلال؟ . . .

هام أكرم أحمد بالجمال فقال :

الهوى نعمة الطبيعة فاضت ... في قلوب تحسّ معنى الوجود
هتفت باسمه الليالي وغنّت ... بأناشيده حياة البيد
أيّ سر قد طلسم الحسن فيه ... ففتنّا بمقلة أو بجيد؟
أي سحر يبدو لعينيك حتى ... تنثني والهاً بقلب عميد؟
رسم الناس للجمال كما شاؤوا ... حدوداً وما له من حدود

وفكّر في مصير الجمال ، وهو العاشق المغرم بالجمال ، فقال :

سألتني ودموع العين ... بالشكوى تبوح
عانس رقّ لها لفظ ... كما قد رقّ روح
ناطق بالشجن الخافي ... بعينيها وضوح
في محيّاها بقايا ... من ملاحات تلوح
أترى الحسن نزيل ... مثلما جاء يروح؟
قلت : لا يغررك وجه ... لك كالصبح مليح
وشعاع من جمال ... كسنى البرق لموح
وعيون فاترات اللحظ ... بالسحر تليح
وأريج الطيب من مبسمك ... العذب يفوح
وكقطر الطلّ دمع ... فوق خدّيك سفوح
عندما يعتلج السهم ... وتهتاج الجروح
إنّ هذا الحسن مثل الروض ... ينـدى ويصوح
وغداً إذ يهجم الشيب ... ويعتلّ الصحيح

وتعـــــــــرّي غصنـك المورق | للعـــــــــاصـف ريـح
يتســـــاوى في حَشـــــا الأرض | مليـــــــح وقبيـــــــح
حيـث لا يغنـي جميـــــــلاً | كبريـــــــاء وجموح

لقد عبّر أكرم أحمد في هذه المقطوعة عن معنـى عزيز على الشعراء تفنّنوا في الإفصاح عنه وبـالغوا في ذكـره على مرّ الـزمان، معنـىً مآلـه أن الشعر خـالد والجمال زائل. ألم يخاطب رونسار الشاعر الفرنسي فتاته الحسناء المدلّة قائلاً:

«حينما تبلغين من العمـر عتيّـاً، وأنت جـالسـة تصطلين بـالنـار مسـاءً، تنسجين وتحوكين على ضوء الشموع، ستقولين إذ تنشدين شعري في زهو وخيلاء: إن رونسار قد أشاد بـذكري يوم كنت رائعـة الجمال... سوف أكـون آنذاك راقداً تحت الثـرى، طيفاً تائهاً في الظلال الهيوليّة. أما أنتِ فسوف تكـونين عجوزاً شمطاء قابعة في الدار، نادمة على حبّي وما أسلفتِ من صدّ وكبرياء...».

ويردّد رونسار نفس هذه الفكرة في مقطوعة أخرى من شعره فيقول: «أيتها المليحة، لنذهب ولنـرَ الوردة التي نشرت في الصباح غـلالتها الأرجوانيـة في ضياء الشمس، هل فقدت في المسـاء أفواف ثوبها الـزاهي وبَشَرَتها المضاهية لحسن طلعتك؟... فيـا أيتها المليحـة، اقطفي شبابك الغـضّ، وأنت في ميعة الصبـا وغضـارة البهاء قبل أن يـذبل جمالك كهذه الوردة في ظلّ المشيب!».

وقديماً قال المتنبّي شاعر العرب:

زوّدينـــــا من حســن وجهك مـــــا دا | م، فحسن الــــوجــــوه حــــال تحول
وصلينـــــا نصلـك في هـــذه الــــدّنيـــا | فـإنّ المقـــــام فيهـــــا قليـل

وقـال بيير كورنـاي (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) يخاطب ممثلـة شابّـة: «لئن كان وجهي قـد شابت خطوطه، اذكري أنك حين تبلغين عمري لن تكوني خيراً مني.

فالزمان الذي يسرّه إهانة الأشياء الجميلة كفيل بأن يذبل زهورك كما غضّن جبيني.

ولكن لي مـزايا بـاهـرة تقيني صروف الـدهر. ولك مـزايـا يعبـدها النـاس. غير أن سجاياي التي تستهينين بها سوف تدوم بعدما تبلى محاسنك...».

***

لقد تألم شـاعرنـا لتأخّر أمتـه وجهلها والأخطار الملمّـة بها وتغافل المسـؤولين عنها، فقال:

نحـن في معـــــــرض الأمـم | كقطيـــــع مـــــن الغنـــم
نـــام عنـــه الـــرعـــاة والـــذئب | يقظـــــــــان لم ينـم
شغلتهـــــم عـــن الحمـــــى | متـــع العيـــش والنعـــم
مـــدهقـــات كـــؤوسهـم | قـــد حســـوهـــا على نغم

لا يحسّــون صرخــة الشعب   من لــذعــة الألم
ولأمــر تصــامـمــوا   مــا بــآذانهم صمم
مــا عليهم وقــد خبت   فيهم جــذوة الهمم
أن أبيحت ديــارهم   واستبيحــت بها الحرم . . .

حتى يقول :

إن للظلم ســاعــة   تتــوارى بمن ظلم
ســوف تشقى حيــاتها   أمــة تعبــد الصّنم

وأكرم أحمد يوالي تحذير رجال الحكم ويدعوهم إلى العدل والبرّ بالشعب ، فيقول :

قل لــلألى استهتروا بــالشعب حكّــامــا   لا تسرفــوا ، إن لــلأقــدار أحكــامــا
غيظ الشعــوب إذا مــا ثــار ثــائره   كــالسّيل يجتــاح جبّــاراً وظــلاّمــا
مغبّــة الظلم بــالبــاغين عــاصفــة   وإن تطــاول عمــر الظلم أعــوامــا

ووقف على قبر معروف الرصافي مؤبّناً ، وقد أودع لحده ، فقال :

أبعــد الــروح تــرسل منــه شعــراً   تكــون لــك الحفيرة مستقــرّا؟
عجبت لحفــرة في الأرض ضــاقــت   مجالاً كيف تحوي منك بحــرا . . .
هــمُ خطّــوا ضريحك في تــرابٍ   ولكنّي جعلت حشــاي قبرا
بــررت بمــوطن سبعين عــامــاً   فســامــك بغضــة وأذى وغــدرا
وحسبك فيــه أنك عشت حــرّاً   على رغم الخطــوب ومُتَّ حــرّا

ومن شعره في الهجاء :

بليت بثعلب يبــدي ولاءً   ويخفي في مطــاوي النفس ضغنــا
جبــان يحسب الأشبــاح ليــلاً   إذا بصرت بها عينــاه جنّــا
وإن سمع الــرعــود لها هــزيم   نهاراً ريع من فــزع وجُنَّــا
كحــربــاء يبــدّل كلّ آن   مخادعــة من الألــوان لــونــا

وشعره متفرق في الصحف والمجلات لم يجمع في ديوان . وقد وضع أكرم أحمد رواية غرامية سماها «ذكريات المدرسة» ، وكتب مقالات أدبية أكثرها في الدفاع عن الزهاوي .

من شعر أكرم أحمد:

رويـــــدك قلبي أطلـت الـــولـــوع ... إلام اضطـــــرابك بين الضلـــــوع؟
حملت مـن الـــوجـــد مـــا لا يطـــاق ... ومن لـــذعـــات النـــوى مـــا يـــروع
تنـــــــــاءوا وشطّت بهم دارهـــم ... وأقفـــــرن ممّـن تحبّ الـــربـــوع
تسيـل دمــــوعـك في إثـــــرهـــم، ... فهل تـــرجـع الظـــاعنين الـــدمـــوع؟

وقال:

يـــا صحـوة الفجـــر، هل عـود فأغنمهـــا ... والكـــفّ تعصر لي خمراً فـــأرتشـــف؟
أروي من الحبّ عينـــاً ملـــؤهـــا نهم ... وخـــافقـــاً من تبـــاريح الجوى يجف
أضمّهـــا وهـي مثل النـــار لاهبـــة ... وأضلعي بعصـــوف الشـــوق تـــرتجف
تفتح الحسـن بسّـــامـــاً بطلعتهـــا، ... أهـــذه طلعـــة أم روضـــة أُنُفُ؟
أمعنت في وردهـــا نشـــوان أقطفـــه: ... ورد الجمال بلحـــظ العين يقتطـــف
يـا فتنـة الشـاعـر الحسّـاس قـد لمست ... فيك العـــواطف شيئـاً فـوق مـا وصفـوا
عينـــاك خمري والنهـــدان خـــابيـــة ... وهـل لمثلي عـن هـــــذيـن منصرف؟
يـا سـاقي الخمـر عَـدِّ الكأس صـافيـة ... عن الـــذين على خمر اللّمـى عكفـــوا

نعمان ثابت عبد اللطيف

الشاعـر الضابط الرئيس الركـن نعمان ثابت عبد اللطيف ولد ببغـداد سنة ١٩٠٥، وانتمى إلى المدرسة العسكرية (١٩٢٤) فتخرج فيهـا ملازماً ثانياً سنة ١٩٢٧. واشترك في دورة الأركان سنة ١٩٣٦ فرفع إلى رتبة رئيس (نقيب) في الجيش. وساهم في الحركات العسكرية في أنحاء بارزان والفرات.

مال إلى قـرض الشعر فتتلمـذ على منير القاضي وأمضـى أوقات فـراغه في الـدراسة والتتبّع. وقد وضع كتبـاً ورسائل عديـدة، وقام صديقـاه إبراهيم أدهم الزهـاوي وعبد الستار القراغـولي بعد وفاته بنشر ديـوانه «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابـه «الجندية في الدولة العبّاسية» (١٩٣٩). ومن مصنفاته المخطـوطة: الألغاز العربية، الجاسوسية، جـواسيس الميـدان، وسائط الاستخبـارات في الحرب، قضـايا التجسّـس الفاصلـة في التاريخ، ورسائل في الحمام الزاجل والحبر السرّي والشطرنج إلخ. وألّف روايات منها: مصرع المتوكل، مأساة القائد السجين، آخر بني سراج.

قتل برصـاصة طـائشة، في أثنـاء حوادث السماوة، في ١٢ حـزيران ١٩٣٧، فـرثاه إبراهيم أدهم الزهاوي قائلاً:

مـــــا عـــــزائي الجميـل عنـك جميل　　وقصير عليـك حـــــزني الطـــــويـل

وقال أيضاً :

يـــا دولـــة السيـف عـــزّي دولـــة القلم　　كلتـــاكما فجعـــت بـــالمفـــرد العلم

وقال عبد الستار القراغولي :

لا تقـل لي : بـــالله أجمـــل عـــزاءا　　إنّ رزئـــي قـــد جـــاوز الأرزاءا

وممّن رثـاه أيضاً عبـد الـرحمٰن البنـاء وحسين الظريفي وكمال نصرت وخضر الطـائي وجميل أحمد الكاظمي وغيرهم .

شعره :

كان نعمان ثابت من شعراء الجيش كمحمود سـامي البارودي وحافظ إبراهيم وعبد الحليم حلمي المصري ، لكنـه امتاز بحسّـه المرهف وعـاطفته المتقـدة ، فكـان الشاعـر الوجداني الأصيل . قال متغزلاً :

ليست النـــار كـــآلام يـــؤجحن ضلـــوعي

تهطل الأمطـــار مـــدراراً وليست كـــدمـــوعي

وولـــوع البلبل الصـــدّاح لا يحكي ولـــوعي

فـــاذكـــريني عنـــدمـــا أسقى بكـــاســـات الفنـــاء

كلّما النيران شبّـــت

كلما الأمطـــار صبّت

وقال :

لست أخشـى رمـــاحك السمهـــريـــة　　ورصـــاصـــاً تصبّـــه البنـــدقيّـــة

بـل خـــدوداً ورديّـــة ولحاظـــاً　　مصلتـــات على رقـــاب البريّـــة

غلبت على شعـره مسحة من الحزن ، فهـو إذا ذكر الحبّ والهيـام راودته فكـرة الموت فقال :

حنـــــــــانيـــك إذا مـــتّ　　فبـــــــــالأوراد غطّينـــي

فـــزهـــر النـــرجس الغـضّ　　يحيّينـــي فيحيينـــي

وغنّينـــي بـــأشعـــــاري　　فـأشعـــاري تعـــزّيني

فـإنّي شـــاعـــر يهوى　　عيـــون الخُرَّد العِينِ

وغمرت نفسه اللوعة والكآبة فقال :

بـــذمّـــــة بـــاريها الـــــذي تتجـــرّع فكـم تلتظي شـــــوقـــــاً وكم تتفجّـع
كـأنّ بجنبيهـــــا الكــــآبـــــة تصطلي ومعتلـج الآلام فيهــــــا مـــــــودّع
وتأرق لا تـــــدري المنــــام جفـــونها إذا مــــا نجـــوم الليل في الليـل تطلع
وتسجع كـــــالــورقـــاء غـــادرت الحمى إذا سمعـت ورقـــــاً على الأيك تسجع
وإن نهل الأمـــــواج مـن وابـل الحيــــا تسـحّ على وجنـــــاتها الصفـــــر أدمـع
كـأن أوار الحبّ يحيـي مـــــــــواتها إذا التهبـت فيــــه قلـــوب وأضلـع
وقـــــد تعتريها هـــزّة تلــــو هــــزّة لـــذكــرى أويقــات مضت ليس تــرجع
زمـــان بـــه تسقـى السّـلافــة، والهوى يجلّلهــــــا، والعيش فينــــان ممـــرع
ألا هي نفسي، يـــا أحبّـــاي، فـــارفقـــوا بنفسي التي آمـــاقهــــا الـــدمع تهمع

وذكر وطنه وأحبّاءه فقال:

أمـــا للنــوى نـأي يـــرفّـــه خـاطـــري فنـــوحي على الـــزوراء أدمى محاجـــري
ســلامي على مثـوى أمــانيّ عنـــدمـــا تميل الصَّبـــا بــاليـــانعـات النّـــواضر
ســــلامي عليهـــا مـــا تهادى نسيمهـــا على بسـط حيكت بتبر الأزاهــــــر. . .
أحبّــــــاي في الـــزوراء مهما ديـــاركم تنـــاءت فأنتم ملء سمعـي ونـــاظـــري

وعشق آله وقومه فقال:

عـــــــــربيّ يعشـق العـــــربـــــــا لا تلـــــــومـــــــوه إذا انتحبـــــــا
أســـــــــد كلّـــت مخالبـــــــــه وجـــــــواد في السبــــــاق كبـــــا
نـــــــــادراً تلقـــــــــاه مبتسماً ولكـم تلقـــــــــاه مكتئبـــــــــا

ومن جميل شعره قصيدة مترجمة عن الإنكليزية في رثاء طفل:

الكــــــوخ رغم بســـــاطــــة الأريـــــاف جلّت محاسنـــــه عــــن الأوصـــــاف

إلى أن يقول:

والطفل أنحلـــــه السّقــــام وهـــــدّه هـمّ يـــــدكّ رواسيـــــــاً وبحـــــارا
قـــــد أظلمت عينـــــاه، أمّـــا خـــدّه فـــذوى، وأمـــــا حسنـــــه فتـــوارى
والأم قـــــــد ركعـت بجنـب سريـــــره تبكي بهمس في الظــــلام الـــــدامس
كي لا يحسّ وحيـــــدهـــا ببكـــــائهـــا يـــا ويح من يـــؤذيــه صـوت الهامس
صلّت بخـــــاطـرهـــا وأعـــرب دمعهـــا عن حـــرقــــة في نفسهـــا ومـــرارة
ومن المصيبـــــة أن تفيض دمــــوعهـــا عنـــد الصـــلاة بلهفـــة وحـــرارة. . .

قال محمود الدرّة في كتابه «الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١» إن النقيب نعمان ثابت الأعظمي من ضباط الاستخبارات الأكفاء، وكان قومياً عنيفاً يعمل في مقر قيادة الفريق بكر صدقي خلال الحركات العسكرية في الفرات (١٩٣٦). وقتل برصاصة من الوراء، ونسب قتله إلى مؤامرة دبرت بأمر بكر ونفذها ضابط من قوة الشرطة السيارة.

نديم الأطرقجي

ثلاثة وعشرون ربيعاً وأحلام وشعر قليل: تلك حصيلة نديم الأطرقجي من الحياة. أما المرض والألم والحرمان فذلك حظّ النفس الحسّاسة المرهفة والشباب الفوّار.

وماذا نعلم عن نديم محمّد الأطرقجي؟ لقد ولد ببغداد سنة ١٩١٤ لأسرة موصلية النجار، ودرس اللغة الإنكليزية التي ترجم عنها شيئاً من الشعر والنثر. وهام بالتمثيل، فانتمى إلى جمعية أنصار التمثيل التي كانت تضمّ أقرانه من الشبّان الهواة برئاسة عبد الله العزاوي. وارتقى خشبة المسرح في بغداد وبعض الألوية. قرض الشعر يافعاً فأفرغ نفسه في كؤوسه رضاباً نديّاً، وابتلي بالفقر والسلّ فتوفّي في مستشفى العزل ببغداد في نيسان ١٩٣٧.

ذلك ما نعلمه عن حياة نديم، ونعلم أنّه كان شاعراً وجدانياً مترسّماً خطى شعراء المهجر الذين اتخذوا من آلامهم ومشاعرهم قيثارة يعزفون عليها أناشيد الوجود والعدم. كان نديم مثال الفراشة التي تمنحها الطبيعة أيام الربيع القلائل لتزور الرياض وتسامر الزهور وتسكر بالعطور. وكان نديم مثال الشعراء الذين قضوا في ميعة الشباب، مثل طرفة بن العبد والشاب الظريف التلمساني وشاترتن وشيلي وكيتس وهيجيسيب مورو، ومثل محمّد تيمور الذي ضاق ذرعاً بثروته وجاه آله ودراسته العالية، فانصرف إلى التمثيل وأنس برفقة المحرومين والبائسين، وشعر بأجله القريب فقال:

هيّئوا لي في باطن الأرض قبراً	ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي	ومن النور شقوتي وعذابي

وإنّنا نحسّ لذكرى نديم بمودّة عاطفية، كتلك المودة العاطفية التي نحسّ بها ـ كما قال الأديب الفرنسيّ جول ساندو ـ لذكرى الأصدقاء الشبّان الذين حصدهم الدهر قبل الأوان، وإنّ ذلك الحسّ لينمو في الحشاشة كما تنمو الزهرة الغريبة الغامضة...

كانت حياة نديم كالقطار الذي ركبه ووصفه قائلاً:

صفــر القطــار فأسرعـت عجـلاتــه	تطــوي السّهــول وعــالي الأنجــاد
فــوجمتُ أنظـــر بــاسماً بمـــرارة	لمدينـــة فيهـــا قبرت فـــؤادي
لا الطبّ بعـــد اليـــوم يشفـي علّتي	ويـــزيـل عنّي لـــوعتي وسهـــادي
فـالجسم لا يـرجى الشفـاء لـدائه	إنْ قلبُـــه أضحى صريع عـــوادي

أجل، لقـد اشتـدّ عليـه الداء وزايلـه الأمل ورأى شبح الموت ينظـر إليـه كما ينظـر الوحش إلى فريسته، فقال:

أقضي الليـالي بين أحضـان مضجعي	أنـــادي، ومـــا من راحـم يتقـــرّب
مـــريض أذاب الـــداء قلبي، ولم أهن	ومـا كنـت أدري في كفـاحي ســأُغْلَبُ
فبــــؤت كسير النفـس أحمل خيبتي	وقلبـــاً غــــدا فيـــه دمي يتصبّب
وأصبحت وحـدي في ابتعـادٍ وعـزلـة	أنـاضل كـالمسجـون حين يعـذّب
وليس سميري في الـــدجى غير شمعـة	تـــذوب اشتعـــالاً مثل قلبي وتنضب
فأشعـــر أن الليل طـــال ظـلامـه	فأبقى لنـــور الفجـــر أسعى وأرقب
وأسمع في طـيّ الظـــلام هــــواتفــاً	وأنظـــر أشبــاحــاً تلــوح وتغــرب
فأفـــزع من تلك المشـــاهـــد خـائفـاً	وتسرع دقّـــات الفـــــؤاد وتضرب

رأى نديم شبح الموت، وكان في وسعه أن يخاطبه كما خاطبه من قبله الشاعر الفرنسيّ أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤) فيقول:

«أيها الموت، إنك تستطيع أن تنتظر، فابتعد، ألا ابتعد.

اذهب واذرف بلسم العزاء في القلوب التي يأكلها العار والفزع واليأس الشاحب.

أمّـا أنا فـالطبيعـة تمدّ لي بسطها السنـدسيّـة، والحبّ يحفظ لي قُبَلَـه، وربّة الشعـر معازفها.

إنني لا أريد الموت بعد...».

لقد كان في وسعه أن يقول، كما قال أندره شنييه أيضاً:

«ليمضي الفيلسوف الرواقي ذو العينين الجامدتين وليسع إلى معانقة الموت.

أما أنا فأبكي وأتشبّث بأذيال الرجاء.

وإذا هبت رياح الشمال القاتمة، أحني هامتي ثم أرفعها.

ولئن كانت الأيام مرّة، إنّ ثمة أياماً حلوة بهيجة.

آه! فأيّ عسل لم يترك قطّ طعماً مريراً، وأيّ بحر لم تزعزعه قطّ العواصف؟...»

لكنّ شاعرنا الشاب لم يجد بداً من الاستسلام والارتماء في حضن الموت، فرثته مجلة الحاصد التي طالما نشرت شعره على صفحاتها قائلة: «توفي. . . بعد صراع عنيف بين جسمه الواهن وبين مرض السلّ الوبيل، فقضى نحبه وحيداً في مستشفى العزل. . . بكاه الشعر الفيّاض الحيّ، بكته النجوم اللوامع التي طالما حاكى شعره عقودها الزاهية».

إننا لا نعرف شيئاً عن طفولة نديم الأطرقجي وصباه، لكننا نسمعه يقول في قصيدته «ابن الشقاء»:

قد حرمت العطف من أهل قسوا	وأنا طفل رضيع وسط حضنِ
فرضعت البؤس من مهد الشّقا	وذوى من قلّة الإرواء غصني
ليس لي ثوب يقيني في الشّتا	زمهرير البرد أو يدفع عنّي
أرتدي سملاً إذا هبّت به	نسمة طار، فتذري الدمع عيني
ولثقل الفلس جيبي لم يزن،	ورنين الفلس لم تسمعه أذني
يضحك الناس ولا يرثون لي	وأرى أطفالهم تسخر منّي

ولقد اختار الفتى البائس الشعر وهفا إلى الحبّ، فهل حظي بهما ووجد فيهما السّلوة والعزاء؟ قال:

يشكو الحياة ويشدو	مثل الحمامة شاعر
يبكي فؤاداً خليّاً	قد بات في الحبّ عاثر

للغاب سار بناي	ألحانه ذات روعه
فأصبح الغاب يبكي	وأكسب الدّوح لوعه
وحمرة الورد غاضت	والغصن أرسل دمعه
وقام يبكي عليه	فوق الأريكة (؟) طائر
وحلّ بالغاب صمت	يحكي سكون المقابر

ولاحت للشاعر عروس الغاب فعاهدته أن ترعى مودّته. لكنّها غدرت ولم تعرف الوفاء ومنحت حبّها سواه، فطوى صدره على الحزن والأسى، وأطلق نغماته الشجيّة تردّدها الرياح وينشدها المحبّون المتيّمون.

وعلّل الشاعر نفسه بالطيوف والأوهام، وتراءت لعينيه أخيلة الهناء كالسراب الخادع، فقال:

ألهو وأعبث في الحيـــــــاة لعلّني	أسلــو هومــاً في الفــؤاد خفيّــه
فـأضـمّ ليلى أو أزور عفيفـــــة	أو أشتكـي ضرّ الهوى لنجيّـــــه
لكـنّ همّي لم يـــــــزل متحكّماً	في القلب يــذكي لــوعــة منسيّـه
قـالـوا: الخمـور تـزيل عنك شـواغـلاً	فشربتهــا بــالأكـــؤس الخزفيّــه
فأذاب كـأس الخمــــر حبّــة مهجتي	وكـأنّ شربي كـــان كـأس منيّـــه
فسكبت فـــوق الأرض خمر زجـــاجتي	وتـــركـت كأسي في الثـرى مــرميّــه
مـــا زلت أبحث في الحيـــاة مفتّشـــاً	عـن نشـــوة تنسي الحزيـن بليّـــه
فضللـت في طـــرق الحيـــاة مشرّداً	وتخذت أخيلـــة الهنـــاء مطيّـــة . . .

ورأى فتـاة أحلامـه تطلّ من الشبّاك . هـل كان أوّل شـاعر يـرى الحبّ في النافـذة البعيدة؟

إنّ روبرت برنز شاعر اسكوتلاندة الوطني (١٧٥٩ ـ ١٧٩٦) قد دعا حبيبته أن تطلّ من نافذتها ، فقال :

«يا ماري ، اجلسي إلى نـافذتك ، فقد أزفت الساعـة الموعودة المؤكّدة ، وأريني تلك البسمات وهاته النظرات التي تجعل من كنوز البخيل عنوان الفقر . . .

إنّ حبي ليشبه وردة حمراء قانية قد تفتحت براعمها في حزيران .

إنّ حبي كاللحن الذي تصدح أنغامه في لطف واتّساق . . . » .

وجيرار دي نرفال (١٨٠٨ ــ ١٨٥٥) الشاعر الفرنسيّ المجـذوب قد تخيّل في شعره قصراً من قصور الإقطـاع في القرون القديمة ، طلي زجـاج نوافذه باللـون الأحمر الصارخ وأحاطت به الـرياض الزاهرة ، وغسل قدميه النهـر الجاري بين الورود . وأطلّت السيّدة من نافذتها العـالية شقراء ذات عينين سوداوين ، متّشحة بثياب العصـور الخالية . لقد تذكّرها الشاعر ، فقد رآها من قبل في حياة سالفة !

أما شاعرنا الأطرقجي فلم ير صاحبته من قبل ، فقال :

هيفـــاء قـــد ملكت نهاي بحسنهـــا	مـن غير معـــرفـــة وغير لقــــاء
بـانـت من الشبّـاك تنظـر فــاكتـوى	قلبـي بحـبّ زاد في إيـــــــــذائي
فـــوقفت مبهـــوتـــاً أمـــام جمالها	مـن روعـــة كـــالصّخـــرة الصمّاء
فتعجّبـــت مـــن وقفتـــي وتحيّرت	وبقيت مصعــــوقـــاً بــلا إبــداء
غمــزت بعينيهـا تسـائل: يـا فتى ،	مـــاذا دهـــاك ، فهل أُصَبْتَ بــداء؟
لم أستطع قـــولاً ، وبعـــد هنيهــــة	كلّمتهـــا بـــالغمـــز والإيماء :
إنّي قتيلـك ، فـــارحميني وانظـــري	حـــالي فقـــد أصبحت في بلـــواء

فجمال وجهك قد أضاع مشاعري … وغدوت، يا حسناء، في بيداء

فاحمرّ من خجل لقولي وجهها، … غضبت لذاك وأطرقت بحياء

وبلا جواب أغلقت شبّاكها … في قسوة كالنّافر المستاء

فوقفت أنظر ما جرى من غادتي … والتعتُ من صدّ وكثر جفاء

كم مرّة حاولت في طرق الهوى … صيداً فبؤت بخيبة وعناء

وظلّ شاعرنا باحثاً عن جنّة الحبّ، فقال:

هيّا معي للروض، وابتسمي … فهناك ننسى ما نعانيه

نصغي لشدو الطير في فرح … وبشدونا السّامي نناجيه

والماء يجري فوق أرجلنا … كالتبر يبدو في مجاريه

والزهر تخفينا خمائله … عن كلّ واشٍ لا نصافيه

نجني الهوى غضاً ونهصره، … يا هند، من بعد الملمّات

***

إنّ الهوى سرّ سنعرفه، … يا هند، من ضمّ وتقبيل

فالحبّ لم يفقه حلاوته … من تاه في أقوال تضليل

ولينقل الواشون ما عرفوا … عنّا، ولو شاؤوا بتهويل

لسنا نخاف اليوم كيدهم … فليذهبوا في كلّ تأويل

ولنقطف اللذّات دانيةً، … يا هند، من غصن المسرّات

لقد ابتلي، كما ابتلي شعراء الغزل من قبله، بالواشي ينغص عليه سروره والرقيب يقضّ مضجعه، فيا له من محبّ بائس.

ولازم الشقاء شاعرنا وحفّت به الأحزان، فدعا نفسه الأسيّة إلى انتهاب ملذّات الحياة الفانية وعدم المبالاة بما كان وما سيكون. وعصفت الأشجان قبله بالشاعر الإنكليزي برسي شيلي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢)، فطلب الراحة في الموت وقال:

«إنّ الشمس دافئة والسماء صافية، والأمواج تتراقص سريعة متألقة. والجزر اللازورديّة والجبال المكسوّة بالجليد تأتزر ببأس الظهيرة الأرجوانيّ الشفّاف.

ونسمة الأرض النديّة خفيفة حول أكمامها التي لم تتفتّح. وقد توحّدت في نداء واحد من البهجة والسرور، أصوات الرياح والأطيار وأمواج البحر الخضمّ. . .

وا أسفاه! ليس لي من أمل ولا عافية ولا راحة في قرارة نفسي ولا هدوء حواليّ، ولا الرضا، تلك الثروة الزاخرة التي يجدها الحكيم في التأمّل والتفكير. . .

وحتّى اليأس نفسه قد أصبح الآن لطيفاً كالرياح والمياه الهادئة الوديعة. وإنّ في وسعي أن أرقد كالصبيّ الذي أنهكه التعب فأبكي على حياة الشجون التي حملت أعباءها، ولا أزال، إلى أن يأتيني الموت خلسة كالنعاس، فأشعر في الجوّ الدافىء بصفحة خدّي تصبح باردة هامدة وأسمع البحر ينفخ في فكري المائت نغماته الراتبة الأخيرة».

ذلك ما فعلته الهموم بالشاعر الإنكليزي ودفعت به إلى هوّة الفناء. أما شاعرنا الفتى المنذور للموت فقد حاول، على نقيضه، أن يتمسّك بأذيال الحياة ويفوز بمباهجها، فقال:

لا تبتئس عندما تبلى بأحزان	واهنأ بلذّات عمر زائل فان
دعهم يقولون: بعد الموت وقفتنا،	وخلّني في ضلالي شبه سكران
أنظر: قصيدي من اللذات أنفقه	لأنّ يوم غدٍ في طيّ نسيان
فكم لثمن شفاه الغانيات، وكم	بالقرب منهنّ قد واريت أشجاني
وكم رميت بقلبي بينهنّ، وما	خفت العيون التي تصمي باتقان
فما ارتويت وكأس الحبّ ما فرغت	فلذّ لي في الهوى إنفاق أزماني
لا أستقرّ على غصن ولا سرر	مثل الفراشة تلهو لهو نشوان
هذي الحياة جنان الخلد، كوثرها	شهد اللّمى في كؤوس صنع رضوان
والحور هذي الغواني، إن عقلت، فلا	تضيّع العمر في زهد وخسران

واشتدّ على شاعرنا الداء فلم يغن عنه الشعر ولا أجداه اهتبال الملاذّ. وحار في أمره الطبيب:

قال الطبيب: دع القريض ونظمه	فالشعر يجهد قوّة الأعصاب
هذا نحولك لا يفيد له الدّوا،	إنّ الكتابة مبعث الأوصاب
ماذا استفدت من القريض ونشره	في كلّ مطبوع وكلّ كتاب؟
إنّي أراك بلا رداء لائق	وبلا فراش ناعم وثياب
تضني دماغك هاصراً أفكاره	فتذوب ملتهباً كعود ثقاب
إنّ السّقام، إذا بقيت معانداً،	يرديك أو يرميك دون صواب
فأجبته: بالشعر أسلو بلوتي	وبه أسطّر شقوتي وعذابي
إنّي سأسكب مهجتي ومدامعي	لقصائدي وأصبّ ذوب شبابي

وكانت حشرجة المحتضر فقال:

قلبي مـن الأمــراض بــات ممــزّقــا وأمضّني مــــرضي وجسمـي أُزْهِقَـــا
فعـــرفـت أنّي ســـوف أرحل تـــاركـــاً دار الضيـــافـــة، قـــاصـــداً دار البقـــا
ففـــزعـت من هـــول النـــذيـــر ووقعـــه لضيــــاع قصـــد رمـت أن يتحقّقـــا
قـــد كنت أرجـــو أن أعيش لفَيْنَـــة حتـى أحقّق مـــــا أردت من البَقَـــا
لكنّما حلمـي الجميـل قـــــد اختفـى لما رأى شبـح الممات محلّقـــــــا
فـــذويت في روض الحيـــاة كـــزهـــرة مــــاتت جفـــافـــاً قبل أن تتشقّقـــا
هـــذي هي الـــدنيـــا فـــلا تـأمن بها، فــــرحيقهـــــا سمّ وخمرتها الشَّقَـــا
أرثيك، يـــا نفسي، فقـــد أزف النّـــوى ودنـــا البعـــاد وبـــان يـــوم الملتقى

وكـــذلك قضى شـاعـرنا كما قضى مـن قبله الشـــاعر الفـرنسي جـوزيف جلبرت Joseph Gilbert (١٧٥١ ـ ١٧٨٠)، ذلك الذي قال:

«لقد جئت يوماً إلى مأدبة الحياة ضيفاً شقياً، ثم علقت بي حبال الموت.

إنني أموت، وعلى قبري الذي أمضي إليه وشيكاً، لن يأتي أحد ليذرف الدموع.

فسـلام عليك، أيتهـا الحقـول التي أحببت، وأنت، أيتهـا السهـول السنـدسيـة الجميلة، أيتها الغابات الضاحكة في عزلتها.

أيتها السماء، مظلّة الإنسان، أيتها الطبيعة الزاهرة.

عليك سلام الوداع الأخير!

آه، وليتمتع بمـرأى جمالك المقدّس طـويـلاً كلّ أولئك الأصـدقاء الـذين لا يصل وداعي إلى أسماعهم. ولينامـوا في أحضان الموت بعد حيـاة حافلة، ولتهطل الـدموع في مماتهم، وليقم بعض الأصدقاء بإغماض جفونهم!».

ذلك نديم الأطـرقجي الشاعـر، أما الناثـر فكتب قصصاً قصيرة منها: اللقـاء بعد الموت، عشيق الجنيّة، العناق الأخير. ووضع مسرحية الثـورة العربية التي مثّلت ببغداد في تموز ١٩٣٦ وقام هو نفسه بتشخيص بعض أدوارها.

ونظم في تلك السنة مسرحية شعرية بعنوان «مصرع السّلام» متأثراً بالأحداث العالمية آنذاك، من تغلّب الـدكتاتورين هتلـر وموسوليني وتعكيرهما لصفـو السلم والاستيلاء على الحبشة وتفجير الحرب الأهلية في إسبانيـا. جمع الأطرقجي في مسرحيته الخير والشرّ وإله الحرب وربّة السـلام، فتبجّح الشر بفرض سلطانه على العـالم ودحره لجيوش الخير والإحسان. ويبرز له الخير واهناً مرذولاً، لكنـه قويّ الإيمان بنفسه وخلوده. ولاحت في الأفق المدافع والدبابـات والرشّاشات والجنود تسير إلى القتال. ثم ظهـر الطاغية الجبّار

تعنو له الملوك والشعـوب، فرفع عقيرته مفتخراً بصولته ومجده، وكـان له الفوز على ربّة السلام.

ووضع نـديم الأطـرقجي مسرحيّتين أخيرتين هما: الاعتراف وابن الـدلال، مثّلتـا في حياته وبعد مماته ـ على ما قال الممثل القديم علي الأنصاري.

إن شعـراء كثيرين اخترمهم الدهـر كـالزهـرة اليانعـة قبل أن يتيح لهم، مثل نـديم الأطرقجي، إبراز مواهبهم الكامنة. وكان ذلك حظ الشاعر الفرنسيّ جاك دي لا تاي Jacques de la Taille الـذي ألف مسرحيـة ديـدون (١٥٦٠) وشفعهـا بعـد سنتين بمسرحية دارا والإسكندر، ثم لم يلبث أن توفّي في العشرين من عمره. لقد هوى التمثيل ومارسه مع أخيه جون، ثم طوى الزمان صفحتهما وعفّى على أثرهما، كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

هل الـــدهـــر إلاّ ليـــلةٌ ونهارهـــا وإلا طلـــوعُ الشمس ثـم غيـــارهـــا؟

أو كما قال الجرهمي القديم:

كأنْ لم يكـن بين الحجـــون إلى الصفـــا أنيس ولم يسمـــر بمكّـــة ســـامـــر

عبد القادر رشيد الناصري

الشاعر عبد القادر بن رشيد بن إسماعيل، ولد في السليمانية سنة ١٩٢٠ من أبوين كرديين. ونزح والده إلى الناصرية فاستوطنها ولقّب بالناصري. وأتم عبد القادر دراسته الثـانويـة في بغداد، وأخـذ ينظم الشعر، واتصل بمحمـد مهدي الجواهـري وغيره من أسـاطين الأدب. ودرس البلاغـة والمنطق على الشيخ عبد القـادر عبد الـرزاق الخطيب (خطيب جامع الإمام الأعظم توفي في أيلول ١٩٦٩).

عمل محرراً في الصحف كجريـدة الرائد والنداء والأوقات البغـدادية، ووظف في دار الإذاعة العراقيـة سنة ١٩٤٨. وأوفد سنة ١٩٤٩ لإكمال دراسته في بـاريس، لكنه عاد بعد سنة واحدة لأسباب اضطرارية.

ووظف في أمانـة العاصمة في وظيفة لا تكـاد تسدّ رمقه. وقد أدركتـه حرفة الأدب، واستبـدّت بـه الآلام النفسيـة، وطلب في الخمرة عـزاءً فملكت لبّـه وأوهنت أعصـابـه وأهانت عزة نفسه. وتوفي ببغداد في ١٥ أيار ١٩٦٢.

مؤلفاته وشعره:

كان الناصري شاعراً مطبوعاً، كثير الحياء، جمّ الأدب. أصدر ديوان «ألحان الألم» سنة ١٩٣٩، ومسرحية ضحايا المجتمع (١٩٣٧)، وديوان صوت فلسطين (١٩٤٨). و «الأسفار» (١٩٤٩). وأصدر كـامل خميس «ديوان عبد القادر رشيـد الناصري» سنة

١٩٦٥ ـ ٦٦ في جزءين. وترك دواوين مخطوطة لم يتيسّر له طبعها، منها: «الآثام» و «الأفعى» و «غزل» و «أغاني السندباد» و «عرائس ومآتم» و «الأعماق» و «زينب» (ملحمة شعرية) و «قصة حبّي» (ملحمة شعرية) و «شموع تحترق» و «خمريّات الناصري» و «الفاكهة المحرّمة» (مسرحية منظومة). وله مقالات نشرها في الصحف العراقية والعربية.

وقد تفوّق عبد القادر رشيد الناصري في الغزل فنظم فيه فنوناً وألواناً، ولهج بذكر المرأة والخمرة، وتنقل في الحبّ كالفراشة تنتقل بين زهور الرياض. خفضته أرزاء الحياة وأعباؤها، ورفعه الشعر إلى المحلّ السّامق، وخلّده خلود المحبّ الوامق.

إنّ حظّ شاعرنا الناصري ليذكرنا بالشاعر الإنكليزي المحبّ جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) الذي أصيب بداء السلّ وقضى نحبه في ريعان الشباب قبل أن يروّي ظمأه من الحياة والحبّ والشعر. كان الناصريّ حالماً كشقيقه الروحيّ الإنكليزي الذي قال: «إنّ الحالم وحده يسمّم كلّ أيامه ويحمل من العذاب أكثر مما تستحقه كل آثامه». ورفع الناصريّ المرأة إلى مرتبة الآلهة، ثم وصمها بالغدر والخيانة وشبّهها بالأفعى. أما كيتس فقد روى في شعره قصة «لاميا» أو «لامعة» المرأة الأفعى التي ذابت أمام عيني محبّها، وحديث «السيدة الجميلة التي لا ترحم» تلك الحسناء التي رآها الفارس الصنديد وسحره جمالها، فعمل لرأسها إكليلاً ولمعصمها أساور، وأظهرت له الحبّ ثم تركته وانياً مضنى سليب الفؤاد.

وقد غبط كيتس في آخر شعر له النجم المتألق في الرقيع وتمنّى لو كان ثابتاً مثله، لا منفرداً في عزلته السامية تحت جناح الليل، ولكن ناعماً بحب الحبيبة الجميل، نشوان بأنفاسها العذبة، فيحيا كذلك إلى الأبد أو يغشى عليه في سكرات الموت.

وغرّد الناصريّ بقلب كليم فقال:

أحبّكِ، والهوى وتر صدوح، ... وأنسام معطّرة وروح
ومجمرة دم العشاق فيها ... بخور كلما احترقت تفوح
وفردوس من المتع الغوالي ... على شطآنه يحلو الصّبوح
أحبّكِ، هل علمت، سلي دموعي ... على كفّيك لو سئلت تبوح
أحبّكِ، هل علمت بأن روحي ... على شفتيك ذائبة تنوح
وإني قد عصرت دمي غراماً ... فأزهر من دمي طلح وشيح
وإني لو أبوح بسرّ حبّي ... لناح على فمي الوتر الذبيح
وهل تدري الشقائق في الروابي ... بأن دمي بمبسمها يلوح؟
أحبكِ، يا سهيل، فكل عرق ... من الأشواق ملتاع جريح

تنـــاهـى في هــــواك، فكـل آهٍ		يضيق بنـــارهـــا الصـــدر الفسيح
إذا عـــانقـت طيفـك في خيـــالي،		وطيفـك بـــاللّقـــا أبـــداً شحيـح
فإني قـــد نـــذرت إليك عمـــري		وعمـــــري في هـــواك سنـىً لَموح
ومـــا رتّلت أشعـــاري غنـــاءً		ولكـن غـــــــرّدت فيـكِ الجروح

وقال في أشواقه الحائرة:

سكـرنـــا، يـا سهيلـة، من هـــوانـا		فخلّي الكأس يـــرشفهـــا ســـوانـــا
دعيهـــا للنّــدامى يحتســـوهـــا		كفـــانـــا خمر صبـــوتنـــا كفـــانـــا
ألسنـــــــــا بلبلين بكـلّ دوح		لنـــا عـشّ مـــلأنـــاه حنـــانـــا؟
زرعنـــا الحبّ في الـــدنيـــا دمـــوعـــاً		فأزهـــر واحـــةً وزهـــا جِنـــانـــا
فـإن نبخل على العشّـــــاق فيـــه		فما قطفت أزاهـــره يـــدانـــا...
شـــدونـــا، والهوى وتـــر حنـــون،		وخمر عتّقـت فصفـت دنـــانـــا
وعـــرس كـــالـــربيع يفيض حسنـــاً		ويسخـــو بـــالشـــذا آنـــاً فـــآنـــا
وعيــــــد للمنى مــــــا لاح إلاّ		أجـــدّ لنـــا مبـــاهجنـــا الحسـانـــا
فمــــن عينيـــــك في عينـــيّ نبـــع		تـــدفّق بـــالحنين ومـــا سقـــانـــا
ومـن ذاتي وذاتـك بيـت شعـــــــر		رقيق كـــالهوى يـــزهـــو افتتـــانـــا

وقال في كرمة الهوى:

أيـا كـرمـة للحبّ يـزهـو بها الصّبـا،		تبـــاركت عنقـــوداً وظـــلاًّ وملعبـــا
سألتـك بـالحرمـان يأكـل خـاطـري		وبـــالجوع يستلقي بعينيّ مُتْعَبَـــا
وبـــالجرح ظمآنـــاً وبـــالسهم غـــائراً		وبـالـدمع مسفـوحـاً وبـالعمـر مجدبا
أمـا هـزّك الشـوق الـذي هـزّ خـافقي		فبـــــاح بأسرار الجمال وشبّبـــــا؟
ونضّر لي حقلي فـأينع غـــــرســــه		ومسّ ثـرى عمـري الجديب فـأخصبـا
وطـــار بأحـــلامـي وجنّح خـــاطـــري		وأطلع في آفـــاقيَ السّـــود كـــوكبـــا
وجـــدّد أعـــراس الشبـــاب وسحـــره		ومـــا العمـــر إلا الحبّ واللهـــو والصّبـــا

وفني الناصريّ في الحبّ وذاب في شخص محبـوبته فقـال في مقطوعته «أنت» نـاعتاً إياهـا بأكـوابه ودنّـه ونـدامـاه وفنّه وقيثارتـه ولحنه وقمره وضميره. ثم قال إنه يتملاّها في ثغـر الصبـاح البـاسم وخـرير الجدول الحالم ونسمـة الـروض وبلبل الـدوح، حتى يقول:

أنـــــتِ في قلبـــــي حنين ... ودمـــــوع مـلء عينـــــي
أنـتِ في روحـي ابتهـــــال ... وصـــــلاة مـــــلء أذني
فكـأني أنـــــا جـــــزء ... منك أو جـــزءتِ منـــــي[1]
بـل أنـــــا أنـتِ التـي ... أبصرهـــــا أو أنـت أنّي

وهكـذا تغنّى النّـاصريّ بـالحبّ واللهـو والصبـا، ومضى لم يمتّع بـالحبّ واللهـو والصبا، ذلك الشاعر الذي قال:

جـف نبعـي وشـف روحـي الغليـل ... وتمشى على حطـامي الـذبـول
وغـدا قلبـي النـدي يبـابـاً ... مـا بـه واحـة ولا سلسبيـل
وارتضـت نفسي الجريحة بـالـوهـم ... وللـوهم يـركن المخـذول
فـزع صـارخ يلـف حيـاتي ... فحيـاتي تلفـت وذهـول
وفـراغ كـوحشـة القبر ازجيـه ... فـلا فـرحـة ولا تـرتيل...

من قصيدة:

إلى الخالـدة

غـدائرك السّـود، يـا فتنتي، ... عنـاقيـد لم تحْوِهـا داليـة
أفـاعٍ تـدلّـت على منكبيك ... فَجُنّـت بها المقل الـرانيـة
غـديـر من العطـر هـذا الحريـر ... تنفّس عن ليلـة سـاجيـة
إذا قبّلتـه شفـاه النّسيم ... سرى الطيب في النّسمـة السـاريـة
فـدى نـاظـريك جـراح الهوى ... تفجّـرت شـوقـاً بـأعـراقيـة
فسهمك إن غـار في مهجتي ... حنـوتُ على السّهـم، يـا قـاسيـة
وإن عـربـدت حـول روحي الجحيم ... تلمّست جنّتـك الغـاويـة
أحـواء، لمّا يـزل آدم ... يفتّش عن جنّـة ثـانيـة
سألتكِ، كيـف أعـرتِ الـدّجى ... سـواد غـدائرك الـداجيـة؟
فكـم غـاب في ظلّهـا عـاشق ... تخدّره الفتنـة الطّـاغيـة
أخـالـدة الحسن، لـولا الجمال ... لمـا غـرّدت بـالهـوى قـافيـة
فمن سحـر عينيك سحـر الغنـاء ... وأصـداء قيثـارتي الشّـاديـة

(١) تِ مخفّف أنت لضرورة الشعر.

كمال نصرت

شاعر البؤس والأسى، كمال نصرت وهو كمال الدين نصرت بن توفيق بن طه بن ياسين بن طاهر بن السيد عثمان، ولد في كربلاء سنة ١٩٠٧، وتعلم في مدارسها. وانتمى الى كلية الإمام الأعظم، لكن انصرف عن الدراسة بعد أمد.

وأصدر مجلة الرصافة الأسبوعية في كانون الثاني ١٩٣٠، وأعاد إصدارها في حزيران من السنة نفسها، فلم تعمّر طويلاً. وكان محرراً في صحف مختلفة كجريدة الزمان والفرات والرائد وحبزبوز. وعيّن موظفاً في أمانة العاصمة.

نشر شعره في الصحف والمجلات، ثم جمعه في ديوان طبع سنة ١٩٦٨. ووضع مسرحية شعرية بعنوان «وفاء العرب» (١٩٦٩).

سجل ترجمة حياته بقلمه في تموز ١٩٣٥، فقال:

«ونشأت يتيماً محروماً من حنان الأم وعطف الوالد. توفيت والدتي وأنا ابن سنتين، واتّبعها أبي ــ وهو في ريعان الشباب ــ وأنا لم أتجاوز إذ ذاك الربيع الثالث، فكفلتني جدّتي والدة أبي. فنشأت في حجرها، وقد عكفت على تربيتي، فقرأت عليها القرآن الكريم ومبادىء العلوم الأولية والكتابة باللغتين العربية والتركيّة. ثم انتقلت جدّتي الى جوار ربّها، فكفلني عمي المرحوم عزت بك القائمقام المتقاعد، إلا أنني عشت مهملاً في هذه البيئة الجديدة لا يسأل عني ولا يعتني بي أحد. وقد قاسيت من ضروب العذاب والشقاء مالم تحتمله نفسي الكبيرة وجسدي الواهن الصغير. وكم كنت أتألم كلما رأيت الأولاد الصغار غادين رائحين الى المدرسة، فرحين مستبشرين، ولا أستطيع مشاركتهم بالجلوس معهم على رحلة التدريس، لأني كنت مهملاً كما ذكرت، ولم يعتنِ أحد بتربيتي وتهذيبي التهذيب الصحيح. غير أني وجدت من نفسي حافزاً لدخول المدرسة، فذهبت الى أحد كتاتيب البلدة، فسرعان ما قبلني بعد محاورة قصيرة. فدرست مبادىء الحساب والفقه وشيئاً من التاريخ والجغرافية.

«وفي رأس السنة الدراسية دخلت المدرسة الابتدائية، وكان التدريس باللغة التركية طبعاً، وكنت أتقنها إتقاناً جيداً لأنها كانت لغة العائلة التي نشأت بين ظهرانيها. ولهذا تقدمت جميع رفاقي في الدروس وظهرت عليهم في الامتحانات وأحرزت الشهادة الابتدائية. وبعد الاحتلال قبلت في الصفّ الأخير من المدرسة البارودية، ثم تركتها وانتقلت الى كلية الامام الأعظم. فدرست فيها العلوم العربية أربع سنوات. ولكن بعض الظروف القاسية حالت بيني وبين أخذ الشهادة، فتركتها مضطراً ودرست على بعض العلماء.

«ومنذ هذا العهد صار لي ولع شديد بقرض الشعر، فعكفت على مطالعة بعض

الدواوين لمشاهير شعراء العرب كالمتنبيّ وابن الرومي والبحتري وأبي تمام وبشّار وأبي نؤاس، كما عكفت على قراءة كتب الأدب القديمة منها والحديثة، وحفظت قسماً كبيراً من شعر المتنبّي والشريف الرضي، إلا أنني الى شعر الرضي أميل منه الى المتنبي لسهولة لفظ الأوّل وتعقد ألفاظ الثاني. وإني ميّال بطبيعتي الى فخامة اللفظ في الشعر ومتانة التركيب فيه، وقد نظمت الشعر في شتى المواضيع، وجلّ ما نظمت في الشكوى والوصف والغزل. ونشر قسم كبير من قصائدي في مختلف الجرائد والمجلات. وأما اليوم فإني في شاغل عن قرض الشعر بأمور العيش في هذه الحياة التي لا تفتأ تناوىء كل أديب حرّ، فهو منها في جحيم لا يخمد أواره».

من شعره، قال في رثاء سعد زغلول:

أنظر الى المجد كيف اليوم ينهدم ... وعروة الملك كيف اليوم تنفصم
وكيف غال الردى طوداً سما شرفاً ... في المكرمات وكيف الموت يخترم
وكيف أودع قلب الشرق نار أسىً ... فقد الزعيم الذي باهت به الأمم...
إنّا سنذكر سعداً، والفؤاد به ... نار تشبّ وفي الأحشاء تضطرم
إنّا سنذكر سعداً كلما طلعت ... شمس النهار ووافت بعدها الظّلم
قد كان في مصر خير الناس كلهم ... وكان أحسن من تسعى به قدم
وكان سيفاً على الأعداء منصلتاً ... وكان بحراً به الأمواج تلتطم
وكان للعرب عوناً في مصائبهم ... وكان ذخراً وفيه الشمل ملتئم...
يا سعد، شعبك آلى أن يقيم على ... عهد الولاء ويبقى وهو يلتئم
وسوف يظفر بالآمال أجمعها ... وسوف يخفق في عليائه العلم
وسوف يبقى على الأيام متّحداً ... والإتّحاد به الأقوام تعتصم
وسوف يقتحم الأخطار مزدرياً ... وسوف عن ساحتيه الضيم ينهزم

وله في الغزل:

أيحول فيما بيننا أن نلتقي، ... في الله والحبّ الطّهور، عذول؟
مالي وما للعاذلين، فليتهم ... بُكْمٌ فلا دجل ولا تضليل
أهواك لا عن مطمح أو مطمع: ... إنّي امرؤ عفّ الضمير نبيل...

وقال في سنة ١٩٢٨:

أرى كلّ يوم في العراق وزارة ... تقوم وأخرى بعدها في تَثَبُّتِ
فلا هذه ترجى لدفع ملمّة ... ولا هذه تسعى لتحرير أمتي

وقال :

ألا مـــا لهذا الغـــرب يستعبـــد الشرقـــا … فبعـــداً لـــه بعـــداً وسحقـــاً لـــه سحقـــا

لـــه الـــويـل من مستعبـــد قـــدّ قلبـــه … من الصمّ لم يعـــرف بأحكـــامـــه الـرفقـــا

تعـاني شعـــوب الشرق من جـــور حكمـــه … مكـــائد ســـدّت دون غـــايـــاتها الطـــرقـــا

تـــروم انطـــلاقـــاً مـــن قيـــود اعتســـافـــه … ويأبـى ســـوى أن تستضـــام وأن تشقى

أقـــام عليهـــا حـــاجـــزاً من عيـــونـــه … فلم تستطـــع فعـــلاً ولم تستطع نطقـــا

وسخّـــرهـــا تسخير عبـــد مـــذلّل … يحاول عتقـــاً وهـــو لا يجد العتقـــا

وســـام بنيهـــا الخسـف في جبروتـــه … وبـــاغتهم قتـــلاً وبـــادرهم محقـــا

وجـــرّعهم كـأســـاً من الـــذل علقماً … تكـــاد بـــه تنشق أحشـــاؤهـــم شقّـــا

وقـد أصيب كمال نصرت بمـرض عضـال أقعده في داره أعـوامـاً حتى قضى نحبـه ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٤ .

محمود الحبّوبي

ورث الشعر عن عمّه الشاعر المجتهد المجاهد محمد سعيد الحبوبي . وقد ولد محمود بن حسين الحبـوبي في النجف سنـة ١٩٠٤ ، ورضع لبـان معـارفهـا ونشأ وتـرتـرع في معاهدها . وكان أحد مؤسسّي الرابطة الأدبية سنة ١٩٣٢ ، وأصبح أميناً لسرّها .

ثم انتقل الى بغداد سنة ١٩٤٨ وأقام فيها حتى أدركته الوفاة بها في أول أيّار ١٩٦٩ . كـان رضيّ الخلق ، أبيّ النفس ، إنسانيّ النزعـة ، حلـو الحديث ، مشرق الابتسامـة ، لم يعمل في تجارة ولا وظيفة ، بل عـاش عيشة تقشّف وقناعة على إيراد عقـار له في مسقط رأسه .

وقد عني بجمع ديوان محمد رضا الشبيبي (المطبـوع في القاهرة سنة ١٩٤٠) وديوان محمد جواد الشبيبي وديوان محمد سعيد الحبـوبي . وأصدر الجزء الأول من ديوانه (ديوان محمـود الحبـوبي) سنـة ١٩٤٨ ، وربـاعيات محمـود الحبـوبي (١٩٥١) شـاعـر الحيـاة (موشح ، ١٩٦٩) .

شعره

محمود الحبوبي شاعر عربي وطني علقت روحه بالعراق وتوزعت بين فلسطين ومصر ولبنان وسورية وسائر أقطار العروبة ، فشعره يـزخر بذكرها ويتألم لألمها ويفرح لفرحها . وكانت آخـر قصيدة نظمها قبيل وفـاته في فلسطين ، أعـدها لتلقى في مهرجـان الشعر المقام في بغداد آنئذٍ .

إن وطن الحبوبي حبيبه ومعشوقه، فهو يقول:

ليت الألى فتنتهم الأحداق ... باتوا وهم لبلادهم عشّاق
ما خير حسنٍ لا يدوم وصبوة ... تفنى وهجرٍ ما يكاد يطاق؟
أنا إن فتنت ففيك، يا وطني، وكم ... هزّت لذكرك قلبيَ الأشواق
غذّيت حبّك والتمائم في يدي، ... وألفته وبجيديَ الأطواق
يجري هواك محبّباً مجرى دمي ... مني إذا ذكر الهوى مشتاق
إن كان خمرته الشفاه فإنّما ... خمري الشهيّة ماؤك الرقراق
أو راقه الخدّ الأسيل فلم يرق ... عينيَّ إلاّ الحقل والأوراق
وإذا هناه شذاً يضوع فقد هنا ... هذا الفؤاد نسيمك العبّاق
أو بات يطربه الغناء ففيك لي ... من كلّ ورقاء شدت إسحاق
وإذا ابتغى الخلق الجميل فبغيتي ... أن تزهر الآداب والأخلاق

وهو إذ يحبّ وطنه يريد نهضته وتقدّمه ورخاء أهليه من عامل وفلاح. فهو يندب حال الريف المهجور:

خلت المنازل والمرابع ... فاكفف فليس بهنّ سامع
ماذا وقوفك وهي قفرى ... من أماجدها بلاقع
لم يبق منهم نهشل ... بين البيوت ولا مجاشع

وهو يأسى للكادح المحروم:

أيّها الكادح المرزّأ عيشاً، ... خلِّ هذي البلاد وَأْوِ القفارا
خلّها هازئاً بها وبمن فيها ... عبيداً تستخدم الأحرارا
خلّها وانتزع هوىً لك فيها ... من قديم وأسدل عليه الستارا
خلّها فالكهوف أرحب صدراً ... لك منها والوحش أوفى ذمارا...
لست حراً إن ترضَ أن تلبس القوم ... حريراً وتلبس الأطمارا
لست حراً إن ترضَ أن تجني الشوك ... ويجنوا ممّا غرست الثمارا

وهو يخاطب الأغنياء ويدعوهم الى العطف على المعوزين وإطعام الجياع وتجفيف دموع اليتامى، فيقول:

أيّها المثقل الخِوان طعاما ... راق للعين منظراً ونظاما
حوله صفّت الفواكه أنواعاً ... وقد فاضت الكؤوس مداما

كـل هنيئــاً واشرب هنيئــاً ولا تعبأ   بمن قـال: قـد فعلت حـرامـا
أيطيب الطعـام أكـلاً وتهنـا   الخمـر شربـاً على أنينِ الأيـامى؟
أم يلـذّ الإفطـار من قـوت قـوم   قـد طـووا يـومهـم اليك صيامـا؟
لا تُصِـغْ مسمعـاً لنصحِ كهـذا   واهْنَ واتـرك للبـائسين الـرغـامـا

وهو يهيم بالحرية ويناشدها الرفق بالناس:

أكثيرة العشّـاق في الأمـم   قـد طـال هجـرك فـارفقي بِهِمِ
الـوضع أظلم فـابـزغي قمـراً   وتجهّم القـانـون فـابتسمي...

ومحمـود الحبوبي بعـد ذلك شـاعر عـاطفي يتألم لـلإنسان والحيـوان، بل يتألم حتى للنملة تدبّ على الأرض. وله رثاء يفيض باللوعة والدموع، منه رثاؤه لأبيه إذ يقول:

لا شعّ منبلجـاً لعين الـرائي   صبحٌ بـدا وطـلائعَ الأرزاء
أأبي، وعـزّ عليّ أنك لم تجب   صـوتي ولم تسمع لـديك نـدائي
سرعـانَ مـا سـاء النـوائب جمعنـا   فمشـت ببينِ بيننـا وتنـائي
لـو كنتُ أُعْطَى مـا أودّ وأشتهي   لـوددتُ بعـدك أن يـزول بقـائي...

لقد أدركتـه حرفة الأدب، فلم يعجب لـلأمر ولم يستغربـه، وهو الذي عـرف حال الأديب في وطنه وقال:

بلـد يعيش بـه الأديب غـريبـا   أشقى الـورى من عـاش فيـه أديبـا
يجلـو الكـروب عن الأنـام، ولم يـزل   من كـربـه أوفى الأنـام نصيبـا
ويـذوب قلبـاً كي يـرى شركـاءه   في الشعب أهنـأ أنفسـاً وقلـوبـا
ولـع بإنماء الحيـاة لقـومـه.   حتى تجفّ حيـاتـه وتـذوبـا

قال محمود الحبّوبي من قصيدة بعنوان «عاصفة»:

يـا نفسُ، حسبك مـا لقيت فـودّعي   عهـد الهوى وإلى رشـادك فـارجعي
عـودي الى مـا كنتِ فيـه سعيـدة   ـ أعني السّلـوّ ـ وبـالحيـاة تمتّعي
وخـذي نصيبك من هنـائك، فـالهوى   لا يستقـرّ مع الهنـا في مـوضع
شرط المحبّين الشقـاء، ومـن خـلا،   يـا نفس، منـه فإنّما هـو مـدّعي
فـدعي التصـابي لـلأُلَى لم يحسبـوا   خلقـوا لغير صبـابـة وتـولّع
وتيقّظي، يـا نفس، سكـرى واغسلي   درن الأنـام بطـاهـرات الأدمع
صونـي مواهبـك الثمينـة واحـرصـي   أن تغـرسي الأوراد في مستنقع
وعلى شعـاع العلم والأدب اسلكي   نحـو الحقيقـة في طـريـق مهيع...

خضر الطائي

شاعر سمّاه غازي عبد الحميد الكنين «الجنديّ المجهول في سماء الأدب العراقي الحديث». ولد خضر عباس الطائي في بغداد سنة ١٩١٠، وأصل أسرته من سنبس القبيلة الطائية النازلة في أراضي شمامك بقضاء مخمور بين الزابين. وقد أتمّ دراسته الابتدائية، ثم لازم الشيوخ قاسم القيسي وعبد الوهاب النائب ونجم الدين الواعظ وغيرهم ودرس عليهم علوم العربية والدين. وانتمى الى جامعة آل البيت (١٩٢٦) فتخرّج فيها سنة ١٩٢٩ وعيّن مدرساً في البصرة. وعمل بعد ذلك في سلك التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية في عنة وبغداد والحلة حتى اعتزل الخدمة في حزيران ١٩٦١.

وقد أدركته الوفاةفي بغداد في ٢ تشرين الثاني ١٩٦٩.

مؤلفاته وشعره:

كان الشاعر خضر الطائي هادئاً منزوياً لم يسع الى الشهرة حتى انطبق عليه قول عبد الله بن عمر العَرْجي (المتوفى في نحو سنة ٧٣٨م) الذي تولّى تحقيق ديوانه مع رشيد العبيدي:

أضاعوني، وأيّ فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

نظم الطائي الشعر يافعاً، واختلف الى مجلس جميل صدقي الزهاوي وندوات الأدب، واقتفى آثار أحمد شوقي في مسرحياته المنظومة. قال عبد القادر البرّاك (جريدة الجمهورية البغدادية، ٧/ ١١/ ١٩٦٩):

«ولقد كان اعتزاز الطائي بانتسابه لطيء مصدر إعجابه وتخليده للشاعر العربيّ الكبير حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمّام، فكان يترسّم خطاه في كل ما نظم من شعر في مناسبات عديدة. وبلغ من وفائه لهذا الشاعر أن تقصّى كل ما كتب عنه، فخرج على الناس بكتاب فنّد فيه الكثير من آراء الدكتورين طه حسين وعمر فرّوخ في هذا الشاعر، وقد أحسنت وزارة الثقافة في طبع هذا الكتاب...

«لقد نظم خضر الطائي قصائد رائعة في مناسبات وطنية وقومية ودينية عبّر فيها عما يدور في نفوس الأمة من الانفعالات والدوافع والآمال والمطامح في شعر محكّك أفقده التحكيك والمعاودة ما كان يجب أن يكون فيه من تدفق وانسياب، فهو من بقايا مدرسة العمود الشعري في مبانيه ومعانيه. وكان التزامه الجامد بآراء هذه المدرسة حائلاً دون تحليقه فيما نظم من مسرحيات شعرية استحق أن يكون لها رائداً للمسرحية الشعرية في العراق. ذلك أن مسرحية قيس لبنى وأهل الكهف الشعريّتين كانتا أسبق المسرحيات

الشعرية التي أنتجها الشعراء العراقيون بعد أن نالت مسرحيات أمير الشعر شوقي إعجاب كافة أدباء وشعراء العرب».

حقق الطائي بالاشتراك مع رشيد العبيدي ديوان العرجي وطبعاه سنة ١٩٥٦، وألفّا معاً «دليل النحو الواضح»، وهو كتاب مدرسي.

وللطائي عدا ذلك: مسرحية قيس لبنى (١٩٣٤) مسرحية أصحاب الكهف والرقيم (١٩٦١) أبو تمّام الطائي (١٩٦٦)، الخ. ومن آثاره المخطوطة ديوان شعره ومسرحيته سيف بن ذي يزن ودراسة عن الحطيئة ونقد لديوان محمد بن عبد الملك الزيات وديوان الشيخ صالح التميمي.

قال في روعة الشعر:

ابتغِ النجم للخلود مكانا ... واجعل الفنّ سلّماً والبيانا

وتأمل زهر الطبيعة في ربوتها ... تلقَ روعة وافتتانا

كوّنته يد الربيع من الفنّ ... ومن سحره البديع فكانا

كلما طافت العيون عليه ... شاهدت فيه منظراً فتّانا

يتهادى على الزمان ويزهو ... في نواحي الحياة آناً فآنا

هبة من مواهب الله جاءت ... لتغذّي العقول والوجدانا

ملأت ساحة البسيطة تبراً ... ولجيناً ولؤلؤاً وجمانا

فربت مثل جنّة الخلد في الزهو ... وأحيت بروحها الأذهانا

نسج الفنّ جانبيها ووشّاها ... فرقّت خمائلاً وجنانا

طاف فيها براحتيه ابتداعاً ... فأقامت لشكره مهرجانا

فالتمس في نسيمها روعة الشعر ... وحسن الخيال والألحانا

وكن البلبل الذي إن تغنّى ... سحر الكون صوته والزمانا

وتلقّ المعانيَ الغرّ منها ... تلقَ أبكارهن فيها حسانا

وقال في التمثيل:

كلّلوا هامة الممثل غارا ... وانثروا في طريقه الأزهارا

وأقيموا من الفنون صروحاً ... خالدات تغالب الأقدارا

أظلم العيش في الحياة فلّما ... سطع الفنّ في الحياة استنارا

وهدى القلب للجمال فغنّى ... بالقوافي وحرّك الأوتارا

نغمات تسري بهنّ الأماني ... صبوة وانبساطة وادّكارا

ما على القلب أن يخفّ بسحر ... يستخفّ العقول والأفكارا

حتى يقول :

ايــــه يـــا أيها الممثل هـــــذا ... مسرح الـــدهـــر فـــارفع الأستـــارا
قم ومثل فيـــه الحيـــاة كما تبـــدو ... بشتـى شـــــؤونها أطـــــوارا
قم ومثّل فيـــه الحيـــاة ابتســـامـــاً ... أو دمـــوعـــاً تسيلهـــا مـــدرارا
قـم ومثّل فيـــه الحيـــاة جـــلالاً ... قـم ومثّل فيـــه الحيـــاة صغـــارا
قـم ومثّل فيــــه الحيـــــاة نعيماً ... أو جحيماً تـــؤجّـج الأرض نـــارا
قم ومثّل فيـــه الحيـــاة ومـــا فيهـــا ... لكـي ننظـــر الحيـــاة جهـــارا
قـم ومثّـل لنـــا الحيـــاة الى أن ... يســـدل الموت دونها الأستـــارا

وقال يرثي أباه :

عـــزاؤك، يـــا قلبي، وكيف عـــزائيـــا ... وقـــد غـــاب عني مـــوئلي ورجـــائيـــا
نقمت الــرضـا عـن بهجـة العيش بعـده ... فلم أُلْفَ إلا عن دمـــوعـيَ راضيـــا؟
هـــل البرّ إلاّ أن أردّد ذكـــــره ... خـــواطـــر يتركن المنـــايـــا أمـــانيـــا؟
يحبّبـن للقلـب الحنين الى الـــــرّدى ... حنينـــاً الى من بـــات في اللحـد ثـــاويـــا
فـــديـت بنفسي نـــائماً في تـــرابـــه ... وقـد كـــان في المحـراب يطـوي اللّيـــاليـــا
لـــه الله مجهـــوداً مـن السّقم مـــا رأى ... ســـوى الصبر ممّـــا قـــد ألمّ مـــداويـــا
شفتـــه من الـــداء المنيّـــة بعـــد مـــا ... تحدّى بـــه حكم القضـــاء النّطـــاسيـــا
سأبكيـــه لا أبقي من الـــدمـع بعـــده ... لعينـيَ حتّى ألفـظ النفس بـــاقيـــا
بقيّـــة مـن يحنـــو عليّ فـــؤاده ... وأكـــرم من يهفـــو إليـــه فـــؤاديـــا
ثـــلاثين عـــامـــاً عشتهـنّ بظلّـــه ... فلم أرهـــا في العمـــر إلاّ ليـــاليـــا
ومن لـــذّة الـــذكـــرى أردّد عهـــدهـــا ... دقـــائق أحصي حسنهـــا وثـــوانيـــا . . .
أيـــا ســـاكنـــاً تحت التراب، تحيّـــة ... تعـــوّدت فيهـــا أن تـــردّ جـــوابيـــا
ستبقى لك الـــذكـــرى وإن أبعـــدت بنـــا ... وهيهـــات لا نـــرضى عليهـــا التّنـــاسيـــا

وقال من قصيدة نظمها في رثاء زعيم مصر سعد زغلول :

لا الحزن ينفعـــــــــه ولا الصبر ... شعب مضـى بسعـــوده الـــدهـــر
آمـــالـــــه أمست مضيّعـــــة ... وطـــريق نيـل مـــرامـــه وعـــر
قـــد كـــان ينصره أخـــو ظفـــر ... واليـــــوم لا ظفـــــر ولا نصر

ليت الـــزمـــان يـــدور منقلبـــاً فيعـــود مثل قـــديمـــه الأمـــر

مـــاذا على الأيـــام لـــو تـــركت سعـــداً تنـــال بـــه المنى مصر؟

بـــالأمس ضـمّ اليـــه نجـــدتها واليـــوم ضمّ عظـــامـــه القبر

وقد سار في هذه القصيـدة على نهج جميل صدقي الزهاوي فوحّـد الوزن ونوّع الرويّ طلباً للتجديد.

***

نظم خضر الطـائي قصصاً من التاريـخ العربي كقصيدة «معن بـن زائدة الشيباني» التي يقول منها:

مـن كمعن في حلمـــــه، من كمعـن في نـــداه، مـن مثلـــه في الطعـــان؟

عـــربيّ كأنّ أخـــلاقـــه الغـــرّ نجـــــوم السماء في اللّمعـــــان

قـــدّمتـــه خـــلائف من بني الـــ (م) عبّـــاس حتّى سما بـأعلى مكـــان

وحبتـــه ولايـــة البصرة الفيحـــاء (م) لمّا رأتـــــه طـــــوع البنـــــان

فمشى العـــــدل والأمـــــان بها في ظلّـــــه وازدهـت على البلـــــدان

***

مـــرّ يـومـــاً بـــه رجـــال أحـاطـــوا بفتـى مـن ســـــلائل الأعيـــــان

وضعـــوا القيـد في يـديـه ورجليـه (م) فـأمسى في ذلّـــــة وهـــــوان

زعمـــــوا أنـــــه أديـن بـــــذنـب فـــوشـــوا بـــالفتى الى السلطـــان

والـــوشـايـــات طـرق كلّ كـــذوب عـــاجـــز أو ســـلاح كـلّ جبـــان

استنجد الفتى الأسير بمعن فأجـاره وأمّنه. وسخط الخليفة حين بلغه الأمـر، فدعا معناً وأنّبه على فعله وتحدّيه لأعوان السلطان، فاعتذر معن.

قـــال: عفـــواً، يـا سيّـــدي، أنـا عبـــد لم أكـن بـــــالمخـــــالـف الخوّان

إنّ عـــذري، يـــا سيّـــدي، إن عـــذري أن أليـيّ نـــداء من قـــد رجـــاني

كيف ألـــوي عمّن ينـــادي: أجـرني، وهـــو دون الـــرجـــال طـــراً دعـــاني؟

عـــوّدتني على الجميل كما كـــانت (م) حماة الضعيـف مـــن شيبـــــــان

إنـني ذلـك الحســـــام، فصُـلْ بي تـــــرني ذائداً عن الأوطـــــان

كـم عـــدوّ قتلتـــه بحســـامـي، كـم خصيم طعنتـــــه بسنـــــاني؟

أولم أستحقّ في خـــــدمـــــاتي أن تـــراني أهـــلاً لفخـــر أتـــاني؟

يـــا كثير الهبـــات، هب لي فـــرداً واحـــداً عـن جميع صرعـي طعـــاني

ورضي الخليفة عنه فقرّبه وأدنى مكانه وعفا عن جاره وأكرمه .

حسين علي الأعظمي

من رجال الأدب والفقه والقانون، ولد حسين علي الأعظمي بضاحية الأعظمية شماليّ بغداد سنة ١٩٠٧ ودرس في كلية الإمام الأعظم وجامعة آل البيت . وتخرّج سنة ١٩٢٨ فعيّن مدرساً في كلية الإمام الأعظم نفسها .

وانتمى الى كليّة الحقوق (١٩٣٢)، فلما تخرج فيها مارس المحاماة أمداً وجيزاً، ثم عيّن مدرساً معيداً في تلك الكلية (آذار ١٩٣٦) . وظل يدرس في كلية الحقوق ببغداد حتى أصبح أستاذاً (كانون الثاني ١٩٤٧) ورئيساً لقسم الشريعة وعميداً للكلية .

وقد توفي ببغداد في ٥ أيلول ١٩٥٥ . وضع مصنّفات كثيرة في الحقوق، منها: علم الميراث (١٩٣٨) والوصايا (١٩٣٩) الوجيز في أصول الفقه وتاريخ التشريع (١٩٤٢) أحكام الزواج (١٩٤٦) أحكام الأوقاف (١٩٤٧) الأحوال الشخصية (١٩٤٧) أصول الفقه (١٩٤٨) الوصايا والمواريث (١٩٤٨) .

كان حسين علي الأعظمي شاعراً أديباً تفرقت قصائده في الصحف والمجلات . وقد نشر: أناشيد وأدبيات الفتاة (١٩٢٦) مع ابن سينا (١٩٥٢) .

أهدته صبيحة الشيخ داود مسبحة فقال فيها قصيدة، منها:

جاءت إليّ بسبحة من أدمع ... أو سبحة من أكبد وقلوب
من جيد راهبة تسبّح ربّها ... في الدير باسم مسيحها المحبوب
خلعت بها ثوب الذنوب بزحلة ... وخلعتُ في بغداد ثوب ذنوبي
وعكفتُ في محراب قلبي خاشعاً ... لأنال في محرابه مطلوبي
متعلقاً بالله جلّ جلاله ... متشفّعاً بحبيبه وحبيبي
متوسلاً متأملاً متضرّعاً ... متطلعاً في لوحه المكتوب
مترقّباً عند الغروب شروقه ... لتدور بي شمس بدون غروب،
وتسير في بحر الوجود سفينتي ... بشراع روحي أو بخار لهيبي
وتطوف حول حبيبها هيمانةً ... بجماله من غير عين رقيب
فهو القريب لهائم في قربه ... ولمن جفا ونأى فغير قريب
وهو المجيب لعاشقيه سُؤلهم ... ولمن طغى في الأرض غير مجيب
.... الخ

محمّد هادي الدفتر

الشاعر الصحفي محمد هادي بن علي الدفتر. ولد بـالبصرة سنة ١٩٠٤ ونشأ بها. وتعلّم في مدارسها. نزع منذ فجر صباه الى الأدب، فقرض الشعر وكتب المقالات وعمل في القضايا الوطنية.

وجاء الى بغـداد فحرّر في صحفها. ، ثـم أصدر جريـدة «الدفتر» (١٩٤١) واشترك بعـد ذلك في إصدار جـريدة «النهـار». ومضى في سنيـه الأخيرة الى الكويت، فأدركـه الحمام فيها في ٨ أيلول ١٩٦٦.

عرف شاعراً أجاد في وصف الطبيعـة ونظم ديوان شعر بعنوان «من وحي المصايف» (١٩٤٥). وألف أيضاً: نظرة اليقين (١٩٢٩) أمرؤ القيس وأشعاره، صفحة من رحلة الإمام الـزنجاني وخطبه في الأقطـار العربية والعـواصم الإسلاميـة (في جزءين ١٩٤٧) الخ.

من شعره في قرية بنجوين:

قضى الله أن يـرمي بـرحلي لقـريـة	تـوهمتهـا خلـداً فماثلهـا الخلـد
بصـوّرهـا فكـري لعيني جنّـة	بها الحور والـولـدان والـراح والشّهـد

وقال في شلاّل:

مـررت بشـلال فقلت بنعتـه	وقـد كـان مـرفضّ الأفـاويـق ينبع
تغـذّيـه أثـداء الجبـال بـدَرّهـا	وتـرفـده الـوديـان فيهـا وتترع
فتحسبـه، والماء ينسـاب جـاريـاً،	تعـاريج بـرق في سحـاب يلعلع
يلجلج مـا بين الجلاميـد هـازجـاً	بلجّتـه والموج للمـوج يقـرع
فتسمع منـه تـارة صرخـاتـه	وآونـة جـرس الغنـاء يـرجّع
يمـدّ بـه نهر تـلاطم مـاؤه	وينصبّ في نهر بـه العين تـولـع
وقـد ثجّ من بين الشمام عبـابـه	فصـبّ على نهر مـن البرق أسرع
وغيّب أعـلاه عـن العين بعـده	وأظهـر أدنـاه لـدى القـرب منبع
جـرى مثل فجـر سـال من جـوف ليلـه	على جـدول كـالصّبح بـالماء يلمع
يمـرّ بـه تيّـاره متـدفق	على الصخـر لا يعيـا ولا يتكعكع

نعمان ماهر الكنعاني

الشاعر الضابط نعمان ماهر الكنعاني ينتمي الى أسرة حسينية، ولد في بلدة سامراء في نيسان ١٩١٧. وأتم دراسته الثانوية في بغداد، فـالتحق بالكلية العسكرية وتخرج فيها

ملازماً ثانياً (١٩٣٩). وساهم في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.

تدرّج في مراتب الجيش حتى أصبح مقدماً وأحيل على التقاعد في نيسان ١٩٥٧، ثم أعيد الى الخدمة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ برتبة عقيد. وأخرج من الجيش ثانية في نيسان ١٩٥٩ بعد ثورة عبد الوهاب الشواف في الموصل، فلجأ الى سورية وانتقل منها الى القاهرة. وحكم عليه بالإعدام غياباً بتهمة التآمر على الجمهورية (أيار ١٩٦٠).

عاد الى بغداد بعد الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم، فعيّن مديراً عاماً بوزارة الثقافة والإرشاد (١٩٦٤) فوكيلاً لنفس الوزارة (١٩٦٧) حتى استقالته في ٢١ تموز ١٩٦٨. وقد انتخب نائباً للأمين العام لاتحاد الأدباء والكتاب العراقيين (للشؤون العامة) سنة ١٩٨٦.

مال الى الشعر والأدب منذ صباه. وقال إنه تأثر أكثر ما تأثر بأبي تمام والبحتري والمتنبّي وأبي فراس الحمداني، ومن الشعراء المعاصرين أحمد الصافي النجفي ومحمد رضا الشبيبي. ولازم معروف الرصافي في أواخر أيامه فوضع عنه رسالة «الرصافي في أعوامه الأخيرة» (١٩٥٠) بالاشتراك مع سعيد البدري.

من مؤلفاته الأخرى: شعراء الواحدة (١٩٤٥) في يقظة الوجدان (١٩٤٣) شاعرية أبي فراس (١٩٤٧) الشعر في ركاب الحرب (١٩٤٩) المعازف (١٩٥٠) لهب في دجلة (١٩٦٠) ضوء على شمال العراق (١٩٦٥) من شعري (١٩٦٦) مختارات الكنعاني (١٩٦٦) مدخل في الاعلام (١٩٦٨) من القصص الانكليزي (١٩٥٤)، الخ.

من شعره:

أطياف

سكر الليل بالسّنى والعبير ... فاستثارت ذكراك همس الضمير

وأطلت من عهدنا حائرات ... ذكريات عصيّة التعبير

يا حبيبي، أراك في رافل البدر ... سنىً فاتناً فيشرق نوري

ويضوع الشذا فأستاف نجواك ... عبيراً من أمسنا المهجور

فرّقتنا ما فرّقت أنجم الليل ... شؤونٌ وأوغلت في المسير

عاودتني من ذكرياتك أطياف ... فحنّ الظما لذاك النمير

وتمّنت، والشوق يهتف بالحبّ، ... لياليك في شذاها الغمير...

يا فؤادي، ولم تعد ذِكَرُ الماضي ... سوى آهة الحنان الكسير

هل أثار الليل المضمّخ شوقاً ... لليالي عهد الصبا المغرور

وشعره في الغالب عموديّ قوميّ النزعة، وله شعر غزلي جميل. وهو معارض للشعر الحرّ الجديد، وقد قال: «إن الاستهانة باللغة تعني فقدان الأداة، والجنوح نحوالطلسمة يعني الضياع، ورسم الصورة بغير ما تحتمله من الألوان نوع من العبث المرفوض. والتجديد والخلق صفة الأصالة الشعرية».

ناجى بغداد فقال:

بغداد، يا نجوى الخيال ... غنّتك أحلام الليالي
يا طلعة اللألاء مُشر ... قةً على أفق المعالي
يا كبرياء المجد يرفل ... بالفتوّة والصّيال
أقسمتُ بالعزمات ما ... ترتدّ في الشوط الطُّوال
بسماحة الكفّ الخصيب ... بنشوة العفّ المغالي
تدري الحضارة أنها ... بكِ قد علت عرش الجمال
وروت عن المنصور لـلأ ... جيال ملحمة الجلال...

رباب الكاظمي

الشاعرة رباب الكاظمي ابنة شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي، ولدت في القاهرة في ٢٢ آب ١٩١٧ فكانت عزاء أبيها في كبره وسلوته في شقائه، قال فيها:

رباب لنفسي زهرة طاب غرسها ... فلا ذبلت نفسي ولا ذبل الزهر

وقال:

فداء رباب داء قلبي ومهجتي ... وإنّ شفاها، لو علمت، شفائي
رجوت بقاها في الأنام، وإنما ... بقاء رباب في الأنام بقائي

وقال:

إذا سألوني: من رباب؟ أجبتهم ... هي الروح والعقل المدبّر والشعر

إن شعر الكاظمي في ابنته رباب لا يضارعه سوى شعر فكتور هوغو الذي قال يذكر ابنته مخاطباً الله:

ألا ترى، يا مولاي، إنّ أبناءنا ضروريون لنا، فحينما نرى في حياتنا، ذات صباح، وسط المتاعب والرزايا والشقاء وفي الظلّ الذي تنشره علينا يد القدر،

حين نرى ظهور طفل، رأس عزيز مقدّس، مخلوق صغير بهيج، قد بلغ من الجمال أننا نتوهم حين يأتي أن باباً قد فتح من أبواب السَّماء. . . » .

نشأت رباب الكاظمي في كنف أبيها ورتعت في بحبوحة أدبه وفضله. ولم تكد تبلغ العاشرة من عمرها الرطيب حتى فقدت أمّها، فذاقت مرارة اليتم. وكان أبوها يرعاها بحنانه ويعلّمها شدو الشعر، لكنه لم يلبث أن قضى نحبه وهي في الثامنة عشرة. وفي حزيران ١٩٣٥ دعيت الى بغداد لحضور حفلة تأبين أبيها، فزارت لأول مرة موطن آبائها واكتحلت عيناها بمرأى شطآن الرافدين ومنائر الأئمة الذهبية، وكانت موضع العطف والرعاية.

وعادت الى القاهرة فأكملت دراستها الثانوية في حزيران ١٩٣٧. وعقد قرانها سنة ١٩٣٦ على حكمت أحمد الجادرجي (المولود سنة ١٩١٢)، وكان موظفاً في المفوضية العراقية بمصر.

والتحقت بكلية طبّ الأسنان في القاهرة سنة ١٩٤٦، وواصلت دراستها في الاسكندرية وباريس، حيث انتقلت مع قرينها في وظائفه الدبلوماسية، وحصلت على إجازة طب الأسنان في العاصمة الفرنسية سنة ١٩٥٠. ثم نالت شهادة الاختصاص بأمراض أسنان الأطفال من جامعة جورج تاون في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة (١٩٥٣).

وعادت أخيراً الى بغداد في آب ١٩٥٤ برفقة زوجها الذي أصبح مديراً عاماً للدائرة العربية في ديوان وزارة الخارجية. وعينت طبيبة أسنان في مستشفى الطلاب، ورفعت سنة ١٩٥٥ رئيسة لقسم طبابة الأسنان في صحة المعارف. ثم نقل قرينها مستشاراً للسفارة العراقية في تونس في تموز ١٩٥٦، فصحبته إليها. وعادت معه الى بغداد في شباط ١٩٦٢ عند نقله وزيراً مفوضاً في ديوان الوزارة وتعيينه على الأثر مفتشاً عاماً في السلك الخارجي.

وقد أحيل حكمت الجادرجي على التقاعد في تشرين الأول ١٩٦٢، وتوفي في لندن في تموز ١٩٧٠. وعيّنت الدكتورة رباب طبيبة للأسنان في مستشفى الطفل العربي ببغداد في تشرين الأول ١٩٦٤.

شعرها:

نظمت رباب الكاظمي شعراً منذ صباها، ونشرت قصائدها في المجلات والجرائد المصرية والعراقية. وقد أثبتت نماذج طيبة منه في كتاب أدب المرأة العراقية لبدوي طبانة (١٩٤٨) وشاعرات العراق المعاصرات لسلمان هادي الطعمة (١٩٥٥). ووضع عبد الرحيم محمّد علي كتاباً فيها باسم «رباب الكاظمي: دراسة وشعر» (النجف ١٩٦٩).

إنّ شعر رباب صلة متأخرة لأدب عائشة تيمور (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢) ووردة اليازجي

(١٨٣٨ ـ ١٩٢٤) وملك حفني ناصف (باحثة البادية ١٨٨٦ ـ ١٩١٨) وأخواتهن من الشاعرات القديمات اللواتي حملن لواء النهضة الأدبية النسائية قبل الحرب العظمى الأولى. ويكاد شعر الكاظمية يقتصر موضوعه على مطالب قومية ومصرية وشخصية ممّا عالجه والدها وشعراء عصره.

قالت عائشة تيمور:

بيد العفاف أصون عزّ حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقّادة وقريحة ... نقادة قد كُمِّلَتْ آدابي
ما ضرّني أدبي وحسن تعلّمي ... إلا بكوني زهرة الألباب...

وقالت رباب:

أنا الرباب في الورى ... لقولِيَ انسجام
جواد فكري مطلق ... ليس له لجام
قريحتي سيّالة ... وفكرتي سجام...

وقالت أيضاً:

أنا رباب الشاطرة ... الى الامام سائرة
بالعلم أدرك المنى ... والجدّ والمثابرة
أجدّ لا أخشى العثار ... يوم غيري العاثرة
أذود عن كرامتي ... وعن بلادي الطاهرة
من دونها لي أذن ... تصغي وعين ساهرة...
بغداد لي إذ أنتمي ... مجدي ومصر القاهرة
إن نسبوا أخلاقنا ... فهي الرياض الزاهرة
أو ذكروا أنسابنا ... فهي الشموس السافرة
إذا مشينا وقفت ... لعزّنا القياصرة
وإن بدينا سجدت ... لنورنا الأكاسرة...

وقالت باحثة البادية:

أعملتُ أقلامي وحيناً منطقي ... في النصح، والمأمول لم يتحقّق
أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم ... صوتاً يهزّ صداه عطف المشرق؟
أيسرّكم أن تستمرّ بناتكم ... رهن الإسار ورهن جهل مطبق؟...

وقالت الكاظمية:

يــــا أيّها النفـــــــر الألى فتنـــوا بــــداعيـــة الفتـــون
إنّي أســـــــــائلكــم ، ومــن حـــولي البـــــلاد لها أنين :
مـــــا يصنع الجهّـــــال إن جهــل الهداة العــــــــالمون؟
أجهلتـــمُ آلامنــــــــــــا أم أنتُـــــمُ لا تعبــــــأون؟
هـــل أنتـــمُ في مـــأمــن ممــــا لــــه تستهــــدفـــون
هـــلاّ أخـــذتم أهبـــة لمطـــــــــامـع المتـأهّبين
إن بعتـم استقـــــــــلالكـم يـــــومـــــاً فماذا تشترون؟ . .

وقالت :

أدبي لـــدى الأيـــام جـــرمي وجــريـــرتي في الـــدهـــر علمي
أظما ولا أحظــــــــــــى بغير مـــــوارد في النـــــاس تظمي
أصغــــــي الى زمنــــي وطيـــب كـــلامـــه حَــرَقـــات كلم
غـــــودرت بين حقيقـــــة حيرانـــــــــــة أمشي ووهمي
وبقيت مــــا بقيت يــــد بقيـت بها آثـــــــــار وشـم
أغـــــدو على حـــــرّ الجوى وأروح في غيظـــــي وكظمـــــي
يهني المجـــاهـــد غنمـــه وغنيمتي في الجهـــــد غَــــرمي
أكـــــذا المصـــــائر كلّهـــا إمّـــــا لغــــــرم أو لغُنْـم؟

ثم قالت :

أنـــــا مـن أنــــاس كلّهـم بـــــدر ولكـن عنـــــد تـمّ
كـــرمـــوا ولمّا يلبســـوا لعـــداتهم جلبـــاب لـــؤم
لأبي وأمـــــــي أنتمـــــي والأطيبـــــــــان أبي وأمّـي
أمـــــا أبي فلقـــــد أبى عنـــد القـــوافي غير حكمي
لم يـألُ جهـــــداً سعيــــه فمـــن المهّـــم الى الأهـــمّ
ويظـــلّ في حـــلّ الأخـــصّ مـن المشــــــاكـل والأعـمّ
يبكـي على أوطـــــانـــه وينـــــوح في نثـــــر ونظـم
في أضلـع تـــذكـــو جـــوىً أو أدمـع في الـــوجـــد سجم
يقضي الليـــــالي حـــــائراً مـــــا بين إفـــــلاس وسقـم
يلقـى حـــوادثهـــا بخيـل مـن عـــزائمـــه وجـم
إن أثقـــل الخطـــب الملـمّ يخفّ بــــالخطـب الملمّ

وكأنّه في يومه ... في جنح ليلٍ مدلهمّ
فإذا فررت الى حماه ... فررت من همي لهمّي..

ورباب الكاظمي بعد ذلك شاعرة وطنية مصرية تعلقت بأهداب الوفد وسعد زغلول وزوجه أمّ المصريين وخليفته مصطفى النحاس وقالت فيهم خير شعرها وأصدقه عاطفة وحماسة ومودّة. قالت في ذكرى سعد:

ما بال لون الشرق حائل ... وجوانب الدنيا زلازل؟
ما للعيون الداميات ... كأنها ديم هواطل؟
ما للقلوب كأنها، ... والوجد يذكيها، مشاعل؟
ما للكنانة والخطوب ... طوارق فيها نوازل
ما للقوافل ذاهبات ... للبلى تلو القوافل
لم أنسَ يوم البين إذ ... جدّ النعيّ فقلت: هازل
حتى إذا الشكّ انجلى ... أيقنت أن الأمر هائل
وعلمت من طول النوى ... أنّ المسافر غير قافل

ثم قالت:

لا قرّب الله الأُلى ... هضموا الحقوق بكلّ باطل
وسطوا على أوطاننا ... سطو اللصوص على المنازل
إنّ المهازل جمّة ... وحيادهم إحدى المهازل
خلف الحياد تستّروا ... والقصد لا يخفى لعاقل
ليس الحياد كما ادّعوا ... إنّ الحياد له دلائل
ودليلهم فرسانهم ... في كل ميدان جوائل
يا أيّها الرامي، أرح ... رنّت سهامك في المقاتل
واستبق قومك للزمان ... فهم حصونك والمعاقل
وهم وقاك من البلاء ... وهم فوارسك البواسل
النيل يظمأ أهله ... والعابثون به نواهل
غفل الزمان فأدركوا ... حكماً ولكن غير فاصل

وقالت:

يا بني مصر، رفعتم شأنها ... يا بنات النيل، زنتنّ العصورا
هذه الأهرام، فليفخر بها ... كلّ من كان على الدهر فخورا

جـــاهــدوا أو تـــدركــوا غـــايـــاتكم	أو تــــــروا العـــــزّ الى النيـل مشيرا
وسلـــوهـم كيف كـــانـــوا ومتـى	كـانـت الأعجـاز في النّـاس صـدورا
سجّلـــوا المجـــد وأشتـــات العلى	كلمات طيّبـــــات وسطـــــورا
كلمات نسّقـت أحــــرفهـــــا	فتلـــونـــاهـــا وروداً وزهـــورا

ولقد ذهب بعض النقاد الى أن شعر رباب من نظم والدها أو من تنقيح قلمه، فقال كمال إبراهيم متحدثاً عن عبد المحسن الكاظمي أنه كان يتلو القصائد الطوال من شعر ابنته رباب وارتأى أن شعره والشعر الذي رواه لابنته كان نمطاً واحداً وروحاً واحدة ولغة واحدة لا تكاد تحّس بينهما اختلافاً. والمعتقد أن شعره ينسبه اليها، إذ كان ينشر باسمها القصائد الطويلة في الصحف المصرية، وهي لمّا تـزل في دور الطفولة. ودفع هذه الريبة نقّاد آخـرون، منهم عبد الرحيم محمـد علي مؤلف كتـاب «رباب الكاظمي» والـدكتور بدوي طبانة وغيرهما. وقـال الشاعر المصريّ صالح جودت: «تأثـرت بروح أبيها، لولا تلك الأنوثة الرقيقة التي تبدو في شعرها. ولكن ديباجتها العربية هي من النماذج العالية للشعراء لا للشاعرات فحسب...».

إنّ عصر الشاعرة رباب الكاظمي. قـد انتهى ليهلّ عصر أدبي نسائي جديد لمعت في سمائه نجوم نازك الملائكة وعاتكة وهبي الخزرجي وأميرة نور الدين داود وصواحبهنّ.

الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي

شاعرة الحزن والنجوى والتأمل والتقوى عـاتكة وهبي الخزرجي، ولدت في بغداد في ١٤ تشرين الثاني سنـة ١٩٢٦، وكان والدها وهبي الأمين الخزرجي ضـابطاً في الجيش التركي بـرتبة قـائممقام (عقيد) وأصبـح متصرفاً للموصـل سنة ١٩٢١ فمتصرفـاً للواء ديالي. وتوفي بعد ذلك وعمر ابنته لا يتجاوز ستة أشهر.

ذاقت عاتكـة مرارة اليتم طفلـة فنشأت ميّالـة إلى الشجو والأسى. وانتمت إلى دار المعلمين العـالية فتخرّجت فيها سنـة ١٩٤٥ وعيّنت مـدرسة للغـة العربيـة في بعض مدارس البنـات الثانـوية. وأرسلت بعـد ذلك لإتمام دراستها في جـامعة السـوربون في باريس (١٩٥٠) فحصلت على شهـادة الدكتوراه في الآداب (١٩٥٦)، وكان مـوضوع أطروحتها العبّاس بن الأحنف الشـاعر الغزلّي الرقيق، وكانت عاتكـة قد حققت ديوانه ونشرته في القاهرة سنة ١٩٥٤.

وعادت إلى بغداد فعيّنت مـدرسة بدار المعلمين العاليـة التي أصبحت فيها بعد كلية التربية، وواصلت الدكتـورة عاتكة التدريس في كلية الآداب بجامعـة بغداد. وسافرت إلى باريس في صيف سنة ١٩٧٠ للقيام ببحوث أدبية وعادت إلى بغداد بعد أمد قصير.

قال الدكتـور صفاء خلوصي في كلمته عن هـذه الشاعرة في مجلة الجمعيـة الأسيوية

الملكية الصادرة في لندن (١٩٥٠) ما ترجمته: «ان عاتكة بدأت حياتها فتاة حييّة لم تكن لتتغلب على خجلها الا حين كانت تلقي خطاباً أو تتلو بعض أشعارها. وكانت تضع الحجاب حتى في ساعات الدرس، لكنها سرعان ما تبدلت حالها ورأى العراق فيها امرأة حرة ثائرة».

نظمت عاتكة وهبي الشعر صبيّة، وكانت باكورة شعرها صرخة مدوّية تترجم عن اليتم والذّل والشقاء فقالت:

وألقت عليّ الأم نظرة أيّم قرأت بها يتمي وتاريخ حسرتي
وكم كنت آسى إذ أشاهد طفلة تصيح: أبي أذ يبتديها بطفلتي
فأسرع في ذلّ ويأس ولهفة أسائل أمي إذ أغالب دمعتي:
حنانيك يا أمي، أمالي من أبٍ؟ أمالي من كفّ تكفكف عبرتي؟

وشعرها قويّ رصين التزمت فيه الطريقة العمودية الأصيلة وغلب عليه الحزن والتفجّع والألم. ونزعت إلى التصوّف فنظمت في الزهد والعشق الإلهي قصائد من عيون الشعر. وقد أشبهت الشاعرة الصحابية عاتكة بنت زيد العدوية التي رثت قرينها عبد الله بن أبي بكر الصدّيق قائلة:

فآليتُ لا تنفكّ عيني حزينة عليك ولا ينفك خدّي أغبرا

وأعادت على طريقة العصر سيرة رابعة العدوية الشاعرة الناسكة الصالحة التي سكرت بخمرة الهيام الالهية وزهدت في الحياة الدنيا وقالت: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيّئاتكم».

نشرت عاتكة مسرحية شعرية بعنوان «مجنون ليلى» (١٩٦٣) ودواوين: أنفاس السّحر (١٩٦٣)أفواف الزهر (١٩٧٦) لألاء القمر (١٩٦٥).

ان شعر الخزرجية الحزين الرقيق ليشبه في أمواجه المتضاربة ونغماته الساجية شعر مارسلين ديبورد فالمور Marceline Desbordes Valmore

(١٧٨٥ ـ ١٨٥٩) التي رتلّت أناشيد الأسى والحبّ الصوفي ولواعج النفس على قيثارة الشعر الفرنسي. ولدت هذه الشاعرة في أحضان أسرة مرفّهة، لكنّ الثورة الفرنسية التي نشبت، وهي طفلة، حملت إلى آلها البؤس والشقاء. وأرسلت الفتاة إلى جزيرة الغادلوب النائية في بحار أميركة الوسطى لاستيفاء إرث عائلي، بيد أنها عادت من رحلتها المضنية أشدّ فقراً. وتوفيّت والدتها، فقست عليها الحياة، وشرّدتها، وقسا عليها الحبّ فأورثها السقم والعناء. ثم لقيت شريك حياتها في بروكسيل، فكانت مثال الزوج الصالحة والأم الحنون، وهدهدت أطفالها وأطفال فرنسة عامة بألحان شجيّة تفيض رقّة وعذوبة. ان مارسلين ديبورد التي عرفت بشقيقة الشعراء الروحية قد بلغت ـ

كما قيل ـ قمّة الشعر الوجداني بـلا تكلفّ، وكانت وسيلتها نفسها المرسلة على سجيّتها وعواطفها المرهفة. وقد ودّعها الشاعر تيودور دي بانفيل قائلاً:

«ايتها الميتّة العزيزة، التي جاعت روحها وظمأت إلى سماء اللازورد،

يا مارسلين، هل ترقدين في تربة التلّ الباردة؟

هل وجدت الهدوء أخيراً؟»

قرأت الشـاعرة الفرنسيـة قصيدة الشاعـر الفارسي عبـد الرحمن جامي الـذي سبقها بثلاثة قرون، تلك القصيـدة التي يتغزّل فيها بحبيبة مجهولة لم ترهـا عيناه واشتاقت إليها روحه عبر الأثير، فأجابته بقصيدة تقطر لوعة وتلهفاً وتشوقاً. قالت:

«حينما تتعذّر عليّ رؤياك، يرهقني الزمان وتثقل الساعة كاهلي بعبء أنوء بحمله.

وأشعر بقلبي يذوب وكأنه يـزمع مغادرة ضلوعي، وينحني رأسي، فأشقى وانخرط في البكاء.

وحين يهتف صـوتك المدوي في قرارة ذاكـرتي، أرتجف وأصغي بلا حـراك، ويمتلك الرجاء قيادي.

وكأنّ الله يمسّ قصبة واهية، وأنا بكل حواسّي أجيب قائلة: اللّهم، فليأت!!..»

وقالت عاتكة وهبي:

أهـــــــــواه، هـل يبغـي على	صـــدق المحبّــــة من شهـــــود؟
إيماض ألحاظـي واطـــــــــراقـي	وصمتــــــــــــــي أو جمودي
ووجيـب مـــــا بين الضلـــــوع	وحيرتي بين الشهــــــــــــــود
مـــولاي، رفقـك قـــد قســـوت	ومــــا قســـوت على جليـــــد
زُحماك هــــــذي مهجــــــة	وأضــــــالع لا من حـــديــــد
ولئـن غــــدوت وبيننــــــا	بحـــر تـــرامـى إثـــر بيــــد
فــلأنــت أدنـى ــ رغـــم ذاك ـ	إليّ مـن حبـل الـــــوريـــــد

وقالت:

كـن مـن تشـــــاء فـــــانني	لـــك مــــــا حييـت ولا لغيرك
أحيـــــــــا لعليّ أن أراك	وأجتلي لألاء فجــــــــــــرك
يـــــا سيـــــدي، كيـف السبيل	إلى سلــــــوّك أو لهجــــــرك؟
قلبـي بحبّـك مـــــــؤمـن	وانـــــــا بحبّك لست أشرك

ووصفت حبيب الخيال فقالت :

فسمــــرتــــه من سهــــوم الــــرمــــال وطلعتــــــــه الفجــــــــر أو أنبـل
كـأن بعينيـــــــه سرّ النجــــــــوم إذا مـــــــا دجى ليلهـــــا الأليـل
وفي قـــــدّه من شمـــــوخ السيــــوف معـــــانٍ بها كلّ مـــــا يـــذهـل

انّ تأمّلات الشاعرة الخزرجية وشطحاتها الصوفية فيها كثير من الألم والحبّ والنزوع وسائر ما يطفح به شعر مارسلين ديبورد من الاشواق الروحية . قالت الخزرجية :

بلـــوت مـن الأيــــام كـل عظيمــــة ، وحسبـي أنّي قـــد ولـــــدت بمأتـم !
وكــــانت أغــاني المهـــد لي رنّــة الأسى ووقـع نحيب قـــد بـــرى قلب أيّـم
ولقنـت في مهـــــدي سجـل مـــــآتمي وكم هــــالني فصل الشقــــاء المجسمّ

وردّت عليهـا الشـاعرة الفـرنسيـة من وراء حُجب السنين ، بقصيـدتها «إلى اللـواتي ينتحبن» ، قائلة :

«أنتن اللواتي يتعـذّبن ، لقد اخترتكن لي أخوات ، واليكن تتـوجه أحلامي السـاجية والحلاوة المرة لدموعي المغنّاة .

ففي هـذا الكتـاب روح تكمن أسيرة . افتحن واقـرأن ، واحسبن الأيـام التي حملت لنفسي الألم .

ايتها الباكيات في هذا العالم الذي مررت به مجهولة ، احلمن على هذا الرماد واغمسن فيه قيودكنّ .

أطلقن اصواتكن في الغناء ، فألحان المرأة تشجي العذاب .

أحببن ، فالبغض يؤلم أكثر من الحبّ .

وامددن أيديكن بالعطاء ، فالصدقة تحيي الأمل ،

فمن يستطيع العطاء لا يريد الموت ! . . »

والدكتـورة عاتكـة وهبي بعد ذلك شـاعرة قـومية تكنُّ الحبّ لأمتهـا وتعتزّ بقـومها فتقول :

علمّــــوا الأيـــــام أنّــــا أمـــــة تنقـل الخطـــــو على هـــــدْي نبـي
تستمـــــد الـــــوحي من قـــرآنـــــه ســـوراً مكتـــوبـــة بـــالـــذهب
وتـــرى الموت لـــــذيـــذ المجتنى إن دعـــــا داعي القنـــــا والقضُــب
وتخطّ العـــــزّ في تـــــاريخهــــا بـــــدمـــــاء الشهـــــداء النُجُبِ

وتتغنّى بحبّ وطنها فتقول :

قفي أنشـــديني من لحونك مــــا يصبي
فأنـت ابنـــة الآلام والشعـــــر والحبّ
حنـانيك، يـا ورقـاء، كفّي عن البكـا
وغنّي لحون البشر في غصنـك الـــرطب
حنـــانيك، مـا يشجيك إذ أنت حـــرّة
تطير بك الأنســـام في العـالم الــرحب؟
ألا ليت لي جُنحـــاً فـأهجـــر بقعـــة
فشـا اللــؤم فيهـا في الأقــارب والصّحب
وأصعب مــــا يلقـى الفـــؤاد إذا قضت
صروف الهوى سلــــوان حبّ إلى حـبّ
وكيـف بقلب قـــــد تملّكـــه الهوى
فأضحـى ومــا يصغي للــومٍ ولا عتب
هـــوى بقع فيهـــا زُفـــات أحبّتي
وفيهـــا أحبّ الـــذكـــريـــاتٍ إلى قلبي
هـــوى بقع فيهـن مهـــدي ونشـأتي
ومسرح جـــدّي في الشبيبـــة أو لعبي
هـــوى بقـع فيهن قلـت قصـــائداً
أحبّ إلى روحي مـن البـارد العـذب...

وتحنّ إلى بلادها فتذكر نخلها وشطآنها:

تبـاركتِ، يـــا نخلـة الشـــاطئين،
ويـــــا آيــــة الأعصر الخاليـــــه
نهلت الخلـــود من الــرافـــدين
فبـــوركت مسقيـــة ســاقيـــة
تـــرفين في أفقك الشـــاعـــريّ
رفيف الـــزهـــور على الـــرابيـــة
وتضفين مـن لـــونك السنـــدسيّ
شفـــوفـــاً مفـــوّفـــة الحاشيـــة
وتسقين مــــن خمرك المشتهــــى
حـــلالاً من الأكـــؤس الصـــافيـــة
وفي طلعـــك النّضر كــم تنشريـــن
على الكـــون أنفـــاسك الـــزاكيـــة
وفي ظلّـك الـــرحـب عنـــد الحرور
وأكنــــافـــه العيشــــة الـــراضيـــة
تبـــاركت في أرضنـــا جنّــــة
قطـــوف عنــاقيـــدهـــا دانيـــة

وقالت من قصيدة لها تشكو الدهر:

ضللتُ، فهـل في غيهب العيش شمعـة
وهـل في دجى الأيـــام لمح بـــريـق؟
أنحن بعصر النـــور أم عصر ظلمـــة
وظلم وإجـــرام وهـــدر حقـــوق؟
أدنيـاي هـذي خـدعـة إثـر خـدعـة
يُضلّ فـــريقـــا مـن وراء فـــريق؟
أبحـــــر مـن الأسرار خضت غماره
وحـــالي فيـــه اليـــوم حـــال غـــريق
إلى أين، يــــا دنيـــاي، أسري وأنثني
أمــا مــال نجـم السّعـد نحـو شروق؟
ألا مـا أغلَّ الـدهـر، مـا أضيع المنى،
ومـــا أخيب المسعـى بجـــوف مضيق!
أكـاد من الأشجـان أخفـى عن الـورى
وأشرق من فـــرط السّقـــام بـــريقي

من شعر عاتكة الصوفي الرقيق مقطوعة عنوانها «الطيف العاتب» قالت فيها :

الطيف يطـــرقـني إذا جنّ الـــدجى … متحـــــذراً مـن رقبـــــة السمار
يختـــال في بـــرد الشبـــاب كـأنّـــه … غصن يميـل بـــه النسيم السّـــاري
متـأزراً بــــالليـل، يسري ســـادراً … بكـــؤوس تيـــه لا كـــؤوس عقـــار
والجيـــد تضنيـــه العقـــود فينثني، … والكـفّ يلـــويها رقيـق ســـوار
فتشعبـت سبـل الحديـث، ولا تسـل … عـن رقـــة في العتـب والأعـــذار
وبلـــوعـة مكتـــومـــة تصف الجوى … نـــاشـــدتـــه بترفّع ووقـــار:
أتـــزورنـا عنـــد الظـلام هنيهـــةً … وبـــذاك فقت كـواكـب الأسحـــار؟
ويـروعنـا بـالعتب، وهـو جنـايـة … أخــرى، وتـــرفـض أفصح الأعـــذار؟
أتجود بـــالطيـف الملمّ بنـــا دجى … وتـــريـــد زورتنـــا بـــرأد نهار؟
والليـل يكتم كـل سرّ ســـافـــر … والصبح يفضـح كـلّ ذات ستـــار؟
فأجـــابني والسّخــر ملء جـــوابــه : … إنّ الحيـــاة مطيّـــة الأقـــدار
ومضى وخلّفنـي أطـــارد في الـــدجى … قلبــــاً تشرّد في رحـــاب قفـــار

وقد حيّا الاديب الشاعر المصريّ محمّد عبد الغني حسن شاعرتنا الخزرجية فقال :

أيتهــــا الشـــاعـــرة الـــوفيـــة … في أمّـــــة نبيلـــــة سريـــــة
عـــاشقـــة للمجـــد والحريـــة … ليـس عجيبــــاً هـــذه الحميـــة
والعـــزّة الغـــاليـــة الفتيّـــة … وهـــذه الخلائق الـــرضيـــة
فـأنـت في أشعـــارك الطليّـــة … وأنـت في ألحانـك السحـــريـــة

عـــاتكـــة، وأنت خـــزرجيـــة!

وقال أحمد حسن الزيات : «ان الينابيع الصافية الثرة التي ارتوى على فيضها واغتدى على جناها شعر الدكتورة عاتكة هي : الله والطبيعة والنفس. والينبوع القدسي هو أندى على كبدهـا وأروى لشعورهـا من الينبـوع النفسي والينبـوع الطبيعي لأنها حين تصف النفس أو تصـور الطبيعة يتمثل فيهـا بـديع السموات والأرض الـذي أحسن كل شيء خلقه ومنح كل جميل جماله . . .

«ان الشبابـة من قصب ، ولكن اللحن من نار، فكلما نفخت فيهـا من روحها ذاب قلبها في حبّهـا ، فتئن أو تحنّ أو تشكو أو ترجو أو تثـور بألفاظ منسّقة كالنغم ، مـونقة كالزهر، منمقة كالوشي ، تسري فيها المعاني الشاعرة سريان النشوة في الرحيق أو الفوحة في الطيب . فأسلـوبها نسق مطّرد من الفكـر والخيال والعـاطفة ، يصقلـه طبع وذوق ،

ويقوّمه درس واطلاع . . . »

تحدّثت عاتكة وهبي الخزرجي فقالت انها تستمد موارد أدبها من الشعر العربي الأصيل قديمه وحديثه، وان اساتذتها فيها كثر أولهم البحتري . وهي معجبة أشدّ الاعجاب بالشريف الرضيّ وأحمد شوقي . وقد مارست النقد الأدبي والقصة القصيرة . وعلى الرغم من اطلاعها الواسع على الآداب الغربية، لم تخرج على نظام القصيدة العربي القديم .

قال عنها خالد القشطيني إنها شاعرة محافظة فكراً واسلوباً، وقد التزمت بالأشكال الكلاسيكية للشعر العربي، ودعت إلى التمسّك بالقيم الإسلامية والتقاليد العربية . وقال : «ومما يذكر انها حين تمضي إلى القاهرة، وكثيراً ما تزورها، تقيم في دير وتمتنع عن النزول في محلّ أكثر ترفاً» .

وقال انها بالرغم عن حبها العميق لبلادها وشعبها ودينها وثقافتها وتقاليدها لم تستطع عاتكة إلاّ أن تشعر بشعور الخيبة، شأن سائر المثقّفين المعاصرين للضعف والنقص اللذين يتسم بهما المجتمع الجديد . وقد عبرت عن هذا الشعور مراراً في قصائدها .

كمال عثمان

الشاعر الضابط كمال عثمان ولد في بغداد سنة ١٩٠٧ لأسرة كردية أربيلية الأصل . وقد انتمى إلى المدرسة العسكرية فتخرج فيها ملازماً ثانياً (١٩٢٧) . وكان ضابطاً خيالاً، فدخل في دورة طيران لأجل الانتقال إلى القوة الجوية، لكن طيارته الصغيرة سقطت به وهو يقودها في أثناء التدريب، فأصيب بعطل في رجله وأحيل بعد ذلك على التقاعد برتبة مقدم سنة ١٩٤٧ .

له شعر رائق وخطّ جميل، (لا يزال حياً، ١٩٨٨)

لازم المقدم كمال عثمان الاب أنستاس ماري الكرملي سنوات طويلة ورثاه عند موته بقصيدة مطلعها :

شقّ «اللسان» عليك جيب بيانه ... ونعاك فانصدع العلى بكيانه
والرافدان توجّدا وتشاكيا ... هذا بحرقته وذا بحنانه . . .

كان قومياً في نزعته صوفياً في مشربه .

أخبرني كمال عثمان انه، عند تخرجّه من المدرسة العسكرية ضابطاً صغيراً، أرسل إلى

الموصل. وكان شهر رمضان فكلف بالإشراف على اطلاق مدفعي السحور والفطور.

سهر ليلتين أو ثلاثاً لإطلاق مدفع السحور في وقته المعين. وقال له العريف:

يا سيدي، لماذا ترهق نفسك بالسهر؟ ألا تعتمد عليّ، وقد خدمت في الجيش أعواماً، للقيام بهذه المهمة على وجهها الصحيح؟ واقتنع الملازم الشاب بكلامه، فأوصاه بالاهتمام وتدقيق الوقت ومضى إلى فراشه. وفيما هو مستغرق في نومه شعر بدوي المدفع فاستيقظ مذعوراً وفرك عينيه. ماذا؟ كانت الشمس ترسل أشعتها وقد طلع الصباح منذ ساعات. فاستدعى العريف وأنبّه وقال له: كيف تطلق المدفع في هذا الوقت؟ فأجابه: انني غفلت عن اطلاقه في وقت السحور، وخفت أن تبقى لدينا قذيفة زائدة فتداركت الأمر!

وهبّ أهل الموصل مستنكرين اطلاق المدفع في غير أوانه، فأحيل كمال على لجنة تأديبية قضت بتغريمه راتب عدة أيام والإيعاز بنقله إلى وظيفة أخرى.

أخبرني كمال عثمان ان اباه عثمان بك كان ضابطاً في الجيش التركي من أقران صبيح نشأت. ولما أنشئت الحكومة الوطنية في العراق عرضت عليه مناصب مختلفة، لكنه رفضها اعتقاداً منه بأن الأتراك سيعودون.

وقد أنفق كلّ ما يدّخره من مال وقاسى شظف العيش حتى قضى نحبه وهو لايزال يأمل عودة الحكم التركي.

وأخبرني كمال عثمان انه، حين تقدم لأداء الامتحان النهائي في المدرسة العسكرية تعطل فكره فجأة وصار يدرس يومه وليله فلا يعي شيئاً من درسه. ودلّه بعض أصحابه على شيخ ذي كرامات، فذهب إليه وحدثه بما كان من شأنه، فكتب له ورقة فيها اسم الله وقال له: اشتر كعكاً واغمس قطعة منه في الماء مع هذه الورقة وكله فينتعش فكرك. وفعل كما أوصاه الشيخ وأقبل على الدرس، فإذا به يفهم الموضوع بسهولة. وأدى الامتحان فكان النجاح حليفه.

فؤاد عباس

من رجال التربية والأدب، وهو محمد فؤاد بن عباس حبّابة بن محمد حسن ولد في دلتاوة التي تعرف الآن باسم الخالص سنة ١٩١١ ودرس في دار المعلمين الابتدائية في بغداد. وعيّن معلماً في بعض المدارس الابتدائية في تشرين الأول ١٩٣١ فتنقل في مدارس بغداد والبصرة والناصرية. ثم أوفد في بعثة حكومية لإكمال دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٣٣) فنال شهادة البكالوريوس في التربية سنة ١٩٣٨.

عاد الى بغداد فتنقل في الوظائف التعليمية مدرساً ومديراً في المدارس المتوسطة والثانوية حتى عيّن سنة ١٩٦٠ مفتشاً للّغة العربية في وزارة المعارف. وأحيل على التقاعد سنة ١٩٧٣. وقد نظم شعراً رقيقاً منذ أيام دراسته في بيروت، لكنه اشتهر محدّثاً لبقاً في الإذاعة والتلفزيون وعرف بأدبه وسعة إطلاعه وحلو فكاهته. قال الدكتور صفاء خلوصي: «كان فؤاد أميل الى الحديث والخطابة الارتجالية البليغة منه الى الكتابة والتأليف... ولعلّ لسحر صوته الذي لا يمكن أن يدوّن على قرطاس أثراً في هذا المنحى الذي انتحاه».

توفي ببغداد في ١٠ أيار ١٩٧٦.

من شعره: من قصيدة «رأس بيروت»:

تهادين من كل الجوانب كالقفر[1] ... على رأس بيروت الى ساحل البحر

كواعب أتراب كأنّ وجوهها ... يفيض بها ماء الملاحة والبشر...

خرجن ليستروحن طيب نسائم ... ويشخصن بالأبصار في مسرح الفكر

وفي جانب منهن شيدت مساكن: ... قصور وأكواخ لمثرٍ وذي فقر

فثمّة قصر قائم شامخ الذرى ... وثمة كوخ جاثم واطىء الجدر

وبالقرب منه دوحة قام فوقها ... حمام بوكر كم شجى النّاس بالهزر

وقد طرزت أيدي الربيع ونمّقت ... بساطاً من الريحان والعشب والزهر

وفي جانب منهنّ بحر وشاطىء ... عليه من العشاق طير بلا وكر...

وله:

وفتاة لا أقصد الشمس، لا بل ... فضلتها بقامة وبجيد

أرأيت الغزال يبدي نفوراً، ... أرأيت انعطافة الأملود؟

ما ائتلاق الياقوت من شفتيها، ... ما الثنايا بلؤلؤ منضود

تلك أحياء، هذه جامدات، ... أفحيّ كميّت ملحود؟

لبست مثل طهرها حلّة بيضاء ... تزري بناصع من جليد

وبدت والدلال يعبث فيها ... كجناح الملاك عند الصعود

يثب النهد تحتها، أسجين ... باذل جهده لكسر القيود؟

أم كقلبي لما دنت وتدلّت ... بعد حرّ الجوى ومرّ الصدود...

---

(١) لم أعرف ماذا يقصد بـ القفر ولعله يريد قفير النحل أي خليته (وهي عامية).

ورثى جعفر الخليلي فؤاد عباس فقال:

نم، يـا فـؤاد، فقـد والله عـزّ على نفسي منامـك، لكن مـا الـذي بيـدي؟
إن ضـاق صدري ولم تسكـن لـواعجـه لأنّ كـلّ صـديـق راح لم يَعُـدِ

وقال الخليلي إن لفـؤاد عباس في مكتبـة تسجيلات الإذاعـة والتلفزيـون وفي أشرطة الأندية ما يؤلف خمسين مجلداً أو أكثر لو أردنا أن ننقله على الورق.

حسين مردان

شاعر البـؤس والحرمان ورائد الأدب المكشوف، ولد حسين مـردان في بعقوبا لأسرة كردية الأصل سنة ١٩٢٧. وانقطع عن الدراسة صبياً، فجاء الى بغداد وعمل في حقل الصحافة سنة ١٩٤٧. طبع أول مجموعة شعرية له سنة ١٩٤٩ بعنوان «قصائد عارية» فجاءت تعبّر عن نفسـه القلقة المحـرومة التي تضطرم فيهـا الشهوة وتعتلج بـالعواطف الهائجة. وعقبهـا بمجموعات نرى فيهـا لفحات تذكـرنا بأزاهر الشرّ للشاعـر الفرنسي شارل بودلير. وقد حوكم حسين مردان سنـة ١٩٥٢ بسبب ما سمي بالبذاءة في قصائده العـارية كما حـوكم بـودلير في بـاريس في منتصف القرن التـاسع عشر بسبب أشعـاره المتحررة. وقضى شاعرنا أمداً في السجن ضريبة أدبية فرضت عليه.

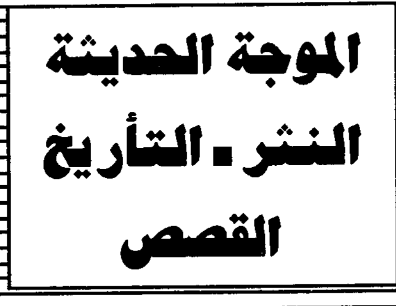
عاش شاعرنا بائساً يتبلّغ براتب ضئيل يدرّه عليه عمله في الصحف مخبراً ومحرراً حتى أدركه الحمام في بغداد في تشرين الأول ١٩٧٢.

قال الدكتـور داود سلّوم «إن مادة «قصائد عارية» و «اللحن الأسـود». . قد أثارت بعض النقاد من ذوي المقـاييس الخلقية وبعض المحافظين من رجال الـدين والحلقات الاجتماعيـة. وإن مقاسـاة حسين مردان في حقلـه ومقـاساة الآخـرين في حقول أخـرى مختلفة يظهر فيه تحديد الحرية في التفكير والتأليف للذين يريدون أن يقولوا ما يرغبون أو يعتقدون أنه الحقيقة».

وقال الدكتور سلوم أن حسين مردان بالـرغم من جرأته في الموضوعات الشعرية التي عالجها لم يتحرر من الوزن القديم والقافية المتكررة إلا في مواضع قليلة.

مؤلفاته: قصـائد عارية (١٩٤٩) عزيزتي فلانـة (١٩٥٢) نشيد الأنشاد (١٩٥٥) هلاهل نحو الشمس (١٩٥٥) الربيع والجوع، مقالات في النقد الأدبي (١٩٥٥) رسالة من شاعر الى رسّام (١٩٥٦) الأرجوجة هادئة الحبال، طراز خاصّ، العالم تنّور.





الموجة الحديثة
النثر - التأريخ
القصص



عبد المسيح وزير

عبد المسيح جبر وزير ولد في ماردين سنة ١٨٨٩ ، ودرس في مدارسها ، ثم تخرج في كلية عينتاب الأميركيـة وأتقن اللغتين العربية والانكليزية . وقد عمل مـدرساً في ماردين ولبنان ، وكان محرراً لمجلة مدرسة التهذيب في الشويفات (١٩١٣) . ثم رحل الى مصر عند نشوب الحرب واشتغل مترجماً فيها .

وجاء الى العـراق فعيّن مترجماً في وزارة الدفاع (شباط ١٩٢١) ، وسميّ مـديراً لقسم الترجمة بها في آب ١٩٣٣ . وقـد خدم في هـذه المهمة أكثـر من ٢٢ عامـاً ، ووضع آلاف المصطلحات العسكـرية بـاللغة العـربية ، وألف قـاموسـاً عسكريـاً باللغتين العـربية والانكليزية أصبح مرجعاً في بابه .

وتوفي ببغداد في ٢٠ أيلول ١٩٤٣ .

كـان عبد المسيح وزيـر أديباً عـربيـاً لطيف الأسلوب ألف روايـات ، مثل «الصنم المحطّم» ، وأنشأ بحـوثـاً ومقالات كثيرة . وتـرجم الى اللغـة العـربيـة طرفـاً من الشعـر الانكليزي والعالمي ، كـ «ريفيّات» فرجيل شاعـر اللاتين وأشعار طاغور ، وكتاب عبد الرحمن الناصر (١٩٣٩) ، وخواطر طاونزند أو محاربتي في العراق (١٩٢٣) .

ومن مترجماته أيضاً شريعة حمورابي ، وروايـة القيصرة في مقصورتها لوليم ليكيو نشرتها جريـدة العراق البغداديـة تباعـاً (١٩٢٣) ، وكتاب الثورة العـربية من تـأليف ت . أ . لورنس (طبعت منه كرّاستان فقط) .

وكتب في مـوضــوعـات متنوعـة بحــوثـاً نشرتها المجـلات والصحف العــراقيـة كمجلة الحرية ، منها مقالاته عن نظرية اينشتين والذرّة الخ .

وطبعت قصّتــاه «الصنم المحطّم» و «عجــوز تتصــابى» في مجلّــد صــدر سنــة ١٩٧٢ . ونقل مع مسـاعديه في وزارة الـدفاع عـدداً عديداً مـن الكتب الفنيّة ، ونهض بعبء سبك المصطلحات العربيةالتي تناظر المصطلحات الغربية في الفنون الحربية .

وكان في طليعة المترجمين الذين رافقوا فجر النهضة العراقية في المائة العشرين ، فأحيوا

في بغـداد بعـد ألف ونيّف من الأعـوام عهـد يـوحنا بن مـاسـويـه وحنين بن إسحـٰق وأضرابهما من مترجمي عصر الـرشيد والمأمـون. و «صنـاعة المترجـم» ليست بالهيّنـة ولا اليسيرة»، وقـد عرّفهـا وزيـر نفسه في محاضرة ألقـاهـا في نادي القلـم العراقي، قـال: «فالترجمة والمترجمون كانوا ـ ومـا يزالون ـ عماد كل نهضة علمية ثقافيـة قائمة على ناموس تفشّي الثقافات باقتباس كل أمة ممّـا عندها من عناصر العلم والفنّ والحكمة والأدب، فضلاً عن عناصر السلوك والعادات وغيرها . . .»

ثم قال: «وأقـول في الترجمة: لا يعرف انسـان حلو الترجمة ومرّها إلا من يعـانيها، فهي صنـاعـة وفنّ في غايـة الـدقّـة. والمترجم كـالشاعـر والأديب والمصـوّر والموسيقيّ والفيلسوف والرياضيّ والمهندس مخلوقة قابليته معه لا مختلقة، هذا فضلاً عمّا تقتضيه له صناعتـه من الاطلاع الـواسع مع العلم الغزير بلغتـه واللغة التي ينقل منهـا أو إليها. والمترجم الحقيقي فيـه ذوق الفنّان ودقـة الـرياضي واطـلاع المؤلف. وليس كلّ من نقل نبذة أو كتاباً من لغة الى أخرى عدّ مترجماً، بل المترجم هو الراز الفرد والمهندس النابغة ـ راز اللغة التي ينقل اليها ومهندس صرح الأفكار التي يصبّها في قوالب الكلام . . .».

وقد كان عبد المسيح وزيـرا معروفاً بالذهول وشرود الـذهن. فمن النوادر التي تروى عنه في هـذا السبيل أنه وقف صباح أحد أيـام الجمعة على باب داره، وهو في مبـاذله، فـرأى عـربـة تمرّ في الشـارع، فما كـان منـه إلا أن استـوقفهـا وركب مشيراً الى الحوذيّ بالذهاب الى وزارة الـدفاع. ونظر الحوذي اليه ملياً، ثم قال ضـاحكاً: «وماذا تفعل في وزارة الدفاع، يا أستاذ، واليوم جمعة، وأنت لم ترتدِ ملابسك؟ . . .».

وانفضّ إجتماع نـادي القلم ذات مساء، وكـان يعقد في دار بعض أعضـائه، فقام عبد المسيح وزير يهمّ بالخروج ورأى كتباً على الأريكـة، فقال ضاحكاً: من نسي كتبه، يا سادة؟ وظهر بعد التحقيق أنها كتبه، ولم يفطن أنها له.

وروى خيري العمري أنه دخل ذات مرة الى وزارة الدفـاع قاصداً مكتبه، لكنه دخل الى الغرفة المجاورة، وكـانت غرفة مدير الأمور الطبيـة، فجلس الى المنضدة. واستغرب وجود الآلات الطبيـة والأدوية، فـاستدعى الحاجب وصرخ في وجهـه يسأله عـن كتبه وقواميسه.

وليس من ريب أن عبـد المسيح وزيـر لـو أدرك عهـد الكـاتب الفـرنسي لا بـروير (١٦٤٥ ـ ١٦٩٦) صاحب كتـاب «الطبائع» لسلكه في عداد أبطاله: فقـد حدّثنا هذا الكـاتب الشهير عن «مينـالك» عنوان الـذهـول الذي يهبط سلالم داره ويفتح البـاب ليخـرج الى الشـارع فيجـد نفسـه في مـلابس النـوم وقـد حلق نصف لحيتـه فقط . . . ويبحث عن قفـازه وهـو يحملـه في يده. ويـدخل الى إحـدى المقـاصير فيتعلّق شعـره المستعار بـالثريا التي يمـرّ تحتها، فيضحك مع الضاحكين ويبحث عن الـرجل الذي يكشف عن صلعه ولا يفطن أنه هو نفسه ذلك الرجل، وهلم جراً.

***

دبّت المنافسة والتنابز بين عبد المسيح وزير والأب أنستاس ماري الكرملي، فكانت موضوع حديث المحافل الأدبية سنين طوالاً. وقال الأب إن عبد المسيح وزير لا يحسن الترجمة وهجاه هجاءً مقذعاً مراً حتى في بعض الفهارس السنوية لمجلة لغة العرب في عهدها الأخير. أما وزير فقد عرّض بالأب في محاضرة له ألقاها في نادي القلم العراقي فقال:

«وقبل سنوات نشرت مجلة في بغداد اشتهر صاحبها ومنشئها في العالم العربي بكونه علماً من أعلام اللغة العربية واشتقاق مفرداتها مقالاً طويلاً يبحث في ضرورة الألعاب الرياضية للأمة. وفي معرض البحث استشهد الكاتب بولع الانكليز بالرياضة البدنية، فقال إنّ شغف الأمة الانكليزية بالألعاب الرياضية حملها على تخصيص يوم جعلته عيداً قومياً سمّته «يوم الملاكمة». ونشر الكاتب الأصل الانكليزي مع هذه العبارة وهو Boxing day! ولكن المسكين فاته أن المراد بهذا اليوم ليس «يوم الملاكمة» بل «يوم الهدايا»، وهو عند الانكليز أوّل يوم في الأسبوع بعد عيد الميلاد يقدم فيه أصحاب البيوت الهدايا الى مستخدميهم وسعاة البريد وغيرهم. فنبّهت حينئذٍ صاحب تلك المجلة على غلطته الفاحشة، فأصلحها معتذراً في العدد التالي من مجلّته».

ذكر رفائيل بطي أن عبد المسيح وزير نشأ في جوّ مشبع بتعاليم الكتاب المقدّس فكان ذلك مردّ خلقه الوادع اللطيف. إلاّ أن إدمانه قراءة أصحاب العقول الثائرة والمتشككّة من الفلاسفة وسّع آفاق ذهنه وأنشأ في رأسه هذا الصراع المشبوب بين الشكّ واليقين.

ثم قال: «وقد غنمت الثقافة العسكرية العربية من مساعيه وكفايته وعلمه وانكبابه آناء الليل وأطراف النهار على التنقيب والتحقيق والبحث في المعاجم ودواوين اللغة والأسفار العربية والانكليزية هذا «المعجم العسكريّ» البكر في اللغتين...» وقال عن أسلوبه الكتابيّ: «ونهجه أن يكون الأدب أرستقراطياً يصون فنونه عن الاسفاف والابتذال...». وقال: «أما طريقة عبد المسيح في الترجمة فدقة في النقل ومتابعة الأصل بما يقرب من الترجمة الحرفية، مع مراعاة الفروق في التعابير بين اللغتين وعناية بالغة بفصاحة المفردات و إفراغ العبارة في ديباجة مشرقة وتركيب محكم».

كان عبد المسيح وزير ينفق راتبه بسخاء وقد أثر عنه أنه لا يدّخر شيئاً من المال. وجرت المناقشة ذات يوم في نادي القلم بشأن بناء عمارة للنادي، فشكا الأعضاء أن الحكومة لا تمنح أية إعانة لهذا الغرض.

فقال عباس العزّاوي؛ أقترح أن نستلف المبلغ اللازم للبناء من عبد المسيح وزير.

فردّ عليه وزير قائلاً: إن جميع ثروتي تحت تصرّف النادي. وأضاف ضاحكاً: يحقّ لنادينا أن يعتزّ بكنزين: ثروة عبد المسيح وزير وجمال عباس العزاوي!

وقد سمّى عبد المسيح وزير ابنته إِيَنس باسم قدّيسة إسبانيّة معروفة. وكانت تربطه صداقة وثيقة بمعروف الرصافي، فقال في الفتاة إينس أو ـ كما سمّاها ـ إيناس:

إخــــــال بيتـي، لمّا جئتِ زائرةً،	كـأنّ وجهك فيــــه نـــور نبراس
كـم أوحشتني الليـــالي في تصرّفهـــا	فـــزال إيحاشهـــا عنّي بـإينـــاس
أدامك الله، يـــا إينـــاس، تـــذكـــرة	لـــوالـــد فـــات فضـــلاً كلّ مقيـــاس
قـــد كـــان يأســـو جـروحـــاً فيّ داميـــةً،	واليـــوم عنـــدي جـــروح مـــا لها آس

عرفت عبد المسيح وزير، وأنا في مطلع الشباب، وأفدت منه فوائد جمّة. وقد أطلعته على ترجمة لي عن الانكليزية، فنبّهني إلى أمـور تتعلق بصميم نقل أسماء الأعلام ومعاني الجمل الخاصة بكـل لغة. من ذلك أنني كتبت اسم حـاكم فلسطين الرومـاني في عهد السيّد المسيح «بـونطيوس بيلاطس» كما جـاء في اللغة الانكليزية، فقـال لي: اسمه في العربية: بيلاطس البُنْطي نسبةً الى بُنْط بالضمّ (أو بونط) وهو الجسر.

وحدث بعد عدة أعوام، قبيل وفاته، أنني وجدت منه شيئاً من الجفوة، فاستغربت الأمـر لأنني لم أعلم بصدور أي تفـريط في حقّه من جـانبي. ثم عرفت السبب: كـان مديـر الأنواء الجوية الانكليـزي قد رغب في ترجمة كتـاب في هذا الموضوع الى العـربية، فكلّم الأب أنستـاس ماري الكـرملي الذي قـال له: إنّ خير من يقـوم بهذه الترجمة مير بصري، أما عبد المسيح وزير فلا يفقه شيئاً لا من العربية ولا الانكليزية. وقد راجعني هـذا الانكليزي في غـرفة تجارة بغـداد، فاعتـذرت عن ترجمة الكتـاب لكثرة مشـاغلي، وقلت له: إن عبد المسيح وزيـر شيخ المترجمين، فإذا وافق على تولّي الترجمة فقد ربحتم ربحاً عظيماً.

وأفهمت عبـد المسيح وزير بما جـرى، فسرّ بما كان وعـادت صلاتنـا الى الصفاء لا يعروها كدر.

قال الدكتور طه حسين:

«... إن الناقل ملزم حينئـذٍ أن يكون من القدرة والكفايـة بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول، فيشعر بقلبه ويحس ّبحسّه، ويرى الأشياء بتلك العين التي رأى بها المؤلف، ويصفها بهذا اللسان الـذي وصفها. فإنّ الترجمة في الفن والأدب ليست وضع لفظ عربي موضع لفظ أجنبي، إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور في اللغة الطبيعية، فكيف بها من لغة أخرى؟ إنما الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عملين مختلفين كـلاهما صعب عسير: الأول أن يشعـر المترجم بما شعـر به المؤلف وأن تـأخذ حـواسّـه

وملكاته من التأثر والانفعال نفس الصورة التي أخذتها حواسّ المؤلف وملكاته إن صحّ هذا التعبير. والثاني أن يحاول المترجم الإعراب عن هـذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وخفاياها بأشدّ الألفاظ تمثيلاً لها وأوضحها دلالة عليها.

وخـلاصة القـول إن المترجم يجب أن يجتهد مـا استطاع، لا في أن ينقل إلينـا معنى الألفاظ التي خطتها يد المؤلف، بل في أن ينقـل إلينا نفس المؤلف جليّة واضحة، نتبيّن فيها من غير مشقة ولا عناء ما أثر فيها من ضروب الإحساس والشعور».

جواد الدجيلي

المحـامي الكاتب الأديب الشيخ جـواد بن حسين الـدجيلي، أخو الشـاعر كـاظم الدجيلي، ولد بجانب الكرخ من بغداد سنة ١٨٨٨ . درس علوم العربية والفقه، حتى إذا مـا نشبت الحرب العظمى سنـة ١٩١٤، لجأ الى البصرة وعمل معلماً في مـدارس أبي الخصيب والناصرية. وعـاد الى بغداد فزاول التعليم حيناً في عهـد الاحتلال البريطاني. ثم سافـر الى الهند فتنقل في أنحائها زهـاء ثلاث سنوات، وكتب في أثنـاء ذلك مقالات عن شؤونها ومللها ونحلها في مجلة المقتطف المصرية (١٩٢٠). وذهب الى مصر فحضر الدروس في جامعتهـا، ثم عاد بعد سنة الى بغـداد ووظّف في وزارة العدلية. وانتمى الى مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٤ وتخرّج فيها (١٩٢٧) ومارس المحاماة.

كتب مقالات كثيرة في الصحف العراقية في الأدب والاجتماع، أهمها سلسلة مقالاته في جـريدة «الاستقـلال» بعنوان «الانسـان همجيّ الطبع: لا تـوجد أخـلاق وإنما هي حاجات» (١٩٢٧).

وقد كان في مبدأ أمره متديّناً متـزمّتاً، ثم وقعت في يده مؤلفات الدكتور شبلي شميّل وفرح أنطون وغيرهما من رجال النهضة الحديثة في مصر ولبنان، فمال الى حرية الفكر.

أدركته الوفاة ببغداد في ٢١ آذار ١٩٥٩.

كان غريب الأطوار، مسالماً صريحاً بعيداً عن المجاملة، متقشّفاً في معيشته، متهاوناً في شأن نفسـه، سمحاً حلو الفكـاهة يتقبّل دعـابة أصـدقائه القـاسية بـرحابـة صدر وسلامة طويّة. وكان الى ذلك دؤوباً على المطالعة، وقد اعتاد السير على قدميه ساعات طويلة كلّ يوم للرياضة والتفكير، ولم ينقطع عن تلك العادة الى سني شيخوخته.

رثاه أخوه الشيخ كاظم الدجيلي بقصيدة، قال منها:

قضـى نحبـاً وآل الى الخمـود ... وسـاوى الميّتين مـن الجدود

ونـام بقبره نـومـاً عميقـاً ... وأضحـى لا يفيق مـن الـرقـود

وشيّعنـاه بـالعبرات حـرّى ... وقـد تهمي الـدمـوع على فقيـد

وعـــدنـــا منـــه نـــذكـــره بخير	وشرّ مـن قـــــريـب أو بعيـــــد
وكـــان أسير جيلـــه في هـــواه	وفي رأيٍ لعـــــالمه جـــديـــد
يـــرى في جيلـــه مكـــراً وختـــلاً	وبهتـــانـــاً ونقضـــاً للعهـــود
وديـنـــاً ليس فيـــه ســوى ريـــاءٍ	وجهـل بـــالعبـــادة والحدود
يـــرى بـــالموت للعـــاني نجـاة	إذا مـــا ظلّ يـــرسف في القيـــود
كثير الظـنّ سيّئـــه يماري	بها عنـــد المقلّـــد مـن جمود
قضـى الأيـــام في دنيـــاه يسعـى	لمعـــرفـــة الحقيقـــة في الـــوجـــود
وأسعـــده التبتّـل في حيـــاة	خلت منهـــا السّعـــادة للـــوحيـد
ففـــارقهـــا ولم يحسـب حســـابـــاً	لأخـــراه ولا يـــوم الـــوعيـــد
ولم يـأسف على الـــدنيـــا بشيء	ولم يـــؤمن بفلسفـــة الخلـــود. . .

وهو رثاء أخ لأخيه نادر المثيل، خالٍ من العاطفة، فلسفيّ النزعة، واقعيّ السّمات.

روى جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» (الجزء الثالث) عن الشيخ جواد الدجيلي أنه كان معروفاً برحابة الصدر والسذاجة وحرية الفكر، قليل الإيمان بالأديان وفلسفة الوجود. واستغلّ زملاؤه المحامون وأصدقاؤه المقرّبون طيبته وبساطته فراحوا يداعبونه وينسبون إليه على سبيل الفكاهة مالم يقله ولم يفعله. وزعموا أنه وقف يوماً أمام المحكمة يدافع عن متّهم بالقتل. وعرضت البندقية التي أطلق منها الرصاص، فقال الدجيلي: إن هذه البندقية التي يقدّمها الإدعاء العام أداة إثبات للجريمة ليست إلا حديدة لا ينطلق منها الرصاص.

وظلّ الدجيلي يؤكد ويكرّر البندقية عاطلة، فقرّر الحاكم تجربتها على الفور في ساحة المحكمة ووضع فيها الرصاص، وضغط على الزناد، فانطلقت الرصاصة وأصابت السقف.

قال الحاكم: والآن ماذا تقول؟

فاعتذر الدجيلي وقال: كنت أحسب البندقية عاطلة!

هـذا وقد رأيت الشيخ جواد الدجيلي في بعض الأماسي يسير متمهلاً في شارع أبي نواس على شاطىء دجلة وهو يأكل خبز شعير. فسلّمت عليه وقلت له مداعباً: كيف تأكل في الطرق، أيّها الشيخ؟ إن شهادتك لن تقبل إذا رآك الناس. فقال: أرجو أن لاتقول لأحد. . . أرجوك. . . ثم شاهد كلباً يجري فناداه: يا أخي، يا أخي! وأعطاه كسرة من الخبز.

كان جواد الدجيلي حرّ الفكر كما تدل عليه كتاباته وأحاديثه . قال له عباس العزاوي ذات يوم :

إنك لا تدين بدين أو مذهب فلماذا تتمسك بطائفتك الشيعية وتتعصب لها؟

قال الدجيلي : إن المجتمع العراقي لم ينصهر في بوتقة وطنية ولا تزال طبقاته منتمية الى الأديان والمذاهب . فإذا تركت طائفتي نبذتني ولم تقبل بي الطوائف والمذاهب الأخرى ، ففقدت قاعدتي الاجتماعية .

عبد الرزّاق الحصّان

الكاتب العربي القومي عبد الرزاق بن مجيد بن حميد الحصّان الكرخي ، ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ ، ودرس في المعاهد القديمة ثم أقبل يطالع أمّهات الكتب وينهل من موارد الثقافة العربية حتى أصاب حظاً وافراً من اللغة والتاريخ . ومارس تجارة الخيول في الهند ، وهي ـ كما قال سليم طه التكريتي ـ حرفته التي اشتقّ منها لقبه ، فتعلّم شيئاً من اللغة الانكليزية .

وأضاف التكريتي قائلاً : «ولقد دفعه حبّه لعروبته الى أن يساهم في الحركة العربية في مطلع القرن الحالي وأن يوثق علاقاته مع روّاد تلك الحركة سواء في الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية أم في العراق» .

مال الى الصحافة بعد الحرب العظمى وإقامة الحكم الوطني في العراق فكان من كتّاب المعارضة في جريدة الاستقلال . ثم رئس تحرير جريدة صدى العهد الصادرة في ٧ آب ١٩٣٠ ، ولم يلبث أن تخلّى عنها . وعمد الى إصدار كتب ورسائل شديدة اللهجة أثارت المشاعر فحوكم سنة ١٩٣٣ إثر صدور كتابه «العروبة في الميزان» وأودع السجن أشهراً .

وواصل إصدار كتبه ونشر مقالاته ، داعياً الى التربية القومية والأخلاق الإسلامية ، ومنادياً بالوحدة العربية ، ضارباً الأمثال بخالد بن الوليد وسواه من أبطال العروبة والإسلام ، مندّداً بالشعوبية التي تنتقص من مآثر العرب ومواهبهم ، مستخرجاً من التاريخ العربيّ القديم نماذج للتنظيم العسكري والدعاية وبعث الروح الحربية وتوحيد الكلمة .

من مؤلفاته التي صدرت في تلك الحقبة : ما العلاج؟ (١٩٣١) العروبة في الميزان (١٩٣٣) نحن (١٩٣٥) بين الأمس والغد (١٩٣٥) عربيّ المستقبل (في ثلاثة أقسام ، صدر القسم الثالث سنة ١٩٣٨) ، ربيعة العراق (في قسمين ١٩٣٦ ـ ٣٩) نظرة عابرة

في شماليّ العـراق (١٩٤٠) المهدي والمهـدويّـة (١٩٥٧) الخ. وحقّق كتاب «الحسبـة» (١٩٤٦).

وقد عيّن بعد الحرب العالمية الثانية مـديراً لمكتبة الأوقاف (١٩٤٨) فتولّى هذا العمل أعـواماً الى صيف سنـة ١٩٥٨، وهجر بغـداد بعـد ذلك فأقام في الـزبير، ثم مضى الى الكويت حيث أدركه الحمام في أواخر نيسان ١٩٦٤.

قال سليم طه التكريتي: «لقد أزاح الاستاذ الحصـان عن تاريخنا العربي كلّ ما علق به من أدران، فأخرجه صـافياً رائقاً يبهر الدنيا بعظمتـه ويثير الإعجاب بروائعه ويحظى من تقـدير المنصفين من المؤرخين مـالم ينله تـاريخ آخـر في الدنيـا». ثم قال: «كـانت عقيدة الحصان الراسخة وعفة نفسه ترفعـه عن الدنيا والتزامه الصدق في القول والعمل من أسباب نكبته في رزقه... وكان إباؤه قد جعله يرتضي العيش الخشن ويعاني الحاجة والجوع دون أن يقبل منّة أو يسأل صديقاً».

أحمد عبد الغني الراوي

السيد أحمد بن عبد الغني بن محمّد بن حسين بن عبـد اللطيف الراوي، ولد في عنة في حزيران ١٨٩٠، وكان والده مدرساً بها. وقدم الى بغداد فدرس في المدرسة الرشدية، ثم تركها وأخذ يدرس علوم العربيـة والدين، فتتلمذ على أخيه الشيخ محمد سعيد وعبد الـوهـاب النـائب ومحمـود شكري الألـوسيّ وعبـاس حلمي القصـاب ومحمـد سعيـد النقشبندي وغيرهم.

وعيّن سنة ١٩٠٩ مفتيـاً ومدرساً في قضـاء الهندية، ونقل الى قضـاء بدرة (١٩١٥) فظلّ يـدرّس فيه الى احتـلال بغـداد سنة ١٩١٧. وأسنـد إليـه بعد ذلك التـدريس في جامع حسين بـاشا ودار المعلمين، ثم عهـد اليه تدريس البـلاغة في جـامعة آل البيت (كـانـون الأول ١٩٢٤). ودرس الحقـوق في هـذه الأثنـاء فنـال شهـادتها سنـة ١٩٢٥. وانتخب نائباً عن الحلة في أيار ١٩٢٨.

وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي في تموز ١٩٣٦ ثم نقل قاضياً شرعياً في كركوك (آب ١٩٣٧)، لكنه استقال بعد أمـد وجيز. وعيّن مدوناً قانونياً (أيـار ١٩٤٦ ـ كانون الأول ١٩٤٧).

وقـد توفي ببغـداد في أول آذار ١٩٦٢. كان عـالماً فـاضلاً صلب الـرأي شديـداً في المساجلة والنقاش وكاتباً له مقالات كثيرة نشرت في الصحف.

ومن شعره، وقـد ظهرت براءته مما نسب إليه من التخابر مع السيـد طالب النقيب بغية إنشاء حكومة عربية في عهد الوالي سليمان نظيف بك:

أرقت وســـــاورت قلبي همومي عشيّـــة قيل هيّـــا بـــالظّلـــوم
يقلّبني الأســى ظهـــــرا لبطـن كفعــل السـمّ في جســم السليــم
فما عثــرت على فكـــري هنــات بها أدعـى، وربّـك، بــالأثيـم . . .

وقال في نفي يوسف السويدي من بغداد خلال الحرب العظمى :

نـأيت عـن المنــازل والــربــوع وبنـت فبــان قلبي عـن ضلـــوعي
منـــازل قــد عهــدت بها قــديماً حبيبـــاً لا يـــزال بـــه ولـــوعي
لها أصبـــو إذا مـــا لاح بــرقـــاً، وكـم أصبـــو الى البرق اللّمـــوع
ذوى روض الشبـــاب، وكـــان غضـــاً و وخط الشيـب تخضبـه دمـــوعي . . .

وذكـر عباس العـزاوي أن الشيخ حسين بن عمر الـراوي، وهو أخـو الشيخ عثمان الجدّ الأعلى لأحمد الراوي، كان امام الجيش في عهد والي بغداد أحمد باشا سنة ١٧٢٤ .

إبراهيم الدروبي

ابـراهيم بن عبـد الغني الـدروبي ولـد ببغـداد سنة ١٨٩٤ ، ودرس في معـاهـدهـا الدينيـة، وأتقن الخطّ فنسخ بيده مصنّفات عديـدة. وظف كاتباً بالمحكمـة الشرعية، وألف : البـاز الأشهب الشيخ عبـد القـادر الكيلاني (١٩٥٥) البغـداديـون أخبـارهم ومجالسهم (١٩٥٨) .

توفي في مسقط رأسه في ٢ تشرين الثاني ١٩٥٩ .

كانت له صلة بآل الكيلاني نقباء الأشراف ووقوف على أخبار بغداد وأسرها وعلمائها ومعاهدها، كما كان ضليعاً بالعلوم الشرعية .

وقد ألّف كتاباً في «قضاة بغداد» (مـن أبي يوسف قاضي المهدي والهادي والرشيد الى محمّد نافع المصرف)، وآخر عن نقباء بغداد، ولم يطبعا .

قال عبّـاس العزاوي : وخطّـه تحفة نادرة. والـدروبي خال الأديب الـوزير مصطفى علي .

محمّد رؤوف الغلامي

من رجال التعليـم والتأليف، ينتمى الى أسرة علمية معـروفة في الموصل اشتهـر منها الأديب الشـاعـر محمـد بن مصطفى الغـلامي صـاحـب «شمّامـة العنبر» (المتوفى سنـة ١٧٧٢)، وعلي الغلامي مفتي الشـافعية، وكان أحـد المفاوضين الذين أوفـدهم الوالي حسين باشـا الجليلي سنة ١٧٤٣ الى نادر شـاه لفك الحصار عن الموصل. ولـد بالموصل سنـة ١٨٩٠ . تخرج محمـد رؤوف الغلامي في دار المعلمين بمسقط رأسـه سنـة ١٩١٢

وزاول التعليم أعواماً طويلة. وواصل دراسته على علماء بلده، فنال الإجازة العلمية سنة ١٩٣٤.

سعى في العهد التركي لنشر العلم في الموصل والدعوة للحركة العربية، وثابر على نشاطه الوطني خلال الحرب العظمى الأولى وإبّان الاحتلال البريطاني وكان معتمد حزب العهد السري سنة ١٩٢٠ في الموصل. وشارك في تأسيس مدرسة دار النجاح والنادي الأدبي في سنة ١٩٢١ ــ ٢٥. وأصدر جريدة صدى الأحرار في الموصل (١٩٤٩) فواصل نشرها حتى سنة ١٩٥٤.

وقد توفي سنة ١٩٦٨.

ألف: العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي (١٩٤٢) التحفة البهيّة (١٩٤٤) المردّد من الأمثال العامية الموصلية (١٩٦٤).

ومن الكتب التي حقّقها ونشرها: الجمان المفنّد (١٩٤٠) وتخميس همزية البوصيري (١٩٤٠)، وكلاهما للشيخ محمد الغلامي، المعتقد الإيماني لأبي البقاءالأحمدي (١٩٦٢) أصحاب بدر للشيخ حسين الغلامي (١٩٦٦) الخ.

***

أخوه عبد المنعم الغلامي ولد في الموصل سنة ١٨٩٩ وتوفي عام ١٩٦٧. كان مدرّساً وألف كتباً كثيرة منها: السوانح (١٩٣٢) خروج العرب من الأندلس (١٩٤٠) مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى (١٩٤٠) بقايا فرق الباطنية في لواء الموصل (١٩٥٠) الضحايا الثلاث (١٩٥٥) أسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٦٢) جغرافية جزيرة العرب (١٩٦٢) الأنساب والأسر (١٩٦٥) ثورتنا في شمال العراق (١٩٦٦).

محمد صالح السّهروردي

من رجال الدين وأصحاب البحوث التاريخية محمد صالح بن محمد سليم بن عبد الرحمن السهروردي، وأسرته عباسية النسب سهروردية الطريقة أنجبت علماء دين وكان جدّها الشيخ محيي الدين قاضي تكريت والدور وسامراء.

ولد محمد صالح ببغداد سنة ١٨٩١ ودرس على عبد الوهاب النائب وقاسم القيسي وأسعد الدوري وغيرهم من مشايخ العصر وعيّن مدرساً في المدرسة الطبقجلية في محلة العاقولية من بغداد. وقد تولّى تدريس اللغة العربية في مدرسة الأليانس سنة ١٩٢٣. وأصدر في ٢٩ تموز ١٩٢٤ جريدة «الضاد» الاسبوعية فظهرت أمداً. وانخرط في سلك موظفي دائرة الأوقاف في تشرين الأول ١٩٢٥ فكان مفتشاً للمساجد ومديراً لأوقاف الحلة الخ. وعيّن مفتشاً للمعابد والمعاهد الدينية (ايلول ١٩٤٧) ونقل في حزيران ١٩٤٩ مديراً لأوقاف ديالى. واعتزل العمل بعد ذلك وتوفي ببغداد في كانون الثاني سنة ١٩٥٧.

وقد نشر بحوثاً تاريخية كثيرة في الصحف والمجلات، وألف: الأجوبة السهروردية (١٩٢٧) لبّ الألباب (في جزءين ١٩٣٣).

وعرف أخوه المقّدم محيي الدين بن محمد سليم السهروردي ضابطاً ونائباً. ولد ببغداد سنة ١٨٧٩ وتخرج ملازماً ثانياً في المدرسة الحربية بالاستانة (١٩٠٤)، وخدم في الجيش التركي في العراق ونجد وحارب في اثناء الحرب العظمى في ساحة الفلوجة والرمادي. إشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ـ ٢٠ واعتقل أمداً يسيراً. ثم ألحق بالجيش العراقي أوّل تأسيسه، وعيّن مديراً لشرطة لواء ديالى (نيسان ١٩٢٢). وعاد إلى خدمة الجيش ضابط ركن في الناصرية وآمراً للانضباط العسكري، وأحيل على التقاعد سنة ١٩٣١. وانتخب نائباً عن بغداد في ايار ١٩٣١ إلى ١٩٣٢، ثم نائباً عن لواء ديالى (١٩٣٩ ـ ٤٣). وكان مديراً مسؤولاً لجريدة الطريق سنة ١٩٣٣.

عمّر محيي الدين السهروردي طويلاً فتوفّي ببغداد في ٨ تشرين الثاني ١٩٧٠.

ابراهيم الواعظ

ينتمي إلى أسرة دينية حسينية النسب تعرف بآل الأدهمي، واشتهر جده محمد أمين (١٨٠٨ ـ ١٨٥٧) ابن محمد بن جعفر بن حسين بن محمود الأدهمي بالواعظ.

وكان والد ابراهيم: مصطفى نور الدين (١٨٤٧ ـ ١٩١٣) من رجال الدين المعروفين في عصره، تقلد رئاسة محكمة الجزاء في البصرة (١٨٨٠ ـ ٨٢)، ثم كان مفتياً للحلة من ايلول ١٨٨٣ إلى تشرين الثاني ١٩٠٨ حين انتخب نائباً عن الحلة في مجلس المبعوثين العثماني (١٩٠٨ ـ ١٢). وقد توفي في ٣ حزيران ١٩١٣.

ولد ابراهيم أدهم بن مصطفى نور الدين الواعظ في الحلة في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٣، ودرس في المدارس الدينية والرسمية. ورافق والده إلى استانبول (١٩٠٨) ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩١٢ وانتمى إلى مدرسة الحقوق. ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤ فأخذ جندياً كاتباً وعمل في ساحة الكوت، ثم انسحب مع الجيش التركي إلى الموصل عند احتلال بغداد ومكث فيها إلى الهدنة سنة ١٩١٨.

تابع دراسة الحقوق بعد ايابه إلى بغداد، فتخرج فيه سنة ١٩٢١، ومارس المحاماة. وانتخب نائباً عن الحلة في تشرين الثاني ١٩٣٠، ثم ناب عن اللواء المذكور للمرة الثانية من كانون الأول ١٩٣٧ إلى شباط ١٩٣٩.

وانخرط في سلك القضاء فعيّن رئيساً لمحكمة بداءة الموصل (ايلول ١٩٤٤) فرئيساً لمحكمة الاستئناف بها (حزيران ١٩٤٥). ونقل مدوناً قانونياً في ايلول ١٩٤٦، ثم أعيد رئيساً لمحكمة استئناف الموصل في كانون الاول ١٩٤٧. وعيّن مدوناً قانونياً في تشرين الثاني ١٩٥٠ وانتدب مديراً للادارة القانونية في جامعة الدول العربية بالقاهرة.

وعاد إلى بغداد في ايار ١٩٥٢ وتولى رئاسة التفتيش العدلي حتى اعتزل الخدمة في آخر حزيران ١٩٥٨ . وقد توفي بعد أيام قلائل في بغداد في ٨ تموز ١٩٥٨ .

مؤلفاته وأدبه

لابراهيم الواعظ شعر كثير وخطب ومقالات . ومن مؤلفاته : خرّيجو مدرسة محمد (الجزء الأول ، ١٩٣٧ ، الجزء لثاني ١٩٣٩) الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر (١٩٤٨) اسبوعياتي (١٩٥٠) الزّباء (مسرحية شعرية) فتح مصر (مسرحية) عبد الرحمن بن عوف ، العباس بن الأحنف ، ديوان شعر (مخطوط) المعّري كما هو لا كما عرفه الناس ، الخ .

من شعره :

أتحنو عليك قلوب الورى إذا حلّ رزء وخطب عرا
فكن يابس العود صلب القناة بعيد المنال شديد القرا
وكن رابط الجأش ثبت الجنان قويّ المراس متين العرى
ولا ترتجي من لئيم وفاء وكن كاسراً قبل أن تكسرا
ونفس الأباة تدكّ الجبال وشقّ على العاجز أن يفخرا

لعلّ شعر ابراهيم الواعظ ونثره يتسمان بالركاكة والخطأ اللغوي شأن الكثيرين ممّن درسوا في المدارس الدينية القديمة ، ولكن هذا النثر وذلك الشعر لا تعوزهما الأصالة والاخلاص . وقد كتب فصولاً في سيرة صحابة الرسول الكريم ضرب فيها مثلاً أعلى لأسمى صفات البطولة والتضحية والمودّة والكرم والعدالة والجرأة والدهاء ، وهي في حماستها وصدق عاطفتها تصحّ أن تكون دروساً للنشء الناهض . ولم يفته أن يصوّر الهزل والدعابة في موقعهما ، كما فعل عند الكلام على نعيمان بن عمرو الذي كان نسيج وحده بين رجال الجدّ والديانة والحرب ، حتى أضفى عنصراً من الفكاهة البريئة المحبّبة على ذلك العهد الصارم الشديد .

ومن شعره :

وطني ، بكيت شجى عليك ، ولم أزل أبكيك من نفسي ومن أعلاقي
وطني ، فهذا قلبي يذوب وأدمعي تجري بحرقتها من الآماق . .
انّي إلى مصر العزيزة شيّق فابعث لها ولنيلها أشواقي
ولقد هويت الفضل في أرجائها حباً يفوق على هوى العشّاق
اني ، وحقك ، في الهوى متمصّر هل أنت مثلي في هواك عراقي؟

وله في ذكر الوثبة الوطنية سنة ١٩٤٨ :

هـذا العـراق، وهـذه وثبـاتـه، ودفـاعـه عن حقّـه وثبـاتـه
ان كنت تجهل صبره ونضـالـه تـأتيك بـالخبر الصحيح رواتـه
فتيـانـه لا يصبرون على الأذى والضيم لا يحملنـه فتيـاتـه
يـا هـازلاً بـالشعب، لا تهزل فقـد أعطـاك درسـاً في الحيـاة أبـاتـه

وقال في وفاء الكلاب:

الكلـب أوفى من الإنسـان في خلـق وهـو الصّبـور على الآلام والمحـن
والكلب يشكـر إذ أعطيتـه منحـاً وان منعـت فثنّـاء على المنـن
والكلـب يمنع مـولاه وسيّـده وذاك يعـدو على الأعـراض في السّكن

عرفت ابـراهيم الواعظ وصحبتـه أعواماً طـويلة، فوجـدت لديه، مجسّمـة إلى أبعد حدود التجسم، تلك الروح الغيورة الودودة التي تعتـزّ بالأدب وتحبّ الأدباء وتأخذ بيد الناشئين والمتأدبين. لقـد نشر كتاب «الـروض الازهر» وفاءً لأجـداداه وأسرته، ولا سيما لأبيـه وأخيـه إسماعيل، فجعل منه صـورة رائعـة للحيـاة الاجتماعية والأدبيـة في الأيـام السالفة. وانتخب عباس العزاوي عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، فلما رأى رجال الأدب والتاريخ متقاعسين عن الاحتفاء بـالرجل الذي سجّل عصور العراق وأحداثـه في سلسلة كتب تعجـز عن اخراجهـا المجامع بَلْـهَ الأفراد، نشط إلى تكـريمه باسم نقـابة المحامين. وأمضى في الموصل سنـوات، فأوجد ندوة أدبية وشعـرية وخلق حركـة جميلة بالرغم من ضحـل أدبها ودورانها في حلقةمفرغة. وكـان كثيراً ما يكتب إليّ ويكتب إلى غيري في بغـداد يسأل معـارضة «يـا ليل الصبّ» أو تشطير أبيـات أو نظم شعـر في موضـوع يقترحه، لتـلاوته في النـدوة العمـرية ووصل تيّـار الفكر بين الـزوراء والحدباء.

وسافر إلى القاهـرة للعمل في ادارة الجامعة العربية، فاتصل بـالشعراء والادباء وكان همزة الوصل بينهم وبين زملائهم في العراق. ثم اشترى عشرات النسخ من ديوان محمد الأسمـر وغيره، فأهـداهـا إلى أصـدقـائه في بغـداد ودعـاهـم إلى مـراسلـة أصحـابـه المصرّيين...

أما تشجيعه للناشئة وشداة الأدب فـالكثير من الشباب يذكرون يده البيضاء عليهم ويحمدون لـه وساطته لتوظيفهم وتـرفيعهم أو طبع آثارهم أو ارسالهم في بعثـة دراسية. وكان مجلسـه في داره ومكتبه على السّواء منتـدى ترى فيـه رجال الأدب والفضل وتسمع أحاديث الشعـر المحبّبة إلى النفوس. لقد كـان فوّار الحماسة، دائم الابتسامـة، شديد الاخلاص، فمهما تأزمـت الأمور وتعقدت، كنت مـوقناً أن تحظى لـديه بما تـريده من بشاشة ومشورة ومعونة وتفهّم.

كان المرض يترصّده ويتربّص به الدوائر، فلم يكد يعتزل العمل الحكومي ويتطلع إلى حياة الدعة والهدوء، حتى اغتاله الموت بلا مهلة ولا انذار، وطوى سيرته خبراً من الأخبار. وماذا أقول فيه الا أن أردّد أبيات عبدة بن الطبيب التميمي :

عليك سلام الله، قيس بن عاصمٍ، ورحمته ما شاء أن يترحّما
تحيّة من غادرته غرض الرّدى إذا زار عن شحطٍ بلادك سلّما
فما كان قيس هلكُه هُلك واحد ولكنّه بُنيان قومٍ تهدما

وقد رثاه خاشع الراوي، قال :

أفراق إلى أمد أم رحيل إلى الأبد؟
أفل الكوكب الذي شعّ بالأمس واتقد
وخبا ذلك السّنا والمنى أصبحت بدد

محمد سعيد الجليلي

ينتمي إلى الأسرة الجليلية المعروفة وهو محمد سعيد بن حسين آغا آل عبيد آغا الجليلي، ولد بالموصل سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها وشغل وظائف حكومية مختلفة، وكان كاتباً في مجلس النواب. وقد برز بين كتّاب الشباب بعد الحرب العظمى الاولى، ووضع كتباً منها : الأناشيد الموصلية للمدارس العربية (١٩١٤) كيف نجد السعادة (١٩٢٤)كيف يرقى العراق (١٩٢٤) خواطر ويوميات في مشاريع مجلس الاعمار (١٩٥٤) من صميم الواقع (١٩٥٦).

أدركته الوفاة سنة ١٩٦٣ .

محمد بهجت الأثري

الأديب العالم الشاعرمحمد بهجت الأثري، وهو ابن التاجر محمود بن عبد القادر بن أحمد بن محمود، وأصل أسرته من عرب ديار بكر، هاجر جدّه الثاني أحمد إلى أربيل ثم استوطن ببغداد وزاول التجارة فيها .

ولد في بغداد في تشرين الأول سنة ١٩٠٢، ودرس في المدارس الرسمية ومدرسة الأليانس الأهلية، ثم عيّن كاتباً في ديوان محكمة الاستئناف وهو دون سنّ التوظيف. ومال إلى دراسة الثقافة الإسلامية والادب العربي فلازم علي علاء الدين الألوسي ومحمود

شكـري الألـوسي وتخرج عليهما في علوم اللغـة والتـاريخ والتفسير والحديث والأصـول والمنطق والحكمة الأهلية .

بدأ بـالكتابـة في الصحف البغدادية ثم تـولى تحرير مجلة «البـدائع» الاسبوعيـة سنة ١٩٢٥ ، وعين في الوقت نفسـه مدرساً في مـدرسة التفيّض الأهلية . وانتـدب في السنة التالية مدرسـاً في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد فثـابر على التدريس فيها عشر سنين . وقام بسياحة في البـلاد العربية وتركية واليونان سنـة ١٩٢٨ , ثم عاد وساهم في تأسيس جمعية الشبان المسلمين وتولى بعد ذلك رئاسة تحرير مجلتها «العالم الإسلامي» .

وانتخب عضـواً في المجمع العلمي العـربي بدمشق سنـة ١٩٣١ . واشترك في المؤتمر الإسـلامي العام المعقـود في القدس الشريف في كـانون الاول ١٩٣١ ، فألقى في حفلـة الافتتاح قصيدة مطلعها :

لمن الـــوفـــود تفيـض فيض الـــوادي ملء الحمى منهـــا وغـصّ النــــادي

ألقت بثــالثــة العـــواصم رحلهـــا لجلاد غـــــائرة ورمّ فســــــاد

وعيّن في تموز ١٩٣٦ مـديـراً لأوقاف بغـداد فمفتشـاً في وزارة المعـارف (١٩٣٧) إلى تشرين الأول ١٩٤١ حين فصل من وظيفته واعتقل في الفـاو والعمارة وسامراء ولم يطلق سراحه إلا في آب ١٩٤٤ . وقد أعيد تعيينه مفتشـاً بوزارة المعارف (نيسان ١٩٤٨)، ثم أصبح استاذاً في دار المعلمين العاليـة (تشرين الأول ١٩٥٦) فمديراً عامـاً للاوقاف من تموز ١٩٥٨ إلى شباط ١٩٦٣ .

وانتخب عضـواً في لجنة الترجمة والتأليف والنشر العـراقيـة سنة ١٩٤٧ ، فعضـواً في المجمع العلمي العراقي عند تأسيسه (كانون الثـاني ١٩٤٨) . وانتخب نائباً ثانياً لرئيس المجمع (نيسان ١٩٤٩)، فنائبـاً أول للرئيس (تشرين الأول ١٩٥٣) إلى حلّ المجمع في حزيران ١٩٦٣ . واختاره مجمع اللغـة العربية بالقاهرة عضواً مـراسلاً له (ايار ١٩٤٨) فعضواً عاملاً في آذار ١٩٦١ .

مؤلفاتـه :

لمحمـد بهجت الأثري مـؤلفات عـديدة منهـا : أعلام العـراق (١٩٢٧) المجمل في تاريخ الأدب العربي (١٩٢٩) تهذيب تاريخ مساجد بغداد (١٩٢٧) المدخل في تاريخ الأدب العربي (١٩٣١) مجموعة رسائل عبـد المحسن الكاظمي (١٩٤٦) وضّاح مأساة الشـاعـر متبادلـة مع أحمد حسن الـزيّـات، ١٩٣٥) الاتجاهات الحديثـة في الإسـلام (١٩٥١) . وله مقالات وبحـوث عديدة نشرت في مجلة المجمع العلمي العـراقي وسائر المجلات والصحف العربية .

وله : محمـود شكري الألـوسي وآراؤه اللغويـة (١٩٥٨)، وهي محاضرات ألقيت في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة، الآلة والأداة (١٩٦٢) ملامح وأزهار (شعر، ١٩٧٤) .

نشر وحقق معظم مؤلفات شكري الألوسي ووقف على طبعها، منها: كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (١٩٢٤) تاريخ نجد (١٩٢٥) الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر (١٩٢٣) عقوبات العرب في الجاهلية، رسالة المسواك.

وحقق كتباً كثيرة من التراث العربي، منها: مناقب بغداد لابن الجوزي (١٩٢٤) كتاب الكتّاب للصولي (١٩٢٣) ولوح الحفظ في حساب عقد الاصابع (لعبد القادر ابن شعبان)، وكتاب النغم لابن المنجم (١٩٥٠) وبعض أقسام خريدة القصر وجريدة العصر. واشترك في ترجمة كتاب الخطاط البغدادي ابن البّواب (عن التركية) (١٩٥٨) كما اشترك في وضع كتب مدرسية منها: الأساس في تاريخ الأدب العربي (في جزءين)، ديوان الأدب (في ستة أجزاء)، المطالعة العربية (في ثلاثة أجزاء)، القراءة العربية (في أربعة أجزاء) الخ.

وله ديوان شعر طبع في القاهرة سنة ١٩٧٤، ومن مصنفاته المهيأة للطبع: شيخ الإسلام عارف حكمت، عماد الدين القرشي الاصبهاني الكاتب، شرح مقامات ابن ماري الطبيب المصري، أشهر مشاهير العراق، الردّ على الشعوبية ونقض كتاب المثالب لابنَ الكلبّي، ديوان ظلال الأيام، ديوان وراء الأسلاك الشائكة، الأدب المعاصر في العراق الخ.

شعره:

الأثري الشاعر ذو ديباجة مؤنقة جزل العبارة نقيّ الأسلوب، وقد نظم في المواضيع الوطنية والإسلامية والوجدانية.

قال يتلهف على وفاء الأصفياء:

صبوت، وهل في الناس مثلك من يصبو، ... وهل منزل اللذات يعمره الحبّ؟
مضت بالذي تهوى المقادير فاختفى ... فلا كرم يبدو لعين ولا صحب
وقد فاتك الحظ الذي أنت طامح ... اليه، وأقصتك المودة والقرب
فواعجباً كيف السبيل إلى العلى ... إذا كان حظّ الناصح المنع والحجبُ؟
وكيف يرجّى أن ينال مغامر ... منىً عقدت بالنجم أوضاحها الشّهب
كأن مسير الحظ عكس مسيره ... فوجهة ذا شرقٌ ووجهة ذا غرب

وقال يصف الطبيعة في الريف العراقي:

تملَّ من الحسن في الضاحية ... وحيّ بها العيشة الهانية
متاع الحياة وريحانها ... ومبدى مباهجها الزاهية
هدوء كما يبتغي المتعبون ... سجو على اليقظة البادية

يــــد الله قـــد بــــاركت أرضهــــا ... ووشّـت خمائلهـــــا الحاليــــــة
وألقـت من السحـــــر في حسنهـــا ... أرقّ مـن السحـــــر في الجازيـــــة
أصيـل الملامـح لا لـــــونـــــه ... الـــدهـــان ولا طيبـه الغـــاليـــة
ولكنـــــه وشي خــــلاقــــه ... وروح ريـــاحينـــه الــــزاكيـــة

وقال في فيضان دجلة :

يــا نـــوح، قم دارت بنـــا الأزمـــان ... عبـــد الهوى وتجدّد الطـــوفـــان
قـــد غبت عنـــه فـأين منك سفينـــة ... يـا نـوح، يفـزع نحـوهـا الإنسـان؟
كـــانت مـــلاذ الــلاجئين، ومـالنـا ... يـا نـوح، مـا ينجـو بـه الحيران. . .
من عـــاصـم للخلق من متـــوعّـــد ... جـــاشت غـــواربـــه وهنّ رعـــان
البّر عـــاد بـــه عبـــابـــاً ثـــائراً ... كـــالشعب حـــرّق غيظـــه الطغيـــان
غطّـى الأديـم فليس إلا مـــــــاؤه، ... أرأيت بحـــــراً مـــا لـــه شطـــآن؟
فإذا سجـــا خـــرق القلـــوب تفـزعـــاً ... وإذا تحرّك زاغــت الأذهــــــــان
غـــرثـــان وهـــو يكـــاد يبتلع الـــدّنى ... وكـأنما أمــــــواجـــــه الحيتـــــان
هــــو والسماء كـــــلاهما متغضّب ... متفجّـــــر وكـــــلاهما هتّـــــان
بـــاتـــا على وعـــد، فليس بمنقضٍ ... يـــوم إذا مــــا لم يكـن حـــدثـــان
والنّـــوء يأتي بـــالصـــواعق منـــذراً ... ومن العـــواصف مـــارج ودخـــان
وكـأنما بغـــــداد في أثبـــــاجـــــه ... فلـك ولكن مــــا لــــه ربّـــان

ومن رقيق شعره في الفراشة :

أفــراشـــة الـــروض المنـّـور، شـــاقني ... ثـــوب كنـــور الـــروض زانك منظـــرا
نفضت عليــه الشمس مـذهـب لـونها ... ووشـى الــــــــربيع رداءه المتخيّرا
حسـن يمـــوج على الفضـــاء منشّراً ... أنّـى يمـــور بـك الجنـــاح تموّرا
كأخي الصبـــابـة، وهـــويتبع قلبـه، ... من بـــات رهـن غـــرامـــه أنّى جـرى
مـا أنتِ؟ هل طير يـرفـرف في السّنـا، ... أم وردة سكـــــرى تـــــرفّ تفتّرا؟
أم من جنـــان الخلـــد روح نـــاسم ... شـــاقتـــه أطيـــاف الحبيب فأبكـــرا؟
روحي، كـروحك، بـالصبـابـة هـائم ... يصـل الأحبّـــة رائحـــاً ومبكّـــرا
ولهان يبعثـــه الهوى متـــذكـــراً ... أبـــداً، ويطلقـــه الخيـــال مشمّـــرا
يسري أرقّ مـن النسيم بسحـــــــرة ... ويــــرفّ أنظــــر مـن نبـــاتٍ نـــوّرا
طـــربـــاً إلى وجـــه الحبيب، وانما ... يشتـــاق من صـــدق الصبـــابـــة مخبرا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر المتوفى سنة ١٩٢٧ :

جـلّ الأسـى فلكـلّ نفـس مجزع ... وكـأنما في كـل بيـت مصرع
شمل المصـاب فما القـريب بـداره ... أبكى من النـائي الـديـار وأجـزع
الأرض دانيهـا وقـاصي ربعهـا ... لبست ثيـاب مـآتم لا تخلـع
فمن الليـالي الحالكـات سـوادهـا ... ومـن الثكـالى الموجعـات الأدمع
ومن النـوادب شجـوهـا وأنينهـا ... ومـن الصـوادي قلبهـا المتقطّع
مـا كـان سعـد غير سعـد بـلاده ... ورجـاء أمّتـه التي تتطلّع
أفيـوحـش الأوطـان وهـو أنيسهـا ... ويضيّـع الخلاّن وهـو مجمّـع؟
أسفـي على سعـد، وكم مـن ميّـت ... يمضي ولسـت لموتـه أتـوجّـع
مـا إن رأيـت كمثلـه من مخلـص ... لبـلاده ومجاهـد لا يهجـع
بطـل لـه في كل يـوم حـادث ... يعلي إلى العليـاء مصر ويـرفـع

ثم يقول :

يـا مصر، إنّك للعـروبـة مـوئـل ... وعلى يـديك نجـاحنـا متـوقع
سيري على النهج القـويـم وجـدّدي ... صرح العـروبـة إنـه متضعضع
وتجنّبي التقليـد في تشييـده ... انّ المقلّـد مفسـد لا يبـدع
من رام حكـم الـذات وهـو مقلّـد ... للغـاصبين فـإنـه لمضيّـع . . .
بـؤسـاً لأوطـان يسـود بها الألى ... أوطـانهم صـارت بهم تتهـوّع
انّ الـدخيل إذا أقـام ببلـدة ... ثـارت بها فتن وهبّت زعـزع
فتبصّري فـالشرق خلفـك سـائر ... وإذا عثـرت فعـاثـر هـو أجمع

وقال محمد بهجت الأثري من قصيدة في رثاء إمام اللغة أحمد تيمور باشا :

يـا نـاعيـاً من مصر خير سراتها، ... أعلمـت أنك قـد نعيت النيّـلا؟
الخطب مضّـاض، فهـلاّ كنت ذا ... رفق بنقـل الفـاجعـات بخيـلا؟
فلقـد سرى نبأ المصـاب كما سرى ... سمّ يـدبّ إلى القلـوب فعـولا. .
إنّ المصـاب بمثـل «أحمد» إنّما ... يـذر النفـوس تسيـل منـه مسيـلا
علم رعـى الفصحى وأحيـا مجدهـا ... وأحلّهـا فـوق اللّغـات مقيـلا
نشراً وتحقيقـاً وكشف غـوامضٍ ... وبيـان أسرار يـرعـن عقـولا
بـراً بها وبأمّـة مغلـوبـة ... فقـدت سـواهـا الثغـر والأسطـولا

أعيد تعيينه عضواً بالمجمع العلمي العراقي على أثر اعادة تأليفه في مايس ١٩٧٩ .

وانتخب سنة ١٩٨٠ عضواً بأكاديمية المملكة المغربية . ومنح جائزة الملك فيصل السعودي للأدب العربي سنة ١٩٨٦ . ثم منح في كانون الأول ١٩٨٩ جائزة صدّام (حسين) للانتاج الأدبي الموسوعي .

أحمد حامد الصراف

لو كان للصداقة مساوىء ـ والصداقة كلها فضائل ومحاسن ـ لكان من مساوئها أنها تمنع الصديق من إيفاء حق صديقه والإشادة بذكر محامده وشمائله ومزاياه . وماذا عساي أقول في الصديق الكريم الأديب الألمعي والمحدث الساحر والراوية اللبق ذي الذوق الأنيق والطبع الرقيق الأستاذ أحمد حامد الصراف وكيف أصف عذوبة حديثه وإشراق ديباجته وصفاء جهيرته وسريرته؟

أحمد حامد الصراف شخصية ذات جوانب متعددة : فهو حقوقي بارع شغل وظائف إدا رية وقضائية كثيرة وجاب معظم ألوية العراق رسولاً للعدالة ، وهو أديب يصول قلمه ويجول ، ضليع بآداب العربية والفارسية والتركية وله حافظة قوية تختزن بدائع المنظوم وروائع المنثور، وهو باحث محقق أولع بأخبار المتصوفة والدراويش وأرباب الطرق واستقصى سيرهم وآثارهم ، وهو بعد كل ذلك رجل إنساني ذو عاطفة ملتهبة تتوقد وتتمرد وتثور، وله قلب شديد الخفقان يفيض باللوعة والحنان ودمع سريع الهميان يرثي لحال الانس والجان .

أول ظاهرة تجذبك الى الصراف أناقة ملبسه فهو يعتني بهندامه أشد العناية ويشدّ رباط رقبته شداً خاصاً ويهيم بالمسابح والفصوص والعطور. عرّف الظرف في العهد العباسي المتأخر فقيل «من تختّم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق (لاتعذليه فإن العذل يولعه . . .)» فقد استكمل الظرف . ولا ريب أن الصراف يعتبر ظريفاً في عرف هذا القياس . وقد خلّد لنا التاريخ أديبين كانا يتأنقان بملبسهما وإنشائهما على السواء أولهما بوفون الفرنسي قائل الكلمة المأثورة «الأسلوب هو الرجل» ، والآخر الكاتب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي «صاحب النظرات والعبرات» . ولا يقل الصراف عنهما أناقة في ملبسه وكتابته .

وصديقنا الصراف كما قلنا رجل عاطفي إن تذكر له حادثة مشجية أو أمراً مؤسياً لتستثير كوامن لواعجه وتمس من قلبه وتراً حساساً . وقد بلي قبل ربع قرن بوفاة أمه التي يكنّ لها أسمى معاني الحب والحرمة وبلي قبل سنوات بوفاة خالته وأخيه محمود فسكب عليهم الدمع الغزير ولا يزال كلما ذكرهم يردد الحسرات والزفرات . أما أبوه الحاج

موسى فقد فجع به وهو غلام يافع فظل في ذهنه مثالاً للرجولة والمروءَة وسموّ النفس .

إن توقد عاطفة الصراف وإرهاف حسّه قد دفعه ـ على ما أعتقد ـ الى حبّ التصوف وأصحابه فدرس الخيام والحلاج وأضرابهما وتتبع أخبار الدراويش والغلاة وشدّ الرحال الى إيران بحثاً عن شؤونهم وآثارهم . وكتب اليّ ذات مرة من كركوك ـ وهو آنذاك حاكم بداءتها ـ يقول أنه عثر على ديوان مولانا خالد النقشبندي (شيخ الطريقة المبجّل في شمالي العراق المتوفى في دمشق سنة ١٨٢٧) فهو منصرف إليه مكبّ عليه منشغل به عن كل ما عداه .

فكتبت إليه من أبيات :

وجد الاستاذ شعر النقشبندي	فتناسى حافظاً جامي وسعدي
وارتضاه دون أهل الودّ خلاّ	واصطفاه إلف إغراق ووجد . . .

والصراف يحب شخصيات تاريخية كثيرة في مقدمتها الامام علي والسيد المسيح . فهو يحب في علي البطل الصنديد والرجل العادل النبيل فيفيض في ذكر محامده ويتمثل بالأبيات الشهيرة :

حب علي بن أبي طالب	أحلى من الشهد الى الشارب
لو فتشوا قلبي لألفوا به	حرفين قد خطّا بلا كاتب
العدل والايمان في جانب	وحب آل البيت في جانب

ويحب في يسوع اللطف والطيبة والوداعة ويرى في خطبة الجبل أسمى تعبير عن المحبة الإنسانية والأخوة البشرية . إن الصراف يدين بدين الحبّ فهو يكاد ينطق بلسان محيي الدين ابن عربي هاتفاً :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمسرح أظباء ومرعى لغزلان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنىّ توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

والصراف ذكي الى حدّ الإفراط وهو يعلم ذلك ولا يصطنع التواضع في الإشارة الى ذكائه . وقد قال ذات يوم : سبحان الله فاطر السموات والأرضين ، خلق أخوين لأب وأم فخصّ أحدهما بالذكاء الفارط وجعل الثاني في الحضيض الأوهد من البلادة والغباء . . . وقيل إن عمر بن الخطاب كان إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد!

ويمكن القول إن ذكاء الصراف قد جنى عليه فدعا الى فصله من الوظيفة مرتين : ففي المرة الأولى عيّن أديبنا سكرتيراً لإحدى القنصليات العراقية في ايران ، وبدلاً من أن

يشخص الى بلد الفردوسي وسعدي طلب إجازة وسافر الى ربوع الشام. وفي ذلك الصيف نفسه مضى الى الاصطياف نفس القنصل الذي عيّن الصراف سكرتيراً له فالتقى هناك الرئيس والمرؤوس. وكان القنصل رجلاً عظامياً كبير المقام قليل الكلام، وكان السكرتير الأديب ينتقل في سورية ولبنان من ناد الى ناد ومن مجلس الى مجلس فيلقي المحاضرات ويأسر الألباب بأحاديثه ولطائفه ومحفوظاته ولا ينسى في أثناء ذلك أن يقدم رئيسه الصامت بعبارات التفخيم والتبجيل، حتى إذا ما انتهى موسم الصيف وعاد القنصل وسكرتيره الى العراق ذهب الأول الى مقرّ منصبه في إيران وآب صاحبنا بالفصل والحرمان.

وفي المرة الثانية ـ وبعد زهاء عشر سنين ـ جمح بالصراف حصان اللسان فقال في نشوة الحديث «ثلاثة في العراق لا يعرفون كتابة سطرين متصلين، وصرّح بالأسماء فإذا ثالث الثلاثة الوزير الذي يعمل صاحبنا في وزارته. وسرعان ما نمي الخبر الى الوزير الخطير فلم يغمض له جفن حتى أطلق المتكلم من قيد الوظيفة.

وأحمد حامد الصراف محدث لبق تسعفه ذاكرته بمئات الشواهد والقصص والروايات والأشعار. وله منطق عذب وخيال خصب يوسع لحديثه الآفاق ويسبغ عليه صفات الامتاع والإشراق. ولعله من النفر القليل الذي يحفظ النثر فيروي المقدمات والفصول بطريقة فذة. أما روايته للشعر فتختلف باختلاف مزاجه: فإذا رغب في مدح الشاعر ورفع شأنه روى شعره بأسلوب ساحر خلاب يضفي عليه معاني اللطف والرواء، وإذا شاء غير ذلك روى الشعر بأسلوب هازل لاذع يحط من قيمته وينزل به الى دركات الابتذال والاسفاف.

والصراف يلمع في المجالس والدواوين فيأخذ بمجامع الحديث ويستهوي النفوس والألباب. وقد حدث مرة أن اجتمع نادي القلم في إبّان عزّه لسماع محاضرة للصراف في الدراويش. وكان الاجتماع حافلاً برجال الفضل والقلم، وقد حضره بدعوة خاصة سرب من المعلمات اللبنانيات. لم يكد الصراف يمضي في إلقاء محاضرته حتى نسي أنه في مجلس علم وأدب وخال نفسه متصدراً نادياً من أندية مدام ريكاميه الجميلة أو مدام دي ستال الذكية الفطنة فترك النصّ المكتوب جانباً. وأخذ يفيض في حديث الدراويش ويروي نوادرهم وأخبارهم وينشد أشعارهم وأذكارهم والعيون متطلعة إليه والاسماع مصغية والاعناق مشرئبة.. وإذا بصوت يشق السكون الشامل، ذلك صوت الصديق الاستاذ عباس العزاوي يقول: «يا أبا شهاب، ليست هذه محاضرة بل هي «تكويكات»». فما كان من أبي شهاب إلا أن مد يده الى جيبه وأخرج ورقة نقدية قدمها الى أبي فاضل وقال: «هاك ديناراً و «كوّك مثلها»، وضجّ المجلس بالضحك.

كان الصراف في صدر شبابه يحضر مجالس الأدب والفضل في بغداد ويصيخ بسمعه الى أحاديث الشيوخ وأرباب الكمال. وقدم بغداد الشيخ عبد العزيز الثعالبي

فأصبحت داره ندوة يقصدهـا الناس كبيرهم وصغيرهم يحفون بالـزعيم الوطني التونسي ويلتقطون نفثات علمه الزاخر وقريحته الوقادة .

قال الصراف : كان الشيخ رحمه الله يعلم جميع العلوم حـديثها وقديمها ويتصرف في فنون القول ، غمر البديهة حلو البيان مطواع اللسان ثابت الجنان لا يردّ سائلاً ولا يعفي من التعقيب قائلاً . قال الصراف : فعجبنا لأمره كيف لا تعجزه مسألة ولا يعييه موضوع وقلنـا : لنمتحننّه امتحـاناً عسيراً . وأزمعنـا أمـرنا أنـا وبعض رفـاقي من أدباء الشبـاب فمضينـا الى منتداه الحافل وجلسنـا نصغي بأدب ووقـار حتى إذا مـا سنحت الفرصـة تنحنحت وقلت : «يـا أستاذ ، سمعنـا بكتاب نفيس مخطـوط اسمه «قـلائد النحور في بدائع وشي المنظوم والمنثور» لابن بيكال النباري (أو ما جرى مجرى ذلك من الاسماء التي اتفقنا على تلفيقها) فهل وقفتم عليه في سيـاحاتكم وتحقيقاتكم؟ ولم تطرف للشيخ عين بل أجاب على البداهـة : أجل . إن هذا مخطوط جليل القدر وقد وجـدت نسخة منه في مكتبة الاسكوريال في مدريد وأخرى في مكتبة الفاتيكان ومؤلفه أندلسي فاضل من أبناء القرن السابع الهجري . . .) وأفاض في ذكر سيرة المؤلف وفحوى المؤلف حتى حسبنا أنه يقرأ في كتاب مفتـوح . وقمنا وقد أيقنا أن للشيخ على جـلالة قدره وجزالـة فضله قريحة تسعفه حيث يعجـز العلم وقلنا لعله خلط مخطوطنـا بآخر مما وقف عليه ونظـر فيه من وفير المصنفّات . والله أعلم .

وقد لازم الصراف جميل صدقي الزهاوي أعواماً طويلة وروى أخباره وأشعاره وكتب عنه صفحـات ممتعة . ورافقه سنة ١٩٣٤ الى طهـران لحضور مهرجان الفـردوسي . لقد أقامت الحكومة الايرانية احتفالاً عظيماً بـالذكرى الألفية للشاعر الفردوسي . وفي الحفلة الكبرى التي شهدهـا رضا شاه پهلوي وأركـان دولته والعلماء القادمـون من مختلف بقاع المعمورة ألقى شاعر العراق قصيدة باللغة الفارسيـة أشاد فيها بذكر شاعر الأمة الايرانية ورفع منزلـة الملك البهلوي الـذي عرف قدر الفـردوسي أكثر من معـاصره الملك محمود الغزني . وكان لهذه القصيدة وقع عظيم حتى أن رئيس وزراء ايران لم يتمالك نفسه عندما فرغ الزهاوي من الإنشاد أن سحب يـده وقبلها على ملأ من الحفل . قال الصراف «كان ذلك يوم الـزهاوي المشهود هنأه الشاه واحتفى بـه الناس . فلما عدنا الى الفنـدق دعاني الشاعر الشيخ وقال «يا ولـدي أحمد ، هل رأيت رئيس الوزراء يقبل يدي؟ قلت «نعم يا استاذ ، وقـد رأى ذلك كل من حضر الاحتفال . فقـال الزهاوي «احفظ ذلك جيـداً يا ولدي أحمد لترويه في بغداد ، فأنت شاهدي الوحيد هناك فلتؤد الأمانة ولتوف بالعهد» .

واتصلت أسباب المودة بين الصراف والشاعر التركي الفيلسوف الدكتور رضا توفيق . فلما جاء الدكتور رضا الى بغداد في أوائل سنـة ١٩٤٠ بدعوة من صديقه الاستاذ الجليل محمود صبحي الـدفتري وزير العـدلية آنـذاك وحلّ ضيفاً على الحكـومة العـراقية حفل مجلسه في فنـدق زيا بالـزوار من مختلف المشارب والطبقات . كـان الدكتور رضـا توفيق

يتحدث بلغات متعددة شرقية وغربية ويخوض في مواضيع شتّى من الفلسفة والطب والتاريخ الى الموسيقى والشعر والأدب والتصوف. وكان يحب أن يستأثر بالحديث دون جلاّسه ـ ولعله لم ينفرد بهذه الصفة بل شاركه فيها أحمد حامد الصراف نفسه ـ فإذا جرى بحث موضوع من المواضيع، تسلّمه الدكتور رضا فتكلم عنه ووفاه حقه باللغة التركية مثلاً ثم أعاد الحديث نفسه باللغة الانكليزية أو الفرنسية أو العربية الفصحى لفائدة من يعرف إحدى هذه اللغات من الحاضرين. وكنّا نحضر مجلس الدكتور رضا توفيق مع الصراف والصديق الدكتور مصطفى جواد وسرعان ما صار الصراف يتهرب من حضور هذا المجلس الذي قطع عليه صاحبه سبل الكلام. ثم سافر الدكتور رضا توفيق وسمح له بالعودة الى تركية التي زايلها عشرين سنة أو أكثر وأدركته منيته فيها، فكتب الصراف صفحات مشرقة عن الأديب التركي الكبير نشرتها صحيفة «الزمان» البغدادية في شهر آذار ١٩٥٧. وكان قد كتب عنه فصولاً حيّة قبل نحو من ربع قرن في ملحق «البلاد» الاسبوعي.

وارتبط الصراف بوشائج المودّة وصلات الأدب بشعراء البلاد العربية وأدبائها، وفي طليعتهم بشارة عبد الله الخوري المعروف بالأخطل الصغير الذي حيّاه قائلاً:

بدأ الكأس وثنّى	وسقى الشعر فغنّى
طائر من دجلة	الخلد الى لبنان حنّا
كم لسحر الشرق في عينيه	من معنىً ومعنى
كلّما أنشد قلنا	عمر الخيّام معنا
ينثر الأنس على المجلس	من هنّا وهنا
يا رسول الأدب العالي،	سلام الشعر عنّا
قل لبغداد، متى	عدت الى بغداد، إنّا . . .

إن الصرّاف شجاع مقدام وقد روى عن نفسه أنه استدرج أحد أصدقائه من الأدباء الى بعض البساتين النائية وأوسعه لكماً وضربا لتناوله بالنقد اللاذع المرّ كتاب «عمر الخيام» عند صدور طبعته الأولى. ومن ذكريات الصبا التي حدثنا عنها أنه اتفق مع نفر من رفاقه التلاميذ على التغرير بأصحاب الحمير الذين كانون يقومون في بغداد القديمة بدور أرباب سيارات الأجرة.

كانت بغداد في ذلك العهد البعيد تنتهي عند باب «المعظم». فإذا أراد امرؤ أن يذهب الى الأعظمية وقف عند الطاق في آخر محلة الميدان واستكرى حماراً يركبه ليقطع به الطريق الضيقة الممتدة بين البساتين الى جامع الإمام الأعظم. وجاء الفتى أحمد واصدقاؤه فاستأجروا الحمير، ولم يكن أصحابها يرسلون أحداً مع دوابهم لأن الطريق واحدة لا تنحرف يميناً ولا شمالاً بل تنتهي حيث يكون رفاقهم الذين يتسلمون الحمير

من الراكبين في ساحة الأعظمية ويؤجرونها ثانية الى المسافرين الى بغداد. لكن فتياننا المكارين الأبرياء أوقفوا الحمير في منتصف الطريق وسحبوها سحباً في داخل البساتين الى ساحل دجلة وعبروا بها في «قفة» الى الجانب الغربي حيث تركوها ترعى في الحقول حرة طليقة... وظلّ الحمّارون أياماً طويلة يبحثون عن دوابهم التي لم تصل الأعظمية ويتساءلون أين ضلّت سبيلها.

لكن الصراف يخشى ركوب الطيارة ولم يستطع أصدقاؤه أن يحملوه على السفر جواً واستنفدوا في ذلك وسائل الإغراء والإقناع فكأنه يقول بلسان أحمد شوقي:

أركب الليث ولا أركبها وأرى ليث الشّرى أوفى ذماما

وقد استطاع الدكتور مصطفى جواد مرة أن يزين له السفر بالطيارة مسافة قصيرة من بيروت الى دمشق. فلما ارتفعت بهما سفينة الفضاء أخذ الصراف يبسمل ويحوقل ويتعوذ ويخاطب نفسه قائلاً: «يا أبا شهاب، ما حملك على ركوب هذا المركب وترك الأرض الثابتة وكيف تأمن على نفسك فوق الغمام؟... فلما وصلت الطيارة الى الشام وهبط الأستاذ في المطار بسلام جسّ الأرض الثابتة تحت قدميه وحمد الله مقسماً ألا يعود الى التصعيد في الفضاء. وكذلك حرم رواد الفضاء الكوني من أمثال غاغارين وشبرد سلفاً زميلاً لهم لن يغريه مغر بالانطلاق في الصواريخ وارتياد مجاهل الكواكب والأقمار.

ولقد حدّثنا الجاحظ عن أعرابيّ شيخ أركب فيلاً، فلما علاه صاح: الأرض، الأرض... وأنزل فقال منشداً:

وما كان تحتي يوم ذلك بغلة ولكنّ تحتي من رفيع السّحائب

ودعي الصراف قبل سنين عديدة الى دورة ضباط الاحتياط وهو آنذاك مفتش عدلي فكتب اليّ من مقره في وزارة العدلية في ١٦ أيلول ١٩٣٩ يقول: «أنا يا أخي في كرب عظيم ومحنة ما بعدها محنة. إن الكاشحين الحاقدين غمزوا قضية إعفائي من دورة الاحتياط، فتجدد الخطب وما زلت أعانيه، ولست أدري ماذا ألاقي في هذه الأيام التي شوّه جمالها هتلر ألف لعنة عليه...

«سأزوركم يوم الخميس إما مودعاً إياكم وذاهباً الى دورة الاحتياط وإما ناجياً من هذه المحنة. لئيم ونذل من يقصّر في خدمة بلاده. لكن أين أنا من القراع والصراع والكفاح وحمل السلاح؟ لقد أصابني الأرق منذ ليال وفي استطاعتي الآن أن أرسم خريطة السماء...».

ولم يكن من الأمر بدّ فمضى أحمد حامد الصراف الى الدورة وكان معه في التدريب الدكتور مصطفى جواد وفريق آخر من الأدباء والمحامين. وأوكل بهم عريف شديد صارم فكان يوقظهم قبيل الفجر ويتولى تعليمهم الرياضة والهرولة والجري والرمي،

ذلك العريف الذي ابتلى به معهما مصطفى علي فقال :

ودّعت عقــلي وآرائــي وتفــكيــري وسرت طــوع عــريف الجيش عــاشــور

وضاق أصحابنا بالأمر ذرعاً فلم تمض أيام قليلة حتى أعفي الصراف لتصحيح سنّه وأعفي مصطفى جواد لإصابته بالتهاب في العصب فانصرف الأديبان الى البحث والدرس والتحقيق والتنميق .

الصرّاف : حياته

ولد أحمد حامد في كربلاء سنة ١٩٠٠ ، وكان أبوه الحاج موسى بن أحمد من ضباط الدرك العثماني وأصله بكتاشي ، أما أمه فامرأة كريمة من أهل المسيّب . ونشأ أحمد في الحلة وبغداد حيث تنقل والده بحكم وظيفته ، ثم توفي عنه وهو صبّي في نحو العاشرة فكفلته أمه وكانت من فضليات السيدات الحافظات المتكلّمات . ولج أحمد حامد المدارس الرسمية ، وعلى أثر الاحتلال الانكليزي ، إلتحق بدورة للمعلمين وعيّن بعد نجاحه فيها معلماً في مدرسة البارودية في بغداد (شباط ١٩١٨) . ولم يلبث أن نقل في السنة نفسها معلماً في مدرسة الحلة فمديراً لمدرسة علي الغربي (١٩١٩) فمدير مدرسة الحلة (١٩١٩) فمدير مدرسة كربلاء (١٩١٩ ـ ١٩٢١) . ونقل في سنة ١٩٢٢ مدرساً في المدرسة الثانوية في بغداد فكاتباً في دائرة نائب مدير المحاسبات العام (١٩٢٢) فكاتباً في دائرة خزينة بغداد (١٩٢٣) . وانتمى في الوقت نفسه الى مدرسة الحقوق (١٩٢٢) وتخرّج فيها سنة ١٩٢٦ .

نقلت خدماته سنة ١٩٢٣ الى وزارة العدلية فعيّن كاتباً فيها فملاحظ التحرير (١٩٢٦) فمدير المطبوعات في وزارة الداخلية (أيلول ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠) فملاحظ مكتب المطبوعات حين خفضّت درجة المديرية نفسها (١٩٣٠) . وصحب توفيق السويدي في تموز ١٩٢٨ الى مؤتمر جدّة المعقود مع الملك عبد العزيز آل سعود سكرتيراً للوفد العراقي . ونقل بعد ذلك سكرتيراً لقنصلية العراق في كرمنشاه (١٩٣٠) لكنه استقال وامتهن المحاماة .

وأعيد تعيينه مدعياً عاماً للواء البصرة (ك أول ١٩٣٣) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (آذار ١٩٣٦) فنائب المدعي العام في الموصل (ك ثاني ١٩٣٧) فمفتشاً عدلياً (آذار ١٩٣٩) حتى ألغيت وظيفته (تموز ١٩٤٠) . ثم عيّن حاكماً منفرداً للناصرية (آب ١٩٤٠) فحاكم تحقيق الرصافة (نيسان ١٩٤١) فحاكم صلح الأعظمية (حزيران ١٩٤١) فحاكم الكوت المنفرد (تموز ١٩٤١) فنائب المدعي العام في بغداد (آذار ١٩٤٢) فحاكم بداءة كركوك (حزيران ١٩٤٢) فحاكم الصلح الأول في الموصل (تموز ١٩٤٣) فنائب رئيس إجراء الموصل (ت ثاني ١٩٤٣) فحاكم كربلاء المنفرد (نيسان

١٩٤٤) فحاكم بداءة الحلة (حزيران ١٩٤٥) فالرمادي (أيلول ١٩٤٦). ونقل من ثمَّ عضواً في المحكمة الكبرى في بغداد (ت أول ١٩٤٧) ولم يداوم أياماً حتى نقل نائباً للمدعي العام للواء بغداد (ت أول ١٩٤٧) فحاكم بداءة الكاظمية (ت ثاني ١٩٤٧). وعيّن مديراً عاماً للدعاية (أيار ١٩٤٨) فرئيساً لتسوية العمارة (١ ت ثاني ١٩٤٨) فرئيساً لتسوية بغداد (آذار ١٩٥٠) فمدوناً قانونياً (أيلول ١٩٥٢) حتى أحيل على التقاعد برغبة منه في أيلول ١٩٥٤، فأخذ يزاول المحاماة.

وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (ت ثاني ١٩٤٧)، وعضواً بالمجمع الايراني في طهران (فرهنكستان) (١٩٥١). وله مقالات وبحوث ومحاضرات كثيرة نشرت في الصحف والمجلات العربية. من مؤلفاته المطبوعة: عمر الخيّام (١٩٣١)، وقد أعيد طبعه مرتين موسّعاً، الشبك (١٩٥٤). أما مؤلفاته المخطوطة فكثيرة، منها: بين بغداد وطوس، الدراويش، رسالة في الحلاج، رسالة في ابن سينا وأدبه الفارسي، الزهاوي شاعر العراق، الخ.

توفي أحمد حامد الصرّاف في بغداد في ١٨ شباط سنة ١٩٨٥ بعد مرض طويل.

* * *

كان لأحمد حامد الصرّاف مساجلات ومداعبات مع أكثر أدباء عصره.

قال ذات يوم: أشهد على رؤوس الملأ أن الشبيبي (محمد رضا) شاعر كبير، أجل، شاعر كبير أشعر من البنّاء (عبد الرحمن)!

وغضب ذات يوم من عباس العزاوي فحفظ مقدمته للجزء الأول من «تاريخ العراق بين احتلالين» وصار يقرأها في الدواوين والمجالس الأدبية بأسلوب عابث مزرٍ. ثم يقول: أسمعتم مثل هذا الخلط والخبط؟ إنها مقدمة تاريخ العزاوي مؤرخ العراق!

ونقل العزاوي في تاريخه أخباراً كثيرة عن «دوحة الوزراء»، وهو كتاب مخطوط نادر باللغة التركية القديمة المشوبة بالفارسية. فقال الصراف: وهل يعرف العزاوي التركية ليترجم أخبار دوحة الوزراء؟

ونقل الحديث الى العزاوي فقال: وهل رأى الصرّاف بعينه نسخة من دوحة الوزراء ليستطيع الحكم في الموضوع؟

ولكم نشب الخلاف بين أحمد حامد الصرّاف ومصطفى جواد وعباس العزّاوي وغيرهم من الأدباء والشعراء واشتدّ الخصام والجفاء، فكنتُ أقيم لهم المآدب والحفلات إصلاحاً لذات البين وجمعاً للشمل ورتقاً للفتق. وفي ذات مرة عاد الخلاف الى الاستحكام بين الصرّاف والعزاوي وتراشقا بسهام الكلام، فقلت لهما مداعباً: إنكما تعملان هذا عمداً لتفوزا منّي بمأدبة الصلح، ولكن سأخلف ظنكما هذه المرة وأترككما تتنابذان وتتنابزان ما شئتما وشاء لكما الظرفاء من الحسّاد والشامتين!.

والتقى الصراف والعزاوي في المجمع العلمي العربي بالشام وكانا على جفاء لا يكلم أحدهما الآخر، فقال العزاوي: لا بأس من التحدث بيننا ما دمنا في سورية حفظاً للمظاهر على أن نعود الى القطيعة في بغداد!.

رشح الصرّاف مديراً للتشريفات فرفض قائلاً: إن مدير التشريفات خادم مؤدَّب.

ذهب أحمد حامد الصرّاف في إحدى زياراته الى طهران لتفقّد مكتبة الفرهنكستان. قال: وجدت وأنا أقلب في المخطوطات مخطوطة قديمة في الطبّ فقرأت فيها ما يلي معناه: «فصل في خضاب اللحية: خذ المواد كذا وكذا (وقد عدّدها المؤلف وأكثرها من الأعشاب) ودقّها في الهاون، ثم اعجنها بماء الورد واخضب بها لحيتك فلا تتحكم بها النار». قال الصرّاف: ووجدت في الحاشية بخط وحبر مختلفين كلاماً يظهر أنه أحدث عهداً من المخطوطة الأصلية مآله: «كذبت ولعنت، أيها الملفّق ـ عملت بوصفتك فاحترقت لحيتي وشوّه ذقني. فحذار حذار من الأفّاق الجاهل النصّاب».

وقد عيّن الصرّاف حاكماً مدنياً في الكوت فجيء الى المحكمة بأحد أفراد رئاسة عشيرة الميّاح متهماً بقتل عبد له، وقيل له: أرفق به فالقتيل عبد لا قيمة له.

قال: لا عبد ولا حرّ أمام القانون! ودعي الى وليمة فخمة وبذلت له الأموال فلم يرتدع. وأخيراً هدّد بالقتل فلم يسعه إلا الهرب الى بغداد وطلب نقله الى لواء آخر فنقل.

حدثني أحمد حامد الصرّاف انه أصدر كتابه عن عمر الخيام فقال له الشيخ جواد الدجيلي: لقد جمعت كتابك من شتى المصادر فلفقته حتى خرج كالثوب المرقع. قال الصراف: موعدنا في المساء في مقهى الباب الشرقي لنتكلم في الموضوع.

وفي المساء التقيا، وكان الباب الشرقي آنذاك مجموعة من البساتين الملتّفة الأشجار لم يصلها العمران، فسارا والشيخ جواد يشرح وجوه الانتقاد والمآخذ على الكتاب. وفجأة وقف الصراف وأخذ بتلابيب الشيخ وقال له: أتنتقد كتابي الذي تعبت في تأليفه؟ وانهال عليه ضرباً ولكماً والشيخ يستغيث ولا مغيث. وتركه أخيراً على أسوأ حال وعاد أدراجه.

وفي صباح اليوم الثاني جاء الشيخ جواد يشكوالصراف الملاحظ في وزارة العدلية الى مديرها العام توفيق السويدي. فاستدعى السويدي الصراف وقال له: كيف تعتدي على الشيخ بالضرب؟ فأجاب: هل اعتديت عليه في الدائرة؟ قال الشيخ: لا. قال السويدي: إذن فارفع شكواك الى الشرطة.

مصطفى علي

الأديب الحقوقي الوزير، راوية الرصافي ومؤرخه، مصطفى علي محمد الكُرْوي القيسي، ولد في بغداد سنة ١٩٠٠ وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية (١٩١٩) فتخرّج فيها وعيّن معلماً في أيلول ١٩٢١. ودرس بعد ذلك في مدرسة الحقوق

فنـال شهادتهـا سنـة ۱۹۲۹ .

وقـد تـرك مهنـة التعليم فعيّن كـاتبـاً في ديـوان مجلس الأعيـان (۱۹۲۵)، فـرئيسـاً للكتاب، فكـاتباً عدلاً (۱۹۳۲)، فمـلاحظاً للأمور الـذاتية بوزارة العـدلية (۱۹۳٤) وانتخب في شباط ۱۹۳۷ نائباً عن بغداد في مجلس النواب.

أولع بـالأدب منـذ فجـر شبابـه، فكتب المقـالات في الصحف والمجـلات، ولازم الـرصافي أعـواماً طـويلة حتى أصبح راويـة شعره ومـؤرخ حياتـه والملّم بأموره دقيقهـا وجليلها. واشترك مع حسين الرحال في تحرير مجلة «الصحيفة» في كانون الأول ۱۹۲٤، وكانت من الصحف التقدمية التي تدعو الى تحرير الأفكار وسفور المرأة والأخذ بأسباب التقدم والنهضـة، ولم تعمّر طـويلاً. ثم أصدر مجلـة «المعول» في أيلـول ۱۹۳۰ فحجز عددها الأول وصودرت نسخه. وكتب مصطفى علي في جـريدة «الأيام» البغدادية (۳۱ كانـون الأول ۱۹٦۲) فصلاً ممتعـاً عن قصـة هذه المجلـة الموؤودة في مهدهـا، فقال إن معـروف الرصـافي، حين علم بعـزمـه على إصدار «المعـول»، إرتجل بيتين كـانا شعـاراً للمجلة:

حـال جـدار مـن تقـاليـدنـا ... دون الـذي نحـن بـه نعتلي

فنحـن نحتـاج الى هـدمـه، ... والهدم يحتـاج الى المعـول.

***

إمتهن مصطفى علي المحـاماة بضع سنوات، وتـولّى التدريس في المدرسـة الثانـوية بالبصرة سنة ۱۹۳۸/ ۳۹. ثم عاد الى الوظيفة فعيّن مفتشاً للطابو (آذار ۱۹٤۲) فمدوناً قـانونيـاً (أيار ۱۹٤۸) فمـديـراً للحقوق بـوزارة الماليـة (كانـون الثاني ۱۹٥۰) فحـاكماً بمحكمة استئناف البصرة (تشرين الثاني ۱۹٥۰) فنائباً لرئيسها (أيلول ۱۹٥٤). ونقل رئيساً للمنطقـة العدلية في لـواء ديالى (حزيـران ۱۹٥٥) فمفتشاً عدليـاً (تشرين الثاني ۱۹٥٦). وتفجّـرت ثورة تموز فـاختير وزيراً للعـدل في الجمهوريـة العراقيـة (۱٤ تموز ۱۹٥۸)، وشغل هـذا المنصب الى ۱٤ أيـار ۱۹٦۱. واعتقل بعـد ثـورة رمضـان (۱۹٦۳)، ثم أطلق سراحـه بعـد أسابيع قـلائل واعتـزل الحيـاة العامـة، منصرفـاً الى الكتابة والأدب.

مؤلفاته وأدبه:

مصطفى علي في طليعـة كتّـاب النثـر العـرب في عصره، جـريء القلم، مشرق الديباجـة، ناصع البيان، يتحرّى في كتابته اللفظ الفصيح والقـول الصريح. وقد كان منذ عهد الشباب الباكر داعياً الى التقدم وتحريـر المرأة ومكافحة الآراء الرجعيّة، وتعرية الأدب الجامـد والمتحـذلق والمتحجّـر. وأثبت في كتابـه «جـرائم مـرّت أمـامي»، وهي

قصص مستلهمـة من عمله في محكمـة الجزاء الكبرى بـالبصرة، إنه يحسن سرد القصـة وحبك عناصرها وسلسلة وقائعها بأسلوب جذاب يأخذ بمجامع القلوب.

ومن مؤلفـاته المطبوعـة: رسم الخطّ العربي (في تبسيط قواعـد الإملاء ١٩٣٠)، في هامش السجل(١٩٣٧)، وهي مجموعة مقالات قصيرة نشرها في الصحف سنة١٩٢٧ ـ ٢٨ و ١٩٣٢ ـ ٣٤، أدب الرصـافي (١٩٤٧)، كتاب «الرصافي»، وقـد نشر منه الجزء الأول (١٩٤٨)، جرائم مرّت أمامي (١٩٥٨)، محاضرات عن معروف الرصافي (ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية، ١٩٥٣).

وقد وضع دراسة مـوسّعة عن الرصافي وسيرتـه ومؤلفاته وشعـره وشرح قصائده وذكر مناسبات نظمها وغير ذلك من شؤون الشاعـر الكبير تستوعب مجلدات عديدة، فكان من الـرصـافي مثل جيمس بـوزويل (١٧٤٠ ـ ١٧٩٥) الـذي سجل سيرة الأديب الانكليزي الكبير صمـوئيل جونسون (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) ودوّن حـركاته وسكناتـه وذكر أقواله وأحاديثه وعظاته.

قابل بوزويل معبوده الأدبي لأول مرة في سنة ١٧٦٣، وكان محامياً ناشئاً قنّاصاً لأسود الشهرة. جاء الى لندن من مسقط رأسه في اسكوتلاندة وسعى للقاء جونسون الذي بلغ آنـذاك قمّـة مجده الأدبي إذ نشر معجمه اللغـوي قبل ذلك وتنـافست المحـافل الأدبيـة والأنـديـة الاجتماعية على دعـوتـه والاحتفـاء به. وتـمّ لقاء الـرجلين ـ كما رواه مترجم جونسـون نفسه ـ في مكتبـة تجارية فتحـدّثا، ولم يحظ الشاب بكبير اهتمام من العـلاّمة الكهل. ولم يخف بـوزويل خيبة أمله بعد خـروج الرجل العظيم، لكن الكتبيّ طمأنـه وقال له: «لا تنـزعج، لقد رأيت أنه مال إليك كثيراً». وكـذلك كان، فلم يمض شهر واحد حتى كـان الرجـلان يتعشّيان جنبـاً الى جنب ويتسارّان في بعض المطـاعم، فكان ذلك بداية صحبة العمر وحدثاً أدبياً له شأنه في التاريخ الانكليزي.

وروى لنـا مصطفى علي في الجزء الأول من كتابـه «الرصـافي» أول عهده بـالشاعـر: سمع الفتى مصطفى باسم الرصـافي، وقرأ شعراً له، واقتنى ديوانه، وتنسّم أخباره وتتبع سيرته وتعقب خطواتـه، فلما عاد الشاعر العراقي الى رصافتـه بعد الحرب العظمى فكر جمع من طـلاب دار المعلمين، ومصطفى علي بينهم، أن يقصـدوه زائريـن مـرحّبين. وهكذا اكتحلـت عين الشاب لأول مرّة بمـرأى الكهل الشهير الذي أعجب بـه وحفظ قصائده، فوجد فيه «رجلاً طويل القـامة، أسمر اللون، وثيق التركيب، ذا لحية خفيفة سوداء وشـاربين غير مهذبين، مهيب الطلعـة، مرآه يـوجب عليك احترامـه، أنيقاً في ملبسه. وكان مرتدياً بذلة شتـوية لازوردية، وعلى رأسه طربوش... وكان حين يتكلم يستعين بيده اليمنى فيشير بها إشـارة هادئة، وبعينيـه الصغيرتين البرّاقتين... فكانت عيناه الشـاقبتان تنفذان الى أعماق النفـوس من سامعيه كـأنه يريـد أن يتغلغل فيخاطب النفوس لا الشخوص، بل كأنه ينظر بعين الشعر التي يقول فيها:

وللشعــــر عين لـــو نظــرت بنـــورهـــا الى الغيب لاستشففت مـــا في بطـــونـــه . .

وتحقق حلم الشبـاب، فأرهف الأذن لسماع إنشـاد الشـاعـر، وأعدّ القلم لكتـابـة شعره، وهيّأ الصـدر لحفظه ووعيـه. وكانت تلك الجلسـة الهادئة فاتحة صـداقة دامت عشرات الأعوام وامتدّت الى ما بعد موت الشاعر، إذ أصبح طالب دار المعلمين امتداداً لحياة الرصافي وشعره ونهجه.

***

لخّص مصطفى علي أهـدافه حينما أصبـح أول وزير للعـدل في الجمهـورية فقـال: «أهـدافي، كأهداف زمـلائي، خدمـة الشعب والسير بـه في ركب الحضارة والتقـدم، واعـداده وتهيئته ليجـاري ركب الأمم الحيّة في هـذا العصر، وإنقاذه ممّـا كان يعـاني من مهلكات الشعب: الجهل والفقر والمرض».

ومن أمثلة أسلـوبه الكتابي وآرائه الحرة نجتـزىء بنقل قسم من مقال كتبه في كـانون الأول ١٩٢٧ بعنوان «القبعة والطربوش».

«القبعة لباس للـرأس كغيرها من الألبسة، اعتاد أن يلبسها قـوم ولم نعتد أن نلبسها نحن، فرميناها ظلماً بكل مـا يشين، وجعلناها رمزاً للكفر وعلامـة للمروق من الوطنية وشعاراً للهرب من الشرقية و. . . و. . .

عادة لو اعتادها أسلافنا لكفونا شرّ هذا النزاع والخلاف، ولو اعتدناها نحن لكفينا أبناءنا وأحفادنا مؤونة ذلك.

أقول ما تقدم، بعد ما قرأت في «الهلال» ما نشر حول القبعة والطربوش: فمصطفى صادق الـرافعي يدافع عن الطربوش ويـدلي بأسباب تمسّكه به، ويشرح محمـود عزمي سبب لبسه القبعة ويعزز قوله ببراهينه في فضلها على الطربوش.

فالرافعي يرى أن القبعة على رأس المصريّ في مصر تهتّك أخلاقي أو تهتك سياسي أو تهتك ديني أو من هـذه كلها معـاً. ثم هو يستمسك بـالطربـوش لأنه يـريد الـدقّة في التعبير لتعبّر به نفسه حين تعلن عن نسبته وقوميّته.

وعزمي يرى أننا نأخـذ من حضارة اليوم كلّ مظاهرها مـا خلا القبعة. ثم يقارن بين خفّة قبعة الصيف التي ذاق حـلاوتها في فرنسة وبين كبس الطربوش على دمـاغه الذي ذاق مرارتـه في مصر. وقد لبسها بعـد أن أفتى جمع من الأطباء بفـائدتها وبتفضيلها على الطربوش.

يتكلم الرافعي عن حرص شديد على ما ألفـه لأنه وجد نفسه مطربشاً بحكم العادة والمحاكاة ودون أن يجهـد نفسه ويختاره تفضيلاً منـه على سواه. ولكنه الآن يحاول أن يجد أسبابـاً يدّعي أنه يتمسّك بـالطربوش من أجلهـا، لا بل يحاول أن يخلق تلك الأسباب التي من أجلها يستمسك بالطربوش.

ومن حسن الإتفـاق أن مجلة الهلال نشرت صورة الـرافعي الى جنب صورة عـزمي في العدد الـذي نشر فيه مقالتيهما، فتأمّلـت في الصورتين، فلم أجد الفـرق بينهما في الزيّ

سوى قبعة عزمي وطربوش الرافعي . ولو صادف أن صوّرا حاسري الرأس لما وجدنا بينهما فرقاً في الزيّ مطلقاً .

زيّ الرافعي ، كزيّ عزمي ، إفرنجي : بذلته إفرنجية ورباطه افرنجيّ ، حليق اللحية مهذّب الشاربين . وأنا أزعم أن آلاته وأدواته البيتيّة افرنجيّة كذلك . فهذه كلها لا تخرجه عن شرقيّته ولا عن ديانته ولا عن نسبته . . . ولكن القبعة . . . القبعة وحدها تخرجه عن تلك الصفات التي يحرص عليها .

لو كان الرافعي يوم بدأ القوم يلبسون الملابس الافرنجية لوقف تجاه الأزياء الحديثة وتجاه «الرباط» منها خاصة موقفه الآن تجاه القبعة ، ولكنه اليوم مطمئنّ راض بملابسه لأنه نشأ على ذلك ولأنه اعتاد أن يراها هكذا .

أجزم لو نشأ الرافعي ورأى القبعة تلبس في مصر، ثم حاول عزمي ومن على شاكلة عزمي إبدالها بالطربوش التركي «الشرقي» لوقف تجاهه موقفه الآن تجاه القبعة . . . ألا رحم الله المتنبّي إذ يقول :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ، ولو أنها الأولى لراع الأسحم

فهل هذه إلا عادات قضت على الرافعي وعلى كثير من أمثال الرافعي من الكتاب أن يفكروا لأنفسهم؟ . . . » .

نظم مصطفى علي الشعر للتفكهة والدعابة . دعي الى دورة ضباط الاحتياط في آذار ١٩٣٩ ، فضاق ذرعاً بالمدرّب العريف عاشور، وكان قاسياً عنيفاً ، فقال فيه من أبيات :

ودّعت عقلي وآرائي وتفكيري وسرت طوع عريف الجيش عاشور

عاشور، لست بذي رأي فأتبعه لكن بذاك قضى لؤم المقادير

لولا السياسة ما أبصرت لي شبحاً ولا رأيتَ بزيّ الجند تصويري . . .

وهجا بعض أصدقائه فقال :

. . . إنني قد أكلته بالتجاريب (م) فلا تسمعوا الى من ذَاقَهْ

ما حوى قطّ من صفات بني آ دم إلاّ صلافة وصفاقه

إن أهين استكان ذلاً وإن (م) أكرم في محفل أهان رفاقه

تنكر الذوق والحجى والسّجايا حين تبلو سلوكه ومذاقه

هو لا يطمئنّ للمرء إلاّ حين يبدي خداعه ونفاقه

ثم قال يذكر البصرة :

صاحِ عرّج على حمى البصرة الفَيْحَا (م) وسائله : هل سلا مشتاقه؟
وتلطّف وحيّها باحترام فهي في المجد والعلى سبّاقه
أنا صبّ مدلّه بهواها فهواها استباح قلبي وشاقه
بلد حفّه الجمال وساد الـ (م) ـحسن والزهو والبها آفاقه
كلّ ما ضمّه حبيب لنفسي وبقلبي له أجلّ علاقه
قف بها وادّكر ليالي لهو لو سلا القلب هيجّت أشواقه
كم سهرنا نلهو بمجلس أنس والدجى فوقنا يمدّ رواقه
مجلس عمّه الصفاء وساد الـ (م) ـودّ فيه وجمّلته الطّلاقة
نسرق الأنس من عيون زمان شارد اللّبّ لا يرى سرّاقه
قد أمنّا الغوائل السّود طراً ونسينا من دهرنا إرهاقه
واجتلينا من مطلع الشمس نوراً فاق إشراق كأسنا إشراقه
عصبة قد تحرّرت ليس فيها غير من رام في الحياة انطلاقه
كلّ ذي رقّة وطبع سليم شاقه مجلس السرور وراقه
طاب نفساً فلا يرى العيش إلاّ أن يوالي اصطباحه واغتباقه

وبعد أن يسهب في وصف مجلس الأنس وصفاء المودّة يعود الى مهجوّه فيذكر اقتحامه لذلك المجلس وتعكيره لصفوه وهنائه .

مصطفى علي

استحضار الأرواح

مال مصطفى علي في الأعوام الأخيرة الى استحضار الأرواح : فقد قرأ مع رفاق له من المحامين والأدباء الفضلاء كتباً في الموضوع ، فجرّبوا طريقة مخاطبة الأرواح بالقدح . وذلك أنهم كتبوا الحروف الأبجدية والأرقام وطائفة من الكلمات الشائعة على رقعة ورق كبيرة وضعوها على المائدة ، ثم جلسوا بخشوع وطلبوا حضور الأرواح . ووضع اثنان منهم جلسا متقابلين يدهما على القدح الذي صارت الروح تحرّكه على وجه خارج عن إرادتهما ـ كما يشعران ـ فيقف عند أحد الحروف أو الكلمات . ويتولىّ بعض الحاضرين تسجيل الكلمات التي تمليها الروح عن طريق القدح ، فإذا توقفت عن البثّ ، قرئت الجملة وكانت واضحة مفهومة .

وظلّ الصحاب يعقدون مجالسهم في ليالي السبت ، وسجلوا أحاديث وأجوبة كثيرة

لأرواح متعـددة معـروفة ومجهولـة .

ولا عجب أن آمن مصطفى علي وصحبه بـاستحضار الأرواح ، وقـد آمن بذلك من قبل علماء أعلام وأدباء يشـار إليهم بالبنان ، كالسر أوليفر لودج العـالم الفيزيائي والسر آرثر كونان دويل الروائي الانكليزي الشهير. . . وادّعى الشاعر المتصوّف وليام بليك أنه كتب قصائد بإملاء مباشر من أصدقائه في عالم الخلود (كما قال) .

وقـــد حضرت أرواح عـــاش أصحــابها قبل مئـــات السّنين وأملت سيرتها على الحاضرين . واستحضر الجماعـة أيضـاً أرواح فـريق من أصـدقـائهم المتـوفّين كجميل صدقي الزهاوي والدكتور عبد الجبار عبد الله رئيس جامعة بغداد الخ .

***

إشتركت في بعض تلك المجالـس في شبـاط ١٩٧٣ ونظمت في ذلك مقطـوعـات شعرية قدمتها الى الاخوان ، منها :

مناجاة الأرواح :

هفتِ النفس الى الغيب المَصُـــــون ... واعترتها هـــزّة الـــوجـــد المثير

عجبـــاً قـــد بهر النـــور العيـــون ... واجتلى الأشبــــــاح في مَسْرى الأثير

خثـــر الإحســـاس واعتـلّ الشعـــور ... وغـــدا الجسم كشفّـــاف الثيـــاب

ضمّ روحـــاً من هَيُـــولَى ، والبخـــور ... يغمـــــر الجوّ بطيبٍ وضبـــاب

وسرت مـــن أُفُـقٍ نـــــــاءٍ رفيـع ... نغمات مثـل أنســـام الـــربيع

تحمـل الحبّ وأنفـــاس الخلـــود ... فتنــاجـت في سكـــون وصفـــاء

أنفس قـــد ظهـــرت بعـــد الخفـــاء ... حـــرّة تختـــال في سحـــر الـــوجـــود

لمصطفى علي ذكريـات طريفة كثيرة عن معـروف الرصافي ، ومن الأسف أنـه لم يدوّن أكثرهـا . وقد حـدثني أن أم كلثوم قـدمت الى بغداد سنـة ١٩٣٢ وأحيت حفلاتها على مسرح فندق الهلال . وقد غنت ، فيما غنّته ، أغنية عراقية شهيرة :

«قلبك صخر جلمـود» ، أدّتها بتلطيف كلماتها وترقيقهـا خلاف اللهجة العـراقية . فقال الرصافي وكان حاضراً : ماذا نريد؟ أخذت لحم ثورنا فجعلته لحم غزال وقدّمته لنا هنيئاً مريئاً ! .

ولم ينظم الرصافي شيئاً في أم كلثوم ، لكنه نظم أبياتاً في المغنيّة الراقصة العراقية منيرة ، فقال :

هـل سمعتم منيرة مـــذ أفـــاضـت ... من بـــديع الغنــــاء في كلّ فـنِّ

مـــذ أقـــرّت بـــرقصهـــا كلّ عين ... واسترقّت بصـــــوتها كـل أذن

رقصهـــا يـــرقـص القلـــوب على أنّ ... غِنـــاهـــا عن المزامير يغنـي . . .

لكنّ شعراء عراقيين كثيرين حيّوا أم كلثوم، في مقدمتهم جميل الزهاوي الذي قال:

الفنّ روض أنيق غـــير مســـؤوم وأنـت بلبلـــه، يـــا أمّ كلثـــوم

وقال الشيخ جواد الشبيبي:

قمـــريّـــة الـــدّوح، يـــا ذات الترانيم مـع النســور على ورد الــرّدى هـــومي

وهو تكليف المطربة ما فوق طاقتها!

وقال الرصافي أيضاً في المغنية منيرة:

هلـمّ الى ذا الغنـــــاء الـــــذي منيرة منــــه أتـت بـــــالعجب

أليســت منيرة في عصرنــــــــا مليكـــة فـنّ غنـــاء العـــرب؟

***

مصطفى علي الأديب يـؤمن بتفـاهم البشر وتقـاربهم ومحو الخلافـات الطبقيـة والسياسية والنعرات الدينية والمذهبية. وقد كتب في رسالة خاصة الى المؤلف يقول:

«فالبشر، بعد تـاريخه الدامي وبعد ما شـاد مدنيّته هذه التي يفخـر بها (!) وأقامها على أسس من الهمجية تكدست فيها جماجمه وتجمعت أشلاؤه، لا بدّ أن يثوب الى رشده ويرجع الى صوابـه فيتدبّر ويتفكّر... ولا بدّ أن يعقل فيخلع عنه نير التقـاليد ويتحرر من العادات فيتقارب ويتفاهم ويتّحد. ولا بدّ أن يدين بدين الإنسانية ويقدّس الأخوّة البشريـة. وهو سـائر نحـو هدفـه وإن كان سيراً وئيـداً، وإذا مـا سار فهـو واصل لا محالة».

حدثني مصطفى علي أنه كان في شبابه مولعاً بالمقامات والغناء العراقي. كان يجلس مع رفاقه في مقهى محلّته «قنبر علي» الى ساعة متأخرة من الليل، فإذا عاد يوسف زعرور مغنّي المقام المشهور من الملهى الذي يغني فيه دعوه الى الجلوس معهم برهة من الزمن. فإذا ما احتسى القهـوة وشرب الشاي، لم يجرؤ الشبان أن يطلبوا إليـه إسماعهم شيئاً من المقام لعلمهم بأنـه عاد متعباً، بل يأخـذ أحدهم بالدنـدنة ويقول للفنـان: أليس هذا المدخل الى مقام البهيرزاوي أو الـدشت؟ فيردّ عليه القارىء الكهل: كلا، يـا ولدي. ويأخذ بالقـراءة وينتقل شيئاً فشيئاً من مقام الى آخر. وهكذا كـان مصطفى علي ورفاقه الشبّان يستدرجون الفنّان الى تشنيف آذانهم بطرائف من فنّه المحبوب.

وقـال لي مصطفى علي: أعتقـد أنني أستطيع مصـادقة جميع النـاس على اختـلاف طبقاتهم وأديـانهم ومذاهبهم لأنني أحاول تفهّم آرائهم وعـدم المسّ بمعتقداتهم. لكنّ الوحيدين الذين لا أستطيع مجالستهم والتفاهم معهم هم اليـزيدية لتعصبهم الشديد. فقـد تـوفيت زوجـة حـاكم محكمـة الشيخـان فعقـد لها مجلس الفـاتحة وكلّف كـاتب المحكمة، وكان مقرئاً حسن الصوت، بتلاوة آيات من القرآن. ولما افتتح الكاتب ترتيله

بـ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، هاج اليزيديون وماجوا وتجمعوا حول الدار يريدون قتل المقرىء. ولم تستطع الشرطة إنقاذه وتهريبه الى الموصل إلاّ بشقّ النفس.

كان ذلك منذ خمسين سنة. أما اليوم فأقبل الجيل الجديد من اليزيديين على التعليم والثقافة واختلطوا بجيرانهم ونبذوا التعصب الذميم.

أصدر مصطفى علي ديوان الرصافي بشروح وتعليقات موسعة، وقد نشرته وزارة الإعلام في خمسة أجزاءٍ (١٩٧٢ ـ ٧٧). ونبهت مصطفى علي الى قصائد للرصافي لم تنشر في دواوينه (منها قصيدة في رثاء محمد سامي بك مدير معارف بغداد في العهد العثماني) وسألته أن ينشرها في الديوان الشامل الذي أشرف على إصداره، فقال: إن الرصافي قد أسقطها في حياته فلا أنشرها بعد مماته.

أصيب مصطفى علي برمد في عينيه سنة ١٩٧٣ فحرم البصر إلا بصيصاً ضئيلاً من النور يهتدي به في طريقه، فصار يستكتب أولاده وأصدقاءه ويستقرئهم في شؤونه. ويقول إنه أصبح كأبي العلاء المعري «المستطيع بغيره».

وقد أدركته الوفاة في بغداد في ٤ آذار ١٩٨٠.

على أثر سفري الى لندن سنة ١٩٧٤ ظللت أنا ومصطفى علي نتبادل الرسائل الى حين وفاته سنة ١٩٨٠. وكان بصره ضعيفاً فكان يستعين بأولاده أو بعض أصحابه يملي عليهم رسائله. وكان يردّد أنه «المستطيع بغيره» إقتداء بأبي العلاء شاعر المعرّة.

كتبت إليه عن تناقض آراء الزهاوي والرصافي في شعرهما، فكتب إليّ في ٤ حزيران ١٩٧٨ يقول: «أما ذكرك تناقض الرصافي والزهاوي في شعرهما فليس ذلك ببدع في الشعراء، ونظرة خاطفة الى شعراء العرب تكفي لأن تؤكد لنا أنهم جميعهم من هذا الطراز. وإذا كان بينهم من شذّ عن هذه الطريقة فهو من النوادر.

«والذي أراه هو أن ننظر الى إجادة الشاعر أكثر من أن ننظر الى ثباته على مبدأ واحد. فالشاعر دقيق الحسّ يتأثر بالأحداث المختلفة فينطق أو يضطّر الى النطق بما يجول في خاطره. وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله: ﴿**والشعراء يتّبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾. وإن كنتُ من الغاوين الذين اتبعتُ الرصافي وغيره من الشعراء».

جعفر الخليلي

بقيت النجف قروناً مديدة معقلاً من معاقل الدين واللغة، عزلتها الطبيعة في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا نبات، وحرمتها الرياض الزاهرة والحقول الناضرة، وأكسبت أهلها صرامة وجداً وصلابة وجفاءً وزهداً في مباهج الدنيا وملاهيها. دارت الحياة حول الروضة الحيدرية المطهّرة، وانتشرت المدارس يؤمها طلبة العلم من أقاصي

البقاع ودانيها ليجلسوا على البسط والحصران بين أيدي المؤدبين والمدرسين وليقضوا أعواماً طويلة في المطالعة والحفظ ومراجعة الكتب الصفر العتيقة التي طالعها وحفظها وراجعها أبناء الأجيال المتعاقبة. وقامت المقابر تمتّد من ظاهر البلدة وتلاصق مساكن الأحياء وتزاحمها وتدافعها. قال الصافي النجفي:

يا دار، بل وادي طوى وعراء	صدق الذي سمّاك في «وادي طوى»
فعلامَ أنت جلست في الصحراء؟	جلست على الأنهار بلدان الورى،

وقال

وواردات بلدتي جنائز	فصادرات بلدتي مشائخ

وهبّت على المدينة الهرمة في مطلع القرن العشرين نسائم التبديل والتحويل، فنادى فريق من العلماء بالتجديد والإصلاح، ودعوا الى إنشاء الحكم الدستوري في إيران وتقييد السلطة المطلقة. وتبعتهم زمر الشباب المتحمّس الذي أخذ يطالع مجلات مصر ولبنان والشام وينظم الشعر في المطالب السياسية والاجتماعية. وأنشئت الى جانب المساجد ودور العلم القديمة، مدارس عصرية تعنى بتدريس بسائط العلوم الحديثة. واصطرعت الأفكار بين القديم والجديد اصطراعاً شديداً لا هوادة فيه ولا لين، ومهدت السبل للإنتقاض على السلطة التركية أولاً وعلى الإحتلال البريطاني بعد ذلك، وهيّئت النفوس للتمرّد على الجمود ونبذ البدع التي التفّت حول الدين وكلّست مظاهره.

في تلك النجف المتحفّزة المصطرعة المتطلعة ولد جعفر الخليلي سنة ١٩٠٤. وكان أبوه الشيخ أسد من رجال الفضل والأدب يتعاطى الطب القديم شأن الكثير من أفراد أسرته، تلك الأسرة التي أنجبت أيضاً على مر العصور رجال دين بلغوا قمّة الزعامة الروحية. ونشأ جعفر بين أسرة متفتّحة في بيئة متزمّتة، وانتمى الى المدرسة العلوية التي أنشئت قبل عهد قصير لتعليم الصبيان على أسس حديثة. وأقبل على مطالعة الكتب الأدبية والمجلات بنهم شديد، وقرض الشعر وهو يافع.

وحدثت في النجف في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الانكليزي حركات وطنية طاغية اشترك فيها أخوه الأكبر عبّاس ووالده، لكن جعفراً لم يبلغ السنّ التي تؤهّله للعمل فاكتفى بالتطلع إليها والمساهمة فيها بفكره وروحه. ومال الى الكتابة فوضع، ولم يكد يشرف على عامه الثامن عشر، قصة إنسانية بعنوان «التعساء».

وامتهن التعليم عشرة أعوام في الحلة والنجف وسوق الشيوخ والرميثة، وكان مدرساً للتاريخ والجغرافية في المدرسة الثانوية بالنجف ثلاث سنوات. وأصدر في تلك الأثناء جريدة «الفجر الصادق» الأسبوعية (٧ آذار ١٩٣٠)، وكانت حرة النزعة، تدعو الى النهضة والإصلاح، فاضطرّ على غلقها في تشرين الأول ١٩٣٠ بعد أن أنذرته السلطات المسؤولة بعدم الجمع بين التدريس والصحافة.

واستقال من التدريس سنة ١٩٣٣، ثم أصدر جريدة «الراعي» (١٣ تموز ١٩٣٤)، وقد عطّلت لأسباب سياسية في ١٩ نيسان ١٩٣٥. وأصدر جريدته الثالثة «الهاتف» في ٣ أيار ١٩٣٥، فكانت مدرسة سيّارة عالجت فنون الأدب وعنيت بالقصة وأظهرت مواهب جيل كامل من الشعراء والقصاصين.

وانتقل الخليلي بهاتفه الى بغداد سنة ١٩٤٨، ثم جعل جريدته سياسية يومية (٢٧ كانون الأول ١٩٤٩)، مع مواصلة العناية بالقصة والأدب وإصدار أعداد ممتازة سنوية جامعة. وعاد الهاتف أدبياً أسبوعياً في تشرين الأول ١٩٥٢ حتى احتجب سنة ١٩٥٤.

أنشأ الخليلي بعد ذلك دار التعارف للإعلان وأخرج «موسوعة العتبات المقدسة» وهو مشروع ضخم نهض بأعبائه وتولى بنفسه شؤون الإدارة والتحرير والطبع والنشر والتوزيع، وجنّد لمساعدته أقلام صفوة من الأدباء والبحاثين والكتاب.

أما جعفر الخليلي الرجل فهو - كما وصفه روكس بن زائد العزيزي - «ربعة في الرجال، تكمن وراء لطفه المهذب رجولة حازمة تنمّ عليها نظرات فاحصة نفاذة. أناقة متناسقة تدل على ذوق رفيع، ونكتة حاضرة بارعة يواكبها وفاء للصديق وإنصاف للخصم وهدوء نفسي ينمّ على حياة عائلية سعيدة».

مؤلفاته وأدبه

جعفر الخليلي أديب وصحفيّ وشاعر، وهو من رواد القصة العراقية، له أسلوب لطيف، سلس العبارة، قريب المتناول، يطعم كتاباته بالحكايات واللطائف والأمثال الشعبية. كتب في السياسة والاجتماع والتاريخ والقصص والأدب عامة، وبرع في وصف الحياة الاجتماعية ومعالجة المشاكل العامة وتصوير المجتمع والأفراد والدعوة الى الاصلاح وحرية الفكر والتسامح وتوسيع آفاق المعرفة والثقافة.

وضع مؤلفات كثيرة، منها: يوميّات (في جزءين) ١٩٣٥، التعساء (١٩٢٣) الضائع (١٩٣٨)، عندما كنت قاضياً (١٩٤١) في قرى الجنّ (١٩٣٩)، من فوق الرابية (١٩٤٩) تسواهن (١٩٥٣) على هامش الثورة العراقية الكبرى (١٩٥٢) مجمع المتناقضات (١٩٥٣) إعترافات (١٩٣٧) حديث القوة (١٩٤٢) أولاد الخليلي (١٩٥٥) مقدمة في القصة العراقية (١٩٥٧) هؤلاء الناس (١٩٥٦) جغرافية البلاد العربية (١٩٣٤) حبوب الاستقلال (١٩٣٦) خيال الظلّ (١٩٣٦) حديث السّعلى (١٩٣٤) السجين المطلق (١٩٣٦) آل فتلة كما عرفتهم (١٩٣٦) نفحات من خمائل الأدب الفارسي (١٩٦٥) ما الذي أخذ الشعر الفارسي من العربية (١٩٦٧) كنت معهم في السجن (١٩٥٦) التمور قديماً وحديثاً (١٩٥٦) القصة العراقية قديماً وحديثاً (١٩٦٢) هكذا عرفتهم أربعة أجزاء ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢) موسوعة العتبات المقدسة

(صدر منها ١٣ جزءاً ١٩٦٥ ـ ٧١) الخ.

وله عدا ذلك مصنّفات مخطوطة منها:

نصيب بغداد من قصة كليلة ودمنة، صفحات من الجيل الماضي، الخ.

***

أصدر جعفر الخليلي الجزء الخامس من «هكذا عرفتهم» (١٩٨٠) ثم الجزء السادس (١٩٨٢).

تغلب على قصص الخليلي الصبغة المحلية، لكنها مع ذلك إنسانية الشمول، فالبشر هم هم مهما اختلفت عصورهم وأقطارهم. وإنّ النماذج البشرية التي رسمها الخليلي لتجتمع في مناح كثيرة بشخوص بوكاتشيو الايطالي وموباسان الفرنسي وأو. هنري الاميركي على تبايُن الزمان والمكان: فمزعل الفحّام الذي يطلب البركة ليوسّع عليه الرزق ولترفه أسرته الكبيرة، وأم حسن المطلقة التي أبعد عنها ابنها وحرمت نعمة مشاهدته، وموسى الذي يعرف من أين تؤكل الكتف والذي يسخّر الجنّ توسّلاً الى الانتقال من دار آهلة الى دار مستقلة فرشت له بأحسن الرياش، وأبو علي الرجل المرح الفكه الذي يبتدع طريقة شاذة فريدة لتهدئة نفسه السريعة الى الغيظ والخصام، وعبد اللطيف الحلاق المصارع الذي يهرب من وجه العدالة ويتخفّى خمس عشرة سنة ليجد بعد ذلك أنه لم يكن مجرماً ولم تكن هناك جريمة، والشيخ أحمد المزدوج الشخصية، الشرس في داره، الهادىء الحيّي في السوق والشارع، والحاج حسين البقال الذي اشتهر بأمانته وتساهله وكرمه ثم ظهر، بعد موته، أنه كان يغشّ بضاعته ويسرق زبائنه بمهارة جازت على الناس، والشيخ دبعون القرويّ الذي يتظاهر بالعظمة الفارغة ويتشامخ على الجهلاء والسذّج ليحصل على المال فيقع في الشرك الذي نصبه لسواه، كل أولئك وغيرهم من أبطال قصص الخليلي لهم أقرانهم ونظراؤهم في الأزمنة الخالية والأمصار النائية.

إن القاصّ الاميركي وليام سدني بورتر (١٨٦٧ ـ ١٩١٠) الذي عرف باسمه المستعار «او. هنري» قد خلّد في قصصه صوراً وشخوصاً من الحياة الاميركية في عهد استعمار الولايات الغربية والجنوبية والتوغل في مجاهل الصحارى والسهول والجبال المترامية الأطراف، فروى أحاديث المجازفات وبراعة النصب والاحتيال في البورصة المالية وعلى قارعة الطريق، وسذاجة أهل القرى، وبؤس الطبقات الفقيرة في المدن الغنيّة الصاخبة، في تلك الحقبة التي مرت واندثرت ولم يبق لها في الغداة من أثر. ويمكن القول إن الخليلي قد عمل لعراق النصف الأول من المائة العشرين ما عمله أو. هنري، في قصصه السّاحرة، لأمريكا منتصف القرن التاسع عشر، فرسم، ببراعة فائقة ودقة واقعية وإخلاص فنّي جميل، الصور والشخوص التي عرفها وسمع بها وتخيّلها في

عهد الانتقال والتطـوّر الذي مضى الى غير رجعة . إنّ معالم الحيـاة في النجف وحواضر الفرات وأرياف الجنـوب ـ وهي في مقدمة مسارح قصص الخليلي ــ قد تغيّرت وتبدلت تبدلاً أسـاسياً خلال جيل واحـد من جراء انتشار الثقـافة ووسائل المعيشـة العصرية ، وسوف تجد الأجيال القـادمة صور تلك الحياة وغـرائبها في «أولادالخليلي» و «الضائع» و «هؤلاء الناس» و «في قرى الجنّ» و «عندما كنت قـاضياً» و «من فوق الرابية» و «مجمع المتناقضـات» ، وتطّلع عل نماذج إنسانيـة خاصـة في بيئتها ، عـامة في المجتمع البشري طوال العصـور، ذلك الى جانب المتعة الروحيـة التي تنبثق من الأدب الواقعيّ المخلص غير المصطنع ولا المفتعل .

وجعفر الخليلي بعـد ذلك أديب ذوّاقة وشـاعر مطبـوع . وقد رأينـاه في «نفحات من خمائل الأدب الفارسيّ» يسدي يداً جميلة للآداب العربية والفارسية على السواء ، فكان ـ كما قلت عنه في منـاسبة ظهور كتـابه ــ أديب اللغتين وجامع الحسنيين والذوّاقـة الذي يحسن الاختيار ويحسن النقل والنظم والأداء .

إن نفحات الخليلي بـاقة عطرة من الـزهور، زاهيـة الألوان ، مختلفة الأشكـال ، عبقة الأشذاء . وهـي نافذة تطلّ على خمائل الأدب الفـارسي وتهيّىء للقارىء العـربي أن يلمّ بشيء من روائع سعـدي والفردوسي وحـافظ وعرفي الشيرازي وعبيـد زاكاني وأقـرانهم . وتجمع «النفحات» فنوناً شتى من الشعر، ففيها الغزل :

قلـتُ إن جئتنـي بشتـك مــــا بي ... مـن أليم الجوى وفــرط الشقـــاء

أيّ شيء أبثّــــه ، وأنــــا إن ... جئتنـــي زال في مجيئــك دائي؟

وفيها الهيام :

سـألـــوني عـــن دار هـــاجـــرتي ... قلـت : قلبـــي المولّـــه الـــدّنِفُ

وفيها الحكمة :

هــذي الحيـــاة مــراتـع ، وقطيعهـــا ... هـــذا الأنـــام ، وذئبهـــا الآجـــال

تغتـــال منهـــا كـلّ آنٍ واحـــداً ، ... فترى ولا يـــرتـــاع منهـــا البـــال

وفيها الرحمة :

لا تـــؤذهـــا نملـــةً تسعى بحبّتهـــا ... فإنهـــا ذات روح مـــلء إحســـاس

وفيها الشك :

كم سعينـــا لكي ننـــال من الـــدنيـــا ... منـــاهـــا فما بلغنـــا منـــاهـــا

كيف نحظى بعـــد الممات بأخـــرى ... مـــا سعينـــا لها ومـــا رمنـــاهـــا؟

وفيها الأمل :

قــد تـركنـا الـريـاء والمكـر طـراً وانتـزعنـا غـلّ القلـوب لتصفـو
فـاسقنيهـا سـلافـة، فكما أنّـا عفـونـا فإنّ ربّـك يعفـو

وفيها غير ذلك كثير من الصور والمشاعر والأفكار.

ولئن كانت المقطوعات أغلبها قصيراً فهنالك قطع طويلة جميلة كـ «العشاء اللذيذ» لأبي القاسم حالت، وهي قصة آكل لحوم البشر الذي قصد باريس من أواسط الأدغال الكثيفة ليختال تيهاً ويصاحب الغيد الحسان، فلما سئل عن حسناء رئيت معه بالأمس، قال:

لم تكن من رأيتموني وإيّاها، كما قد ظننتم في المساء
إنها الكاعب الجميلة كانت إن أردتم أن تعرفوها عشائي!

وكـ «عشق الفلاسفة» لحافظ الشيرازي:

شيمة العاشقين في الحبّ لطف وغلوّ في المدح والإطراء
وتفانٍ تسمو به الروح في الخلد سموّ الأبطال والشهداء
لا كلام تسوده غلظة القول ووعظ يليق بالأنبياء

والحسناء المتسائلة التي ناشدت الشاعر أن ينبئها عن الغادة التي تنفث السحر وتصمي الأفئدة وتبثّ الشّجى في النفوس:

فوضعت المرآة بين يديها قائلاً: من تَرَيْنَ في المرآة!

لكن أطول القطع وأبدعها، ولا ريب، هي أرجوزة القط والفيران لعبيد زاكاني (المتوفى سنة ١٣٧١م). وهي قصة رمزيّة تعبر عن الإنسان بالحيوان، ولا أملك أن أرويها هنا، وحسبي أن أحيل القارىء عليها ليأنس بقراءتها ويفكر في حكمتها ويخرج منها، كما يخرج من نفحات الخليلي جميعها، بمتعة روحية ولذّة فكرية وسكرة شعرية.

***

عرفت الخليلي وصحبته أعواماً طويلة، وقضيت معه في دار الهاتف والتعارف وغير دار الهاتف والتعارف أوقاتاً ممتعة وساعات هنيئة مغمورة بالمودّة والوفاء، معمورة بالأدب والشعر، عطرة بأنفاس اللذة الروحية والمتعة الذهنية. وكان، إذا سافر أو سافرت، اتصلت بيننا الرسائل، نتبادل الأفكار ونتنسّم الأخبار ونبثّ اللوعة والشكوى، نتأسّى بالأدب، ونفرح فرحة الأديب بالأديب، ونلتقي لقاء القريب للقريب. وحسبي أن أورد أبياتاً أرسلت بها إليه في بيروت في صيف سنة ١٩٦٦ رداً على خطاب منه:

لك منّي، أيا صديق حياتي، ألف شوق يضوع ملء الجَنَانِ
وسلام مثل النسيم رقيق وخطاب محمّل بالمعاني

أنــــا في بهجـــــة وبسطـــــة عيش ورخـــاءٍ يفـــوق حـــدّ الأمــــاني
حـــامــــداً للخليل فضـل مــــزايـــا وسجـــــايــــا قطــــوفهـنّ دواني
بيـــد أنّي ـــــ وليس ذلك بِـــدْعـــاً ـ أرهـق الفكـــر في اتّهام الـــزمــان
أسهـــر الليل في اقتنــاص الــدّراري وأخـــال المحــال طـــوع البنـــان
وأراني أردّد اليـــــوم شعــــــراً لحكيـم أضرّه المحبســــــان :
«علّـــلاني، فـإنّ بيض الأمــــاني فنيـت والظـــلام ليس بفـــان!»

وجعفر الخليلي شعر رقيق منه رثاؤه لقرينته التي توفيت قبل عـدة سنوات من لحاقه بها. قال:

أنســـــاكِ، لا والله لا أنســـــاكِ أنسى، ومـلء جـــوانحي ذكــــراك؟
البيت بعــــدك مُغْـولِ لا صـــوت في أرجـــائه إلاّ عـــويل البــــاكي
والبـــاب بعـــــدك مقفـل لا زائر يـأتي ولا ضيـف يـــــؤمّ حماك...

الشعر في النجف:

حدّثنـي جعفر الخليلي، قـال: كنت جالسـاً في صباح أحـد الأيام في إدارة جـريدة الهاتف بالنجف، فجاءني رجل يلبس الكوفية والعقال والزيّ البلدي، وقدّم نفسه أديباً من بغداد. فرحبت به أجمل ترحيب، وقال بعد هنيهة: إنني ماضٍ الى الرياض وأرغب في مدح الملك عبد العزيز ووليّ عهـده الأمير سعود طمعاً في صلتهما بعد أن كسد سوق الأدب في العـراق. فهل لـك أن تنظم لي قصيـدتين في المعنى المطلـوب، فقـد خمدت القريحة واشتدت الحاجة وأضنكت اللأواء.

قـال الخليلي: فقلت: إن مجلس الأدب يلتئم في «الهاتف» عصراً، فلعلّك إذا جئت حصلت على مأملك.

وجاء الرجل عصراً فوجد المجلس حافلاً بالشعراء والأدباء. ولما علموا بأمره هشّوا له وبشّوا، وأخذ كل منهم ينظم الشطر والبيت والبيتين حتى استقامت قصيدتان جيّدتان في مدح الملك والأمير. فكتبهما الرجل بخطّه وقرأهما مرة أو مرتين، وسلّم وخرج شاكراً.

ومضت أسابيع قليلـة فإذا بالرجل يعـود، وقد حسنت حالـه وظهرت عليه مظـاهر النعمة. وأخـرج من جيبه بضعة دنـانير وقال: جزاكـم الله وجـزى الاخوان عنّي خيراً، فقد أنشدت القصيدتين وفزت بجوائز آل سعود. وهـا أنا ذا قد عدت غانماً، فأرجو أن تعطي هذه الدنانير الى الشعراء الذين تفضلوا عليّ بالنظم.

لكنّ الخليلي أعـاد اليـه النقـود وقـال: لا داعـي للشكـر ولا للمكـافأة، فـاحتفظ بـدنـانيرك. إن الشعـر يجري على ألسنـة أهل النجف، وهي التي قـامت في الصحـراء

وحرمت الماء، كما تجري دجلة في بغداد وكما يجري الفرات في الحلة. ومتى بيع الماء بالنقد؟

حدثني جعفر الخليلي أنه حين أصدر جرائده الفجر الصادق والراعي والهاتف في النجف في مطلع سنوات الثلاثين كان يدعو الى حرية الفكر ومكافحة البدع والخرافات، فكان العوام والمشايخ الجهلة ومن لفّ لفهم يناوئونه ويكفرونه.

كانت إدارة جريدته خارج مركز البلدة يقابلها مقهى لحفّاري القبور وقرّاء الفواتح وأمثالهم وتجاورها أرض عفاء. وفي ذات مساء كان في مكتبه وليس معه سوى عامل واحد شيخ، فإذا به يرى جماعة من العوام والأوباش يحيطون بدار الجريدة وينادون بالويل والثبور ويهددون «الكافر» بالقصاص العاجل لكي يرتدع عن غيه. وكان الجمهور يتزايد والأمر يتفاقم، والخليلي محصور في إدارته لا تلفون لديه ولا سبيل له لطلب المعونة ولا طريق للخلاص. فأحكم غلق باب الدار وسلّم أمره لله منتظراً ما يكون.

وفجأة قدم قادم من المقهى وقال إنّ جنازة «سمينة» جيء بها من الحلة، فصاح القوم وأكثرهم من مرتزقة «وادي السلام» مقبرة النجف: لنذهب الآن ولا يفلت «المارق» من يدنا في فرصة قريبة! ولم تمرّ دقائق معدودة حتى خلا الطريق، فخرج الخليلي وصاحبه وهما لا يكادان يصدّقان بالنجاة - وأسرعا بالمضيّ الى البلدة.

كلمة أخيرة

أصيب الخليلي بداء النقرس واشتدّ عليه الألم. فقيل له: لا تحزن، فالنقرس داء الملوك. قال: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. أيكون كلّ حظي من الملوك داءهم؟

حين اشتدّ الجفاء بين الحكومتين العراقية والإيرانية ونفي آلاف العراقيين من أصل إيراني الى إيران بعد خروج محمد رضا شاه وتولي آية الله روح الله الخميني مقاليد الأمور، خشي جعفر الخليلي أن يبعد الى إيران، فالتجأ مع أسرته في ربيع سنة ١٩٨٠ الى عمّان وأقام فيها. وزار خلال هذه المدة لبنان والمانية الغربية وفرنسة.

وذهب الى دبيّ بالإمارات العربية المتحدة لزيارة ابنته ابتسام فتوفي ودفن فيها في ٢ شباط ١٩٨٥.

وكتب أكرم زعيتر على أثر وفاة جعفر الخليلي يقول إن لقاء الخليلي متعة للذهن وترويح للنفس وحديثه ينم على حضور البديهة وبراعة النكتة وسعة الاطلاع ولطافة الاستطراد وطرافة الاستشهاد بالشعر.

وقال إن الحديث دار معه حول ضعف الذاكرة ونسيان الأسماء فأنشد الخليلي:

أفـــرط نسيـــاني الى غـــايـــة   لم يـــدع النسيـــان لي حسّـــا
فصرت إمـــا عـــرضت حـــاجـــة   مهمـــةً أودعتهـــا الطـــرســـا
فصرت أنسى الطـــرس في راحتي   وصر ت أنســـى انـــي أنســـى

وقيل له: إن جميع صحفيي العراق يلقبونك «أبو الصحافة العراقية»، فأجاب: «أنا أبوها حين يريدون لعنها بقولهم: لعن الله أبا الصحافة!».

وقال زعيتر إنه علم أن الخليلي ألف في عمان كتاب «مما احتفظت به الذاكرة من الخواطر» وكتاب «الشعر العربي والغناء» وقصة تمثيلية عنوانها «رهبان بلا دير».

جعفر الخليلي: وفاته

حين علمت بوفاة الصديق جعفر الخليلي بادرت إلى الكتابة إلى ابنته فريدة معرباً عن ألمي وحزني لهذا النبأ الفاجع. وقلت انه حيّ بآثاره الأدبية وحيّ ببناته، واستشهدت بأبيات من قصيدة أحمد شوقي في رثاء شيخ وزراء مصر مصطفى فهمي باشا:

انّ البنـــات ذخـــائر مـن رحمة   وكنـــوز حبّ صـــادق ووفـــاء
السّـــاهـــرات لعلّـــة أو كبرة   والصـــابـــرات لشـــدّة وبـــلاء
والبـــاكيـــاتك حين ينقطع البكـــا   والـــزائراتك في العـــراء النـــائي...

وقد جاءني جوابها يقول: «بكيت اليوم بكاء مراً. ولا يعني أنني نسيت البكاء، فهو يرافقني منذ رحيل أبي، لأنني فقدت صديقاً وانساناً وأباً ومؤنساً في الوحدة والغربة، وبكائي اليوم جاء حسرة على أبي الذي مات وهو يلهج بك، مات وهو لا ينساك قط. مات في قلبه حسرة على من عرفهم وأحبّهم. رسالتك أثارت شجوني، أثارت ذكريات تلك الأيام الحلوة في داركم العامرة ومأكولات السيدة اللذيذة والبنات الجميلات الحبيبات. كان عسيراً علينا أن ننساكم حتى في أوج محنتنا وغربتنا».

ثم قالت ان أباها كان يعاني الآم النقرس والضغط العالي والقلب واشتدت عليه الوحدة القاسية، وليس معه غير ابنته فريدة التي رافقته في كل مكان. وقد مضيا في السنوات الأخيرة إلى المانية وفرنسا وسويسرا. وقالت انه كان يزور أختها في دبي شتاء. وشاء القدر أن تذهب فريدة معه لأول مرة، فأصيب هناك بجلطة قوية ونقل إلى المستشفى حيث عاش أسبوعاً وهو يتمتع بالصحة والراحة والعناية الفائقة. ونظم الشعر الجميل في مدح الطبيبات والعاملين على راحته... لكنه توفي في ٢ شباط ١٩٨٥، وأقيمت الفواتح على روحه في سورية ولبنان ودبّي والشارقة. وجرى تأبين الأربعين في سورية والشارقة وفي مصر برعاية نادي الأدب الحديث...

وقد رثاه الدكتور صفاء خلوصي المقيم في اكسفورد، قال:

أو هكـــــذا تمضي السنـــــــــون والـــــدمع مـــــدرار هتـــــون؟
يـــــا (جعفـــر) العلم الغـــزيـــــر وكـــلّ أنماط الفنـــــــــــــون
كنــت المجلي في القـــــــريـــض وفـــــــارس النشــــــر المبين . .

الدكتور متّى عقراوي

من رجال التربيـة، ينتمي متّى يوسف عقـراوي إلى أسرة تجارية معـروفة، وقـد ولد بالموصل في ٩ كانون الأول ١٩٠١ ودرس في جامعة بيروت الأميركية.

وعيّن مـدرسـاً في دار المعلمين ببغداد في ايلـول ١٩٢٤ وألف «مـذكـرات التـاريخ القديم» (١٩٢٧).

ثم درس علم التربية في جامعة كولمبية في نيـويورك ونال فيها درجة الدكتوراه. وعيّن مديراً لدار المعلمين (ايلول ١٩٢٩)، ثم تقلب في منـاصب وزارة المعارف وأصبح مديراً لمعـارف كركـوك والحلـة. ونقل بعد ذلك استـاذاً في دار المعلمين العـالية، وأنيطت بـه عمادتها وكالةً (آب ١٩٣٧) فأصالة (آب ١٩٤٠).

وعيّن مـديراً عـامـاً للتعليم العـالي بوزارة المعـارف (تشرين الأول ١٩٤٥)، واختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي عند تأليفه في كانون الثاني ١٩٤٨.

وأعيرت خدمـاته إلى منظمـة التربية والثقافـة والعلوم التـابعة لهيئـة الأمم المتحدة في باريس (اليونسكو) في شباط ١٩٤٩. . وعـاد إلى العراق فكان أول رئيس لجامعة بغداد (١٩٥٧). واعتـزل رئاسة الجامعـة بعد ثـورة تموز ١٩٥٨ وعـاد إلى العمل في مؤسسـة اليونسكو التي كلفته بمهام تربوية في أنحاء مختلفة من العالم.

ثم عيّن أستاذاً في جـامعة بيروت الأميركيـة حتى اعتزل العمل سنـة ١٩٧٤ وأقام في بيروت. وقد توفي بها في سنة ١٩٨٢.

وضع الدكتور عقراوي مؤلفات عديدة، منها:

مشروع التعليم الاجبـاري في العـراق (١٩٣٧) العـراق الحديث (ألفـه بـاللغـة الانكليزية ثم نقله إلى العربية بمسـاعدة الدكتور مجيد خدوري (١٩٣٦) اصلاح الخط العـربي (١٩٤٥) محاضرات في تطويـر البرامج (١٩٦٤). وقد اشترك في تأليف كتـاب «التربيـة في الشرق الاوسط العربي» (١٩٥٠) ووضع «تقـرير عن التعليم في الكـويت» (١٩٥٥). واشترك في ترجمة كتاب الديمقراطية والتربية للاستاذ جون ديوي (١٩٤٦).

وقـد كان متى عقـراوي من المربّين ذوي الشأن في تـاريخ معـارف العراق بين سنـة ١٩٣٠ ـ ٥٨. عنـي في بادىء الأمر بشـؤون التعليم الاجبـاري والتربية الأسـاسيـة، ثم اهتم بنشر التعليم العالي وتطويره ورسم مناهجـه. وفي محاضرة له ألقاها في نادي القلم

العراقـي ونشرت في مجموعته الاولى (١٩٣٨) عـن التعليم الاجباري في العـراق، قال: «خير ضمان لحياة هـذه البلاد يقظـة الأمة بـرمَّتها، وهـذا لا يتّم الاّ بالتعليـم الابتدائي الاجباري». ثم مضى إلى وضع منهاج لتعميم التعليم الابتدائي وانشاء المدارس الكافية وتهيئة المعلمين واحضار المال وسائر اللوازم لتنفيـذ المشروع ومعالجة المشاكل التي تعتور ذلك التنفيذ كتوزيع السكان وتنظيم الاحصاء وتعليـم البنات وتنويع المناهج الحضرية والريفية وهلم جراً.

وهيىء له أخيراً أن يخدم التربيـة والثقافة في البلاد العربيـة عامة عن طريـق مؤسسة اليونسكو الـدولية، سابقاً في هـذا المجال طائفة من المرّبين العـراقيين كخالد الهاشمي وعبد الحميـد كاظم وأقرانهما. وقال الـدكتور عقراوي: «من واجبات الجامعـة في العالم العربي أن تنمّي اللغة العـربية وتجد المفردات اللازمة ليصبح بـالإمكان استعمالها كعامل فعّال للتعليم وللتعبير عن الفكر العربي، سواء أكان هـذا الفكر علمياً أو تكنولوجياً أو انسانياً أو اجتماعياً».

حسين الرحّال

من أدباء العـراق المتحررين، ولـد حسين الرحال ببغـداد في ٢١ آب سنة ١٩٠٠، وأصل أسرته من بلدة راوة تعـرف بآل يحيى، اشتهرت بالتجارة بين نجـد والعراق والهند والحجاز وسوريـة ومصر، وقد انتقل جده عبد الـرحمن الرحّال إلى بغداد فـاتّخذها سكناً له.

سافـر حسين إلى أوروبة بعد نهاية الحرب العظمى ودرس في ألمانيـة. ثم قفل راجعاً إلى بغداد سنة ١٩٢٠ وانتمى إلى مدرسة الحقـوق ونال اجازتها (١٩٢٩). وأصدر مجلة الصحيفة (كـانون الأول ١٩٢٤) فكانت من الصحف المتحررة، ولم تـدم الاّ شهرين. ثم كان مديراً مسؤولاً لجريدة «سينما الحياة» التي أصدرها ميخائيل تيسي في كانون الاول ١٩٢٦.

ووظّف مترجماً في ديوان وزارة الخارجيـة (١٩٣١) فوزارة الـدفاع والـداخلية وأصبح بعد ذلك مميزاً للمطبـوعات الخارجية بمديريـة الدعاية العامة (نيسـان ١٩٣٧) فمدير الإدارة في أمانة العاصمة (شبـاط ١٩٤٥). ودعي إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط في ايلول ١٩٣٩.

وتولّى مديـرية الاذاعة في آذار ١٩٤٨. وعيّن مديـراً للإدارة المحلية بوزارة الـداخلية (ايار ١٩٥٠).

ثم نقلت خدمـاته إلى إدارة السكك الحديديـة فأصبح سكرتيراً لمجلس إدارتها (تموز ١٩٥٤).

واعتزل الخدمة، وتوفي ببغداد في ١٣ نيسان ١٩٧١ .

كان كاتباً أديباً واسع الثقافة بحث عن الاشتراكية والتطور الإقتصادي ودعا إلى تحرير المرأة في أوائل العشرينات، ونقل جانباً من أشعار ناظم حكمت عن التركية . وقد أجاد اللغة الانكليزية واطّلع على آدابها .

وشارك في تأليف كتاب «الإدارة المركزية والإدارية المحلية في العراق» (١٩٥٣) .

عباس فضلي خمّاس

من الكتّاب المعروفين عباس فضلي خمّاس أخو اللواء حسين مكي خماس، ولد ببغداد سنة ١٨٩٩ . وانتمى إلى دار المعلمين بعد الاحتلال البريطاني فتخرج فيها وعيّن معلماً (شباط ١٩١٨)وكان في سنة ١٩٢٠ ــ ٢١ يكتب في جريدة الاستقلال بتوقيع «الكسائي الصغير» . ودخل بعد ذلك دار المعلمين وأوفد لاكمال دراسته في انكلترة، لكنه عاد قبل الحصول على الشهادة .

وعاد إلى سلك التعليم، ثم استقال وأصدر مجلة (الطلبة» الاسبوعية (كانون الثاني ١٩٣٢)، فلم تدم طويلاً . وعيّن في دائرة الحسابات بوزارة الدفاع (١٩٣٣) وأصبح رئيساً لديوان وزارة الدفاع (ايار ١٩٣٧) فمفتشاً للطابو (تموز ١٩٣٩)، ونقل رئيساً لتسوية حقوق الأراضي (تشرين الثاني ١٩٤٧) . وعّين مديراً عاماً للتسوية في كانون الثاني ١٩٥٠ ، وأدركه الحمام سنة ١٩٥٢ .

كان عباس فضلي مولعاً بالأدبين العربي والتركي، وقد ترجم عن الانكليزية كتاب منازع الفكر الحديث (طبع ١٩٥٦) من تأليف كيرل ادوين ماتجنسن جود .

محيي الدين يوسف

من رجال التربية والتعليم، ولد محيي الدين يوسف في الموصل سنة ١٩٠٣ وأتم تحصيله في مدارسها . ثم أوفد ضمن البعثة الدراسية إلى جامعة بيروت الأميركية (١٩٢٢) فنال شهادة بكلوريوس علوم سنة ١٩٢٦ . وعيّن مدرساً للرياضيات في المدرسة الثانوية بالموصل، ثم نقل إلى بغداد . وعيّن مديراً للمدرسة المتوسطة الشرقية ببغداد فمديراً لثانوية الموصل فمديراً لمعارف منطقة كركوك (نيسان ١٩٣٣) . ونقل مراقباً للتعليم الابتدائي بوزارة المعارف فمديراً للتعليم الثانوي (نيسان ١٩٣٧) .

وعيّن استاذاً في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٤١) فمديراً للتعليم الثانوي مرة ثانية (شباط ١٩٤٣) فمفتشاً عاماً للمعارف (آب ١٩٤٦) فمديراً عاماً للتعليم

العالي. وأعيد إلى التدريس في دار المعلمين العالية (كانون الأول ١٩٥٣) وظلّ يدرّس فيها حين أصبحت تعرف بكلية التربية.

واختير عضواً في المجمع العلمي العراقي (آذار ١٩٤٩). وأدركته الوفاة في بيروت في ايلول ١٩٥٩.

نشر محيي الدين يوسف بحوثاً في العلوم والرياضيات. وقد اشترك في ترجمة كتاب «نظرية الأعداد»، ونقل إلى العربية «مقدمة الرياضيات» من تأليف وايتهيد (١٩٥٢).

مكّي الجميل

الكاتب الصحفي ورجل الإدارة والقضاء مكي بن عبد المجيد الجميل، أخو حسين جميل وابن عمّ الشاعر حافظ جميل. وقد كان أبوه عبد المجيد بن أحمد جميل (١٨٨٠ ـ ١٩٧١) من رجال الفقه، تخرّج في مدرسة الحقوق ببغداد (١٩١٢) وكان حاكماً في المحاكم المدنية (١٩١٩ ـ ١٩٤٦).

ولد مكي الجميل ببغداد سنة ١٩٠١، ودرس في مدارسها، ووظّف في ايلول ١٩٢٠.

وأصدر في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٣ جريدة «الغربال» الاسبوعية، فدامت نحواً من ستة أشهر. وانتمى إلى مدرسة الحقوق فنال إجازتها سنة ١٩٢٧. وعيّن مديراً لتحرير لواء الموصل (ايلول ١٩٣١) فمدير ناحية المحاويل (١٩٣٣). ونقل مديراً لناحية شثاثة ثم استقال في حزيران ١٩٣٥ وزاول المحاماة. وانتخب نائباً عن لواء ديالى في شباط ١٩٣٧، وأصدر جريدة الحارس (تشرين الثاني ١٩٣٦) فجريدة «الانقلاب».

وانخرط في سلك القضاء فعين حاكماً لتحقيق البصرة (تموز ١٩٤٣) فحاكم صلح الحلة (آب ١٩٤٤). وكان بعد ذلك قائممقام لقضاء القرنة فمعاوناً لمتصرف البصرة (ايار ١٩٤٦) فقائممقام قضاء عنة (حزيران ١٩٤٦) فقضاء المحمودية (١٩٤٧). وعيّن متصرفاً للواء الدليم (١٩٤٨) فالحلة (١٩٤٩) فكربلاء (تشرين الثاني ١٩٥٠) فمديراً عاماً للتسوية (آب ١٩٥٢). ونقل بعد ثورة ١٩٥٨ مديراً عاماً للبلديات فوكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية (١٩٥٩). وكان سفيراً للعراق في الأردنّ فالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٦٥.

مؤلفاته: مباحث في الإصلاح (١٩٥٥) البدو والقبائل الرحالة في العراق (١٩٥٦).

تاريخ المسألة الشرقية (١٩٢٦) مباحث في نظام إدارة أموال الأيتام (١٩٣١) نظرات في قانون العقوبات العراقي الجديد (١٩٣٢) البداوة والبدو في البلاد العربية (١٩٦٢) التخطيط الموحد للتنمية الاجتماعية والاقتصادية (١٩٦٦) تعليقات على نظام دعاوى العشائر وتعديلاته (١٩٣٥) توطين البدو (١٩٦٦) نفحات اسلامية (١٩٦٦).

كان مكي الجميل من رجال الإدارة العاملين المفكرين، ودعا في كتاباته إلى الإصلاح وتوطين البدو وتعليمهم الزراعة وتوفير الماء لهم ورفع مستوى القرى والارياف.

توفي مكي الجميل ببغداد في ٨ ايار ١٩٧٣.

عبد الرزاق الحسني

مؤرخ العراق الحديث ومسجّل وقائعه وأحداثه، وهو عبد الرزاق بن السيد مهدي البغدادي الحسني آل السيد عيسى، وتعرف الأسرة بـ «آل العطار». ولد ببغداد سنة ١٩٠٣ ودرس في المدرسة الجعفرية ودار المعلمين الابتدائية. مال إلى الكتابة والصحافة شاباً، وساعد محمد عبد الحسين في إصدار جريدة الاستقلال النجفية في تشرين الأول ١٩٢٠.

وكان محرراً بجريدة المفيد البغدادية لصاحبها ابراهيم حلمي العمر. وأنشأ في أول أيلول ١٩٢٥ جريدة الفضيلة ووالى اصدارها، ثم انتقل إلى الحلة وأصدر فيها جريدة الفيحاء (٢٧ كانون الثاني ١٩٢٧).

عاد إلى بغداد فعيّن موظفاً في وزارة المالية (تشرين الأول ١٩٢٧) وخدم في الحلة وديالى وبغداد، ونقل بعد ذلك إلى دائرة الري فمديرية البريد والبرق العامة. وفصل من الخدمة بعد أحداث مايس ١٩٤١ واعتقل في الفاو والعمارة حيث قضى أربع سنوات. وأعيد إلى الوظيفة بعد الحرب العالمية، ورفع معاون مدير بريد مركزي في تشرين الأول ١٩٤٩، وانتدب للعمل في ديوان مجلس الوزراء وعهد إليه بتنظيم سجلات تاريخ الدولة حتى أحيل على التقاعد في أواخر سنة ١٩٦٤. وحضر مؤتمر المستشرقين الدولي في موسكو سنة ١٩٦٠.

صنف كتباً كثيرة تناولت تاريخ العراق وحوادثه منذ الاحتلال البريطاني فضلاً عن أديانه ونحله وبلدانه وصحافته، فأعيد طبعها مراراً وأصبحت مصادر لتاريخ هذه الحقبة.

من مؤلفاته: تاريخ الوزارات العراقية (١٠ أجزاء ١٩٣٣ ـ ٦١) تاريخ الثورة العراقية (١٩٣٥) أسرار الانقلاب (١٩٣٧) العراق في دوري الاحتلال والانتداب (في جزءين ١٩٣٧ ـ ٣٨) الأسرار الخفّية في حوادث السنة ١٩٤١ التحررية (١٩٥٨) تاريخ العراق السياسي الحديث (ثلاثة أجزاء ١٩٤٨) الثورة العراقية الكبرى (١٩٥٢) العراق في ظلّ المعاهدات (١٩٤٨) العراق قديماً وحديثاً (١٩٤٨) الأصول الرسمية لتاريخ الوزارات العراقية (١٩٦٤) تحت ظلّ المشانق (١٩٢٤) رحلة في العراق (١٩٢٥) موجز تاريخ البلدان العراقية (١٩٣٠) اليزيدية أو عبدة الشيطان (١٩٢٩) البابيون في التاريخ، تعريف الشيعة، الصابئة قديماً وحديثاً (١٩٣١) الأغاني الشعبية (١٩٢٩) البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥٧) تاريخ الصحافة العراقية

(١٩٣٥) الخوارج في الإسلام، الصابئون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥٥) اليزيديون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥١) ثورة النجف (١٩٧٢)الخ.

قال محمد رضا الشبيبي يقدّم الجزء الاول من تاريخ الوزارات العراقية:

«... وقد أطلعني الكاتب الأديب المعروف السيد عبد الرزاق الحسني على الكتاب الذي جرّده في هذا الباب، فإذا به يتوخّى جمع الحوادث وسردها سرداً لا يقصد من ورائه الا عرض الوقائع كما هي بدون أن يستبطن أسرارها أو يذهب إلى التفكير في هذا ونحوه، متخلصاً بذلك من كلفة التأويل وكثرة القال والقيل. وبالجملة فالكتاب سجّل خاص سجلت وجمعت فيه حوادث العراق السياسية على اختلافها، وذلك من قيام الحكم الوطني إلى الآن. فللمؤلف في عمله هذا فضيلة التنقيب عن الوقائع وجمعها من مظانّها، ثم تبويبها وترتيبها على وجه يجعلها قريبة التناول، هذا مضافاً إلى بعض الشروح والتعاليق ونحو ذلك، ممّا يدل على أن الغيرة الصالحة وحبّ المساهمة في خدمة البلاد من حيث نشر تاريخها بقدر الطاقة وضمن المقدور من جملة البواعث التي بعثت على تأليف الكتاب...».

ولئن صحّ ما قاله الشبيبي في مؤلَّف عبد الرزاق الحسني عام ١٩٣٣، لقد عمد الحسني بعد ذلك إلى توسيع نطاق بحوثه واستقراء الحوادث وتعليل أسبابها ومآتيها واستجلاء حقائقها واستنطاق أبطالها، حتى لقد ترك آثاراً تسترشد بها الأجيال الآتية في تدوين تاريخ العراق في هذه المرحلة الخطيرة من مراحله. ومع كثرة الصحف والمطبوعات والمذكرات التي سجّلت أحداث هذه الحقبة فانّ جمعها وتحقيقها في مؤلفات الحسني الكثيرة ليهيىء مورداً عذباً ميسوراً لمؤرخ المستقبل. يضاف إلى ذلك انّ إكباب الحسني على عمله واتصاله بمعظم المسؤولين المتصلين بالأحداث والناهضين بأعباء الحكم ووجوده في ديوان مجلس الوزراء أعواماً غير قليلة يرجع إلى وثائق الدولة في منبعها كلّ ذلك قد أتاح له فرصة الاستفادة والافادة على وجه قلّما أتيح لغيره.

ان المؤرخين العرب الذين سجلوا أحداث زمانهم على طريقة السنين أو غيرها لا يحصرهم العدّ، وقد تركوا للأجيال المتعاقبة كنوزاً ثمينة من الأخبار والأنباء كانت لولاهم تضيع في مجاهل العصور. ولعلّ الحسني يمكن تشبيهه ــ مع فارق الزمن ــ بالمؤرخ الفرنسي الراهب فرواسّار Froissart (١٣٣٧ـ ١٤١٠) الذي سجّل في «أخباره التاريخية» حوادث عصره وحروب زمانه، وعرف بدقّة تفاصيله وصحّة نقله. لقد تجشّم الرجل مشاقّ السفر إلى أنحاء أوروبة، واتصل بأمرائها وكبرائها، وسأل رجالها عن الأمور التي شهدوها والوقائع التي شاركوا فيها، ودوّن كل بذلك بأمانة في تاريخه. ولم يكتف بذلك بل رسم صورة رائعة لذلك العهد من تاريخ فرنسة وحربها الطويلة مع انكلترة، وأحيي تقاليد فروسيّة القرون الوسطى وحفلاتها ومآثرها وشهامتها. ولم يكن هو نفسه فارساً من أصحاب تلك الفروسية التي تتصل بصلة وثيقة بالفتوة العربية،

لكنه شهد مبارياتها واستنطق رجالها فدون ما رآه وسمعه، كما دوّن المعارك والحوادث السياسية، حتى قال فيه بعض النقاد: «لقد صوّر زمانه تصويراً رائعاً، لكنه لم يفهمه الاّ قليلاً. فإنّ جعجعة التاريخ قد غطّت لديه على معناه».

وأقول أخيراً ان عبد الرزاق الحسني زار لندن مراراً للاصطياف والمعالجة الطبية. وكانت آخر زيارة له سنة ١٩٨٣، ثم عاد إلى بغداد وأصيب بالشلل ولا يزال قعيد الفراش (١٩٩٢).

محمد رضا المظفّر

ولد في النجف سنة ١٩٠٤ من أسرة علمية ودرس في معاهدها. ثم زاول التدريس، ومال إلى استصلاح طرق التعليم القديمة في بلده. وكان من مؤسسي جمعية منتدى النشر سنة ١٩٣٥ واختير سكرتيراً لها ثم معتمداً.

قال جعفر الخليلي في الجزء الثاني من كتابه «هكذا عرفتهم»: «والمتتبع لتاريخ الشيخ محمد رضا مظفر يجد أن بين النصف الأول من عمره والنصف الثاني تبايناً كلياً في طريقة التفكير وفهم الحياة وأهداف الدين. فقد كانت الرجعية تتغلب عليه وتتملّك كل تصرّفاته في نصف عمره الأوّل، لكنه ما كاد يخطو إلى الثلاثين حتى ظهرت عليه بوادر التجديد والدعوة الصحيحة السليمة إلى الإصلاح الديني وتنزيهه من الشوائب التي علقت به، الأمر الذي حدا به إلى البحث في إيجاد الحلقة المفقودة وإلى تنظيم الدراسة الدينية وتثبيت مناهجها».

وقد سعى لتأسيس مدرسة حديثة تابعة لمنتدى النشر وفتح صفوف لخطباء المنابر الحسينية ووضع كتب تدريس عصرية لطلبة النجف. وأينعت جهوده في تأسيس كلية الفقه في النجف، أجازتها وزارة التربية في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٨، وأصبح هو نفسه عميداً لها.

انتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣. وتوفي بالنجف في ٣١ كانون الثاني ١٩٦٤.

من مؤلفاته: السقيفة (١٩٤٩) عقائد الإمامية (١٩٥٤) المنطق (٣ أجزاء ١٩٤٨) أصول الفقه (٣ أجزاء) (١٩٥٩ ـ ٦٢) ابن سينا، إلخ. وله شعر وبحوث لغوية وتاريخية وفلسفية.

وقد حقق ونشر كتباً مختلفة، ونشر الجزء الرابع من كتابه «أصول الفقه» بعد وفاته (١٩٧١).

قال في تأبينه الشيخ محمد رضا الشبيبي: «واقترن لديه العرفان بالإيمان وبالعاطفة

الـروحيـة ، ولا يخفى أن المربي الصـالح والـراعـي الـرفيق هـو الـذي يجمع بين هـاتين الخصلتين» .

وهو محمد رضا بن محمد بن عبـد الله بن محمد بن أحمد بن مظفر النجفي ، كان أبوه فقهيـاً اماميـاً توفي في النجف سنـة ١٩٠٤ ووضع كتـاباً في «شرح شرائع الإسـلام» في مجلدين .

الدكتور جواد علي

المؤرخ البحاثـة الدكتـور جواد بن محمـد علي يمتّ بصلة نسب إلى السيـد محمد بن السيد أحمد الحسيني المعروف بالمنشيء البغدادي الـذي ترجم عباس العزاوي رحلته إلى ديار الكرد ونشرها سنة ١٩٤٨ .

وردّ الدكتور حسين علي محفوظ أسرته إلى عكيل وقال انه ابن الحاج محمد علي المنشي بن محمد حسين بن قاسم .

ولـد جواد علي في الكـاظميـة سنـة ١٩٠٧ ، وتخرج في دار المعلمين العاليـة ببغـداد (١٩٣١) .

وقد عيّن مدرساً في أول تشرين الأول ١٩٣١ ، ثم أوفد لـدراسة التاريخ الإسلامي في ألمانيا ، فنـال شهادة الدكتوراه من جـامعة هامبرغ سنـة (١٩٣٩) . وقد اعتقل في آذار ١٩٤٢ ثم أفرج عنه .

وعيّن مـدرساً في دار المعلمين الابتـدائيـة (ايلـول ـ ١٩٤٣) فسكـرتير لجنـة الترجمة والتأليف والنشر بـوزارة المعارف (١٩٤٧) فسكرتيراً للمجمـع العلمي العراقي (كـانون الثاني ١٩٤٨) فأستاذاً بدار المعلمين العالية (ايلول ١٩٥٦) .

وقد أصبحت الـدار كلية للتربية وألحقت بجامعـة بغداد ، فظلّ استاذاً فيها أعـواماً طويلة . واختير استـاذاً زائراً في جامعة هارفارد سنة ١٩٥٧/ ٥٨ وبعـد ذلك في جامعة لندن (١٩٦١/ ٦٢) .

وقد كان عضواً بالمجمع العلمي العراقي (كانون الثاني ١٩٤٨) إلى نيسان ١٩٦٢) . واختير عضواً مراسلاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة في نيسان ١٩٥٦ .

وضع مؤلفات تـاريخية عديدة أشهرهـا كتابه «تاريخ العـرب قبل الإسلام» في ثمانية أجزاء (١٩٥١ ـ ٦٠)، وقـد أصبح مرجعاً في موضـوعه . وله أيضاً : تـاريخ العرب في الإسـلام ، صدر منـه جزء واحـد (السيرة النبويـة ، ١٩٦١)، أصنام العـرب (١٩٦٧) تاريخ الصلاة في الإسلام (١٩٦٨) الخ .

أعيد تعيينـه عضواً بالمجمع العلمي العراقـي إثر إعادة تأليفه في أيـار ١٩٧٩ . وقد وضع أخيراً «معجم ألفاظ الجاهليين» وتوفي في بغداد في ٤ تشرين الأول ١٩٨٧ .

توفيــق الفكيكـي

من رجال الأدب والصحافة والقانون، وهـو توفيق بن علي بن ناصر بن محمد سعيد الفكيكي، ينتسب إلى الفكيكات من فروع قبائل ربيعة.

ولـد ببغداد سنـة ١٩٠٠، ودرس الفقه وعلـوم اللغة على الشيخ كـاظم السّاعـدي وعبد الوهاب البدري في سامّـراء والشيخ شكر الله القاضي الجعفري في بغداد، وتتلمذ بعد ذلك على الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في النجف. وامتهن التعليم أمداً، واشترك في ثـورة ١٩٢٠، وحـرر في جـريدة «المفيـد» (١٩٢٢). ثم درس القـانـون في مدرسة الحقوق ببغداد وتخرّج فيها وتعاطى المحاماة.

كـان المدير المسؤول لجريدة الكـرخ التي أصدرهـا عبـوّد الكرخي في كـانون الثـاني ١٩٢٧. وأنشأ تـوفيق الفكيكي بعد ذلك جـريـدة اسبوعيـة باسم «النظـام» (٢٢ آب ١٩٢٧)، فعطلت إثـر صدور عـددها الأول. كـان مديـراً مسؤولاً لجريـدة نداء العمال (تشرين الثاني ١٩٣٠) جريدة «الرياض» في شباط ١٩٣١.

وانخرط في سلك القضاء في كانون الثاني ١٩٣٤ فعين حاكماً لصلح سامراء فخانقين (١٩٣٤) فمعـاون رئيس تسويـة (آذار ١٩٣٦) فحـاكماً للصلح في النجف فكربـلاء (ايـار ١٩٣٨) والكاظميـة (آب ١٩٤١) فـالأعظمية (كـانـون الثاني ١٩٤٢) إلى سنـة ١٩٤٣. وقـد أصدر جـريـدة «الرعـد» (آذار ١٩٤٨) ورئس تحريـر جريـدة «القبس» (١٩٥٢). وانتخب نائباً عن لواء المنتفق في ايلول ١٩٥٤ إلى آذار ١٩٥٨.

وقد تطـوّرت آراء الفكيكي على مرّ السنين، فكان سنة ١٩٢٤ في طليعـة المناهضين لسفور المرأة. لكنّه في كانون لثاني ١٩٥٨ قدّم اقتراحاً إلى مجلس النواب لتعديل الدستور والاعتراف بحقوق المرأة السياسية.

وأدركته الوفاة ببغداد في ٢٢ تموز ١٩٦٩.

والفكيكي كاتب بليغ، مشرق البيـان، أنيق الديباجـة، له مؤلفـات كثيرة في الفقه والقانون والأدب، منها: الحجاب والسفور (١٩٢٧) كتاب المتعة (١٩٣٧) المعاهدات في الإسلام، المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي، سكينة بنت الحسين (١٩٥٠) الراعي والرعية (جزءان ١٩٣٩ ـ ٤٠) شجرة العذراء (١٩٦٢) النخيل (شعر ونثر، ١٩٦٤)، رسالة في سياسة الإمام جعفر الصادق، رسـالة في فقه الوقف المقارن، الدين والأخلاق (١٩٣٩) أدب الفتوة والـدعاية العسكريـة عند العرب (١٩٤١) دفاع عن الشـاعر أبي العتاهية، أقرب الوسائل لنشر الحضـارة الصحيحة في العراق (١٩٣٨)، الإمام جعفر بن محمد (١٩٤٧) عبقرية الشبيبي (١٩٤٥) هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق (١٩٥٢) دفـاع عن شعـراء (طبع ببيروت ١٩٧٥) رسـالـة في حماية الحيـوان في شريعـة القـرآن، الخ..

كان فطناً واسع الاطلاع، حلو الحديث، قصير القامة، نحيل الجسم، لـه عينان صغيرتان زئبقيتان تشعّان ذكاءً تحت زجاج النظّارة. يروى عنه أنه كان يسير مع المحامي خالد الـدرّة صاحب مجلة «الوادي» فاعترض سبيلهما شحّاذ شيخ وقـال مخاطباً الدرّة: «حسنة لوجه الله، حفظ لك هذا الصبّي».

فصاح الـدرة: «هذا الصبّي! انـه في عمر جـدّي!» ثم تمثّل الدرة ــ والعهدة على الراوي ـ بأبيات لاسحٰق بن خلف البهرائي من شعراء القرن الهجري الثالث:

مــــا سرّني أنني في طـــــول داود ... وانـنـــي علـــم في البـــأس والجود
مــاشيت داود فـاستضحكـت من عجب ... كـأنني والـــد يمشي بمــــولــــود!

وقد أبنّه حافظ جميل فقال:

سـأظــلّ أجهـش بـــــــالنحيب ... أبكـي الأديـب أبــــــــا أديـب
أبكي خصــــالاً مــــا نفحـن ... على المدى غير الطيــــــــــوب
أبكـــــــــي الجواد الأريحيّ ... خــــلا من النــــدّ الضريـب
شهــم يجوع ولا يــــــــــردّ ... ســــؤال محتــاج حــريـب
لم يـــدّخـــر في يـــومــــه ... مــــا عنـــده لغـــدٍ قــــريـب
فكـأنـــــــــه يجد الغنـى ... شرّ الخطـــايــــا والــــذنـــوب
يعطـي ويخشـى أن يــــــــرى ... غير المروءة مــــــن رقيـــــب
يــــا ذروة الخلق الـــــرفيع ... وواحـــــة الفكـــــر الخصيب
لاالسقـم جــــرّك للخمــــول ... ولا المشيـب إلى نضــــــوب
لم تشـك ليــــلاً مـن سهـــاد ... أو نهاراً مـن لغـــــــوب
الا مـــــذاب حشـــاشـــة ... مـــرهـــونـــة بيـــد المذيب
تـأبـى مجابهة الحيـــــاة ... بها ينـــــمّ عـــــن الهروب
وتـــرى السعـــادة كلهـــا ... في همّة الشيـخ الـــــدؤوب...

ووصف أدبه قبل ذلك عبد القادر رشيد الناصري فقال:

أدب كسلســال الصفـا يترقـرق ... سحـــر العقـــول رواؤه والـــرّونـق
نظمت لآلئــه بــراعـــة عـــالم ... يملي عليـــه فـــؤاده والمنطـق...

الدكتور أحمد سوسة

ولد نسيم بن موسى اسحق سوسة في الحلة في ١٠ حزيران ١٩٠٠ وكان أبوه من الملاكين، وعضواً في مجلس إدارة لواء الحلة، وقد أنشأ بعد الحرب العظمى الأولى مشروع الكهرباء في بلدته. وقد تسمى نسيم بعد اعتناقه الاسلام باسم «أحمد».

درس في الجامعة الاميركية في بيروت، ثم قصد الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٢٣ فتخرج مهندساً مدنياً في كلية كولورادو (١٩٢٧). وواصل دراسته في جامعة جورج واشنطن (١٩٢٨) وحصل على الدكتوراه من جامعة جونس هوبكنس سنة ١٩٣٠.

عاد إلى بغداد فعيّن معاون مهندس ريّ (أول نيسان ١٩٣٢)، ثم أصبح مديراً لريّ ديالى فالحلة، واعتنق الديانة الاسلامية بعد التأمل والقناعة في مصر في تشرين الثاني ١٩٣٦، ووضع في ذلك كتاب «في طريقي إلى الاسلام» في جزءين. وأوفد إلى المملكة العربية السعودية حيث تولى إنشاء مشروع الخرج الزراعي جنوبيّ مدينة الرياض (١٩٣٩ ـ ٤٠).

وقام خلال الاعوام العديدة التي قضاها في دائرة الريّ بدراسات فنية في أنحاء العراق. ثم نقل في أيار ١٩٤٥ مميزاً للترجمة والنشر بوزارة المعارف. وأسندت إليه مديرية المساحة العامة في تشرين الاول ١٩٤٧، ثم نقل مديراً عاماً لديوان وزارة الزراعة في تموز ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦، فمدير المساحة العامة ثانية إلى ١٩٥٧.

عيّن عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الاول ١٩٤٩ وانتخب نائباً ثانياً لرئيسه في تشرين الأول ١٩٥٩ فاستقال فوراً. وانتهت عضويته بالمجمع عند إعادة تأليفه في حزيران ١٩٦٣. وأعيد تعيينه عضواً بالمجمع في ايار ١٩٧٩. وتوفي في بغداد في ٦ شباط ١٩٨٢.

وضع كتباً عديدة في الريّ والهندسة باللغتين العربية والانكليزية، منها: المصادر عن ريّ العراق (١٩٤٢) ووادي الفرات (في جزءين ١٩٤٤ ـ ٤٥) تطور الري في العراق (١٩٤٦) الريّ في العراق (١٩٤٢) ريّ سامراء في عهد الخلافة العباسية (جزآن ١٩٤٨ ـ ٤٩) فيضانات بغداد في التاريخ (٣ أجزاء، ١٩٦٣ ـ ٦٦) الري والحضارة في وادي الرافدين (الجزء الاول ١٩٦٨) العراق في الخوارط القديمة (١٩٥٩) عصبة الأمم والعراق (١٩٣١) نهر الفرات (١٩٤٥) مأساة هندسية (١٩٤٧) مشروع بحيرة الحبانية وتطوراته (١٩٤٩) مشروع سنحاريب لارواء منطقة نينوى (١٩٦٢) المؤتمر الدولي لتجميع حقوق الدول (١٩٣١). وألف ايضاً: العرب واليهود في التاريخ (١٩٧٢) الشريف الادريسي في الجغرافية العربية (في جزءين ١٩٧٤).

ووضع أطالس للعراق وبغداد وصنّف «الدليل الجغرافي العراقي»، واشترك مع

محمود فهمي درويش والـدكتور مصطفى جواد في إصـدار «دليل الجمهورية العـراقية» سنة ١٩٦٠ .

وجديـر بالقول أن الـدكتور سوسة في أثنـاء دراسته في الولايـات المتحدة حصل على شهادة في العلاقات الدولية ، وذلك ما يفسّر تآليفه عن عصبة الأمم وحقوق الدول .

ومن مؤلفاتـه باللغة الانكليزيـة : نظام الامتيازات الأجنبية في تـركية (١٩٣٣) سدّة الهندية (١٩٤٥) الريّ في العراق (١٩٤٥) الخ .

ولـه ايضـاً : حيـاتي في نصف قـرن (نشرتـه في بغـداد ابنتـه الـدكتـورة عـاليـة سنـة ١٩٨٦)، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور (١٩٧٩) حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسـومريين (١٩٨٠) تاريخ حضـارة وادي الرافـدين (جزآن، ١٩٨٣ ـ ٨٥).

الدكتور عبد الرزّاق محيي الدين

عبد الـرزاق أمان محيي الـدين ، ولد في النجف سنـة ١٩١٠ ودرس في معاهـدها . وانتمى إلى دار العلوم بالقـاهرة سنة ١٩٣٣ ودرس الأدب العربي . وعـاد إلى بغداد سنة ١٩٣٧ وعيّن مدرساً في دار المعلمين الابتدائية .

عـاد إلى القاهـرة سنـة ١٩٤٢ ليواصل الـدراسـة في جـامعتها فحصل على شهـادة الاستاذيـة (١٩٤٨) فالـدكتوراه (١٩٥٦) . وقفـل راجعاً إلى بغـداد سنة ١٩٤٨ فعيّن استاذاً مساعداً بدار المعلمين العالية (تشرين الاول (١٩٤٨)، ورفع بعد ذلك استاذاً في تلك الدار التي أصبحت تعرف بكلية التربيةوألحقت بجامعة بغداد .

اختير عميداً لكلية التربيـة سنة ١٩٦٣ فنائباً لرئيس جامعـة بغداد . وعيّن عضواً في المجمع العلمي العراقي إثر إعادة تأليفه في آب ١٩٦٣ وانتخب نـائباً ثانياً للرئيس . ثم أصبح وزيـر دولـة لشـؤون الـوحـدة في وزارة الفريق طـاهـر يحيى (٣١ كـانـون الثـاني ١٩٦٤)، واحتفظ بمنصبـه وزيراً للـوحدة في وزارة طاهـر يحيى الثـانية (١٧ حـزيران ١٩٦٤) والثالثة (١٤ تشرين الثاني ١٩٦٤) ووزارة عارف عبد الرزاق (٦ ايلول ١٩٦٥) وعبـد الرحمن البـزّاز (٢١ ايلول ١٩٦٥) إلى ٩ آب ١٩٦٦ . وعيّن أميناً عـاماً للقيـادة السيـاسية الموحـدة بين الجمهـوريتين العراقيـة والعـربيـة المتحدة في ٢٧ تشرين الثـاني ١٩٦٥ (علاوة على منصبه الوزاري) فظل في هذا المنصب إلى تشرين اول ١٩٦٨ .

وانتخب رئيســاً للمجمع العلمـي العــراقي في ١٠ تشرين الاول ١٩٦٦ وعضــواً بمجمع اللغة العـربية في القاهـرة في شباط ١٩٦٧ في محل محمد رضـا الشبيبي وعضواً بمجمع دمشق . وعاد وزيراً للوحدة في وزارة رئيس الجمهورية الفريق عبد الرحمن محمّد عارف في ١٠ ايـار ١٩٦٧ فوزيراً للـدولة في وزارة طـاهر يحيى (١٠ تموز ١٩٦٧) حتى

استقال في ١٣ كانون الثاني ١٩٦٨ .

وجدّد انتخابه رئيساً للمجمع العلمي العراقي للمرة الثالثة في تشرين الاول ١٩٧٢ .

مؤلفاته وأدبه :

للدكتور عبد الرزاق محيي الدين مؤلفات عـديدة، منها : ابوحيّان التوحيدي (رسالة الماجستير إلى جـامعـة القـاهرة) (١٩٤٩) أدب الشريف المرتضـى (رسالـة الـدكتـوراه ١٩٥٧) ديوان شعر(مخطوط) خواطر وملاحظات في التعليم العالي، من أجل الإنسان في العـراق (١٩٦٠ رسالـة)، الخ . شعب أصيل ومبـدأ دخيل (١٩٦٥) . وقـد حقّق ونشر كتاب البصائر والذخائر لأبي حيّان التوحيـدي، والمقابسات (له ايضاً)، والوجيز في تفسير القرآن العزيز. وألف بالاشتراك مع أساتذة آخرين كتباً مدرسية منها : المطالعة العربية (في جزءين) وتاريخ الأدب العربي .

وعبد الرزاق محيـي الدين شاعر اشتهـر موشّحه في لاعب كرة السلـة، وقد ترجمه الى اللغة الانكليـزية ديزمـوند ستيوارت وجون هـايلوك المدرّسان في بغـداد ونشر في كتابهما «بابل الجديدة» (١٩٥٦) .

يقول في هذا الموشح :

يـــا حبيب النفس في خلــــوتها — وسميري في ليــــالي السمــــر
إنّ يـــومــاً لم أشـــاهــدك بـــه — لم أكـن أحسبـــه مـن عمــــري
وصبــاحـــاً لم أطـــالعك بــــه — يتســاوى والـــدجى في نظـــري
وطــــريقـــاً لم أصــادفـك بـــه — غـــالطت رجـــلاي فيـــه بصري . . .

كـــــرة السّلـــــة لا تلعب بها — هـــاك قلبي كـــرة بين يـــديك
واتّئـد بــالـركـض، هــذي مهجتي — علقـت أطـــرافهـــا في قــدميك،
وتـــرنّـم بـأنـــاشيـــد الهوى — فعليّ النظــم واللحـــن عليـــك
أنـــا أستــاذك فــاحفـظ حـرمتي — أو سأشكـــو منك يـــا هـــذا إليك

قـد قضيت العمــر بــالـدرس، فما — نفـع العلم ولا أجــــدى الكتـــاب
ان خيراً مـن أمــــور كلهــــا — ســـاعـــة بين نـــديمي والشراب
خلِّ عنـك الــدرس، لا تحفـل بـــه، — واغتنـم عيشـك في ظـلّ الشبـــاب
حلم دنيـــاك، فــاجهـــد أن تـرى — حلـم اللّـــــذة لا حلـم السّراب

التــــلاميـــــذ على غــــرّتهم　　عــرفـــوا سرّي، وهل يخفى الغـــرام؟
فمـن الهمس حــــوار صـــامت　　وعلى الألحاظ نجـــوى ومـــلام
ومـن الأطفـــال ضحك خـــافت　　ومـن الشبّـــان غمـــز وكـــلام
ومتى قلـتُ: ســلامـــاً، هتفـــوا:　　وعلى الاستـــاذ والحبّ الســـلام

ومن شعره في رثاء الملك حسين الهاشمي:

مـا على الشـاعـر لـو عـزّ البيـان،　　سكت القـلب فمـا يقـوى اللّسـاد
نبأ هـــزّ البرايـــا وقعـــه　　وعلى السّلـك تجلّى الخفقــــان
أمـل الأمـــة أودى وهـــوى　　بيتهـــا الشــامخ وانحطّ الكيــان
رجـل كـــان كـألـف، رأيــــه　　ينظـــر الغيـب كما شـــاء العيـــان

وقال في ذكرى الفيلسوف محمد اقبال:

ذكـــراك، إقبـــال، نحييهـــا فتحيينـــا　　كـآيـة الـذكـر نتلـوهـا فتهـديـنـا
أهـاب بي منك روح فـاستجـاب لـه　　روح أبى القـول في مجبـولـةٍ طينـا
لم يكفهـم أن هبطنـــا الأرض دانيـــة　　حتى هبطنـــا بهم من أرضنـــا دونـــا
مــا كـــان ابليس، إذ ولّى بـوالــدهم،　　أشـــدّ منهم إلى أبنـــائه هُـــونـــا

وقال في تكريم خليل مطران:

سل عـن الشـاعــر أو خـذه مثـالا　　تغنِ عـن شعب جـــوابـاً وسـؤالا
تلتقـي الآفـــاق في أبعـــاده　　وهـــو دون العين مــرأىً ومنـــالا
ضلّـت الألبـــاب عـن إدراكـــه　　ومضـت تخبط رشـــداً وضـــلالا
ليـس تــدري أيّـــة تنسبـــه:　　أمـــلاك حطّ أم جنّ تعـــالى؟
وبماذا تتحــــــــامـى شرّه　　وتـــرجّى الخير منـــه والنّـــوالا

وقال في وظيفة الشعر، وهي من بواكير نظمه:

إذا الشعـــر لم يحدث بشعبـك ضجّـــة　　فتلـك قـــوافٍ قـــد نظمـن وأوزان
وإن لم يكن حـرّ العقيـدة، مـوقظـاً،　　فليس لـــه في نهضـة الشعب إحســان

بقي عبد الـرزاق محيي الدين رئيسـاً للمجمع العلمي العراقـي إلى أيار ١٩٧٩ حين أعيد تأليف المجمع وأنهيت عضويته.

وتوفي في بغداد في اواخر سنة ١٩٨٣.

نظم قصيدة في تأبين طه حسين مطلعها:

حيّ مع النـــاس أحيـــاءً بما شعـــروا، لا الـــرأي يبلى ولا ذو الـــرأي ينـــدثـــر

عبد الفتاح إبراهيم

الكاتب الحرّ المناضل عبد الفتاح ابراهيم عبد الفتاح آل وريّد، ابن عم رائد القصة محمود أحمد السيّد.

ولد ببغـداد سنة ١٩٠٤، وكان أبـوه وجدّه من أئمّـة المساجد. وقـد أتم دراسته في الجامعة الاميركيـة ببيروت، فلمّا عاد إلى مسقط رأسـه عيّن مدرّسـاً في المدارس الثانـوية الرسمية (ايلول ١٩٢٨). ثم أتمّ دراسته في الولايات المتحدة.

وكان بعد ذلك مترجماً في دائرة ميناء البصرة فوزارة العدلية في بغداد (١٩٣٢). وعاد إلى التدريس، وأصدر مع نفر من الشباب المثقف مجلة العصر الحديث (١٩٣٦). ثم عيّن استـاذاً مساعـداً في دار المعلمين العـالية (ايلـول ١٩٤٠) فمفتشـاً بوزارة المعـارف (نيسان ١٩٤٣).

واستقـال من الوظيفـة في السنة التـاليـة فأسس شركة الـرابطة للطبع والنشر وتـولّى إدارتها. وأصدر مجلـة الرابطـة (آذار ١٩٤٤)، مجلة نصف شهـرية لمكـافحة النـزعات الرجعية وبثّ الثقافة القومية الديمقراطية.

آمن عبـد الفتاح ابـراهيم منذ مطلع شبـابـه بالآراء التقـدمية والأفكـار الحرة فكتب وناضل في سبيل مبادئه، وكان في مقدمـة كتاب جريدة الأهالي. وكتب يقول: «يجب على المجتمع الذي يـريد أن يحفظ كيانـه أن يسيطر على الشؤون الاقتصاديـة ولا يجعلها أداة لفئة ضئيلة تسخّر المجموع لمنفعتها». ودعا إلى تأميم الاقتصاد ووضعه بيد الدولة.

ولما وضعت الحرب العـالميـة الثانيـة أوزارهـا، انطلق من قيـد الوظيفـة لينصرف إلى العمل السيـاسي. وألف في نيسان ١٩٤٦ حـزب الاتحاد الوطني واختير رئيسـاً للجنته السياسية. واتخذ جريدة الرأي العام (لصاحبها محمد مهدي الجواهري) لساناً للحزب، ثم أصدر جريدة السياسة (حزيران ١٩٤٦) فجريدة صوت السياسة.

وحلّ الحزب بعد أمـد قصير (ايلول ١٩٤٧)، فواصـل عبد الفتاح جهـاده وتعرّض للمضايقة والاضطهاد.

ونشبت ثورة تموز ١٩٥٨ فعيّن مديـراً عاماً لمصلحة مصـافي النفط الحكومية في آذار ١٩٥٩ حتى اعتـزل منصبه في آذار ١٩٦١، وغـادر العراق فلم يعـد إليه إلّا بعـد عدة أعوام.

وضع مؤلفات كثيرة، منها: على طريق الهند (١٩٣٢) مقدّمة في الاجتماع (١٩٣٩) كلمة في وجهـة المجتمع بعد الحرب (١٩٤٢) مشكلة التموين (١٩٤٢) وحـدة الحركة

الديمقراطية (١٩٤٦) دراسات في الاجتماع (١٩٥٠) معنى الثورة (١٩٥٩) قصة النفط (١٩٦٠) الخ . . .

محمود فهمي درويش

محمود فهمي بن محمد درويش آل عزيز، ولد ببغداد سنة ١٩٠٥ ودرس في مدرسة الصيدلة، وتخرّج في دار المعلمين الابتدائية (١٩٢٦). وأنشأ مختبراً كيماوياً، وعمل مدرساً في بغداد والبصرة، ثم كان مديراً للمدرسة الحسينية الأهلية (١٩٢٩ ـ ٣٠).

واشترك في إصدار الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ وتولّى رئاسة تحريره. ثم عيّن ملاحظاً في دائرة الزراعة (١٩٣٦)، وظلّ يعمل في تلك الدائرة، التي أصبحت بعد ذلك مديرية عامة فوزارة، نحواً من ٢٢ سنة. وأشرف على إصدار مجلة الزراعة أعواماً طويلة وأصبح مديراً للمطبوعات الفنيّة والنشر في ديوان الوزارة حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٥٨ . واشترك مع الدكتورين مصطفى جواد وأحمد سوسة في إصدار دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ .

وقد تولّى تحرير مجلة الاتحاد سنة ١٩٣٤ ، وكتب مقالات أدبية وبحوثاً علمية كثيرة في الصحف والمجلات. وألف كتباً مدرسية ومصنّفات أخرى، منها: كارثة فلسطين (طبع سنة ١٩٤٩)، لمع وأقباس (مخطوط في جزءين) الكيمياء العربية، بين آطام مكة ووادي يثرب، الخ .

وتوفي ببغداد في ٦ شباط ١٩٦٢ ، فكتبت الكلمة الآتية في رثائه :

كلمة وداع

إلى المرحوم محمود فهمي درويش :

لقد آلمني حقاً وأحزنني وحزّ في نفسي نعي الصديق الكريم المرحوم الاستاذ محمود فهمي درويش ـ ذلك الأخ الوفي الذي نعمت بصداقته ومودته أكثر من ربع قرن. لقد اشتركنا أول الأمر في إخراج الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ الذي أصدره التاجر المعروف السيد الياهو دنكور، فكان محمود فهمي رئيساً لتحرير القسم العربي وكنت مدير الدليل والمشرف على تحرير القسم الانكليزي. وبوسعي أن أقول إن ذلك الدليل كان بجزءيه الضخمين العربي والانكليزي خير دعاية لبلاد الرافدين في تاريخها الحديث. فلما اضطلع المرحوم محمود مع الصديقين الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسه بإصدار دليل الجمهورية العراقية الجديد لسنة ١٩٦٠ سألني أن أكتب

مبحث ـ التجارة العراقية ـ ، وكنت آنئذ في شغل شاغل فاعتذرت، لكنه رحمه الله ألحّ والحف قائلاً: لا أحب أن يخلو الدليل الجديد من أثرك بعد أن اشتركنا في إصدار الدليل الأول وكذلك فعلت، فخرج دليل الجمهورية العراقية يضم بحثاً لي كما أراد.

كان المرحوم محمود فهمي درويش محدثاً لبقاً وكاتباً ألمعياً وخطيباً مفوهاً، وكان إلى ذلك صديقاً محباً مخلصاً. وكانت له هوايات عديدة من التقويم والفلك إلى الكيمياء والزراعة. وقد خدم في وظائف الزراعة مذ كانت مديرية إلى أن أصبحت وزارة نحواً من ربع قرن، وعمل قبل ذلك في مسلك التربية والتعليم والصحافة، فكان مثال العامل النشيط والموظف النزيه الجاد. واخرج مجلة الزراعة وتولى تحريرها عدة سنين وجعل منها مجلة علمية راقية.

كان كما قلت محدثاً لبقاً، أنيس المحضر لطيف المخبر، يحفظ النوادر واللطائف الكثيرة، ويرويها بأسلوب ساحر وبيان زاخر. فكنت كلما ضاق الصدر بأعباء الحياة أسأله أن يروي أحاديثه، فلا نلبث أن ننسى متاعب الدنيا وننطلق إلى عالم فياض بالمسرة والحبور.

وكانت دماثه خلقه وطيب سريرته وطلاوة حديثه تحببه إلى النفوس، فكانت دائرة اصدقائه واسعة تضم مختلف الطبقات والبيئات، فيهم المثقفون والعوام والموظفون والكسبة ورجال العلم والعمل يكلم كل واحد بلسانه ويحتفل بالكبير والصغير والجليل والوضيع على حد سواء، فلا عجب أن أسف الجميع لمرضه وجزعوا لفقده وخرجوا لتشييعه إلى مقره الاخير وكلهم عيون دامعة وقلوب واجمة واجفة.

أكب في سنواته الاخيرة على القراءة والكتابة ووصل الليل بالنهار لاخراج دليل الجمهورية العراقية حتى كف بصره واشتدت عليه وطأة الامراض، فكان آخر العهد به طريح الفراش متجلداً معتصماً بالصبر لا يبصر ولا يتحرك فلم يبق منه إلا اللسان والجنان.

لقد توفاه الله صبيحة السادس من شهر شباط ١٩٦٢ . ومن الغريب أن في نفس اليوم السادس من شهر شباط قبل عام واحد قرر مجلس الوزراء الغاء أمر احالته على التقاعد وان يعاد إلى الوظيفة بعد أن يبل من مرضه، فيا لسخرية الاقدار!

كم من أخ لي صالح	بوّأته بيديّ لحدا
ما إن جزعت ولا هلعت	ولا يرد بكاي رشدا
ذهب الذين احبهم	وبقيت مثل السيف فردا

***

زارني محمود فهمي درويش يوماً في غرفة التجارة، وجلس يحتسي القهوة وينظر إلى تاجرين كبيرين كانا عندي يتحاوران.

قال الأول: لم تدفع، يا جلبي، ثمن الحنطة التي تسلمتها في الاسبوع الماضي.

فأخرج الثاني دفتر الصكوك وكتب لأمر الاول صكاً ناوله إياه قائلاً:

لم يفرغ الكاتب من تدقيق الحساب، فخذ عشرة آلاف دينار سلفاً ريثما يتم التدقيق.

لكن الأول رفض الصك وقال: ماذا أعمل بعشرة آلاف دينار؟ استبقها لديك وعجّل بالتدقيق والدفع!

وظل الصك بمبلغ عشرة آلاف دينار يرمى من يد إلى يد، ومحمود فهمي يتبعه بنظراته، وقد اتسعت حدقة عينه وقام بحركات مضحكة بيديه وكأنها حركات لا إرادية. ومدّ يده إلى جيبه فأخرج درهمين أو ثلاثة وعرضها علي من طرف خفيّ وهو يقول هامساً: لا حول ولا قوّة إلا بالله، الحمد لله، الحمد لله! وكان التاجران الكبيران في شغل عنه، ثم انتهى الحوار بينهما بأن مزّقا الصك وسلّما وخرجا.

فصاح محمود فهمي درويش: هل تريد سفك دمي؟ هل ترغب في إثارتي وتحطيم أعصابي؟ تدعوني إلى زيارتك في مركز المال والأعمال، وفي جيبي دراهم معدودة، فتريني السيارات الفارهة في الباب وذوي الجاه والثروة بملابسهم الانيقة يرمون آلاف الدنانير في أيدي بعضهم فيردّها مستصغراً مشمئزاً... والله لقد صممت أن أمدّ يدي بغير وعي فأقبض على الصك الطائر وأفرّ به، وليكن بعد ذلك ما يكون!...

ثم أطلق ضحكة عريضة وقال: لا بأس، نحن في غنى عن كلّ هذه الثروة، فليذهبوا بها وليتركوا لنا راحة بالنا وصفاء نفوسنا.

كلانا غنيّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

ولا أدري كيف مرّت بخاطري أبيات الشاعر المصري محمد حفني ناصف:

أتقضي معي، إن حان حَيْني، تجاربي وما نلتها إلا بطول عنائي؟
ويحزنني ألاّ أرى لي حيلة لإعطائها من يستحقّ عطائي
إذا ورّث المُثرون أبناءهم غنى وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء!

***

قال لي محمود فهمي درويش ذات يوم: أتذهب إلى مجلس الحاج ص. خ.؟ قلت: نعم. قال: اذن فاصطحبني متى ذهبت إليه لأريه بطاقة ثمينة عثرت عليها بين أوراق والدي رحمه الله.

قلت: حباً وكرامة، ولكن ما هذه البطاقة؟

فأراني دعوة إلى حفلة عقد قران الحاج المومأ إليه، وقد وجهها والده إلى محمد درويش

جاره في محلة باب الشيخ . والحقيقة انها دعوة نادرة ، فهي مكتوبة باليد وعباراتها خليط من التركية والعربية والمجاملات المألوفة في العهد العثماني . وقرأت تاريخها فإذا بها تعود إلى ما قبل نصف قرن أو أكثر.

قلت : لا أرى مناسباً أن تريها للحاج في مجلسه الحافل الذي يؤمّه فريق كبير من أشراف بغداد وتجارها وأدبائها ، فلعله لا يودّ أن يعرف القوم أنه بلغ من العمر عتيّاً .

لكن محمود فهمي ضحك وقال : لا أظن ذلك . وفي اليوم الذي يجلس الحاج لزواره دخلنا مجلسه فإذا به مكتظّ برجال البلد ، ولم تمض برهة من الوقت حتى أخرج محمود فهمي ورقته وقال للحاج : ان والدي كان جاراً وصديقاً حميماً لوالدك عليه الرحمة والرضوان .

قال : لا شك في ذلك ، وكنت أرى والدك يزور والدي دائماً في دارنا القديمة فيتحادثان طويلاً .

قال محمود : وجدت هذه البطاقة بين أوراق والدي ، وهي دعوة إلى عقد قرانك المبارك . فأخذ الحاج البطاقة وألقى عليها نظرة ثم وضعها في جيبه .

لكن تحسين علي ، وكان حاضراً في المجلس ، قال : أيها الحاج ، أرينا هذه التحفة الثمينة ، لماذا وضعتها في جيبك؟

وحاول الحاج عبثاً أن يخفي البطاقة ، لكن تحسين علي أخذها وقرأها وقال للحاضرين : لم نكن نعلم ان مضيفنا الكريم قد تزوج قبل أكثر من خمسين سنة . كم كان عمرك يوم تزوجت ، أيها الحاج؟ قل لنا بصراحة ولا تكتمنا أمرك .

وبدأت تعليقات الحاضرين ومراجعاتهم ، فقال صاحب المجلس : يا محمود ، جئتنا بعد غياب طويل فأنسنا بمقدمك ، فما لك قد جلبت هذه البطاقة التي أكل الدهر عليها وشرب ، وأظهرت ماكان مكنوناً فجعلتنا أضحوكة المجلس وموضع سخريته ودعابته؟

حدثني محمود فهمي درويش أنه كان مسافراً في بعض أيام الخريف إلى كركوك ، فاستقل القطار في المساء . ولم يصطحب معه سوى حقيبة صغيرة فيها ادوات الحلاقة وسائر الحاجات الآنية لأنه كان ينوي العودة بعد يوم أو يومين . ولم يكد القطار يتحرك حتى تغيّر الجوّ وهبّت موجة من البرد تلسع المسافرين . وقال في نفسه : كيف أقضي هذه الليلة الطويلة في ملابسي الصيفية ولادثار لي يقيني من البرد .

ورأى في هذه الأثناء مسافراً في نفس العربة وإلى جنبه حقيبة كبيرة وسجادتان . وافترش الرجل إحداهما وأدّى الصلاة ، فلما فرغ منها استأذنه محمود في أداء الفريضة على سجادته ، فأذن له . وأخذ محمود يطيل ويكثر من الركعات والسجدات ، والرجل ينظر إليه . ولما استمّر أمداً طويلاً على هذا المنوال ، أشار إليه الرجل بالتوقف وقال له :

حسبك، ان صلاتك مستجابة. فقد ألهمني الله أن أسمح لك باستعارة سجادتي الليلة لتقيك من البرد، ولا بأس من أن تعيدها إليّ صباحاً حين نصل إلى كركوك.

ولم ينتظر محمود، بل أسرع والتفّ بالسجادة ونام نوماً هنيئاً إلى الفجر.

كان محمود فهمي درويش نهماً أكولاً في شبابه يزدرد، حسبما يقول، طعاماً يكفي لعشرات الأشخاص. والغريب انه ظل مع ذلك نحيف الجسم غير مبتلى بالسمنة والترهّل.

حدثني أنه ذهب ذات يوم إلى صاحب مطعم من أصدقائه فقال له: انني اليوم جائع، فبكم تشبعني؟ قال: بدينار واحد. فسلمه محمود الدينار سلفاً وجلس إلى المائدة، فجاء له صاحب المطعم بقائمة الطعام. لكنه لم ينظر إليها بل قال: هات لي الأطعمة الواحد بعد الآخر من الاعلى إلى الاسفل. فلما فرغ من أكل تلك الأطعمة، قال: والآن أعد جلب الأطعمة ولكن من أسفل القائمة إلى اعلاها. فقال صاحب المطعم: ألا تشرب شيئاً من البيرة أو الماء؟ ظناً منه ان الشراب يملأ المعدة فلا يترك فراغاً للطعام. قال محمود: ان من عادتي أن أشرب بعد تناول نصف طعامي.

ـ يا لله، اذن لم تبلغ منتصف الطعام حتى الآن! فهذا دينارك خذه، وما أكلته صحة وعافية واذهب إلى سبيلك،

وكنّا في حفلة أقامتها السفارة الوطنية الصينية في بعض أمسية الصيف ومدّت فيها الموائد الحافلة بأنواع الطعام والشراب والفاكهة والحلوى في الحديقة. ولما حلّ الظلام أطفئت الأنوار وعرضت الرقوق السينمائية، بينما المدعوون يتناولون ما لذّ وطاب من المأكولات. ورأيت محمود فهمي يفرغ صحناً بعد صحن ويأكل اللحم والدجاج والحلوى والفاكهة معاً بلا فاصلة. فما انتهى العرض السينمائي وأشعل النور الكهربائي، حتى أخذ بيدي وقام يجرّني لنذهب إلى مكان آخر. والتفتّ فرأيت في وسط الخوان جزيرة كبيرة فيها الصحون الفارغة، بل صحراءغامرة في وسط بلدة عامرة.

لكنه صار في كهولته يكتفي بالقليل من الطعام خلافاً لما كان عليه من قبل.

كوركيس عوّاد

البحاثة المحقّق. من أبصر الناس بالكتب والمخطوطات، كوركيس حنّا عوّاد، كان أبوه حنّا الياس مراد بارعاً في صنع الآلات الموسيقية ولا سيّما العود، وقد درس الألحان وتفنّن فيها.

ولد في الموصل في ٩ تشرين الأول ١٩٠٨، ودرس في دار المعلمين الابتدائية ببغداد وعيّن معلماً في ايلول ١٩٢٦.

وتولّى إدارة مكتبة المتحف العراقي سنة ١٩٣٨ عند تأسيسها بصفة ملاحظ أولاً ومدير بعد ذلك (١٩٥٢). فقام بشؤونها أكثر من ربع قرن حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٦٤.

وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٤٧ والمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣.

لازم الأب انستاس ماري الكرملي أعواماً طويلة وأفاد منه في البحث والتحقيق. وسافر إلى أوروبا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بمهام تتعلق بتدقيق المخطوطات وزيارة المكتبات، وحضر مؤتمرات ثقافية وأدبية متعدّدة.

من مؤلفاته: دير الربان هرمزد (١٩٣٤)، تحقيقات بلدانية تاريخية أثرية في شرق الموصل (١٩٦١) خزائن الكتب القديمة في العراق (١٩٤٨) المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين (١٩٦٥) جمهرة المراجع البغدادية (١٩٦٢) جولة في دور الكتب الأميركية (١٩٥١)، فهرست مخطوطات مكتبة المتحف العراقي، المدرسة المستنصرية ببغداد (١٩٤٥) الدار المعزّية ببغداد (١٩٥٤) مكتبة المتحف العراقي في ماضيها وحاضرها (١٩٥٥) ما طبع عن بلدان العراق باللغة العربية (١٩٥٣ ـ ٥٤) الاسطرلاب (١٩٥٧) الورق أو الكاغد (١٩٤٨)، ما سلم من تواريخ البلدان العراقية (١٩٤٤)، مكتبة الاسكندرية: تأسيسها واحراقها (١٩٥٥) يعقوب بن اسحٰق الكندي (١٩٦٢) الآثار المخطوطة والمطبوعة في الفولكلور العراقي (١٩٦٣) الأب انستاس ماري الكرملي: حياته ومؤلفاته (١٩٦٦) فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس (١٩٦٦) أصول أسماء المواضع العراقية (١٩٦٧) مدينة الموصل (١٩٥٩) معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء، ١٩٦٩) سيبويه إمام النحاة (١٩٧٨) أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم (١٩٨٢) أشتات لغوية (١٩٩٠) فهارس المخطوطات العربية في العالم (مجلدان، ١٩٨٤) مصادر دراسة التراث العسكري عند العرب (ثلاثة أجزاء) الخ.

وقد انتخب عضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني (١٩٨٠) وعضواً مؤازراً في المجمع العلمي الهندي.

وقد اشترك في ترجمة كتاب بلدان الخلافة الشرقية (١٩٥٤) والعراق في القرن السابع عشر كما رآه تافرنيه (١٩٤٤). وحقق ونشر كتباً منها: الديارات للشابشتي (١٩٥١) كتاب التفّاحة (في النحو ١٩٦٥)، رسائل أحمد تيمور إلى الأب انستاس الكرملي (مع أخيه ميخائيل عواد، ١٩٤٧)، تاريخ واسط للرزّاز (١٩٦٧) الخ.

أخوه: ميخائيل حنّا عوّاد، بحاثة محقق ثقة، لد في الموصل في ١٢ شباط ١٩١٢ ودرس بدار المعلمين الابتدائية في بغداد وتخرج سنة ١٩٣١ واحترف التعليم. وعيّن

ملاحظاً للمكتب الخاص بوزارة المعارف (١٩٤٤) فمديراً له، فظلّ يشغل هذه الوظيفة أكثر من ربع قرن حتى اعتزل الخدمة في أيار ١٩٧٠.

وقد كتب مقالات وبحوثاً كثيرة. من مؤلفاته:

رسائل أحمد تيمور إلى الأب انستاس الكرملي (حققه بالإشتراك مع أخيه كوركيس عواد، ١٩٤٧)، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية (بالاشتراك مع كوركيس عواد)، دير قُنَّى في العراق (١٩٣٩).

المآصر في بلاد الروم والإسلام (١٩٤٨) صناعة الزجاج والبلّور (١٩٦٢) صناعة الصفر (١٩٦٢) ألف ليلة وليلة (١٩٦٢) أقسام ضائعة من كتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابىء (١٩٤٨).

وقد حقق ونشر كتاب رسوم دار الخلافة للصابىء (١٩٦٤) ونصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري (١٩٦٤).

فصل من كتاب: فضائل بغداد العراق (١٩٤٧)الخ.

أعيد تعيين كوركيس عوّاد عضواً بالمجمع العلمي العراقي لدى اعادة تأليفه في أيار ١٩٧٩. وألف مع أخيه ميخائيل «رائد الدراسة عن المتنبي» (١٩٨٠).

وقد توفّي كوركيس في بغداد بعد مرض طويل في ١٧ تموز ١٩٩٢.

وعين ميخائيل عوّاد عضواً بالمجمع العلمي السرياني المشكل في بغداد. وقد أدمج المجمعان الكردي والسرياني بعد ذلك بالمجمع العلمي العراقي. ووضع ميخائيل «مخطوطات المجمع العلمي العراقي» (٣ أجزاء، ١٩٨٣).

محمود أحمد السيّد

رائد القصة العراقية محمود أحمد السيّد آل المدرّس، وهو محمود بن السيد أحمد بن عبد الفتاح بن عبد الحميد بن ابراهيم آل وريّد، ينتمي إلى أسرة دينية. كان أبوه مدرساً بجامع الحيدر خانة واماماً لجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وكان جدّه من رجال الدين أيضاً. أما عمّه عبد الرحمن المعروف بالجلجلوتي (١٨٤٥ - ١٩٢٧) فقد كان طرازاً خاصاً في رجال الدين وتولّى الافتاء في المنتفق والحيّ.

ولد محمود أحمد في بغداد في ١٤ آذار ١٩٠٣ ونشأ في جوّ ديني وغمرته الكآبة منذ سنّ الطفولة، فعلت وجهه، كما قال جعفر الخليلي في كتاب «القصة العراقية قديماً وحديثاً»، مسحة من الأسى والتأمل، وغلب عليه الهم والتشاؤم، وجاءت قصصه بعد ذلك حزينة في مضمونها وعنوانها، كمصير الضعفاء والنكبات والقلم المكسور والصحيفة السوداء، تترك في نفس القارىء أثراً لا يمحى من تجهّم الحياة وقسوتها.

وقد درس في المدرسة السلطانية ، حتى إذا ما احتل الانكليز بغداد سنة ١٩١٧ افتتحوا دورة للهندسة اشترك فيها فتانا .

وتخرّج سنة ١٩١٨ فعيّن موظفاً في دائرة الريّ بالهنديّة . لكنه لم يلبث ان ترك عمله بعد أشهر وسافر إلى الهند (١٩١٩)، وأمضى فيها سنة واحدة .

عاد محمود أحمد إلى بغداد في تموز ١٩٢٠ وأخذ بالكتابة في جريدة الشرق . ثم أقبل على تحرير المقالات والنبذ والقصص ، ونشر كتاباته في الصحف كجريدة العراق والعالم العربي والاستقلال ومجلة اليقين والمصباح والصحيفة والمعرض والحديث والحاصد الخ . وعيّن كاتبا في وزارة الداخلية (كانون الأول ١٩٢٠)، ونقل مديراً لتحرير لواء الديوانية (تشرين الثاني ١٩٢٣) . وعاد إلى بغداد مديراً للتحرير في أمانة العاصمة في ايلول ١٩٢٦ .

وأصبح بعد ذلك سكرتيراً للبلديات في وزارة الداخلية (حزيران ١٩٣١) فسكرتيراً لمجلس النواب (آذار ١٩٣٣) حتى وفاته .

وقصد القاهرة للاستشفاء من مرض عضال ألمّ به فتوفّي بها في ١٠ كانون الأول ١٩٣٧ ، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين إلا قليلاً .

مؤلفاته وأدبه :

مال محمود أحمد السيد إلى الأدب يافعاً، وكان لسفره إلى الهند أثر بليغ في نفسه ، إذ اطّلع على أحوال وأفكار جديدة . وعني بالقصة فكان رائدها في العراق في نفس الوقت الذي كان محمود تيمور رائد القصة في مصر. وأولع بالأدب التركي الحديث ، فترجم إلى العربية قصص جلال نوري وأرجمند أكرم آل رجائي وضياء كوك آلب وغيرهم ، وتأثر بآراء أدباء تركية المجدّدين .

جمع أقاصيصه وكتاباته في مجموعات : في سبيل الزواج (١٩٢١) مصير الضعفاء (١٩٢٢) النكبات (١٩٢٢) السّهام المتقابلة (مع عوني بكر صدقي ، ١٩٢٢) هياكل الجهل (١٩٢٣) القلم المكسور (١٩٢٣) جلال خالد (١٩٢٨) الطلائع (١٩٢٩) في ساع من الزمن (١٩٣٥) . وله آثار أخرى نشرت في الصحف والمجلات منها : «عندما تغرب الشمس» وسواها من القصص المنقولة عن اللغة التركية .

ان قصص محمود أحمد تزخر بالمعاني الإنسانية والصور الاجتماعية وتدعو إلى النهضة والإصلاح . ومذهبة في القصة المذهب الواقعي الذي يسلّط الضوء على المجتمع العراقي في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين ، ذلك المجتمع الذي يمّر بطور الانتقال والتحوّل ويضيق بالتناقضات والترسبّات القديمة ويقرن التحفزّ والجرأة وعدم المبالاة بالتحفظ والانجماد والتمّسك بأهداب التقاليد والشناشن البالية .

وقد كتب في ترجمة خطيّة له قبيل وفاته يقول عن نفسه: «اشتغل منذ عام ١٩٢٠ بالأدب غاوياً في أوقات فراغه، لا محترفاً، وسعى في سبيل تكوين النثر القصصي في العراق... وهو يعتقد بأن الجمع بين الأدب والوظيفة مستحيل فيه التجويد والتبريز... ويشتغل بتأليف مجموع صور عراقية بعنوان «الدفتر الأزرق»، لاهياً عابثاً، متمنياً أن لا تدركه حرفة الأدب في هذا الزمن، في هذا البلد، لأنه لم يعتزم بعد الانتحار جوعاً والموت في ظلام الزراية والإهمال».

قالت مجلة «الصباح» القاهرية في عددها المؤرخ في ٢٤ كانون الأول ١٩٣٧: «... وقد بدأ حياته الأدبية برواية «جلال خالد» التي قدّمها إلى «فتية العراق التي نريدها على الجهاد في سبيل الحرية والحقّ». واستند في تدوين وقائعها إلى شبه مذكرات شخصية، وبالطريقة نفسها التي استند إليها أستاذه الكاتب الهندي ف. سوامي (كذا) في معالجة قصصه.

«والحق ان «جلال خالد» هي عبارة عن موجز من حياة المرحوم السيّد وسياحته في الهند وبلاد الشرق، وفيها استعراض قيّم لحوادث العراق السياسية في غضون الاحتلال البريطاني وأثناء شبوب الثورة وحماسة الشباب في رفع راية الجهاد. وتلمح بين سطورها أحاديث طليّة عن مميّزات الأدباء الأتراك الذين تتلمذ لهم المؤلف، كعبد الحقّ حامد بك شاعر تركية القومي وجماعة «ثروت فنون»...»

وقال محمود العبطة في كتابه «محمود أحمد السيّد» (١٩٦١): «ومحمود أحمد السيّد، بما صوّرنا من ملامحه المستخلصة من ملامح عصره المأزوم وجيله القلق، قد بين رأيه في المشاكل والمواقف والأزمات الدائرة في محيطه والماثلة أمامه والشاخصة في بلده، بياناً قد لازم حياته وتطوّره الفكري ونموّ مواهبه. وقد كان الطابع العام للعراق وللبلاد العربية بين انتهاء الحرب الاولى ونهاية الحرب الثانية ينحاز بلون رومانتيكي، يتغنى بالحرية والانطلاق ويتعشق المثل وتهزه الأخيلة والألوان وتسيّره العاطفة والأحاسيس... وكنتيجة لميلاد الواقعية من الرومانتيكية رغم التضادّ الذي يعتقد بوجوده بين الواقعية والرومانتيكية، فإنّ الدعوة إلى الأدب الواقعي بدأت في الظهور في العراق بصورة مبكّرة... ولا حاجة للقول كون السيّد من أول الدعاة إلى الواقعية الاجتماعية البدائية...»

وقال الدكتور علي جواد الطاهر في خاتمة كتابه «محمود أحمد السيّد: رائد القصة الحديثة في العراق» (١٩٦٩): «كان محمود أحمد منصرفاً إلى الأدب، كأنه لا يستطيع الحياة دونه، ولا يستطيع أن يعيش من غير أن يقرأ ويناقش ويكتب، فهو وجوده وهو مثله الاعلى. وإذا ادّعى أحياناً أنه هاو، فإنّ ذلك تواضع وقول تمليه ظروف طارئة، فيما هكذا يكون «الهاوي». ومن شأن الهاوي أن يستمتع أو يقلد دون أن ينتج أو يبدع، والإنتاج والإبداع وليدا الجدّ والمثابرة والطماح والموهبة..»

ثم يضيف قائلاً: «ان قارئه لا يحسّ بالتناقض كثيراً، وانه، بعد أن يودّع المرحلة

الأولى من حياة الكاتب، يكاد يراه منسجماً في دعوته إلى التجديد والتطور وفي تبنيه الأفكار الحديثة وفي حماسته إلى الاصلاح الـلاجتماعي، فهو «كاتب شعبي»، حتى قال يوماً: «نحن الشعب» وهو كاتب مبكر في خدمة الشعب والعمل على الارتقاء به إلى مصافّ البشر.

«ولو انسجم محمود أحمد تمام الانسجام مع آرائه ولم يبد عليه تناقض بين القول والعمل، لكان توفيقه كبيراً في الأنواع الأدبية التي زاولها، أكبر كثيراً مما حقق وبات فيه أهلاً للاعجاب والتقدير.

«ويمكن أن يعزى التجويد ـ فيما جوّد فيه ـ إلى أنه كان يكتب بعد أن تختمر الفكرة في نفسه وفي لحظات ينفصل بها، أو يكاد، عمّا يحيطه أو عما يكون له من رأي مناقض أو عمل مخالف أو راسب عتيق..»

وما أصحّ الحكم الذي خرج به علي جواد الطاهر من دراسته الشاملة لسيرة محمود أحمد السيّد وأدبه، إذ قال: «كان محمود أحمد قصة لم تتمّ ورائداً جديراً بالريادة».

ذنّون أيوب

الأديب القصصي ذو النون عبد الوهاب بن الحاج أيوب العبد الواحد ولد بالموصل سنة ١٩٠٨، وتخرّج في دار المعلمين العالية في بغداد سنة ١٩٢٩، وعيّن مدرّساً للرياضيات والفيزياء في المدارس الثانوية.

وقد استمّر على التدريس في الموصل وبغداد، وكان مديراً لمعهد الفنون الجميلة. واعتقل في أيار ١٩٤٣ إثر مظاهرات حدثت في بغداد، ثم أطلق سراحه بعد أمد وجيز. وانتخب نائباً عن الموصل في تموز ١٩٥٤، لكنّ المجلس حلّ فوراً.

مال الى الأدب وهو شاب يافع، واشترك في تحرير مجلة «المجلة» التي أصدرها عبد الحق فاضل في الموصل سنة ١٩٣٨ وتولّى شؤونها بعد ذلك يوسف الحاج الياس. وكتب القصة يعالج فيها مشاكل العراق وشعبه وبؤس الكادح والفلاح. ونقم عليه رجال الحكم، فترك العراق وأقام في فيينّا عاصمة النمسا (١٩٥٥). وعاد الى بغداد سنة ١٩٥٧، فأصدر مجموعتين قصصيّتين، ثم قفل راجعاً الى النمسا.

وجاء الى بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨، فعيّن مديراً عاماً للإرشاد والإذاعة (آذار ١٩٥٩). لكنه شغل هذا المنصب أمداً قصيراً ونقل مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون (آب ١٩٥٩)، فملحقاً ثقافياً في براغ (١٩٦٠). واعتزل الوظيفة بعد ذلك وسكن فيينّا منذ سنة ١٩٦٣.

وقد حوكم غيابياً في نيسان ١٩٦٤ أمام محكمة الثورة بعد سقوط العهد القاسمي

فقيل أنه لم يكن شيوعياً ولا ديمقراطياً بل انتهازياً.

وتوفي ذو النون في فيينّا في النصف الثاني من سنة ١٩٨٨ وترك مذكّرات.

أصدر ذنون أيوب مجموعات قصصيّة: رسل الثقافة (١٩٣٧) الضحايا (١٩٣٨) صديقي (١٩٣٨) وحي الفنّ (١٩٣٨) الكادحون (١٩٣٩) برج بابل (١٩٣٩) العقل في محنته (١٩٤٠) حمّيات (١٩٤١) الكارثة الشاملة (١٩٤٤) عظمة فارغة (١٩٤٨) قلوب ظمأى (١٩٥٠) صور شتّى (١٩٥٤) قصص من فيينّا (١٩٥٧). ووضع عدا ذلك قصصاً طويلة: الدكتور إبراهيم (١٩٣٩) اليد والأرض والماء (١٩٤٨) الرسائل المنسيّة (١٩٥٧). وترجم رواية الآباء والبنين لتورغنيف، بالاشتراك مع الدكتور أكرم فاضل (١٩٥٠)، وأسد الفلاندر، الخ.

وألف أيضاً: إنهيار فرنسة (١٩٤٢) برابرة سائبون (١٩٤٢) جمهورية ١٤ تموز في العراق (١٩٦٢) مختارات من روائع الأدب العالمي (١٩٥٨) وعلى الأرض السلام (رواية، ١٩٧٢).

قال الدكتور أكرم فاضل في تقييم أدب ذنّون أيوب «... إنه سجّل تاريخ العراق السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي في قصصه بأسلوب يطمع في محاكاته كلّ أحد دون أن يناله أحد. وقد خبر الكاتب الحياة خبراً عميقاً قلّ أن يتاح لسواه، أو قلّ أن ينفذ سواه الى أعماق هذه الحياة...» ثم يقول: «وليس المهم أن يكون قد ارتطم بخضمّ كل هذه الرزايا، ولكن المهم أن المرتطم كان يحسن الانفعال بالحوادث ويتقن التفاعل معها ويبرع في تصويرها، فكان هذا الإنتاج الزاخر الذي يمثّل العراق من كل هذه الجوانب...».

وكتب محمود العبطة: «يقيم الأستاذ ذو النون أيوب حالياً في مدينة فيينّا منذ ثمانية أعوام وحيداً يقاسي آلام الغربة ووحشة البعاد ويتحمل آلام مرض القُلاب الذي يعاوده من حين لآخر. ويمضي ساعاته الرهيبة في الكتابة والمطالعة السريعة. وألف حتى الآن روايتين هما: مسالمون ومعتدون وأبو هريرة وكوجكا. وكَتب دراسات أدبية ــ علمية، وكلها لم تر نور الطبع والنشر حتى الآن...»

وقد أصبح ذو النون أيوب رئيساً للهيئة الإدارية للدار العراقية التي افتتحت في فيينّا في تموز ١٩٧٤ بإشراف السفارة العراقية في عاصمة النمسا.

عاد ذو النون أيوب الى العراق في زيارة سنة ١٩٧٦. وفي السنة التالية أصدرت وزارة الإعلام العراقية المجلّدين الأول والثاني من «الآثار الكاملة لأدب ذي النون أيوب» (١٩٧٧)، وهما يضمّان مجموعة قصصه السابقة.

يوسف يعقوب مسكوني

الباحث المؤرخ يوسف يعقوب مسكوني، ولد في الموصل في ١٦ تشرين الأول ١٩٠٣، وذاق مرارة اليتم طفلاً. وعرف منذ عهد الصبا قسوة الحياة وشظف العيش فنشأ عصامياً لا يعتمد إلا على نفسه، ويرى في الحياة كفاحاً مستمراً وعملاً شاقاً متواصلاً. دأب منذ نعومة أظفاره على الجدّ والجهد، يسهر الليالي في طلب العلم ويقضي نهاره في العمل المفيد.

ولقد طالما حدّثني عمّا تحمله في صباه من عنت ومشقّة، لا سيّما في أثناء الحرب العظمى التي أناخت بكلكلها على البلاد والعباد ومدّت ذراعها الرهيب بالقتل والدّمار. تحمّلت الموصل قسطها الأوفر من الأوصاب والآلام في تلك السنوات العجاف، فقاست الجوع والحرمان، واضطرّ الناس سداً لرمقهم أن يأكلوا الجيفة والقطط والكلاب. وتدفقت جموع القرويّين وأبناء العشائر المشرّدين على المدينة يملأون ساحاتها وشوارعها، ويحملون إليها الأوبئة والأمراض، ويسيرون في طرقاتها أشباحاً حيّة تخفي تحت أسمالها الفاقة والهزال. وامتدّت أيدي نفر من الوحوش البشرية الى سرقة الأطفال وذبحهم وبيع لحومهم طعاماً ممجوجاً على موائد القحط والحقارة. وقد أرغم ذوو الفتى مسكوني على بيع دارهم القديمة الصغيرة ليقتاتوا بثمنها البخس في ذلك العهد المريع.

خرج يوسف مسكوني من تلك المحنة صافي النفس كالذهب الذي مرّ بالبوتقة. وعاد الى مقاعد الدراسة، ثم جاء الى بغداد سنة ١٩٢٣ فانتمى الى دار المعلمين الابتدائية وتخرّج فيها (١٩٢٦). وزاول التعليم في المقدادية والأعظمية والخالص وبغداد، ثم نقل الى وزارة المعارف ملاحظاً للمكتبة (١٩٤٤) فمترجماً للّغة الانكليزية (١٩٤٩). واعتزل الخدمة سنة ١٩٦٣.

تعرّف عند قدومه الى بغداد برجال الأدب واللغة والتاريخ، وفي مقدمتهم مصطفى جواد الذي زامله في مدرسة الخالص. واتصل بالأب أنستاس الكرملي فلازم مجلسه وأفاد منه.

وقد توفّي ببغداد في ١١ نيسان ١٩٧١.

مؤلفاته:

من مؤلفاته: من عبقريات نساء القرن التاسع عشر(١٩٤٦)مدن العراق القديمة (ترجمه عن الإنكليزية، لدوروثي ماكاي(١٩٣٢)شخصيات القدر (بالاشتراك مع الدكتور مصطفى جواد، ١٩٦٣)، الألحان والتراتيل الأرامية والعربية(١٩٦٥)نصارى كسكر وواسط قبيل الاسلام(١٩٦٤)، سبط ابن التعاويذي (١٩٥٩)فتح العرب للصين(مقالة ترجمةعن الدكتور دنلوب، ١٩٦٨).

ومن الكتب التي حققها ونشرها: رسالة في حوادث الجو للكندي (١٩٦٥) رسائل في النحو واللغة (لابن فارس والرماني، بالإشتراك مع الدكتور مصطفى جواد، ١٩٦٩)، كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل لمحمد بن أحمد الوشّاء (١٩٧١) الخ.

وكتب عدا ذلك كتاباً جامعاً عن واسط مدينة الحجّاج ومقالات وبحوثاً كثيرة عن الأدباء والأديبات وأصحاب المقامات ومغنّيات صدر الإسلام الخ. وقد جمع مكتبة خاصة زاخرة بالمطبوعات والمخطوطات اشتراها المتحف العراقي بعد وفاته.

***

عرف يوسف مسكوني بالوداعة وطيبة النفس والسذاجة. ولئن قيل إنّ وراء كل أديب امرأة، لقد كانت وراءه زوجه الفاضلة التي هيّأت له الراحة المنزلية الوفيرة وجعلت من داره ندوة أدبية يحضرها رجال العلم والفضل. وكانت المطارحات والمفاكهات الشعرية والنثرية تدور في ذلك المجلس اللطيف، فممّا قلته فيه:

ذا يوسف فضله قد فاق فائقه	وطيبة النفس زانت ناصع السُّرُرِ
أبدت ظواهره مكنون مخبره	لم يَخْفَ سرّ له في الوِرْد والصَّدرِ
فهو البريء كطفل يوم مولده	وهو الصفيّ الذي يخلو من الكدر
تلك السّذاجة معنى من لطافته	دامت ودام كريماً هانىء العُمُر

وقلت في الأرجوزة المسكونيّة:

أهلاً بمسكوني الصديق الفاضل	زانت حجاه رقة الشمائل
قد أنعم الله عليه نِعما	يشكرها مصلّياً مبتسما
من زوجة كاملة رقيقة	محبّة صافية السّليقة
ثمّ ابنةٍ أديبة مهذّبه	الى القلوب كلّها محبّبه
وستّة من أفضل الأبناء	كالأنجم الزهراء في العلاء
حازوا على الآداب والأخلاق	فهم جميعاً أنفس الأعلاق
حفّوا به، وهو لهم خير أب	متّسم حقاً بفضل الأدب
فهذه توقظه صباحا	تقدّم الماء له قراحا
تأتي له بأطيب الطعام	ناطقة بأعذب الكلام
وذاك يصغي لتلقي أمره	منفّذاً ما يبتغي من فوره
وآخر يلبسه رداءه	مستمعاً في أدب آراءه
وثالث يركبه السيّارة	منتظراً من أمره الإشارة

وتلـك تمضي في انتســـــاخ مـــا كتـب خـــوف الضيـــاعِ لا تبــــالي بـــالتعب

والأمُّ، ذي السيـــــدة الــــوقـــــورة، بـأمــــــره صـــــادعـــــة شكـــــورة

تحفـظ مـن نكـــــــاتــــــــه الكثيرا وتحسـن التبريـــــــــر والتّـــــــدبيرا

تقـــــول: زوجي العــــــالم الأريـب ليس لــــــه في فضلـــــه ضريـب

إذا رأيتـم غفلـــــــة في طبعـــــــه فليس ذاك بـــــدعـــــة في شرعـــه

فـــالعلـم من آفـــاتـــه النّسيـــان وشرطـــه الـــــذهـــــول والإيمان

أروي لكــــــم سراً مـــــن الأسرار مثيلــــــــه لم يأتِ في الأخبـــــــار:

أرسلـــــه صـــــاحبـــــه يخطبني إذا بـــــــه لنفســـــــه يطلبني

قـــــد نسي الطـــــالـب مـــــذ رآني فـــاختـــــارني زوجـــاً لـــــه اجتبـــاني

وكـــــان ذاك القـــــدر المقـــــدّر قـــــد شـــــاءه الله العليـم الأكبر

حمداً لــــــه دومـــــاً على الألطـــاف ودام مسكــــــوني بعــــزّ ضـــافِ

وارتبط يوسف مسكوني في أعوامه الأخيرة بصلة وثيقة بالشاعر حافظ جميل الذي رثاه عند وفاته بقصيدة مؤثّرة تذكّرنـا بمرثية الشريف الرضي للصابىء، بل برثاء أحمد شوقي لحافظ إبراهيم.

قال في مستهلّها:

كم كنت تشفـي جـراحـاتي بلقيـــاكـــا وكم تشهّيت طعم الموت لـــــولاكـــا

كنـت الطبيب لنفسي، لم تجد بـــــدلاً من لطف روحـك في تطبيب مـرضـاكـــا

مـــــا انهلّ دمعي ولم تجهش عليّ بُكـــاً فما أشـــدّك إخــلاصـــاً وأوفـــاكـــا..

وقد روى شـاكر علي التكـريتي أنه قـال ليوسـف مسكوني، إذ رآه رابضـاً في مكتبته يحقق ويدقّق: إن الضـوء غير كافٍ. فأجاب: نعم، ولكن الكلمات المضيئـة وإشراقة الكتب أعتمد عليها قبل نور الكهرباء.

***

رويت نوادر كثيرة عن سذاجـة يوسف مسكوني وذهولـه وشرود ذهنه: من ذلك أنه زار انكلترة مع زوجته وذهبـا الى حديقة الحيوان. ولما تعبت السيّـدة من السير، وزوجها مستمـرّ على التجوال والتطلّع، جلست على أحـد المقاعـد وسألته أن يعـود إليها بعـد حين. ومرّت سـاعة وساعتـان وثلاث، وصاحبنـا لم يعد، فـذهبت السيدة الى مكتب الاستعلامـات ونادوا بـاسمه في مكبّرة الصـوت وطلبوا إليـه المجيء الى المكتب... ولم يجىء.

وقلقت السيدة فعادت الى النُزُل وأفضت بالأمر الى ربّة الدار التي اقترحت إخبار الشرطة. وفي هذه الأثناء حضر مسكوني هاشاً باشاً، مسروراً بجولته الطويلة، غير ملتفت الى القلق الذي استحوذ على قرينته. وقال: يا للغرابة! هل تعلمين أن في لندن رجلاً آخر يحمل اسم «مسكوني» وكان يزور حديقة الحيوانات في نفس الوقت الذي زرناها؟ لقد نادوا اسمه في مكبّرة الصوت، فعجبت وودت لو تعرّفت اليه..

ولم يفطن أنه كان المقصود بالنداء!

من القصص التي تروى عن ذهول مسكوني وغفلته أنه أراد قبل عام من وفاته السفر الى أوروبّة، فكلّم صديقه شاكر علي التكريتي في استصدار جواز سفر. قال الصديق:

هلّم بنا نمضِ الى مدير الدائرة أحمد سامي (أبي عائدة) فتأخذ الجواز المطلوب في لحظات.

قال مسكوني: أبو عائدة، إنني كنت مدرساً لزوجته وهو يعرفني حقّ المعرفة.

ومضيا إليه، فأكرم المدير وفادة مسكوني وذكّره بذكريات الدراسة، ثم أمر بتقديم القهوة وإنجاز معاملة جواز السفر. ولم يمض وقت طويل حتى تسلم يوسف مسكوني جوازه وسلّم على المدير وشكره وخرج مع صديقه.

ولما أصبحا في الرواق التفت مسكوني الى شاكر علي وقال: لقد كمل جواز السفر، ولم تبق لنا حاجة الى معونة أبي عائدة الذي درّست زوجته، ولكن مع ذلك، ما دمنا قد أتينا الى هنا، فلا بأس أن نمرّ به للسلام عليه.

فقال التكريتي متعجبّاً: ولكننا خرجنا من دائرته الآن وهو الذي أنجز لك المعاملة!

قال مسكوني: كنت أظنه مدير جوازات السفر وليس أبا عائدة، فكيف هو هو؟

***

انتقل يوسف مسكوني من داره، لكنه ظلّ بين حين وآخر يعود من دائرته ظهراً الى داره القديمة، ويعجب لوجود أناس غرباء فيها!

وكان راكباً يوماً في سيارة الباص، فصعدت سيّدة وجلست في المقعد الخالي الى جانبه. وغضّ صاحبنا من بصره، لكن السيدة كانت تتقرب منه وهو يبتعد عنها جهده. وأخيراً قالت له: ما لك، يا أبا زهير؟ فنظر إليها متعجباً وقال: أنت هنا، يا أم زهير؟ ماذا جاء بك، وكيف عرفت أنني راكب في هذا الباص فجلست الى جنبي؟

من نوادر يوسف مسكوني أنه نهض ذات صباح وارتدى ملابسه وقام ليذهب الى دائرته فقال لزوجته: أم زهير، إن الحذاء الأيمن يؤلم رجلي فلا أستطيع المشي.

ـ هل تشعر بألم في رجلك؟

ـ كلا، وإنما الحذاء ضيّق جداً يضغط أصابعي.

ـ إن الحذاء لم يصغر ورجلك لم تكبر، فما القضية؟

ـ والعجيب أن الحذاء الأيسر لا يضايقني، بل الأيمن فقط. ومضى يوسف مسكوني الى دائرته وهو يعرج، وعاد بعد الظهر يشكو الضيق والألم.

فلما نزع حذاءه الأيمن وفحصته أم زهير وجدت فيه زوجين من الجوارب وضعت فيه سهواً وكانت مصدر المضايقة!

محمد علي كمال الدين

من رجال التربية والتأليف محمد علي بن عيسى كمال الدين، ولد بالنجف سنة ١٩٠٠، ودرس على والده وغيره من العلماء، وتفرّغ لدراسة العربية والمنطق.

إشترك شاباً في ثورة سنة ١٩٢٠ فكان من محرري جريدة «الاستقلال» و «الفرات». ولما خمد أوار الثورة هرب الى الكويت برفقة أحمد الصافي النجفي وسعد صالح، وعاد الى مسقط رأسه بعد صدور العفو العام. والتحق بدار المعلمين الابتدائية في بغداد (١٩٢١) وعيّن بعد تخرّجه معلماً في المدارس الابتدائية فمدير مدرسة فمدرساً في المدارس الثانوية فملاحظاً لمجلة «المعلم الجديد» حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٥٩. وتوفي ببغداد سنة ١٩٦٦.

من مؤلفاته: سعد صالح (١٩٤٩) ذكرى السيد عيسى آل كمال الدين (١٩٥٧) التطوّر الفكري في العراق (١٩٦٠) تيسير العربية (١٩٦١) معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ (١٩٧١).

ترك مصنّفات مخطوطة منها: النجف في ربع قرن، رحلة الى سورية ولبنان، الخ.

الدكتور عبد الجبّار الجومرد

ولد عبد الجبار الجومرد في الموصل سنة ١٩٠٩، وكان أبوه محمد شيت الجومرد من شعرائها المعروفين في عهده (١٨٥٠ ـ ١٩٢٥). وقد تخرّج بدار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٢٩، ثم التحق بمعهد الحقوق في الشام ونال شهادتها (آب ١٩٣٥). وبعد أن مارس المحاماة سنتين، شد الرحال إلى باريس وواصل دراسته في السوربون واختص بالحقوق الدستورية والإدارية. وعاد إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية، لكنه لم يلبث أن قفل راجعاً إلى فرنسة، وحصل على درجة الدكتوراه في الحقوق (١٩٤١) والدكتوراه في الآداب (١٩٤٤).

وعاد إلى العراق فزاول المحاماة، وعيّن بعد ذلك ملحقاً بالأمانة العامة لجامعة الدول

العربية (١٩٤٦) وانتخب نائباً عن الموصل في مجلس النواب في حزيران ١٩٤٨، وكان عضواً بالوفد العراقي إلى هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩. وقد استقال من النيابة في آذار ١٩٥٠، ثم أعيد انتخابه نائباً عن الموصل في كانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤. وكان من رجال المعارضة في المجلس ومن مؤسّسي الجبهة الشعبية، وعرف بخطبه الوطنية ومواقفه الجريئة الصلبة.

ولما قامت الثورة عيّن وزيراً لخارجية الجمهورية العراقية من ١٤ تموز ١٩٥٨ إلى ٧ شباط ١٩٥٩. واختير عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٦١. وقد سمّي سفيراً في وزارة الخارجية في آذار ١٩٦٣، بيد أنه رفض المنصب.

وضع مؤلفات عديدة منها: الدستور العراقي (باللغة الفرنسية، وهو أطروحته في الحقوق ١٩٤١)، والأصمعي (بالفرنسية أيضاً، وهو أطروحته في الأدب)، مأساة فلسطين العربية (بالفرنسية ١٩٤٥). وألف عدا ذلك باللغة العربية: الأصمعي (١٩٥٥) هارون الرشيد (جزءان ١٩٥٦) يزيد بن مزيد الشيباني غرّة العرب (١٩٦١) داهية العرب أبو جعفر المنصور (١٩٦٣). ووضع تاريخاً للموصل في ٣ أجزاء، و «تاريخ حياتي ١٩١٠ ـ ٧١» (مخطوط).

توفي عبد الجبار الجومرد بالموصل في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧١.

قال الدكتور أكرم فاضل: «كان عبد الجبار وردة شباب الموصل، فهو يلعب كرة القدم بمهارة عجيبة، ويجيد التمثيل، ويبرع في الخطابة، ويحسن الكتابة، ويبدع في الشعر العامي والفصيح، بالإضافة إلى كونه خطيباً يستهوي الأسماع وصاحب أجوبة مسكتة...»

ثم قال: «وعاد إلى العراق في أعقاب الحرب الثانية فتطلعت الأنظار إلى الاتجاه الذي سيتّجه إليه، فإذا به نائب في مجلس النواب... وكانت خطبه في المجلس طريفة مرصّعة بالأرقام والشواهد والشعر والأمثال والأقوال المأثورة. وهو أول من سمعناه يذكر «الديمقراطية المنافقة»، وهي مقولة فرنسية. وكان يقظاً للمتربّصين به من النواب: خطب مرة فنهض وزير نائب ليقول ما مضمونه: أشهد أنّ الجومرد ممثل قدير، كان زميلي في دار المعلمين وكان ممثلاً بارعاً. فما كان من المغموز إلاّ أن نهض ليردّ على الغامز بقوله: كلنا في الحياة ممثلون، وجزاء كل ممثل الصفير أو التصفيق. وسنرى أخيراً لمن يكون الصفير ولمن يكون التصفيق!».

وقد نظم الجومرد قصائد في رثاء الزعيم السوري إبراهيم هنانو والشاعر الزهاوي إلخ. ومما قاله في تأبين الزهاوي:

فقد الشعر زاهيات المعاني	وذوت أعين القوافي الحسان
وتعرّت قصائد الشعر عن ثوب	قشيب معطّر الأردان
وكأنّ المنون راشت سهاماً	لتصيب الآداب في العنوان...

وقال في فلسطين :

مَنْ سامعٌ فأبثّ شكوى لم تزل | بين الضلوع دفينة آلامها؟
لا تفخروا : كانت وكان لواؤها ، | طوي الزمان ومزّقت أعلامها
شيع وأحزاب يحطّم بعضها | وجرائد مأجورة أقلامها
علماؤها غضّوا الجفون على القذى | وسعى لكلّ بليّة حكّامها . . .

ومن شعره :

ذنبي من الأيام أعرفه | نفس لها ثوب من الكبْرِ
أجد الحياة ، على مكانتها | لا تستحقّ إهانة الحرّ
فأصون وجهي أن يفرِّط بي | وأصون لفظي عن غدٍ يزري

محمد شيت الجومرد الشاعر والد الدكتور عبد الجبار ولد في الموصل سنة ١٨٥٠ وتوفي سنة ١٩٢٥ . وقد طبع ديوانه في القاهرة باسم «ديوان الجومرد» (١٨٨٨) ونشر في السنة نفسها ديوان صديقه الشاعر الموصلي الملاّ حسن البزّاز (١٨٤٥ ـ ١٨٨٧) .

صبيحة الشيخ داود

إذا ذكرت النهضة النسائية في العراق فلا ريب أنها تقترن باسم الأديبة الحقوقية صبيحة الشيخ أحمد الداود رائدة الدراسة النسوية العالية ومؤلفة كتاب «أول الطريق» .

ولدت صبيحة ابنة أحمد الشيخ داود (الذي أصبح فيما بعد وزير الأوقاف) في بغداد سنة ١٩١٢ . وأقيم في بغداد في شباط ١٩٢٢ المهرجان الأدبي المعروف باسم سوق عكاظ ، فدعيت وهي فتاة صغيرة إلى تمثيل دور الشاعرة الخنساء ، فاعتلت ظهر جمل وألقت قصيدة . قال أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» (الجزء الثاني) : «أقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العبّاسيين ، وكانت أول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج ، حضرها جلالة الملك فيصل ، فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون . وكان قسّ بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله أحد الصبيان الأذكياء ، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها إحدى الأوانس المسلمات سافرة صافنة . . .» .

وتخرّجت صبيحة الشيخ داود في دار المعلمات الابتدائية فعيّنت معلمة في المدارس الرسمية في أيلول ١٩٢٧ . ثم انتمت إلى كلية الحقوق سنة ١٩٣٦ ، فكانت أول فتاة وطأت أقدامها هذا المعهد . ولما تخرّجت بعد أربع سنوات عيّنت مفتشة في وزارة المعارف (أيلول ١٩٤٠) فمدرّسة بدار المعلمات الابتدائية (أيار ١٩٥٠) . ونقلت سنة ١٩٥٦ عضواً بمحكمة الأحداث ، فظلّت فيها حتى اعتزلت الخدمة في كانون الثاني

سنة ١٩٧٠، وانصرفت إلى ممارسة المحاماة وألّفت كتاب «تجربتي في قضاء الأحداث».

ساهمت في النهضة النسائية فاشتركت في المؤتمر النسائي الأول الذي عقد ببغداد في تشرين الأول ١٩٣٢ واختيرت سكرتيرة له وألقت محاضرة عن حقوق المرأة المسلمة. واشتركت بعد ذلك في المؤتمر النسائي العربي في بغداد (آذار ١٩٥٢)، وكانت لها جهود مذكورة في الجمعيات الخيرية كالهلال الأحمر وحماية الأطفال إلخ.

ووضعت كتابها «أول الطريق» إلى النهضة النسوية في العراق (١٩٥٨)، كتب مقدمته منير القاضي، فقال: «وكانت مؤلفة الكتاب الأستاذة صبيحة الشيخ داود، عضو محكمة الأحداث، أول فتاة دخلت كلية في العراق، وهي كلية الحقوق، باستثناء فتاة أخرى دخلت كلية الطبّ، وكنت آنذاك عميد كلية الحقوق. وقد وجدت فيها النشاط والانصراف التام إلى الدراسة والتتبع، فتوسمت فيها كل الخير، وحدست أنها ستكون القدوة الصالحة لأخواتها الفتيات العراقيات. وقد صدق حدسي، كما أنها قررت أن تقوم بخدمات صالحة في المجتمع النسوي في العراق، وأنها ستنشر مؤلفات وأبحاثاً علمية. فكان ما حزرتُ، فقد كتبت أبحاثاً في مواضيع مختلفة نشرت في المجلات والجرائد، وكان آخر ما وقفت عليه من ثمار أعمالها كتابها «أوّل الطريق»... وقد دفعني إلى كتابة هذه المقدمة قيام الصلة الوثيقة بيننا، صلة أستاذ مخلص مع تلميذة نجيبة وفيّة. فقد قضيت في تدريسها مع زملائها أربع سنوات في كلية الحقوق، وهي الفتاة الوحيدة بين نحو ألف طالب يحترمونها وتحترمهم ويقدرون نشاطها وسعيها، وتقدر أدبهم وحسن سيرهم معها على وجه المساواة والحرمة المتبادلة...».

توفيت صبيحة الشيخ داود ببغداد في ١١ تشرين الثاني ١٩٧٥.

كانت صبيحة الشيخ داود ابنة رجل دين مثقف عصريّ النزعة أتاح لها الدرس والانخراط في سلك التعليم والقضاء. فإذا ذكرت باحثة البادية وميّ زيادة وهدى شعراوي في مصر فلا بد من ذكر قرينتهن صبيحة في العراق.

كان لها صالون أدبي يعقد كل أسبوع في دارها المطلة على دجلة فيحضره رجال الفضل والصحافة والأدب والسلك الدبلوماسي. وقد زارت الأقطار العربية مراراً واتصلت برائدات النهضة النسوية فيها.

قال جعفر الخليلي إن صبيحة متأنقة في لباسها، صريحة في قولها، يكاد لسانها ينطق بكل ما في صدرها، صبيحة الوجه حلوة الشمائل بعيدة عن التكلف إلى حدّ معقول.

مار إغناطيوس يعقوب الثالث

العالم البحاثة مار إغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك السّريان الأرتذكس، واسمه الأب عبد الأحد توما. ولد في قرية برطلّي من قرى شمال العراق سنة ١٩١٢، ودرس الفلسفة واللاهوت في معهد مار مَتّى بالموصل. ثم مضى إلى حمص فترهّب سنة ١٩٣١، وقام بالتدريس سنة واحدة في بيروت. وأرسل سنة ١٩٣٢ سكرتيراً للرسول البطريركي في الهند، ولم يلبث أن أصبح عميداً للمعهد اللاهوتي في ملابار (١٩٣٤). وعاد إلى الموصل سنة ١٩٤٧ وعمل مدرساً للآهوت، ثم اختير أسقفاً لبيروت ودمشق (١٩٥٠). وانتخب سنة ١٩٥٧ بطريركاً لأنطاكية وجميع المشرق خلفاً لمار إغناطيوس افرام الأول برصوم، فاتخذ لقب إغناطيوس يعقوب.

زار بريطانية سنة ١٩٧٩ واجتمع برئيس أساقفة كانتربري رئيس الكنيسة الإنكليزية، ومضى قبيل وفاته إلى روما وتباحث مع البابا يوحنّا بولس الثاني.

توفّي في دمشق في ٢٦ حزيران ١٩٨٠.

وضع مصنّفات كثيرة، منها ديوان شعر باللغة السريانية (طبع في حلب ١٩٦٠)، بين الشرق والغرب: صفحات ذهبية من تاريخ الكنيسة المسيحية (في جزءين، ١٩٤٩)، تاريخ الكنيسة السريانية الهندية (١٩٥١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية (في جزءين، ١٩٥٣)، المشعل الوضّاء في طريق السماء (١٩٥٤) نزهة الرائد في الكتاب الخالد (١٩٥٢) دفقات الطيب في تاريخ دير القدّيس مار مَتّى العجيب (١٩٦١) الكندي والسريانية (١٩٦٣) الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السّريانية (١٩٦٦) بطاركة الشرق (١٩٦٩) خطب المهرجانات (١٩٦٩) صدى المنابر (١٩٦٩) اللآلىء المنثورة في الأقوال المأثورة (١٩٦٩).

وكان عضواً بمجمع اللغة العربية في دمشق.

جلال الحنفي

الشيخ جلال محيي الدين الحنفي الأديب الفقيه الشاعر ولد ببغداد سنة ١٩١٢ ودرس في المدارس الرسمية. ثم لازم الشيخ أمجد الزهاوي وغيره من العلماء فأخذ عنهم. وكان سكرتيراً لجمعية الناشئة الإسلامية ورئيس تحرير مجلتها. ثم مضى إلى القاهرة وداوم في الجامع الأزهر سنة واحدة عاد على أثرها إلى بغداد (١٩٤٠) لنشوب الحرب العالمية.

عيّن إماماً لبعض المساجد. وأوفد إلى الصين سنة ١٩٦٤ لتدريس اللغة العربية في بكين. وعاد إلى بغداد بعد ثلاث سنوات، وقد تعلّم اللغة الصينية ووضع معجماً عربياً

صينياً لم يتسنّ لـه طبعه وكتب فيـه الكلمات الصينية بحروف عـربية. وعين مـوظفاً في وزارة الإعلام أمداً قصيراً، ثم أسندت إليه إمامة جامع الخلفاء. وأعيد إيفاده إلى الصين للتدريس في شنغهاي (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) وعاد منهـا بعد سنة ونصف ليستأنف الإمامة في جامع الخلفاء. ودعي إلى تونس سنة ١٩٧٨ لإلقاء محاضرات أدبية وثقافية.

وضع كتبـاً ورسائل عديـدة منها: التشريـع الإسلامي: تـاريخه وفلسفته (١٩٤٠) معاني القـرآن (١٩٤١) رسالـة اجتماعية خـالدة (١٩٥٣) الـزكاة وفلسفـة الإحسان في الشريعة الإسـلامية (١٩٥٥) صحـة المجتمع (١٩٥٥) الروابط الاجتماعيـة في الإسلام (١٩٥٦) بقايـا ديوان (١٩٥٦) مقدّمـات الجنوح في الأحـداث (١٩٥٧) أحاديث من وراء الميكروفـون (١٩٦٠) الأمثال البغداديـة (في جزءين ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤) الـرصافي في أوجه وحضيضه (١٩٦٢) المرأة في القرآن الكـريم (١٩٦٠) الأيمان البغدادية (١٩٦٤) معجم الألفاظ الكويتية (١٩٦٤) معجم اللغة العامية البغدادية (في جزءين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦) المغنّون البغـداديون والمقـام العراقي (١٩٦٤) الصنـاعات والحرف البغـدادية (١٩٦٦) العَروض (١٩٧٨) إلخ.

ونشر من الكتب: أعيـان البصرة (١٩٦٠) لعبـد الله بـاش أعيان العبـاسي، الـدرّ النقيّ في علم الموسيقي (١٩٦٤) لأحمد بن عبد الرحمٰن القادري الرفاعي.

كـانت معرفـة جلال الحنفي للّغـة الصينيـة ـ وهـو شيء نادر في العـراق ـ مصـدر مضـايقة لـه. فقد كـان يتحدث مع زوجتـه بـالصينية لكي لا ينسيـا اللغة. وفيما هـو يكلمها تلفونياً إذا برقيب التلفونات يقول له على الخط:

ـ ألا تعرف العربية، يا شيخ جلال؟ هل أنت تتكلم بلسان الطيور؟

ـ أنا أكلم زوجتي بالصينية لكي لا ننسى تلك اللغة.

ـ تكلم بالعربية لنفهم ما تقول!

ولما استمر الشيخ جلال على التحدث بلغة الصين قطع الخط.

وفي مناسبة أخرى قبض رجـال الأمن في البصرة على بحّار صيني تخلف عن اللحاق بباخرته واتهموه بـالتجسس. وأخذ الحنفي عنوة إلى البصرة ليترجم للبحار الذي لم يكن يعرف سوى لغتـه. قال البحار إنه كـان يسبح في شط العرب فإذا به يرى البـاخرة التي يعمل فيها قـد أقلعت تاركـة إياه بلا مـلابس ولا نقود. أمـا رجال الأمن فلم يصـدقوا كلامه وحثوا الشيخ جلال على مضـايقته وحمله على الاعتراف. واستطاع الحنفي بعد أن تخلص من هذه المهمة المضنيـة أن يعود إلى معتكفه في جامع الخلفاء تـاركاً رجال الأمن وبحارهم في مساجلة غير مجدية.

وجلال الحنفي رجل دين متسامح واسع الأفق. ومن الغريب أنه اشترك في الضجة التي أقيمت سنة ١٩٤٤ على معـروف الرصـافي حين نشر كتابه «رسـائل التعليقات».

وقيل إن أعداء الشاعر أثاروا تلك الضجة بتحريض وتشجيع من البلاط الملكي انتقاماً منه لهجوه الأمير عبد الإله ومساندته لحركة مايس ١٩٤١ ضد الإنكليز. وقد أخبرني مصطفى علي أن الشيخ الحنفي أبدى نشاطاً محموماً في تكفير الرصافي، فهجاه بقصيدة مقذعة شديدة أكتفي بنقل بيتين منها:

ولست بمعجزي أبداً، فإنّي على كبح الغواة قصرت عمري
شحاك عليّ بالنكراء شاحٍ، وكم أغراك بالنبهاء مُغْرِ

وقد نشر مصطفى علي القصيدة كاملة في الجزء الرابع من تحقيقه لديوان الرصافي (١٩٧٦).

الدكتور علي الوردي

ولد علي حسين الوردي في الكاظمية سنة ١٩١٣، وكان مدرساً بالمدارس الثانوية. ثم أوفد إلى الولايات المتحدة وأتم دراسته في جامعة تكساس، فنال شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، وكان موضوع اطروحته ابن خلدون.

وعاد إلى بغداد فعيّن مدّرساً في كلية الآداب (تشرين الاول ١٩٥٠) فأستاذاً مساعداً (كانون الأول ١٩٥٣). وأصبح بعد ذلك استاذاً لعلم الاجتماع في كلية التربية فكلية الآداب بجامعة بغداد. واعتزل التدريس في حزيران ١٩٧٠ منصرفاً إلى التأليف.

عرف الدكتور علي الوردي كاتباً اجتماعياً جريئاً أثارت كتاباته ومؤلفاته حركة فكرية عارمة.

مؤلفاته:

من مؤلفاته: شخصية الفرد العراقي (١٩٥١) خوارق اللاشعور (١٩٥٢) وعاّظ السلاطين (١٩٥٤) مهزلة العقل البشري (١٩٥٥) أسطورة الأدب الرفيع (١٩٥٧) الأحلام بين العلم والعقيدة (١٩٥٩) منطق ابن خلدون (١٩٦٢) طبيعة المجتمع العراقي (١٩٦٥) نشأة الوعي السياسي في العراق (١٩٦٨) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (الجزء الأول ١٩٦٩، الثاني ١٩٧١، الثالث ١٩٧٢، الرابع ١٩٧٤) الخامس عن ثورة العشرين في قسمين (١٩٧٧ ـ ٧٨).

نشأ علي الودري نشأة متواضعة أعانته فيما بعد عل تشخيص أدواء المجتمع و إظهار الازدواجية الشخصية التي ابتلي بها أفراده. قال في مقدمة كتابه وعاظ السلاطين: «ولقد أتيح لي في بدء حياتي فرصة ثمينة، حيث كنت أكسب قوتي بعرق جبيني، وعانيت من الذلّ والحرمان والمهانة قسطاً كبيراً، فأدركت آنذاك مبلغ ما يقاسي أبناء السوقة والصعاليك من عذاب ومذلّة على أيدي الطغاة المترفين والجلاوزة»..

حمل الوردي في كتاباته على الأفكار القديمة والتقاليد البالية وحللّها في ضوء النظريات الاجتماعية العلمية ودعا إلى نبذ الترسّبات القبائلية في المجتمع وبناء مجتمع عصري مثقف يدين بالترابط الوطني والولاء للدولة، وكان أشدّ كتبه إثارة «وعاظ السلاطين» و«أسطورة الأدب الرفيع».

تخلّص في كتابه «وعاّظ السلاطين» إلى القول: «لقد آن الأوان لكي نحدث انقلاباً في أسلوب تفكيرنا، فقد ذهب زمان السلاطين وحلّ محله زمان الشعوب.. وليس من الجدير بنا، ونحن نعيش في القرن العشرين، أن نفكّر على نمط ما كان يفكر به أسلافنا من وعاظ السلاطين. آن لنا أن نفهم الطبيعة البشرية كما هي في الواقع، ونعترف بما فيها من نقائص غريزية لا يمكن التخلّص منها، ثم نضع على أساس ذلك خطة الإصلاح المنشودة».

ودرس الأدب العربي دراسة العالم الاجتماعي لا الناقد الأدبي، فقال: «لا ننكر أن شعراءنا اليوم قد تغيروا عما كانوا عليه بالأمس، فقد تحوّل الكثيرون منهم من مدح السلاطين إلى مدح الشعوب. ولكننا يجب أن لا ننسى أن تغيَّرهم هذا إنما كان من ناحية الشكل في الغالب، أما من ناحية المحتوى فلم يتغيروا الا قليلاً. انهم ظلوا يسيرون في شعرهم على نفس الطريقة القديمة من حيث الاندفاع في الفخر والحماس وقلة المبالاة بحقائق الأمور، فهم بدلاً من أن يجعلوا السلطان ظلّ الله في الأرض وأعدل الناس طراً، اتجهوا نحو الشعب فجعلوه نبيلاً كاملاً في جميع صفاته لا يتطرّق إليه النقص أبداً.

«يبدو أن شعراءنا حين تركوا مدح السلاطين واتجهوا نحو مدح الشعب صاروا كأنهم عادوا إلى حياة البداوة الأولى، حين كان الشاعر يمدح قبيلته ويذم خصومها في الحق والباطل. فهم لا يختلفون عن شعراء الجاهلية إلا من حيث أنهم وسعوا نطاق القبيلة فجعلوه «الشعب» أو «الوطن» أو «الأمّة»، إنهم بعبارة أخرى، غيروا شكل العصبيّة، أما مضمونها فلم يغيروه، حيث بقوا ينظرون إلى شعبهم أو وطنهم أو أمتهم كما كان الشاعر البدوي ينظر إلى قبيلته.

«انّ هذا النمط من التفكير الحماسي ـ وهو الذي يصح أن نسمّيه بالتفكير الشعري ـ لم يقتصر أثره على الشعراء فقط، بل شمل أيضاً الكثير من المفكرين وحملة الأقلام والخطباء، فهم جميعاً يجرون على طريقة واحدة، هي طريقة عمرو بن كلثوم: «ماء البحر نملأه سفينا!» (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ١ : ٣١٣ ـ ٣١٤).

وقال علي الوردي في تصريح له إنه لم يتأثّر بشعر شاعر، لأنه منذ البداية ضعيف الثقة بالشعر والشعراء ويرى ان الشعر من أهم الأدواء الاجتماعية التي ابتلي بها العرب منذ عصر الجاهلية. أما الكتاب الذين تأثر بهم فكانوا كثيرين، منهم الغزالي وابن خلدون وسلامه موسى ودورانت ووليم جيمس وهـ. ج. ويلز وعلماء الاجتماع عامة

(جريدة الجمهورية البغدادية، ٤/ ١٢/ ١٩٦٩).

ودعا في فرصة أخرى إلى معالجة المشاكل الاجتماعية ومناقشتها، فذلك ـ كما قال خير من الانشغال بالأدب الفارغ حول البحتري وتأبط شراً. وأضاف قائلاً: «اننا، في هذه المرحلة الراهنة، في حاجة إلى ثورة فكرية نتحوّل بها من عالم الأدب إلى عالم العلم. فقد مللنا الانهماك المفرط بالأدب الذي لا صلة له بالحياة. ولعلّني لا أغالي إذا قلت انّ هذا النوع من الأدب أضرّ بنا وعرقل علينا سبيل الحياة الحديثة» (جريدة الجمهورية، ١٢/ ٦/ ١٩٧٠).

انّ علي الوردي عالم اجتماعي وليس أديباً، ولو أنه عانى ـ كما قال ـ نظم الشعر في شبابه. وقد استطاع مع ذلك، في كتابيه وعاظ السلاطين وأسطورة الأدب الرفيع بوجه خاص، أن ينقد الأدب العربي نقداً صريحاً، فيفصل قشوره عن لبابه ويخلع الأردية البرّاقة التي يلتفع بها الكثير من الشعر والنثر فيظهر عريهما وهزالهما.

وكذلك هيّىء له أن يكشف عن قيم رفيعة ظلّت خلال عصور طويلة مستهجنة مرذولة في عالم أدبّي مصطنع.

الدكتور ناصر الحاني

ناصر محمد ظاهر الحاني ولد في بلدة عنة على الفرات سنة ١٩١٧ وتخرّج في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٤٣. وواصل دراسته في كلية الآداب بالقاهرة فأحرز شهادة الليسانس في الآداب (١٩٤٧) ونال الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن (١٩٥٠).

عيّن مدرساً في كلية الآداب في تشرين الثاني ١٩٥٠. ونقل مديراً للبعثات في وزارة المعارف (١٩٥١) فأستاذاً مساعداً بكلية الآداب (١٩٥٤). وألقى في تلك السنة محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، ثم عيّن ملحقاً ثقافياً في السفارة العراقية في واشنطن (ايلول ـ ١٩٥٤)، وانتدب استاذاً في جامعة لندن (١٩٥٩). وانتقل إلى وزارة الخارجية مديراً عاماً للعلاقات (آذار ١٩٦٠) فسفيراً في بيروت (آب ١٩٦١)، وأضيفت إلى عهدته سفارة اليونان أيضاً. ونقل سفيراً في دمشق (تموز ١٩٦٢) فسفيراً في ديوان وزارة الخارجية، وأسندت إليه وكالة الوزارة في تموز ١٩٦٣. ومثّل الجمهورية العراقية بعد ذلك سفيراً في واشنطن (١٩٦٤) فبيروت (شباط ١٩٦٧). وأصبح وزيراً للخارجية من ١٨ إلى ٣٠ تموز ١٩٦٨، ثم عيّن سفيراً في ديوان وزارة الخارجية.

وقد اغتيل ببغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٨.

مؤلفاته وأدبه :

كان الدكتور ناصر الحاني أديباً ناقداً وضع مؤلفات منها : نقد وأدب (١٩٤٦) النقد الأدبي وأثره في الشعر العباسي (١٩٥٥) جميل صدقي الزهاوي (محاضرات القاها بالقاهرة، ١٩٥٤) من اصطلاحات الادب الغربي (١٩٥٨) الأدب العربي واعلامه (بالاشتراك مع آخرين، ١٩٥٢)، في الحضارة العربية (١٩٦٨) أوراق (١٩٦٨) الخ .

وحقق شعر الراعي النميري (١٩٦٤) . وكتب عدا ذلك دراسات ومقالات عديدة وأبحاثاً عن العراق في بعض دوائر المعارف الاميركية وغيرها .

وقد تحدث ناصر الحاني ذات مرة فقال إنه معجب بطه حسين الذي يعتبره استاذ الجيل دون منازع وأول من وضع اسلوباً عربياً تأثر به كثير من الأدباء الناشئين واقتفوه . أما من أدباء الغرب فقد تأثر الحاني ـ على ما قال ـ بالناقد الانكليزي سسل داي لويس ودعا إلى ترجمة كتابه «الأخيلة الشعرية» . ولويس من شعراء انكلترة المعاصرين ونقادها الأدبيين، ولد في إرلندة سنة ١٩٠٤ ودرس في جامعة أكسفرد وأصدر دواوين شعر متعددة وكتباً في النقد والرواية .

الدكتور عبد الجليل الطاهر

من أساتذة علم الاجتماع، ولد عبد الجليل علي الطاهر في القرنة، عند ملتقى دجلة والفرات، سنة ١٩١٤ . ودرس في دار المعلمين الابتدائية فعّين معلماً (تشرين الاول ١٩٣٣)، ثم انتمى إلى دار المعلمين العالية وعمل في التدريس .

أوفد سنة ١٩٤٧ لاتمام دراسته في باريس، ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية (١٩٤٩) . وعاد إلى بغداد يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة فعّين مدرساً في كلية الأداب (تشرين الأول ١٩٥٢) . ونال بعد ذلك كرسّي استاذ علم الاجتماع في جامعة بغداد، وانتدب للتدريس في جامعتي الرياض وبنغازي .

وتوفي ببغداد في ١٢ حزيران ١٩٧١ .

مؤلفاته :

كان الدكتور عبد الجليل الطاهر من أبرز المؤلفين في علم الاجتماع في عصره، فأدى خدمة مزدوجة في عالمي التأليف والتدريس . قال الدكتور شاكر خصباك : «كان يمثل بحق الاستاذ الجادّ خير تمثيل، الاستاذ المكبّ على العلم، الواسع المعرفة والاطلاع، الملتزم التزاماً تاماً في تدريسه وأبحاثه . وقد تميزت أبحاثه عموماً بسعة أفقها وعمق تتبّعها وفكرها الجادّ التقدّمي العلمي وببعدها عن الغوغائية والديماغوغية، وهي

صفات قلما اجتمعت في أساتذة علم الاجتماع العرب» .

ثم قال شاكر خصباك انّ الطاهر ضحّى بالكثير من أجل الشعب وفصل بسبب الدفاع عنه ثلاث مرّات وذاق آلام التشردّ سنوات طويلة .

وقال الدكتور علي شلتوت عميد كلية التربية بجامعة الاسكندرية : «لقد كان الدكتور عبد الجليل الطاهر عالماً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ . لقد جعل منه استعداده الذهني وذكاؤه وقدراته المختلفة وصبره على القراءة وبراعته في الربط والتحليل والبحث ، جعلت منه عالماً صادق الرأي عميق الفكر . . »

من مؤلفاته : المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة (١٩٥٣) التفسير الاجتماعي للجريمة (١٩٥٤) البدو والعشائر في البلاد العربية (١٩٥٥) أصنام المجتمع (١٩٥٦) علم الاجتماع بين الفينومينولوجية والتجريبية (١٩٦٢) مسيرة المجتمع (١٩٦٦)الخ .

وترجم كتباً منها : المزارع التعاونية الجماعية (١٩٦٠) أصول فلسفة الطبقة الوسطى (١٩٦٠) الايديولوجية والطوبائية للاستاذ مانهايم (١٩٦٨) العشائر والسياسة (جزآن (١٩٥٨ ــ ١٩٧٢) السكان والاقتصاد (بالاشتراك مع الدكتور منصور الراوي ، ١٩٦٨) عشرة أعوام في طرابلس (١٩٦٧) الخ .

عبد العزيز الدوري

الدكتور عبد العزيز عبد الكريم الدوري ولد في بغداد سنة ١٩١٧ ودر س في المدرسة الثانوية وبعد ذلك في جامعة لندن ومدرسة الدراسات الشرقية ، فنال الدكتوراه في التاريخ الإسلامي .

عاد إلى بغداد فعّين مدرساً في دار المعلمين العالية (آب ١٩٤٣) فمدير الترجمة والنشر بوزارة المعارف (كانون الثاني ١٩٤٩) فعميد كليه الآداب والعلوم (آذار ١٩٥٠) . وعاد استاذاً للتاريخ الإسلامي في دار المعلمين العالية وثم في جامعة بغداد . وقد انتدب استاذاً زائراً في جامعة لندن (١٩٥٥) وجامعة بيروت الاميركية (١٩٥٩) . وانتخب في تموز ١٩٦٣ عضواً بالمجمع العلمي العراقي ، وكان رئيساً لجمعية المؤلفين والكتاب . وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في نيسان ١٩٦٧ .

وقد اعتقل في أعقاب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ متهماً بمساندة حلف بغداد والدعاية الثقافية له وأحيل على محكمة الشعب وسجن ، ثم عفا عنه عبد الكريم قاسم .

عيّن سنة ١٩٦٣ رئيساً لجامعة بغداد في عهد عبد السلام عارف . وضع بحوثاً ومؤلفات كثيرة منها :

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (١٩٤٨) الجهبذة والصيرفة في

العراق (١٩٤٣) دراسات في العصور العباسية المتأخرة (١٩٤٥) العصر العباسي الأول (١٩٤٥) في الوعي العربي (١٩٥٣) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام (١٩٤٩) مستقبل الفكر العربي (١٩٥٧) نشوء الاصناف والحرف في الإسلام (١٩٥٩) نظرة إلى تاريخ صدر الإسلام (١٩٥٥) النظم الإسلامية (١٩٥٠) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ١٩٦٠) الجذور التاريخية للقومية العربية (١٩٦٠) دراسات في علم التاريخ عند العرب (١٩٦٠) ضوء جديد على الدعوة العباسية (١٩٥٧) الفكر العربي في دور التجديد والتقليد (١٩٦١) ابن خلدون والعرب (١٩٦١) الجذور التاريخية للشعوبية (١٩٦٢) الجذور التاريخية للاشتراكية العربية (١٩٦٥) الجغرافيون.

العرب وروسية (١٩٦٦) دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن اسحاق (١٩٦٥) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (١٩٦٩)، الخ.

مضى أخيراً إلى عمان وأصبح استاذ التاريخ العربي والإسلامي في الجامعة الأردنية. والف: التكوين التاريخي للأمة العربية (١٩٨٤).

وقد منح جائزة الملك فيصل (السعودية) للدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٦.

صالح أحمد العلي

الدكتور صالح أحمد العلي ولد في الموصل سنة ١٩١٦ وعيّن معلماً في المدارس الرسمية في تشرين الأول ١٩٣٦. ثم انتمى إلى دار المعلمين العالية ببغداد فتخرج فيها سنة ١٩٤١. وأوفد للدراسة في كلية الآداب بجامعة القاهرة فنال شهادة الليسانس (١٩٤٥)، ثم في جامعة اكسفورد التي حاز منها الدكتوراه (١٩٤٩).

عيّن استاذاً في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٥٠) ثم في كلية الآداب بجامعة بغداد. وأصبح رئيساً لدائرة التاريخ ووكيل عميد معهد الدراسات الإسلامية.

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تموز سنة ١٩٦٣ واصبح رئيساً له سنة ١٩٧٩. واختير أيضاً عضواً بمجمع اللغة العربية في دمشق وعضواً في مجمع اللغة الأردني (١٩٨٠).

من مؤلفاته: خطط البصرة (١٩٥٢) مستوى الاسعار في القرن الأول الهجري (١٩٥٢) محاضرات في تاريخ العرب (١٩٥٤) أحكام الرسول في الأراضي المفتوحة (١٩٥٦) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (١٩٥٣) خطط المدينة (١٩٦١) الأنسجة الإسلامية في القرن الأول الهجري (١٩٦١) النظام الاقتصادي

الإسلامي في التطبيق (١٩٦٢) منطقة الكوفة (١٩٦٥) منطقة الحيرة (١٩٦٥) موظفو بلاد الشام في العهد الأموي (١٩٦٦) المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (١٩٦٤) كتب الفقه وأهميتها في دراسة التاريخ الإسلامي (١٩٥٥) المدائن في المصادر العربية (١٩٦٧) مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية (١٩٦٧) قضاة بغداد في العصر العباسي (١٩٦٩) تنظيمات الرسول الادارية في المدينة (١٩٦٩) جزيرة العرب للأصمعي (١٩٦٨)، إلخ . . .

وقد ترجم كتباً عن علم التاريخ عند المسلمين، وتركية الفتاة وثورة ١٩٠٨، والحضارة البيزنطية والحروب الصليبية، وحقق كتباً من التراث للجاحظ والحسن الاصفهاني الخ. ووضع أطلساً تاريخياً للشعوب الإسلامية طبع في أمستردام.

وترجم أخيراً كتاب خطط بغداد في القرن الخامس الهجري من تأليف الدكتور جورج مقدسي (١٩٨٤).

منح صالح أحمد العلي جائزة الملك فيصل السعودية العالمية في الدراسات الإسلامية لسنة ١٩٨٩.

الدكتور عبد الجبار عبد الله

رئيس جامعة بغداد الدكتور عبد الجبار عبد الله الشيخ سام ينتمي إلى أسرة صابئية قديمة أنجبت العديد من علماء الطائفة. ولد في قلعة صالح من أعمال لواء العمارة سنة ١٩١١ وأتّم دراسته الثانوية في بغداد (١٩٣٠) وانتمى بعد ذلك إلى الجامعة الأميركية في بيروت فنال درجة بكالوريوس علوم سنة ١٩٣٤.

عمل مدرساً في مدارس العمارة الثانوية (تشرين الأول ١٩٣٤) فمساعد مدير الأنواء الجوية في مطار البصرة (١٩٣٧) فمدرساً في مدارس بغداد الثانوية ودار المعلمين العالية (١٩٤١ ــ ٤٤). ورحل إلى الولايات المتحدة الاميركية فأتم دراسته في معهد ماتساشوستس التكنولوجي في بوسطن وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية (١٩٤٩). وعمل في أثناء ذلك مساعد بحوث ومساعد استاذ في المعهد نفسه.

عاد إلى بغداد فعيّن استاذاً ورئيساً لقسم الفيزياء في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٤٩) إلى سنة ١٩٥٨. ورشح خلال هذه المدة استاذاً باحثاً في جامعة نيويورك بين سنتي ١٩٥٢ و ١٩٥٥. وعلى أثر ثورة تموز ١٩٥٨ عيّن أميناً عاماً لجامعة بغداد ووكيلاً لرئيسها، فرئيساً أصيلاً (١٩٥٩). وكان في الوقت نفسه نائب رئيس هيئة الطاقة الذرّية.

وقد فصل من منصبه على أثر نشوب ثورة رمضان في شباط ١٩٦٣ واعتقل وعذّب

وأهين. ثم أطلق سراحه فمضى إلى الولايات المتحدة حيث عمل استاذاً في جامعاتها. وأدركته الوفاة بها سنة ١٩٦٩ .

كان عالماً فاضلاً، لكن أخذت عليه ميوله اليسارية التي كانت سبب سجنه وإيذائه. وضع بحوثاً علمية نشرت في المجلات الأميركية وانتخب عضواً في جمعيات علمية متعددة، وألف باللغة الانكليزية كتاباً في «ديناميكا الأعاصير» (طبع في نيويورك سنة ١٩٥٣). وألف بالعربية: علم الصوت (١٩٥٥) واشترك في ترجمة «مقدمة في الفيزياء النووية والذرية» (١٩٦٢) والجزء الأول من موسوعة الأنواء الجوية (١٩٤١).

طه باقر

ولد في الحلة سنة ١٩١٢، وهو أخو الشاعر محمد الباقر الحلي. درس طه باقر علم الآثار في جامعة شيكاغو فنال شهادة البكالوريا والماستر وعاد إلى بغداد سنة ١٩٣٨. وعين في تشرين الثاني من تلك السنة موظفاً في مديرية الآثار العامة، وأصبح أميناً للمتحف العراقي (تموز ١٩٤١) فمعاون مدير الآثار العام (كانون الثاني ١٩٥٣) فمفتشاً عاماً سنة ١٩٥٦. وعين مديراً عاماً للآثار في أواخر سنة ١٩٥٨، وكان في الوقت نفسه أستاذ التاريخ القديم في جامعة بغداد. وتولّى نيابة رئاسة الجامعة بالوكالة سنة ١٩٦٠. وأحيل على التقاعد سنة ١٩٦٣.

انتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الأول ١٩٧١ وعضواً بمجمع اللغة العربية بدمشق. وتوفي سنة ١٩٨٤.

وضع مؤلفات كثيرة، فمن آثاره: أصل الحروف الهجائية وانتشارها (١٩٤٥) علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب (١٩٤٩) ملحمة جلجامش والطوفان (١٩٥٠) لوح رياضي على نظرية إقليدس من تل حرمل (بالعربية والإنكليزية، ١٩٥٠) قضايا رياضية أخرى من تلّ حرمل (١٩٥١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (جزءان، ١٩٥١) بابل وبور سيبا (١٩٥٩) عقرقوف (١٩٥٩) تل حرمل (١٩٦٠). . .

وقد نقل عن اللغة الإنكليزية: بحث في التاريخ (لأرنولد توينبي) من ألواح سومر (لصموئيل كريمر، ١٩٥٨). واشترك في ترجمة: الإنسان في فجر حياته (لدوروثي ديفدسن، ١٩٤٥) تاريخ العلم (لجورج سارتون، ١٩٥٧) الرافدان (لسيتن لويد، ١٩٤٨). ووضع مؤلفات بالإنكليزية عن عقرقوف وبابل وبورسيبا وتل حرمل وحفريات الحكومة العراقية، إلخ.

الدكتور محمد سليم النعيمي

الدكتور محمد سليم محمود النعيمي الأعظمي ولد في قصبة الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٩١٠ . درس في دار المعلمين فعيّن معلماً (تشرين الأول ١٩٣١)، ثم أوفد إلى مصر وباريس لإكمال دراسته العالية (١٩٣٣). ووضع أطروحة الدكتوراه في جامعة السوربون في موضوع شعر المعارضة السياسية في العصر الأموي (١٩٣٩)، لكنه لم يتمكن من مناقشتها لاضطراره على العودة إلى العراق إثر نشوب الحرب العالمية .

وقد اعتقل في تشرين الأول ١٩٤١ لاتهامه بالميول النازية . وعيّن أستاذاً في دار المعلمين العالية في أيار ١٩٤٧ فملحقاً ثقافياً بالسفارة العراقية في باريس (نيسان ١٩٥٤). وعاد أستاذاً في دار المعلمين العالية في أيار ١٩٥٥ ونقل إلى جامعة بغداد عند إنشائها .

عيّن عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣ وانتخب نائباً أول لرئيسه . وأوفد سفيراً للعراق في تونس ، فلما عاد إلى بغداد استأنف عضويته في المجمع ونيابة رئاسته .

وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (نيسان ١٩٦٧) وعضواً بمجمع دمشق (١٩٧٣).

توفي في بغداد سنة ١٩٨٤ .

له مؤلفات عديدة منها : وجهة الأدب الحديث (١٩٦٢) شعر النجاشي الحارثي (١٩٦٥) ظهور الخوارج (١٩٦٧) أخطاء في دائرة المعارف الإسلامية (١٩٦٩) اسم الفعل : دراسة وطريقة تيسير (١٩٦٨).

وقد ترجم قسماً من «أعمدة الحكمة السبعة» تأليف لورنس (١٩٤٧) وتعريف الاشتراكية لأميل دركهايم (١٩٤٧). وحقق كتاب التبصير في الدين للإسفراييني (١٩٣٩) والاشتقاق لأبي سعيد الأصمعي (١٩٦٨).

واشترك في وضع مصطلحات علم الجراحة والتشريح ومقاومة المواد وهندسة إسالة الماء إلخ .

الدكتور ناجي معروف

ولد ناجي معروف في قصبة الأعظمية من ضواحي بغداد في ٢٠ كانون الأول ١٩١٠ ودرس في دار المعلمين العالية . وعيّن مدرساً في تشرين الأول ١٩٣١ ، ثم أوفد إلى باريس للدراسة فالتحق بمعهد اللوفر وجامعة السّوربون . ووضع أطروحته للحصول على الدكتوراه في الآداب ، لكنها لم تناقش بسبب نشوب الحرب سنة ١٩٣٩ وسحب طلاب البعثة الدراسية ، فاضطرّ على العودة إلى بغداد .

عيّن على أثر عودته مدرساً، ثم نقل مفتشاً بوزارة المعارف (أيار ١٩٤٦) فأستاذاً مساعداً في دار المعلمين العالية (كانون الأول ١٩٤٦). وأسندت إليه مديرية أوقاف بغداد في آذار ١٩٤٨، ثم عهد إليه بالتدريس في كلية الشريعة (نيسان ١٩٥٠) وأصبح عميد الكلية في نيسان ١٩٥٣. وكان بعد ذلك عضواً في مجلس الخدمة العامة وأستاذاً في جامعة بغداد. وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الأول ١٩٧١ وعضواً بمجمع دمشق.

أحيل على التقاعد سنة ١٩٧٠، فانتهز الفرصة لتقديم أطروحته إلى جامعة القاهرة والحصول على درجة الدكتوراه.

مضى إلى الحجاز لأداء مراسيم العمرة فتوفّي هناك في آب ١٩٧٧.

وضع مؤلفات تدريسية وتاريخية كثيرة، منها: المدرسة المستنصرية (١٩٣٥) تاريخ علماء المستنصرية (١٩٥٩) المدخل في تاريخ الحضارة العربية (١٩٦٠) المدرسة الشرابية (١٩٦١) التوقيعات التدريسية (١٩٦٣) عروبة المدن الإسلامية (١٩٦٤) مقدمة في تاريخ مدرسة أبي حنيفة وعلمائها (١٩٦٥) نشأة المدارس المستقلة في الإسلام (١٩٦٦) تخطيط بغداد (١٩٦٦) حياة إقبال الشرابي (١٩٦٦) المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة (١٩٦٦) مدارس مكة (١٩٦٦) مدارس واسط (١٩٦٦) عالمات بغداديات في العصر العباسي (١٩٦٧) العملة والنقود البغدادية (١٩٦٧) المراصد الفلكية في بغداد (١٩٦٧) مستشفيات بغداد في العصر العباسي (١٩٦٨) أصالة الحضارة العربية (١٩٦٩) التأميم الاجتماعي في الإسلام (١٩٦٩)، عروبة العلماء المنسوبين إلى البلاد الأعجمية (الجزء الثالث ١٩٨٠).

وترجم كتاب «خطط بغداد» للمستعرب الفرنسي كليمان هوارت Clément Huart (١٩٦١). وكان هوارت (١٨٥٤ ـ ١٩٢٧) من مترجمي وزارة الخارجية الفرنسية وأعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق، وضع تآليف بالفرنسية عن تاريخ بغداد والآداب العربية ونشر كتباً من التراث القديم.

وقد حاول ناجي معروف إثبات عروبة البلدان الإسلامية وأنساب علماء المسلمين، وفاته أن الحضارة الإسلامية الزاهرة شارك فيها بنصيب كبير الفرس والروم واليهود والنصارى والصابئة وسائر الملل التي استظلت بظل الإسلام واتخذت العربية أداة للكتابة والتعبير.

فؤاد جميل

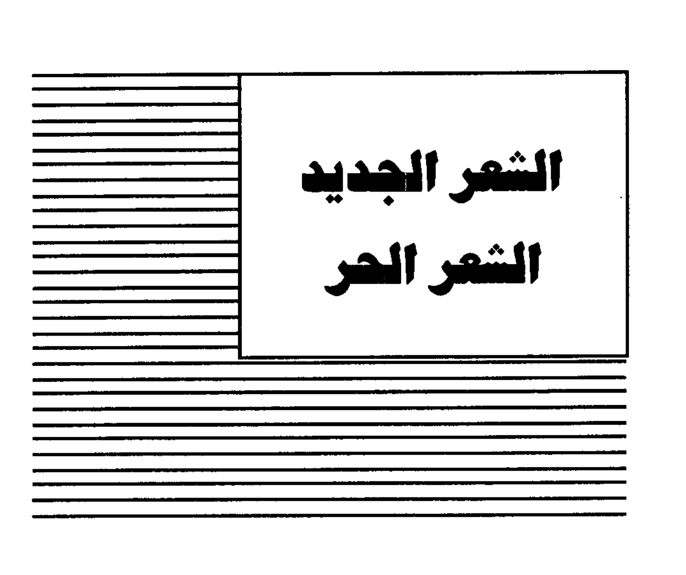
من رجال التربية والتأليف، ولد في العمارة، حيث كان أبوه جميل أفندي موظفاً، سنة ١٩١٤. أتم دراسته الثانوية في بغداد ومضى بعد ذلك إلى بيروت ودرس في جامعتها الأميركية متخصصاً في اللغة الإنكليزية.

عاد إلى بغداد فعيّن مـدرساً (١٩٣٤)، ثم كان أول سكرتير للجنة الإذاعـة في بداية تأليفها (١٩٣٧). ونقلت خدماته إلى وزارة التموين بصفة مميز (١٩٤٥)، ثم أعيد إلى التدريس في دار المعلمين الابتـدائية (١٩٤٨) والإعـدادية المركـزية (١٩٥٠). وأصبح مدير مكافحة الأمية بـوزارة المعارف (١٩٥٤) فمفتش معارف فأستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد.

لازمَ الشيخ قـاسم القيسي ومحمد بهجت الأثـري أمـداً آخذاً عنهما اللغـة العربيـة، وكان من روّاد البحث الفـولكلوري، كتب الفصـول المسهبة عن بدو العـراق وعاداتهم وتقاليدهم ومأثوراتهم وقصصهم.

أدركه الحمام في بغداد في ١٩ تشرين الأول ١٩٧١.

من مؤلفـاته: مقالات وأحاديث (١٩٥٨). وقـد ترجم فؤاد جميل كتبـاً كثيرة منها: فنّ الدراسـة، حضارة العالم الجديـد (١٩٥٨) العراق في القرن الـرابع للميلاد بحسب وصف المؤرخ الروماني أميانوس مرشيلينوس (١٩٦١) في بلاد الرافدين: صور وخواطر (من تأليف الليـدي دراور زوجـة السر أدوين دراور مشـاور وزارة العـدلية العـراقيـة، ١٩٦١) بغداد مـدينة السـلام (تأليف ريجارد كوك، في جـزءين ١٩٦٢ ـ ٦٧)، يليني (١٩٦٣) ثورة العـراق ١٩٢٠ (تأليف الجنرال ايلمر هـالدين، ١٩٦٥) هيرودوتس في العراق (١٩٦٢) رحلات إلى العراق (تأليـف السر واليس بادج، جزءان ١٩٦٦ ـ ٦٨) أريان يـرون أيام الإسكندر الكبير في العـراق (١٩٦٧) بلاد مـا بين النهرين بين ولاءين (تأليف السر ارنولـد ولسن، في ٣ أجزاء ١٩٦٩) رحلـة متنكر إلى بلاد مـا بين النهرين وكردستان (تأليـف الميجر سون، ١٩٦٩) سنتان في كردستـان (تأليف هاي، ١٩٦٩) الدين مادة ورمزاً (تأليف هدلي، ١٩٦٢) إلخ.


الشعر الجديد
الشعر الحر



نـازك الملائكـة

الشاعـرة المجدّدة نـازك الملائكة، ابنـة صادق جعفـر الملائكة (١٨٩٢ ـ ١٩٦٩) الذي درّس اللغة العربية في المدارس الثانوية الرسمية أكثر من ربع قرن. وأمها الشاعرة أمّ نزار الملائكة (سلمى عبد الرزّاق) ولدت ببغداد سنة ١٩٠٨ وتزوجت في سن مبكرة. وتوفيت سنة ١٩٥٣، وقد طبع ديوان شعرها بعنوان «أنشودة المجد» (١٩٦٨).

واقترنت نازك الملائكة سنة ١٩٦٢ بالدكتـور عبد الهادي محبوبة (ولد ١٩١٢) وكان أستاذاً بجامعة بغداد ثم أصبح رئيساً لجامعة البصرة.

ولدت نازك في بغداد في ٢٣ آب سنة ١٩٢٣، وتخرّجت في دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٤، ثـم واصلت دراستهـا في جامعـة وسكونسن الأميركيـة (١٩٥٤). وعادت إلى بغداد فكانت أستـاذة مساعدة في جامعتها، وانتقلت بعد ذلك إلى التـدريس بجامعة البصرة ثم في جـامعة الكـويت. وأصدرت دواويـن شعريـة: عاشقـة الليل (١٩٤٧) شظايـا ورماد (١٩٤٩) قرارة الموجة (١٩٥٧) شجـرة القمر (١٩٦٨)، ودراسة نقـدية بعنوان «قضايا الشعر المعاصر» (١٩٦٢). ولها أيضاً: الأدب والغزو الفكري (١٩٦٥) محاضرات في شعر علي محمود طه (١٩٦٥).

وقد أصدرت ديوان شعر جديداً بعنـوان «مأساة الحياة وأغنية للإنسان» (١٩٧٠)، ولها أيضاً: التجـزئة في المجتمع العربي (١٩٧٤) للصـلاة والثورة (١٩٧٧) يغيّر ألـوانه البحر (شعر).

نحّي زوجهـا عن رئاسـة جامعـة البصرة كما نحّيت هي أيضـاً عن تـدريس الأدب العربي، فمضيا إلى الكويت ودرّسا في جامعتها. وعادت إلى بغداد سنة ١٩٨٩.

ومنحتها كليـة الآداب بجامعـة الكويـت سنة ١٩٨٥ إجـازة تفرّغ للعـلاج بعد أن عانت وضعاً صحياً ونفسياً متدهوراً.

قال عبد اللطيـف شرارة في نازك الملائكة مقيّماً ديوانها «عاشقـة الليل» (مجلة الأديب البيروتية، آذار ١٩٤٨):

«أما عنـد الآنسة نازك فإن بـواعث الكآبة التي تتجلّى في كل بيت من أبيـات ديوانها

هذا ليست في الحرمان ولا في الحبّ الضائع ولا في فكرة الموت، وإنما هو «حزن فكريّ» نشأ عن تفكير في الحياة والموت من جهة، وتأمّل في أحوال الإنسانية من جهة ثانية، ثم انتقلت هذه الملاحظات والتأمّلات إلى صعيد الحسّ، فحفرت في «القلب» جروحاً لا تندمل، وأخذت من بعد ذاك تتدفّق آهات وأحزاناً. وتلك هي رواية شاعريتها . . .».

وقال إيليا أبو ماضي في جريدته «السّمير» (نيويورك، ١٦ ك٢ ١٩٤٨): «نبغ في العرب عدد من النساء الشاعرات أشهرهنّ الخنساء التي فجّر موت أخيها صخر كل ما في روحها من ينابيع الشعور، فكانت مراثيها فيه من أرقّ ما فاضت به قرائح الشعراء. ولا بدع فالمرأة في هذه الناحية، في ناحية الإحساس العميق واللهفة والدموع، أعظم بما لا يقاس من الرجل، فكأنما أعصابها أوتار قيثارة تخرج منها الأنغام كلّما مرت بها أصابع عابث ـ سواء كان هذا العابث هو الزمان أم الإنسان. وأمامنا الآن ديوان شعر أهدته إلينا ناظمته الشاعرة المرهفة الحسّ نازك الملائكة التي تحكي الخنساء في نواحها، ليس على أخ لها كصخر، ولا على زوج مثل ابن طريف، بل على ذاتها. فهي في الليل ثائرة غضبى، وفي الصباح باكية دامية، لا ترى في الناس من تألفه ولا في الطبيعة ما يصرفها عن نفسها الكئيبة الحزينة . . .

ويلمح القارىء روحها حائرة حزينة مضطربة مكفهرة في كلّ قصيدة من قصائد الديوان الذي أسمته «عاشقة الليل». وهذه التسمية وحدها كافية للدلالة على رغبتها في السكينة والعزلة والانطواء لكي تطالع في كتاب روحها سطور الألم وآيات الأسى.

«ويبدو لنا من بعض تعابيرها ومن الروح السّارية في شعرها أنها متأثرة بشعراء الكآبة مثل الشاعر كيتس الإنكليزي وسواه . . . على أنّها مبدعة في التصوير والتعبير إبداعاً ندر نظيره . . .»

***

قالت من قصيدة لها في «لعنة الزمن»:

كنّا كالأمواج الخرس
في عينينا لون الشمس
في وجهينا الوقرين خشوع المغرب والأبد الخلاّق
كنّا نهمس كالأنداء
كصدى مجداف في الماء
لم نقطع صوت الظلماء
بمدامع ذكرى أو أشواق
كنّا قد كفّنّا الماضي ودفنّا اللهفة والأشواق
في الظلمة في صمت الأعماق

***

وأراق المغرب ألوانه

فوق الأشياء الوسنانه

لم يبق بناء لم تحمر أعاليه، لم يبق زقاق

حتّى في صفرة خدّينا

حتى في وجمة قلبينا

أحسسنا اليقظة واللّونا

أحسسنا شيئاً كالثورة في الدم، في الأعين، في الأعراق

شيئاً كاللّهفة، كالأشواق . . .

***

وهجسنا شيئاً منفعلا

في قلبينا، شيئاً ثملا

يلهث عاطفة بعد جمود سنين مرّت في استغراق

وانبجست أشواق وَسْنَى

من أعيننا لوناً لونا

وتحرّك في دمنا معنى

ناريّ الشوق صَدٍ توّاق

وسدى حاولنا أن نسكنه فهو صَدٍ مرح توّاق

وسدى نطمره في الأعماق

***

ووقفنا في الظلمة نحلم

بالموج وبالليل المبهم

ونحوك من الرؤيا والأنجم والأمواج لنا أطواق

ونجوب العالم في عربات

صنعتها أذرع جنّيّات

من عطر الأزهار الخجلات

في أسلاك الضوء الألاّق

في قصر النهر على أرض يلمسها القمر الألاّق

وتناست مولدها الآفاق

سئلت نـازك الملائكة عن الشعر الحرّ الذي كـانت في طليعة الـداعيات إليـه وعلة تسميته بهذا الاسم ، فقالت :

«إنّما سمّينـاه بهذا الاسم باعتبـاره غير مقيّد بـالتـزام الشطرين المتسـاويين والقافيـة الموحّدة . وفكرة «الحرية» هنا تستند إلى القيود المفـروضة في البحور الشعرية الستة عشر وليست حرية مطلقـة كما يتوهّم بعض الناس . والواقع انّ هـذا الشعر ليس نثراً، وإنما هـو شعـر تحرّر مـن بعض القيـود الشكليـة . إنّـه لا يثـور على الـوزن وإنما على نظـام الشطرين، وهو لا يرفض القافية وإنما يرفض القافية الموحّدة . . . » .

ثمّ قالت : «لا شكّ أن في التزام الأوزان القديمـة ذات الشطرين الصارمين شيئاً من التضييق على الشاعر، غير أنها لا تحول إطلاقاً دون التعبير عن العاطفة وصياغة الفكرة الصياغة المطلوبة . ولا بدّ من التنبيـه إلى أن الموضوعات التي تصلح لها الأوزان القديمة تختلف عن الموضـوعـات التي تنـاسب الأوزان الحديثـة ، ولـذلك يـدهشني أن بعض الشعراء لا يستعملون إلا الأوزان الحرّة» .

وسئلت الشاعـرة عن الكآبـة التي تغلب على شعرهـا فأجابت قـائلة : «لعلّ سبب ذلك أنني أتطلب الكمال في الحيـاة والأشيـاء وأبحث عن جمال لا حدود لـه . وحين لا أجد مـا أريد ، أشعـر بالخيبـة وأعدّ القضيـة قضيّتي الشخصية . يضـاف إلى هذا أنني كنت إلى سنوات خلت أتخذ الكآبة موقفاً إزاء الحياة ، وكنت أصدر في هذا عن عقيدة لم أعـد أؤمن بها ، مضمـونها أن الحزن أجمل وأنبل من الفـرح ، فكنت أقف إزاءه مـوقف العابدة وأتحدث عنه كما لو كان إلهاً . ومن أمثلة هذا في «قرارة الموجة» :

نحن هيـّأنا له حبّاً وتقديساً ونجوى
وتهيّأنـا للقـياه عيـونـاً وشفـاهـا ،
وسنلقاه مصلّين كما نلقى إلها . . . »

إن شعر نـازك الملائكة يعبّر من حيث المبنى والمعنى ، عـن الكبت النفسيّ والتمرّد ، ولم يكن ذلك غـريبـاً على فتـاة نشأت في بيئـة محافظـة وانطلقت فجأة إلى آفـاق العـالم الرحيب . إن الصراع قـد اشتدّ في قـرارة نفسها بين دنياهـا القديمـة التي فتحت عليها العينين ، تلك الدنيا التي كانت تعدّ الفتاة جوهرة ثمينة ينبغي الحفاظ عليها في صندوق مبطن بـالقطيفة وإبعـادها عن الأبصـار، وبين العـالم الجديد الـذي خرجت إليـه على مقاعد الدراسة وفي الولايـات المتحدة الأميركية . وزادت حدّة الصراع حين أطلت الفتاة التي أشربت حبّ الأدب العربي الاتّباعي بين والديها الأديبين الشاعرين ، حين اطلعت على الآداب العالميـة وقرأت آثار الفكـر الأوروبيّ المتفتّح . وكانت نتيجـة هذا الصراع زمّ عواطفها والتمرّد على القديم مع الخوف من الحديث .

تمرّدت نـازك على مباني الشعر العمـودي فابتـدعت الشعـر الحرّ الذي حـافظ على

تفاعيل البحور العربية في أبيات تطول وتقصر وتسرع وتتلكأ وتهدأ وتموج وتحلّق وتسفّ.

وتمرّدت نازك على المعاني الشعرية، فتشبّثت بأذيال الألم وتمرّغت على أقدامه وتغنّت بألحانه، فقالت:

نحن توّجناك في تهويمة الفجر إلٰها
وعلى مذبحك الفضّي مرّغنا الجباها
يا هوانا، يا ألم
ومن الكتّان والسمسم أحرقنا بخورا
ثم قدّمنا القرابين ورتلنا سطورا
بأبيات النغم...

ونزعت إلى الحبّ وخشيته فدفعتها رهبتها إلى الأحلام. لم تكتحل عيناها بمرأى الشفق، بل ضربت في أودية الخيال وحاولت أن تحلم بالمساء الجميل والدجى السّاجي والنجوم المتألقة بصفاء وهدوء، حاولت أن تتصيّد الرؤى وتنصب الشراك للسعادة التي في متناول يديها. حاولت أن تحلم بالحبّ الذي هو المنحة الطبيعية للشباب، فطلبته على جبال القمر، بعيداً عن الزمان والمكان وفي معزل من البشر. طلبت الحبّ في أمس الدابر، بدلاً من اليوم الحاضر والغد القريب، فقالت:

سنحلم أنّا نسير إلى الأمس لا للغد
وأنّا وصلنا إلى بابل ذات فجرٍ ندٍ،
حبيبين نحمل عهد هوانا إلى المعبد،
يباركنا كاهن بابليّ نقيّ اليد.

ونزعت الشاعرة إلى الحياة وخافتها، وهفت إلى الهناء فملأتها رهبته، فتعلّلت بالصور والكلمات وسألت: هل؟ ومتى؟

(هل) و (متى) لحن جفون ضارعة وشفاه،
وجوابهما: إن شاء الله...
هل تحضر؟ هل يأتي المطر؟
هل يسخو العطر وينهمر؟
إن شاء الله،
إن شاء الله.
ومتى يسري نسغ السكّر
في الرمّان الحامض؟ والفجر متى يظهر؟
والشاطىء بعد ضنى الأسفار متى سنراه؟
إن شاء الله...

ورأت شاعرتنا في الحزن والكآبة منطلقاً من القيود التي ترسف فيها، فأحبّت لواعجها وتمسّكت بحزنها وقدّست كآبتها. وصوّرت حزن نفسها غلاماً صافي الشعور، ناصع الجبين، يسبح في بحر من النور والأريج، غلاماً خجولاً يحيى في دموع المآقي الخرس، لا يعرفه إلاّ من خبر الصمت العميق وكتم الألم في عمق الحشا السحيق. وقالت:

نحن هيّأنا له حبّاً وتقديساً ونجوى،

وتهيّأنا للقياه عيوناً وشفاها.

وسلنقاه مصلّين كما نلقى إلٰها.

وسنهديه انفجار الأدمع العذبة سلوى

وسنحبوه أسىً أقوى وأقوى

وسنعطيه عيوناً وجباها...

لقد أولعت نازك بالرمز، لكن رموزها لا تكاد تخفي تمرّدها وكبت نفسها. وحتى إذا شاءت أن تذكر زمان الصفاء وعهد المحبّة والوئام فهي تصف تلك السعادة عن طريق الذكريات بعد أن تختلق الخصام الذي فرّق بين المحبين وأفرغ كأس الغرام وطوى المشاعر الجميلة التي اعتلجت في حنايا الصدر. مرّت بذهن الشاعرة لحظات الصفاء التي فاحت بالشذا واتّسمت بالعذوبة والسماح، فلم تكد تأسف لانقضائها، بل قالت:

وكنّا عشقنا انبثاق الحرارة في مقلتينا،

فدعنا نحبّ النضوب.

وكنّا هوينا التورّد والشعر في شفتينا،

فلم لا نحبّ الشحوب؟

ولم لا نخلّف ركناً من المقت بين يدينا؟

فدعنا نقم أسس الحبّ والودّ بين العيوب،

وأفسح مكاناً لبعض الحماقات بعض الذنوب.

ودعنا نكن بشراً طافحين نفيض جنونا

وننضح ضحكاً ودمعاً سخينا.

وها هي ذي الشاعرة قد مزجت اللحن بالبكاء والضحك بالدموع والسرور بالألم، لكن ألمها الصامت الدائم يبرز في كل حين من وراء السطور.

بدر شاكر السّيّاب

من روّاد الشعر الحرّ في العراق، بـدر شاكر السيّاب، ولد في قريـة جيكور المجاورة لبلدة أبي الخصيب سنة ١٩٢٦ . وهـذه القرية ذكرها إبراهيم فصيح الحيـدري في كتابه «عنوان المجد» وقال إن معنى اسمها: مكان الأعمى. وحرم حنان الأمومة طفلاً، وذاق مرارة العوز والحاجـة، لكنه واصل دراسته الثانـوية في البصرة والعالية في بغـداد بالرغم من كل المثبّطات.

وأذكر له قصة* قرأتها قبل أعوام طويلة ولم تـزل عالقة بذهني لأنّها من صميم الواقع الـذي يهز ويثير: قصة قـدوم الفتيات، تـروي مجيء فتيـات لقضاء عطلـة الصيف في القريـة المنعزلة النـائية المحرومـة نور الكهربـاء ومتع الحضارة. لقد علم الشبّـان بقدوم قريبـات لهم، فظلوا يترقبون ذلك القـدوم بقلوب مـؤمّلة واجفة ويتطلعـون إليه تطلّع المحروم الذي لم ير في حياته وجه فتاة مدنية . . .

وجاء السيّـاب إلى بغدادسنة ١٩٤٣ فـانتمى إلى دار المعلمين العالية وارتـاد ندوات الأدب ونظم الشعر. وتخرج سنة ١٩٤٨ فعيّن مدرساً في الرمادي. ولم يلبث أن شارك في الحركات السياسية الوطنية ففصل وسجن. ولما أطلق سراحه، عضّه الفقر بنابه، فعمل محرراً ومخبراً ومترجماً في صحف بغداد وتشبّث بأشغال أخرى سدّاً لرمقه. وسافر إلى إيران والكويت والمملكة السعودية، ثم عاد إلى بغـداد ليقبع في زوايا مديرية الأموال المستوردة موظفاً صغيراً. وكان بعد ذلك مترجماً في جريدة الشعب (١٩٥٧).

واندلع لهيب الثورة في تموز ١٩٥٨، فحيّا مطلع النـور الجديد وأعيد إلى التدريس، لكنـه لم يلبث أن اعتقل وسجن في سنـة ١٩٥٩ . وتنكّـر بعـد ذلك لآرائه السيـاسيـة القديمـة وقلب لماضيه ظهر المجنّ، بيد أن شعـره النابع من أعماق نفسه استمـرّ يتدفّق ثراً، نابضاً بالحياة.

ووظف في مـديريـة ميناء البصرة ردحـاً من الزمن، ثم ابتلي بـالمرض وأصيب بشلل جـانبي، فـذهب للعـلاج إلى لبنـان وانكلترة. وعـاد إلى البصرة، ثم أدخل المستشفى الأميريّ في الكـويت حيث قضى نحبـه في ٢٤ كانـون الأول ١٩٦٤، بعـد أن تداولتـه تيارات السياسة وهدّ جسمه المرض ووسمه بميسمه الشقاء.

شعره ومؤلفاته:

صدر لبدر شاكر السيّاب مجموعـات وملاحم شعرية، منها: أزهار ذابلة (١٩٤٧) أساطير (١٩٥٠) حفّار القبور (١٩٥٢) المومـس العمياء (١٩٥٤) الأسلحة والأطفال (١٩٥٤) المعبـد الغـريق (١٩٦٢) منـزل الأقنـان (١٩٦٣) صهيل الجواد الأبيض، أنشـودة المطر (١٩٦٠) شنـاشيل ابنـة الجلبي (١٩٦٥) إقبـال (١٩٦٥) قيثارة الـريح

* أربع بنات، نشرت في جريدة الشعب البغدادية في ٦ آب ١٩٥٥

(١٩٧٠) إلخ. وله، عدا ذلك، قصص ومقالات شتّى، و «مختارات مترجمة من الشعر العالمي الحديث» (١٩٥٥) نقلها عن اللغة الإنكليزية، وآثار شعرية مخطوطة: زئير العاصفة، قلب آسية، القيامة الصغرى، من شعر ناظم حكمت، إلخ. وترجم أيضاً: الجواد الأدهم (١٩٦١) مولد الحرية الجديد (١٩٦١).

إنّ السيّاب الشاعر ابن جيله التائه في بيداء الضياع. تفتّح ذهنه، أوّل ما تفتّح، على ويلات الحرب والتقتيل والتدمير، وصراع المبادىء في خضمّ من الدماء والدموع. أضيف إلى ذلك نشأته العسيرة المكافحة، ونفسه المرهفة التي ضاقت ذرعاً بالجهاد والحرمان، وتأثّره بمناهج الأدب العالمي الحديث عن طريق معرفته للّغة الإنكليزية وظمأه إلى المطالعة والاطلاع. برز كلّ ذلك في شعره، وبعض ذلك في مأساة حياته وموته.

هل نستطيع أن نقرن السيّاب بالشاعر الفرنسي أرتور رامْبُو (١٨٥٤ ـ ١٨٩١) Arthur Rimbaud؟ ـ إن البون بينهما جسيم: فرامبو من شعراء الرمزية الذين يستهينون بالكلمات والحروف ويغرقون في بحر من الصور، منها المفهوم ومنها العصي الغامض. إنّ شعر رامبو يقوم على الرمز والإيماء ويحلّق في فضاء الهيولى والضباب، ويلج ذهن القارىء بطريق التعليل والتأويل.

لكن الشاعرين يجتمعان في الضياع والبحث عن مثل أعلى مجهول. فرامبو يعاني البؤس والفاقة حتى ليقول في بعض شعره: لقد مضيت، ويدي في جيبي الممزّق، وقد أصبح معطفي رقيقاً كالخيال، سائراً في ظلّ السماء، مخلصاً لربّة الشعر، حالماً برؤى الحبّ الجميلة. إنّ مأواي نجم الدبّ الأكبر، وإنني لأجلس على قارعة الطريق لأصغي إلى موسيقى النجوم، وقطرات الطلّ تبلّل جبيني . . .

يطلّق رامبو الشعر في العشرين من عمره ويسافر في مغامرات غريبة إلى الهند ومصر والحبشة، يحمل آلامه وأوصابه إلى الأقطار القاصية. ثم يعود إلى فرنسة كليلاً مريضاً، ويدخل إلى مستشفى مارسيلية ليموت في شيخوخة روحية وعمره لا يتجاوز السّابعة والثلاثين.

أما السيّاب فقد رأيناه لا يقرّ له قرار في حياة قصيرة، مفعمة بالشعر والأحلام والمرارة والآلام، والعمل والتدريس والسجن والتشريد، حتى ينطفىء سراجه غريباً كئيباً.

ذاق الحبّ فقال:

هل تسمّين الذي ألقى هياماً،
أم جنوناً بالأماني أم غراما؟
أم خفوق الأضلع الحرّى إذا حان التلاقي
بين عينينا، فأطرقت فراراً باشتياقي

عن سماء ليس تسقيني إذا ما
جئتها مستسقياً إلا أُواما

* * *

هل يكون الحبّ أنّي
بتّ عبداً للتّمنّي،
أم هو الحبّ اطّراح الأمنيات
والتقاء الثغر بالثغر ونسيان الحياة،
واختفاء العين في العين انتشاءا
كانثيال عاد يفنى في هدير
أو كظلّ في غدير؟ . . .
أمس، بالأمس التقينا في سفار
هاج ذكرى كاد ينساها وينساني زماني.
كان يوم آمنت فيه الأماني بالأماني.
كان يوم فكّ عن ساعاته غلّ المدار،
ثم أمسى تحت أقدام اللّيالي،
مثل جرح في الرمال
داسه الركب وسار. . . .

* * *

العيون الحور لو أصبحن ظلاً في شرابي،
جفّت الأقداح في أيدي صحابي
دون أن يحظين حتى بالحباب
هيّئي، يا كأس، حافاتك السّكرى مكانا
تتلاقى فيه يوماً شفتانا
في خفوق والتهاب،
وابتعاد شاع في آفاقه ظلّ اقتراب. . .

وطمح أن يحمل عبء البشرية، كما حمل أطلس بطل الأساطير الإغريقية السّماء على كتفيه، وأن يصنع القدر ويبعث الحياة، فقال:

بويب، يا بويب،
عشرون قد مضين كالدهور كلّ عام.
واليوم حين يطبق الظلام،
وأستقرّ في السّرير دون أن أنام،
وأرهف الضمير دوحة إلى السّحر
مرهفة الغصون والطيور والثمر،
أحسّ بالدماء والدموع كالمطر،
يفضحهنّ العالم الحزين.
أجراس موتى في عروقي ترعش الرنين،
فيدلهمّ في دمي حنين
إلى رصاصة يشقّ ثلجها الزؤام
أعماق صدري، كالجحيم يشعل العظام.
أودّ لو عدوت أعضد المكافحين،
أشدّ قبضتيّ ثم أصنع القدر.
أودّ لو أخوض في دمي إلى القرار
لأحمل العبء مع البشر،
وأبعث الحياة. إنّ موتي انتصار!

والسيّاب بعد ذلك ابن البصرة البارّ، ففي شعره نخلها الباسق، والماء تضربه مجاذيف الزوارق، وشط العرب الذي يرتمي في الخليج حيث اللؤلؤ والمحّار. وهو ابن قريته الصغيرة جيكور التي اشتهرت باسمه وجدولها بويب الذي زاده التصغير صغراً.
أليس يقول:

وأنت يا بويب،
أودّ لو غرقتُ فيك ألقط المحار،
أشيد منه دار،
يضيء منها خضرة المياه والشجر،
ما تنضح النجوم والقمر،
وأغتدي فيك مع الجَزْر إلى البَحر.
فالموت عالم غريب يفتن الصغار،
وبابه الخفيّ كان فيك، يا بويب...

ويقول:

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السَّحَر،

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.

عيناكِ حين تبسمان تورق الكروم،

وترقص الأضواء كالأقمار في نَهَر.

يرجّه المجذاف وهناً ساعة السّحر،

كأنّما تنبض في غَوْريهما النجوم.

***

وتغرقان في الضباب من أسىً شفيف

كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء،

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،

والموت والميلاد والظلام والضياء.

فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء،

ونشوة وحشية تعانق السّماء،

كنشوة الطفل إذا خاف من القمر...

***

السيّاب شاعر المطر: إن الوابل المنهمر قد أثار شعور الشعراء، فمنهم من وجد فيه البهجة والسرور كفكتور هوغو الذي قال:

«ما أرطب المساء وأطيبه. لقد هطل المطر في الصباح، فاخضرّت أبسطة العشب النديّة. وطار الطير في ظلال الأشجار ينفض أجنحته المبتلّة. فلتباركه السماء، هذا الطير المسكين! إنه يسمع صفير الريح، وينطلق في الغناء، ويرى قطرات الماء تلمع في عشّه كاللآلىء».

ويمضي الشاعر بعد ذلك إلى وصف السماء التي عادت إلى زرقتها، والأرض التي حظيت بالخصب، والجدول الذي امتلأ وفاض وارتمى من فوق الحصى كالشلال على النمل...

ومنهم من وجد في المطر الحزن والشجون، كالشاعر الفرنسي سوللي برودوم الذي أصغى إلى وقع القطر الراتب وبكاء أوراق الشجر وحزن الهواء الذي كدّر صفو الطيور. ولقد أصبح الأفق ستاراً شاحباً... وغدت الأرض وحلاً والسماء ضباباً. وضجر الإنسان، فيا لحزن المطر!

أما الشاعر الأميركي هنري وادزورث لونغفيلّو فقد استطاع أن يرى في المطر جانبيه البهيج والكئيب: فهو في قصيدته «المطر في الصيف» يقول:

«ما أجمل المطر!

بعد الغبار والحرّ اللافح، في الشارع العظيم الواسع وفي الزقاق الضيّق، ما أجمل المطر!».

ويمضي في تعداد مزاياه، يصف وقعه على السقوف كحوافر الجياد وتدفقه في أفواه الميازيب... والرجل المريض في غرفته يرى من النافذة الجداول الطافحة فيشعر بالبرد والهدوء والسلام. وفي الريف الظامىء يرحّب العشب الجافّ والحبّ المجدب ببركات المطر، وترفع الثيران التعبة الصابرة رؤوسها الرازحة تحت النير لتشكر الله على نعمته...

لكنّ هذا الشاعر نفسه في قصيدته «اليوم الماطر» يقول:

«إنّ النهار بارد ومظلم كئيب. فالمطر يتساقط، والريح تهبّ ولا تملّ. والكرمة تلصق بالجدار المتعفّن، لكنّ أوراقها الميّتة تسقط في كل هبّة. فيا للنهار المظلم الكئيب!...».

والمطر لدى بدر شاكر السيّاب كئيب ينذر بالوحدة والضياع ويرسم الأشباح في مقلة العاشق. فلنستمع إليه يقول:

أتعلمين أيَّ حزن يبعث المطر،
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر،
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء ـ كالدم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطر!
ومقلتاكِ بي تطيفان مع المطر،
وعَبْرَ أمواج الخليج تمسح البروق
سواحل العراق بالنجوم والمحار،
كأنّها تهمّ بالشروق،
فيسحب الليل عليها من دمٍ دِثار.
أصيح بالخليج: «يا خليجْ،
يا واهب اللؤلؤ والمحار والرّدى!»
فيرجع الصّدى
كأنه النشيج:
«يا خليج،
يا واهب المحار والردّى».

وكـذلك يتلمّس السيّـاب طـريقـه بين النهر والضبـاب والضيـاء والظـلام والموت والضيـاع، فيلتقي، من دون أن يعلم، بأرتـور رامبو الـذي يقـول في مقطـوعته «نـائم الوادي»، نظمها احتجـاجاً على الحرب الفرنسية الألمانية سنـة ١٨٧٠، وعمره آنذاك لا يربو على السادسة عشرة:

«ذلك ثقب من الخضرة يغنّي فيه النهر، ويعلّق في جنون بالأعشاب أسمال اللُّجَيْن، وتلتمع الشمس الفخورة بالجبل. إنه وادٍ صغير مزبد بالأشعّة.

«وثمّـة ينـام جنـدي صغير، مفتوح الفم، حـاسر الـرأس، غـارق العنق في نبـات الجرجير الأزرق الطـريّ. وهو منبسط على العشب، تحت السحـاب، ممتقع الوجـه في فراشه الأخضر حيث تمطر الأضواء».

«وينام، وأقدامه في السّـوسن، باسماً كما يبتسم الصبيّ المريض، مخلداً إلى الوسن. أيتها الطبيعة، ألا هدهديه بدفئك، فقد خدّره البرد».

«إنّ العطر لا يحرّك خيشومـه، فهو ينام في الشمس، ويـده على بطنه، هادئاً، وفي جانبه الأيمن ثقبان أحمران».

ولـو تسنّى لنا وصف ممـات بدر شـاكر السيّـاب في مستشفى الكويت، هل كـان يسعنا وصفه مجازاً بأحسن من هذه المقطوعة؟

نقد شعر السيّاب وكتب عنه عـدة أدباء. فارتأى حسين داود خضر أن السيّاب بدأ حياته الأدبية شاعراً وجدانياً، وكان معجباً بعلي محمود طه. وقرأ الأدب الإنكليزي، ولا سيّما شيلّي وجـون كيتس، فتأثـر بـه وغلب عليـه التشـاؤم والألم والمرارة، وكـان الحبّ موضوعه المفضّل. وأطلق شعره من قيود الأوزان التقليدية، وكان من روّاد الشعر الحرّ. ثم طوّف في أرجاء وطنه، فاتّصل بأبناء الشعب وتأمّل الطبيعـة في مشاهدها. ترك آنئذٍ الحب، وأخذ ينشـد مستقبلاً أفضل لـوطنه وأمّته. وفي هـذا العهد من حيـاته اكتشف ستيفن سبندر Stephen Spender وروبرت بـروك Rupert Brooke ووليم هنـري ديفز William Henry Davies و ت. س. إليوت T. S. Eliot. وحاول أن يطلق أفكاره من عقالها وأن ينهج ضربـاً من «الواقعيـة الحديثة» على مثال الشـاعر الإنكليـزي سبندر. ومال إلى الرموز والأساطير فتغنّى بعشتار وتموز ويأجـوج ومأجوج وقمر الزمان وأوذيس وهيلينا... وفي السنـوات الأخيرة من حياته انطـوى السيّاب على نفسـه. طغت عليه الأمـراض، وملكت فكرة الموت شعـوره، فتوقّع الموت في كلّ لحظـة. لم يبق له صـديق سـوى شعره، فعبّر عـن ذاته في المعبـد الغـريق ومنـزل الأقنان وشنـاشيل ابنـة الجلبي وإقبال. رفع الستار عن مسرح قفر كالصحراء، يعمره الحزن والخوف من النهاية الهائلة المريعة.

وقال حميد سعيـد: «لقد كان السيّاب رائداً وكان نقطة تحوّل، لا بـالنسبة للشعر في

العراق، بل بالنسبة للشعر العربي . . . وفي اعتقادي أنّ السياب هو الثورة الأولى على الشكل الكلاسيكي رغم كل ما يقال . . . ورغم عدم إنكاري لوجود محاولات عاصرت وسبقت محاولاته التجديدية، إلا أنه يبقى نقطة التحوّل التي ذكرتها والإشارة التي تلفت الأنظار إلى الشعر الجديد . . .»

وقال عبد الجبار داود البصري: «. . . ومن هنا يصحّ القول إنّ تأثره كان إيجاباً وسلباً، تجاذباً وتنافراً. فقد جذب القوم إلحاحه على إيجاد نغمات جديدة وتعابير طازجة وأساطير غريبة وأفكار معاصرة، مع مظهر قصائدي يوحي بالفخامة ويتشبّه بالقصور . . . وبعد وفاته، كان صوته سوطاً يلهب ظهور هذا الجيل ويهدّد أصالتهم بالإذابة . . . فهو رائد للشعر الحرّ باعتبار ما كان، وهو دافع من دوافع الموجة الجديدة باعتبار ما هو كائن . . .».

وقال علي الحلّي: «كان السيّاب من أوائل الذين تأثروا بالشعر الأجنبي من خلال قراءاته الكثيرة له، ومن ثمّ ولعه بالأساطير الإغريقية وأشعار ت. س. اليوت واديث ستويل وستيفن سبندر وعزرا باوند وولت ويتمان، فانطبعت أعمالهم وخصائصهم وأجواؤهم الحدسية والنفسية في كثير من شعره . . . كان السياب يرى بأنّ حركة الشعر الحرّ تطوّر في مفهوم الشكل الفنّي للشعر العمودي وليست عملية إلغاء وجحود وإنكار للتراث الشعري، كما يراه أدباء الضياع اليوم. لذلك فإنّ الأثر الذي تركه بدر شاكر السيّاب في شعر هؤلاء كان حاداً وبليغاً دفعهم إلى الانسحاب السريع في متاهات التعمية الداكن وكهوف الشلل الذهني وأقبية الانغلاق الذاتي.

«لقد كان المضمون الشعري لدى السياب في قصيدته الحرّة، قبيل استسلامه للمرض، عميق الإيمان بالشعب، كافراً بالصّنمية الفردية، واضح الملامح الفنية، متّسماً بأصالة الشخصية والثقة والإبداع المجنّح والحبّ للإنسان، في حين يدور الكثير من الشباب الأدباء بعده في دوّامات عاتية من القلق والضياع والتحنّط واليأس والهروبية وكره الحياة واحتقار التفاؤل وزرع الشكوك في أعماق الوجدان الإنساني . . .».

وقال سامي مهدي: «لقد كان السياب شاعراً أصيلاً، وكان له لهذا السبب أثره البيّن على الشعر العراقي المعاصر. وهذا الأثر هو في كل الأحوال أشدّ من أثر زملائه. فالسياب أثّر في بناء القصيدة وعروضها وموسيقاها وأجوائها ولغتها وحتى مفرداتها ورموزها. ويمكن القول بثقة واطمئنان إنّ هذا الأثر قد امتدّ إلى الشعر العربي المعاصر بمجموعه . . .».

وقال خالد علي مصطفى: «إنّ شعر السياب يتدرّج في إيحاءاته ابتداءً من البيئة ومروراً بالوطن الصغير (العراق) إلى الوطن الكبير (الأرض العربية) وانتهاءً بالعالم. وهذا التدرج هو تاريخ السياب النفسي والاجتماعي أيضاً. ومن هنا استطاعت «ذات السياب» الشعرية أن تستقبل روافد العالم الموضوعي بانسجام وتفتّح وحيوية».

وقال علي جعفر العلّاق: «وللسيّاب، قبل غيره، الريادة الحقيقية في استثمار الدلالات الميثولوجية اليونانية ومخزونات التراث العربي الموحية التي شحنت شعره بعوالم كثيفة وضاجّة بالقيم التعبيرية والعاطفية المذهلة».

وقال الناقد اللبناني الدكتور أنطون غطّاس كرم:

«إن السياب لم ينظم الشعر إلا بمقدار ما هو امتداد لمأساته الداخلية والتمزّق المعتمل فيه، فذوّب في مأساته كلّ فاجع أتاه، وحوّل إلى تجربته الوجدانية كل تجربة، وفي حمّى نفسه صهرت حمّى سيزيف وشعلة بروميثيوس وحرارة البعث من تموز والمسيح وتباريح جميلة بوحيرد وعدمية المحو من هيروشيما وأنين القوافل الضائعة من أرض المقدس.

يتضح لنا مصداقه في جيكور، مسقط رأسه، كيف نمت بنموّ ثقافته، من عهده الغنائي الحالم البريء إلى عهده الفكريّ المعقّد، من زمان الطفولة الريفية العذراء، تستفيق فيه حنان أمومة، وغابات نخيل، وصفاء ماء نمير، وانحناء فوق حبّ قديم من عهد الصّبا الأول، وحكايات من حلاوات الخوارق، إلى أن تصبح جيكور الكوى التي يطلّ منها على قضايا أمته، وعلى العالم الذي حاد عن محوره، بل تصبح هي العالم ومختصر مأساته وتطاحن متناقضاته: منها يرى الطهر فتتضخّم صورة البغاء، ويرى السكينة والسلام فيعظم ضجيج العالم، والحرمان الخصيب فيرى التخمة الجوفاء وانحراف العدالة والفوارق الطبقية والمثال وضده، ودفء الدار والقرية المعذبة، والموت والبعث، والضعف المستكين والاستبداد السّاحق...»

بدر شاكر السيّاب

عرفت الشاعر بدر شاكر السياب في سنة ١٩٥٧ أو نحوها. فقد كان معتقلاً، وتوسّط جماعة له عند عبد الرزاق الشيخلي ليسعى في إطلاق سراحه. وكان رئيس الوزراء نوري السعيد قد عاد لتوّه من رحلة إلى الخارج، فذهب الشيخلي لمقابلته.

قال نوري السعيد: ماذا أتى بك، يا عبد الرزاق، وأنت المعارض المزمن الذي لا ترضيك سياستنا؟.

ــ جئت أرجوك أن تأمر بإخلاء سبيل شاعر مسكين معتقل اسمه بدر شاكر السياب.

فقدم السعيد إلى الشيخلي ربطة عنق حريراً فاخرة قائلاً: هذه هديّة لك. ثم كلم دائرة الأمن تلفونياً سائلاً عن سبب اعتقال السياب، فقيل له إنه شيوعي خطر، وقد قبض عليه بهذه التهمة.

فقال الرئيس: إذا تبرّأ صاحبك من الشيوعية بتصريح يكتبه بتوقيعه فإننا نطلق سراحه.

وقدم السياب تصريح البراءة وأخرج من المعتقل. فجاء إلى عبد الرزاق الشيخلي وقال له: لماذا سعيت في الإفراج عني، وكنت في الأقل آكل وأعيش على حساب الحكومة في السجن، وأنا الآن لا مورد لي ولا عمل؟ فأخذه الشيخلي ومضى به إلى ناظم الزهاوي مدير الأموال المستوردة العام وأوصاه بإيجاد وظيفة له، ففعل.

روى لي الصديق الشيخلي هذه القصة وسألني هل أعرف هذا الشاعر، فقلت: إنني أقرأ له وأودّ أن أراه. فسأله أن يزورني، وجاءني بعد أيام إلى مكتبي، فتحدّثنا في الشعر والأدب. وكرّر زيارتي مرّات، ثم جاءت ثورة ١٤ تموز، فكان آخر العهد به.

نظم السياب، وهو في المستشفى الأميري في الكويت قبيل وفاته، قصيدة في مدح أمير الكويت عبد الله السالم الصباح وتطرق فيها إلى هجاء عبد الكريم قاسم. وجد القصيدة الشاعر علي السبتي ونشرها في مجلة الحوادث اللبنانية في ١٢ أيار ١٩٧٨. ومطلعها:

لمن زيّنوا بيت القوافي بمخمل؟ لذي لبد في دوحة المجد معتلي

وختمها قائلاً:

أريد التفاتاً منك نحوي هنيهة ففي لفتة من وجهك السمح مأملي

وصدرت في باريس سنة ١٩٨١ مختارات شعرية للسياب بعنوان «الخليج والنهر» مترجمة بقلم أندريه ميكيل إلى الفرنسية.

عبد الوهاب البياتي

الشاعر التقدّمي عبد الوهاب بن أحمد جمعة البياتي، من زعماء مدرسة الشعر الحرّ في العالم العربي، ولد ببغداد سنة ١٩٢٦ وتخرج في دار المعلمين العالية (شعبة اللغة والآداب العربية) سنة ١٩٥٠. عمل في التدريس والصحافة، ثم أقصي من الخدمة لميوله الشيوعية (١٩٥٤)، فغادر العراق وأقام في مصر والاتحاد السوفييتي.

وقد عاد إلى بغداد بعد ثورة ١٩٥٨، فعيّن ملحقاً ثقافياً في سفارة موسكو. ولم يلبث أن استقال من وظيفته ليقوم بالتدريس في جامعة الشعوب الآسيوية في العاصمة الروسية إلى سنة ١٩٦٥ حين مضى إلى القاهرة ثم عاد إلى العراق فعيّن مستشاراً في وزارة الإعلام. وفي سنة ١٩٨٠ منحته الحكومة العراقية تفرّغاً مدى الحياة للانصراف إلى النظم، فاختار الإقامة في مدريد وعين مديراً للمركز الثقافي العراقي فيها.

من مؤلفاته: ملائكة وشياطين (١٩٥٠) أباريق مهشّمة (١٩٥٤) رسالة إلى ناظم حكمت (١٩٥٦) بول إيلوار مغنّي الحبّ والحرية (١٩٥٧) أشعار في المنفى (١٩٥٧) المجد للأطفال والزيتون (١٩٥٦) عشرون قصيدة من برلين (١٩٥٩) كلمات لا تموت

(١٩٦٠) النار والكلمات (١٩٦٤) سفر الفقر والثورة (١٩٦٥) الذي يأتي ولا يأتي (١٩٦٦) قصائد (١٩٦٥) تجربتي الشعرية (١٩٦٨) الموت في الحياة (١٩٦٨) عيون الكلاب الميّتة (١٩٦٩) الكتابة على الطين (١٩٧٠) إلخ. وله مسرحية «محاكمة في نيسابور» (١٩٦٣).

قال في مقابلة صحفية: «. . . أنا لا أعتبر الشعر هو الوسيلة الوحيدة للتعبير. وحتى الشعر نفسه لا أكتبه لكي أكون شاعراً فقط، بل إنني أستخدم القصيدة وسواها أسلحة من أجل عملية التقدم والتغيير الاجتماعي ومن أجل خلق قيم إبداعية حضارية جديدة. كما أنني أستخدم القصيدة أيضاً سلاحاً للدفاع عن الإنسان ضدّ الشرّ والجريمة. وإنني لا أريد أن أجعل من القصيدة شعراً فقط لا غاية له بالرغم من أن القصيدة عالم قائم بذاته ولذاته. ولكن هذا العالم، من خلال ديمومته وحركته، يؤدي إلى التغيير النوعي في رؤية الإنسان. ومن هنا، أي من عملية منح الإنسان رؤية جديدة، يمكن منحه أسلحة جديدة لمقاومة الواقع الفاسد. وأريد أن أوضح الأمر أكثر، فأقول إنني ألتزم بطقوس الشعر التزاماً كاملاً. ولكنني وأنا ألتزم بها التزاماً كاملاً لا أريد جعلها غاية فقط كطقوس شعرية أو فنية، بل أريد أن أجعل منها طقوساً ثورية حضارية. وهذا الطموح يمثل أوج ما يطمح إليه أي فنّان حقيقي في كافة العصور. . .» (المجلّة، جدّة، ٢٧ آذار ١٩٨٢).

وقد أسف البياتي لمظاهر التجزئة الإقليمية والسياسية والاقتصادية التي أخذت تعكس آثارها على الأدب العربي، بالرغم من أن الثقافة العربية حاولت جاهدة، كما قال، أن تحافظ على وحدتها طوال العصور. ونسب ظهور عوامل التجزئة إلى عوامل الغزو الثقافي الداخلي والخارجي. ولاحظ اختفاء الاتجاهات والمدارس المرتبطة بواقع الثقافة العربية قديمها وحديثها وبالواقع العربي وحركة الجماهير العربية.

بُلَنْد الحيدري

شاعر الشباب العراقي المجدّد بُلَنْد أكرم الحيدري، ينتمي إلى الأسرة الحيدرية الشهيرة. ولد في بغداد في ١٤ أيلول ١٩٢٦، وذاق مرارة اليتم صغيراً، فنشأ بوهيمياً لا يستقرّ على حال، يتنقّل من درس إلى درس ومن عمل إلى عمل. تعرّف إلى الفنان جواد سليم فالتمس أن يقوم معه بتجربة فنية تمزج الشعر بالرسم. وحاول إصدار مجلة أدبية عصرية. ثم كان مساعداً لمحمود فهمي درويش في تحرير مجلة «الزراعة» العراقية. وانتهى به المطاف في بيروت التي اتخذ منها سكناً وملجأً روحياً. وأصبح سنة ١٩٧٠ رئيساً للمؤسسة اللبنانية للطباعة والنشر وسكرتيراً لتحرير مجلة العلوم البيروتية فرئيساً

لتحريرها. واشترك في سنة ١٩٧٤ مع عـالية ممدوح في الإشراف على تحرير مجلة «الفكر المعاصر» البيروتية.

وعاد إلى بغـداد بعد ذلك وأصبح سكرتيراً لتحريـر مجلة «آفاق عربيـة». تأثّر بأدب المهجر وعمر أبي ريشة والياس أبي شبكة، ثم اشتقّ لنفسـه نهجاً خاصاً في الشعر طالما سار عليه ثم طلّقه وعاد إليه.

أصدر مجمـوعته الشعـرية الأولى «خفقـة الطين» (١٩٤٧) وعمره لا يكـاد يتجاوز العشرين. ثم تبعهـا بمجموعـات أخرى: أغـاني المدينة الميتـة (١٩٥١) أغاني المدينـة الميتة وقصائد أخرى (١٩٥٧) جئتم مع الفجـر (١٩٦٠) خطوات في الغربة (١٩٦٥) رحلـة الحروف الصفـر (١٩٦٨) قصـائد جـديـدة (١٩٦٨) أغـاني الحارس المتعب (١٩٧٠) حوار عبر الأبعاد الثلاثة (١٩٧٢).

شعره:

وضعت الحرب العالمية الثـانية أوزارها، وفرك الشباب عينه التي بهرهـا فجر السلام الطالع وأرخى أذنيـه يتمتع بهدوء لم يشهده من قبل، ذلك الشباب الذي شبّ وتـرعرع على هديـر المدافع والقذائف وأخبـار الفتك والتقتيل والتدمير وأهـوال الجوع والتشريد والحرمان. نشأ ذلك الشباب في دوّامة كابوس شديد جثم على صدر الإنسانية المعذبة. والآن، وقد انتهت المعـارك، هل يعود إلى الإيمان بـالقيم الأخلاقيـة ويعقد الـرجاء على صلاح البشرية؟ لقد حلّ محلّ الشك والجحود والتهافت حلّ محلها صراع نفسيّ يجذب ويدفع ويهدّىء ويثير ويـدهور ويـرفع ويهزّ ويسند ويخذل، ويـرسم الأحلام ويجسّم الأوهام آناً وآناً يحدو على اليأس والقنوط.

وبـرزت تلك السمات أبرز مـا تكون في شعـراء الشباب الـذين تقرّوا مـواضعهم بين المباني والمعاني، فخرجوا بشعر جديد سماتـه المشتركة الأصالة وسهولة الأداء. لقد صدر الشعر الجديد عن منابع صافية من النفس البشريـة أو الحياة الواقعية، واحتفل بالمعاني والأداء قبل الكلمات والتراكيب، وآثـر البحـور والأوزان الخفيفـة والأشكـال الشعـريـة السهلة والقوافي الـرنانة غير الراتبـة، وتنكّب المواضيع التقليدية من فخر ومـديح ورثاء ونسيب وهجاء.

كان شعر بلند الحيدري حين أصدر ديوانه «خفقة الطين» يجمع بين طيّاته كل تلك السمات ويعدّ شيئاً جـديداً في الأدب العراقي الحديث. فلم يمض عهد بعيـد كان فيه المثل الأعلى للشعر الديباجـة العباسية والمعاني المقتنصة دون مراعـاة لوحدة الموضوع ولا لمقتضيات حيـاة العصر. وفي تلك الآونـة سمعنا محمد هـاشم عطيـة، الأستاذ المصري المتزمّت، يقول في محاضرة له ببغداد: إن الشعر العـربي قد اختتم بالمتنبي، فدالت بعده دولته وخمدت صولته. وسمعت أحمد حـامد الصرّاف، الأديب الذكيّ الألمعي، يقول:

لقد انتهى الشعر بشوقي، ولعلّ الأخطل الصغير وأمين نخلة شاعران!

وإنه لتقدم واسع سريع أن تختزل الأبعاد وتطوى الأزمنة، فيصدر في عاصمة الرشيد ديوان شعر عاطل من الصناعة اللفظية والمحسّنات البديعية، خالٍ من المعاني المقلّدة الجوف والمواضيع البالية التي عفّى عليها الدهر. وليس ذلك فحسب، بل يجمع إلى ما تقدم إخلاصاً في الشعور والأداء وصراحة صارخة جريئة ونظرة إلى الحياة شاذّة غريبة.

وشاعرنا الحيدري على جلاء بيانه وقوة أدائه يستهين أحياناً باللغة ولا يوليها ما تستحقه من العناية كأداة للتعبير. وهو شاعر مطبوع ينظم عن سجيّة خالصة، فلا عجب أن جاء شعره بعيداً عن التعمل والتكلف، مفصحاً عن نفسه الفتيّة الجامحة. تفتحت عيناه على الحياة، والحرب العالمية ضاربة على المعمورة بالجران تغرق الأقطار الدانية والنائية في بحر من الدم والنار، وتصكّ الأسماع بأنباء التقتيل والتدمير، وتهيج النفوس بأحداث لم تألفها البشرية منذ مبدأ الحضارة في هذا العالم المضطرب الصخّاب. نشأ فتانا وأدرك الحياة فانطبعت عواطفه وأفكاره بطابع جيله القلق الفائر الحيران. أليس من ظواهر ذلك الاضطراب تلك الحمّى النفسية التي تنبعث من الأشطر والمقاطيع فتبرز على أشكال مختلفة من تمرّد وإغراب تارة وألم ومرارة طوراً؟ وذلك الشعور بالهرم والكلل والملالة وما يمتّ إليه من تعلّل بالذكريات وبرم بالحاضر وفقدان الثقة بالمستقبل، أليس غريباً من شاب في ميعة الصّبا لم يكد يجتاز عتبة الحياة؟

لقد ساءل الشاعر نفسه عن نفسه فقال:

مَن أنت، يا مَن ترهب الظلماء خطوته الرهيبة؟

يمشي كما شاءت عصاه كأنما حفظت دروبه

تتنفّس الأشباح في عينيه حالمة كئيبة

لا الليل أرعبها بما يملي ولا خشيت قطوبه

من أنت؟ . . . إني شاعر عمري أعاصير غريبة!

إنّ في شعر بلند الحيدري جانباً وجدانياً يبدو فيه تأثير إيليا أبي ماضي وأقرانه من شعراء المهجر، لكن هذا الجانب تشوبه مسحة من الكآبة وظمأ الروح وتطغى عليه نوازع الخيبة واليأس. لقد خرج الشاعر إلى الحياة حاملاً نفسه المرهفة وقلبه الجيّاش بالآمال، فما هي إلا لحظة حتى صدمته بحقيقتها المرّة وبدّلت ألحانه التي لم تكد ترتّلها شفتاه مراثي حزينة تنعي الشباب وتجحد الحبّ والهناء. التمس يومه الحاضر فقيل له: لا شيء هنا. وفتّش عن أحلامه المتلاشية فقيل له: لا شيء هنا. والتفت إلى غده يستشفّ مآتيه من خلال حجب الغيب، فقيل له: لا شيء هنا. حتى إذا ما أنس إلى فكرة الموت والفناء، قيل له: كل دنياك هنا!

بيد أن هذا الجانب من شعر بلند الحيدري ليتضاءل أمام الجانب الآخر، جانب

الثورة الصارخة والكفران بقيم الحياة. يمتّ هذا الجانب بصلة روحية إلى بودلير وأبي شبكة، وقد غلّته أكبال الجسد اللاصق بالرغام، فتطبّق على جحيم مائج بالأميال البهيمية، متأجج بالشهوة المستعرة، نشوان بالكؤوس التي لا تخلّف في الفم سوى المرارة، شقيّ بنقمة الأقدار و «لعنة التراب» و «دودة الطين جنّت في الدم المأسور».

فلنستمع إلى الشاعر يقول:

أنا من نار، وناري شهوة ... أحرقت جسمي وماجت في ضميري

أو يقول:

ما النار، ما الجنّة إلاّ صدى ... لنظرة ماجت بعين امرأة

ويقول:

نحن طين، وأيّ طين حقير، ... فلِمَ الخوف من خوالج طينك؟

إنّ بلند الحيدري الشاعر الموهوب مثال لأبناء جيله المبلبل الأفكار، المضطرب الحواسّ، الهائم في أودية الشك والضلال. لقد شهد صراع الحضارة البشرية في يومها الدامي العصيب، فخرج من تجاربه بالتجرّد والجحود والثورة السّاخرة المريرة. فلو لم أكن أدري دراية الممارس الخبير أنّ الشاعر لا يُسأل عن إلهامه، لخاطبت صاحب «خفقة الطين» قائلاً: مهلاً، أيها الفتى الموهوب، ورفقاً. لقد منحت جناحي طائر للتحليق في سماء الشعر الرفيعة، فما لك، شأن ملاك ألفرد دي فنيي(*)، قد يمّمت شطر العوالم السفلى تحاول هداية إبليس وردّه إلى حضيرة النعيم المقيم؟...

ولقد كتبت عن شاعر «أزهار الشرّ» فقلت: «إن بودلير قد بحث في شعره عن المثل الأدنى، لكن هذا المثل الأدنى قد بلغ من القوة والجلاء مبلغاً عظيماً حتى ليثير في النفس القشعريرة والاشمئزاز ويؤدي في آخر الأمر إلى التزهيد في ذاته والترغيب في نقيضه: المثل الأعلى». ولست أدري هل يسعني إطلاق هذا القول على شاعرنا الحيدري.

وسار بلند الحيدري في طريق النقمة والقلق والغضب والعقم والقنوط، فإذا هو شاعر «أغاني المدينة الميّتة» الذي يقول:

نفس الطريق

نفس البيوت، يشدّها جهد عميق

نفس السكوت.

(*) ألفرد دي فنيي في قصيدته «علواء» (Eloa) أو «أخت الملائكة» يروي قصة روح سماوية هبطت إلى الجحيم لتهدي الشيطان رأفة به وعطفاً عليه، فعلقت بحبائله وفقدت ملكوت السّماء.

كنّا نقول غداً يموت، وتستفيق
من كلّ دار
أصوات أطفال صغار
يتدحرجون مع النهار على الطريق
وسيسخرون بأمسنا، بنسائنا المتأفّفات
بعيوننا المتجمّدات بلا بريق.
لن يعرفوا ما الذكريات،
لن يفهموا الدرب العتيق
وسيضحكون لأنهم لا يسألون
لِمَ يضحكون...

وفي المدينة الميّتة رجل ميت يقول:

ساعي البريد،
ماذا تريد؟
أنا عن الدنيا بمنأى بعيد
أخطأتَ، لا شكّ، فما من جديد
تحمله الأرض لهذا الطريد...

ينظر الشاعر إلى أعماق نفسه فينكرها ويعجب لأمرها ويقول:

لا تهابي
هذه الريح التي تطرد من باب لبابِ
ذلك الأفق الذي ينمو برعب واضطراب
والدروب
إنها ملعب أحلام شبابي
هي بعضي،
إنها تلتفّ كالأفعى، ولكن... لا تهابي...

ولقد نظم إيليا أبو ماضي شعراً على لسان الزنجي المستعبد يفيض بالمرارة والحرمان، منه:

فـــوق الجمّيـــزة سنجـــاب والأرنـــب يمـــرح في الحقـــلِ
وأنـــا صيّـــاد وثّـــاب لكـــنّ الصيـــد على مثلي
محظـــور إذ إنّـــي عَبْـــدُ...

أما شعر الحيدري في العبودية ففيه مرارة من نوع آخر، مرارة هادئة ممزوجة باليأس تنبعث من أعماق الإنسان الذي يحسب نفسه حراً وهو إنما عبد أسير:

أكاد أثور، لكنّي

أحسّ الغلّ في أذني

يولول هازئاً منّي :

ويصرخ ضاحكاً: عَبْدُ! . . .

أنا العائش في ظلّي

أنا الموت بلا شكل

تُرى مَن أنت، يا غلّي؟

فعاد الصوت يشتدُّ

كأنّ عواصفاً تعدو

بأذنيّ وتربدّ :

أنا أنت، أنا العبد!

قال بلند الحيدري في حديث له : «القصيدة الحديثة تعبّر عن إشكالاتي كإنسان معاصر أكثر مما تعبّر عنها القصيدة الكلاسيكية. أحسّ بها، القصيدة الحديثة، أكثر ارتباطاً بالعصر من حيث فهمي العصري كمحاولة في تطوير البنيان الشعري. أما القصيدة الكلاسيكية فبإمكانها أن تحمل جوانب من نفسي تتميّز بالبساطة شدة ارتباطي بالمناسبة متجنّباً إبراز أعماقي المتداخلة ضمن تحرّك هذا القرن. ويظلّ الجواب أخيراً ارتباط القصيدة بالموضوع ذاته. ولكني لا أرتبط بالمناسبة ارتباط شعرائنا القدماء على أساس من تزييف في مدح أو رثاء. أنا لا أكتب القصيدة الكلاسيكية إلا منطلقاً من نفسي، مرتبطاً كل الارتباط بالموضوع الذي يثير فيّ كوامن عاطفة صادقة. . . ».

ومهما يقل بلند الحيدري فإنه يظلّ في قصيدته العمودية الكلاسيكية، كما في شعره الحديث المنطلق في متاهة من المصاريع والتفاعيل، ذلك الشاعر الباحث في قرارة نفسه، المترصّد للكلمات والتعابير التي تفصح عن قلقه وحيرته وتخلق الأجواء التي يحلّق فيها تحليقاً. وحسبنا مثالاً قصيدته التي ألقاها في الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة عمر فاخوري، وعنوانها «النسر»، يقول منها :

علونا فالذرى مرمى جناحي ... ودربي فيك، يا هوج الرياح

وبي من همّة صمدت ليالٍ ... تأبّت أن تكون إلى صباح

فليس الفجـــر لــــــلأحــــرار إلاّ مـــــرايـــــا تستبين بها جـــــراحـي
فيحصي ألـف فَـــــدْم مـــــا تبقّى بجسمي مـن لجاجـــات الــــرّمـــاح
وتشمـت بسمـــــــة في عين وغـــــــد مسحت بجلـــده بـــالأمس ســاحي . . .
ألا، يــــــا ليل، أطبـق إنّ مَسّــــــاً مـن النيران يــــــرعــــــد في جماحـي
تـألّق فــــــاصطلى أفـق وطــــــارت رؤى عــن عين حمقـــــاء وقـــــاح
لكـم حسبت بـأنْ جبنــــــاً أدرنــــــا وجـــوهـــاً عن وجـــوههم القبـــاح
وإني إذ عفـــــوت فعـن كـــــلال فما جـــرؤت ولا مــــرؤت رمـــاحي
وإن جبــــال قـــومي ســـوف تهوي لتـــــدفن مــــا تخاذل من ســــلاحي

أصدر بلند الحيدري سنة ١٩٩٠ مجموعة شعرية «أبواب إلى البيت الضيّق» .

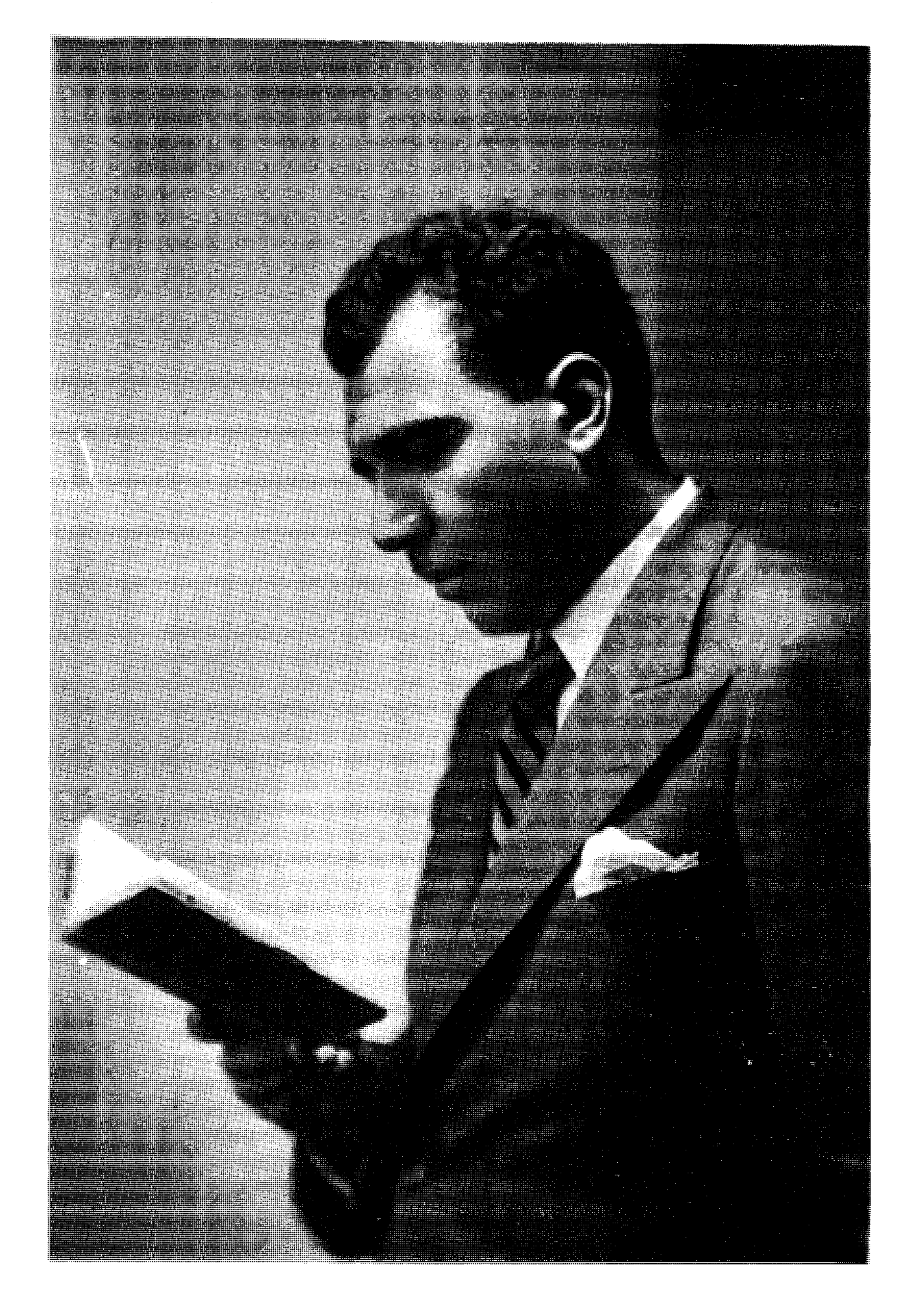


ملحق الصور

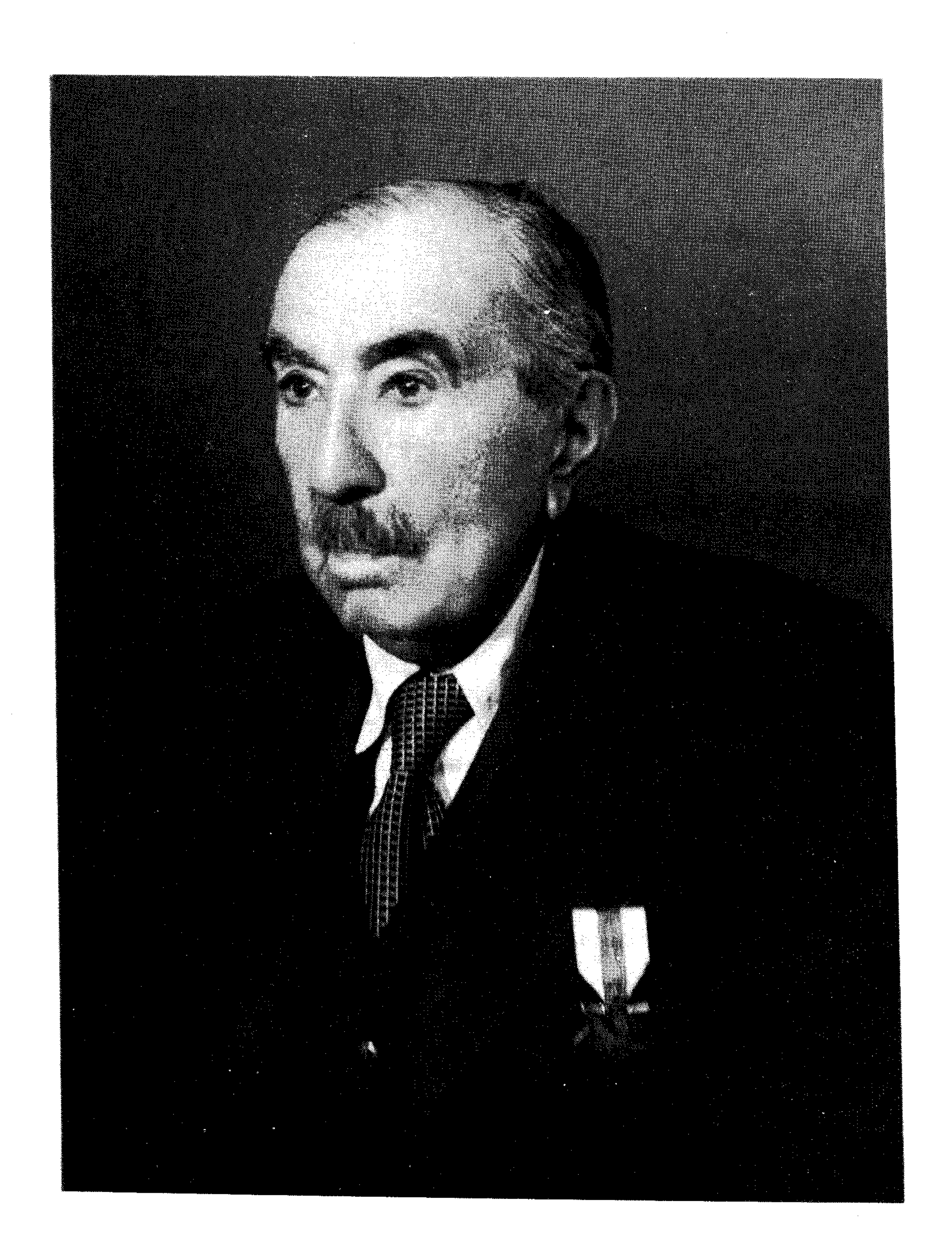




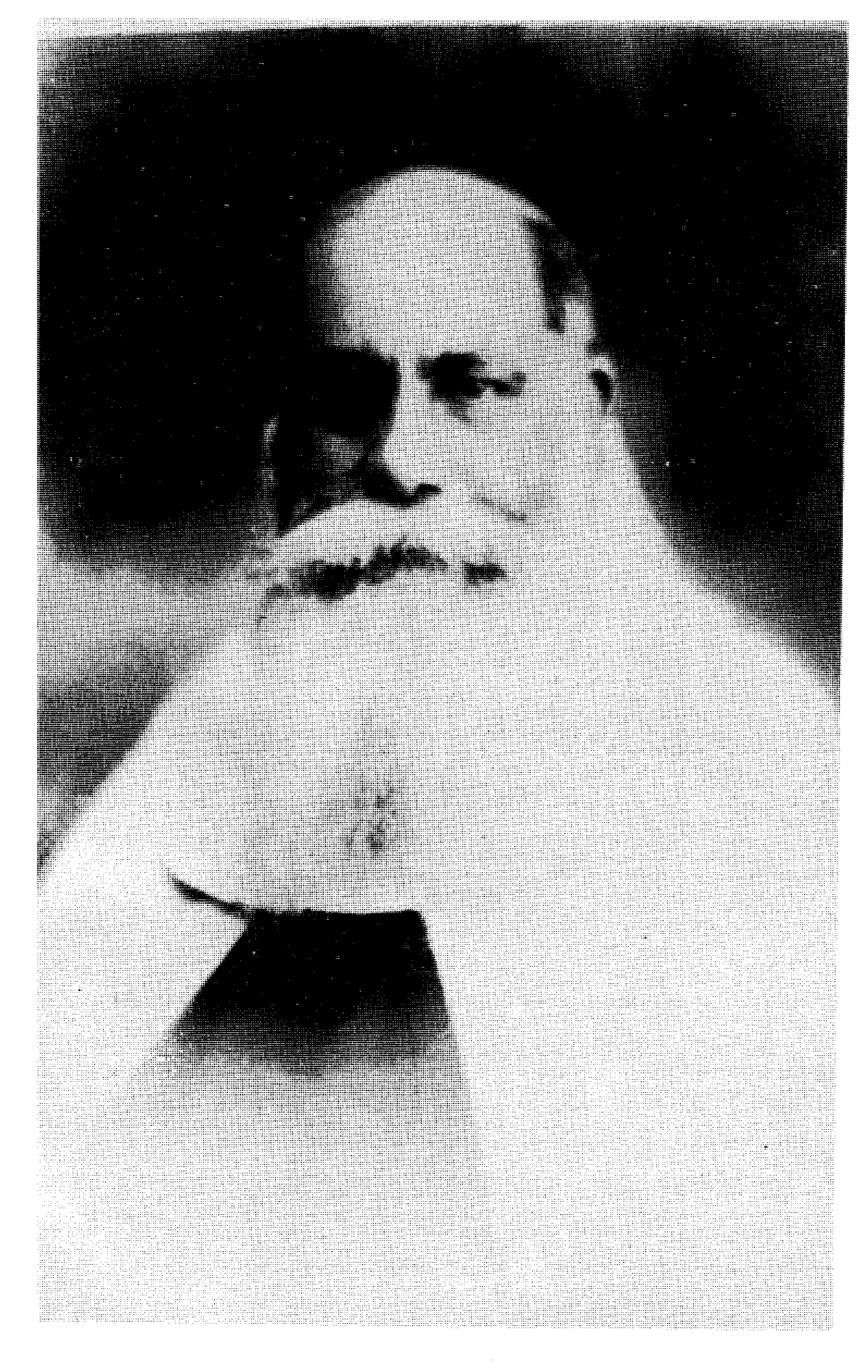
المحامي الشـاعر أنور شـاؤل



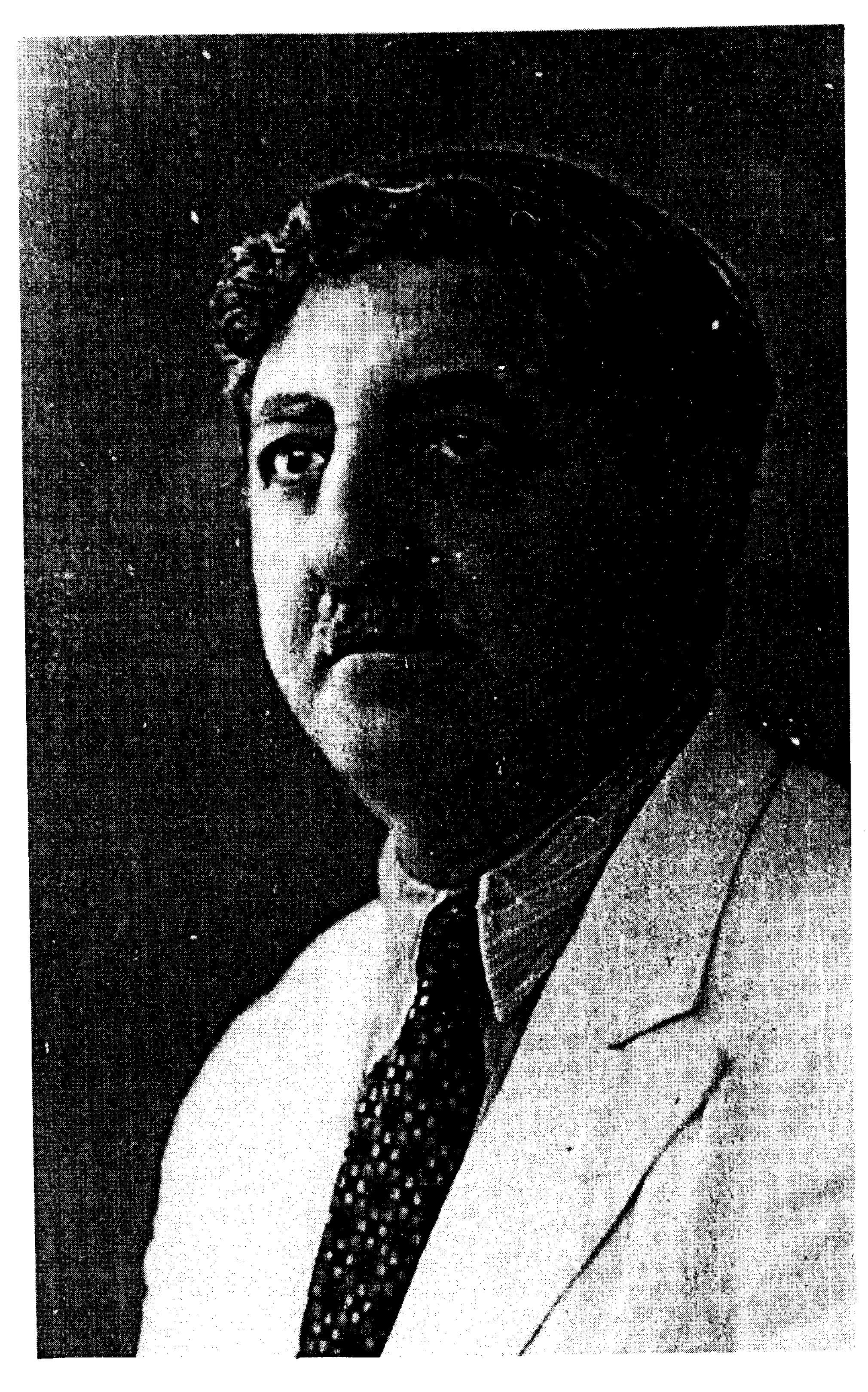
أحمــد حــامد الصــراف



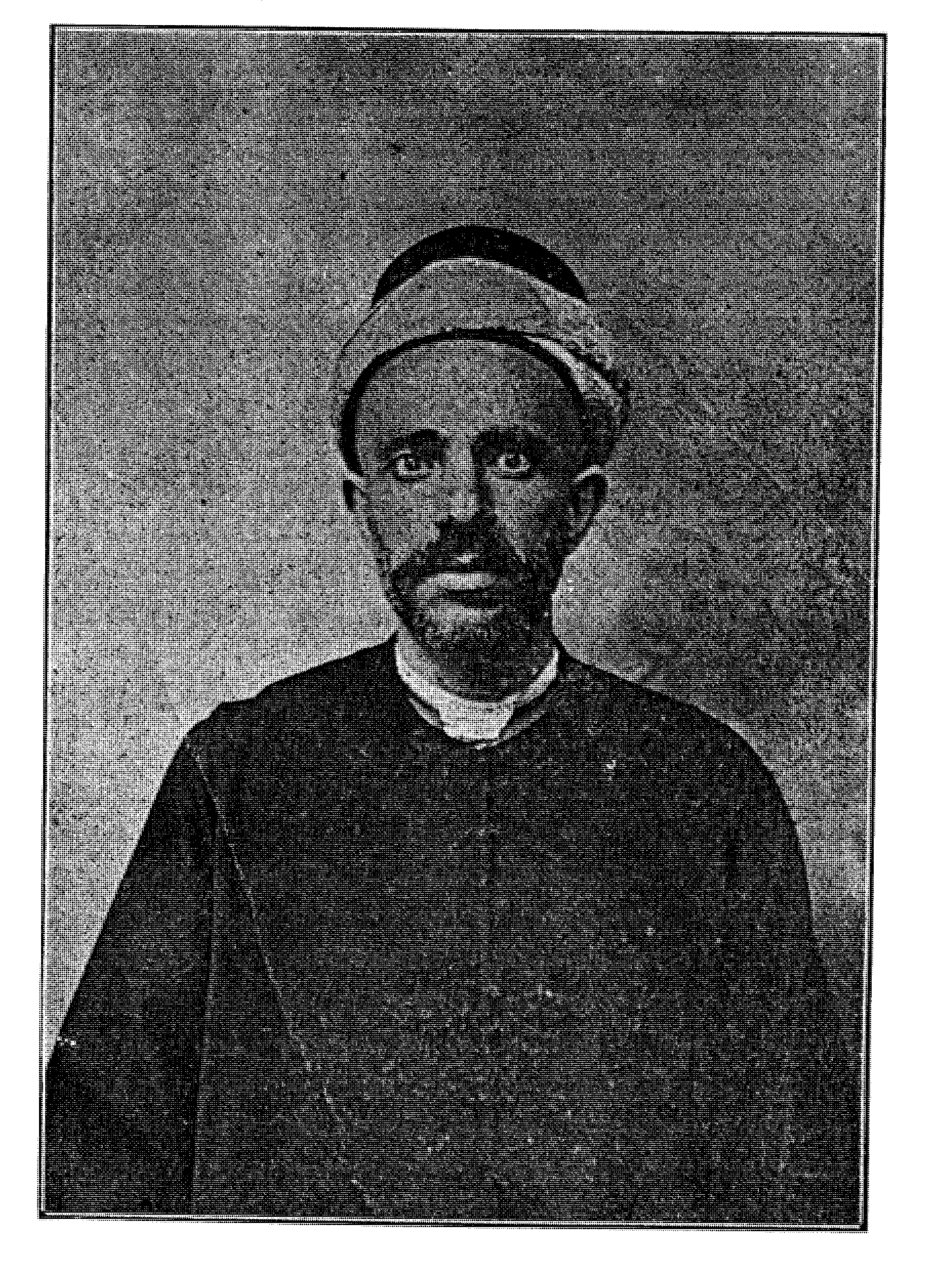
يعقـوب سركيـس



الأب انستاس ماري الكرملي



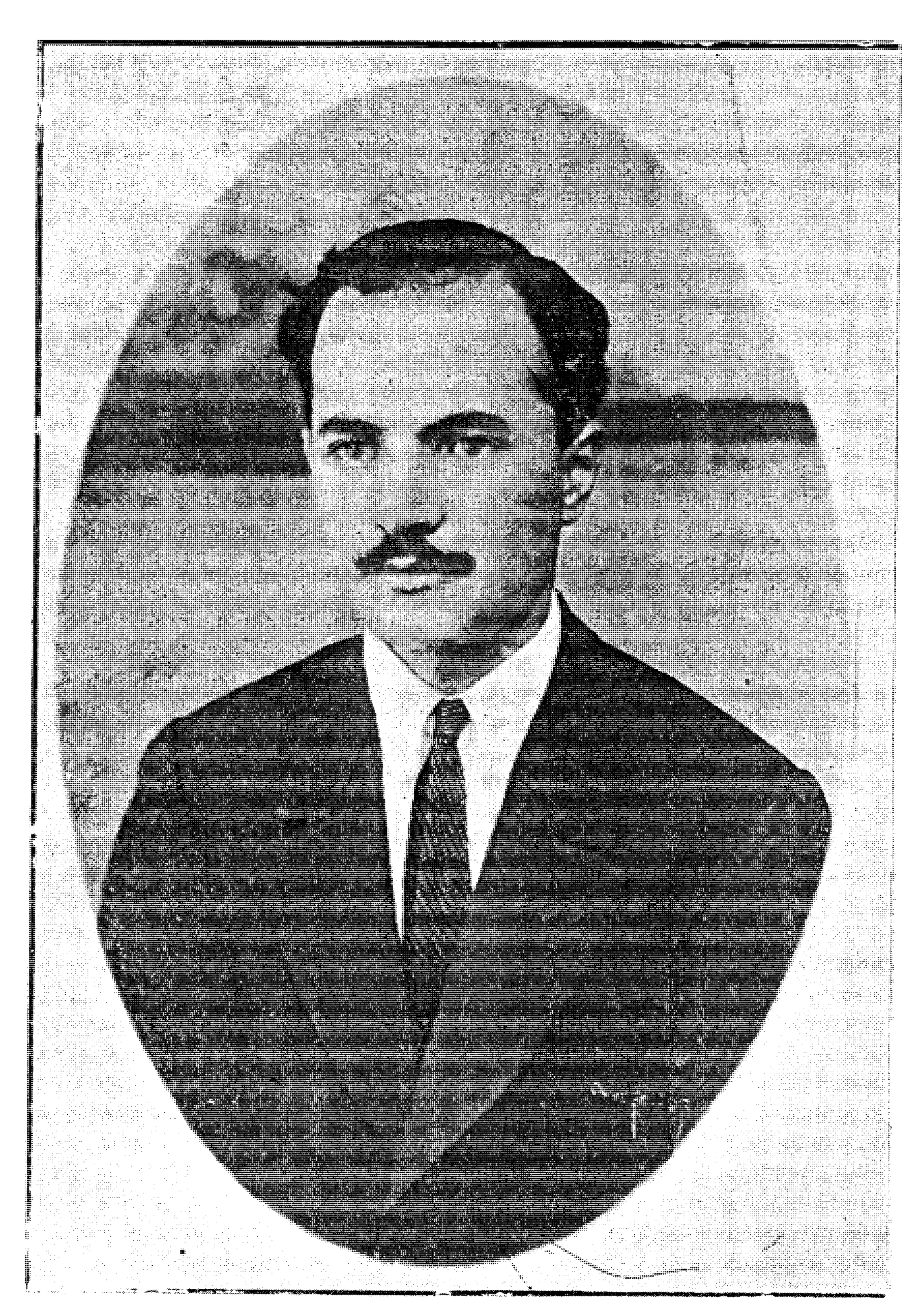
عبد المسيح وزير



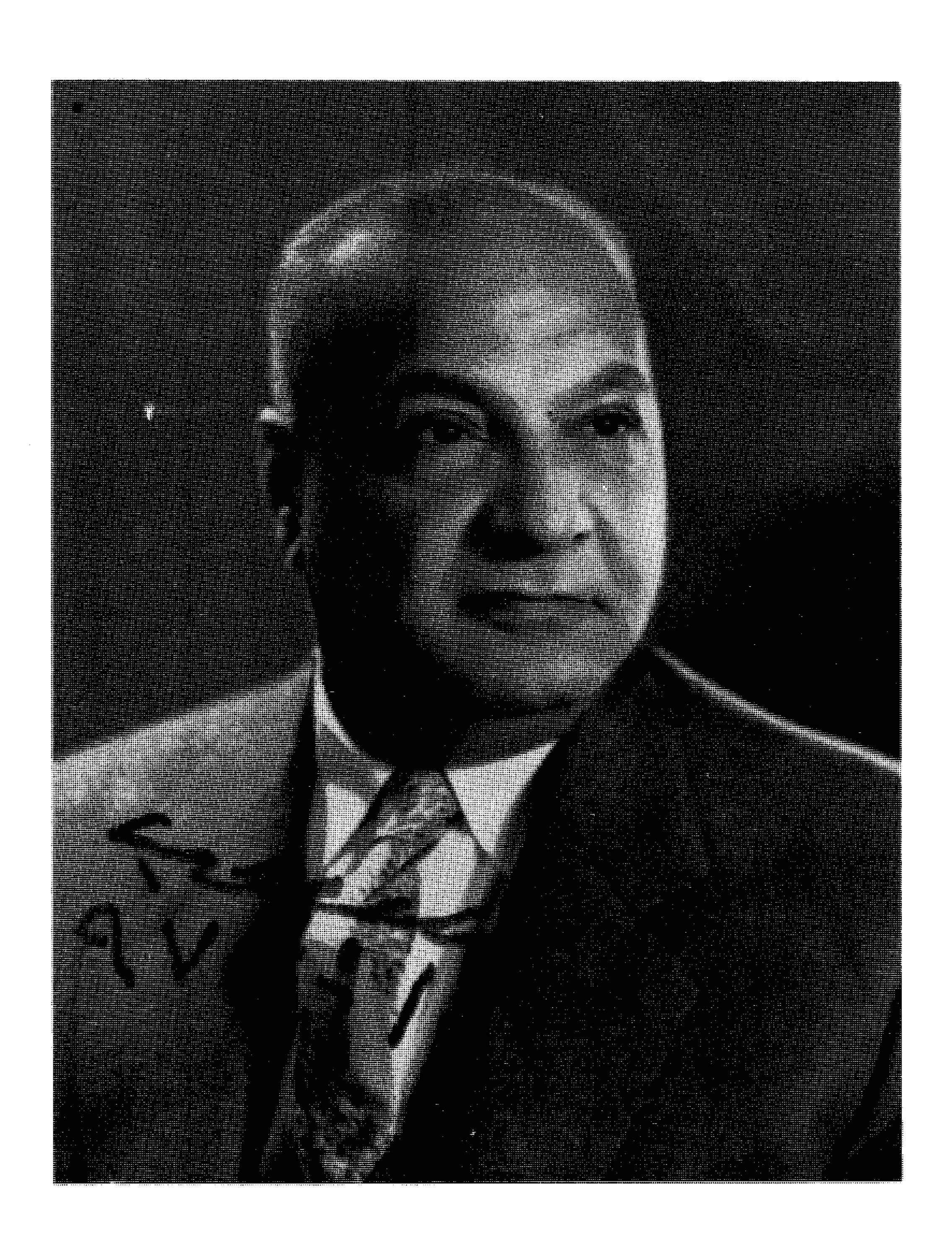
عبد الحسين الازري



المؤلف وأنور شاؤل مع الشاعر الكبير محمود الملاح (١٩٦٤) .



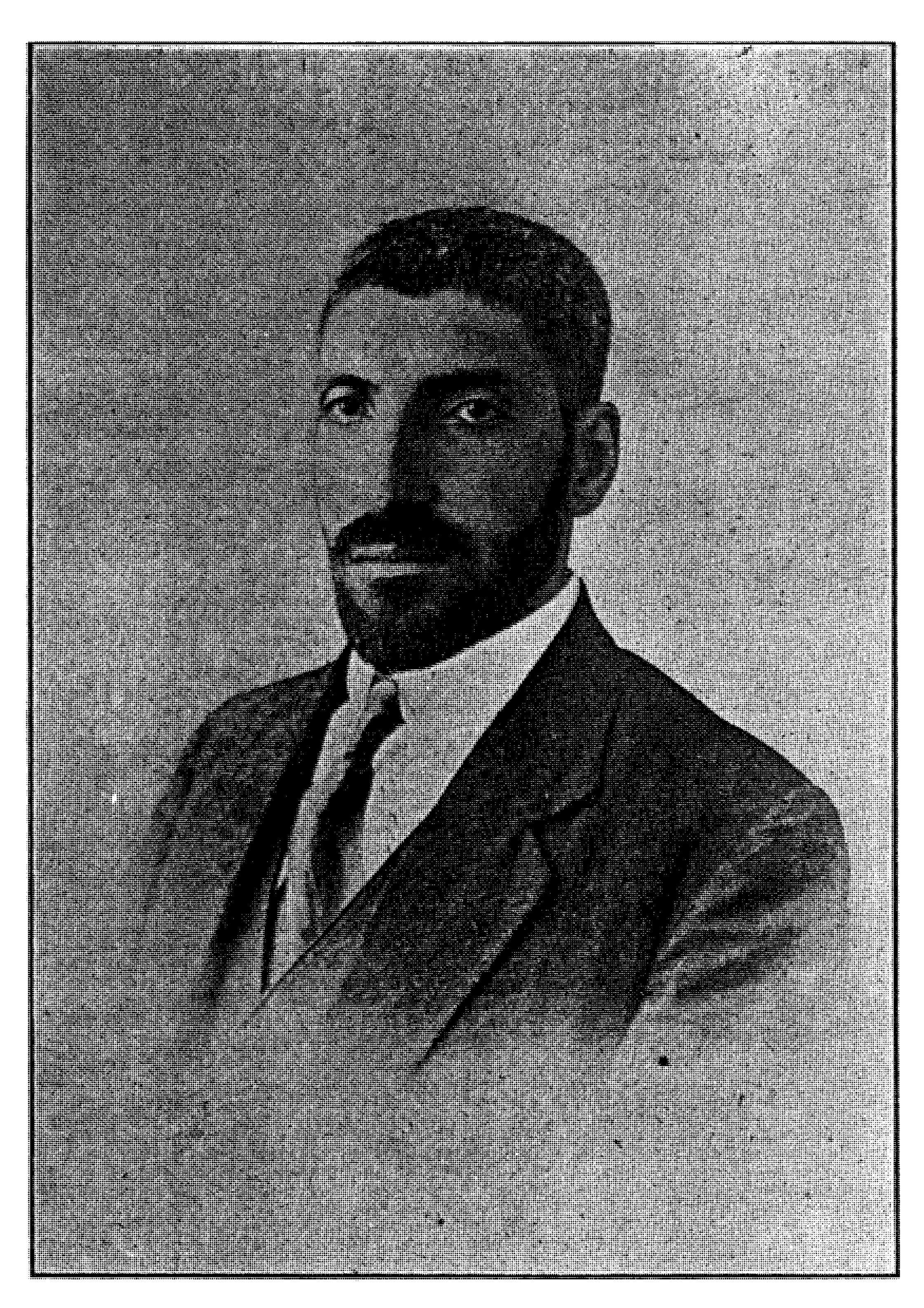
محمد الهـــاشمي



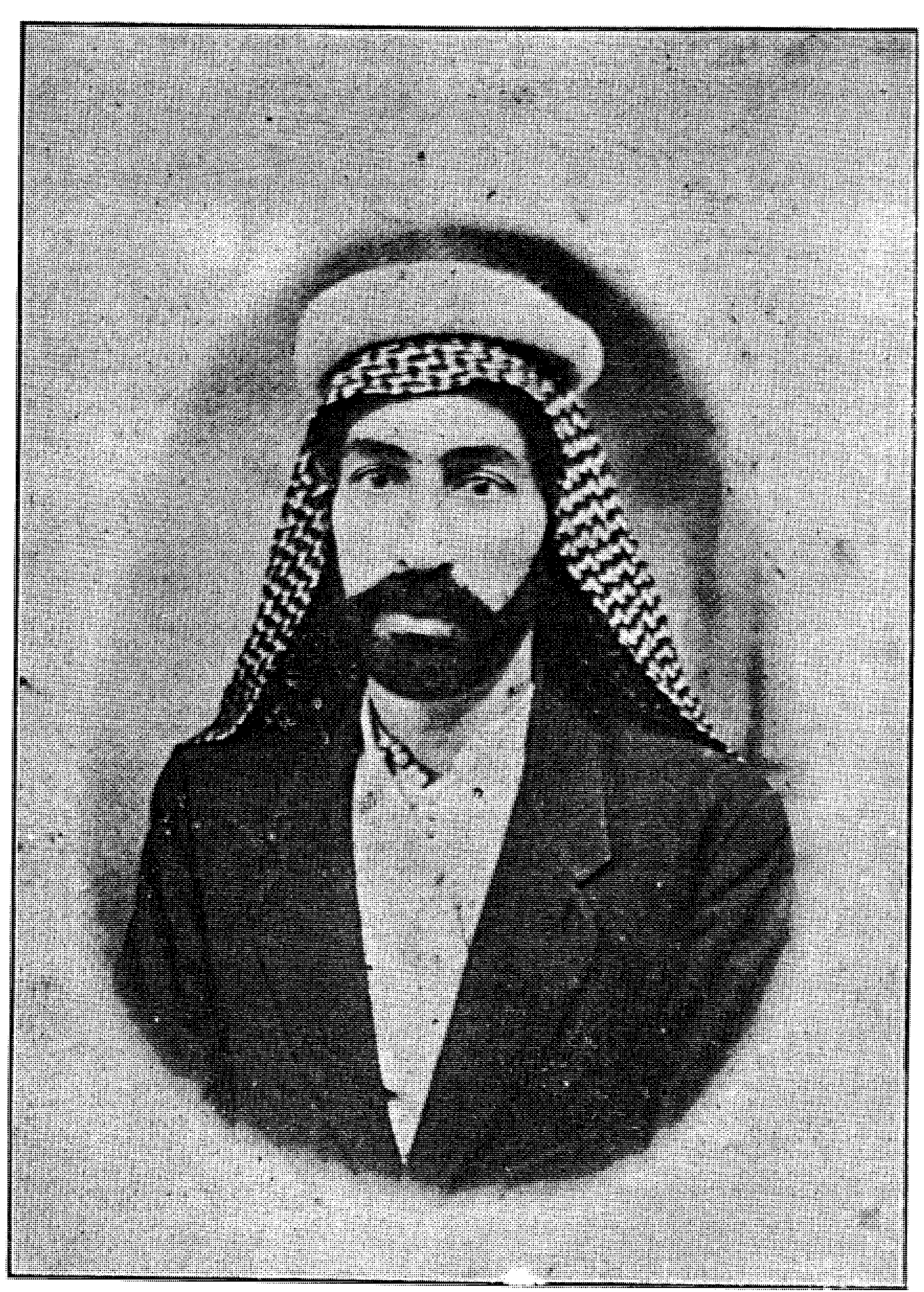
مصطفى علي



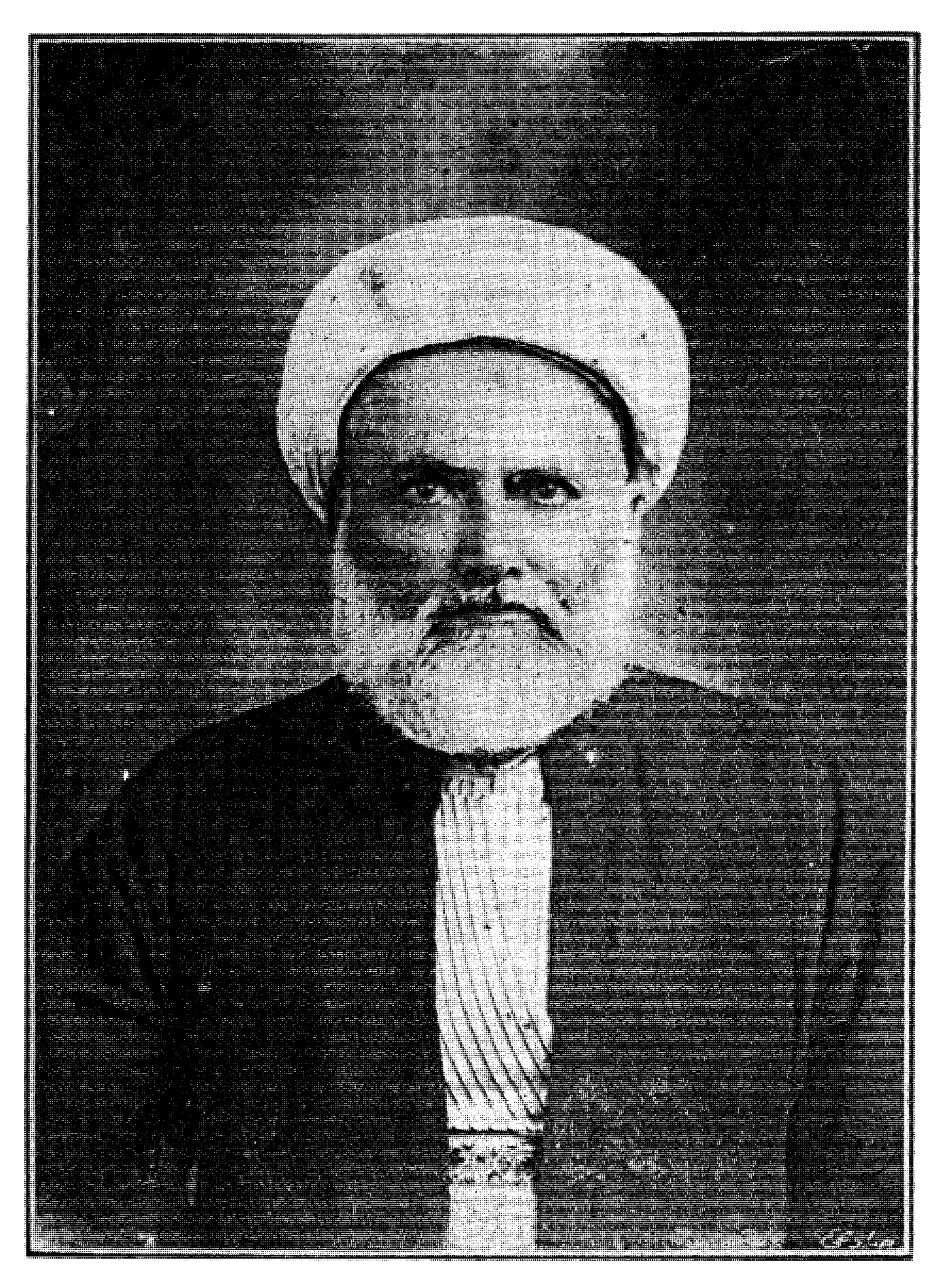
(دمشق ١٩٣٧) طلاب عراقيون مع أحمد الصافي النجفي (الرابع من اليمين) والى يساره محمد مهدي الجواهري



الشيخ كاظم الدجيلي



خيـــري الهنداوي



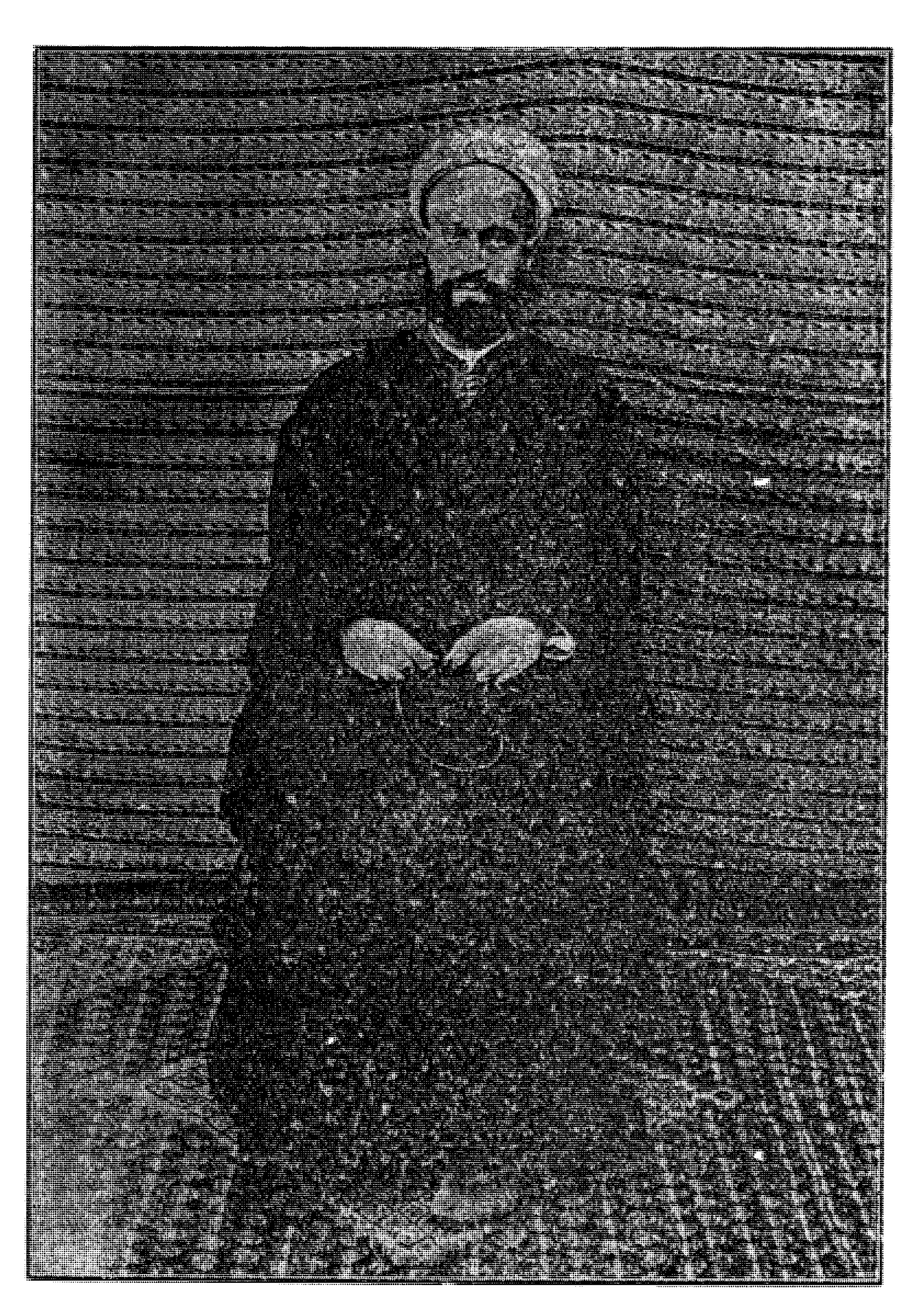
الشيـــخ عبد المحســـن الكاظمـــي



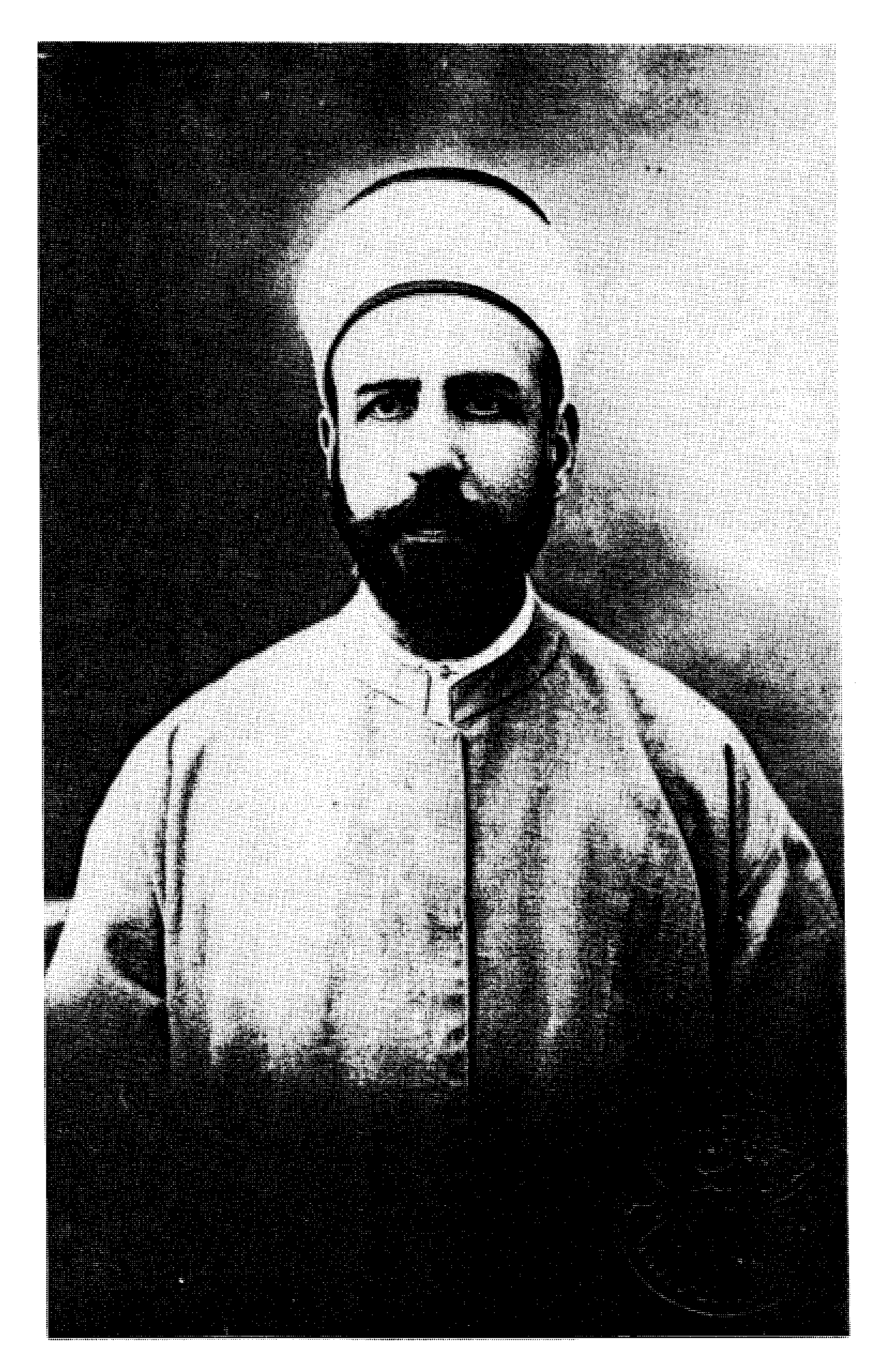
الشيـــخ محمد رضـــا الشبيبـــي



محمد بهجـــت الأثري



محمد حسن أبو المحاسن



عطـا الخطيب



محمد السمـــاوي



المؤلف في حفلة أدبية ببغداد وهو الثاني من اليسار (الصف الاول) والى يمينه الدكتور علي الوردي والى يساره الدكتور مصطفى جواد فجعفر الخليلي ففؤاد عبّاس ، وظهر أنور شاؤل الاول من اليمين في الصف الثاني (سنة ١٩٦٥)



من اليمين اليسار : جعفر الخليلي ، عبد الرحمن التكريتي ، حافظ جميل ، مير بصري ، عبد القادر البرّاك ، خالص خليل عزمي في دار الدكتور عبد المجيد القصاب (ـ سنة ١٩٧٢)



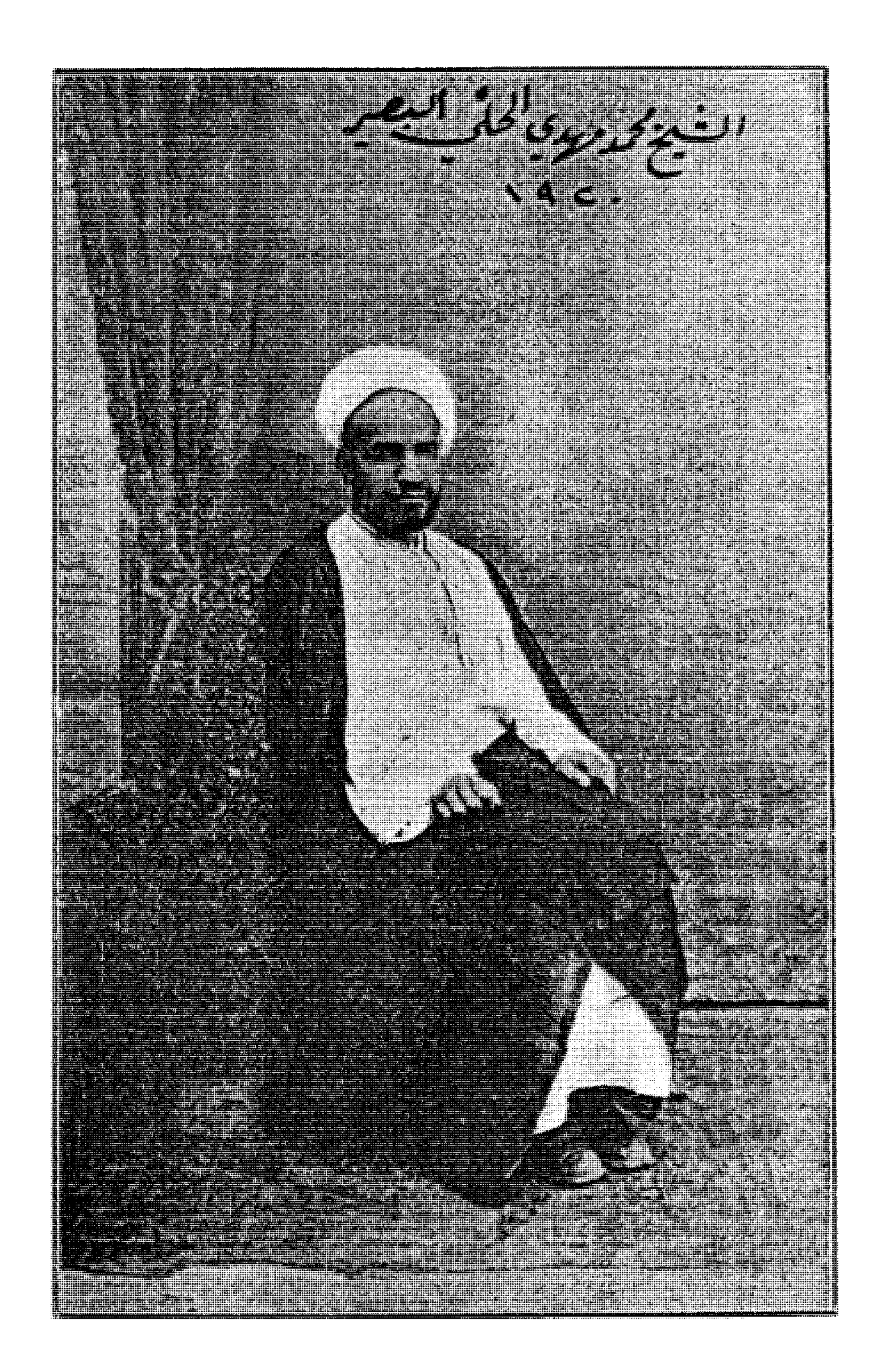
المؤلف مع الدكتور عبد اللطيف حمزة ، الاستاذ المصري ، وعبد القادر عيّاش الاديب المحامي من دير الزور في سورية



مير بصري يلقي قصيدته والى يمينه الحبيب نويره سفير تونس والى يساره الدكتور حمد الكبيسي عميد كلية الشريعة وذلك في حفلة الربيع على العشاء (رز بالبا قلاء) في دار الدكتور القصاب بكرادة مريم ٢٠ نيسان ١٩٧٤



المؤلف في حفلة أدبية : الاول من اليمين ، ثم الدكتور أحمد سوسة ومشكور الاسدي وفؤاد عبّاس
(سنة ١٩٧٤)



محمد مهدي البصيـــر



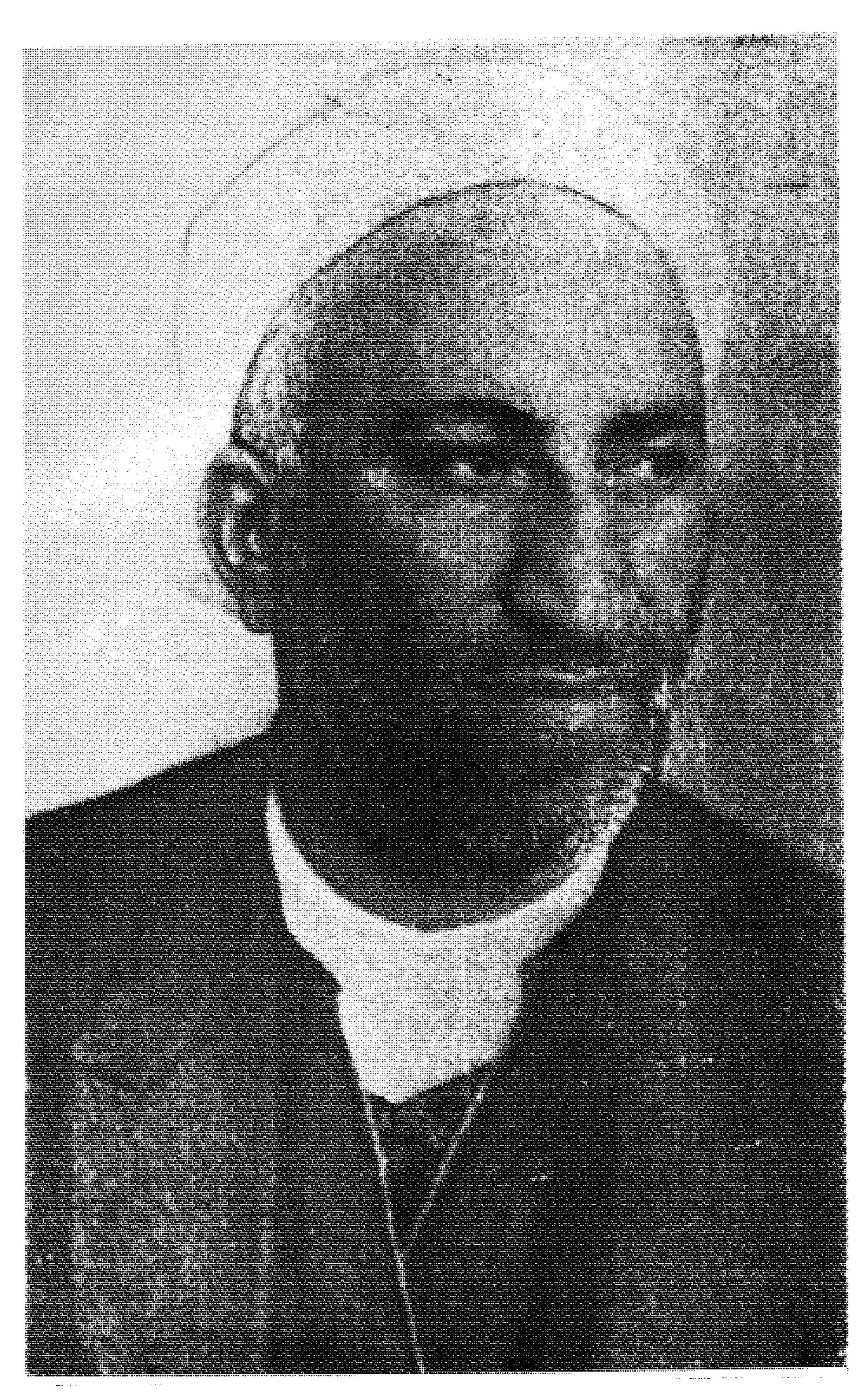
محمد حبيب العبيـــدي



(من اليمين) محمد زكي رئيس مجلس النواب ، محمد رضا الشبيبي وزير المعارف ، المرافق ، الملك غازي ، ساطع الحصري مدير الآثار العام (١٩٣٥) ، في افتتاح القصر العباسي



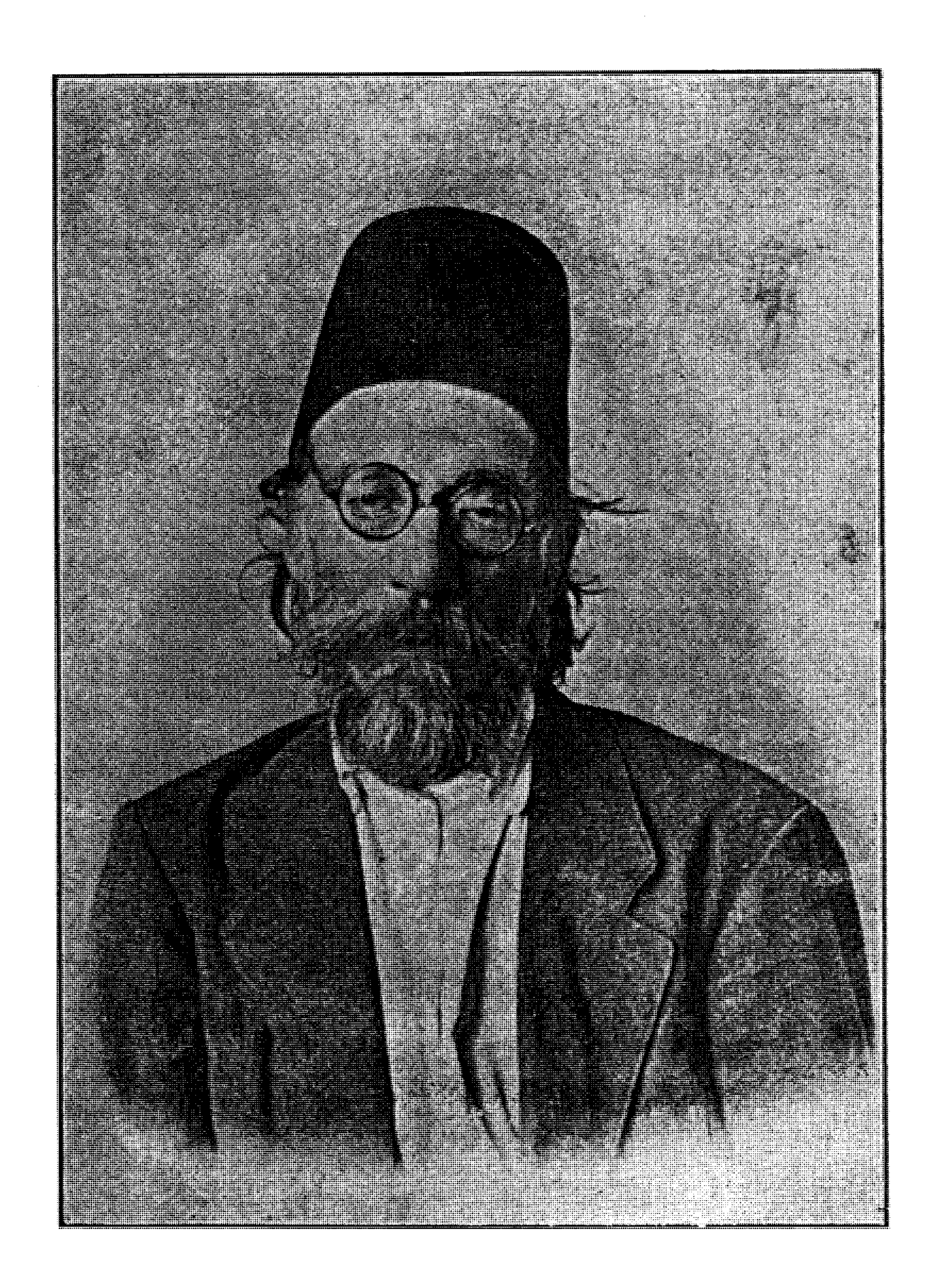
عباس العزاوي



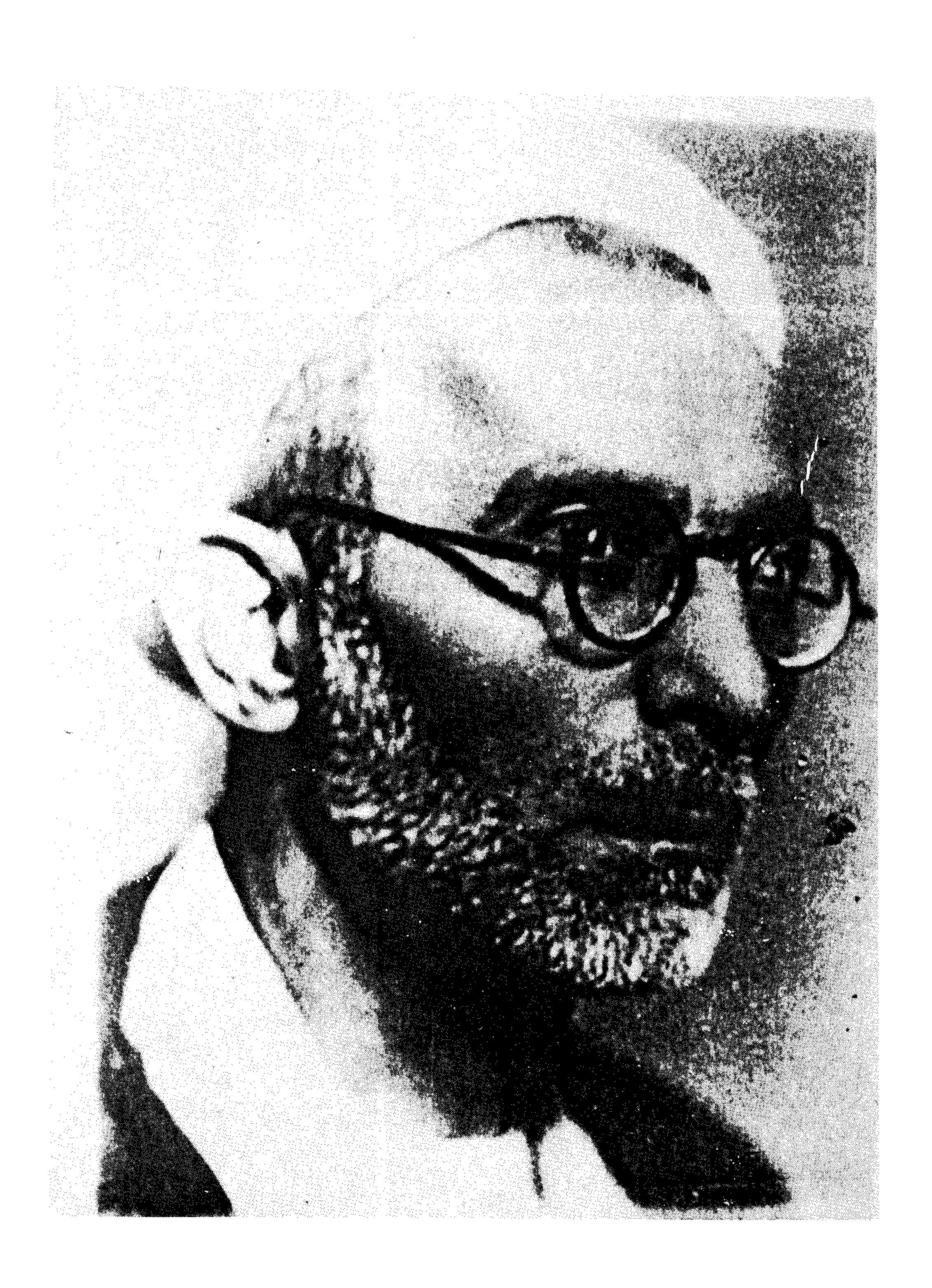
الشيخ محمد رضا الشبيبي
(صورة اخرى له)



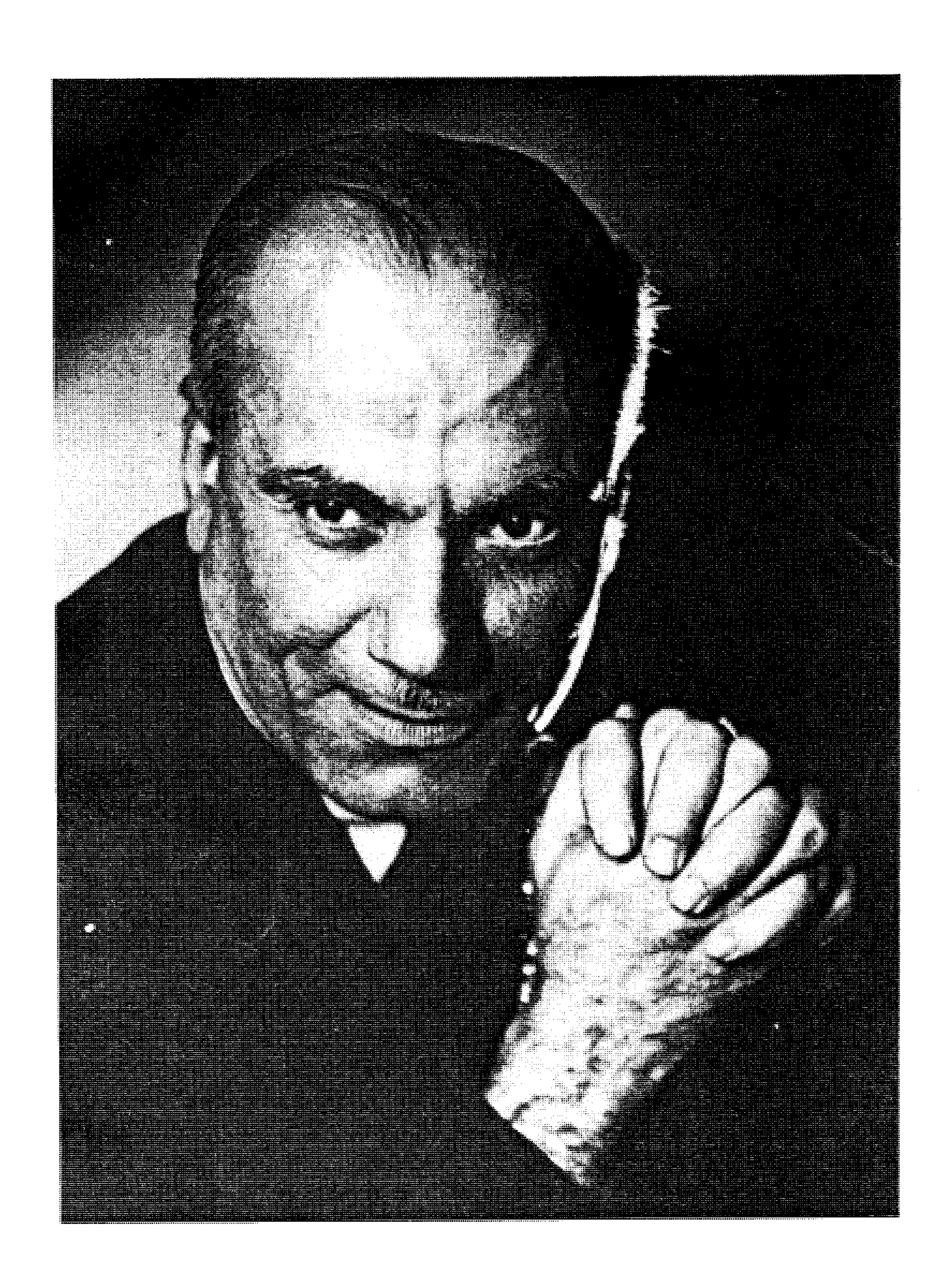
معروف الرصـــافي



جميل صدقي الزهاوي



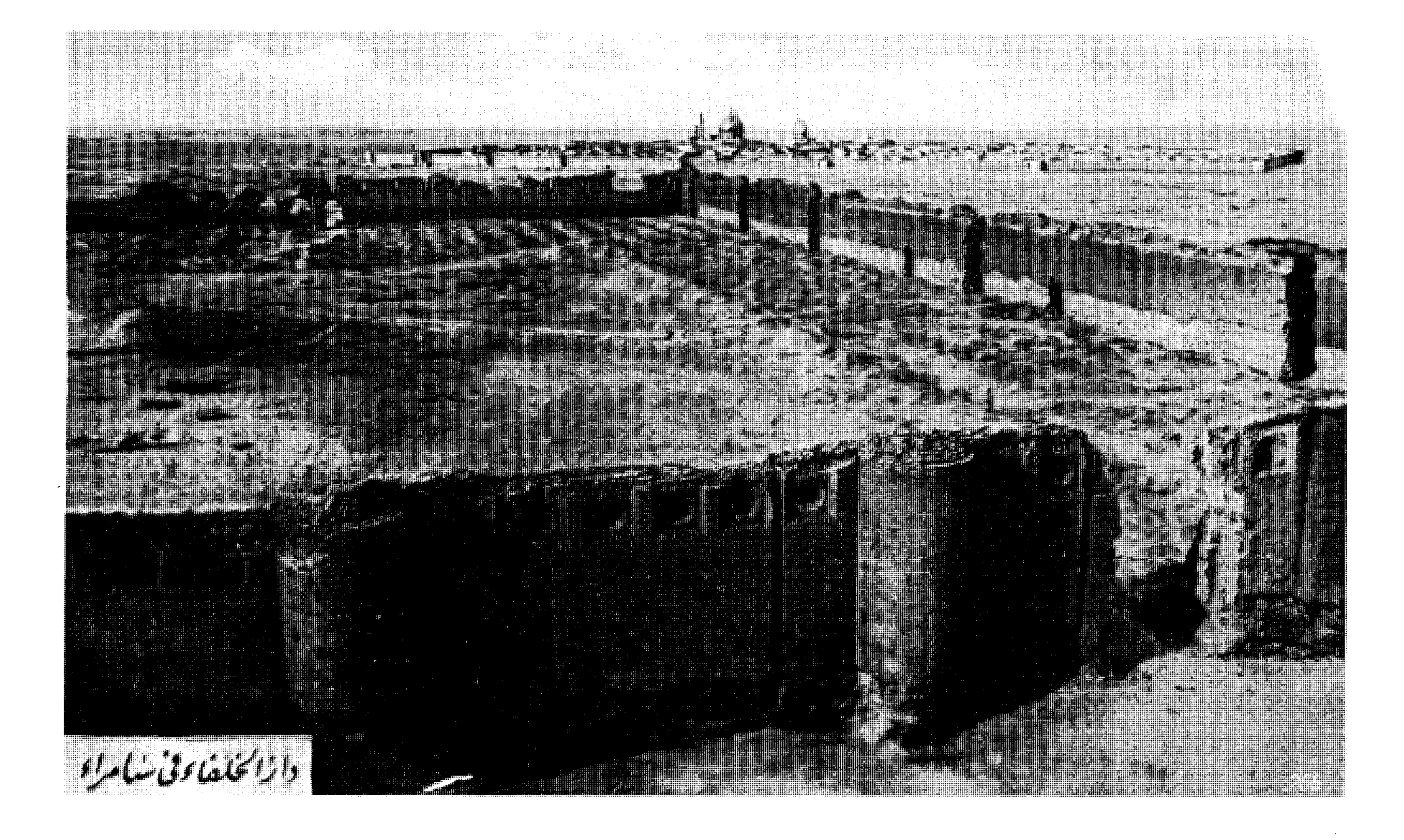
الشيخ عـــلي الشرقـــي



رفائيل بطّي



الجسر القديم في بغداد



دار الخلفاء في سامراء

The insurrectionists are subdued only through the intervention of the Divine Throne."

Of Ma'ruf al-Rusafi (1875-1945), Jurji Says that he is another Iraqi bard of note. "His Arabic has a desert twang, luring and captivating. "I prize my frankness in word and deed, loathing to brook hypocrisy. Never did I cheat another soul, or give my word deceitfully. Little think I that good accrues from holding truth in secrecy..".

"Al-Rusafi links poetical potency and manliness. Hence his invariable continence while writing an ode, on the assumption that his vitality goes into the creation of verse..."

Muhammad Ridha al-Shabibi (1889-1965) is another eminent poet of the period. Several times minister of Education, president of the Senate and the Chamber of Deputies, Prof. Jurgi depicts him, through the changing circumstances of his career, as having his dour religious allegiance remaining unshaken in the shi'ite tradition of his forbears. "His poetry is pietestic and devotional; he views the future with optimism and composure. Nonetheless, he opens his mind to certain scientific shibboleths as "The survival of the fittest", and , in the same breath, assails the contemporary manifestations of idolatry. In the final analysis, he takes refuge in the mighty fortress of fatalism, finding no obstacle therein to the progress of Arab Youth."

The book includes biographies of the eminent and less famous Iraqi poets and writers of the century, e.g. Ali al-Sharqi (1890-1964), Mahmud Shukri al-Aloussy (1857-1924), Fahmi al-Mudarris (1873-1944), Père Anastase - Marie al-Karmeli (1866-1947), Yusuf Ghanimah (1885-1950), Abbas al-Azzawi (1891-1971), Cardinal Ignatius - Gabriel Tappuni (1879-1968) and scores of others. Noted also are the two well - known popular vernacular poets Abbud al-Karkhi (1869-1946) and Hussein Qassam (1897-1958).

It also discusses the literature of the absurd, and concludes with the new wave of the neo-classical, symbolist, M.B. surreaslist and the so-called "free verse" schools.

(1788-1861), Edward William Lane (1801-1876), Henry Wüstenfeld (1808-1899), Rienhart Dozy (1820-1883), Theodor Nöldeke (1836-1930), Edward Henry Palmer (1840-1882) Ignatius Guidi (1844-1935), Ignaz Goldziher (1850-1921), Clement Huart (1854-1927), Edward Glaser (1855-1907), David Samuel Margoliouth (1858-1940), Edward Granvill Brown (1861-1926), Reynold Allen Nicholson (1868-1945), Louis Massignon (1883-1962), Sir Hamilton Alexander Gibb (1895-1971), Prof. Arthur John Arberry (1905-1969)...

* * *

The present book deals with the revival of Arabic literature in Iraq in the twentieth century. It covers all forms of literary arts; poetry, belles-lettres, history, theology and religion, the press, novel and shost story, etc.

Out standing among the poets of the Renaissance were Al-Zahawi, Al-Rusafi and Al-Shabibi. While adhering to the pure classical language, they introduced modern themes of nationalism, freedom of thought, education, emancipation of women, philosophical and ethical subjects, etc.

Prof. Edward J. Jurji, in his contribution to the Encyclopaedia of Literature edited by Joseph T. Shipley (New York, 1946) spoke of the new literary vision. He said, "Jamil Sidqi Al-Zahawi" (1863-1936), in his peculiar rhythm, contagious humour, prophetic tone and cynical style, blends the atheism of Umar al-Khayyam with the scepticism of al-Ma'arri. His "Thawrah fi al-Jahim" (Revolt in Hell), in 430 couplets, is illustrative of his luminous mind - He knows, but does not follow, Dante and al-Ma'arri.

The narrative opens when the angels Munkir and Nakir visit the poet as he rests buried in the grave. He parries their questions with the stock replies of a believing Moslem. Then he stalls:

"I believed, then denied.
Till they thought me a fickle man.
In truth, I am without the means
to say what my belief can be."

... Al-Zahawi's closing pictures of Hell introduce the character of Layla, bride of his verse, and her beloved Samir. A galaxy of bards... are also there. Scholars, scientists, philosophers, all that denied a here-after, people of the region. One of these brilliant inmates invents a fire extinguisher, making possible the revolt against the custodians of hell.

Eminent Men of Letters in modern Iraq.

A history of Modern Iraqi Literature of the Twentieth century.

Foreword

The classical Arabic literature has had an unbroken history extending for fifteen hundred years since the pre-Islamic days known as the "Jahiliyah".

Many poets flourished in the deserts and oases of the Arabian Peninsula as well as in the towns of Yemen, Syria and Iraq, where small Arab principalities thrived.

The Ummayad Dynasty (661-750 A. D.) in Damascus and the Abbassids (750-1258 A.D.) in Baghdad saw long periods of literary regeneration, including poetry, language and grammar, philosophy, history, medicine and science and, of course, Islamic and religious studies. But the subsequent period, called the Era of Decline, extending to the midst of the nineteenth century, marked a decay of the literary arts.

The modern revival started in Egypt and Lebanon to be soon followed by Iraq, Syria and other Arab lands.

Many European Arabists have been interested in Arabic literature, wrote about its history and translated its jems into English, French, German, Russian and other western languages. Recent Arabic poetry, drama, novels and short stories were made available to world readers, and probably the culmination of Arabic literary achievement found its realisation in the award of the prestigious Nobel Prize to the Egyptian writer and novelist Naguib Mahfuz in 1988.

Of the orientalists who studied and wrote on Arabic literature we ought to mention Carl Brockelmann, author of extensive works on the subject. Other prominent Arabists in the last two centuries include George Sale (1680-1736), Antoine Silvestre de Sacy (1758-1838), Etienne - Marc Quatremere (1782-1857), George Wilhelm Freytag

Eminent Men of Letters in Modern Iraq History of Modern Iraqi Literature in the Twentieth Century

by
Meer Basri
With a foreword and notes
by
Dr. Jalil al - Atiyyah



مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجُزءُ الثّالِثُ

دار الحكمة
لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

أعلام الأدب
في العراق الحديث
٣

I S B N _1 898209 46 4

* **أعلام الأدب في العراق الحديث**
الجزء الثالث

* **مير بصري**

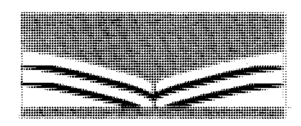
* جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

* طبعة أولى: تشرين الأول 1999

* الناشر: **دار الحكمة** – لندن

88Chalton Street , London NWI IJH
Tel: 0207-3834037- Fax: 0207-383 0116

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88Chalton Street , London NW1 IHJ Tel :0207-3834037 Fax : 0207 -383 0116

المحتويات

الصحافة

العلوم السياسية
والقانونية والطبية

القصة والرواية

الشعر

العلوم الفقهية والدينية

اضافـــات



توطئة

ظهر الجزآن الاولان من «اعلام الأدب في العراق الحديث» فتناوله النقاد بالمدح والقدح . ولا بأس في ذلك ، فانني كتبت عن أكثر من مائتي شاعر وأديب وعالم ورجل دين ودنيا عاشوا في العراق منذ القرن التاسع عشر ، وما زال القليل منهم على قيد الحياة . وقد عرفت الكثيرين منهم وصحبتهم ودوّنت عنهم ما تيسّر التدوين . وكانت السنون المائة الماضية عصر انتقال ونهضة ، لا في مجال الأدب وحده ، بل في كل مناحي الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية مما ترك أثره البارز في الحقل الأدبي وثقافة الأدباء .

أخذ عليّ انني حشرت رجال الدين بين الذين ترجمت لهم من الأدباء . فما تعريف الأدب؟ قالت العرب ان «الأدب كل رياضة محمودة يتخرّج بها الانسان في فضيلة من الفضائل» . وأضاف السيد احمد الهاشمي مؤلف «جواهر الأدب» في مطلع هذا القرن والشيخان احمد الاسكندري ومصطفى عناني في كتابهما «الوسيط في الأدب العربي وتأريخه» قائلين : «وهذه الرياضة كما تكون بالفعل وحسن النظر والمحاكاة ، تكون بالأقوال الحكيمة التي تضمّنتها لغة أي أمّة» . وقال الشيخان : «وأدب لغة أي أمّة هو ما أودع نثرها وشعرها من نتائج عقول ابنائها وأمثلة طباعهم وصور أخيلتهم ومبلغ بيانهم ، مما شأنه ان يهذب النفس ويثقف العقل ويقوّم اللسان» .

وقال أحمد حسن الزيات ان «أدب اللغة ما أثر عن شعرائها وكتابها من بدائع القول المشتمل على تصوّر الأخيلة الدقيقة وتصور المعاني الرقيقة مما يهذب النفس ويرقّق الحسّ ويثقف اللسان . وقد يطلق الأدب على جميع ما صنّف في أي لغة من الأبحاث العلمية والفنون الأدبية ، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتّاب والشعراء» .

وقالت دائرة المعارف البريطانية : «الآداب اصطلاح عام يدلّ على أفضل تعبير لأحسن فكرة يعبّر عنها بالكتابة» . وعرّف اللغويون الفرنسيون الأدب بأنه «معرفة المؤلفات والأصول الأدبية ومجموعة الانتاجات الأدبية في أي لغة او في موضوع خاص» .

ولا شك ان مؤلفات علماء الدين ومواعظهم وخطبهم تدخل في باب الأدب عموماً الى جنب الخطابة والصحافة والتراجم والتأريخ والقصة والرواية والآثار الفلسفية العلمية والفقهية والقانونية واللغوية والسياسية . وقد تساءل العلماء هل التأريخ علم او فنّ ، فكان الرأي ان التأريخ علم في تفحّص أخباره وتمحيصها وتوثيق مصادره والتثبّت من صحتها ، لكنه فنّ أدبي في رواية الحوادث وأسلوب مناقشتها وكتابتها .

وأخذ عليّ انني اغفلت ذكر عدة أدباء وشعراء كان لهم أثر طيب في تأريخ الأدب العراقي . فأقول انه ظهر في هذه الحقبة مئات الكتاب والشعراء والمؤلفين ، فكيف يتسنى لفرد واحد ان يحيط بهم ويكتب سيرهم ويذكر آثارهم؟ وحسبي انني وفقت لجمع المادة التي دوّنتها ، لا سيما انني غادرت العراق منذ عشرين سنة وتركت معظم كتبي والمراجع التي أستند اليها في بغداد ، وصرت بعيداً عن مناهل الثقافة العراقية في عهدها الأخير .

وقد رأيت ان أضيف الى الجزءين الأولين من «أعلام الأدب» هذا الجزء الثالث الذي يتناول تراجم شعراء وأدباء آخرين . وأضفت اليه سير الأدباء الذين كنت اقتطعت تراجمهم وأضفتها الى كتابي «أعلام الوطنية والقومية العربية» المعدّ للطبع ، وفي مقدمتهم خيري الهنداوي ومحمد باقر الشبيبي ومحمد مهدي البصير وهبة الدين الشهرستاني وفهمي المدرس وساطع الحصري وعبد الرحمن البزاز وغيرهم .

هذا غاية جهدي أقدمه الى القراء راجياً ان يجدوا فيه بعض المتعة ، والله المستعان .

وأود في ختام كلمتي ان أسجل شكري وتقديري للاخوان الأفاضل الذين اعطوني معلومات قيمة ، وفي مقدمتهم الدكتور جليل العطية والمرحوم الدكتور صفاء خلوصي ، والاستاذ نجدة فتحي صفوة والدكتور جودت القزويني المقيمون في لندن والمرحوم الشاعر بلند الحيدري .

وأثني ايضاً على صاحب دار الحكمة السيد حازم السامرائي الذي لم يألُ جهداً في اخراج «اعلام الأدب» بأجزائه الثلاثة في طبعة نفيسة وحلّة قشيبة .

مير بصري

لندن ، تشرين الاول ١٩٩٩

المصادر والمظانّ

ذكرت في الجزء الأول جدولاً بالمصادر والمظانّ ، وأضيف اليها هنا مصادر أخرى رجعت اليها في تصنيف هذا الجزء الثالث :

١) الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور مراد ميخائيل (١٩٨٨) .

٢) انور شاؤل : همسات الزمن (شعر ١٩٥٦) .

٣) انور شاؤل : في زحام المدينة (قصص ١٩٥٥) .

٤) انور شاؤل : قصة حياتي في وادي الرافدين (١٩٨٠) .

٥) يونس الشيخ ابراهيم السامرائي : تأريخ علماء بغداد (١٩٨٢) .

٦) خليل ابراهيم عبداللطيف : أدباء العراق المعاصرون (١٩٧٢) .

٧) عبد الرزاق الهلالي : أدباء المؤتمر (١٩٦٦) .

٨) عبد الاله أحمد : فهرست القصة العراقية (١٩٧٣) .

٩) الدكتور يوسف عز الدين : فهمي المدرس من رواد الفكر العربي الحديث (١٩٧٠) .

١٠) احمد عزت الأعظمي : تأريخ القضية العربية (٦ أجزاء ، ١٩٣١ - ١٩٣٤) .

١١) محمد علي كمال الدين : سعد صالح (١٩٤٩) .

١٢) سليمان فيضي : في غمرة النضال (١٩٥٢) .

١٣) ابراهيم صالح شكر : حياته وآثاره (اعداد عبد الحميد الرشودي وخالد محسن اسماعيل وجميل الجبوري ، ١٩٧٨) .

١٤) عبد الرحيم محمد علي : خليل عزمي (١٩٧٦) .

الأدب والحركة الأدبية
في عراق القرن العشرين

ينشأ الأدب ويتقدم في البيئة السياسية والاجتماعية المناسبة . وقد شهدنا عصر الانحطاط ينتهي في مطلع القرن العشرين ، ولا سيما بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وانهيار الاستبداد الحميدي الذي عقل الألسنة وجمّد الأفكار . صدرت الصحف والمجلات وانبرى ادباء الشباب وشعراؤه يكتبون وينظمون ويتصلون بالعالم الخارجي عن طريق تركية والأقطار العربية المتقدمة كمصر وسورية ولبنان . ولم تلبث ان جاءت الحرب العظمى تكمّ الأفواه ، لكن عهدها لم يطل اذ عقبها ، بعد سنوات قلائل ، الاحتلال البريطاني وثورة ١٩٢٠ الكبرى وتأسيس الحكم الملكي تحت الانتداب أولاً وبعد الاستقلال ثانياً ، وانتماء العراق الى عصبة الأمم وأخذه محله بين الدول العالمية .

ويمكن القول ان الأدب يتفاعل مع البيئة ، يحمل مصباح التقدم ثم يسير هو نفسه الى الأمام مجارياً ذلك التقدم وممهداً الطريق لمواصلة النهضة والاصلاح . كان تقدم العراق في المناحي الأدبية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية باهراً منذ سنوات العشرين ، ثم جاءت الثورات والتقلبات بعد سنة ١٩٥٨ لتزعزع أركان النهضة وتؤخر ازدهار الأدب وتقضي على الثروة الاقتصادية في هذا البلد الغني الذي انتهى به الحال الى بلوغ مبلغ لا يصدّق من الفقر والاستعباد وانعدام الحرية وتبديد الثروة البشرية والمادية في حروب ما أنزل الله بها من سلطان . ونستطيع الآن ، بعد نحو أربعين سنة من الثوارت والحروب ، ان نقدر حق قدرها حكمة الملك فيصل الأول ومن بعده نوري السعيد ورجال الدولة الآخرين وجهادهم ومرونتهم في ظروف داخلية وعالمية قاهرة . ولم يقتصر الأمر على العراق وحده ، بل كان ذلك شأن أقطار أخرى كثيرة عربية وأجنبية .

وماذا كان نصيب الأدب وفنونه من تلك التقلبات وما صحبها من تدهور سياسي واجتماعي واقتصادي؟

الصحافة

لسان الأمة الناطق الصحافة . بدأت في العراق سنة ١٨٦٩ بصدور جريدة «الزوراء» الرسمية ، ثم اتسعت بعد صدور الدستور سنة ١٩٠٨ ببروز صحف ومجلات عديدة لا يحتملها البلد وثقافته ، ولد اكثرها خديجاً ولم يدم ، إذا دام ، سوى أمد وجيز . ولعل مجلة «لغة العرب» لصاحبها الاب انستاس ماري الكرملي ومجلة «العلم» النجفية لصاحبها محمد علي هبة الدين الشهرستاني كانتا خير وجه للصحافة العراقية الرزينة قبل الحرب العظمى الأولى .

ازدهرت الصحافة بعد الحرب بتقدم النهضة الوطنية . وقد تمتعت الصحافة في عهد الانتداب والحكم الملكي بحرية نسبية لم يكن لها مثيل بعد سنة ١٩٥٨ . قال رفائيل بطي في محاضراته عن «الصحافة في العراق» بعد ان تكلم عن اصدار جريدة «الاستقلال» الوطنية العنيفة في ايلول ١٩٢٠ وحملاتها المتوالية على حكومة الاحتلال : «وهناك حقيقة يحسن تسجيلها ، هي ان صدر حكومة الاحتلال الانكليزية كان رحباً ازاء ما تكتبه جريدة الاستقلال ، فأفسحت مجالاً لا بأس به من حرية الصحافة مما لم نجده بعد ذلك مراعى دائماً في عهد الاستقلال» .

وجدير بالذكر ان السيد طالب النقيب وزير الداخلية آنذاك اقترح على المس بلّ وجوب غلق تلك الجريدة !

وقال توفيق الفكيكي في مجلس النواب سنة ١٩٥٧ ، في اثناء مناقشة سياسة الحكومة : «ان العراقيين كانوا يتمتعون خلال الانتداب بحرية اكثر منها اليوم» .

امتدّ عهد الانتداب في العراق من سنة ١٩٢٠ حين أقرّت عصبة الأمم احالة الوصاية عليه الى بريطانية حتى شهر تشرين الأول ١٩٣٢ عند قبول العراق عضواً في تلك العصبة دولة مستقلة والغاء الانتداب المفروض عليه . وفي خلال تلك المدة كان الملك فيصل الأول يشرف على الحكومة ويدير سياستها ، يعاونه كوكبة من الرجال الافذاذ امثال عبد المحسن السعدون وجعفر العسكري وياسين الهاشمي وناجي السويدي . وكانت سياسة الملك ووزرائه تقوم على مبدأ الملاينة «خذ وطالب» ، فعقد أربع معاهدات مع الدولة المنتدبة جاءت كل منها تتقدم على سالفتها مع مراعاة الظروف الدولية السائدة آنذاك في أعقاب الحرب العظمى .

انتخب المجلس التأسيسي الذي صدّق القانون الأساسي (الدستور) سنة ١٩٢٤ وافتتحت الحياة البرلمانية في السنة التالية . وكانت المعارضة نشطة في الصحافة والمجالس النيابية على السواء تقضّ مضاجع الوزراء وتدفعهم الى موقف الدفاع عن

اعمالهم وتبرير خططهم وتحوير سياساتهم في احيان عديدة .

ولم يكن الملك نفسه بمأمن من الهجو والانتقاد ، فقد هجاه معروف الرصافي شعراً ونظم القصائد في نقد الأوضاع السياسية والافصاح عن شكاوي الجمهور . غير انه لم يفصل من الوظيفة ، فكان مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف واستاذاً في دار المعلمين العالية حتى استقال . وانتخب بعد ذلك نائباً في مجلس الأمة . ورفض ساسون حسقيل وزير المالية تعديل ميزانية البلاط الملكي معارضاً رغبة الملك ، اما رستم حيدر فهدّد الخزينة الملكية الخاصة بجرّها الى ساحة القضاء إن لم تبادر الى تسديد الضريبة المتأخرة عليها .

صدرت خلال عهد الانتداب اكثر من ٤٧ جريدة سياسية كانت ٢٢ منها اخبارية او مؤيدة للحكومة و٢٥ صحيفة معارضة . وكانت الجرائد المعارضة التي تشدّد هجماتها على الحكومة كثيراً ما تغلق فلا تلبث ان تصدر بعد يوم واحد أو أيام قليلة باسم وامتياز جديدين مستأنفة هجومها العنيف .

كانت جريدة «الاستقلال» التي أصدرها عبد الغفور البدري سنة ١٩٢٠ من أبرز الصحف المعارضة . وقد عطلت مراراً لكن صاحبها استعاض عنها بجرائد متعددة كلما أغلقت جريدته ، فأصدر «الوطن» و«نداء الشعب» و«الحارس» و«الرافدان» و«صوت العراق» و«صدى الاستقلال» و«صدى الوطن» ... الخ . قال مؤرخ الصحافة العراقية رفائيل بطي في محاضراته التي ألقاها في معهد الدراسات العربية بالقاهرة : «... وقد جاهدت الاستقلال في شرح أسباب الثورة (أي ثورة العشرين) وهي مشتعلة الأوار وتحليل عوامل الاستياء والنقمة من حكومة الاحتلال ، ومما تذرعت به من شعر حماسي تنشر أبياته يومياً . وكان المرء يحس وهو في ادارة هذه الجريدة انها مؤسسة شعبية وطنية وناد سياسي مكتظّ بالمكافحين . حركة نشيطة يشترك فيها جماعات من الأهلين من طبقاتٍ الشعب . هذا يتبرع بالمال وذاك يكتب ، وآخرون يتبرعون بتسيير ادارة الجريدة ، وذاك يبدي الأفكار ويوجّه . وتلفّ الجميع حماسة جارفة» .

وماذا نقول في الصحفي الحرّ ابراهيم صالح شكر ذي القلم الناري والأسلوب اللاذع الرشيق الذي دوّخ الحكومات ووزراءها في سنوات العشرين ، فأصدر «الناشئة» و«الناشئة الجديدة» و«الربيع» و«الزمان» و«المستقبل» و«الأماني القومية» ، وصفحات كل تلك الجرائد تزخر بمحاسبة المسؤولين وانتقاد أعمالهم والسخرية من كراسيهم حتى لم يجدوا سبيلاً لاسكاته وتعطيل قلمه إلا بأن قيدوه بقيد الوظيفة؟ وقد كتب ابراهيم صالح شكر في ذلك العهد يقول : «ان توزيع الثروة وتقسيم الأراضي وتمكين المساواة بين

الشعب إذا لم تتم حتى الآن بصورة عادلة فإنها ستجري حتماً في المستقبل حتى يجتلى المثل الأعلى لحياة الفرد والمجتمع في أرفع مجالاته وأكمل مظاهره» .

وكان ابراهيم حلمي العمر ايضاً ، بالرغم من تقلبه في آرائه وكتاباته ، من كتّاب المعارضة المرموقين . وقد طلب امتيازاً سنة ١٩٢٣ لاصدار جريدة فلم يسعف طلبه ، لكن صديقه الشاعر معروف الرصافي حصل على اجازة لاصدار جريدة باسم «الأمل» ووضعها تحت تصرفه . باشر العمر حملاته على الحكومة ، فقال له الرصافي - على ما أخبرني به صديقه وراويته مصطفى علي : «انك تحسن جيداً تعليق الطبل على عنق البعض ثم تدقّ عليه دقاً عنيفاً» !

وحدثني يعقوب سركيس ان الأرمن ، الذين هجّروا الى العراق بعد ان ذاقوا مرارة التشريد والقتل على أيدي الترك إبان الحرب العامة ، أصدروا جريدة باللغة الارمنية دأبوا فيها على التنديد بتركية وسلقها بألسنة حداد جزاء ما فعلت بهم . كانت علاقات العراق بتركية قد أخذت بالتحسّن شيئاً فشيئاً بعد الحاق الموصل بالعراق وزوال التنابذ والقطيعة بين الدولتين ، فقال يعقوب سركيس ، وهو من أسرة ارمنية ثرية سكنت العراق منذ عهد بعيد ، لرئيس الوزراء عبد المحسن السعدون : «أليس من الصواب الغاء امتياز هذه الجريدة الأرمنية حرصاً على علاقات الودّ وحسن الجوار مع تركية»؟ فقال السعدون : «أرى من الأفضل منح هؤلاء الناس حرية الكلام لينفسوا عن ذات صدورهم ، وإلا طووا ضلوعهم على الحقد حتى على البلاد التي آوتهم وأحسنت اليهم» . ولم يلغ امتياز الجريدة .

وروى أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» عن احمد حامد الصراف ، مدير المطبوعات آنذاك ، قال : «كنت أطالع الجرائد كل صباح وألخّص ما يتعلق به (أي برئيس الوزراء عبد المحسن السعدون) وبالحكومة من الأخبار والمقالات . وكان يسألني عندما ألفت نظره الى مقال فيه طعن او تحامل عليه ان أراجع القانون المختص بالذم والقذف فأطلعه عليه . لكنه في الأيام الثلاثة التي تقدمت الفاجعة (أي الانتحار) فيما سمعني أقرأ من الطعن المقذع عليه كان يقول : سامحهم ، يا ولدي . ثم يعظني بالحلم والتؤدة وكرم الاخلاق» .

حدثني المرحوم مصطفى علي ايضاً (وهو الذي أصبح وزيراً للعدل في عهد عبد الكريم قاسم) انه كان كاتب ضبط في مجلس الأعيان سنة ١٩٣٠ عند عرض المعاهدة العراقية - البريطانية على مجلس الأمة ، فذهب الى مجلس النواب للاستماع الى المناقشة وجلس في شرفة المستمعين . وقد هاجم النواب الحكومة والمعاهدة بقسوة

شديدة ، فقام رئيس الوزراء نوري السعيد يردّ على خطبهم منفعلاً . ورأى مصطفى علي ان معطف السعيد انكشف وهو يخطب عن مسدس مثبت في حزامه ، فلم يكن منه إلا ان بادر الى كتابة كلمة يسجل تلك الظاهرة وأرسلها الى جريدة «الاخاء الوطني» المعارضة . نشرت الجريدة الكلمة في اليوم الثاني غفلاً من التوقيع ، فخاف مصطفى عاقبة الأمر وخشي ان يحاكم او يفصل من وظيفته . لكن محمد علي فاضل عضو مجلس الأعيان طمأنه ان الجريدة لن تذكر اسم كاتب الكلمة وأن ابنه عبد الاله حافظ مدير الجريدة المسؤول يتحمّل كل التبعة . وكذلك كان .

ويمكن القول ان حرية الرأي والكلام كانت مكفولة الى حدّ بعيد . كان الشعراء في عهد الاحتلال والانتداب لسان الأمة الناطق ، وقفوا خلال ثورة العشرين يسلقون الحكومة بألسنة حداد . فهذا الشيخ مهدي البصير يصرخ :

لبيّك ، يا وطني ، بكل ملمّة ... فيها يجيب المشرفيّ نداكا

ويرفع صوته عبدالرحمن البناء :

ألا هكذا من رام ان يتحررا ... يطالب ومن يسكت يعش متأسّرا

وتمضي السنون فيقول معروف الرصافي :

من أين يرجى للعراق تقدم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف ... عند جبانه والمال عند بخيله

ويقول :

يا قوم ، لا تتكلموا ... ان الكلام محرّم
ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز إلا النوّم

ويقول جميل صدقي الزهاوي :

أقول لشعري : ايها الشعر صل وجل ... فأنت بميدان الفصاحة فارس
يمارس شعري اليوم اصلاح أمة ... فللّه شعري اليوم ماذا يمارس !

ويقول :

رأيت السيف قد ملك الشعوبا ... ولم أر انه ملك القلوبا

ويقول عبد الحسين الأزري :

وطن يرانا الخير من غربائه ... وتعدّنا النكبات من أبنائه
وتكاد تنكرنا الحياة كأننا ... لسنا بهذا القطر من أحيائه

ويأتي الى بغداد المستر شارلس كرين الاميركي المعروف باسم «صديق العرب» ، وهو الذي أوفده الرئيس وودرو ولسن في أعقاب الحرب العظمى الاولى الى البلاد العربية فقدم تقريره يقترح منح الاستقلال لسورية والعراق . قدم بغداد سنة ١٩٢٩ فأقام له الحزب الوطني حفلة تكريم خطب فيها الخطباء وتبارى الشعراء . فقال علي الخطيب :

الحال مضحكة والحال مبكية ... حتى تحيّرت الألباب بينهما
بينا نرى دولة أفرادها عرب ... اذا بها دولة تستأمر العجما
وقد نراها على الاوتار ضاربة ... لكنها تفسد الاوتار والنغما

وكان علي الخطيب موظفاً في محكمة التميز ، فهل وبّخ او فصل من وظيفته؟

وقدم بغداد المندوب السامي البريطاني السر فرنسيس همفريز ، فخاطبه محمد باقر الشبيبي بقصيدة قال فيها :

شلّت يد وقعت عمداً معاهدة ... صيغت من الظلم واشتقت من الحيل
صيغت بلندن أطواقاً وأسورة ... من الحديد وإن كانت من الجمل

وقال الشيخ باقر يخاطب عصبة الأمم المندثرة :

يا عصبة الأمم التي قد أوكلت ... أمر العراق الى الذي يستعبد
ماكان عهدك وهو عهد جائر ... إلا لمنفعة الذين تعهدوا
هتفوا لتحرير الشعوب ولم يكن ... لهتافهم إلاّ صدى يتردّد

وقال ايضاً :

كل البلاد من القيود تحررت ... إلا العراق الحر فهو مقيد

وقال :

المستشار هو الذي شرب الطلا ... فعلام يا هذا الوزير تعربد؟

الخطابة والادب السياسي

كانت المجالس النيابية والأحزاب والندوات الثقافية منابر للخطابة ، بل مدارس لرجال السياسة والادب . ولا ريب ان الوعظ في المساجد والمعابد قديم ، لكنه تقدم في مواضيعه واصبح اكثر ملاءمة للحياة العصرية ومشاكلها . وأثر المعاهد العلمية والاذاعة والتلفزيون وصالات التمثيل والسينما كلها له شأنه وقيمته في المجتمع العصري . ومهما يؤخذ على مجالس الأمة من نواقص وتلاعب في الانتخاب فانها كانت واجهات حسنة للحياة الديمقرطية تناسب احوال البلاد وأبنائها في ذلك العهد . وقد

شهد بذلك الكثيرون من رجال الفكر عراقيين وأجانب .

قال فيليب ويلارد آيرلاند الاميركي في كتابه «العراق : دراسة في تطوره السياسي» ، بعد ان ذكر ان النواب اعتبروا منصبهم وسيلة للانتفاع الشخصي من وجوه شتّى ، ان الحكم على مجلس الأمة برغم عيوبه ومن سجله قبل ١٩٣٢ وبعدها يدل على انه أشغل حيزاً مهماً في حياة العراق السياسية . «فقد جذب اليه أنشط الأدمغة في البلاد ، وانعكس فيه الرأي العام ، ولو كان ذلك انعكاساً منقوصاً ، وقام بواجب جهاز التوقيف في التشريع الذي لولا وجوده لفرض على البلاد بأسرع مما كان يسعها ان تهضمه ، كما انه قام بالحدّ من محاولات الوزراء في اتخاذ المواقف الدكتاتورية . . . (و) عمل على اماطة اللثام عن انواع الخلل في الحكم ....» .

وقال محمد زكي رئيس مجلس النواب سنة ١٩٣٥/ ١٩٣٦ :

«... ان الحياة النيابية - على ما اعتورها ولم يزل يعتورها من نقص - قد أدّت خدمات جلّى للشعب العراقي...» . ومضى يورد فوائد النظام البرلماني ، قائلاً ان منها انماء الوعي السياسي في الأمة وان قاعات المجلس مدارس لكثير من الرجال .

وقال حسين جميل في كتابه «الحياة السياسية في العراق» ان الحياة النيابية في العراق منذ دعي مجلس الأمة الى الاجتماع في ١٦ تموز ١٩٢٥ لم تكن بالكمال والنقاء الذي كانت تريده القوى الشعبية والوطنية والديمقراطية . لكن مجلس النواب بقي مع ذلك أقرب مؤسسات الدولة الى الشعب الذي كان يسمع في ندوته في أحيان كثيرة صدى آلامه وصوت آماله . ثم قال : «والى جانب هذا كان مجلس الامة مدرسة سياسية زودت العراقيين بتجارب كثيرة وخبرات ثمينة في شؤون الحكم والمفاهيم الديمقراطية... وهي تجارب وخبرات كان يحتاجها العراق وهو في بدء ممارسة الحياة النيابية عصب نظام الحكم . ذلك ان الحياة الديمقراطية التي نريدها لوطننا لا تقوم على فراغ في حين أن لها في الواقع أساساً ثابتاً» .

وقال عبد الرحمن البزّاز الذي تولّى رئاسة الوزراء في عهد الرئيسين عبد السلام وعبد الرحمن محمد عارف سنة ١٩٦٥/ ١٩٦٦ ولم يستطع تنفيذ آراءه الديمقراطية الحرة لما لقي من معارضة رجال الجيش ، قال : ان الجرأة التي أبداها كثير من أعضاء المجلس التأسيسي والحرية التي سادت الجّو في معظم جلساته ، وحياد رئيس المجلس ، يدعو الى الاعجاب ويدّل على قابلية برلمانية جيدة . (العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٧ ص ١٥٦) .

وقد سجلت محاضر مجلس النواب ومجلس الاعيان مواقف شديدة لم نر مثلها إلا

في أرقى البلاد الديمقراطية . فهذه محاضر المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤ تعجّ بالخطب النارية والكلمات الرنانة . وقدمت المعاهدة العراقية - البريطانية الى مجلس النواب لتصديقها فاشتدت المناقشة وغادر المعارضون قاعة المجلس احتجاجاً على الاستعجال في المذاكرة . ورمى النائب باقر الشبيبي قبل خروجه نسخة المعاهدة في الفضاء صارخاً : لتسقط الاكثرية الغاشمة ! ...ثم صاح : صدقوها يا خونة !

ويطول الحديث بنا اذا رمنا الاستشهاد بأقوال النواب والاعيان في انتقاد الحكومات المتعاقبة والتنديد بها . وقد حمل النائب معروف جياووك حملة ظالمة على رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون واتهمه بالخيانة والعمالة للانكليز ، فلم يكن من عبد المحسن إلا أن انتحر في مساء ذلك اليوم تبريراً لاخلاصه للوطن .

وامتدّت هذه الحملات الى ما بعد عهد الانتداب . فقد رأينا سعد صالح يحمل حملة شعواء في كل مناسبة على حكومة حمدي الباجه جي خلال الحرب العالمية الثانية ، حتى اذا ما سقطت الوزارة وتقلد سعد صالح منصب وزير الداخلية بادر الى اجازة الأحزاب واطلاق حرية الصحافة .

قررت الحكومة في سنة ١٩٤٣ تعديل الدستور رغبة في زيادة سلطات الملك واختيار الوصّي الامير عبد الاله ولياً لعهد ابن اخته فيصل الثاني . فقال توفيق السويدي في مجلس النواب عند المناقشة في التعديل انه لا يرى ما يستلزم النظر في الأمر لأن الأخطاء الدستورية ليست ناشئة من الدستور نفسه وانما من تطبيقاته . ولما عرضت اللائحة على مجلس الاعيان عارضها بشدة محمود صبحي الدفتري ، وعارضها عمر نظمي وعزرا مناحيم دانيال . وكان الاعتراض منصباً بصورة خاصة على زيادة حقوق الملك في عهد الوصاية وعلى اجراء التعديل في ظروف الحرب التي قيدت فيها حرية الكلام والاجتماع ، ومعالجة الامور متأثرة بالاحداث الآنية . وغاب عن بال الحكومة ان الدستور لا يشرّع لمعالجة الثورات بل لمعالجة الأسس والقواعد الدستورية .

لم تضق صدور المسؤولين بالنقد والتعنيف . حدثني الشيخ محمد رضا الشبيبي أنه وقف يخطب ذات يوم في مجلس الاعيان معارضاً رئيس الوزراء نوري السعيد ، فلما فرغ من كلامه قال السعيد : ليست كلمة الشيخ خطاباً سياسياً بل هي شعر شاعر ! فغضب الشبيبي فالتفّ بعباءته وخرج من المجلس . قال الشبيبي : وفي المساء جاءني نوري السعيد الى داري على غير موعد معتذراً عن الكلام الذي بدر منه .

ووقف النائب عبد الرزاق الشيخلي يخطب في اندفاع عاطفي سنة ١٩٥٣ فقال لرجال الحكم : انّ الامة ستنصب لكم المشانق في ساحات بغداد !

وقال السيد عبد المهدي المنتفكي في مجلس الاعيان على أثر تسلم الملك فيصل الثاني سلطاته الدستورية في آيار ١٩٥٣ : «لقد جاء التتويج والأفواه مكمّمة ، والسجون مملوءة ، والمحاكم العسكرية قائمة بأعمالها ، والصحف معطلّة ، والضمائر موقوفة لا تتمكن من أن تحكم في أي موضوع من المواضيع !» .

ذلك غيض من فيض من شواهد حرية الرأي والكلام والصحافة في العراق المنتدب عليه والعراق في عهده الملكي السالف . ولا بّد أن نقول كلمة في القضاء والأدب القانوني . درس عراقيون كثيرون الحقوق في مدارس استانبول في العهد التركي ، ثم أسست مدرسة الحقوق في بغداد سنة ١٩٠٨ فأنجبت رجالاً بارزين في القانون برّزوا في المحاماة والقضاء ومناصب الدولة الادارية . وقد أغلقت المدرسة عند نشوب الحرب العظمى سنة ١٩١٤ ، ثم اعادت السلطات الانكليزية فتحها سنة ١٩٢٠ .

قال سليمان فيضي في مذكراته «في غمرة النضال» ، وهو وطنيّ كان مناوئاً للانكليز وأصبح فيما بعد عضواً بمحكمة استئناف العراق . نوّه بعناية الانكليز بالقضاء وحرصهم على نزاهته . وعهدت سلطات الاحتلال الى السر ادغار بونهام كارتر ناظر العدلية ، ثم مستشار وزارة العدلية العراقية سنة ١٩٢٠ ، بانتقاء حكام (قضاة) وطنيين يحلون محل الحكام الانكليز ، فكان يستشير ويحقق تحقيقاً دقيقاً قبل أن يرشح أحداً للحاكمية . قال سليمان فيضي : «وهذا هو السرّ في نزاهة القضاء العراقي في بداية عهد الحكم الوطني . فلما كرّت الاعوام وآل الأمر الى أيدي الوطنيين دبّ الفساد في دور العدل وانتهكت حرمة القضاء» .

وقال عبد الرحمن البزاز في كتابه «العراق من الاحتلال حتى الاستقلال» :

«وعلى العموم يمكن القول بأن تأثير الانكليز الأساسي في القضاء العراقي قد تأتّى بالدرجة الاولى من التأثير الشخصي الذي تركه بعض فضلاء قضاة الانكليز الذين مارسوا القضاء في العراق وأظهروا من الاستقامة الشخصية والاستقلال الذاتي ما كان خليقاً بسمعة القضاء الانكليزي في العالم» .

ثم قال البزاز ان حكومة الاحتلال عملت جاهدة على ايجاد نظام مالي متين يؤمن الموارد اللازمة للقيام بمتطلبات العهد الجديد . وقال ان المهمة كانت شاقة ، وقد واكبتها بعض الاجراءات التعسفية والمحاباة لبعض الأشخاص الذين ساعدوا الاحتلال البريطاني للعراق . وقال ان سلطات الاحتلال قد استطاعت تحسين الجباية والقضاء على سوء الاستغلال والرشوة ، وآن لها القيام ببعض الاعمال الانشائية المفيدة واعادة تعمير المدن التي دمرتها الحرب ، كمدينة الكوت ، وفتح بعض الطرق ومدّ سكة الحديد . . .

وقامت السلطات بانشاء لجنة الاعمار الزراعي وشجعت انتاج الحبوب والمواد الزراعية ، وأصلحت وسائل الريّ بفتح الترع . ونشأ عن ذلك انتعاش الحياة الاقتصادية نسبياً بسبب كثرة النقد المتداول وزيادة مصروفات الجيش المحتلّ ، مما ساعد على نموّ طبقة من المقاولين والتجار .

ثم أشار البزّاز الى القيام ببعض الاعمال الصحية والعلاجية والوقائية ومكافحة الامراض والأوبئة والاهتمام بالنظافة الجماعية فاستفاد الأهلون من رفع المستوى الصحي . وقال إن الناس تذكر باعجاب الهمة التي كان الموظفون المسؤولون حينذاك يبذلونها في القيام بواجباتهم على الرغم مما رافق ذلك من شدة وصرامة قد تصل الى حدّ القسوة احياناً . (ا هـ)

هذا ولا ريب ان تحسن الحياة الاجتماعية واتساع الانتعاش الاقتصادي قد أدى الى انشاء المدارس ونشر التعليم وارسال البعثات الدراسية الى الخارج وازدهار الادب بنتيجة ذلك . وأصبح الادباء والشعراء يجدون الجوّ المناسب لاظهار مواهبهم فلا يكونون ، كما كانوا في عصور الانحطاط ، عالة على الرؤساء والاغنياء يمدحونهم ويرثونهم يأملون رفدهم ويعيشون على فتات موائدهم . وقد استقلوا الآن بمعيشتهم يعملون في التدريس والصحافة والاعمال الحرة والوظائف الحكومية والاهلية ، ويجدون المجال واسعاً للابداع في الفنون الادبية والعلمية .

كلمة ختامية

ان الادب العراقي في النصف الاول من القرن العشرين أدب حيّ يحمل في طياته آمال الأمة الناهضة ، المتطلعة الى الحرية والاستقلال ، الطامحة الى العلم والرخاء بعد عصور طويلة من الجهل والفقر والتخلف . انه يحمل شكاوي الشباب الناظر الى الأمام ، الراغب في مشاركة الجنسين في النهضة الحديثة واحياء الأراضي البور والاستفادة من المياه الدافقة . ولم يخلُ من التطلع الى الماضي وأمجاده الزاهية ، ولم يهمل دفقات القلب المغرم بالحبّ والحياة ، الذي يردّد أناشيد الأسى اللاهف والفرح الطاغي وسائر المشاعر التي تعصف بالنفس البشرية وتثيرها أو تهدهدها حيناً بعد حين .

وجاءت ثورة سنة ١٩٥٨ وما عقبها من ثورات وانتفاضات . قال لي الشيخ محمد رضا الشبيبي : كنّا نشكو من الاوضاع السائدة وننتقدها ونطلب الاصلاح والتقدم ، لكننا ، نحن معشر المعارضين في العهد الملكي ، لم نكن نرغب في هدم الكيان الذي شيّد حجراً فوق حجر خلال السنين دون أن نملك خطة لبناء كيان أفضل مكين .

معركة السفور والحجاب

احتدمت معركة السفور والحجاب في بغداد في سنة ١٩٢٤/ ١٩٢٥ ، وكان في مقدمة الداعين الى سفور المرأة وتثقيفها واشراكها في الحياة العامة الشاعران الزهاوي والرصافي وأدباء الشباب مصطفى علي وحسين الرحال وغيرهم . عارضهم الشيوخ المحافظون وكفرهم رجال الدين المتزمتون وهاجت عليهم جماهير العوامّ ، لكن القافلة تسير وتتقدم لا يؤخرها ناعٍ ولا شامت متعصب .

حدثني مصطفى علي انه كان من أنصار السفور في جريدة «الصحيفة» التي أصدرها في كانون الأول ١٩٢٤ والمقالات التي نشرها في الصحف حتى كفره بعض العلماء . وكان في مقدمة أنصار الحجاب المفتي يوسف العطا ونجم الدين الواعظ والشاعر عبد الحسين الأزري الذي قال من قصيدة له :

حصروا علاجك بالسفور ، وما دروا ... ان الذي حصروه عين الداء

أولم يروا ان الفتاة بطبعها ... كالماء لم يحفظ بغير إناء؟...

ليس الحجاب بمانع تهذيبها ... فالعلم لم يرفع على الأزياء

وقال مصطفى علي : كان لفهمي المدرس أخ اسمه جميل أصبح من أشد انصار الحجاب ومن المتحاملين على الشباب السفوريين . وسبب تشدده في معارضة السفور انه كان له دار بجوار دار اخيه فهمي ، وقد زرع الورد في أصص على سطحها ، فكان جميل يصعد كل يوم الى سطح الدار متعهداً زهوره . وأجّرت تلك الدار الى وزارة المعارف التي انشأت فيها مدرسة للبنات . ولم يمنع اتخاذ الدار مدرسة صاحبنا من محاولة الاستمرار على رعاية وروده ، فذهب صباحاً ليفعل ذلك ، لكن المديرة أخرجته وأوصت الحارس بمنعه من الدخول . وثار الرجل وأرغى وأزبد ، وأصبح من دعاة الحجاب المتشددين ، وأخذ يندّد بتعليم الفتيات ويدعو الى بقائهن جاهلات في دورهن ويستنكر دعوة أصحاب السفور !

ومما يذكر ان السر هنري دوبس المندوب السامي البريطاني ذهب مع زوجته لزيارة مدرسة فتحت حديثاً للبنات ، فاستقبلتهما المديرة اللبنانية واعتذرت للمندوب السامي ، وهو رجل في أواسط الخمسين من عمره ، عن السماح له بالزيارة ، فجلس في غرفة

المديرة حيث قدمت له القهوة بينما طافت زوجته تتفقد الصفوف .

وكنّا سنة ١٩٤٦ او ١٩٤٧ في حفلة تخرّج لمدرسة ثانوية للبنات ، فقال لي الشيخ محمد رضا الشبيبي ، وكنت جالساً الى جانبه نرى المدرسات والفتيات سافرات يجئن ويرحن ويخطبن على المنبر ، قال لي : «هل ترى تقدم الحركة النسوية في جيل واحد او أقل من جيل في بلادنا؟ لقد كنت وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٤ ، أي قبل عشرين عاماً فقط ، وقد فتحنا مدارس رسمية لتعليم البنات واستقدمنا المدرسات من لبنان وغير لبنان ، لكنني لم يكن في وسعي ان ازور مدرسة من تلك المدارس . ونرانا اليوم نحضر الحفلات ونشهد تقدماً لا مثيل له» .

ومما يذكر ان مهرجاناً أدبياً أقيم في بغداد سنة ١٩٢٢ باسم سوق عكاظ ، فقامت صبيحة الشيخ داود ، وهي فتاة صغيرة دون العاشرة من عمرها بتمثيل دور الشاعرة الخنساء ، فاعتلت ظهر جمل وألقت قصيدة . وقامت قيامة المتعصبين يستنكرون قيام صبية بذلك الدور بمحضر من الملك فيصل ورجال الدولة والأدب ، لا سيما انها ابنة رجل دين معروف هو الشيخ أحمد الشيخ داود .

الشعر رائد النهضة الحديثة ولسانها الناطق

كان الشعر الحافز الى النهضة الاجتماعية والسياسية والناطق بلسانها .

وقد قيل قديماً ان الشعر ديوان العرب . والحقيقة انه قام ، منذ الجاهلية ، مقام ما نسميه اليوم المقالات الافتتاحية في الصحف قبل مئات الأعوام من نشوء الصحافة مع ميزة للقريض هي سهولة حفظه ونقله وروايته . وقد ظل خلال القرون الطويلة أداة للكفاح والهجوم والدفاع بمديحه ورثائه وهجائه وسائر أغراضه بالرغم مما اتسم به في الكثير من الأحيان من غلوّ واسراف ومجانبة للواقع والحقيقة .

أطلّ فجر النهضة الأدبية الحديثة في مطلع القرن العشرين ، فنفض الشعراء عن انفسهم غبار التقليد والجمود ، وتطلعوا الى آفاق الحضارة المادية والمعنوية . وكانت البلدان العربية ، وفي طليعتها سورية ولبنان والعراق ، تابعة للدولة العثمانية وراضخة لحكم الاستبداد الحميدي . اما مصر فكان لها موقع خاص ، وقد قطعت في نهضتها شوطاً بعيداً مذ تولّى زمام أمورها الوالي محمد علي باشا سنة ١٨٠٥ وأوفد البعوث الدراسية الى فرنسة وغيرها من الأقطار الأوربية ، وانشأ ، ومن بعده خلفاؤه ، المدارس والمعاهد ، واستقدم الأطباء ورجال العلم والعمل .

أطلق الشعراء ألسنتهم في مكافحة الاستبداد والدعوة الى الحرية والعدالة وتمجيد الوطن والشعور الوطني . كان شعر محمود سامي البارودي ، أحد ابطال الثورة العرابية والمبعد الى جزيرة سيلان ، يزخر بالحنين الى مصر والترفّع والاباء . قال :

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلماً وأغترب؟
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت ... أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفساً وهي عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النَّشَبُ

وفي الحقبة الأخيرة من الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد الثاني اشتدّ الشعور بالظلم وتقييد الحريات وكمّ الأفواه ، فانطلقت ألسن الشعراء تندّد بالظلم والطغيان وتدعو الى الحرية والانفتاح . قال شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي سنة

١٨٩٩ ، وكان في عاصمة السلطنة :

أيأمـــر ظلّ الله في أرضـــه بمـــا ‏ ‏ نهى الله عنه والرســول المــبــجّل؟
فــيــفــقــر ذا مـــال وينفي مـــبـــرّاً ‏ ‏ ويســجن مظلومــاً ويســبي ويقــتل
تمـــهّل قليـــلاً ، لا تغظ أمّـــة إذا ‏ ‏ تحــرّك فــيــهــا الغــيظ لا تتــمــهّل
وأيديك إن طالت فــلا تغــتــرر بهــا ‏ ‏ فــــإن يد الأيام مــنــهــن أطــول...

بلغت هذه الصرخة المدوّية سمع الخليفة فأمر بسجن الشاعر مع من كان سجيناً من الأحرار كعبدالحميد الزهراوي والشاعر التركي صفا بك ، ثم أقصي الى بغداد في نيسان ١٩٠٠ .

وقال معروف الرصافي :

عـــجــبت لقــوم يخــضــعــون لدولة ‏ ‏ يســوســهُمُ بالمــوبقــات عــمــيــدها
وأعـــجب من ذا انهم يرهبـــونهـــا ‏ ‏ وأمـــوالهــــا منهم ومنهم جنودها
إذا وليت أمــر العــبــاد طغــاتهــا ‏ ‏ وســاد على القــوم السّراة مَــسُــودها
وأصــبح حــرّ النفس في كل وجــهــة ‏ ‏ يُرَدُّ مُــهـــاناً عن ســبــيل يريدها
وصــارت لئام الناس تعلو كــرامــهــا ‏ ‏ وعــاب لبــيــداً في النشــيــد بليــدها
فــمــا أنت إلا ، أيهــا المــوت ، نعــمــة ‏ ‏ يعــزّ على أهل الحــفــاظ جــحــودها

وقال :

الى كم انت تهــتــف بالنشـــيــــد ‏ ‏ وقـــد أعـــيـــاك ايقـــاظ الرقـــود؟

وقال خليل مطران :

كــسّــروا الأقــلام ، هل تكســيــرها ‏ ‏ يمنع الأيديَ ان تنقش صــــخـــرا؟
قطّعـــوا الأيدي ، هل تقطيـــعـــهـــا ‏ ‏ يمنع الأقـــدام ان تـركب بحــــرا؟
حطّمــوا الأقــدام ، هل تحطيــمــهــا ‏ ‏ يمنع الأعـــيــن ان تنظر شـــزرا؟
أطفــئـــوا الأعـــين ، هل إطفـــاؤها ‏ ‏ يمنع الأنفـــاس ان تصــعـــد زفـــرا؟
أخــمــدوا الأنفــاس ، هذا جــهــدكم ‏ ‏ وبه منجـــاتنا منك فـــشــكرا

وقال أيضاً :

صــبّـــوا المــداد وحطّمــوا الأقــلامــا ‏ ‏ واطووا الصــحــائف وانزعـوا الأفــهــامــا
وخـــذوا علـى الوجـــدان كلّ ثنّيـــة ‏ ‏ واقــضـــوا الحــيــاة مــزمّلين نيــامــا
ودعــوا البــلاد تذوق من عنت العـــدا ‏ ‏ مــا شــاء خادمــهــا الخــؤون وراما

وقال :

الحكم شـــورى ، لا تَفَــرُّدَ صـــالحٌ   في غـيــر حكم الواحــد القــهّــار

وقال احمد نسيم :

إنّ الملوك إذا اســتـبـدّوا أصـبـحت   أيّامــــهم رهن الحــــوادث سُـــوَدا

وقال أحمد محرّم :

الدار مــــملكة علوت ســــريرها   فــتـــولَّ بالرأي السّـــديد أمـــورها
أحـسن سـيـاسـتـهـا وشُـدَّ عـمـادها   وامنع مــحــارمـــهــا وسُـدَّ ثغــورها
وارفق بشـعـبك ، فـالشـعـوب يسـوؤها   عنف الملوك ويسـتـثـيـر نفـورها
واسلك به نـهـج الهــــدى وأضـئْ له   سنن الفـضـائل يبـتَـدرْ مـأثورها
لا يُلْفـيَنَّك بالمـسـاوئ مـولَعـاً   إن كنت تؤثر أن يعــاف شـــرورها

وقال أحمد نسيم أيضاً :

مـا ضـاع حقّ لشـعب راح يطلبـه   برأي مــحـتـزم او سـعي مـعـتـزم
والشـعب يربض حـيناً ثمّ ينهـضـه   الى التـحـفّـز مـا يلقى من الألم
حـتى إذا شبّ يبـغي مـجـده صَـعَـداً   شـبّت عـزائمـه كـالنار في الضَـرَمِ

وقال عباس محمود العقّاد :

مـا يبـتغ الشـعبُ لا يدفَـعْـه مقـتـدر   من الطغـاة ولا يمنَعْـهُ مـغـتـصب
مـا بين أن تطلبـوا المـجـد المعـدّ لكم   وأن تـنـالوه الا الـعـــــزم والطـلـب

وقال محمد الأسمر :

بني مـصـر ، مـا للقـائمـين بأمـركم   يسـومـونكم أشـيـاء ضلّ سـبيلهـا؟
هُمُـو حلبـوا منها الضَّـروع جـمـيعـهـا   وصـارت لهم أحـزانهـا وسـهـولهـا
فيـا لهف نفسي كيف نمتم على الأذى   وأنتـم فـروع ضـيّـعـتـهـا أصـولهـا

لكن الشاعر الحرّ الذي قارع الاستبداد الحميدي وهاجمه شعراً ونثراً وكابد الهول والنفي من ظلمه انما كان محمد ولي الدين بك **يكن** سليل أسرة مصرية عظامية تبوّأ أفرادها أرفع مناصب الدولة . وهو محـمـد ولي الدين بن حـسن سري باشا بن ابراهيم باشا ابن أخت محـمـد علي باشا والي مصر . ولد شاعرنا في الاستانة في ٢ مارس ١٨٧٣ ، وانتقل والده الى مصر فلم يلبث ان توفّي بها وولي الدين في السادسة من عمره ، فكفله عمه وتولى تربيته وتثقيقه . أصدر في سنة ١٨٩٧ جريدة «الاستقامة» فنزع فيها نزعة حرة منافحاً عن الحق ، داعياً الى الاصلاح . لكن هذه الدعوة لقيت من رجال الحكم سخطاً واستنكاراً ، فاضطرّ على تعطيل صحيفته وقال في رثائها :

ولمـا غـدا قـول الصـواب مـذمّـمـا عــزمتُ على ان لا أقــول صــوابا
فجـافيت أقـلامي وعفت «استـقامـتي» ورحـت أرجّـي للســلامــة بـابا

لكنه لم يفرّ من ميدان الكفاح ، بل صار يدبّج الفصول وينظم القصائد وينشرها في الجرائد المصرية . وعـاد الى دار الخلافة فعين عضـواً بلجنة الرسوم الكمركيـة فعضـواً بمجلس المعارف الأعلى .

كان لهذه الأعوام التي قضاها متنقلاً بين العاصمتين المصرية والعثمانية اثر عميق في توجيه حياته . شهد في مصر حرية نسبية وطموحاً الى التقدم والاصلاح ، وشهد في استانبول استبداداً غاشماً يحصي على الناس الحركات والسّكنات ، فقام في نفسه صراع خفيّ لم يكبت إلا ليشتدّ اندفاعاً واستقواء . لقد كان لزاماً على وليّ الدين ان يختار بين سبيلين : سبيل الحياة الوادعة الهنيئة بممالأة السلطة والتزلف اليها وقبول مناصبها ، او سبيل الانتقاض على الظلم والمناداة بالاصلاح . ولم يتردد في الاختيار ، فمسّت دعوة الجهاد منذ البداءة من قلبه وتراً حساساً وانضوى الى فريق الأحرار الذين نصروا الحرية بالقلم واللسان .

اوجس رجال الدولةالحميدية ريبة من سلوك الموظف الشاب ، فبثّوا من حوله العيون والأرصاد . وفي سنة ١٩٠٢ فتّش منزله بأمر من ناظر الضابطة ، ثم قبض عليه وألقي في غياهب السجون . وبعد شهر واحد أشخص الى سيواس ، وأذن له باستقدام أسرته ، وعيّن معاوناً لمدير تحرير الولاية . وقد مكث في منفاه ستة أعوام ونصف عام حتى أذن المؤذن بزوال الطغيان واعلان الدستور ، فبارح سيواس التي قال فيها :

رضــيـت ســيـــواس داراً ومـــا بســيـــواس شـــرّ
جنوا عليــهــا فــأمــست قــد أقــفــرت فــهي قــفــر

عـاد الى مصر وانصرف الى الأدب يروي من مناهله نفسه الظامئة . وأصدر كتـابه «المعلوم والمجهول» الذي خلّد في جزءيه أيام كفاحه ومنفاه . وأخرج ايضاً في هذه الآونة كتـابيه «الصحـائف السّود» و«التجاريب» . وبعد أعوام من العمل في الصحافة انخرط في سلك موظفي نظارة العدل المصرية ، ثم اختاره السلطان حسين كامل عند اعتلائه العرش سنة ١٩١٤ سكرتيراً عربياً في ديوانه . وابتلي بمرض عضال يقطع عليه أنفاسه وتوالت عليه النكبات العائلية فأوهنت مضاء عزمه ، وأصبح ولم يبلغ من عمره الخمسين ، شيخاً ينوء بأعباء الحياة ، ولم يبق منه على عوادي الدهر سوى عاطفته الجيّاشة الرقيقة . ووافته المنيّة في حلوان في ٦ مارس ١٩٢١ .

قال في أيام صراعه مع الاستبداد :

صحا كل شعب فاستردّ حقوقه فيا ليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم وليس له فيمن تولّوه خادم
يقلّب من عهد لعهد على الأذى إذا زال عنه غاشم جدّ غاشم

وقال :

يا شرق ، لجّ بك العداة هوى يا شرق ، أغراهم بك الطمع
وبنوك قد طبعوا على خُلُق وعلى سواه الناس قد طبعوا...
جهلوا فأخضعهم تعصّبهم ، والله لو علموا لما خضعوا

وقال :

باللّه ، يا وطني ، اما لك راحم ، أكذاك نارك كل يوم توقد؟
إن يظلموك فكم أصابك ظلمهم؟ إن كنت تجحده فما أنا أجحد
او ينزلوا بك للحضيض خيانة فَلَعَهدنا بك للكواكب تصعد
لو كان في هذي المنازل مصلح ما ساد في هذي المنازل مفسد
إن يحرقوها ظالمين فبعدها نار سَتُحْرَقُ في لظاها الأكبد

وقال :

يا وطناً قد جرى الفساد به ، متى يرينا اصلاحك الزمن؟
دفنتَ حيّاً وما دنا أجل ، ما ضرّ لو دافنوك قد دفنوا
دماء أبنائك الكرام جرت بحراً فأشلاؤهم له سفن

خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ فقال احمد شوقي قصيدته الشهيرة :

سل يلديزاً ذات القصور هل جاءها نبأ البدور؟

رمى شوقي عصفورين بحجر واحد : رثى للسلطان المخلوع وذكر أيامه السعيدة ومجده الغابر ، ثم انثنى يحيي الثورة والثوّار ويعظّم الجيش الذي خلعه ويمدح قواده الأشاوس . فانبرى له ولي الدين يكن يردّ عليه ويردد مآثم الظلم والاستبداد ويقول :

هاجتك خالية القصور وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكان الحمى ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزير لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثير وناهب المال الكثير
حامي الثغور الباسمات مضيع آهلة الثغور

حتى يقول :

للّه أجساد ثوت بين الجنادل والصخور
باتت على خشن الثرى من بعد مضجعها الوثير
كانت زهور شبيبة ، لهفي على تلك الزهور!
نضرت سنين ولم تذق من لذة العيش النضير
سقيت مياه دمائها والروض رقراق الغدير
كم خلفها من صبية يتمت ومن شيخ كبير
يترقبون مآبها ، انّ المآب الى النشور
وممنّعات في الخدور تموت حزناً في الخدور
ترجو زيارة صبّها ، نبت الزيارة بالمَزُور
أودى الردى بنصيرها فغدت تعيش بلا نصير
فشكاتها بلسانها والحزن في طيّ الضمير

لكن أحمد شوقي الذي كان ينعم آنذاك في منصبه الكبير في بلاط الخديو عباس حلمي الثاني لم يكن نصيراً للاستبداد والظلم وطمس الحريات ، وشعره الوطني آية من آيات البلاغة وحبّ الحرية والاستقلال . قال فيه عبد الرحمن الرافعي مؤرخ مصر الكبير : «في قصائد شوقي يسطع نور الوطنية ويتأجج لهيبها . وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم انتاجاً في هذه الناحية . ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته ، شاباً وكهلاً وشيخاً ، بل ان شعره الوطني في شيخوخته كان أقوى منه في شبابه ، والوطنية في شعر شوقي هي فيض الفطرة والالهام وليس من صنع الظروف او التكلف ، ولذلك جاءت قوية جارفة ، عميقة رائعة» .

ولم يكن سائر الشعراء الذين نبغوا في ذلك العهد دون شوقي في غيرتهم ووطنيتّهم واخلاصهم ، وفي مقدمتهم محمد حافظ ابراهيم وخليل مطران وأحمد محرم وأحمد نسيم ومصطفى صادق الرافعي وأحمد الكاشف في مصر ، والزهاوي والرصافي ومحمد رضا الشبيبي وأخوه محمد باقر وعلي الشرقي وخيري الهنداوي ومحمد حبيب العبيدي وكاظم الدجيلي وعبد الحسين الأزري ومحمد مهدي البصير ومحمد الهاشمي وعبد الرحمن البناء في العراق ، واخوانهم في سورية ولبنان وسائر أمصار العروبة . دعا هؤلاء الشعراء الى الحرية والاستقلال ونادوا بتحرير المرأة وتثقيفها وانهاضها وطالبوا بالدستور وسيادة القانون وأشادوا بالوحدة الوطنية والقومية وهاجموا الاحتلال والفساد وحبّذوا الاخلاق الرفيعة والعلم الصالح وانطلاق الأفكار . رثوا احرار الأمة وشهداءها واتخذوا مراثيهم وسيلة لانهاض الهمم ومكافحة الطغيان وشجب الاحتلال والاستعمار

والاستغلال . ولم تفتهم مناسبة وطنية في الأقطار البعيدة والقريبة إلا اطلقوا فيها القول من بطش جمال باشا السفاح بأحرار العرب خلال الحرب العظمى الى ثورة الحسين سنة ١٩١٦ وثورة مصر سنة ١٩١٩ وثورة العراق سنة ١٩٢٠ والثورة السورية سنة ١٩٢٥ وثورة التحرير سنة ١٩٥٢ . رفعوا عقيرتهم في الانتصار لفلسطين ، مجّدوا دعاة الحرية والاستقلال في الجزائر وتونس والمغرب العربي . كانوا لسان الأمة الناطق وروادها في طريق النهضة وأدلاءها في منطلقها نحو الأعالي والمكارم .

ونشطت حركات التحرير في الشمال الأفريقي التابع لفرنسة في اعقاب الحرب العظمى الأولى ، فانطلق الشاعر التونسي الشاب ابو القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤) يقول :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بدّ ان يستجيب القدر

ولا بدّ لليل ان ينجلي ... ولا بّد للقيد ان ينكسر

ونادى بقوة الشعب الناهض فقال :

يقولون : صوت المستَذَلّين خافت ... وسمع طغاة الأرض أطرش أصخم

وفي صيحة الشعب المسخّر زعزع ... تخرّ لها شمّ العروش وتهدم

ولَعْلَعة الحقّ الغضوب لها صدى ... ودمدمة الحرب الضروس لها فم

ودعا الشعراء الى الأخلاق الحميدة فقال حافظ ابراهيم :

إنّي لتطربني الخلال كريمةً ... طرب الغريب بأوبة وتلاق

ويهزّني ذكر المروءة والندى ... بين الشمائل هزّة المشتاق

والعلم ان لم تكتنفه شمائل ... تعليه كان مطيّة الاخفاق

لا تحسبنّ العلم ينفع وحده ... ما لم يتوّج ربّه بخَلاق

وقال معروف الرصافي :

هي الأخلاق تنبت كالنبات ... إذا سقيت بماء المكرمات

تقوم إذا تعهدها المربّي ... على ساق الفضيلة مثمرات

وقال أحمد شوقي :

وإنما الأمم الاخلاق ما بقيت ... فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال :

وإذا أصيب القوم في اخلاقهم ... فأقِمْ عليهم مأتماً وعويلا

وقال أحمد محرّم :

ان الحياة معالم ومجاهل — والنّاس من هاد ومن حيران
وإذا النفوس تهذّبت أهواؤها — لم يبغِ انسانٌ على انسان

وقال :

يا ربَّ مُثْرٍ لو أطاع إلهه — وأبي الدّنايا فاته الاثراء
بزّ الضعيف فمَن نسائل طمْره — حيكت عليه البزّة الحسناء
وعلى بقايا دوره وطَلوله — أمست تُقَام قصوره الشمّاء
وإذا الرعاة تنكبّت سبل الهدى — غوت الهداة وطاشت الحكماء

رفع الشعراء لواء النهضة الاقتصادية لتكون دعامة الاستقلال والرخاء والعيش الكريم ، فقال شوقي :

يا طالباً لمعالي الملك مجتهداً — خذها من العلم او خذها من المال
بالعلم والمال يبني النّاس ملكهم ، — لم يُبْنَ ملك على جهل واقلال

وقال أحمد الكاشف يبشّر بالاشتراكية :

للاشتراكية العُقْبى إذا شملت — شتّى الشعوب وجاراها المجارونا
فلا الكثيرون ملك للأقلّينا — ولا الأقلّون ملك للكثيرينا
ولا نرى واحداً ملأى خزائنه — بالمُغْنيات وآلافا يجوعونا
ولا نرى درّة في رأس محتكم — تهفو اليها قلوب المستظّلينا

وراودت الوحدة العربية أذهان الشعراء منذ مطالع القرن فقال عبد المحسن الكاظمي :

يا أيها العرب ، تعالوا — نحتكم الى الرُّشُدْ
لمْ لا نوحّد القوى — جميعها ونتّحد
تَحت لواء واحد — يخفق في كلّ بلد؟

وقال :

سيروا قواصد للمنى — أو تبلُغَ الأوطان قصدا
وترى البلاد جميعها — علماً طويل الظلّ فردا
يا حبّذا العَلَم الذي — إن تقصر الأعلام مدّا

وقال :

أيها العرب ، تعالوا نلتقي — في طريق المجد حتى نصلا
نلتقي تحت لواء واحد — سجّل النصر له إذ سجّلا

وقال محمد رضا الشبيبي :

ببـغــداد أشــتــاق الشــآم وها أنا — الى الكرخ من بغــداد جمّ التــشــوّق

فـمـا أنا في أرض الشـآم بمـشـئـم — ولا أنا في أرض العــراق بمــعــرق

همـا وطن فـرد وقـد فـرّقـوهمـا ، — رمى الله بالتـشـتـيت شـمل المـفـرّق

وماذا عن الأماني الوطنية؟

قال أحمد نسيم يودّع لورد كرومر لمناسبة رحيله عن مصر سنة ١٩٠٧ :

يا لوردُ ، هل لك في الاسلام من غرض — ترمي اليـه بسـهـم فـيك مـسنون؟

هجـوت قـومي ومـا فـارقت أرضـهـم — حـتى تجـرّأت ان تنحي على الدين

غـادرتهـا وهي للتـقـرير صـارخـة — الى الإله بقلب منك مــحــزون

وقال حافظ ابراهيم يستقبل خلفه السر الدون غورست :

أذيقــونا الرجــاء فــقــد ظمــئنا — بعــهــد المــصلحـين الى الورود

ومُنُّوا بالوجــود فــقــد جــهلنا — بفـضل وجـودكم مـعنى الوجـود

وقال احمد الكاشف يخاطب لورد كتشنر حين عيّن معتمداً بريطانياً في مصر سنة ١٩١١ :

في مـصـر شـعب لا يضـام ومـالك — مــتــفــرّد لا يقــبل الإشــراكــا

مــا أنت حـابس نيلهـا يومـاً ولا — أهرامــهــا مــهـدومـة بقــواكــا

الله أكــبــر من جــيـوشك سطوة — والدهر أبعــد من مـدى مـرمـاكـا

وقال محمد باقر الشبيبي يخاطب السر فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني عند قدومه الى العراق ، والبلاد تطالب بالاستقلال ورفع الانتداب والانتماء الى عصبة الأمم :

هل في حـقـيـبـتـه شيء من الأمل — أم المـزيجــان من سمّ ومن عـسـل؟

تســاءل الناس عن قــول يفــوه به — وقــد تمــرّ شــهــور وهو لـم يقل

حتى يقول :

تنقلت بأمــانينا ســيــاســتــهـم — تنقّل الجــسم بين السّــقم والأجل

فــازوا فـعــادت أمــانينا بفــوزهُمُ — طيـفـاً وسـارت مـسـاعينا الى الفشل

سـيـاسـة القـوم عند الناس واضـحـة — مطويّة في مناحـيـهــا على دخل

مـا قـيـمـة الحلف منقـوضـاً يراد به — ان يصبح الحكم مـقـصـوراً على رجل؟

صـيـغـت بلندن أطواقــاً وأسـورة — من الحـديد وإن كـانت من الجُـمَل

وماذا عن حرّية الفكر؟ احتفلت مصر سنة ١٩٢٧ بتكريم أحمد شوقي ومبايعته بامارة الشعراء . وفي الوقت نفسه اشتدّت الحملة على الدكتور طه حسين صاحب «في الشعر الجاهلي» وعلي عبد الرازق صاحب «الاسلام وأصول الحكم» ، فقال معروف الرصافي في حفلة تكريم شوقي في بغداد :

إذا احتفلت مصر بشوقي فما لها ... تقيم على الأحرار في العلم حاجرا؟
فقد اسمعتنا ضجّة أمطرت بها ... علياً وطه حاصباً متطايرا
فما بال هذا عدّ في مصر مارقاً ... وما بال هذا عدّ في مصر كافرا؟
إذا لم تكُ الأفكار في مصر حرّة ... فليس لمصر أن تكرّم شاعرا!

وشعر محمد مهدي الجواهري شاعر العراق والعرب سجلّ حافل للتأريخ العربي منذ سنة ١٩٢٠ بخيره وشرّه ، بنهضته وتراجعه وانحطاطه ، بتطلعه وتأمّله وتشوّقه وتساميه . فهو يمدح ويقدح ، ويحزن ويفرح ، ويجمع ويطرح ، ويداوي ويجرح ، ويهدأ ويجمح ، ويثبت ويبرح ، ويستكين ويرمح ، وينتحب ويصدح ، ويوضّح ويعمّي ويشرح . مدح الملوك والوزراء والرؤساء في مختلف العهود ورثاهم ، وحيّا الانقلابات والثورات والانتصارات وهجاها ، ونقم على الطغاة وسار في موكب الهداة . ناجى البلاد العربية شرقاً وغرباً وشارك في اعيادها ومآتمها ، وكان له في كل مقام مقال وفي كل مسألة جواب وسؤال . فهو شعراء في إهاب شاعر ومسالم في رداء ثائر ، لا يملّ ولا يعجز ولا يهن ولا يهي .

ولنا ان نقول بعد ذلك ان الشعر أدّى رسالته وحمل مشعل التقدم والنهضة ورفع لواء الوطنية والقومية . وقد أصبح الآن في طور الخمود والخمول بعد ان طغت مذاهب الرمزية والسوريالية والتكعيبية والتعجيزية وفنون الشعر الحرّ والمنثور والمهموس ، وانصرف الشعراء الى معالجة الهواجس والعواطف والسباحة في بحر السلم والمبادئ المتطرفة أملاً في اصلاح البشرية وسيادة الأمن والسلام .

أدب المهجر ورسالته

كان لأدب المهجر الاميركي شماليّه وجنوبيّه أثر محسوس في نفوس جيل العشرينات والثلاثينات من القرن . ولئن كان هذا الأدب معظمه وجدانياً إنه لم يخلُ من نفحات وطنية تلهب النفوس وتثير المشاعروتبعث على الحماسة التي تستنهض الهمم ، لا سيّما شعر أمين الريحاني المنثور الذي يمجّد الثورة ويومها القطوب العصيب وليلها المنير العجيب ويدعو الى الحرية والنهوض والاتحاد والفضيلة .

وفي شعر المهجر حنين لاهب الى الوطن البعيد ، فيقول ايليا أبو ماضي :

لبنان فيكم ماثل إن كنتمُ — في مصر أو في الهندأو في الصين
إن بنتُم عنه فما زال الهوى — يدنيكم منه كما يدنيني

ويقول نسيب عريضة ، وقد ذكر مسقط رأسه حمص :

صور تلوح لخاطر المعمود — ما بين أرباض المنى والبيد
خفّاقة فيها بنود العيد — بسّامة فيها ثغور الغيد

تجلو رؤى ماضي الهوى المفقود

وقال أبو ماضي في قصيدته «متى يذكر الوطن النوّم» :

جلست وقد هجع الغافلون — أفكّر في أمسنا والغد
وكيف استبدّ بنا الظالمون — وأن جهنّم في مرقدي
وضاق الفؤاد بما يكتمُ — فأرسلت العين مدرارها

وذكر الحروب وويلاتها والنساء اللواتي يجدن بأولادهن على الموت ، والموت لا يرحم . وذكر الدور والأربع التي أقفرت من أهلها ، ورأى جبال الغيوم في المشرق فاجتمعت حول نفسه الغموم . وعجب من الضاحك اللاعب وأهلوه بين القنا والسيوف يبيتون في وجل ويلجؤون الى الكهوف والمغاور . ويحمل أبو ماضي همّ الفقير والبائس ويندّد بالغنّي المستعزّ بماله ، المسرف في خيلائه .

ويقول الياس فرحات :

عليكم سلام الله ، يا آل يعرب ، — متى ينتهي مسعاكم المتنافر؟

متى تذكرون المجد ، فالمجد ذاكر   لكم أطيب الأيام والدهر ذاكر

وقد رأى الخلق والعلم يتقدمان على المال الذي :

به ضمائر بعض   تباع حيناً وتُشرَى

وقال :

كم أنطق المال عبداً ،   كم أسكت الفقر حرّاً . . .

المال ينفع لكن   العلم بالنفع أحرى

والخلق فوق كلا الاثنين مجداً وقدرا

وفي شعر المهجر نغمات حزينة ويأس مرّ . قال ميخائيل نعيمة :

أخي ، إن ضجّ بعد الحرب غربيّ بأعماله   وقدّس ذكر من ماتوا وعظّم بطش أبطاله ،

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا   بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دامٍ

لنبكي حظ موتانا . . .

ويقول نسيب عريضة :

كفّنوه ، وادفنوه   أسكنوه هوّة اللحد العميق .

واذهبوا لا تندبوه   فهو شعب ميّت ليس يفيق . . .

ويحسد الشاعر القروي رشيد سليم الخوري البقر فيقول :

طوباك سارحة في القفر طوباكِ   إن كنت احسد مخلوقاً فإيّاكِ

انه يحسد البقر لأنها حرة في المَروج تسرح وتمرح وتأكل العشب الطرّي . فاذا شكت الصخر والاشواك فالقفر غير الفقر ، واذا شكت الانياب الفاتكة فالجلد غير العرض ، واذا شكت برد الشتاء والغيث الهاطل فالقطر غير الدمع . ولو علمت البقر عن الافرنج والعرب وما يعانيه أباة الضيم في أوطانهم لما خشيت سكين السفاك ، فالموت غير الذّل المهين .

يضرب الشاعر القروي لأمته مثلاً بغاندي زعيم الهند ، يقول :

وهل سمعت بغاندي؟ إنه حمل   في الهند ثار على الضرغام فانتصرا

هذا الذي لو هزّه ولد   لاندق كالعود في كفّيه مندثرا

هزّوا الحسام فلم يحفل وهزّ لهم   غصن السلام فهزّ البحر والجُزُرا

وغادر السيف يحكي عنده فللاً ،   فاعجب لغصن يفلّ الصارم الذكرا!

وقال الياس فرحات من مهجره في البرازيل يذكر موطنه :

نازح أقعده وجد مقيم   في الحشا بين خمود واتّقاد

كلما افتّر له البدر الوسيم | عضّه الحزن بأنياب حداد
يذكر العهد القديم | فينادي :
أين جنّات النعيم | من بلادي؟ . . .
موطني يمتدّ من بحر المياه | ممعناً شرقاً الى بحر الرمال
بين طوروس وبين التيه تاه | بجمال فائق حدّ الجمال
ذكره يغري فتاه | بالمعالي
أنا لا أرضى سواه | فهو مالي

وقال محبوب الخوري الشرتوني (من المكسيك) :

قالوا : تحبّ العُرْب؟ قلت : أحبّهم ، | يقضي الجوار عليّ والارحام
قالوا : لقد بخلوا عليك ، أجبتهم : | أهلي وإن بخلوا عليّ كرام
قالوا : الديانة ، قلت : جيل زائل | ويزول معه حزازة وخصام
ومحمّد بطل البريّة كلها | هو للأعارب أجمعين إمام . . . .

وقد قال جبران خليل جبران رداً على سؤال لمجلة «الهلال» سنة ١٩٢٤ : « . . . وأنّى للأقطار العربية التضامن وقلب كل قطر منها يخفق ولكن بصدر عاصمة من عواصم الغرب؟ وكيف تستطيع الألفة والتعاون وكل منها يستمدّ ميوله السياسية والعمرانية والاقتصادية من زاوية بعيدة من زوايا الغرب؟

وإذا كان القطر الواحد من الأقطار العربية يريد أن يتفق سياسياً مع القطر الآخر فعليه أن يأخذ منه ويعطيه . وإذا كان يريد أن يلتحم به اداريًا فعليه أن يقرّبه ويقترب منه . واذا كان يريد أن يستعين به اقتصادياً فعليه أن يؤثر مبادلته على مبادلة البلاد الأخرى . فهل فهم القوم في الشرق العربي هذه الأوليات البسيطة الى حدّ الابتذال؟

أقول انهم لم يدركوها بعد . .»

وقال جبران :

يا بلاداً حجبت منذ الأزل ، | كيف نرجوك ومن أي سبيل؟
أي قفر دونها ، أيّ جبل | سورها العالي من منّا الدليل؟
أسراب انت ام انت الأمل | في نفوس تتمنّى المستحيل؟ . . .

لكن هذه البلاد المحبوبة التي سماها «بلاد الفكر ، مهد الألى عبدوا الحق وصلوا للجمال» لم تكن في الشرق ولا في الغرب ، بل هي بلاد روحانية يخفق لها الفؤاد وتتلهف اليها النفوس .

واذا ذكر أدب المهجر فلا بد من ذكر أمين الريحاني ، وهو من طراز يختلف عن اعضاء الرابطة القلمية في نيويورك والعصبة الاندلسية في البرازيل ، اذ كان أديباً رائداً عاملاً ، خدم النهضة العربية بقلمه ورحلاته واتصالاته بزعماء العرب ورجالهم بعد الحرب العظمى الاولى . حضّ في كتاباته الكثيرة وخطبه البليغة على التعلق بالروح دون المادة ومناهضة الاستعباد الاقتصادي ، ونادى بالحرية والمساواة وحق الشعوب في تقرير مصيرها . وقال في وصيته التي تركها للأجيال المقبلة : «ان الأمة الصغيرة وهي على حق لأعظم من الأمة الكبيرة وهي على باطل» . وقال ايضاً : «الأمة القوية الحرة لاتستحق حريتها وقوتها ما زال في العالم أمم مستضعفة مقيّدة» .

تلك بذور من الغرب جاء بها الريحاني لزراعتها الى بلاده الشرقية . اين ذلك من قوله في قصيدة له منثورة : «انا الشرق ، عندي فلسفات وعندي ديانات ، فمن يبيعني بها طيارات؟»

الشعر بين الجمود والانطلاق

عرّف الأقدمون «الشعر» بأنه الكلام الموزون المقفّى . وقال محمد بن سلاّم الجمحي وهو صاحب «طبقات الشعراء» ومن أقدم النقّاد الأدبيين وقد توفي سنة ٨٤٦م : «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات . .» . وروى انه قال قائل لخلف بن حيّان : «اذا سمعت انا بالشعر واستحسنته فما ابالي ما قلت فيه أنت وأصحابك» . فقال له : «اذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته فقال لك الصرّاف أنه ردئ هل ينفعك استحسانك له؟» .

وتكلم الأديب الانكليزي تيودور واتس دانتن على تعريف الشعر في دائرة المعارف البريطانية فقال : «لئن كانت التعاريف كثيراً ما تكون مضللّة وغير مرضية على السواء ، ان تعاريف الشعر ليضرب بها المثل في تضليلها وعدم كفايتها . ومع ذلك فلا بد من محاولة وضع تعريف في هذا المقام فنقول : «ان الشعر الخالص هو التعبير الماديّ والفني للفكر الانساني بلغة عاطفية ذات ايقاع» .

وفي خلال الألف سنة التي مرت بين ابن سلاّم وواتس دانتن وقبلهما وبعدهما أيضا حاول آلاف النقاد والأدباء من مختلف الأقوام وفي شتى الأقطار وضع تعريف للشعر ، بينما اكتفى الشعراء بنظم اشعارهم فلم يشكّ احد في أنها شعر ، من هوميروس وبندار وفرجيل الى لامارتين وبيرون وفكتور هوغو ومن امرؤ القيس وابن الرومي والمتنبي الى شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وايليا أبي ماضي وجبران . . .

ان التعاريف السهلة اكثر ما تكون خداعا ، والكلام الموزون المقفى ليس في الحقيقة تعريف الشعر بل هو تعريف النظم ، ولذلك نشأ آلاف النظامين الذين استعانوا بالوزن والقافية ليلفقوا كلاما أبعد ما يكون عن الشعر . وقد سأل بعضهم شاعراً من نوابغ الشباب : «كيف يهيأ للمرء أن يجوّد نظم الشعر؟» فقال : «يتعلم العروض ويحفظ آلاف الابيات من عيون الشعر ويمارس الصناعة عشرات السنين فينظم بيتاً ويسقط ألفاً» . قال : «ولكنك لم تفعل كل ذلك» ، فأجاب الشاعر العبقري : «أجل ولكنني لم أسأل كيف أقول شعراً» .

ولشاعر العراق جميل صدقي الزهاوى محاضرة عجيبة في الشعر نشرها وفائيل

بطي في مقدمة كتابه «سحر الشعر» المطبوع سنة١٩٢٢ ، وقد جال فيها الزهاوي وصال ، فمما قاله :

«الشعر شعور الشاعر قد خرج من مخدعه وهو قلبه متحداً اتحاداً أثيرياً بشعور آخر هو النغمة التي نسميها وزناً ، وقد ركبا أجنحة الألفاظ الخفيفة ليطيرا معاً مرفرفين رفرفة الفراش الجميل على زهر الرياض ، فيصلا الى الأسماع ويثيرا ما هنالك من الاحساسات الراقدة» .

وقد عبر عن نفس هذه الحقيقة أحد الشعراء الرمزيين الفرنسيين فقال ما مضمونه : «ان الشعر لايكون شعراً إلا بالاتصال بين روحين منسجمتين : روح الشاعر وقارئه . فالقصيدة تبقى خامدة ميتة حتى تمس من قلب القارئ او السامع وتراً حساساً» .

وقال الزهاوي - وصدق في ما قال :

لقد قرض الشعر الكثيرون في الورى	وأكثره ما فيه روح ولا فكر
إن الشعر لم يهززك عند سماعه	فليس خليقاً أن يقال له شعر

أما معروف الرصافي فعرّف الشعر بأنه مرآة من الشعورتنعكس فيها صور الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاساً يؤثر في النفوس انقباضاً او انبساطاً . وكان الرصافي واسع الأفق في نظرته الى الشعر ، فلم يخصّه بالنظم بل قال : «ثم ان هذا التعريف يتناول المنظوم والمنثور من الشعر . وهو كذلك فإن الشعر قد يكون في المنثور كما يكون في المنظوم ، ولكن الغالب في المنظوم أن يكون واسطة لبيان المعاني الشعرية ، أي لبيان سانحات الحسن والخيال بخلاف المنثور فإن فيه أن يكون واسطة لبيان ما هو من ثمار العقل ونتائجه ، ولذلك أكثرت العرب اطلاق اسم الشعر على المنظوم حتى قال المتقدمون من أهل الأدب في تعريف الشعر «انه كلام ذو وزن وقافية» وهو تعريف للأعم الأغلب من الشعر . . . وإلا فهم يعلمون أن الشعر لا يختص بالمنظوم وأنه قد يكون منثوراً» .

ونقل أنيس الخوري المقدسي عن توماس كارليل انه عرّف الشعر الحقيقي بالموسيقى الازلية التي يسمعها الشاعر من وراء الوجود . وقوله الشعر الحقيقي تمييز عن المنظومات الكثيرة التي ليس لها من روح الشعر سوى الوزن والقافية - تلك المنظومات التي زخرت بها الآداب الأوروبية والعالمية كما زخر بها الأدب العربي في حقبة طويلة من تأريخه .

قال كارليل : «ان الافكار السامية نظماً كانت ام نثراً مستمدة من مصدر واحد ، فكيف نقيد الشعر بالوزن والقافية؟ نعم ، لا بدّ من الموسيقى في الشعر لأن الشعر في الأصل نوع من الغناء ولكن الموسيقى الشعرية ليست موسيقى الألفاظ بل هي خاصّة من

المادة الأصلية بها تتجلى حركات الجواهر وبها تظهر عواطف الطبيعة ، وكل ما هو عميق في العالمين المادي والروحي راجع اليها . ألا ترى النفس في هيجانها تعمد الى الوزن على غير قصد منها؟ وأي كلام خال من نوع من الوزن الطبيعي ، أية لغة لا تنفرد بنوع من الغناء؟ الوزن سرّ الوجود والجماد يشارك الاحياء في هذا النظام . فليس الشعر الكلام المقفى الموزون بل هو الأفكار الموزونة . والشاعر الحقيقي من وصل الى هذا العمق - الى ناموس الوجود ، الى الموسيقى الأزلية فأبرزها للعالمين» .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر العربي :

سمعت أناشيد علوية أعاد صداها الفضاء الرحيب

فلحن له نبرة عذبة ورجع شجيّ أنيس عجيب

تهادى كموج الأثير اذا حداه النسيم البليل رخاء

وشع كنور زها في العلى فطاف سناء وفاض رواء

ووشّى الرحاب بلون بدا مزيجاً لألوان طيف ذكاء

وفاح أريجاً كزهر الربى أذاع شجاه الصباح الرطيب

فأعجب للحن تآلف فيه ضياء وجرس ونشر غريب

هدوء لطيف سرى في الحشا خشوعاً وسرّ أجنّ الخفاء .

***

وطار الفؤاد شعاعاً الى مغاني البهاء وراء التخوم

هناك يوقّع لحن الخلود جموع الشموس وزهر النجوم

فيجري الزمان على وقعه وليس ابتداء وليس انتهاء .

أنا قد ثملت بذاك الرنين زماناً تقضّى كيوم قصير

فهيهات أصغي الى نغمة من الأرض تأتي كروح أسير

وهيهات يحلو لنفسي صدى ولو رجّعته اليّ السماء

***

ان للأمة العربية تراثاً ضخماً من الشعر قلما يدانيه تراث أية أمة أخرى على وجه البسيطة ، وقد اتصلت أسبابه منذ اكثر من أربعة عشر قرناً وتجددت أنغامه وتعددت على مرّ العصور . ولعلّ الاوزان العربية والقافية المتكررة في الشعر العمودي من أصعب قواعد النظم في اللغات العالمية ، وفي وسعي أن أشبّه بحور الخليل بالقالب الذي يصبّ فيه

الشعر صبّاً بينما لاتخرج الاوزان الافرنجية عن مقياس يقاس به الشعر . وهذا التشبيه يعطي القارئ فكرة عن الصعوبة التي يتجشمها الشاعر العربي لنظم افكاره ومشاعره ويفسر سبب خلّو الشعر العربي القديم من الملاحم والمسرحيات والقصص المنظومة الطويلة كالالياذة والاوذيسية اليونانيتين والانياد اللاتينية وأضرابها .

وترى الشعراء الاقدمين يستعينون بالرجز في قصائدهم الطويلة ، ولا سيما الأراجيز التعليمية (ديداكتيك) والقصصية كألفية ابن مالك ونظم كليلة ودمنة لسهولة هذا الوزن ويسر قافيته المزدوجة . وقد حاول الشعراء المتأخرون استخدام الشعر العمودي لنظم الملاحم كما فعل سليمان البستاني في ترجمة «الياذة هوميروس» وجميل صدقي الزهاوي في «ثورة في الجحيم» فجاءت أشعارهم مملة في رتوبها وصرامة موسيقاها . وتفنّن آخرون فمزجوا البحور والقوافي كما فعل شوقي في مسرحياته فأتوا بالطريف المعجز في الشعر العربي .

وذهب الشعراء المتأخرون الى أبعد من ذلك فتصرفوا في الاوزان العربية مداً وقصراً وتفننوا في القوافي ترصيعاً وتنويعاً فكان لنا «مجدلية» سعيد عقل وأمثالها من روائع الشعر الحديث .

ولا ريب ان الموشحات الأندلسية كانت ابتكاراً لطيفاً للتخفيف من صرامة الشعر العمودي وقوافيه الجامدة الراتبة فأضفت على الشعر العربي لوناً جديداً يمتاز بالخفة والسلاسة . وابتدع الشاعر اللبناني المعاصر الدكتور نقولا فياض فناً جديداً في التوشيح ، فمزج البحور المتقاربة في المقطوعة الواحدة واختزل المصاريع بين الحين والحين وعمد الى تنويع القافية أو اغفالها ، وأمثلة ذلك منشورة في ديوانه «رفيف الأقحوان» المطبوع سنة ١٩٥٠ .

والبحث في الشعر العربي الحديث من حيث الشكل والمبنى لايكون كاملا اذا لم نتطرق الى ذكر ما سمي بالشعر المرسل أو المنثور ، وهو لون من الشعر أبدع فيه طائفة من شعراء المهجر بوجه خاص ، وفي مقدمتهم أمين الريحاني وجبران . وقد ذكر الريحاني انه تأثر بطريقة والت ويتمان الشاعر الأمريكي الشهير (١٨١٩ - ١٨٩٢) ونسج على منواله ، لكن الحقيقة ان الشعر المنثور أقدم من الشعر المنظوم في مختلف اللغات ، وأمثاله كثيرة في الآداب السومرية والبابلية والمصرية القديمة وغيرها . ولئن كان الشعر المنثور خالياً في معظم الأحوال من الوزن والقافية انّ موسيقاه تقوم على التوازن بين الجمل المتناظرة المترادفة فيثير الترديد في ذهن القارئ أو السامع شعور التأثير والانفعال ويهدهد نفسه على إيقاع العبارات المنسجمة المتدفقة بالعاطفة المشبوبة .

ولذلك كان الابداع في الشعر المنثور أعسر منالاً وأصعب منه في الشعر المنظوم ، والسبب يرجع الى ان الوزن والرويّ يعينان على خلق الجوّ الشعري والتمهيد له في نفس القارئ في حين أن الشعر المنثور لايستعين بغير موسيقى التناظر والانسجام ، فلا بدّ ان يكون شعراً خالصاً مجرداً من الشوائب لينفذ الى قلب القارئ ويمس منه وتراً حساساً .

ولنأخذ مثالاً من الشعر المنثور لنرى مدى انطباق كلامنا المتقدم عليه . هاكم قطعة لجبران خليل جبران بعنوان «ايتها الأرض» حيث يقول :

ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناتك ،

ما أشد حنانك على ابنائك المنصرفين عن حقيقتهم الى أوهامهم ، الضائعين بين ما بلغوا اليه وما قصروا عنه .

نحن نضجّ وأنت تضحكين ،

نحن نذنب وأنت تكفّرين ،

نحن نجدف وأنت تباركين...

نحن نهجع ولا نحلم وأنت تحلمين في سهرك السرمديّ .

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وأنت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم .

نحن نزرع راحاتك بالعظام والجماجم وأنت تستنبتينها حوراً وصفصافاً...

نحن نصبغ وجهك بالدم وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر .

نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف ، وأنت تتناولين عناصرنا وتكونّين منها الورود والزنابق .

ما أوسع صدرك ، ايتها الأرض ، وما أكثر انعطافك !

ما أنت أيتها الأرض ومن انت؟

أذرّة من الغبار تصاعدت من بين قدمي الله عندما سار من مشارق الأكوان الى مغاربها ، ام شرارة قذفت من موقد اللانهاية؟

أنواة طرحت في حقل الأثير لتشقّ قشرتها بعزم لبابها وتتعالى نصبة ربانية الى ما فوق الأثير؟ أقطرة من الدم في عروق جبار الجبابرة ، أم أنت قطرة من العرق على جبينه؟

أطفلة أنت في حضن الفضاء أم عجوز ترقب الأيام والليالي وقد شبعت من حكمة الليالي والأيام؟ الخ .

ان المقام لا يتسع للتبسّط في ايراد النماذج والشواهد . ويجدر القول ان تذوّق الشعر كتذوق الموسيقى يقوم على التربية والتعود ، فالكثيرون منا لا يستسيغون الموسيقى الغربية لأنهم لم يتعودوا سماعها وفهم أنغامها كما ان الاوربيين يملون الاصغاء الى الموسيقى الشرقية لأنها غريبة عن أذواقهم ومشاعرهم . ولا ريب أن الذوق الشعري في جيلنا الحاضر يختلف عماّ كان عليه في الجيل الماضي ، ومع ذلك لا يزال بيننا الكثيرون ممن يقررون جازمين ان صفحة الشعر قد ختمت بالمتنبي او بشوقي . بل انني وجدت فريقاً من أعلام اللغة والأدب لا يفهمون الشعر مطلقاً فيتيهون في مهامهه وبحوره ويكادون لا يميزون بين منظومه ومشعوره . وليس ذلك بجديد ، فقد حدثنا ابن سلاّم في طبقات شعرائه عن بعض اولئك فقال : «وكان ممّن هجّن الشعر وأفسده وعمل كل غثاء محمد بن اسحاق… وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لاعلم لي بالشعر انما اؤتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا…»

ومما يذكر في هذا الباب ان الشاعر النقاد الفرنسي الشهير بوالو قد رمى الشعراء في «فنّه الشعري» بسهام نقد ه الصائب ووضع قواعد الشعر والأدب ، ثم أخلّ في منظومه بالقواعد التي رسمها وسقط في ما أنكره على غيره من الشعراء .

ومن نافلة القول ان التجديد في الشعر لم يقتصر على الشكل والمبنى بل تجاوزهما الى الأغراض والمعاني . وذلك طبيعي ، فعصرنا الحالي قد حفل بالعلوم والوسائل المادية مما لم يعهده الأقدمون ولم يحلموا به ، فكيف يقف الشعر بمعزل عن حياة العصر وما يحيط بها من أفكار وأسباب ويجمد على الآراء والمعاني القديمة؟ ان المدنية الحديثة لتتحدّى الشعراء كما تتحدى الادباء والكتاب ، فينبغي لهم ان يلبّوا نداءها ويبرزوا الى ميدان الصراع . أما اذا اكتفوا بالتعلق بأهداب الماضي والتشبث بأذياله ولم يتطلعوا الى آفاق المستقبل الرحيبة فان مصير الشعر ليؤول الى الجمود والتحجرّ والاندثار .ولا يعني التطلع الى المستقبل اهمال اللغة والتهاون في قواعدها والعبث بأساليب الأداء الشعري ، وانما يعني ذلك التحرر من القيود الوضعية التي تكبّل الشاعر وتحول دون تحليقه في سماء القرن العشرين . وان مستقبل الشعر ليتوقف على مسايرته للحضارة الآلية والفكرية الحديثة ، كما يتوقف على تربية أذواق الجيل الناشئ على أساليب الشعر ومفاهيمه الجديدة .

النقد الأدبي بين الماضي والحاضر

لعلّ ابن سلاّم الجمحيّ المتوفى سنة ٨٤٦م اول من وضع مقاييس النقد الادبي القديم حين قال : «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان . من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممّن يبصره . ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا يعرف جودتهما بلون ولا مسّ ولا طراز ولا حسّ ولا صفة ، ويعرفها الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستّوقها ومفرّغها . ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده وتشابه لونه ومسّه وذرعه حتى يضاف كلّ صنف منها الى بلده الذي خرج منه...»ثم قال : «وان كثرة المدارسة تعين على العلم... وقال قائل لخلف (الاحمر) : اذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما ابالي ما قلت فيه أنت وأصحابك . فقال له : اخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصرّاف انه ردئ هل ينفعك استحسانك له؟...»

وكذلك قرر ابن سلاّم وظيفة الناقد الأدبي ، وناقد الشعر على الاخصّ ، ووضع خبرته على صعيد واحد مع خبرة الصيرفي وصاحب الاختصاص في التجارة والصناعة والزراعة وامثالهم ، وفرض عليه الدرس والمطالعة لحيازة العلم وصقل الذوق ومعرفة الكلم والمعاني .

كان نقد الشعر عند العرب في بادئ أمره ساذجا لايزيد على تقسيم الشعراء الى طبقات من حيث الزمن والمقدرة الفنية ، واطلاق احكام جامعة لاتستند الى مبررات مشروحة شرحاً وافياً ، كقولهم في المفاضلة بين جرير والفرزدق والاخطل ، ان جريرا أشعر الثلاثة لأنه طرق جميع ابواب الشعر ولم يقصّر في باب ، وان الفرزدق امتاز بالفخر ، والاخطل بالمدح والهجاء ووصف الخمر . وقالوا : ان أغزل شعر قالته العرب هو قول جرير :

ان العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وان امدح بيت قوله :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح؟

وان أفخر بيت قوله :

اذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلّهم غضابا

الخ . ونرى من ذلك ان نقاد الشعر الاقدمين كانوا ينظرون الى البيت الفرد او البيتين اكثر من نظرهم الى القصيدة او المقطوعة القائمة بنفسها ، ولذلك اصبحت اكثر القصائد مجموعة ابيات لا تربطها وحدة فنية ولا ينتظمها اتساق ، ولا ضير ان تقدم او تؤخر او تحذف من مصاريعها او تزيد عليها ابياتا او تتناولها بالتخميس والتشطير مما لم يكن له نظير في الآداب الاخرى .

وكانت العرب تحب المبالغة في الشعر وتعدها ضرباً من ضروب العبقرية والنبوغ ، وتهتم بالنظم والاداء فترفع المتانة والجزالة وقوة البيان الى منزلة رفيعة ولو خلت من المعنى الجميل . فلكم يبهرنا شعر لطيف الوزن ، فصيح الكلمات ، ثم نحاول ان نفهم معناه فلا نجد له معنى يناسب الثوب التي يختال فيه ويزهو .

ونرى العرب الى ذلك تهتم بالمعاني المبتكرة وتصيّدها وافراغها في قالب جميل ولا تبالي أن جاءت كالواحة في الصحراء القاحلة لا كالوردة في الروضة الغنّاء . اما الاغراب في المدح والمبالغة في الوصف فبقي الكثير منه عالقاً في صميم نفوسنا حتى عصرنا الحاضر . وقد روى رفائيل بطي في الجزء الثاني من كتابه «الادب العصري» عن الشاعر محمد حسن أبي المحاسن أنه عرف بالبداهة والذكاء وسرعة الخاطر . فاذا أنشده جليسه بيتاً نادر المعنى من الشعر الفارسي نظمه بسرعة وأنشده الجليس . وكثيرا ما كانت تجري له مناظرة فيقال له : ليس للعرب مثل هدا ، فيأتي على الفور بمثله كأنه استحضره ، في حين انه أنشأه على البديهة . وقد جرت له نادرة من هذا القبيل مع عبدالمهدي الحافظ ، اد أنشده بيتا تركيا في رثاء بعض السلاطين بعد ان بالغ في وصف معناه وأنه لم يسبق اليه ، فأجابه أبو المحاسن : هذا منظوم بالعربية . فقال : ومن الناظم؟ أجاب : لا أعلم ، ولكني أحفظه له من سنين . قال : أورده سريعاً ، وألح عليه في الطلب بدون امهال خشية أن يكون له مجال للتفكير والنظم ، فقال :

لقد كنت شمس العصر ، والعصر شمسه   مديدة ظلّ والبقاء قصير

فخجل مناظره . ولما رآه أبو المحاسن على تلك الحال ، قال له : لاتتأثر ، فالمعنى كما قلت مبتكر لم يسبق اليه الشاعر التركي ، وقد نظمته الساعة .

ان هذه النادرة تدلّ حقا على فطنة محمد حسن أبي المحاسن وسرعة بديهته . لكننا اذا نظرنا الى المعنى المبتكر الذي لم يسبق اليه وجدناه ضئيل القيمة ، كثير المبالغة ، بعيدا عن مفهومنا للمعنى الرفيع والشعر الجيد . ويصّح هذا القول في الكثير

من المعاني المبتكرة والاوصاف والاهاجي والاماديح التي زخر بها الشعر العربي منذ الجاهلية حتى اليوم .

ولا ريب ان مقاييس النقد الأدبي تختلف باختلاف الزمان والمكان وتتطور بحسب تطور الحضارة والذوق . وقد نشأ الادب الاوروبي نشأة تختلف عن نشأة الادب العربي ، فامتدّت جذوره الى الادبين القديمين اليوناني واللاتيني . فلئن عني الشاعر العربي القديم بالمدح والفخر والهجاء والغزل والرثاء ، لقد اهتم أقدم شعراء اليونان بالقصص والملاحم والمسرحيات التمثيلية من مأساة وملهاة . وارتأى أرسطو انّ الشعر كسائر الفنون انما هو محاكاة للطبيعة في مظاهرها المختلفة . وقسم الشعر الى قسمين : الشعر الذي يثير العواطف وتلتذّ به النفس والنظم التعليمي كالأراجيز اللغوية والنحوية والقانونية . وقسم مواضيع الشعر الى الحماسة او شعر الملاحم كالالياذة والاوذيسية ، والمسرحيات المنظومة الهزليّ منها والمؤسّي المثير . ولا شك ان فنون الشعر تتضمن المدح والهجاء والفخر والرثاء ، لكنها تأتي عرضاً ضمن سياق القصة او الرواية التمثيلية وحسب اقتضاء الموقف .

وعرف الادب الاوروبي شعر المدح والرثاء وغير ذلك ، لكنه لم يغال فيه مغالاة العرب ولم يطل فيه القول . وقد سئل الشاعر الفرنسي بيير كورناي أن يرثي الوزير ريشليو فقال : «مهما يقل في الكردينال الشهير ، فإن نثري وشعري لن يتعرّضا له بشيء . فقد أسلف لي خيراً كثيراً حتى لا يسعني ان اقول فيه سوءاً ، وجزاني شراً كبيراً فلا استطيع ان اقول فيه خيراً» .

وكان بوالو أعظم النقاد الفرنسيين في عصر لويس الرابع عشر الذهبي ، وقد نظم «فن الشعر» (١٦٧٤) فحدد مبادئه وشروطه وذكر الاوزان والقوافي والمواضيع وعيّن للشعراء مناهجهم وأساليبهم . واعطى الاهمية القصوى لمحاكاة القدماء والسير على نهجهم ، وعدّ اسلوبهم الأدبي اماماً يؤتمّ به لأنه خلد على مرّ الازمان وغالب الدهر والنسيان حتى لا يمكن لأدب ان يخلد ويبقى إلا اذا حذا حذو الادب القديم والتزم بفنونه وطرائقه .

لقد كان بوالو استاذاً شديداً أخذ على الشعراء المآخذ وحمل عليهم حملات شعواء ، ثم نظم هو نفسه قصائد (كمكتب الكنيسة) فبالغ وأسفّ وخالف ما دعا اليه ولم يقرن عظمة الموضوع بفصاحة الشعر وفخامته . وقيل ان بعض الادباء تحدّى بوالو أن ينظم ملحمة جليلة في موضوع تافه فنظم قصيدته التي تبعث على الضحك والسخرية وتضع الكلمات الحماسية على ألسنة البشر الاعتياديين الذين ليس لهم حتى القليل من البطولة او السموّ .

ويجب ان ننتقل الى القرن التاسع عشر لنحظى بالنقد الأدبي القائم على اسس فنية واضحة . وفي مقدمة الناهضين بتطوير هذا الفن في فرنسا شارل سانت بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) الذي أنشأ مذهباً جديداً في النقد تأثر به رواد النهضة الادبية الحديثة في البلاد العربية . كان ناقداً ادبياً لصحف متعددة كمجلة باريس ومجلة العالمين وجريدة الناسيونال والمونيتور والطان . جمعت مقالاته في مجلدات كثيرة ، منها : صور ادبية (في ثلاثة اجزاء) ، وصور نسائية ، وصور معاصرة ، وأحاديث الاثنين (في ١٥ جزءاً) ، وأيام الاثنين الجديدة (في ١٣ جزءاً) ، الخ .

ان سانت بوف أثر كثيراً في الدكتور طه حسين صاحب «حديث الاربعاء» . وقد قال انه يحّب ان يكتب «التأريخ الطبيعي للافكار» ، فتنقل بين المحافل الادبية وألمّ بفنون الادب وعاشر الشعراء ودرس اساليبهم وخرج من كل ذلك بمبدأ الشكّ المعنوي والايجابية الفلسفية . وكان نقده يقوم على اساس البحث العلمي ، فيصاحب الادباء الذين يتناولهم بقلمه ويدرس بيئتهم وسيرتهم ، ويطالع الكتب والوثائق والمراجع ويحقق ويدقق ما شاء له التحقيق والتدقيق . ولئن اعاد تقييم الادب والآثار الادبية وكشف عن مواهب وعبقريات في معاصريه ، لقد اندفع مع ذلك وفي احيان كثيرة الى الوخز والتجريح ، لا سيّما في «دفاتره» التي عرفت بخزانة السموم . وقيل عنه انه كان حسوداً كثيراً ما حاول تحطيم العبقريات وتناول رجال الادب بالسخرية والتهكم . وبالرغم من ذلك كله استطاع ان يكون ناقداً أدبياً من الطراز الاول ، يعلّم ويحرّك الفكر ويزرع الآراء ويعجب بوفرة معلوماته وسعتها وصحتها ويصدر احكامه عن دراسة وافية ومقاييس منهجية منظمة .

ان الاديب الانكليزي ماتيو آرنولد عرّف النقد الادبي بأنه «محاولة بعيدة عن الهوى للتعلّم ونشر احسن آثار المعرفة والفكر في العالم» . اما الشاعر كولريج فقال : «ان النقاد هم عادة أناس كانوا يودّون لو اتيح لهم ان يكونوا شعراء او مؤرخين او كاتبي سير . وقد جربوا مواهبهم في هذا الفن او ذاك وأخطأهم التوفيق ، فأصبحوا نقاداً» .

لكن اناطول فرانس الروائي الفرنسي العظيم ، مؤلف تاييس والزنبقة الحمراء وجريمة سلفستر بونّار ، قال : «ان الناقد الجيد هو الذي يروي مغامرات روحه بين روائع الادب» . أي تعريف عميق للنقد ، من رجل كان هو نفسه اديباً انسانياً عظيماً ، وكان ناقداً ادبياً لجريدة الطان (الوقت) يكتب مقالاته بعنوان «الحياة الأدبية» . وقد طبّق تعريفه احسن تطبيق فكتب في نقده للكتب وعرضه للمؤلفات وذكره للشعراء والمؤلفين كتب عن نفسه وآرائه واذواقه واستطرد الى رواية القصص والنوادر وبحث الفلسفة والتأريخ والأخلاق والمذاهب . وكان البون شاسعاً بين نقدات سانت بوف المنهجية ومقالات

اناطول فرانس المتشعبة المشرّقة حيناً والمغرّبة حيناً آخر .

لقد كثرت المذاهب الادبية في عصرنا الحاضر وتنوعت حتى اصبحت مهمة الناقد الأدبي شاقة عسيرة . أيّ منهج يتّبع هذا الناقد بين الكلاسيكية والابتداعية والواقعية والرمزية والدادائية ، أيّ موقف يقف من الشعر العمودي والموشح والشعر المنثور والحرّ وقصيدة النثر والنثر المشعور؟ هل يصدر عن دراسة منهجية تستعين بعلم اللغة والبلاغة والبيان والبديع ام يذهب الى آراء جديدة تستهين بالقيم القديمة وتستسلم الى نزعات العصر الحاضر عصر الآلة والسرعة والمصلحة؟

هل يمزج الناقد بين مفاهيم الجاحظ والاصفهاني والثعالبي وياقوت الحموي وأبي هلال العسكري وابن قتيبة وابن سناء الملك وطه حسين والعقاد ومحمد مندور ومارون عبود أم يحاول ان يشق لنفسه طريقاً بكراً بين مناهج النقد ومذاهب الشعر والأدب؟

انني ازعم ان النقد الأدبي يعتمد على الذوق والحاسة ، وهو علم وفنّ في آن واحد : فهو علم من ناحية تدقيقه للنصوص ودراسته للأدب والأديب وتشبثه بثقافة عميقة الجذور واسعة الافق . وهو فن من ناحية اعتزازه بالملكة والموهبة وشعوره بالتيارات النفسية وبصره بمطالب العصر القائمة على تقاليد تمتّد اصولها في الزمان والمكان .

لا يطلب من الناقد الأدبي ان يجاري الذوق السائد ويبرز معالمه بقدر ما يطلب منه ان يكون فاهماً ومقيّماً وموجهاً . ليس للناقد ان يأخذ وظيفة الحكم او القاضي بين الشعراء والأدباء فيجلس مجلس النابغة الذبياني في سوق عكاظ ليقضي بتفضيل هذا الشاعر او تلك الشاعرة .

واذا صحّ للناقد ان يكون قاضياً في خصومات الادب فيحسن به ان يكون كعارفة العشائر . قال الاستاذ عباس العزاوي في الجزء الاول من كتابه «عشائر العراق» :

سألت حسن ابن عامود عارفة قبيلة شمّر : هل تقرأ وتكتب؟

- لا .

- كيف تقضي بين الناس؟

- كان آبائي واجدادي عوارف ، وكنت اشاهد قضاياهم وأسمع ما حكموا به وتناقلوه . وانا انظر في القضية ، وعندي قلب واع ، فماذا تريد وراء هذا؟

وعلق العزاوي على ذلك قائلاً :

وكأنه يقول : عرفت تأريخ الخصومات والعرف ممّن سبقني ، وأدقق المسألة

الموضوعة على بساط البحث ، ولي بصيرة وادراك .

وآفة النقد بعد ذلك الجمود ، فالنقد يتطلب سعة الافق وانفتاح الذهن . ولكم سمعت رجالاً لهم مكانتهم يقولون : قد انتهى الشعر بالمتنبي او شوقي ، فلا يقرأون بعد ذلك لشاعر كأن ينابيع العبقرية قد غاضت وجفّت . ان هؤلاء وامثالهم مصابون بداء التحجر وانهم ليحرمون انفسهم متعاً ذهنية جميلة . فلينظروا الى الجديد وليعاودوا قراءته مرة بعد اخرى ، وانا الكفيل بأنهم يجدون لذة لم يعهدوها من قبل ويعثرون على كنز يضيفونه الى الكنوز الادبية التليدة .

ان الاجيال الطالعة في ارجاء البلاد العربية قد ابتدعت الحاناً حريّة بالسماع وغزت آفاقاً تشرق بالنور والحياة . ولئن كانت اساليبها في بعض الاحيان تبدو غير مألوفة ومعانيها جريئة تخرج على القواعد الثابتة ، انها تتّسم بسمات العصر الحديث وتماشي منطق التغيّر والتطور ، وعلينا ان نتقبلها بصدر رحب واذن صاغية وان نحاول عزل غثها عن سمينها وزبدها الذي يذهب جفاء عما ينفع ويبقى . وتلك وظيفة النقد الأدبي البنّاء الذي يتحلى بالطبع الاصيل والحاسة المرهفة والثقافة الانسانية الشاملة .



أعلام الأدب

النثر

الآداب

التأريخ

الدراسات الجامعية

محمود شكري الألوسي

ترجمت لمحمود شكري الألوسي في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» الذي نشرته وزارة الاعلام في بغداد سنة ١٩٧١ . ولما كان هذا الكتاب نادر الوجود ، وبالنظر الى مقام الامام الألوسي السامي ، فقد آثرت اعادة اثبات سيرته في هذا الكتاب .

العالم البحاثة الذي أحيا سنّة جده شهاب الدين محمود الألوسي وضرب مثالاً سامياً في الزهد والقناعة والتجرّد للعلم . وهو محمود شكري بن عبدالله الحسيني الألوسي .

كان جدّه ابو الثناء محمود (١٨٠٢ - ١٨٥٤) صاحب التفسير المعروف بـ «روح المعاني» ، و«نشوة الشمول» و«نشوة المدام» و«غرائب الاغتراب» والمقامات ، مفتياً لبغداد من ١٨٣٣ . وقد ولد محمود شكري في بغداد في ١٢ آيار ١٨٥٧ ، وعكف على تحصيل العلوم منذ صباه ، ودرس على أبيه . وتوفي الاب ومحمود في السابعة عشرة من عمره ، فكفله عمه نعمان خير الدين (١٨٣٦ - ١٨٩٩) واشرف على تهذيبه وتدريسه . وكان من أساتذته الشيخ عبدالوهاب النائب والشيخ اسماعيل الموصلي والشيخ عبدالرحمن القره داغي . ثم اشتق من نفسه لنفسه - كما قال محمد صالح السهروردي - طريقة في ضروب التحصيل والتعليم والتهذيب والتفهيم ما لم يسبقه اليها أحد من جلّة العلماء حتى توسّع في العلم وتفقّه في الادب وضرب فيهما بقوس صائب لم يخطئ الهدف . وأضاف السهروردي قائلاً بأنه صار بكثرة اشتغاله وبعد توسعه شيخ المعارف وامامها والآخذ بيده زمامها .

انصرف محمود شكري الى التدريس والتأليف . فصار يدرّس الطلاب في داره وفي جامع الحيدرخانة ، وبعد ذلك في جامع السيد سلطان علي . ولما توفي ابن عمه السيد علي علاء الدين سنة ١٩٢٢ خلفه في التدريس بمدرسة جامع مرجان ، واستمّر على ذلك الى وفاته .

وضع كتابه «بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب» وقدمه الى لجنة اللغات المشرقية في استكهولم عن طريق المستشرق الكونت كارلو دي لاندبيرغ الممثل

السياسي والقنصل العام لدولة السويد والنرويج في القاهرة ، فنال جائزة التقدير مشفوعة بوسام ذهبي من لدن الملك اوسكار الثاني رئيس اللجنة الفخري في ايلول ١٨٨٩ .

وقدم بغداد والياً سنة ١٨٨٩ سرّي باشا الأديب الكاتب فقرّب محمود شكري اليه وأناط به تحرير القسم العربي من جريدة «الزوراء»الرسمية . لكنه تعرض للمحنة بعد عدة أعوام في عهد الوالي عبدالوهاب باشا الألباني من جراء عطفه على الوهابيين ، وهو العالم السلفي المترسم خطى ابن تيمية وابن قيّم الجوزية والمناهض للبدع والأوهام . وكانت الحكومة العثمانية تحارب ابن سعود والوهابية آنذاك ، فصدر الأمر بنفي محمود شكري الى الاناضول مع ثابت الألوسي وحمد العسّافي ، وذلك في آذار ١٩٠٥ . فلما مرّوا بالموصل هبّ أهلها لنصرتهم والشفاعة لهم ، فأذن لهم بالعودة الى بغداد معزّزين مكرّمين .

اشتهر من تلامذة الألوسي في تلك الآونة معروف الرصافي الذي لازمه سنين طويلة ومدحه وهنأه بأول أشعاره . وقد لقبه استاذه الألوسي بـ «الرصافي» معارضة لاسمه بمعروف الكرخي . ومما قاله الرصافي في مدحه وتقريظ كتابه «أخبار بغداد» :

آثار محمود شكري دام يشكرها	بين الورى حاضر الأقوام والبادي
قد أصبحت ، وهي بعض من مناقبه ،	عدّ الكواكب لاتحصى بتعداد
أسفار علم بدت كالصبح مسفرة	عمّا له من مدى علم وارشاد
قد أسفر اليوم سفراً في صحائفه	للناس أسفر عن أحوال بغداد

وقدم بغداد المستشرق الفرنسي الشاب لويس ماسنيون سنة ١٩٠٧ فلازم محمود شكري وأفاد منه ، وأثنى عليه بعد ذلك فقال إنه يبطن اخلاصاً ومودة لا مثيل لهما لأصدقائه وعشرائه تحت مظهر خشن وعنجهية بدوية . وممن صاحبه وأفاد منه ايضاً الاب أنستاس ماري الكرملي .

ودعاه الوالي أحمد جمال بك (جمال باشا بعدئذ) الى عضوية مجلس ادارة ولاية بغداد سنة ١٩١١ . ثم نشبت الحرب العامة فانتدبته الدولة العثمانية لمقابلة أمير نجد آنذاك عبد العزيز آل سعود في وفد قوامه علي علاء الدين الألوسي ونعمان الاعظمي والضابط العثماني بكر بك . وقد شدّوا الرحال الى الديار النجدية في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٤ عن طريق سورية والحجاز ، فبلغوا الرياض واجتمعوا بالأمير وحادثوه في نصرة الدولة ، لكنه اعتذر بوضع بلاده الخاص الذي يحول دون اشتراكه في الحرب .

عاد الألوسي وصحبه عن طريق الشام ايضاً واجتمعوا فيها بجمال باشا . ثم اعتكف بداره في بغداد ، حتى اذا ما احتلها الانكليز ، عرضوا عليه منصب القضاء فرفضه بإباء

وشمم على الرغم من حاجته وضيق ذات يده . ورفض بعد تأليف الحكومة العراقية كل المناصب التي عرضت عليه كالقضاء والافتاء ورئاسة مجلس التمييز الشرعي .

ولازمه في سنيه الأخيرة تلميذه محمد بهجت الأثري الذي حقق كتبه المخطوطة ونشرها بعد وفاته ، وألف فيه وفي أسرته كتابه «أعلام العراق» . وقد انتخب محمود شكري عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام . داهمته الأمراض في كبره فتوفي في بغداد في ٦ آيار ١٩٢٤ . وندبه الرصافي بقصيدتين اولاهما «واشيخاه» :

أزمعت عنّا الى مولاك ترحالا ... لما رأيت مناخ القوم أوحالا
رأيتنا في ظلام ليس يعقبه ... صبح فشمّرت للترحال أذيالا
كرهت طول مقام بين أظهرنا ... بحيث تبصرنا للحق خذّالا
ولم ترق نفسك الدنيا ، ونحن بها ... لسنا نؤكد بالأفعال أقوالا
وكيف تخلو لذي علم اقامته ... في معشر صحبوا الأيام جهّالا
لذاك كنت اعتزلت القوم منفرداً ... حتى أقاربك الأدنين والآلا
وما ركنت الى الدنيا وزخرفها ... ولا أردت بها جاهاً ولا مالا
لكن سلكت طريق العلم مجتهداً ... تهدي به من جميع الناس ضلّالا

والثانية «في موقف الأسى» قال في مطلعها :

لمن تركت فنون العلم والادب ، ... أما خشيت عليها من يد العطب؟

قال يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» : «نادى بتطهير الدين من الأوضار التي غشيته وحمل على أهل البدع في الاسلام ، فعاداه كثيرون ووشوا به لدى الباب العالي ، فأمر بنفيه . إلا انه لم يلبث أن أعيد الى بغداد بعد أن توسط له عند السلطان عبدالحميد جماعة دحضوا ما حاول الوشاة رميه به من التهم» .

مؤلفاته

وضع محمود شكري الألوسي ٥٢ مؤلفاً من كتاب ورسالة ، أهمها : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب في ثلاثة أجزاء (طبع لأول مرة في بغداد سنة ١٨٩٦ ، ثم طبع ثانية في مصر باشراف محمد بهجت الأثري سنة ١٩٢٤/ ١٩٢٥) ، تأريخ نجد (١٩٢٥) ، عادات العرب في جاهليتهم (١٩٢٤) ، الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر (١٩٢٣) ، أخبار بغداد (في ٣ أجزاء طبع منها الجزء الثاني : المسك الاذفر في تراجم علماء بغداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر ، ١٩٣٠ ، والجزء

الثالث : تأريخ مساجد بغداد وآثارها ، ١٩٢٨) ، الأسرار الالهية (١٨٩١) غاية الأماني في الردّ على النبهاني (١٩٠٩) ، فتح المنّان (١٨٩١) .

وله ايضاً : أمثال العوام ، رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين ، بدائع الانشاء ، عقد الدرر ، لعب العرب (١٩٠٨) . وقد صنف عدا ذلك كتباً ورسائل في دحض البدع والخرافات وفي التأريخ ومصطلح الحديث واللغة والعروض وهلم جرّاً .

محمد فهمي المدرّس

الكاتب العراقي الكبير محمد فهمي المدرس ولد في بغداد سنة ١٨٧٣ وتوفي بها في ١٤ آب ١٩٤٤ ، وقد أسهبت في ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية» . كان في العهد العثماني مديراً لمطبعة الولاية في بغداد وجزيرة رودس ورئيس تحرير جريدة الزوراء الرسمية واستاذاً في جامعة دار الفنون في استانبول . أما في العهد الوطني العراقي فكان كبير أمناء الملك فيصل الاول وأمين جامعة آل البيت ومدير المعارف العام .

قيّم الدكتور يوسف عز الدين أسلوب فهمي المدرس فقال انه امتاز بالجزالة وقوة العبارة وايراد الأمثلة من التأريخ والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي والشعر العربي . وقال ان بيان المدرس امتاز بالاشراقة الجميلة والتراكيب السهلة التي تتلألأ في ثناياه كلمات مختارة وعبارات أصيلة من أثر دراسة الأدب القديم وتدريسه .

وقال كامل الجادرجي في «أوراقه» :

«لم أرَ شخصاً يرتجل النكات اللاذعة والمستظرفة على مستوى رفيع كالاستاذ فهمي المدرس ، كما اني لم أرَ كاتباً سياسياً مثله يتعمق فيما يكتبه ويمحصه تمحيصاً دقيقاً ، بحيث يزن كل كلمة فيما تتطلبه اللغة والمعنى ودرجة تأثيرها النفسيّ على الجماهير . لذلك جاءت مقالاته المشهورة التي كان يكتبها في حقبة الثلاثينيات آية في الابداع ، فكان كلّ منها يهزّ السلطة - على طغيانها - هزاً عنيفاً ، وكان في الواقع مسماراً يدقّ في نعش ذلك العهد» .

ثم قال ان شخصية المدرس فذّة قلّما يجود الزمان بمثلها ، جمعت الذكاء الحادّ والعواطف الجيّاشة والكفاءات الممتازة والخبرة الواسعة في مجالات الحياة والاخلاص في العمل والوطنية الديناميكية التي لا تعرف الكلل ، بجانب الجاذبية الساحرة التي لا يفلت منها انسان .

أعجب فهمي المدرس بكمال أتاتورك ونهضته فدبّج المقالات يشيد بأعماله ويطنب في وصف تركية الحديثة وتقدمها . قال : «لم يشهد التأريخ في جميع أدواره انقلاباً تناول جميع مناحي الحياة ، سياسية وادارية واجتماعية وأدبية وعلمية واقتصادية في آن واحد ،

وسار على خطّ مستقيم لا عوج فيه ولا التواء ، وأقبلت عليه النفوس وتغلغل في أنحاء المملكة ، وتخلّل طبقات المجتمع على اختلاف العناصر والمذاهب والأديان وعلى تباين العقول والأفهام في عشر سنوات ، حاملاً راية الفوز والنجاح في كل صفحة من صفحات التجدّد والاصلاح ، وهو محفوف بأنواع العوارض والعقبات ، حتى قبض الغازي كمال باشا على ناصية النهضة التركية وقام بذلك الانقلاب الخطير الذي وقفت عنده دهاة العالم وساسة الأمم ، فكان أعظم حجّة على مواهب الشرق .» .

وذكر وثبة كمال أتاتورك لانقاذ تركية من عواقب اندحارها في الحرب العظمى الأولى واستخلاصه حقوقها الوطنية والغاء السلطنة واعلان الجمهورية . ثم أشار الى قضائه على الأساطير والخرافات التي كانت تقف عقبة كأداء في سبيل تقدم البلاد ورقيّها ، واصطناعه القبعة الأوروبية بدلاً من الطربوش اليوناني ، واتخاذه الحروف اللاتينية بدلاً من العربية ، وتعليم الأميين ، ورفع مستوى الجيش ، وتأسيس المصانع ، وتشييد المعاهد العلمية ، وتشجيع المنتجات الوطنية ، وتوسيع نطاق التجارة والزراعة ، وجعل المصالح الاقتصادية في أيدي أبناء الوطن . وعدّد سائر الأعمال النافعة التي أتمّها الرئيس التركي في بحر أعوام قليلة لخير البلاد ورفاهة أهليها .

ولما مات أتاتورك سنة ١٩٣٨ رثاه أبلغ رثاء مثنياً على خدماته الجليلة لبلاده .

فهمي المدرّس وسبب نقله الى جزيرة رودس

حدثني ثقة من المعمّرين ان سبب نقل فهمي المدرس الى ادارة مطبعة الحكومة في رودس - او بالأحرى نفيه من بغداد - في تشرين الأول ١٩٠٥ هو ان جريدة «الزوراء» صدرت في عيد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني تحمل الى الخليفة العثماني في صدر صفحتها الأولى التهانئ والتبريكات . وقد وقع خطأ مطبعي في التهنئة ، فجاءت كلمة «السلطان بن السلطان» بسقوط حرف اللام أي «السطان ابن السطان» . وأوخذ فهمي المدرس فأثبت انه لم يكن مسؤولاً عن ذلك الخطأ الذي يمسّ لقب السلطان الأعظم ، فقبل اعتذاره واكتفي بإبعاده الى جزيرة رودس النائية ، ثم أعيد الى وظيفته في بغداد بعد سنة واحدة .

وجدير بالذكر ان عيد جلوس السلطان عبد الحميد يقع في ٣١ آب ، وأن جزيرة رودس ظلّت تابعة الى الدولة التركية حتى احتلتها ايطالية سنة ١٩١٢ . وكانت عادة السلطان عبد الحميد ان ينفي الموظفين الذين يغضب عليهم الى أماكن نائية من سلطنته : فقد أبعد الشاعر الحرّ ولي الدين يكن الى سيواس حيث قضى سبع سنوات

حتى أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فعاد الى الآستانة ومنها الى مصر . وقد قال في منفاه :

رضيت سيواس داراً ... وما بسيواس شرٌّ
جنوا عليها فأمست ... قد أقفرت ، فهي قفر

نهضة الشرق

من قصيدة لفهمي المدرّس نشرت في جريدة «البلاد» في ٢ كانون الأول ١٩٢٩ بتوقيع «حارث» .

المطلع :

ماذا يحاول من يعادي «المعهدا» ... والشرق أصبح ثائراً متجدّدا؟
في كلّ قطر منه قام مجدد ... دكّت عزائمه الجبال الركّدا
يطوي السنين بملحة فيريك من ... عهد التجدد كلّ يوم مشهدا
للمصلحين الثائرين بأرضه ... عزم أبي الا المجرّة مقعدا
لا يهجع الشرق الجديد ولا يني ... في عزمه حتى يعيد السؤددا...

ثم قال :

يا صرح آل البيت فيك قد انطوى ... للمجد دهر ثم دهر للردى
مجد عناصره إذا حلّلتها ... تجد المهنّد والنّهى والعسجدا
كالنسر حلّق في الفضاء ، وماله ... وكر سوى التيجان راح او اغتدى
والشمس ما طلعت على عرصاته ... إلا اكتست ثوب الفخار مجدّدا
مجد أبى الا الحسام معاهداً ... وأبى بغير الحقّ ان يتعهّدا
مجد بذرّات الأثير تلألأت ... صفحاته ، وسنا علاه توقّدا
لو كان للانسان علم كامل ... لرآه في طبقاته متجسّدا
ولشاهد التأريخ في أدواره ... من كلّ ما يحويه يعرض مشهدا
جمعت مناظره تفاصيل العلى ... عمّن بنى الحسب الرفيع وأخلدا
عمّن إذا نفروا سمعت زئيرهم ... يدوي بأقصى المشرقين له صدى
عن تبّع ، عن حمير ، عن يعرب ... عن عاد ، عن قوم تساووا محتدا
عن عرش هارون الرشيد ، عن الألى ... رصفوا المقاعد لؤلؤاً وزبرجدا
رفعوا منار العلم في أعلى الذرى ... والغرب من ذاك المنار استوقدا
كفّ على (اورال) تبني معقلاً ... ويد على (أفريق) ترفع مرصدا
قدم بأرض الصين أحكم أمرها ... وعلى أديم الغرب أخرى وطّدا

فـالشـرق إن نادى له بسـيـاسـة | خـفـقت بقلب الغـرب اعـلام الهـدى
وإذا دوى في الأرض صـوت مـجـاهد | ردّت علـيـه الـشـمـس أنّى ردّدا

ومنها :

كلّ الشـعـوب تحـررت من رقّـهـا | إلا ابن يعـرب لا يزال مـقـيّـدا
مـا كـان حـقـاً ، يا ابن خـيـر أرومـة ، | في عـقـر دارك ان تكون مـصـفّـدا
ولـقـد ورثت ، وأنـت أول وارث ، | مـجـداً أقـام الخـافـقـين وأقـعـدا
ثـلّـت عـروش دونه وأسـرّة | والناس حـول العـرش خـرّوا سـجّـدا

الخ...

تحدث الدكتور يوسف عز الدين في كتابه «فهمي المدرس : من رواد الفكر العربي الحديث» فقال ان المدرس كان ذا قابلية مبدعة وقدرة على التعبير . وأسلوبه مشرق واضح العبارة ، متين الأداء ، سهل التراكيب ، سالم من وصمة العجمة ، بعيد عن الركة ، وذلك نتيجة دراساته الأولى وحفظه القرآن الكريم مما اكسبه هذا المضمون النثري المتين والأسلوب الشاعري الجميل . وقال ان من ملامح أسلوبه الواضحة طريقة الكاريكاتور ، فهو يرسم صوراً لاذعة ويصور الأحداث بسخرية جميلة ويصف حوادث الحياة السياسية المعاصرة بتهكم لاذع مرير .

اما المواضيع التي طرقها فيقول الدكتور يوسف عز الدين انها تتناول احداث العراق والعالم . فكتب في قضايا السياسة الداخلية والوحدة العربية والوطن العربي وفلسطين والتعليم والمجتمع وقضايا الشعب بصورة عامة .

نماذج من نثر فهمي المدرس :

حق الشعب في محاسبة رجال الحكومة

يحقّ للشعب ، بل يجب عليه ، ان يطالب رجال العمل بالصدق والاخلاص ، إذا كان من الشعوب التي تسيطر على الحكومة وتراقب أعمالها ، وتحاسب وتثيب وتعاقب . وليس له ذلك إذا كان من الشعوب المغلوب على أمرها ، لا رأي له في مقدراته ولا ارادة له في تصريف شؤونه ، وليست له قوة تمكنه من الحساب والعقاب ، وقد أهمل حقوقه اهمالاً أدّى به الى أن يعيش عيشة المحجور ، قانعاً ببلغة يتناولها من أيدي أوصياء ليست بينه وبينهم صلة لا في النسب ولا في الدين ولا في اللغة ولا العرف ولا الاقليم .

النبوغ العراقي

... العراق أول المدعين والمخترعين ، وهو الذي فاجأ العالم بالساعة العجيبة المتحركة بالماء التي أعدّها هرون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسة وامبراطور الغرب قبل ١١٦٧ عاماً ، فوقعت لديه ولدى سائر الغربيين موقع الدهشة والاستغراب مع غيرها من نوادر الصنعة وعجائب الفن التي حلت من لدنه محل الغبطة والعناية يوم كان العراق يتمتع بحرية العلم والعمل ، يوم كان محطّ الرحال لقصّاد العلم من مشارق الأرض ومغاربها .

اما ماضيه المنحدر من صلب حامورابي الى عهد الرشيد فتلك آثاره ماثلة في المتاحف ، راسخة في مفكرة علماء الآثار ، مثبتة في تأريخ العلوم والفنون والصنايع ، من بعض الكنوز المستخرجة من أور ونينوى وبابل ، من جملتها النحت والتنزيل والتلوين الثابت على ممرّ الدهور ، وفنّ الهندسة التي اقتبسها الغرب . والعراق مهد الحضارات ، ومنها حضارة السومريين التي سبقت مدنيات الأمم بكثير ، فازدهرت بالفنون الراقية وأساليب النجارة القويمة قبل حكم الفراعنة في وادي النيل . والسومريون أقدم شعب عرفه التأريخ بنظامه الاجتماعي . وبقايا الأطلال تمثل ثقافات متعاقبة امتازت بملوكها وكهانها وأديانها وقوانينها . واما بغداد فقد كانت ينبوعاً يتفجر منه العلم والحكمة والنور في العصور المظلمة . وأشهر مدينة في الشرق ، ومن معاهدها المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك (قوام الدين الطوسي) وفتحها سنة ٤٥٩ هـ قبل جامعة كمبرج واقسفورد والصوربون ، وقبل جامعة بولونيا وجامعة ساله رن الطليانية التي هي أقدم جامعة في أوروبا .

ذلك غابر العراق في مختلف الادوار وهذا حاضره المغلوب فيه على أمره مهما حاول التدليل على قابليته للنهوض . والماضي قوة يستمد منها الحال ، والحال قوة المستقبل ، ومن لا حال له لا استقبال له (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا) .

المثل الأعلى : مدحت باشا

كتب فهمي المدرس فصلاً طويلاً عن مدحت باشا الوالي المصلح والصدر الأعظم الذي وضع الدستور العثماني وخلع السلطان عبدالعزيز . اتخذه مثلاً أعلى للحكم الصالح ، وقال : «قد تلد الأرحام في مئات السنين دهاء تتلاشى دونه العظائم وتذوب أمامه الصعاب ، ويستوي عند صاحبه الموت والحياة ، فيحتقر اللذائذ ويركب الأخطار

ويأتي بالخوارق والمعجزات ، فمن تكييف وتجديد وايقاظ الى تكوين وانهاض واسعاد ، يحاسب على الأنفاس المعدودة ، ومن نفسه عليه رقيب عتيد... فلا تستهويه الشهوات ولا تغرّه السمعة ولا تخامر عزائمه المنّة . يقنع بالبلغة من العيش ، لا يريد جزاء ولا شكوراً . يأتمر في عقله الرزين ويستشير ضميره الطاهر . ولا يخضع لغير الحق والعدل ، فيبعث من الأموات أرواحاً تصارع الأقدار . ذلك هو المثل الأعلى وذلك هو مدحت باشا ابو الأحرار» .

الاختصاص ونهضة الشعب

... يجب علينا جميعاً ان نفهم ان الاختصاص لا يتحقق في كل عمل بمجرّد اللقب والعنوان . ومعنى الاختصاص قصر العلم على موضوع واحد لا الاحاطة بجميع ما في الدنيا من مواضيع . فتلك لا تتيسّر لأحد ولو كان عفريتاً من الجنّ (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) .

فلنعتصم بالحق ونستشعر الحزم ولا نعتمد إلا على انفسنا ، والله معنا ، وكل آت قريب . وبهذه الخطة وحدها نستحق الرحمة لا اللعنة من أحفادنا ، ونكون قد خففنا عن عاتق الحليفة (بريطانية) عبء الاستشارة ، وظهرنا بمظهر الكفء بين اصدقائنا وجيراننا ، ونلنا حريتنا الحقيقية واستقلالنا الصحيح .

ولا أريد ان اكشف عن النقائص والمعايب التي شجعت الغريب على الامتهان والاحتقار . وإذا كنا نحتقر انفسنا فلا عتب على الغريب ولا ملام ، وعار على شعب يخضع للجهل ويستسلم للمسكر - على علم منه - وهو على اصلاح حاله ، إذا شاء ، قدير (ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم) .

ولعلنا أنّا بذلك الخضوع وبذلك الاستسلام اصبحنا غرباء في أوطاننا وفي عقر دارنا ، وأصبح كل غريب مهما كانت جنسيته حاكماً فينا وكلمته هي العليا وكلمتنا هي السفلى ، حتى فقدنا الارادة وحرية الاختيار ، وفقدنا معهما ما كنّا نتجمّل به من الفضيلة ومكارم الاخلاق وعزّة النفس . وتمكنت من نفوسنا أفانين العداوات على حساب غيرنا ومصلحة غيرنا ، وأصبحت المنكرات من شعارنا والأوبئة الفتاكة علامة فارقة لنا ، وأنى توجهنا حجر علينا . وذلك هو التفسّخ ، وما بعد التفسخ إلا الانقراض .

ماذا يجب علينا؟

ولو عقلنا لكنا يداً واحدة على مصالحنا المشتركة لا أداة لنكاية بعضنا ببعض ،

وسلماً لتفـريق الشـمل و تمـزيق الوحـدة ، وكـفتنا الأيام عظة وعبـرة ، وعلـمتنا ان الذي يصيب زيداً يتناول عمراً خيراً كان او شراً ، وأن من ضحك على غيره اليوم يضحك غيره عليه غداً .

والمـاضي يحـفظ لهذا الشعب من مناقب الشمم والاباء والـغيـرة والشـهامة وعظمة النفس ما نسجت على منواله الأمم واتخذته شرعة ومنهاجاً .

محمد سعيد مصطفى الخليل

من فضلاء بغداد وظرفائها محمد سعيد آل مصطفى الخليل ينتمي الى أسرة معروفة تتصل بآل الطبقجلي وينتهي نسبها الى السيد خليل الحموي ابن السيد اسماعيل مفتي بغداد .

ولد ببغداد في نحو سنة ١٨٥٧ ، ودرس على نعمان خير الدين الألوسي وعباس حلمي القصاب ، وكانت له صحبة طويلة مع محمود شكري الألوسي وعبد الوهاب النائب وعبد اللطيف ثنيّان وعبد المجيد الشاوي .

عيّن واعظاً بجامع حنّان في جانب الكرخ ، وألف كتاباً في الأمثال البغدادية وآخر في اللغة العامية ، وكلاهما مخطوط . وأدركه الحمام في مسقط رأسه في ٦ كانون الأول ١٩٢٧ .

ذكره جلال الحنفي في الجزء الأول من كتابه «الأمثال البغدادية» (١٩٦٢) فقال انه اشتهر بتتبّع أمثال العامة وتخريج ألفاظهم ، وكان يعنى بمقابلتها على النصوص القرآنية . ولم يطّلع الحنفي على مجموعة له في هذا الموضوع .

وقال ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون أخبارهم ومجالسهم» : «كان صاحب ملح ونكات ولطائف ، اشتهر بذلك حتى صار فاكهة مجالس بغداد العلمية وبلبل محافلها الصادح ، لا يأنس ذوو البيوتات إلا بحديثه ولا يطيب للندماء والجلساء إلا مجلسه . وقد حفظ الناس له كثيراً من أخباره ونخبة من لطائفه وظرائفه ومداعباته . وكان يرتدي لباس العلماء الجبة ويضع على رأسه العمامة الخضراء شتاءً والبيضاء صيفاً . وكان أسمر اللون طويل القامة ذا لحية كثّة بياضها غلب سوادها ، عاش اكثر من سبعين عاماً... وقد عيّن واعظاً في جامع الحنّان لالقاء دروس الوعظ في شهر رمضان من كلّ سنة . وكان محبوباً عند الكرخيين فتجتمع اليه الناس في المسجد المذكور لسماع وعظه لما يتخلله من الظرائف والنكات والحكايات المضحكة» .

وقد حدثني عباس العزاوي انه كان يدرس على محمود شكري الألوسي في جامع مرجان ، فجاء محمد سعيد مصطفى الخليل وقال للأستاذ : «كنت الآن في سوق

الشورجة المجاور فرأيت الباعة يبعيون الفاكهة (كوطرة) ، فهل تعلم أصل هذه الكلمة العامية؟) .

قال الألوسي : «لا بد ان تكون من الدخيل الفارسي او التركي» .

فقال محمد سعيد : «بل هي من الفصيح ، وأصلها من بيع القَطَر (بفتحتين) ، وهو ان يبيع الرجل الحبوب او الفواكه جزافاً بلا وزن» .

وسئل عباس العزاوي ان يأتي بالقاموس ، فإذا به يؤيد كلام الرجل . وانطلق هذا يداعب الألوسي دعابة قاسية وينكر عليه معرفته للعربية ومفرداتها ، معتمداً على ما كان له من دالة وما كان بينهما من مودّة متصلة وكلفة مرفوعة .

وروى عبود الشالجي في كتابه «الكنايات العامية البغدادية» (بيروت ١٩٧٩) ان فتى استشار محمد سعيد مصطفى الخليل في أمر ، فقال له : عليك ان تتصرف كما قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز «لا شيش ولا كباب» . وذهل الفتى فتلا عليه الآية «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط» .

ومحمد سعيد غير محمد مصطفى الخليل الذي اشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩٢٠ ، فنفي الى البصرة وسجن فيها أمداً ثم أشخص الى جزيرة هنجام في الخليج العربي حيث بقي الى شباط ١٩٢١ . وكان بعد ذلك مدير البلدية الثالثة في بغداد (جانب الكرخ) سنة ١٩٢٢ .

ساطع الحصري

فيلسوف القومية العربية ومؤرخها ، سوريّ الأصل ، يمانيّ المولد ، درس في تركية وعمل في سورية ، العراق ومصر ، فكانت حياته تجديداً لحياة العربيّ القديم الذي كان موطنه يمتدّ من المشرق الى المغرب بلا فواصل ولا حدود ، يرتحل فيه ويقيم أينما شاء ، ويؤلف ويعمل حيثما يكون .

وهو مصطفى ساطع بن محمد هلال بن السيد مصطفى الحصري العلويّ النسب ، درس والده في الجامع الازهر وعاد الى حلب ، مسقط رأسه ، فعيّن قاضياً في دير الزور وحماة ورئيساً لمحكمة الاستئناف في اليمن ، حيث رأى ولده ساطع نور الحياة .

وكان أخو ساطع : بديع نوري بك (المولود ١٨٧٦) متصرفاً للواء الناصرية ، وقد اغتيل في البصرة في ٢٠ حزيران ١٩١٣ مع الزعيم فريد بك آمر موقع البصرة . كان بديع نوري من الكتاب المعروفين في تركية نشر البحوث والمقالات في المجلات والصحف ، تخرّج في المدرسةالملكية الشاهانية ، وتولّى منصب القائممقامية في أقضية مختلفة ، ثم كان مديراً للتحرير في ولاية أدرنة واستانبول ومدير بلدية فاتح ، وعيّن بعد ذلك متصرفاً للناصرية .

ولد ساطع الحصري في صنعاء اليمن في ٥ آب ١٨٨٠ ، وتنقل مع والده في أرجاء الدولة العثمانية من آطنة وأنقرة وطرابلس الغرب الى اليمن ثانية فقونية وطرابلس الغرب حيث عيّن الأب رئيساً لمحكمة استئناف الجزاء . وانتمى ساطع الى المدرسة الملكية الشاهانية ، فتخرّج فيها سنة ١٩٠٠ وعيّن معلماً في يانيا باليونان حيث بقي ٥ سنوات . ثم عيّن قائممقاماً لقضاء رادوشتة بولاية قوصوة في بلغارية (١٩٠٦) فقضاء فلورينة بولاية مناستر (قرب الحدود اليوغسلافية اليونانية) . وكان في شبابه مشايعاً لحركة تركية الفتاة .

وأعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فانتقل الى سلك التعليم وعيّن مدرساً في المدرسة الشاهانية ودار الفنون . وعهدت اليه سنة ١٩٠٩ ادارة دار المعلمين في استانبول ، وأصدر مجلة «دار الفنون» باللغة التركية (١٩١١) . وتولى تنسيق «دار الشفقة» واصلاحها . وأسّس في بداية الحرب العظمى مدرسة حديثة للمعلمات وللاطفال .

ولما انتهت الحرب العامة وانفصلت البلدان العربية عن جسم الدولة العثمانية الهرمة ، ترك استانبول الى سورية (١٩١٩) ، فعيّن مفتشاً عاماً للمعارف السورية (١٦ نيسان ١٩١٩) فمديراً عاماً لها (اول آيار ١٩١٩) فوزيراً للمعارف من ١٠ آذار الى ٢٧ تموز ١٩٢٠ . وسافر مع الملك فيصل الى أوربّة ، ثم عاد الى مصر .

واستدعي الى العراق بعد تأسيس الدولة ، فجاء الى بغداد وقضى فيها ٢٠ عاماً كانت أحفل أيام حياته . عيّن في بادئ الامر معاوناً لوزير المعارف (٥ آذار ١٩٢٢) فمديراً عاماً للمعارف (١٧ كانون الثاني ١٩٢٣) . وزار الاندلس في صيف سنة ١٩٢٦ فتفقّد معالمها واطّلع على الآثار العربية الباهرة في اسبانية . ونقل استاذاً بدار المعلمين العالية (اول آب ١٩٢٧) فمراقباً عاماً للتعليم (اول تشرين الاول ١٩٣١) فرئيساً لكلية الحقوق (٢٢ كانون الاول ١٩٣١) . وتولّى مديرية الآثار القديمة العامة علاوة على رئاسة كلية الحقوق (١١تشرين الاول ١٩٣٤) ، ثم تخلّى عن رئاسة الكلية ليصبح مديراً عاماً للآثار ومدير التربية والتدريس العام (١٦ ايلول ١٩٣٥) . وفي ١٢ ايلول ١٩٣٦ ترك مديرية التربية والتدريس العامة وانفرد بمديرية الآثار العامة الى ١١ حزيران ١٩٤١ .

واخرج من العراق في هذا التأريخ ، بعد أن جرّد من منصبه وجنسيّته . لقد خدم العراق بحبّ واخلاص ، وضع أسس التدريس ونشر التعليم وأنشأ المدارس ووسّع المعارف في المملكة الناشئة ، وقد قصّ كلّ ذلك في جزءي مذكراته عن العراق . لكنه لم يستطع فهم العراقيين ولم يحاول معرفة تقاليدهم وافكارهم واختلاف طبقاتهم وفئاتهم ، ورأى نفسه أعلم منهم واوسع ثقافة واكثر خبرة ، فمضى يؤسس دواوين معارفهم ومدارسهم بسيطرة أبوية وترفّع العالم المعتّد بنفسه ، ولعل ذلك سبب ما زخرت به مذكراته من شعور المرارة والألم وما حفلت به من انتقاص لأقدار الرجال وازدراء لمواهبهم وآرائهم وشكّ باخلاصهم وكفاءتهم وسخرية بجهلهم وضعفهم .

ومهما يكن من أمر ، ومهما يكن من قسوة في تجريد الرجل العالم العامل من عمله ووطنه الذي تبنّاه ، في ظروف عصيبة لا تفسح المجال للتسامح والتهاون ، فان العراق حفظ لساطع الحصري الإلّ والذمّة ، ورعى له الودّ والاكبار ، وأحسن اليه بعد الاساءة ، ووفى حقه بعد الجحود والنكران ، وحاطه في أعوامه الأخيرة بالرعاية والاكرام والتبجيل .

غادر ساطع الحصري العراق سنة ١٩٤١ وأقام في لبنان ثلاثة أعوام . واستدعته الحكومة السورية سنة ١٩٤٤ وعيّنته مستشاراً فنياً للمعارف . ثم مضى الى مصر وألقى محاضرات في معهد التربية العالي التابع لجامعة القاهرة (آذار ١٩٤٧ - ١٩٥٠) بصفة

استاذ زائر . وعيّن سنة ١٩٤٨ مشاوراً فنياً للادارة الثقافية بجامعة الدول العربية حتى استقال في كانون الثاني ١٩٥١ . وأصبح عميداً لمعهد الدراسات العربية العالية الذي انشأته جامعة الدول العربية في القاهرة في نيسان ١٩٥٣ الى آذار ١٩٥٦ ، وبقي استاذاً في المعهد الى السنة التالية .

وتفرغ بعد ذلك للتأليف . وقد أعيدت اليه جنسيته العراقية بقانون صدر سنة ١٩٥٣ . واختير عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في ايار ١٩٤٩ وبالمجمع العلمي العربي في دمشق في شباط ١٩٥٥ . وعيّن استاذاً باحثاً في جامعة بغداد في تشرين الثاني ١٩٦٥ .

وقد توفي ببغداد في ٢٣ كانون الأول ١٩٦٨ .

رثاه زكي الجابر وكيل وزارة الثقافة والاعلام فقال :

يا ساطع الفكر ، أيّ الفكر اقتحمُ ... وأيّ دنياك لم يهتف بها نغم؟
ربّيت جيلاً على الاخلاص يجمعهم ... لون من الحبّ فيما بينهم رحم
حبّ تسامى على الألقاب تنشرها ... كفّ الدخيل ، وفيها كلّ ما يصم
رياض كتبك في الآفاق ناشرة ... أعرافها منطقاً بالحق يتّسم
وانها الوحدة العرباء رافعة ... راياتها تزدهي في ظلّها الشّيم
انّا نسجنا لهيب النور من دمنا ... ولم يطف في هوانا المضرم الندم
قصائد الحرب بالنيران مطلعها ... وانّها باللظى والنّصر تختتم

مؤلفاته وآثاره

اصدر ساطع الحصري مجلات تربوية رسمية خلال توليه مناصب التربية والتعليم في تركية والعراق ، منها مجلة «أنوار العلوم» ومجلة «دار الفنون» في استانبول .

وأشرف في بغداد على اصدار مجلة «التدريسات الابتدائية» ، ثم مجلة «التربية والتعليم» (اول كانون الثاني ١٩٢٨) وقد ظهرت ثلاث سنوات .

ووضع مؤلفات كثيرة في التربية والقومية والتأريخ ، منها : فنّ التربية (جزآن باللغة التركية ، نقلهما الى العربية كامل نصري) ، أصول التدريس (١٩٢٤) مبادئ القراءة الخلدونية (١٩٢٤) ،طريقة تعليم الألفباء (١٩٢٤) ، دروس الطبيعة (جزآن : علم الحيوان ، علم النبات) ، جان جاك روسّو : حياته وآراؤه (جزآن ١٩٢٨) ، نقد تقرير لجنة منرو (١٩٣٢) ،دراسات عن مقدّمة ابن خلدون (جزآن ١٩٤٣ - ١٩٤٤) آراء واحاديث في التربية والتعليم (١٩٤٤) صفحات من الماضي القريب (١٩٤٨) آراء وأحاديث في

العلم والأخلاق والثقافة (١٩٥١) العروبة أولاً (١٩٥٥) آراء واحاديث في اللغة والأدب (١٩٥٨) حول الوحدة الثقافية العربية (١٩٥٩)، ما هي القومية (١٩٥٩)، آراء وأحاديث في القومية العربية (١٩٥١)، البلاد العربية والدولة العثمانية (١٩٥٧)، الإقليمية: جذورها وبذورها (١٩٦٣)، مذكراتي في العراق (جزآن ١٩٦٧ - ١٩٦٨)، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية (١٩٦٦)، أبحاث مختارة في القومية العربية (١٩٦٤)، يوم ميسلون(١٩٤٧)، دفاع عن العروبة (١٩٥٧)، العروبة بين دعاتها ومعارضيها (١٩٥٢)، حول القومية العربية (١٩٦١) ثقافتنا في جامعة الدول العربية، حوليّة الثقافة العربية (ستة أجزاء، ١٩٤٩ - ١٩٦٣)، الحوليّة الخلدونية (تقويم، ١٩٢٩). آراء وأحاديث في التأريخ والاجتماع (١٩٥١)، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية (١٩٤٤)، آفات الكحول (ألفه بالتركية ونقله الى العربية طالب مشتاق، ١٩٢٣)، أحاديث في التربية والاجتماع (١٩٦٢)، الاحصاء (محاضرات ١٩٣٩)، الأخيضر (١٩٣٧)، تقارير عن إصلاح المعارف في سورية (١٩٤٤)، العرب في الحرب العالمية الاولى، في اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية (١٩٦٦)، القومية العربية والدين الاسلامي، محاضرات في نشوء الفكرة القومية (١٩٥١) مذكرات ساطع الحصري (العهد العثماني)، الخ.

وقد زار ساطع الحصري بغداد في كانون الاول ١٩٦٢ لحضور احتفالات تأسيس بغداد وذكرى الفيلسوف الكنديّ، فقال يخاطب الجيل العربيّ الجديد:

«لا شك في أنكم ستشهدون من التبدّلات السياسية ما يفوق ما شاهدته أنا. لقد شهدت استقلال معظم البلاد العربية، وأنتم ستشهدون استقلال ما بقي منها تحت نير الاحتلال او الاستعمار الى الآن.

«لقد سعدت بمشاهدة زوال الاستعمار عن معظم البلاد العربية، ولكنني لم أسعد بمشاهدة زوال الآثار والرواسب التي خلّفها الاستعمار في هذه البلاد.

«وأعتقد ان أخطر وأضرّ هذه المخلفات هي الحدود المصطنعة التي أقامها المستعمرون بين هذه البلاد بعد أن اقتسموها فيما بينهم. وإني لا أشكّ مطلقاً في أنكم ستشهدون تحرّر البلاد العربية من هذه المخلّفات الاستعمارية أيضاً، وستنعمون بكلّ نعم التقدّم الماديّ والمعنويّ الذي سينجم عن هذا التحرّر.

«انني أغبطكم على هذه النعمة.....».

افنى ساطع الحصري ذاته في حبّ الأمة العربية. وقد سأله قاسم الخطّاط عن الأيام السعيدة التي مرّت به شخصياً، فقال: «انني لا أفكر في نفسي...... الأيام التي سعدت بها أمة العرب هي أيامي السعيدة».

وعلّق الخطاط على ذلك قائلاً : ونظرت الى هذا الوجه الحبيب ، وجه ساطع الحصري ، وتذكرت اولئك الصوفيّين الذين عشقوا الذات الالهية وفنوا فيها . هذا الرجل قد عشق أمته العربية عشقاً صافياً ، وفنى في ذاتها ، ناسياً نفسه وملذّاته وكلّ ما يتمناه الانسان من متع الحياة ، متطلعاً الى أمته العربية المحبوبة التي نسي من أجلها نفسه» .

وقد لخّص جمال الدين الألوسي سيرة الحصري ونزعته قائلاً : «هو فيلسوف القومية العربية الأول والباعث لفكرتها والناشر لوعيها والمتعمق في مفاهيمها بخطوطها العريضة وألوانها الزاهية ، والملقي أضواءه العلمية على حقيقتها ، والمقرّر لمقوّماتها الأساسية ، اللغوية والتأريخية ، أملاً وهدفاً ومنطلقاً . كانت القومية العربية تجري في دمائه ، والعروبة تشغل حيّزاً كبيراً من دماغة المبدع ، من غير تعصّب او غمط لحقوق الغير» .

آراء في ساطع الحصري

كتب الاستاذ ب . ج . فاتيكيوتس Prof. P. J. Vatikiotis المتخصص بشؤون الشرق الاوسط في الطبعة الجديدة من «دائرة المعارف الاسلامية» في مبحث «القومية» ان ساطع الحصري نادى بقومية علمانية وفكرية ، بل بالأحرى رومانتيكية ومثالية في محاولته فصل الدين عن الفكرة القومية . وقد استمّد آراءه من روسّو Rousseau الفرنسي (١٧١٢-١٧٧٨) وهيغل Hegel الالماني (١٧٧٠-١٨٣١) ومازيني Mazzini الإيطالي (١٨٠٥ - ١٨٧٢) فعبّر عن الصورة الروحية للأمة بأنها بناء أدبيّ ونفساني ، والشخصيّة المستقلّة للدولة بمثابة ضرورة تأريخية ، والوطنية كمبدأ عالمي موجود يدعمه التأريخ . وقدّم القومية وقداسة «روح الأمة» بأنها التركيب العضويّ الكلي الذي يؤلف الأمة فوق الأشخاص . وعدّ القومية عقيدة جديدة للعرب ، ورأى أن يكون اخلاص العربي لقوميته واجباً روحياً على كلّ عربي . وجعل الاسلام ثقافة وطنية للعرب لا دينهم فحسب .

أما عبد الرحمن البزّاز فحاول أن يثبت أن لا تناقض بين الاسلام والقومية العربية لأن العلاقة بين الدين والدولة لم تكن نظرياً مشكلة اسلامية .

هذا وقد قال عبد الرحمن البزاز : «ولا شك عندي انه ، حينما تتحقق الوحدة العربية - الأمل السعيد الذي لا بدّ أن يتحقق يوماً - سيعتبر أثر الاستاذ الحصري في الأمة العربية كأثر الفيلسوف والمربي المشهور فيخته بالنسبة للأمة الألمانية ، وستعتبر «آراؤه واحاديثه» (في القومية العربية) هذه أشبه ما تكون برسائل ذلك الفيلسوف العظيم الى أمته» .

والفيلسوف الألماني جوهان غوتليب فيخته (١٧٦٢ - ١٨١٤) تلميذ الفيلسوف كانت عرف بمثاليّته المطلقة في فلسفته ، وكان من دعاة التحرر الوطني الألماني في عهد الحروب النابوليونية .

وقد قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» وهو يذكر ساطع الحصري :«أما أن في لهجته العربية أثراً من التركية فذلك لا يضير . ان حبه للعرب في قلبه لا في لسانه . ولا أحد ينكر على ساطع الإخصائي مقدرته او على ساطع الرجل فضله . بيد أنه ، مثل اكثر الإخصائيين ، فيه بعض تزمّت ، فله في مسلكه خط واحد لا يعدوه ونظر فيه يبعد ولا يتّسع . لذلك ترى سجيّته الكبرى في صلابة عوده وفي حبه للنظام وقيوده . وكفى بالشطر الثاني منها قيداً للرجل العامل ، عالماً كان او سياسياً ، في هذا الشرق العربي . انه في الحالين ليلقى شتى الصعوبات والمقاومات.....» .

وقال جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» استطراداً في كلمته عن سامي الكيالي صاحب مجلة «الحديث» الحلبية : «وأنا أعرف ساطع الحصري معرفة جيدة . فهو فضلاً عن كونه لا يعرف شيئاً من القواعد العربية نحواً وصرفاً ، فإنه لا يحسن ضبط الكلمات العربية املاءً في الكثير من كتاباته . وعلى رغم أن جميع مؤلفاته كانت تمرّ من تحت أقلام أصدقائه وما كانوا يدخلون عليها من تصليح وتنميق فإنها لم تخلُ من أغلاط عربية فظيعة...» .

قال جمال الدين الألوسي في كتابه «ساطع الحصري رائد القومية العربية» (بغداد ، ١٩٨٦) :

«آمن الحصري بأن اللغة والتأريخ هما عاملا التوحيد والقاعدة المتينة التي ينطلق منها دعاة الوحدة . ولقد أسهب الحصري البحث في مناقشة الأساتذة ودعاة الإقليمية ، وأطال الوقوف عند قوله : «العربي هو من يتكلم العربية ويريد أن يكون عربياً» . والحديث الشريف يؤيّد قوله : «ليست العروبة أباً لأحد منكم وانما هو اللسان» .

«وكان يقول:كل الشعوب العربية التي تتكلم العربية هي عربية ، وكل فرد ينتسب الى هذه الشعوب فهو عربي . ويستعمل الحصري كلمة الشعب ويريد به مواطني الدولة ، ويرى الوطنية الجديدة للأمة العربية وطنية تسمو على كل الوطنيات الاقليمية يوم يتمّ توحّد الأمة تحت راية واحدة بحدودها القومية من المحيط الى الخليج» .

ساطع الحصري : من العثمانية الى العروبة

أشار عبد الكريم الازري في كتابه «مشكلة الحكم في العراق» الى كتاب وضعه وليام كليفلاند باللغة الانكليزية سنة ١٩٧١ بعنوان «تكوين قومي عربي - العثمانية

والعروبة في حياة ساطع الحصري وتفكيره» . وقال ان المؤلف الاميركي كشف عن صفحات في حياة الحصري ومواقف اتخذها ومبادئ اعتنقها ودافع عنها قبل وفي اثناء الحرب العالمية الاولى قد لا تكون معروفة لدى الكثيرين بهذه الصورة ، وهي تقع على طرفي نقيض والمبادئ والافكار التي صاغها ساطع الحصري بعد الحرب العالمية الثانية في القومية والوحدة العربية ، والتي كتب وحاضر ودافع عنها بقوة وحماس حتى آخر أيام حياته .

قال الازري ان كليفلاند خرج من دراساته بحصيلة تقول : «ان ساطع الحصري كان الى نهاية الحرب العالمية الاولى ، أي حتى الاربعين من عمره ، مؤمناً راسخ الايمان ومدافعاً أحرّ الدفاع عن العقيدة العثمانية ، اي نظام الدولة العثمانية الأممية ، الدولة المتعددة القوميات واللغات والاديان ، او ما كان يطلق عليه في التعابير الدارجة «الامبراطورية العثمانية» . وكان رافضاً الى آخرأيام تلك الدولة كلاً من القوميتين التركية والعربية على حدّ سواء ، وظلّ ممتنعاً عن التعاون مع الحركات المتصلة بأي منهما . وان الحصري لم يغيّر موقفه ويتحوّل الى مفهوم القومية العربية إلا بعد سقوط الدولة العثمانية ، حيث التحق بحكومة فيصل الاول في سورية عام ١٩١٩ ، شأنه في ذلك شأن باقي كبار المدنيين والعسكريين العرب الذين استمروا في خدمة الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى» .

ونقل الازري ايضاً عن كتاب كليفلاند ان الحصري امتنع عن الاشتراك في النشاطات السياسية العربية وامتنع عن الالتزام بأية حركة سياسية عربية قبل نشوب الحرب العامة ، لأن ولاءه كان محصوراً بالدولة العثمانية المتعددة القوميات . وكان مفهوم الوطن عنده يشمل جميع الاقاليم العثمانية . وعلى رغم علمانية الحصري فقد اضطرّ الى اعتبار الاسلام احدى الروابط الرئيسية التي تربط اكثرية العثمانيين بعضهم ببعض . وخلص المؤلف الاميركي الى القول ان ساطع الحصري ، على أغلب الظن ، حلل الوضع الذي نشأ عن اندحار الدولة العثمانية فارتأى ان لا مفرّ من الخيار العربي ، فترك استانبول في حزيران ١٩١٩ متوجهاً الى دمشق لكي يتطوع للجهاد في سبيل قضية تتطلب ايديولوجية جديدة . وانضمام الحصري الى تلك القضية ومساهمته في فكرتها بدّله من ساطع بك العثماني الى ساطع الحصري «القومي العربي» . وقال : «لم يصغ ساطع الحصري ايديولوجيته القومية بهدف تحقيق الحريات السياسية ، وانما بهدف ايقاظ المشاعر التي تساعد على تحقيق الوحدة القومية» .

قال نجدة فتحي صفوة الذي عرف الحصري مذ كان فتى يافعاً :

«لقد كان الحصري عالماً حقيقياً ، لم يتظاهر قطّ بما ليس فيه . وكان على تصلّبه في الشؤون الادارية وتشدده في الحرص على المصلحة العامة وتمسكه بمبادئه ، متواضعاً في العلم ، يصغي لكل مناقشة ولا يغضب لاعتراض وجيه ، ولا يتناول موضوعاً او يشرع في مشروع إلا بعد الاحاطة التامة بكل جوانبه . وكانت آراؤه وأحاديثه في القومية والتربية والاجتماع قائمة على فهم عميق للتأريخ وإيمان حقيقي بالمكان الذي يجب أن تحتله الأمة العربية تحت الشمس ، الى جانب ثقافته الغزيرة المدهشة التي يعجب المرء كيف يتسنّى لمن عاش عمراً واحداً فقط - مهما طال - أن يكتسبها» .

أحمد عزت الأعظمي

خادم القضية العربية ومؤرخها أحمد عزت الأعظمي ولد في بغداد سنة ١٨٨٠ وتوفي بها في ٢٢ تموز ١٩٣٦ . كان صحفياً وعضواً بمجلس النواب ، ألف «تأريخ القضية العربية» في ٦ أجزاء . وقد ترجمت له في «أعلام اليقظة الفكرية» . رثاه عبد الحسين الازري فقال :

نَعَوْكَ عبرتَ قنطرة الممات ، كذاك الموت عاقبة الحياة

حتى يقول :

عرفتك والمقالد حين كانت بأيدي ساسة الترك الغلاة
تنوّه باسم قومك من فَروق[1] وليس فروق بالخلّ المؤاتي
وتبعث من لسانك مرّ عتب تثير النّزر فيه من الحماة
بيومٍ لم يكن للعرب صوت اليه تصيخ أسماع الرعاة
ترى لغةَ العروبة مستهاناً بها فكأنها لغة الجناة
ومجداً ضائعاً دلّت عليه معالمُ حول دجلة والفرات
وما الذكرى بنافعة ولكن أعاد عليَّ فقدك ذكرياتي

أصدر أحمد عزت في استانبول مجلة «لسان العرب» في آذار ١٩١٣ فمجلة «المنتدى الأدبي» في ٢٧ شباط ١٩١٤ .

حادث غريب للأعظمي

كان عبد الحميد الأعظمي والد أحمد عزت قائممقاماً لقضاء الحيّ على العهد العثماني ، فأرسل ولده للدراسة في استانبول . وقد حدثني ثقة عن حادث غريب وقع لأحمد عزت في اثناء دراسته ، وهو أن صديقاً له من الطلاب قتل زميلاً له وقطّع جسمه ووضع أشلاءه في حقيبة حملها في الصباح الباكر ونزل بها الى الشارع . وقد خرج أحمد عزت من محل سكناه للذهاب الى مدرسة الحقوق ، فلحق به صاحبه وقال له :

---

(١) فروق : اسم للقسطنطينية او الأستانة او استانبول .

هل لك أن تقف بجانب هذه الحقيبة برهة ريثما أستدعي حمالاً لحملها؟ فقال : أجل ، ولكن أسرع خوف أن يفوتني درس الحقوق . ومضى الطالب القاتل ، وأحمد عزت واقف ينتظر بجنب الحقيبة ، ولم يفطن الى أن الدم يسيل من جوانبها ، وقد لطّخ أرض الرصيف . ولم تمض دقائق من الزمن حتى تجمّع الناس حول طالبنا العراقي وحقيبته ، وجاءت الشرطة فقبضت عليه وأخذته الى المركز . ولم يغن ادعاؤه بالبراءة عنه شيئاً ، فظلّ موقوفاً أشهراً ، بينما كان البحث يجري عن القاتل الهارب . ووصل النبأ الى أبيه فأسرع بالسفر الى دار الخلافة ليكون الى جانب ولده وليقوم بالدفاع عنه .

وقبض أخيراً على القاتل الذي اعترف بجريمته ، وأخلي سبيل أحمد عزت .

الشيخ محمد أمين عالي باش أعيان

محمد أمين عالي بن عبد الله ضياء الدين بن عبد الواحد آل باش أعيان العبّاسي، ولد في البصرة سنة ١٨٨٣ والتحق بالمدارس الرسمية، ثم درس على علماء عصره ووالى تتّبعاته الخاصة في اللغة والأدب. وقد اختير عضواً في مجلس المعارف سنة ١٩٠٧، وعضواً في لجنة الاوقاف ومحكمة البداءة. وعهد اليه برئاسة محكمة الاستئناف (١٩١٠) ووكالة المدعي العام (١٩١١) وعضوية المجلس البلدي (١٩١٢).

وأسس مدرسة في محلة المشراق سنة ١٩٠٨ على أثر اعلان الدستور العثماني. وكان من رواد الصحافة في البصرة، أصدر جريدة «التهذيب» في اول حزيران ١٩٠٩ واستمرّ على اصدارها الى آذار ١٩١٠. واحتل الانكليز البصرة في اواخر سنة ١٩١٤ فأبعدوه الى الكويت.

انتخب نائباً عن البصرة في المجلس التأسيسي في آذار ١٩٢٤، ثم ناب عنها في المجلس النيابي الاول (١٩٢٥ - ١٩٢٨)، وعين وزيراً للاوقاف في الوزارة العسكرية الثانية من ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٦ الى ١٤ كانون الثاني ١٩٢٨. وقد توفيّ بالبصرة في ٢٩ ايار ١٩٢٨.

كان الشيخ محمد أمين عالي كاتباً ومؤرخاً، نشر في شبابه مقالات في مجلة «النشئ الجديد» و«الفيحاء» و«المنبر» في البصرة و«لغة العرب» في بغداد الخ. وألف: رواية الشاب البصري والشيخ العصري (مطبوعة)، مرشد الأبناء، تأريخ البصرة (مخطوط)، الخ.

قال عبد الحميد الكنين: «كان متواضعاً خلوقاً أديباً. كان ديوان هذا النبيل الصحافي نادياً للأدباء والفضلاء والفقهاء، وكانت له الأيادي البيضاء في نشر كثير من الكتب الأدبية والعلمية والتأريخية على نفقته. هذا عدا المساعدات المالية التي كان يمنحها للمعوزين من ذوي العلم والأدب. فجمع هذا الأديب العبّاسي بين العظامية والعصامية وبين الإباء والتواضع وبين الأدب والمال..».

ياسين باش اعيان

الشيخ ياسين بن عبد الواحد بن عبد الله ضياءالدين آل باش اعيان ، ولد في البصرة سنة ١٨٩٠ ودرس في المدارس الرسمية ، ثم أخذ اللغة العربية عن عبد العزيز التكريتي الواعظ .

وقد انزوى في مكتبة الأسرة فنظمها واستخرج منها كنوزاً من المعلومات . وألف كتابه المطوّل في تأريخ البصرة ، ولم يهيأ له الطبع . وصنّف أيضاً كتاباً في تأريخ اسرته (بلوغ المرام في مناقب آل الشيخ عبد السلام) ورسائل وتراجم مختلفة .

وتوفي في البصرة في ١٧ حزيران ١٩٤٢ .

سليمان فيضي

ولد سليمان فيضي بك الموصلي بمدينة الموصل في ٦ تموز ١٨٨٥ ، وكان أبوه الحاج داود بن الشيخ سلمان القصّاب العوّادي إماماً بمسجد ابراهيم . وتنتسب الأسرة الى السيد احمد الرفاعي صاحب الطريقة . وقد توفيت أمه وهو طفل رضيع فكفلته جدته وتولّت رعايته .

نشأ الفتى عصامياً وانتمى الى المدرسة الأميرية في العاشرة من عمره ، ثم رحل الى بغداد سنة ١٨٩٩ وانتمى الى المدرسة الرشدية العسكرية . وفصل من المدرسة مع زميله مولود مخلص لمشاجرة حصلت بين الطلاب ، فشدّ الرحال في كانون الثاني ١٩٠٤ الى نجد للاتصال بأميرها عبد العزيز آل رشيد وطلب شفاعته . ثم عاد الى البصرة وعيّن مداوماً في محكمتها .وأكب في ذات الوقت على دراسة القوانين بنفسه ، فزاول المحاماة .

ولما أشرقت أنوار الدستور واطلقت الحريات العامة أسّس مدرسة تذكار الحرية في تشرين الثاني ١٩٠٨ وتولّى ادارتها . وأصدر جريدة «الايقاظ» (٢ ايار ١٩٠٩) واستمر على اصدارها اسبوعياً حتى احتجبت في اواخر تشرين الأول ١٩١٠ . واختير عضواً بمحكمة الحقوق (شباط ١٩١٠) . وسافر سنة ١٩١١ الى الحجاز لاداء فريضة الحجّ ، ثم زار دمشق وبيروت واستانبول . وانتهز فرصة وجوده في العاصمة التركية فأدى امتحان الحقوق وحصل على شهادتها .

عاد الى البصرة واتصل بالسيد طالب النقيب فكان عضده في مساعيه ومعتمده في الجمعية الاصلاحية . وانتخب نائباً عن البصرة في مجلس المبعوثان في كانون الثاني ١٩١٤ ، فقصد استانبول ثانية وشهد افتتاح المجلس في ١٤ ايار ، وعاد الى البصرة في آب من تلك السنة قبل نشوب الحرب العامة . وأوجس خيفة من نوايا الاتحاديين الاتراك فغادر الثغر مع طالب النقيب في تشرين الثاني ١٩١٤ الى الكويت وبُرَيْدة في نجد فقابلا عبد العزيز آل سعود . وذهب النقيب الى بومبي ، اما سليمان فيضي فقفل عائداً الى البصرة .

يقول سليمان فيضي في مذكراته «في غمرة النضال» ان لورنس الشهير جاء الى

البصرة في نيسان ١٩١٦ ، وكانت تحت الاحتلال البريطاني ، فدعاه لمقابلته وعرض عليه تأييد الانكليز لاستقلال العرب وحثهم على الثورة ضدّ الأتراك . وقال له : «انّي قد اخترتك لتقوم بمهمة اذكاء نار الثورة . فإن اقدمت فإنك واجد كل ما تحتاج اليه من وسائل هذه الثورة . فسأضع تحت تصرّفك البنك بكل أمواله ، وسيمدّك الجيش بما تشاء من السلاح» ، لكن سليمان فيضي اعتذر بعدم استطاعته القيام بهذه المهمة التي يكلفه بها .

وأنشأ الانكليز أول محكمة مدنية في البصرة في أواخر ١٩١٥ . وفي أوائل سنة ١٩١٩ عينوا سليمان فيضي حاكماً فيها تحت رئاسة رئيسها المستر فوربس . ونقل المستر فوربس في منتصف تلك السنة رئيساً لمحكمة الاستئناف في بغداد ، فاختار سليمان فيضي عضواً بها في أول تشرين الثاني ١٩١٩ . وقام في الوقت نفسه بتدريس التطبيقات القانونية والصكوك في مدرسة الحقوق عند اعادة فتحها في السنة التالية . وعهد اليه بعد ذلك تدريس الحقوق الدستورية .

ألفت السلطات البريطانية في تموز ١٩٢٠ لجنة لوضع لائحة قانون الانتخاب قوامها النواب العراقيون في المجلس التركي السابق ، وضمّ اليهم فريق من رجال البلاد المعروفين . وكان سليمان فيضي أحد الأعضاء ، وقد انتخب السيد طالب النقيب لرئاسة اللجنة . وفرغت اللجنة من مهمتها في أوائل تشرين الثاني .

استقال سليمان فيضي من عضوية محكمة الاستئناف في ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٢ وعاد الى البصرة لممارسة المحاماة . وعيّن معتمداً للشيخ خزعل خان أمير المحمرّة في حزيران ١٩٢٣ ، واستقال في لسنة التالية . وعارض المعاهدة العراقية - البريطانية لسنة ١٩٣٠ ، ثم اعتقل وأبعد الى عنة حيث امضى أربعة أشهر (١٩٣١) متهماً بالتحريض على الاضراب . وانتخب نائباً عن البصرة في آب ١٩٣٥ الى تشرين الأول ١٩٣٦ . وقد توفي في بغداد في ١٩ كانون الثاني ١٩٥١ .

وضع مؤلفات أدبية واجتماعية وحقوقية ، منها : مذكراته التي طبعت بعد وفاته بعنوان «في غمرة النضال» (١٩٥٢) . له ايضاً : التحفة الايقاظية في الرحلة الحجازية (١٩١٣) ، ألف كلمة وكلمة في الأمثال (١٩١٨) ، الرواية الايقاظية (مسرحية ، ١٩١٩) ، الحقوق الدستورية (١٩٢٠) ، شرح قانون حكام الصلح (في جزءين ١٩٢١ - ١٩٢٢) ، الصكوك العدلية ، القانون الأساسي للحكومات المتحدة الأميركية (ترجمة ١٩٢٢) ، سرّ النبوغ (١٩٢٢) ، المنتخب من أشعار العرب (١٩٢٧) ، أصول التعبات وأحكامها في البصرة (١٩٤٦) ، البصرة العظمى (١٩٦٥) .

كانت حياة سليمان فيضي واسعة الآفاق، فضفاضة الذيول : كان شاباً وطنياً متحمّساً متطلّعاً الى النهضة والتقدم في عهد ناء بالتواكل والخمول . وظل طول عمره مقداماً جريئاً . عمل في حقل الصحافة والمحاماة والقضاء والنيابة ، وأسهم في الحركات الوطنية والثقافية ، وألف في القانون والاجتماع والأدب .

اما عمله قصّاصاً فقد قال فيه جعفر الخليلي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً» : «لعل سليمان فيضي أول قصاص عراقي حاول ان ينحو نحواً جديداً في القصة ويخرجها اخراجاً يجاري فيه القصص التركية والفارسية والقصص التي قرأ عنها الشيء الكثير» . ويعزو الخليلي ملكة سليمان فيضي الأدبية التي نمّاها وصقلها على مرّ السنين الى عوامل مختلفة منها اكبابه على المطالعة والتتبع في اللغات العربية والتركية والفارسية ، وسفراته المتعددة منذ عهد الصبا ورحلته الى تركية ومصر وسورية ولبنان وغيرها من الأقطار ، واضطلاعه بتبعات النيابة والعمل السياسي .

سليمان فيضي والمس بيل

زار المس جرترود بيل في ١٢ حزيران ١٩٢٠ . وقد كتبت تقول انه أخبرها : «منذ استيلائكم على بغداد ما زلتم تتكلمون عن حكومة عربية ، لكن مرت ثلاث سنوات وأكثر ولم يحصل شيء . تقولون انكم لا تستطيعون عمل شيء حتى يتم توقيع الصلح مع تركية . لكنني على ما أعلم لن يكون ذلك إلا بعد أشهر وحتى سنين . تقولون انكم لا تستطيعون عمل شيء حتى يمنح الانتداب لكم . غير ان هذا التفسير لا يصدّق لأننا رأينا انشاء حكومة عربية في سورية قبل ان تحصل أية دولة غربية على الانتداب . قلتم في تصريحكم انكم تشكلون حكومة محلية تستمد سلطتها من مبادرة الشعب المختص واختياره الحرّ ، ومع ذلك تقومون بعمل مشروع دون ان تستشيروا أحداً . يكون من السهل لكم ان تأخذوا شخصاً او شخصين مهمين في مجالسكم ، وذلك يرفع الانتقاد الموجّه الى مشروعكم» .

ثم قال ان المشروع البريطاني وصل الى يد كل فرد في بغداد ، ونحن لا نحبّذه . مثلاً إننا لا نوافق على ان يكون تعيين رئيس المجلس من قبل الحكومة ، بل نرى ان ينتخب من قبل المجلس . وختم سليمان فيضي كلامه مقترحاً ان يعطى العراقيون مجالاً واسعاً ، فإننا لا نستطيع حكم البلاد بدون مساعدتكم ومشورتكم ، ونأتي نحن اليكم لنحصل على ذلك إذا لم تحاولوا ارغامنا .

محمد أحمد بهادر

المحامي الكاتب الأديب محمد أحمد المعروف بخان بهادر ، وهو لقب شرف هندي منحته اياه الحكومة البريطانية بعيد الحرب العظمى الأولى . ولد في أبي شهر من ثغور الخليج العربي سنة ١٨٨٤ ودرس في المدارس الايرانية . والتحق بالقنصلية البريطانية في مسقط رأسه مترجماً سنة ١٩٠٠ . ولما نشبت الحرب العامة نقل الى الدائرة السياسية الملحقة بالحملة العسكرية في البصرة (١٩١٥) وعمل مع السر برسي كوكس .

عيّن حاكماً للصلح والجزاء بالبصرة سنة ١٩١٩ ، فمعاون الحاكم السياسي وحاكم الصلح في كربلاء (ايلول ١٩١٩) ، فرئيس محكمة بداءة الحلة (١٩٢٠) . وأعيد الى البصرة حاكماً للجزاء (١٩٢١) ، لكنه استقال من الخدمة في اوائل عام ١٩٢٢ وانصرف الى المحاماة . واختير بعد ذلك رئيساً للجنة نقابة المحامين في البصرة (١٩٣٩ - ١٩٤١) .

كان محمد احمد يحسن اللغات الثلاث العربية والفارسية والانكليزية ويكتب بها . فمن آثاره العربية : تأريخ الأندلس (ترجمه عن الانكليزية بالاشتراك مع محمد تقي الدين الهلالي) ، سيرة كرستوف كولومب ، سيرة ابراهام لنكولن الخ .

وألف بالفارسية : الانشاء الفارسي ، تأريخ المانية ، طلوع تمدّن ، محبّو البشر ، الخ . ونقل الى الفارسية رواية يوليوس قيصر وعطيل وهنري الثامن وتاجر البندقية والعاصفة وغيرها من مسرحيات شكسبير ، كما ترجم رواية شارل وعبد الرحمن (لجرجي زيدان) ، وفي سبيل التاج (للمنفلوطي) ، وفرياني (لطاغور) ، ودون كيخوتي (لسرفانتس) الخ .

ومن مؤلفاته باللغة الانكليزية : رسالة عن البابية ، رسالة في الأمثال الفارسية ، الفرار من الحجاب ، عدا مقالات عديدة نشرت في جريدة «الأوقات» البصرية وسائر الصحف والمجلات .

وقد توفي بالبصرة في ٢٧ شباط ١٩٧٤ عن ٩٠ عاماً .

قال فيه معروف الرصافي :

إذا البعد أنسى الودّ خلاً فإنني ... لودّك يا مرزا محمد ذاكر
أحدّث في بغداد عنك وإنني ... اليك لمشتاق وإني لشاكر
كشفت بنور العلم كلّ حقيقة ... دَجَا فوقها ليل من الجهل ساتر
ولم أرَ بين الناس مثلك عالماً ... يصارح تبيينها ويجاهر
ولم أر أقوى منك في القول حجّة ... يثوب الى الاذعان منها المكابر
وفيك ذكاء لو سبرت قلوبنا ... به برزت منها اليك الضمائر

خليل عزمي

من رجال الادارة والفكر خليل عزمي بن الحاج محمد ابراهيم ، ولد في كربلاء في ١١ آذار ١٨٩١ ، وكان أبوه معلماً في الكتاتيب ببغداد وبعد ذلك أصبح أميناً لصندوق بلدية كربلاء حيث أمضى في وظيفته نحواً من أربعين سنة . وأصل الأسرة من بلدة عانة على الفرات .

درس الفتى في دار المعلمين الليلية في بغداد على عهد مديرها التركي عادل بك ، وقرأ طرفاً من علوم العربية والتصوف على الشيخ طه الشيرواني مدرس جامع الازبك حينما كان الشيخ مدرساً في كربلاء ومدير اوقافها . وتوثقت صلته بعد ذلك بالسيد محمد علي هبة الدين الشهرستاني وتأثر بمبادئه الاصلاحية .

عين خليل عزمي معلماً في المدارس الابتدائية سنة ١٩١٣ وتنقل في التعليم في كربلاء والنجف وبغداد . ولما نشبت الحرب العظمى في أواخر السنة التالية أدخل في دورة ضباط الاحتياط ، ومنح رتبة ملازم ثاني ، واشترك في معارك الساحة العراقية . وعيّن في نيسان ١٩١٧ كاتباً في مجلس بلدية كربلاء . وثار البلد على الانكليز سنة ١٩٢٠ ، فشارك في الثورة ونظم ابياتاً ألقيت عند الاحتفال برفع العلم العربي في تشرين الأول ١٩٢٠ ، منها :

بشراك ، يا كربلا ، قومي انظري العلما	على ربوعك خفّاقاً ومبتسما
وكفكفي دمعك الهطّال وابتهجي	فإنّ بند بني قحطان قد حكما
ظلم وجور أبت ارواحنا شمماً	ان تستكين لمن لم يَرْعَهَا الذمما

وقد سجن على أثر اخفاق الثورة أمداً ، ثم أطلق سراحه وعاد الى وظيفته في المجلس البلدي . وأصبح رئيس كتاب محاسبة لواء كربلاء (شباط ١٩٢٢) فمدير تحريرات اللواء (تموز ١٩٢٣) . ونقل الى السلك الاداري مديراً لناحية كبيسة (ايلول ١٩٢٤) فالفلوجة (نيسان ١٩٢٥) . وتولى منصب القائممقام بالوكالة في قضاء خانقين (آب ١٩٢٥) ، ورفّع قائممقاماً أصيلاً فخدم في دلتاوة (ايار ١٩٢٦) فبدرة (تموز ١٩٢٨) وعانة (آب ١٩٢٩) . ونقل عضواً في لجنة تحديد أراضي المنتفق في نيسان ١٩٣٠ ، ثم أعيد قائممقاماً لقضاء سوق الشيوخ (ايار ١٩٣١) فمندلي (كانون الأول ١٩٣٢) فقضاء

الموصل (كانون الثاني ١٩٣٣) . وقام في ايلول ١٩٣٣ بوكالة المتصرف . ثم نقل قائممقاماً لقضاء الحيّ (كانون الأول ١٩٣٣) والنجف (حزيران ١٩٣٤) وخانقين . ورفّع متصرفاً للواء ديالى في كانون الأول ١٩٣٥ ، ونقل الى الديوانية (نيسان ١٩٣٦) ثم اعيد الى لواء ديالى (كانون الأول ١٩٣٦) . ولم يلبث ان نقل رئيساً لتسوية حقوق الأراضي في كانون الثاني ١٩٣٧ فعمل في تلكيف والهندية والكوت . وأعيد الى السلك الاداري متصرفاً للواء الموصل في نيسان ١٩٤٨ ، ونقل مفتشاً ادارياً في آب ١٩٤٩ .

اعتزل الخدمة بعد ذلك . وأصدر جريدة «الميزان» في آب ١٩٥٣ ، وكانت جريدة يومية استمرت الى آب ١٩٥٤ . ونشر في جريدته سلسلة بحوث بعنوان «الادارة : أمراضها ومشاكلها» . وكتب مقالات في جريدة «المفيد» و«المعرض» و«الزهور» و«النداء» و«اليوم» و«الزمان» و«الساعة» ومجلة «الغري» و«البيان» الخ . وأدركته الوفاة في بغداد في ٨ كانون الثاني ١٩٥٦ .

عرف خليل عزمي بالحزم والجدّ في أعماله الرسمية . وقد حدثني احمد حامد الصرّاف انه كان من أعلم الناس بفرق الغلاة والمتصوّفة وعقائدهم وشعائرهم وكتبهم . ألف قصة «دلال او الامرأة الصالحة» (١٩٢٨) . وصنّف كتباً طبع منها : الله والروح (١٩٤١) ، تأريخ بني اسرائيل القديم (١٩٤٧) ، بين الشيعة والسنّة (١٩٥٢) ، السراج الوهّاج في اعجاز القرآن (١٩٥٢) . ومن آثاره المخطوطة : حركة الآثوريين ، خطرات اجتماعية ، آراء سياسية الخ .

أصدر جريدة «الميزان» فكتب مقالاً افتتاحياً في عددها الأول بعنوان «الميدان الذي اخترناه» . قال : «هذا الميدان الذي اخترناه وآثرنا ان نعطيه من جهودنا الفكرية والبدنية ما هو حقيق به من اكرام . هو ميدان الصحافة التي أصبحت اليوم رسالة العصر وعنوانه ، فقد لا يستطيع المرء في هذا العصر المليء بالأحداث السياسية والتطورات الفكرية والتحوّلات الاجتماعية ان يتصوّر قطراً حيّاً بلا صحافة . وإذا أمكنه ان يتصور انساناً بلا رأس وداراً بلا نافذة وشجرة بلا أوراق . ولكن حقاً ان الصحافة هي الرأس والنافذة والورقة .

«لقد أصبحت الصحيفة لانسان العصر الحاضر غذاء شعبياً يتناوله في مطلع كل شمس وفي مغربها ، ولا يستطيع ان يعيش بدونه» .

ثم قال ان الصحافة لا يحسن بها ان تكون مجرّد «ساعي بريد» ، بل يجب ان تكون مشعل نور للقراء وأن تكتب بالصراحة التي يعهدها الناس في كل ميزان عادل ، وأن تحمل الفكرة النيّرة والسانحة اللطيفة والخبر الطريّ والمعالجة القيّمة والمقالة النزيهة

بالرغم من كل ما في ذلك من جهد ومشقة ورغم الصعاب في سبيلها المليء بالأشواك .

وقد رثاه عند وفاته الشعراء والكتاب ، منهم جميل احمد الكاظمي وذو النون الشهاب وعبد الحسين الحويزي وعبد الوهاب البياتي ومكي عزيز وحارث طه الراوي وخالد الدرّة ونجم الدين الواعظ وجعفر الخليلي ومحمود العبطة وغيرهم .

رثاه جميل احمد الكاظمي بقصيدة طويلة تعدّ نحو مائة بيت ، مطلعها :

سل من الروح لا عدمت جوابا كيف بالموت قد نزعت الاهابا

وجواب الأرواح ما قرر العقل صراحاً ولم يجبك كذابا

روى عبد العزيز القصاب في «ذكرياته» انه ، حينما كان متصرفاً للواء كربلاء سنة ١٩٢٢ ، جاءه الملا محمد كاتب البلدية وقال ان ولده خليل عزمي مدير ناحية شثاثة مريض ، وطلب اجازة للمجيء به الى كربلاء . ولم يكن في تلك المدينة المقدسة آنذاك أطباء ، بل كان يمارس المهنة رجال تعلموا الطب القديم وزاولوه بالتجربة ، وكثيراً ما كانت تحدث على يدهم الفواجع .

وعرض خليل عزمي على أحد هؤلاء الدجالين فوصف له ان يأكل عشرين بيضة في صباح كل يوم وأن يركب حصاناً شرساً يسير به نحواً من ساعة . وكان المريض مصاباً بالحمّى لا يستطيع ترك فراشه ، فنقل الى بغداد وعولج من مرض الملاريا ، وعاد بعد عشرة ايام سليماً معافى .

عيسى عبد القادر

الشاعر الكاتب الوطني عيسى عبد القادر احمد الريزلي ولد ببغداد في ضاحية الأعظمية سنة ١٨٩٨ ودرس في معاهدها ، وكان أبوه تركيّ النجار ، اما أمه فعربية بغدادية . ووظف في دائرة الأوقاف في آب ١٩١٩ . واشترك في حركة التحرير الوطنية ، وأنشد قصيدة حماسية في أحد اجتماعات جامع الحيدرخانة في ايار ١٩٢٠ ، فألقي القبض عليه وأبعد الى البصرة . وعلى أثر ذلك نظمت المظاهرات والاحتجاجات على السلطة البريطانية ، ونشبت بعد شهر واحد ثورة العشرين .

وقد أعيد عيسى عبد القادر الى وظيفته بدائرة الأوقاف ، وتدرّج في مناصبها حتى أصبح مديراً للادارة والمؤسسات (حزيران ١٩٤٩) فمفتش الأوقاف العام (تموز ١٩٥٣) . واعتزل الخدمة سنة ١٩٥٨ .

نشر مقالات وقصائد وطنية كثيرة في جريدة «العراق» وسواها من الجرائد العراقية ، وكان يوقع بعض مقالاته برقم (٥٦٢) ، وهو حساب اسمه بالجمّل . واختصّ بتأريخ الحركة الوطنية العربية منذ أوائل القرن العشرين والجمعيات السرية في العهد التركي وثورة الحجاز سنة ١٩١٦ والثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ، وكتب في تلك المواضيع بحوثاً ذات قيمة بقي اكثرها مخطوطاً .

وله من الآثار المطبوعة : تقرير عن أوقاف العراق وموضوع اصلاحها (١٩٣٧) ، بين موظف ورئيس الوزراء (١٩٤٧) .

وقد ادركته الوفاة ببغداد في ١١ نسيان ١٩٧٤ .

قال عبد القادر البرّاك ان حياة عيسى عبد القادر قد اتصفت بالنزاهة والصلابة في الحق والالتزام بالقيم الأخلاقية والدرس المتواصل . وقال انه كتب ما جريات الأمور التي سبقت الثورة العراقية ودوّن أحداث الثورة ، وكان حريصاً على الروح الموضوعية والتجرّد في كتاباته . ولعلّ من أظهر دلائل حرصه على كتابة تأريخ الثورة مجرداً من التأثرات والانفعالات الشخصية احتفاظه بما كتب والامتناع عن نشره في حياته .

من قصيدة ألقاها في حفلة المولد النبوي ببغداد في ايار ١٩٢٠ :

بني النهـــرين ، نسل الطيـــبـــينا
أفـيـقـوا واسـمـعـوا الحقّ اليـقـينا

تفــــرّقنا طوائف واخـــــتلفنا
فـأصـبـحنا جـمـيـعـاً صـاغـرينا

بني النهـرين ، لم يجـد التـواني
لنا نفـعـاً فـهـبّـوا مـسـرعـينا

فـــإمّـــا ان نفـــوز بمـــبـــتـــغـــانا
وإمـــا ان نمـــوت مـــجـــاهدينا

جمال الدين الألوسي

الكاتب المربي جمال الدين الألوسي ولد في تكريت سنة ١٩٠٢ ودرس في دار المعلمين ببغداد . وتولى التدريس منذ ايلول ١٩٢١ في المدارس الثانوية ودار المعلمين الابتدائية اكثر من ثلث قرن حتى اعتزل الخدمة .

وضع كتباً مدرسية في النحو والبلاغة والأدب . وله عدا ذلك : محمد كرد علي (١٩٦٦) ، اسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية (١٩٦٧) ، احمد حسن الزيات (١٩٦٨) ، الجزائر بلد المليون شهيد (١٩٦٩) ، طه حسين بين أنصاره وخصومه (١٩٧٣) ، ساطع الحصري رائد القومية العربية (١٩٨٦) . واشترك في تحقيق كتاب الدرّ المنتثر لعلي علاء الدين الألوسي (١٩٦٧) .

عرف جمال الدين الألوسي ، الذي تخرج عليه آلاف الطلاب خلال خدمته الطويلة في التدريس ، بالتحقيق والتدقيق في مؤلفاته التي وضعها بعد اعتزاله العمل . ويمكن القول ان كتابه عن طه حسن جامع مانع ، فقد فصّل سيرة أديب مصر الكبير وحلل مؤلفاته وأدبه ، وشرح بصورة خاصة المحنة التي تعرّض لها سنة ١٩٢٦ عند صدور كتابه «في الشعر الجاهلي» ، وهي من معارك حرية الفكر اشترك في تأجيجها التعصب والسياسة . سافر الألوسي الى مصر سنة ١٩٥٨ وزار طه حسين وتصور معه ونشر الصورة في كتابه . وقد حياه الشاعر خالد الشواف فقال :

جمال الدين ، حسبك ان يقالا   تخيّرت المواقف والرجالا

نظرت الى الشبيبة حين ضلّت   فسقت لهديها سيراً توالى

وهذا أنت في سفر جديد   يجلّي العبقرية والخصالا

توفي جمال الدين الألوسي في بغداد سنة ١٩٩٤ .

الدكتور محمد بديع شريف

ولد محمد بديع شريف في عانة سنة ١٩٠٥ ، وهو أخو محمد شفيق العاني . وكان ابوهما الحاج شريف بن عبد اللطيف العاني مفتي عانة ، وتوفي سنة ١٩٤٥ .

درس محمد بديع في بغداد وعيّن مدرساً في تشرين الأول ١٩٣١ . وأوفد بعد ذلك لاتمام دراسته العالية في ألمانيا ثم انتقل الى جامعة بازل في سويسرة فنال الدكتوراه باطروحته عن الموالي (١٩٤٢) .

عاد الى بغداد وعين بعد ذلك مديراً للترجمة والنشر بوزارة المعارف (ايلول ١٩٤٦) فسكرتير الوزارة (تشرين الأول ١٩٤٦) . وكان ملحقاً ثقافياً في القاهرة (١٩٥٠) فمديراً عاماً للمعارف في تشرين الثاني ١٩٥٤ وملحقاً ثقافياً في لندن في آب ١٩٥٧ . وكان رئيس ديوان رئاسة الجمهورية في عهد الرئيس عبد السلام محمد عارف وعبد الرحمن محمد عارف (١٩٦٣ - ١٩٦٨) . انتقل بعد ذلك للاقامة في القاهرة وحقق ديوان أشعار المعتزّ (صدر في جزءين سنة ١٩٧٧ - ١٩٧٨) . ولا يزال يقيم في القاهرة (١٩٩٥) .

مؤلفاته : بحث في نقد الأدب العربي (١٩٣٤) ، الفيدرال : بحث في نظام الاتحاد السويسري (١٩٤٩) ، أصول تدريس اللغة العربية للصفوف الثانوية (١٩٤٨) ، في ظلال الحرية (١٩٥٢) ، مناهج التعليم في الأقطار العربية (١٩٥٣) ، الصراع بين الموالي والعرب (١٩٥٤) ، حوار العباقرة (مترجم عن باول ارنست ، ١٩٥٥) ، القومية : عرض وتحليل (مترجم عن بويد شيفر) ، نشيد الصحراء او لامية العرب (١٩٦٤) ، في مهبط الوحي (١٩٦٥) ، دراسات تأريخية في النهضة العربية الحديثة (١٩٥٨) . واشترك في ترجمة «أقاصيص مترجمة» (١٩٥٧) .

الدكتور خالد الهاشمي

خالد محمود هاشم الهاشمي ولد في بغداد سنة ١٩٠٦ . أنهى دارسته الثانوية سنة ١٩٢٤ فمضى الى بيروت ودرس في الجامعة الأميركية وتخرج سنة ١٩٢٨ .

عاد الى بغداد فعين مدرساً في دار المعلمين الابتدائية في ايلول ١٩٢٨ . وعين مديراً لمعارف لواءي العمارة والكوت في نيسان ١٩٣٣ ، وكان بعد ذلك مدير المدرسة الثانوية في البصرة فمدير دار المعلمين الريفية في بغداد (١٩٣٦) . وأوفد للدراسة في جامعة كولمبية في نيويورك فحصل على شهادة استاذ في التربية (١٩٤٠) . وعين مساعد استاذ في دار المعلمين العالية (حزيران ١٩٤٢) . ونال شهادة الدكتوراه فأصبح استاذاً في الدار (تموز ١٩٤٥) ، فعميداً لها (حزيران ١٩٤٦) . وعاد استاذاً فعميداً للدار مرة أخرى (كانون الأول ١٩٥٣) . وعين سنة ١٩٦٦ رئيساً لجامعة بغداد ، فسفيراً في ديوان وزارة الخارجية .

ألف : تأريخ الشرق الأدنى الحديث (١٩٣٨) . ووضع اطروحته الجامعية بالانكليزية «تجديد مناهج اعداد المعلمين في العراق مع نظرة خاصة الى الثقافة العربية الاسلامية» ، وقد نقلها الى العربية الدكتور عبد العزيز البسام وطبعت في بيروت (١٩٤٦) .

توفي خالد الهاشمي في بغداد في ٢١ ايلول ١٩٨٥ .

كمال ابراهيم

الاستاذ الاختصاصي باللغة والصرف كمال ابراهيم ، ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٩١٠ وعيّن مدرساً في ايلول ١٩٢٨ ، ثم اوفد الى مصر فنال الدبلوم من كلية العلوم العليا في القاهرة سنة ١٩٣٢ . عاد الى التدريس ، ونقل مديراً للمطبوعات فمدير الاذاعة الى سنة ١٩٤١ . عين استاذاً في دار المعلمين العالية في ايار ١٩٤٧ فمدير الدعاية العام (نيسان ١٩٥٠) . وفي شباط ١٩٥١ عاد للتدريس في دار المعلمين العالية وكان رئيس قسم اللغة العربية بها . عيّن وكيل عميد كلية التربية سنة ١٩٥٨ وأصبح عميداً أصيلاً بعد أمد وجيز .

ألف : أغلاط الكتّاب (١٩٣٥) ، عمدة الصرف (الطبعة الثانية ١٩٥٧) . واشترك في تأليف «الأساس في تأريخ الأدب العربي» .

وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الأول ١٩٧١ . وتوفي في بغداد في ٢١ حزيران ١٩٧٣ .

الدكتور مجيد خدّوري

المؤرخ المربّي الدكتور مجيد خدّوري ولد بالموصل في ٢٧ ايلول سنة ١٩٠٩ ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت . عيّن مدرساً في تشرين الأول ١٩٣٢ ، وأوفد بعد ذلك لاتمام دراسته في الجامعات الأميركية فنال شهادة الدكتوراه في الفلسفة . وعيّن استاذاً في دار المعلمين العالية في كانون الأول ١٩٣٩ ، فواصل التدريس في ذلك المعهد أعواماً طويلة . وانتدب بعد ذلك للتدريس في جامعات الولايات المتحدة ، فوضع كتباً كثيرة عن العراق والشرق الاسلامي .

انتدبه نادي القلم العراقي لحضور اجتماع نوادي القلم العلمية المعقود في بونس آيرس عاصمة الارجنتين في ايلول ١٩٣٦ . ألف باللغة العربية : نظام الانتداب (١٩٣٣) ، أسباب الاحتلال الريطاني للعراق (١٩٣٣) ، تحرّر العراق من الانتداب (١٩٣٥) ، الصلات الدبلوماطيقية بين هرون الرشيد وشارلمان (١٩٣٩) ، مؤسسات العراق الدستورية والادارية والقضائية (١٩٣٩) ، المسألة السورية (١٩٥٣) ، الشرق الأوسط في مؤلفات الامريكيين (١٩٥٣) ، العراق وعصبة الأمم ، قضية الاسكندرونة (١٩٥٣) ، نظام الحكم في العراق (١٩٤٦) .

ومن مؤلفاته باللغة الانكليزية : قانون الحرب والسلم في الاسلام (١٩٤٠) ، حكومة العراق (١٩٤٤) ، انقلاب ١٩٣٦ (١٩٤٨) ، العراق المستقل ١٩٣٢ - ١٩٥٨ (١٩٦٠) ، دعوى ايران بسيادة البحرين (١٩٥١) ، النظرية القانونية في الدولة الاسلامية (١٩٥١) ، الانقلاب والانقلاب المضادّ في اليمن سنة ١٩٤٨ (١٩٥٢) ، القانون في الشرق الأوسط (١٩٥٥) ، ليبية الحديثة (١٩٦٣) ، قانون الاسلام الدولي (١٩٦٦) ، العراق الجمهوري (١٩٦٩) ، العراق الاشتراكي : دراسة في السياسة العراقية منذ ١٩٦٨ (١٩٧٨) ، حرب الخليج : الأصول والمضامين للصراع العراقي - الايراني (نيويورك ، ١٩٨٨) .

لا يزال مجيد خدوري يواصل التدريس في جامعة جونز هوبكنس في واشنطن بالولايات المتحدة .

جعفر خياط

جعفر مهدي الخياط ، الكاتب المترجم ، وهو أخو أحمد زكي الخياط مدير البريد والبرق العام ومدير الدعاية العام . ولد في بغداد سنة ١٩٠٧ ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت . وأوفد بعد ذلك الى جامعة كالفورنية لدراسة الزراعة فنال شهادة استاذ علوم .

عيّن مدرساً في دار المعلمين الابتدائية ببغداد في تشرين الأول ١٩٣١ وتولّى وكالة مدير الدار . ثم نقل مديراً لمعارف الحلة وكربلاء (ايلول ١٩٣٤) فمدير معارف كركوك . وعيّن مديراً لدار المعلمين الريفية في ايلول ١٩٣٧ ، فمدير التعليم الثانوي بوزارة المعارف (حزيران ١٩٤٠) فمفتشاً اختصاصياً . وانتدب معاوناً لمدير جمعية التمور في البصرة (شباط ١٩٤٣) ، فمعاون مدير التموين العام (آب ١٩٤٤) . وأعيد تعيينه مفتشاً بوزارة المعارف في تموز ١٩٥٤ ، وترك الخدمة بعد سنوات لينصرف الى الترجمة والتأليف . ثم أعيد في العهد الجمهوري مديراً عاماً للتعليم المهني .

ألف كتاباً في «القرية العراقية : دراسة في أحوالها واصلاحها» (١٩٥٠) مبادئ الزراعة العامة ، واشترك في كتابة «مقالات في التعليم والتربية» (١٩٦٤) . وترجم «طباع الحيوان في نظر العلم الحديث» ، نباتات شافية (١٩٦٢) ، التعليم الصناعي في العراق (١٩٥٤) ، التعليم المهني في العراق (١٩٥٤) .

اشتهر جعفر خياط بترجمته لكتب انكليزية مهمّة في تأريخ العراق الحديث ، منها : أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ، تأليف ستيفن لونكريك (١٩٤١) ، فصول من تأريخ العراق القريب ، للمس جرترود بلّ (١٩٤٩) ، العراق : دراسة في تطوّره السياسي ، لفيليب آيرلند (١٩٤٩) ، أيام فلبي في العراق ، لهاري سنت جون فلبي (١٩٥٠) ، حوادث العراق في سنة ١٩٤١ كما ترويها وزارة الحرب البريطانية والمستر ونستن شرشل في مذكراته (١٩٥٤ ، رحلة فريزر الى بغداد سنة ١٨٣٤ (١٩٦٤) ، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية ، لجورج لنشوفسكي (جزآن ١٩٦٤ - ١٩٦٥) ، الثورة العراقية ، لأرنولد ولسن (١٩٧١) الخ .

توفي جعفر خياط في بغداد سنة ١٩٧٣ .

عبّود الشالجي

الأديب المحقق عبود بن مهدي الشالجي ينتمي الى أسرة تجارية معروفة . ولد ببغداد في ٢ آذار ١٩١١ وتخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٣٠ . عيّن حاكماً للصلح في ابو صخير والشامية سنة ١٩٣٦ ، وبعد ذلك في النجف والموصل ، ثم انصرف الى المحاماة . غادر العراق بعد ذلك وأقام في لبنان ١٨ سنة (١٩٦٩ - ١٩٨٧) ثم جاء الى لندن . وعاد الى بغداد بعد سنوات ، وقفل آئباً الى لندن للاستشفاء سنة ١٩٩٢ ، وتوفي بها في ١٤ نيسان ١٩٩٦ ونقل جثمانه الى النجف حيث دفن .

ترجم عبود الشالجي كتاب «أحوال بغداد في القرن التاسع عشر» (١٩٦٠) . وألف : الكنايات العامية البغدادية (١٩٧٩) ، موسوعة العذاب (٧ أجزاء) ، جمهرة الأمثال العامية البغدادية (٤ أجزاء) ، موسوعة الكنايات العامية البغدادية (٣ اجزاء) . وحقق من كتب التراث : الفرج بعد الشدّة للقاضي المحسّن التنوخي (٥ أجزاء ، ١٩٧٨) ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي ايضاً (٨ اجزاء) ، الرسالة البغدادية لأبي حيّان التوحيدي (١٩٨٠) .

أحبّ عبود الشالجي مسقط رأسه بغداد وإن اضطرّ على مزايلتها أعواماً طويلة . أحبها فأحيى كناياتها وأمثالها ، وحفظ لنا الحكم والامثال الشعبية التي عفّت عليها الثقافة الحديثة ونسيها الناس بعد ان بقيت في ذاكرتهم أجيالاً .

ولئن نشر كتابي المحسّن التنوخي لروعة حكاياتها فقد أخذ الشالجي بسحر بيان التوحيدي وجمال وشيه ووصفه ، لكن لم يفته ان التوحيدي هذا كان كذاباً أشراً خسيس النفس فاسد الطبع شحاذاً ملحاحاً لا يسلم من لسانه رجل او بلد . وقد نفذ الشالجي في مقدمته للرسالة البغدادية الى قرارة نفس المؤلف فتناولها بالنقد والتجريح . واننا لنعجب لأبي حيّان كيف استطاع ان يجمع في مصنّفه كل تعابير البذاءة والرقاعة والشناعة ليخلق منها عالماً عجيباً في أسفل السافلين .

الدكتور مهدي المخزومي

العالم النحوي الدكتور مهدي صالح المخزومي ولد في النجف سنة ١٩١٧ . تخرج في كلية الآداب بجامعة القاهرة وعاد الى بغداد فعين مدرساً للنحو وفقه اللغة في كلية الآداب والعلوم (تشرين الثاني ١٩٤٣) ، ثم أصبح استاذاً للنحو والصرف وعميد كلية الآداب بجامعة بغداد (١٩٥٨) ، ورئس تحرير مجلة «الأديب العراقي» التي أصدرها اتحاد الأدباء العراقيين سنة ١٩٦١ . وذهب بعد ذلك الى المملكة العربية السعودية فدرّس في جامعة الرياض وأصبح رئيساً لقسم اللغة العربية في كلية الآداب بالجامعة .

عاد بعد ذلك الى بغداد وكان رئيس قسم اللغة العربية بجامعتها ، وتوفي في بغداد في ايار ١٩٩٣ . من مؤلفاته : مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو (١٩٥٥) ، الخليل بن أحمد الفراهيدي : أعماله ومنهجه (١٩٦٠) ، في النحو العربي : نقد وتوجيه (١٩٦٤) ، في النحو العربي : قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث (١٩٦٦) ، عبقري من البصرة (١٩٧٣) ، الأصوات اللغوية عند العرب .

حصل على درجة الدكتوراه من القاهرة بأطروحته عن «مدرسة الكوفة ومنهجها» . قيّم دراسته الدكتور مصطفى السقّا الاستاذ في كلية الآداب القاهرية فقال : «تمتاز كتب الدكتور مهدي المخزومي عامة ، نظرية او تطبيقية ، بعمق البحث ووضوح المنهج وسهولة الترتيب والاعتماد على آراء أئمّة النحو واستخلاص أهم العناصر والآراء التي تصلح لاقامة صرح النحو الحديث على أصول علمية واضحة ، خالية من التأثر بالفلسفة والمنطق...» . وقال ان كتابه في النحو العربي : قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث خطة ومنهج حديث لتطوير النحو وتوجيهه وجهة أخرى غير وجهته التقليدية ، استصفى فيه خير ما أبدعته قرائح النحاة واللغويين من علماء البصرة والكوفة والأندلس .

وقال الدكتور المخزومي انه حاول تبرئة النحو مما علق به طوال عشرة قرون من شوائب ليست من طبيعته ولا من منهجه . وقد ألغى فكرة العامل وأبطل جميع التعليلات التي لا تستند الى استعمال ، وحذف الفصول التي ابتدعها النحاة شغفاً بالجدل العقلي ، ونهج ، كما قال ، في معالجة المسائل النحوية نهجاً أقرب الى طبيعة النحو ، متخذاً من آراء الدارسين الأولين أساساً لدراسة النحو قبل ان يتخذ منه النحاة المناطقة

أداة جدل وتحليل منطقي وفلسفة كلامية . وانتقد المخزومي أساليب تدريس النحو العربي التي التزمت بالمادة القديمة دون مراعاة الفارق الحضاري وتطوّر اللغة ، ممّا يؤدي الى نفور الطالب من الروحية القديمة التي جعلت من كتب النحو مادة عسيرة معقدة .

الدكتور صفاء خلوصي

الاستاذ الجامعي الأديب القصاص الدكتور صفاء خلوصي ولد ببغداد في ١٧ آب ١٩١٧ ، وكان أبوه عبد العزيز خلوصي من رجال القضاء خدمه أعواماً طويلة وكان حاكم صلح سامراء وحاكم السليمانية المنفرد . اما عمّ صفاء فهو الأديب المعروف عبد المجيد لطفي .

درس صفاء في مسقط رأسه . وأوفد سنة ١٩٣٥ للدراسة في جامعة لندن فنال شهادة البكالوريوس ، وعاد الى بغداد فعين مدرساً في تشرين الثاني ١٩٤١ . وأعيد ايفاده الى جامعة لندن سنة ١٩٤٥ ، فحاز على شهادة الدكتوراه في الآداب (١٩٤٧) ، وتولى في الوقت نفسه التدريس في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية . وعيّن على اثر عودته الى بغداد استاذاً في دار المعلمين العالية في كانون الأول ١٩٥٢ ، وقد اصبحت الدار بعد تأسيس جامعة بغداد تعرف بكلية التربية . ورحل سنة ١٩٥٣ الى الولايات المتحدة للتدريس والبحث في جامعة ييل وجامعة شيكاغو .

اصبح صفاء خلوصي استاذاً متفرغاً في جامعة بغداد (١٩٧٢) . ثم مضى الى انكلترة واتخذ مقامه في مدينة اكسفورد .

وضع مجموعات قصصية : نفوس مريضة (١٩٤١) ، بنت السراج ، او رحلة الى اسبانية (١٩٥٢) ، ابو نؤاس في امريكا (١٩٥٦) ، احببت اميرة عباسية (بالانكليزية) .

ومن مؤلفاته الكثيرة الأخرى : معروف الرصافي (١٩٥٣) ، الترجمة التحليلية (١٩٥٧) ، دراسات في الأدب المقارن والمذاهب الأدبية (١٩٥٨) ، شواعر العراق المعاصرات ، فن الترجمة في ضوء الدراسات المقارنة (١٩٥٦) ، النافذة المفتوحة : صور من الشرق والغرب (١٩٥٨) ، فن التقطيع الشعري والقافية جزآن (١٩٦٣) الخ . وقد حقق ونشر : تاريخ بغداد او حديقة الزوراء في سيرة الخلفاء لعبد الرحمن السويدي (١٩٦٢) . ومن مترجماته الى العربية : البحث عن السعادة من تأليف ر م مايك آيفر (١٩٦٠) ، تاريخ الأدب العباسي من تأليف رينولد أ نيكولسن (١٩٦٧) ، الساعة العجيبة قصة من تأليف هاورد بايل - القسم الثاني (١٩٦٣) ، صورة امرأة لهنري جيمس .

نشر بحوثاً في المجلة الاسلامية (اسلاميك ريفيو) ومجلة الجمعية الآسيوية الملكية في لندن . ومن مؤلفاته بالانكليزية : الاسلام والخيار (١٩٦١) ، الأدب العربي المعاصر ، تحليل وتقييم لنهج البلاغة ، رحلة الى الشرق الأوسط ، القصة العربية الحديثة ، معروف الرصافي (١٩٥٠) ، نادر شاه في مخطوطات القرن الثامن عشر العربية .

عمل صفاء كثيراً في تعريف الأدب العراقي الحديث الى الانكليز . وكان من رواد القصة العراقية ، وتوسع في اختيار ابطال قصصه من المجتمع الأوربي ، وعني بالتحليل النفسي . قال ان القصة لم تعد في العصر الحاضر مجرد اثبات وقائع وسرد مفاجآت ، بل هي أداة لمعالجة الأمراض والمشاكل الاجتماعية . وقد اصبح الارتباط بين فن القصة والسايكولوجية وثيقاً محكماً . فالقصة العظيمة هي التي يحلل الكاتب فيها نفسيات ابطالها تحليلاً سايكولوجياً (نفسانياً) دقيقاً .

قال خليل ابراهيم عبد اللطيف في كتابه «أدباء العراق المعاصرون» ان «نفوس مريضة» تضم صوراً لأناس عاشوا ولا زالوا يعيشون على نمط غريب شاذ بعقولهم ونفسياتهم ورغباتهم لأنهم مرضى ، مرضى بنفوسهم ، ومرضى بأفكارهم ومبادئهم . واختار خليل ابراهيم عبد اللطيف انموذجاً قصة «تلك كانت خطيئتي» من مجموعة «نفوس مريضة» ، وهي قصة غريبة في بابها .

هي قصة فتاة تتألم وتبكي . يسألها صاحبها عن سبب بكائها فتجيب : لأنك لم تعد تحبني . ذكرت سعيها للحصول على رضاه وما ضحت به في سبيله ، فلم تجد فيه سوى رجل يسطو على قلوب العذارى ويسرقها ويحنث بوعوده في الزواج . لكن الفتى يقول لها انه اصبح بين نارين : التضحية بها او التضحية بوطنه ، فحار فيما يختاره لأنه ملزم بحكم قانون بلاده بعدم الزواج بأجنبية .

فكرت الفتاة بنفسها بعد هجرة حبيبها فارتأت ان وقت النزق والطيش قد فات ، وقررت ان توقف بقية حياتها لخدمة البشر . وعادت الى دارها فوجدت رسالة من صديقها الذي عاد الى بلده يسألها ان تصفح عنه ، ويعرب عن حبه الشديد لها ، ذلك الحب الذي لم يستطع الوفاء به . ولذلك قرر ان يختتم سفر حياته بطلقة مسدس واحدة .

فماذا فعلت الفتاة؟ لقد ابتسمت مرة أخرى للحياة وتأبطت كتبها وعادت الى الجامعة لمواصلة الدرس .

وفي قصة أخرى لصفاء خلوصي «مسودة رسالة» يروي حكاية حب لصاحب له شغف باسبانية حسناء «احبها بعقله وروحه وقلبه معاً» . فتاة لم يرها انسان إلا اعجب

بصوتها الموسيقي العذب ، تعلوها امارات البراءة ، براءة الطفولة . وكان من الصعب جداً ان يصدق الانسان ان مثل هذه المرأة تستطيع ان ترتكب اصغر الآثام وأقلها شأناً . لكن كانت مجرمة حقاً ، فما من إثم إلا ارتكبته ، وما من خطيئة إلا اجترمتها . فقد كانت لها شخصية مزدوجة : شخصية بريئة تحب الخير ، وأخرى شريرة مدمرة . وأنت لا تعلم متى تظهر الواحدة وتختفي الأخرى . وبعد ان يروي الكاتب قصة الحب الطويلة المثيرة يجد المحب لصاحبته احبة كثيرين فينبذها ويقول : ان الانسان ليستطيع ان يشارك غيره في كل شيء إلا المرأة !

اختير خلوصي سنة ١٩٧٨ رئيساً للمجلس الاسلامي الأعلى للتربية والتعليم في المملكة المتحدة وارلندة . ودعي لالقاء محاضرات في الرباط والدار البيضاء وطنجة ، وألف كتباً باللغة الانكليزية عن النبي محمد والخلفاء الراشدين . وهو لا يدخن ولا يشرب الخمرة ، وقد قال : سكرة الشعر اروع من سكرة الخمر . وقال مؤتسياً بالفيلسوف الفرنسي فولتير : التفكير محنتي . واتخذ شعاراً له قول فولتير : انا لا أوافق على رأيك ، لكنني ابذل آخر قطرة من دمي للدفاع عن حرية رأيك . وهو ينتمي الى عشيرة البيات وهي عشيرة ذات جذور عربية وكردية وتركمانية ، وينسب الى ذلك تسامحه وتآلفه مع مختلف الأقوام والفئات .

لقد اهتم بالشعر ودرس العروض وألف في ذلك كتابه عن فن التقطيع الشعري والقافية . ووجد الفرصة بين مشاغلة الكثيرة المتشعبة لنظم الشعر ، فقال يخاطب صلاح الدين الأيوبي :

يا قـاهر الغـرب جـبّـار السـلاطين ... تـوّجـتَ تـأريـخـنـا فـي يـوم حـطّـيـن
مــزّقت خـارطة كـــانت مـــزيّفـــة ... حـقـقت نصـرك في شـتى المـيـادين
خــضــدت شــوكــة أوربا وقــادتهـــا ... مــرّغت تيـجـانهـا في حـمـأة الطين
خلعت عـــاتق أرناط لقـــالتـــه : ... هاتوا مـــحـــمـــدكم إن شـــاء يفنيني
وجـــاء جيُّ مليك القـــدس منخـــذلاً ... من ذا رأى ملكاً في زيّ مـــسكين؟

وقال في شهيد برقة عمر المختار :

أكـــالإعـــصــار ام شُـــعَل اللهـــيب ... يـمـــرّ مـــعـــانق الفـــرس النجـــيب؟
عن المـــخــتـــار يســـأل كلّ ركب ... صـبـيـــحـــة يومـــه او في الغـــروب
بعـــزم الفـــاتح الجـــبّـــار جـــئنا ... نحـــيّي ذكـــر ذيّاك الحـــبـــيب
شـــهـــيـــد شقّ للعليـــا دروباً ... ولقّن بأســـه خـــصم الشـــعـــوب
مـــضى صـــوب المطامح باتِّئَـــاد ... ومـــا هدف المطامح بالقـــريب

وجـاهد مـا اسـتطاع فـمـا توانى ... وناضل في الجبـال وفي السـهـوب
وكـرّ مـصـاولاً شـرقـاً وغـربـاً ... ومـا عـزم الأشـاوس بالكذوب

وقال :

ولا خـيـر في حلم إذا لم يكن به ... بـوادر تحـمي صـفـوه ان يكدّرا
ولا خـيـر في جـهـل إذا لم يكن له ... حليم إذا مـا أورد الأمـر أصـدرا

* * *

أقول : ربطتني بالدكتور صفاء خلوصي روابط ودّ وأدب تزيد على نصف قرن . وقد أخذ مآخذ على كتابي «اعلام الأدب في العراق الحديث» وقدّر شعري تقديراً طيباً في مقالات له في جريدة «العرب» اللندنية في كانون الثاني وشباط ١٩٩٥ . وقد انتقدت رأيه في عروبة وليم شكسبير التي دعا اليها وقال انه «الشيخ زبير» ، ولم اقتنع بالأدلة التي سردها من مسرحيات كبير أدباء المسرح الانكليزي ومقطّعاته الشعرية .

اتصلت المراسلة بيننا في الأمد الأخير بين اكسفورد ولندن . وقد قلت فيه :

لـي صـديق ألـمـعـيّ ... كـاسـمـه صـافي الصـفـاء
لـه في العـلـم سُـمـوق ... وسـمـوّ في الـوفـاء
وهو بـالفـضل سَـبُـوق ... لجـمـوع الشـرفـاء
مـجـدّ الاسـلام ديناً ... واقـتـدى بالأتـقـيـاء
في اكـسـفـرد مـقـيم ... مـوقـر للأدبـاء
نشـر الآداب فـيـضـاً ... فـي جـلاء ورواء
نـظم الشـعـر بديعـاً ... رافـعـاً فـيـه اللـواء
فـي مـعـان بـاهرات ... كـالدراري فـي البـهـاء
وبحـور الشـعـر وفّى ... حـقـهـا في الازدهاء
فـبـه أنعم وأكـرم ... جـلّ بـيـن القـرنـاء
ولـه مـنـي سـلام ... زانـه صـدق الـولاء
دام فـي صـفـو وعـزّ ... وأمـان وهـنـاء

أرسلت اليه بهذه الأدبيات فأجابني في ٢٧ نيسان ١٩٩٥ قائلاً : « وشكراً للرسالة الكريمة والقصيدة العصماء التى ارجو ان أوفّق لمعارضتها يوماً بعد ان أتحرر من الشواغل المتراكمة التي لا أكاد أجد مخرجاً منها» .

كانت تلك آخر رسائله اليّ من اكسفورد ، فقد أصابه مرض شديد فنقل الى المستشفى في لندن للعلاج ، وأدركته الوفاة في العاصمة البريطانية في ٨ ايلول ١٩٩٥ . خسرناه استاذاً عالماً وأديباً ألمعياً متشعب النشاطات والهوايات ، وخسره أصدقاؤه الكثيرون أخاً كريماً وفياً .

نجدة فتحي صفوة

الدبلوماسي البحاثة المحقق نجدة فتحي صفوة ينتمي الى الأسرة الكركوكية المعروفة آل قيردار ، وقد ولد في بغداد ١٩٢٣ . كان أبوه فتحي صفوة من خريجي دار المعلمين التركية في استانبول التي كان مديرها ساطع الحصري وتولى التدريس في العاصمة التركية في العهد العثماني ، فلما جاء الى بغداد أقنعه الحصري مدير المعارف العام بالعودة الى سلك التعليم ، فبدأ سيرة تدريسية مجيدة في دار المعلمين والمدارس الثانوية دامت نحواً من أربعين سنة وتخرج عليه آلاف الطلاب .

درس الفتى نجدة في المدارس ثم انتمى الى كلية الحقوق وتخرج فيها سنة ١٩٤٥ . وقد أفاد كثيراً من دروس الشيخ علي الطنطاوي في اللغة العربية في اثناء دراسته الثانوية . تولى نجدة التدريس ، ومال الى الأدب وهو شاب يافع ، فاتصل برفائيل بطي ولازم مجلس الأب انستاس ماري الكرملي . وأصدر سنة ١٩٤٣ كتاباً في «مذاهب الأدب الغربي» وشفعه بعد سنتين بكتاب «ايليا ابو ماضي والحركة الأدبية في المهجر» .

أدّى امتحان السلك الخارجي فالتحق به في آب ١٩٤٥ ، وعيّن ملحقاً في سفارة لندن (١٩٤٦) . وانتهز فرصة وجوده في العاصمة البريطانية فداوم في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن . وفي سنة ١٩٤٩ نقل الى عمّان فالقاهرة (١٩٥٠ - ١٩٥٤) . وانتدب مرتين خلال هذه المدة في سنة ١٩٥٢ و١٩٥٣ قائماً بأعمال السفارة العراقية في عمّان . ثم خدم في جدة (١٩٥٥) وباريس (١٩٥٥) وأنقرة (١٩٥٦ - ١٩٥٨) . وعاد الى ديوان وزارة الخارجية معاوناً لوكيل الوزارة ووكيل الوزارة بالنيابة ، ثم انتدب وزيراً مفوضاً في سفارة واشنطن (١٩٦٠) فموسكو (١٩٦٣ - ١٩٦٦) . وتولى حيناً منصب القائم بأعمال السفارتين بالوكالة .

عاد الى بغداد سنة ١٩٦٦ مديراً عاماً للدائرة السياسية في وزارة الخارجية حتى اعتزل الخدمة في السنة التالية ، ومارس المحاماة حيناً .

يحسن نجدة فتحي صفوة اللغتين التركية والانكليزية ويلمّ بالفرنسية والروسية ، وقد تعلم هذه اللغة الأخيرة في اثناء عمله في موسكو . وأفاد من عمله في الأقطار الأوربية والعربية المختلفة للبحث والتتبع . فلما ترك الخدمة تفرغ للتحقيق والكتابة . انصرف الى

استخراج الوثائق البريطانية المتعلقة بالعراق والشرق العربي منذ بدء القرن العشرين وتدقيقها وترجمتها ونشرها ، فهيأ بذلك للمؤرخين مصادر بحث تكشف عن الأسرار السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة . ولا يخفى ما في ذلك من جهود تعصى على غير الخبير المتمرس الذي عايش السياسة الدولية نحواً من نصف قرن .

من مؤلفاته : العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب (١٩٦٩) ، التفرغ ومشكلات الأدب (١٩٦٩) ، حكايات دبلوماسية (١٩٧٠) ، بيروبيجان : التجربة السوفييتية لانشاء وطن قومي يهودي (١٩٧٣) ، الماسونية في الوطن العربي (١٩٨٠) ، العراق في الوثائق البريطانية سنة ١٩٣٦ (١٩٨٣) ، خواطر وأحاديث في التأريخ (١٩٨٣) ، من نافذة السفارة : العرب في ضوء الوثائق البريطانية (١٩٩٢) ، العرب في الاتحاد السوفييتي (١٩٨٤) ، معروف الرصافي (١٩٨٨) ، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز - ١٩١٦) الخ .

عمل منذ عدة سنوات في وضع موسوعة عن الجزيرة العربية (الحجاز ونجد) في الوثائق البريطانية في ١٢ جزءاً ضخماً خلال السنوات ١٩١٤ - ١٩٣٢ . وقد صدر من هذه الموسوعة حتى الآن خمسة أجزاء . ودأب خلال عدة سنوات على نشر حقله اليومي « هذا اليوم في التأريخ» في جريدة «الشرق الأوسط» اللندنية .

كان نجدة فتحي صفوة من ألمع موظفي السلك الخارجي بلغ فيه القمة او ما يقارب القمة . انتهز فرصة وجوده في لندن وواشنطن وموسكو وغيرها من العواصم فاستفاد وأفاد . فلما اعتزل الخدمة هيّئ له ان يبدأ سيرة جديدة وافرة العطاء من البحث والتحقيق والتدقيق ، فأخرج أسفاراً قيمة في التأريخ الحديث للعراق والبلاد العربية . وقد قدّر اتحاد المؤرخين العرب جهوده فمنحه وسام المؤرخ العربي الذهبي في سنة ١٩٩٥ ، وذلك تثميناً «للابداعات الفكرية والتأريخية والثقافية التي حققها في الحقول العلمية والوثائقية والتراثية ، ورفده المكتبة العربية انتاجاته الأصيلة والمبتكرة...» .

* * *

ربطتني بنجدة صداقة وثيقة منذ أكثر من خمسين سنة نشأت في بغداد وجدّدت في لندن . وقد حييّته بهذه الأبيات تأكيداً للمودة الصافية :

التــقــينا بعــد أعــوام طويلة	بأخ لم أرَ من قــبلُ مــثــيلَه
ألمــعيّ جــاب أنحــاء الدُّنى ،	دبلومــاسيٌّ غــدا الفــضلُ دليلَه
كــان وجــهــاً لعــراقٍ ناهض	مُـشـبـهٍ في رفـعـة العـزّ تخـيلَه
نال فــوزاً في مــيــادين العُلى ،	ســابقــاً في حَلْبـة النُّجح الأصـيلة

بعـد عـمـر حـافل في نهـجـه
تَخـذَ الأقـلام في البـحث وسـيلة

ســهــر الليل ولم يشكُ الضنى
طاعـناً في فكَر الوهم الـهــزيلة

حــرّر التــاريخ من أوهامــه
ســالكاً في منهَج العلم ســبيله

ولـكـم فـنّـد رأيـاً زائـفــاً
وشــفى من خــاطل الرأي غليله

كم كـتــاب نمّـقت أنمُلُهُ
ومــقــالات عطاياها جليلة

قـد ذكـرت الودّ من خـدْن الوفـا
والتــفــاتات منً اللطف جــزيلة

فـاليـه اليـوم حـمَـدٌ وافـرٌ
وتحـيّـاتٌ من القلب جـمـيلة

عبد الرحمن التكريتي

الزعيم (العميد) عبد الرحمن عبد الجبار التكريتي صاحب «الأمثال» ولد في الموصل سنة ١٩١٤ . أتم دراسته وانتمى الى الكلية العسكرية في بغداد وتخرّج ملازماً . وتدرج في مراتب الجيش حتى أصبح آمراً لحامية البصرة برتبة زعيم (عميد) . وعيّن على أثر انقلاب رمضان (شباط ١٩٦٣) رئيساً للمحكمة العسكرية الخاصة التي حاكمت رجال العهد القاسمي السابق ، وأحيل على التقاعد في السنة التالية .

مال الى جمع الأمثال وتحقيقها منذ شبابه . فلما اعتزل العمل تفرّغ لهذه المهمة وأصدر كتابه الجامع «الامثال البغدادية المقارنة» في أربعة أجزاء (١٩٦٦ - ١٩٦٩) ، وقد بلغت الأمثال الواردة فيه ٢٧٤٩ مثلاً . ثم شفعها بـ «جمهرة الأمثال البغدادية» (١٩٧١) ، وقد دوّن فيه ما فاته في الأجزاء السابقة . كتبت لكتابه ، حسب طلبه ، مقدمة باللغتين الانكليزية والفرنسية ، وقد ترجمت ايضاً الى الالمانية . وقيّمت الجزء الأول من كتابه بمقال نشرته جريدة «البلد» لصاحبها عبد القادر البرّاك في عددها الصادر في ٥/١٢/١٩٦٦ ، فقلت :

« . . . ومن علماء العراق وفضلائه الذين اهتموا بالأمثال المحلية وعنوا بجمعها وتدوينها محمود شكري الألوسي ومحمد سعيد آل مصطفى الخليل وعبد اللطيف ثنيّان وانستاس ماري الكرملي ومعروف الرصافي وجلال الحنفي وغيرهم من الذين عملوا على احياء التراث والحفاظ عليه . وكان ممن تصدى لهذه المهمة الجليلة صديقنا الكريم العميد المتقاعد عبد الرحمن التكريتي الذي خسره الجيش ليكسبه البحث والتحقيق والأدب . فلقد دأب سنين طويلة على جمع الأمثال البغدادية وتمحيصها وتدوين قصصها وحكاياتها . ثم اقتنى مكتبة ضخمة تحتوي على نوادر أمثال الأقطار العربية وتفرغ لمقارنتها ومطابقتها . . .

«مهّد الاستاذ التكريتي لأمثاله بمقدمة وافية تناولت تعريف الأمثال ومصادرها قديماً وحديثاً ونشوئها وتدوينها وأنواعها . ثم استقصى ما كتب عن الأمثال البغدادية وما صدر من كتب الأمثال العامية في سائر بلاد الضاد . اما الطريقة التي انتهجها المؤلف في كتابه فتتلخص في ايراد المثل البغدادي بحسب حروف الهجاء وذكر أصله ووجه استعماله

ومعناه ومقارنته بما يماثله في الأقطار العربية الأخرى ، مع الاشارة الى المصادر في الحاشية . وقد تضمن الجزء الأول ٥٨٢ مثلاً معارضة بأشباهها في مصر والسودان وسورية ولبنان وفلسطين والمملكة العربية السعودية والكويت وليبية وتونس والجزائر والمغرب الخ . ولم يخل الكتاب من ارجاع الأمثال العامية الى أصولها الفصحى حيثما وجدت ، والاشارة الى تلك التي تستمد جذورها من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الفصيح .

«لقد كتب أناتول فرانس أديب فرنسة الخالد :

«ان مطالعة الأمثال وانعام النظر في مبانيها ومعانيها ليثير في النفس ايضاً مشاعر وأحاسيس شتى ويوحي بأفكار وآراء وصور متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً . ان قراءة الأمثال في الحقيقة جولة رائعة في أحقاب الزمن وعقول الشعوب . وحسبنا ان نطلق العنان لخيالنا لنرى في المثل حكمة سانحة او فكاهة خافية او تهكماً لاذعاً او حكاية مركزة في كلمات قليلة !» .

هذا ولم يقصر عبد الرحمن التكريتي همه على جمع الأمثال ودراستها ، بل عمد ايضاً الى تقصّي أخبار الظرفاء البغداديين وتسجيل لطائفهم ونوادرهم ، وفي مقدمتهم عبد المجيد الشاوي والملا عبد الله الخياط وعبد الغفار الأخرس الشاعر وأضرابهم ، كما درس نوادر جحا الرومي المعروف باسم الملا نصر الدين وضريبه جحا العربي .

وكتب جعفر الخليلي يقول : «ماذا نقول لو ان مدنياً تصدى لتأليف كتاب عسكري في التعبئة مثلاً وقد بلغ في تأليفه المرحلة التي تجعل من كتابه هذا مصدراً عسكرياً ممتازاً ، أفلا نكبره ونعجب به؟ ... هكذا والله شعرت وأنا أقرأ كتاب «الأمثال البغدادية المقارنة» للعميد المتقاعد عبد الرحمن التكريتي ، فقد اكبرته وأعجبت به» .

وقال سليم طه التكريتي ان العميد المتقاعد نحا منحى جديداً في هذا البحث الشاق ، فلم يكتف بتدوين الأمثال البغدادية وشرح معانيها وايضاح مقاصدها ، وانما قام - وهذا مما لم يسبقه اليه باحث - بايجاد مقارنة بين كل مثل من الأمثال العراقية بما ينظر اليه في بلدان عربية أخرى . وأضاف قائلاً : «ولقد كان من عمق هذا البحث واستقصائه انه راح يطارد هذه الأمثال في اكثرية البلاد العربية ويسجل طرائف التلفظ بها وما يقصد من ورائها» .

توفي عبد الرحمن التكريتي في بغداد في ٣٠ ايار ١٩٨٧ .

الدكتور ابراهيم السامرائي

البحاثة المحقق والعالم اللغوي ابراهيم احمد السامرائي ولد في العمارة سنة ١٩٢٠ وأتمّ دراسته الثانوية في بغداد . ثم انتمى الى دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٥ وعيّن بعد تخرجه مدرساً على الملاك الثانوي . وأوفد الى باريس فالتحق بجامعة السوربون ونال شهادة الدكتوراه في اللغات السامية وفقه اللغة العربية ، وكان موضوع اطروحته التي كتبها بالفرنسية «الجمع واسم الجماعة في القرآن» .

عاد الى بغداد فكان مدرساً في كلية التربية فأستاذاً فيها . وغادر العراق في أول سنة ١٩٧٨ فمضى الى الأردن ، ثم انتقل الى صنعاء وعاد منها الى عمان حيث يقيم الآن . وقد انتخب عضواً بمجمع اللغة العربية الأردني .

قال خليل ابراهيم عبداللطيف في كتابه «أدباء العراق المعاصرون» المطبوع في بغداد سنة ١٩٧٢ ان الدكتور ابراهيم السامرائي قد اهتم باللغة العربية أشد الاهتمام ، وخاصة بفقه اللغة . وحفلت كتبه بآرائه وملاحظاته حول المناحي اللغوية والأدبية وشدد على وجوب استعمال الفصحى في كلامنا اليومي دون العامية .

وقال الدكتور داود سلوم ان السامرائي مدرس لغة ، وصناعته المفردات يقلبها ويرجعها الى أصولها العربية القديمة او اللغات السامية البائدة . وهو كاتب يتبع الأساليب الحديثة ليضعها في مكانها وينسبها الى أصولها الأجنبية في اللغات الأوروبية الحديثة .

والسامرائي الى ذلك شاعر مجيد طويل النفس . وفي شعره أصالة وأثر واضح من تزمّت عالم اللغة . ومن شعره قصيدته «الى بغداد» نظمها في باريس سنة ١٩٥٢ ، قال :

تحنّ ويصـبـيك تذكـارها	ربوع تهـزّكَ أخـبـارها
تمـرّ بقلبك لفح الهـجـيـر	حـراراً يؤجّج مـسـعـارها
كـأن لم تكن وسـيم الرياض	رحـاباً تضـوّع مـعطارها
تردّد بالسـعـد أصـداؤها	وتعـمـر بالطـيـر أوكـارها
تمـرّ بهـا النسـمـات العـذاب	ويحـفظ باليـمـن خطّارها
وإذ هي تبـعـث لون الحـيـاة	تـقـايض بالأمـن آثـارها

ولاحت تردي مسوح النعيم رطاباً وصفّق تيّارها
إذا هي تخلع ما تزدهي بهنّ وقد أوحشت دارها
وألوت فلا نغم مفرح وقد هجر الحيّ سمّارها

ومن شعره الأخير قصيدته «مع الرحيل والأخريات» مطلعها :

الى أين أسري ، وهل من حِمَى وأنّى أصيب بهيّ الضّحى؟
ومن أين أبدأ وحش السبيل أراني وقد نال منّي العنا؟
أأدرك درب السلام الرحيب ، وكيف وقد حال دوني العَشَا
تمرّست بالأبعدين الكرام فألفيت فيهم رحيب الحمى
رعوا لك حقاً ، فهل كان من أشقّائك الصيد بعض الوفا؟
وُهبْتَ الحجى ، هل أصاب الحجى وهلا انتهيتَ لدرك النهى؟
وأين النهى ، هل أتى أتْيهُ؟ لقد طالما كان مُرَّ الجنى

مؤلفاته :

نظرة في التنوين (١٩٥٩) ، تعابير أوروبية في العربية الحديثة (١٩٥٩) ، الجمع في العربية (١٩٦٠) ، في تأريخ المشكلة اللغوية (جزآن ١٩٦٠ - ١٩٦٤) ، الأب انستاس ماري الكرملي وآراؤه اللغوية (١٩٦٠) ، الاعلام : بحث تأريخي في اللغة واللهجات (١٩٦١) ، الاعلام في الشمال الأفريقي (١٩٦٣) ، الاعلام العربية : دراسة لغوية اجتماعية (١٩٦٤) ، بداية الفكر الجغرافي عند العرب (١٩٦٤) ، دراسات في اللغة (١٩٦١) ، مبدأ التطور في اللغة (١٩٦٤) ، من الأدب التونسي الحديث (١٩٦٤) ، أصول اللغة العامية البغدادية (١٩٦٥) ، التصغير في أصوله ودلالته (١٩٦٥) ، الجديد في اللغة والمعجم الحديث (١٩٦٥) ، رحلة الخياري (١٩٦٥) ، لغة الشعر بين جيلين (١٩٦٥) ، ابو سعيد السيراني وكتاب سيبويه (١٩٦٦) ، التطور اللغوي التأريخي (١٩٦٦) ، الفعل : زمانه وأبنيته (١٩٦٦) ، في الجديد اللغوي (١٩٦٦) ، في اللهجات المغربية والأندلسية (١٩٦٧) ، اللغة التونسية (١٩٦٧) ، في النحو العربي : نقد وبناء (١٩٦٨) ، نظرة مقارنة في التذكير والتأنيث (١٩٦٨)... الخ .

حقق السامرائي كتباً كثيرة ، منها : خلق الانسان لأبي اسحق الزجّاج (١٩٦٢) ، رسائل في اللغة (١٩٦٤) ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري (١٩٥٩) ، الجبال والأمكنة والمياه لمحمود بن عمر الزمخشري (١٩٦٨) ، رسالة في السمسرة والسمسار وأحكامه لأبي العباس الابياني التونسي (١٩٦٥) ، شعر الأحوص (١٩٦٩) ،

فوائد لغوية من شمس الأدب لأبي سعيد السمناني (١٩٦٨) ، المتشابه لأبي منصور الثعالبي (١٩٦٧) ، التذكير والتأنيث للسجستاني (١٩٦٩)... الخ . وشارك في تحقيق ديوان القطامي وديوان قيس بن الخطيم وشعر عروة بن حزام .

وقد أخبرني الدكتور ابراهيم في رسالة وردتني منه من عمان ان ديوان شعره ينشر الآن في السعودية في ٧٠٠ صفحة .

سليم طه التكريتي

الكاتب المترجم سليم طه التكريتي ولد في تكريت سنة ١٩١٥ . قدم الى بغداد وانتمى الى كلية الحقوق ونال شهادتها ومارس المحاماة . وقد عمل في الوقت نفسه محرّراً في جريدة «الرأي العام» لصاحبها محمد مهدي الجواهري ، وكان معلماً في مدرسة التفيض ومحرراً لمجلتها «التفيض» . وتولى بعد سنوات عديدة رئاسة تحرير جريدة «أخبار اليوم» لصاحبها محمد البريفكاني (١٩٦٤) .

درس الانكليزية على نفسه ودأب على التأليف والترجمة ، لكن ترجماته لم تتّسم بالدقة لافتقاده المعرفة الصحيحة باللغة الانكليزية . واعتقل سنة ١٩٦٨ أمداً قصيراً ، ثم عمل في وكالة الأنباء العراقية حتى اعتزل العمل في سنوات الثمانين . وأنشأ دار العصور للنشر فأصدر بعض الروايات .

من مؤلفاته : أعلام الأدب الحديث (١٩٤٠) ، في الاتحاد السوفييتي (١٩٤٢) ، القضية البولونية (١٩٤٥) ، مكسيم غوركي (١٩٤٦) ، الملك الأسير : قصة ليوبولد ملك البلجيك (١٩٥٠) ، أسرار الانقلاب العسكري الأخير في سورية (١٩٤٩) ، تأريخ الحرب العظمى الثانية (١٩٥٠) ، الحرب في كوريا (١٩٥٠) ، فرموزا آخر معارك الصين (١٩٥٠) ، فيتنام من مراكز الكفاح الوطني في الشرق (١٩٥٠) ، مراحل الكفاح الوطني في فيتنام (١٩٥١) ، معركة النفط في ايران (١٩٥١) ، معركة النفط في العراق (١٩٥١) ، مهرجان السلام في برلين (١٩٥١) ، الحلف التركي - الباكستاني (١٩٥٢) ، مشكلة الشرق الأوسط (١٩٥٦) ، أزمة الشرق الأوسط (١٩٥٧) ، فرنسا في طريق الدكتاتورية (١٩٥٨) ، أبطال السلام (١٩٥٩) ، الصراع على الخليج العربي (١٩٦٦) .

ومن مترجماته : كيف انشئ الاتحاد السوفييتي (١٩٤٤) ، مشاريع السنوات الخمس في روسيا (١٩٤٢) ، مشكلة المستعمرات (١٩٤٦) ، حياة لويس باستور (١٩٥٧) ، أسباب الخلاف بين مصر والعراق (١٩٥٩) ، حزب الطبقة العاملة (١٩٥٩) ، حكومة كيرالا في الهند (١٩٥٩) ، المارشال رومل (١٩٥١) ، جولة في الخليج العربي للحاج عبدالله وليمسن (١٩٦٢) ، ثورة العراق مايس ١٩٤١ (عن ونستن شرشل وفريّا ستارك ، ١٩٦٣) ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٦٧ (للرحالة جاكسون ، ١٩٦٢) ،

الحركة الفكرية في عصر الخلفاء الراشدين (عن كمال الدين فريق ، ١٩٦٨) ، رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ (تأليف جيمس بكنكهام (١٩٦٨) ، مرحلة ما بعد الاستقلال (١٩٥٩) ، الخ .

ومن الكتب التي أصدرها عن دار العصور : أسمهان والمخابرات البريطانية ، حكاية قبلة (رواية) ياسمينة الغجرية (رواية) .

قال الدكتور جليل العطية : «للتكريتي أسلوب قويّ ، وله قدرات هائلة حتى انه في بعض الفترات كان يكتب افتتاحيات لثلاث صحف يومية مختلفة الآراء والاتجاهات» .

توفي سليم طه التكريتي في بغداد في تموز ١٩٩٦ .

غائب طعمة فرمان

من الروائيين العراقيين المرموقين غائب طعمة فرمان ، اشتهر بروايته «النخلة والجيران» ، التي قدمت مسرحية من قبل فرقة المسرح الفني الحديث ، مثلتها : زينب ، ناهدة الرماح ، خليل شوقي وآخرين ثم عرضت في التلفزيون . ولد في كربلاء سنة ١٩٢٧ ، وأتم دراسته في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وتخرّج فيها سنة ١٩٥٤ .

عاد الى العراق لكن الحكومة العراقية رفضت تعيينه لما عرف عنه من ميول يسارية ، فمضى الى سورية ولبنان . وقد عاد الى بغداد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وبقي فيها نحو السنة ، ثم غادرها الى موسكو وبكين . وأقام في موسكو منذ عام ١٩٧٠ وعمل مترجماً في دار التقدم للنشر وغيرها . وتوفي فيها في ١٨ آب ١٩٩٠ .

مال الى الأدب منذ صباه وبدأ بنظم الشعر . ثم نشر أول قصة له في مجلة «الجزيرة» (١٩٤٩) بعنوان «مصرية في العراق» . وتعرّف خلال وجوده في مصر بكبار أدبائها ومنهم احمد حسن الزيات ونجيب محفوظ ، وبدأ بنشر قصصه في مجلة «الرسالة» ، ونشر بعد ذلك قصصاً في جريدة «الأهالي» ومجلة «المثقف» ومجلة «١٤ تموز» .

مؤلفاته : حصيد الرحى (قصص ، ١٩٥٤) ، مولود آخر (قصص ، ١٩٥٩) ، النخلة والجيران (رواية ، بيروت ١٩٦٦) ، خمسة أصوات (رواية ، ١٩٦٧) ، المخاض (رواية ، ١٩٧٤) ، القربان (رواية ، ١٩٧٥) ، ظلال على النافذة (رواية ، ١٩٧٩) ، آلام السيد معروف (رواية قصيرة وقصص ، ١٩٨٦) ، المرتجى المؤجل (قصة طويلة ، ١٩٨٦) ، المركب (رواية ، ١٩٨٩) . وترجم مجموعة من القصص والروايات عن الروسية .

قال الدكتور داود سلوم ان قصص غائب طعمة فرمان واقعية تتصل بحياة الطبقة العاملة في المجتمع .

وقد قال غائب نفسه ، في مقالة له في مجلة «الطريق» البيروتية في عدد آب ١٩٨١ - كما أخبرني الدكتور جليل العطية - قال :

«علاقة الروائي بالواقع علاقة كائن حيّ بكائن حيّ . والروائي في ظني لا يصور

الواقع بقدر ما يصور اسقاطاته على ذهنه ومخيلته وحواسّه . الروائي مطالب دائماً في ان يوسّع لنفسه ، ومن خلال ممارسته لفنّه الروائي بصدق وأمانة ، الأرض التي يترك فيها وزوايا الواقع ودهاليزه التي يكتشفها من خلال عملية المعايشة والملاحظة والتقصّي والتفاعل مع الأحداث والأشخاص والمواقف واللحظات الانسانية والمصائر الانسانية التي تكون لحمة فنه الروائي وعموده الفقري . انها عملية اقتحام من واقعنا العربي المليء بالأسوار والحرمات والمعوّقات . وليس من شك في انه ، من خلال بحثه الدائب ، سيجد المزيد والمزيد من أشكال العلاقة بالواقع مايزيد فنّه الروائي غنى وأصالة» .

علي الخاقاني

علي الشيخ عبد علي الخاقاني البحاثة ولد في النجف في ٣١ تموز ١٩١٢ ودرس العلوم العربية على علمائها . أصدر مجلة أدبية اسبوعية باسم «البيان» في تموز ١٩٤٦ ووالى اصدارها الى سنة ١٩٥٢ . ثم انتقل الى بغداد وأسس فيها مكتبة دار البيان وأصدر كتباً عديدة من تأليفه ، وحقق كتباً منها : استقصاء النظر في القضاء والقدر لنجم الدين جعفر بن الحسن المحقق الحلي (١٩٣٥) ، ديوان التميمي (١٩٤٨) ، ديوان السيد حيدر الحلي (في جزءين ، ١٩٥٠ - ١٩٦٤) ،ديوان الشيخ محمد رضا النحوي (١٩٥٤) ، نهاية الأرب في معرفة انساب العرب للقلقشندي (١٩٥٨) ، الهاشميات للكميت الأسدي ، أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي (١٩٦٦) ، تنفيس الشدة في تخميس البردة لابراهيم حقي الحسيني (١٩٦٨) ، مشاهداتي في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ لمحمد علي كمال الدين (١٩٦٩) الخ .

من تآليفه : شعراء الحلة او البابليات (٥ أجزاء ١٩٥١ - ١٩٥٣) ، شعراء الغري او النجفيات (١٢ جزءاً ١٩٥٤ - ١٩٥٦) مخطوطات المكتبة العباسية في البصرة (جزآن ١٩٦١ - ١٩٦٢) ، تأريخ الصحافة في النجف (١٩٦٩) ، شاعر الشعب محمد صالح بحر العلوم (١٩٥٨) ، شعراء بغداد (جزآن ١٩٦٢) ، فنون الأدب الشعبي (١٢ حلقة ١٩٦٢ - ١٩٦٣) ، الخ . وله مجموعات مخطوطة لم يهيأ له نشرها : شعراء بغداد (بقية الأجزاء) ، شعراء الموصل والبصرة وكربلاء وواسط والكوفة .

زار علي الخاقاني في سنواته الأخيرة البحرين وسائر أقطار الخليج . وأدركته الوفاة سنة ١٩٧٨ .

أخبرني الدكتور جودت القزويني ان علي الخاقاني من آل فتلة النازلين في أطراف الهندية ، لكنه ترعرع في ظل أخواله آل خاقان فلحقه لقبهم . وقد شبّ في بيئة فقيرة ، وكان أبوه الشيخ عبد علي يعتاش من نسخ المخطوطات ، فورث الابن عنه هذه المهنة ومارسها .

قال القزويني ان الخاقاني استفاد من المجاميع المخطوطة ، خصوصاً مجاميع آل كاشف الغطاء ، فحوّل بعضها الى مادة لكتابيه عن شعراء الغريّ والحلة . وقال انه

تحامل على أشخاص لهم مكانة علمية وأدبية ، منهم محمد مهدي البصير ومحمد علي اليعقوبي وجعفر الخليلي وغيرهم . فتصدّى له اليعقوبي صاحب «البابليات» واتهمه بالسرقة الأدبية ، ووضع كتيباً أحصى فيه سقطات الخاقاني وتجاوزاته .

وأضاف القزويني قائلاً ان شخصية الخاقاني تمثل الفرد النجفي المتمرّد الذي عاش تناقض البيئة وسجّله في كتبه . وقد بقي على تمرّده حتى نهاية عمره . اما في مؤلفاته فكان مؤرخاً على طريقته الخاصة ، وبالرغم عن المنحى الذي اتخذه فإن مؤلفاته أصبحت من المصادر التي يرجع اليها في تأريخ الأدب العراقي ورجاله .

وقال جعفر الخليلي في الجزءين الثاني والثالث من كتابه «هكذا عرفتهم» ان توفيق الفكيكي استعار مسودة «البابليات» من مؤلفها محمد علي اليعقوبي قبل طبعها . وقد استعارها منه علي الخاقاني فنقل عنها تراجم طائفة من الشعراء بدأ بنشرها كما لو كان هو جامعها ومحققها والعاثر عليها في الخبايا والزوايا . وألف الخاقاني بعد ذلك كتابه «شعراء الحلة» متضمناً ما نقله عن «بابليات» اليعقوبي . ولما اطلع هذا الأخير على هذه السرقة الأدبية اغتاظ وجرى بينه وبين الفكيكي عتاب وملام .

خالد القشطيني

الأديب الكاتب الجادّ الساخر خالد شاكر القشطيني ولد في بغداد سنة ١٩٢٩ ، وكان أبوه معلماً للغة العربية . تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٥٣ ودرس في معهد الفنون الجميلة (فرع الرسم) ، ثم ذهب الى انكلترة لمواصلة الدراسة في الرسم والتصميم المسرحي .

عاد الى بغداد سنة ١٩٥٨ وعمل مدرساً في معهد الفنون الجميلة ، ثم رحل ثانية الى لندن سنة ١٩٥٩ واشتغل في القسم العربي من الاذاعة البريطانية الى سنة ١٩٦٤ حين استقال وتفرغ للكتابة والترجمة . وقد تولى عدة مهمات ووظائف في ميدان الاعلام والصحافة ، آخرها عمل كاتب عمود في صحيفة «الشرق الأوسط» .

كتب اليّ يقول : «أصبحت شخصاً متعدد الجوانب ، اكتب في عدة مواضيع باللغتين العربية والانكليزية . تارة يجدني القراء انشر كتاباً سياسياً او أدبياً بأسلوب علمي موضوعي هادئ ، وتارة يجدونني انشر كتاباً من نوع آخر تماماً كل مادته هزل وخفة وسخرية . انشغلت منذ أيام المدرسة بالمواضيع السياسية ، ولا سيما ما تعلق منها بالعدالة ، وجرّني ذلك الى الانخراط في الحركة اليسارية في العراق ، وفيما بعد بموضوع النزاع العربي - الاسرائيلي حيث نشرت لي عدة كتب بالعربية والانكليزية ، منها «فلسطين عبر العصور» و«الحكم غياباً» .

ثم قال : «انني من المؤمنين باللاعنف والحركات السلمية ، ولي كتاب في هذا الصدد يعتبر الكتاب الوحيد في موضوعه باللغة العربية هو «نحو اللاعنف» . وشاركت في عدة ندوات عالمية في هذا الموضوع» .

وأشار الى انهماكه ، من الجانب الآخر ، في الكتابات الفكاهية الساخرة ، خاصة في العمود اليومي «صباح الخير» في جريدة «الشرق الأوسط» . ونشرت له مجموعات من المقالات في هذا الباب مثل «هموم مغترب» ، «عالم ضاحك» ، «صباح الخير» . وله كتاب بالعربية والانكليزية يعالج موضوع «السخرية السياسية عند العرب» .

وضع مسرحيات بالعربية والانكليزية مثّل بعضها في بغداد ونشر البعض الآخر في لندن . من مصنفاته عدا ذلك : الماركسية والشعر (مترجم عن جورج تومسن ، ١٩٥٩) ، البغي في الأدب التقدمي ، سيرة الشيخ سلمان بن حمد الخليفة (ترجمة) الخ .

ناجي جواد

الأديب المحامي ناجي جواد الساعاتي ولد في بغداد سنة ١٩٢٢ ودرس في مدارسها ، وتخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٥٤ . تعلم في صباه صناعة تصليح الساعات ومارس المهنة سنوات طويلة ، ثم عمل في التجارة وحصل على وكالات للساعات السويسرية .

مال منذ نعومة أظفاره الى الأدب ، وكتب في القصة فأصدر مجموعة قصصية «مع الأيام» (١٩٦٧) . لكنه أولع بالسفر فزار الهند والأقطار الأوربية ودوّن رحلاته في كتب مقوّمة جميلة الأسلوب : رسائل من الهند (١٩٥٦) ، من وحي السفر (١٩٦٦) ، رحلة الى الأندلس (١٩٦٩) . وقد كتب يقول عن السفر : «أمنية مجنّحة تحلّق دوماً في سماء نفسي ، فينبعث من رفيف اجنحتها الناعمة نغم رقيق يطرب آمالي ويرقص أحلامي» . واستشهد بأبيات للامام الشافعي :

سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه — وانصب فإنّ لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده — إن سال طاب وإن لم يجر لم يطبِ

له ايضاً : قصة الوقت (١٩٥٧) ترجم الى الانكليزية ونشر سنة ١٩٦٢ ، كتب قرأتها (١٩٦٤) . وقد اشتهر بمجالسه الأدبية فكانت داره منتدى للأدباء والفضلاء .

كتب اليّ ناجي جواد من اوكلاند في زيلندة الجديدة في ٣ آذار ١٩٩٨ يقول ذاكراً اغتراب الادباء ومستشهداً بقول امام البلاغة علي بن أبي طالب : «فراق الأحبّة غربة» .

قال انه غادر بغداد في آب ١٩٩٦ ويعتزم البقاء في زيلندة الجديدة سنة أخرى ثم يعود إلى بغداد . وهو يعتزم تأليف كتاب عن رحلته الأخيرة ، كما يروم طبع مجموعة مصورة (البوم) يضم الصور التراثية للادباء والعلماء والاعلام الذي عاصروه ، وكلها محفوظة لديه في مكتبته ومخزونة في ذاكرته .

خالص عزمي

خالص خليل عزمي أديب وحقوقي ورسام ولد في بغداد في ٢٣ كانون الأول ١٩٣٠ ونشأ في كنف أبيه خليل عزمي رجل الادارة والفكر . وانتمى الى كلية الحقوق فتخرج فيها ، وأخذ يتردد في الوقت نفسه على معهد الفنون الجميلة ويطلع على فنون الرسم والمسرح .

بدأ في الكتابة في الصحف والمجلات وعمره لا يتجاوز السادسة عشرة ، ونشر المقالات في جريدة «اليوم» و«المجالي» و«المناهل» وغيرها . وأصدر في سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ، وهو لا يزال طالباً في كلية الحقوق جريدة «الأسبوع» ، وألف هيئة تحرير لها من حارث طه الراوي وحقي الشبلي وعبد القادر رشيد الناصري و عبد الله نيازي وكاظم جواد . وواصل نشر مقالاته في امهات الصحف العراقية والعربية كـ «الزمان» و«الحارس» «والنديم» و«البلاد» و«العراق» و«الانقاذ» ، وكذلك في مجلة «الرسالة» و«الثقافة» المصريتين و«الأديب» و«الورود» اللبنانيتين .

التحق بعد حصوله على شهادة القانون بجامعة لندن لنيل الدبلوم الاكاديمي العالي ، وكان موضوع رسالته «الرقابة البرلمانية على الحكم في العراق وانكلترة» .

كتب خالص عزمي في مختلف الفنون الأدبية من شعر وقصة ومسرحية والتمثيليات الاذاعية ، وبرع في رسم الشخصيات البارزة كما رسم لوحات كثيرة وشارك في بعض المعارض . ومن لوحاته : على ساحل جبل طارق (مائية) مائدة شراب (زيتية) زهرة عبّاد الشمس الخ .

والتحق بخدمة الحكومة فكان ملحقاً صحفياً في سفارة لندن ومديرالملحقيات الصحفية ومديراً عاماً في وزارة الثقافة والاعلام ومدوناً قانونياً في وزارة العدل . وكان رئيس تحرير مجلة «الأسبوع» وجريدة «بغداد نيوز» ثم «بغداد اوبزرفر» .

من مؤلفاته : الأدب العربي المعاصر ، من تأريخ الصحافة العراقية (١٩٦٩) ، مهمة يارنغ (١٩٦٩) ، الصحافة الصهيونية (بالانكليزية ، ١٩٦٩) . وله ايضاً : صفحات مطوية من أدب السياب ، الواقعية في الشعر ، قطار الشعر العربي (مسرحية) ، نزار سليم رساماً ،

كاظم جواد حياته وشعره ، القضاء في الفقه والقانون ، محمد الشرفي رائد المسرح اليمني ، عبدالوهاب البياتي في مدن الحلم والحقيقة الخ .

وقد غادر العراق أخيراً واستقر في فينة عاصمة النمسة .

نظم خالص عزمي الشعر . من شعره :

الشفاه الصائمة

جئت فيا للنظرة الساهمة	والبسمة اللمّاحة الناعمة
خطوتكَ الأولى تُرى بالضيا	واجفة خائفة نادمة
شوق وعطر ونسيم الصبا	وليلة مقمرة حالمة
إذا دنا الحبّ ، فهيّا ارحمي	قلباً براه الشوق ، يا ظالمة

من شعره الأخير في فينّا :

تحاصرني الثلوج بكل يوم	فلا نار تفيد ولا وقود
ولا دفء الفؤاد يعين ساقاً	يمزّقها نزول او صعود
يكاد العظم ينكسر انجماداً	فتخجل صفرةً منه الخدود
على ان الفراق أشدّ هولاً	على نفس تباعدها حدود
فيا حزني على يوم غريب	يصير به اللقاء هو الصدود
ويا حزني على زمن تقضّى	تهاوى خلفه قلب ودود

الدكتور جليل العطيّة

الأديب الباحث المحقق جليل ابراهيم العطية ينتمي الى زبيد العشيرة المعروفة . ولد في بلدة الكوت (واسط) في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٠ ودرس في مدارسها . ثم أمّ بغداد وانتمى الى كلية الآداب بجامعة بغداد (قسم الاعلام) ونال شهادة البكالوريوس سنة ١٩٧٢ . وانتهر فرصة انتقاله الى باريس سنة ١٩٧٨ فتابع دراسته العليا ونال شهادة الماجستير من مدرسة الدراسات العليا للعلوم التطبيقية (١٩٨٠) ، ثم حاز على دكتوراه الدولة من جامعة السوربون الثالثة سنة ١٩٨٧ . وكانت رسالته الجامعية في موضوع «التطور السياسي والاجتماعي للعراق بين الحربين العالميتين ١٩١٩ - ١٩٣٩» .

انخرط في سلك موظفي الدولة سنة ١٩٦٠ ، فعيّن موظفاً في وزارة الاصلاح الزراعي ، ونقل بعد ذلك الى وكالة الأنباء العراقية فوزارة الثقافة والاعلام . ثم كان مستشاراً اعلامياً في السفارة العراقية بالكويت (١٩٧٢ - ١٩٧٧) . وترك الوظيفة بعد أمد قصير للتفرغ للبحث والكتابة .

شغف بالأدب ومال الى الصحافة منذ نعومة أظفاره . وشرع بنشر قصص قصيرة في جريدة «الشعب» البغدادية سنة ١٩٥٥ . ونشر بعد ذلك قصصاً في الصحف ، وكان يميل الى الأدب الواقعي تأثراً بالكتاب الروس والفرنسيين وبنجيب محفوظ وذنّون ايوب وعبد الملك نوري وغيرهم . وقد ذكر له عبد الاله احمد في كتابه «فهرست القصة العراقية» اسماء ٦ قصص نشرها سنة ١٩٥٥ - ١٩٦٠ في جريدة «الشعب» و«المجتمع» و«الحرية» و«فتى العراق» و«الثورة» . ثم كتب في مجلة «الوادي» الأسبوعية لصاحبها خالد ابراهيم الدرّة (١٩٥٩) ، ونشر «العمود الصحفي الساخر» بتوقيع «جهين» ، وما جهين الا جهينة التي عندها الخبر اليقين . وقد اصابه الاذى الكثير بسبب الصحافة لكنه ظل متمسكاً بها . وأخذ في السنوات الأخيرة ينشر حقلاً اسبوعياً في جريدة «الوفاق» الصادرة في لندن . وجمع بعض ما كتبه في هذا الباب في كتابين : حكايات جهين (بغداد ، ١٩٦٩) ، وفندق السعادة (لندن ١٩٩٣) .

وانصرف بعد ذلك الى العناية بالتراث ، فحقق ونشر كتباً منها : ديوان ليلى الأخيلية (بالاشتراك مع أخيه خليل ، ١٩٦٧) ، لن تراني الضفاف (بالاشتراك ايضاً ١٩٦٧) ،

الرسائل المتبادلة بين الكرملي وأحمد تيمور (بمشاركة كوركيس وميخائيل عوّاد، ١٩٧٤)، الاماء الشواعر لأبي الفرج الاصبهاني (١٩٨٤)، ديوان الميكالي (١٩٨٥)، دَرْج الدرر للمطوّعي (١٩٨٦)، الحنين الى الأوطان لابن المرزبان الكرخي (١٩٨٧)، الشوق والفراق لابن المرزبان ايضاً (١٩٨٨)، الوحوش للأصمعي (١٩٨٩)، القيان لأبي الفرج الاصبهاني (١٩٨٩)، الديارات لأبي الفرج الاصبهاني (١٩٩١)، تحفة العروس للتجاني (١٩٩٢).

واهتم بالفهرسة (البيبليوغرافية) فجمع مقالات كوركيس عواد التي نشرها في المجلات والدوريّات بين سنة ١٩٣٥ و١٩٨٩ في كتاب يحمل عنوان «الذخائر الشرقية» ظهر في ٧ مجلدات مزوّداً بتعليقاته.

انتقل جليل العطية للاقامة في فرنسة منذ سنة ١٩٧٨. وقد شارك في العديد من المؤتمرات والندوات الأدبية والثقافية في العراق وخارجه، وكان عضواً في منظمات واتحادات مهنية وعلمية عربية وأوربية.

ولا بد من القول ان الدكتور جليل العطية تأثر كثيراً بأخيه الكبير خليل ابراهيم العطية المولود في الكوت سنة ١٩٣٦. وقد عني هذا البحاثة بالتراث، فنشر ديوان ليلى الأخيلية بالاشتراك مع أخيه، وحقق ونشر ديوان المزرّد بن ضرار الغطفاني الفارس الشاعر الجاهلي المتوفى في نحو سنة ٦٣١م (١٩٦٢)، وديوان توبة بن الحميّر الخفاجي صاحب ليلى الأخيلية المتوفى سنة ٧٠٤م (١٩٦٨)، وديوان عمرو بن قميئة الوائلي النزاري الشاعر الجاهلي المتوفى سنة ٥٤٠م، صاحب أمرؤ القيس (١٩٦٩). واشترك خليل العطية في تحقيق ونشر ديوان مسكين الدارمي، وهو ربيعة بن عامر التميمي الشاعر العراقي المتوفى سنة ٧٠٨م (١٩٦٩). وتقدم برسالة الماجستير الى كلية الآداب بجامعة عين شمس في مصر سنة ١٩٦٩ وعنوانها «التعدي واللزوم في العربية» مع تحقيق «فعلت وأفعلت» لأبي حاتم السجستاني.

درس الدكتور خليل العطيّة في جامعة عين شمس بالقاهرة. ومارس التدريس في محافظة واسط وجامعة البصرة والجامعة المستنصرية في بغداد وفي المعاهد الجزائرية. وتوفي في بغداد في آب ١٩٩٨.



الصحافة



محمد فائق الكيلاني

محمد فائق بن محمود بن عبد القادر بن مراد الكيلاني من رجال القانون والصحافة ، تتلمذ على يوسف العطا وعبد الوهاب النائب ، ثم درس في مدرسة الحقوق ببغداد على العهد العثماني .

نشر كتابات أدبية في مجلة لغة العرب قبيل الحرب العظمى الأولى ، منها قصة «رؤيا العربية» (١٩١٣) . وأصدر في نيسان ١٩٢٩ جريدة اسبوعية باسم «الناظرة» ، وقد احتجبت بعد أمد قصير . ثم كان مديراً مسؤولاً لجريدة «الرصافة» التي أنشأها كمال نصرت في حزيران ١٩٣٠ .

توفي في بغداد سنة ١٩٥١ .

عمر فوزي

محامٍ وصحفي نشأ في البصر .

اشترك مع سليمان فيضي في تأسيس مدرسة مسائية في الثغر لتدريس اللغة التركية في شباط ١٩١٠ . وعمل مع السيد طالب النقيب في معارضة حزب الاتحاد والترقي .

أصدر في البصرة جريدة الآتِيّ في آب ١٩١١ ، وقد استمر صدورها الى كانون الاول ١٩١٢ .

عارض انفصال البصرة عن العراق حين قدّم بعض الأهالي طلباً لإلحاق البصرة بالحكم البريطاني في حزيران ١٩٢١ .

عبد الهادي الأعظمي

من قدماء رجال الصحافة ، ولد عبد الهادي محمود العبيدي الأعظمي بضاحية الأعظمية المجاورة لبغداد سنة ١٨٨٤ ودرس في مدرستها ثم انتمى الى دار المعلمين .

زاول التعليم في الصيرة والأعظمية وبغداد على العهد العثماني . وأصدر مع الحاج نعمان الأعظمي مجلة «تنوير الأفكار» (آب ١٩١٠) فدامت أقلّ من سنة واحدة ، وكانت تعنى بالشؤون الدينية والأدبية والسياسية . ووضع كتاباً في «دروس الجغرافية» (١٩١٢) .

خاض غمار الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ في أنحاء الخالص والنجف . وعيّن في السنة التالية مدرساً بكلية الشريعة . ثم درس الحقوق وعين مديراً لناحية الزبير (ايار ١٩٣٦) وكان بعد ذلك قائممقاماً لقضاء شهربان والشيخان .

توفي في شباط ١٩٤٢ . وهو والد المحامي النائب اسماعيل الغانم والمدوّن القانوني الدكتور غازي عبد الهادي المتوفي في لندن في ١٩ ايلول ١٩٩٨ .

ابراهيم صالح شكر

الكاتب الصحفي والأديب الحر ذو القلم الناري والأسلوب اللاذع الرشيق والديباجة المفوّفة الأنيقة . ولد ابراهيم بن أحمد صالح شكر في حيّ شعبي من أحياء جنوبيّ بغداد ، وكان لأبيه ، ولجدّه من قبله ، مقهى يؤمّه أبناء المحلة ، وقد عرف الحيّ كما عرف المقهى باسم «قهوة شكر» .

ترجمت له ترجمة وافية في كتابي «اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» ، ونشرت جانباً من رسائله وكتاباته .

ولد ابراهيم في ٢٤ ايار ١٨٩٣ في بغداد لأسرة تنتسب الى عشيرة الكروية من عشائر قيس . درس في بعض الكتاتيب ، ثم حضر حلقات الشيوخ عبد الوهاب النائب ومحمود شكري الآلوسي وعبد الجليل آل جميل وعبد المجيد آل جميل ونجم الدين الواعظ . وانصرف الى مطالعة آثار الأدباء من قدماء ومحدثين كالجاحظ وشارح نهج البلاغة وطه حسين وجبران خليل جبران ومعروف الأرناؤوط وغيرهم . ولم يلبث ان جرّب قلمه في الكتابة واختطّ لنفسه أسلوباً بيانياً خاصاً .

أعلن الدستور التركي سنة ١٩٠٨ وأطلقت حرية الفكر والصحافة . وبدأ فتانا ينشر كتاباته في الصحف الجديدة التي صدرت في بغداد ، وفي مقدمتها جريدة «بين النهرين» التي برزت في ٦ كانون الأول ١٩٠٩ بالعربية والتركية ، وكان صاحبها التاجر يعقوب العاني ، ثم تولى أمرها محمود نديم الطبقجلي الذي عهد بتحرير قسمها العربي الى كامل الطبقجلي . ثم كتب في جريدة «النوادر» التي أصدرها محمود الوهيّب في ٦ ايلول ١٩١١ ، ولم يطل بها العهد .

وأصدر ابراهيم صالح شكر مجلة اسبوعية باسم «شمس المعارف» في ٢٥ نيسان ١٩١٣ ، وقد احتجبت بعد فترة قصيرة . واشترك مع ابراهيم منيب الباجه جي الشاعر في اصدار مجلة «الرياحين» في ٢٧ آذار ١٩١٤ ، ولم تدم طويلاً . وكانت تلك سمة عامة لأكثر الصحف والمجلات التي انشئت بعد الدستور والى حين نشوب الحرب العامة وانصرم عقد حياتها بعد أمد وجيز لضعف ماليّتها وقلة القراء والمعاضدين .

نشبت الحرب في أواخر سنة ١٩١٤ فجنّد ابراهيم فيمن جنّد من شباب بغداد . ولم يلبث الطاعون الجارف ان دهم بيت أبيه فقضى على والديه وجدته . وخلت الدار ، كما قال ، إلا من طفلة في السابعة هي اخته وهي الميراث الحزين المقدس . وهو جنديّ يتملكه البؤس وليس معه ما يكفي لأكفان الموتى وحفر القبور . ثم نكّل الاتحاديون برجال الصحافة والقلم ، فحكم عليه بالنفي الى درسم في الأناضول وسيق مع رفاقه في تشرين الثاني ١٩١٥ الى الموصل وأودعوا السجن . وصدر العفو عنهم بعد أربعة أشهر فعادوا الى بغداد .

انزوى ابراهيم في عقر داره ورحى الحرب تدور بأهوالها وويلاتها ، وتولى ادارة مقهى أبيه في الحيّ الذي شهد مولده . واحتل الجيش البريطاني بغداد وشرع كهول العراق وشبابه يطالبون بالحرية والاستقلال ، فترك معتكفه ونزل الى ميدان الجهاد الصحفي عوداً على بدء . أصدر مجلة «الناشئة» الأدبية في ٢ كانون الأول ١٩٢١ ، وأعقبها بصحيفة «الناشئة الجديدة» في ٢٧ كانون الأول ١٩٢٢ التي عطلت في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٣ ، ثم عادت الى الصدور حتى أوقفها هو نفسه في ٢٥ حزيران من تلك السنة بسبب الاعتداء الذي تعرّض له بتحريض أحد الذين غمزهم بقلمه . وعاد الى اصدار جريدته في ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٣ ، ولما أغلقت قدّم له «ولده بالروح» رفائيل بطّي صحيفته «الربيع» فأصدرها في ٢ ايار ١٩٢٤ ولم تلبث ان عطلتها وزارة الداخلية . وأعاد اصدار «الناشئة الجديدة» في ٤ تموز ١٩٢٤ ، فأخرج منها ثلاثة أعداد ثم ارتضى تطليق الصحافة إذ عيّن مدير تحرير لواء الحلة . ونقل بعد أشهر الى لواء ديالى ، لكنه واصل الكتابة في الصحف فاضطر على الاستقالة . وأعاد اصدار «الناشئة الجديدة» في حزيران ١٩٢٥ . وعيّن في آب ١٩٢٥ مديراً لناحية شهربان (جلولاء) ، ونقل في كانون الأول ١٩٢٥ مديراً لناحية قزلرباط فمديراً للتحرير في متصرفية لواء ديالى (ايار ١٩٢٦) . واستقال من الوظيفة فأصدر جريدة «الزمان» (١١ تموز ١٩٢٧) . وقد عطلت في ٢١ تشرين الأول ١٩٢٧ ثم سمح له باعادة اصدارها . وعطلت مرة أخرى وصودر عددها الأربعون الصادر في ١٨ ايار ١٩٢٨ . وعاود اصدار الجريدة في ٢٦ آب وحمل فيها على الوزارة السعدونية القائمة فعطلت في ١٦ ايلول ١٩٢٨ .

قال رفائيل بطّي : «وابراهيم صالح شكر انسان قويّ الاحساس متّقد العاطفة سليم الطويّة ذو طموح دفين تشغل الجانب الأعظم من دماغه أخيلة المجد ووساوس المثل العليا مع بعد عن اقتناص المادة» . ثم قال انه ولج باب السياسة في حياة الصحافة والكتابة وخاض عباب الجدل ، فمدح من لا يستحقّ المدح وأسرف في النقد والتجريح لآخرين .

وارتأى ان يغادر بغداد في ٨ تشرين الأول ١٩٢٨ فأمّ الشام وتعرّف على أدبائها وفضلائها ، ومنهم فخري البارودي وعبد القادر المغربي ومحمد كرد علي ونجيب الريّس وفائز الخوري . ثم مضى الى بيروت واجتمع بالأخطل الصغير بشارة الخوري وأمين نخلة . وزار صيدا وصور وحيفا ، واستقل القطار الى مصر فقابل شيخ العروبة احمد زكي باشا وعزيز علي المصري ومحمد علي الطاهر صاحب «الشورى» وغيرهم . وعاد الى بغداد في ٩ شباط ١٩٢٩ عن طريق الأردن ودمشق .

عاد صاحبنا الى ميدان الصحافة فأصدر في ٢٩ كانون الأول ١٩٢٩ جريدة «المستقبل» مع عبد القادر اسماعيل . وعطلت في ٢٧ حزيران ١٩٣٠ فانتقل الى جريدة «اليقظة» لصاحبها سلمان ابراهيم الصفواني (١٤ تموز ١٩٣٠) ، حتى إذا ما عطّلت تولى رئاسة تحرير جريدة «التجدّد» لصاحبها الشاعر محمود الملاح (٢٤ تموز ١٩٣٠) ولم يصدر منها سوى عدد واحد . وعاد الى الوظيفة مديراً للتحرير في متصرفية لواء بغداد (ايلول ١٩٣٠) ولم يلبث ان استقال بعد أربعة أشهر .

قام بتحرير جريدة «الأماني» القومية لصاحبها عبد الوهاب محمود ومديرها المسؤول عبد الرزاق شبيب (٣٠ تشرين الأول ١٩٣١) فعطّلت لمهاجمته الوزير مزاحم الأمين الباجه جي . وسيق الى ساحة القضاء فحكم عليه بالسجن أربعة أشهر ، ولكن أطلق سراحه بعد شهرين لسوء حالته الصحيّة . وخرج من محبسه فقرر تطليق الصحافة التي عمل فيها نحواً من ربع قرن ورضي بقية عمره باكليل الوظيفة المضفور من الشوك والقتاد .

عيّن مديراً لناحية تكريت في آب ١٩٣٢ ونقل بعد ثلاثة أشهر الى ناحية شهربان . ورفع قائممقاماً لشهربان في ايلول ١٩٣٣ ، ثم تنقل في أقضية قلعة صالح والهاشمية والصويرة . وأصبح في تموز ١٩٣٥ سكرتيراً للمكتب الخاص بوزارة الداخلية ، ثم عاد الى الادارة قامقاماً لقضاء سامراء فخانقين فالمحمودية فالفلوجة فالكاظمية فخانقين ثانية . وقامت حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية في ايار ١٩٤١ فأيدها ، ونقل على اثر ذلك الى قلعة صالح ثم فصل من الخدمة في تشرين الثاني ١٩٤١ . وعيّن في ٢٣ شباط ١٩٤٣ مديراً لمكتبة الأوقاف . وابتلي بداء السكّري والسلّ ، فأدركته الوفاة في بغداد في ١٥ ايار ١٩٤٤ .

* * *

كان ابراهيم صالح شكر ، شأن الكثيرين من أقرانه الأدباء ورجال القلم في عهده ، يكتب البحوث والمقالات من وحي الساعة وليس له الجلد على الكتابة المتواصلة لتأليف كتاب برأسه او استكمال الموضوع ، كما فعل أحمد عزت الأعظمي ، مثلاً ، في

«تأريخ القضية العربية» . فقد شرع في كتابة «قلم وزير» او «تأريخ ما أهمله التأريخ من حوادث المسألة العربية في الحجاز وسورية والعراق» ، فوقف عند عزيز علي المصري ولم يتمّ بحثه الطريف . وبدأ بتصنيف كتب أخرى ، كحياة المتوكل العباسي ، ومذكرات حتروش ، وترجمة والي بغداد تقي الدين باشا ، وأهملها جميعاً قبل ان ينجز منها سوى صفحات قليلة . ولعلّ مرجع ذلك الى الحياة المضطربة القلقة التي كان يعانيها والتي لم تسمح له بالتفرّغ لبحث متتابع طويل النفس .

وكثيراً ما ضاق ابراهيم ذرعاً بالأدب وهمّ بتحطيم قلمه . ومن قبله رثى الأديب الوطني المصري الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩) قلمه فقال :

«أيها القلم ، لو كنت سيفاً لأغمدتك في صدور من يحاربونك ، او سهماً لأنفذتك الى أعماق قلوبهم . ولو كنت جواداً لوجدت لك في ميادين النزال مجالاً للكرّ والفرّ . ولكنك ذلك العود الذي أيسر ما ينال من عدوّه ان يعالجه بالمبراة فيشقّه او بأصابعه فيكسره . فليكن ، أيها القلم ، ما شاؤوا لك : إما نائماً الى حين او ميّتاً أبد الآبدين . فقد تركت عيوناً لا يغذوها النوم ، وقلوباً لا يملكها اليأس ، وأيدياً لا تخاف السلاسل والأغلال ، وأرواحاً تفدي الحرية والاستقلال...» .

وقد جمع خالد محسن اسماعيل مقالات لابراهيم صالح شكر نشرها سنة ١٩٣١ في مجلة «الأماني» وجريدة «الأخبار» وأصدرها في كتاب «قلم وزير» (١٩٧٠) . ووضع عبد الحميد الرشودي وخالد محسن اسماعيل وجميل الجبوري كتاب «ابراهيم صالح شكر حياته وآثاره» ، طبع في بغداد سنة ١٩٧٨ .

* * *

استقالة

عين ابراهيم صالح شكر مديراً للتحرير في متصرفية لواء بغداد ، لكنه استقال في ٢٣ كانون الثاني ١٩٣١ ، وجاء في كتاب استقالته :

«لست أملك مالاً ولست أملك نشباً . وقد ترك لي أبي دارين اثنتين ملك الأولى بكدّ يمينه وورث الثانية عن أبيه ، فبعتهما وعشت بالثمن . فأنا الآن أسكن بالأجرة داراً صغيرة متهدمة هي خير عندي من «القصور» التي أقامها السّحت وأشادتها الخيانة وسكن اليها الفجّار .

«وقد ألفت العيش الشريف من الخدمة الشريفة في الصحافة الشريفة ، ولكن

حكومة «الوضع الشاذّ» عطلت جريدة «الناشئة» منذ سبع سنين ولمّا تزل معطّلة ، ثم عطلت جريدة «الزمان» سنتين اثنتين كاملتين ، ثم عطلت «المستقبل» و«اليقظة» و«التجدّد» . ثم علمت انها واقفة بالمرصاد لأية صحيفة أصدرها ما لم أجنح الى مهادنة السياسة الاستعمارية الغاشمة او السكوت عن مطاياها من المحسوبين على هذه الديار وهم ألدّ الخصوم .

«ولما عطّلت صحفي الواحدة بعد الأخرى ، ولما سدّوا في وجهي سبيل الارتزاق النبيل ، ولما لم يبقَ في يدي من أوراق الحياة إلا ورقة واحدة هي «ورقة التوظيف» ، مسكتها لأمسح بها جبين الطفل المعصوم ودمعة الصبيّة البريئة والزوجة المخلصة الصّبور .

«لا يكفي الانسان لأن يكون غنياً صاحب مال وعقار او وزيراً يتمتع بألقاب الفخامة والمعالي ، وانما ينبغي له ان يضمّ الى الثروة والألقاب نفساً أبية ورأياً فاضلاً وخلقاً شريفاً ، لا ينحطّ الى المساوئ السّاقطة ولا يتخبّط في البؤر الآسنة .

«ان أوكار المجد انما وجدت لتحتضن نسور البؤس وأفراخ الفقر . وإن أعواد الكرامة النّابتة في حقل الشمم لا تحصد بمناجل الصنائع السّفل ولا تشذّب بآلات الأنذال الأخسّة ، وإن صوت الحق لن يتبدّد في الهواء .

«اما اللهفة الأليمة فتعود في قرارة النفس سخطاً متململاً . والسخط يخفر الحقد ، والحقد يثير الشرّ ويدفع الى الانتقام ، ومسفوح الدم خير من مسفوح ماء الوجه» .

* * *

من أقوال ابراهيم صالح شكر :

- العقيدة لا المعرفة هي أساس الأخلاق .
- من يدافع عن الحق انما يدافع عن قدس الرحمن .
- ليس من العدل ان نلطم شخصاً وتمنعه من لذّة الصياح والعويل .
- الوطنية عاطفة إذا تعدت دائرتها الى الألفاظ والكلمات فقدت قوتها وتلاشى الرائع من جمالها .
- الأسد الجريح ينشد العزلة والانفراد ، وهكذا اعتزلت عن الناس في هذه المدة الطويلة .
- كلمة الحق مرة ويزيد في مرارتها أنها يجب ان تقال .

- لست متشائماً ينظر الى الدنيا بالعبوسة والتقطيب ، ولكن قد يكون مبعث هذا الشعور تفتّح الربيع . والشمعة قبل ان تذوب ترسل شعاعاً ساطعاً .

- ان الزهرة التي تحجبها الأشواك تملأ الجو بالعبير ولا تراها العيون ، فمعاني الأزهار انما هي العطر المنعش . وكذلك الخشبة التي قطعتها الفأس وعمل فيها المنشار ، فإنها تستحيل الى قيثارة صافية النغم رائعة اللحون .

* * *

قال ناجي شوكت في كتابه «سيرة وذكريات ثمانين عاماً» انه كان معجباً بأسلوب ابراهيم صالح شكر التهكمي وبيانه الساحر فضلاً عن عزة نفسه . فقد كلفه مراراً ، وهو وزير الداخلية ، ان يتقبّل شيئاً من النفقات المستورة الموضوعة تحت تصرّفه فكان يرفض باباء على الرغم من حاجته الماسة الى المال . وأقنعه بقبول وظيفة في الدولة فرضي مضطراً .

وقد كتب ابراهيم صالح شكر في نيسان ١٩٣٩ رسالة من الفلوجة الى ناجي شوكت يقول في ضمنها : «وبعد فهذه الصفحة من كتاب تناثرت منه رائحة وردة نسيت فيه فجفّت ، ولكنها ما زالت عطرة فيّاحة . لست سعيداً عندما أرى الأقدار تضطرني الى ان أزاحم «بعض الناس» على كهف أحاول السكون اليه لئلا تحطمني العاصفة او يجرفني التيّار ، وهناك غيري... ليس من واجبي ان أحلّق في جوّ يحتاج التحليق فيه الى جناحين كبيرين ، فإنيّ ، على الرغم من تجارب الأيام وتعاقب السنين ، ما زلت في زغب الفراخ . ولكني استغرب ، ولي ان استغرب ، متى رأيت البعض طائراً بأجنحة الدجاج .

«ان الحاجة قد تطفو على سطح الفضيلة . وقد كنت انساناً قبل ان تصيّرني الظروف موظفاً . ولكن هل تستطيع حبّة الحنطة ان تفهم لماذا صيّرتها الأقدار بين شقّي الطاحونة؟ وهكذا الأسرار الرائعة ، فإنها وديعة الله في طيّات الغيب وجوف المجهول .

«لم يخلق الانسان لينام على الورود الناعمة والأزهار الغضّة ، وانما خلق للحياة ، وهي تعب مستمرّ وسعي متواصل . ولكن الجياد المشتركة في السباق تستعرض أمام الجمهور ليكوّن عنها فكرة ، ومن الحيف ان يرى خنصر اليد الواحدة أقوى من ابهامها .

«ان الذكاء قوة جبّارة ، إذا لم يُقْض عليه قضى على صاحبه . وقد كان لي بعض الذكاء فقضيتُ عليه ، وتقوّضت أسبابه ، ولكني لم أهلك تحت الأنقاض .

«لم أفكر حتى الآن في الدور الذي يلعبه الحظ في حياة الانسان . ولكني أفهم ان

السجين ينظر الى العالم من نافذة سجنه . وهكذا أعيش في الفلوجة ، أجامل وأتلطّف وأساير ، ثم تمضي بقية الحياة موتاً صامتاً .

«لست متشائماً ينظر الى الدنيا بالعبوسة والتقطيب ، ولكن قد يكون مبعث هذا الشعور تفتّح الربيع . والشمعة قبل ان تذوب ترسل شعاعاً ساطعاً» .

* * *

كان ابراهيم صالح شكر قائممقام خانقين المجاورة للحدود الايرانية في أثناء حركة ايار ١٩٤١ ، فرأى رشيد عالي الكيلاني والوزراء وقوّاد الجيش يمرّون به هاربين الى ايران بعد اخفاق حركتهم . وكان بعضهم لا يحمل جواز سفر ، فكان ابراهيم يأمر ضابط السفر في قضائه بمنحهم الجواز .

حدثني ثقة ان يونس السبعاوي كان آخر من جاء الى خانقين في طريق الفرار . وقال لابراهيم صالح شكر انه حلم في الليلة الماضية انه كان يصعد سلماً عالياً معلقاً في الفضاء ، فلم يكن من ابراهيم إلا ان أجابه : ذلك سلّم المشنقة الذي سوف تصعده في المستقبل !

هل يمكن مقايسة ابراهيم صالح شكر بالخطيب الشاعر المصري عبد الله نديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦)؟ كان النديم ممّن هللوا وكبّروا للثورة العرابية سنة ١٨٨٢ ، فطلبته السلطة وهو متخفٍّ نحواً من تسع سنين . ثم نفي الى خارج القطر ، وعاد فأصدرمجلة «الاستاذ» سنة ١٨٩٢ حاملاً على الحكومة المصرية والاحتلال الانكليزي من ورائها . أغلقت صحيفته في السنة التالية فودّعها قائلاً :

«ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب . والعاقل يتلذّذ بما يراه في فصول تأريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً في أعين الواقفين عند الظواهر . وعلى هذا فإني أودّع اخواني قائلاً :

أودّعكم ، والله يعلم أنني ... أحبّ لقاكم والخلود اليكمُ
وما عن قلىً كان الرحيل ، وإنّما ... دواعٍ تبدّت فالسلام عليكم» .

وقد نفي من مصر مرة أخرى فمضى الى استانبول وتوفي بها .

عبد الغفور البدري

من رواد الصحافة الوطنية في العراق ، كان ضابطاً في الجيش التركي . أصدر جريدة «الاستقلال» سنة ١٩٢٠ فظلت تصدر سنوات طويلة . ولد عبد الغفور البدري في بغداد سنة ١٨٩٠ وتوفي بها في ٧ آب ١٩٤٣ . وقد ترجمت له في «اعلام اليقظة الفكرية» .

ينتمي البدري الى فرقة البوعسّاف من عشيرة البوبدري السامرائية . وقد آمن بالفكرة العربية منذ شبابه وكان أحد مؤسسي جمعية العلم الأخضر في استانبول سنة ١٩١٢ .

اتهم في حزيران ١٩٣٠ بالقذف في الذات الملكية . وحكم عليه بالسجن لتصدّيه لنزاهة الوزير مصطفى العمري في جريدته «الاستقلال» ، وعفي عنه بعد ذلك (أوائل ١٩٣٩) .

وفاتح مع فريق من أصحابه الدكتور فريتز غروبّا وزير المانية المفوض في بغداد لتأليف حزب عراقي يتبنّى المبادئ النازية (حزيران ١٩٣٣) ، لكن غروبّا رفض التأييد حسب تعليمات وزارة الخارجية في برلين التي لم ترغب في المداخلة في شؤون البلاد العربية التابعة للسيطرة البريطانية .

شاكر محمود النعمة

الصحفي الأديب شاكر بن محمود المعتوق النعمة ينتمي الى أسرة بصرية معروفة أصلها من عشائر عربستان المضرية ، وقد هاجر جدّها الى البصرة في نحو سنة ١٧٥٠ . وعرف من ابنائها عبد الرزاق النعمة نائب البصرة في مجلس المبعوثان التركي سنة ١٩١٤ . وكان محمود (ابو شاكر) قائممقاماً لقضاء ابي الخصيب والمسيب والسيبة ورئيس بلدية البصرة ونائبها في مجلس النواب سنة ١٩٤٣ .

ولد شاكر النعمة في البصرة سنة ١٨٩٧ ودرس في الجامعة الأميركية ببيروت (١٩١٢ - ١٦) . عيّن على اثر الاحتلال البريطاني مساعداً للحاكم السياسي في علي الغربي (١٩١٨) . ثم ولج ميدان الصحافة وكان محرراً للقسم العربي لجريدة «الأوقات العراقية» (١٩٢٥) . ثم أصدر جريدة «الثغر» في البصرة في آذار ١٩٣٣ ، فواظب على اصدارها ، باستثناء بعض الفترات ، الى كانون الثاني ١٩٦٩ . وأعاد صدارها بعد ذلك الى سنة ١٩٧٣ .

وقد انتخب نائباً عن البصرة خلفاً لأبيه في كانون الثاني ١٩٤٦ . وتوفي في مسقط رأسه في تموز ١٩٧٨ .

يحيى قاسم

الصحفي المحامي يحيى قاسم ولد في الموصل سنة ١٩١٣ ودرس في كلية الحقوق ببغداد ، ووظف معاوناً لسكرتير مجلس الوزراء في حزيران ١٩٣٧ فمميزاً في ادارة السكك الحديد العراقية ، لكنه استقال من الوظيفة سنة ١٩٤٤ لينصرف الى المحاماة والصحافة . وأصدر في تلك السنة جريدة «الشعب» اليومية في بغداد (٣ ايلول ١٩٤٤) وواظب على اصدارها حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

عرف في شبابه بميوله اليسارية ، وترجم كتاب «العمل بأجرة ورأس المال» (١٩٤٤) من تأليف كارل ماركس . لكنه اتجه بعد ذلك الى اليمين ، وكان في جريدته ممالئاً لنوري السعيد وصالح جبر .

انتخب نائباً عن تلعفر (الموصل) في حزيران ١٩٥٤ ، لكن المجلس حلّ بعد عقد جلسة واحدة فقط . وفي انتخابات نيسان ١٩٥٨ انتخب نائباً عن ناحية الشورة (الموصل) ، وانحلّ المجلس بقيام ثورة تموز . واعتقل يحيى قاسم أمداً ثم أخلي سبيله .

اتخذ مقرّه بعد ذلك في لندن ، واتهم في شباط ١٩٧٢ في حادث محاولة اغتيال عبد الرزاق النايف (رئيس وزراء العراق لمدة ١٣ يوماً بعد ١٧ تموز ١٩٦٨) ، لكن برّئت ساحته في حزيران من تلك السنة بعد المحاكمة التي جرت أمام محكمة جزاء لندن المركزية . وغادر انكلترة منذ ذلك الحين الى البرازيل وأقام في بلدة ريو دي جانيرو .

قيل لي انه توفي في البرازيل قبل سنة ١٩٩٠ (؟) .

سليم البصّون

الصحفي المناضل والأديب اللامع سليم خضوري البصّون ولد في بغداد سنة ١٩٢٧ ، وتوفي والده وعمره لا يزيد على ثماني سنوات . درس في المدارس الأهلية ونال الشهادة الثانوية . مال الى الصحافة منذ نعومة أظفاره ، فدرسها بالمراسلة في معهد الجوهري بمصر .

أخذ بالكتابة في جريدة «الشهاب» لصاحبها شفيق نوري السعيدي سنة ١٩٤٣ . وتولى ادارة مكتبة الاحرار التي أسستها عناصر دمقراطية لبث الوعي السياسي ومكافحة النازية والفاشية . ونشر المقالات الأدبية والشعر والقصص في الصحف والمجلات كمجلة «المجلة» و«الرابطة» و«الزهراء» .

كانت حياته الصحفية مليئة بالنضال ، فاعتقل وشرّد مراراً . وانضم سنة ١٩٤٦ الى الحزب الوطني الدمقراطي الذي يرأسه كامل الجادرجي ، وحرر في جريدة «الشعب» . وانتمى بعد ذلك الى حزب الاتحاد الوطني برئاسة عبد الفتاح ابراهيم ، وعمل سكرتيراً للتحرير في جريدة «السياسة» وثم في «صوت السياسة» . وسحبت اجازة الحزب فعمل مديراً للتحرير في جريدة «الرقيب» لصاحبها حسن أحمد الأسدي ، وحرر في مجلة «قرندل» التي أصدرها صادق الأزدي سنة ١٩٤٧ .

تولى سنة ١٩٤٨ اصدار جريدة «الاستقلال» التي آلت الى طه لطفي البدري . وكتب المقالات الجريئة في مهاجمة الحكم القائم والتنديد بمهازل الانتخابات النيابية ، فاعتقل وأبعد الى قضاء بدرة على الحدود الايرانية (ايار ١٩٤٨) . وعاد بعد اطلاق سراحه الى الميدان الصحفي ، فحرر في جريدة «الشعب» لصابحها يحيى قاسم . وانتقل الى التحرير في جريدة «البلاد» لصاحبها رفائيل بطي سنة ١٩٥٤ .

بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ اتصل بمحمد مهدي الجواهري وقام بتحرير جريدته «الرأي العام» . واعتقل بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم سنة ١٩٥٩ بتهمة التحريض على الفتنة وأبعد الى بلدة السماوة ، لكن أخلي سبيله بعد شهر ونصف . وتعرّض بعد سقوط الحكم القاسمي سنة ١٩٦٣ لمحاولة اغتيال .

حرر جريدة «الراصد» سنة ١٩٧٠ . واحتجز مرة أخرى سنة ١٩٧٣ ، فاضطرّ على مغادرة العراق والهجرة الى اسرائيل ، حيث عمل في الصحافة والاذاعة العربية .

أصيب بمرض نفسي سنة ١٩٨١ ، فبقي قعيد داره ورهين المصحّ أعواماً طويلة ، حتى أدركته الوفاة في بلدة الحضيرة القريبة من حيفا في ١٨ آب ١٩٩٥ .

لم يلهه عمله الصحفي ونشاطه السياسي عن الأدب ، فنشر المقالات والقصص في المجلات العربية كالأديب والألواح والعلوم اللبنانية والصباح والثقافة المصريتين . وشارك في اصدار سلسلة رسائل الثقافة الحديثة مع فاضل الطائي . وألف «على مسرح الحياة : مقالات وصور من الأدب الواقعي» (١٩٤٥) . ووضع كتاباً عن الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري الذي لازمه سنوات عديدة لا يزال مخطوطاً .

صبيح الغافقي

الصحفي الألمعي صبيح بن أنور ابراهيم معاون شرطة كربلاء ولد في بغداد سنة ١٩٢١ . انتمى الى الكلية العسكرية ، واتخذ لقب الغافقي لاعجابه بالقائد العربي الشهير . لكنه ترك الجندية وانصرف الى الصحافة وأصبح مراسلاً لجريدة «الزمان» لصاحبها توفيق السمعاني سنة ١٩٤٤ . وقد ظل يراسل هذه الجريدة أعواماً طويلة ، وعمل في الوقت نفسه في صحف أخرى كجريدة «بريد الجمعة» لصابحها سلمان الشيخ داود (١٩٤٧) ، وكان مراسلاً لوكالة الأنباء العراقية الى سنة ١٩٥٨ .

أصدر جريدة «الحارس» سنة ١٩٥٢ وجريدة «المستقبل» سنة ١٩٥٤ ، وعمل ايضاً محرراً في جريدة «البلد» لصاحبها عبد القادر البرّاك (١٩٦٣) .

زار لندن في صيف ١٩٨١ وجاء الينا مراراً ، وحيّيته بقصيدة مطلعها :

الغافقيّ صبيح يقول دوماً : مليح !

وتوفي في بغداد في ٢١ آب ١٩٨٤ .

كان مراسلاً صحفياً قديراً زار مصر وبعض الأقطار العربية الأخرى في مهامّ صحفية . وقد دأب على زيارتي ، وزيارة الكثيرين غيري ، مرة او مرتين كل أسبوع خلال ثلاين سنة لاقتناص الأخبار والآراء الاقتصادية والأدبية والتأريخية . وابتدع لنفسه أسلوباً في تحرّي الأخبار وكتابتها قلّما جاراه احد في عهده .

قال جعفر الخليلي ان صبيح الغافقي من ألمع الصحفيين ، وقد قرّبته ملكته الصحافية من أهم الشخصيات في جميع الأقطار العربية ، وصارت له مراسلات واتصالات بينه وبينها .

الى الأخ صبيح الغافقي

ذكرى زيارته للندن

الغافقيُّ صبيح — يقول دوماً : مليح !
أولى الصحافة فضلاً — إذ الزمانُ شحيح
ففي «الزمان» سَبُوقٌ — وفي «البريد» صريح
و«حارس» له جلّى — بالحقّ كان يبوح
ثم استكان ، ولأياً — ما يستكين الطّموح
جهاده ليس يُنْسى — والرأي رأي صحيح
والوجه منه بسيم — والقول عذب فصيح
قد جاء لندن كيما — من العَنَا يستريح
بالأمس قد كان يغدو ، — واليوم أين يروح؟
مضى الزمان المؤاتي ، — ففي القلوب جروح
وفي النفوس هموم — وفي الوجوه كُلُوح
وفي العيون رسوم — كم تختفي وتلوح
أين الغَبُوق مساءاً — وأين أين الصّبُوح؟
والورد أين شذاه — بين الرّياض يفوح؟
والليل داجٍ طويل — والذّكريات تنوح
ترى صديقك يغضي — بوجهه ويُشيح
هل اللّسان كليل — أم الفؤاد جَمُوح؟
والدهر عات جَهُول — ما لا يُبَاح يُبيح
فأسدل السّتّر صفحاً ، — إنّ الكريم صَفُوح
واغفر لدهرك ذنباً ، — فقد يفوز السّميح
هذا قريضي اليكم ، — وليس فيه مديح

عبد القادر البرّاك

عبد القادر البرّاك الصحفي الممتاز ولد ببغداد سنة ١٩٢٣ ودرس بها . مال الى الصحافة منذ مطلع شبابه فحرر في صحف مختلفة . وأصدر سنة ١٩٤٦ جريدة اسبوعية باسم «الأمالي» ولم تدم طويلاً . ثم رئس تحرير مجلة «المصور» التي أصدرها المحامي مهدي الصفار في تشرين الثاني ١٩٥٠ . وأصدر جريدة «الميثاق» اليومية ، وقد ألغي امتيازها في كانون الأول ١٩٥٤ . وفي نفس ذلك الشهر رئس تحرير جريدة «الحياد» لصاحبها المحامي جلال الأورفه لي .

واصل البراك جهاده الصحفي فأصدر بعد ذلك جريدتين يوميتين كان لهما شأن كبير في الصحافة العراقية ، اولاهما جريدة «الأيام» التي واصل اصدارها من ١٩٥٩ الى ١٩٦٣ ، والثانية جريدة «البلد» التي صدرت في آب ١٩٦٣ واستمرت الى ١٩٦٧ . وأصدر حيناً سنة ١٩٦٣ ممجلة اسبوعية باسم «البلد» ايضاً . تفنّن البراك تفنناً جميلاً في جريدتيه «الايام» و«البلد» وكتب فيهما المقالات السياسية والأدبية ، ودعا كبار الأدباء الى الكتابة فيهما بصورة متصّلة . وتعتبر مجلداتهما لثماني سنوات سجلاً حافلاً للحياة العراقية في مختلف وجوهها .

كتب البراك تراجم أدبية جمعها في كتابه «أعلام من الشرق» (١٩٥٠) . وذكر له عبد الاله أحمد في فهرسته قصة عنوانها «في بوعدك» نشرها وهو شاب يافع في جريدة «بغداد» سنة ١٩٣٨ .

اضطر على التقاعد عن عمله الصحفي بعد سنة ١٩٦٧ . وأدركته الوفاة في بغداد في كانون الأول ١٩٩٤ .

مجيب حسّون

الصحفي مجيب سليم حسون ولد في الموصل سنة ١٩١٨ ودرس في بغداد . مال الى الصحافة منذ نعومة أظفاره فحرّر في جريدة «العالم العربي» التي كان يصدرها أبوه سليم حسون . ثم أصدر سنة ١٩٤٨ جريدة باسم «الحسون» .

رئس بعد ذلك تحرير جريدة «عالم اليوم» لصاحبها حسين حسني الخطاب التي صدرت في شباط ١٩٥٤ ، وجريدة «الديار» المسائية لصاحبها حسين عبد الكريم (حزيران ١٩٥٤) ، وقد أغلقت الصحيفتان في كانون الأول من تلك السنة .

لكنه اشتهر بعد ذلك بمجلته الفكاهية الأسبوعية «المتفرّج» التي أصدرها في كانون الثاني ١٩٦٥ واستمر على اصدارها حتى ألغي امتيازها في نيسان ١٩٧٣ .

توفي في بغداد في كانون الأول ١٩٩٣ .



العلوم السياسية
والقانونية والطبية



الدكتور سامي شوكت

هو ابن شوكت باشا وأخو ناجي شوكت رئيس الوزارة العراقية ، ولد سامي في بغداد سنة ١٨٩٣ ، وتخرج في المدرسة الاعدادية الملكية في سنة ١٩١١ فقصد الاستانة ودرس في كلية الطب العسكرية في حيدر باشا وتخرج طبيباً (١٩١٦) . وعيّن طبيباً عسكرياً في جناق قلعة ، فرئيس صحة لواء المشاة الـ ١٧١ (١٩١٧) .

وانضم بعد الهدنة الى الجيش العربي السوري برتبة رئيس طبيب (١٩١٩) وعيّن طبيباً للفوج الثاني . ثم عاد الى العراق ، فعيّن كحّالاً في المستشفى الملكي في بغداد (١٩٢١) فمعاوناً لرئيس صحة لواء بغداد (١٨ نيسان ١٩٢٢) فمديراً لصحة العاصمة (أول ايار ١٩٢٤) . ونقل مديراً عاماً للمعارف (١٥ تشرين الأول ١٩٣١) فمديراً عاماً للصحة (حزيران ١٩٣٤) فمفتشاً عاماً لها (ايلول ١٩٣٤) فمدير الصحة العام للمرة الثانية (١٥ آذار ١٩٣٦) . وأعيد مديراً عاماً للمعارف (آذار ١٩٣٩) ، ثم أصبح وزيراً للشؤون الاجتماعية (٢٠ ايلول ١٩٣٩) الى ١٨ شباط ١٩٤٠ في الوزارة السعيدية الرابعة . وانتخب نائباً عن الديوانية (تشرين الأول ١٩٣٩) . ثم تولى وزارة المعارف في الوزارة السعيدية الخامسة (٢٢ شباط ١٩٤٠ الى ٣١ آذار ١٩٤٠) .

أعيد تعيينه مديراً عاماً للمعارف (٦ نيسان ١٩٤٠) فمديراً عاماً للشؤون الصحية والاجتماعية (١٤ كانون الثاني ١٩٤٣) حتى استقال في أواخر كانون الأول ١٩٤٥ ليتفرّغ للعمل السياسي . وقد أصدر جريدة يومية في بغداد باسم «البعث القومي» (١٧ شباط ١٩٤٦) ثم جعل اسمها «البعث» (حزيران ١٩٤٦) . وأسس حزب الاصلاح وتولى رئاسته (تشرين الثاني ١٩٤٩) وأصدر جريدة باسم «الاصلاح» . وقام بعد ذلك بادماج حزبه بحزب الأمة الاشتراكي بزعامة صالح جبر (تموز ١٩٥١) . وانتخب نائباً عن الكوت في مجلس النواب (حزيران ١٩٥٠ الى تشرين الأول ١٩٥٢) .

كان الدكتور سامي شوكت من المؤمنين بالفكرة العربية منذ عهد شبابه وعمل لها طول حياته . من مؤلفاته : فنّ القبالة (١٩٢٣) ، فذلكة في الطب (١٩٢٦) ، هذه أهدافنا (١٩٣٩) . وكتب بحوثاً طبية وعلمية وقومية كثيرة ، منها بحثه في منشأة الانسان او نظرية

لامارك وداروين نشره في العدد الممتاز لجريدة «العراق» الصادر في أول سنة ١٩٢٣ . وقال في مقدمته : «... وإن كانت يدي قد خلقت لجسّ النبض اكثر منها لامساك الريشة ، وعيناي تعوّدت على مطالعة أشكال الموتى والمرضى أكثر من الحسن والجمال» .

توفي الدكتور سامي شوكت في بغداد في ١٢ كانون الاول ١٩٨٦ .

* * *

حين اشتدت معركة السفور والحجاب سنة ١٩٢٤/ ٢٥ انبرى الدكتور سامي شوكت ينتصر لدعاة السفور بتوقيع «فتاة غسّان» ويردّ على الحجابيين بأسلوب تشيع فيه القسوة والمرارة ويغلب عليه طابع الحقّ والوجدان - كما قالت صبيحة الشيخ داود في كتابها «أول الطريق» .

نعت «فتاة غسان» على الحجابيين رغبتهم في بقاء المرأة على حالها متذرعين بالدين والعادات ، بينما هم يجيزون لأنفسهم اتيان الكبائر من ميسر وخمر دون خشية من الدين او العرف . وضربت مثلاً بالمرأة القروية والبدوية ، فهي سافرة تشارك الرجل في عمله . ودعت أخيراً الى مساواة المرأة بالرجل وفسح المجال أمامها لتتعلم وتتثقف دون أن تطلق لها الحرية في ان تفعل ما تشاء .

وألقى سامي شوكت في خريف ١٩٣٣ كلمة بعنوان «صناعة الموت» دعا فيها الى احراز القوة لدعم استقلال البلاد ، ونادى بنبذ الترف والتمسك بشعار «اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم» . فقال رزق الله اوغسطين : «صناعة الموت يتقنها الطبيب الجاهل» !

وأنشأ سامي شوكت ، وهو مدير المعارف العام ، نظام الفتوّة واتخذ لقب «حامي الفتوة» وأدخل التدريب العسكري في المدارس . ومما يذكر ان حركة مماثلة نشأت في مصر سنة ١٩٣٣ ايضاً ، إذ انشأ حزب مصر الفتاة تنظيمات شبه عسكرية باسم «القمصان الخضر» ، وانشأ الوفد القمصان الزرق ، والاخوان المسلمون الجوّالة والكتائب . وابتدع حسن البنّا زعيم هؤلاء شعار «فنّ الموت» .

دعا سامي شوكت الى «صناعة الموت» و«الغرور القومي» وشعارات مماثلة وقال : «تلك مبادئنا فمن آمن بها فهو منّا» ، يريد بذلك انه لا يميّز بين القوميات والأديان والمذاهب المختلفة في العراق وسائر أقطار العروبة ماداموا يؤمنون بمبادئه . وقد رددتُ عليه ضمناً بحديث عنوانه «القومية بين الشعور والغرور» أذيع من دار الاذاعة العراقية في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٣ ، قلت فيه ان الشعور القومي يعمر القلوب بالعزم والايمان ويسدّد النفوس الى غاية سامية رفيعة . وهو الشعور بالفكرة التي حملت الى العالم

والانسانية في العصور الخالية رسالة الخير والمدنية والسعادة . وهو شعور يحدو بصاحبه الى الاعتداد بنفسه والاعتماد عليها دون ازدراء غيره او الحطّ من شأن سواه . وهو شعور يثير في حامله ذكريات الماضي العربي المجيد ليقتدي به ولينسج على منواله دون ان يتخذ منه ذريعة للتبجّح الفارغ والتفاخر و الادعاء . ثم قلت : والغرور من الكلمات التي لا تحمل الى الفكر معنى خليقاً بالاستحسان والاكبار ولو نعت بالقومية وذكر بالخير والاطراء . فحبّذا الشعور ولا حبّذا الغرور!

وكان سامي شوكت من أصدقاء رزوق غنام صاحب جريدة «العراق» ، فإذا انتهى الدوام الرسمي عصراً كان كثيراً ما يحضر الى ادارة الجريدة ويشترك في الندوة التي يؤمّها غير قليل من الأدباء والشعراء ورجال السياسة والفكر . وكان يشرح آراءه القومية وخططه في تحقيق الوحدة العربية ، ويتمنّى ان يحصل التعاون بين العرب واليهود في فلسطين (كان ذلك في سنوات الثلاثين قبل الحرب العالمية الثانية) ، فيقول ان اليهود يملكون الفكر والفنون الصناعية والمال ، وللعرب الأرض والنفوس . وهم ساميون ابناء عمّ ، فإذا تضافرت جهودهم أسفرت عن أطيب الثمرات .

أصدر جريدة «البعث القومي» في شباط ١٩٤٦ فكتبت جريدة «صوت الأهالي» في احدى المناسبات في ٤ حزيران ١٩٤٦ تنعت هذه الصحيفة بالفاشية ، وقالت : «ان الجريدة المذكورة لا تزال في نظرنا جريدة بعث الفاشية في العراق . ان ما تقوم به جريدة البعث القومي هو محاولة واضحة للدسّ على الحياة الحزبية والحريات الديموقراطية في العراق ، وهذا ما يعرفه الرأي العام في العراق حق المعرفة عن تلك الجريدة الفاشية التي تعبّر عن رأي فئة في هذه البلاد تضمر أشدّ العداء للحياة الديموقراطية» .

ولا حاجة للقول ان «بعث» سامي شوكت لا علاقة له بحزب البعث العربي الذي أنشئ بعد ذلك .

أصدر سامي شوكت جريدته «البعث القومي» في شباط ١٩٤٦ وطلب تأسيس حزب بنفس الاسم بمساندة الشيخ فريق ا لمزهر الفرعون والشيخ تكليف المبدر الفرعون وغيرهما ، لكن وزارة الداخلية رفضت اجازة الحزب لأن اكثرية هيئته المؤسسة تصطبغ بصبغة عشائرية . وأغلقت جريدة «البعث القومي» في ٥ حزيران ١٩٤٦ ، فصدر بدلاً عنها جريدة «البعث» التي أغلقت هي الأخرى في ٢٦ تموز ١٩٤٦ . وقوبلت مساعي سامي شوكت الصحفية والسياسية بمعارضة باعتبارها محاولة لبعث النازية والفاشية .

ثم تولىّ سامي شوكت تأسيس حزب الاصلاح وأصدر جريدة باسم «الاصلاح»

(٢٦ آذار ١٩٥٠) . واستمرت الجريدة على الصدور حتى حلّ الحزب سنة ١٩٥١ ، وانضم اعضاؤه الى حزب الأمة الاشتراكي .

أقام الدكتور سامي في أعوامه الأخيرة معتزلاً في بلدة بعقوبا ، ثم عاد الى بغداد وتوفي بها .

ذكره الدكتور هاري سندرسن الطبيب الانكليزي الذي خدم في العراق ٢٨ سنة في كتابه «عشرة آلاف ليلة وليلة» ، فقال ان الدكتور سامي مشرب بروح الخدمة العامة ، لكن مشاريعه في معظم الأحيان غير عملية وإن اتّسمت بالطموح . قام بتنظيم الفتوّة (وهو مدير المعارف العام) وعمّمها في المدارس واتخذ من نفسه حامياً لها وجعل شعارها «اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم» . ولم يطل بها العهد فاندثرت بعد نشوب الحرب العالمية الثانية . وقد اقترح الدكتور سندرسن على سامي شوكت ان تتاح الفرصة لفتيانه الوطنيين لخدمة بلادهم عن طريق التبرّع بالدم ، فأجاب ان الفتوة تبذل آخر قطرة من دمائها في الدفاع عن الوطن ، لكن التبرع بالدم لا يدخل ضمن واجباتها .

وقال الدكتور سندرسن ان الدكتور سامي حين أصبح وزيراً للشؤون الاجتماعية حاول الغاء البغاء وانشاء دور اصلاحية للبغايا واقترح تشييد مساكن للعمال ، لكن مشاريعه عورضت او أهملت ، فلم يتسنّ لها التنفيذ .

ذكر ناجي شوكت في «سيرته وذكرياته» ان شقيقه الدكتور سامي شوكت نشر مقالاً في بعض الصحف اليومية يتزلف به الى عبد الاله الوصي على العرش ويتملّق الانكليز - وكان ناجي آنذاك معتقلاً في سجن ابو غريب . ولمح الدكتور سامي في مقاله انه ، كلما مرّ من أمام البلاط الملكي ، تعتريه رجفة من الخجل ويأسف لأن في دمه الدم الذي يجري في عروق أحد أقاربه (أي ناجي) . وقال ناجي ان أخاه سامي ندّد به في الحفلات العامة بعد الحكم عليه سنة ١٩٤٢ ، بينما أخوه الآخر الدكتور صائب أبدى نحوه كل عطف وحنان وساعده في أيام نكبته .

سعد صالح

شهاب تألّق في سماء السياسة العراقية لحظة قصيرة ثم هوى وغاب .

وسعد بن محمد صالح آل جريْو من أسرة هاشمية رفيعة النسب ، رقيقة الحال . ولد في النجف في ٢٤ تشرين الثاني ١٨٩٨ ، ودرس العلوم العربية في معاهدها على الطريقة القديمة . وكان له مع شباب بلده مواقف وطنية محمودة إبّان الغليان التحرّري سنة ١٩١٨ والثورة العراقية سنة ١٩٢٠ . وقد حلّ في بغداد سنة ١٩١٩ وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية ، وبعد عودة الى النجف ونشاط وطني قام به في عام الثورة ، اضطرّ على اللجوء الى الكويت عن طريق البصرة . لكنه لم يلبث ان قدم الى بغداد وواصل دراسته في دار المعلمين وتخرّج فيها سنة ١٩٢١ . وولج مدرسة الحقوق في العام نفسه فنال شهادتها سنة ١٩٢٥ .

عمل في الوقت نفسه معلماً في المدرسة الجعفرية ببغداد (نيسان ١٩٢٣ - تشرين الأول ١٩٢٣) فمدققاً في مديرية المحاسبات العامة (آذار ١٩٢٤ - تشرين الأول ١٩٢٥) ، حتى إذا ما أتمّ دراسته القانونية عيّن مديراً لناحية الجربوعية (وهي قضاء الهاشمية بعد ذلك) في ٦ كانون الثاني ١٩٢٦ ، فمدير ناحية عكيكة (٥ ايلول ١٩٢٦) فالرميثة (١٠ آب ١٩٢٧) . وقام بوكالة قائممقامية قضاء ابي صخير ، ثم استقال في ٢٤ شباط ١٩٢٨ .

انتخب نائباً عن الديوانية (تشرين الثاني ١٩٣٠) ، فكربلاء (آذار ١٩٣٣ وشباط ١٩٣٤ وآب ١٩٣٥) . ثم عيّن مفتشاً ادارياً (٢٩ نيسان ١٩٣٦) فمتصرفاً للواء الحلة (١٤ شباط ١٩٣٩) ، فالكوت (١١ تموز ١٩٤٠) ، فالحلة ثانية (٢٠ تشرين الثاني ١٩٤١) ، فالمنتفك (٣ كانون الثاني ١٩٤٣) ، فالعمارة (٢٦ تشرين الأول ١٩٤٣ الى ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٤) .

وانتخب نائباً عن لواء الديوانية (أول كانون الأول ١٩٤٤) . وعين وزيراً للداخلية في وزارة توفيق السويدي الثانية من ٢٣ شباط ١٩٤٦ الى أول حزيران ١٩٤٦ . وقد اشترك في تأسيس حزب الأحرار سنة ١٩٤٦ وتولى رئاسته في السنة التالية . وأعيد

انتخابه نائباً عن كربلاء (حزيران ١٩٤٨) ، لكنه أصيب بداء وبيل وتوفي في بغداد في ١٧ شباط ١,٩٤٩

السياسي والاداري والخطيب

بدأ سعد صالح حياته شاباً وطنياً متحمساً اشترك في الحركات التحررية ونظم شعراً وطنياً وأناشيد مدرسية . ثم كان في الادارة متصرفاً حازماً مصلحاً يدرس مشاكل الألوية (المحافظات) التي تنقل فيها ويحاول ايجاد الحلول العادلة والملائمة لها . وبرز معارضاً حرّ الرأي في مجلس النواب سنة ١٩٤٤ - ١٩٤٦ ، فكان خطيباً برلمانياً مفوّهاً ، صلب العقيدة ، ثابت المبدأ ، صريح القول ، مؤمناً بالتقدم والاصلاح . وكانت خطبه مثالاً يحتذى في أدبها وعفتها ، على ما فيها من حجّة واضحة واشارات لاذعة ، ناصعة الأسلوب العربي ، مطعّمة بالشواهد الشعرية والأمثال والحكايات الشعبية .

كان سعد صالح مؤمناً بالوحدة الوطنية ، مناوئاً للطائفية ، داعياً الى العدل الاجتماعي ، معتقداً ان طريق الاصلاح انما هو طريق الحرية ، وأن الحرية لا يمكن ان يخشاها الأقوياء . فمن خطبه في مجلس النواب التي تمثل أسلوبه ومبادئه ، قوله في القضية الكردية :

«انني لا أريد للألوية العربية اكثر مما أريده للألوية الكردية ، لا أريد إلا حالة واحدة :

فلا مطرت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا» !

وقال في موضوع العشائر المشرّدة من أرضها :

«جيء برؤساء عشيرة الدريع الى قائممقام الحيّ ، وكان قسم كبير منهم يقطن في أراضي ميّاح ، فأمرهم القائممقام بتقديم أفراد عشيرتهم الى التجنيد ، فقالوا له : ما هي واجبات الجندي ، يا صاحب السعادة؟ فأجاب : هي الدفاع عن الوطن . قالوا : ليس للدريع وطن حتى يدافعوا عنه ، فقد اخرجتنا الحكومة من أراضينا في لواء العمارة منذ سنة ١٩٢١ وبقينا طوال هذه المدة تائهين في الصحراء بين ألوية العمارة والمنتفك والكوت ، فكيف نقنع العشيرة بوجوب الدفاع عن وطن لا يملكون فيه أرضاً يزرعونها او يرعون مواشيهم فيها؟

«ومع ان كلامهم كان مليئاً بالصدق والحقّ ، إلا ان منطق القائممقام كان ضرباً مبرّحاً وشتماً وتوقيفاً . اني ، أيها السادة ، كلما تذكرت حالة هذه العشيرة البائسة

وتصوّرتها وهي تضرب في التيه منذ أربع وعشرين سنة ، تتطلب الماء فلا تقع إلا على سراب الصحراء الملتهبة ، وتنتجع الكلأ فلا تجد إلا الرمل والحصى . ثم يلجئها المحل الى مزارع الكوت او المنتفك فتذاد عنها ذود غرائب الإبل وتطرد طرد الكلاب الكلبة...» .

وقال في معرض الردْ على رئيس الوزراء : «لقد سمعت بالأمس القريب بمناقشة في قضية البارزانيين وردّ فخامة الرئيس ، ذلك الردّ الذي كان مشوباً بالغضب مع انه لم يسمع مني إلا النزر اليسير مما يقوله الناس عن تلك القضية وعن الأموال العظيمة التي صرفت لاطفاء هذه الثائرة . فلقد عملت بقاعدة «ما كل ما يعلم يقال» ، ومع ذلك وصفني بالتجرّؤ على اتهام الحكومة ، وقال انه يردّ ذلك بكل قوة عليّ . وفخامة الرئيس - حفظه الله وهداه - إذا غضب استعمل من التعابير ما لا يرضاه له صديق ، فقد ذكرّني موقفه هذا بكلمة الشاعر اللاتيني جوفنيان(*) إذ قال : ما أكثر ما يخلع على النزاهة من برود الثناء ، ولكنها على ذلك ترتعد من البرد» !

وقال في مناسبة أخرى : «انهم يريدون ان يلبسوا الرذيلة أثواباً من الدمقس والحرير لتبدو جميلة فتانة ، وهم مع ذلك يتشكون من سوء الوضع وتدهور الأخلاق وفساد الجهاز الحكومي وانصراف الكثيرين الى النهب والسلب ، مستعملين في سبيل ذلك نفوذ مناصبهم ووظائفهم .

«ايها السادة ، نريد حرية نحارب بها الرذيلة ، نحتاج الى أحزاب سياسية ومنظمات اجتماعية تتسابق لبعث الفضيلة وتشجّع الكرامة الوطنية . فالبلاد التي تنمو بها الموبقات والآثام لا تعيش فيها الفضائل والأمجاد . والأمة التي تتعوّد على احتمال الهوان تموت ميتة الجبناء ، فيدوس التأريخ جثتها بأقدامه احتقاراً وازدراءاً .

من يهن يسهل الهوان عليه ، ما لجرح بميّت ايلام .

«ولكن ليس في وسعنا بعث الكرامة الاجتماعية وكرامات الأفراد موضوعة بالمناقصة . وكيف نبثّ الشعور بالكرامة القومية؟ أبإسدال الستار على الآثام والموبقات ونجاة مقترفيها من الحساب والعقاب؟» .

ومن أمثلة تهكمه اللاذع :

«ليست فلسطين قارة أميركة ولا أهلها من الهنود الحمر ، وليس الرئيس ترومان إله بني اسرائيل يريد ان يحقق لهم وعده» .

(*) أظن المقصود الشاعر اللاتيني جوڤنال الذي عاش بين سنة ٦٠ و١٤٠ للميلاد وكان نقاداً لاذع الأسلوب .

- «ان حمدي باشا (رئيس الوزراء حمدي الباجه جي) نزيه ، ولكنه لم يسمع مثلاً بأن هناك من يتعاطون المحاماة بعد ان لفظتهم الوظائف يقاولون أصحاب المصالح على تصدير بيانات من بعض أصحاب المعالي . وأعتقد بأن حمدي نزيه ، ولكنه لم يسمع خبر مثل هذا المحامي الذي استطاع ان يعطل قراراً . وأنا اعتقد بأن حمدي باشا نزيه ، ولكنه لم يسمع ان بعض الموظفين والمستخدمين أقصوا لأن علاقاتهم مع الوزراء غير متينة . وأعتقد ان حمدي نزيه ، ولكنه لم يسمع . . .

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة ،

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم» !

- «نحن لا نريد المناقشة في المنهاج سواء كان طويلاً ام قصيراً ، يضمّ أعمال مائة سنة او مائة يوم . ولا أنه فقط يحتوي على «س التسويف» وقد التحقيقيّة ولام التوكيد ، انما كانت خلاصة أقوال المعارضة من ان الحاضر مرآة للمستقبل ، وقد تطلّع الناس في هذه المرآة فلم يجدوا سوى الفشل» .

ومن أقواله في بعض خطبه بمجلس النواب :

«ان صوت الحق يعلو على أبواق القوة ، انه يسمع في كل زمان ومكان ، انه يلج القلوب قبل الآذان فيبعث الايمان في قلوب الضعفاء ، ويبعث الأمل في نفوس المظلومين ، ويهزّ أعصاب الظالمين ويهدّ كيانهم ويوقظ ضمائرهم فينهشهم نهش الأفاعي» .

- «أأترك أولادي فقراء اورثهم الاستقامة التي ربّما أنكرها الناس عليّ وربما قالوا : انه أحمق ، انه عاجز؟ استولت هذه الفكرة الملعونة على رؤوس الموظفين فعمل بها عدد كبير منهم حتى صار القابض على دينه كالقابض على الجمر ، كما جاء في الحديث الشريف» .

- «ان معارضتي لم تكن مشروطة بانهيار الوزارة وليست متوقفة على رضى فلان وفلان . ولا يعيقني عن قول الحق سخط فلان وفلان ولا حبّ موسى وكره فرعون» .

- قالوا : «ولم كل هذه الصراحة ، ونحن في بلد اتخذ سياسة اسدال الستار شعاراً له؟ قلت لهم : من هاهنا أتينا . علام تسدلون الستار ، أيها السادة؟ أعلى الفضائل والمناقب؟ لا بل انهم يسدلونه على الجرائم والآثام لينجو المجرمون والآثمون» .

* * *

تقلد سعد صالح الوزارة ثلاثة أشهر لا غير في حكومة توفيق السويدي ، فتمكن في هذا الأمد القصير ان يطلق حرية الصحافة ويلغي الادارة العرفية والقوانين والمراسيم

الاستثنائية ويقوم بتشريع قانون الانتخاب الجديد والاذن بفتح الأحزاب واخلاء سبيل المعتقلين السياسيين وغير ذلك من الأعمال التي أشاعت جوّ الحرية والفرج بعد قسوة أيام الحرب وغلظتها .

الشاعر الأديب

كان سعد صالح شاعراً بالفطرة ، فلو لم ينصرف الى الادارة والسياسة لكان له في عالم الأدب شأن مرموق .

قرض الشعر في مطلع شبابه . تألم لحال وطنه فقال :

سئمت العيش في وطن ... يُضام يذلّ يضطهد
محته يد القضاء فراح ... لا روح ولا جسد
عفت تلك الربوع ، فلا ... قديمات ولا جدد
رياض صوّحت ومهاً ... ذعرت ومجمع بدد

وبكى على أطلال المجد فقال :

وقفت بطامس آثارها ... فهاج الجوى نوح أطيارها
بروع قد اغبّر منها الأديم ... حداداً على فقد أقمارها
سلام عليك ، هضاب العراق ، ... منار العلى برج أنوارها
فوالهف نفسي ، كفّ الخطوب ... تشقّ حشاك ببتّارها
وتهجر أرضك تلك العلوم ... وقد كنت كعبة زوّارها
عزيز على الحرّ تلك البلاد ... يراها رهينةَ قهّارها

وخاطب القمر في محاقه منشداً :

أفلت فأظلمت الكائنات ... عليك وقطّب وجه الغَسَقْ
لفقدك أُلبِست النيّران ... ثياب الحداد وساد القلق
فللورق نَوْحَ على دوحها ... يردّده بالحفيف الورق
وللرعد لاطمة في السّحاب ... ذكا الحزن في قلبها فاحترق
مآتم ، يا بدر ، معقودة ... وقد عمّ فيها البكا والأرق
بكتك الدراري ، وذا دمعها ... يريك المجرّة نهراً دفق
بكتك الشقائق محمرّة ... بدمع لها خدّ وخدّاً وشق
بكاك النسيم ، وذا جيبه ... بليل أدمعه قد غرق

وقد كان سعد ذا حسّ مرهف ونفس شجيّة ، فلا عجب ان نطق شعره بالحزن والأسى . داعب الأمل مقتليه ذات يوم ، فخاطبه قائلاً :

كنت قد فضت شعاعاً في السّما ... فبدت منك بدور وشموس
وكسوت الأرض بالنور فما ... هي في بهجتها إلا عروس
ذاك عهد فيه دهري ابتسما ... ثم أضحى اليوم غضبان عبوس
كيف قد قطّب ذاك الابتسام ... وأقام البؤس من بعد الهنا
واستحال النور بحراً من ظلام ... غرقت في لجّه بيض المنى؟

لقد كان الأمل قيثارة تنشد له نغم الحبّ وألحان الشباب ، وكان نبراساً تجلى في الحياة فشق حجاب الظلمات وأبرز آيات الجمال . لكن يد القدر القاسية أخرست القيثارة وأطفأت وهج الضرام ، فتمنّى الشاعر لو عاد عهد النعيم فأزهر الروض وصدحت العنادل وهبّ النسيم العليل وصفقت أمواج الفرات تقبّلها أضواء الأصيل .

ذكر شبابه الذاهب فحنّ الى أفيائه الظليلة وأمواهه العذبة وقال في لهفة :

الصبا والهوى وبيض الأماني ... ذهبت كلها كأمس الذاهب
حدثوني عن الشباب ، فكل العيش ... في ذكره وذكرى الحبائب
وأذكروا لي عهد الشباب وما فيه ... من اللهو والمها والملاعب
صاح ، إنّي لأشترى عمر يوم ... من شبابي بحكمتي والتجارب
إن نقصاً مع الشباب لأبهى ... من كمال مع المشيب الشاحب
وضلالاً مع الشباب لأجدى ... من مشيب يهدي الطريق اللاحب
ان ليلاً يوحي الحياة دجاه ... لهو خير من ألف فجر كاذب

وقبل سعد صالح قال لورد بيرون شاعر الانكليز :

لا تحدّثني عن اسم مشتهر ، ... انما عهد الشباب المفتخر
وربيع العمر في أحلامه ... لهو خير من أكاليل الظفر

لكن هيهات ، لا يرجع الشباب ولا تغني التجربة والحكمة . ان الشاعر الذي هجر الشعر ليخدم أمته عن طريق الوظيفة والسياسة ، ونال الزعامة الشعبية فالتف حوله الشباب يتعلّمون منه دروس العمل الوطني الصامت ومناهج القصد والاعتدال ، ان هذا الشاعر القديم قد اعتصر روحه المرض وتنازعته الهموم والهواجس ، فعاوده الالهام . وكانت قصيدته «الأشباح» الشاحبة في وهجها كالشفق ، الكئيبة كمغيب الشمس في اليوم القرير :

أبــوارق الآمــــــــــــال والآلام ، لوحي لعلّك تكشـــفـــين ظلامي
فلقـد بدا شـبح الهـموم على الدجى حلكاً ركـامــاً قــام فــوق ركــام
يوحي الى نفس المــريض كــآبة خــرســاء تهلع مــهـجـة الضــرغــام
مــتــوسّطاً شــبــحـين : ذاك لمـحنة الوطن الأسـيــر وذا لفــرط ســقــام
فلعلّتي شـــبـح رهيب كـــالرّدى ، ولمـــوطني شــبـح جــريح دامي

ثم يقول :

طال الصــراع ، فــهل هناك نهــاية للكرّ والاقــــدام والاحــــجـــام؟
أتخـاف من طعم الردى فـتـعـافـه؟ لا تخش فـــهـــو ألذّ كلّ طعـــام
أم انت تستـبـقي الحـيـاة لطيبـهـا وبحــسنهــا قــد همت شــرّ هيــام؟
أأنت تذكـــر كلّ مـــا قـــد جــدّ في خــمــســين قــد مــرّت من الأعــوام؟
مــرّت بهــا صــور الحــيــاة سـريعـة وكـــأنهــــا فلْـم من الأفـــلام
ام انت تكره ان تفـــارق صـبـيــة ربيـــتـــهم بالعـــز والاكـــرام
عــودتهم رغــد الحـيــاة وطيـبــهــا عــيــشــاً حــلالاً لم يشب بحــرام
فـتـخـاف من صـرف الزمـان يذيقـهم من بعـــد يومك ذلّة الأيتـــام؟
لا تبـتـئس ، ان الحـيــاة وطيـبــهــا وشـــقـــاءها ضـــرب من الأوهام
أفــهل يفــرق من يمــوت إذا قــضى خــمــســين او ألفــاً من الأعــوام؟
فـــهل ادّخـــرت من اللذاذات التي حــصّلتــهــا في ســالف الأيام؟
أم هل تفــرّق ثمّ بين حــقــيـــقـــة حـــصلت وبين حـــوادث الأحـــلام؟

ثمّ قضى الشاعر الكهل ، وكان صمت الدهور .

مكي الأورفه لي

من رجال القضاء محمد مكي بن عبد الرحمن بن عثمان آغا بن محمد سليم الاورفه لي ، وأصل أسرته من بلدة اورفه (الرها) . ولد في بغداد سنة ١٨٨٧ وتخرّج في مدرسة الحقوق . ولما نشبت الحرب العامة جنّد ضابطاً احتياطياً في الجيش التركي . واحتلّ الانكليز بغداد سنة ١٩١٧ فنفي الى بلاري من أعمال الهند . وأطلق سراحه سنة ١٩١٩ .

انتمى الى سلك القضاء في ايار ١٩٢١ وعيّن حاكماً لصلح بغداد في كانون الأول ١٩٢٢ . وكان بعد ذلك رئيس محاكم ديالى (حزيران ١٩٣١) فنائب رئيس محاكم بغداد (آب ١٩٣٢) فنائب رئيس المنطقة العدلية في بعقوبا . وعيّن عضواً في محكمة تمييز العراق في ايلول ١٩٣٧ ، فمدوناً قانونياً (تشرين الثاني ١٩٤٢) . وأعيد عضواً بمحكمة التمييز في حزيران ١٩٤٥ . وقد جدّد تعيينه في أول تموز ١٩٥٠ حتى اعتزل الخدمة بعد سنتين ، بعد ان قضى في مناصب القضاء اكثر من ثلاثين سنة امتازت بالنزاهة والحرص على أداء الواجب .

ألقى مكي الأورفه لي محاضرات في كلية الحقوق جمعت في كتبه : «شرح قانون اراءة الأموال غير المنقولة توثيقاً للدين» (١٩٣١) ، «التطبيقات القضائية» (١٩٤٣) ، «محاضرات في القضاء العراقي» .

توفي في بغداد سنة ١٩٥٧ .

علي محمود الشيخ علي

ينتسب علي محمود الى فخذ البوهيازع من قبيلة العبيد (بطن البوعلقة) وأمه مزيجة من الدم التركي والكردي . وأبوه محمود الملا احمد الشيخ علي من موظفي دائرة الأملاك السنيّة التي صارت تعرف بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ بـ «الأملاك المدوّرة» .

ولد علي في ناحية أبي غريب في ٤ تموز ١٩٠١ ، وهي مجاورة لبغداد وكان أبوه موظفاً فيها ، ثم نقل سنة ١٩٠٧ مأموراً للأملاك السنيّة في كربلاء ، فالحلة (١٩١١) فبغداد . وانتمى الفتى الى المدرسة السلطانية ، ثم دخل مدرسة الحقوق عند اعادة فتحها سنة ١٩١٩ وتخرّج فيها سنة ١٩٢٣ . ووظّف في الوقت نفسه في دائرة الريّ (١٩٢١) فمترجماً بدائرة البيطرة الى آذار ١٩٢٢ . وانتسب الى حزب حرس الاستقلال السرّي الذي رئسه السيد محمد الصدر سنة ١٩١٩ ، وأخذ يدبّج المقالات الوطنية في جريدة «الاستقلال» وجريدة «الرافدين» ممّا أدت الى سجنه سنة ١٩٢١ .

مارس المحاماة . وعارض تصديق المعاهدة مع بريطانية سنة ١٩٢٤ فألقي القبض عليه مع داود السعدي ونصرة الفارسي وقاسم العلوي ومحمد عبد الحسين صاحب جريدة «الشعب» وغيرهم ، وأفرج عنه بعد أمد قصير . وفي آب من تلك السنة ألف حزب الأمة للدعوة الى تأييد الاستقلال التام ونشر الروح الدستورية والاحتفاظ بالوحدة العراقية . وقد انتخب الشيخ أحمد الداود رئيساً للحزب وزعيم الشرطة اسماعيل الصفار نائباً للرئيس وداود السعدي معتمداً ، وكان من أعضائه الى جانب علي محمود : قاسم العلوي وشفيق نوري السعيدي وعبد الهادي الظاهر ومحمود خالص وناجي السويدي وعبد الغفور البدري وجعفر الشبيبي . ولم يدم الحزب طويلاً إذ اضمحل بعد قيام عبدالمحسن السعدون بانشاء حزب التقدم وتأسيس حزب الشعب برئاسة ياسين الهاشمي (كانون الأول ١٩٢٥) . واختير علي محمود لادارة جريدة «نداء الشعب» لسان حال حزب الشعب ، لكنه لم يلبث ان استقال .

انتمى بعد ذلك الى الحزب الوطني الذي استأنف نشاطه في حزيران ١٩٢٨ برئاسة محمد جعفر ابو التمّن . ولما عطّلت جريدة «الاستقلال» التي كان وثيق الصلة بها أصدر

سلسلة من الجرائد المعارضة لم تكد تبرز الى الوجود حتى تناولها التعطيل ، منها : جريدة «صوت العراق» (٨ ايلول ١٩٢٩) ، وجريدة «صديق الشعب» (١٦ نيسان ١٩٣٠) ، و«صوت العراق» ثانية (١٠ ايار ١٩٣٠) ، و«صدى الاستقلال» (١٥ ايلول ١٩٣٠) ، وقد احتجبت في تشرين الثاني من نفس السنة . واعتقل أمداً قصيراً في تلك السنة لمعارضته المعاهدة العراقية - البريطانية .

انتخب نائباً عن الكوت (آذار ١٩٣٣ - ايلول ١٩٣٤) فعن بغداد (آب ١٩٣٥) ، وعيّن حاكماً بمحكمة التمييز (تموز ١٩٣٦) . وأصبح وزيراً للعدلية في وزارة حكمت سليمان عند تعديلها في ٢٤ حزيران ١٩٣٧ . وعهد اليه بوكالة وزارة الدفاع على أثر مقتل الفريق بكر صدقي واسناد رئاسة أركان الجيش الى الوزير الفريق عبد اللطيف نوري (١١ آب ١٩٣٧) حتى استقالة الوزارة في ١٧ منه .

وواصل نشاطه السياسي فأبعد الى بدرة في كانون الأول ١٩٣٨ ، ثم عين متصرفاً للواء البصرة (شباط ١٩٣٩) فمديراً عاماً للكمارك والمكوس (آذار ١٩٤٠) فوزيراً للعدلية ثلاثة أيام من ٢٨ الى ٣١ كانون الثاني ١٩٤١ . وتقلد وزارة العدلية للمرة الثالثة في حكومة الدفاع الوطني (١٢ نيسان ١٩٤١) وتولى وكالة وزارة الدفاع ايضاً اثر سفر وزيرها ناجي شوكت . وقد غادر بغداد الى ايران في ٣٠ ايار ١٩٤١ ، واعتقل في تشرين الأول فنقل الى الأهواز ومنها الى دربان في جنوب افريقية ، وقد وصلها في ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٢ مع الفريق أمين زكي سليمان والعقيدين محمود سلمان ومحمد فهمي سعيد ومحمد يونس السبعاوي وصدّيق شنشل . وأعيدوا الى العراق فوصلوا البصرة في ١٣ آذار ١٩٤٢ وتم تسليمهم الى الحكومة العراقية . وكان المجلس العرفي قد حكم على علي محمود بالاعدام ، لكن أعيدت محاكمته بعد عودته الى العراق فحكم عليه بالحبس الشديد لمدة ٧ سنوات . وأودع السجن في ٤ ايار ١٩٤٢ ، وأفرج عنه في ١٦ حزيران ١٩٤٧ .

عيّن في تموز ١٩٥٢ مديراً عاماً للكمارك والمكوس ، فوزيراً للمالية (١٥ تشرين الثاني ١٩٥٢) في آخر عهد وزارة مصطفى العمري ووزارة نورالدين محمود التي تلتها (٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢) . وأضيفت الى عهدته وكالة وزارة الخارجية (٢٦ كانون الثاني ١٩٥٣) حتى استقالة الوزارة في ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣ . ثم عيّن نائباً لرئيس محكمة التمييز (آب ١٩٥٣) الى تشرين الثاني ١٩٥٨ . وانتخب في تلك الأثناء نائب رئيس مجلس ادارة المصرف الوطني العراقي (آذار ١٩٥٥) .

أدركته الوفاة في بغداد في ٢٨ كانون الأول ١٩٦٧ .

مؤلفاته : «آراء في القضية العربية وذكريات عنها» (الجزء الأول ، ١٩٥٠) ، «محاكمتنا الوجاهية» (١٩٦٦) ، «مذكرات وتعليقات» (الجزء الأول ، ١٩٦٦) ، «المعاهدات غير المتكافئة» (١٩٥٢) ، «مذكرات علي محمود الشيخ علي» (تحقيق وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدي ، طبع بغداد ١٩٨٥) .

* * *

رشح علي محمود نفسه في الانتخابات النيابية التي جرت في أواخر سنة ١٩٣٤ فلم يفز بالنيابة . وقد كتب في رسالة له مؤرخة في ٩/ ١٢/ ١٩٣٤ الى ناجي شوكت الوزير المفوض في انقرة (نشرها هذا الأخير في كتابه «سيرة وذكريات ثمانين عاماً») يقول : «... انتهت الانتخابات فجاءت بشرّ ما تمنى به الأوطان . ففي هذا المجلس انحشر ذوو العاهات حشراً ، فمن أعمى الى أعور الى أعرج الى أقرع الى مسلول لا يرجى شفاؤه . وفي هذا انحشر ايضاً المعروفون بسلوكهم الشائن وسوابقهم المفضوحة ، وفي رؤوس أغلبية المنتخبين الجدد تجمعه الجهالة والغباوة . فانك إذا فتشت عن الثقافة والفهم بينهم ، واهتديت بسراج ديوجينس ، لما استطعت ان تجد لها أثراً إلا في بعض الرجال الذين قرروا الاستقالة عندما يلتئم المجلس ويستقيم أمره .

«كنت يوم الجمعة الماضية ، وهو اليوم الذي تلا يوم الانتخابات ، جالساً في مكتبي إذ زارني صديق شاعر . فبعد ان أوضح رأيه في المجلس وأعضائه ، قال لي : اسمع هذين البيتين :

لفّق في بغداد مجلس باطل — كما لفّق الثوب العتيق المرقّع
تجمّعت العاهات فيه ، فأعور — وعيّ وأعمى ثم آخر أقرع» .

وكتب علي محمود في رسالة أخرى الى ناجي شوكت مشيراً الى الثورات والانتفاضات المتوالية التي تقوم بها العشائر وقال :

«اني اعتقد من المستحسن ان تؤلف الحكومة لجنة من الخبراء للتحقيق في أسباب الثورات وعواملها وتبحث عن كيفية معالجة الوضع في المستقبل ، واتخاذ ما يلزم اتخاذه من التدابير لمنع وقوع أمثالها في الأيام المقبلة . لأن مثل هذه اللجنة ضرورية إذا أريد استتباب الأمن والسلام وإذا رغب في معرفة النواقص والموجبات الموجبة للتذمر والتشكي . غير ان ظاهر الحال لا يدلّ على ان المسؤولين آخذون بهذه الفكرة» .

محمد شفيق العاني

محمد شفيق بن محمد شريف بن عبد اللطيف العاني ولد ببلدة عنة على الفرات سنة ١٩٠٧ ، ونشأ في بيت علم اذ كان أبوه مفتياً للبوكمال وعنة .

قدم الى بغداد سنة ١٩٢٣ فانتمى الى مدرسة الامام الاعظم . وأتم دراسته الثانوية فالتحق بكلية الحقوق ونال اجازتها سنة ١٩٣١ . ودرس العربية والفقه في الوقت نفسه على كبار الاساتذة كعبد الوهاب النائب ويوسف العطا وقاسم القيسي وعبد الملك الشواف وحمدي الأعظمي وأمجد الزهاوي وطه الراوي ومنير القاضي .

مارس المحاماة امداً قصيراً ، وعيّن مديراً للأيتام (١٩٣٢) ، ثم انتمى الى سلك القضاء فعيّن حاكماً لصلح الحلة (٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٣) فالقرنة (حزيران ١٩٣٥) فالبصرة فالنجف (تموز ١٩٣٧) فحاكم كربلاء المنفرد (آب ١٩٤١) فحاكم صلح الكاظمية (نيسان ١٩٤٣) فحاكم بداءة بغداد (١٩٤٤) فحاكم جزائها (حزيران ١٩٤٥) فحاكماً للبداءة ايضاً (تموز ١٩٤٦) . وعهد اليه برئاسة مجلس التمييز الشرعي السنيّ في ٢٩ تشرين الأول ١٩٤٧ ، ثم نقل مديراً عاماً للأوقاف (آب ١٩٥٢) .

وعيّن وزيراً بلا وزارة في ١٧ ايلول ١٩٥٣ ، ووكيلاً لوزير الشؤون الاجتماعية (٩ كانون الثاني ١٩٥٤) الى ٨ آذار ١٩٥٤ . وعيّن عضواً بمحكمة التمييز (نيسان ١٩٥٤) وكلف بالقيام في الوقت نفسه برئاسة محكمة استئناف منطقة بغداد . ونقل مديراً عاماً للأوقاف للمرة الثانية في ٤ تشرين الثاني ١٩٥٤ .

أعيد عضواً بمحكمة التمييز (تشرين الثاني ١٩٥٥) وأصبح نائباً لرئيسها (٢ كانون الأول ١٩٥٨) فرئيساً لتلك المحكمة من أول تموز ١٩٦٢ الى ٨ ايلول ١٩٦٩ .

وقد حاضر في كلية الحقوق وكلية الشريعة ومعهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة . وعيّن عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣ ، وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في مصر (نيسان ١٩٦٧) .

مؤلفاته

وضع مؤلفات عديدة منها : أصول المرافعات الشرعية (١٩٥٠) ، أحكام الأوقاف

(١٩٥٥) ، الفقه الاسلامي ومشروع القانون المدني العربي الموحد (١٩٦٥) ، حول توحيد المصطلحات القانونية في البلاد العربية (١٩٦٦) ، أحكام الأحوال الشخصية في العراق (وهو محاضراته في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة ، ١٩٧٠) .

وقد توفي محمد شفيق العاني في لندن ، حيث كان مستشفياً ، في ٢٩ آب ١٩٧١ .

كان عالماً قانونياً فقيهاً ينظم الشعر . اما عمله في القضاء فقد ذكره ضياء شيت خطاب ، فقال : «... وكان الفقيد مثالاً للحاكم المصلح : دقة في التفكير ، وحياد في الرأي ، وعدالة في الحكم ، وعلم في الشريعة والقانون ، لا يكل من العمل ولا يسأم تكاليفه . وكان الفقيد ذا شخصية قضائية من عناصرها قوة الحجة وبراعة الاقناع والحرص على تطبيق العدالة ، يساعده في ذلك اطلاع واسع في الشريعة والقانون . وكان أسلوب كتابته للأحكام القضائية من السهل الممتنع ، فهو يختار من الألفاظ أقربها الى الاذهان وأوضحها في البيان وأحسنها جرساً في الآذان» .

ثم قال :

«وكان الفقيد حجة في أصول الفقه ، وكثيراً ما كان يتحدث معنا عن طريق التفسير في الفقه الاسلامي ، وكان يسمي الحكام والقضاة الذين يعملون بظاهر النص القانوني بأهل الظاهر في القانون ، ويقابلون أهل الظاهر في الفقه الاسلامي وهم أتباع الامام داود بن علي الظاهري الذي ولد بالكوفة سنة ٢٠٢ هـ ونشأ ببغداد . فقد ذهبوا الى وجوب العمل بظواهر النصوص وسدّوا باب التأويل ، فكل النصوص عندهم في حكم الصريحة يجب العمل بما ظهر فيها ، وأنكروا الاجتهاد بالقياس . وكانوا يقفون عند الاحكام التي دلّت عليها ظواهر النصوص فقط ، وعلى عكسهم في ذلك أهل التأويل ، وهم الذين يحكمون بالنص الشرعي بما يفهم من عبارته او اشارته او دلالته او اقتضائه . ولهذا كان الفقيد قديراً في تفسير النص القانوني ومدى انطباقه على واقعة الدعوى . فإن كان النص واضحاً فلا محل لتفسيره ما دام اللفظ الذي استعمله القانون لا سبيل الى الاختلاف في معناه . اما إذا كان النص القانوني غير واضح لوجود عيب فيه كالغموض او التناقض او النقص ، فكان يقوم بتفسيره بطرق التفسير المختلفة ، ومنها الاستنتاج بطريق القياس ، والاستنتاج من باب أولى ، والاستنتاج من مفهوم المخالفة ، او الرجوع الى حكمة التشريع او الأسباب الموجبة للقانون ، الى غير ذلك من طرق التفسير . ومن أجل ذلك كان حكم القانون عنده ليس نصاً جامداً بل منطلقاً حراً يتحرك ليواجه مناحي الحياة . فالقانون عنده روح قبل ان يكون حرفاً ، ومعنى قبل ان يكون لفظاً» .

ووصف ضياء شيت خطّاب أخلاق العاني فقال انه كان سمح النفس ، كريم الخلق ، عفّ اللسان ، لا يجد المتحدث اليه غلظة ولا خشونة ، فلم يكن مستكبراً ولا مستعلياً . وكان عذب الحديث ، حلو الفكاهة ، باسماً دائماً حتى في أوقات الحرج والشدّة . وكان عميق الايمان وفيه نزعة صوفية .

رثاه خالد الشواف فقال :

كان يقيم العدل في مجلس — إن عثر العدل بجلبابه
وكان أهل الرأي في مجمع — مفتقد جامع أقطابه
وكان مهوى السمع في منتدى — يضمّه ما بين أصحابه
وكان من نعرف في خلقه — وعلمه الجمّ وآدابه
وفي تقى شاهده ما قضى — به من الحق لطلابه
يا أيها المرثيّ ، كم سامع — يرثيك بالدمع وتسكابه

وقال خاشع الراوي :

هو الموت ، كم أبكى عيوناً وكم أدمى — قلوباً فلم يرحم أباً كان او أمّا
أيا راحلاً أبكى العلى برحيله — فأوهن منّا ، حين بارحنا ، العزما
رحلت ولم تملك حطاماً ، وانّما — ملكت السّجايا الغر والأدب الجمّا
وكنت الأبيّ الألمعيّ حقيقة — وكنت الفتى المحبوب والفاضل الشّهما
وكان ، وللأيّام زهو وبهجة ، — لك المنصب المرموق والموقع الأسمى

عزيز شريف

ولد عزيز شريف في بلدة عنة على الفرات سنة ١٩٠٥ ، وكان أبوه الحاج شريف مفتي البلدة وعالمها ، وتخرج في دار المعلمين الابتدائية ببغداد ، فانخرط في سلك التعليم في ايلول ١٩٢٥ . ثم انتمى الى كلية الحقوق فنال اجازتها سنة ١٩٣١ . واشترك في اصدار جريدة «الأهالي» وأصبح صاحبها ورئيس تحريرها في نيسان ١٩٣٣ .

عيّن في تشرين الثاني ١٩٣٣ حاكماً للتحقيق في البصرة ونقل الى الناصرية (ايلول ١٩٣٤) . لكنه سرعان ما ترك القضاء وزاول المحاماة . وانتخب نائباً عن البصرة في مجلس النواب في شباط ١٩٣٧ . وعاد الى السلك القضائي في كانون الثاني ١٩٤٢ إذ عيّن حاكماً لجزاء بغداد ، فعضواً بمحكمة بداءتها (تموز ١٩٤٣) . واستقال في نهاية الحرب العالمية ليخوض غمار السياسة ، فألف حزب الشعب (نيسان ١٩٤٦) وتولّى رئاسته ، وكان قد أصدر جريدة «الوطن» في تموز ١٩٤٥ فجعلها تنطق بلسان الحزب الجديد . لكن الحزب حلّ في ايلول ١٩٤٧ لميوله اليسارية بعد ان عطّلت جريدة «الوطن» في آذار من تلك السنة .

أعاد اصدار جريدة «الوطن» في شباط ١٩٤٨ الى تشرين الثاني من تلك السنة . وعمد عزيز شريف الى العمل السري وأصدر جريدة سرية باسم «النضال» (١٩٤٩) استمرت تصدر متقطعة الى ١٩٥٦ . واضطر على الفرار الى سورية ، واختفى عن الأنظار ، وجرّد من جنسيته العراقية .

وقد عاد الى بغداد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ واستأنف جهاده السياسي والصحفي بعد ان أعيدت اليه جنسيته العراقية . وأصدر جريدة «وطننا» (١٩٥٩) وجعل اسمها في السنة التالية «السلم» . واختير رئيساً لأنصار السلم في العراق وعضواً في مجلس السلم العالمي ، ومنح جائزة لنين للسلام في ايار ١٩٦٠ . ولما أنهي العهد القاسمي في ٨ شباط ١٩٦٣ هرب عزيز شريف من العراق والتجأ الى أقطار مختلفة .

وتقلب الجوّ السياسي فعين عزيز شريف في ٣١ كانون الأول ١٩٦٩ وزيراً للعدل في حكومة رئيس الجمهورية المهيب احمد حسن البكر . ونقل وزيراً للدولة في اول آب

١٩٧١ فاستمر في منصبه الى ١١ ايار ١٩٧٦ . وقد احتفظ بمنصبه سكرتيراً عاماً للمجلس الوطني للسلم والتضامن ونائب رئيس منظمة الشعوب الأفروآسيوية . وحضر مؤتمرات واجتماعات عديدة للسلم العالمي في مختلف أنحاء العالم . واختير رئيساً للدورة الحادية عشرة لمجلس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية التي عقدت في بغداد في آذار ١٩٧٤ .

وضع مؤلفات ونشرات سياسية متعددة ، منها : تعريف العدوان في القانون الدولي ، النفط والحرب (١٩٤٣) ، الحركة الوطنية في سورية ولبنان (١٩٤٤) ، السياسة البريطانية في الشرق الأوسط (١٩٤٧) ، السياسة الصحيحة لحلّ القضية الفلسطينية (١٩٤٨) ، موقفنا من بريطانية وألمانية والاتحاد السوفيتي (١٩٤٨) ، من حلف بغداد الى تحرير القنال (١٩٥٦) ، شعوب آسية وافريقية ضدّ حلف بغداد ومبدأ ايزنهاور (١٩٥٨) .

وقد توفي عزيز في موسكو في ٢٦ نيسان ١٩٩٠ ونقل جثمانه الى بغداد ووُوري التراب فيها .

كان عزيز شريف رجلاً صلب العقيدة ، متمسكاً بمبدأه ، لا يبالي بالتضحية والجهاد في سبيل معتقده ، لا يهن ولا يلين في كفاحه الذي استمر أكثر من خمسين عاماً . كان سياسياً دمقراطياً يساريّ النزعة يدعو الى العدل الاجتماعي ورعاية حقوق الانسان . وقد ظنّ ان مجلس السلم العالمي يحقق تلك الأهداف على نطاق واسع ، فانضمّ اليه وعمل في صفوفه وانتخب نائباً لرئيسه . فاته ان هذا المجلس لم يكن سوى أداة شيوعية طيّعة تدافع عن كوبا وأمثالها ، وتثير الفتن في الدول المتأخرة في أميركة اللاتينية وافريقية خصوصاً ، وتشجّع الثورات والقتل والارهاب باسم الانسانية والسلام . عرفته في أيام تقلده وزارة العدل ووزارة الدولة سنة ١٩٧٠ وما بعدها فوجدته رجلاً حراً شريفاً يحاول تأمين الأمن والعدالة والتخفيف من حدة اندفاع الحكومة البعثية التي حكمت العراق منذ سنة ١٩٦٨ والتجائها الى وسائل العنف والارهاب والقتل والاعتقال . كان يبذل جهوده في هذا السبيل ، لكن مساعيه منيت بالخيبة في معظم الأحيان .

عبد القادر اسماعيل

عبد القادر اسماعيل أخو وزير المالية خليل اسماعيل ، جاء جدّه الحاج مستان من الأفغان وجاور في الحضرة الكيلانية واقترن بفتاة بغدادية من محلة باب الشيخ .

ولد عبد القادر في بغداد سنة ۱۹۰۸ وتخرج في مدرسة الحقوق سنة ۱۹۳۱ . اشترك في المظاهرات عند زيارة السر ألفرد موند سنة ۱۹۲۸ وبعد ذلك ضدّ معاهدة ۱۹۳۰ ، وطرد من مدرسة الحقوق ثم سمح له باستئناف دراسته . وأصدر في ايار ۱۹۲۹ صحيفة «المستقبل» وكان مديرها المسؤول ، وتولى تحريرها ابراهيم صالح شكر ، وصدر منها ۹ أعداد . وكان في آب ۱۹۲۹ المدير المسؤول لصحيفة «الشباب» ، وكتب قصصاً منها : ظلم الحياة ، المنضد ، الزوجة ، ضحية السباق ، بؤساء ، الشهيدة ، نشرها سنة ۱۹۲۹ - ۱۹۳۰ في مجلة «الشباب» وجريدة «البلاد» و«المستقبل» .

اشترك في ۲ كانون الثاني ۱۹۳۲ في اصدار جريدة «الأهالي» وكان حسين جميل صاحبها ومديرها المسؤول ، ثم أصبح عبد القادر صاحب الجريدة في حزيران من السنة نفسها . وقد أعاد اصدارها بعد توقيفها في تشرين الثاني ۱۹۳٦ ، واشترك في تأسيس جمعية الاصلاح الشعبي . انتخب نائباً عن بغداد في شباط ۱۹۳۷ .

تطرّف في مبادئه الاشتراكية حتى اعتنق الشيوعية . وقد شنّت وزارة ياسين الهاشمي حملة على الخلايا الشيوعية في كانون الأول ۱۹۳٥ ، واعتقلت عبد القادر اسماعيل وصادق كمّونة . وقد عطّلت جريدة «الأهالي» في ۲٤ تموز ۱۹۳۷ بعد استقالة كامل الجادرجي ومحمد جعفر ابو التمن ورفاقهما من وزارة حكمت سليمان . وفي ۱۱ آب من نفس السنة اسقطت الجنسية العراقية عنه وعن أخيه يوسف سكرتير المفوضية في باريس ، فغادر عبد القادر العراق الى سورية ومضى بعد ذلك الى موسكو . وعاد الى بغداد بعد ثورة ١٤ تموز ۱۹٥۸ ، فأصدر جريدة يومية سياسية باسم «اتحاد الشعب» في ۱۰ كانون الثاني ۱۹٥۹ وجعلها لسان حال الحزب الشيوعي . وقد احتجبت في السنة التالية .

نسب اليه عبد الاله احمد رواية «من بنات الناس» المطبوعة في دمشق سنة ۱۹۳۹ باسم «عربي عراقي» .

كتب عنه المحامي الشاعر انور شاؤل الذي زامله في مدرسة الحقوق فقال انه «الشاب الهادئ الذي اختار له الشيوعية سبيلاً وظلّ أميناً لها ، عاملاً من أجلها في السر والعلن ، في العراق وخارجه ، وقضى سنوات في سراديب لا ينفذ اليها النور ، فتعرّض للمخاطر وحوكم مراراً . ولمع نجمه وظهر للأنظار زعيماً شيوعياً يشار اليه بالبنان على عهد ثورة عبد الكريم قاسم ، ثم تعرّض لصعود المشنقة اثر الاطاحة بالحكم القاسمي . ولكنه نجا بأعجوبة ما وانزوى متخفياً عن الأنظار» .

اتخذ عبد القادر اسماعيل لقب «البستاني» . وأرغم على الظهور على شاشة التلفزيون في بغداد في شباط ١٩٦٣ ، بعد مقتل عبد الكريم قاسم ، متنصلاً من الشيوعية ، نادماً على اعتناق مبادئها .

وقد توفيّ في نحو سنة ١٩٨١ .

عبد الرزاق الظاهر

الكاتب السياسي عبد الرزاق الظاهر ، وهو ابن الشيخ احمد الظاهر وأخو عبد الهادي الظاهر .

ولد عبد الرزاق ببغداد سنة ١٩٠٨ ، ودرس في الجامعة الأميركية ببيروت . ثم انتمى الى كلية الحقوق العراقية ونال اجازة المحاماة . وعيّن ملاحظاً لوزارة الاقتصاد والمواصلات (تشرين الثاني ١٩٣٣) فملاحظاً لوزارة العدلية ، وعاد الى مزاولة المحاماة (١٩٣٦) . ثم عيّن سكرتيراً لوزارة العدلية سنة ١٩٤٠ .

انتخب نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٤٨ ، لكنه استقال من النيابة (آذار ١٩٥٠) . وعيّن وزيراً للاقتصاد (١٠ كانون الأول ١٩٤٩ - ٥ شباط ١٩٥٠) .

نشر مقالات سياسية واجتماعية في الصحف العراقية ، وألف : الاقطاع والديوان في العراق (١٩٤٦) ، صور من العراق (١٩٤٧) ، عذارى بابل (١٩٤٧) ، في الاصلاح الزراعي والسياسي (١٩٥٩) .

وقد عيّن عضواً في لجنة الاصلاح الزراعي التي الفت عقب ثورة ١٩٥٨ . وواصل ممارسة المحاماة الى نيسان ١٩٧٠ حين أحال نفسه على التقاعد .

انتمى عبد الرزاق الظاهر الى حزب الاستقلال ، فأوفده الحزب سنة ١٩٤٦ الى مصر وسورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين ، فاجتمع الى بعض رجال السياسة والرأي في تلك الأقطار وتباحث معهم في معالجة قضايا الوطن العربي .

أصدر مجموعة قصص عنوانها «عذارى بابل» (١٩٤٧) . قال الدكتور عبد الاله احمد في كتابه «الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية» (١٩٧٧) ان هذه القصص قد اتجهت وجهة تعليمية واضحة وحاولت ان تقول آراء معينة في قضايا قائمة سياسية واجتماعية . وقد اثقلت معظمها بالشروح والتعليقات التي يمكن ان نجد نموذجها البارز في المحاضرة التي اوردها على لسان أحد أبطال قصة «عذراء بابل» التي تناولت تأريخ العراق الحديث .

جاء عبد الرزاق الظاهر الى لندن سنة ١٩٧٥ فأقام فيها ردحاً من الزمن ، ثم عاد الى بغداد وظلّ يتردد على العاصمة البريطانية . وقد اخبرني في زيارة له في شباط ١٩٨١ انه فرغ من تدوين مذكراته منذ عهد صباه خلال الحرب العظمى الأولى ، وفيها لمحات عن الرجال الذين عرفهم وعمل معهم في العهد الوطني . ووضع أيضاً خلاصات كتب تأريخية وأدبية من طرائف التراث العالمي .

هاشم جواد

خبير العراق الأول في شؤون العمل والعمال ، ولد هاشم جواد في بغداد في ١٥ كانون الثاني ١٩١١ ، وكان أبوه محمد جواد محمود الأوقاتي معلماً ، ثم درس الحقوق وأصبح قائممقاماً ومفتشاً ادارياً .

أتم دراسته في الجامعة الأميركية ببيروت سنة ١٩٣٢ ودرس بعد ذلك الاقتصاد والسياسة في جامعة لندن . وقد عين مدرساً في تشرين الأول ١٩٣٢ ، ثم التحق بوزارة الخارجية بعد سنتين وعين ملحقاً بمفوضية لندن . ونقل بعد ذلك للعمل مع الوفد العراقي لدى عصبة الأمم في جنيف . وأعيد الى بغداد سنة ١٩٣٧ معاوناً للشؤون الخارجية في ديوان مجلس الوزراء ، لكنه أعيد في أواخر تلك السنة الى الممثلية الدائمة في عصبة الأمم . وأعيرت خدماته في كانون الثاني ١٩٣٨ الى مكتب العمل الدولي في جنيف .

انتدبه المكتب خلال الحرب العالمية الثانية ليعمل خبيراً في شؤون العمل والعمال بوزارة الشؤون الاجتماعية ، فعاد الى بغداد وقام بتلك المهمة . ثم عيّن مديراً لشؤون العمل في تلك الوزارة في ايار ١٩٤٦ . وعاد الى مقرّ مكتب العمل الدولي في جنيف في السنة التالية . وفي تموز ١٩٥٦ عين ممثلاً دائماً للعراق لدى الأمم المتحدة في نيويورك برتبة وزير مفوض ، وعاد الى بغداد في بداية سنة ١٩٥٨ مديراً عاماً في ديوان وزارة الخارجية .

أعيد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ مندوباً دائماً لدى الأمم المتحدة . وعيّن في ٧ شباط ١٩٥٩ وزيراً للخارجية في حكومة عبد الكريم قاسم فظلّ في منصبه الى ٨ شباط ١٩٦٣ . وكان في الوقت نفسه وكيلاً لوزير المالية من ٣ ايار ١٩٦٠ الى ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٠ . واعتزل العمل بعد ثورة ١٤ رمضان واعتقل أمداً قصيراً .

قال نجدة فتحي صفوة ان عبد الكريم قاسم اختاره وزيراً للخارجية دون ان تسبق له معرفة شخصية به ، بل قرر استيزاره استناداً الى سمعته . وقال : «وربما كان من سوء

حظ هاشم جواد ان يولّى وزارة الخارجية في ذلك العهد ، إذ كان المنصب من أصعب المناصب وأكثرها حساسية وخطراً بسبب تقلبات عبد الكريم المفاجئة بين اليمين واليسار ، وغموض أهدافه ومواقفه ، وصعوبة التكهن بما سيفاجئ الناس به . ولكن استيزاره ربما كان ، من جهة أخرى ، من حسن حظ تلك الوزارة وموظفيها . إذ وقف هاشم جواد سداً منيعاً دون تغلغل المدّ الشيوعي فيها ، ونجح في حماية موظفيها المسلكيين من التيارات الحزبية . وربما كان هاشم جواد مع محمد حديد الوزيرين الوحيدين اللذين كانت لديهما الجرأة لمناقشة عبد الكريم قاسم وتقديم المشورة الصادقة الصريحة له . وكان هاشم جواد في هذا الشأن أقوى من معظم الوزراء العسكريين في حكومة ذات طابع عسكري بسبب ما نشأ عليه اولئك من اطاعة أوامر رؤسائهم بدون مناقشة ، كما كان هاشم جواد عنصر الاعتدال الذي حدّ من اندفاعات عبد الكريم قاسم بقدر الامكان ، واستطاع ان يكسب احترام الساسة العرب ويحافظ على مكانة العراق وعلاقاته العربية . ونجح في عقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب للمرة الأولى في بغداد . وكان المرحوم احمد الشقيري يسميه «حكيم العرب» لآرائه الناضجة وحسن تقديره للأمور» .

حاول هاشم جواد ان يخفف من حدّة الزعيم عبد الكريم قاسم ، على قدر امكانه ، في سياسته الخارجية النابعة عن العاطفة والمتسمة بالفورية والتسرع . وقد سعى الى اقامة التوازن بين علاقات العراق بموسكو والصين والدول الشرقية من الجهة الواحدة وبريطانية والولايات المتحدة وسائر الدول الغربية من الجهة الاخرى ، فنجح في ذلك حيناً وخاب حيناً آخر . وقد فاجأه عبد الكريم قاسم بتصريحه القائل بأن الكويت جزء من العراق دون استشارته ، فقرر الاستقالة ثم آثر البقاء في منصبه على مضض .

غادر هاشم جواد العراق بعد اطلاق سراحه فالتحق بخدمة هيئة الامم المتحدة ، وعين مندوباً مقيماً لها في برمة (١٩٦٤) فبيروت (آب ١٩٦٦) . واغتاله سائق سيارته في العاصمة اللبنانية في ١٢ تشرين الأول ١٩٧٢ ، وكان قد فصله لسوء سلوكه . أقدم هذا السائق على جريمته النكراء ثم اطلق النار على نفسه ومات .

مؤلفاته

وضع هاشم جواد مؤلفاته باللغتين العربية والانكليزية ، منها : احوال العمل والعمال في العراق (١٩٤٢) ، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي (١٩٤٦) ، عوامل نشوء وتطور تشريع العمل الحديث (١٩٥٤) ، القضية الجزائرية (١٩٦٠) ، حول إنهاء الاستعمار

(١٩٦٠) سياسة عدم الانحياز (١٩٦١) الخ .

كان السيد جواد محمود ، والد هاشم ، يعلمنا العربية في مدرسة التعاون الابتدائية الأهلية . وكان يرتدي الجبّة والعمامة ثم تركهما الى الزيّ الافرنجي حين انتمى الى مدرسة الحقوق . وقد ربطتني بهاشم صداقة وثيقة عند عودته الى بغداد خلال الحرب العالمية الثانية ، فدعوته الى الكتابة في مجلة غرفة تجارة بغداد التي كنت أتولى تحريرها . وقد رشحني ، وهو وزير الخارجية سنة ١٩٦٠ ، عضواً في الوفد العراقي الى جمعية الأمم المتحدة في نيويورك .

كتب في مجلة الغرفة سنة ١٩٤١ - ٤٥ ١٩بحوثاً مقوّمة في مواضيع ذات شأن لم يسبق معالجتها باللغة العربية بطريقة علمية ، منها مقالات عن مستوى المعيشة والاسعاف الاجتماعي واقتصاد تشييد البيوت والتصميم الاجتماعي وتشريع العمل وحماية الطفولة واتجاهات المجتمع الجديد والضمان الاجتماعي والعمال ومستقبل العراق والصناعة الحديثة والصنائع اليدوية في الأقطار العربية الخ . ولخّص في المجلة تقرير بيفريج للضمان الاجماعي عند صدوره في انكلترة سنة ١٩٤٢ ، وقد أصبح هذا التقرير الخطير الذي وضعه السر وليم بيفريج أساساً للرعاية الاجتماعية والصحة الوطنية التي شرّعت في بريطانية في نهاية الحرب العالمية .

كان لكتابات هاشم جواد ، بالاضافة الى عمله في وزارة الشؤون الاجتماعية ، اثر بالغ في وضع قوانين العمل وانتهاج سياسة اجتماعية جديدة في العراق بعد الحرب .

عبد الوهاب محمود

عبد الوهاب بن الحاج محمود البُرَيْدي ، أخو محمد زكي رئيس مجلس النواب لأمّه ، وأصل أسرته من بلدة بُرَيْدة في نجد ، اما والدته فمن عشيرة الكروية القيسيّة .

ولد في قرية مهيجران بين أبي الخصيب والبصرة سنة ١٩١٠ ، ودرس في مدينة البصرة ، ثم أتمّ دراسته الثانوية في بغداد . وانتمى الى كلية الحقوق (١٩٢٩) فتخرّج فيها سنة ١٩٣٢ ، ومارس المحاماة متمرّناً في مكتب أخيه محمد زكي . وأصدر مجلة اسبوعية باسم «الأماني القومية» (٤ ايلول ١٩٣١) ، فلم تلبث ان احتجبت بعد أمد وجيز .

وقد انتخب نائباً عن العمارة في مجلس النواب (كانون الأول ١٩٣٧) فنائباً عن البصرة (حزيران ١٩٣٩) ، وجدّد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ الى تشرين الثاني ١٩٤٦ . وأبعد الى تلّعفر في حوادث كانون الأول ١٩٣٨ ، وأفرج عنه بعد أيام قليلة . واختير مقرراً للجنة المالية في مجلس النواب (شباط ١٩٤٠) ، وعرف في المجلس بخطبه الهادفة ومناقشاته الجريئة .

عيّن وزيراً للمالية في وزارة توفيق السويدي (٢٣ شباط ١٩٤٦) ، وأضيفت الى عهدته وكالة وزارة التموين (٢٢ ايار ١٩٤٦) الى استقالة الوزارة في ٣١ ايار ١٩٤٦ . واشترك في تلك السنة في تأسيس حزب الأحرار ، ثم انتخب نائباً لرئيسه .

انتخب نقيباً للمحامين في ١١ آب ١٩٥٠ الى ٢٨ آب ١٩٥٣ ، ثم في ٢٧ آب ١٩٥٤ حتى استقال في تشرين الأول ١٩٥٤ . واعتقل في احداث تشرين الثاني ١٩٥٢ وظلّ موقوفاً في أبي غريب نحواً من شهرين . وانتخب نقيباً للمحامين مرة أخرى في ٨ آب ١٩٥٨ ، فرئس النقابة الى كانون الثاني ١٩٥٩ حين عيّن سفيراً للعراق في موسكو . وانفصل عن السفارة في آب ١٩٦١ ، ثم انتخب نقيباً للمحامين في ٢٣ شباط ١٩٦٨ . وجدّد انتخابه في ٩ كانون الثاني ١٩٧٠ الى ٥ كانون الثاني ١٩٧٢ . وتوفي ببغداد بعد اسبوع واحد في ١٢ كانون الثاني ١٩٧٢ .

كان عبد الوهاب محمود كاتباً سياسياً ومفكراً اجتماعياً يدعو الى ترسيخ المبادئ الدمقراطية ورفع مستوى الطبقات العاملة وتحقيق العدالة الاجتماعية . وقد دافع بحماسة عن القضايا العربية في المحافل الدولية ومؤتمرات المحامين . وشرع في ايامه الأخيرة بتدوين مذكرات عن الأحداث التي شهدها وواكبها .

زاول المحاماة أعواماً طويلة وسعى الى رفع مستوى المهنة والترفيه عن المحامين ، إذ كان يرى فيها أداء واجب مقدّس لاحقاق الحقّ وتثبيت أركان العدالة . وقد وفّق ، وهو نقيب المحامين ، الى عقد المؤتمر الأول للمحامين العرب في بغداد في أواخر سنة ١٩٥٨ .

قال حامد علوان الجبوري وزير الاعلام : «... فلقد اسهم الفقيد الكبير مساهمة بارزة في الحركة الوطنية ، وكان في الطليعة من الرواد الذين قارعوا الاستعمار والنظام الملكي وما يمثلانه من صور التبعية والتخلف والرجعية والاستغلال ، وكانوا دائماً وأبداً الى جانب الشعب وفي مركز القيادة من حركته الوطنية والتقدمية...» .

وقال شفيق ارشيدات الأمين العام لاتحاد المحامين العرب انه عرف عبد الوهاب محمود انساناً مؤمناً بانسانيّته وعربياً يفخر بعروبته ويؤمن بقوميّته ووطنياً عراقياً صادقاً يحبّ بلده العراق ويثق بطاقات شعبه وقدراته .

وقال عامر عبد الله (وزير الدولة) : «...وكان عبد الوهاب محمود داعية مرموقاً للديموقراطية والنظام الديموقراطي ، للحرية والعدالة واستقلال القضاء وسيادة القانون ، للتآلف الوطني ، للاخوة العربية - الكردية . وقد عرف بنزعته القوية نحو التقدم الاجتماعي والاشتراكي وبنضاله من أجل الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى...» . ثم قال : «لم يكن عبد الوهاب محمود رجل القانون والسياسة فقط ، بل كان أيضاً رجل الثقافة والمعرفة . وكان من بين الساسة الذين لا يشغلهم أيّ واجب عن إغناء ثقافته بالدراسة المتواصلة والفكر المتفتّح على أرقى النظريات والمعارف» .

الدكتور عبد المجيد عبّاس

عبد المجيد عباس الحيدري ولد في قلعة سكر من أعمال لواء المنتفك سنة ١٩١١ ، ودرس في دار المعلمين الابتدائية ببغداد فعمل معلماً في أول سنة ١٩٣٢ . ثم أرسل للدراسة في كلية صفد ومدرسة برمّانا والجامعة الأميركية في بيروت ، وانتمى بعد ذلك الى جامعة شيكاغو فنال شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية واستاذ في القانون الدولي والدكتوراه في العلاقات الدولية سنة ١٩٣٩ .

وعاد الى بغداد فعيّن استاذاً مساعداً في كلية الحقوق (١٩ شباط ١٩٣٩) فأستاذاً فيها ، وحاضر في الوقت نفسه في دار المعلمين العالية والكلية العسكرية وكلية الأركان وكلية الشرطة . وقد مثل العراق في اللجنة الحقوقية لوضع نظام محكمة العدل الدولية في واشنطن ، وكان عضواً في الوفد العراقي لمؤتمر سان فرنسيسكو لتأسيس الأمم المتحدة (١٩٤٥) ، ثم كان مندوباً في اجتماعات هيئة الأمم في لندن وليك سكسيس ونيويورك وباريس .

انتخب نائباً عن قلعة صالح (العمارة) في آذار ١٩٤٧ وجدّد انتخابه عن الشطرة في حزيران سنة ١٩٤٨ وكانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ . وعيّن وزيراً للمواصلات والاشغال في وزارة الجمالي الأولى (١٧ ايلول ١٩٥٣) واحتفظ بمنصبه في وزارة الجمالي الثانية (٨ آذار ١٩٥٤) الى ٢٩ نيسان ١٩٥٤ . وتولّى وزارة الزراعة في وزارة أرشد العمري الثانية من ١٦ حزيران ١٩٥٤ الى ٣ آب ١٩٥٤ . ثم عيّن عضواً بمجلس ادارة مصلحة مصافي النفط (٦ حزيران ١٩٥٥) فسفيراً ومندوباً دائماً في هيئة الأمم المتحدة (ايار ١٩٥٨) الى ثورة تموز ١٩٥٨ .

وعيّن استاذاً في جامعة الينوي الجنوبية الأميركية سنة ١٩٦٥ . ثم أعيد تعيينه استاذاً بجامعة بغداد (ايلول ١٩٦٩) .

وقد مثل العراق في مؤتمرات مختلفة كمؤتمر الجمعية المصرية للقانون الدولي والمؤتمر البرلماني الدولي في القاهرة واستانبول ومؤتمر باندونغ . وانتخب عضواً في الجمعية المصرية للقانون الدولي والجمعية الأميركية للقانون الدولي ايضاً .

مؤلفاته

للدكتور عبد المجيد عبّاس مؤلفات مدرسية كالواجبات المدنية والواجبات الوطنية للمدارس الابتدائية والمتوسطة . ووضع كتباً وبحوثاً قانونية منها أصول القانون (١٩٤٧) ، القانون الدولي العام (١٩٤٧) ميثاق سان فرانسيسكو ونظام المحكمة الدولية ، القومية والدمقراطية والاشتراكية (١٩٤٦) ، دروس في الشؤون الدبلوماسية (١٩٤٤) ، مثلنا الأعلى (١٩٣٤) ، الميثاق القومي (١٩٤٦) الخ . وترجم كتاباً عنوانه «المجتمع» لمكفايفر استاذ علم الاجتماع في جامعة كولمبية (١٩٤٦) . وكتب أطروحته باللغة الانكليزية في موضوع «دبلوماسية النفط في الشرق الأدنى» (١٩٣٩) .

توفي ببغداد في ١٥ ايار ١٩٧١ .

عبد الرحمن البزّاز

ولد عبد الرحمن عبد اللطيف البزّاز في بغداد في ٢٠ شباط ١٩١٣ وتخرّج في كلية الحقوق (١٩٣٥) . ودرس بعد ذلك في كلية الملك بجامعة لندن ونال اجازة المحاماة الانكليزية سنة ١٩٣٩ .

عاد الى بغداد فعيّن استاذاً مساعداً في كلية الحقوق (١٩٤٠) . واعتقل في تشرين الأول ١٩٤١ وأبعد الى الفاو والعمارة خلال أحداث الحرب العالمية الثانية ، فلم يطلق سراحه إلا سنة ١٩٤٤ .

عيّن مدوّناً قانونياً في وزارة العدلية (حزيران ١٩٤٥) فحاكماً بمحكمة بداءة بغداد (آب ١٩٤٦) . وأعيد الى دائرة التدوين القانوني في آب ١٩٥٢ ، ثم أصبح عميداً لكلية الحقوق (١٩٥٥) . وفصل واعتقل في أواخر سنة ١٩٥٦ وأبعد الى بنجوين ، ثم أعيد الى منصبه بعد ثورة تموز ١٩٥٨ . وعيّن عضواً بمحكمة التمييز سنة ١٩٥٩ ، ولم يلبث ان اعتقل في السنة نفسها . ومضى الى مصر فعيّن عميداً لمعهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية (كانون الأول ١٩٦١) . واختير بعد ذلك سفيراً للعراق في القاهرة (شباط ١٩٦٣) فسفيراً في لندن (آب ١٩٦٣) ، وتولّى سكرتيرية منظمة الأقطار المصدرة للنفط علاوة على منصبه .

وأصبح نائباً لرئيس الوزراء ووزير الخارجية ووكيل وزير النفط في وزارة عارف عبد الرزاق (٦ ايلول ١٩٦٥) ، فرئيس الوزراء ووزير الخارجية (٢١ ايلول ١٩٦٥) . وألف وزارته الثانية في ١٨ نيسان ١٩٦٦ متقلداً الرئاسة ووزارة الداخلية الى ٨ آب ١٩٦٦ .

واعتقل في أواخر سنة ١٩٦٨ ، وأهين وعذّب في سجنه ثم أفرج عنه في تشرين الثاني ١٩٧٠ . وذهب الى انكلترة للاستشفاء . وعاد الى بغداد فأدركه الحمام بها في ٢٧ حزيران ١٩٧٣ .

يعدّ عبد الرحمن البزاز من رجال الفكر والقانون في البلاد العربية . وقد وضع مؤلفات عديدة ، منها : مذكرات عن احكام الأراضي في العراق (١٩٤٠) ، الموجز في

تأريخ القانون (١٩٤٩) ، الاسلام والقومية العربية (١٩٥٢) ، مبادئ أصول القانون (١٩٥٤) ، محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال (١٩٥٤) ، هذه قوميتنا (١٩٥٥) ، التربية القومية (١٩٥٦) أبحاث وأحاديث في الفقه والقانون (١٩٥٨) ، الدولة الموحدة والدولة الاتحادية (١٩٥٨) ، من روح الاسلام (١٩٥٩) ، صفحات من الأمس القريب (١٩٦٠) ، من وحي العروبة (١٩٦٠) ، بحوث في القومية العربية (١٩٦٢) ، مصير القومية العربية في العراق ، مبادئ القانون المقارن (١٩٦٧) ، نظرات في التربية والاجتماع والقومية (١٩٦٧) . وألف باللغة الانكليزية كتاباً في «القومية العربية» (لندن ، ١٩٦٥) .

كان عبد الرحمن البزاز مؤمناً بالقومية العربية منذ فجر شبابه ، وكانت قوميّته تدعو الى التعاضد والتسامح وترسيخ أسس الديمقراطية والتحرّر من الاستعمار الاقتصادي والفكري ، وتنشد محاربة الجهل والتخلف والاضطراب الاجتماعي والانحطاط الخلقي والثقافي . وقد قال : «لقد كنت ثائراً يفهم الثورة على انها - قبل كلّ شيء آخر - اجتثاث أسباب الفساد من ذوات نفوسنا ، لنستطيع بعد ذلك اقامة صرح وجودنا على أسس راسخة قويمة ، وبناء أجيالنا الصاعدة مزوّدة بالمثل العليا ومدركة لروح المواطنة الصادقة ومشبعة بمعاني العدل والخير والجمال...» .

وقال البزاز :

«ان نظرية العلم للعلم والثقافة للثقافة والفن للفن وما الى ذلك من أقوال اشاعها بعض أحرار الغرب ومفكريه ، ان كانت تصلح لبعض الأمم الراقية والمجتمعات الخاصة ، فإنها دون ادنى شك لا تصلح اليوم لنا . ان مستقبل أمتنا يتطلب منا ان نؤمن بالتعليم الموجه قدر ايماننا بالاقتصاد المنظم . ولست ادري أأنا بحاجة الى تكرار الحقيقة البديهية : بأن ما يصلح لأمة من الأمم ليس من المحتم ان يصلح لأمة أخرى ، بل ان في حين من الزمن قد لا يصلح لها في حين آخر . والتقليد في الأزياء والأشكال والحاجات المادية قد يكون نافعاً ، وهو أول مراحل التقدم ، ولكن استيراد الآراء والفلسفات دون تمحيص ودون نظر لحاجة الأمة وطبيعة ظروفها وموقعها في سلم الرقيّ الانساني خطر عظيم» .

ألحّ البزاز على تثقيف الشعب ، وقال ان التعليم حقّ وواجب ، هو حق لكل فرد وواجب على كلّ حكومة . ولكن هناك واجباً ألزم من التعليم وأكثر منه أهمية ، وهو «التثقيف» . وقال انه يجوز ان نطلق لفظ المتعلم او المتعلمة على من يقرأ ويكتب

ويعرف أوليات الحساب والرياضيات ويدرك طرفاً من مبادئ العلوم الطبيعية ويلمّ بقسط معقول من العلوم الاجتماعية ويساهم بالقدر المشترك في المعارف العامة الأساسية التي لا بد منها لكل فرد . ولكن هذا كله لا يكفي لعدّ ذلك الفرد مثقفاً . إذ تتطلب الثقافة ، في رأيه ، بالاضافة الى هذا كله ، بل وقبل هذا كله ، سلوكاً معيناً ومبادئ خلقية خاصة وآداباً اجتماعية ومعاني حضارية تميّز الفرد الانساني عن باقي الكائنات الحيّة .

وقال ان متطلبات التعليم عامة ومشتركة بين الشعوب وذات طابع عالمي ، بينما متطلّبات الثقافة خاصة وذات طابع قومي او اقليمي يميّز كل مجمع حضاري عن سواه . وإذا فقدت أمة ثقافتها انعدم كيانها الحقيقي على الرغم من وجودها الشكلي ، فلا بد ان تحرص كل أمة حية على الاحتفاظ بثقافتها لأنها عنوان حياتها ودليل قوتها .

اما في حقل القومية فكان عبد الرحمن البزاز تمليذاً من تلاميذ ساطع الحصري ، التزم بآرائه وسار على نهجه . وقد شبهه بالفيلسوف المعلّم فيخته Fichte الذي دعا الى تحرير شعبه وتوحيده وتثقيفه في أشد الظروف حراجة ، ظروف حروب نابوليون التي دوخت أوربة في مطلع القرن التاسع عشر .

وقد خرج البزاز من اعتقاله وتجاربه المريرة في الحرب العالمية الثانية بآلام نفسية انعكست على آرائه ، وهو المفكر المثقف ، فكتب يقول :

«كفرت الأمة العربية بسياسة الغرب ومبادئه ، كفرت بالديمقراطية التي تنادي بها انكلترة وفرنسة والولايات المتحدة الأميركية وهولندة ، كما كفرت بالشيوعية التي تنادي بها روسية والبلاد الخاضعة لها . كفرت بديمقراطية هؤلاء لأنها تبيّنت ، بعد تجارب مريرة متعددة ، ان الديمقراطية في واقع الحال ليست اكثر من كلمات معسولة وآراء مجرّدة وخطب رنّانة... ولكنها عند التطبيق الفعلي - بالنسبة للبلاد العربية خاصة - ليست إلا الاستغلال والاستعباد والاستعمار . وكفرت بالشيوعية لأنها تعلم يقيناً بأن دعاتها لا يؤمنون بمساواة الشعوب ونصفة المظلوم . ويعتقدون كلّ وسيلة مبرّرة لتحقيق غاياتهم ، وينكرون القيم الروحية والاعتقادات الدينية وهم بعد ذلك ليسوا أقلّ جشعاً وحبّاً للسيطرة من أعرق الدول في الاستعمار» .

ولذلك ارتأى ان لا تركن الأمة العربية الى اولئك ولا الى هؤلاء ، بل تحتفظ بكيانها ومقوّماتها واستقلالها . ولها بعد ذلك ان تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وبوحي من مثلها ومصالحها .

ومع انه قد غيّر آراءه بعد ذلك بتطور الظروف والأحداث العالمية والعربية ، ولا

سيّما فيما يتعلق بقضية فلسطين ، فقد ظل يؤمن ان الوجهة الصحيحة التي ينبغي للعرب ان يتوجهوا اليها هو اتحادهم وتوحيد جهودهم في سبيل خلق كيانهم الخاص بهم ، والاحتفاظ باستقلال هذا الكيان سياسياً واقتصادياً وثقافياً وروحياً ، وأن يعملوا لخلق الابداع ونشر الروح السامية في هذا الكيان ليعيشوا كرماء اعزاء سعداء .

ويعزو البزاز انحطاط الأمة العربية وتأخرها الى اهمال الدين وضعف الوازع الذاتي الذي يؤدي الى التخاذل والانحلال . فهو يدعو لذلك الى نشر التربية الدينية ، وجعل «التقوى» معياراً للتفاضل وأساساً للتآخي ، والتمسك باهداب الدين الذي يربّي الضمائر ويسمو بالنفوس ، ويجعل الأعمال بالنيّات ، ويخلف في كل انسان رقيباً ذاتياً ورادعاً خلقياً هو أبلغ مفعولاً وأعظم تأثيراً في صلاح الفرد وصيانته من عشرات الحرّاس اليقظين الذين يراقبون الحركات والسكنات . ويرى ان هذا هو الدين القويم ، لا الطقوس الشكلية التي ليست من دين الله الفطري في شيء . وليس من الدين التعصب المقيت الذي يفرق الأمة شيعاً ، ولا التزمت المصطنع البغيض الذي يدعو اليه فريق من المتهافتين على المادة ، المتكالبين على الحياة ، المتمرغين على اقدام ذوي السلطان .

وأسلوب البزاز الكتابي أسلوب علمي مبسط يرمي الى التعبير بلا تنميق ولا تزويق ، وغايته الابانة والافصاح دون الاثارة . وهو ينفذ الى قلب القارئ بوضوحه وصراحته ويحمله على التأمل والتفكير . وقد يستشهد البزاز احياناً بالشعر والكلمات المأثورة العربية منها والغربية تقريباً للمعنى الى الأفهام وايضاحاً للعميق من الآراء .

حسين جميل

حسين بن القاضي الفقيه عبد المجيد بن أحمد آل جميل ، ولد في كربلاء في ٨ شباط ١٩٠٨ ، وتنقل في الألوية مع والده حسب اقتضاء وظائفه . فدرس حسين دراسته الابتدائية في العمارة ، والثانوية في بغداد ، ثم درس القانون في معهد الحقوق بدمشق ونال الاجازة سنة ١٩٣١ .

عاد الى بغداد ، فزاول المحاماة واشترك في اصدار جريدة «الأهالي» (٢ كانون الثاني ١٩٣٢) . وعيّن حاكماً في المحاكم المدنية في تموز ١٩٣٣ ، فعمل في الحلة وعنة (كانون الثاني ١٩٣٦) ، ثم عيّن مديراً للدعاية والنشر في وزارة الداخلية (تشرين الثاني ١٩٣٦) . وعاد الى القضاء حاكماً في محكمة بداءة البصرة (تموز ١٩٣٧) ، فحاكم الديوانية المنفرد (تموز ١٩٤١) ، فحاكم صلح الكرخ (تموز ١٩٤٣) ، فنائب رئيس اجراء بغداد (آذار ١٩٤٤) ، فحاكم بداءة بغداد (حزيران ١٩٤٥) .

واستقال سنة ١٩٤٦ واشترك في تأسيس الحزب الوطني الديمقراطي وكان سكرتيراً له . وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب (آذار ١٩٤٧) ، لكنه استقال في نيسان ١٩٤٧ . وأعيد انتخابه نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٤٨ ، واستقال من النيابة في آذار ١٩٥٠ .

عيّن وزيراً للعدلية في وزارة علي جودت الأيوبي من ١٠ كانون الأول ١٩٤٩ الى ٥ شباط ١٩٥٠ . ثم أصدر مجلة «المواطن» في بغداد مع محمود الدرّة (تشرين الثاني ١٩٥١) . واعتقل في تشرين الثاني ١٩٥٢ ، وبعد ذلك في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، ولم تطل مدة اعتقاله . وانتخب نقيباً للمحامين في ٢٨ آب ١٩٥٣ الى ٢٧ آب ١٩٥٤ ، وأعيد انتخابه في ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٤ . وجدّد انتخابه نقيباً في ٢٦ آب ١٩٥٥ و٣ آب ١٩٥٦ الى ٩ آب ١٩٥٧ . وقد انتخب نائباً عن بغداد للمرة الثالثة في حزيران ١٩٥٤ ، لكنّ المجلس حلّ اثر اجتماعه الأول في آب ١٩٥٤ .

نشبت ثورة تموز ١٩٥٨ فعيّن سفيراً للعراق في الهند (آب ١٩٥٨) ، فوزيراً

للارشاد (٧ شباط ١٩٥٩) ، وقبل ان يتسلم منصب الوزارة اوفد سفيراً في طهران (نيسان ١٩٥٩) . وقد استقال في كانون الأول من السنة نفسها .

كلّف حسين جميل بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بوضع لائحة دستور موقت ، فقبلت اللائحة بعد اضافة طفيفة . وأعلن الدستور الموقت رسمياً في ٢٧ تموز ١٩٥٨ . وقد اعتبر الاسلام دين الدولة ، وأناط بالقوات المسلحة الحفاظ على سيادة البلاد وسلامة اراضيها . وجمع السلطتين التشريعية والتنفيذية في مجلس الوزراء . واعتبر العراق جزءاً من الأمة العربية .

وقد اشترك في تشرين الثاني ١٩٨٣ في الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في ليماسول بقبرص ، وكان موضوع محاضرته «الممارسة الديمقراطية في الوطن العربي» .

مؤلفاته

وضع حسين جميل مؤلفات وبحوثاً قانونية ، منها : دعوة الى اصلاح دستوري (محاضرة ، ١٩٥١) ، الحريات العامة والحركة الوطنية (١٩٥٢) ، الاحكام العرفية (رسالة طبعت ١٩٥٣) ، حقوق الدفاع للمتهم (١٩٥٥) ، الأوضاع الاقتصادية في المجتمع ، حق النقد (١٩٥٨) ، العراق الجديد (١٩٥٨) ، عراق ما قبل الثورة (١٩٥٩) ، نحو قانون عقوبات موحّد (١٩٦٥) ، انكلترة في جزيرة العرب (١٩٣٠) ، بطلان الأسس التي أقيم عليها وجود اسرائيل على الأرض العربية (١٩٦٨) ، فكرة توحيد القانون الجنائي للبلاد العربية (١٩٦٧) ، قضاء محكمة التمييز (١٩٣٨) ، نحو قانون عقابي موحّد للبلاد العربية (١٩٦٥) ، حقوق الانسان والقانون الجنائي (محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة سنة ١٩٧١) ، العراق : شهادة سياسية ١٩٠٨ - ١٩٣٠ (طبع في لندن ، ١٩٨٧) ، الحياة النيابية في العراق ١٩٢٥ - ١٩٤٦ (بغداد ، ١٩٨٣) .

وحسين جميل كاتب سياسي وقانوني متميّز ، قال فيه خالد الدرّة في مجلة «الوادي» (١٥ آذار ١٩٤٧) : « نزوع الى الاصلاح في قطر كلّ شيء فيه يحتاج الى الاصلاح ، عراقي يؤمن بمساندة كل قطر عربي لتدعيم استقلاله ، عربي يعتقد بأن العمل لاصلاح العراق خدمة للقضية العربية . قانوني ضليع قلما نقض له حكم» .

عبد الرحمن خضر

من رجال القانون ، ولد عبد الرحمن خضر في بغداد سنة ١٨٩٨ ، وتخرج في المدرسة السلطانية سنة ١٩١٦ فجنّد ضابطاً احتياطياً في الجيش التركي وعهد اليه بوظيفة في مدرسة ضباط الاحتياط في استانبول .

وعاد الى العراق سنة ١٩١٩ فاشترك في الحركة الوطنية ، وأسهم في الثورة العراقية في جهات المنتفق . وانتمى الى مدرسة الحقوق ، ووظف في وزارة العدلية في الوقت نفسه (تشرين الثاني ١٩٢١) ، فلما نال شهادة القانون عيّن حاكماً في المحاكم المدنية (١٩٢٦) . وتنقل في هذه الوظيفة في الأقضية والألوية ، فكان حاكماً بمحكمة بداءة بغداد (كانون الثاني ١٩٣١) ، فحاكم جزاء البصرة (كانون الأول ١٩٣٢) ، فحاكم بداءة الموصل (تشرين الأول ١٩٣٣) ، . ونقل نائباً لرئيس دائرة اجراء بغداد ، ثم اعتزل القضاء وزاول المحاماة . واعتقل في تموز ١٩٤٢ خلال الحرب العالمية فاحتجز في العمارة .

وقد عيّن مديراً عاماً للأوقاف في ايلول ١٩٤٨ الى سنة ١٩٤٩ . وتوفي سنة ١٩٥٧ .

صنّف مؤلفات قانونية منها : تعديل مجلة الاحكام العدلية (١٩٢٤) ، الصكوك الجزائية ، مجموعة قوانين المطبوعات والمطابع وحق التأليف ، شرح قانون أصول المحاكمات الجزائية (ثلاثة اجزاء ١٩٣٢ - ١٩٤٩) ، شرح القانون المدني (١٩٥٣) ، الوقف الذرّي بين الالغاء والاصلاح (١٩٥٣) ، الخ . وألف ايضاً تفاسير لسور الاخلاص والفاتحة والفلق .

حرّر عبد الرحمن خضر مجلة «المحامي» التي صدرت في تشرين الأول ١٩٢٥ واستمرت سنة واحدة . وكان أبوه الملا خضر من قدماء أصحاب المكتبات في بغداد .

أحمد جمال الدين

ولد احمد جمال الدين في النجف سنة ١٩٠٠ ودرس في معاهدها . ثم قدم بغداد ، وانتمى الى جامعة آل البيت (١٩٢٤) ، وتخرج في مدرسة الحقوق . وشارك في الحركة الوطنية وكان محرراً في جريدة «الاستقلال» .

أصدر جريدة اسبوعية باسم «الحوادث» (آذار ١٩٣٠) ، فدامت ثلاثة أشهر . ثم كان مديراً مسؤولاً لمجلة «الاعتدال» النجفية التي صدرت في شباط ١٩٣٢ لصاحبها محمد علي البلاغي .

وعيّن حاكماً في المحاكم المدنية في ايار ١٩٣٦ ، فتدرج في مناصب القضاء حيث أمضى نحواً من ثلاثين عاماً حتى أصبح عضواً في محكمة التمييز العراقية .

توفي ببغداد في أول كانون الأول ١٩٧١ .

من مؤلفاته : الجريمة والعقاب (١٩٤٨) ، القضاء الشرعي (١٩٤٩) ، الوقف : مصطلحاته وقواعده (١٩٥٥) ، المصطلحات القانونية الجزائية ، نزع الملكية في احكام الشريعة ونصوص القانون (١٩٦٦) الخ .

حامد مصطفى

من رجال القانون المبرّزين والمؤلفين الحقوقيين ، ولد حامد مصطفى في عانة سنة ١٩٠٦ . وقدم الى بغداد فانتمى الى كلية الامام الأعظم وتخرج فيها ، فعيّن مدرساً للغة العربية في المدرسة الثانوية في تشرين الأول ١٩٢٩ . ودرس في الوقت نفسه في كلية الحقوق ، وأوفد بعد ذلك الى فرنسة لاتمام دراسته القانونية العالية .

عيّن عضواً في مجلس التمييز الشرعي السنّي في ايلول ١٩٤٦ ، ونقل مدوناً قانونياً في شباط ١٩٤٨ . وانتدب قاضياً في محكمة استئناف طرابلس في ليبية على عهد ملكها ادريس السنوسي . وعاد الى بغداد واستأنف عمله في التدوين القانوني ، وألقى محاضرات في القانون المدني في كلية الحقوق . وعيّن في العهد الجمهوري رئيساً للتدوين القانوني سنة ١٩٦١ ، ثم اعتزل الخدمة بعد امد قصير . وكان بعد ذلك رئيساً للجمعية العراقية للدفاع عن حقوق الانسان .

توفي ببغداد سنة ١٩٨٧ .

وضع مؤلفات قانونية عديدة منها : بيان حقوق الانسان (ترجمة ١٩٤٨) ، القانون الدولي الخاص (١٩٥٠) ، القانون المدني العراقي : الملكية وأسبابها (١٩٥٣) ، الجهاد في الاسلام ماضيه وحاضره ، دليل التشريع العراقي (١٩٥٥ - ١٩٦٧) ، الملكية العقارية في العراق (١٩٦٤) ، الالتزامات والعقود في الشريعة الاسلامية ، النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي (١٩٦٥) ، القضاء الاداري في العراق ، مبادئ القانون الاداري العراقي (١٩٦٨) ، الخ . وقد نقل عن الفرنسية كتاب «فتح الجزائر» مذكرات المارشال ماكماهون رئيس الجمهورية الفرنسية . وكان موريس دي ماكماهون من كبار رجال الجيش الفرنسي ، خدم ضابطاً في الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وقضى فيها بعد ذلك سنوات عديدة . ثم عين حاكماً عاماً للجزائر سنة ١٨٦٤ ، وانتخب سنة ١٨٧٣ رئيساً للجمهورية الفرنسية الى ١٨٧٩ .

محمد أحمد العمر

من رجال القانون ولد محمد أحمد العمر في عانة على الفرات سنة ١٩١٠ ، وكان أبوه احمد العمر من وجوه بلده ، وكان له شأن في المنازعات بين العانيين والراويين سنة ١٩٢٠ ، فلما تفاقم الخلاف آثر السلامة ونزح الى بغداد فاستوطنها .

انتمى محمد أحمد العمر الى سلك الخدمة الحكومية في تشرين الأول ١٩٣٠ . ودرس في مدرسة الحقوق فعيّن حاكماً في المحاكم المدنية . وأصبح حاكم الصلح في الهندية (كانون الثاني ١٩٤١) ، فالشطرة (١٩٤٢) ، فبغداد (تشرين الثاني ١٩٤٣) ، فالأعظمية (حزيران ١٩٤٥) . ونقل مديراً للحقوق في دائرة الأوقاف (نيسان ١٩٤٦) ، ثم أعيد الى القضاء حاكماً لبداءة الأعظمية (آب ١٩٤٨) .

وانتخب نائباً عن الدليم في مجلس النواب (١٩٥٤ - ١٩٥٨) وانصرف الى المحاماة . وتوفي ببغداد في ١٩ ايلول ١٩٦٩ .

وضع مؤلفات قانونية عديدة منها : التطبيقات الشرعية والصكوك ، الدليل لاصلاح الأوقاف (١٩٤٨) ، قانون أصول المحاكمات الجزائية (١٩٤٨) ، المدد القانونية (١٩٤٩) ، المرشد الى الصكوك الجزائية (١٩٥١) ، الأحوال الشخصية (١٩٥٣) ، قانون جواز تصفية الوقف الذرّي (١٩٥٤) ، مبادئ قانونية أقرّتها محكمة التمييز العامة (١٩٥٢) الخ .

الدكتور فائق شاكر

إذا عدّ ظرفاء البغداديين في النصف الأول من القرن العشرين فلا شك ان فائق شاكر يأتي في الطليعة الى جانب عبد المجيد الشاوي ونوري ثابت (حبزبوز) وحمدي صدر الدين . كان طبيباً ، تقلد وظائف رفيعة متعددة الجوانب متبانية المسؤوليات ، لكن روح الفكاهة الأصيلة بقيت ملازمة له الى يوم وفاته . وكان هو نفسه الهدف الأول لهزئه وسخريته .

محمد فائق بن محمد شاكر بن محمود بن مصطفى الياسين من السادة البدرية في سامراء ، وأمه من أسرة بغدادية شعبية ، ولد في سنة ١٨٩٣ . ورحل الى استانبول سنة ١٩١٠ فانتمى الى كلية الطب العسكرية وتخرج فيها برتبة رئيس (نقيب) سنة ١٩١٦ .

اشترك في شبابه في الجمعيات العربية المؤلفة في العاصمة التركية لبث الروح القومي كجمعية العهد والمنتدى الأدبي . ولما نال شهادة الطب عين طبيباً عسكرياً في ديار بكر ، وألحق بعد ذلك بالفيلق التركي الرابع . ووضعت الحرب العامة اوزارها فعاد الى الموصل وعيّن طبيباً مركزياً في أربيل (آذار ١٩١٩) ، ثم نقل الى مستشفى بغداد (كانون الأول ١٩١٩) . وأوفد الى لندن سنة ١٩٢٣ فاختص بأمراض العين . وعيّن بعد عودته مديراً لمستشفى كربلاء (٢٨ تموز ١٩٢٤) . وانتخب نائباً عن الديوانية في تموز ١٩٢٥ ، لكنه آثر الاستقالة من النيابة فوراً .

مارس الطب في بغداد زمناً قصيراً ثم عيّن طبيباً للسجون سنة ١٩٢٦ . وانتخب نائباً عن الدليم في تشرين الثاني ١٩٣٠ ، وعيّن أميناً للعاصمة في ١٧ تشرين الأول ١٩٣١ فمديراً عاماً للبريد والبرق (٢٥ تشرين الثاني ١٩٣١) ، وقام في الوقت نفسه بأعمال مدير الطيران المدني (حزيران ١٩٣٤) . ثم نقل رئيساً لصحة لواء كركوك (ايلول ١٩٣٤) ، فسافر الى وينة بقصد التتبع الطبي . وعين بعد ذلك رئيساً لصحة لواء بغداد (حزيران ١٩٣٥) فالموصل (تموز ١٩٣٦) . وعهد اليه في ايلول ١٩٣٩ بمنصب متصرف لواء كركوك . وأعيد مديراً عاماً للبريد والبرق (حزيران ١٩٤١) فمديراً للأمور الطبية بوزارة الدفاع برتبة لواء (آب ١٩٤٢) . وعين أميناً للعاصمة للمرة الثانية في ايلول

١٩٤٦ فمفتشاً عاماً للصحة (آذار ١٩٤٨) فمديراً للأمور الطبية في وزارة الدفاع برتبة لواء أيضاً (حزيران ١٩٤٨) حتى أحيل على التقاعد في تموز ١٩٥٣ . وأعيد الى الخدمة في تشرين الثاني ١٩٥٣ وعهدت اليه مديرية الأمور الطبية للجيش العراقي ايضاً حتى اعتزل الخدمة في تموز ١٩٥٦ .

وقد توفي ببغداد في ٨ تشرين الأول ١٩٦٢ .

كان الدكتور فائق شاكر ظريفاً ، حلو الفكاهة ، سريع النكتة ، شعبياً في عاداته وأخلاقه ، انسانياً في طبّه ، حازماً في المناصب الكثيرة التي تسنّمها والتي اختلفت واجباتها من الطب الى الادارة والنيابة . وضع كتباً ورسائل ، منها : الوقاية من مرض التراخوما (١٩٣٢) ، صحة الأم والطفل (١٩٢٩) ، عالم الذباب (١٩٤٣) . وترجم كتاب «القواعد الأساسية في تربية الطفل» (١٩٣٩) بالاشتراك مع الدكتور عمانوئيل اللوس ، وكتاب «عرفت ثلاثة آلاف مجنون» (١٩٤٤) مع الشاعر حافظ جميل .

وقد حدثني مرة ان خاله كان بغدادياً أصيلاً ظريفاً حاضر البديهة ، وقال انه كان يرسل اليه بين الحين والحين برسائل في عهد دراسته في استانبول . فلما جاء الى بغداد في العطلة الدراسية وزار خاله للسلام عليه ، قال له : انتظر ، يا بني ، لحظة ، فلديّ أمر عاجل أريد عرضه عليك . ثم قام وجاءه بحزمة من الرسائل التي كان يرسل بها اليه من العاصمة التركية لم تفضّ اختامها وقال : افتحها فلعل فيها أمراً ذا بال !

وسئل الدكتور فائق لماذا ترجم كتاباً عن المجانين فقال : كانوا ثلاثة آلاف مجنون ، فلما ترجمنا الكتاب أصبحنا ثلاثة آلاف وثلاثة ، باضافة المؤلف والمترجمين .

وروى ذات مرّة انه حضر في العاصمة النمسوية في اثناء زيارته لها سنة ١٩٣٤ محاضرة علمية تدور حول ازدواج الشخصية وادعاء صاحبها بما ليس له . وكانت تجلس الى جانبه فتاة عرفته أجنبياً فسألته عن عمله ، ولم يكن منه الا ان قدم لها بطاقته التي كتب عليها : الدكتور . مدير البريد والبرق العام ، مدير الطيران المدني . قالت الفتاة : أنت طبيب؟ قال : أجل . قالت : وهل تشغل منصب مدير البريد والبرق العام ومدير الطيران المدني؟ قال : أجل . فقالت : لعلك من هؤلاء الذين تحدث عنهم المحاضر !

وكان فائق شاكر في سنوات الثلاثين ركناً من ثالوث الظرف والقومية مع زميليه الدكتور سامي شوكت وبهاء الدين سعيد النقشبندي . وكان هذا الثالوث موضوع فكاهة جميلة في الصحافة الهزلية في ذلك العهد .

* * *

حدثني محمود رامز انه كان ضابطاً في الجيش التركي ، والحرب العظمى تدنو الى نهايتها . وكان مقرّه في العمادية ، فإذا بالقائد التركي علي احسان باشا يزور القرية . وكان في حاشيته ضابط يبدو طورانياً متعصباً يتكلم بلهجة تركية أصيلة في محضر من القائد ، يذكّر الضباط بواجبهم في الانسحاب الى الاناضول ومواصلة الكفاح . والتفت فجأة الى محمود رامز فقال : «وأنت ، أيها الضابط الوطني الغيور ، ماذا تنوي ان تفعله؟» أخذ محمود رامز على غرّة وبادر مجيباً بأنه يفعل ما يفعله أي تركي محبّ لبلاده فيعود مع الجيش ويتفانى في الحرب .

ولم تمض أيام حتى أعلنت الهدنة (سنة ١٩١٨) وسلّمت الموصل وأنحاؤها الى الجيش الانكليزي . واستقال محمود رامز من الجيش التركي المنسحب من العراق وعاد الى بغداد ، فمن تظنون وجده فيها؟ لقد التقى بذلك الضابط الطوراني الشابّ المتعصب ، فتعرف به فإذا هو الطبيب فائق شاكر . ولم يكن ما تفوّه به أمام القائد علي احسان سوى دعابة أخرجها بمظهر الجدّ والصرامة لملاطفة الضباط العرب !

ومن لطائف فائق شاكر انه كان نائباً سنة ١٩٣١ حين قدمت الى مجلس النواب لائحة قانون العملة العراقية . كان في المجلس عدد قليل من رجال المال والاقتصاد احتكروا الكلام في مناقشة اللائحة ، فكانوا يعترضون على كل مادة من موادها ، فيجيبهم وزير المالية رستم حيدر شارحاً معللاً موضحاً . وضاق النائب فائق شاكر ذرعاً بالسكوت ، وهو البعيد عن العلوم المالية بعده عن المال نفسه ، فقال لأحد الماليين وكان يجلس الى جانبه : ألا تفسح لي مجال الكلام؟

ــ ومن يمنعك؟

ــ أرجو ان تشرح لي احدى النقاط التي تريد الاعتراض عليها في اثناء المناقشة لأطلب الكلام وأردها فتسجل باسمي في المحضر .

ــ ولماذا لا تعترض على هذه المادة التي تتلى الآن؟ ألا تسمع ان نسبة المعدن في المسكوكات النقدية لا تتجاوز ٥٠ في المائة من قيمة المسكوكة ، فأية ثقة تبقى للناس وهم يتداولون عملة جديدة تحتاج الى الرسوخ والثبات؟

وبادر فائق شاكر فرفع يده طالباً الكلام ، فلما أذن له الرئيس ، قال :

«ان الحكومة تسكّ عملة وطنية لأول مرة في تأريخ العراق الحديث ، ولا بدّ لهذه العملة ان تجمع كل مقومات الثقة ليقبل عليها أبناء الشعب ويطمئنوا اليها . فكيف

تريدون ان تحتوي المسكوكات على أقل من نصف قيمتها من الفضة او المعدن وتحوز على ثقة الجمهور؟ انني أطلب تعديل هذه المادة» .

ولم يكد يجلس مسروراً بما قال حتى نهض وزير المالية وقال : «أنني أسأل النائب المحترم كيف يثق الجمهور بالأوراق النقدية وليس فيها من الورق ما يوازي واحداً في العشرة آلاف او المئة ألف من قيمتها؟»

فغضّ فائق شاكر من بصره وهمس في أذن صاحبه : «أتفعل ذلك معي؟...» .

ويماثل هذه القصة ما روي عن أناتول فرانس الأديب الفرنسيّ الكبير : كان حاضراً في احدى جلسات الاكاديمية الفرنسية المخصصة لمناقشة قاموس اللغة ، وكان الى جانبه المؤلف المسرحي الشيخ هنري دي بورنييه . وكان أناتول فرانس يحفظ موجدة في نفسه على هذا الزميل الذي لم يمنحه صوته حينما رشح نفسه للمجمع العلمي . ودار البحث حول كلمة «حلقة» ، فقيل في تعريفها : قطعة مستديرة من المعدن ، خاتم . واقترح بعضهم تعريف حلقات الدخان وحلقات السيّار زحل .

والتفت اناتول فرانس الى دي بورنييه وقال له همساً : ولماذا يغفلون تعريف «حلقة هانس كارفيل»؟ ولم يتذكر الكاتب الشيخ معنى هذه الحلقة ، لكنه صاح قائلاً : أضيفوا تعريف حلقة هانس كارفيل . ولم يهتم بكلامه أحد . فلما واصلوا المذاكرة أعاد فرانس همسه في أذن زميله : ما لهم يضربون عن اقتراحك صفحاً؟ أصرّ على طلبك .

وضرب دي بورنييه على المنضدة وصرخ بصوته الجهوريّ : أصر على طلب اضافة تعريف حلقة كارفيل ! ولو لم يكن أئمة اللغة والأدب من الشيوخ الذين تغلب عليهم الرزانة والوقار لضجوا بالضحك . لكن الرئيس أسرع ففضّ الجلسة . وأفهم الكاتب الشيخ بعد ذلك ان «حلقة هانس كارفيل» كلمة بذيئة ذكرها الكاتب الساخر رابليه في قصة له ، وأنها أبعد ما تكون عن اللياقة للدخول في معجم الأكادمية .

***

قال ابراهيم الواعظ : ان فائق شاكر علم من أعلام الفكاهة ، سريع البديهة ، حاضر النكتة ، رقيق الحاشية ، يختلق النكتة إذا لم تحضره في الوقت المناسب . وروى انه زاره ذات يوم في داره فقدم اليه ولده الطفل «ليث» ليراه ، فقال فائق شاكر : لم تتغير الدنيا كثيراً . فقد كان الناس فيما مضى يطلقون على أبنائهم اسم «سبع» ويسمونهم الآن «ليثاً» . وكانوا يقولون «ابو سبع» فيقولون الآن «ابو ليث» والمعنى واحد . فضحك

الواعظ ، وذكر انه كان ببغداد رجل مخبول يدعى «ابو سبع» يدور في الطرقات حاملاً صفيحة من التنك اتخذها طبلاً يضرب بها ويرقص ويغنيّ .

***

كان فائق شاكر حريصاً على أداء واجباته لا ينسى مهنته الأصلية ، وهي الطب ، في اثناء الوظائف الادارية التي دعي الى تقلدها . وعندما عين مديراً عاماً للبريد والبرق ارسل النشرات الى موظفي دائرته الكثيرين مشيراً الى طرق العناية بصحة العين ومبدياً استعداده لفحص عيون الموظفين مجاناً . وذكر محمد صدّيق الجليلي انه عند توليه رئاسة صحة الموصل سنة ١٩٣٨ أمر بتحليل مياه حمّام العليل كيماوياً وجمع ما قيل في وصفه من الشعر العامي للملا عثمان الضرير الموصلي وغيره .

وقال الدكتور فائق شاكر ساخراً ذات يوم : كيف يستطيع الموظف الاداري أداء عمله؟ لقد كنت متصرفاً للواء كركوك ، فإذا قررت أمراً في الشؤون الادارية او امور العشائر ، اعترض مدير التحرير او مدير الشرطة واحتج على تنفيذ الأمر لمحاذير ادارية . واقترحت فتح الطرق وتجميل البلدة فانبرى رئيس البلدية او المهندس وقال : هذا لا يجوز لأسباب فنية . وكذلك فعل مدير المعارف في الشؤون الثقافية والحاكم والقاضي في الأمور العدلية . لكن رئيس الصحة المسكين لم يجد مجالاً للاعتراض والمناقشة ، فكلما احتج لأسباب طبية اجبته : انني مثلك طبيب! وتلك حسنات الاختصاص .

ولعلّ هذه القصة مصداق لكلمة المفكر الفرنسي لا روشفوكو (١٦١٣ ــ ١٦٨٠) الذي قال : «من الأيسر ان يظهر الانسان أهلاً للوظائف التي لا يتقلدها اكثر من تلك التي يمارسها فعلاً» .

الدكتور شريف عسيران

ابن توفيق بن حسين عسيران ينتمي الى أسرة لبنانية معروفة ، ولد في صيدا سنة ١٨٩٢ ودرس الطبّ في الكلية الأميركية ببيروت ونال اجازتها سنة ١٩١٨ . جاء الى العراق سنة ١٩٢٤ فعيّن طبيباً لصحة الكاظمية (آب ١٩٢٤) ، فطبيباً لسجن بغداد (نيسان ١٩٣٣) .

وعين استاذاً في دار المعلمين العالية في تشرين الأول ١٩٣٩ فزاول التدريس أعواماً طويلة . وقد شارك في الحياة الثقافية ، فاختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي في كانون الثاني ١٩٤٨ ، وأصبح نائباً أول لرئيسه في نيسان ١٩٤٩ الى تشرين الأول ١٩٥٣ .

توفيّ في صيدا في ١٥ كانون الثاني ١٩٥٤ . وقد وضع مؤلفات طبية وعلمية منها : اصلاح النسل ، الأحوال الصحية في العراق (١٩٤٢) ، علم الصحة (في جزءين ١٩٤٨ ــ ٥٠) ، معجزة العلم الكبرى ، الوقاية من السلّ الرئوي (١٩٥٣) ، المرأة والرجل (١٩٥٤) الخ .

الدكتور هاشم الوتري

من أطباء العراق المعروفين هاشم بن يحيى المعروف بالوتري ابن قاسم بن جليل الهاشمي النسب . كان أبوه السيد يحيى الوتري من علماء بغداد البارزين .

ولد هاشم الوتري في بغداد سنة ١٨٩٣ ، ودرس الطب في جامعة استانبول وتخرج فيها في كانون الأول ١٩١٨ . مضى الى سورية ثم عاد الى مسقط رأسه فعين طبيباً في دائرة الصحة في ايلول ١٩٢١ . وتولى التدريس أعواماً طويلة في الكلية الطبية واختير عميداً لها في تشرين الثاني ١٩٣٧ ، وأعيد اختياره لهذا المنصب في حزيران ١٩٤١ وثم في كانون الثاني ١٩٤٧ . وأصبح عضواً في المجمع العلمي العراقي في كانون الثاني ١٩٤٨ .

توفي في بغداد في ١٨ كانون الثاني ١٩٦١ .

وضع مؤلفات وبحوثاً طبية ، منها : تأريخ الطب في العراق (١٩٣٩) مع الدكتور معمر خالد الشابندر ، الأمراض الكلوية (١٩٤٣) ، الأمراض العصبية (١٩٤٥) ، محاضرات في الطب السريري (١٩٤٥) ، مقالات في الطب العربي القديم (١٩٥٥) ، الخ .

قال فيه معروف الرصافي :

إذا الأطباء تستعلي مكانتهم   في معرض الطب فالوتريّ سيدّهم
يزيد مرضاه آمالاً بصحتهم   ويطلق الأمر فيهم لا يقيّدهم

وأقيم حفل تكريم للدكتور هاشم الوتري في حزيران ١٩٤٩ على اثر انتخابه عضواً فخرياً في الجمعية الطبية البريطانية ، فألقى محمد مهدي الجواهري قصيدة مطلعها :

مجّدت فيك مشاعراً ومواهبا   وقضيت فرضاً للنوابغ واجبا
شرفاً ، عميد الدار ، عليا رتبة   بُوِّئتها في الخالدين مراتبا
جازتك عن تعب الفؤاد ، فلم يكن   تعب الدماغ يهُمّ شهماً ناصبا

ثم قال :

لـلّـه دركَ ، أيّ آسٍ مـنـقـذ يزجي الى الداء الدواء كـتـائبـا

سبعـون عـامـاً جُلت في جنبـاتهـا تبكي حـريبـاً او تسـامـر واصبـا

مـتـحـدّياً حكم الطبـاع ودافـعـاً غـضب السـمـاء وللقـضـاء مـغـالبا

تتلمّس النّبـضـات تجـري اثرها خلجـاتُ وجـهك راغـبـاً او راهبـا...

* * *

ذهبت صباح احد الايام لزيارة الاب انستاس ماري الكرملي في ديره ، فوجدت لديه الدكتور هاشم الوتري . ولما خرج ودّعه الأب وعاد يطلق ضحكة طويلة عريضة وكأنها القهقهة بل الزمجرة .

فقلت : ما الذي يضحككم ، يا أبانا؟

قال : كانت دار آل الوتري في القرن الماضي مواجهة لهذا الدير وبابها ازاء بابنا في الزقاق الضيّق . وكان الشيخ يحيى الوتري ، والد الدكتور هاشم ، يتطير من رؤية الآباء بملابسهم القاتمة الفضفاضة ، فكلما خرج من داره صباحاً وقابل احدهم اتفاقاً ، تأفف وحوقل وتعوّذ واستغفر . فكيف لا أضحك ، وها انت ترى تبدل الأزمان واستحكام أسباب الألفة والمودة ، وتشهد ابنه يزورني في الدير زيارات متكررة؟

الدكتور معمّر الشابندر

الطبيب الأديب الدكتور معمّر خالد الشابندر ، ولد ببغداد سنة ۱۹۱۷ وتخرج في الكلية الطبية . وعيّن طبيباً في ادارة الصحة العراقية (تموز ۱۹۳۹) . ثم اختص بالأمراض العصبية ، وأصبح مديراً لمستشفى الأمراض العقلية (تشرين الثاني ۱۹۵۰) ، وكان استاذاً بكلية الطب وخبيراً في صحة الأحداث .

توفي ببغداد في ١٥ شباط ١٩٧٤ .

وكان خارق الذكاء ، ميّالاً الى الأدب ، وكاتباً لطيف الأسلوب ، علمي التفكير . اشترك مع استاذه الدكتور هاشم الوتري في تأليف كتاب «تأريخ الطب في العراق» (۱۹۳۹) ، و«الأمراض العصبية» (١٩٤٥) . وألف «معجم المصطلحات الطبية» (١٩٤١) .

ونقل عن الانكليزية كتباً في التخلف العقلي وصحة الأطفال والجسم البشري الخ . وألفّ : العناية قبل الولادة بالحامل والجنين (١٩٥١) ، علم النفس في الحياة اليومية (١٩٦٧) ، الأمراض النفسية الشائعة (١٩٦٨) . ونشر في الصحف مقالات أدبية لطيفة .

الدكتور معمر الشابندر

الدكتور معمّر الشابندر في الوقت نفسه أديب ناصع البيان ساحر في أسلوبه العاطفي ، ربطته اواصر الصداقة بمؤلف هذا الكتاب . وقد نشر «أماليه» في جريدة «الأيام» لصاحبها عبد القادر البراك سنة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ ، فكتبت اليه هذه الكلمة عن طريق الجريدة :

«أخي الكريم ، لا بدّ لي ، وأنا أطالع بلذة ولهفة حلقات «أماليك» في «الأيام» ، ان اهنئك على مذكراتك التي تهزّ النفوس . لا أدري ، وقد فقدت عطف الوالد الحنون مثلك وأنا في دور الصبا وعلى مقاعد الدراسة ، هل كان هذا القدر الجامع بيننا يثير في نفسي مزيداً من العاطفة الروحية . ولكنني أقول بلا مواربة ان أماليك من الأدب الانساني الصادق الذي تفتقر اليه لغتنا العربية لأنه يشعّ بحرارة تتوقد في أعماق القلب وتسري سريان الكهرباء .

«فلك مني التهنئة المكررة والتحية المفعمة بالتقدير» .



القصّة والرواية



عبد المجيد لطفي

الأديب القاصّ المجيد عبد المجيد لطفي ولد في خانقين سنة ١٩٠٨ وكان أبوه عمر بن عبد الرحمن محمد البياتي محامياً شرعياً بها . جاء الى بغداد ودرس في مدرسة الصناعة وأنهى دراسته بها سنة ١٩٣١ . وظف كاتباً في وزارة المالية فأمضى في وظيفته أعواماً طويلة .

شغف بالكتابة منذ نعومة أظفاره ، فكان كاتباً قصاصاً انساني النزعة صوّر آلام الشعب ونضال أبنائه في سبيل لقمة العيش وتعاطفهم بالرغم من البؤس والفاقة التي تلفّ حياتهم . وأفاد من معرفته للغة التركية في الاطلاع على الأدب التركي القديم والحديث . نظم الشعر مقلاً ، هنّأه ابن أخيه الدكتور صفاء خلوصي ببلوغه الثمانين بقصيدة ختمها بقوله :

فلا زلت في عزّ وسابغ نعمة ... ولا زالت الأيام تزجي تهانيا

فردّ عليه بنفس الوزن والقافية :

ومن عجب اني أعيش كما ترى ... وتعرف والدنيا تفيض مآسيا
على رجل جارى الحقيقة صادقاً ... فما عاش خدّاعاً وما كان جانيا
ولا عاش يرجو بغية دون عفّة ... ومن يكُ مثلي يستقلّ السواقيا
على مضض أمضي ، أقود بقية ... من العمر لم يسعد أديباً معانيا

من مؤلفاته : اصداء الزمن (١٩٣٨) ، قلب الأم (١٩٥٨) ، في الطريق (قصة طويلة ، ١٩٥٨) ، عفيفة : خواطر أدبية (١٩٥٣) ، أنشودة تموز : خواطر وعواطف (١٩٥٩) ، عيد في البيت (١٩٦١) ، الامام علي رجل الاسلام المخلّد (١٩٦٧) ، بعض الذكريات (١٩٦٨) ، واشترك في تأليف «نظرات في الأدب الكردي» (١٩٤٥) .

توفي ببغداد سنة ١٩٩٢ .

تكلم جعفر الخليلي عن عبد المجيد لطفي فقال : «كاتب وشاعر ، وهو من الكتاب المكثرين . وعلى كثرة ما يكتب فلا ترى لقلمه نبوة لأن مواضيعه مستمدة من الحياة الصادقة ، وإن الذي يستوحي مواضيعه من منابعها لا يجفّ له قلم . كتب في

مختلف المواضيع كما نظم في مختلف المواضيع ، ولكن كتابته للقصة والريبورتاج تكاد تطغى على ألوان أدبه الأخرى» . ثم قال : «ولعله احد القليلين في دنيا الأدب الذين تحكي آثارهم الأدبية اخلاقهم وصفاتهم بدون أي اختلاف ، فهو على جانب كبير من الأدب والدعة والوفاء والحميّة» .

من قصص عبد المجيد لطفي «بصقة على الشيطان» يروي فيها عن بطله انه واحد من عامة الناس لا يمتاز عنهم بشيء يذكر ، بل انه لينخفض عنهم في مستواه العقلي . ومع ذلك أصاب هذا الرجل ثروة عظيمة إذ آتاه الحظ في سنوات الحرب ، فكأن السماء قد انشقّت عن مطر زاخر من المال هبط على داره وحده .

تغيّرت سحنة الرجل فارتدى بدلة ثمينة وحمل سبحة من الكهرمان الفاخر وافتتح محلاً مرموقاً في الأسواق التجارية . واستيقظت عنده رغبة غريبة سيطرت على حواسه ، فأراد ان يكون ملاكاً كبيراً يمتلك العمارات والدور . وهيّئ له ان يكون كذلك ، فصار كل يوم يفتح صندوقه الحديدي ويستخرج سندات الاملاك ووثائق العقارات ويدقق اثمانها وأرباحها . وتطمئن نفسه الى ثروته المتزايدة فيبصق بصقة كبيرة على الحائط ويقول : هذه على الشيطان . وكان الرجل يحلم بسرقة سنداته وتبدّد أمواله فيأسى ويهوّل الأمر لزوجته وأولاده ، ثم يصطنع الرضا مقتنعاً ان ذلك لم يكن سوى أضغاث أحلام لا صدق فيها .

وأخيراً مضى صاحبنا الى محله التجاري وغمرت قلبه السعادة حين ألقى نظرة عميقة على السندات المبثوثة أمامه والأرقام المتضخمة لاثمانها على الورقة البيضاء بين يديه ، فأغمض عينيه حالماً حلماً لا نهاية له . وعلى حين غرة شعر بقلبه يخفق خفقاناً شديداً وبأنفاسه تضيق ، فسقط على الأريكة متخشب اليدين مربدّ الوجه . وجاء الطبيب فأعلن وفاته بالسكتة القلبية .

تلك صورة من صور الحرب التي أخلّت بالاقتصاد وخلقت طبقة كبيرة من المثرين الذين ينوؤون بحمل ثروتهم ويسقطون في الطريق . لكن عبد المجيد لطفي يضع نهاية غريبة لقصته ، فهو يسجل فرح الزوجة والأولاد بالنهاية التي انتهى اليها معيلهم البليد الحريص الذي لم يعرف سوى التكالب على جمع المال ، لا تنتدي له يد بمعروف ولا تنبثق في نفسه عاطفة من رحمة . «وكانت بصقة الأب الكبيرة لا تزال على عتبة الدار وقد تجمع حولها الذباب . وكان الشيطان يستهزئ من بعيد لأن الأب قد أخطأ لأول مرة في توجيه البصقة اليه باحكام!» .

ترجم عبد المجيد لطفي بعض القصص عن التركية . وألف أيضاً : الجذوة والريح

(١٩٦٩) ، الرجال تبكي بصمت (رواية ، ١٩٦٩) ، خاتمة موسيقار (مسرحية ، ١٩٤٥) ، ضجة النهار (مسرحية ، ١٩٧٠) .

وجدير بالذكر ان عبد المجيد لطفي من أغزر كتاب القصة العراقية انتاجاً ، فقد ذكر له عبد الاله أحمد في كتابه «فهرست القصة العراقية» نحواً من ٢٠٠ قصة نشرها خلال السنوات ١٩٣٥ ــ ١٩٦١ في الصحف ، ومنها «الطريق» و«صوت الشعب» و«العراق» و«الصباح» و«الانقلاب» و«الغد» و«الدفاع» و«بالك» و«العالم العربي» و«الاتحاد» و«بريد الجمعة» و«الأوقات البغدادية» و«البيان» و«الزمان» و«الاستقلال» و«صوت المبدأ» و«صدى الروافد» و«الجمهور» و«الحارس» ، ومن المجلات «الحاصد» و«المجلة» الموصلية و«الهاتف» و«الغريّ» و«الزهراء» و«الرابطة» و«الحضارة» و«المعلم الجديد» و«الدليل» و«البيان» و«صرخة الفن» و«أهل النفط» و«الاتحاد النسائي العراقي» «والمثقف» و«الوادي» و«الدنيا» الدمشقية و«الأديب» اللبنانية و«الثقافة» المصرية .

عبد المجيد لطفي : آراء وتصريحات

صرّح عبد المجيد لطفي لزكي الصراف ، في مقابلة أدبية نشرتها جريدة «الهاتف» سنة ١٩٥٣ قائلاً : «ان أهم ما يتعب القاصّ ضيق المحيط . وهذا الضيق يجرّ عليه ، ليس من المتاعب فحسب ، بل من المشاكل : فقد يرد في قصة ما وصف لبطل او بطلة ينطبق على واحد او واحدة في المجتمع ، وعندئذ يأتي دور اللوم والتعنيف وربما المحاكمة» .

وسأله الصراف عن تأثير المرأة في حياته فقال : «أي فنّان خلت حياته من تأثير المرأة؟ انني ، يا سيدي العزيز ، مدين لها بكل ما كتبت ونظمت . والحقيقة انني لولا خيبة عنيفة في غرام قديم لما كتبت شيئاً على الاطلاق ، ولما صرت أكثر من حدّاد !»

وقال عبد المجيد لطفي انه يعتقد ان الأدب كله يجب ان يخدم المجتمع ، ولكي يحقق ذلك يجب ان يكون طريفاً مشوّقاً . ويجب ان تكون القصة مجدية ، ولكن في الوقت نفسه حرة من القيود ، فإن للفنان سليقة سليمة يجب ان لا تحدد بقيود لأن القيود تميت مواهبه . والمهم ان يجوّد الفن ليحمل الجمال ورسالة التوجيه .

وقد كتب عبد المجيد لطفي في نفس جريدة «الهاتف» سنة ١٩٥٣ أيضاً مقالاً عن الكاتبة المبدعة الآنسة ميّ (ماري زيادة) ، فقال انه لم يعجب بشخصية نسوية في الأدب العربي اعجابه باثنتين ، اولاهما ولادة بنت المستكفي بالله صاحبة ابن زيدون وابن عبدوس وشاعرة الحب والحريّة . قال انها المرأة التي دخلت تأريخ الأدب العربي على جناحي شاعرين بينما تهاوت عشرات الأميرات في ظلمات النسيان الأبدي .

وأعجب بالآنسة مي التي جاءت متأخرة عنها أجيالاً عديدة ، وكانت مع ذلك في عهد الحرية أقل تمتعاً بالحرية من ولادة الشاعرة المحبة المتقلبة والامرأة التي أحبت الحياة في الحب . ثم قال انه يرى ان ميّ كانت أنثى متدفقة الأنوثة ، حارّة شديدة الحرارة ، لكنها كانت ايضاً معتدة بنفسها الى درجة الأنانية البغيضة . وكانت تريد ان تبقى دوماً في هالة من الطهارة وعفة السمعة ، وكانت تخضع رغبتها في الحب وفي الرجل لهذه الأنانية العمياء . وكانت توسع أفق حياتها في هذه الناحية بما يتجمع لديها من أصحاب الفكر والقلم والأدب .

أقول : ان هذا القول من عبد المجيد لطفي في مي فيه تعسف لأن هذه الأديبة كانت ابنة عصرها ومصرها ، ولم تكن لها الشجاعة للخروج على آداب زمانها . ولذلك كانت تعقد مجلسها الأدبي بحضور أمها ، فلما توفيت هذه لم تعد تجلس للناس . وقد أثر ذلك في نفسها حتى أصابها ، كما قيل ، شيء من اللوثة العقلية .

ولا يفوتنا القول ان ميّ كان لها سيّدة معاصرة اكثر حرية وانطلاقاً منها في حياتها ومجالسها الأدبية . تلك هي الكسندرة قسطنطين الخوري المعروفة باسم الأميرة الكسندره دي أفيرينوه (١٨٧٢ ــ ١٩٢٧) . ولدت في بيروت وانتقلت الى مصر ، فأنشأت في القاهرة مجلتين عربية وفرنسية . وكان لها مجلس عامر يحضره كبار أدباء مصر ، ومنهم اسماعيل صبري باشا ووليّ الدين بك يكن ونجيب حداد وغيرهم . وقد ذكر خير الدين الزركلي في «اعلامه» انها أخبرته ان اسماعيل صبري كتب هذين البيتين على «ديوان شعرها» :

معذّبتي ، أطفئي لواعج لا تنتهي   مضت في هواك السنون وما نلت ما أشتهي

فأجابته :

زمانك قبلي انتهى ولا يرجع المنتهي   فحسبي ان ازدهي وحسبك ان تشتهي

***

بين عبد المجيد لطفي وجودت القزويني

في أواخر القرن التاسع عشر كان شاعر مصر الكبير ، ربّ السيف والقلم كما كان يعرف آنذاك ، محمود سامي البارودي منفياً الى جزيرة سرنديب (وهي سيلان او شري لانكا كما تسمى الآن) لاشتراكه في الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ . كان شيخاً هرماً قبل ان يبلغ عجز الشيخوخة ، قابعاً في عزلته حزيناً كئيباً ، يناجي بشعره وطنه وأهله فيما وراء البحار . وإذا بالنسيم العليل يهبّ عليه بقصيدة ارسلها اليه الشاب شكيب ارسلان من

ربى لبنان يعزيه في وحدته القاسية ويرفع من مكانته في عالم الشعر والأدب . وتبودلت القصائد بين الشاعرين الشيخ والشاب ، ثم أذن للبارودي ان يعود الى بلاده ، وقد كفّ بصره ، ليقضي سنوات قليلة ناعماً قبل ان يصرعه الموت .

في سنة ١٩٧٥ كان الأديب الكبير عبد المجيد لطفي قابعاً في عزلته ، وقد بلغ من العمر عتيّاً . نطق في قصصه الانسانية بلوعة المحرومين والمستعبدين الذين قست عليهم الأيام والناس ، وآن له ان يستريح من وعثاء الجهاد الأدبي المرير . وتعرّف الى الشاعر الأديب الشاب السيد جودت القزويني فأهداه مجموعة من كتبه . فكتب له القزويني رسالة شكر ارفقها ببيت من الشعر :

أيا عبد المجيد ، حُبيتَ لطفاً ... من الرحمن إذ سمّاك لطفي .

ثم اتصلت المراسلة بين الأديبين . كتب اليه القزويني :

يهفُّ القلب ، يا عبد المجيد ، ... الى مرآك في شوق أكيد
فإن رام الأنام العيد يوماً ... ففي لقياك قد أحرزت عيدي

فأجاب عبد المجيد لطفي :

لمن طلب المزيد أقول : مهلاً ... مزيداً للحياة من الهباء
يحفّزنا المرام فلا نبالي ... بما بعد الكفاح من العناءَ
ونجمع للتراب تراب زهو ... ونجترح الذنوب بلا حياء
وإني والزمان كما تراه ... رياء في رياء في رياء
لأعجب للأنام تظلّ تحسو ... كؤوساً للحرام بلا ارتواء
«يدفّن بعضها بعضاً وتمشي» ... وتنسى في التراب أخا الوفاء
أخي ، يا جودة الانساب عذراً ... إذا ما كنت أعجز في الثناء
فإن القلب ممتلئ وفاءً ... لمن كان الوفيّ بلا مراء

فأجابه القزويني :

أتت تعدو بأبراد الهناء ... رسالة صاحب جمّ الإخاء
تذكرني ، وللذكرى شجون ... أحاديث المودّة والوفاء
لها في كل حرف معجزات ... وايحاء كايحاء السماء
وجدت بها الأماني وهي تحلو ... إذا ضاعت كأنداء الشذاء
فيسري بيتها بيتٌ وتبقى ... تسلسل مثل بعث الأنبياء
وقفت أقلّب الأبصار فيها ... وأرجوها تدوم بلا انتهاء

يـمـضّ الـداء فـي قـلـبـي ، ولـكـن | وجـدت بشـعـرك الأسـمى دوائي
فـخلتُ كـأنني في الروض أعـدو | مع الأطيـار بين كـلاً ومـاء
وصـوت العندليب يرنّ شـوقـاً | فـيـسـمـعني بأنغـام الغناء
فـمـا اسـحـاق او زرياب يحكي | ترانيم العـذوبة والصـفـاء
أيا عـبـد المـجـيـد ، اليك عـذراً | إذا أبـديـت فـي الـجـلّـى نـدائـي
شـربت الذكـريات بكأس حبّ | ولـكـن لـم أمـتّـع بـارتـواء
فـقـد هصـرتني الأفكار حـتـى | وجـدت القـافـيـات على السـواء
نصـبتُ (الهمّ) بعـد (سكون) نفس | ورحت (بـرفـعـه) رغم العطاء
فـعـذراً ان أطلتُ عليك شكوى | فـأنت بكل مـا أبغي رجـائي

أجاب عبد المجيد لطفي يقول : « ومع انني اعترف بأن شاعريتي بعد هجري الشعر منذ أعوام طويلة أقلّ استجابة لرغبتي حين أريد القول ، فقد اسعفتني بنفسٍ قصير بهذه الأبيات» :

القلب الوحيد

كـبـيـر في اللقـاء وفي التنائي | كـبـيـر في الرجـاء وفي الشـقـاء
كـبـيـر حـين تنهـزم الأمـاني | كـبـيـر في مكايدة العناء
كـبـيـر حـين تلقى الموت فـرداً | كـأنك لا تخـاف يدَ الفناء
أبحـر انت يا قلبـاً مـعنّى | وصـخـر حـين تصـمـد للقـضـاء؟
تبـارى كلّ ذي صلف بحلم | وتضـحك من ضـجـيج الأغـبـيـاء
وتصـعـد لا تكفّ عن المـعـالي | «كـمـا النسر المحلّق في السـمـاء»
وثيق النبض دقّك في الليـالي | يشقّ الصـمـت درباً للرجـاء
عـرفت الناس في فـرح وحـزن ، | وأيّ الناس أجـدر بالوفـاء
مظاهرهم مـخـادعـة وزيف | وشـرّ خـصـالهم تحت الرداء
عـرفت مـذاقـهم حلواً ومـراً | فلم تؤخـذ بقـول الأدعـيـاء
وفيّ للذين مـضـوا سـراعـاً | فـيـا للخُـسْـر خسر الأصـدقـاء!
بلغت الشـأو في مـسـرى الليـالي | فـحُطّ الرحل وارقـد في صـفـاء

وكتب اليه القزويني في الجواب بقصيدة طويلة ، مطلعها :

أرسلت أطيـافـاً بلا عـدٍّ | وأبنت مـعنى الضـدّ للضـدّ

ثم يقول :

قلب تسامى في مدارجه
هيهات ان يخبو من الوقد

بحر خضمّ صار غائصه
في حومة الأتعاب والجهد

أترعتني كأساً معتّقة
من عهد عاد ، جُلَّ من عهد

ولقد وفيتُ بأحرف مزجت
بالمكرماتّ وآية الرشد

وأجاب لطفي :

قلامة قلم

يا أصدق الأبرار بالوعد
وأثبت الأحرار في الجدّ

بريدك الواصل في ودّ
قرّب مني شقّة البعد

ما حيلتي ، القلب في وَقْد
من الأسى ، والحرّ كالعبد

ترعت نفسي من يد الحقد
وبتّ لا أبدأ او أبدي

مواكب الاحلام في المهد
كمواكب الأقلام في اللحد

بقيت وحدي في يد النقد
كعملة زالت من العهد !

غلواء مجد سحقت مجدي
فأيّ حزن في الردى يجدي

بسطت كفيّ ـ كلّ ما عندي
قلامة من قلم صلد

أحملها أبحث عن وِرْد
ملوّحاً مجعّد الجلد

أجوع أعرى أصطلي وحديَ
بشعلة يوقدها وجدي

تفوح للناس شدا رند
أعطيت ما أملك من جهد

من دون ان أطمع بالردّ
يا سيدي ، حصيلة العدّ

صفر وصفر آخر يُعْدي
صفراً وهذا حاصل الكدّ

وكان بعد ذلك ان سكت البلبلان عن الصداح ، فغادر القزويني العراق لمواصلة دراسته العالية ، وبقي عبد المجيد لطفي يعالج الأيام الى حيث مستقرّ الراحة الأبدية .

شالوم درويش

المحامي شالوم يعقوب درويش في مقدمة القصاصين العراقيين اشتهر بقصصه الشعبية الانسانية التي تصوّر ابن الشعب في مشاكله وكفاحه من أجل الحياة .

ولد في بلدة علي الغربي من أعمال العمارة سنة ١٩١٣ . وقدم الى بغداد بعد وفاة والده وعمره ٨ سنوات ، فدرس في المدارس الأهلية والمدرسة الثانوية المركزية ، ثم التحق بكلية الحقوق ونال اجازتها سنة ١٩٣٨ ، ومارس المحاماة . وقد شارك في الحياة الأدبية والسياسية ونشر المقالات والقصائد والقصص والمسرحيات في جريدة «الأهالي» و«مجلة «الحاصد» وغيرهما من الصحف والمجلات . وقد ترك العراق سنة ١٩٥٠ وذهب الى اسرائيل حيث زاول المحاماة .

نشر مجموعتين قصصيتين : احرار وعبيد (١٩٤١) ، بعض الناس (١٩٤٨) . وشفعهما سنة ١٩٧٦ بمجموعة ثالثة «بيضة الديك» . قال الدكتور سهيل ادريس في مجلة «الآداب» البيروتية (نيسان ١٩٥٣) : «... ثم نأتي الى أثر من أنضج آثار الأدب القصصي في العراق ، ونقصد به أثر شالوم درويش المحامي . فإن مجموعتيه «احرار وعبيد» (١٩٤١) و«بعض الناس» (١٩٤٨) تنّمان عن موهبة ممتازة . وبوسعنا ان نعتبر قصته «قافلة من الريف» احدى روائع الأدب القصصي العربي . وموضوع هذه القصة الذي يتناول حكاية عنزة وأسرة قد يبدو تافهاً ، ولكنه يحمل في الحقيقة معنى انسانياً عميقاً ، وتصوير الطبقة الفقيرة فيه مؤثر جداً . هذه القصة البسيطة الانسانية المؤثرة تذكرنا بأروع الأقاصيص الروسية ، وهي ترسم لنا لوحة حية لهذه الأسرة الشريفة ذات العواطف المخلصة...» . وقال الدكتور سهيل ان شالوم درويش يبدو ، بالرغم من آثاره القصصية المحدودة ، وجهاً من ألمع وجوه كتاب القصة القصيرة في الأدب العراقي الحديث .

وقال الدكتور داود سلوم في كتابه «تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي» : «ان شالوم (درويش) اسم مهم بين كتاب القصة في العراق لقابليته الكبيرة على التصوير والتركيز ووضح الصورة الحسية التي وصفها» . وأشار الى قصص «أحرار وعبيد» فقال انها تميّز قدرة الكاتب على تحليل نفوس أبطاله .

وقد كتبت مقالاً في جريدة «الأخبار» في ٧ كانون الأول ١٩٤١ عند صدور مجموعة «أحرار وعبيد» فقلت :

« وأول ما يشعر به قارئ هذه الأقاصيص ان صاحب المجموعة يمتاز بدقة الملاحظة وبراعة الوصف : فالأشخاص الذين يراهم او يحادثهم لا يمرون بباصرته مرّاً وانما ينعكسون على بصيرته وينطبعون في ذهنه حتى تتبلور منهم في مخيّلته شخصيات مثالية يرسمها في قصصه رسماً . فهذا الشرطي مبروك «ابو الشوارب» الشاعر بسلطته كل الشعور ، المعتزّ برجولته التي ترمز اليها شواربه الضخمة ، هذا الشرطي ألا تراه واقفاً يهيمن على حركة المرور ، ناهضاً بواجبه بشعور «أطلس» الذي كان ــ على ما ترويه الأساطير اليونانية ــ يحمل على عاتقه أركان السماء؟ بلى ، وإنك لتراه كذلك في غير مفارق الطرق وقوارع الشوارع ، جالساً الى مكتبه او واقفاً على منبره ، خالقاً لنفسه من دائرته الضيقة عالماً مستقلاً يأمر فيه فيطاع وينهي فيهاب .

«وفي المجموعة قصص بديعة كقصة «ابو شوارب» التي حدثتك عن بطلها وقصة «في سنة ٢٥٤١» و«المظلوم» . ولا تخلو هذه الأقاصيص وسواها من وصف رائع لشخص او جماعة او مكان» .

وفي مجموعة «بعض الناس» قصص كثيرة تدعو الى الاعجاب . وأولاها قصة «قافلة في الريف» التي استرعت انظار الناقد اللبناني سهيل ادريس . وهي قصة صبيّ جاء من الريف الهادئ الى العاصمة التي تعج بالحياة . جلبت أسرته البائسة معها عنزة ، ولما حل أفرادها ضيوفاً على أقارب لهم في بغداد اضطروا الى بيع عنزتهم التي كانت صديقة الصبي وأنيسته ورفيقة طفولته ، فكان فراقها عليه صعباً أثار لواعج صدره وهموم نفسه الصغيرة البريئة . وقد وفق الكاتب لتصوير هذه اللواعج والهموم مما يترك في نفس القارئ شعوراً عاطفياً عميقاً . وتتناول القصص الأخرى حياة أبناء الشعب الكادحين وكفاحهم في سبيل تدبير المعيشة والحب والزواج ومعالجة المرض والمشاكل الشخصية والاجتماعية . ومن أبطالها اللص والمجرم والثرثار والشحاذ والأعمى والعروس والشاب الذي حلم بالعبقرية والعظمة فينتهي به الأمر الى الانتحار . وقصة الحاج سعيد الذي أثرى بعد فقر وانتقل من مقر سكناه في بغداد القديمة الى قصره الجديد في الضواحي تصور الرجل المتقدم في العمر ذي المنزلة المرموقة في محلته الشعبية فإذا به في ضاحيته البعيدة يصبح رجلاً مغموراً غريباً يفتقد رفقة أصحابه واحترام جلساء مقهاه وعرفان الجميل من أبناء الأسر الفقيرة التي يساعدها ويرعاها . لقد أصبح غريباً حتى عن أولاده الذين درسوا وبدّلوا أفكارهم ونهج حياتهم كما بدلوا ثيابهم . «ويظل الحاج

يتدهور من سيئ الى أسوأ . وقد كانت الزيارات المتقطعة التي يؤديها لمقهى الحارة بين وقت وآخر بلسماً لجراحه العميقة تعطيه بعض الزاد في وحشته ووحدته . ولكن عقرب الساعة يدور بسرعة وبهمة ، فتستملك البلدية داره القديمة والدور المجاورة والمقهى ، وتأتي على الحارة كلها هدماً بالمعاول حتى تصبح جميعاً ساحة كبيرة يخطط فيها المهندسون حدائق وممرات وشوارع . ويتفرق سكان الحارة أيدي سبأ بعد ان انتظموا وآباءهم في عقد واحد لأجيال طويلة . ويظلّ الحاج بعد ذلك قعيد البيت ، ويزداد سقمه وتعجل الشيخوخة على بدنه المتهالك...» . وأخيراً يصبح الرجل شيخاً خرفاً يضجّ بالأنين والشكوى فيتفق ابناؤه على نقله الى غرفة صغيرة فوق الكراج ليكون بعيداً عن الضوضاء .

وقد كتب عبد الحق فاضل قنصل العراق في انقرة الى صديقة شالوم درويش عند صدور كتابه «بعض الناس» يبدي اعجابه بقصصه . ومما قاله : «ومما أعجبني ، فيما اعجبني ، وجود عنصر المرأة في قصصك على أحوال مختلفة . وقد كان القصاصون من المخضرمين ــ على قلتهم ــ يشكون انزواء المرأة عن الحياة الاجتماعية ، ويزعمون من أجل ذلك ان ذلك يسدّ على القاص باب الكتابة ، لأنهم فيما يبدو يحسبون ان المرأة في القصة لا مناص من ان تكون عذراء ، عاشقة ، معشوقة ، دعجاء العينين ، لعساء الشفتين ، سمهرية القدّ ، وردية الخدّ... ولم يدر في أخلادهم انها تستطيع كذلك ان تكون أماً او خادمة او ارملة معنية بتنشئة صغارها ، او بغياً مدلهة بثوب زفاف ، كأنما قصص الغرام في شرعتهم هو كل ما يمكن ان يكتب الكاتب ويقرأ القارئ» .

وأضاف عبد الحق قائلاً : «ولقد وجدت على قصصك الطريفة مسحة لك خاصة بك تختلف في أسلوبها ونوعها عن قصص سواك . ولعلّ اجمل ما في الأمر انها صور متقطعة من الواقع ــ المعتدل ــ من الحياة العراقية ، فيها صدق وفيها وضوح» .

وتحدث جعفر الخليلي عن شالوم درويش فقال انه «من أبرع القصاصين الموهوبين الذين يتقنون سبك القصة في قالبها الفني ويحسنون التحدث عن أبطال قصصهم كما لو كانوا هم الأبطال حقاً . وقد صدر له كتابان في القصة آخرها كتاب «بعض الناس» صوّر فيه جانباً كبيراً من حياتنا العامة والخاصة . وفوق هذا فهو شاعر لا تقل روعة شعره عن نثره ومحام ناجح» .

توفي شالوم درويش في حيفا في ١٥ حزيران ١٩٩٧ .

عبد الوهاب الأمين

الكاتب القصصي عبد الوهاب الأمين ولد في العمارة سنة ١٩١٢ وعمل أخيراً محرراً في جريدة «الجمهورية» ببغداد . كتب قصصاً كثيرة وترجم قصصاً عن الكتّاب الأنكليز والفرنسيين والروس .

من المجموعات التي نشرها : من الأدب الحديث (١٩٣٤) ، مع الكتب وعليها (١٩٦٨) . ومن مترجماته : ٢٤ ساعة في حياة امرأة ، ذباب وقصص أخرى (١٩٥٢) ، الزاد المردود (١٩٧٠) ، اوسكار وايلد : دراسة . وله رواية لم تنشر : مأساة الشاعر ماجد سليم .

وقد نشر عبد الوهاب الأمين منذ سنة ١٩٣١ قصصاً مختلفة في الصحف والمجلات منها «نداء الشعب» و«السياسة» و«البلاد» و«الاخاء الوطني» و«الهاتف» و«الحاصد» و«الرسالة» المصرية .

وجاء في جدول كبار موظفي الدولة لسنة ١٩٥٤ اسم عبد الوهاب الأمين ، ذكر انه ولد سنة ١٩٠٩ ودخل في خدمة الحكومة في ١٣/ ١٠/ ١٩٣٣ ، عيّن سكرتيراً لمجلس ادارة مصلحة مصافي النفط الحكومية في ٥ شباط ١٩٥٣ . ولم استطع التحقق أهو نفس اديبنا القصاص ام شخص آخر يحمل اسمه .

اخبرني الدكتور جليل العطية ان عبد الوهاب الأمين ترجم فصولاً من رحلة جيمس فليكس جونز الى العالم العربي نشرتها مجلة «المورد» سنة ١٩٧٤ . وتوفي في بغداد في ١٨ كانون الأول ١٩٧٦ .

صلاح الدين الناهي

صلاح الدين الناهي من كتاب القصة المعروفين ، لكنه اشتهر رجلاً قانونياً تولى عمادة كلية الحقوق .

ولد ببغداد سنة ١٩١٤ ، ودرس في كلية الحقوق بالقاهرة فنال شهادة الدكتوراه في القانون . وأصبح استاذاً في كلية الحقوق البغدادية في آذار ١٩٤٦ واختير عميداً لها سنة ١٩٦٠ . وانشأ سنة ١٩٥٣ دار المعرفة وقال انها مؤسسة ثقافية هدفها ترقية الأدب العراقي والأخذ بيد الأدباء . وأصدر في نفس السنة مجلة «الاحكام القضائية» (شهرية) مع مصطفى كامل ياسين وعبد الله اسماعيل البستاني .

وضع مؤلفات قانونية منها : الوسيط في شرح القانون التجاري العراقي (في ٥ اجزاء) ، الوجيز في النظرية العامة للالتزامات ، الوجيز في التأمينات العينية والشخصية (في جزءين) ، دراسات في تأريخ النظم والقوانين في الشرق الأدنى ، المبسوط في الأوراق التجارية ، محاضرات عن القانون المدني العراقي ، النظرية العامة في القانون الموازن وعلم الخلاف ، الوجيز في المرافعات المدنية والتجارية (جزآن) الخ .

اما في مجال الأدب القصصي فقد نشر أول قصة له في مجلة «التفيض» سنة ١٩٣٩ . ثم نشر مجموعات قصصية : أقاصيص شتى (١٩٤٩) ، تثنية الأقاصيص (١٩٥٢) ، مجموعتان وملاحق (١٩٦٨) . وله عدا ذلك : الأسرة والمرأة (١٩٥٨) ، مقدمة في الاقطاع ونظام الأراضي في العراق (١٩٥٥) ، كوخ على الفرات ، نصوص قانونية وشرعية (١٩٦٩) ، ومؤلفات قانونية كثيرة أخرى . ترجم قصة : بكالوريوس في الآداب (١٩٥٣) من الأدب الهندي . وحقق ونشر : خزانة الفقه وعيون المسائل لأبي الليث السمرقندي (في جزءين ١٩٦٥ ـ ٦٧) ، التعريف بكتاب روضة القضاة وطريق النجاة لعلي بن محمد بن احمد الرحبي السمناني المتوفى سنة ١١٠٦ م (١٩٦٧) .

وقد مارس المحاماة بعد ذلك . وانتقل الى الأردن حيث يعيش منذ سنوات طويلة .

عبد الملك نوري

من كتّاب القصة المجيدين عبد الملك نوري ، وهو نجل الفريق عبد اللطيف نوري زميل بكر صدقي في انقلاب سنة ١٩٣٦ . ولد في بغداد سنة ١٩٢٠ وأتم دراسته الثانوية في بيروت ، ثم عاد الى بغداد وانتمى الى كلية الحقوق . اعتقل خلال الحرب (تشرين الأول ١٩٤١) وحجر في معتقل الفاو . وأطلق سراحه فأكمل دراسته القانونية ونال شهادة الحقوق سنة ١٩٤٤ . وكان سنة ١٩٥٣ ملاحظ محكمة استئناف التسوية في بغداد . وظف بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ سكتيراً أول في ديوان وزارة الخارجية ، لكنه لم يداوم في منصبه سوى سنة او سنتين . وقد توفي في بغداد في أوائل آب ١٩٩٨ .

ذكر عبد الاله احمد في كتابه «فهرست القصة العراقية» انه نشر اول قصة له «بدرية» في مجلة «المجلة» الموصلة سنة ١٩٤١ ، ثم تابع نشر قصصه في تلك المجلة ومجلة «الرابطة » و«الأديب» اللبنانية و«البيان» النجفية و«الآداب» و«الرسالة» اللبنانيتين و«الثقافة الجديدة» و«الفنون» الخ . ونشر مجموعتين : رسل الانسانية (١٩٤٦) ، نشيد الأرض (١٩٥٤) . وله ايضاً : شعبنا ينتفض (١٩٤٨) ، دمقس وارجوان (مسرحية) .

ذكره الدكتور داود سلوم في كتابه «تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي» فقال ان كتابي عبد الملك نوري «رسل الانسانية» و«نشيد الأرض» يعتبران في مقدمة آثار القصة العراقية . «ففي كتابه الأول يصرف الكاتب انتباهه الى العالم الخارجي ووصف محيط أبطاله . اما في كتابه الثاني فقد صرف انتباهه الى الحديث الباطني لأبطاله...» . ويهتم قصاصنا بوصف الطبقة البائسة في بلده ويكثر من الاستعانة باللغة العامية لتقريب موضوعه الى الأذهان .

زاره زكي الصرّاف مندوباً عن جريدة «الهاتف» سنة ١٩٥٣ وسأله عن متاعب القاصّ في العراق ، فافتر ثغره عن ابتسامة وقال ان أهم ما يتعب القاص حرمانه من نعمة حرية التعبير . وقال عبد الملك انه من الكتّاب الملتزمين ولا يكتب القصة للتلذّذ الشخصي او لتزجية الوقت ، بل يلتزم التعبير عن الحياة التي يتأثر بها بصورة فنية . وقال انه قبل البدء بالكتابة لا بد ان يجد في نفسه استعداداً نفسياً ولا بدّ ان ينغمر في جوّ القصة شهراً او شهرين .

فؤاد التكرلي

الأسرة التكرلية (بفتح التاء والكاف وسكون الراء) من أسر بغداد العريقة تنتسب الى الشيخ عبدالقادر الكيلاني . وقد تولى عميدها محمد سعيد نقابة الاشراف لمدة اسبوع واحد سنة ١٨٤٢ ثم عزل بالسيد علي الكيلاني والد النقيبين سلمان وعبدالرحمن .

واشتهر من رجال الأسرة في العهد الاخير عبد القادر رشيد وزير الخارجية (١٩٣٢) ، وعبدالجبار بن عبد الرحمن بن محمد سعيد التكرلي عضو محكمة التمييز العراقية (١٩٤٥) ووزير العدلية (١٩٥٥) . واشتهر ايضاً اخوة عبد الجبار : مصطفى التكرلي (١٨٨٩ ـ نحو ١٩٦٠) عضو محكمة التمييز (١٩٣٧) ، ونهاد (ولد ١٩٢٢) القاضي الأديب الذي أصبح حاكم جزاء بغداد (١٩٥٤) ، وأخيراً فؤاد القاضي القصاص .

ولد فؤاد بن عبدالرحمن بن محمد سعيد التكرلي في بغداد سنة ١٩٢٧ ، ودرس في المدرسة الاعدادية المركزية . وانتمى الى كلية الحقوق فتخرج فيها سنة ١٩٤٩ . وعين كاتباً أول في محكمة براءة بعقوبا ، ونقل الى محكمة الكاظمية . وعين حاكماً لبداءة بغداد في ايار ١٩٥٤ ، وتنقل في مناصب القضاء . وسافر الى باريس سنة ١٩٦٤ للتمتع بإجازة دراسية لمدة سنتين . وعاد الى بغداد لممارسة وظائفه القضائية .

مال منذ صدر شبابه الى الادب مشتركاً في تطلعاته الادبية مع أخيه نهاد وعبدالملك نوري والشاعر عبدالوهاب البياتي . ونشر قصته الاولى «همس مبهم» في مجلة الاديب البيروتية في كانون الاول ١٩٥١ . ووالى نشر قصصه في تلك المجلة ومجلة الاسبوع والثقافة الجديدة والاديب العراقي والمجلة المصرية ومجلة ادب اللبنانية . ونشر مجموعته القصصية سنة ١٩٦١ بعنوان «الوجه الآخر» ، وألف عدا ذلك رواية «الرجع البعيد» (طبع بيروت ١٩٨٠) ، ومجموعة حواريات بعنوان «الصخرة» (١٩٨٦) ، ومجموعة قصص «موعد النار» (تونس ١٩٩١) .

قال الناقد الدكتور علي جواد الطاهر ان فؤاد التكرلي ليس قصاصاً فحسب بل هو ايضاً من المثقفين في فن القصة وقواعدها .

ادمون صبري

القصصي الذي نشر اكثر من ١٤ مجموعة قصصية ومسرحيات متعددة وقلما نال كلمة اطراء من مقرّظ او ناقد ادمون صبري رزوق ، ولد في بغداد سنة ١٩٢١ ، وكان موظفاً صغيراً في الحكومة ، بائساً كأكثر أبطال قصصه التي غلبت عليها النزعة الانسانية الخيّرة .

توفي في نيسان ١٩٧٥ بحادث سيارة قرب كركوك .

مجموعاته القصصية : حصاد الدموع (١٩٥٢) ، المأمور العجوز وقصص أخرى (١٩٥٣) ، قافلة الأحياء (١٩٥٤) ، كاتب واردة (١٩٥٥) ، الهارب من المقهى (١٩٥٥) ، خيبة أمل (١٩٥٦) ، شجار (وقد اقتبست منها قصة فيلم سعيد أفندي وكان بطله يوسف العاني ، ومثلت دور البطلة الممثلة زينب ــ فخرية عبد الكريم ــ ، ١٩٥٧) ، الخالة عطية (١٩٥٨) ، في خضمّ المصائب (١٩٥٩) ، هارب من الظلم (١٩٦٠) ، ليلة مزعجة (١٩٦١) ، خبز الحكومة (١٩٦١) ، زوجة المرحوم (١٩٦٢) ، عندما تكون الحياة رخيصة (١٩٦٨) ، أقاصيص من الحياة (١٩٧٠) ، يوميات الناس (١٩٧١) ، .

ووضع مسرحيات : الستّ حسيبة (١٩٥٩) ، أديب من بغداد (١٩٦٢) ، محكوم بالاعدام (١٩٦٣) ، أيام العطالة (١٩٦٧) .

استوحى ادمون صبري مسرحيته «محكوم بالاعدام» من رواية فكتور هوغو «آخر أيام المحكوم عليه بالاعدام» . تبدأ مسرحية الأديب العراقي بالسجان يحيى مصطفى يشخر في نومه بينما ابنته سلوى تواصل دارستها الموسيقية وهي تستبشع وظيفة ابيها ، في حين ان أمها تقول : ماذا بوسعه ان يفعل؟ ثم تقول الأم : كلما وجدت أباك نائماً في المساء وأنا أعد له فطوراً فاعلمي ان في فجر الغد انسان يشنق . ثم يأتي شاب مع أبيه لخطبة الفتاة ، ويظهر ان عم الفتى الخاطب قد شنق قبل سنوات وكان يحيى السجان هو الذي تولى شنقه . لكن المحكوم عليه بالاعدام الذي تقرر شنقه في فجر اليوم التالي يعفى من الموت ويخفف الحكم عليه الى السجن .

تنتهي المسرحية بتمام خطبة الفتاة والمناقشة في الغاء حكم الاعدام . لكن الفتى الخاطب ، وهو رجل درس الحقوق ، يرى الاحتفاظ بهذه العقوبة الزاجرة للمجرمين . ولئن كانت ألغيت في البلاد الراقية انها يجب ان تبقى في البلد المتأخر : «لا يمكن ان نفرش السجاد فوق الوحل . الاعدام أسلوب وقائي احتياطي ليس ثمة منه بدّ في الوقت الحاضر» .

جبرا ابراهيم جبرا

الكاتب الروائي الناقد جبرا ابراهيم جبرا ولد في بيت لحم بفلسطين سنة ١٩١٩ ودرس في الكلية العربية في القدس . تخرج سنة ١٩٣٨ فتابع دراسته في جامعة اكسيتر وهارفارد ، ثم نال درجة بكالوريوس في الأدب من جامعة كمبريدج (١٩٤٣) . عاد الى بلده وتولى تدريس الأدب الانكليزي في الكلية الرشيدية بالقدس .

جاء الى العراق في سنوات الخمسين فاتخذه وطناً وارتضى الاسلام ديناً ، وكان مدرساً حيناً وعمل كثيراً في سبيل الفن والنقد الفني .

من مؤلفاته : صراخ في ليل طويل (١٩٥٥) ، قصص من الأدب الانكليزي المعاصر (١٩٥٥) ، تموز في المدينة (١٩٦٠) ، الحرية والطوفان (١٩٦٠) ، عرق وقصص أخرى (١٩٥٦) ، المدار المغلق (١٩٦٤) ، الرحلة الثامنة (١٩٦٧) ، ثلاثة قرون من الأدب (٤ أجزاء ١٩٦٥) ، الفن المعاصر في العراق : حركة الرسم (١٩٦٩) ، البئر الأولى ، السفينة ، البحث عن وليد مسعود ، تأملات في بنيان مرمري ، شارع الأميرات ، النار والجوهر (١٩٧٥) ، ينابيع الرؤيا (١٩٧٩) ، الفن والحلم والفعل (١٩٨٨) ، معايشة النمرة وأوراق أخرى (١٩٩٢) .

ترجم من مسرحيات شكسبير : هامليت ، الملك لير ، كريولانس ، عطيل ، العاصفة ، مكبث . ومن الكتب الأخرى التي نقلها الى العربية : أدونيس من تأليف السر جيمس فريزر (عن كتابه الموسع : الغصن الذهبي ، ١٩٥٧) ، روبرت فروست (١٩٦١) ، ما قبل الفلسفة : الانسان في مغامراته الفكرية الأولى (١٩٦٠) ، وليم فوكنر (١٩٦١) ، الأديب ومناعته (١٩٦٢) ، الصخب والعنف لوليم فوكنر (١٩٦٣) ، آفاق الفن (١٩٦٤) ، البير كامو (١٩٦٧) . وألف بالانكليزية : الفن في العراق اليوم (١٩٦١) ، صيادون في شارع ضيّق (١٩٦٠) ، واشترك في ترجمة قصص عربية حديثة (١٩٦٧) .

قال جبرا : «انتمائي الفلسطيني هو انتماء الفلاح الى ترابه ، انتماء المزارع الى شجرته ، انتماء ساكن الشارع الى شارعه . هكذا احببت القدس ، وهكذا احببت فلسطين كلها وأحببت أرضي ، فيها سرحت وهمت وعشقت وحلمت ، مع انني لم أملك شبراً

من الأرض . ولكنني أذكر التراب في القدس والصخور في القدس وكأنني اذكر جواهر الدنيا . فالانتماء هو انتماء العشق والتداخل : إذا لم أكن فلسطينياً فأنا لست شيئاً» .

توفي جبرا في بغداد في ١٢ كانون الأول ١,٩٩٤

صراخ في ليل طويل

أعارتني السيدة سلمى الخضرا الجيوسي رواية جبرا ابراهيم جبرا «صراخ في ليل طويل» سنة ١٩٥٦ فقرأتها ، وكتبت اليها كلمة جاء فيها :

لقد طالعت هذا الكتاب بلذة وخرجت منه معجباً بالمؤلف ، مقدراً لأسلوبه وفنّه احسن التقدير . ان الناقد يستطيع ان ينصب من نفسه جرّاحاً فيحمل المبضع ليحزّ القلب ويتأكد انه ينبض بالحياة . اما القارئ فحسبه ان يتذوّق ويتلذّذ ليعرف القصة الجيدة ، دونما حاجة الى تحليل مداخلها ومخارجها وتدقيق مستهلها وخاتمتها . والحقيقة ان جبرا قد استطاع ان يخلق الجو القلق الذي يمرّ به الفتى العربي في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، وأن يرمز الى النزاعات المختلفة التي تعتلج في صدره ، وإن يكن الاطار بعيداً في جزئياته عن المجتمع العربي الحاضر .

«صراخ في ليل طويل» ، ألم يكن «همس في ليل طويل» أخلق بالكتاب عنواناً؟ فالذكريات الحالمة والمشاعر الواخزة والأطياف الهامسة اكثر في هذا الليل الطويل من الصراخ والزفير والنحيب . لكن المؤلف أدرى بموضوعه وعنوان كتابه .

لقد التزم ابو العلاء في «لزومياته» بما لا يلزم ، وتقيّد الكلاسيكيون الأقدمون في رواياتهم بالوحدة المثلثة ـ وحدة الزمان والمكان والفكرة . ومن حقّ جبرا ان يخصص لروايته البديعة ليلة واحدة ـ ليلة طويلة حافلة بالذكريات والأمطار الوقائع . وقد وفّق لسرد حادث هذه الليلة بغير ما ارهاق ولا عنت فاستحق الثناء والاطراء .

ولكن ما لصديقنا المؤلف يحسّ بـ «الجسد» كثيراً؟ لا ريب ان القصص والروايات الحديثة تطفح بأخبار الجسد وأوضاره . بيد انني شخصياً ما زلت من الفريق القديم المحافظ الذي لا يتجاهل الجسد ولكنه لا يحتاج الى ترديد ذكره في كل فكرة وصفحة . اننا نعيش بالجسد بطبيعة الحال ، اما ان يكون شعورنا به شديداً الى حدّ الافراط وأن نتخذ منه محوراً لأدبنا وثقافتنا فذلك ، على ما أعتقد ، يمنعنا من متعة التسامي والتحليق في الحياة كالطائر الذي نربط برجليه حجراً يقعد به عن الانطلاق .

ان الفصل الطويل الذي يجمع بطل القصة بأصحابه في المقهى ليتبادلوا الآراء

والأحاديث يذكرني بفصل «المأدبة» في رواية «تاييس» على ما بين فحوى الفصلين من تباعد وتباين : فأناتول فرانس قد جاء بأفانين الفلسفة القديمة والحكمة والدين ، اما جبرا فقد شرح ما يختلج في نفوس طائفة من الشباب من نوازع وأفكار . ولقد يقول المتزمتون الذين لا يؤمنون بالقصة ميداناً للآراء والخواطر انه حشو . نعم ، انه لكذلك ، ولكن من يرضى بترك حشو الدجاج من أكلة شطائر الساندويج؟

والخاتمة؟ انني اراها رمزية اكثر منها حقيقية ، ولعلّ المؤلف أرادها كذلك فوفّق لما أراد .

عبد الله نيازي

الأديب القصاص عبد الله نيازي ولد في قلعة صالح سنة ١٩٢٦ . أتم دراسته الابتدائية وأوائل المتوسطة ، ولم تتح له الفرصة لمواصلة التعلم ، بل تابع دراسة اللغة العربية وشيء من الانكليزية على نفسه . واكبّ على مطالعة الآثار الأدبية قديمها وحديثها .

بدأ حياته العملية مستخدماً في مطبعة الحكومة . ومال الى الأدب فأخذ يدبّج المقالات والقصص وينشرها في الصحف المحلية . شرع ينشر قصصه منذ سنة ١٩٤٨ في جريدة «الأوقات» البغدادية وواصل النشر في «الهاتف» و«الانقاذ» و«العراق اليوم» ومجلة «الرسالة» المصرية و«القلم الجديد» الأردنية و«الأديب» و«الآداب» اللبنانيتين وغيرها .

أصدر مجموعات قصصية وروايات : نهاية حبّ (١٩٤٨) ، همس الأيام (١٩٤٩) ، شجن طائر (١٩٥٠) ، بقايا ضباب (١٩٥١) ، أناهيد (١٩٥٣) ، أعياد (١٩٦٣) ، الهمس المذعور (١٩٧١) . وله ايضاً : الأدب والثورة (١٩٦٩) ، السجود للشمس (قصص مترجمة عن الانكليزية) .

تولى اصدار مجلة «الأقلام» لوزارة الاعلام مع عامر رشيد السامرائي وواصل العمل فيها ست سنوات (١٩٦٤ ــ ٧٠) . وقد غادر العراق بعد ذلك ، وهو يقيم الآن في السويد .

قال الدكتور داود سلّوم في كتابه «تطوّر الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي» ان عبد الله نيازي يبدو اكثر نجاحاً في كتابة القصة القصيرة منه في القصة الطويلة . وذكر مثالاً لقصصه القصيرة الناجحة قصة «قلق» و«خيبة» . وقال ان الكاتب يعتني في هذه القصص بالحديث الباطني اكثر من محيط البطل وحياته الخارجية . وقال ان قصة أناهيد رومانتيكية طويلة لحبّ فاشل قدّرها الأديب المصري أحمد زكي كثيراً ، لكن الدكتور سهيل ادريس لم يرها تستحق الاهتمام .

وقال عبد الله نيازي عن نفسه في مقال كتبه لمجلة «الأقلام» (عدد آب ١٩٨٨) انه لا يجلس للكتابة إلا بعد ان تكون الفكرة قد اختمرت في ذهنه وأن احداثها تتمطّى فيه وشخوصها ترافقه اينما ذهب ، وغالباً ما تكون البداية مهيّأة بألفاظها . وتابع كلامه قائلاً : «فليس لي إلا ان اجلس واكتب ، وعندها تكون المعاناة . ذلك ان الفكرة وحدها لا تؤلف قصة متكاملة بأبعاد فنية مقبولة ، فلا بدّ من استنباط احداث جديدة وشخصيات جديدة لم تكن مهيأة من قبل . ثم ان مراقبة مشاعر الشخصية الرئيسة في القصة والشخصيات التي تستجدّ اثناء الكتابة ومتابعة نموها وتناقضاتها الذهنية والنفسية والسلوكية حتى النهاية ليس بالأمر الهيّن . فكثيراً ما كنت أمام حالة معينة او موقف معيّن ارمي بالقلم وأقوم أدور في الغرفة كما لو ان امعائي تتقطع . وليس في هذا القول اية مبالغة . وحين أحسّ انني قد اهتديت الى ما ينبغي عمله أعاود الكتابة من جديد ، وكأن قوة خفية تمسك بالقلم وتكتب بدلاً عني...» . وقال انه يهتم باللغة اهتماماً كبيراً ، فلا بدّ ان تكون جميلة ومتماسكة وذات رنين شعري .

قال عبد الله نيازي انه في مطلع شبابه قرأ روايات المنفلوطي وأعجب بأسلوبه كثيراً . وتأثّر بعد ذلك بما طالع في الصحف من قصص ذنون أيوب وعبد المجيد لطفي وعبد الملك نوري وأنور شاؤول وجعفر الخليلي الذي احتضنه وفتح له صدر مجلته «الهاتف» . وتأثر ايضاً بكتابات رفائيل بطّي وشعر الرصافي والشبيبي والجواهري .

يوسف العاني

الممثل المؤلف الناقد والمحامي يوسف العاني من روّاد المسرح العراقي والعربي ، صوّر الحياة الشعبية العراقية أروع تصوير في مسرحياته وأفلامه السينمائية .

ولد في بغداد سنة ١٩٢٧ ، واختار يوم ٢٤ شباط عيداً لميلاده الذي لا يعرفه لأنه ذكرى أول ظهوره على المسرح سنة ١٩٤٤ ، وهو آنذاك طالب بالمدرسة الثانوية المركزية في بغداد . تخرّج في كلية الحقوق سنة ١٩٥٠ ، لكنه آثر العمل في التمثيل والنقد السينمائي والمسرحي . وعيّن بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ مديراً عامة لمصلحة السينما والمسرح .

كان أول فيلم كتبه ومثّل فيه الدور الأول «سعيد أفندي» (١٩٥٧) ، وهو يتناول حياة الطبقة الكادحة في أزقة بغداد الشعبية وهموم معيشتها . وقد عمل في فرقة المسرح الفني الحديث التي أسست في بغداد سنمة ١٩٥٢ ، وقدّم مسرحيتين «الانسان الطيب» و«الرهن» . وأسس سنة ١٩٦٢ شركة السينما الحديثة ، وأعدّ من مسرحيته «ماكو شغل» (لا يوجد عمل) فيلماً باسم «ابو هيلة» اشترك في تمثيله . واعتقل سنة ١٩٦٣ أمداً ، ثم مضى الى لبنان وعاد بعد ذلك الى بغداد .

من مسرحياته : الخان ، رأس الشليلة (١٩٥٤) ، المفتاح ، ستة دراهم ، أنا أمك يا شاكر ، مسرحياتي (في جزءين ١٩٥٥ ــ ١٩٥٩) ، أهلاً بالحياة (١٩٦٠) ، شعبنا (١٩٦١) ، الغذاء لا الدواء (١٩٦٦) ، بين المسرح والسينما (١٩٦٧) ، أفلام العالم... من أجل سلام العالم (١٩٦٨) ، التجربة المسرحية .

من أفلامه : عبّود يغني ، البيك والسائق ، النخلة والجيران ، وداعاً يا لبنان (١٩٦٧) ، المنعطف (١٩٧٥) . وقد اشترك في التمثيل في «اليوم السادس» الذي يخرجه يوسف شاهين في القاهرة (١٩٨٦) . وقد اختير يوسف العاني كأحد روّاد المسرح العربي والأفريقي في مهرجان قرطاج المسرحي المقام في تونس سنة ١٩٨٥ .

من تآليفه الأخيرة : على مسرح الحياة (بيروت ١٩٩٤) ، مسرحية المكّوك ، المسرح الحلم والوجود (مصر ١٩٩٤) .

الشعر



عبد المطّلب الحلّي

الشاعر الحلي السيد عبد المطلب بن داود بن مهدي آل سليمان الحسيني من بيوت الأدب المعروفة في الحلة، وقد ولد في تلك الحاضرة في سنة ١٨٦٥ . وأخذ الشعر عن عمّه السيد حيدر بن سليمان بن داود الحلي الحسيني (١٨٣١ ــ ١٨٨٦) شاعر أهل البيت في عصره، وتولّى بعد ذلك جمع شعر عمه المومأ اليه وطبعه في بمبي بالهند باسم «الدرّ اليتيم والعقد النظيم» (١٨٩٤) .

كانت للسيد عبد المطلب في بادئ أمره زراعة تدرّ عليه رزقاً وفيراً، لكنها بارت فاضطر على التكسّب بشعره ومدح أرباب الوجاهة والزعامة ورجال العلم . وقصد السيد طالب النقيب في البصرة فاستعمله داعية لزعامته لدى آل فتلة وعشائر الفرات الأوسط .

ونشبت الحرب العظمى فكان السيد عبد المطلب داعية لنصرة العثمانيين بشعره الفصيح والعامي، وقد زار مضارب العشائر ومواقع القتال يدعو الى شدّ أزر الحكومة التركية وجيشها . وانزوى بعد الاحتلال البريطاني في قرية لآله اسمها بيرمانة قريبة من الحلة، وتوفي بها في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٠ .

وصفه الدكتور محمد مهدي البصير فقال : «كان فصيح اللسان، حسن الحديث، غزير الحفظ، سريع الخاطر، كثير الانصاف، يجمع الفكاهة الى الصرامة وشدة الوقيعة الى الدعابة . يحدّثك فيخيّل لك انه يقرأ في كتاب، وتحاوره في الأدب فيدهشك بكثرة حفظه وسعة اطلاعه، ويسمعك الشعر المرتجل كأنما أعدّه ونظر فيه . وتسأله عن الناس فلا يبخس لأديب أدباً ولا ينكر لفاضل فضلاً... إلا انه سليط اللسان، مرّ الهجاء...» .

تناول شعره الفخر والمديح والغزل والرثاء والهجاء وسائر أغراض الشعر القديم .

قال يرثي الشيخ محمد كاظم الخراساني :

قضى ليله شطرين : شطراً محارباً ... وشطراً به بانت تضيء المحارب

فما أبيضّ وجه الصبح إلا وسُوِّدَتْ ... مآتم في فقدانه ومنادب

وأضحت ركاب السير وهي مناخة، ... وهل ثائر فيه تثار الركائب؟

وقال ايضاً يخاطبه :

نصرت ، وداعي الجور خزيان غاشم ، فـمـا ذلّ مظلوم ولا عـزّ ظالم
غـداة غـشيت المـستبد بلطمـة على تاجـه منهـا غـدا وهو لاطم
فـولّى وقـد اعطاك للطعن كـتـفـه فـمـا أنت إلا العـدل للجـور هازم
ولا أصبـحت بالقـيـد ترسف أرجل برتهـا فـأدمـتـهـا القـيـود الأداهم

وقال يفخر بالعرب مخاطباً الايطاليين في حرب طرابلس :

أجـهلتم بأننا ، مـذ خلقنا ، عـرب ليس ينزل الضـيم فـينا؟
لا نـدي الوتـر للعـدى ان وترنا وعلى الوتر لا نغضّ الجـفـونا
قـد قـفـونا آباءنا للمـعـالي ، واليـهـا أبناؤنا تقـتـفـينا
ولنا نبـعـة من العـزّ يأبى عـودها ان يلين للغـامـزينا
نحن قـوم إذا الوغى ضـرّسـتنا لم نبـدّل بشـدّة البـأس لينَا

شرح ديوان مهيار الديلمي الذي طبع ببغداد (١٩١٢) ، ونشرت نخبة من شعره في الجزء الثالث من بابليات محمد علي اليعقوبي (١٩٥٥) والجزء الثالث من شعراء الحلة لعلي الخاقاني (١٩٥٢) .

وقال يمدح مصطفى نور الدين الواعظ مفتي الحلّة :

ألا أبلغـا فـرعـاً نمـتـه الى العلى مـصـابيح رشـد من لؤيّ بن غـالب
لعـمـرك مـا أخـشى النوائب كلهـا اذا كنت يومـاً عـدّتي بالنوائب
فما البيض أمضى منك إن نكبة عرت حـدوداً وإن كـانت رقـاق المـضـارب
فـتى هاشم لازلت حـصناً لهـاشم اذا دهمت احـدى الخطوب الصعـائب

من لطيف الاتفاق أنه كان لعبد المطلب الحلي العراقي سميّ بين الشعراء المصريين ، وهو الشاعر محمد عبد المطلب (١٨٧٠ ــ ١٩٣١) الذي نعته المؤرخ عبدالرحمن الرافعي بـ «الشاعر البدويّ البليغ والمجاهد الوطني الصميم» . كان محمد عبد المطلب هذا من سلالة قبيلة جهينة العربية ، درس في الأزهر ودار العلوم وتولى التدريس في المدارس الرسمية . وانطلق لسانه يؤيد الثورة المصرية التي اندلع نارها سنة ١٩١٩ شعراً ونثراً . قال الرافعي : «وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الاسلوب ، وبلغ في مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين ،وكانت الروح الوطنية الدفاقة تتجلىّ في معظم أشعاره وقصائده .» وقد قال :

جزى الله مصراً مـا جزى أهل نعـمة على النـاس يعـيـا دونهـا العـدّ والحـصـرُ
فكم كـشفت من ظلمة عين شـمسهـا فـمـا ثمّ سـهل لايضيء ولا وعـر
لنا في الورى حقّ المـعلم لـو رعـوا ، لنا ذمّـة والدهر شـيـمـتـه الغـدر

خيري الهنداوي

في يوم صافي الأديم من سنة ١٩٤٧ شددت الرحال الى الحلة مع الصديقين عباس العزاوي وعبد الله مظفر آل عبد الجليل لزيارة الشاعر خيري الهنداوي الذي كنت قد سمعت باسمه وتذوّقت شعره فوددت التعرف على شخصه . وكان الشاعر آنذاك رئيساً للتسوية ، فزرناه في مكتبه المطلّ على نهر الفرات وقضينا معه سويعة هنيئة تمتعنا خلالها بحديثه الطليّ وفكاهته العذبة وذكرياته الناصعة المبينة .

كان خيري الهنداوي من شعراء الطبعة الثانية الذين نبغوا في عهد الدستور العثماني وحملوا لواء الشعر في العراق في مطالع عهد الحرية والاستقلال . ولما أسست المملكة العراقية العتيدة في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، كان الشعراء والأدباء لسان الأمة الناطق وعنصر ثقافتها السامق ، تقدموا الى الصفوف الأمامية ونالوا المراكز والمناصب ، فاستوزرمنهم من استوزر ووظف من وظف وناب في المجالس النيابية من ناب . وقد واصلت طائفة منهم أداء رسالتها الأدبية الى جانب العمل الحكومي او الخدمة العامة ، أما الفريق الآخر فتربع على الكراسي الوثيرة وودّع الشعر والنثر ، حتى انطبق عليه قول الشاعر عبد الحسين الأزري :

غنىّ فأطعمه السّقاة   وعجّلوا بسباته
كالعود تملأ جوفه   فيكفّ عن نغماته !

أما شاعرنا الهنداوي فلم ينقطع عن قرض الشعر ، وكان نصيبه الانخراط في سلك الادارة فأمضى فيه نحواً من ثلاثين سنة .

* * *

ولد السيد خيري الهنداوي لأب عربي علوي وأم تركية مستعربة في سنة ١٨٨٥ بقرية باصيدا من قرى لواء ديالى . وهو خير الدين بن محمد صالح بن عبد القادر بن خضر بن محمد الحسيني ، شغل أبوه وظائف مختلفة وكان مديراً للأملاك السنيّة في العمارة . أما جده عبد القادرفمن أهل محلة باب الشيخ في بغداد وكان وكيلاً للسيد سلمان النقيب في الاوقاف القادرية بقرى بعقوبا ، وقد اشتهر بقول الموال والزهيري ، وكان له مطارحات شعرية مع عبد الغفار الأخرس ، الذي داعبه في بعض قصائده قائلاً

(وقدّوري تصغير اسمه عبد القادر) :

وقالوا : انّ قدّوري تردّى رداء الناسك البرّ الصدوق
فآونةً يصلي في فريق وآونة يسبّح في فريق
وأخبرني ثقات الناس عنه بأن لازال في كرب وضيق
فكاد الشوق يحملني اليه فيستشفي مشوق من مشوق

قضى خيري طفولته في قرية باصيدا . وجاء به أبوه ، وهو في الخامسة من عمره ، الى بغداد فقرأ القرآن وشدا شيئاً من العربية . وانتقل ذووه بعد ذاك الى أنحاء العراق الجنوبي ، فمن العمارة الى قلعة صالح ، ومن باصيدا الى الديوانية ، ومن عفك الى الشنافية ، والفتى خيري يدرس ما وجد الى الدرس سبيلاً ويلازم العلماء والشعراء . وأتيح له أن يدرس على علي علاء الدين الألوسي قاضي الديوانية ومصطفى الواعظ المفتي ، ثم على نعمان الألوسي في جامع مرجان ببغداد .

ولم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى عيّن وكيلاً لشركة عرق السوس في الصويرة سنة ١٩٠٦ وقضى في ذلك العمل عدة سنين . وأخذ يعالج النظم ، حتى إذا ما عاد الى بغداد اتصل بشاعري النهضة الحديثة جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ، فأخذ عنهما ونهل من معينهما . واطلع على آثار اليقظة الفكرية في تركية والشام ومصر ، فاتسعت مداركه ونمت ثقافته وتفتحت قريحته الشعرية ، وسلك في عداد شعراء الشباب المبرّزين الذين ملأوا تلك الحقبة بصداحهم ونواحهم .

وألف وقتئذ حزب «الاتحاد والترقي» فأرهف الشاعر قلمه في الدعوة الى مبادئه نظماً ونثراً . ثم اتصل بالسيد طالب النقيب زعيم الحركة الاصلاحية في البصرة ومدحه بقصيدة مطلعها :

الى المجد قدها ، فهي للمجد تنزع فقد طال ما ترجو وما تتوقع

وهزّته حادثة ضياع سلانيك في حرب البلقان ، فقال يخاطبها :

أمّ البلاد ، أضاعك الأقوام فبكى مرابع مجدك الاسلام
ان البلاد إذا تخاصم أهلها فالأبعدون بها هم الحكام

نشبت الحرب العظمى وامتدّ أوارها الى ربوع العراق وشطآنه ، فخاض الهنداوي غمارها جندياً وذاق مرارة السجن والتشريد ، ثم لم يجد مناصاً من الفرار والاختباء في دار بعض أصحابه ببغداد حتى انجلى عنها حكم الأتراك . وقد اضطر قبل ذلك على ممالأة الحكم التركي ، فكتب المقالات لجريدة «صدى الاسلام» التي أصدرتها الحكومة سنة ١٩١٥ . ولم يلبث ان انضوى الى خدمة حكومة الاحتلال في أول ايار ١٩١٧ ،

فعيّن مساعداً مالياً في العزيزية ، ونقل في السنة التالية الى الجربوعيّة فالحلة ، وكان فيها حين نشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ .

حدثني المرحوم السيد محمد علي كمال الدين ، قال : كان خيري الهنداوي معاوناً للحاكم السياسي الانكليزي في الحلة . وبلغ الحاكم ذات يوم ان اجتماعاً قد عقد في الجامع الكبير حضره الأشراف والشباب ، فدعا معاونه خيري وأرسله لفضّ الاجتماع . وذهب شاعرنا فوجد الخطباء يتدفقون وطنية وحماسة ، فبدلاً من دعوتهم الى التفرّق ، ارتقى المنبر وشارك الحضور مشاعرهم الملتهبة . وعلى أثر ذلك فصل من وظيفته ونفي مع من نفي من الأحرار الحليين كمحمد الباقر ورؤوف الأمين الى جزيرة هنجام في الخليج العربي (حزيران ١٩٢٠) .

قضى الهنداوي في منفاه تسعة أشهر ، وقال في ذلك :

مرحباً بالخطوب إن هي كانت	سبباً موصلاً الينا الحقوقا
لا أبالي إذا خدمت بلادي	أأسيراً رأيتني أم طليقا
أين هنجام من مرابع أنس	رنّق القوم صفوها ترنيقا

ولم يلبث ان أعيد الى الوظيفة فعيّن مديراً لناحية الجربوعية (نيسان ١٩٢١) فوكيل قائممقام الهندية ، فقائممقام الشامية (أول ايار ١٩٢٢ الى آب ١٩٢٢) . وأعيد تعيينه قائممقاماً لمندلي فالشامية للمرة الثانية (كانون الثاني ١٩٢٤) فدلتاوة (١٦ حزيران ١٩٢٤) فعلي الغربي (١٧ كانون الأول ١٩٢٥) فالمحمودية (١٧ كانون الأول ١٩٢٨) فمندلي (كانون الأول ١٩٢٩) . ونقل معاوناً لمدير الواردات العام (نيسان ١٩٣٠) فمتصرفاً للواء المنتفك (نيسان ١٩٣١) فالكوت (نيسان ١٩٣٢) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (ايلول ١٩٣٤) فرئيس تسوية (تموز ١٩٣٥) .

وقد قضى في أعمال التسوية سنوات أرهقته في خيمته المقامة وسط البراري في حرّ الصيف وبرد الشتاء ، فقال من قصيدة يخاطب بها رشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية ووكيل وزير العدلية :

أمل ضاع ، وقد خاب الرجاء	أين منّي الصبر ، قد عزّ العزاء
فعل الشانئ ما شاء ، وقد	كنت أرجو من صديقي ما يشاء
كنت أرجو من صديقي غضبة	ليَ ، منها الودّ يرضى والاخاء
فإذا بي واهماً (كذا) في محنتي	دون ان أعلم ما ذنبي سواء
لو تراني ، وأنا في خيمتي	قابع يثقل جنبيّ العناء
لرأيت الليث قصّوا ظفره	فله من شدّة الغيظ التواء

بحّ منه الصـوت لا تسـمـعـه انمـا يعلو حـواليـه العـواء
كـلمـا رام وثـوبـاً خـانـه ظُفُـرٌ قلّـم حـدّيه العـداء

ثم عين مديراً عاماً للأملاك والأراضي الأميرية (تموز ١٩٣٧) فمدير التسوية العام (أول نيسان ١٩٣٩) حتى ألغيت وظيفته في تموز ١٩٤٠ . وأعيد تعيينه رئيساً للتسوية (آب ١٩٤١) فعمل في رئاسة لجان التسوية في الحلة وكركوك والديوانية وأخيراً في الحلة أيضاً حتى أحيل على التقاعد في شهر كانون الأول ١٩٤٩ .

وتوفي في بغداد في ٢٩ كانون الثاني ١,٩٥٧

شعـره

وصفه رفائيل بطي في الجزء الأول من «الأدب العصري» فقال : «شاعر في شعره أثر البداوة ورقة الحضارة ، ترى الطبيعة بادية على نظمه . يضمّن قصائده على الأكثر وصف نفسه ونزعته الى الحرية والانعتاق...» .

تميّز الهنداوي الشاعر بنزعته الاصلاحية فنعى على الشرق تخلفه وخموله وقال :

أيهـا الشـرق ، هل فـقـدت الشـروقـا فـأضلّ الأقـوام فـيك الطريقـا؟

وهو يتطلب المعالي لنفسه ولقومه فيضيق ذرعاً بالعوائق التي تثبط الهمم ويقول :

سـئـمت ببـغـداد المـقـام لأنني أرى لي فـيهـا مـوقـعاً غـير مـوقـعي

ويقول :

أيهـا العـين ، إن ذكـرت بلادي فـامطري لؤلؤاً وسـيلي عـقـيـقـا
واستـثـيـري ، يا نفس ، أنت زفـيـراً واضـرمـيـه بين الضلوع حـريقـا

وهذان البيتان من قصيدة اوحاها اليه المنفى في هنجام ، فذكر قول الامام الشافعي :

أمطري لؤلؤاً ، جـبـال سـرنديب ، وفـيـضـي ، آبار تكرور ، تبـرا
انا إن عـشـت لست أعـدم قـوتاً وإذا متّ لست أعـدم قـبـرا
همـتي همـة الملوك ونفـسي نفس حـرّ ترى المـذلّة كـفـرا

وهو سامي النفس ، شديد الإباء ، يقول :

أسلس الدهر من قـيـادي ، وقـد كنتُ جـمـوحـاً آبى لدهري انقـيـادا
وارتضـيت القـفـار أسكنهـا ما عـشت داراً وقـد تـركـت البـلادا
وتـركت الفـرات ، بل كـوثر الخلد ، لأهليـه وارتشـفـت الثِّـمـادا

عفت جسري بغدادَ والنهر يجري | باطّراد والحسن يجري اطّرادا
عفت كلّ النعيم والعيش في تلك | المغاني طريفه والتلادا
لست بالزاهد المقيم على الزهد | ولا الحانق المصرّ عنادا
انما الدهر قد قضى ان يحطّ | الحرّ قدراً ويرفع الأوغادا

ولقد نزع الهنداوي الى الشعر القصصي ، فانظر اليه في قصيدته «فتاة سلانيك» التي يندب فيها ضياع هذه المدينة يصوّر مأساة الفتى «نجيب» وصاحبته «أسماء» :

كم روّعت في ساحتيك لدى الوغى | خود وكم لفظ الحياة غلام
عاشا زماناً في بلهنية الصّبا | غرّين لم يزعجهما النمّام
لم يسمعا غير المدافع ضحوة | فتسارعا فإذا هناك زحام

مضى نجيب الى الحرب فلقي حتفه ، ووقعت فتاته في الأسر ولا «معتصم» يستجيب لاستغاثتها ويلبي نداءها .

لكن آية الهنداوي القصصية انما هي قصيدته «زينب وخالد» او «فتاة بغداد وفتاها» ، نظمها في نيّف ومائتي بيت وروى فيها مأساة الفتاة زينب الجميلة المهذّبة . جمعتها النزهة بالشاب خالد ، فالتقى النظران وتعاطف القلبان وبرّح بهما السّقم والوله . ثم أذن الدهر للمحبّين بهدنة ، فعقد للفتى على محبوبته ، لكنه فوجئ بالجند يسوقونه الى السجن والمنفى قبل ان يحظى باجتماع شمله . وماذا جنت يداه ليصبّ عليه جام النقمة؟

أتعلم ما كانت جناية خالد | وفيمَ عليه القوم صاحوا وأجلبوا؟
لقد كان صباً بالعراق وأهله | يثور إذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن أحسابهم وحقوقهم | ويطعن في صدر العدوّ ويضرب
إذا كان في حبّ الديار جريرة | فكل فتى فوق البسيطة مذنب

عاد خالد الى الوطن بعد أعوام فوجد أمه قد ماتت ، ثم زفّت اليه خطيبته وأنجبت له طفلاً . غير انه يعود الى جهاده الوطني فيقاسي النفي والتشريد عوداً على بدء ويموت بعيداً عن وطنه وآله . ولا يرضى الشاعر إلا ان يتمّ المأساة ، فتقضي زينب حزناً ويسقط الطفل في دجلة ، وتنتهي الصورة المفجعة القاتمة في ندب ونواح .

ان قصة «زينب وخالد» نفثة من النفثات التي جاشت في صدر الشباب العراقي الحائر العاثر الجدّ بعد أهوال الحرب العظمى الأولى ، فلا عجب ان فاضت بالحزن والأسى وزخرت بالمآسي والفواجع .

وقد ظل الهنداوي وثيق الصلة بالرصافي ورثاه عند موته جازعاً :

مـا أنت في حـفـرة قـبـرت بهـا وحـــدك ، كــــلا ، بل أنت والأدب
لقــد عــصــاني الكلام في جــزع فــــرحت أبكيكمــــا وأنتـــحب

روى عبد العزيز القصاب في «ذكرياته» انه ، حينما كان قائممقاماً لقضاء الصويرة ، أسّس دائرة للبريد فيها ومدّ خط البرق سنة ١٩١١ ، فأرخ ذلك خيري الهنداوي بأبيات مطلعها :

أنشـــأ خطّ البـــرق في قطـرنا من هو حـصن للمـعـالي حـريز

وقد جمع ديوان خيري الهنداوي وطبعه ببغداد الدكتور يوسف عز الدين (١٩٧٣ ـ ٧٤) .

* * *

من شعر خيري الهنداوي

قال من قصيدة في منفاه بجزيرة هنجام :

أيهـا الشـرق ، هل فـقـدت الشـروقـا فـــأضلّ الأقـــوام فـــيك الطريقــا؟
لا مــجـالٌ للعــين مـهـمـا أطالت في دجــاك الامـعــان والتـحـديقـا
ظلمــات من فـوقـهـا ظلمـات طبــقت كلّ بقـعـة تطبـيـقـا
بيّـتـوا أمـرهم بليل وجـاؤوك جــمـيـعـاً يتلو فـريق فـريقـا
شـتّـتـوا الشـمل منك وهو جـمـيع وأقـامـوا مـقـامـه التـفـريقـا
حـــــاولـوا لا أبالـهـم ان يكـون الشرق كـالعـبـد مسـتضـاماً رقـيقـا
فنهـضنا كـالأسـد في أوجـه القـوم لنجـتثّ بغـيـهم والفـسوقـا
نمـتطي غـارب العـزائم أحـراراً زَكَـوْا منبـتـاً وطابوا عـروقـا
وخـشـينا على السـلام فـلا رمـحـاً حـملنا ولا حـسـامـاً ذليـقـا
شـاوروا ظلمـهم ومدّوا من البغي يداً أحـرزوا بهـا التـوفـيـقـا
قـذفـونا خلف البـحـار بأرض عندها يأمن الصّـبـوح الغـبـوقـا
قـيعـة في جـزيرة لا ترى فـيـهـا أنيسـاً الا الصـدى والنعـيـقـا
أيّهـا الضـفـدع الكبـيـر ، خـلا الجـوّ فـأكـثـر كـمـا تشـاء النقـيـقـا
مـرحـبـاً بالخطوب إن هي كـانت سـبـبـاً مـوصـلاً الينا الحـقـوقـا
لا أبالـي إذا خـدمـت بـلادي أأسـيـراً رأيتني أم طليـقـا
وإذا كـان باغـتـرابي نجـاح لا عـدمت التـغـريب والتـشـريقـا

وهي طويلة .

وقال يرثي ممحمد تقي الشيرازي ، نظمها وهو في منفاه :

صـــــرخ الـنـعيّ مـــسبكّـراً بظلام : اللّه ، مـــات مـــجـــدّد الاســـلام
أودى الـتــقيّ مـحـمّـد فـتـعطّلت دور الـهـــــــدى ومنابـر الأحـكـام
وتكوّرت شـــمس الهـــداية وانطوى علـم الدراية بعـــد طول قـــيـــام

ومنها :

كم هدّدتك ، أبا الرضـا ، بجيـوشـهـا فـــهـــزرت عطفي هازئ بسّـــام
عـرضت عليك جـمـيع أعـراض الدُّنى فنفـضت كـفّك خـشـيـة الآثام
نزّهت نفـــسك ان تمـــدّ اليــهُمُ كــفّــاً بغــيـــر تكافح وخـــصـــام
كنّا بذكـــرك نســتــخفّ قـــيـــودنا في السّـــجن إن ثقلت على الأقـــدام
عـــدنا وكلٌّ ذاهل عن نفـــســـه لـــم يـــدرِ فـــي ألـــم ولا إيـــلام

محمد باقر الشبيبي

وأخيراً آن للنفس القلقة المضطربة ان تستكين وللجسم النحيل المعذب ان يستريح ، فسكنت نأمة شاعر آخر من رواد النهضة الأدبية الحديثة في العراق .

انجبته النجف موطن القريض واللغة والدين ، فتفتحت شاعريته ونظم ــ كما قال صاحب «ماضي النجف وحاضرها» ــ في المدح والتهنئة والتعزية والرثاء . ثم احتضنته بغداد فصقلت مواهبه ووسعت آفاق فكره وأوحت اليه شعراً رائعاً في الوصف والخيال والسياسة والوطنية .

ولقد عرفته في سني حياته الأخيرة وقد علت به السنّ وهدّ كيانه المرض ، فإذا هو صوت هادئ رقيق ، وعينان حالمتان تستشفان ما وراء المنظور ، وابتسامة كئيبة تحمل كل معاني الألم الصابر ، وجسم ضئيل ينوء بأوصاب الحياة ، فعجبت لحماسة الشباب وجذوة العاطفة التي تنبعث من شعره الوطني الملتهب كيف أخمدتها الأيام الدابرة والداء العياء . لكن روحه بقيت أبداً فتية متوثبة ، فإمّا تحدث بحديث الأدب والوطن تهدج صوته ولمعت باصرتاه واستيقظ ذلك الشاعر الثائر القديم الذي كانت قصائده وخطبه تهزّ وتحمس وتثير .

زرته يوماً قبيل وفاته برفقة الصديق الدكتور مصطفى جواد ، فتحامل نفسه وهو نضو المرض والهزال وجاء يستقبلنا في بهو داره على شاطئ دجلة . وتشعبت أطراف الحديث ، والحديث ذو شجون ، فقال مصطفى جواد ، متكلماً على سجيّته وسلامة طويته : حذار ، حذار من شهر جمادى ، فلقد استقريت وفيات الأعيان وغيره من كتب السير والأخبار وتفحّصت التواريخ والآثار ، فوجدت ان مرضى القلاب يموت اكثرهم في هذا الشهر ، ولعلّ لهلاله سراً في ذلك خفي على الأنام وأكّدته الأحداث الجسام . ورأيت باقراً الشبيبي ، وكان يحمل في جسمه المرهق مجموعة من الأسقام ، ممتقع اللون يكتم اضطرابه وذكرت ان الشهر كان جمادى حقاً ، فتكلفت الابتسام وقلت لمصطفى جواد : لقد ابتدعت نظريّة تقوم على الوهم والخيال ، وليس لجمادى او غيره من الشهور ذلك التأثير الذي تقوله ، والوفيات موزّعة على أيام السنة بالعدل

والقسطاس! . ثم غيّرنا موضوع الحديث وخرجنا ندعو لصاحب الدار بالعافية والسلامة .

***

ولد محمد باقر الشبيبي في النجف سنة ١٨٩١ في أسرة نبغ فيها غير واحد من الشعراء المجيدين : فأبوه الشيخ جواد من شعراء المدرسة القديمة النابهين ، وأخوه الكبير محمد رضا من أساطين الشعر العربيّ الحديث . وشبّ شاعرنا في هذه البيئة الخصبة ، فنهل من علوم اللغة والدين ، وشارك في حلبات الشعر وندوات الأدب . ونشر نتاج قريحته ، وهو يرفل في برود الشباب ، في مجلة «العرفان» الصيداويّة و«المنهل »المقدسية و«المقتبس» الدمشقية و«لغة العرب» البغدادية وغيرها من الصحف والمجلات . وتنقل بين النجف والشطرة وبغداد ، فلما نشبت ثورة النجف خاض غمارها وأصدر جريدة «الفرات» الأسبوعية لتنطق بلسانها (١٥ ايلول ١٩٢٠) . وقد صدر من هذه الجريدة أربعة أعداد وتوقفت ثم صدر عددها الخامس وكان الأخير .

وأنشأ بعد ذلك في النجف جريدة يومية باسم «المبدأ» (آذار ١٩٢٢) . ثم جاء الى بغداد ، فعرفته محافلها الوطنية والأدبية شاعراً وخطيباً ، كما عرفته صحفها السياسية كاتباً يدافع عن استقلال بلده بقلمه ولسانه ويدبّج المقالات العنيفة في مصاولة العسف والطغيان والذبّ عن حقوق الوطن وأبنائه . وانتخب نائباً عن لواء المنتفق في سنة ١٩٢٥ ــ ٢٨ ، وجدّد انتخابه سنة ١٩٣٥ وشباط ١٩٣٧ وكانون الأول ١٩٣٧ الى شباط ١٩٣٩ . وقد اختير نائباً ثانياً لرئيس مجلس النواب في ٨ آب ١٩٣٥ . ورشّح نفسه للنيابة عن بغداد خلفاً لأخيه محمد رضا في شباط ١٩٥٤ فلم يفز في الانتخاب .

وخبر قيود الوظيفة فكان مفتشاً للغة العربية في وزارة المعارف من ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ الى آخر تموز ١٩٣٤ .

ثم طلق النيابة والعمل السياسي واعتكف في داره . وأصيب بالربو ، كما أصيب به من قبله الشاعر المصري وليّ الدين يكن ، الذي وصف حاله أبلغ وصف فقال : «إذا دجا الليل تكاثرت مخاوفي فلا يغمض جفناي فرقاً ، لأني لا أغفي اغفاءة إلا وأنتبه صارخاً مذعوراً ، إذ تنقطع أنفاسي ويشتدّ اضطراب قلبي وتبرد يداي ورجلاي ، فأختلج مكاني وأتلوّى تلوّي الأفعى ألقيت في النار . أريد تنفساً استعيد به ما يوشك ان يذهب عنّي من الحياة فلا أجده ، حتى إذا بلّلني العرق وأنهكني التعب عاودتني انفاسي شيئاً فشيئاً وذهبت النوبة على ان تعود بعد ساعة او ساعتين...» .

واشتدّت وطأة المرض على باقر الشبيبي فناء باعبائه سنين طوالاً حتى وافته المنيّة في بغداد في ٧ حزيران ١٩٦٠ . وشيّع جثمانه الى النجف مسقط رأسه ليرقد في وادي

السلام هانئاً مطمئناً بعد جهاد متّصل عنيف وصمت فرضه الداء العضال ثقيل .

* * *

ان في سيرة الشيخ محمد باقر الشبيبي جوانب مشرقة كثيرة . فلقد صدح بالشعر بعد اعلان الدستور العثماني وكان من الشباب الذي رفع لواء التجديد بعد طبقة الزهاوي والرصافي والشبيبي محمد رضا . ولم يجمع شعر محمد باقر في ديوان ، بل بقي متفرقاً في ثنايا الصحف والمجلات . ونشرت نماذج طيّبة منه في الجزء الثاني من كتاب الأدب العصريّ في العراق العربي لرفائيل بطّي (١٩٢٣) والجزء الثاني من شعراء العراق المعاصرين لغازي الكنين (١٩٥٨) .

تفوّق شاعرنا في الشعر السياسي : رأى استقلال بلاده الخديج المبتور في عقد العشرين فتألم وتمرّد ورفع عقيرته بالويل والثبور . ومن أشهر قصائده في هذا الباب قصيدته «تحيّة المستر كراين» ، وشارلس كرين من الساسة الأميركيين الذين كان لهم شأن في العراق وسائر أقطار الشرق الأدنى بعد الحرب العظمى الأولى . زار بغداد في سنة ١٩٢٩ فأقام له الحزب الوطني حفلة تكريم ، وخاطبه معروف الرصافي قائلاً :

يا محبّ الشرق أهلاً ... بك يا مستر كراين

حتى إذا فرغ من الترحيب به ، دعاه الى تفحص حال الشرق ، فهو أسير الغرب أسر مديون لدائن وهو مغبون الحق ، منكر الفضل مغصوب الثروة مغلوب على أمره . أما الحكم في بغداد فوطني الاسم انكليزي الشناشن .

ويطلق باقر الشبيبي صرخة مدوية يبدأها بتحية الضيف ، ثم يقول :

كل البلاد من القيود تحررت ... إلا العراق الحرّ فهو مقيد

ويخاطب عصبة الأمم المندثرة :

يا عصبة الأمم التي قد أوكلت ... أمر العراق الى الذي يستعبد
ما كان عهدك ــ وهو عهد جائر ــ ... إلا لمنفعة الذين تعهدوا
الطائرات تروع شعباً آمناً ... والدارعات تخيفه وتهدد
هتفوا لتحرير الشعوب ولم يكن ... لهتافهم إلا صدى يتردد
وعدوا بأنّا نستقل نظيرهم ، ... أرأيت كيف تراجعوا وتوعدوا؟
وعدوا على الشرق المهيض وشأنهم ... في كل مطلع نهضة ان يعتدوا
جرحوا القلوب ومن مهازل حالنا ... ان الذي جرح القلوب يضمدّ

ومنها :

الرق أبطله التمدن عندكم أمن التمدن أننا نستعبد؟
اما العراق فإنّ في تأريخه شرفاً يضيء كما يضيء الفرقد
ليس السكوت من الخضوع وانما هذا السكوت تجمع وتحشد
قالوا : استقلت في البلاد حكومة فضحكت ان قالوا ولم يتأكدوا
أحكومة والاستشارة ربّها وحكومة فيها المشاور يعبد؟
الحكم حكمهم بغير منازع والأمر مصدره هم والمورد
المستشار هو الذي شرب الطلا ، فعلام يا هذا الوزير تعربد؟
الحلف بين حكومة وحكومة معناه كل منهما هو سيّد
أعلى أساس الرقّ يعقد حلفنا وعلى أساس الانتداب يشيّد؟
هذي يدي للمنقذين أمدّها ان كان ينفع منقذاً هذي اليد

ان هذه القصيدة بحق من عيون الشعر السياسي فلا عجب ان سارت أبياتها مسير الأمثال وترددت عهداً طويلاً على كل شفة ولسان .

وله من قصيدة أخرى يخاطب المندوب السامي البريطاني السر فرنسيس همفريز حين قدم العراق :

هل في حقيبته شيء من الأمل ام المزيجان من سمّ ومن عسل؟
تساءل الناس عن قول يفوه به وقد تمر شهور وهو لم يقل

الى ان يقول :

تنقلت بأمانينا سياستهم تنقل الجسم بين السقم والأجل
فازوا فعادت أمانينا بفوزهم طيفاً وصارت مساعينا الى الفشل
سياسة القوم عند الناس واضحة مطوية في مناحيها على دخل
ما قيمة الحلف منقوضاً يراد به ان يصبح الحكم مقصوراً على رجل
هل حقق الحلف ما كنا نؤمله؟ استغفر الله بل غطّى على الأمل
شلّت يد وقعت عمداً معاهدة صيغت من الظلم واشتقّت من الحيل
صيغت بلندن أطواقاً وأسورة من الحديد وإن كانت من الجمل
قالوا عشيّة خطتها أناملهم هذي هي الخطوة الكبرى الى العمل

وقال :

هذي البلاد وهذا حكمها الذاتي فلا يغرنكمُ لطف العبارات
ليت البلاد التي ثارت مجاهدة قامت على الهيكل البالي بثورات

وباقر الشبيبي ثائر حتى في شعره الاجتماعي ، ففي موشحه «آلام الاجتماع» يندب حظ الكون :

يا شقاء الكون في أوضاعه ... واعتلال النوع في المجتمع
أين من يشفيه من أوجاعه؟ ... انها تعيي الطبيب الألمعي

انه يسأل الانسان : أين أنصاره المصلحون الغيارى ، فلقد أزرى بالبشرية خصام الدول وأوردها موارد الهلاك .

وباقر الشبيبي من دعاة الاصلاح والاخلاق الفاضلة ، وقصيدته «هي النفس» دعوة الى تهذيب النفس والتخلق بالاخلاق الكريمة :

هي النفس هذبها بما تستطيعه ... فليس سواها بين جنبيك من نفس
وصبِّحْ بها الأخلاق فهي غنائم ... فإنك لا تدري أتصبح أم تمسي

ولا يفوته في هذا المقام ان يذكر وطنه وحرصه على تقدمه :

وما أنست نفسي بلهو وإنما ... رقيك يا أرض العراق به أنسي

وشاعرنا بعد ذلك شاعر وجداني رقيق حسن الوصف واسع الخيال . ففي قصيدته «دواء الربيع» يصف الطبيعة المتحررة من عقال الشقاء ويقول :

نفض الربيع جماله ونضاره ... وكسا الأديم المكفهرّ بهاره
وشّى مطارفه الحيا متهللاً ... فمه وطرزّ بالزهور إطاره

ثم يرسم صورة جميلة للطبيعة الضاحكة بنهرها وظلها وغيثها ووردها وشمسها وبدرها ، الى ان يقول :

بشرى الربيع المستقل فإنه ... قد فكّ من شرك الشتاء أساره
حرّ تبسم للعراق بوجهه ... كي يستفزّ ببشره أحراره
حملت عواصفه رسالة ثائر ... للمعرقين فهيجّت ثوّاره

وفي قصيدته «أغرودة مستلذة» صبابة وحنين وشكوى وأنين :

حمامة هذا الغصن باللّه رجعي ... فقد سكنت نفسي اليك ومسمعي
خذيني الى الدوح الذي تعتلينه ... وإلا فخير العيش ان تنزلي معي
حمامة هذا الدوح ، في الدوح مهجتي ... وفي المشرف العالي فؤادي وأضلعي
كلانا محبّ مستهام مودع ... حبيباً فما وجد المحب المودّع
تعلمت منك الشعر ، والشعر نغمة ... تحرك أوتار الفؤاد المقطع
تعلمته أغرودة مستلذة ... تذاب بأنفاسي وتجري بأدمعي

تذكرنا قصيدة باقر الشبيبي في استقبال السير فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني سنة ١٩٢٩ بقصيدة شاعر النيل محمد حافظ ابراهيم الذي نظمها سنة ١٩٠٧ في استقبال المعتمد البريطاني السير الدون غورست الذي خلف اللورد كرومر الشهير، ذلك الذي حكم مصر باسم بريطانية خمساً وعشرين سنة. قال حافظ:

أذيقونا الرجاء فقد ظمئنا ... بعهد المصلحين الى الورود

ومنّوا بالوجود فقد جهلنا ... بفضل وجودكم معنى الوجود

إذا اعْلَوْلَى الصياح فلا تلمنا، ... فإنّ الناس في جهد جهيد

على قدر الأذى والظلم يعلو ... صياح المشفقين من المزيد

فما جئنا نطاولكم بجاه ... يطولُكُم ولا ركن شديد

ولكنّا نطالبكم بحقّ ... أضرّ بأهله نقضُ العهود

وباقر الشبيبي بعد كل ذلك شاعر مشبوب العاطفة، مرهف الحسّ، سريع التأثّر والانفعال. فأين تظهر هذه الصفات إن لم تظهر في مراثيه؟ وأين تظهر إن لم تظهر على الوجه الأخصّ في رثائه لوالديه؟

ان رثاء شاعرنا لأمّه، وقد توفيت وهو يناهز الخمسين من عمره، خير مثال للّوعة الصادقة والحرقة والأسى، وخير مثال للعاطفة الحرّى تجيش في صدر رجل كهل فقد أماً حنوناً يكنّ لها الحبّ والاجلال.

ولقد رثى كثير من الشعراء أمهاتهم اللواتي وهبنهم الحياة، فقلّما ادركوا شأو الشاعر الأمير أبي فراس الحمداني الذي تفجّع على أمه بقصيدة بلغت الغاية في الحزن والأسى. توفيت هذه الأم ملتاعة متلهفة الى ابنها الأسير في بلاد الروم، فماذا يقول الأسير المفجوع في رثائها وهو في سجنه البعيد؟

أيا أمّ الأسير، سقاك غيث، ... بكره منك ما لقي الأسير!

أيا أم الأسير، سقاك غيث، ... الى مَن بالفدا يأتي البشير؟

إذا ابنك سار في برّ وبحر ... فمن يدعو له او يستجير؟

حرام ان يبيت قرير عين ... ولؤم ان يلمّ به السرور

وقد ذقت المنايا والرزايا ... ولا ولد لديك ولا عشير

وغاب حبيب قلبك عن مكان ... ملائكة السماء به حضور

وتوفيت والدة الشاعر احمد شوقي وهو في منفاه بالأندلس. وقد أعلنت الهدنة، فعلّل النفس بالعودة الى الوطن ورؤية أمّه. لكنّ الناعي قضى على أحلامه العذبة، إذ وافاه البرق بخبر موتها، فنظم مرثيته واحتفظ بها، فلم تنشر إلا بعد مماته. قال شوقي:

الى اللّه أشكو من عوادي النّوى سهماً ... أصاب سويداء الفؤاد وما أحمى
من الهاتكات القلب أوّل وهلة ... وما دخلت لحماً ولا لامست عظما
توارد والنّاعي فأوجست رنّة ... كلاماً على سمعي وفي كبدي كَلْما
فما هتفا حتى نزَا الجنب وأنزوى ، ... فيا ويح جنبي كم يسيل وكم يَدْمى !
لك الله من مطعونة بقَنا النوى ... شهيدة حرب لم تقارف لها إثما
مدلهة أزكى من النار زفرة ... وأنزه من دمع الحيا عبرةً سَحْما

ورثى ابو الطيّب المتنبي جدّته ، وكانت بمثابة الأمّ الرؤوم ، أحبّته وقلقت عليه ، وهو في ديار الغربة ، وبرّح بها الشوق الى مرآه . عاد الى العراق ليحظى برؤيتها فماتت قبل ان يبلغ سؤله . قال في رثائها :

ألا لا أُري الأحداث مدحاً ولا ذمّا ... فما بطشها جهلاً ولا كَفُّها حلْما
لك اللّه من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوق غير مُلْحقها وَصْما
أحَنّ الى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثوّاها الترابَ وما ضمّا

لكنّ المتنبي لا يصبر على الحزن ولا يمضي في اطلاق العنان للعاطفة ، فلا يلبث ان يعود الى نفسه العظيمة فيمّجدها ، لا قابلاً إلا لخالقه حكماً ولا ناشداً غير المكارم والمفاخر .

اما شاعرنا الشبيبي فتوفيّت أمه وهو قائم الى جانب سريرها ، فيرثي ويبكي وينوح :

هذا سريرك ، لكن أين مثواك ، ... وأين أنت وماذا في مصلاك؟
مناحة شقّت الأجواء وانطلقتَ ... تبكيك لَلملأ الأعلى وتنعاك
ونكبة تركتنا في محافلنا ... ما بين باكية العينين او باك
أمّاه ، أينك عند الصبح مشرقة ... يفيض بشراً على الدنيا محيّاك
فلا الصباح صباح عند روعته ... ولا النسيم نسيم دون ريّاك
ما غاب مرآك عن قلبي وعن بصري ، ... ملء الفؤاد وملء العين مرآك !

الى ان يقول :

كانت حياتي كالأعياد ضاحكة ... فعاد ثغر حياتي غير ضحّاك
لست الحزين الذي تؤسي فجيعته ، ... أنا الحزين الذي هيهات أنساك
أنا فقدنا بك الدنيا مباركة ، ... للّه أيّة أمّ قد فقدناك !
ما انفكّ ثغرك عَند الموت مبتسماً ... كأنّما الموت عيد حين وافاك
يا شعلة النور ، والآفاق مظلمة ، ... من ألهب الحزن في الدنيا وأطفاك؟

ويختم الشاعر قصيدته بهذا الاعتذار الرائع :

من يستطيع جزاء الأمّ ، معذرةً أمّاه ، لو كان مقدوراً جزيناكِ

* * *

وأمّا رثاء الشاعر لأبيه فهو رثاء الشاعر للشاعر ورثاء التلميذ لاستاذه :

يقولون : أبّنْهُ بشعرك إنّه يلذّ له من فيك ان ينشد الشعر
سأنشده من مقلتيّ قصيدة برغم القوافي انها أدمع حمر
وأسكب أحشائي عليه من الأسى نشيداً ، وأحشائي إذا سكبت جمر
دعاني وأسماني فقبّلت ثغره وودّع بالايماء وابتسم الثغر
هنالك فاضت روحه في سكينة سلام عليها آيةً ، انّها سرّ
رويدكمُ ، يا حامليه ، فإنّه بقيّة عهد كلّ أيّامه فخر
طوى الموت من نهج البلاغة صفحة بها طوي الابداع والأدب البكر
طواه الردى جيلاً أغرّ وأمّة ، وميراث هذا الجيل آثاره الغرّ
تلاقت به كل العصور مدلّة ففي قلبه من كل ناحية عصر

ولا يفوته في هذا الموقف المشجي ان يذكر الوطن العربيّ الواسع وأن يتألم لحاله ، فيقول :

غدت هذه الأوطان ، وهي مهيضة ، تخبّط يعروها من اليأس ما يعرو
دعوت لها ان تستقلّ بأمرها وتصبح لا نهي عليها ولا أمر
وحذّرتها ان تستباح طليقة وأن يتولاها ليرهقها الأسر
منى لكَ شاءت ان تنال حقوقها دمشق وأن تحظى بآمالها مصر
وكنت إذا مرّت بلبنان هزّة هتفت : ليحي الأرز وليسلم الثغر
مواطن يؤذينا تفرّق شملها ويزعجنا شطر هنا وهنا شطر
تقرّبنا من بعضنا وتلفّنا وشائج من عمر الزمان لها عمر
وما فصلت بين القلوب حواجز أقيمت ولم يبدر على فصلها البحر
إذا بذروا البغضاء جاء حصادهم هشيماً فما أجدى ولا نفع البذر
وما كان سهلاً ان تسيل دماؤنا جداول ينمو بينها الخلق الوعر
بلاد جرت أنهارها وشطوطها لجيناً وغطّى سطحها الماس والتّبر
معادن أخفاها وقدّرها الثرى فكان لها شأن وكان لها قدر
حبانا بها الوادي ، فكان وفاؤه عميماً ، ولكنّ الوفاء له نزر

جرى اليسر دفّاقاً الى غير أهله — وحلّت بأهليه المجاعة والعسر
أفيقي ، بلاد الضاربين بيوتهم — على مفرق الدنيا وقولي : كفى السّكر

حتى يقول :

سلوا دجلة هل في الضفاف خميلة — وهل في شواطيها يرى غُصُن نضر؟
وقولوا لها : أين الزهور ضواحكاً — وأين المروج الفيح والسَّمَر الحرّ؟
وأين القلوب النابضات عواطفاً — إذا اندفعت دفّاقة أورق الصّخر؟

من شعر محمد باقر الشبيبي

بشرى الربيع المستقل فإنّه — قد فكّ من شرك الشتاء أساره
حرّ تبسّم للعراق بوجهه — كي يستفزّ ببشره أحراره
حملت عواصفه رسالة ثائر — للمعرقين فهيّجت ثوّاره
شتّان بينهما ، فذا مستسلم — للحادثات وذاك أدرك ثاره
هيهات ينتفض العراق من الكرى — حتّى يهزّ بسيفه بتّاره
ليت العراق ، وقد تطوّر أهله ، — يقضي ولو تحت الخفا أوطاره
سرّ النجاح إذا أراد نجاحه — ألا يبيح لغيره أسراره

***

أوقف محمد باقر الشبيبي مع السيد عبد المهدي في المنتفق في آب ١٩٢٢ بتهمة تدبير المظاهرات ضد السياسة البريطانية ، وأطلق سراحهما بعد أيام قليلة .

وقدّمت المعاهدة العراقية ــ البريطانية لسنة ١٩٢٦ الى مجلس النواب لتصديقها في ١٨ تشرين الثاني من تلك السنة . وقد اشتدت لمناقشة حولها وغادر المعارضون قاعة المجلس احتجاجاً على الاستعجال في المذاكرة . ورمى النائب باقر قبل خروجه نسخة المعاهدة في الفضاء صارخاً : لتسقط الأكثرية الغاشمة ! ثم صاح : صدّقوها ، يا خونة !

وقد عارض زعماء الشيعة ، ومنهم باقر الشبيبي والسيد عبد المهدي ، انشاء الجيش الالزامي في عهد الانتداب . فكتب باقر مقالاً في جريدة «العالم العربي» في ٢ تشرين الأول ١٩٢٧ جاء فيه : «ان الوزارة تهدف الى القاء الصبغة العسكرية على البلاد كما فعل الاتحاديون في تركية . فليس هناك إلا التجنيد الاجباري وإلا صلصلة السيوف وبريق الأوسمة على صدور الضباط . وفي كل يوم دعوة الى حمل السلاح . ومن المألوف

مشاهدة جماعات الفلاحين يسيرون كما تسير القطعان ، يتركون ضياعهم ومزارعهم النضرة الى تلك الثكنات الجوفاء . ان هذه السياسة ستجلب الدمار على البلاد ، وإنّ من الأفضل ان تتوجّه اهتمامات الحكومة الى المشاريع العمرانية بدلاً من الاهتمام بالجيش» .

* * *

كان المحامون في ناديهم يثنون على الشاعر محمد باقر الشبيبي ويكبرون شعره ، فقالوا : حسبه انه قال من قصيدته السياسية الشهيرة :

المستشار هو الذي شرب الطّلا ، فعلامَ ، يا هذا الوزير ، تعربد؟

فقال المحامي الظريف علي غالب العزاوي : لا شك في ذلك . وحسب الشبيبي فخراً وفضلاً ان الشاعر الكبير عبد الفغار الأخرس ــ وهو من هو في ميدان البلاغة والأدب ــ قد سرق من الشبيبي هذا المعنى فقال :

هذه أغصانها قد شربت ، فعلامَ الطير في الأفنان عربد؟

محمد مهدي البصير

رجلان في إهاب واحد لكل منهما جهاده وسيرته : فالشيخ محمد مهدي البصير ذو العباءة والعمامة شاعر الثورة العراقية الذي ذاق السجن والنفي والاعتقال والذي ردّد الشعب وراءه في سنة ١٩٢٠ :

إن ضـاق ، يا وطني ، عليّ فـضـاك	فلتّـتـسع بين للأمـام خطاك
و : يا علم عش وأعش فـعـصرك راق	لتـعـيد شـمس الشـرق للاشـراق
و : وطنـي والحقّ سـينجـده	مـا زلت بحـبّي أعـبـده

والدكتور محمد مهدي البصير ، الناقد الأديب العصريّ المتخرج من الجامعات الفرنسية والاستاذ في جامعة بغداد الذي تخرج عليه آلاف الطلبة ، كل منهما ترك آثاراً وأشعاراً ومصنّفات وكان حقيقاً بتكريم أبناء الوطن وأهل الأدب .

حاول بعض النقاد ان يصفوا البصير بطه حسين العراق وأن يحكموا عليه استاذاً وأديباً من هذه الزاوية ، وفاتهم ان البصير نسيج وحده شابهت ظروف حياته في نواحي معيّنة حياة طه حسين ووقفت المشابهة عند ذلك الحدّ لم تتجاوزه . وقد وصفه رفائيل بطي في «الأدب العصري» ، وهو بعد شاب لم يدرك الثلاثين ، فقال : «شعلة ذكاء وشعلة وطنية حرمته الطبيعة البصر الذي يكلّ ولم تحرمه البصيرة الوقادة التي لا تخبو ولا تكلّ» . وهيّئ له بعد ذلك ان أتم دراسته العصرية العالية في فرنسة وأن عاد الى العراق ، وهو الشاعر الأديب ، ليكون استاذ أجيال متعاقبة من رجال التربية وحملة رسالة التعليم ، فكان كما قال فيه صاحب «الأدب العصري» في سنة ١٩٢٣ وأكثر ممّا قال .

ولد محمد مهدي البصير في الحلة في ٢٤ حزيران ١٨٩٥ ، وهو ابن الشيخ محمد بن عبد الحسين بن شهاب الدين من اسرة تنتمي الى قبيلة كلاب توارث أفرادها خطابة المنبر الحسيني خلفاً عن سلف . وقد أصيب بالجدري ، وهو في الخامسة من عمره ، فكفّ بصره . تلقى العلوم العربية في مسقط رأسه وأفاد من المطالعة كثيراً ، ونظم الشعر صبيّاً فبرع فيه وأجاد . وجاء الى بغداد في ايار ١٩٢٠ ، والثورة العراقية في عنفوانها ، فألقى الخطب والقصائد الحماسية واستنهض الهمم وألهب الشعور الوطني في المناسبات الدينية والاجتماعية . وحرّر في جريدة «الاستقلال» وغيرها ، فحكم عليه

بالسجن تسعة أشهر في شباط سنة ١٩٢١ . وخرج من السجن في تموز من السنة نفسها ليواصل كفاحه الوطني ، فكان ان نفي الى جزيرة هنجام في الخليج العربي (آب ١٩٢٢) . وعاد الى بغداد بعد تسعة شهور .

وانتدب بعد ذلك لتدريس الأدب العربي في المدرسة الثانوية المركزية وجامعة آل البيت (١٩٢٥) . وأرسل في سنة ١٩٣٠ في بعثة دراسية الى مصر وفي السنة التالية الى فرنسة ، فحصل على دبلوم الدراسات الفرنسية من جامعة مونبيلية (١٩٣٢) ونال شهادة الدكتوراه من نفس الجامعة في الأدب الفرنسي (كانون الأول ١٩٣٧) ، وكان موضوع أطروحته «شعر كورناي الغنائي» . ومن الغريب ان الشاعر الفرنسي بيير كورناي (١٦٠٦ ــ ١٦٨٤) مشهور برواياته التمثيلية الحماسية التي تصف الانسان كما يجب ان يكون لا كما هو في واقع الحال ، وقد استطاع شاعرنا البصير ان يدلّل ان الشاعر الفرنسي العظيم يخفي ، تحت ثوب الحماسة الرفيعة ، نفساً بشرية لها عواطف الانسان الاعتيادي وأحاسيسه الوجدانية .

عاد البصير الى بغداد في شباط ١٩٣٨ وعيّن في نيسان من السنة نفسها استاذاً في دار المعلمين العالية . واستمرّ بأعباء التدريس في هذه الدار التي أصبحت تعرف بكلية التربية اكثر من عشرين عاماً حتى أحيل على التقاعد في تموز ١٩٥٩ .

مؤلفاته

الشذرات (مجموعة شعرية صغيرة ، ١٩٢٢) ، المختصر (مجموعة صغيرة من الشعر والنثر ، ١٩٢٢) ، النفثات (١٩٢٥) ، دولة الدخلاء (١٩٢٥) ، تأريخ القضية العراقية (جزآن ، ١٩٢٣ ــ ٢٤) ، بعث الشعر الجاهلي (١٩٣٩) ، نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (١٩٤٦) ، الموشح في الأندلس وفي المشرق (١٩٤٨) ، في الأدب العبّاسي (١٩٤٩) ، خطرات (الجزء الأول ، ١٩٥٣) ، البركان (ديوان شعر ، ١٩٥٩) ، سوانح (الجزء الأول ، ١٩٦٧) ، الخ . وله عدا ذلك كثير من الأشعار والدراسات الأدبية المخطوطة . وقد نقل عن الفرنسية كتاب «أميل» لروسو و«جريمة سلفستر بونار» لاناتول فرانس ، ولا يزالان مخطوطين .

شعره وأدبه

البصير شاعر مطبوع وأديب واسع الأفق وناقد صائب الأحكام ، أرّخ للقضية العراقية التي جاهد في سبيلها وذاق لأجلها مرارة النفي والاعتقال . ثم أرخ للأدب العربي والعراقي وعرّف بنخبة من الشعراء والأدباء المجهولين ، وإن كان يؤخذ عليه ، وهو

النقادة الذوّاقة ، ان يخلع الألقاب جزافاً على شعراء عصر الانحطاط فيحيّي فيهم خلفاء أبي تمام وأبي نواس وابن الفارض وأبي العتاهية .

اما البصير الشاعر فقد قال الشعر التقليدي ، كالمدائح والمراثي والتهانئ والاخوانيات ، وهو شاب في الحلة الفيحاء المعروفة بمجالسها وأجوائها الأدبية . واتصل بتيّار النهضة والاصلاح في صدر شبابه فقال :

الحرّ من لا يستكين لقاهر　　　فانهض بشعبك يا فتى قحطان
وادرأ بموتك عن بلادك موتها　　　ما للبلاد سواك من قربان

وصكّت مسامعه أنباء الحرب العظمى الأولى ، فوصف الحرب وصفاً رائعاً فقال (والخطاب للأرض) :

وليلة في جبين النجم قد رسمت　　　أمراً يسجّله فيها لك القدر
أصلتْك في المأزق الغربيّ نار وغىً　　　عنها تطاير في آفاقك الشرر
حيثَ المدافع إن صبّت قذائفها　　　ظلّت بأحشائك الألغام تنفجر
صفّت على طول خط الجيش وانفلقت　　　معاً فكاد السّما اذ ذاك ينفطر
تمدّ ألسنة من نارها اندلعت　　　فينطوي الليل عنها حين تنتشر
لم تنتظم كبد الجوزاء ساطعة　　　حتى انبرت فوقك الأشلاء تنتثر
تكدّست بك حتى كوّنت جبلاً　　　يغشاك للدم سيل عنه منحدر
وكم كهذَي لك الأيام مضمرة　　　فلننتظر ما ستأتينا به الغيرُ

كان شعر البصير قد اشتهر وسار على الألسنة حين قدم بغداد وألقى قصائده الوطنية في إبّان ثورة سنة ١٩٢٠ وما بعدها . لقد نفذت هذه القصائد الى القلوب ولقيت صدى طيباً في نفوس الجماهير لبساطتها وسلاستها وخلوّها من الإبهام والتعقيد ، فهي تخاطب أصفى الغرائز البشرية وأنبلها بكلمات مؤثرة وموسيقى عذبة تحمّس وتهدهد في آن واحد . فهذه قصيدته «لبيّك ايها الوطن» تعبّر عن شعور الانسان البدائي نحو التربة التي أنبتته ، يضحي بنفسه في سبيل حياتها ويندّد بالسياسة التي كبّلتها وأرهقتها ويرجو لها الحرية والاستقلال :

إن ضاق يا وطني عليّ فضاكا　　　فلتتسع بي للأمام خطاكا
بك همت او بالموت دونك في الوغى　　　روحي فداك متى أكون فداكا
هب لي بربّك موتة تختارها　　　يا موطني ، او لست من أبناكا؟
ان يندمج جسدي بتربك باليا　　　فلتقترن ذكراي في ذكراكا
او يقتضب نفسي فما لي منّة　　　أو لم يمنّ به عليّ هواكا؟

اوجـــدت في نفـــسي عليك فـــإنمـــا ... هي كل مـــا عندي وبعض جـــداكـــا
كـم أورثتك يد الســـيـــاســـة علة ... فـــاشـرب دمي وأظن فـيـه شـفـاكـا

وتلك قصيدته «يا علم» تطلب العلم والمعرفة والنهوض لبلد ساد عليه الجهل قروناً طويلة واخنى عليه الخمول بكلكله :

يا علم عش وأعش فـعـصـرك راق ... لتـعـيـد شـمس الشـرق للإشـراق
أرسلت نورك في الفـضـا متـدفـقـاً ... فـمـلأت فـيـه مطالع الآفـاق
فـمـثـقّف الآراء أنت إذا شكت ... أوَداً وأنت مـهـذّب الأخـلاق
إن عـدت غـربيّـاً فـعلّك ذاكـر ... أيـام دور مـرّ منك عـراقي
نظروا اليك ، وقـد قـصـدت ديارهم ، ... ورحلـت عنّا مـؤذناً بفـراق

ولا يفوت شاعرنا ، وهو يناجي العلم ويحمد آلاءه ، أن يتحمّس ويثور ويجهر بشعوره القومي فيقول :

أنا ، يا رفـاقي ، لا أريد سـلامـتي ... فـتـذكـروني إن هلكت رفـاقي
إن لم تعش نفـسي العـزيزة حـرّة ... فـلأسـعـيّن بهـا الى الازهاق
لاجـاهرنّ بمـا تكنّ ضـمـائري ... ولـيكـثـرنّ وسـائل الارهـاق
وغلى الدم العـربيّ فيّ فـواجـبي ... تضـمـيخ مـجـدي بالدم المـهـراق
غـضـبت لي الأجـداد في أجـداثهـا ... لمـا شـربت الهـون مـرّ مـذاق
فـحلفتُ إمـا العـزّ او غـصص الرّدى ... أولا فـمـا أنا طيّب الأعـراق !

والعلم عزيز على البصير يردّد أمره ويشيد بذكره في كل آن فيقول :

يـا مـطـلـع الأزهرين : العلم والأدب ... ردّي الينا رقيّ الشـرق والعـرب
مـا أنت إلا سـمـاء أطلعت شـهـباً ... وهل لديك سـوى الأفكار من شُـهُب؟
مـا أنت واللّه إلا قطب نهـضـتنا ... (وهل تدور الرّحى إلا على القطب؟)
نحن الظمـاء وحوض العلم مـشـرعنا ... فلينهل الشعب من سلسـالك العـذب

ويقول في قصيدته «غيرة النعمان» :

يا علم ، أنت مـحـرّر الأوطان ... فـانشـر لواك لنا على الشـبّـان
وأقم بهم أوَدَ البـلاد ليـصلحـوا ... مـا أفـسـدته طوارئ الحـدثان
أثر الحـمـيّـة فـهي ملء صـدورهم ... ودع الحـفـاظ يهـزّ كلّ جنان

ثم يذكر قدوم الوفود على كسرى تتناظر وتتساجل ويطري كل منها مآثر قومه وآله :

فـالصـين في آلاتهـا والهند في ... آرائـهـا والـروم فـي الأديـان

وما كان من النعمان إلا ان ينبري ليشيد بمجد العرب :

قال : المآثر والمفاخر كلها ... للعرب موهبة بكل زمان
فهمُ الألى ألفوا السماحة والقرى ... وتسابقوا في كل يوم طعان
تنهلّ أنملهم بأمواه الجدى ... طوراً وتخضب بالنجيع القاني
جمعوا الصباحة والعفاف الى الحيا ... بمخائل الفتيات والفتيان
ورست حلومهمُ فهنّ رواجح ... إن خفّ يوماً جانبا ثهلان
ومن السجايا البيض عندهم الوفا ... فاطلبه في خبر لهم وعيان
أما الذكاء فإنّ في قرع العصا ... ما لا يردّ عليه من برهان
وتنافسوا بالشعر وهو مهذّب ... شفع الحنين رقيقه بحنان
ضربوا به الأمثال وهي بديعة ... ليلذّ فيه الحدو للركبان
يعتادهم كبر الملوك وإنهم ... خدم ببيت المجد للضيفان
ركبوا متون الخيل وهي حصونهم ... متفيّئين أسنّة المرّان
بادين لا يتحضّرون لأنهم ... يأبون دار الذّل والاذعان
تمّ النّهى في العرب حتى انني ... لم أدر اين مواضع النقصان
أنا لا أقدّ سهم لأني حاكم ... فيهم وأن رجالهم أعواني
لكنني أجد الفضيلة كلها ... فيهم فتنصرها يدي ولساني

وآمن البصير بوحدة العرب فقال :

ليس العراق سوى بيت أقيم به ... وانما أسرتي أبناؤها العرب
وما بنو الضاد في كلّ البلاد سوى ... سراة أبناء عمّي حين أنتسب

ومن قصائد البصير الوطنية الحلوة معارضته لـ «ليل الصبّ» وقد أخرجها من الغزل الى الحماسة إذ يقول :

وطني والحق سينجده ... ما زلت بحبّي أعبده
سيصوغ العدل لدولته ... تاجاً والله سيعقده
ليهزّ الرمح مثقّفه ... وليدمي السيف مجرّده
ولنطوي الجهل وندفنه ... وليحيى العلم مخلّده
ولنرفع راية نهضتنا ... فنذود الجهل ونطرده
سنثير الشعب وننقذه ... ونقيم الكون ونقعده
سنعيد الشرق لسلطته ... ويحدّ السيف نحدّده
أشقته سياسة مضطهد ... ستقلّص عنه فنسعده

ستنير شموس معارفه	والسعد سيزهر فرقده
ستدرّ منابع ثروته	والعيش سيعذب مورده
سنقيم صروح سياسته	ودعام العدل نوطّده
ونبثّ النور وننشره	ونراعي الحقّ ونعضده
وظلام الجهل نمزّقه	وشباب الحكمة نرصده

ان هذه الأهزوجة الخفيفة التي كثيراً ما تتعثر بها الكلمات لتجمع في سلسالها العذب كل أماني الأمة الناشئة من طموح الى الحرية والسيادة ورغبة في العدل والعلم والنهوض والعيش الكريم ، فلا غرو ان لحنت وأنشدت وانطلقت بها حناجر الطلاب وأبناء الشعب على حدّ سواء !

وإذا جاز لنا تشبيه شعر البصير الوطني في هذا العهد ، والقياس مع الفارق في الزمان والمكان ، فإننا نشبهّه بأناشيد الشاعر الشعبي الفرنسي بيرانجيه (١٧٨٠ ــ ١٨٥٧) الذي علت له شهرة ونالت أشعاره الملحنة والمغناة صيتاً بعيداً بعد عودة الملكية الى فرنسة سنة ١٨١٥ . لكن أناشيد بيرانجيه كانت تنظر الى الوراء ، فتثير في الشعب الفرنسي حنيناً الى مجده الماضي في عهد نابوليون ، واعتزازاً بلوائه الامبراطوري الذي رفرف أعواماً في سماء أوربة ، وحبّاً لخلائقه الشعبية اللطيفة الموروثة عن الآباء والأجداد واللاصقة بتربة الوطن العزيزة . اما قصائد البصير فتنظر الى المستقبل ، مستقبل شعب أبيّ متحفز الى النهوض ، متطلع الى استعادة مجده السالف ، متعطش الى الحرية والرفاهية والعلم والعرفان .

لقد استطاع البصير ان يتقمّص أمداً قصيراً روح الشعب العراقي الثائر في أعقاب الحرب العظمى فيكون لسانه الناطق وجنانه الخافق ، فهل عجب بعد ذلك ان تكون قصائده جزءاً من تأريخ العراق وثورته في ذلك العهد؟

وللبصير بعد ذلك شعر رائق في المواضيع الاجتماعية والوجدانية والوصفية والغزلية ، منه قصيدته «نجوى الشمس» :

لك يا شمسُ دولة في الفضاء	يصل الأرض حكمها بالسماء

نشرت هذه القصيدة في الجزء الثاني من «الأدب العصري في العراق العربي» سنة ١٩٢٣ ، ثم أعاد النظر فيها وحذف الجزء الأول منها الذي حوى مزاعم علمية الصبغة وعوّض عنه بوصف يوم من أيام الربيع الصاحية الصافية ، ونشر القصيدة مصححة في ديوانه «البركان» . قال في مطلعها :

لك يا شمسُ مشهد في الفضاء	يصل الأرض بهجة بالسماء

بدّد السحب من جبينك نور حبّذا انت بعد يوم مطير
زاد في حسنه صفاء الهواء ما ألذّ الوصال بعد جفاء

قد احسَّ الوجود نورك وسرت فيه نشوة بعثتها
احساس مريض هبوب ريح الشفاء شعلة من جبينك الوُضّاء

فاستميلي ملتفّة الأيك ريّاً وهبي للربيع ثوب بهار
من شآبيب ديمة وطفاء أحسنت نسجه يد الأنواء

وعلى الكون فاخلعي بسمة الصّحو وذريه يموج عطراً ونوراً
فقد ملّ من عبوس الشتاء مونق الروض مشرق الأجواء

ودعي هذه الجداول تروي علّمي الزهر كيف يضحك في الحقل
سحرها عن سمائك الزرقاء ورويّ الشحرور فنّ الغناء

ألهميه واستنشديه أغان واملأي هذه الحياة جمالاً
لك فيها براعة الانشاء واستثيري قرائح الشعراء

وامنحي السحر مقلة النرجس وابعثي في العقول كل نشاط
الغضّ وطرف المليحة الحسناء واصقلي يا ذُكاء كلّ ذكاء

واسكبي في القلوب كل حنان
واطبعي في النفوس كل صفاء

ومن شعره في الفرات :

يا حبّذا نهر الفرات وحبّذا والنخل باسقة كأنّ ظلالها
ماء به عذب الموارد صافي ثوب عليه من السكينة ضافي

والطير دائمة الغناء كأنها والنهر في حلم كأنّ خريره
كلفت بسحر مناظر الأرياف نفس يردّده وليد غاف

خلع الأصيل عليه اجمل صبغة
فكأنما وشّاه نضح سُلاف

ويقول في الحلة مسقط رأسه :

سلّم على فيحاء بابل ، انها تستنشق الأرواح عرف نسيمها
فيّاحة الأرجاء والأكناف قبل انتشاق شذاه بالآناف

فلكم نعمت بها وقد نشر الحيا بالجوّ أزهر والرّبى مخضلّة
وشي الربيع مفوّف الأطراف وشذا الحقول يضوع للمستاف

والروض مصقول الأديم ، وانّما تتضاحك الأزهار فيه كأنها
صقلته كفّ العارض الوكاف شمتت بدمع غمامه الذرّاف

والدكتور البصير قد تفرّغ للشعر والأدب فلا أحبّ اليه من كتبه التي عاشرها معاشرة الأصحاب ، حتى ليقول :

خذوا شمّ القصور مزخرفات ... رحاب الظلّ تزدهر ازدهارا
خذوا خضر الموائد شائقاتٍ ... تلذّ لكم شراباً او قمارا
خذوا هذا فما أنا فيه صبّ ... يحنّ اليه سرّاً او جهارا
صحبتكم فلم أحمد سجايا ... أحطت بهنّ درساً واختبارا
لذاك هجرتكم وصحبت كتبي ... فلذّت صحبةً وحلت مزارا

دعي محمد مهدي البصير الى عقد ندوات أدبية في تلفزيون بغداد ، فشرع منذ كانون الأول ١٩٧٣ يتحدث عن الشعر الجاهلي والشعراء الجاهليين . والحقيقة انه لم يأت في أحاديثه بشيء جديد ، بل اكتفى بسرد المعلومات وانشاد الأشعار التي روتها كتب الأدب القديمة . وقد قلت لأحد اصدقائنا المشتركين ـ وهو سامي خوندة : ان هذه الأحاديث لا تتناسب مع مكانة الدكتور البصير الأدبية وعلمه الغزير . وهو قد نال شهادة الدكتوراه بأطروحته عن شعر كورناي الغنائي ، فلو تحدّث عن هذا الشاعر الفرنسي وغيره ونقل طرفاً من شعرهم لأمتع وأفاد .

وقد نقل له الصديق هذا الكلام ، فقال معتذراً : انني بعيد العهد بالأدب الفرنسي ولا يتيّسر لي الكلام عليه الآن .

وقد توفي محمد مهدي البصير في بغداد في ١٩ تشرين الأول ١٩٧٤ .

لازم البصير في شبابه آل القزويني في الحلة وأخذ عنهم وحضر مجالسهم وتخرّج على فضلائهم في الشعر والأدب .

وقد أخبرني عبد العزيز المظفر ان البصير كان يزور السيد طالب النقيب في ديوان وزارة الداخلية سنة ١٩٢٠ ـ ٢١ يرافقه الشابّ محمد مهدي الجواهري . وكان الجواهري يجلس على الدكّة المقابلة لغرفة وزير الداخلية وينتظر خروج البصير من مقابلة الوزير .

قال البصير :

قالوا : سجنت لرأي كنت تعلنه ... فاكتم ، وحسبك ما عانيت من غصص
فقلت : هيهات ، سجني لا يغيّرني ، ... إنّ الهزار ليشدو وهو في القفص

وقد اصدرت وزارة الاعلام «المجموعة الشعرية الكاملة» له سنة ١٩٧٧ .

عبد الرحمن البنّاء

شاعر عصاميّ تعلم اللغة العربية وقرض الشعر بين ضرب المطارق ومزج اللّبن ورصف الحجارة ، وسمت به همّته الى مطارحة الشعراء ومعالجة الكتابة والصحافة . ولما أعلنت الثورة العراقية ، سار شعره المحفّز للهمم ، المنادي بالحرية والكرامة ، على كلّ لسان ، وردّد التلاميذ أناشيده الوطنية ، حتى عرف بـ «الشاعر الاستقلالي» .

وهو عبد الرحمن بن الحاج بَطّي البنّاء ، ولد ببغداد سنة ١٨٨٢ ، ونشأ عاملاً في البناء . وتعلم القراءة والكتابة ، ودرس في المدرسة الرشدية وحضر جانباً من دروس محمود شكري الآلوسي وأخذ عنه علم العروض . وظلّ يعمل في صنعة البناء أعواماً طويلة حتى غدا من المعمارين المعروفين ، وكان معماراً لبلدية بغداد على العهد العثماني ومعمار أوقاف البصرة في العهد الوطني . واشتهر بروحه الثائرة منذ صدر شبابه ، فانتمى الى النادي العلمي عند تأسيسه سنة ١٩١٣ . واتصل برجال العرب كالسيد طالب النقيب ونظم أماديحه فيهم . واضطر خلال الحرب العامة على ممالأة السلطة التركية ، فدبّج المقالات لجريدة «صدى الاسلام» التي أصدرها الجيش سنة ١٩١٥ .

نظم شعره الوطني إبّان الثورة العراقية وتأسيس الدولة ، وتعرّض للسجن والاعتقال . ثم أصدر جريدة «الأخلاق» (٢٤ كانون الأول ١٩٢٦) فجريدة «النور» (٢٣ حزيران ١٩٢٩) ، وبعد ذلك جريدة «بغداد» (٢٠ تموز ١٩٣١) ، وقد استمرت على الصدور عدّة سنين .

وتوفي البناء ببغداد في ٢٦ حزيران ١,٩٥٥

شعره

طبع الجزء الأول من ديوان البناء سنة ١٩١٣ ، ثم صدر الجزء الثاني بعنوان «ذكرى استقلال العراق» (١٩٢٧) .

وشعر البناء سلس العبارة ، جليّ المعاني ، تشمل أغراضه الوطنيات والاجتماعيات والمدح والرثاء . قال في الباب الوسطاني من سور بغداد :

وقفت فينا وقفة الأرْوع   فكنت مثل الواعظ المصقع

وقفت وسط السور مستفسراً عن أمة راحت ولم ترجع
وقفت تدعو أمة ضيعت أحكامها في ملكها الأوسع
تدعو ولا تسمع غير الصدى وللصدى رجع لدى المسمع
يا أيها الحارس في بابه هجعت والأيام لم تهجع
فوقك أرواح عصور خلت كديمة وطفاء لم تقلع
فأيّ قلب قد حوى ما حوى قلبك من خطب ولم يهلع
وأيّ عين قد رأت ما رأت عينك من عسف ولم تدمع
غداً ترى عيناك من بعدنا جيلاً إذا خوطب لم يسمع
كم دولة من بعدها دولة قد فجعت فيك ولم تفجع

وله رثاء كثير في رجال عصره ، منها رثاؤه لرشيد باشا الزهاوي المتوفى سنة ١٩١١ ، ومطلعه :

صبراً جميلاً فالزمان يجور والعمر فان والحياة غرور

وتوفي معروف الرصافي سنة ١٩٤٥ فأحسّ البنّاء كأن عضواً من أعضائه وجزءاً من روحه قد ماتا معه ودفنا في ضريحه ، فقال يرثيه :

الى الملأ الأعلى ، الى النور حلّق فعمّا قريب في السّماوات نلتقي
ومن قفص الدنيا نفرّ الى العلى حَمَامَ فلاة عاش غير مطوّق
أبينا قيود الذّل مهما تنوّعت ولو أنها صيغت من الذهب النقي
وعفنا دياراً عشّش الضيم فوقها وإنا بجوّ واسع غير ضيق
ترفّ جناحانا على رفرف الحمى ونسبح في بحر من الأفق أزرق
كأسراب طير شبهه بين راقص لنا بجناحيه وبين مصفّق
تولى الذي عشناه كالبحر بعدما عبرناه ، والآمال كانت كزورق
ودنيا قطعناها كلذّة حالم ونشوة مخمور براح معتّق
تحقق ما قد كان غير محقّقٍ لديّ ومن ذا كنت أخشى وأتّقي
فكن واثقاً بي أنني بك لاحق وإن كنت منذ البدء أجلى مسّبق
فلا ذلك العهد الوثيق بمنته ولا ذلك الودّ القديم بمُخْلَق
فسوف يفيق الفجر من غفوة الكرىً ويشرق تاج الصبح من فوق مَفْرق
وتتحّد الأجسام في عالم البلى وتجتمع الأرواح بعد التفرّق

وهكذا رثى الشاعر البناء نفسه قبل ان يموت .

ذاق البناء مرارة العيش وشظفه فقال :

ومـــا أنا إلا كـــالغـــريق بلجّـــة
أنادي ، ولكن مـــا هناك ســـمـــيع

أعلّل نفـــسي بالأمـــاني ضـــلالةً
وفي النفس منّي للبـــقـــاء نزوع

وأعلم أنّي للمنيّـــة ســـالك
طريقـــاً ، على ان الطريق خـــدوع

تنازعني الأهواء في كلّ غـــاية
فـــأعـــصى لهـــا أمـــر الهـــوى وأطيع

أقـــول : غـداً عـــيشي يطيب مـذاقه
فـــيـــصـــبح مـــرّاً والرجـــاء يضـــيع

كأني على مجرى من النهر صخرة
بهـــا من تصـــاريف المـــيـــاه صـــدوع

تمـــرّ عليَّ الجـــاريات كـــأنهـــا
ليـــالٍ ، ومـــا للجـــاريات رجـــوع

وعلّل النفس بالآمال فقال :

أنا ذات يوم كنت أمـــشي في الرّبى
من ظل أشـــجـــار الى أشـــجـــار

مـــا لي أنيس غـــيـــر همّي والأسى
ولهـــيب أشـــجـــاني ودمـــعي الجـاري

أمـشي فـويق الثلج من حـرّ الجـوى
فـــيـــزيد طبع الثلج حـــرّ أُواري

ضـدّان بينهـمـا وقـعت بحـيـرة
حـــارت بهـــا وبوقـــعـــهـــا أطواري

لا هذه تخـــبـــو فـــتطفئ غلّتي
كـــــلا ولا هـذا يـبـــرّد نـاري

بينا أذيب من الثلوج جـــمـــودها
فـــتـــســـيل فـــوق الأرض كـــالأنهـــار

لاحت لعـــيني زهرة مـــتـــروكـــة
في الأرض تـحـت الـثـلـج والأمـطـار

هي زهرة عند اللّقـــا أهديتـــهـــا
لـــك ، ثـــامـــن الأيّـــام مـــن آذار

كـانت تغطّيـــهـــا الثلوج بضـغطها
فـــتظلّ خـــاضـــعـــة الى الأوقـــار

فـــتنوء بالأثقـــال غـــيـــر قـــديرة
وتبـــيـــت صـــابرة على الأقـــدار

حـتى ذوت بل كـاد يذهب طيـبـهـا
مـــمـــا عـــراها من أذى الإعـــصـــار

وقـد انتـهـزت الأمـر في اظهـارها
من حـــيث كنت لهـــا من الأنصـــار

وبذلت مـجـهـودي على انقـاذها
ونشلتـــهـــا من هوّة الأكـــدار

ونجـحت كلّ النُّجْح بعـد مـشـقّـة
عـــانيـــتـــهـــا بتـــجـــشّم الأخطار

ثم يقول :

تبـقى المـعـادن في الثـرى مطمـورةً
إن لـم تبـــاشـــرها يد الحـــفّـــار

والدرّ في أصـــدافـــهـــا مكنونة
مـــا إن تبـــاع بقـــيـــمـــة الأحـــجـــار

ولكلّ شيء في الوجـــود مـــحـــرّك
لا تنفع اليـــمـنى بغـــيـــر يســـار

يبني البـخـار من الحـديد شـوامخاً
في البـحـر تجـري والبـحـور جـواري

وكذا الحديد على الثرى كترابها … لولا البخار لما سرى بقطار
إني أرى عكس الذي أنا قائل ، … والنار لم تسعر بغير شرار
ما لي أرى الحرّ الأديب كأنه … في داره رجل غريب الدار؟
في النفس منه تضاءلت أمنيّة … كتضاؤل الأحرار في الأطمار
تمضي حياتهم بلا نَيْلٍ ، وهم … يتقلّبون على شفير هار
يا أيها الأحرار ، في طلبٍ المنى … لم تعضد الجلّى سوى الأحرار
أفعالكم غرر بجبهة دهركم … والحظّ منكم أسود كالقار

وقال البنّاء يخاطب الجناة الآثمين :

يا أيّها الجاني على نفسه … جناية أدّت الى حبسه
قضى بأيديه على نسله … كما قضى فيها على عرسه
حرمت حرّية ريح الصّبا … وبعت غالي العمر في بخسه
الناس أحرار باحساسهم … وأنت مضغوط على حسّه
بليت بالسجن ، فكن قائماً … في رشّه طوراً وفي كنسه
الحبس رجس بين أهل النُّهى … هيهات أن تظهر من رجسه
اليأس قد أوهن منك القوى … وقلبك استغرق في يأسه
قرنت فيه بجناة الأذى ، … والجنس مقرون الى جنسه
أما افتكرت قبل ذنب جرى ، … والنّبض قد يعرف من جسّه
فابك على العمر الذي قد مضى ، … فقد حرمت الأنس من أنسه
كنتَ أبا التصّريح في قوله … واليوم لم تقدر على همسه
وكنت ما بين جمال الورى … من بدره أبهى ومن شمسه
فمسّك الجهل بويلاته … حتى قسا قلبك من مسّه

وقال في رثاء الشاعر عبدالمحسن الكاظمي :

نم ولا تجعل لشيء من حساب … كل شيء يتساوى في التراب
نم ودع عنك منى النفس ، فما … هذه الدنيا سوى لمع سراب
نم بجوف الأرض نوماً هادئاً … وأرح نفسك من قول الصواب
نم قرير العين في ظلّ البلى ، … نم خليّ البال من كدح وداب
نم وقلّل من نبوغ حزته … وارضَ عن كتبك في أمّ الكتاب...
يا عراقيّاً جفاه ربعه … ورأى أصحابه غير صحاب
ترك الصحب وولّى وجهه … شطر مصر وهو في شرخ الشباب

فقضى جيلاً بها محترماً كان حرّ القول حرّ الاكتساب
حرصت مصر على آدابه إذ رأت آدابه فصل الخطاب
صرت في «نيل» هداها ترتمي كارتماء النور في وجه العباب
شاعراً من أيّ واد ممرع جئت بالأطياب او أيّ هضاب
عبقرياً لا يجارىً شعره الـ ـعذب مذ جاء بألفاظ عذاب
تتبارى وفحول الشعر في حلبة السّبق فتأتي بالعجاب

ثم يعزّي ابنته رباب فيقول :

يا ابنة الشيخ الذي آثاره خلّدت ذكراك في كلّ كتاب
نحن في بغداد ذبنا حرقة لممات الوالدَ القَرْم المهاب
لو يردّ الموت شيء عن فتى لرددناه بأطراف الحراب
أيّ رزء فتّ في قلبك إذ عضّك البين من القلب بناب
فعزاءً لك في خير أبٍ خالد الذكر الى يوم الحساب

وقال في رثاء انستاس ماري الكرملي :

أمنيّة النادي وبنت الضاد طلعت على الدنيا بثوب حداد
طلعت وفي وجناتها دمع الأسى والحزن كحّل طرفها بسهاد
طلعت على الأدباء تندب حظّها وتقول : مال عمادكم وعمادي
أين الوفاء المحض والأدب الذي غبطت به الدنيا حمى بغداد؟
أين العلوم وأين كوكب سعدها وضياء بدر سمائها الوقّاد؟
أين «الأب» المقدام والأسد الذي كنّا نصول به على الآساد؟
من للعلوم إذا «المجامع» فتحت أبوابها للهدْي والارشاد
من ذا على الفصحى يقوم مقامه ويكون للنقّاد بالمرصاد؟
يا من جعلت لنا المحبّة منهجاً رحب الأخاء لرائح ولغادي
كنّا لأجل الشعب نسعى جهدنا من دون تفريق ودون عناد
هذي الجوامع والكنائس أسّست جنباً لجنب دونما أبعاد
عشنا سواء والديار قريبة والدين لا يرضى بأي بعاد
اليوم فرّقنا الزمان ، وقد مضى ما كان محمولاً على التّرداد
وافاك بالفصحى رثاؤك منشداً : أنت المعيد له وأنت البادي
ته في سماء النور ، ذكرك خالد يجري مع الأحقاب والآباد

* * *

توفي الشاعر البناء فرثاه عبدالكريم العلاف قائلاً :

خرست لنعيك ألسن الفصحاء ... وبكت لفقدك أعين الأدباء
وروى الرواة حديث شعرك مرسلاً ... متحليّاً بروائع الانشاء
شعر به أوحى نُهاك فصغته ... من مصدر الالهام والايحاء
شعر رصين محكمات آيه ... قد ركّبت من جوهر الآراء
في حسن مطلعه ومسك ختامه ... يبدو كقطر سحابة وطفاء

حتى يقول :

دافعت عن شعب نشأت بربعه ... حراً بلا زهو ولا خيلاء
عاهدت نفسك ان تكون له الفدى ... والشعب لا يرقى بغير فداء
وبنيت صرح المجد في عليائه ... والفخر كل الفخر للبنّاء
اذهب فذكرك في البريّة خالد ... كالبدر يسفر واضح اللألاء

* * *

من شعر عبد الرحمن البناء ، قال :

وورقاء غنّت بالعذيب سحيرةً ... على غصن بان هدّ عزمي هديلها
ولولا أسى بين الترائب والحشا ... مقيم لما أشجى فؤادي عويلها
تطارحني شكوى الغرام بسجعها ، ... فهل هي مثلي شطّ عنها خليلها؟
رويدك ، يا ذات الجناح ، فما الهوى ... مضرّ بمن ظلّ الأراك ظليلها
فحتّام جفني يسفح الدمع عندها ... وغلّة قلبي لا يبلّ غليلها؟
أحبّة قلبي ، هل يعود زماننا ... بسلع وهل تبدو لعيني طلولها؟
بنفسي عيش كان غضاً بقربكم ... وأقمار أنس قد براني أفولها

وقال منها :

ما الشعر الا فطرة جوهرية ... يلجلج نحويّ الكلام فعولها
يقولون : بنّاءاً ، وتلك فضيلة ... وما يزدري بالناس إلا ذليلها
كفاني فخراً بالمعيشة قانعاً ، ... وما الحرّ بالأرزاق إلا جليلها
الى مَ أعاني الضيم من أهل بلدتي ، ... وقصدي الى نهج العلى أستميلها؟

* * *

ضاقت الحال بالبناء في بغداد فقصد البصرة سنة ١٩١٣ ولاذ بالسيد طالب النقيب ، فأنشده قصيدة يقول :

ألا من لحــرّ قــد أضــرّ به الضُّــرُّ وعـاش عـزيز النفس مـا خـانه الصبـر؟
تقــارعــه الجلّى فــيــبــدي تجلداً ويصبـر كي لا يشتفي الجاهل الغمـر
يبـيت يعـاني الخطب والليل دامس ، ويصـبـح جـذلانا يحفّ به البـشـر
ويطوي على جمر التغاضي جوانحاً ، ألا من لحــرّ ملء أحـشـائه جـمـر؟

ويتخلص بعد ذلك الى لقائه بالنقيب في معشر كرام من العرب الأقحاح يسعون الى العلى

يســوســهم بدر المــفــاخــر «طالب» خـدين المـعـالي راق في ظلّه العـمـر
به البـصـرة الفـيـحـاء تزهو كـأنهـا عـروس لهـا مـريّخ رفـعـتـه خـدر
كـســاها برود الفـخـر من صنع برّه فـتــاهـت به عــزاً فــرنحــهــا البـرّ
همــــــام أياديه عـلى الخـلق أنـعم تسـاوت به النفس الخـصـيبـة والقـفـر

ثم يقول :

أطالب قــد راجت لديك بســوقــهــا تجـارة فـخـر ليس يعـقـبـهـا خُسْرُ
رفــعت لـواء الحــمــد بالحقّ طالبــاً به الخـيـر والاصلاح فـاستوجب الشكر
فكيف تخـاف الناس خطبـاً وفـاقـة وأنت لهــا كنز ، وأنت لهـا ذخــر؟

* * *

قال البناء :

أنا البناء من غــيــر افــتــخــار قــضــيت العــمــر في مــاء وطين
أقـــول الحقّ لا أخــــشى المنايا ولـو كـــانت تدور عـلى يمــــيني
لســـاني واليـــراع وكنه حـــقّي ســجــين في ســجــين في ســجــين
يشـقّ علـيّ ان أشــــقى بقـــوم أقـــربهم لـديّ فــيــبــعــدوني

وقد علّق بعض الظرفاء على قوله «قضيت العمر في ماء وطين» : لم يقضِ عمره بين الماء والطين إلا الضفدع .

* * *

حدثني سامي خوندة نقلاً عن عبد الرحمن البناء ان هذا الشاعر نظم قصيدة سنة ١٩١١ نشرها في جريدة «بين النهرين» لصاحبها محمد كامل الطبقجلي ، وكان ختام أبياتها :

إن لم تصونوا حقوق العرب ويَحكُمُ ، يا أمّـــة التّــرك ، إنّا مـــســـتـقلّونا

قال البناء : نشرت القصيدة فلم تمض أيام معدودة حتى استدعيت الى السّراي

لمقابلة الوالي ، وهو آنذاك أحمد جمال بك ، الذي عرف خلال الحرب العظمى بجمال باشا السفّاح . فتجمّلت وارتديت أفخر ملابسي وذهبت الى ديوان الولاية وأنا أتوقّع التقدير . وأخذني المرافق الى غرفة الوالي فوجدته جالساً الى مكتبه والى جنبه محمود الوادي (أبو شاكر الوادي) ، وكان اتحادياً مقرّباً من رجال الحكم . فتقدّمت وسلمت بكل أدب واحترام ووقفت بين يدي جمال بك الذي لم يدعني الى الجلوس .

قال الوالي : من أنت؟

قلت : أنا عبد الرحمن البناء .

ــ وما صنعتك؟

ــ بنّاء . (وكان الوادي يترجم بيننا) .

ــ ولماذا تنظم الشعر؟

ــ يا سيدي ، أنا شاعر أنظم في أوقات الفراغ .

وأخرج جريدة «بين النهرين» وقال مشيراً الى قصيدتي : وهل هذا نظمك؟

ــ نعم ، يا سيدي .

فثار وصاح : وهل تريد ان يستقلّ العرب عنّا؟

ــ يا سيدي ، هذه نفثة خاطر ولم أقصد بها شيئاً ، وأنا رجل بنّاء لا شأن لي بالسياسة .

فشتمني وأهانني وقال : أخرج وانصرف الى مهنتك ، ولا تعد الى مثلها .

فأسرعت بالخروج ، وأنا مضطرب لا تكاد تحملني رجلاي .

وقد مضى البنّاء على أثر ذلك الى البصرة والتجأ الى السيد طالب النقيب ومدحه بقصائد .

* * *

عرف عبد الرحمن البناء بالشاعرالأمّي ، وقبله نظم الشعر الشاعر علي البنّاء .

ومن الشعراء الأمّيين الذين عرفتهم الآداب العربية نصر بن أحمد الشاعر الغزلي البصري المعروف بالخبز أرُزّي المتوفى سنة ٩٣٩م ، وكان يخبز خبز الأرزّ بمربد البصرة في دكان وينشد أشعاره الغزلية فيزدحم عليه الناس . وجمع له ديوان شعر قرئ عليه في بغداد التي انتقل اليها بعد ذلك .

وقد قال احمد حسن الزيّات ان أبا العتاهية كان خزّافاً بدأ يصنع الشعر في أتونه خزفاً ، ثم ما لبث ان صنعه دراً تقلدته الأمراء والكبراء . «فانتقل الخزّاف من بين الطين والماء الى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء» .

ونشأ عبد الرحمن البناء ايضاً بين الطين والماء . ومضى يصنع الشعر الذي انتقل به الى مجالس الشعراء ودواوين الكبراء وأندية الصحافة وندوات الأدب ، لكنه لم يبلغ عشر معشار شأو أبي العتاهية .

محمد الباقر

الكاتب الشاعر المحامي محمد الباقر الحلّي ، وهو السيد محمد بن باقر بن ناصر عزّام الحسيني ، ولد في الحلة سنة ١٨٩٦ ودرس العلوم العربية والدينية . واشترك في الحركة الوطنية في مسقط رأسه فنفي الى هنجام (حزيران ١٩٢٠) .

وجاء الى بغداد فانتمى الى مدرسة الحقوق ، وأصدر جريدة «الأدب» في ٧ ايلول ١٩٢٤ ، فاحتجبت بعد صدور ثلاثة أعداد ، واستأنف اصدارها في ٦ شباط ١٩٢٥ . ونال شهادة الحقوق سنة ١٩٢٦ فعيّن مديراً لناحية الكوفة (تشرين الأول ١٩٢٦) فحاكم صلح قلعة سكر (آب ١٩٢٧) . لكنه لم يلبث ان استقال (تشرين الأول ١٩٢٨) فطلق الوظيفة ليمارس المحاماة .

وقد انتخب نائباً عن الحلة في حزيران ١٩٣٩ الى حزيران ١٩٤٣ . واختير نائباً لرئيس غرفة زراعة الحلة (شباط ١٩٤٠) .

من شعره الوطني في أثناء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ قال :

بني يعرب ، لا تأمنوا للعدى مكرا ... خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ... ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا ... أضاليلهم في الهند والكذب في مصرا

وقال من قصيدة في الماء والقمر :

طربت فبتُّ أطيل النظر ... الى الماء مذ شعّ فيه القمر
تخيّلت ان مليحاً غريق ... ويظهر منه محيّا أغر
فجئت اليه بكلتا يديّ ... ومذ كدت أدنو اليه نفر
كأنّ المياه لجين مذاب ... يمازجه ذهب مفتخر
او الكأس تعكس وجه النديم ... ويطفو الحباب بها كالدرر
وأنت ، إذا الماء مثل الجعود ... كمشط يرجّل جعد الشَّعَر
تمدّ سناك كمثل الشباك ... لتصطاد فيه ظلال الشجر
يمرّ عليك النسيم العليل ... فتهتزّ من طرب أم حذر

تخـــافك ثمّ أفـــاعي المـــيـــاه وذلك راكـضـهـا مـا استـقـر
يسـيـر فـتـسـبـقـه سـائراً أغـرّب فـيـه وإمّـا انحـدر
يقـولون : انك شـيـخ كـبـيـر ومـا شـأن حـسنك هذا الكبـر
وأنـك مـع أرضـنـا سـائران فـأين وحـتّى مَ هذا السـفـر؟
فـلا بدّ انك بالاخـتـبـار تعـرّفت للكون كلّ الغـيـر
فـهل مـرّ في الكون يوم عـصـيب كـهـذا تنازع فـيـه البـشـر؟
تنازعت الكائنات البـقـاء فـهل كـان غـيـر القـويّ انتـصـر؟
أنا خـائف ، يا مليك النجـوم ، فـهل في جـبـالك لي من وزر؟
كـرهت الأنام ، سـئـمت الحـيـاة فكيف الخـلاص وأين المـفـر
إذا قـيّـد الخـوف منّي اللّسـان فـسـوف تناجـيك منّي الفكر
فـهل انت في الشرق حيث الشقـاء كـمـا انت في الغـرب ذاك القـمـر
يثـيـر شـعـاعك هذا الجـمـيل على برده في فـؤادي شـرر
وحـسـبي اني أرى راحـتي عناءاً وصـفـو حـيـاتي كـدر
سـلام على الأمم السّـالفـين وشـوق ومـرحى لعـصـر غـبـر

وقد توفّي ببغداد اثر مرض عضال في ٢٧ كانون الثاني ١,٩٧١

من شعر محمد الباقر

نشر السيد محمد الباقر في سنة ١٩٢٠ وما بعدها شعراً وطنياً واجتماعياً في جريدة «الاستقلال» وغيرها من الجرائد والمجلات . وقد قال قصيدة عنوانها «لسان حال الشعب» :

سـأبقى ، وإن لم يعـبـأوا بارادتي ، أضجّ الى ان يسـمع الحقّ سـامعُ
وكـيـلا يقـولوا : جـاهل مـتـهـوّر تسـرّع فـيـمـا رام ، والوقت واسع
أردّد صـوتي مـرّة بعـد مـرّة ليـحسن فـيـمـا بعـد مـا أنا صـانع
فـسـمـعـاً ، ولاة الأمـر ، رأيَ مـصـمّم من الخـرق ان تسـتكّ عنه المسـامع
أطالبكم ان تصـدر الصـحف حـرّة وتكثـر في هذي البـلاد المـجـامع

وبعد ان يعدّد سائر مطالب الشعب ، يقول :

فـلا بدّ لي من ان أحـقّق بغـيـتي وإن منعت من دون ذاك المـوانع

وقال محمد الباقر من قصيدة في «مسامرة النجوم» :

شكرت الدّراري فـهي مـثلي سـواهر ولولا الدراري من تُراني أسـامـر؟

أطال عليّ الليل وحـدي؟ أم الدجى لديه سـواءٌ نائم ومـساهر؟
طويل به أبدي سـرائر جـمّـة فـمن لي بيـوم فيـه تبلى السّـرائر
أزُهْرَ الدراري ، أين نومي عـهـدته عـساه كـهـذا النسـر في الجـوّ طائر

ومن قصيدة له عنوانها «شدة ورخاء» :

إنّمـا الدهـر شـدّة ورخـاء وافـتـقـار حـيناً وحـيناً ثراء
حكم هذا الزمـان شـرّ فـخـيـر وكـذا يعـقب الظلام ضـيـاء

حدثني احد زملاء محمد الباقر من طلاب مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٢ انه كان معمّماً يرتدي الزيّ الديني . وقد حدث ان كاتب المدرسة كان يقرأ أسماء الطلاب ملقباً اياهم بالسيّد (وهو لقب كان يُخَصّ آنذاك بأحفاد الرسول الأعظم من العلويين) . فلما نادى الكاتب على السيد فلان وفلان وفلان ، بسمل السيد محمد الباقر واستغفر وحوقل ، ثم قام واقفاً وصاح معترضاً . وسمع اللغط توفيق السويدي ، وهو آنذاك مدير المدرسة ، فأتى مسرعاً وأمر الكاتب بتلاوة الأسماء مجرّدة من ألقاب السيد او الأفندي الخ .

قال محدّثي : ومرت أعوام على ذلك ، وكنت في زيارة للكوفة فإذا مدير الناحية شاب عصريّ أنيق في بذلته الأفرنجية وسيدارته الوطنية ، وهو محمد الباقر نفسه . ولمّا رآني صافحني بحرارة ، وخاطبني بلقب السيّد ، وذكر أيام الدراسة ضاحكاً . وقال : لقد تفتحت مداركنا واتسعت آفاقنا وأفدنا من العلم والحياة .

وقد ذكرتني هذه القصة بأمين الريحاني الذي زار اليمن سنة ١٩٢٢ أيضاً وقابل الامام يحيى حميد الدين . وقبل ان يصل الى صنعاء مرّ بتعز ولقي أميرها علي بن الوزير ، وقدّم اليه باسم «السيد أمين الريحاني» ، فسأله الأمير : هل انت حسني او حسيني؟

وقع السؤال على الريحاني ـ كما قال في كتابه ملوك العرب ـ وقع الصاعقة . لكن الله فتح عليه فأجاب قائلاً : أنا عربيّ ، يا حضرة الأمير ، احترم كلّ المذاهب الاسلامية وأحبّ كل العرب وأتمثل دائماً بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حـرمـة وهوى تغلغل في صـمـيم فـؤادي!

واستحسن الأمير الجواب ، وقال أحد رجاله : حضرته من سادات لبنان .

* * *

اشترك محمد الباقر الحلي في ثورة سنة ١٩٢٠ وحثّ بشعره على اضرام نارها

وامتداد لهيبها . ولما طلبه الانكليز في الحلة هرب الى منطقة السادة آل ياسر في موضع يقال له «أمّ رغلة» وأقام فيه حولاً كاملاً . وأسّس في الموضع مدرسة ابتدائية ، على ما قال عبد الحميد علوان الياسري ، لعلها أول مدرسة أنشئت في الريف العراقي . وقال محمد الباقر :

مـــا زلت أطّرق المنازل خـــائفـــاً ... حـــتى أتيت الى منازل «ياســـر»
حـــيّت ربوعك ، أمّ رغلة ، مـــزنة ... تنهلّ بالخـــيـــر العـــمـــيم الوافـــر

وقال يحيّي الحاج عبد الواحد سكر حين جيء به مخفوراً بعد الثورة الى سجن بغداد :

تَهَنَّ وطب نفـســاً بمـا أنت واجـد ، ... فـقـد كنت عن حقّ صـريح تجـاهد
لعـمـري لقـد اكـسـبت قـومك سؤدداً ... يهـوّن مـا أمـسـيت ظلمـاً تكابد
فـإن يكُ ذاك الخـصم في الظلم مفـرداً ... فـإنّك ، يا عـبـد الحـقـيـقـة ، واحـد
فـيـا بطل الشـعب العظيم ، بشـارةً ... سيـدرك فيك الشـعب مـا أنت ناشـد
فـلا بدّ ان تأتي لشـعـبك فـرصـة ، ... وليس له إلاك للمـــجـــد قـــائد
أتيت الى بغـــداد والخـــوف شـــامل ... لأبنائهـــا والظلم في النـاس ســائد ،
فلو لم يخنك الدهر فـيـمـا قـصـدته ... لجـئت الى بغـداد والجند حـاشـد

وقال من قصيدة أخرى :

أيهـــا النـاقـــد الحكيم ، تـأمّل ... مـا تلاقي في عـيـشـهـا الضـعـفـاء
لا يُلام القـــويّ عنديَ مـــهـــمـــا ... كـــثـــرت باعـــتـــدائه الأنبـــاء
انمـــا الذنب للضـعـيـف إذا اســتـ ... ـسلم إن رام ســحـــقـــه الأقـــوياء
قـد قـضى الشـعب مـا عليـه ولمّـا ... يتـــحـــقّق فـــيـــه لديكم رجـــاء
أنا أخـشى النار التي ســوف تغـدو ... ســـبـــبـــاً في ايقـــادها الأهـواء

الخ .

وقال من قصيدة ثالثة بعنوان «لسان حال الشعب» :

ســأبقى ، وإن لـم يعـبـــأوا بارادتي ، ... أضجّ الى ان يســـمع الحقّ ســـامع
أردّد صـــوتي مـــرّة بعـــد مـــرة ... ليـحـسن فـيـمـا بعـد مـا أنا صـانع
فـسـمـعـاً ، ولاة الأمـر ، رأي مـصـمّم ... من الخـرق ان تسـتكّ منه المسـامع
أطالبكم ان تـصـدر الصـحف حـرّة ... وتكثـر في هذي البـلاد المـجـامع
أطالبكم بالعـفــو عن كلّ مـجـرم ... بزعـــمكمُ إذ كـــان عنّي يدافع

وأن يطلق الأسـرى بأقـرب فـرصـة فـمـا أنا مـمّن بالوعـود يخـادع

ومن أربي ان ترفـعـوا كلّ حـاجـز لكي يتـعـاطي الرأي دان وشـاسع

وأن ترفـعـوا عنّي مـحـاكم شكّلت من الجند جـاءت من لدنهـا الفظائع

أطالب في تأليف مـؤتمـري الذي لخطّتـه مـسـتـقـبل الأمـر تابع

فـلا بدّ لي من أن أحـقّق بغـيـتي وإن منعت من دون ذاك المـوانع

علي الخطيب

الشاعر المبدع علي بن محمد جميل بن عبد القادر الخطيب ، أخو المفتي عطا الخطيب . ولد في بغداد سنة ١٩٠١ ودرس في دار المعلمين الابتدائية ، ثم تخرج في مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٧ . وظف في وزارة العدلية ومحكمة التمييز ، وعيّن ملاحظاً للمطبوعات في وزارة الداخلية سنة ١٩٣٠ . ونقل في السنة التالية الى ديوان مجلس الوزراء ، لكنه ابتلي بمرض عصبيّ اضطره على ترك الوظيفة وأقعده عن العمل وألزمه العزلة . وفي سنة ١٩٣٨ تحسنت صحته فوظف في مديرية الشرطة العامة ودعي الى الالتحاق بدورة ضباط الاحتياط .

وانزوى في عقر داره في أعوامه الأخيرة حتى وافاه الأجل في بغداد في أواسط شهر ايار ١٩٧٧ .

نظم علي الخطيب شعراً رائقاً في الاجتماع والوصف والغزل . ولكننا نذكره هنا شاعراً وطنياً ألقى القصائد الصارخة التي طالما عرّضته لسخط الحكومة ونقمتها وهو موظف في دوائرها العدلية .

واجتزئ في هذا المقام بذكر قصائده الوطنية بعد ان فصّلت سيرته وتكلمت على شعره الوجداني في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

الوطنية في شعر علي الخطيب

دوى صوت الشاعر علي الخطيب في سنوات العشرين في المحافل الأدبية والوطنية . فقال :

كم القصائد تتلى في نوادينا ... وقائل الشعر فيها كم ينادينا :
هلا تقوم لنا بالعلم قائمة ... فالجهل ، يا قوم ، أردانا ويردينا
تعاظم الخطب في أوطاننا جللاً ... لمّا غدا ضارباً أطنابه فينا
نحو العلوم هلّموا ، يا بني وطني ، ... واغدوا على أحسن الأخلاق ناشينا
تعلّم العلم لا يجدي بلا خلق ... نفعاً ولا وحدها الأخلاق تجدينا

حتى يقول :

أما الولاة فإن خطب عرا افترقوا ... وأطربوا بافتراق الشمل شانينا
كأنّما القوم ما صبّوا وما اجتمعوا ... ليثبتوا دونه بل كان تلوينا
إن هم رأوا كفّة الرجحان في جهة ... راحوا لها انتسبوا للأصل ناسينا
وهكذا عبثت فينا مطامعهم ... وبدّدت كلّ مأمول مواتينا
لو انهم نزهّوا الوجدان من شره ... كنّا على دوحة العليا شواهينا

وما وظيفة الشاعر في عرف علي الخطيب؟ قال يخاطب شاعر الأمّة :

أهاجك حين الشعب خابت رغائبُهْ ... فرحت على مرّ العشيّ تعاتبه؟
وساءك لمّا ان رأيت نهوضه ... مبادئه قد خالفتها عواقبه؟
هو البعض لم يسلس اليه قياده ... فضاقت عليه اليوم غدراً مذاهبه
فكابدت من حال البلاد توجّعاً ... وأضناك من أمر الزمان تلاعبه
زمان إذا تصفو لديك صروفه ... تلمّ بك الأحداث وهي شوائبه
تجوب على وجه البسيطة هائماً ... وأنت على رغم الخطوب تحاربه
حنانيك بعض الصبر إن كنت جازعاً ... فمثلك من هانت لديه نوائبه
وقد علم الأقوام أنّك شاعر ... يجيد مقال الشعر حين يجاذبه
فتملأ ربع العرب شعراً يزينه ... من النفس خلق قد تجلّت مناقبه
وتشهر نصلاً بين شدقيك مغمداً ... تحزّ رقاب الخائنين مضاربه
وتحمل عطفاً بين جنبيك للّذي ... ألمّ به يوم توالت مصائبه
فشعرك شعر النفس ليس يشوبه ... تكلّف قول لا تروق مشاربه
تطير هزاراً في الرياض مرفرفاً ... يحوم على وكر بها ويجانبه
وأنت على الحالين تبدي كآبة ... على مجد أوطان تداعت جوانبه
أرى صفرة الآلام ، وهي تسوءني ، ... عليك ووجه الحرّ يؤلم شاحبه
تبيت بداجي الليل مضطرم الحشا ... وذاك لأنّ العز أشجاك عازبه
تراقب نجم الأفق ، والطرف شاخص ، ... فلم أدرِ ما مرماك حين تراقبه
ذكرت مواضي العرب حتى بكيتهم ... بمدمعَ شعر لا تجفّ سواكبه

لقد نهض علي الخطيب بوظيفة هذا الشاعر ، فتألم لحال الشعب وذكر ماضي العزّ ودعا الى النهضة والعلم . وليس ذلك فحسب ، بل غرّد هزاراً في الرياض وغنّى الحبّ واللهو والجمال . لكنّ صوته لم يجد صدى ونداءه لم يحظ بجواب ، فقال :

أيا رابضاً تحت الظلام مناجياً ... بشعرك شعباً قد توارت كواكبه
علامَ بعثت الصوت تبغي هبوبه ، ... وليس سوى داجي الفضاء يجاوبه؟

ولكن أبيّ النفس يأبى بأن يرى ذويه على ضيم ويسكن قاضبه
على أنّ آمالاً تخالج مهجتي بأنّ له يوماً ستقضى مآربه

* * *

وجاء الى بغداد سنة ١٩٢٩ المثري الأميركي شارلس كرين صديق العرب فكرّمه الشباب واحتفى به الشعراء . قال الخطيب :

ماذا أقول وقلبي مفعم ألما؟ حقّاً عييت ولم أستوعب الكَلِمَا
الحال مضحكة والحال مبكية حتّى تحيّرت الألباب بينهمَا
بينا نرى دولة أفرادها عرب إذا بها دولة تستأمر العجما
وقد نراها على الأوتار ضاربة لكنّها تفسد الأوتار والنَّغَما
ما أبرم الأمر الا عاد منتقضاً ما لوئم الشّمل إلا عاد منثلما
ومدّعٍ بشذوذ الوضع قلت له : إنّ الشذوذ لمن أعمالكم نجما
فيمَ التّشدّق بالدّستور سفسطةً؟ لا نملك اليوم لا سيفاً ولا قلما
وما نراه من الأوضاع مشغلة عمّا نعالج إن فقراً وان سقما
يا ويلنا من أناس طاش حلمهمُ مستمسكين بأمر لم يزل حلما
وللحليفة أعوان تؤازرهم منّا علينا وقد أضحوا لها خدما
لا يغضبون إذا نيلت كرامتهم عافوا الإباء وعافوا العزّ والشّمما
ضاقت بنا فجوات العيش في وطن أضحت على غيرنا خيراته عَمَمَا

ويشتدّ به الغضب فيصيح :

بين السكوت وبين النطق مرحلة إن يومها حان تفري الهام واللِّمَمَا
اذن سيصبح سفل القوم عاليها ويصبح الربع بالأهوال محتدما
اذن ستصبح وسط الحيّ مقصلة تعلّم الخائنين الحقّ والذّمما
اذن سيعلم من خارت عزائمهم بأنّ للشعب حولاً يصدع العلما
اذن سيرفع هذا الشعب هامته اذن سيصبح هذا الشعب محترما
ان لم تكن أذن في الحيّ مصغية الى القريض فللتأريخ ما نظما

وقال في بعض الوزراء من قصيدة له :

قل للوزير الذي رابتك فعلته في الصدر موجدة والحرّ مكتئب :
لم تسهر الليل سعياً خلف مكرمة لكنّما للّتي من شأنها الذهب
حتى تنال بها ما شئت من ترف والشعب تقتله الويلات والسّغب

والحاج لم تقضها إلا على دخل   بئس الوزير وبئس الخلق والأدب

وقال من مرشّح عنوانه «قاسميني» يخاطب بغداد :

يا أبنة المنصور ام المدن   اسمعي اليوم حديث الوطن :
انّ حال القوم حال الزمن   لا تكوني منهمُ في مأمن
وتعاليْ قاسميني شجني   ويلهم ما هتفوا في وصلك
لتكوني حرّة في فعلك   او يفكوّا زرداً من غلّك
لمقام كان لا من أجلك   فتعاليْ . . .
كم خدعنا بالوعود الكاذبات   فتركنا أقدس المبتغيات
ورضينا بأمور مزريات   بعد بذل الدم في جلّ الغلاة
فتعاليْ . . .   كم شهيد راح في تلك الربوع
هاتفاً : ان متّ فتلحي الربوع   فتوارى معه طيّ الضلوع
أمل ضيّعه من في الربوع   فتعاليْ . . .
يا تراث المجد مجد العرب   خذل الشعب وما عن عجب
إذ غدونا في حمى «المنتدَب»   ايه بغداد ، ألا وأحربي

قاسميني زفرات الشجن

وقال يخاطب عظيماً مجهولاً يستنهض همته لانقاذ وطنه :

حقّق لنا أملاً ، يا صاحب الهمم   إن شئت بالسيف او ان شئت بالقلم
إنّا نحاول ملكاً لا يعارضنا   به الحليف لنجلي داجي الظّلم
إنّا نحاول ملكاً لا يشاركنا   به الغريب لنعلي رتبة العلم
فإن دهتك خطوب دون غايتنا   فالقَ الخطوب بما أوتيت من حكم
اليوم عندك شعب كلّه همم   إن قاده مخلص للموت يقتحمِ
لا يسلم القطر إلا دونه قضب   ومدفع تتّقيه اجمع الأممَ
أعدد لدهرك بالأجناد عدّته   واحمِ البلاد من الأعراب والعجم
أعدد قلوباً إذا نا ديتها ازدحمت   حولَ العظيم عظيم النفس والهمم

وكان الشاعر جزءاً من الشعب فلا عجب إذا آمن بالشعب ووثق به منذ تلك الأيام البعيدة :

لقد علمتَ بما للقوم من أمل   فهل علمتَ بما يخفون من ألم؟
الأرض مجدبة والفقر أعدمنا   فنحن ما بين مبكيّ ومحتشم
فخالط الشعب واسمع ما يئنّ به   وافسح مجالك للمظلوم بالكلم

كانت النهضة والعلم وتأخر الشرق وضيم البلاد العربية وغمط حقوقها من المواضيع العزيزة على شعراء ما بعد الحرب العظمى الأولى . فلا عجب إذا ساير علي الخطيب أبناء جيله فتحسّر وقال :

متى في سماء المجد ، يا بدر ، تشرق ... فيسطع فينا نورك المتألّق
متى تزدهي الأوطان بالعلم والنّهى ... ففي ذين آمال جسام تحقّق
متى نرفع الأعلام ، وهي مصونة ، ... يحيط بها من جلدة الشعب فيلق؟
متى نكتسي برداً من العزّ ضافياً ... تحنّ لمرآه القلوب وتخفق؟

حتى يقول :

أرى نظرات الليل ، وهي نجومه ، ... تطلّ على أرض بها الحقّ يرهق
فلا الحقّ محفوظ ولا العدل سائر ... ولا القول حرّ لا ولا الفكر مطلق
خزنت لساني بين شدقيّ صابراً ... لعلّي أرى يوماً به الحقّ يشرق
سكتُّ ولمّا ضاق صدري تصبّراً ... نطقت بما أوحى الضمير وأنْطُقُ
أقول المقال الصدق ، والصدق ضائع ، ... وإن يكُ فيه ما يغمّ ويقلق
عشقنا كنىً دون المعالي ومنصباً ، ... فهل من فتى في القوم للمجد يعشق؟

ووصف شعبه وبلاده آنذاك ، فذكر لعبة السياسة وغضب الحليفة وخطة المشورة ومنهج الوزارة المتبدّلة حيناً بعد حين ، ثم قال :

فنحن بأرض الرافدين جماعة ... عراقية ما وحدّتها المواطن
فلول من الشبّان تنكر بعضها ... وشمل من الأحزاب فيه مطاعن
ضروب من الأقوام شتّى قلوبهم ... وألسنهم شتىّ فصيح وراطن

انور شاؤل

الحلة الفيحاء على عدوة الفرات الخالد كانت ، ولم تزل ، مهبط الشعر والالهام من عهد الشاعر البابلي الذي نظم ملحمة كلكامش الى صفي الدين وحيدر وجعفر كمال الدين ومحمد مهدي البصير ، فلا عجب ان سكبت خمرة الشعر الالهية في قلب فتى ولد بين رياضها وأرباضها .

ذلك الفتى الذي ولد في الحلة سنة ١٩٠٤ هو الشاعر انور شاؤل الذي ينتمي الى أسرة بغدادية قديمة تحدّرت من الشيخ ساسون صالح داود الذي كان رئيس الطائفة اليهودية ورئيس صيارفة ولاية بغداد على عهد ولاة المماليك في أواخر القرن الثامن عشر . وقد مضى والد أنور الى الحلة حيث عمل في التجارة والمقاولات .

نشأ شاعرنا في الحلة وتلقى مبادئ دروسه فيها ، ثم استقرّ مع أسرته في بغداد سنة ١٩١٦ . وقد ظل وفياً لمسقط رأسه يحنّ الى ربوعه ويرعى له العهد والذمّة . فإذا زار الحلة في عنفوان الشباب أنشد قائلاً (من قصيدته مسرح الصبا) :

يا دياراً حبّها تيّمني ، لك في قلبي غرام أبدي

وإذا ذكرها بعد أعوام عديدة هزّه الشوق اليها فقال (الحلة عروس الفرات) :

تذكرت عهداً في حياتي مخضرّا فيا لك من عهد ويا لك من ذكرى...
تذكرت أياماً هي العمر كلّه إذا الفكر يوماً راح يعتصر العمرا
فقلت : ألا ، يا عُمْر ، هل لك عودة الى الأمس كيما نلتقي مرة أخرى؟
فقال صدى من عالم الغيب هاتف بأعماق روحي : نلتقي مرة أخرى !

توفيت والدته وهو لا يزال طفلاً صغيراً فكان لفقدانه حنان الأمومة أثر في رقة شعوره . وقد خاطبها بأبيات ، كانت من باكورة شعره ، تفيض لوعة وحناناً ، فقال :

أماه ، عيني بك ما متّعت ولم يحز منك فمي قبلة
وعيشتي بعدك ما أينعت والقلب ، يا أم ، شكا علّة
فإن جفوني من جوى أدمعت ليلاً وروحي أطلقت أنّة

فمن تُرَى ، يا أمّ ، لي يسمع؟

في سنة ١٩١٦ ثارت الحلة وعشائرها على الحكم العثماني الجائر ، فجاء اليها القائد عاكف بك في ربيع ١٩١٦ وأنزل برجالها وشعبها ضربة قاصمة . وشهد الفتى انور المجزرة ، إذ أمر القائد التركي بجمع الأهالي في ظاهر المدينة وشدّد عليهم النكير وعاث في البلدة حرقاً وتدميراً ونهباً وقتلاً . وعلى أثر ذلك عاد والد أنور بأسرته الى بغداد واتخذ مقامه فيها .

درس أنور شاؤل في مدرسة الأليانس والمدرسة الثانوية ، ثم انتمى الى مدرسة الحقوق ونال اجازتها سنة ١٩٣١ . وقام خلال عهد دراسته بالتعليم في المدارس الأهلية سنة ١٩٢٤ و١٩٢٥ ، وحرّر جريدة «المصباح» الأسبوعية ونشر شعره بتوقيع «ابن السموأل» . وأصدر مجلة اسبوعية أدبية باسم «الحاصد» في ١٤ شباط ١٩٢٩ . وقد أغلقت المجلة بعد صدور ١٦ عدداً منها ، ثم استأنف اصدارها في ٢٤ تموز ١٩٣٠ ، واستمرت على الظهور بانتظام الى آخر آذار ١٩٣٨ عدا فترة انقطاع أمدها سنتان . وزاول المحاماة في الوقت نفسه وتخرج ضابط احتياط في الدورة العسكرية الثالثة (١٩٣٩) . كان محامياً للخزينة الملكية الخاصة ولشركات متعددة . وفي حرب ايار ١٩٤١ التي أعلنها رشيد عالي الكيلاني على الانكليز دعي انور الى الالتحاق بالجيش ، ونقل للخدمة في فصيل حراسة الملك فيصل الثاني ووالدته في أربيل . وأسّس دار طباعة باسم «شركة التجارة والطباعة المحدودة» وتولى ادارتها (١٩٤٥ ــ ١٩٦٠) .

وقد غادر العراق في ايلول ١٩٧١ وأدركته الوفاة في ١٤ كانون الأول ١٩٨٤ .

مؤلفاته وأدبه

برع أنور شاؤل في الشعر والقصة على السواء ، كما عرف محامياً وصحفياً ممتازاً . وله من المؤلفات : الحصاد الأول (١٩٣٠) ، عليا وعصام (قصة سينمائية أخرجت فلماً في بغداد سنة ١٩٤٨) ، في زحام المدينة (قصص ١٩٥٠) ، همسات الزمن (شعر ١٩٥٦) ، قصة حياتي في وادي الرافدين (١٩٨٠) ، وبزغ فجر جديد (شعر ١٩٨٣) . ومن مترجماته : وليم تلّ (مسرحية ١٩٣٢) ، أربع قصص صحية (١٩٣٥) ، قصص من الغرب (١٩٣٧) ، الطباعة العامة : فنونها وصناعاتها (١٩٦٧) ، الخ . وقد نظم قسماً من ملحمة كلكامش البابلية شعراً ، وأشرف في دار طباعته على نشر كتب متعددة منها كتاب «ليل الصب» (١٩٥٠) وغيره .

ان أنور شاؤل من روّاد القصة الحديثة في العراق . قال جعفر الخليلي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً» :

«ويعتبر انور شاؤل من أوائل ممارسي أدب القصة الحديثة . وعلى أنه كتب أول قصة سنة ١٩٢٧ ، ولكنه كان من المبشرين بأدب القصة ومن الداعين الى قراءتها وتفهمها والمشجعين على كتابتها . وأصدر مجلة الحاصد فملأها أدباً ، ومن طريق الحاصد عرف القراء الشيء الكثير من مزية القصة الحديثة وأهميتها في عالم الأدب» .

وأضاف الخليلي قائلاً : «وتم للحاصد ، او الصحيح تمّ لأنور شاؤل ، ان يخدم أدب القصة بما ترجم وما وضع من قصص استوعبت الشروط الفنية للقصة المقروءة . فإذا كانت كلاسيكيته قد اكتسبها من قصص الأغاني ومقامات الحريري وبديع الزمان وجرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط ، وذلك بحكم البيئة الكلاسيكية ، فقد تأثر لحدّ كبير بقراءته لويلز وديكنز وزولا وموباسان وادكار ألن بو وغوركي وتشيكوف ، كما يقول هو ، فكان للفن طابعه في قصص أنور منذ أول ظهورها . وحين أتيح له ان يتمّ دراسة الحقوق أصاب سهماً آخر من الثقافة» .

وقال احمد حسن الزيات في مجلة «الرسالة» المصرية ان أنور شاؤل ثاني اثنين مهّدا لكتابة القصة الحديثة في العراق (اما الأول فكان محمود أحمد السيد) .

تفيض قصص أنور شاؤل بالروح الانسانية الخيّرة والرثاء لأبناء الشعب من الكادحين والبائسين . ففي قصة «الحمّال الصغير» يأسى لصبيّ يبكّر للخروج الى السوق صباحاً ليحمل مشتريات الناس ويحصل على دريهمات محدودة . و«الدكتور يسري» طبيب الأطفال يحدب على المرضى الصغار ويجاهد لاعادتهم الى الصحة . لكنه يتخلف في مساء أحد أيام الشتاء عن الذهاب لمعالجة طفل مريض فظلّ بقية أيامه نادماً يقرّع نفسه إذ انطبعت في ذهنه صورة طفل مات لتأخره عن معالجته . وتغلب هذه النزعة الانسانية الفوارة على معظم قصصه الأخرى .

شعره

قال أنور شاؤل : «ليس الشعر أحاجي ورموزاً ، انه لغة الأرواح التي لا تحتاج الى ترجمان» .

يضمّ ديوان «همسات الزمن» القسم الأوفر من شعر انور خلال ثلاثين سنة . وقد سار شاعرنا في موكب الحياة الاجتماعية خلال تلك الحقبة ، فانعكست صورها على مرآة قريضه : فهو يشارك في تكريم عبد العزيز الثعالبي وزكي مبارك ورثاء سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وجميل صدقي الزهاوي وابراهيم هنانو . وهو يدافع عن الحرية والكرامة الانسانية منذ عهد الحرب الحبشية . وقصيدته «مصرع السعدون» التي ألقاها في

الحفل التأبيني المقام في الحضرة القادرية تمثل بوجه خاص نهجاً جديداً في شعر الرثاء . فهي من الشعر الدرامي الذي يصوّر الفاجعة ويجسّمها حتى كأنك ترى الرئيس اليائس وقد ساورته الأفكار السود وعصفت به الهواجس ، فيخط وصيته التأريخية ويودّع الحياة في سبيل وطنه وعزّته . ان مثل هذا الشعر يهزّ النفوس ويملك زمام العواطف لأنه يختلف عن الرثاء التقليدي الجامد الذي يتفجّع بغير عاطفة مشبوبة ويرفع الفقيد الى أسمى منازل الرفعة إن حقاً وإن باطلاً .

وتنشب الحرب العالمية الثانية ، ويعود الشاعر يخلع بزّته العسكرية الوقتية ، فيكافح بشعره في سبيل الحرية والدمقراطية وكرامة الشعوب . يلتفت الى النظام الجديد الذي بشر به النازيون فيقول :

نظام أقاموه على النار والدم	وفيه استباحوا كلّ فعل محرّم
فأسلوبه عنف وعسف ورهبة	وغايته خلق العداء المهدِّم
لقد سنّه طاغ غشوم مسيطر	وأسلمه في كفّ باغ ومجرم
سداه نفاق وافتئات وقسوة	ولحمته نشر الوبال المحتم
أقام مقام الحب فيه ضغائناً	تحركها أرياح جوّ مسمّم
وحل محل الحق زور وباطل	وديسَ على العدل الحبيب بمنسم

حيّا مالطا جزيرة الأحرار وهلّل لانتصار الحلفاء وذكر احتراق برلين عاصمة المظالم . وكانت جريدة «العراق» لصاحبها رزوق غنام وجريدة «الزمان» لصاحبها توفيق السمعاني منبراً لقصائده وقصائد ومقالات نفر من الأدباء الاحرار في مقدمتهم الشيخ مهدي مقلّد وجميل أحمد الكاظمي وكمال عثمان وغيرهم ، وقد انضمّ اليهم محمد مهدي الجواهري بعد الهجوم على الاتحاد السوفييتي وصمود لنينغراد وستاليغراد واندحار النازية والفاشية .

يمتاز شعر أنور شاؤل بحسّ مرهف ، وتغلب على شعره وأدبه عامة مسحة انسانية رفيعة : فهو يأسى لبائعة الشوك التي يلذعها الزمهرير وينوء ظهرها بحملها الثقيل ويدمي راحتيها الشوك تحمله لتدفئة المسعدين . وهو يحزن لمأساة الفلاح المنكوب الذي يذهب الفيضان بكده ومسكنه وقليل متاعه ويكاد يودي بأسرته ، حتى إذا ما نهض في الغداة جائعاً عارياً ، صفر اليدين حتى من الأمل ، سار يتبعه أطفاله ليطرق الأبواب المغلقة دونه وليسمع ردّاً على شكاته عبارات الصدّ والانتهار :

أيها الساكن في القصر الحصين	هتف الفلاح : هل من موئل؟
ليس بيتي ملجأ للشاردين ،	صرخ الساكن في القصر العلي

ودمعة الفقير ، والشقاء الصامت ، والكوخ المحترق التي ترجمها عن الشاعر الفرنسي ألفرد دي موسّيه ، أمثلة من الشعر الانساني الذي يزخر به ديوان همسات الزمان .

وفي همسات الزمن بعد ذلك شعر رائق يطرب ويعجب : فالباحثة عن الذهب فتاة عرفها الشاعر «كقطر الندى صفاءاً وطهراً كزهر الربى» تردّ الخاطبين واحداً بعد واحد حتى تحظى بالغني الذي يهبها كل شيء إلا الحبّ . وقصيدة «بجوار الموقد» ترينا الشاعر يحرك رماد الذكريات القديمة كما يحرك جمرات النار المتبقية في الموقد :

لم يبقَ لي إلا القريض وموقدي ... وهما تعلّة قلبيَ المتوجّد
يا شعلة الحب المهيض ، توهجي ... فلعلّ حيران الرؤى بك يهتدي
النار في صدري وصدرك جمرها ... مهما يطل جنح الدجى تتوقد
خبت المشاعر في الضلوع وأورثت ... للذكريات مجامراً لم تخمد

ان هذا المطلع يذكرنا بولي الدين يكن ، ويذكرنا بقصيدته «الشاعر والليل والطيف» : فكلا الشاعرين قد خلا الى نفسه في الليل البهيم تهتاجه الذكرى ويعصف به الحنين . اما ولي الدين فيتهلف ويتوجف ويتعطف :

الله في وجد وفي مأمل ... من لي بعود الزمن الأول؟
قد كنت أشكو عذّلي في الهوى ... وها أنا أثني على عذّلي
إنّ الصبا والحسن لم يبلغا ... بعد بيوت الشعر من موئل
أهفو لسهدي ليت لي مثله ... وليتني في ليليَ الأليل
إذ أترك الأنجم في أفقها ... شوقاً الى نبراسيَ المُشْعَلِ

أما أنور فيتذكر أيام الهوى والشباب ويقنع من الغنيمة بالإياب .

سار شاعرنا في ركاب القريض فوصف وأبدع وتباطأ وأسرع وغنّى ورجّع . ثم جاءت حرب ١٩٦٧ بمحنة شديدة لأنور شاؤل وسائر المواطنين اليهود المخلصين لوطنهم الذين آثروا البقاء ورفضوا النزوح عن وادي الرافدين ، فماذا لقوا جزاء خلاصهم؟ لقد ذاقوا السجن والتعذيب والخطف والقتل دونما جريمة اقترفوها ، وحرموا من العمل والتنقل والسفر ومن الحقوق المدنية والانسانية . لكن انور لم يجزع ولم يفقد أمله في وطنه وشعبه العراقي . ودعي الى مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في بغداد في نيسان ١٩٦٩ فقدم الى المؤتمر قصيدته الأبية المدوّية ، قال :

قلبي بحبّ بني العروبة يخفق ... وفمي بضادهمُ يشيد وينطق
أو لست منهم منبتاً وأرومة ... قد ضمّنا الماضي البعيد الأوثق

إذ خطّ في سفر الوفاء سموأل ... أمثولة عربية والأبلق
واليوم نحو المجد نقطع دربنا ... والى الغد الهاني معاً نتشوّق
فعلى الفرات طفولتي قد أزهرت ... وبدجلة نهل الشباب الريّق
حيّيت يا وطن العروبة من حمى ... الحسن في أرجائه يترقرق
كم قد هفا قلبي لمطلع شمسه ... ولكم هداني نجمه المتألّق
فنظمت من وجدي به وتعلّقي ... شعراً على جيد الزمان يعلّق

حتى يقول :

حبّي لموطني العزيز ولألى ... بسطوا محبّتهم عليّ وأغدقوا
من مسلم جمع المكارم خلقه ... فإذا به ذاك الصباح المشرق
او عيسوي قد حباني لطفه ... فإذا به ذاك الودود الأرفق
ربطت مصائرنا الحياة بموطن ... هو ماؤنا وهواؤنا والرونق
موسى وعيسى والنبيّ محمد ... رسل الهدى خلت العصور وقد بقوا!

ثم مرض إذ أصيب بنوبة قلبية فخاطب الموت وهو طريح الفراش :

أنا لا أخشاك ، يا موت ، إذ جنّ جنونك ... وبرغم الظلم في فعلك إنّي لا أدينك
أنا لا أخشاك فانقر وتلصّص عند بابي ... فيقين الروح اني لم يحن بعد مآبي

وراجع سيرة حياته فوجد أحلامه قد ذوت في ظلمة ليل رهيب . قال :

قطعت دروب العمر أهبط تارة ... وطوراً الى الأعلى أغذّ وأصعد
وقلت : سألقى الحقّ يوماً وإن نأى ... فأطرد أحزاني بعيداً وأسعد
ومرّ من العمر المقدّر جلّه ... وكادت يد الأيام بالعزم تقعد
وإذ بنداء الحق يطرق مسمعي : ... لعمرك أنت اليوم عنّي أبعد!

وقال :

خذوا ما أشغل الفكرا ... وما أمّلته دهرا
خذوا صفوة أحلامي ... ومطمع نفسيَ البكرا
خذوا اللؤلؤ منثوراً ... يحاكي الأنجم الزُّهْرا
خذوا الابريز وهّاجاً ... بنور الشمس قد أزرى
خذوا من نحليَ الشهد ... ومن أكؤسي الخمرا
خذوا أثمار بستاني ... خذوا الأزهار والبذرا
خذوا ما ملكت كفي ... وخلّوني أعِشْ حرّاً!

ورفع صوته أخيراً فقال :

إن كنت من موسى قبست عقيدتي	فأنا المقيم بظلّ دين محمد
وسماحة الاسلام كانت موئلي	وبلاغة القرآن كانت موردي
ما نال من حبّي لأمة أحمد	كوني على دين الكليم تعبّدي
سأظلّ ذياك السموأل في الوفا	أسعدت في بغداد أم لم أسعد !

لكن كل ذلك لم يفد ازاء ظلم السلطات وطغيانها . فاضطر على الرحيل ، وقد بلغ أبواب الشيخوخة ، بعد ان أفنى حياته في سبيل عراقه وتغنّى بمجد العروبة ومحامد الاسلام . ترك داره وما ملكت يداه بكدّ اليمين وعرق الجبين ومضى الى النمسة ، ثم غادرها ليقيم في اسرائيل ويلقى حمامه فيها .

ولنتساءل : الى أية مدرسة أدبية ينتمي شاعرنا؟ لقد سأل هو نفسه هذا السؤال وأجاب عليه في مقدّمة ديوانه بأنه لا يؤمن ان للشعر مدارس . أما نحن فنقول : ان أنور شاؤل ينتمي الى «المدرسة الانتقالية» على ما نستحسن تسميتها ، وهي المدرسة التي ازدهرت بين الحربين العالميتين وتردّدت بين التقليد و التجديد . كان الشعر العراقي يرسل أنواره الضئيلة في ظلام عصر الانحطاط حين لاحت تباشير النهضة الحديثة في فجر القرن العشرين ، فنشأت عند ذلك المدرسة التقليدية التي تزعمها الزهاوي والرصافي والشبيبي والشرقي وأقرانهم ممن جددوا مواضيع القريض ومراميه مع احتفاظهم بالصيغ والأساليب الكلاسيكية . وكان آخر ممثل لهذه الطبقة في ربوع الرافدين محمد مهدي الجواهري .

وفي فترة ما بين الحربين نشأت «المدرسة الانتقالية» التي ينضوي اليها أنور شاؤل ولداته من الشباب الذي اطلع على الآذاب الغربية اطلاعاً مباشراً وتأثر بأدب المهجر الأميركي الى جانب تأثره بشعر مصر ولبنان والزهاوي الرصافي . ولعلّ شعر صاحب «همسات الزمن» يمثل أدب هذه المدرسة أصدق تمثيل : فهو يترجم قصائد لشعراء فرنسيين وانكليز ، وهو يترسم بين آونة وأخرى خطى ايليا ابي ماضي وميخائيل نعيمة وصحبهما ، ثم هو يتشبثّ الى جانب ذلك بأذيال شوقي وحافظ ومطران والأخطل الصغير وشعراء المدرسة التقليدية العراقية الذين ادركهم وتتلمذ عليهم ولازم ندواتهم .

وقد روى في مذكراته انه في مطلع شبابه أدّى امتحاناً أمام معروف الرصافي مفتش اللغة العربية في وزارة المعارف فأجازه ليكون معلماً . وتعرّف الى الشيخ عبد الوهاب النائب وكان يزوره في ديوانه بجامع الفضل ويعرض عليه بواكير نظمه ، وقد هنّأه

بقصيدة في عيد الفطر سنة ١٩٢٥ وبأخرى في السنة التالية . ثم لازم الزهاوي ١٤ عاماً ورثاه عند وفاته .

وأخيراً ما سمات شعر المدرسة الانتقالية؟ ـ انها تجمع من ناحية الأسلوب الشعر العمودي ذا القافية الواحدة وأوزان الموشحات الخفيفة المتعددة القوافي . اما من ناحية الموضوع فهي توغل في الابتكار مع احتفاظها بالمواضيع القديمة من مدح وغزل ورثاء ، ولكن في اطار من التجديد والتنويع . وأما من ناحية اللغة والمعاني فهي لا تعنى بالجزالة والتراكيب الفصيحة قدر عنايتها بمجاراة روح العصر ومباراة المعاني والصور الأدبية الغربية الحديثة .

ان المدرسة الانتقالية قد مهّدت للمدرسة المتجددة التي نشأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ـ تلك المدرسة التي استهانت بالأساليب والمواضيع القديمة ، ونبذت الشعر العمودي جانباً ، وتهاونت في أمر اللغة ، وارتمت في أحضان الرمزية والوجودية وأشباههما ، ولجأت الى فنون من الشعر الحرّ والتفاعيل المتكررة تحاول ـ وكثيراً ما أخطأها التوفيق ـ ان تخلق صوراً جديدة وأحاسيس ونوازع فريدة لأبناء الجيل الطالع .

نماذج من شعر أنور شاؤل

الى بائعة شوك

البرد يلذع وجنتيك وساعديك العاريين
والحقل أقفر لا رفيَق يزيل عنك الغمّتين
إلا الطيور مرفرفات حوّماً في الجانبين
لو تستطيع بمنقر دفعت أذاك ومخلبين
وحمت حماك بمقلتين
الزمهرير هو الأليف يهبّ لا ريح الصَّبَا
وخزاته فوق السهول وبين هامات الربى
تنساب في بُرْد الضحى أفعىً وتلسع عقربا
رفقاً بحسنك ، يا صبيّة ، واحذري ان ينضبا
رفقاً ، مخضّبة اليدين
إن كان ظهرك خاضعاً لعناء ما حمّلته
او كان عنقك طائعاً رهناً بما كبّلته
فالقلب أنّى يستريح لما به علّلته
والفكر عن آماله ورؤاه أنّى يلتهي
يا من تطيل النظرتين !
الشوك يدمي راحتيك فلا يرقّ ولا يلين
وغداً يزفّ النار تحمي في الليالي الآخرين
هم يدفؤون وأنت من قرّ الشتا تتضوّرين
تشقين أنت لكي تَزيدي في رفاه المسعدين
فتقرّ من بلواك عين
قَطْر الندى هذا على الأشواك أم دمع المُقلْ
نار الأسى هذي التي تخفين أم نور الأمل
إني أراك الى المدينة تقصدين على عجل
فحذار تخدعك البهارج في مقال او عمل
او تؤمنين بما تَرَيْنْ .

بجوار الموقد

لـم يبقَ لي إلا القــريض ومــوقــدي ... وهمــا تعلّة قلبيَ المــتـــوجّـــد
يا شـعـلة الحب المـهــيض توهجي ... فلعّل حــيــران الرؤى بك يهـتـــدي
النار في صــدري وصــدرك جـمــرها ... مــهــمــا يَطُلْ جنح الدجى تتــوقــد
خبت المـشــاعــر في الضلوع وأورثت ... للذكــريات مــجــامــراً لم تخــمــد
سـقــيــاً لعــهــد كم نعــمتُ بظله ... ألحبّ ديني والصـــبــابة مــعـــبـدي
أغـــفـــو على همس الشــفـــاه نديّة ... أصــحــو على هزج الكنار المنشــد
الصـفــو ينشُـدُ في كـؤوسي نبـعــه ... والســـعـــد والآمـــال ترقص في يدي
أيامَ كنت وكنتُ أنعم من صـــبـــا ... لا أنت صــــادية ولا أنـا بـالصـــدي
عـــهـــدَ تصــرّم مــثل حلم عــابر ... مــا زلَت أرقـــبـــه بطرف مـــســهـــد

الطيّار الشهيد

- الى أرواح شهدائنا الطيارين

اجــعلوا مــثـــواه هذي الأنجــمـــا ... وامنحـــوه نورها المنســـجـــمـــا
فـعُـقــاب الجــوّ مـــا إن ينتـــحي ... ان رمـــاه الســـهـم إلا القـــمـــمـــا
وإذا مــــا هوت الشــــهـب فـــلا ... تبــتـــغي غــيـــر مــفـــازات الســمـــا
طائر يعـــشق أجـــواز الفـــضــــا ... كــيـف يســتــقـبل قـبـــراً مظلمــا؟
يا مــخــيف النســر في عليــائه، ... كــيـف ودّعت ولم تفــتـح فــمــا؟
لو تعــيـــد العـــين في تسكابهـــا ... مَنْ أضـــــعـنا لبكـيناه دمـــــا
فـــاتركـــوا الدمع فلن يجــديكم ... وأنيــبـوا المــدفع المــحــتــدمـا
أطلقـــوا نيـــرانه مـــؤذنةً ... بمـــصـــاب هدّ ركناً في الحــمى

وطن الأحرار

تحية ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

وطنَ الأحــرار والمــجــد ســلامـــا ... نجــمـك اليــوم على الدنيــا تســامى
كلّ شـــهـــر ثـورة خــــالدة ... تمــــلأ الكون ازدهـاءً وابتــســـامـــا
كل شـــهـــر ثـورة مـــرعـــدة ... نـارها تـنـزل برداً وســــلامـــــا
ثورة يلهـــبــهـــا مـــقـــتــدر ... عـبـقــريّ الفكر نهجـاً واقتــحـامـا
غـــمـــر الأجـــواء منه ثاقب ... مـــــزّقت أنواره عنّا الظلامـــــا
فـــإذا بالأفق الزاهي وقـــد ... شعّ حـــبّـــاً واخـــاءً ووئامـــــا

وطن الأحرار ، إنّا معشر … وحّدوا روحاً وفكراً وانتظاما
جمعتنا غاية واحدة … هي ان نسعد أحراراً كراما
ديننا حبّ مغاني تربة … كرمت أرضاً ونهراً وغماما
وطني عشت وعاشت وحدةً … هي كالشمس انتشاراً واضطراما...

في سفوح سرسنك

هنا العمر كالرؤيا الجميلة مسرع … يفيض بألحان ويزهو بألوان
هنا تعبق الأزهار نشوى نديّة … نقية ثوب بالمفاتن مزدان
وتصطفق الأرياح رخواً وعاصفاً … فحيناً كارعاد وحيناً كتحنان
ضجيج تناهى وقعه مثل همسة … وهمس نسيم كالعواصف يغشاني
يحرر في أعماق روحي دفائناً … حرصت عليها ان تنوء بكتماني

غانية تبتسم

لمن هذه البسمة الطاغيه … تلألأ كالنجمة الزاهيه؟
أللمدنفين ام العابثين … ام الجالسين على الرابيه؟
أللخمر سحريةَ المحتسى … أم الكأس مترعةً خاويه؟
ام اللحن جُنَّ بأوتاره … فكان كضحاكة باكيه؟
لمن هذه البسمة الدانيه؟ … لمن هذه البسمةً النائيه؟
ألا انها بسمة للجميع … هي البرق في الليلة الداجيه
ألا انها بسمة لم تكن … لنا فهي تلويحة لاهيه

المقامرة الحسناء

جلست تلاعبه القمار جميلةٌ … ألفتنة الخرساء في قسماتها
إن أومأت هفت القلوب ، وإن رنت … ألقت شباك السحر من نظراتها
خسرت فزان الوجنتين تورّد … وتبسمت والهزء في بسماتها
ومضت . وراح لشأنه لكنه … أمضى الهزيع وذاته في ذاتها
يا رابحاً خسرت تجارة قلبه … ما كنتَ إلا الطيف في ملهاتها

مراد ميخائيل

الشاعر الدكتور مراد ميخائيل ولد في بغداد سنة ١٩٠٦ ودرس في مدرسة التعاون الأهلية ومدرسة الأليانس . عيّن لأول مرة موظفاً في محطة السكة الحديدية في الشرقاط (١٩٢٣) . وعاد في السنة التالية الى بغداد وأصبح معلماً ، فمديراً لمدرسة الأليانس في العمارة فمعلماً في المدرسة الوطنية في بغداد . ونقل مدرساً للعربية في مدرسة شماش الثانوية (١٩٢٨ ــ ١٩٤٠) .

درس في الوقت نفسه في كلية الحقوق ونال اجازتها سنة ١٩٣٨ . وعين سنة ١٩٤١ مديراً لمدرسة شماش فنهض بادارتها ست سنوات . ودعي الى طهران سنة ١٩٤٧ لادارة المدرسة التي انشأها العراقيون في العاصمة الايرانية . وقد سافر الى باريس سنة ١٩٤٩ وانتقل منها الى اسرائيل حيث عمل محرراً في جريدة «اليوم» الصادرة في حيفا وساهم في اذاعة برامج أدبية في الاذاعة . وحصل على درجة الماجستير في موضوع اللغة العربية وآدابها والحضارة الاسلامية ، ثم نال الدكتوراه سنة ١٩٦٥ . وكان مدرساً في دار المعلمين العربية في يافا فمفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف فمحاضراً للأدب العربي في الجامعة .

مال الى الأدب منذ الصبا وأخذ ينشر مقالاته وشعره المنظوم والمنثور وقصصه في الصحف والمجلات . وكان يوقع كتاباته في مبدأ الأمر «نزيل الشرقاط» . وقد قرّظ أدبه شاعر العراق معروف الرصافي في مجلة «الحرية» لصاحبها رفائيل بطّي سنة ١٩٢٦ .

مراد ميخائيل شاعر وجداني يغلب على شعره طابع الحزن والأسى ، لكنه يملك روح فكاهة عميقة وسخرية لطيفة يبدأها بنفسه . وقد تأثر بجبران خليل جبران وشعراء المهجر فكتب على طريقتهم شعراً منثوراً جميلاً . نشر في بغداد مجموعتين : المروج والصحارى (١٩٣١) ، ودموع الأسى (١٩٣٣) . ووضع أيضاً : نصوص مختارة (في جزءين ، ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧) ، تأريخ الأدب العربي (٣ أجزاء ١٩٦٥ ــ ١٩٦٩) ، النصوص الأدبية (١٩٦٤) ، كتاب الحضارة الاسلامية (١٩٦٧) الخ .

توفي في ١٣ شباط ١٩٨٦ . وقد طبعت زوجته بعد وفاته ديوان شعره بعنوان «الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور مراد ميخائيل» بتحقيق واشراف عبد الرحيم الشيخ يوسف .

مراد ميخائيل وأدبه

الشاعر الرقيق الملهم مراد ميخائيل نبع الشعر من ذات نفسه وتفتح ذهنه للأدب وهو لا يزال صبياً يافعاً .

كان العراق في نهاية الحرب العظمى الأولى في فوران اجتماعي وأدبي وسياسي . تنسّم أنسام الحرية لأول مرة بعد الاحتلال البريطاني ، وزاد اتصاله بالحضارة الغربية في مادتها وفكرها . نما الاحساس الوطني في قلوب الشباب ، خاصة بعد اعلان استقلال البلاد ودعوة الأمير فيصل الى تسلّم عرشها وتأليف حكومة عربية جديدة على أنقاض الحكم التركي الذي دام قروناً طويلة . وكان طبيعياً ان يمسّ كل ذلك وتراً حساساً في نفس الفتى الذي لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فتكون أولى نتاج قريحته منظومته «يا وطني» التي يقول فيها :

يا وطني ، يا وطني
حبّك قد تيّمني
حبك أقصى مأربي
فأنت أمي وأبي
بل مطلبي ، بل مكسبي
ومقصدي في الزمن

* * *

يا وطني أنت الرجا
أنت النهى أنت الحجى
وأنت نعم الملتجا
وعمدتي في المحن

* * *

أنا فيك صبّ مولع
مذ كنت طفلاً أرضع
وعليك قلبي موجع
ويلاه ، قد آلمني

* * *

روحي فداؤك يا وطن
فاسلم ولا تخشى الفتن
اليومَ ربعك لي سكن
وغداً ثراك يضمّني

* * *

ثق سوف تبقى في هَنَا
وتنال غايات المنى
وتسود في هذي الدُّنَى
وتفوق كل المدن
يا وطني ، يا وطني

نشرت هذه المنظومة الجميلة في جريدة «دجلة» لصاحبها داود السعدي في ١١ نيسان ١٩٢٢ . وطالع مراد أدب النهضة الجديدة بنهم ، لا سيما شعر المهجر الذي رفع لواءه جبران ونعيمة والريحاني وابو ماضي وأندادهم ، فاستلهم من قريضهم المنظوم والمنثور نفحات الحنين وحب الحرية والكآبة الملازمة للنفوس الرقيقة المرهفة الحسّ والتطلع الى الآفاق الخفية الرحيبة حيث السعادة الروحية والصفاء .

اجتذب فؤاده الحنين فقال :

يحنّ فؤادي كلما أومض البرق	ويشتاقكم قلبي إذا غنّت الورقُ
وكم ناحت الورقاء في دولة الدجى	كأني وأذيال الظلام لها طوق
يجاوبها شعري ، وشعري محجّل	بقافية الأحزان إذ صابه عشق

وقد تأثّر مراد ميخائيل أيضاً بالشعراء العرب الأقدمين وفي مقدمتهم المعري والمتنبي ، وتأثر بشعراء فرنسة وانكلترة أمثال كورناي وراسين وموليير وهوغو ولامارتين وكيتس وشيلي وبراوننغ وغيرهم وبطاغور شاعر الهند . ونشر شعره المنثور في مجلة «المصباح» سنة ١٩٢٤ فلقي تقديراً من معروف الرصافي الذي كتب الى صاحب المجلة رسالة قال فيها : «قرأت العدد ٢٢ من جريدتكم فقرة من رسالة أرسلها اليكم الأديب الفاضل مراد ميخائيل يجوز ان تعدّ بما فيها من المعاني الشعرية العليا من أرقى الشعر المنثور . ولقد حوت من دقة التعبير ودقة التصوير وبداعة الخيال ما يمتلك السمع ويستفزّ النفس ويختلب القلب ويدلّ على شعور راقٍ يلوح لي من خلاله ابتسام أمل كبير

بمستقبل صاحبه الشعري . ومن ذا الذي لا يتمنّى لمثل هذا الشعر الحيّ الراقي ان يبتلج صبحه الوضّاح في آفاق العراق . أما الفقرة المذكورة فهي :

«أنا ليل بكآبتي الخرساء ، لا منتهى لسماء خيالاتي ،

ولا ساحل لبحر تأمّلاتي .

في سكوني أذيع مجد الملمّات ، وفي وجدي أعبد الصباح وأقدّس الفجر .

أغرس في أعماقي زهرات مجنّحة من النور تسكب عواطفها شعاعاً ، وأبتدع صوراً سحرية أعبّر بها عن منازع نفسي .

الحقد يكدّر صفوي ، الضوضاء ترنّق كأسي ،

الوحشة ترفع عنّي ستار الغيب .

أنا زهرة لا تذبلها سموم الخريف ،

أنا غصن لا تقصمه عواصف الشتاء ،

أنا حلم لا تخفيه اليقظة ،

أنا ضعيف لا يفترسني الأقوياء

لأني قويّ بضعفي»...

ذلك ما قاله الرصافي . وقد عرفت مراد ميخائيل حاضر النكتة ، هازئاً بالمجتمع بادئاً بنفسه . لكنه كان يحمل في قرارة ذاته حساً خفيّاً بالحزن تظهر اماراته في شعره ، فيقول :

وليل به الأقـــمـــار تزهو وتسطع ... وبرق من الآمـــال يـخـــبـــو ويلمع

ومـا مـضـمـضت عـيني بلوم لحـرقـة ... بقلبي ونار الشـــوق في القـلـب تلذع

شـربت كـؤوس الصــاب رغـم ارادتي ... وجُـرّعْت مـا فـيـهـا فـحـزن وأدمع

فـلا خـيـر في هذي الحـيـاة فـإنهـا ... مــصـــابَ وأهوال ومـــوت مــفــجّع

وبالرغم من ذلك نراه يتشبّث بأذيال الأمل والتفاؤل فيقول :

لقــد نادتنا الحــيــاة ، فــهـيّــا بنا ، ... ان في سلّتـــــهـــــا ورود الأمـل

ويقول :

مـــوكب الأيام يمـــشي قُـــدُمـــاً ... ليس يثنيــه عـــســـيـــر او بعـــيـــد

هـوذا الفـــجـــر أنار الظلمـــا ... ونفى عنّا خـــمـــولاً وجـــمـــود

نحن للآتي نثير الهمما ولنا الماضي طريفاً وتليد

للمساواة رفعنا العلما وجعلنا الحق عنوان الوجود

هزّت الشاعر مشاهد البؤس فرثى للبائسين . ونراه في قصة «البائس» التي نشرها سنة ١٩٢٨ يتحدث عن فقير مدقع يطرق الأبواب طلباً للصدقة يقيم بها أود عائلته ، وقد لفّ الليل بظلامه المدينة وخلت الطرق من السابلة . أعياه السير فجلس تحت نافذة دار تموج خزائن أصحابها بالذهب ، وهو أسير اليأس والخيبة . وسمع صدى الأفراح ورنين الأقداح ، فخاطب شبح ولده يعتذر إذ لم يستطع ان يجيئه بلقمة خبز يسدّ بها رمقه . وفي تلك الساعة خرجت خادمة من الدار ورمت بقايا طعام العشاء في زاوية من الطريق ، فنهض وحمل الطعام المتروك للكلاب وجرى نحو كوخه .

تلك صورة حزينة رسمها قلم الأديب الشاب . وقد قال في قصيدة له على لسان بائس :

يحمّلني دهري بما لا أطيقه وتقعدني الأحداث والقلب مألم

ولم يبقَ من كأس الحياة صبابة لأشربها والكأس صاب وعلقم

تجرّعته والموت لاح صباحه على الرغم مني والردى يتقدّم

رسم الشاعر في هذه القصيدة صورة مريعة للبؤس ، فالفؤاد يضطرم بالنار ، والدموع تنسكب دماً ، والآمال تخيب فتغور أنجمها ، والصبر ينفد . يشكو معاداة الزمان الذي سدّد نحو البائس المسكين سيوف الخطوب ، فلم يبق له إلا ان يناشد الطير ان يغرّد فوق قبره !

ولم يخلُ شعر مراد من الحبّ والغزل ، فهو يقول :

ليس تحلو الحياة من دون حبّ استمدّ الخفوق منه لقلبي

وهو يرى الحب نجماً بين الغيوم وزهرة في القتاد وبسمة بين القطوب وجمرة بين الرماد ، يرنو اليه البدر من عليائه وتلثم الشمس خدّه الوردي وهو يقول :

لو كنت نجماً أبديّ الضياء وفي سما محبّتي تسبحين

لكنت رمزاً للهوى والبقاء وكنتُ رمزاً لمحبّ أمين

ورأى أشواقه كالخمرة التي لا كأس لها تنتعش الأرواح في رشفها ، او كزهرة في القفر الموحش لا تقطفها الأنمل ، او شمعة مضيئة في حجرة خالية ، او نغمة علوية لا يعبّر عنها ناي الشاعر . ولا شك ان ذلك خيال يرفرف في الآفاق البعيدة فيخلق التشبيهات والاستعارات الرائعة . وهو خيال تصبو اليه النفس ويتطلع له القلب ، ولكن

قلما يحظى به الشاعر اللاهف .

قرن الحب بالجمال فقال في قصيدته «نحن عشاق الجمال» :

هذه الأزهار لا تنشقها ... فخدود الغيد لا تدري الذبول
هذه الأنجم لا ترمقها ... فنجوم الحسن لا تدري الأفول
هذه الأطيار لا تسمعها ... فحديث الحبّ أنغام السماء
هذه الصهباء لا تشربها ... فخمور الوجد تنيسنا الشقاء

ومن الحبّ الى الحبّ الصوفي خطوة قصيرة خطاها شاعرنا فقال :

يا إله الهوى ، جلالك سفْر ... رصّعته كواكب الجوزاء
ومصلاّك في الطبيعة سحر ... قدّسته عواطف الشعراء
أنت فجر تصبو له الأزهار
نحن زهر تشدو لنا الأطيار
أنت بحر تشتاقه الأنهار
نحن نهر له البحار قرار

رفع عينيه الى العلاء فنسي بؤسه وأوصابه إذ تجلّت له آفاق الكون السرمدية ، فقال :

فرأيت النجوم تبدو وتخفى ... ورأيت السماء مثل كتاب
فقرأت السطور والأفق صاحٍ ... فعلمت الأكوان رهن انقلاب
سار نحوي الزمان وهو رقيقٌ ... كالنسيم العليل بين الروابي
فروى لي عجائب الكون طراً ... بقصارى الكلام والاسهاب
ورأيت الحياة نور وميض ... يتراءى ويختفي في التراب
او سماءً قد وُشِّحَتْ بسحاب ... وعليها السحاب مثل النقاب
بدّدته أيدي المنون بريحٍ ... ساخط هبّ من وراء الشعاب

قضى مراد ميخائيل ، وهو في ميعة الشباب ، سنة او سنتين موظفاً في محطة قطار الشرقاط . والشرقاط قرية صغيرة تكاد تخلو مما عدا سكة الحديد التي تمرّ بها الى الموصل وبعض الدور والأكواخ الحقيرة . عاش ثمّ في عزلة منصرفاً الى عمله لا أنيس له سوى المطالعة والكتابة والسير على قدميه في الأرض الخالية ، مستسلماً الى التأمل والتفكير . وقد قال في وادي الشرقاط :

«الى هنا جرفني التيّار .

هنا وضعتني السكينة لأقاسي صنوف الآلام

هنا خمدت نار قلبي المشتعلة على موقد الحب .

هنا غارت كواكبي ثم قُدَّتْ بدوراً ساطعة...

في هذا الوادي ترقص أشباح الظلام ،

وفي هذا الوادي تمرّ خيالات السنين ومواكب العصور ،

هنا المقبرة القائمة بين الفناء والخلود .» .

وتقمّص في وادي العزلة ثوب الدرويش ، فقال : «بين ظلال الحياة ووحشة السنين ، بين الذين يرتوون بالسراب ويستحمون بالشعاع ، بين الذين يخرّون ساجدين للعناصر القوية ويميلون كالأغصان مع الرياح الساخطة ، بين الذين ينوحون ويئنون ويتباكون . وقف بين مقابر الأحياء وعلى هامته أكاليل من النور ، وفوق جبينه آيات الكآبة المجسّمة في صحاري فؤاده ، وقف ذارفاً أدمعه على الأموات ، هارقاً روحه على الأحياء . وقف على رابية من الأموات وقال :

أنا شبح هائل منتصب بين الليل والصباح ،

أنا حلم مرعب بين اليقظة والمنام» .

إن درويش مراد ميخائيل أقرب الى «نبيّ» جبران و«تائهه» منه الى درويش الشاعر المهجري رشيد أيوب الذي يقول :

«تحت الشجرة رقد المسافر فلا توقظوه ، فقد أنهك قواه السفر .

ما أرقّ هذا النسيم المارّ على وجهه الذي لوّحته الشمس .

آه ما ألذّ الراحة بعد التعب والنوم بعد اليقظة .

آه ما أحلى البكاء مقروناً بآمال تومض ايماضاً .

آه ما أجمل التذكار لمن تقاذفت به فلوات .

انظروا الى قلبه الخافق كأنّ حلماً يروعه» .

ان درويش مراد ميخائيل كئيب واقف بين الأموات ، اما درويش رشيد أيوب فقد بلغ ميناء النجاة ورقد مرتاحاً من أوصابه ، ثم نهض متطلعاً الى جمال الكون ، مخاطباً آلاء الحياة ، تلك التي تتمثّل في ابتسامة الطفل واخلاص الصديق وأنفاس الحرية ، وتلك التي تتلخص في الحب والتضحية والأمومة . ان درويش مراد ميخائيل بائس حزين عاش

في الصحراء بين المقابر والطلول ، أمّا درويش رشيد أيوب فقد نفض عن نفسه وعثاء السفر وجاء الى الروضة يستمتع بالنسيم البليل ويعلن حبّه للحياة .

وللشاعر مراد ميخائيل «صلاة» روحية فيها قبس إلهي يصبو الى ذاته السامية . فلنستمع اليه يقول :

«ان ذاتي الخفية لترتعش هيبة منك .

ان روحي المقتبسة من نورك الأزلي لتخرّ صاغرة ذليلة أمام عظمتك !

ان قلبي لتسحره مشاهد الملأ الأعلى وتسكره أنغام سكينة الدهور لتجتذبه الى ينبوعك الروحيّ بأجنحة من نور ونار .

ففي سكون معابدك غذاء المتصوّفين ،

بين جمال طبيعتك مسمع المتخيّلين .

بين طيّات ليلك وحي الأنبياء ،

في جيوب صباحك آمال الفقراء .

في غيوم مسائك دموع المتشردين ،

في فضائك سلّم النشوء والارتقاء ،

في أكوانك سلاسل الحياة التي تبتدئ من اللحد وتنتهي بك !...» .

ان في «صلاة الشاعر» قبس من أنفاس طاغور شاعر الهند الخالد في «قرابين الأغاني» . قبس من نفس الأنسيّ الواهن التوّاق الى الذات الالهية السامية والخائف المرتجف بين يديها . هي الذلّة والعبودية التي تنحني أمام العظمة وتشرئبّ بعنقها الى الملأ الأعلى . ونرى شاعرنا يصلّي الى الله في سبيل شعب خائر القوى ، في سبيل أمة مزقتها عناصر الاستيلاء ، براها الضنى وأنحلها الشوق ، وقد تطهرت بالدموع وتخضبت بالدماء . اما طاغور فيصلّي لنفسه ، يصلي لقلبه الواهن الذي ينبسط مبتهجاً بمسّ اليد الخالدة ويفصح عن أناشيد علوية الجمال ، يصلّي لأجل الانسانية ، حيث يكون الفكر غير هيّاب ولا وجل ، والرأس مرفوعاً الى العلاء ، وحيث تكون المعرفة حرة ، وحيث يكون العالم واحداً لم تجزّئه الجدران المحلية الضيقة اجزاءاً ، وحيث تنبثق الكلمات من أعماق الحقيقة . يصلي طاغور الى الله ان يكتب اليقظة لبلاده في تلك السماء ، سماء الحرية .

يتألف معظم أدب مراد ميخائيل من الشعر المنثور . وإذا كان هذا الشعر قد افتقد

القافية وأوزان الخليل فإنه لم يفقد العاطفة الحرّى والبيان الناصع والانسجام الذي يضفي عليه سلسالاً رائقاً كماء الجدول الصافي في خريره . وقد أعجب معروف الرصافي بهذا الشعر المنثور وعدّه بما فيه من المعاني الشعرية من أرقى ما جادت به القرائح . لا ريب ان شاعرنا قد تأثر كثيراً بشعراء المهجر . يقول مراد في قصيدته «المساء» :

«دقّت نواقيس المساء وخيّم الصمت العميق

تنعى جمود الكادحين وتندب العيش الطليق .

لا صادح في أيكة ، لا نائح فوق الغصون ،

جوّ كئيب ، وحشة خرساء تذكيها الشجون .

ويقول ايليا ابو ماضي في «مسائه» :

«السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين ،

والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين ،

والبحر ساجٍ صامت فيه خشوع الزاهدين .

لكنّما عيناكِ باهتتان في الأفق البعيد .

سلمى ، بماذا تفكرين ،

سلمى بماذا تحلمين؟»

ويقول جبران : «لكم لغتكم ولي لغتي» ، فيحمل على الجثث المحنطة الجامدة من الألفاظ ويحمد اللغة الحية التي تنتعش فيها الروح . ويقول مراد : «لكم أحلامكم ولنا أحلامنا» ، فيتغنّى بأحلام الفلاسفة لعالم يشعّ منه النور ، وأحلام المصلحين لاقامة عالم أفضل . ويقول مراد : «لكم مصيبتكم ولي مصيبتي» :

«لكم مصيبتكم وما تمطره من وبال وشرور ،

ولي مصيبتي وما تحدثه من تسخير القوى الكامنة .

لكم مصيبتكم وما تسمّم الفضاء بأنفاسها ،

ولي مصيبتي وما تخضب الأرض بدمها ودمائها .

ومصيبتي أحرار تموت كالعبيد .

ومصيبتكم لعنة في فم الحياة ،

ومصيبتي بركة بين شفاه الموت» .

وماذا عن «شيطان» مراد ميخائيل؟ لقد كان الشيطان دائماً يوحي بالشعر والقصص والأمثال . وقد خلق لنا الشاعر الفرنسي الفرد دي فني في قصيدته الرائعة «ايلوى» أو «علواء» شيطاناً رجيماً أغوى بتظاهره بالمسكنة ملاكاً طاهراً من فتيات الملائكة فاجتذبها الى الجحيم . وروى عباس محمود العقاد في قصيدته «ترجمة شيطان» قصة شيطان ناشئ سئم حياة أمثاله وتاب ، فقبل الله توبته وأدخله الجنة وحفّه فيها بالحور والعين والملائكة المقرّبين . غير انه ما عتم ان سئم عيشة النعيم وملّ العبادة والتسبيح وتطلّع الى مقام الألوهية ، فجهر بالعصيان ومسخه الله حجراً . فإذا به ، كما قال العقاد ، لا يزال يفتن الناس بجمال التماثيل وآيات الفنون :

ولقــــد قــــال أناس شـــــهــــدوا	مـــصـــرع الشيطان : هل طبع يزول؟
ناره تخـــــبــــو فــــلا تتّـــقــــد	وهو في الصخرة يستهوي العقول
فـــإذا أبصـــرت من صـــخـــرته	دمـــيـــة ســـاحـــرة او صنمـــا
فـــابتـــعـــد منه ومن رقـــيـــتـــه	واتّق الله وحـــوقل ندمـــا

اما شيطان مراد فقد قال فيه معروف الرصافي :

«كتاب كريم من شيطان غير رجيم ، من رجيم غير شيطان ، من انسان في صورة رحمان ، من رحمان في مسلاخ انسان ، من انسان هو شيطان ، من شيطان انس ليس من الجان . يفتش صور اليقين في ألواح الشك ، ويزجّ في مهاوي الشكوك بألواح اليقين . تراه ساخطاً على الدين وهو به راض ، محتقراً للعقل وهو به قاض ، يريد ان يجمع سلسلة النور الممتدة من ظلمتي الأزلّ والأبد ليجعلها قلادة في عنق الانسانية...» .

ثم قال : «شعر لشاعر يقول ما يشعر ويشعر بما يقول ، يريد ان يصوغ من شعوره الحيّ تاجاً لجمجمة الحق البالية... وهيهات ثم هيهات لما يريد...» (معروف الرصافي ، ٣١ كانون الثاني ١٩٢٥) .

ان «شيطان» مراد كان في قديم الزمان روحاً هائمة على وجه الغمر ، ثم تقمّص أشكالاً متباينة مختلفة حتى أصبح مجنوناً ، وفي جنونه لذة لا تدركها إلا الجبابرة ، وفي لذته تجري دماء المطامع ودموع الآمال . وكان بعد ذلك متسوّلاً ، ثم تائهاً طاف في كل أنحاء الوجود وعرض نفسه على كل مخلوق . فتّش عن معبد نفسه وعن طريق عبادتها فعاد خائباً مقهوراً . وقد أصبح غريباً حتى عن نفسه لا يدري بما تخزنه من عوامل . سار في صحرائها تاركاً فوقها آثار قدميه ، فإذا بالريح تطمس تلك الآثار . وهذا ، يا إلهي ، كما يقول ، منتهى التعاسة والشقاء .

والكلمة الأخيرة في مراد ميخائيل هي انه كان شاعراً أديباً ، لكن حقّ له في الوقت

نفسه ان يفخر بعمله في التعليم مدرساً ومديراً واستاذاً في بغداد وطهران واسرائيل ، وبمؤلفاته في تأريخ الأدب العربي والحضارة الاسلامية والنصوص الأدبية الخ . وقد تخرج عليه آلاف الطلاب خلال نصف قرن ، فكانوا رواداً للعلوم والآداب . وقد قيل في بعض معلمي الأغريق القدماء ان تلامذته خير آثاره . ولا ريب ان هذا القول يصحّ في شاعرنا الرقيق ذي العواطف الفياضة والروح الحائرة الحالمة المتطلعة الى المثل الأعلى .

من شعر مراد ميخائيل

يا ظلام الشقاء

يا ظلام الشقاء ، زدني شقاءً ... ففؤادي يحنّ للأرزاء

واغرس الشوك في حقول رجائي ... واسكب السُّم في كؤوس صفائي

واعقد الخيبة المريعة تاجاً ... فوق هامي وخلّني وبكائي

واسحق النفس بالمذلّة سحقاً ... واحبُونّا من الأسى والعناء

ان تكن حالكاً فانّك نور ... في عيوني ونجمة في سمائي

انت نار في أضلعي تتلظّى ... تأكل اللحم او تطلّ دمائي

ان فقدتُ الخليل كنت خليلاً ... ساكتاً ناطقاً من الفصحاء

او رجوتُ السمير كنت سميراً ... يطرد الانقباض من برحائي

او ضللت السبيل كنت دليلي ... في مسيري وموئلي ولوائي

البدر

البدر في الظلماء يمشي ساحباً ... ذيلاً حبته الشمس بالأضواء

صبغت بريشتها محاسن وجهه ... فأضاء بين ستائر الظلماء

فمضى يعوم مبجّلاً كسفينة ... قد أبحرت في القبّة الزرقاء

يبغي بأن يلقي عصا الترّحال في ... مرسى الصباح بشاطئ الجوزاء

وعلى أديم الماء أرسل نوره ... كصحيفة من فضّة بيضاء

ضربت أشعته على أمواهه ... فترى الدّراري فوق صدر الماء

إبر الشعاع تناثرت فوق الرّبى ... مثل النجوم وقد زهت بسماء

فكأنّ هذا البدر في عنق الدجى ... ملك يقود الجيش للهيجاء

او غادة من خدرها قد أقبلت ... ترنو الى المحبوب باستحياء

رمت القناع الى السماء تريد ان ... تكسو الأديم عمائم الخلفاء

لما تلاقى العاشقان رمتهما ... مُقَلُ النجوم بأعين الرقباء

والنجم في بحر الظلام لآلئ
منها الضياء يشعّ في الأنحاء
لعب الظلام بضوئها فتواضعت
كتواضع الضعفاء للبسلاء
صاغ الدجى عقداً له من نجمه
في رونق ومحاسن وجلاء
أعروس ذي الظلماء ، انك ساهر
مثلي وفيك صبابتي وعنائي
فأرى عيونك بالمدامع سمحة
والدمع للتعساء خير عزاء
أرنو الى نهر المجرّة قد طحى
من دمعك المسكوب كالأنواء
لزوال هذا العزّ بعد سويعة
مثل العوالم كلّها لفناء

الربيع

ناح الحمام وغنّت الأطيار
وسرى النسيم وفاحت الأزهار
خلع الربيع على الرياض رداءه
وله البنفسج والشّقيق دثار
عبث النسيم بورده فتنبّهت
وتبسّمت مذ شعّت الأنوار
والشمس حاسرة اللثام بخدرها
تبدو وزرقة أفقها أستار
تهتزّ أغصان الربيع صبابةً
ويفوح في أحضانهنّ نهار
فالروض يزهو في مغارس عوده
والعود يزهو ان بدت أثمار
والسلسبيل العذب سار بقلبها
فسقى الرياض فشبّت الأشجار
وتمايلت أغصانها طرباً له
وبروحها قد شُيّدَت أوكار
والبلبل الصدّاح ينشد لحنه
فوق الغصون وصوته مزمار
يلقي القصائد والطيور تجيبه
فصفيره وصفيرها أشعار
تبدو الرياض جميلة بربيعها
وبوصفها تتحيّر الأفكار

الشيطان المجنون (مقطع)

في جنوني لذة لا تدركها إلا الجبابرة ، وفي لذّتي دماء المطامع ودموع الآمال .

أسير وتحت أقدامي تندثر الشعوب ، وتتحطّم التيجان ، وتنسحق القلوب ، ومن الغبار الذي يحدثه سيري تتكوّن عوالم مظلمة كأميالي .

من ظلالي يتولّد الليل الذي أنسج أحلامه ستاراً مترجرجاً يغشى الجبال ، وأنحت من كتلة وجدي شموساً تسكب أدمعاً نورانية تستنير بها الأفئدة المظلمة .

من نظراتي الخارقة سجوف الضمائر يتدفّق نهر من انكسار الخاطر وبحر من تبكيت الضمير .

أرى الكواكب عيوناً ترمقني ، والدجى نوراً يفتح بصيرتي ، والعقلاء صخوراً ، وأنا موجة ابتعد عنهم فيردّني الطيش . ولذا تسمع أنيني تحت أقدامهم ، يا إله الشياطين ، وانكساري أمام قوة الجنون العمياء .

طلوع الشمس

لاحت تباشير هذا الصبح في خَبَبِ ... تزري بتطريز بُرْد الليل بالشهب

وانشقّ جلبابه بالشمس حين بدتَ ... وابيضّ أسوده من نورها الذهبي

شابت ذوائبه الجهماء عن وهن ... لو لم يُجَشَّمُ بالذّلفاء لم يَشبِ

وقد ترقرق فوق الأفق ماء سناً ... وقد تعسكر ضوء الشمس في لجبَ

تقمّص الأفق بالأنوار مزدهياً ... والطفل يزهو بما يحلو من القُشُب

جنودها اخترطوا في الأفق أسهمهم ... ومزّقت سُدْفَةُ الظلماء بالقُضُب

سمْط اللئالئ فوق الورد قد نثرت ... حفّ الحَبَاب على كأس من العنب

والشمس ساطعة والزهر عابقة ... والطير في فرح والناس في طرب

محمد صالح بحر العلوم

محمد صالح بحر العلوم المعروف بـ «شاعر الشعب»، وهو ابن السيد مهدي بن محسن الطباطبائي آل بحر العلوم، ولد في النجف سنة ١٩٠٨ . توفي أبوه وهو يحبو الى الخامسة، فكفلته أمه، وكانت امرأة فاضلة، ورعاه خاله السيد علي بحر العلوم وأحسن تأديبه . درس محمد صالح في مدارس بلده ومعاهدها وبرّز في علوم العربية، وأخذ علم المنطق عن الشيخ محمد رضا المظفر . نظم الشعر شاباً واشترك في الحلبات الأدبية . وذهب ضحية الارهاق وفتور الأعصاب حتى زهد في الحياة وأقدم على الانتحار، كما قال علي الخاقاني في المجلد التاسع من «شعراء الغريّ» ــ لكن شقيقته أدركته قبل ان يفارق الحياة، فنقل الى المستشفى وعولج فنال الشفاء .

أطلق لسانه وشعره يهاجم السلطة ويندّد بما اعتقده من ظلم وطغيان، فأوقفته شرطة النجف سنة ١٩٣٠ على أثر المداولة في تصديق المعاهدة البريطانية . وقال قصيدة مطلعها :

السجن بالعزّ خير من النعيم بذلّة

ثم حلّ في بغداد . وزار البحرين سنة ١٩٣٢ واشترك في تأبين شيخها حمد بن عيسى آل خليفة فأبعده الانكليز . عاد الى بغداد فوظّف مراقباً للعمل في شركة الدخان الشرقية التي أسسها جان بمبجيان خبير صناعة السيكاير القادم من مصر . لكنه استمر في معارضة الحكم والاشتراك في المظاهرات، فحكم عليه بالسجن ووضع تحت المراقبة مراراً . رحب سنة ١٩٣٦ بانقلاب بكر صدقي فلم يلبث ان خابت آماله . ثم اشترك في الوثبة سنة ١٩٤٨ فأودع السجن حيث قضى أكثر من سنة . وفي سنة ١٩٥٢ عاد الى الاشتراك في الأحداث، فحكم عليه بالحبس الشديد وذاق مرارة السجن ثلاث سنوات .

قال علي الخاقاني انه «دوّخ الصحف والمجلات وموّج أندية النجف، وأدخل عليها ألواناً جديدة من الأدب الواقعي كانت قبل لم تسمعه . فقد ذهب فيه الى يقظة العامل والفلاح ومقاومة الأقوياء . وألهب في شعره روح المواطنين بحماسه القويّ وثورته النفسية» .

وذكره الدكتور داود سلوم في كتابه «تطوّر الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي»

فقال انه شاعر مهمّ في الحقل الاجتماعي والسياسي ، وقد اتبع طريقة شعراء المدرسة القديمة من حيث الأوزان والقوافي المطّردة . ثم قال : «إلا انه يتميّز عن (شعراء تلك المدرسة) بأن روحاً اشتراكية تتحكم في أشعاره . وقد ولد في النجف في جوّ ديني ، ولكنه سرعان ما ثار على ذلك المحيط ، وبدأ يفكر لا بعقل رجل دين بل بعقل الاشتراكي الذي يبحث عمّا يقرّب بين طبقات المجتمع العربي . وقد قاسى في سبيل عقيدته هذه كثيراً من الاضطهاد والسجن» .

وقال محمد علي جعفر التميمي في الجزء الثالث من كتابه «مشهد الامام او مدينة النجف» انه محمد صالح السيد مهدي آل بحر العلوم شاعر الشعب ، ينظم باسمه ويعالج مشاكله العامة وما يحيط به من بؤس وشقاء . عني بتربيته خاله السيد علي بحر العلوم العلامة المعروف ، فدرس مبادئ العلوم الدينية ثم اتجه للأدب وتعمّق فيه .

توفي محمد صالح في بغداد في أوائل سنة ١٩٩٢ .

اشتهر بقصيدته «أين حقي؟» التي تنافح عن حقوق ابن الشعب والفلاح والعامل . وله من المؤلفات : العواطف (شعر ، ١٩٣٧) ، في سبيل ميثاق للسلام (١٩٥١) ، أقباس الثورة : من أعماق شعب ١٤ تموز (١٩٥٩) ، ديوان بحر العلوم (في جزءين ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩) ، أين حقي؟ (١٩٥٩) ، العفّة (رواية ، ١٩٣١) .

من قصيدته «الحيّ المقبور» او «فلاح القرية» :

أعلى اقتدارك ام قصوري ... تبني الألوف من القصور؟
ويعذّب الجمع الغفير ... بنعمة النزر اليسير
وتصبّ أسواط البلاء ... من الغنيّ على الفقير
هذي الجماهير الذئاب ... تحفّ بالليث الهصور
والكلّ يصلح نابه ... لنكاية العَفّ الغيور
حتّى مَ ، يا فلاح ، ... تجهد والجهود بلا أجور
ما من جزاء للأيادي ... الشاهدات ولا شكور
مأساة كوخك تختفي ... حتى على الرجل الخبير
ماذا جنيت من النخيل ... وما انتفعت من التمور
وهل ادّخرت لعيش عامك ... غير صاعٍ من شعير؟
هذي مكافأة احتمالك ... لفحة الصيف الهجير
صبراً فما للخطب إلا ... همّة الرجل الصبور
إن مات إنصاف الطبيعة ... فانتظر جرس النشور

أخبرني الدكتور جليل العطيّة المقيم في أولني من ضواحي باريس ان محمد صالح بحر العلوم تفرغ لأعماله الأدبية بعد اطلاق سراحه من السجن - وفي بداية السبعينات منحته الحكومة العراقية داراً وراتباً شهرياً ثابتاً ، فتفرغ للكتابة الشعر في جريدة «الثورة» . وانتخب خلال الثمانينات عضواً في الهيئة الادارية لاتحاد الأدباء العراقيين - وأدركته الوفاة في الأسبوع الأول من سنة ١٩٩٢ .

* * *

شعره

محمد صالح بحر العلوم شاعر الشعب ، بل الشاعر الثائر الذي هدر وعتب وكافح وغضب ، وارتضى السجن والارهاق حتى ذُهب بعقله وكاد يفقد حياته متحراً . وانك لتعجب لرجل سمح طيّب حيّي كيف يلتهب حماسة ويثور - ولعل ثورته صادرة عن نفسه الحرّة وانسانيته الطيبة حين يرى بعينيه الظلم والطغيان والخصاصة والحرمان ، يرى الأقوياء يصولون ويجولون ، والأغنياء يمرحون ويرفلون في ثياب العزّ ، والفقراء الكادحين لا يكادون يصيبون البلغة من العيش .

وقد قال :

أترجو حق شعبك من طغاة ... وهل يرجى من الطاغين حقّ؟
نفوس تحسب التدليس خلقاً ... وأفواه لديها الكذب صدق
فلي حال وللأقوام حال ... محوّلة وفي الحالين فرق
تريد رقيق وجداني رقيقاً ... تسخّره صخور لا ترقّ

وقال :

لهفي لفلاّح تسيّره ... المطامع والمآرب
ويسوقه الشيخ المماكر ... لاحتمال أذى المصاعب
حتى إذا دنت النتيجة ... واستميل لأخذ راتب
صبّ النوائب فوق هامته ... الضعيفة وهو نائب

وقال :

لمن القصور الشاهقات ... تحقّها هذي المهابة؟
ألشاعر سامي العواطف ... أم لقدّ في الكتابة؟
ام ملك فلاح تلازمه ... التعاسة والكآبة؟
هي ملك من خرجوا على ... القانون مذ أمنوا عقابه

شاعران نجفيّان : علي الشرقي ومحمد صالح بحر العلوم ، فصل بينهما جيل او نصف جيل ، رثى كلاهما لحال الشعب وانتصر للفلاح والكادح وحمل على المتسلطين والانتهازيين الذين جمّعوا الثروات واستولوا على الأراضي والأملاك . اتّسم الشرقي بالرزانة والهدوء فتألّم وتكلم ، وحظي بمناصب القضاء والوزارة . اما بحر العلوم فثار وأثار هائجاً كالبركان المتضرّم ، ومال الى العنف فقاده الى الاضطهاد والتشريد والسجن . في رباعيات بحر العلوم أنفاس من نواح البلبل وصداحه لعلي الشرقي ، لكنه اكثر صراحة وصراخاً . قال :

ايها الفلاح فيمن ترتجي ... فرج الخير وخير الفرج؟
وحواليك أفاعٍ لسعت ... قصب الكوخ بناب الحرج
سممت كوخك حتى لا ترى ... بعد هذا نسمة العيش الهني
وهي تقضي من شذاها وطرا ... تحت ظل العدل واسم الوطن
وتعاطيك الأذى والكدرا ... بيد الكيد ، بكأس الإحن
وعلى رأسك ، يا ليث الشرى ، ... أسست حكم الوهى والوهن
كم نعيم احرزته فئة ... هو من دونك بؤس فاتك
وقصور سلبتها سلطة ... منك بالجور وأنت المالك
ومصابيح علتها بهجة ... هي لولاك ظلام حالك
أبهذا الوضع تحيا أمّة ... وبها الظلم وباء هالك؟

وقال في «ثورة الفلاح» :

قف بالرميثة وانشد الفلاحا : ... هل نال من ماضي الجهود فلاحا؟
أدمت نواظره النوائب واصطلت ... أحشاؤه تتناوب الأتراحا
قد كبّلته يد الصروف وأطلقت ... لذوي المطامع في البلاد سراحا
يتنعمون بكدّه ، ووجودهم ... لولا عنايته لزال وراحا

وقال من قصيدته «واحسرتاه على العراق» :

الشعب يسألكم غداً عن حقّه ، ... ألديكمُ عذر يسكّته غدا؟
عبثت بقوّته سياسة مارق ... حكمت عليه بأن يموت تجمّدا
فتجزّأت آراؤه وتسرّبت ... روح الشقاق لشمله فتبدّدا
أضحى على وشك الغناء لعظم ما ... قاساه من أعدائه وتكبّدا
واحسرتاه على العراق ، اما يرى ... ما حلّ فيه وما شاهد مابدا؟
الأجنبي يحاول استعماره ... كالهند حتى فيه يصبح سيّدا

وبنفسه آمال سوء ظنّها تحيا وعندئذ ينال المقصدا

وقال، وقد ساء ظنه بالناس وأحكامهم:

لو كان للعدل ميزان يقاس به لما استخفّ بحكم العدل سقراط
فكل أحكام هذا الخلق مهزلة وإن تريّث فيها الخلق واحتاطوا
لا حكم للعقل فيما يقطعون به وانما هو تفريط وإفراط

تنقل بين السجون فقال:

كيف تحلو لي الحياة وعمري قد تقضّى ما بين نفي وحبس
أأنا المخلص الوحيد لأبقى هدفاً يشتفي به كل جبس؟
تذبل العاصفات زهرة عيشي وتبيح الأهواء ازهاق نفسي

وقال:

لمَ حمّلتُ شجوناً بين جدران السجون
وَتذوّقت صروفاً دونها صرف المنون؟
ألأني لم أبع يوماً لدنيا القوم ديني؟
أم يمين القوم بالأمس على غلّ يميني؟

وغلب عليه الألم النفسيّ فقال:

كيف حالي ان دجا الليل ولم يكُ عندي غير مصباح ضئيل؟
كلما يذكيه كبريت الألم يستقي من رئتي زيت الغليل
وابنتي هيّجت الصخر الأصم بعويل دونه كل عويل
تحرس الكوخ بعين لم تنم حذراً من لصّ أهواء الدخيل

بكى الشاعر على الأخلاق المتهافتة:

بلد تموت به الفضيلة ميتة هيهات يعقبها الغداة نشور
بيع الضمائر في بنيه سجيّة ومن البليّة ان يباع ضمير
مدَحٌ تكال وخاطب متملّق وهوى يطاع وكاتب مأجور
كَلّ يحاول ان يصيد، وحوله شرك به التشتيت والتشطير

وأسي للبؤساء من بني قومه:

هذا العراق وهذا وضع محنته لا تستقيم على حال به نُظُمُ
ابناؤه تحت حكم العسف رازحة والداخلون عليهم باسمه حكموا
يطارد الأبرياء المخلصين به جان ويضطهد الأبرار مجترم

أيرتجى الخــيــر من قطر قـضـيـتــه تـدير مــحـــورهـا الأوغــاد والقــزم؟
يـسـتـعـبـد الحــرّ منه وهو مـحـتـقـر ويعـبـد العـبـد فيـه وهـو مـحـتـشم
كم بائس يتلوى فــوق مـضـجـعــه من الهـمــوم وسـيل الدمع منسـجم

غلبت عليه السويداء، فلبس منظاره القاتم ورأى كل شيء مظلماً أكمد لا يرجى منه خير ولا أمل فيه. فالحرّة تتمنى الموت جازعة، وصبيتها تردّد الآهات ألماً في الكوخ الحقير، وجارهم ربّ القصر ثمل تحفّه الحور والولدان والخدم. وماذا في البلد وحكومته؟ الظلم منتشر والعدل مندرس، وكرامة الشعب تطأها الأقدام الباغية. تلك صورة يائسة لم يعرفها شعب العراق يوم ارتفع صوت شاعرنا بالويل والثبور، وفيها من المبالغة والاسراف ما هو مدفوع ومنكور. صبّ في شعره، كما قال، «صاعقة الشعب على الخائنين»، وأهاب بالشعب ان يترك السكون وينهض لدرأ الخطوب. وحمل على الحكومة الخاضعة للاستعمار، الراضية بالذل والهوان، المتسلطة على الشعب تبطش به وتحصي عليه أنفاسه، تلفّق المجالس وتصدّق المعاهدات وتبرم مواثيق الخيانة... حتى يقول:

ســيلقى الذي جــاء العــراق لظلمــه وأبنـاؤه من شــــدّة الهــــول نُوَّمُ
عــقــاباً يريه في الظهــيــرة أنجــمــاً بمطلعــهــا الزاهي يحــيــر المنجّم
ومن خلفـه الشـعب النبيـل مـصـقـداً بعــهــد هوان عــقــده لا يفــصـم
ســيـجـزى جـزاء الظالمـين وحــولـه المــعــارض فــيــه ضـاحك يتـبـسّم

رحّب بانقلاب بكر صدقي سنة ١٩٣٦، فقال:

إذا اســتــفــحـل الشــرّ في أمّــة تفــتّح من خــيــرها ألف باب
وتلك خطايا مــئــات القـــرون تولّد في الحــال منهــا الصــواب

ثم جاءت ثورة ١٤ تموز وعقبتها الثورات والانقلابات، فهل وجد فيها ضالّته من الخير والحق والعدالة؟ وطال به الزمان فرأى ما لم يره في عهد الشباب من الظلم والهوان.

ذلك الشاعر الثائر، ولكن لمحمد صالح بحر العلوم مع ذلك شعر غزلي رقيق على قلّته. عرف الحب فقال:

ما البدر في كبد السماء سوى امرئ مــثلي أحبّ فطار فــيــه غــرامــه
فــتــرفّــعت نظراته في عــالمٍ أنعــامــه انفــردت بهــا أنعــامــه

(والأنعام الأولى النعم والثانية الإبل البقر)

وأطلّ يرنو الأرض نظرة ساخر | في غيره يربو عليه مقامه
ويبثّ من يهواه نجوى هائم | دلّت على آماله آلامه

وقال :

ليت حظّيَ ممن أهوى كحظي | من خطوب لم ترع حرمة نفسي
أرتجي قربه فيطلب بعدي | وأرى سعده فيسعى لنحسي
وإذا رمت من هواه شفاءاً | لاعتلالي رميت فيه بنكس
عبثاً أرقب الرجاء بعين | حجبت ضوءها غشاوة يأس

وكذلك نراه حتى في حبه ناقماً مستسلماً لليأس والهجران ، يكتم الشوق ويموت وجداً :

فلا الجسم مرتاح ولا الفكر هادئ | ولا القلب مقرور ولا الجفن راقد !

ولا عجب ان يؤمن ببؤسه لا يريد منه خلاصاً ، ويقول :

يقولون لي : جرّب نصيبك مرة ، | فقلت : نصيبي في الشقاء مجرّب
أيمنحني ثغر الحياة ابتسامة | ووجه حياتي عابس متحجّب؟
وحولي من الآلام جيش يسوؤه | بأني الى اعدائه أتقرّب
ترعرعت فيه وانتسبت لسكنه | فصرت اليه لا لقوميَ أنسب

ومجمل القول في الشاعر بحر العلوم انه غالى ، زرع الريح فحصد العاصفة . صال في مجال القريض فاصطنع الفكر المريض ، رأى الظلمة في الفجر العريض والشوك والقتاد في الروض الأريض ، وأهوى بالقمة الى الحضيض . فيا للزمان العادي البغيض ! وهذا معروف الرصافي لم يزد على ان قال في عهد الاستبداد العثماني :

عجبت لقوم يخضعون لدولة | يسوسهمُ بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها | وأموالها منهم ومنهم جنودها

وأن قال في العهد الملكي في «شكواي العامّة» :

من أين يرجى للعراق تقدم | وسبيل ممتلكيه غير سبيله؟
لا خير في وطن يكون السيف | عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده ، والعلم عند | غريبه ، والحكم عند دخيله
وقد استبدّ قليله بكثيره | ظلماً وذلّ كثيره لقليله

هل هناك صلة روحية بين شاعرنا بحر العلوم وشارل بودلير شاعر «ازهار الشر»؟ كلاهما ناقمان ، لكن الشاعر العراقي ناقم لأجل شعبه وبلاده ، اما الفرنسي فناقم على

الانسانية والحب والمرأة . قال بودلير : «أسفاً ، كل شيء هو الهاوية : العمل والرغبة والحلم والكلام ، وحتى الخوف حين تمرّ به الريح . ففي كل مكان العمق والضحضاح والسكون والفضاء الهائل ، كلها تولّد في ليله الكابوس ، فيخاف النوم ولا يرى سوى اللانهاية تطلّ في نوافذه» . ويرى بودلير دمه أحياناً يسيل كالينبوع الباكي ، يتدفق في المدينة فيقلب الأحجار الى جزر صغيرة ، يروّي ظمأ المخلوقات ويصبغ الطبيعة باللون القاني الأحمر . لقد طلب في الحبّ رقاداً يبعث على النسيان ، لكنه وجد الحب فراشاً شائكاً . رثى بودلير لحال الفلاح ، رآه كالجثة او المومياء القديمة ، ينقّب في الأرض مستسلماً للقدر . فما الذي يحصده بجهوده المرهقة وعضلاته الهالكة عدا ان يملأ مخازن أسياده؟ ورثى لحال الفقراء في قصيدته «موت الفقراء» : وجد الموت يوحي بالعزاء وينعش الحياة ، وهو غاية الحياة والأمل الوحيد ، يسكرنا كالإكسير ويحملنا على مواصلة السير حتى المساء . وقد رأى الموت كالملاك يحمل الرقاد والأحلام الجميلة ويصنع سرير الناس الفقراء والعراة .

أين حقي؟

اشتهر محمد صالح بحر العلوم بقصيدته «اين حقي؟» . رفع صوته يعرب عن محنة العقل في العالم الظالم المنتهك للحرمات ، المضيّع للحقوق . رفع صوته يطالب بحق الكادحين الذين يشقون ليعيش الانتهازيون ناعمين ، بحق الفتاة التي لم تجد ستراً غير غبار الريح ، تخدم وتودّ الموت لكي تملك قبراً يضمّ رفاتها ، بحق المظلومين الذين لم يجدوا عوناً من قضاة الجور ، بحق أبناء الشعب الذين غرّر بهم دعاة الدين المزيف الممالئ للطغاة . كانت صرخة هوجاء ذهبت بها أدراج الرياح في مجتمع يريد ان يكافح الجهل والمرض والفقر ويحطم السلاسل التي تقعده عن التقدم والنهوض .

قال بحر العلوم :

رحتُ استفسر عن عقلي ، وهل يدرك عقلي

محنة الكون التي استعصت على العالم قبلي .

ألأجل الكون أسعى أنا أم يسعى لأجلي؟

وإذا كان لكلٍّ فيه حق ، أين حقّي؟

فأجاب العقل في لهجة شكّاك محاذر :

إنني لا شك محفوف بأنواع المخاطر .

تطلب العدل وقانون بني جنسك جائر .
ان يكن عدلاً فسَلْه عن لساني : أين حقي؟

أنا ضيّعتُ كما ضيّعتَ جهداً في هباء
باحثاً عن فكرة العدل بكدّ وعناء ،
وإذا بالناس ترجو العدل من حكم السماء ،
وسماء الناس كالناس تنادي : أين حقي؟...

يا ذئاباً فتكت بالناس آلاف القرون ،
اتركيني انا والدين فما أنت وديني؟
أمن الله قد استحصلت صَكاً في شؤوني ،
وكتاب الله في الجامع يدعو : أين حقي؟

أنت فسّرت كتاب الله تفسير فساد
واتخذت الدين أحبولة لفّ واصطياد ،
فتلبّست بثوب لم يفصّل بسداد ،
وإذا بالثوب ينشقّ احتجاجاً : أين حقي؟...

كيف تبقى الاكثريات ترى هذي المهازل :
يكدح الشعب بلا أجر لأفراد قلائل ،
وملايين الضحايا بين فلاح وعامل
كلها يصرعها الظلم وتدعو : أين حقي؟

أمن القومية يشقى الكادحونا
ويعيش الانتهازيون فيها ناعمينا ،
والجماهير تعاني من أذى الجوع شجونا ،
والأصولية تستنكر شكوى : أين حقي؟

حركوا الأمة ان كنتم صادقينا
من قيود الجهل تحريراً يصدّ الطامعينا ،
وأقيموا الوزن في تأمين حق العاملينا ،
ودعوا الكوخ ينادي القصر دوماً : أين حقي؟

يا قصوراً لم تقم إلاّ بسعي الضعفاء ،
هذه الأكواخ فاضت من دماء البؤساء .
وبنوك استحضروا الخمرة من هذي الدماء ،
فسلِ الكأس يجبك الدم فيه : أين حقي؟

كم فتى في الكوخ أجدى من أمير في القصور ،
قوته اليوميّ لا يزداد عن قرص صغير
ثُلُثَاه من تراب والبقايا من شعير ،
وبباب الكوخ كلب الشيخ يدعو : أين حقي؟

وفتاة لم تجد غير غبار الريح سترا
تخدمُ الحيّ ولا تملك من دنياه شبرا ،
وتودّ الموت كي تملك بعد الموت قبرا ،
وإذا الحفّار فوق القبر يدعو : أين حقي؟...

ليس في وسعيَ ان أسكت عن هذي المآسي
وأرى الأعراف والأعراف من دون أساس ،
بين مغلوط وصحيح وصحيح في التباس ،
وكلا العرفين لا يفهم منه : أين حقي؟

خطأ شاع وكان العرف من هذا الشياع ،
وصوابٌ حكم العرف عليه بالضياع .

وسواد الشعب مأخوذ بخبث وخداع
كقطيع يلحق الذئب وينعى : أين حقي؟

ليس هذا الذنب ذنب الشعب ، بل ذنب الولاة
وجهوا الأمة توجيه فناء لا حياة ،
وتواصوا قبل ان تغني بنهب التركات ،
وإذا الحرّاس للبيت لصوص : أين حقي؟

دولة يؤجر فيه كل أفّاك عنود
أجره لا عن جهود بل لتعطيل الجهود .
لم يقابل نعمة الأمة إلا بالجحود ،
وإذا النعمة تغلي في حشاه : أين حقي؟

من فقير الشعب بالقوة تستوفى الضرائب
وهو لم يظفر بحقّ ويؤدّي ألف واجب .
فعليه مغرم والغنم سرّاق المناصب .
أيسمى مجرماً إن صاح فيهم : أين حقي؟

من حفاة الشعب والعارين تأليف الجنود
ليكونوا في اندلاع الحرب أخشاب وقود .
وسراة الشعب لاهون بأقداح وخود ،
وجمال الغيد يستوجب منهم : أين حقي؟

هذه عيشة رهط لم يفكّر بسواه
همّه ان ينهب المال لإشباع هواه .
أين من يفتح تحقيقاً يرى عمّا جناه
وينادي بانتقام الشعب جهراً : أين حقي؟

أيها العمّال ، هبّوا وارفعوا هذي البراقع
عن وجوه ما لها غير محابٍ ومُصَانع ،
واصرفوها عن عيون عميتٍ عن كل واقع ،
وتراني صادفاً عنها بقولي : أين حقي؟

أيها العمال ، اين العدل من هذي الشرائع؟
أنتم الساعون والنفع لأرباب المصانع .
وسويّ الناس أولى الناس في نيل المنافع ،
فليطالب كلّ ذي حق بوعي : أين حقي؟...

أين كان المال قبل الجهد او قبل الطبيعة ،
فهما قد سبّبا في غابر العهد شروعه .
وإذا بالمال لا يذكر للعهد صنيعه ،
وإذا بالجهد يستجدي مُهاناً : أين حقي؟

هل تراني بيقيني ما أقاسي من شجوني ،
فشجوني هي من أسباب تثبيت يقيني .
ولتكن دنياي ما بين اعتقال وسجونَ ،
وليكن آخر أنفاسي منها : أين حقي؟

وقد قلتُ مبارياً قصيدة «أين حقي؟» :
يكدح الفلاح في الحقل بليل ونهار ،
وله في الكوخ زوج وله ولد صغار
لم يصيبوا غير قلٍّ من طعام ودثار .
يهنأ الملاك يجني في العلالي للثمار ،
ويصيح الكادح المظلوم : حسبي ، أين حقي؟

ورأيت العامل يشقى في المصانع ،
يحمل الأثقال يأسى وهو خانع .
جاهل لا يعرف الحق يصانع
راضياً بالحظ يغضي : أين حقي؟

ارفع الصوت وطالب ، ليس في الأرض سميع ،
كلهم قد طلبوا الحق وقد فات الجميع .
فالزمِ الدار شتاءاً وانتظر يأتي الربيع .
ليس في الدنيا حقوق ، لا تقل لي : أين حقي؟

ذا نظام الكون حقاً منذ كان البشرُ :
يتعب الكادح لكن لم يصبه الثمر .
ما الذي نعمل اذ شذّ وجار القدر؟
تذهب الريح وتمضي لا تبالي : أين حقي؟

* * *

وقف محمد صالح بحر العلوم على قبر الرصافي عند دفنه فأنشد يؤبنه شعراً :

بأيّ فم أرثيك يا مخرساً فمي	وهذا فمي قد عبّه الحزن بالدم؟
ومن أي قلب استمدّ تجلّداً	عليك ، وهل قلب بدون تألم؟
نعاك لنا الناعي فقلنا دعاية	يراد بها تفريق شعب منظم
أشاعرَ هذا الجيل ، أيتمت أمة	بغير افتقاد الحرّ لم تتيتّم
تحرّرت من قيد الحياة وعفتها	لرهطٍ بلا قلب يعيش ولا فم

صالح الجعفري

الشاعر المربّي صالح الجعفري ، ابن الشيخ عبد الكريم آل كاشف الغطاء ، ولد في النجف سنة ١٩٠٧ ودرس العلوم العربية في معاهدها . نظم الشعر شاباً وأتم ثقافته بمطالعة كتب الأدب الحديثة . كان أحد مؤسسي جمعية الرابطة الأدبية في مسقط رأسه وانتخب أميناً لسرّها (١٩٣٢) .

عيّن مدرساً في مدرسة النجف الثانية في ايار ١٩٣٥ وأصبح معاوناً لمديرها سنة ١٩٥٢ . وواصل التدريس حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٦٠ . وانتقل بعد ذلك للاقامة في بغداد ، وكفّ بصره في أعوامه الأخيرة . وقد توفي ببغداد في ٢١ آب ١٩٧٩ .

شعره متين الديباجة قديم الطراز نشر نماذج منه علي الخاقاني في الجزء الرابع من شعراء الغري (١٩٥٤) . وضع كتاباً في الامام السيد ابو الحسن (١٩٤٧) ونظم رباعيات حسين قدس نخعي سفير ايران في بغداد ، وحقق ديوان السيد نصر الله الحائري المتوفى سنة ١٧٣٤ وديوان السيد حيدر الحلي وديوان كاظم الأزري .

من شعره :

خطرت تمـايل كـالقناة ... وتلفـتت مـثل المـهـاة
هيـفـاء نادى بالعـقـول ... جـمـالهـا والذاريات
طارحـتـهـا الوجـد المـبـين ... فلـم تـخـفـف من شكـاتي
ومـحـضـتـهـا الشـوق الصـراح ... فـأعـرضـت عن بيّناتي
يا نفس ، حـسـبك مـا ترين ... من الغـواني المـعـرضـات

ما قيمة العهد؟

فـيمَ الزعـاق وفـيم الويل والحـرب ... والحق أضـيع او تسـتلّه القـضب
قـد يعـمل السيف بالأوضاع منفـرداً ... مـا ليس يعمل فيهـا الجـحفل اللجب
لسنـا نقـيـم على ذلّ يراد بنا ... بل نطلب العـز أنى كـان فـارتقـبوا
مـا قيـمـة العـهـد مكذوباً ومـخـتلقاً ... العـهـد مـا خلقتـه البيض واليَلَبُ[1]

---

(١) اليلب : هي الدروع اليمانية المصنوعة من الجلد .

انّا سـئـمنا وعـود القـوم عـارية عن الحقـيقـة محـشـواً بهـا الكذب
جـاؤوا بمـهـزلة في اثر مـهـزلة فكلمـا جـدّ جـدّ الشـعب هم لعـبـوا
لا تغـضبـوا الشعب حطّاً من كـرامتـه فـالليث يضـرى إذا مـا اهتاجـه الغضب

باسم السلام

يا أمّـة عـبـثت في الدين داعـيـة باسم السلام الى التمـزيق في البشـر
تطايـرت في بلاد الله واقـعـة وقع الجـراد على مـخـضـرّة الشـجـر
دعي مـغـالطة التـبـشيـر ناحـيـة واسـتنكفي فلقـد بشّـرت بالكدر
أعـيـذ قـومي ان تصطاد حـوتهـم فـقـد أديف نمـيـر المـاء بالعكر

عبد الستار القره غولي

الشاعر المربّي عبد الستار القره غولي ولد في بغداد سنة ١٩٠٥ . أتم دراسته في دار المعلمين الابتدائية فعين معلماً في لواء الحلة (١٩٢٢) وتنقل في التعليم في الألوية .

وقد اعتقل في العمارة خلال الحرب العالمية الثانية في تموز ١٩٤٢ . ثم أعيد تعيينه سنة ١٩٤٦ مفتشاً للمدارس الابتدائية في بغداد فمعاون مدير معارف بغداد (١٩٤٩) فمديراً لها (مركز بغداد) . وتوفي في مسقط رأسه في ايار سنة ١٩٦١ .

من شعره :

بني يعرب ، ما بالنا بات شملنا ... شتيتاً وهذا الدين جاء موحّدا؟

وما بالنا حدنا عن الحق والهدى ... وصرنا عبيداً ليس تأبى التقيّدا؟

أقمنا على ضيم وخصم بلادنا ... أقام الدنى بالمعجزات وأقعدا

وما بالنا في غمرة نعبد الهوى ... نكاد لفرط الغيّ ننسى التشهدّا

وقال من وحي المعتقل :

يا بلبل الروض الأريض المخضل ، ... ماذا أتى بك وسط هذا المعقل؟

أين الورود ومن يقطّع ثغرها ... سحراً برشف او بلثم مخجل

والطلّ لمْ لا تنتشي برحيقه ، ... أتزهداً عنه وحسن تبتّل؟

كيف اَستكنت ولم تعد متنقلاً ... في الروض او من فوق خد الجدول؟

وضعوك في القفص الجميل ليسمعوا ... منك الأغاريد العذاب فرتّل

ما أنت إلا شاعر مثلي له ... غزل يهزّ العطف مثل تغزّلي

فأنا وأنت بكاؤنا متواصل ... في سجننا وهمومنا لا تنجلي

إذ انت تشجيك الرياض فقدتها ... وأنا شجاي على حماي وموئلي

وقال يخاطب ابنته :

يا طفلتي وحبيبتي ، ... يا من بها قلبي افتتن

لا تشغلي القلب الصغير ... بما نعاني من محن

وترنّمي لدُمَاك يرعاك ... المهيمن ذو المنن

مؤلفاته

الألعاب الشعبية لفتيان العراق (١٩٣٥) ، المثنى بن حارثة الشيباني (١٩٣٧) ، روايات من تأريخ العرب ، أبو عبد الله الصغير (مسرحية ، ١٩٥٥) ، مسرحيات الأحداث (١٩٥٣) . وترك مؤلفات مخطوطة لم يهيأ لها النشر ، منها ديوان شعره ، وحي المعتقل ، ليلى الأخيلية . وقد حقق كتاب النفحات المسكية في صناعة الفروسية لأحمد بن محمد الحموي الحنفي (١٩٥٠) . واشترك في نشر ديوان شعر صديقه نعمان ثابت عبد اللطيف «شقائق النعمان» (١٩٣٨) ، وكتاب الجندية في الدولة العباسية لنفس المؤلف (١٩٣٩) .

مهدي مقلّد

الشاعر المحامي الشيخ مهدي مُقَلَّد ولد في بغداد سنة ١٩٠٧ لأسرة تنتمي الى السادة الأعرجية المقيمين في قرية الزاوية من أعمال عنة . مال وهو فتى يافع الى الدراسة الدينية فتتلمذ على السيد منير القاضي والملا حسين العبيدي . ثم دخل سنة ١٩٢٦ الى جامعة آل البيت وتخرج فيها سنة ١٩٣٠ . وانتمى الى كلية الحقوق فنال اجازتها سنة ١٩٣٦ .

مارس المحاماة ، وأصدر سنة ١٩٣٩ جريدة «الميزان» فلم يظهر منها سوى ستة أعداد . ثم نظم الشعر على كبر فجاء شعره متين البنيان ، فصيح الألفاظ ، متميزاً بالحكمة ، بعيداً عن العاطفة والطلاوة . وكان في سنوات الحرب العالمية الثانية من أنصار الحرية والقومية العربية ، مرابطاً في جريدة «العراق» (لصاحبها رزوق غنّام) مع جميل أحمد الكاظمي وثُلَّة من الأدباء والشعراء ينصرون الحق ويندّدون بطغيان النازية .

كان مهدي مقلد قويّ الحافظة يحفظ آلاف الأبيات ، وإذا سئل عن مسألة نحوية شرع ينشد الباب الخاص بها من ألفية ابن مالك . وكان وثيق الصلة بالأب انستاس ماري الكرملي ، فلما مات رثاه بقصيدة مطلعها :

بالأمس أشياخ البيان وفي غد ... يا جهبذاً بك زيّنوا صدر الندي
الله يشهد كنت للفصحى أباً ... عنها تدافع باللسان وباليد
ألقت اليك زمامها فرفعتها ... في الخافقين لمُتْهم ولمنجد
مترهباً لابن البتول وباحثاً ... عنها بثوب الناسك المتعبّد
فالقلب من دين ابن مريم وحيه ... والفكر من لغة النبيّ محمّد
ان ابن مريم والنبيّ محمداً ... نوران نور هدى ونور توجّد
وهدايتان يؤمّ نهجهما الورى ... من مقتد بهما وآخر مهتد
ومنارتان الى السلام ومنهما ... كم فاض مَنبعه بأعذب مورد

وله قصيدة أخرى في رثاء استاذه منير القاضي .

توفي مهدي مقلد في بغداد سنة ١٩٨٣ .

من شعره

المرأة والاصلاح

لا يرتجى من دولة اصلاح ... وبجبهة الشعب الأبيّ جراح
او يرتجى للشعب اصلاح به ... حق النساء الفضليات مباح؟
ما دام نصف الشعب مشلولاً فلا ... التوضيح ينفعه ولا الايضاح
كيف الخلاص لأمة من مهمه ... داجٍ به تتوثّب الأشباح؟
عصفت به هُوج الرياح وأخمدتً ... تلكَ الشموع وأطفئ المصباح
لو كان أعطى الشرق حق نسائه ... ما كان في كفّ العدى يُجْتاح
ولما غدا الوطن الكبير مشتّتاً ... وعليه من صور الأسى ألواح

نفثات

تجرّعت صاباً في الحياة فصابا ... وهما مقيماً في الحشا وعذابا
وأصبحت منهوب الفؤاد كأنما ... غدا عندي الحزن المؤرّق عابا
وصاحبت مذ عشرين عاماً تصرّمت ... يراعي ولم يعرف يراعيَ دابا
فما لي إذا ناديت قومي لدعوة ... نهوضية ثاروا عليّ غضابا؟
وما لي إذا صارحتهم بحقيقة ... يودّون لو سلّوا عليّ حرابا؟
كأني بليل نابغيّ شجونه ... تجمّعن في قلبي وعشن نهابا
وأمسيت في همّين همّ مبرّح ... لجبني وهمّ في الجوانح ذابا
وكم سألوني : ما لطرفك دامع؟ ... فكانت شؤون المقلتين جوابا
وعزم بصدري مثل ليث جعلته ... خليلاً ومن صدري تفيّأ غابا
أبى لي ان أبدي عتاباً لأنه ... يراه الى ذلّ الرجولة بابا
عظيم على مثلي يشاهد قومه ... يذلّون منهم أرؤساً ورقابا
ألم ترَ في أرض الجزيرة أنشبت ... يد الجهل ظفراً ، يا أخيّ ، ونابا؟
مرابع ما فيهن نور وانما ... انطفى النور في تلك الربوع وغابا
وفي المغرب الأقصى تمجّ مراكش ... دماً غالياً واستعذبته شرابا
فثارت على الباغين بالأمس وانتخت ... بفرسانها فاستمطروه سحابا
وعجّت من القتلى سهول وأغرقت ... سهوباً ولفّت في الزئير هضابا

الخ .

جميل أحمد الكاظمي

ولد الشاعر جميل أحمد الكاظمي في قصبة الكاظمية سنة ١٩٠٥ ودرس في الكتاتيب والمدارس المحلية وتعلم اللغتين التركية والفارسية . ثم تتلمذ لعلماء بلدته واتصل بالشيخ محمد مهدي البصير فنهل من علمهم وأدبهم . مارس التجارة مع والده ثم خلفه في ادارة أعماله . وأقبل على مطالعة الكتب الأدبية في الوقت نفسه ، وحفظ آيات القريض فكان معجباً بوجه خاص بالمتنبي وابي تمام والبحتري ، وأحمد شوقي وجميل صدقي الزهاوي من المعاصرين .

وظف في وزارة المالية سنة ١٩٣٢ وكان مأمور ضريبة الاستهلاك فمدققاً مالياً حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٥٩ . ومارس بعد ذلك الزراعة حيناً . ونظم الشعر فكان بحق ، إذا أمكننا القول ، شاعر الخمرة الوطنية ، وهي العرق المستخلص من التمر ، فوصفها وصفاً طويل النفس مذ كان سرّها في عذوق النخل حتى استقطرت في الأنابيق ورشحّت سائلاً مطيّباً صافياً عذباً للشاربين .

وكان خلال الحرب العالمية الثانية من أنصار الحرية والملكية الشرعية ، وقد جمع قصائده في هذا الموضوع في «آيات الحق والاخلاص» التي نشرها سنة ١٩٤٢ . وله من الكتب المخطوطة ديوان شعره وقد سماه «البوارق» ومؤلف خاص عن «الخمرة والكاس في شعر ابي نواس» . وقد أصدر في حزيران ١٩٤١ جريدة يومية سياسية «صوت الحق» ، وكان مديرها المسؤول المحامي مهدي مقلّد ، ولم تدم طويلاً .

تميّز الكاظمي بمظهر خشن يخفي في طياته روحاً رقيقة . وعرف بصوته الجهوري في القاء الشعر منغماً على طريقة التعازي . وقد توفي ببغداد في ١٥ نيسان ١٩٧٠ .

من شعره

أيها الساقي ، ويوم الشرب طابا ... أترع الكأس وناولها شرابا

ثمّ بالأخرى تقرّب مثلما ... تشتهي الروح من الكأس اقترابا

ثم ثلّث وتثنّى مرحاً ... واتخذ للنفس في السكر صوابا

وارتشف مثليَ مما احتسى ... وانتهبها ما دعا الشوق انتهابا

خمرة تنمى لعيطاء دنت من على باخوسها قوماً وقابا
يفتديها الكرم في كرمته ويعيها الدهر كهلاً وشبابا
وهي صفو الخمر إن شعشعتها كانت السحب امتزاجاً وحبابا
في قرار الكأس يحكيها الندى قطرات ما دنت فيها انصبابا

وقال في قصيدة أخرى مطلعها :

لنا خمر وليس بخمر نحل ولكن من نتاج الباسقات

وقال :

جددت وصلك والأقداح مترعة من المدامة أشكالاً وألوانا
حمراء صفراء بيضاء حفلتُ بها دون الصحاب فأرعاها وترعانا
وقد حكت في قرار الكأس قطر ندى او دمع مرهاء تبكي الإلف تحنانا
حنّت الى الماء في كأس ينقصه جيد تراه بماء الحسن غصّانا
عاقرتها بيد سمحاء ما انبسطت يوم لمكروهة ظلماً وعدوانا
فكان للروح صحو في تناولها من بعد سكرته في الحبّ أزمانا
عاقرتها زمناً أجلو بساحتها خمر الهموم الذي أحسوه أحيانا
وأتّقي شرّ سكر في سُلاف هوى يزجي الى النفس آلاماً وأحزانا...

سحر الغناء

نجيّ الطير شدوك قد أهابا يمن ألف المدامة والرضابا
رنين الصوت منك أهاج قلباً تحفّز للوثوب وقد أجابا
غناؤك والجمال هما لسحر رمى مني الفؤاد وقد أصابا
رمى والعود يسمعه رتيناً حكى فيه الأنين وقد تغابى

وله معارضة لقصيدة ابي الحسن الحصري الشهيرة «ليل الصبّ» ، قال :

إمتاع الليل دنا غده فجر للصبح سنشهده
ما دام الصبّ له شغف يسمو بالأنس ويعيده
ويعاطي الكأس أخو طرب يودي بالهمّ ويطرده
ما رام السكر له خدراً برضاب للثغر يبدده
لا طاب الشرب بلا طرب وسبيلُ الشوق معبّده
وغذاء الروح ومنهضها في جوّ الأنس مصعّده
ما نفع المال وفي غدنا سيزول العيش وأرغده؟

ولا ينسى جميل أحمد بطبيعة الحال «مقطور التمر» وكأس الطيب ووصف المحبوب الفاتن والغناء البديع والليالي الباسمة السعيدة . ثم يشكر الله على نعمته :

حمداً للّه على كرم بلسان الشكر أردّده
تزداد النعمة في شكري ويدوم العيش ومورده

وهذه القصيدة طويلة تعدّ ١٢٦ بيتاً ، تحلّق وتسفّ ، تدور وتلفّ ، تثقل وتخفّ ، تفجر وتعفّ ، تطرى وتجفّ ، وتعتم وتشفّ ، فأفٍّ لك أفّ .

وقد حكم محمود العبطة حكماً قاسياً على جميل أحمد الشاعر عند وفاته ، فقال ان شعره عادي تقليدي تغلب الموهبة فيه على الصنعة والأسلوب الخطابي على الطريقة الذاتية التعبيرية . وقال ان في شعره لوناً خاصاً من الاصطلاحات الفقهية والسياسية والدينية والصحافية . وكان يكثر من نظم المطولات بلا وحدة او بناء فنيّ ، فكأنه يكتب مقالة افتتاحية في جريدة تصدر في الثلاثينات . ومع ان الشاعر كان يجيد الفارسية ويحفظ لشعرائها فلم يستفد منها الاستفادة التامة . لكن العبطة أثنى على الرجل فقال انه كان يملك خلق الوفاء لأصدقائه من الشعراء ، وهو الوحيد الذي رثى عبد الرحمن البناء وحسين بستانة . وقال : «وقد رأيته يبكي كالنساء في أحد مقاهي بغداد بعد سماعه نعي صديقه الشاعر المرحوم خضر الطائي» .

محمد بسيم الذويب

الشاعر الأديب الضابط محمد بسيم الذويب ابن محمد كامل الذويب من علماء بغداد . ولد في بغداد سنة ١٩٠٧ وأتم دراسته الثانوية فانتمى الى المدرسة العسكرية وتخرج فيها سنة ١٩٢٧ ملازماً ثانياً . وتدرج في مراتب الجيش حتى ترك الخدمة سنة ١٩٥١ برتبة مقدم . وعمل في التجارة والصحافة ، وكان رئيس تحرير جريدة الجبهة الشعبية . ثم عاد الى الوظيفة سنة ١٩٥٤ استاذاً مساعداً في كلية الشرطة ، وأصبح بعد ثلاث سنوات مديراً لمدارس الشرطة برتبة عقيد .

اعتقل أمداً في سجن الكوت في العهد القاسمي ، ثم أصدر جريدة «الوطن العربي» اليومية في آذار ١٩٦٣ واستمرت على الصدور نحو ٨ أشهر . وعين في نفس تلك السنة مديراً لسجن الناصرية فمدير المكتبات في وزارة الثقافة والارشاد الى سنة ١٩٦٥ . وأصدر في آب ١٩٦٧ جريدة اسبوعية ثقافية باسم «الرافدان» .

بدأ بنظم الشعر وهو شاب يافع . وقال انه تأثر بشعر الرصافي وشعراء المهجر الياس فرحات وميخائيل نعيمة وجبران ونسيب عريضة وغيرهم . ومال الى كتابة القصة فأصدر : الثمرة الأولى (١٩٤٦) ، الثمرات (شعر وقصص ، ١٩٢٨) ، آثام (١٩٥٧) ، انعتاق (١٩٥٨) ، امرأة سيّئة السمعة (١٩٦٧) ، صدى السنين (١٩٦١) ، شواعر المهرجان (١٩٦٩) ، قصائد من خمسة أقطار عربية (١٩٧٠) ، أربعة شعراء وشاعرة (١٩٧٠) .

من شعره :

حياة

حيـــــاة كلهـــا أبداً عـــذاب ودهر كله عــــجب عـــجـــاب

وعـــمــــر ينقـــضي من دون نفع فـــســـاوانا به حـــتى الذباب

وليس لنا بهـــذا العـــمــــر إلا طعـــــام او منام او شـــــراب

أيا من يبـــتـــغي عـــمـــراً طويلاً بذي الدنيـــا طلا بك ذاك عـــاب

لأن العـــيش فـــيـــهـــا عـــيش ذلّ وعـــيش الذلّ ، لو تدري ، مـــصـــاب

وإن طلب الذليل طويل عـــمــــر بهــا فــالبــوم يرضـيـهــا الخـراب
وعـــيـــــر الحيّ بالاذلال يـرضى ويرضى أنتن الجـيـف الغــراب

ويختم قصيدته قائلاً :

ألا ليت المـــشـــيب يجيء يومــاً فــأخــبــره بمـا فــعل الشـبـاب

حنين الى بغداد

من قصائد سجن الكوت (١٩٦٢)

دمع يسـيـل وأعـيـن سـحّـاء لم يمنع الدمع الهـتـون حـيـاء
طال الحنين الى مـلاعب صـبـيـة كـالزهر قـد ضـمّـتـهـمُ الزوراء
فـارقت بغـداد الحـبـيـبـة راغـمـاً قـد ضـاع لي أمل وخـاب رجـاء
بغـداد ، يا بلد الكرام ، تحـيّـة من شـاعـر عـصـفت به الأرزاء
يقـضي الليـالي خـائفـاً مـترقّـبـاً مـمّـا يبـيّـتـه له الدخـلاء
كم قـد حنوت عليّ في صغـري كـما تحنو على أفـراخـهـا ورقـاء
فـلأنت ، يا بغـداد ، خـيـر مـدينة حـمـلتك تائهـة بك الغـبـراء
المـاء عـذب والهـواء مـعطّر وتـراب أرضـك منعش مـعطاء
والدار ، ان قـدم الغـريب ، فسيـحـة والعـيش رغـد والوجـوه رواء
والأهل ، يا بغـداد ، إن ذكـر الندى يومـاً فـأهل شـهـامـة كـرمـاء
وإذا اسـتـجـار المسـتجـيـر فـهمّـة ورجـولة وعـزيمـة ومـضـاء

قوم عبيد

بدت من تحت حلّتـهـا النهـود وبان لهـا كـجـيـد الريم جـيـد
ومـالت وانثنت بهـضـيم خـصـر تمـرّغ في التـراب له الخـدود
ولحظ فـاتر الأجـفـان ، لكن تخـرّ لعظم هـيـبـتـه الأسـود
وقـد أبدت ثناياها ابتـسـامـاً له احـمـرّت من الخـجل الورود
لقـد شـقي الذي غـضـبت عليـه ونائل نظرة منهـا سـعـيـد
فـقلت لهـا : أفـاتنة البـرايا وقـاتلتي : لقـد طال الصدود
جـفـاؤك ، يا منى روحي ، عظيم وحـبّي ، يا مـعـذّبتي ، شـديد
فـجـودي وارحـمي بجـمـيل وصل ينعّـمني فـقـد شـمت الحـسـود
فـقـالت لي ، وقـد لبـست سـواداً وقـد غـضـبت : عظيم مـا تريد

أتبغي ، يا حبيبي ، اليوم وصلاً وقومك في مواطنهم عبيد؟
وربّك لا تنال الوصل حتى يعود لقومك الشرف التليد
أمامكم تمثّل ، يا حبيبي ، روايات يشيب لها الوليد
وأنتم خائضون ببحر لهو ، أليس بأرضكم رجل رشيد؟

توفي محمد بسيم الذويب في بغداد في ٢٤ نيسان ١٩٨٣ .

خاشع الراوي

الشاعر خاشع محسن الراوي ولد في راوة سنة ١٩١٤ وكان والده كبير علمائها . جاء خاشع الى بغداد ودرس العلوم العربية ،وانتمى الى وظائف الحكومة ، وكان أخيراً موظفاً في مديرية التوجيه والاذاعة العامة .

خاشع الراوي قبل كل شيء شاعر خاشع متصوّف ، وقد نشر ديوان شعره «مع النفس» سنة ١٩٦٥ وصدره بالبيتين التاليين :

تعلق بالدنيا أناس ، وانني صرفت عن الدنيا الدنّية آمالي
وسرت الى الله الكريم بمفردي ومالي سواه من معين ومن وال

وقال :

نام الخليّ ضحى ، وأنت مسهّد وأقام في أمن وأنت مهدّد .
تطوي الليالي الكالحات مؤرقاً طوراً تئنّ وتارة تتنهّد
لك مهجة حرّى وطرف لم يذق طعم الكرى فكأنما هو أرمد
ترب الندى ، للّه انت من امرئ حرّ تناطحه الخطوب فيصمد
ماانفك بالايمان قلبك عامراً نحو الطموح به هوى وتوجّد
تتفرّس الأيام منك بنظرة شزراء فيها نفرة وتنهّد
وتدير طرفك في الزمان محاذراً لم تدر أيّ خطوبه تتجدّد
تأسى لصدرك أن تغصّ بزفرة صعّدتها وأبت فما تتصعّد
فلشدّما لفحت فؤادك حسرة كالنار ليست تنطفي او تخمد
ولشدّما حارت بعينك دمعة خرساء لاتهمي ولا تتبدّد

وهو شاعر يذكر وطنه فيقول :

وطني ترابك عسجد وغبار أرضك إثمد
أما هواؤك فهو من نفح القرنفل أجود
وكأن روضك جنّة فيها الجمال مجسّد

يحيّي ثورة الجزائر ويخاطب أخاه العربي يبثّ له شكواه ويتألم لحال العراق والبلاد

العربية . يجزع لحال الشعب المستضعف اليائس ويندب آلامه الصامتة الخرساء ، ويأسى لكدحه وظمأه وجوعه . ويخاطب الحاكمين قائلاً :

يا من تحكّم واستبدّ بحكمه ، ما نفع حكم لم يكن محبوبا؟
الناس هبكَ قد امتلكت رقابهم فهل امتلكت مع الرقاب قلوبا؟

وكثيراً ما يشكو دهره ويقول :

لست أدري ، وكل قلبي جروح أأغنّي من الأسى ام أنوح؟
أنهكتني مصائب الدهر حتى صرت أرجو من الردى ما يريح
كم أعاني الحرمان وهو مرير وأقاسي الأذى وجفني قريح
انّ حظي من الهناء ضئيل ومجال الهموم نحوي فسيح

ويعلّل النفس :

وهل نحن الا ضحايا الخيال؟ نعيش على الأمل الكاذب

وقد نظم ملحمة في نيرون الطاغية :

ايها الطاغوت ، اهزأ بعباد الله واسخر
وأدر كأسك صرفاً من دم الاحرار واسكر
وامش في الأرض اختيالا وترنّح وتبختر
أنت رَبّ الأمر ، حاشا أن يكون الربّ يؤمر
دم على ظلمك فالظلم اذا ما دام دمّر

ومنها :

ويح قومي ، كلما أيقظتهم زادوا رقادا
فكأن الله قد قال لهم : كونوا جمادا
آمنوا بالمجد لكن قعدوا عنه وآدا
واستطابوا النوم لا يبغون الا النوم زادا
واذا الراعي تجنّى وعلى الغيّ تمادى
فاعذر الذئب اذا ما عاث بغياً وفسادا

امتحن خاشع الراوي باستشهاد ولده سعد الملازم الطيار في حركات الشمال فرثاه بقصيده باكية . وقد كتبت اليه معزياً (جريدة «الأيام» ١٩٦٢) :

امتحن الصديق الشاعر خاشع الراوي باستشهاد ولده فأخرسه المصاب الجلل شهراً ثم أنطقه شعراً يقطر باللوعة والأسى ويتسم بالأنفة والاباء والاستسلام للمشيئة الربانية :

أشكو الى الله ما عانيت من نكد — ومن مصائب دهر أوهنت جلدي
ما هذه حجر بالنار تحرقها — فلا تحسّ ، ولكن هذه كبدي
ولا الذي لفّت الغبراء أعظمه — بالأجنبيّ دماً ، لكنه ولدي
أما التراب وقد روّيته بدمي — فذاك أثمن ما أودعت في بلدي

ان هذه القصيدة مثال الحزن الصامت الصابر من أب مفجوع يعرض قلبه الدامي ويقتصد في ذرف الدموع . وقد بكى كثير من الشعراء فلذات أكبادهم قبل خاشع الراوي ، فمنهم من هزّ وأشجى وأدمى النفوس ، ومنهم من قدّ قلبه من الصخر فكان كالضارب في الحديد البارد . ومنهم من صبر واحتسب ومنهم من ثار وتمرّد على الأقدار .

فمن الشعراء الذين رثوا أبناءهم ابو الحسن التهامي ، جاء بضروب الحكمة والوصف والتشبيه ، ولكن عجز أن يأتي بشيء من العاطفة والوجد :

حكم المنية في البرية جار — ما هذه الدنيا بدار قرار

ولعلّ أبا ذؤيب الهذلي كان أوفر حظاً في هذا المنحى من صاحبه التهامي ، ولو أن نصيبه من العاطفة الجياشة قليل في قصيدته :

أمن المنون وريبها تتوجع — والدهر ليس بمعتب من يجزع

ولقد يصحّ هذا القول في مراثي ابن الرومي لأبنائه ، وقد فقدهم واحداً اثر واحد :

واولادنا أنتم لنا فتن — وتفارقون فأنتم محن

تلك حكمة رائعة وهذه عظة بالغة ، لكن من يطلب اللوعة الجامحة والعبرة الهامعة فليطلبها في أبيات الأعرابية الثاكل التي تقول :

أيا ولدي ، قد زاد قلبي تلهباً — وقد حرقت مني الجفون المدامع

ومن يرم العاطفة الصادقة والحزن الطاغي فليلتمسها في قصيدة عائشة التيمورية التي نظمتها في رثاء ابنتها توحيدة ، فقالت :

طافت بشهر الصوم كاسات الردى — سحراً وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتي فتغيّرت — قسمات وجه شأنها التغيير
فذوت أزاهير الحياة بروضها — وانقدّ منها مائس ونضير

ان هذه البنية لم تتروَّ من فيض الحياة ، فهي تعاف الموت وهي تريد البرء والشفاء . لكنها رأت يأس الطبيب وعجزه فبكت شبابها الذابل وودعت أمها أبلغ وداع ، وتمثلت نفسها عروساً زفّت للموت الزؤام . وهذه الأم الثكلى تنذر نفسها للحزن الدائم

والوجد المقيم ، وتعتصم بالصلاة والدعاء ، وترهن رجاءها في الحياة الباقية حيث اللقاء وحيث السعادة والنعيم .

وماذا نقايس بهذا الحزن اللاذع الطاغي غير الحزن الوديع الهادئ الذي ينبعث من قصيدة فكتور هوغو التي أسماها «في فيلكييه» تلك القصيدة التي قالها إثر فجيعته بابنته المتوفاة في ربيعها السادس عشر . لقد زايل الشاعر باريس وضوضاءها بعد ان وسّد صغيرته الثرى ، فاختلى في بعض الضواحي التي تظلّلها الاشجار ويحفّ بها السكون ليسلو أساه في حضن الطبيعة الوادعة العطوف . نزلت السكينة على قلبه وغمرت نفسه عظمة الله المتجلّية في لا نهاية كونه ، فعاد اليه رشده الطائش ، ورفع طرفه الحسير الى السماء الصافية حاملاً اليها أجزاء فؤاده المحطم يقدّمه خاشعاً من المخلوق الواهن الى الخالق القهار . ووجه الى ربه الخطاب فقال :

«قد علمت ان القبر الذي يطبق على الموتى يفتح أبواب الربيع وان النهاية في عرف الناس ليست سوى البداءة . ان الألم خير وحقّ لأن الله قد شاءه لعباده ، ولا مردّ لقضاء الله ، فالروح تطهرها الأحزان لتدرك الخلود . اننا لا نبصر الامور إلا من جهة واحدة ، والجهة الثانية تختفي في غياهب السرّ الأزلي . نحمل أعباء الحياة دون أن نعلم عللها وأسبابها لأن الله لم يشأ للبشر على الأرض اليقين ولا الهناء . فيا للّه ! ما أشقى العالم ، وان الانسان إلا ذرّة في لانهاية الخليقة .» ثم يقول الشاعر : «قد علمت ان نظام الكون يجري مجراه لا يعبأ لمصائب البشر وآلامهم . أم لعلّك ايها الرب ، تعمل في علياء سمائك أعمالاً تعيي أفهامنا ، أعمالاً يدخل الحزن الانساني فيها عنصراً لازماً . ولعلّ من حكمتك المعجزة أن تفنى الخلائق الجميلة في عواصف الدهر الهوج . ولكن ايها الرب ، انظر الى نفسي وامتحن خفايا قلبي . لقد أكببت منذ الفجر على العمل ، فناضلت وفكرت وقارعت وكدحت . ونهضت بواجبي في هذه الحياة ، لا أبالي بالبغضاء ولا بالغضب . فلم أكن لأنتظر ان أبوء بهذا الجزاء ، ولم أكن لأتوقع أن تثقل يدك عليّ فتسلبني فلذة كبدي ومبعث سلوتي وسروري . ان من ابتلي كما ابتليت كيف يطيق السكوت وزمّ تمرده وشكواه ، فلا يرفع عقيرته بالكفران كالصبيّ يلقي بحجر في البحر الخضمّ؟ ان النفس التي تتعذب كثيراً ينهشها الشك ، والعين التي تبكي كثيراً تصاب بالعمى ، والمخلوق الضعيف الذي يخفضه الحزن الى الحضيض الأوهد لا يستطيع ان يبصر النور ولا ان يتأمل عظمة الخالق .

«ولكنني اليوم حين أجثو بين يديك ، ايها الإله العظيم ، ألمح من خلال شجوني

وميض نور يهديني سواء السبيل فأكفّ عن الثورة والهذيان وأستسلم الى البكاء وعرض ذكريات الأمس الدابرة . فإنه عزيز علينا أن يذهب أولادنا الى غير رجعة : فقد رأيناهم يأتون وكأن السماء قد فتحت لنواظرنا ، ثم رأيناهم ينمون وهم ريحانة نفوسنا ومنازلنا ، فما أمرّ وما أقسى أن نراهم يمضون ويغيبون ! »

تلك مرثية فكتور هوغو لابنته . أما خاشع الراوي فيستجدي المدد من الله وقد وهب ولده في سبيله تعالى :

إنا نجود بأكباد ولاعجباً	منا الضحايا بلا حصر ولا عدد
يا من تعشّى بلحمي لا تكن شرهاً	دع لي البقية من روحي فلا تزدِ
لم أبترد انا اذ كأسي مرنّقة	فما تطاق ، وأما أنت فابتردَ

حتى يقول :

بنيّ يا سعد ، يا من كنت أشحذه	على الملّمات ، يا ذخري ويا سندي
صرعت فاحترقت روحي عليك أسى	والدهر ما ارتاح حتى فتّ في عضدي
نحرت للحزن قلبي عن ضيافته	والعين ضحيتها للسهد والرمد
جاء المعزّي يعزيني فقلت له :	متى الرحيل؟ فقال ارقب صباح غد
يا من أراد حياة يستراح لها ،	ارحل الى غير هذي الدار وابتعد
فقد يعيش غريب وهو مبتهج	وربما طالت الدنيا الى أمد
وقد يعود الفتى للأهل من سفر	إلا الذي بات رهن الموت لم يعد
فحسبي الله أن أرنو بشاخصتي	إلا اليه ، فما أشكو الى أحد

وقد مضى خاشع الراوي الى الكويت فتوفيّ بها في ١٧ آذار ١٩٧٤ ونقل جثمانه الى بغداد فووري التراب فيها .

الدكتور يوسف عزّ الدين

الاستاذ الجامعي الشاعر يوسف عز الدين بن السيد احمد بن عبدالرزاق ينتمي الى أسرة سامرائية تنحدر من عشيرة البو صالح الشيخ وترتقي بنسبها الى الامام موسى الكاظم سليل الامام السبط الحسين بن علي بن ابي طالب . ولد سنة ١٩٢٢ في بعقوبا من أعمال ديالى ، وكان أبوه ضابطاً في الجيش العثماني أصله من بلدة سامراء تركها لخلاف نشأ بين أسرها .

أتم يوسف عز الدين دراسته الابتدائية والمتوسطة متنقلاً بين المقدادية وبعقوبا . ثم انتقل الى بغداد ودرس في دار المعلمين الابتدائية وعيّن معلماً في قرية امام عسكر من قرى بلدروز . وذهب سنة ١٩٤٦ للدراسة في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فحاز على شهادة الليسانس بشرف والماجستير بشرف .

عاد الى بغداد فعين مدرساً في المدارس الثانوية في تشرين الاول ١٩٥١ . ثم حصل على اجازة دراسية فذهب الى لندن ودرس في جامعتها . وتتلمذ على المستشرق ألفرد كيّوم ونال الدكتوراه في الآداب (١٩٥٧) .

عين مدرساً في كلية الآداب ومعاوناً للعميد ، ثم اصبح اميناً للمجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٢ في عهد رئيسه الدكتور ناجي الأصيل . وعيّن بعد ذلك أميناً عاماً للمجمع واختير عضواً فيه في آيار ١٩٦٤ مع بقائه مدرساً في كلية الآداب . وكان أميناً لجمعية المؤلفين والكتاب العراقيين فرئيساً لها سنة ١٩٦٩ .

وقد انتدب للتدريس في جامعة الرياض وانتهى به المطاف في الطائف بالمملكة العربية السعودية حيث اسهم في الكتابة في عدد من الجرائد والمجلات كالجزيرة والفيصل والمجلة العربية والمدينة والندوة .

وكتب اليّ في تموز ١٩٩٢ ان له نحواً من أربعين مؤلّفاً طبعت في القاهرة وتعذّر استيرادها ، وقال : «ومع ذلك سوف أحاول (ارسالها اليك) عندما اذهب الى مؤتمر مجمع اللغة العربية في مارت المقبل باذن الله» .

والدكتور يوسف شاعر وطني حيّا حركة مايس ١٩٤١ ونضال الجزائر وفلسطين .

ونظم الشعر العاطفي الجميل وكتب القصص والبحوث الأدبية . قال انه تأثر بشعراء وادباء كثيرين ، منهم الجاحظ والمتنبي والرصافي والصافي النجفي والشبيبي الكبير وشوقي والبارودي . وقال : أنا أحب الناس ، وما دخل قلبي بغض لأحد منهم لايماني بأن الحب يغير كثيراً من النفوس الخيّرة التي غيرتها المصائب .

ترك وطنه الذي أحبّه وخدمه وغنّى له اجمل الالحان واعذبها فجرع كأس المرارة والأسى ، وقال (قصيدته شرب الملح ، ١٩٩١) :

ربّة الشعر ، هل علمت بحبّ ... بين هجر تشقينه وبقرب؟
والعشيّات رخّمت صوت وجد ... همسات النجوم من كل درب
أترى يوقد الحنين رواء؟ ... من أتون الجراح ينزف قلبي
ليت شعري ، والرمل رمل بلادي ... ومياهي بها تساغ لشرب
نزفت من جراحها موج همّ ... ترتوي من دماء أهلي وصحبي
يشرب الملح كل عضو جريح ... أيداوى بالملح جرح المحبّ؟
كم رضعنا من التفرّق سمّاً ... لدغته أسنان أفعى وذنب
شهداء النضال في كل ساح ... رويت من دمائهم كل شعب
وتغنّت بهم ثغور المعالي ... وزهت فيهم السماء بشهب
بدمانا نذود كلّ شنار ، ... بشباب ما هاب حمأة حرب
حرقوا ذلّة الهوان بعزم ، ... مهّروا في الخلود أصعب درب

وواصل أغنية الألم والأسف فقال :

كيف ترضين ، أمة العرب ، أني ... في تراب الهوان أدفن حبّي
أبوار وأنت فيض جدود ... نشرت في الوجود أروع خصب؟
ليت شعري وفي الليالي الحيارى ... خير أحلامنا تصاب بجدب
ودمانا تسقي الثرى والثريّا ... وتنامون في حرير المحبّ
أمّنا هذه الرمال ومنها ... أشرق النور وازدهى كل شعب
سطع النور ضاحك من سناها ... وهواها ما بين جفن وهدب
أنا أسقي تلك الروابي جراحي ، ... كيف أضحت جدباء من بعد خصب
كيف نامت في الغدر رمل بلادي ، ... أومات الوفاء من طعن قضب؟

ثم قال يخاطب الصحراء :

يا رمال الصحراء ، حبّك شرعي ... قد تغنّت بها مزامير عتبي
أضرمي في اللحون حباً عظيماً ... ثم عبّي من المكارم عبّي

إن ربعـــاً لايعـــرف الحب ربع | ليس والله من قـبـيلي وشـعـبي
أيهـا الشـعب ، تشـرب الجلد حلمـاً | مـثل شـاة تعـيش في أسـر ذئب
كـيف ترضى على الهـوان خـشوعـاً؟ | عـجـبي ، يا بني العـروبة ، عُـجْـبي
أنا كـسّــرت ريشـتي ويراعي | بعـدمـا ضـيّـعـوا حـروفي وكـتـبي
أتـراني حـــملت هـم بلادي | والحنايا مـقـروحـة بين جنبي؟
وبوجـهي من كـالحـات الليـالي | يبـسم الهّم من شـجـون بقلبي
نهـشت مـهـجـتي فـأنّ جـريحـاً | قلب حبّ من ظلم نـهش وسلب
يا مطايا الصـحـراء ، يا حـفنة الرمل ، | يا حـجـارة الصـخـر هبي

مؤلفاته .

الشـعر العـراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية ، بين الحداثة والمحافظة ، اثر الادب العربي في مسرى الادب الغربي ، الشعر العراقي خصائصه واهدافه في القرن التاسع عشر ، خيري الهنداوي حياته وشعره ، الرواية في العراق تطورها واثر الفكر فيها ، داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، من ضمير الزمن (شعر) ، مخطوطة شعر الاخرس (تحقيق) ، الاشتراكية والقومية واثرهما في الادب الحديث ، شعراء العراق في القرن العشرين (ج ١) ، في الادب العربي الحديث بحوث ومقالات نقدية ، من رحلة الحياة (شعر) ، في ضمير الزمن (شعر) ، ألحان (شعر) ، فهمي المدرس من رواد الفكر الحديث . وألف باللغة الانكليزية : المشاكل الاجتماعية في العراق وتأثيرها في الشعر (١٩٥٨) ، تحرير النساء العراقيات : النساء وتأثيرهن في الحياة والشعر العراقي (١٩٥٩) ، الشعر والمجتمع العراقي (١٩٦٢) ، الشعر الحديث في العراق (١٩٦٩) ، أغاني من بغداد (١٩٨٤) .

قال خضر عباس الصالحي : «ان الدكتور يوسف عز الدين شاعر استوحى موضوعاته من صلب البيئة التي عاش فيها ، وعكس تجارب الحياة في شعره ، ذلك الشعر المفعم بأصالة الفن من حيث مضمونه وصوره الجمالية وتدفق حرارة الحياة في شرايينه . تسمو فيه الأفكار الخيّرة والمعاني السامية والأحاسيس الجميلة...» .

وقال الدكتور داود سلوم ان اسلوب يوسف عزالدين يتميّز بقوته وشدة الفاظه وتركيبه مما يترك أثراً في نفس القارئ . انه خال من روح الطراوة التي تسود آثار العصر . لكنه لا يلوم الشاعر آخذاً في الحساب المستّمر الأدب العربي القديم واتصاله الدائم بالمكتبة العربية بحكم عمله وواجب الدراسة .

من شعر يوسف عزالدين

الى أبناء الجزائر

بكم وبالعـــزم العـــتــيـــد وبالدم — مــتــدفــقــاً من كل ليث ضــيــغم
بالثــاكــلات النائحــات عــشــيــة — بالدمع تذرفـــه عـــيـــون الإيّم
بالطفلة الولهى تسـائل أمّــهـــا : — أمـــاه ، أين أبي ، بمن أنا أحــتــمي؟
باسم الضــحــايا في جــمــيع ديارها — قـــد جـئت أطلب ثأر مـــوتور ظمي
إيه جـــزائرنا ورمـــز كـــفــاحنا — ألمــجــد ينسـجـه وروعـــات الكمي
حــتى خطوب الدهر فـيك تعـاورت — وشكت ، ولكـن من أنين المــــأتم
هذا شــبــابك روضـــة مــعطارة — رفّ الشـــذا فــيـــه كنور البـــرعم
واســتــافت النســمــات من أزهاره — ثم انتــشت من لـذة المــتـنعم
والغــيــد تمـرح في بطاحك غــبطة — فــتــهــيم أنفــاس الربيع المــغــرم

غداً أغنّي

غـــداً ألاقي حـــبـــيـــبي — واشـــــتكي أوصـــــابي
وأشــــرح الشـــوق شـــعـــراً — بـهـــيـنمـــات عـــذاب
فـــلا تلـمنـي اذا مـــا — باح الـغـــرام بمـــا بي
قـــد ضـــاع عـــمـــري هبـــاء — وضـــاع حلـو الشـــبـــاب
يـا نـور ، طابت حـــيـــاتي — بـعـــد الـسنـين الـكوابـي

* * *

غـــداً أغـنّي حـــبـــيـــبي — بـأعـــذب الألـحــان
وانتـــشي من جـــمـــال — تبـــشّـــه العـــينان
تمـــيس كـــالورد تيـــهـــاً — بقـــدّها الفـــينان
غـــداً لقـــاء ربيـــعي — وبـاســمــات الأمـــاني
إنّا قـــريبـــان لكـن — شـــرابنا من ســـراب

* * *

يا قـلـب رفـــقـــاً بشـــوق — ألـست تـرحـم حـــالـي؟
لا تـأمـنـنّ فـــتـــاة — غـــرّتك بـالاقـــبـــال
إيـــاك والـــحـــب قـــلـــبي — وآســـرات الـدلال
فـلـيس في الغـــيـــد أمن — مـن دون رشف رضـــاب ، الخ .

القبلة الثائرة

لمن كانت القبلة الثائرة؟ ... أثرتِ بها لهفة حائره

وهذا الذهول على ناظريك ... يتيّه من النشوة الساحره

رفيف الورود على وجنتيك ... ترفّ بمعطارة ناضره

أثار الحياء عليها العبير ... بأنسامه الحلوة العاطرة

وصوتك بُحَّ غداة الوداع ... وعينك حيرى ، لمن ناظرة؟

قد جفّ مني الخيال الجميل ... وعدت الى سيرتي الجامده

لماذا أتيت الى قفرتي ... وما أنت من قفرتي حاصده؟

ذريني أقض خَريف الحياة ... وأجرع آلامه الخالده

فحسنك أحيا موات الشجون ... وألهمني الفكرة الشارده

رياض الربيع وعطر الرجاء ... وأنسامه الحلوة البارده

أريحي فؤاداً دهته الهموم ... وأمسى بهذا الهوى سادرا

وردّي على القلب طيب الأمان ... فيزهو جميل المنى ناضرا

رجوتك هل تقبلين الرجاء؟ ... أجيبي فؤاداً غدا حائرا

لمن كانت القبلة الثائرة؟ ... فقلبي لها قد غدا ثائرا

أيها البحر

رعشات الحنين نحو الوصال ... عصفت بالمشوق عصف الليالي

فتغنّت ذكرى الغرام اضطراماً ... وجنوناً ولوعة للوصال

جئت ، يا بحر ، أشتكي من نواها ... فاصغِ يا بحر ، إن شكوتك حالي

كم ركضنا على الرمال سروراً ... ثمّ همنا في الحبّ كالأطفال

ما خشينا الوشاة نّموا علينا ... او لهمس الحسّاد والعذّال

ونهبنا لذاذة العيش صفواً ... وطفقنا نهيم بالآمال

بين أمواجك الحبيبة همنا ... وسبحنا بمائك السلسال

وعلى الرمال كم نظمنا قريضاً ... ساحر اللحن عبقريّ الخيال

قد شكونا لك اضطراب معنّى ... بعد أن عاش ناعماً في الجمال

وشربنا بذوب دمع كؤوساً ... طافحات بدمعيَ الهطّال

هات ، يا بحر ، ذكريات هواها ... فهواها يفوح بين المجال

خفَقات المهجور نحو هواها ... آهة الحب في فم الأجيال

غرام شهرزاد

شـــهـــرزاد ، أســـبل الســـتـــر الدجى   حـــدثينا عن جـــمـــال السُّـــوَر
وغـــلالات العـــذارى هفـــهـــفت   مـــتّـــعـــينا بشـــهـيّ الصـــورَ
وصـــفي كـل لقـــاء عـــاطر   لفّ إلفـــين بطيب الأعـــصـــر
من ربوع الشـــرق قـــصّي قـــصّـــة   تغـــرق النجـــوى بدمع الـوتر

***

صـــوتك الرقـــراق نشـــوى هائم   ينتـــشي بالحلم العـــذب الجـــمـــيل
أنت ضـــمّـــخت الهـــوى والهـــة   فـــانتـــشى الواله من لطف الخليل
وأنا ســـقـت لك العـــتـب هوى   وشـــعـــوراً فـــاض بالودّ النبـــيل
وخـــيـــالي الخـــصب في آمـــاله   يشـــتـــهي طيف اللّقـــا بعـــد الرحـيل
غـــيـــبـــة طالت على آمـــالنا   وسكوتي كـــان من ليلي الطويل

***

لا تلومي شـــهـــرياراً في الهـــوى   لـم يجـــد في حـــبّـــه من ناصـــر
وارفـــقي في شـــاعـــر تؤلمـــه   ذكـــريات مـــا مـــشت في خـــاطر
قـــتلت أنغـــامـــه غـــادرة   وأمـــاتت أمنيـــات الشـــاعـــر
وســـقـــتـــه كـــأسـهـــا طافـــحـــة   وتـلـظّـت بالـزعـــاف الغـــادر
قلبـــه الشـــرقيّ مـــا أخـــضـــعـــه   لغـــرام في الأمـــاني فـــاجـــر

***

وإذا مـــرّ من الشـــرق الشـــذا   دامـيَ الآلام يـزجـي نَشْـــــــرَهُ
فـــهـــو لـحن لفـــؤاد واله   ضـــجّت الشكوى فكانت خـــمـــره
خـــمـــرة قـــد عـــتّـــقـــتـــهـــا غـــادةٌ   وأدت في فـــيـض هجـــر صـــبـــره
فـــهـــو في بغـــداد يســـتـــاف هوى   بـــدّدت فـــــوق ثـراهـــا عـطـره
فـــغـــدا يعـــزف لحناً باكـــيـــاً   وغـــدا الكون يغنّي شـــعـــره

***

فاتنة العيون

انّ في عـــينيك ، يا قـــاتلتي ،   خـــمـــرة تلهب في الاحـــسـاس وجـدا
كلمـــا أمـــعنت في ســـحـــريهـــمـــا   خـــفـــق القـلـب جنوناً وتـردّى
لا تلومـــيـــه ، فـــقـــد جـــرّعـــتـــه   غـــصص الآلام كـــأســـاً اثر كـــأس
أرسليـــهـــا فـــتنة عـــاصـــفـــة ،   أحـــرقي روحي وأحـــلامي وحـــسّي

هدئي روعك ، يا فاتنتي ، وارفقي بالخافق المضطرم
انّ في عينيك سحراً كامناً وسرى سحرك في قلبي الظمي
أنا أخفيت جراحاتي ولم أتشكَّ الألم المضني الحزين
خشية ان تقتليني بالنوى فأقضّي العمر ما بين الشجون

كلمة ختامية

انتخب الدكتور يوسف عزالدين عضواً بالمجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية في القاهرة ومجمع اللغة العربية في دمشق والأردن والمجمع العلمي الهندي وبيت الحكمة في تونس . وتولى التدريس في كلية الآداب في بغداد وجامعة بني غازي وجامعة الملك سعود في الرياض ومعهد الدراسات والبحوث العربية بالقاهرة وكلية الآداب في جامعة صنعاء وكلية التربية في جامعة أم القرى بالطائف . وقد شارك في مؤتمرات أدباء العرب في بغداد والقاهرة وبيروت ، ومؤتمرات مجامع اللغة العربية في تونس وبغداد والقاهرة ، ومؤتمرات الجزيرة العربية في الرياض ومؤتمر التراث الاسلامي في الأردن ومؤتمر الأدب العالمي في ويمار وبرلين ومؤتمر أدباء آسية وأفريقية في الصين وطاشقند ومؤتمر المستشرقين في الهند .

وتولى رئاسة تحرير مجلة الكتاب التي اصدرتها جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين وجريدة «الندوة» ومجلة كلية الآداب في العين الخ .

من مؤلفاته الأخرى : قولة في النقد وحداثة الأدب ، مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا الوطنية ، تراثنا والمعاصرة ، قلب على سفر ، ثلاث عذارى ، النورس المهاجر ، قضايا من الفكر العربي ، التحدي الحضاري والغزو الفكري ، حلو الذكريات ومرّها ، همسات حب مطوية ، وعادت الذكرى بطرائفها وغرائبها ، الى الديار الممنوعة ، الخ .

كرّمه الشعراء والأدباء في البلاد العربية شعراً ونثراً . قال فيه أحمد رامي :

يا رفيق الشعور تبعث في قلبيَ وجدي وتستجيش حنيني
أنت جددت في فؤادي شكواه ونبهت غافيات شجوني
فطواني الذي طواك من الوجد وأرسلتَ ساكنات أنيني

وقال خالد الشواف :

لهات حياتك ما أعجبه لمن يتملّى وما أغربه
فهذا اللهات على وقده هو البرد للأكبد الملتهبة

وهذا اللهاث لهاث العناء به ساحة الأنفس المتعبة
إذن لا أقول العجيب الغريب ولكن هذا الشعر ما أعذبه!

وقال الدكتور مصطفى جواد :

إذا ذكر الشباب أبرّ حقاً عليهم يوسف الشهم الأديب
وإن ذكر الصحاب طما عليهم ولم يدركه ندب او أريب
دؤوب يوسع الآداب نشراً ويكتب ما يعزّ وما يطيب

وقد أصدر الاستاذ حماد السالمي كتاباً باسم «أشعار المحبين الى يوسف عزالدين» جمع فيه ما قاله أربعون شاعراً عربياً . وكتبت عنه كتب بالعربية والفرنسية والانكليزية تثني على شعره وأدبه . وكان من الروّاد ، فقال الدكتور عبد الله العبادي إن ريادة يوسف عزالدين لم تقتصر على الابداع في التأليف والرأي والمنهج ، بل تعدّتها الى ريادته في المساهمة اللغوية الحديثة في مجامع اللغة .

خالد الشوّاف

الشاعر خالد الشواف ابن قاضي بغداد الشيخ عبدالعزيز بن أحمد بن عبدالرزاق الشواف ، ولد في بغداد سنة ١٩٢٤ وتخرج في كلية الحقوق (١٩٤٩) . زاول المحاماة ، ثم عيّن مديراً عاماً بوزارة الارشاد (١٩٦٤) فمدير الثقافة العام . ونقل الى وزارة التربية والتعليم في نيسان ١٩٧٠ .

نظم مسرحيات شعرية منها : شمسو (١٩٥٢) ، الأسوار (١٩٥٦) ، الزيتونة (١٩٦٨) . وله دواوين شعر : من لهيب الكفاح (١٩٥٨) ، حداء وغناء (١٩٦٣) . وآخر ما ظهر له مسرحية منظومة «الردم» (١٩٩٤) .

قال غازي عبدالحميد الكنيّن في الجزء الثاني من كتابه «شعراء العراق المعاصرون» : «استهوته حضارات البابليين فانكبّ يفتش بين صفحات تأريخ بابل عن أدق المعلومات . فدرس أقوامها وعظماءها وتقلباتهم ، وتعمق في درس نفسياتهم حتى خرج علينا بمسرحياته الشعرية جامعاً أهم الأحداث التأريخية... فكان مجدداً لذلك الشعر التمثيلي الطويل في موضوع موحّد متماسك الأفكار والصور» .

من شعره في اسناد كفاح المغرب العربي (سنة ١٩٥٥) :

قل للسياسات العجاف : وراءا ... حمي الوطيس وأنت لست كفاءا

بطلت رقى المتفاوضين ، ولم تعد ... تلقي الموائد للشعوبَ غذاءا

ما اليوم يوم البائعين مدادهم ، ... اليوم يوم الباذلين دماءا

والمعرضين عن الأحابيل التي ... لا يدرك الهاوي بهنّ نجاءا

والحاملين على الدخيل بعزمة ... لا تعرف التسويف والابطاءا

والمضرمين عليه نار تراتهم ... والممطريه الحقد والبغضاءا

والغامسين طعامه بنجيعه ... والمالئين شرابه أقذاءا

المغرب العربيّ يعرف دربه ... ليست دروب السالكين سواءا

نبذ الدروب الدائرات بخطوه ... عبثاً ، وشقّ طريقه حمراءا

ان الطريق الى الحياة عقيمة ... إن لم تكن فيها الصُّوى أشلاءا

ثمن الحياة دم يسيل وأنفس ... تشقى وأجسام تصيب عناءا

وله (من قصيدة في موكب الذكرى) :

يا حارس الارث يحمي قدسه دمه ... لن يستباح حمى هيهات تسلمه
إرث النبوّة لا تمضي به بدداً ... أحلاس ليل تولّت عنه أنجمه
كم نهنه الليل منهم طامعاً فسطا ... وأسفر الصبح عن دهياء تهزمه
أما سقتهم أمانيهم نجيعهمُ ... في جاحم لم يكد ابليس يقحمه؟
قالوا : ورثنا وشطر الأرض تحتهمُ ... والذرّ كفّهم بالعلم تلجمه
فقالت الروح : بل صبراً الى أجل ... محتّم ليس إلا الله يعلمه
يا عابد المال ، لا تأخذك كثرته ... فالبغي ديناره زيف ودرهمه
يا حطام الذرّ ، لا تغررك قوّته ... فالحق أصلب من ذرّ تحطمه
يا مالئ الأرض آمالاً مبهرجة ... وما شفى جرحه النّغار بلسمه
متى تطبّ لنفس لا شفاء لها ... وأنت لم توف جسماً ما يقوّمه؟
يا أيها الشرق ، هل أقصيت منتجعاً ... وافى حياضَي فلم يعبق بها فمه
أما ترى الغرب مسعوراً به شره ، ... فكيف غرّك معسول ينمنمه؟
هو المريض وهل يشفيك من رهق ... من لم تُبلَّ من الأدواء أعظمه؟

تحية الى مصر (١٩٥١)

يا جيرة النيل ، لو تجدي تحايانا ... لقد نفحنا بها أهلاً واخوانا
أقلّ حقّ لديكم عند اخوتكم ... بذل الدماء ، ويوم البذل قد آنا
لكن يومكم الموعود طالعكم ... ويومنا ، ويح ما أقصاه ، ما حانا
يا جيرة النيل ، شدّي من سواعدها ... فإنها صلبت عزماً وايمانا
دم الضحايا الذي روّى غراسكم ... للانعتاق سيؤتي الأكل ريّانا

تونس (١٩٥٢)

هذي رباك يضوع في جنباتها ... أرج الفدا وعبير الاستشهاد
في كلّ ناَحية حشاشة باذل ... سالت تضمخّها ومهجة فاد
فاستشهدي يوماً كأمس ولا تهني ... عن بذل تضحية ووصل جهاد

صفاء الحيدري

الشاعر صفاء الحيدري أخو بلند الحيدري ، وهو ابن أكرم حيدر الحيدري الرئيس (النقيب) في الجيش العراقي وأمه أخت داود الحيدري وزير العدلية العراقية . ولد في آنقرة سنة ١٩٢١ وعاد مع أسرته الى بغداد وهو طفل فدرس في مدارسها ، ولم يلبث ان انقطع عن الدراسة لينصرف الى الصحافة والأدب .وآثر ان يعيش عيشة بوهيمية متنقلاً بين الأحياء والجهات دون استقرار نفسي .

أصدر مجلة «الأقباس» سنة ١٩٤٥ وشفعها بجريدة «صوت العراق» اليومية فلم تدم طويلاً . ونظم الشعر فنشر قصائده في الصحف والمجلات العراقية واللبنانية . وأصدر سنة ١٩٤٧ ملحمة شعرية بعنوان «أوكار الليل» . وله أيضاً : بابلون (اوبريت) ، الخطيئة ، عبث (١٩٥٠) ، قصائد وبرامج وطنية (١٩٥٨) ، قنوط (١٩٦٢) ، يوميات مراهق (١٩٤١) . وجمع أشعاره بعد ذلك في مجلد واحد بعنوان «ديوان الحب الكبير» (١٩٧٨) .

قال الدكتور جليل العطية ان صفاء تعرّض للتفتيش والاعتقال في أواخر سنوات السبعين متهماً بالتطاول على صدام حسين والحزب الحاكم فأرغم على توقيع تعهد بحضوره الى دائرة الأمن أربع مرات سنوياً والتعاون معها . وقد فكّر في الانتحار ثم صرف النظر عنه ، وأخذ ينظم القصائد في مدح صدام والتغنّي بأمجاده وحروبه .

عمل صفاء في دوائر الحكومة أمداً قصيراً ، فكان مدير التوجيه والنشر في وزارة الاصلا ح الزراعي أيام حكم عبدالكريم قاسم . وفصل من وظيفته بعد انقلاب شباط ١٩٦٣ .

قال الدكتور جليل ان صفاء لم يجد له مكاناً بين الشعراء المبدعين ، بل بدأ مقلداً لمدرسة المهجر والياس أبو شبكة ، وظل ملتزماً بالأساليب الكلاسيكية يراوح ويكرر نفسه . «ولعل لفشله العاطفي الذي تجسّد في مجموعته «قنوط» الأثر في ذلك الجمود» .

توفي صفاء الحيدري في بغداد سنة ١٩٩٢ .

مصطفى جمال الدين

من شعراء المدرسة الكلاسيكية القديمة في العصر الحديث السيد مصطفى جمال الدين ، وهو مصطفى بن جعفر بن عناية الله من آل جمال الدين ، ولد في قرية المؤمنين بسوق الشيوخ في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٧ ، وكان جده ، وبعد ذلك أبوه ، المرشد الديني للعشائر المجاورة . أُرسل الى النجف وعمره ١١ سنة فدرس فيها علوم الفقه واللغة وتخرج في كلية الفقه سنة ١٩٦٢ ، فعيّن معيداً بها . ثم أمّ بغداد فدرس في جامعتها وحاز على درجة الماجستير في الشريعة الاسلامية سنة ١٩٧٢ . وواصل دراسته العليا فنال الدكتوراه في اللغة العربية (١٩٧٩) ، وكانت اطروحته في «البحث النحوي عند الأصوليين» . عيّن مدرساً في كلية الآداب ، كما تولى التدريس في كلية الفقه وكلية أصول الدين أمداً يزيد على عشرين عاماً . وكان رئيس جمعية الرابطة الأدبية في النجف من سنة ١٩٧٥ .

اضطر على مغادرة العراق بسبب الظروف السياسية الطارئة سنة ١٩٨٠ فأقام في القطر السوري . وقدم أخيراً الى لندن للمعالجة من داء السرطان الذي استفحل في رئته . وعاد الى دمشق في ايلول ١٩٩٦ وأدركه الحمام بها في ٢٣ تشرين الأول ١٩٩٦ .

نشر ديوان شعره في بيروت سنة ١٩٩٥ . ومن مؤلفاته الأخرى : القياس حقيقته وحجيّته ، الاستحسان : حجيّته ومعناه ، الانتفاع بالعين المرهونة ، الايقاع في الشعر العربي من البيت الى التفعيلة ، ديوان عيناكِ واللحن القديم .

شعره

السيد مصطفى جمال الدين شاعر طويل النفس عباسيّ الديباجة ، مواضيعه اجتماعية ودينية ووطنية وقومية ، وله مراثي في الشيخ محمد رضا الشبيبي وصالح جبر ومصطفى جواد وأحمد الصافي النجفي وغيرهم من الاعلام . وله الى ذلك قصائد جميلة في الغزل والغربة والحنين الى وطنه .

من شعره :

بغداد ، ما اشتبكت عليك الأعصرُ   إلا ذوت ، ووريق عمرك أخضر

مرّت بك الدنيا وصبحك مشمسٌ ، ودجت عليك ووجه ليلك مُقْمرُ
وقست عليك الحادثات فراعها انّ احتمالك من أذاها أكبَر
حتى إذا جُنَّتْ سياط عذابها راحت مواقعها الكريمة تسخر
وكأنّ نومك ، إذ أصيلك هامد ، سنةٌ على الصبح المرقّه تخطر
للّهَ انت ، فأي سرّ خالد ان تَسْمَني وغذاء روحك يُضْمرُ!
أَن تشبعي جوعاً وصدرك ناهد او تَظْلِمي أفقاً وفكرك نَيِّرُ!

من ليالي الفرات

يا ليلُ ، أين أحبّتي ورفاقي؟ خلت الكؤوس فأين ولّى السّاقي؟
أحبابنا عودوا فثمّة سامر نشوان من خمر السّنى المهراق
فالليلة القمراء أكؤس فضّة سُكبَتْ بهنّ عصارة الإشراق
والأنجم الزهراء سامر فتية ميل الرؤوس رخيّة الأعناق
والبدر ، لو تدرون ، فهم عاشق سلبت قواه نواعس الأحداق
سالت مدامعه فقيل : أشعّة وذوى فقيل : تأهُّبٌ لمَحَاق
والنهر جُنَّ فلم تفده رُقْية ، وطغى فأسْقط في يمين الراقي
يجري ، ومذ هفت الغصون للثمه أجرى مدامَعه على الآماق

ومن غزله الرقيق :

قرّبي روحك الرقيقة منّي ودعيني أنسى مصارع فنّي
أنا ، يا حُلْوتي ، شجيّ من الأنغام ، هيمان لم يمتّع بأذن
عزفته قيثارة لم تمازجه هديراً فعاد أسوأ لحن

خيوط النجوم

طرّزيها بسحر عينيك ، يا ليلى ، بما تطويان من أسرار
بابتسامتك التي علّمتني كيف تخضلّ بالرَبيع الصحاري
بدموع أطلَقْتها وأنا أسمع وقع النجوم في أفكاري
ثمّ لمَلَمْتُها لأجعل منها في ظلام الحياة نوري وناري
طرّزيها بهمس ليلتنا إذ نحن سرّان في ضمير قطار
إذ أطلت عيناك تبحث في عينيّ عن سرّ ضيعتي وانكساري
فتلاقت روحي وروحك في شجو حبيب جُنّت به أوتاري
ثم ذبنا مع الظلام بلحنٍ صهر العمر كلّه في قرار

لميعة عباس عمارة

الشاعرة لميعة عباس عمارة ولدت في بغداد سنة ١٩٢٩ ، وكان أبوها من الصاغة الصابئة المتفنين في صياغة الفضة ، وقد اصطحبناه الى باريس سنة ١٩٣٧ فافتتح في معرضها العالمي ، مع زميله المسمّى سكران ، محلاً للصياغة نال الاعجاب وحظي بجائزة المعرض الذهبية . ثم هاجر الى شيكاغو ونقل اليها فنّه الرائع الأصيل .

تخرجت لميعة في كلية التربية فرع اللغة العربية سنة ١٩٥٠ وعملت في التدريس . قالت عن نفسها : «تقلبت حياتها بين النعمة والكفاف وذاقت حلو العيش ومرّه ، وكانت على الحالين باسمة الثغر دائماً ، متفائلة أبداً على عكس ما يبدو في شعرها من لمحات التشاؤم» . وقد انتخبت عضوة في الهيئة الادارية لاتحاد الأدباء العراقيين سنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ .

قالت عن نفسها أيضاً : «لم تنظم في وصف الطبيعة وجمالها ، فقد استهوتها الأغراض الانسانية من مآسي البائسين وأحلام الشباب وجمال الأمومة وروعة الحبّ . ولها مع شعر الحب والشباب ذكريات لطيفة ، فأول ما حفظته من الشعر كان رواية مجنون ليلى لأحمد شوقي ، وكان عمرها ستّ سنوات لا تعرف القراءة والكتابة» .

في شعر لميعة نبرة حزينة لفتاة طامحة لم تنل جلّ أمانيها . أسرها الشعر بفتنته فبرمت بما جاء به من بؤس وجروح قاتلة . وسافرت ، نزلت في الفنادق وزارت الأسواق والمتاحف . تمخّرت أنفاس البحر وجرت على الرمال وتنزّهت في ظل أشعة الشمس ، لكنها عادت بالسأم وخيبة الأمل ، وقبعت في مكانها كالنجم التائه في الفضاء الخارجي الواسع . مضت تقصد العرّاف ، فلم يتنبأ لها بما تريد . آه ، لو قال لها ان الحبيب سوف يأتيها لاستكانت ولم تنظم نشيد الحبّ . لو قال لها انها تلمس وجه القمر لما لعبت بالحصى في الجداول . لو قال لها ان الحب يقدم اليها أميراً على حصان من الياقوت لما حلمت بالموت والفناء . لو قال لها العرّاف انها تلقى الحبيب في الصحراء لأمسكت عن البكاء واحتفظت بدمعها ليوم الهجر والجفاء .

تبرّأت من الشعر فقالت :

لعنة اللاعن ، يا شعر ، عليك ... مـــا الذي أوقـــعني بين يديك؟

كلّ أســرار الورى مكتــومــة وخـفـيّ الهـمس مـفـضـوح لديك
كم سـبـيـل هرباً عـجنا به ولمـحنا في الحنايا مـقلتـيك
دعك منّا ، كل جـرح قـاتل ، كل بؤس جـاء يقـفـو خطوتيك
أنت لو كنت صـلاحـاً وهدى مـا توسّلنا بشـيطان اليك

جاء الربيع وقد فجعت بوفاة أخيها ، فقالت :

عـاد الربيع وأنت لم تعـد ، يا حـرقـة تقـتـات من كـبـدي
عـاد الربيع فـألف وا أسـفي ألاّ تـحـسّ بـه الـى الأبـد
أنسـاك ، كـيف؟ وألف تذكـرة في بيـتنا تتـرى على خلدي
هذا مكانك في حـديقـتنا مـتـشـوّقـاً لطرائف جـدد
ولكم سـهـرنا والحـديث نَد وعلى ذراعك كم غـفـا ولدي
وهنا كـتـابك في هوامـشـه رأي وتعـليل لـمنتـقـد
ورسـائل وردت وأعـوزها ردّ عليـهـا بعـدُ لـم يَرد
يا وجـهـه الريّان من أمل كـيف احـتـملت تجـهم اللحـدَ؟
أتصـفّح المـاشـين سـاهـمـةً علّي أرى سـيـمـاك في أحـد
لا شيء من نفـحـات ضـحكتـه من أريحـيّـتـه ، من الجلد

وللميعة شعر من ألوان الشعر المتماوج الحديث :

تجنّي

أتدري بأني أذوب حنيناً اليك
وأهفو لأدنى خبرْ؟
تصدّق أنيَ أأرق حتى الصباح
ألوّن منك الفكر؟
أتعلم ان عنادي ضباب
وهجري رياء
وأن التي تتجنّى عليك
تتمنّى لقاء؟
أأبصرت من خلل الكبرياء
دعوماً ذليلة
وروحاً تسيل على راحتيك

وتبدو بخيلة؟
أحبّك ،
يكذّب زمّ الشفاه
ويهذي عنادي
أحبك
في هربي وافتعال الخلاف
وطول ابتعادي .
وكنت أموّه وجه السماء
وأكتم عطري
وأغمض عينيّ عمّا أحسّ
لتجهل أمري
وإشراقتي
والتماع عيوني
وبرد يديَّه
تناديك ، يا سادراً في الضياع :
تعالَ إليَّه .

رأت لميعة في شعرها قيثارة تأسو آلام البائسين فقالت :

بُعـــثْتُ الى الأرض قــيـــثـــارة لتـأسـو أنغـامـهـا البـائسـين
وإذ لـمـســتـني أكفّ الثـرى ســرت نغـمـاتي عليـهـا أنين
فــداء لعــينك كــيف امّــحى بريق الـهــوى وسنا النيّــرين؟
فـــداء لثــغــرك كــيف اختــفى صــدى ضــحكة وتلاشى الرنين؟
فـــداء لقلبك كـــيف انتـــهى رفــيف الجناح وطار السـجــين؟
فـــداء ليــمناك بنت الفنون لكم أبدعت من فـــريد ثمــين
ســـواء إذا أبغـــضـــتني الأنام او ازدحم العـيش بالمـعـجـبين
عـــمــرت فــؤادي وحطّمـتـــه ، فــهــيــهــات بعـدك يوم يلين
عـــبــدتك أنت مـــثـــال الحنان ولن أسـمع الصـبـيـة العـابثين

نشرت عدة دواوين شعرية : الزاوية الخالية (١٩٦٠) ، عودة الربيع (١٩٦٣) ، أغاني أشتار (١٩٦٩) ، عراقية (١٩٧٢) ، يسمّونه الحبّ (١٩٧٢) .

لميعة عباس عمارة : عود على بدء

اقترنت لميعة بالمهندس مبارك وأنجبت ثلاثة أبناء وابنة واحدة ، ثم افترقت عن قرينها بالطلاق . درّست في المدارس الثانوية في بغداد وفي دار المعلمات بالأعظمية . ونظمت الشعر الرقيق بالفصحى واللهجة العامية البغدادية الأصيلة .

انتخبت عضواً في الهيئة الادارية لاتحاد الأدباء العراقيين سنة ١٩٥٨ وعضواً بالمجمع العلمي السرياني . ثم مضت الى موسكو سنة ١٩٦٣ بسبب ميولها الشيوعية . وعادت الى بغداد بعد ذلك ، واختيرت نائبة للممثل العراقي الدائم في اليونسكو بباريس سنة ١٩٧٣ الى ١٩٧٥ ! ، ثم كانت مديرة الثقافة والفنون في الجامعة التكنولوجية ببغداد الى سنة ١٩٧٨ . وقد غادرت العراق بعد ذلك الى لبنان حيث أقامت سبع سنوات ، ثم انتقلت الى ولاية كاليفورنية بالولايات المتحدة . انصرفت الى دراسة جذور الصابئة المندائية ولغتهم وأصدرت مجلة «المندائي» .

زارت لندن في أيلول ١٩٩٥ وألقت محاضرة عن الصابئة المندائية والاسلام في قاعة الكوفة .

من رقيق شعرها :

قبلة

جهدي أحاول أن أشّتف نظرته ... كأنّ كل همومي فوق أجفاني
تمتصّ قبلته روحي على شفتي ... فتستحيل عظامي خيط كتّان
جَذَتْ فلن تطفئ الأيام جذوتها ، ... يا طيبها ، وشفاهي قلبه الثاني
(واهاً لها قبلة كالنار لاذعةً ... والقلب مبترد في ظلّ بركان)
(أبعد ، فذي مهجتي قد شفها قلق ... واذهب لعليَّ أسلو فرط أشجاني)

شفيق الكمالي

ولد شفيق عبد الجبار الكمالي في قرية البوكمال على الحدود السورية سنة ١٩٢٩ . وأكمل دراسته الثانوية في بغداد ثم تخرّج في كلية الآداب وعيّن مدرساً في الموصل . وقد سجن بسبب نشاطه السياسي وفصل من وظيفته ، ثم أعيد تعيينه مدرساً في بغداد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . وعيّن مديراً عاماً لوزارة الاعلام بعد انقلاب شباط ١٩٦٣ .

فصل وسجن مرة أخرى ، فلجأ الى مصر ، وانتهز الفرصة لاكمال دراسته العالية فحصل على شهادة ماجستير سنة ١٩٦٥ عن رسالته «الشعر عند البدو» . عاد الى العراق ، وعيّن سنة ١٩٦٨ مدرساً في جامعة بغداد فوزيراً للشباب . ونقل في ايار ١٩٧٠ سفيراً في مدريد ، فوزيراً للاعلام وعضواً في مكتب الشؤون التربوية التابع لمجلس قيادة الثورة . وتولى رئاسة تحرير مجلة «آفاق عربية» التي أصدرتها وزارة الاعلام في ايلول ١٩٧٥ . وانتخب نائباً عن المنطقة العاشرة في بغداد في المجلس الوطني سنة ١٩٨٠ .

ألقي القبض عليه بعد ذلك واعتقل . وأطلق سراحه فلم تمض أيام معدودة حتى أدركته الوفاة . وكانت وفاته ببغداد في ١٦ كانون الأول ١٩٨٣ . وقد كتب عن مأساته في المعتقل ووفاته الطارئة الدكتور جليل العطيّة في كتابه «فندق السعادة» الصادر في لندن سنة ١٩٩٣ عن دار الحكمة .

من مؤلفاته : الشعر عند البدو (١٩٦٥) ، رحيل الأمطار (شعر ، ١٩٧٢) .

قال خليل ابراهيم عبد اللطيف في كتابه «أدباء العراق المعاصرون» ان الكمالي احد دعاة حركة الشعر الحرّ ، وقد انتقل من القصيدة العمودية الى هذا الأسلوب من النظم . وقال الكمالي : «لم يكن انتقالي من الشكل العمودي الى الحرّ انتقال قطيعة ، أي اني تركته ، فأنا ما زلت على الطريقتين ، والموضوع هو الذي يفرض ذلك . وفي رأيي ان الشكل ليس له التأثير الكلي على القصيدة ، وانما المضمون . أنا اعتقد ان الجديد الصادق النابع من تراث وأرض هذا الوطن وهذه التربة يخلد» .

وارتأى الناقد يوسف نمر ذياب ان شعر الكمالي يدور حول قطبين : الالتزام السياسي ثم المرأة والحبّ ، وقد يتنازع القطبان داخل القصيدة الواحدة .

شاذل طاقة

الشاعر شاذل جاسم طاقة ولد في الموصل سنة ١٩٢٩ وتخرج في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٥٠ . مارس التعليم وعمل موظفاً في شركة اعادة التأمين الوطنية . وأصبح بعد ثورة ١٩٥٨ وكيلاً لوزراة الثقافة والاعلام . ثم كان في سنة ١٩٦٣ مديراً عاماً لوكالة الأنباء العراقية . ولما قامت ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ عين سفيراً بوزارة الخارجية وانتدب سفيراً للعراق في موسكو ، ثم عاد الى بغداد وكيلاً لوزارة الخارجية فوزيراً لها .

توفي في الرباط في ٢٠ تشرين الأول ١٩٧٤ وكان يحضر مؤتمر وزراء الخارجية العرب المعقود في العاصمة المغربية .

من مؤلفاته : المساء الأخير (١٩٥٠) ، تأريخ الأدب العباسي (١٩٥٣) ، ثم مات الليل (١٩٦٣) ، في الاعلام والمعركة (١٩٦٨) ، الأعور الدجال والغرباء (شعر ١٩٦٩) .

قال شاذل طاقة في حديث له في الاتحاد السوفييتي : «ممارستي قليلة في الكتابة ، ولكن الشاعر لا يستطيع ان يسكت الى الأبد ، خصوصاً ان شتاء موسكو يتيح اوقاتاً لا بأس بها للقراءة والتتبع» .

من شعره :

في حنايا الفؤاد نار جهنّم	فاطفئيها من قبل ان تتضرّم
واسقنيها من فيك أعذب من خمر	وأشهى من النمير بزمزم
وأزيحي عن الجمال ستوراً	إنّ موت الجمال أن يتكتّم
يا هلمّي الى الجبال لنبني	بين شمّ الصخور قصراً تهدّم
حيث نجني من الزهور شذاها	ونغنّي لحن الهناء وننعم

وقد عارض قصيدة «ليل الصب» فقال :

أجمل بالسهم تسدّده	في قلبي العاشق تغمده
أودى بالصبّ تنهده	فابسم فلعلّك تسعده

عيناك الكون وفتنته   والخدّ الورد وأعبده
والثغر الكوثر ارشفه   والقلب الصخر وجلمده
النار النار غزت كبدي   والسهم الخدود تسدّده
سيموت الوامق في غده   يا من للعاشق ينجده

العلوم الفقهية والدينية



محمد الأمين السهروردي

الشيخ محمد الأمين السهروردي ابن عبد الرحمن بن محمد محسن قاضي العساكر العراقية ، ولد في بغداد سنة ١٨٣٦ ، ودرس علوم العربية والدين على والده وعلى حبيب الكروي وداود النقشبندي وغيرهم .

عين مدرساً بمدرسة شهاب الدين عمر السهروردي وعضواً بمحكمة استئناف بغداد ، فمديراً لناحية سامراء فالكفل (١٨٨٠) . وتوفي في مسقط رأسه سنة ١٩٠٢ .

ترك مؤلفات منها : تفسير مشكل البيّنات ، اعراب القرآن ، مجموعة في الأدب ، الخ .

محمد كاظم الخراساني

الفقيه الامامي المجتهد المصلح ، استاذ الجيل في عصره ، الملا محمد كاظم الخراساني المعروف بـ «الأخوند» ولد في طوس سنة ١٨٣٩ وتوفي في النجف في ١٠ تشرين الثاني ١٩١١ . ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» .

درس في مشهد الرضا وطهران ثم قصد النجف سنة ١٨٦٢ وتتلمذ للميرزا حسن الشيرازي وأصبح مرجع الشيعة الامامية بعد وفاته (١٨٩٤) . أيد الانقلاب الدستوري العثماني سنة ١٩٠٨ . وأعلن سنة ١٩١١ الجهاد على ايطالية حين غزت طرابلس الغرب .

ذكره علي الشرقي في «أحلامه» فقال : «لقد كان الخراساني آية عصره ، وكان من الأفذاذ ، وهو حجة في الفلسفة النظرية وعلم الأصول . وكان يحاضر في مسجد الهندي (بالنجف)... وكان يحفّ بمنبره ثلاثة آلاف طالب فيهم المجتهد او المرشح للاجتهاد . وكانت له الروعة والهيبة إذا استوى فوق منبره ، فما أرهب زمجرته التي يزجر بها من كان في أقصى المسجد إذا سمع كلمة اثناء القائه . انه يقرع ذلك الحشد المهيب بقولته «نَفَس» يريد اسكات ذلك المتنفس . وإذا انتهت محاضراته وانتشرت تلامذته تقف حركة المرور ، فلا ترى غير تموّج العمائم البيض والسود . والعلامة الخراساني هو أبو الأحرار الايرانيين وأبو الدستور الايراني» .

جهاد الخراساني

منح الشاه ناصر الدين سنة ١٨٩١ امتيازاً يحصر تجارة التبغ والتنباك بيبد شركة بريطانية ، فاشتدت معارضة رجال الدين ، وفي مقدمتهم الميرزا حسن الشيرازي ومحمد كاظم الخراساني ، لهذا الانحصار . ودعا العلماء الناس الى ابطال التدخين وحركوا العوام في سلسلة من الاضراب والعصيان المدني حتى اضطر الشاه الى الغاء الامتياز .

وأصدر محمد علي شاه ايران في تشرين الأول ١٩٠٨ بياناً قرر فيه تأجيل افتتاح المجلس التشريعي الذي نصّ عليه الدستور ، فكتب اليه محمد كاظم الخراساني رسالة يشجب عمله ويدعوه بـ «منكر الدين والضالّ» ويؤنبه على تعطيل الدستور الذي أصدره ابوه مظفر الدين شاه في ٥ آب ١٩٠٦ ليرفع الظلم والتصرفات غير القانونية عن الشعب . وقال الخراساني ان «المشروطة» ليس فيها شيء يخالف الدين ، وكان المنتظر من شجرة الدستور ان تثمر السعادة للشعب المظلوم . وهدّده بأنه إذا تأخر عن الاستجابة لطلب العلماء «فاننا سوف نحضر جميعاً الى ايران ونعلن الجهاد ضدّك...» .

وقد خلع الشاه محمد علي بعد أمد وجيز ورقي العرش ولده القاصر أحمد شاه وأعيد الدستور .

قال الشاعر عبدالمطّلب الحلي يخاطب كاظم الخراساني في موقفه من اعلان الحرية في ايران وخلع الشاه المستبدّ محمد علي :

نصرتَ ، وداعي الجور خزيان واجم ،	فما ذلّ مظلوم ولا عزّ ظالم
غداة غشيت المستبدّ بلطمة	على تاجه فيها غدا وهو لاطم
فولّى وقد أعطاك للطعن كتفه ،	فما أنت إلا العدل للجور هازم
إذا ما بنى للجور عرشاً هدمته ،	ومن ذا الذي يبني وذو العرش هادم؟
فلو كان حرّاً ما استرقّ بجوره	رقاباً لها الاسلام بالعتق حاكم

ثم يقول :

وذي قلم يقوى على الطعن معصماً	إذا ارتعشت بالسَّمْهريّ المعاصم
يطاعنُ بالأقلام فهي أسنّة	ويضرب بالآراء فهي صوارم

وكم قلمٍ أضـــحى له الرمح تابعـــاً وقــول له المــاضي غــدا وهو خــادم!

ورثى السيد عبد المطلب الشيخ كاظم الخراساني - على ما قال الدكتور محمد مهدي البصير ــ بثلاث قصائد، قال:

قــضى ليله شطرين: شطراً مــحــارباً وشطراً به باتت تضيء المَــحَــاربُ
فـمــا ابيضّ وجـه الصـبـح إلا وسُـوِّدَت مـــآتم في فـــقـــدانه ومنادب
وأضـحت ركـاب السيـر وهي مُناخـة، وهل ثائر فـــيــه تناخ الركـــائب؟

وممن رثى الخراساني الشيخ علي الشرقي، قال:

سلِ الجيش، جيش الدين، أين أميره؟ إذا نعـــشـــه مـــا بينهم أم ســـريره؟

محمد ثابت الألوسي

محمد ثابت بن نعمان خير الدين بن ابي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي ولد ببغداد في ١٧ تموز ١٨٥٩ ودرس على علمائها . عيّن قاضياً للنجف ونقل الى كربلاء والسليمانية والأحساء ، ثم اعتزل الخدمة .

اختير رئيساً للبلدية الأولى في بغداد سنة ١٩٠٣ . ووشي به الى الوالي عبد الوهاب باشابأنه يحبّذ المذهب الوهابي الذي تناوئه الدولة التركية فأبعد مع محمود شكري الألوسي الى الاناضول (١٩٠٥) . لكنهما لم يكادا يصلان الى الموصل حتى شفع لهما وعفي عنهما وأذن لهما بالعودة الى بغداد .

وقصد استانبول بعد الانقلاب العثماني وساح في الأمصار وأدّى فريضة الحج . وعيّن قاضياً للسليمانية مرة ثانية سنة ١٩٠٩ . وقد توفي فيها في تشرين الثاني ١٩١١ .

أحمد شاكر الألوسي

احمد شاكر بن ابي الثناء السيد محمود الألوسي ولد ببغداد في ٢٧ كانون الثاني ١٨٤٨ . وتوفي أبوه وعمره ستّ سنوات فنشأ في أسرته ودرس على علماء عصره ، ومنهم اسماعيل الموصلي وحسين البشدري . اشتغل بالوعظ ، ثم عين قاضياً للبصرة (١٨٨٠) ، فكربلاء (١٨٨٣) وغيرهما . وكان عضواً بمجلس الادارة في بغداد والمحاكم العدلية .

سافر الى الشام سنة ١٨٨٨ ومضى منها الى استانبول فمثل بين يدي السلطان عبد الحميد الثاني الذي اختاره مدرساً لجامع السيد سلطان علي في بغداد . وعاد الى مسقط رأسه فاشتغل بالتدريس ونشر بعض كتب أبيه ، لكن وشي به الى السلطان فسيق الى العاصمة التركية مخفوراً . وظهرت براءته مما نسب اليه فعيّنه السلطان عضواً بمجلس المعارف الكبير سنة ١٩٠٧ . وأدركه الحمام في استانبول في ١٩ ايلول ١٩١٢ .

وصف احمد شاكر بلين العريكة ولطف المعشر وحصافة العقل وسعة الحلم ، وكان شديد التأنّق في الملبس والمأكل .

الشيخ اسماعيل الموصلي

من علماء الدين الشيخ اسماعيل بن الشيخ مصطفى الموصلي ، ولد في الموصل في نحو سنة ١٨٥٠ ، ودرس على علمائها ، ثم شدّ الرحال الى بغداد وواصل الدرس فيها . وعيّن مدرساً في مدرسة جامع الصاغة ، وتخرّج عليه نخبة من العلماء منهم عبد الوهاب النائب ومحمود شكري الألوسي وغيرهما .

توفي ببغداد سنة ١٩١٣ .

وصفه محمد صالح السهروردي في الجزء الأول من كتابه «لبّ الألباب» فقال انه كان زاهداً تقيّاً ، معتزلاً لزخارف الدنيا . كلّف بمنصب افتاء بغداد فأبى قبوله تورّعاً . وكان قويّ الحجة واسع الاطلاع غزير المادة رقيق التقرير ، سئل مراراً ان يجمع مقرراته وشروحه في كتاب فلم يفعل .

حسين عوني الشَمَّري

من علماء الدين حسين عوني بن الملا عبد الله بن محمد ، ينتمي الى قبيلة شمّر . وقد سكن أجداده انحاء كردستان للمتاجرة ، ثم جاء والده الى بغداد مع محمد فيضي الزهاوي المفتي .

ولد حسين عوني في بغداد في نحو سنة ١٨٥٨ ودرس على بهاء الحق الهندي وعبد الوهاب النائب وغيرهما . ثم انتمى في كهولته الى مدرسة الحقوق . وقد عيّن مدرساً في المدرسة الاعدادية العسكرية ، ثم أصبح كاتباً في المحكمة الشرعية ببغداد فرئيساً لكتابها . وعيّن قاضياً للشرع في الشامية (١٨٩٦) ، ثم تولى القضاء في النجف وبدرة وواسط (الحيّ) ، وعاد الى رئاسة الكتاب في محكمة بغداد الشرعية .

كان ينظم الشعر ويكتب باللغات العربية والتركية والفارسية ، ونشر المقالات في جريدة «الزهور» البغدادية (١٩١٠) . وصنّف كتباً في المنطق والبيان والمعاني ونظم متناً في النحو .

وقد أدركته الوفاة سنة ١٩١٦ في مسقط رأسه .

من شعره :

ذهبنا نبتغي والقومَ مالاً   لنقضي للمعالي بعضَ دَيْنِ
ففاز القوم في مال كثير   واني عدت في خُفَّيْ حنينَ
وما ذنبي سوى أني حسين   يزيد الدهر ظلماً في حسين
فلا تعجب لأيام رمتني   فأهل الفضل أقذى كلّ عين

ترجم له محمد صالح السهروردي في «لبّ الألباب» وقال انه رجل دين فاضل درس عليه الكثيرون ، وكان محباً للخير كريم النفس طلق اليدين محبوباً لدى الخاصّ والعام . وارتبط بصلات مودّة مع علماء النجف وأدبائها . وقد عرف بحسن الخطّ ، قال ابراهيم الدروبي ان من آثاره سجلات المحكمة الشرعيّة التي نظمها وحررها بخطه الجميل .

علي الخوجة

من رجال الدين المعروفين وأساتذة العلم في عصرهم الحاج علي الخوجة ابن حسين البندنيجي ، ولد في بلدة مندلي وتلقى مبادئ العلوم فيها . ثم قدم الى بغداد وانخرط في سلك الدرك ، ويعرف آنذاك بعسكر الهايتة . لكنه لم يقنع بهذا المسلك ، وواظب على دراسة العلوم العقلية والنقلية على عبد السلام الشواف وداود النقشبندي وغيرهما من العلماء .

عيّن مدرساً في جامع حسين باشا وجامع علي أفندي وخطيباً لجامع الآصفية . وكان يعظ باللغتين العربية والتركية فيقبل الناس على سماعه . وتولّى التدريس أعواماً طويلة فتخرجت عليه أجيال من رجال العلم والفضل .

ومضى الى الحج سنة ١٨٩٥ مع نسيبه محمد أسعد الدوري ، وعيّن بعد ذلك أميناً للفتوى . وتوفي ببغداد في ايار ١٩٢١ شيخاً هرماً .

ذكره محمد صالح السهروردي في لبّ ألبابه ، فنعته بالعلم والفضل والشفقة على الطلبة والدعوة في مواعظه الى الفضيلة ومكارم الأخلاق ، حتى أصاب شهرة شعبية مرموقة .

الشيخ عبد اللّه الموصلي

العالم المدّرس الزاهد الشيخ عبد الله مخلص بن ذي النون الدركزلّي الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٨٤١، ودرس على علمائها من أمثال نور الدين عبد الله العمري. ثم قدم الى بغداد ونهض بأعباء التدريس في مساجدها فتخرّج عليه خلق كثير.

عيّن مدرساً بجامع الخلفاء المعروف بجامع سوق الغزل (١٨٨٨)، وعهد اليه بالامامة والخطابة في جامع باب الآغا. وقد توفي ببغداد في شباط ١٩٢٠.

ذكره محمد صالح السهروردي في كتابه «لبّ الألباب» فقال انه كان زاهداً تقياً حتى غلب عليه التحرّج والوسواس، فكان يخوض ماء دجلة في مشرعة المحكمة الشرعية ليملأ ابريقه كلما رام التطهّر. وكان إذا انقطع يوماً عن التدريس لعارض او وعكة ألمَّت به، سجله في دفتره وطلب من صرّاف خزينة الأوقاف في آخر الشهر اقتطاع أجر ذلك اليوم من راتبه.

أقول: وقد ذكر الأقدمون عن أبي خزيمة الرعيني القاضي بمصر (٧٧٠م) أنه كان يأبى أخذ عطائه عن اليوم الذي يقضيه بعيداً عن مجلس الحكم لغسل ثيابه او حضور جنازة. (نقل ذلك اسماعيل حقي فرج في كتابه: القضاء الاسلامي وتأريخه).

محمد كاظم اليزدي

من مجتهدي الشيعة الامامية محمد كاظم بن عبد العظيم الطباطبائي اليزدي ، ولد في يزد في ايران سنة ١٨٣١ ، ودرس في أصفهان . وهاجر الى النجف فأقام فيها وانتهت اليه الزعامة الدينية . وعرف عنه انه كان من خصوم الحرية والحركة الدستورية . وقام في أثناء ثورة النجف في آذار ١٩١٨ بمفاوضة السلطات العسكرية البريطانية لرفع الحصار عن البلدة المقدسة .

وقد وضع تصانيف منها : كتاب العروة الوثقى (١٩١٢) ، والسؤال والجواب (في الفقه) (١٩٢٢) ، والاستصحاب (في الأصول) ، والصحيفة الكاظمية (١٩١٩) ، التعادل والتراجح ، الخ .

توفي في ٣٠ نيسان ١٩١٩ بالنجف . ورثاه جميل صدقي الزهاوي فقال :

نم ملياً بخلوة الأجداث   من رغاء الخطوب والأحداث
نم ملياً فإن نومك قبلاً   في الحشايا ما كان غير حثاث

* * *

تحدّث الدكتور علي الوردي في الجزء الثالث من كتابه «لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث» عن السيد كاظم اليزدي ودعوته الى الاستبداد ومناوأته للملا كاظم الخراساني وصحبه من دعاة الاصلاح والدستور خلال السنوات ١٩٠٦ ــ ١٩٠٩ ، فقال ان اليزدي قد استطاع ان يستميل اليه الكثير من العوام ومغاوير المحلات ، فكان إذا خرج الى الصلاة حفّ به أعوانه المسلّحون يهتفون ويتظاهرون ويعتدون على أنصار الحرية بحجة انهم زنادقة مارقون .

وأعلن الدستور العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨ فخذل أعوان اليزدي وانتصر الخراساني وجماعته . وقد نظم الشاعر علي الشرقي قصيدة في هجاء اليزدي والشماتة به ، ونظم السيد صالح الحلّي أبياتاً لاذعة قرن فيها اليزدي بيزيد .

اما موقفه من الحركة الاستقلالية بعد الحرب العظمى الأولى فقال الدكتور عبد الله الفيّاض في كتابه «الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠» إن رجال النجف استشاروه حينما

سألهم الحاكم البريطاني عمّا يرونه بشأن مستقبل الحكم في العراق ، فقال اليزدي ، وهو المجتهد الأكبر آنذاك : اختاروا ما هو أصلح للمسلمين ، وقد قال ذلك بعد تردّد .
وأضاف عبد الله الفيّاض قائلاً : «كان المجتهد الأكبر السيد كاظم اليزدي غير ميّال للتدخّل في الأمور السياسية . وقد اتخذ موقفاً فاتراً تجاه حركة الدستور في ايران بالرغم من ان معظم علماء العصر أيّدوا هذه الحركة . وعندما يستفتيه الناس في الأمور السياسية يقول : اني أعرف الحلال والحرام ولكني لا أعرف السياسة . وكان لابتعاده عن السياسة أثر في اعتقاد حاكم النجف السياسي في سنة ١٩١٨ . انه يميل الى الانكليز . وقد توفي السيد اليزدي في ٣٠ نيسان ١٩١٩ فانفرد الشيخ محمد تقي الشيرازي بالزعامة الدينية ، وكان لفتاواه ومواقفه الايجابية من الحركة الوطنية اثر فعّال في انضمام جماعات من العراقيين تحت لواء الثورة ضدّ الانكليز في سنة ١٩٢٠» .

اليزدي وستورس

كتب السير رونالد ستورس في كتابه «شرقيّات» Sir Ronald Storrs: Orientations ، وكان ضابطاً سياسياً في العراق (١٩١٧ ــ ٢٠) ، انه زار النجف وقابل الشيخ محمد كاظم اليزدي في داره .

قال : «وبعد لحظات خرج الشيخ محمد كاظم بلباس شفّاف وعمامة بيضاء وهيئة بهيّة وقورة متقدمة في العمر . وحيّانا عن بعد ، ثم دعانا وأجلسنا بجانبه على حصيرة أمام جدار غرفته . فغمرني نفوذه وشهرته ، وأدهشتني القوى الظاهرة في ملامحه المستقيمة وعينيه المتعبتين . ولقد شعرت في تلك اللحظة بسلطان وجوده وكلامه الهادئ النّبرات بشكل لم أشاهده في محل آخر بين المسلمين» .

وقدّم له هدية ألف دينار فرفض الشيخ قبولها ، لكنه طلب من ضيفه ان يحمل المندوب السامي البريطاني على الاهتمام بالنجف وعتباتها المقدّسة . وقال ان العثمانيين أضاعوا عطفنا وثقتنا لأنهم دمّروا كل ما نملك وداسوا مصالحنا بأقدامهم ، أما انتم فإن أردتم المحافظة على ولائنا فعليكم ان لا تغيظونا باتباع تلك السياسة .

وقال حسن العلوي ان اليزدي كان في تصرفاته مؤيداً للحكم البريطاني حتى جاء في التقارير البريطانية «ان من الصعب تقدير المساندة المتواصلة التي قدّمها لنا اليزدي حقّ قدرها» . وقال العلوي ان موقف اليزدي في ثورة النجف سنة ١٩١٨ كان واضحاً الى جانب الانكليز ، وكان يلحّ على ثوّار النجف بمصالحة حكومة الاحتلال . ونقل عن محمد رضا الشبيبي انه قال ان اليزدي لم يشارك الجمهور وخالف السواد الأعظم وأحب الامتياز والانفراد .

محمد تقي الشيرازي

الشيخ الامامي المجتهد ومن أركان الثورة العراقية ، محمد تقي بن محبّ علي بن محمد علي گُلْشَنْ الحائري الشيرازي ، ولد في شيراز سنة ١٨٤٠ ، وهاجر الى كربلاء وهو شاب يافع (١٨٥٥) . ثم طلب العلم في مدينة سامراء فتخرّج على السيد ميرزا حسن الشيرازي . وكانت له ملكة أدبية حسنة اكتسبها من عمه شاعر شيراز حبيب القاآني المتوفى سنة ١٨٥٤ .

وقد قضى معظم عمره في سامراء ، ثم انتقل الى كربلاء في كانون الأول ١٩١٧ ، وكان منافساً للسيد كاظم اليزدي في زعامته المذهبية ، حتى إذا ما توفي في ٣٠ نيسان ١٩١٩ ، انفرد الشيرازي بالرئاسة . وأفتى بأن المسلم لا يجوز له ان يختار غير المسلم حاكماً عليه ، ودعا الى عقد الاجتماعات واقامة المظاهرات السلمية للمطالبة بالاستقلال . وكتب الى عشائر الفرات مستنفراً اياهم الى الثورة ، موصياً بالتكاتف والتعاضد والمحافظة على جميع الملل والنحل في البلاد . وتزعم حركة الثورة في كربلاء في حزيران ١٩٢٠ ، فعمدت السلطات الانكليزية الى القبض على نجله محمد رضا وآخرين ونفيهم الى جزيرة هنجام في الخليج العربي . واندلعت نيران الثورة ، لكن الامام الشيرازي لم يلبث ان توفّي في كربلاء في ١٧ آب ١٩٢٠ ، وقد خلفه في الزعامة الدينية ورعاية الثورة شيخ الشريعة الاصبهاني .

وضع كتباً فقهية منها : حاشية المكاسب ، رسالة صلاة الجمعة ، رسالة الخلل . ونظم الشعر باللغة الفارسيّة .

ذكره محمد مهدي الجواهري في قصيدته «ثورة العراق» فقال :

ومُحْي لليل التمّ يحيي بطرفه	ثغوراً أضاعتها العيون الهواجع
تكاد ، إذا ما طالع الشّهب ، هيبةً	تخرّ لمرآه النجوم الطوالع
مدبّر رأي كلّف الدهر همّه	فناء بما أعيا به وهو ظالع
مهيب إذا رام البلاد بلفظة	تدانت له أطرافهن الشّواسع
(ينام باحدى مقلتيه ويتّقي	بأخرى الأعادي ، فهو يقظان هاجع)

كان للامام محمد تقي الشيرازي أثر بالغ في اسناد الحركة الوطنية بعد انفراده بالزعامة الروحية . فقد دعا الى المظاهرات السلمية للمطالبة بحقوق البلاد المشروعة ، وعمل على التوفيق بين طائفتي السنّة والشيعة ، وأوصى بالمحافظة على سائر الملل والنحل وحسن معاملتهم . ولما أخفقت الوسائل السلمية ، نادى بأن المطالبة بالحقوق واجبة على العراقيين مع رعاية السلم والأمن ، ويجوز التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الانكليز عن قبول المطالب الوطنية . وكان موقفه ذاك مغايراً لموقف سلفه محمد كاظم اليزدي الذي ارتأى ان مهمة العلماء تنحصر بالشؤون الدينية .

ولم يمهل القدر الشيخ الشيرازي طويلاً ، فقد توفّي والثورة العراقية قائمة في أخطر مراحلها ، فانبرى خلفه شيخ الشريعة الاصبهاني الى اتمام رسالته والدعوة الى مواصلة الجهاد .

وقد وصفه محمد علي بحر العلوم فقال «انه ذو جرأة وحزم واقدام لا تصدّه عن قصده إذا اندفع أية قوّة» .

قال الشاعر عبد الحسين الأزري يرثي محمد تقيّ الشيرازي :

منعاك عزّ على العراق الدّامي	وأمضّه ، يا خادم الاسلام
كادت تفنّده المسامع خشية	من عبئه بفوادح الآلام
حتى إذا حقّ المصاب استسلمت	ليد الكوارث أيما استسلام
أقْدس بيوم قمت فيه مدافعاً	عن حقه المغصوب خير قيام
قد كان أشرف موقف لك بعدما	لم يبقَ إلا منطق الصمصام
إذ جئت من فتوى الجهاد بصدمة	ذهبت بغطرسة العميد السّامي
ثار الفرات بأهله وتحفزوا	طوعاً لأمرك ، وهو أمر إمام

رثاه محمد حسن ابو المحاسن فقال :

يا غلّة الأحشاء غاض المورد	يا أزمة الأيام غاب المنجد
لا نجدة للمستغيث ولا روى	يشفي غليل حشاشة تتوقّد
بكر النعيّ وقال : قد أودى التقى	ومضى امام المسلمين الأوحد

كتب الامام الشيرازي في ٢٩ ايار ١٩٢٠ الى محمد جعفر ابو التمن رسالة جواباً على كتاب منه حبّذ فيها اتحاد كلمة الأمة البغدادية واندفاع علمائها ووجوهها الى المطالبة بحقوق الأمة المشروعة . وأوصاه بمراعاة قواعد الدين والشرع والظهور بمظهر الأمة المتينة الجديرة بالاستقلال وحفظ حقوق المواطنين الكتابيين ورعاية الأجانب

الغرباء وصيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم واحترام شعائرهم الدينية . وأرفق كتابه بمنشور الى العراقيين في انحاء البلاد يدعوهم الى ارسال الوفود الى بغداد للمطالبة بحقوقهم ، موصياً اياهم بالاتفاق والتضامن ومحذراً من الاخلال بالأمن والتخالف والتشاجر وداعياً الى المحافظة على جميع الملل والنحل في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم .

وقرئت رسالة الشيرازي في الكاظمية وطبعت ووزعت في بغداد ، فذهب الى الكاظمية وفد يمثل اليهود والنصارى وقابل علماءها ورجاهم ازجاء الشكر الى الامام على وصاياه النبيلة . وأرسل العلماء السيد محمد الصدر الى بغداد لردّ الزيارة الى البطاركة والحاخامين .

المرزا محمد رضا الشيرازي

كان محمد رضا بن محمد تقي الشيرازي جمّ النشاط في الحركة الوطنية يثير المواقف المناوئة للانكليز ويحرّض على الثورة في منطقة الفرات الأوسط . واتهمته المس بل بالعمل للبلاشفة ، وقالت ان اسمه ورد في برقية صدرت من الجماعة البلشفية في رشت بدعوى انه يشتغل للدعوة لها في كربلاء . وقد قبضت عليه السلطات البريطانية في كربلاء في حزيران ١٩٢٠ وأبعدته الى جزيرة هنجام في الخليج . ولم يمض عليه شهر واحد حتى شفع له شاه ايران ، فسلّمه الانكليز الى حاكم بندر عباس في أواخر تموز ١٩٢٠ . ومضى من ثمّ الى طهران وقضى فيها بقية حياته .

فتح اللّه الاصبهاني

الفقيه الاماميّ المجتهد شيخ الشريعة فتح الله بن محمّد جواد النّمازي الاصبهاني ، شيرازيّ الأصل ، ولد في أول آذار ١٨٥٠ ، ونشأ في اصبهان وتفقه في علوم العربية والدين . ثم انتقل الى النجف ، ودرس على حبيب الله الرشتي المتوفى سنة ١٨٩٤ وغيره من العلماء .

وضع رسائل وحواشي في الفقه ، وكان كاتباً خطيباً ، من أصدقاء جمال الدين الأفغاني . وتقدم في مراتب الاجتهاد حتى آلت اليه رئاسة الحوزة العلمية .

ولما قامت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ كان من زعمائها . ثم انفرد بالزعامة بعد وفاة محمد تقي الشيرازي في ١٧ آب ١٩٢٠ ، وأصبحت النجف مركز الحركة بعد كربلاء . وكتب اليه الحاكم الملكي البريطاني العام يدعوه الى المفاوضة لوقف الثورة ، فاشترط شيخ الشريعة منح العراق الاستقلال التام قبل الدخول في المداولات .

أدركه الحمام في النجف في ٢١ كانون الأول ١٩٢٠ . وورثاه محمد مهدي الجواهري بقصيدة من أوائل شعره ، مطلعها :

أبِنْ ما لهذا الدين ناحت منابره   وقل خفيةَ : أين استقّلت عساكره

* * *

ناقش عبد الرزاق الحسني في كتابه «الثورة العراقية الكبرى» رسالة وكيل الحاكم الملكي العام في العراق السر ارنولد ولسن المؤرخة في ٢٠ آب ١٩٢٠ الموجهة الى شيخ الشريعة والداعية الى المفاوضة وردّ الشيخ عليها ، فانتقد أسلوب الرسالة الأولى ولهجتها الشديدة وتهافت معانيها في مجال الوثائق السياسية . ثم انتقد ايضاً جواب شيخ الشريعة ، إذ كان عليه ان يغتنم الفرصة ويقبل مفاوضات الصلح وينقذ الثورة ـ كما قال الحسني ـ من هزيمة مؤكّدة ويحفظ للثوار هيبتهم وللعراق مقامه .

وقال الدكتور عبد الله الفيّاض ان ردّ شيخ الشريعة السّلبي يقوم دليلاً على قلة الخبرة السياسية لدى قيادة الثورة التي أنيطت بالدرجة الأولى بالروحانيّين ، رغم قلة

خبرتهم بأمور السياسة ومراميها البعيدة . وكانت صيغة جواب الثوّار تدلّ على عدم تقديرهم لقوة عدوّهم وغزارة موارده بالقياس الى مواردهم المحدودة .

وليس من ريب ان شيخ الشريعة ـ وهو بمثابة القائد الروحي للثورة ـ حرّر جوابه بحسب رأي قادة الثوار ورؤساء العشائر ، معبّراً عن أفكارهم ومقرّراتهم في تلك الآونة .

محمد حسين الغرويّ النابيني

من علماء الشيعة المجتهدين محمد حسين بن عبد الرحيم النابيني الملقب «شيخ الاسلام» ولد في قرية نايين في نواحي يزد في ايران سنة ١٨٥٧ . درس في موطنه ثم هاجر الى اصفهان (١٨٧٧) ومنها الى العراق . جاء الى سامراء سنة ١٨٨٥ فدرس على محمد حسن الشرازي ، ثم قصد كربلاء ومنها الى النجف (١٨٩٦) ، ودرس فيها على الملا كاظم الخراساني ومحمد تقي الشيرازي ، فأصبح من المجتهدين المشار اليهم بالبنان واستقل بالتدريس . كان من دعاة الحكم الدستوري في ايران .

اشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ . وكان من الداعين الى عقد مؤتمر كربلاء في نيسان ١٩٢٢ للتداول في هجمات الاخوان وزعماء العشائر . ثم أفتى بمقاطعة انتخابات المجلس التأسيسي ، فاضطر على المضيّ الى بلدة قم في ايران (أواخر حزيران ١٩٢٣) . وعاد الى النجف في نيسان ١٩٢٤ بعد ان تعهد بأن لا يتدخل في الأمور السياسية .

أدركته الوفاة في النجف في ١٥ آب ١٩٣٦ .

عرف النابيني بالتعصب ومناهضة الحركات الاصلاحية في سني كهولته . لكن صبيحة الشيخ داود ذكرت في كتابها «أول الطريق» انه أصدر في نحو سنة ١٩٠٨ رسالة باللغة الفارسية عنوانها «تنبيه الأمة في وجوب المشروطة» بحث فيها علّة تأخر المسلمين ودعا الى تغيير بعض القوانين وأساليب الحكم ، ونادى بتعليم المرأة ، وانتقد تحديد حريتها تحديداً يخرج عن تعاليم الاسلام الذي يقول : العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة . وقد لقيت هذه الدعوة استنكاراً في حينها ، فاضطر النابيني على التراجع والتصلّب في آرائه ، حتى انه حين علم ان جعفر الخليلي يدعو الى النهضة النسائية في جريدته «الفجر الصادق» بعد أكثر من عشرين عاماً وقد عزم على ترجمة رسالته الفارسية ونشرها ليتخذ منها سنداً لدعوته الاصلاحية ، أقدم على جمع نسخ الرسالة وطمس معالمها تنّصلاً مما ورد فيها من أفكار وتمسكاً بالزعامة الدينية التي آلت اليه .

وقد ألف : تنبيه الأمة ، ذخيرة الصالحين (١٩٢١) ، مناسك الحج (بالفارسية ١٩٣١) الخ .

أشار الدكتور علي الوردي في كتابه «لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث» (الجزء الثالث) الى محمد حسين النائيني فقال انه كان من كبار تلاميذ كاظم الخراساني ، وقد ألف كتاباً صدر في النجف بالفارسية في عهد نشاط الحركة الدستورية عنوانه «تنبيه الأمة في وجوب المشروطة» نادى فيه بآراء جريئة كتعليم المرأة واصدار الصحف وحرية الرأي . ومضت على ذلك عشرون سنة او تزيد ، وقد أصبح المؤلف من مراجع الدين البارزين ، فحاول التملّص من كتابه . وترجم بعض النجفيين الكتاب الى العربية سنة ١٩٢٩ ونشره تباعاً في مجلة «العرفان» الصيداوية . فأوعز النائيني الى أنصاره بشراء جميع نسخ المجلة التي وردت الى العراق للحؤول دون وصولها الى أيدي القراء .

وذكر عبد الحليم الرهيمي في كتابه «تأريخ الحركة الاسلامية في العراق» (١٩٨٥) ان كتاب الشيخ النائيني «تنبيه الأمة وتنزيه الملّة في وجوب المشروطة» (الذي صدر في النجف بالفارسية في نحو سنة ١٩٠٧ ــ ١٩٠٩) كان أهم الكتب التي صدرت آنذاك على صعيد الفكر السياسي الاسلامي .

قال الرهيمي : «تناول المؤلف احدى المسائل المهمة التي كانت موضع جدل حادّ بين العلماء الشيعة في العراق وايران ، وهي مسألة الموقف من المبادئ الدستورية ومقاومة النظم الاستبدادية . وكان هدف المؤلف هو البرهنة على ان مقاومة الاستبداد والعمل من أجل حكم دستوري «شوروي» أمر يتفق مع الشريعة الاسلامية ولا يتناقض معها . وقد استند المؤلف في بحثه لاثبات ذلك الى القرآن والسنّة والحديث ونهج البلاغة . واتخذ البحث سمة سجالية حادّة ، حيث وجّه المؤلف نقداً شديداً بوجه خاص لآراء العلماء المؤيدين للاستبداد والمعارضين لاقامة حكم دستوري في ايران...» .

ثم يقول : «ويفند المؤلف آراء الفقهاء القائلين بأن المبادئ الدستورية هي أفكار غربية ، فيقول ان الغرب هو الذي أخذها من شريعة المسلمين . وعندما حصلنا على شيء من التنبّه والشعور فإن بضاعتنا ردّت الينا...» .

وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة ضمن المؤسسات الدينية الشيعية وفي الرأي العام في العراق وايران . وأيّد آراء النائيني وزكاه اثنان من كبار المجتهدين ، وهما الملا كاظم الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني .

محمد حسين النائيني في نظر سيدة غربية

كتبت السيدة فانيسا مارتن Vanessa Martin مقالاً عن المبادئ في ايران (صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية ، لشهر تشرين الثاني ١٩٩٢) ، تطرقت فيه الى الآراء الدستورية وما يتبعها من التمثيل والاستشارة والتشريع والحرية والمساواة في حكم الشريعة . بدأت بذكر كتاب «تنبيه الأمة وتنزيه الملّة» للميرزا محمد حسين النائيني ، وقالت إذا كان تعريف المبدأ الدستوري يقتضي انشاء أساليب سياسية تشمل أحكاماً تتعلق بفلسفة الحكم المقيّد وضمان الحريات السياسية والاقتصادية وحماية حقوق الفرد ضدّ الدولة فإن تلك المبادئ ، على قدر ما يعلم ، لم يفكر فيها علماء الشرع (المجتهدون) .

حاول النائيني ان يشرح طبيعة المبدأ الدستوري وهدفه في مجال تبريره شرعاً ، لا بسبب قيمته الخالصة ولكن لأنه بديل حسن عن الاستبداد . وقالت الكاتبة انه من الواضح ان الآراء الغربية في السياسة كانت موضع نقاش المجتهدين من علماء الشيعة منذ أوائل القرن العشرين ، فإن أول مجتهد بحث الموضوع مطولاً كان السيد محمد الطباطبائي في رسالتين وخطاب خلال الحوادث التي أدت الى الثورة الدستورية الايرانية سنة ١٩٠٦ ، حين حاول اقناع الشاه لاتخاذ حكومة على شكل أوربي اكثر عدالة وكفاءة من النظام السائد في ايران . ويعتقد ان آراء الطباطبائي وزملائه قد تأثرت بالمصلحين في تركية ومصر مثل نامق كمال . وجدير بالذكر ان الطباطبائي هو محمد بن محمد تقي الفقيه الامامي النجفي المتوفى سنة ١٩٠٨ ، وقد ألف «بلغة الفقيه» .

قالت السيدة مارتن انه كان «ذرائعياً» يعلم ان ايران لا تتحمل حكومة دستورية صرفة في ذلك العهد ، ولذلك ارتأى انشاء مثل تلك الحكومة تدريجياً ، على ان يباشر تأليف «مجلس عدالة» ليشرف على أمور السلطة التنفيذية ويهيئ اشتراكاً أهلي نوعاً في الحكم . وحصر المساواة بحكم الشريعة . وتكلم عما سماه «السلطنة» ويقصد به السيادة مقترحاً ان يعين الحاكم من قبل عقلاء الأمة ، فإذا أخلّ بواجباته كان لرعاياه ان ينقضوا ولاءهم له ويعيّنوا آخر لمنصبه .

اما الآراء المضادّة للدستور فقد شرحها الشيخ فضل الله نوري (المتوفى سنة ١٩٠٩) في سلسلة كراريس نشرها سنة ١٩٠٧ / ٠٩ بعنوان «تذكرة الغافل وارشاد

الجاهل» . وقد انضم الى الحركة الدستورية في تموز ١٩٠٦ ، لكنه ارتأى تأليف هيئة من كبار العلماء لتدقيق القوانين التي يشرّعها المجلس لضمان اتفاقها مع روح الشريعة .

اختلف الشيخ فضل الله بعد ذلك في تطبيق مقترحاته ، فاتخذ موقفاً ضد الدستور وارتأى تأليف «مجلس اسلامي» مع دستور اسلامي (نظامنامة اسلامية) . وفي سنة ١٩٠٨ حين ألغى الشاه محمد علي المجلس ، عاد فضل الله فقلب موقفه وارتأى عدم لزوم وجود مجلس ، وعدّه الآن بدعة مضادة للاسلام . وقال بوجود الشريعة لم تبق حاجة لسنّ القوانين الموضوعة على أساس أوربي . وانتقد ايضاً سلطة المجلس وتمثيله للشعب أي وكالته عن الشعب مدعياً ان هؤلاء «الوكلاء» يغتصبون ولاية العلماء . وقال فضل الله ان حرية الصحافة تفسح المجال للكفار والزنادقة بنشر آرائهم ، والمساواة أمام القانون مخالفة للشريعة التي تميّز حقوق المسلمين .

حاول الشيخ محمد حسين الناييني نقض آراء فضل الله نوري في كتابه «تنبيه الأمة» . وآراء الناييني عن الدستور سلبية . وقد ارتأى ان الحكومة المثالية هي حكومة الامام ، وفي غيابها يوجد بديلان : الاستبداد والدستورية . ومع ان النظام الدستوري هو الأفضل فإنه بعيد عن المثل الأعلى . وقد حبّذ وضع دستور يعيّن مسؤوليات الحاكم الذي يجب ان يكون تابعاً لسلطة العلماء . ويؤيد فكرة مشاركة الجميع في المصلحة العامة لأن الجميع متساوون في الأمور العامة . والحكومة مسؤولة على ان تكون سلطة الحاكم منحصرة بالرقابة . ويشبّه الناييني الحاكم بمدير الأوقاف او راعي قطيع الغنم ، ويرى ان الدستور يعين الحقوق والواجبات ومدى سلطة الحاكم ، لكنه يجب ان يكون خاضعاً للدين .

وردّ الناييني على آراء فضل الله فقال ان العلماء ، وهم نواب الامام ، لا يستطيعون حمل السلطة في المجتمع وادارة شؤون المسلمين ، بل لا بدّ ان يتولى ذلك المؤمنون العادلون ، وخير من يمثلهم مجلس دستوري ، على ان يقوم المجتهدون بتعديل القوانين التي يضعها المجلس وفيها انحراف عن الشريعة . وقال ان دفع الأهالي للضريبة يؤهلهم للاشتراك في الحكم ، ولكن في الشؤون التي تخرج عن نطاق الشريعة فقط .

وقد مضى الناييني الى ايران سنة ١٩٢٣ بعد نفي العلماء من العراق . ورأى اخفاق الحكم الدستوري في ايران ، فغيّر آراءه الدستورية وأصبح مؤيداً ضمناً لحكم رضا شاه الدكتاتوري .

عادت آراء الناييني بعد نحو ثلث قرن من وفاته الى البروز ، إذ اعيد طبع كتابه «تنبيه الأمة وتنزيه الملّة» في طهران سنة ١٩٧١ بمقدمة لآية الله محمود طالقاني (المتوفى سنة ١٩٧٩) الذي قال ان الناييني عالم من الطراز الأول وأن مؤلفه يحمل

الهداية الى العلماء والمسلمين عامة على السواء . وقد اتفق الطالقاني مع الناييني في اعتبار «الدستورية» خير طريقة للحكم في غياب حكم الامام المثالي . والدستورية انما هي وسيلة لغاية وليست غاية في حدّ ذاتها . وقال ان هدف الناييني الحقيقي انشاء دولة اسلامية ، والدستورية افضل من الحكم المطلق إذ انها الوسيلة للقضاء على الطغيان وانشاء حكومة فاضلة .

تطرقت الكاتبة بعد ذلك الى شرح آراء روح الله الخميني وبعض العلماء الآخرين . ثم ذكرت المجتهد المصلح محمد باقر الصدر (المتوفى سنة ١٩٨٠) وكتابه «الجمهورية الاسلامية» نقلاً عن الترجمة الفارسية الصادرة سنة ١٩٧٩ . يصرح الصدر ان أساس التشريع في الجمهورية الاسلامية يستند الى الشريعة بشرط ان تكون أحكامه ملائمة لحياة المجتمع . وإذا اختلف المجتهدون في حكم ما فيجب اختيار الحكم الذي يوافق مصلحة الجماعة ورفاهيتها . وفي الأمور المباحة التي لا تدخل في حكم الاجبار او الحرام لا مانع من وضع القوانين التي تؤمن المصلحة العامة بشرط عدم مخالفتها لروح الاسلام . ويجوز سنّ القوانين في الميادين التي تركتها الشريعة مباحة للناس وفيها حرية العمل . وتقول الكاتبة ان هذه الأفكار ليست جديدة ، ولم تجر محاولة لايضاح التمييز بين ما تجيزه الشريعة وما لا تبيحه ومن هو الذي يتخذ القرار الحاسم . وفي صدد تأليف المجلس التشريعي والمجلس التنفيذي يقول الصدر انهما يؤلفان من الأهالي نفسهم الذين ينهضون بهذه المسؤولية . وترجح الكاتبة ان الصدر قد يقصد «العلماء» بتعبير «الأهالي» ، وذلك يوافق نصيحة الخميني للعلماء بالقيام بواجبات «الامام» التنفيذية والقضائية . ويذهب الصدر الى القول بأن السيادة انما هي لله الذي هو الحاكم الحقيقي .

ويقول الصدر ان على «الاهالي» قبل كل شيء اختيار رئيس للحكومة بعنوان رئيس الدولة او رئيس الوزراء ، وهو الذي يختار اعضاء الحكومة . ثم ينتخب «الأهالي» مجلساً من أشخاص عقلاء يسنّ القوانين وينفذها . وليس هناك أي ذكر للأحزاب . ويذكر الصدر «المرجع» الذي يعتبر ممثل الشريعة او «نائب الامام العام» ، ومنه تستمد الحكومة سلطتها . ويشير الصدر الى ان الخميني تولى هذا المنصب في جمهورية ايران الاسلامية لأنه جاهد خلال عشرين سنة حتى حاز النصر . لكنه يقول ان «المجتمع» هو المرجع الحقيقي وأن الزعامة تنحصر في «جماعة المسلمين» التي يقودها العلماء .

وخلاصة مقال فانيسا مارتن هي ان جمهورية ايران الاسلامية طبّقت المبادئ التي قررها الفقهاء الاماميون وأن الدمقراطية الغربية لا محل لها في تفكير هؤلاء العلماء خلال «غيبة الامام» لأن الحكومة يجب ان تناط برجال العلم العادلين الورعين ولا تنبع من عامة الشعب .

مهدي الخالصي

الشيخ محمد مهدي بن محمد حسين بن عزيز الخالصي الأسدي من فقهاء الامامية المقدّمين ولد في الكاظمية في ٢٣ حزيران ١٨٦١ وانتهت اليه الزعامة الدينية في بلده . درس على أبيه الشيخ محمد حسين وعلى عباس الجصاني ، ثم على محمد حسين الكاظمي في النجف ، وأفاد من علماء عصره المشار اليهم بالبنان كالشيخ حبيب الله الرشتي وحسن الشيرازي ومحمد كاظم اليزدي ومحمد كاظم الخراساني ومحمد طه نجف .

وتصدّى في عهد الشباب للتدريس في سامراء والنجف والكاظمية وكربلاء . ثم عاد الى مسقط رأسه في بلدة الجوادين وأسس مدرسته التي اقترنت باسمه بقيّة حياته . ولما نشبت الحرب العظمى لبّى نداء الجهاد مع سائر العلماء ، ورافق الجيش في جبهة الحويزة مع الحملة التركية في أوائل سنة ١٩١٥ يصحبه فريق من المجاهدين من رجال العشائر لمحاربة الانكليز الذين استولوا على البصرة . وكان يقود الجيش التركي في تلك الأصقاع محمد فاضل باشا الداغستاني وتوفيق بك الخالدي .

ولما انتهت الحرب العامة أبلى البلاء الحسن في الحركة الوطنية واشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ . وهجم الاخوان النجديون على العشائر العراقية في آذار ١٩٢٢ ، فكان للشيخ مهدي يد محمودة في عقد مؤتمر كربلاء الشعبي والعشائري في شهر نيسان للمداولة في الوضع الخطير . ثم عارض انتخابات المجلس التأسيسي وأفتى بمقاطعتها مع زملائه من العلماء حسين النابيني وأبي الحسن الموسوي الاصبهاني ، فاعتقل الخالصي في حزيران ١٩٢٣ وأبعد الى البصرة ، ومن ثمّ نقل الى الحجاز عن طريق الهند وعدن . وقد حجّ الشيخ مهدي ، ثم رحل الى ايران وأقام بمدينة قم وخراسان . وأدركه الحمام في خراسان في ٥ نيسان ١٩٢٥ .

قال جعفر الخليلي : والشيخ مهدي الخالصي كان زعيماً دينياً كبيراً ومجتهداً جريئاً في الاستنباط والاحكام ، حتى لقد كان له فضل كبير في تيسير الطقوس الدينية وتفسير الأحكام الشرعية التي تتلاءم نصوصها وأحكام العصر ، والى ذلك كان زعيماً سياسياً

وقف من قضية تصديق المعاهدة الانكليزية والانتداب موقفاً صلباً أدى الى نفيه مع كبار العلماء الى خارج العراق .

ثم تكلم الخليلي عن ابنه الشيخ محمد الخالصي فقال انه سار على نهج أبيه في تيسير الأحكام الشرعية ومناوأة الانتداب البريطاني . وقد اشترك في الثورة العراقية وأبعد الى خارج العراق ، وكان صلباً غير هيّاب في آرائه السياسية .

وذكر الدكتور علي الوردي ان مهدي الخالصي كان ميّالاً الى الأتراك باعتبارهم مسلمين ، وهم أولى من الانكليز الكفّار بحكم العراق . وكان مصطفى كمال (أتاتورك) قد دحر اليونانيين في ايلول ١٩٢٢ ، فأخذ يشجع التحرّشات على الحدود العراقية في جهة زاخو وراوندوز . فاتصل الخالصي بالترك بالمراسلة ، لكن اتصاله لم يسفر عن نتيجة . (اهـ)

وللشيخ مهدي مؤلفات منها : حاشية على كفاية الأصول لمحمد كاظم الخراساني (١٩١٠) ، الدراري اللامعات (١٩١٣) ، رسالة وجيزة في المواريث (١٩٢٣) ، الشريعة السّمحاء (في جزءين ، ١٩٢١) ، العناوين في الأصول (في جزءين ، ١٩٢٤) ، القواعد الفقهية (في جزءين ، ١٩٢٥) الخ...

رثاه محمد مهدي الجواهري فقال :

قومي البسي ، بغداد ، ثوب الأسى ... إنّ الذي ترجينه غُيّبا
ان الذي كان سراج الحمى ... يشعّ في غيهبه كوكبا
بات على نهضة أوطانه ... ملتهب الجمرة حتّى خَبَا

ورثاه جميل صدقي الزهاوي فقال :

فجعتنا حوادث الأيّام ... بأبي الشعب حجّة الاسلام
بمحبّ الاسلام بالمصلح (م) ... الأكبر بالحبر بالعميد الهمام
وحّد الشعب في العراق جميعاً ... بعد خلف فيه وبعد انقسام

وقال معروف الرصافي :

نُعي الخالصيّ فارتجت الأنفس ... حزناً مضرجاً بحماسة
هوذاك المهديّ أحرز سبقاً ... حين أجرى الى الهدى أفراسه
هوذاك الحبر الذي كان للشرع ... مقيماً دليله وقياسه
كان في الدين آية الله أفنى ... العمر فيه رعاية وحراسة
أفق العلم قد بدا مكفهراً ... عندما أطفأ الرّدى نبراسه

وقال عبدالحسين الأزري :

نعـــــيّك هزّ أرجـــــاء البـــــلاد	وفـــقـــدك فتّ في عـــضُـــد الرَّشـــاد
ولم نرَ مـــــثل يومك قطّ يـومـــاً	يصـــــور بيننا هول المـــعـــــاد
أقـــام لك المـــآتم كلّ صُـــقْع	وغصّ بـرُزْء فـــقـــدك كلّ ناد
وأعـــلام خـــفـــقن عليك سُـــوداً	تذكّـــرنا نفـــورك للجـــهـــاد

ابنه : الشيخ محمد الخالصي

من رجال الدين والاجتهاد والتدريس ، ولد في الكاظمية سنة ١٨٩٠ وتوفي بها في تشرين الأول ١٩٦٣ . اشترك في الحركات الدينية والوطنية منذ فجر شبابه وكان له صولات وجولات في ميدان الكتابة والخطابة .

دعا الى التقريب بين المذاهب الاسلامية وحمل على أهل الفرق وأولي البدع . واشترك مع والده في حركاته ابان الثورة العراقية والأحداث التي حدثت بعدها ، فأقصي الى ايران في ٢٩ آب ١٩٢٢ مع السيد محمد الصدر . وعاد الى الكاظمية فجأة في نيسان ١٩٣٢ في غفلة من عيون الحكومة ، لكنه لم يبق فيها سوى ثلاثة أيام ، إذ اعتقلته الشرطة وأعادته الى الحدود الايرانية . وسمح له بالعودة الى العراق سنة ١٩٤٩ .

وضع مؤلفات عديدة منها : المعارف المحمدية (١٩٢٢) ، الاحتراز عن مفتريات حسن الايجاز (١٩٢٢) ، العروبة في دار البوار (١٩٣٣) ، احياء الشريعة في مذهب الشيعة (٣ أجزاء ١٩٥١ - ١٩٥٧) ، الاسلام سبيل السعادة والسلام (١٩٥٣) ، أشعة من حياة الصادق (١٩٤٩) ، المانية والاسلام (١٩٥١) ، التوحيد والوحدة (١٩٥٤) ، الجمعة (١٩٤٩) ، الحرب والرق في الاسلام (١٩٥٠) ، حقوق الرجل والمرأة في الاسلام (١٩٥٠) ، زعيم الاسلام الخالد (١٩٥٠) ، الشريعة الاسلامية خاتمة الشرائع (١٩٥٣) ، الشيخية والبابية (١٩٥١) ، الشيخ محمد مهدي الخالصي (١٩٥٠) ، في مولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (في جزءين ١٩٥٠) ، في مولد الرسول الأعظم (١٩٥٠) ، المباهلة (١٩٥٠) ، مَن ذا : سياحة فكرية روحية وقت السحر (١٩٥٦) ، نجاة المسلمين

(١٩٥٤)، النيروز (١٩٥١)، الاسلام فوق كلّ شيء (مجموعة خطب ومقالات في ٤ أجزاء ١٩٥٨ - ١٩٥٩)، التوحيد الخالص (١٩٦٤)، حسين منّي وأنا من حسين (١٩٦٢)، خلاصة الخطب (في ٥ أجزاء (١٩٥٥ - ١٩٥٦) سبب ذلّ المسلمين (١٩٥٨) شرر الفتنة في ايران (١٩٦٦) الخ .

وقد ترجم الكثير من آثاره الى اللغة الفارسية .

عبدالوهاب النائب

الشيخ عبدالوهاب النائب ابن عبدالقادر بن عبدالغني بن جعيدان العبيدي الأعظمي ، وهو شقيق الشيخ محمد سعيد النقشبندي . ولد في بغداد في ١٥ تشرين الأول ١٨٥٢ ودرس علوم العربية والدين على علماء عصره كعبدالوهاب الحجازي ومحمد فيضي الزهاوي وداود النقشبندي واسماعيل الموصلي وعبدالسلام الشواف وعبدالرحمن القره داغي .

عين مدرساً في مدرسة منوّرة خاتون . ثم أصبح أمين الفتوى ونائباً شرعياً في بغداد . وكان عضواً بمجلس الولاية على عهد الوالي زكي باشا (١٩١٣) ، كما كان عضواً بمجلس المعارف ورئيس مجلس الأوقاف العلمي ورئيس محكمة الصلح . ثم كان له مواقف وطنية مشهودة سنة ١٩٢٠ .

عهد اليه بعد تأليف الحكومة العراقية منصب رئيس مجلس التمييز الشرعي السني (١٩٢١ - ١٩٢٢) وتولى تدريس التفسير في جامعة آل البيت سنة ١٩٢٤ . وقد توفي في بغداد في ٣٠ حزيران ١٩٢٧ ، فرثاه الشيخ ابراهيم الراوي ومعروف الرصافي وعبدالرحمن البناء وغيرهم من الشعراء والأدباء .

فضله ومؤلفاته

كان الشيخ عبدالوهاب النائب عالماً واعظاً فقيهاً درس عليه العدد العديد من العلماء . ترك مؤلفات معظمها شروح وحواش دراسية ، منها المعارف في كشف ما غمض عن المواقف ، القول الأكمل في شرح المُطوّل ، الالهام في تعارض علم الكلام ، شرح ملحة الاعراب (في النحو) ، حاشية على جمع الجوامع (في الأصول) ، شرح أربعين حديثاً ، كتاب في الوعظ ، مجموعة خطب منبرية ، منظومة في علم المنطق ، منظومة نور الايضاح (في الفقه) ، نظم العوامل ، رسالة في الآيات والمشابهات ، رسالة في الفرائض ، الخ .

وقد قال هو نفسه :

عاق تدريسي عن التأليف لكن فبهذا لست اني متأسف
من تلاميذي ألفت كتاباً كل فرد هو بالعلم مؤلف

كان له مجلس وعظ يحضره الخواص والعوام . وكان مهيباً محترماً ، وصفه تلميذه محمد صالح السهروردي فقال : «كان طويل القامة ، أبيض اللون ، عريض الوجه ، مشرباً بحمرة تناسب نصوع بياضه ، كثّ اللحية ابيضها ، أسود العينين ، أقنى الأنف ، مزجّج الحاجبين ، عريض ما بين المنكبين ، فصيح اللسان ، قويّ العارضة ، متوقد الفؤاد ، بليغ العبارة ، سريع الخاطر ، رابط الجأش ، حاضر الذهن ، يرتجل الخطب الرنانة الطوال ويرتجز في المقال لما أحرزه من كثرة العلوم وقوّته في المنثور والمنظوم . وكان شديد الغيرة على الدين ، مستميتاً على حفظ كرامة بلاده...» .

قال الرصافي في رثائه :

ان عبدالوهاب عاش جليل القدر فرداً ومات وهو جليل
وقضى عادم المثيل فأمسى ما لمنعاه في الخطوب مثيل

حرص عبدالوهاب النائب على تأسيس مدارس للصبيان والشبان وأنفق في ذلك من ماله وجهده ، كمدرسة محلة الفضل وخان لاوند والراشدية والجديدة ، واشترك في تأسيس مدرسة التفيض .

وقال الشعر في مدح الواليين تقي الدين باشا وسرّي باشا وغيرهما ورثاء المفتي الزهاوي الكبير ومحمد فاضل باشا الداغستاني . وله قصائد في الحماسة والموعظة والغزل والتصوف وسائر الأغراض . كان استاذ معروف الرصافي فقال في تلميذه :

ان فاخرت بلدة يوماً بشاعرها فإنّ شاعرنا في الشرق معروف

فقال الرصافي :

قل لعبدالوهاب النائب العلامة الحَبْر منجب النجباء
ان اسمّى شاعراً فمثلك من يُدعى ببغداد أعلم العلماء
أي فضل للشعر لولا علوم قوّمت من قناته العوجاء...
ما ادّعى الشعر عالم قطّ ، لكن يدّعي العلم أشعر الشعراء

عباس حلمي القصاب

الشيخ عباس حلمي بن السيد عبداللطيف القصاب من قبيلة جشعم . ولد في بغداد سنة ١٨٦٠ ودرس على علماء عصره عبدالسلام الشواف والشيخ داود النقشبندي وعبداللطيف الراوي وعبدالوهاب النائب وغلام رسول .

عين مدرساً في جامع خضر الياس بجانب الكرخ ، ثم نقل مدرساً للمدرسة العلمية في سامراء سنة ١٩٠٠ وعيّن مفتياً للبلدة ايضاً سنة ١٩٠٩ . قضى في سامراء سنوات عديدة ، ثم عاد الى بغداد وعيّن أميناً للفتوى وتوفي بها في شهر آب ١٩١٧ .

وضع مؤلفات في التصوف وحقائق الصوفية ورسائل أخرى . ورثاه عند موته السيد ابراهيم الراوي بقصيدة مطلعها :

فقدنا عزيزاً عزّ في الناس قدره　　وسار بآفاق الكمالات بدره

وقال ابراهيم الدروبي فيه انه «صوفي في مشربه ، حنفيّ في مذهبه ، سلفيّ في معتقده ، لا يميل الى التأويل» .

وهو عم عبدالعزيز القصاب الوزير ورئيس مجلس النواب وأبو عبدالله القصاب وزير الداخلية .

يحيى الوتري

السيد يحيى الوتري بن قاسم بن جليل ينتمي الى أسرة دينية هاجر جدها من الحجاز . ولد السيد يحيى في بغداد سنة ١٨٦٦ ودرس الفقه والعلوم العربية على عبدالوهاب النائب وعبدالرحمن القره داغي وبهاء الحق وداود النقشبندي . ولما نال الاجازة العلمية عين مدرساً في جامع الأحمدية وفي جامع الخلفاء . ومضى الى الحج وأخذ علم الحديث عن السيد علي الظاهر شيخ مشايخ الحديث في الروضة النبوية .

عاد الى بغداد وواصل التدريس والوعظ ، ثم اختير قاضياً شرعياً في الكاظمية ومدرساً للعربية في دار المعلمين . وقد توفي في مسقط رأسه في ١٦ نيسان ١٩٢٣ .

ألف : الفرائد الأدبية في القراءة العربية (١٩١٣) . وصنّف رسائل في علم الفلك والرياضيات والنحو .

وهو والد الطبيب النطاسي الدكتور هاشم الوتري مدير المستشفى الملكي .

عطاء الخطيب

الشاعر العالم مفتي بغداد عطاء الله الخطيب ابن محمد جميل رئيس بلدية بغداد ، وأخوه الشاعر الموهوب علي الخطيب . ولد عطا في بلدة شهربان من أعمال ديالى سنة ١٨٨٦ وتوفي ببغداد في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٩ . ترجمت له في كتابي اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث .

درس في المدرسة الرشدية ، ثم انصرف الى دراسة العلوم الشرعية والعربية ، وكان من اساتذته عبدالوهاب النائب وسعيد النقشبندي ويوسف العطاء وعلي الطالباني . وانتسب الى مدرسة الحقوق وواظب الى صفها الأخير الى حين اغلاقها عند نشوب الحرب العامة سنة ١٩١٤ . وقام بالتدريس في المدرسة الاعدادية ، ورئس تحرير جريدة «الارشاد» التي اصدرها حسين فريد في شباط ١٩٠٩ . وأصدر جريدة «صدى الاسلام» في ٢٣ تموز ١٩١٥ باللغتين العربية والتركية للدفاع عن تركية المنهمكة في الحرب ، فعين مفتياً لبغداد في آب ١٩١٦ خلفاً لمحمد سعيد الزهاوي .

واحتل الانكليز بغداد في السنة التالية فقبضوا عليه ونفوه الى الهند . وعاد الى بغداد بعد انتهاء الحرب ، فعين مديراً لادارة الأوقاف (١٩٢٤) . وانتخب نائباً عن لواءي الكوت وديالى سنة ١٩٢٨ .

كان شاعراً ناثراً تفرّقت آثاره في الصحف والمجلات . وقال ابراهيم الواعظ : «نبغ وهو صغير السنّ ولم يمهله القدر حتى تظهر عبقريته . أديب مبدع وشاعر مفلق يتقن الآداب العربية والتركية والفارسية والكردية كتابة ونظماً ، ويتكلم بالهندية ايضاً» .

عبدالحليم الحافي

عماد الدين عبدالحليم الحافي او الحافاتي ابن احمد بن خلف الحافي يرتفع نسبه الى بشْر المروزي الحافي (٧٦٧ - ٨٤١م) الزاهد المتصوّف الذي أقام ببغداد وتوفّي بها ، وقال فيه المأمون : «لم يبق في هذه الكورة أحد يستحيى منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث» .

ولد الشيخ عبدالحليم في بغداد سنة ١٨٥٩ وتخرّج على خاله الشيخ عبدالسلام الشوّاف . درس في مدرسة القضاة في استانبول ، وعاد الى بغداد فتقلد منصب القضاء في أنحاء مختلفة آخرها الكاظمية (١٩٠٤) . وأصبح بعد الاحتلال امام وخطيب جامع السليمانية في بغداد (١٩١٧) فمدرس جامع السراي (١٩٢٣) ومدرس مسجد السيف في الكرخ (١٩٣١) . وعهد اليه توقيت الاذان بجامع السراي ، فكان كثيراً ما يراه السائر منصرفاً الى ساعاته الكثيرة في الحجرة المطلة على السوق مكباً على نصبها وتوقيتها . وكان مبرّزاً في اللغة والأدب عارفاً بعلم الهيئة .

وقد عيّن مدرساً في جامعة آل البيت سنة ١٩٢٤ . وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب في كانون الأول ١٩٣٧ الى شباط ١٩٣٩ .

وضع شرحاً في النحو بعنوان «تذكرة أولي الألباب» حفظت نسختها المخطوطة في مكتبة الأوقاف العامة . وجمع مكتبة حافلة بالمطبوعات والمخطوطات أهديت بعد وفاته الى خزانة الأوقاف . وله أسلوب جميل في الترسّل نشر ابراهيم الواعظ انموذجاً منه في كتابه «الروض الأزهر» .

توفي في بغداد في ١٤ تشرين الأول ١٩٤٣ ودفن في مقبرة الامام الأعظم . قال عنه أحمد حامد الصرّاف انه من أجلّة العلماء في بغداد ، وله شغف بعلم الفلك واطلاع واسع عليه . وقد نقل عنه في كتابه «عمر الخيام» أسماء آلات الرصد المستعملة في ذلك العهد .

أقول : أدركته في سنيه الأخيرة ورأيته في مجالس بغداد ودواوينها فوجدته - كما وصفه ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون : أخبارهم ومجالسهم» - طويل القامة بهيّ

الطلعة والشكل ، يرتدي العمامة والجبّة والبنطلون وصدرية شبيهة بما يرتديه علماء الأتراك في استانبول . وأضاف الدروبي قائلاً انه كان وفياً لأصحابه ، كريم النفس ، ذكياً لامعاً مولعاً بالأسفار ، وقد رحل مراراً الى سورية ومصر وتركية وغيرها من الأقطار . وكان ظريفاً ، لاذع اللسان ، شديد السخرية في ايماءاته وتلمحياته وتصريحاته . روي من نوادره ان ياسين الهاشمي دعاه ذات مرة الى الركوب في سيارته وكان معه أحمد الشيخ داود ، فأجاب معتذراً : «ان سيارة الهاشمي لا تحتمل عمامة واحدة فكيف بعمامتين !» ومن هذا القبيل ما رواه عبدالكريم الأزري في «ذكرياته» عند تعيين محمد رضا الشبيبي عيناً سنة ١٩٥٤ ان علي الشرقي قال للأزري في مقام العتاب : «كيف سعيت الى تعيين الشبيبي عيناً؟ ألا تعلم ان مجلس الأعيان لا يتسع لعمامتين بيضاوين من النجف؟» .

وقرأ احد الشعراء قصيدة بمحضر من عبدالحليم الحافاتي ، فظنّه الشيخ ممّن يتكسبون بشعرهم . ولما أفهم ان الشاعر أرفع من ذلك قال معتذراً : «ان البقر تشابه علينا» .

محمود المجموعي

الشيخ محمود المجموعي من علماء البصرة الاعلام ، وهو محمود بن عبدالكريم المجموعي الشافعي ينتهي نسبه الى طلحة الخير الصحابي القرشي . قال محمد صالح السهروردي في «لبّ الألباب» ان المجموعي ينتسب الى جده الأعلى الشيخ محمد المدرس في مدرسة المجموعة من مدينة البصرة ، وهو أول من سكن تلك المحلة وبنى فيها مدرسة ، فعكف عليه طلاب العلم والأدب ، وقصده الناس من جميع الجهات . وممن ثافنه وأخذ العلم عنه علامة الشرق محمد بن عبدالوهاب التميمي زعيم الاصلاح السلفي في نجد والجزيرة العربية (سنة ١٧٢٠م أو نحوها) .

ولد الشيخ محمود في البصرة سنة ١٨٦١ . وقرأ العلوم على جده لأمه الشيخ احمد نور الأنصاري قاضي البصرة ، ودرس ايضاً على غيره من علماء بلده ، وعيّن سنة ١٨٧٧ اماماً وخطيباً في مسجد الكواز . ومضى في تلك السنة الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج . عاد الى البصرة فواصل دراسته وأفاد من الشيخ عبدالوهاب النائب الذي زار البصرة سنة ١٨٨٢ . وسافر في السنة التالية الى بغداد وأتم دراسته على عبدالوهاب النائب ومحمد سعيد النقشبندي وخليل المظفر .

عيّن اماماً وخطيباً في مسجد المقام سنة ١٨٩٤ ، ثم استوطن بلدة الزبير ، وعين سنة ١٩٠٤ اماماً وخطيباً لجامعها . وواصل الوعظ والتأليف والتدريس حتى توفي في الزبير في ٢ ايار ١٩٥٧ .

وضع مؤلفات منها : البرهان الجلي في المحاكمة بين المغربي والموصلي ، شرح نظم التيسير في فقه الشافعية ، منبع البركات في شرح نظم الورقات ، التحفة البصرية ، نظم سلم الهداية في التصوف ، رفع الالتباس عن الاختلاف في الكأس ، نظم القطر في النحو .

محمد سليم العماري

الشيخ محمد سليم بن علي بن أحمد لفتة ينتسب الى قبيلة المشاهدة النازلة في أراضي التاجي من قضاء الكاظمية ، ولد ببغداد في ٥ ايار ١٨٦٩ ، ونشأ في العمارة التي انتقل اليها والده واتخذها مسكناً . ثم درس على علماء بغداد كنعمان الألوسي مدرس جامع مرجان وعلي الخوجة ومحمود شكري الألوسي ومحمد سعيد النقشبندي وعبدالوهاب النائب وغيرهم .

وعاد الى العمارة فاختير عضواً بمحكمة البداءة سنة ١٩٠٠ ، فمدرساً للواء العمارة (١٩٠٨) . وانتخب في آذار ١٩٠٨ نائباً عن العمارة في مجلس النواب العثماني ، لكنه لم يسافر لحضور جلسات المجلس لأسباب شخصية . وعيّن مفتياً ومدرساً للواء العمارة في نيسان من تلك السنة وبقي في منصبه حتى احتلال العمارة في حزيران ١٩١٥ .

اعتقله الانكليز وأبعدوه الى سمربور بالهند ، وأطلق سراحه بعد الهدنة . وعيّن في تموز ١٩٢١ مديراً لأوقاف البصرة ، ثم نقل مفتشاً للأوقاف . واعتزل الخدمة سنة ١٩٢٨ فعاد الى العمارة منصرفاً الى الوعظ والتدريس .

وتوفي في العمارة في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٧ .

حبيب العيدروسي

حبيب العيدروسي رئيس الطريقة العيدروسية من الطرق الصوفية التي التزم بها جدّه ابو بكر بن السيد عبدالله العيدروسي دفين عيدروس في حضرموت ، والأسرة حسينية النسب وقد انتقل احد اجدادها الى بغداد .

والسيد حبيب شخصية ظريفة في المجتمع البغدادي اشتهر بانتقاداته اللاذعة ونكاته الظريفة . وقد أقام في محلة القراغول في بغداد وامتلك بساتين في محافظة ديالى . اشترك في ثورة العشرين ، وكان همزة الوصل بن زعماء الثورة وعشائر ديالى ، فاعتقل ونفي الى جزيرة هنجام في الخليج .

توفي في بغداد سنة ١٩٦١ شيخاً مسناً .

وقد ذكر أمين الريحاني عيدروس في كتابه «فيصل الأول» فقال ان للوليّ عيدروس الذي تعرّف به في عدن مقاماً قدسياً آخر في محلة باب الشيخ بجوار مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني (ا هـ) . وقد أسس التكية العيدورسية في بغداد السيد عبدالله جدّ حبيب .

وذكر خير الدين الزركلي في «أعلامه» أربعة من شيوخ العيدروس :

(١) ابو بكر بن عبدالله الشاذلي العيدروس (١٤٤٧ - ١٥٠٩م) ، وهو من آل باعلوي ، كان صالحاً زاهداً ، ولد في حضرموت وقام بسياحة طويلة ثم سكن عدن ٢٥ سنة وتوفي بها . وهو مبتكر القهوة المتخذة من البنّ المجلوب من اليمن .

(٢) عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله بن شيخ ابن عبدالله العيدروس مؤلف «الفتوحات القدسية في الخرقة العيدروسية» . كان باحثاً مؤرخاً من أهل اليمن ، ولد سنة ١٥٧٠ وسكن حضرموت ، ثم انتقل الى أحمد أباد بالهند وتوفي بها سنة ١٦٢٨ .

(٣) عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن السقّاف الحسيني آل العيدروس (١٦٦٠

- ١٧٠١) ، من أهل حـضـرمـوت . له كنّاش دوّن فيـه رحلتـه الى الحـجـاز والعـراق وغيرهما .

(٤) عـبـدالرحـمن بن مـصطفى العـيـدروس الحـسـيني (١٧٢٣ - ١٧٧٨) من حضرموت . له مؤلفات منها تنميق السفر ، وهي رحلته الى مصر .

عبدالجليل آل جميل

الشيخ عبدالجليل بن أحمد بن عبدالرزاق آل جميل ينتمي الى الأسرة المعروفة، وهي شامية الأصل قدم جدها الى بغداد واشتهر منها عبدالغني بن محمد جميل مفتي بغداد في عهد الوالي علي رضا باشا، وقد توفي سنة ١٨٦٣ .

ولد عبدالجليل آل جميل في بغداد سنة ١٨٧٠ ودرس العلوم العربية واللغتين التركية والفارسية على علي الخوجة . ثم واصل دراسته على عبدالوهاب النائب وعبدالرحمن القره داغي وغلام رسول، ونال الاجازة في الفقه والحديث والمنطق والبلاغة والتفسير وسائر العلوم . عين مدرساً في جامع العادلية الكبير سنة ١٨٩٣ ثم نقل الى جامع الآصفية (١٩٠٩) . وعيّن سنة ١٩١٠ مفتياً للكاظمية فاستمر في منصبه الى احتلال بغداد (١٩١٧) . وقد نفته السلطات البريطانية الى الهند . وعاد الى التدريس بعد رجوعه من منفاه، ثم عيّن مدرساً في جامعة آل البيت .

وكان في العهد العثماني عضواً بمحكمة بداءة بغداد سنة ١٩٠٥ وعضواً بمجلس المعارف (١٩٠٨) . ثم أصبح في عهده الأخير مدرساً في جامع الآصفية مرة أخرى (١٩٤٤) . وتوفي ببغداد في ١٥ آب ١٩٥٧ .

وضع مؤلفات عديدة، منها : تنوير الاذهان (في المنطق، ١٩٠٣)، ارشاد العباد في علم الاعتقاد، العجالة في النحو، المحاضرات في الأصول، وشروح في أصول الفقه والمنطق . وتولى اصدار مجلة «الارشاد» سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٨ .

وهو ابو عبدالقادر جميل عضو محكمة التمييز ورئيس ديوان مجلس الوزراء والشاعر حافظ جميل .

محمد رشيد الشيخ داود

الشيخ محمد رشيد بن اسماعيل بن الشيخ داود النقشبندي ولد في بغداد سنة ١٨٧٢ ، ودرس على علماء عصره علي الخوجة وعبدالوهاب النائب وغلام رسول وعبدالرحمن القره داغي وغيرهم . عين مدرساً في مدرسة الروّاس سنة ١٩٠٦ ، وقاضياً وأميناً للفتوى بالوكالة (١٩٠٩ - ١٩١٠) . ونقل الى مدرسة جامع الحيدرخانة بعد وفاة محمود شكري الألوسي . وعين مدرساً في التكية الخالدية ومدرسة نائلة خاتون سنة ١٩٢٩ . وألف كتباً في الطريقة القادرية ونظم الشعر .

ادركه الحمام في بغداد في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٩ .

من شعره قصيدة نظمها في الرد على قصيدة لمعروف الرصافي نشرت في جريدة «الميزان» واعتقد الشيخ محمد رشيد انها تتضمن نكراناً للوحي النازل على الأنبياء ، ومطلعها :

على الاسلام أندب في بكائي ... وأستدعي المؤزّر للولاء

ويقول فيها :

لها قد صرت ذا وهم وسقم ... وقد عزّ الدواء لدفع دائي
وقد زاد الشجى بظهور من قد ... على الأديان يطعن بازدراء
وأبدى ما يضيق الصدر عنه ... وأخفى ما استحق من الرغاء
يقول بأنني قولاً وفعلاً ... أصرّح لا أميل الى الرياء
ولست من الذين يرون خيراً ... لإبقاء الحقيقة بالخفاء
ولا ممن يرى الأديان قامت ... بوحي منزل للأنبياء
ولكن هنّ وضع وابتداع ... من العقّلاء أرباب الدهاء
أقول ، وأستعيذ بلطف ربّي ... من الكفر الصريح بلا امتراء
لعمري لم يفه ذو العقل فيما ... به قد فاه معروف الشقاء
وهل ترضى العقول بترك خلق ... بلا تدبير خلاق السماء؟

أقول : ان قصيدة الرصافي التي ردّ عليها الشيخ محمد رشيد هي قصيدته «حقيقتي

السلبية» التي يقول فيها :

أحبّ صراحتي قولاً وفعلاً ... وأكره ان أميل الى الرياء
فما خادعتُ من أحد بأمر ... ولا أضمرت حسواً في ارتغاء
ولست من الذين يرون خيراً ... بإبقاء الحقيقة في الخفاء
ولا ممن يرى الأديان قامت ... بوحي منزل للأنبياء
ولكن هنّ وضع وابتداع ... من العقلاء أرباب الدهاء

وقصيدة الرصافي منشورة في ديوانه ، اما قصيدة الشيخ محمد رشيد فقد نشرها محمد صالح السهروردي في الجزء الثاني من كتابه «لبّ الألباب» وأعاد نشرها يونس الشيخ ابراهيم السامرائي في «تأريخ علماء بغداد» .

عثمان الديوه جي

القاضي الفقيه الشيخ عثمان بن محمد الديوه جي ولد في الموصل سنة ١٨٧٣ ودرس على شيخيه عبدالله الفيضي ومحمد الرضواني . وعيّن واعظاً بجامع الشيخ عبدال (١٨٩٧) وخطيباً في جامع العمرية . وأصبح بعد ذلك رئيساً لمجلس الأوقاف .

وقد سعى في عمارة مسجد منصور الحلاج المجاور لداره وتصدّر للتدريس فيه ، فتخرّج عليه جماعة من رجال العلم والفضل . وكان واعظاً مفوّهاً يغصّ مجلسه بالمجتمعين .

عيّن قاضياً لمدينة بغداد في ١٧ كانون الأول ١٩٢٢ ، ونقل قاضياً للموصل في شباط ١٩٢٦ . وأعيد الى قضاء بغداد ، ثم اختير عضواً بمجلس التمييز الشرعي في حزيران ١٩٣٠ . وشكلت الحكومة العراقية في كانون الثاني ١٩٣٢ لجنة من كبار العلماء ورجال القانون لاعداد لائحة قانونية للأحوال الشخصية ، فكان الديوه جي احد اعضائها . وأعيد الى قضاء بغداد في آذار ١٩٣٣ حتى أحيل على التقاعد في ايلول من تلك السنة .

وعاد الى الموصل منصرفاً الى التدريس والارشاد حتى وافاه الأجل فيها في ١٧ شباط ١٩٤١ .

ترك مؤلفات في قواعد اللغة العربية والفقه الحنفي . وروى عثمان الديوه جي - على ما نقله عباس العزاوي - انه درس ايضاً على الشيخ أمين القره طاغي في مدرسة الشيخ عديّ في الشيخان . وذلك ان الفريق عمر وهبي باشا نكّل باليزيديين في سنة ١٨٩١/ ١٨٩٢ واستولى على مقام الشيخ عديّ واتخذه مدرسة عهد بالتدريس فيها الى القره طاغي وتلقى فيها العلم طلبة من الموصل وأنحائها . وألغيت المدرسة سنة ١٩٠٤ وأعيدت الى اليزيديين .

عبدالله النعمة

من علماء الموصل ومدرّسيها المعروفين الشيخ عبدالله بن محمد بن جرجيس النعمة ، ولد سنة ١٨٧٣ بالموصل ودرس على رجال عصره . ثم تصدّى للتدريس والارشاد ، فتخرج عليه جماعة كبيرة من رجال الدين والطلاب الممتازين ، ومنهم محمود الملاح وضياء يونس . وانشئت مدرسة دينية بعد الاحتلال البريطاني فاختير لادارتها وواصل التدريس أعواماً طويلة .

وقد شارك في الحركة الوطنية ، وبعث في طلابه روح المثابرة والعلم ، وحثهم على دراسة العلوم العصرية . وكان ميّالاً الى الأخذ بلباب التمدن الحديث . دعي مرة في سنة ١٩٢٣ - على ما حدثني به تلميذه محمود الملاح - الى ركوب الطيارة ، وكان ذلك اول عهد الموصل بالطيران ، فلم يتوان عن التحليق في الجوّ بينما أحجم غيره وتخلف . وساهم في النشاط الاجتماعي فكان رئيساً لجمعية الشبان المسلمين .

كان أبيّ النفس لا يداجي ولا يداهن ، منقطعاً الى التدريس ، راضياً بكفاف العيش ، مترفعاً عن الجاه والمنصب .

توفي في مسقط رأسه سنة ١٩٥٠ .

وضع منظومات تعليمية في الصرف والاعراب . ونشر تلميذه محمد محمود الصوّاف مجموعة خطبه . قال محمود الملاح تلميذه ان الشيخ عبدالله النعمة حين منحه وزملاءه الاجازة العلمية اوصاهم بالجرأة على اظهار الحق واجتناب النفاق والابتعاد عن المطامع الخسيسة والتملق والتبصبص . وأنشد قائلاً :

ولو ان أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لَعَظَّمَا
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تجهّما

أحمد الشيخ داود

العالم الوزير الشيخ احمد الشيخ داود ، وهو نجل الشيخ داود بن سليمان بن جرجيس العاني النقشبندي الخالدي ينتمى نسبه الى الامام موسى الكاظم . وكان أبوه الشيخ داود (١٨١١ - ١٨٨٢) من أجلّة علماء بغداد في عصره ، اشتهر بردّ على أبي الثناء الألوسي .

ولد الشيخ احمد في بغداد في ٣ نيسان ١٨٧٠ وقرأ العلوم العربية والدينية على علماء أفاضل منهم والده وعبدالوهاب النائب ومصطفى نور الدين الواعظ وعلي الخوجة ومحمد سعيد الدوري والشيخ بهاء الحقّ والشيخ عبداللطيف مدرّس المدرسة القادرية . وعيّن في سنة ١٨٩٣ مدرساً لقضاء بعقوبا ، فقضى في التدريس خمسة عشر عاماً وتولى في أثناء ذلك مراراً وكالة القائممقام والقاضي .

على اثر اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ عيّن قائممقاماً لقضاء خانقين . وزار الاستانة (١٩١٠) ثم عين واعظاً عاماً لولاية بغداد وانتخب عضواً بمجلس الولاية حتى احتلال بغداد .

وعيّن في العهد الجديد مديراً لأوقاف بغداد (٢٢ شباط ١٩١٨) ورئيساً للأمور الدينية . وأبلى في الثورة العراقية بلاءاً حسناً فنفي الى جزيرة هنجام سنة ١٩٢٠ ولبث فيها الى شباط ١٩٢١ . وعاد الى جهاده الوطني ، وكان من أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الوطني ، فلما نفي أعضاؤه الى هنجام في آب ١٩٢٢ ، اختفى عن الأبصار أشهراً ثم ظهر بعد عودة المبعدين .

وانتخب نائباً عن بغداد في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) ، ثم ناب عن لواء بغداد ايضاً في مجلس النواب في الدورات النيابية لسنة ١٩٢٥ - ١٩٢٨ و١٩٢٨ - ١٩٣٠ . وأصبح وزيراً للأوقاف في وزارة السعدون الثالثة (١٤ كانون الثاني ١٩٢٨ - ٢٨ نيسان ١٩٢٩) .

أعيد انتخابه نائباً عن بغداد في ٢٣ تشرين الأول ١٩٣٣ وكانون الأول ١٩٣٤ الى نيسان ١٩٣٥ . ثم عيّن عضواً بمجلس الأعيان في ٢٩ ايار ١٩٣٧ الى تشرين الأول

١٩٣٧ ، ثم أصبح عيناً أيضاً في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٣ وجددت عينيّته في ١٧ تشرين الأول ١٩٤٥ . وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس الأعيان في أول كانون الأول ١٩٤٥ ، وثم في ٣ نيسان ١٩٤٧ . وتوفي في بغداد في ١١ حزيران ١٩٤٧ .

وله تصانيف ، منها : المواهب الرحمانية ، والآيات البيّنات . وقد عالج نظم الشعر وقام بتشطير البردة ولامية العجم ولامية ابن الوردي الخ .

كان احمد الشيخ داود من العلماء العصريين ، واسع الأفق ، متسامحاً غير متزمّت ، سمح لبناته ان يدرسن دراسة عالية وأن يشتركن في الحياة العامة ايماناً منه بتطور الأزمان ووجوب الأخذ بأسباب النهضة الحديثة وتكاتف الجنسين في اعلاء شأن البلاد . وأنشأ في عهد وزارته مكتبة الأوقاف ، فقال معروف الرصافي :

لقد جمع الشيخ هذي الكُتُبْ	فأنقذها من أكُفّ العَطَبْ
ورتّبها فهي معروضة	لمن يتناولها من كَثَبْ
وكانت لَعَمْرك رهن الغبار	مكدّسة في زوايا الشَجَب
نسيج العناكب من فوقها	ومن تحتها السُّوس فيها انْسرَب
فمدّ اليها معالي الوزير	يداً دأبها الغوْث عند الكُرَب
فأخرج منها كنوز العلوم	لأهل الفنون وأهل الأدب

ونظم الرصافي قصيدة ثانية في خزانة الأوقاف أنشدها عند افتتاحها في ٨ كانون الثاني ١٩٣٢ ، ومطلعها :

للمسلمين على نزورة وفرهم	كنز يفيض غنى من الأوقاف

وكان الشيخ أحمد جمّ النشاط في اداء واجباته النيابية ، سجلت له محاضر مجلس النواب خطباً ومناقشات كثيرة . وقيل انه طلب الكلام في اثناء بحث ميزانية مديرية الزراعة وخرج من قاعة المجلس دقائق ثم عاد . وكانت ميزانية الزراعة قد صدّقت في غيابه ، فلما دعي الى الكلام وأخذ يذكر هذه الدائرة نبّه الى ان البحث قد انتقل الى مديرية البيطرة . فقال على البديهة : فلتكن البيطرة ! وأخذ يتكلم على البيطرة والثروة الحيوانية .

دعا الشيخ احمد الى ضرورة الاسراع في سن القانون الأساسي . وقال في خطاب له في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤ ان الأمم بذلت كل غال ورخيص للحصول على دستور . والعراق يطالب منذ نهضته سنة ١٩٢٠ بحكم دستوريٍ يكون دعامة لحكومة

ثابتة يرتضيها وكلاء الأمة باسم الأمة . وقال : فيجب علينا ان نسنّ القانون الأساسي لتحديد شكل حكومتنا الدستورية ، فالدستور روح البلاد الذي ينجيها من التذبذب .

وقد عارض في المجلس التأسيسي عقد المعاهدة العراقية - البريطانية ، وقال انها ضربة قاضية على استقلال البلاد ، مميتة للشعب ، مهدمة للكيان السياسي . وكان الشيخ احمد من أشدّ المؤيدين لاختيار الأمير فيصل ملكاً على العراق . وينسب اليه انه قال : «انا وشعبي نبايع فيصلاً ملكاً على العراق» .

رثاه عند موته المحامي عبدالملك عبدالله الجرجيس بقصيدة ، منها :

سيبكيك كرسي ويبكيك منبر ... ويندب اخلاصاً لديك ربوع
ويبكيك اخوان كرام عرفتهم ، ... ففقدك خطب للجميع مروع
فوا أسفي ، من للمكارم والعلى ، ... وهل للسجايا الطيّبات رجوع؟

من شعر الشيخ احمد الداود يقرّظ كتاب «توحيد أهل التوحيد» لمؤلفه السيد هبة الدين الشهرستاني :

كتاب دعا الاسلام للقصد والبرّ ... وأرشد أهل الدين للرشد والخير
وأثبت احكام الشريعة والهدى ... بآي من القرآن كالأنجم الزهر
وهل بعد قول الله للناس حجّة ... تقوم باظهار الحقيقة في الجهر؟
لقد خدم الاسلام والدين نصّه ... وقام باحياء الشريعة في النشر
مؤلّفه النحرير والحبر سيّد ... من القادة الأخيار والسّادة الطُّهْر
له في التقى والعلم والفضل رتبة ... تسامت على أوج السّماكين والنّسر

الشيخ احمد الشيخ داود

وصفه جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» فقال انه «لم يكن وجيهاً فحسب وانما كان له من الدروس العربية وشيء من التفقّه نصيب اكتفى به . وكل ما كان يميّز الشيخ احمد بعد العمّة واللحية جبّة فضفاضة وصباحة وجه وصوت جهوري لا يخلو من الموسيقى المحبّبة عندما يتكلم او يخطب . وهو بعد ذلك وطني ساهم في الحركة الوطنية والتكتل ضد الاستعمار الانكليزي في العراق ، عمل مع العاملين في هياج الناس وتألّبهم لتأييد الثورة العراقية الكبرى حتى اضطرت السلطة الانكليزية ببغداد ان تقبض عليه وتنفيه مع الوطنيين خارج العراق» .

ثم قال الخليلي : «والشيخ احمد موصوف بالجرأة ، وهو ينزع الى الحرية في أفكاره . وكان يتكلم باسم رجال الدين رضي رجال الدين عنه ام غضبوا . فقد احتل له مكاناً بين اللامعين العاملين في حقل السياسة وبين رجال الدين . وكان نائباً جريئاً في المجلس النيابي... والى جانب ذلك لم يكن يخلو من تفكّه وحلاوة ونكتة» .

وذكر الخليلي ان الشيخ احمد سمح لابنته صبيحة - وكان عمرها دون العاشرة - ان تمثل دور الخنساء في مهرجان «سوق عكاظ» الذي أقيم ببغداد في شباط ١٩٢٢ رغم تزمّت المتزمتين ، إذ كان متحرراً مفتح الذهن . وقد عدّ المشايخ ، حتى رئيس الوزراء آنذاك السيد عبدالرحمن النقيب ، ظهور هذه الفتاة ، وهي تتسنّم بعيراً يخترق الجموع وتنشد راكبة ما كانت تنشد الخنساء في سوق عكاظ في أيام الجاهلية ، عدّوه كفراً او ما يشبه الكفر واستنكروه أشدّ الاستنكار . لكن الملك فيصل أيد لجنة السوق في عملها وشجعها مما أرغم الطبقة المستنكرة على تقبّل الأمر الواقع على مضض .

محمد درويش الألوسي

محمد درويش بن أحمد شاكر بن محمود شهاب الدين المفسّر الألوسي ، ولد ببغداد سنة ١٨٧٦ ، ودرس على يحيى الوتري ومحمد سعيد الزهاوي ويوسف العطا وعبدالوهاب النائب ومحمود شكري الألوسي وعبدالرحمن القره طاغي وعلي علاء الدين الألوسي وغيرهم .

عيّن كاتباً في المحكمة الشرعية في بغداد ، فعضواً بمحكمة الحقوق (١٩٠٦) وعضواً في مجلس المعارف (١٩٠٩) ومدرساً وواعظاً بجامع السيد سلطان علي (١٩٠٩) . وأصبح عضواً بمجلس ادارة ولاية بغداد في كانون الأول ١٩١٦ . ووجهت اليه خطابة جامع العاقولي سنة ١٩٢٢ .

وباشر أعمال قاضي بغداد نيابة عن ابن عمّه علي علاء الدين الألوسي من آب ١٩٢٠ الى كانون الثاني ١٩٢٢ .

صنف مؤلفات في المواعظ وغيرها . وقد توفي ببغداد في ١٦ نيسان ١٩٤٨ .

خليل الراوي

الشيخ خليل بن حسين الراوي يرتقي بنسبه الى السيد رجب الكبير الراوي سليل السيد احمد الرفاعي . ولد في بلدة راوة سنة ١٨٧٧ ، ورحل الى بغداد فدرس على الشيخ ابراهيم الراوي وعباس حلمي القصاب ويوسف العطا وعبدالوهاب النائب وأجيز في علوم الفقه والعربية . وقد عين مدرساً في مدرسة الروّاس بباب الشيخ من رصافة بغداد ومدرسة قره علي وعهدت اليه وظائف دينية أخرى .

وفي شباط ١٩٤٣ عين شيخ السجادة الرفاعية بجامع السيد سلطان علي ، وخلف الشيخ ابراهيم الراوي في تموز ١٩٤٧ مدرساً في جامع السيد سلطان علي . وتوفي ببغداد في ٢٤ ايلول ١٩٥٧ .

محمد حسين آل كاشف الغطاء

الامام محمد حسين آل كاشف الغطاء المجتهد الكاتب الشاعر صاحب المراسلات مع أمين الريحاني فيلسوف الفريكة ولد في النجف سنة ١٨٧٨ وتوفي في كرند المجاورة للحدود الايرانية حيث ذهب مصطافاً مستشفياً في ١٩ تموز ١٩٥٤ . وقد ترجمت له في «اعلام اليقظة الفكرية» .

قال عبدالحليم الرهيمي في كتابه «تأريخ الحركة الاسلامية في العراق» (١٩٨٥) ان كتاب «الدين والاسلام» او «الدعوة الاسلامية» للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء يعالج أهم المشاكل المطروحة على المجتمعات الاسلامية ويتناولها بالتحليل والنقد واقتراح الحلول التي يراها بنزعة تجديدية اصلاحية . ويرى المؤلف ان سبب ضعف المسلمين يرجع الى ضعف الوازع الديني في نفوسهم - ذلك الضعف الناجم عن تعلّقهم بزخارف الدنيا ، فضلاً عن نفوذ الروح الغربية التي دخلت الى جسم العالم الاسلامي ففرقت شمله ومزقته .

ويمضي المؤلف في نقد النظريات المادية الغربية ، ولا سيما الداروينية ، وامتدادها في العالم الاسلامي . ويحمل على شبلي شميّل وسلامة موسى وأمثالهما ، ثم يدعو الى توحيد كلمة المسلمين وضرورة التجديد والاصلاح ومكافحة الخرافات .

هذا وقد ربطت محمد حسين في مطلع شبابه أواصر المودة مع الشاعر السيد جعفر الحلي والشيخ رضا الأصفهاني . ورثاه عند وفاته محمد علي اليعقوبي فقال :

هيهات ينسى المسلمون فجيعة ... فيها أصيب بفقدك الاسلام
من مثل شخصك فكرة ونباهة ... إن حارت الأفكار والأفهام؟
من مثل شخصك جرأة وبسالة ... حيث الرجال يهولها الاقدام؟

تزعم محمد حسين كاشف الغطاء ثورة عشائر الفرات سنة ١٩٣٥ . قال حسن العلوي في كتابه «التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق» (لندن ، ١٩٨٨) ان الشيخ محمد حسين لم يكن يرمي الى اسقاط وزارة ياسين الهاشمي ، بل

حاول أبعد من ذلك القضاء على النهج السياسي السائد . وقد وضع برنامجاً سمّي «الميثاق» استعاد فيه الآراء الاصلاحية القديمة باعتماد نظام برلماني كامل يكون فيه مجلس النواب المنتخب انتخاباً مباشراً حراً المرجع الوحيد لمنح الثقة او سحبها عن الوزراء والوزارة . ودعا الى توزيع السلطة والادارة بصورة دمقراطية وفق النسب السكانية واقامة تعايش دمقراطي بين المواطنين بمنح الحقوق والفرص المتساوية لجميعهم .

وتضمن الميثاق مبادئ أخرى كمساهمة المواطنين في الحكم بلا تمييز وضمان حقوق الأقليات الدينية والمذهبية والعرقية واطلاق حرية الصحافة واصلاح ملكية الأراضي وضرائبها وهلم جرا .

هذا وقد قضي على تمرّد العشائر بشدّة وقسوة لا مثيل لهما .

السيد هبة الدين الشهرستاني

من رجال الاصلاح الديني السيد محمد علي هبة الدين الحسيني الشهرستاني ولد في سامراء في ٢٠ ايار ١٨٨٤ وتوفي ببغداد في ٦ شباط ١٩٦٧ . أصدر مجلة العلم في النجف سنة ١٩١٠ ، وكان وزيراً للمعارف ورئيساً لمجلس التمييز الشرعي الجعفري . أوردت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية» .

قرظ علي الشرقي مجلة «العلم» عند صدورها بقصيدة مطلعها :

آمنت فيك وحبّ العلم ايمان ، فآية العلم انجيل وقرآن

كتب الشهرستاني من كربلاء كتاباً الى السر برسي كوكس في ١١ تشرين الأول ١٩٢٠ ، وهو يوم وصوله الى بغداد ، يرحب بمقدمه وينتظر منه كل الخير للقطر العراقي . وقد أوضح رغبة الأمة العراقية في السلم والسكون ، وطالب بتنفيذ وعود بريطانية في تحرير العراق واستفتاء أهله في مصير البلاد . وانحى باللائمة على وكيل الحاكم المدني العام السابق السر أرنولد ولسن وحمّله تبعة الاضطرابات والثورة التي حصلت في صيف تلك السنة من جرّاء سياسته الخرقاء (ا هـ) .

وسجن الشهرستاني في الحلة بعد انتهاء الثورة ، فنظم ارجوزة ذكر فيها أسماء رفاقه في السجن ومطلعها :

هاك أسامي نخبة الآفاق من حوكموا في نهضة العراق
سبع وعشرون شيوخ رؤسا وستة من نسل أصحاب الكسا

وأطلق سراحه بعد صدور العفو العام في ٣٠ ايار ١٩٢١ .

قال الدكتور علي الوردي في الجزء الثالث من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» ان جمال الدين الأفغاني عاش في عصر الصراع بين القديم والجديد في البلاد الاسلامية ، فحاول ان يوفق بين الآراء وأنشأ مذهبه «التوفيقي» لتقريب الشقّة بين أنصار القديم الجامدين المتزمتين ودعاة النهضة الحديثة . وقد سلك في ذلك مسلك الفلاسفة السابقين ، ولا سيما ابن رشد الأندلسي الذي ارتأى ان الدين حقّ والفلسفة حقّ ، فلا تعارض بينهما . وكان من أعظم تلامذة الأفغاني في هذا المنهج الشيخ محمد

عبده مفتي الديار المصرية .

قال الوردي : «انّ هذا المذهب التوفيقي الذي اتبعه الأفغاني قد تأثر به الكثيرون من بعده ، وكان أول من تأثر به في العراق السيد هبة الدين الشهرستاني ، اذ هو أخرج في عام ١٩١١ كتاباً عنوانه «الهيئة والاسلام» حاول فيه التدليل على ان جميع النظريات الفلكية الحديثة قد وردت في القرآن او وردت على لسان النبيّ والأئمة الاثني عشر» .

ولا ريب ان الشهرستاني عدّ مصلحاً في عصره وشايعته فئة كبيرة من الشبّان الذين وجدوا في كتبه وفي مجلته «العلم» منطلقاً لأذهانهم المتفتّحة . لكن ساطع الحصري الذي عمل معه في وزارة المعارف بعد الحرب العظمى نعى عليه في مذكّراته جموده وآراءه القديمة !

وقارن الدكتور الوردي ايضاً بين جميل صدقي الزهاوي وهبة الدين الشهرستاني ، فقال ان الفرق بينهما كالفرق بين النجف المتزمّتة المنطوية على نفسها وبين بغداد البيئة المتفتحة المنطلقة . كان الشهرستاني في أوائل القرن العشرين من أكثر الناس ولعاً بالمطبوعات المصرية حتى صار مرجعاً لها بين شبان الملائية ومتجدديهم . وقد اتخذ لنفسه حلقة دراسية في جامع الطوسيّ يحاضر فيها في مبادئ العلوم الحديثة التي استمدها من المجلات والكتب المصرية ، فأثار ضجة واتهم بالزندقة !

قال الوردي : «نشأ كل من الزهاوي والشهرستاني نشأة دينية ، إذ كانت أسرتاهما من الأسر الدينية المعروفة . غير ان الشهرستاني ظل محافظاً على عمامته وزيّه الديني حتى آخر يوم من حياته ، بينما خلع الزهاوي عمامته في كهولته ودخل في سلك الأفندية ، وهذا الفرق الظاهري يشير الى ما بينهما من اختلاف ذهني عميق» .

وكان كل من الزهاوي والشهرساني يسير في تجديده الفكري على طريقة تلائم البيئة الاجتماعية التي عاش فيها : فالزهاوي كان شديد الاعجاب بالعلوم الحديثة ويريد من الدين ان يلحق بها ويتفق معها . اما الشهرستاني فكان على النقيض من ذلك شديد التمسك بالدين ويريد من العلوم الحديثة ان تلحق به وتواكبه وتتفق معه .

وفي عام ١٩١٠ نادى الزهاوي بتحرير المرأة ورفع الحجاب عنها ، فقامت عليه في بغداد ضجة كادت تودي بحياته . وفي العام التالي نادى الشهرستاني بتحريم نقل الجنائز ، فقامت عليه في النجف ضجة مماثلة .

قال الوردي ان كل واحد من هذين الرجلين كان ينظر الى الدنيا من خلال اطاره الفكري الخاص به : فالزهاوي يريد ان يقفز بالمجتمع العراقي الى الحياة الحديثة دون

مبالاة بالدين والتقاليد ، بينما كان الشهرستاني يريد عودة المجتمع الى حظيرة الدين بعد تنقيته من الأدران التي لحقت به في العهود المتأخرة . وقد نجحت دعوة الزهاوي أخيراً بينما أخفقت دعوة صاحبه ، لأن التيّار الحضاري جبّار سامق لا يقبل بأنصاف الحلول .

أرجوزة في العقائد

عالج هبة الدين الشهرستاني النظم في شبابه . فمن شعره أرجوزته «مواهب المشاهد في واجبات العقائد» قوله :

ان الكلام أحرف متصّله ... صوتيّة تفيد ما توضع لهْ
وذو الكلام موجد الكلام في ... جسم يؤدّيه وإن كان خفي
والحقّ بالحقّ أبان ما استطر ... فيما يؤدّيه وان كان شجر
فالعرف قاض بثبوت ذاك له ... ولا نرى النفسيّ إذ لن نعقله

ومنها في الآجال :

لا حيَّ غيره يدوم والأجل ... وقت به الحيوان عيشه بطل
محتومة بالطبع والمعلّق ... بعارض فهو كمن يختنقُ
وجاز في المختنق الحياة ... لولا اختناقه كذا الممات

ومنها في المعاد :

يعاد بالمَعَاد في الصّحيح ... اجسادنا مقرونة بالرّوحِ
واتفق الأديان في الرّوحاني ... واختلفوا في صحّة الجسماني
ومقتضى الثبوت ثابت ، وما ... يمنعه قد منعته العُلَمَا
بعد اختيار والعود للاعدام ... او عدم الاعدام للأجسام
والقول بالتّفريق والتخليل ... كما بدا في قصّة الخليل

ثم قال :

قد اقتضى اليقين بالمعاد ... وضع التكاليف على العباد
فمن عصى لو لم يذق عقوبته ... ولم يلاق ضدُّه مثوبته
لو استوت الرّتبة ممن امتنع ... مع الذيَ أطاع وهو ممتنع
ولاقتضى نفي العقاب والعوض ... أن لا يطاع وهو نقض للغرض
والنفس كم لها من البواعث ... تبعث للفسوق والخبائث
فحقّ للحقّ وعيد العاصي ... ووعد من مال عن المعاصيَ

محمد نافع المصرف

قاضي بغداد محمد نافع المصرف ابن علي صائب بن اسماعيل بن ابراهيم بن اسماعيل بن الشيخ ولي قاضي كركوك ، ينتمي الى اسرة طائية . ولد ببغداد سنة ١٨٨٢ ودرس على يحيى الوتري وقاسم البياتي وعلي الخوجة وعبدالمحسن آل بكتاش الطائي ومحمود شكري الألوسي وغيرهم من علماء عصره .

عيّن كاتباً في المحكمة الشرعية سنة ١٨٩٧ ، ثم أصبح قاضياً بناحية جصّان (١٩٠٨) . وعمل بعد ذلك موظفاً في المحكمة الشرعية ببغداد والديوانية . وانتقل رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية في بغداد فكاتباً أول لمجلس التمييز الشرعي السنّي فنائباً لقاضي بغداد . وعيّن قاضياً لمدينة بغداد في كانون الأول ١٩٢٨ ، ثم نقل عضواً بمجلس التمييز الشرعي في تموز ١٩٣٣ . وأعيد قاضياً لبغداد (ايلول ١٩٣٤) فعضواً بمجلس التمييز ايضاً (حزيران ١٩٣٥) .

توفي ببغداد في ١٦ تموز ١٩٣٦ .



عبدالعزيز الشوّاف

قاضي بغداد الشيخ عبدالعزيز بن احمد بن عبدالرزاق ينتمي الى الأسرة العلمية المعروفة التي انجبت كثيراً من رجال الدين والقانون ، وهي تنتمي الى بطن من قبيلة قيس . ولد ببغداد سنة ١٨٩٠ ، ودرس على والده الشيخ احمد وعمه طه الشواف والعالم النحوي عبدالملك الشواف ونجم الدين الواعظ . ثم انتمى الى دار المعلمين فمدرسة الحقوق التي تخرّج فيها سنة ١٩٢٥ .

عهد اليه بالتدريس في مدرسة الأليانس الثانوية في بغداد أعواماً ، فدرّسنا اللغة العربية وآدابها وكان لنا نعم المؤدّب والمثقف . اتصف بالفضل والوقار والأدب الجمّ ، وكان خفيض الصوت إذا تكلم ، غزير العلم ، كثير الحلم ، طويل الأناة ، يرعى تلاميذه ويضرب لهم المثل الطيّب في التواضع والخلق الكريم .

وانتدب بعد ذلك لتدريس البلاغة وعلم الفرائض وأحكام الوقف في جامعة آل البيت . ثم عيّن حاكماً في المحاكم المدنية . تنقل في مناصب القضاء ، فكان عضواً في محكمة جزاء بغداد (١٩٣٢) فمحكمة بداءة البصرة (شباط ١٩٣٣) فالنجف (١٩٣٣) فالموصل . ونقل بعد ذلك قاضياً شرعياً للبصرة (ايار ١٩٣٦) فبغداد (ايار ١٩٤٢) فرئيساً لمجلس التمييز الشرعي السنّي (ايلول ١٩٤٦) فرئيس التفتيش العدلي (كانون الثاني ١٩٤٨) . ونقل في العام التالي عضواً بمحكمة استئناف البصرة ، فحاكماً لبداءة العمارة (تشرين الأول ١٩٥٠) . واعتزل الخدمة بعد ذلك .

انصرف عبدالعزيز الشوّاف بعد تقاعده الى التدريس في جامع الأحمدية (١٩٥٦) وعيّن اماماً في جامع المصرف . وعمل في جمعيات البرّ والثقافة وكان رئيساً لجمعية الهداية الاسلامية . وقد أدركته الوفاة ببغداد في ١٦ كانون الأول ١٩٧٠ .

وهو والد الشاعر خالد الشواف .

كان عبدالعزيز الشوّاف الحاكم والقاضي عنوان العفّة والنزاهة . وقد وضع مباحث في «الوقف في الاسلام» .

رثاه جمال الدين الألوسي قال : «أبا خالد ، لقد فارقتنا على غير انتظار ، واستلّك الموت من بيننا فجأة وأنت بكامل عقلك . ولم يطل مرضك .

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع» .

عبدالقادر الخطيب

الشيخ عبدالقادر بن عبدالرزاق بن صفر آغا القيسي خطيب الامام الأعظم ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ وتخرج في دار المعلمين على العهد العثماني وزاول التعليم . ودرس في الوقت نفسه دراسة دينية . ولما اعلنت الحرب العظمى وخاضت الدولة التركية غمارها دعي الى الخدمة العسكرية وأرسل الى استانبول ومنح رتبة ضابط احتياط . وجاء الى الموصل سنة ١٩١٧ فعيّن معلماً ، وانتهز الفرصة فأتم دراسته على الشيخ محمد الرضواني وأحمد الجوادي . ثم عاد الى بغداد بعد الهدنة ولازم علماءها عبدالوهاب النائب ويحيى الوتري وعبدالمحسن الطائي وقاسم القيسي وأمجد الزهاوي فتخرّج عليهم واختص بعلم القراءات .

عيّن خطيباً لجامع الامام الأعظم سنة ١٩٢٩ ، وعهد اليه بتدريس التجويد . ثم أصبح مدرساً للروضة القادرية ورئيساً لرابطة علماء العراق .

ادركته الوفاة ببغداد في ٨ ايلول ١٩٦٩ . وهو عمّ جميل عبدالوهاب وزير الشؤون الاجتماعية في العهد الملكي ، وكان أبوه الشيخ عبدالرزاق من أئمة الجوامع المعروفين .

ابو القاسم الخوئي

المجتهد الجعفري آية الله العظمى السيد ابو القاسم بن علي أكبر الموسوى الخوئي ولد في بلدة خوي من أعمال آذربيجان الايرانية في ١٩ تشرين الثاني ١٨٩٩ ، ووفد على النجف للدراسة وعمره ١٣ سنة فاتخذها مقاماً له طول حياته .

درس على كبار علماء عصره ونال درجة الاجتهاد فانصرف الى التدريس والتأليف . وتقدم في مسلكه حتى أصبح في مقدّمة العلماء المقلّدين في العراق وايران وسائر أنحاء العالم الشيعي بعد وفاة السيد محسن الحكيم سنة ١٩٧٠ .

وضع الخوئي كتباً كثيرة ، منها : رسالة في اللباس المشكوك (١٩٤٢) ، مصباح الفقاهة (في جزءين ، ١٩٥٤ - ١٩٥٩) ، البيان في تفسير القرآن (وقد ترجم الى الانكليزية) ، توضيح المسائل ، محاضرات في الأصول ، المسائل المنتخبة ، دراسات في الأصول العملية ، الدرر الغوالي في فروع العلم الاجمالي ، دروس في فقه الشيعة (١٩٥٩) ، نفحات الاعجاز (١٩٦٣) الخ . وله رسائل بالفارسية ايضاً .

كان الخوئي صديقاً للزعيم الايراني روح الله الخميني في أثناء اقامته في النجف (١٩٦٥ - ١٩٧٨) . ولما نشبت الحرب العراقية - الايرانية في ايلول ١٩٨٠ لم يعارضها علناً ، لكنه لم يؤيدها بالرغم من محاولات السلطات الحاكمة . وظل قابعاً في عزلته بالنجف ، منصرفاً الى شؤون الدين لا يرى الانغماس في السياسة .

على أثر ثورة النجف في أعقاب نهاية حرب الخليج وتحرير الكويت ألف مجلساً لتولي شؤون الحكم في ١٨ آذار ١٩٩١ . لكن رئيس الجمهورية صدام حسين أخمد الثورة بالعنف الشديد فوراً ، وفي ٢١ منه استقدم الخوئي الى بغداد مع عدد من المجتهدين وأرغمه على الظهور معه على شاشة التلفزيون ، ثم سمح له بعد يومين بالعودة الى النجف .

وقد قضى أيامه الأخيرة مريضاً في الكوفة ، وأدركته الوفاة فيها في ٨ آب ١٩٩٢ . وأسست باسمه مؤسسة الخوئي لتقوم بأعمال البرّ والثقافة في العراق وايران ولبنان وبنغلاديش وسائر اقطار الشيعة ، وافتتحت فروع لها في لندن ونيويورك وبومبي وكراجي .

في مقال عن «شيعة العراق : تصورات للمستقبل» نشرته مجلة «الموسم» في عددها ١٤ لسنة ١٩٩٣ ذكر ان مرجع الشيعة الامامية الأعلى في مختلف أنحاء العالم هو الامام ابو القاسم الخوئي المقيم في النجف ، وأكثرية الشيعة في ايران من أتباعه .

وتتميز مرجعية الامام الخوئي بأنه لا يذهب الى «ولاية الفقيه» التي قامت عليها الثورة والحكومة الاسلامية في ايران . وولاية الفقيه هي العنصر الأساسي الذي خوّل الامام روح الله الخميني ان يقيم الحكم الاسلامي في ايران ، والكثير من علماء الشيعة في العراق وايران ولبنان يخالفون هذا المبدأ ويرون بعد ولائهم للاسلام «ولاية الأمة على نفسها» ، وهو المصطلح الذي يقابل «سيادة الشعب» في أنظمة الحكم الحديثة .

وقال كاتب المقال ان الخوئي لا يرتضي اسلوب الارهاب والعنف في الدعوة الى الله ويخالف كل ما اتبع من وسائل الارهاب والعسف في حقوق الناس في أي موضع كان ، بل هو يتبع مبدأ القرآن الكريم «ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» . ويفضل اتباعه الوصول الى الحكم عن طريق الاختيار الشعبي للأصلح ، وهو سبيل الديموقراطية وحقوق الانسان .

ثم قال : كان الخوئي معارضاً لشاه ايران والحكم في العراق طيلة فترة زعامته الدينية ، لكنه لم يسلك في معارضته لهما طريق الثورة والعنف بل طريق النقد البنّاء والمعارضة الايجابية . ويفضل ان يقوم الحكم في ايران والعراق على العدالة والمساواة واختيار الشعب لحكامه بحرية تامة . واتباعه في العراق لا يمانعون في ان يكون الحاكم العراقي سنياً او شيعياً ، عربياً ام كردياً ، إذا تم اختياره عن طريق الانتخاب الحرّ المباشر .

ماربولص الثاني شيخو

بطريرك بابل على الكلدان بولص بن ججّو شيخو ولد في قرية ألقوش في أنحاء الموصل في ١٩ تشرين الثاني ١٩٠٦ . درس في الكلية البطريركية بالموصل والمعهد الشرقي في روما ، وحاز على الدكتوراه في العلوم الشرقية . وقد رسم كاهناً سنة ١٩٣٣ وعهد اليه التدريس في الكلية البطريركية ، وأصبح مديراً لها (١٩٣٨ - ١٩٤٧) . ورسم مطراناً لعقرة (١٩٤٧) فحلب (١٩٥٧) . وفي سنة ١٩٥٨ أختير بطريركاً للطائفة الكلدانية على أثر وفاة يوسف السابع غنيمة .

وضع مؤلفات منها : مختصر تأريخ الكنيسة الكلدانية (١٩٣٥) ، العقوبات الاكليروسية في القانون القديم للكنيسة الكلدانية (بالفرنسية ، طبع في روما سنة ١٩٣٥) ، الأديرة في مملكتي الفرس والعرب (ترجمة عن الكلدانية ، ١٩٣٩) ، الخ .

توفي في بغداد سنة ١٩٨٩ .

الشيخ يونس السامرائي

يونس بن الشيخ ابراهيم بن محمد بن خلف ينتمي الى قبيلة البو عباس الحسينية . ولد في سامراء في ٩ تشرين الأول ١٩٣٤ ودرس في المدرسة العلمية الدينية ببلده ، ولازم علماء سامراء احمد الراوي وعبدالوهاب البدري وعبدالعزيز سالم السامرائي وايوب توفيق الخطيب وغيرهم ونال الاجازة في علوم الدين . عين اماماً وخطيباً في جامع القلعة بسامراء سنة ١٩٥٨ ، ونقل في سنة ١٩٦٥ الى جامع السامرائي في بغداد الجديدة . وعين مفتشاً لمساجد بغداد في وزارة الأوقاف (١٩٧٦) واختير عضواً في المجلس العلمي لوزارة الأوقاف وفي هيئة تحرير مجلة «الرسالة الاسلامية» التي تصدرها الوزارة (١٩٨٠) .

أصدر في سامراء مجلة باسم «سامراء» (١٩٦٣) ومجلة «صوت الاسلام» (١٩٦٤) ونقل هذه الأخيرة الى بغداد وواصل اصدارها الى سنة ١٩٦٨ .

مؤلفاته : الاسلام والقومية العربية (١٩٦٠) ، تأريخ عشائر سامراء (١٩٦٠) ، الفروق (١٩٥٨) ، النفحات الربانية في الأحاديث القدسية (١٩٥٧) ، الاسلام والقومية العربية (١٩٦٠) ، بطولات اسلامية (١٩٦٧) ، تأريخ الدور قديماً وحديثاً (١٩٦٦) ، تأريخ مدينة سامراء (٣ أجزاء ، ١٩٦٨ - ١٩٧٣) ، حكمة التشريع الاسلامي (١٩٦٦) ، الأزياء الشعبية في سامراء (١٩٦٩) ، تأريخ علماء سامراء (١٩٦٦) ، الكنايات العامية في سامراء (١٩٦٨) ، تأريخ شعراء سامراء (١٩٧٠) ، مخطوطات سامراء (١٩٧٣) ، ثورة العشرين في سامراء (١٩٧٣) ، الكنايات القرآنية (١٩٧٥) ، الصوفي بهلول الكوفي (١٩٧٦) ، الجنيد البغدادي (١٩٧٧) ، حقائق عن آل البيت والصحابة (١٩٧٨) ، السيد أحمد الرفاعي (١٩٧٠) ، ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١٩٧٣) ، البطل الغالب الامام علي بن أبي طالب (١٩٧١) ، تراث سامراء (١٩٧٤) ، تأريخ الطرق الصوفية (١٩٧٧) ، تأريخ مساجد بغداد (١٩٧٧) ، عقود الجواهر في سلاسل الأكابر

(تحـقـيق ، ١٩٧١) ، العـارف بالله مـعـروف الكرخي (١٩٧٩) ، القـراء البـغـداديون (١٩٨٠) ، تأريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري (١٩٨٢) ، الخ .

وله مؤلفات أخرى مخطوطة في خطط بغداد وتأريخ الأوقاف والمراقد والتراجم والتصوف الاسلامي .

أدركه الحمام في بغداد سنة ١٩٩١ .

اضافات



السيد ابو الحسن الاصفهاني

ترجمت في الجزء الثاني من هذا الكتاب سيرة المرجع الامامي الأكبر في عصره السيد ابو الحسن الموسوي الاصفهاني . وأضيف انه ينتمي الى أسرة دينية معروفة في ايران ، وهو ابن السيد محمد دفين خونسار ابن عبدالحميد دفين بهبهان . ولد السيد ابو الحسن في اصفهان سنة ١٨٦٧ ، ودرس على علماء بلده . ثم قدم النجف سنة ١٨٩٢ فواصل دراسته على شيوخه حبيب الله الرشتي ومحمد كاظم الخراساني ومحمد القاشاني ومحمد تقي الشيرازي وحسن الصدر وشيخ الشريعة الاصبهاني .

وكانت وفاته ، كما ذكرت ، في الكاظمية في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٦ .

عبدالحق حقي الأعظمي

ذكرته في الجزء الأول (ص ٩٢) . أورد ترجمته يونس الشيخ ابراهيم السامرائي في كتابه «تأريخ علماء بغداد» فقال انه عبدالحق حقي بن السيد عبدالله بن عثمان . ولد في الأعظمية ، وكان جده السيد عثمان خطيب جامع الامام الأعظم . درس عبدالحق على نعمان خيرالدين الألوسي . وقصد الهند وزار علماءها ثم زايلها الى مصر وغشي مجالس العلم في أروقة الأزهر . وعاد ثانية الى الهند فدرّس اللغة العربية في كلية عليكرة سنة ١٩٠٨ . وزار الشيخ محمد رشيد رضا صاحب «المنار» الهند سنة ١٩١٢ فرافقه عبدالحق مترجماً لخطبه ومحاضراته . ووضع رسالة في هذه الرحلة طبعت في الهند سنة ١٩١٢ نفسها بعنوان «الكهف والرقيم في ملخص رحلة المصلح العظيم والمجدد الحكيم» .

عاد عبدالحق الى الأعظمية قبيل الحرب العالمية الأولى ثم رجع الى الهند . وقصد مكة سنة ١٩٢٤ لأداء فريضة الحج وأدركته الوفاة فيها . وقد ترجم بعض قصائد محمد اقبال من اللغة الأوردية الى العربية . وله شعر ، نشرت مجلة «اليقين» بعض قصائده سنة ١٩٢٣ .

بهاء الحق الهندي

ذكرت في ترجمته في الجزء الثاني من هذا الكتاب انه توفي ببغداد في نحو سنة ١٨٨٣ . والصحيح انه توفي سنة ١٩١٢ كما ذكر ذلك عباس العزاوي في كتابه «تأريخ علم الفلك في العراق» . وقال انه كان عالماً في الفلك القديم (الهيئة) .

عبد الحق فاضل وأكرم فاضل

تكلمت عنهما في الجزء الأول من هذا الكتاب في ذيل ترجمة والدهما الشاعر فاضل الصيدلي ، ولعلّي لم أفهما حقهما . فأضيف الى ذلك ما يلي :

عرف عبدالحق فاضل أديباً قصصياً وموظفاً دبلوماسياً ، وفي آخر الأمر عالماً لغوياً . نشر قصصه في بادئ الأمر في مجلة «المجلة» الموصلية التي تولى تحريرها سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . وأصدر مجموعات قصصية : مجنونان (رواية ١٩٣٩) ، مزاح وما أشبه (١٩٤٠) ، طواغيت (١٩٥٨) ، حائرون (١٩٥٨) ، ٤ نساء و٣ ضفادع (مسرحية ١٩٦٨) .

قال الدكتور داود سلوم في كتابه «تطور الفكر والأسلوب في الأدب العراقي» ان عبدالحق فاضل نجح في قصته الطويلة الأولى «مجنونان» الى درجة كبيرة في التركيز وفي التحليل لمشاعر أبطاله ، ولم يكن فيها فشل في الأسلوب والحوار ولا في الموضوع والمحتوى والخيال . اما المجموعة الثانية «مزاح وما أشبه» فقال فيها الدكتور سلوم ان أحسن ما فيها قصة «مزاح» تتناول رجلاً متزوجاً رأى في منامه زوجته وقد تركته وخانته ثم ندمت وأرادت العودة اليه فقال : هل يمكن نسيان ما حدث لمجرّد الندم؟ قالت : ان الجسد لا قيمة له وهي قد وهبته روحها . وهي قصة يبعد ان تقتبس من بيئة عراقية يعيش فيها الكاتب .

مضى عبدالحق الى المغرب بعد سقوط الحكم القاسمي سنة ١٩٦٣ فصرف

اهتمامه الى المباحث اللغوية وأصدر كتابه «مغامرات لغوية» . وقد أشاد عبدالعزيز بن عبدالله المدير العام للمكتب الدائم لتنسيق التعريب المؤسس في مدينة الرباط في المغرب برعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو) من الوكالات المتخصصة العاملة في نطاق جامعة الدول العربية ، بجهود عبدالحق فاضل ووصفه بـ «مفخرة العراق والعرب» ، وقال انه يعمل في مكتب تنسيق التعريب وينتمي الى أسرة تحرير مجلة «اللسان العربي» التي يصدرها المكتب .

قال صفاء خلوصي ان عبدالحق فاضل عرّب كثيراً من الألفاظ التي لا مقابل لها في العربية ، مثلاً : الحاسوب (كمپيوتر) الكاتوبة (للآلة الطابعة) اكتوبة (للرسالة القصيرة) . لكن هذه الألفاظ لم تجد سبيلها الى الاستعمال .

وقال سالم الألوسي مدير الثقافة العام في وزارة الاعلام ان عبدالحق ، على مدى تجاوز نصف القرن ، قد أثرى بقلمه الحرّ المكتبة العراقية والعربية بالعشرات من الدراسات والبحوث والروايات والقصص والتصانيف القيمة في اللغة والتراث والشعر . وقال انه ، اضافة الى كونه لغوياً بارزاً ومترجماً بارعاً وكاتب قصة ورواية ، شاعر كبير ، وليس ذلك بغريب على ابن فاضل الصيدلي الشاعر الوطني والقومي .

وقد عاد عبدالحق فاضل الى بغداد بعد نحو من عشرين سنة في المغرب وتوفي في العاصمة العراقية سنة ١٩٩٣ .

الدكتور أكرم فاضل

بذل الدكتور أكرم فاضل جهوداً موفقة في ترجمة الآثار التي لها صلة بالعراق والعرب ، لا سيما المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي ، ذلك المعجم المهم الذي ألفه دوزي (١٨٢٠ - ١٨٨٣) الاستاذ في جامعة ليدن ونال به جائزة المعهد الملكي الهولندي سنة ١٨٤٣ . وقد علّق عليه المترجم تعليقات مفيدة .

وترجم الدكتور اكرم ايضاً بعض بحوث لويس ماسنيون عن الحلاج الفيلسوف المتصوّف الذي قتل سنة ٩٢٢م متهماً بالكفر . وقد سجن الحلاج وضرب وعذّب وهو

صابر لا يتأوه . وقطعت أطرافه الأربعة بأمر الخليفة المقتدر العباسي ، ثم حزّ رأسه وأحرقت جثته وألقي رمادها في دجلة . وقد كتب احمد حامد الصراف مقالاً عن الحلاج في جريدة «الأهالي» سنة ١٩٣٢ او ١٩٣٣ فردّ عليه بعض المتزمتين وحرّضوا عليه العوام ، فاضطرّ ان يغادر بغداد ويختفي أياماً حتى سكنت الفتنة .

كان الدكتور اكرم ، وقد قضى سنوات طويلة مديراً للفنون والثقافة الشعبية بوزارة الاعلام ، كثير الاهتمام بأصحاب هذه الفنون يساعدهم ويرعاهم ما وسعه ذلك . وقد اكتشف فنّانا شعبياً بائساً شبه أميّ اسمه منعم فرات تخرج على نفسه يصنع الدمى والتماثيل الصغيرة من الطين المجفف او فتات الخبز اليابس المنقوع في الماء . وقد التزمه الدكتور اكرم في كهولته ورعاه وكتب عنه . دعسته سيارة مسرعة وهو يعبر الشارع في بغداد فقضى نحبه في آب ١٩٧٢ . وسألني اكرم ان أقول شيئاً فيه ، فقلت :

أسفاً على الفنّ البدائي	فنّ أصيل لا يرائي
يحكي الطبيعة في مداها	كالماء صفواً والهواء
لا زيغ فيه ولا خيالاً	غير الحقيقة والجلاء
بل منظر سمح جميل	يغشى العيون بلا عناء
قد أبدعته يد صُنَاع	يد عامل جمّ العطاء
نحتت من الأحجار شكلاً	قرن السذاجة بالبهاء
أسفاً على الفنّان يمشي	والفكر مشغول ونائي
حلم يراوده وشيكاً ،	والعين ترنو للسماء
فاذا الردى ينقضّ جهماً	يقضي عليه بالفناء

وقد توفيَ أكرم فاضل في بغداد سنة ١٩٨٧ .

الدكتور علي الوردي

وردت ترجمته في الصفحات ٥٥٠ - ٥٥٢ من الجزء الثاني . وقد ذهب الى عمان مستشفياً ، فلما اشتدّ عليه المرض أعيد الى بغداد ، فتوفي بها في ١٧ تموز ١٩٩٥ .

وقد ذكر الدكتور جليل العطية ان الوردي ينتسب الى أسرة علمية تعرف بـ «بيت

آل الورد» جدّها السيد هاشم بن جواد أبي الورد المتوفى في نحو ١٨٤٨ . وجاء هذا اللقب منسوباً الى تقطير ماء الورد . وقال العطية ان الوردي درس في مدارس بلدته الكاظمية ، واضطرته ظروفه الاقتصادية ان يترك مقعد الدراسة في صباه خمس سنوات ليعمل مساعداً لأحد العطارين . ثم واصل دراسته ، وأوفدته الحكومة العراقية للدراسة في جامعة بيروت الأميركية ، فتخرج فيها سنة ١٩٤٣ . ومارس التدريس في المدارس الثانوية . وأوفد بعد ذلك الى جامعة تكساس فنال شهادة الماجستير (١٩٤٨) والدكتوراه في علم الاجتماع (١٩٥٠) ، وكان موضوع اطروحته ابن خلدون .

ولما عاد الى بغداد عين مدرساً في كلية الآداب (تشرين الأول ١٩٥٠) فاستاذاً مساعداً (١٩٥٣) . ورقّي سنة ١٩٦٢ الى مرتبة استاذ حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٧٠ . ووضع كتابه «لمحات اجتماعية في تأريخ العراق الحديث» في ٨ أقسام صدرت سنة ١٩٦٩ - ١٩٧٨ .

ووضع مذكرات أوصى ان تنشر بعد وفاته .

حلّل الوردي طبيعة المجتمع العراقي في مدنه وريفه وباديته فارتأى ان الفرد العراقي مزدوج ، بل مثلّث الشخصية ، تصطرع نفسه بين الحضارة الجديدة ذات القيم المادية ، والبداوة القديمة بما يلازمها من نخوة وكرم وتعلّق بالغزو والثأر والعصبية القبلية ، ثم الزواجر الدينية الآمرة بالمعروف والصبر والعدل وطاعة ولي الأمر . لذلك كان المجتمع متموّجاً لا يستقرّ على حال ، ينهض ويكبو ، ويندفع ويتردّد ، ويهيج ويسكن ، ويتحمس ويتهاون ، ويميل ذات اليمين وذات اليسار . وقد فازت أساليب الحضارة بما جلبته من ثروة وراحة ورخاء شيئاً فشيئاً ، لكنها بقيت في معظم الأحيان طلاء سطحياً تختفي تحته القيم البدوية السابقة .

وقد دعا الوردي الى الاصلاح الجذري ومعالجة الادواء الاجتماعية بنهج علمي وتثقيفي .

وأنهى قبل وفاته سنة ١٩٩٥ كتاب «طبائع البشر» ووصفه بأنه مشروع العمر ولم يهيّأ له طبعه قبل وفاته . وهو يتناول البحث في موضوع الانسان وقدره في الحياة ودوره في صياغتها ورسم أبعاد وجوده فيها .

ميخائيل عوّاد

توفي في بغداد في أواخر تشرين الأول ١٩٩٥ . وضع مؤلفات أخرى ، منها : الشعر العربي ١٩٧١ - ١٩٧٢ (١٩٧٢) ، يحيى الواسطي شيخ المصورين في العراق (١٩٧٢) ، الموسيقى والغناء في العراق في العصر العباسي (١٩٧٨) ، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي (١٩٨١) . أصبح عضواً في المجمع العلمي العراقي (١٩٧٩) ، وعضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني (١٩٨٠) .

عبدالعزيز الجواهري

ذكرت في الجزء الأول من «أعلام الأدب في العراق الحديث» ان عبدالعزيز الجواهري توفي سنة ١٩٧٦ نقلاً عن أخيه محمد مهدي الجواهري . ثم قرأت في مجلة «الموسم» (العدد ٢٣ - ٢٤ لسنة ١٩٩٥) ان وفاته كانت في طهران في أواخر ذي القعدة ١٤٠٦ هـ أي في تموز ١٩٨٦ .

معروف الرصافي وأم كلثوم

قلت في الجزء الثاني من «اعلام الأدب» في ترجمة مصطفى علي (صفحة ٥٠٣) ان معروف الرصافي لم ينظم شيئاً في سيدة المطربات المصريات أم كلثوم . وقد نبهني الدكتور زكي الصراف الى ذلك الخطأ ، فراجعت ديوان الرصافي شرح وتحقيق مصطفى علي (الجزء الرابع) ، ١٩٧٦) ، فإذا براوية الرصافي يقول ان له قصيدة في أم كلثوم أنشدها في مأدبة أدبها لها فريق من الأدباء ببغداد في مساء ٣ كانون الأول ١٩٣٢ . ومطلع القصيدة :

ام كلثوم في فنون الأغاني أمّة وحدها بهذا الزمان
هي في الشرق وحدها ربّة الفنّ فما ان للفن ربّ ثان
ذاع من صوتها لها اليوم صيت عمّ كل الأمصار والبلدان

وزار الرصافي القاهرة في آذار ١٩٣٦ في وفد نيابي ، فأخذ له صورة مع أم كلثوم نشرتها الصحف المصرية وذلك في حفلة اقامتها المطربة للضيوف العراقيين في دارها بالزمالك .

محمد بهجت الأثري

توفي محمد بهجت الاثري في بغداد في ٣١ آذار ١٩٩٦ عن ٩٤ عاماً . كان شاعراً مجيداً وناثراً شديد العناية باللغة والبيان الأنيق . وقد قال في لغة الضاد :

سلام على أمّ اللغات على المدى سلام أخيذ بالجمال هَيوم
مشوقٍ الى الجرس الرقيق ومُفصِحٍ من اللفظ منسوج البيان رخيم

محمد باقر الصدر

محمد باقر بن حيدر بن اسماعيل الصدر ولد في الكاظمية في ٢ آذار ١٩٣٥ .

خالد ابراهيم الدرّة

توفي ببغداد في ٥ آذار ١٩٩٦ عن ٨٨ عاماً .

بلند الحيدري

أصيب بنوبة قلبية عجّلت بوفاته في لندن في ٦ آب ١٩٩٦ .

عبدالرزاق الناصري

أصدر جريدة يومية في البصرة باسم «آخر ساعة» (١٩٤١) ووالى اصدارها الى وفاته سنة ١٩٤٦ . وقد ولد في البصرة سنة ١٩٠٦ وتوفيّ بها في ٩ شباط ١٩٤٦ .

نازك الملائكة

ألفت «سايكولوجية الشعر» (١٩٩٣) . وهي تحت العلاج في القاهرة (١٩٩٦) .

لها ايضاً : التجزيئيّة في المجتمع العربي (١٩٧٤) ، الشمس التي وراء القمة (قصص ، القاهرة ١٩٩٧) ، وقد أعيد طبع كتابها «يغيّر ألوانه البحر» في القاهرة سنة ١٩٩٩ .

مجيد خدوري

ألف بالانكليزية «حرب الخليج : الأصول والمضامين للصراع العراقي» (نيويورك ١٩٨٨) .

الدكتور صالح أحمد العلي

تنّحى عن رئاسة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٩٦ .

أميرة نور الدين

أصبحت عضواً في المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٩٦ .

عبد الوهاب البياتي

نشر الشاعر عبد الوهاب البياتي مجموعتين شعريتين : بستان عائشة (١٩٨٩) ، كتاب المراثي (١٩٩٥) . وقد قال في لقاء له نشر في مجلة «النور» اللندنية (نيسان ١٩٩٧) :

«صدرت الطبعة الأولى من «بستان عائشة» عام ١٩٨٩ أي قبل وفاة ابنتي . ومعظم قصائد هذا الديوان كتبتها في اسبانيا أثناء اقامتي فيها التي استمرت اكثر من عشر سنوات . و«بستان عائشة» هو رمز لأرض الهلال الخصيب التي كانت حاضنة لبذور الحضارة العربية ، فمنها واليها كان يتردد الرسل وبعض الشعراء . ولهذا فإن النضوج الفكري والحضاري قد حقق الكثير بعد ظهور الاسلام . وعائشة رمز زمني وأبدي ، زمني لأنه اسم امرأة من لحم ودم ، ثم تطور هذا الرمز فأصبح رمزاً أبدياً يمتد من عشتار السومرية الى عشتروت الفنيقية التي تحول اسمها الى عائشة بعد ظهور الاسلام . وقد كنت أرى التأريخ من خلال الزمان والمكان بشكل أوضح أثناء كتابة قصائد المجموعة في اسبانيا في الركن الغربي من البحر المتوسط المواجه للركن الشرقي منه . وقد كان

هذا البحر ذات يوم شبه بحيرة عربية .

«اما بعد موت ابنتي فقد التصقت بالموت ، ووضعتني التجربة على باب «كتاب المراثي» ، فكتبت هذه المجموعة . وهي ليست مراثي لأشخاص بل مراثٍ لعصر بأكمله» .

وألف البياتي أيضاً : نهر المجرّة (شعر طبع في القاهرة ١٩٩٨) ، ينابيع الشمس (نثر ، دمشق ١٩٩٩) .

توفي عبد الوهاب البياتي في دمشق في ٣ آب ١٩٩٩

حسين مردان

نشر علي جواد الطاهر (١٩١٩ - ١٩٩٦) الاستاذ النقادة المعروف مجموعة مقالات وأشعار لحسين مردان في كتاب بعنوان «من يفرك الصدأ» او «حسين مردان شاعراً وناثراً» (صدر ببغداد سنة ١٩٨٨) .

قال علي جواد الطاهر : «حسين مردان شاعر ، وشاعر معدود مشهور في العراق وجريء ومجدّد . وهو الى ذلك محبوب حلو المعشر . بدأ حياته على جانب كبير من فقر الجيب ، واختار لنفسه التشرّد . وإذا كان ميلاده وعيشه الأول في بلدة صغيرة ، فإنه جازف بنفسه فألقى بها في بغداد مستعداً لكل ما هو يطرأ ويفجأ ، وهمّه الأول ان يكون أديباً شاعراً... لا يشكّ أحد في موهبته الأدبية» .

حسين الرحال

هو ابن المير آلاي علي صائب الرحال من ضباط الجيش العثماني .

محمد مهدي الجواهري

غادر الجواهري العراق نهائياً سنة ١٩٧٩ وعاش في الشام . وأدركته الوفاة في دمشق في ٢٧ تموز ١٩٩٧ .

وقد اختلف الرواة في سنة مولده ، فذكرت سنة ١٩٠٣ وغيرها . وأصحّ الأخبار هو ان محمد مهدي الجواهري ولد ليلة ١٧ ربيع الأول ١٣١٧هـ ، كما ذكر ذلك جعفر الشيخ باقر آل محبوبة في الجزء الثاني من كتابه «ماضي النجف وحاضرها» المطبوع في النجف سنة ١٩٥٥ . والتأريخ المذكور يوافق يوم الأربعاء ٢٦ تموز ١٨٩٩ كما ذكرت في ترجمته في الجزء الأول من «اعلام الأدب في العراق الحديث» (ص ١٨٠) . فيكون الجواهري قد عمّر ٩٨ سنة تماماً .

أعلام اليهود

عن احبار اليهود والادباء والصحفيين يرجى مراجعة كتابي «أعلام اليهود في العراق الحديث» (في جزءين ١٩٨٣ و١٩٩٣) .

طه باقر

ولد سنة ١٩١٢ . وقد أحيل على التقاعد سنة ١٩٦٣ ، ثم عين سنة ١٩٦٥ خبيراً فنياً في مصلحة الآثار الليبية ، وأصبح في السنة التالية مستشاراً في المصلحة نفسها .

عاد الى العراق سنة ١٩٧٠ وأصبح استاذاً بقسم الآثار في كلية الآداب . واختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي سنة ١٩٧١ ، وشارك في مؤتمرات آثارية ، منها مؤتمر

الآثار المعقود في ليبية (١٩٧٢ ـ ٧٣) .

ترأس طه باقر تحرير المجلة الآثارية «ليبية القديمة» سنة ١٩٦٥ ـ ٧٠ ، وتولى التنقيب عن الآثار في ليبية في اثناء عمله فيها ، ونشر بحوثاً ومقالات عن الآثار الليبية باللغتين العربية والانكليزية .

وتوفي في بغداد في ٢٨ شباط ١٩٨٤ .

كمال عثمان

كتب اليّ سالم الألوسي من بغداد ان الشاعر كمال عثمان توفي خلال أحداث سنة ١٩٩١ في بغداد وبقي جثمانه اكثر من اسبوع في داره لا يشعر به أحد . ولما علم بوفاته حاول الألوسي الحصول على أوراقه وشعره لنشرها لكن لم يحالفه التوفيق .

الدكتور مصطفى جواد

نشر له مجموعة مقالات وبحوث جمعها وقدّم لها الدكتور محمد عبدالمطلب البكّاء ، وطبعها في بغداد سنة ١٩٩٨ بعنوان «في التراث اللغوي» .

عبدالرزاق الحسني

توفي السيد عبدالرزاق الحسني في بغداد في ٢٤ تشرين الاول ١٩٩٧ عن ٩٤ عاماً بعد مرض عضال ألزمه الفراش سنوات .

تقلد عبدالرزاق الحسني وظائف عديدة منها مدير خزينة في محافظات ديالي والكوت والحلة وبغداد وذلك من ١٩٣٥ الى ١٩٤٦ . ونقل في هذه السنة مدير

حسابات في مديرية الريّ العامة ، ثم نقل الى ديوان مجلس الوزراء سنة ١٩٤٩ ليتفرّغ لتدقيق الوثائق وتحرير تأريخ العراق السياسي الحديث . وأحيل على التقاعد سنة ١٩٦٣ .

وضع مؤلفات زادات على الخمسين أبرزها كتابه الضخم «تأريخ الوزارات العراقية» الذي أعيد طبعه مراراً مزيداً ومصححاً . وله ايضاً : تأريخ العراق السياسي ، ثورة العشرين ، العراق في ظلّ المعاهدات ، تأريخ الصحافة العراقية ، موجز تأريخ البلدان العراقية ، الجبهة الوطنية في العراق وجذورها التأريخية ، تأريخ الاحزاب السياسية في العراق ، الاسرار الخفية في حركة ١٩٤١ التحررية ، الخ . وقد أصبحت النصوص والوثائق والمراسلات المنشورة في كتبه أهمّ مصدر لتأريخ العراق السياسي في عهد الانتداب والاستقلال .

ووضع ايضاً كتباً عن الصابئة واليزيديين والبهائيين والشبك والخوارج الذين يعيشون في بعض مناطق العراق .

عاتكة وهبي الخزرجي

توفيت الشاعرة عاتكة وهبي الخزرجي في اسكوتلاندة في اوائل تشرين الثاني ١٩٩٧ ونقل جثمانها الى بغداد ليوارى التراب فيها . وكانت قد عولجت من المرض في عمّان ، ثم نقلت الى مستشفى في استكوتلاندة لاستكمال علاجها فأدركتها الوفاة هناك .

وفيات

توفي الدكتور عبدالرزاق محيي الدين في بغداد في ٢٨ نيسان ١٩٨٣ .

وتوفي محمد سليم النعيمي في بغداد في ٢ آذار ١٩٨٤ .

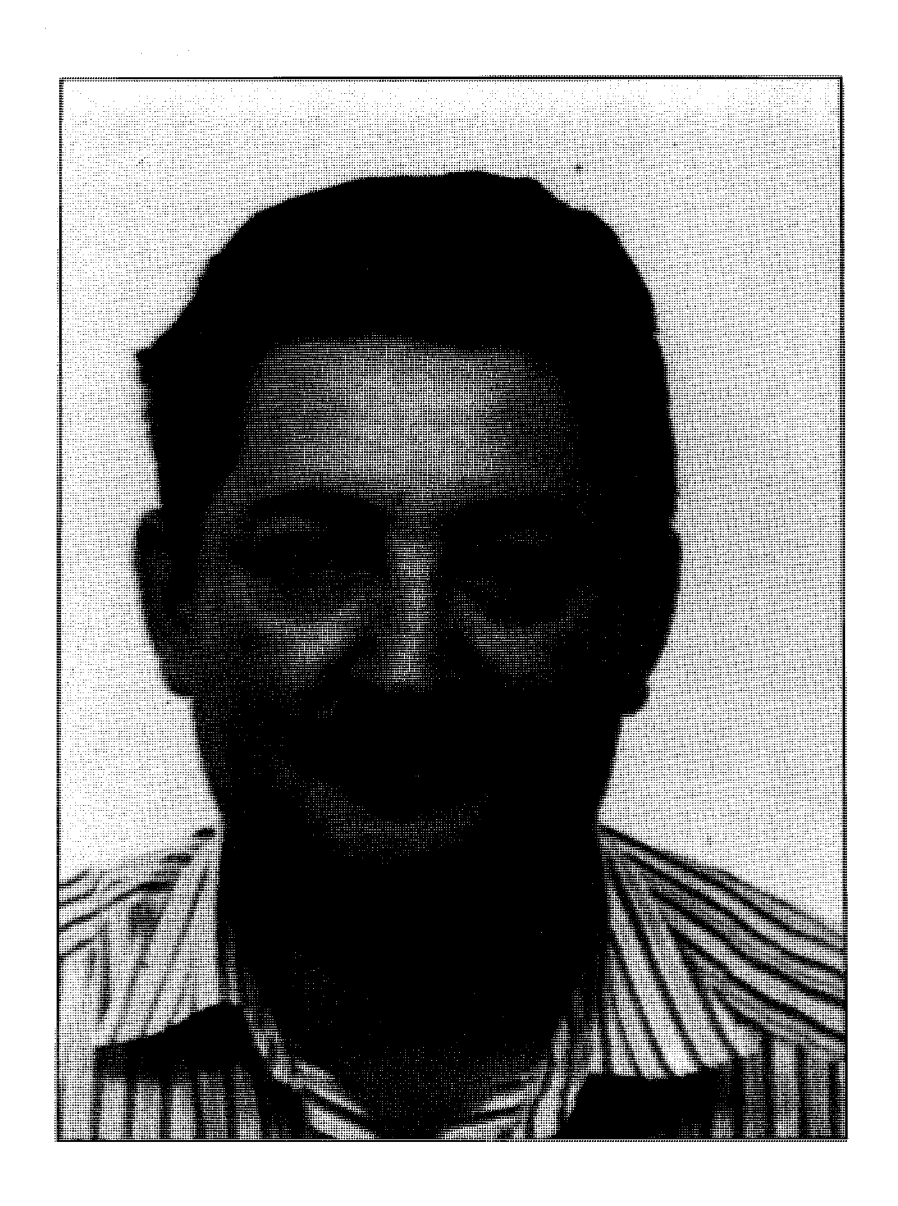
وتوفي ذو النون أيوب في فيينا في ٦ ايلول ١٩٩٨ .

وتوفي سلمان الصفواني في بغداد في ١٦ تشرين الثاني ١٩٨٨ .
وتوفيت رباب الكاظمي في لندن في كانون الثاني ١٩٩٩ .

مؤلفات جديدة

الدكتور يوسف عزّالدين : حنين الامس (شعر ، القاهرة ١٩٩٨) .
الدكتور جليل العطية : الجواهري شاعر القرن العشرين (١٩٩٨) .
غائب طعمة فرمان : خمسة أصوات (مسرحية) .

ملحق الصور



حازم السامرائي



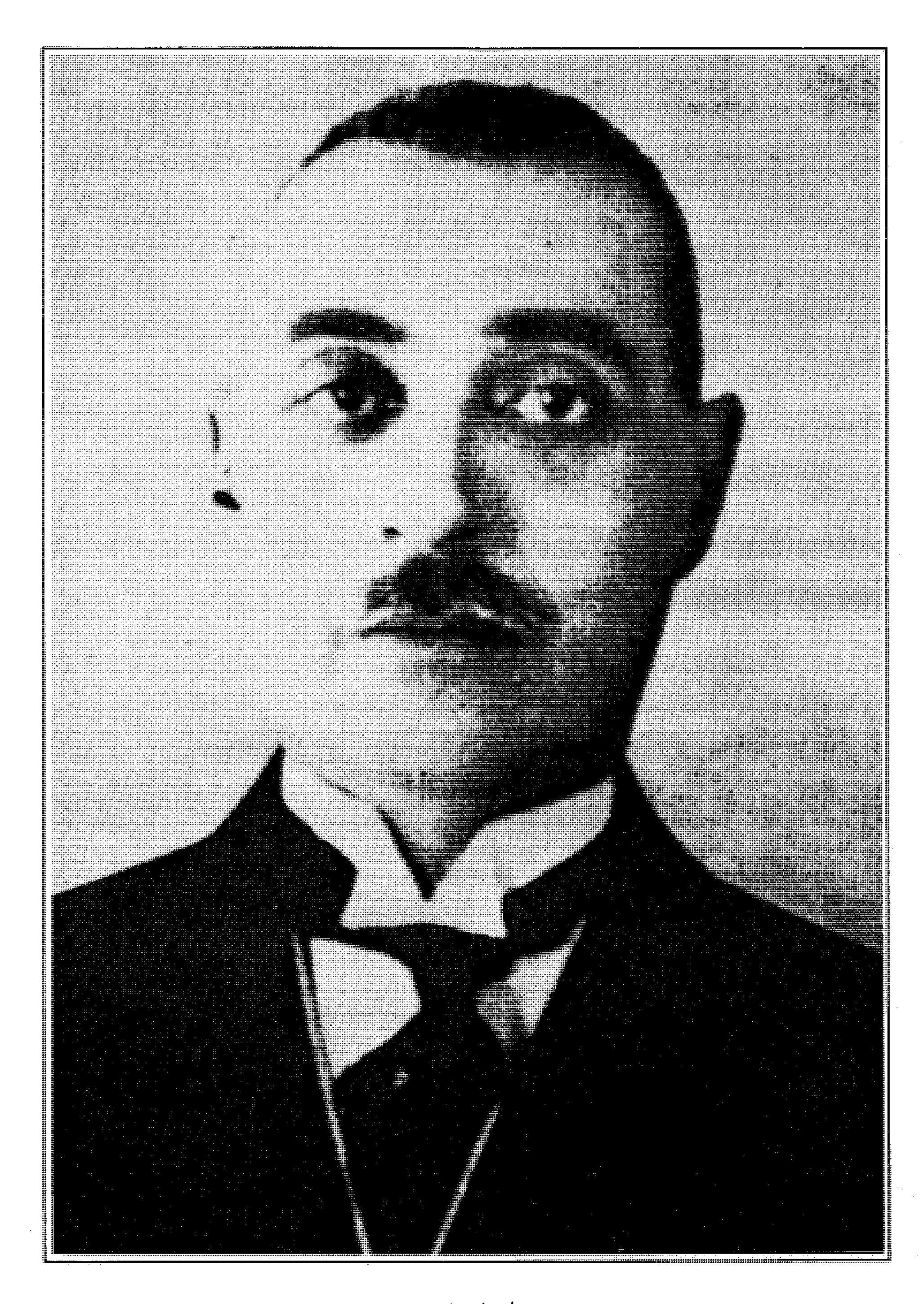
في آذار ١٩٣٦ زار وفد نيابي عراقي القاهرة فاحتفت به المحافل الرسمية والشعبية احتفاءً كبيراً . وكان من اعضائه النائب شاعر العراق معروف الرصافي . وقد أخذت له هذه الصورة النادرة مع المطربة الشهيرة ام كلثوم في حفلة اقامتها للضيوف العراقيين في دارها بالزمالك .



ساطع الحصري



الشيخ أحمد الشيخ داود



سليمان فيضي



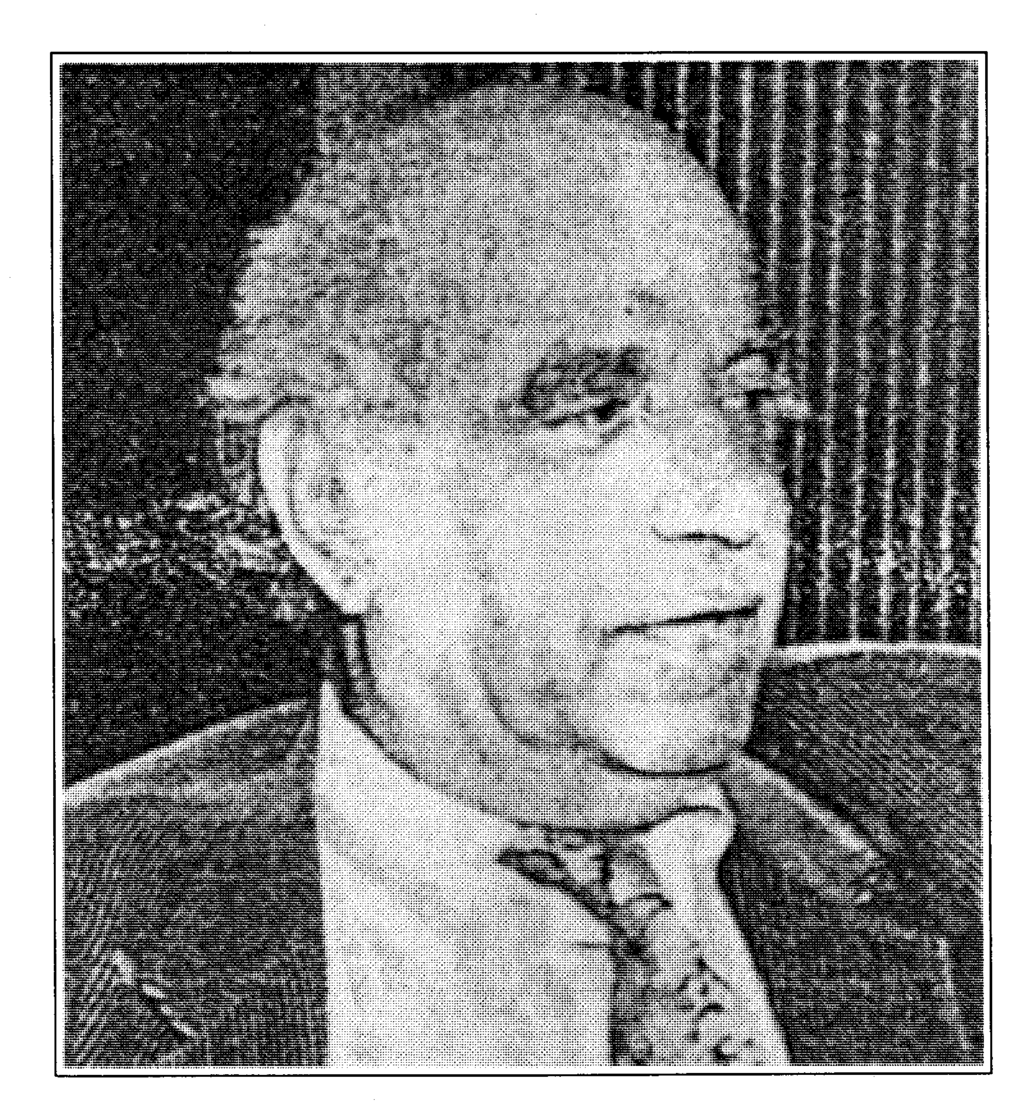
سعد صالح



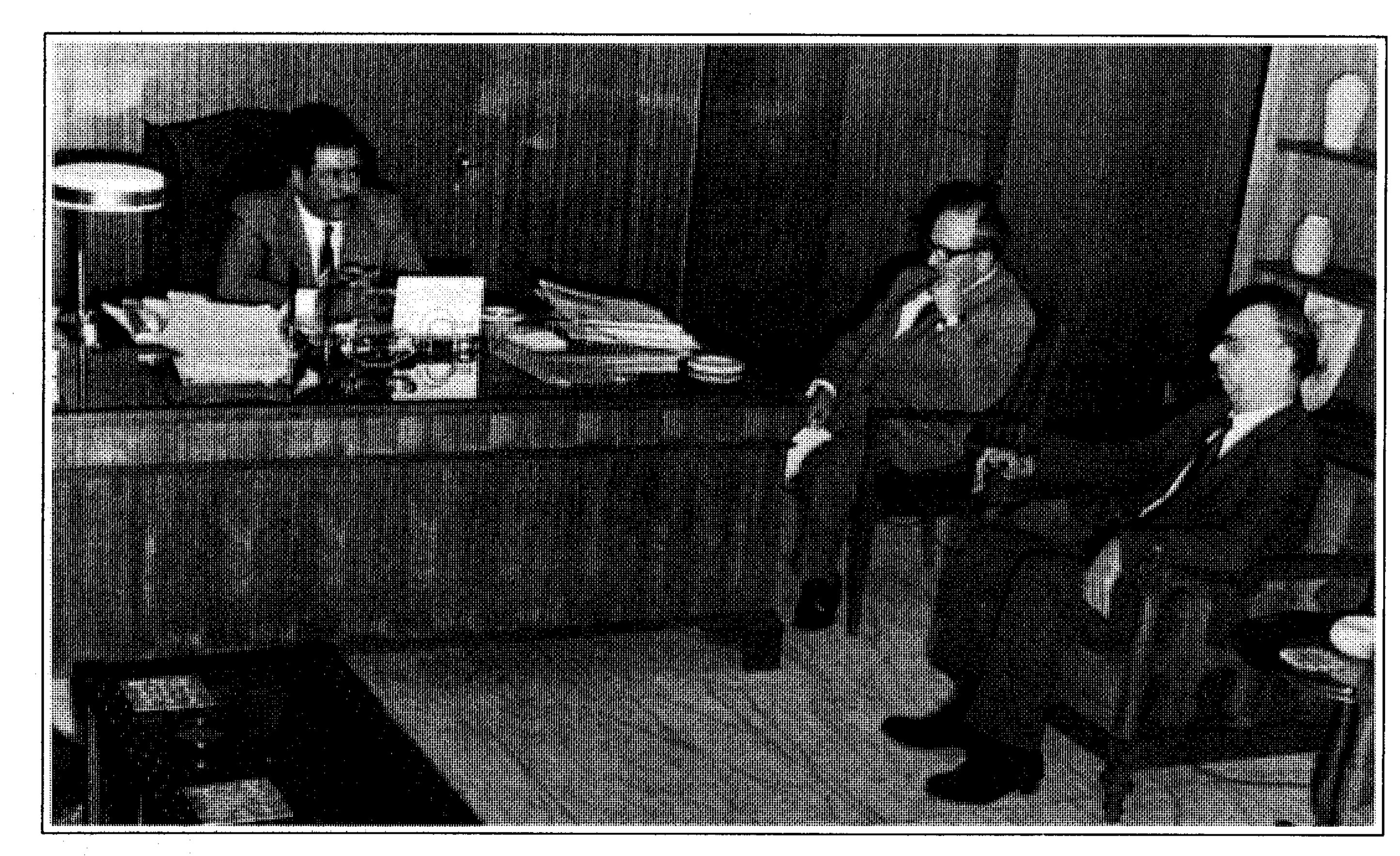
علي الوردي مع صديقيه : عبدالمنعم الجادر وفؤاد عباس



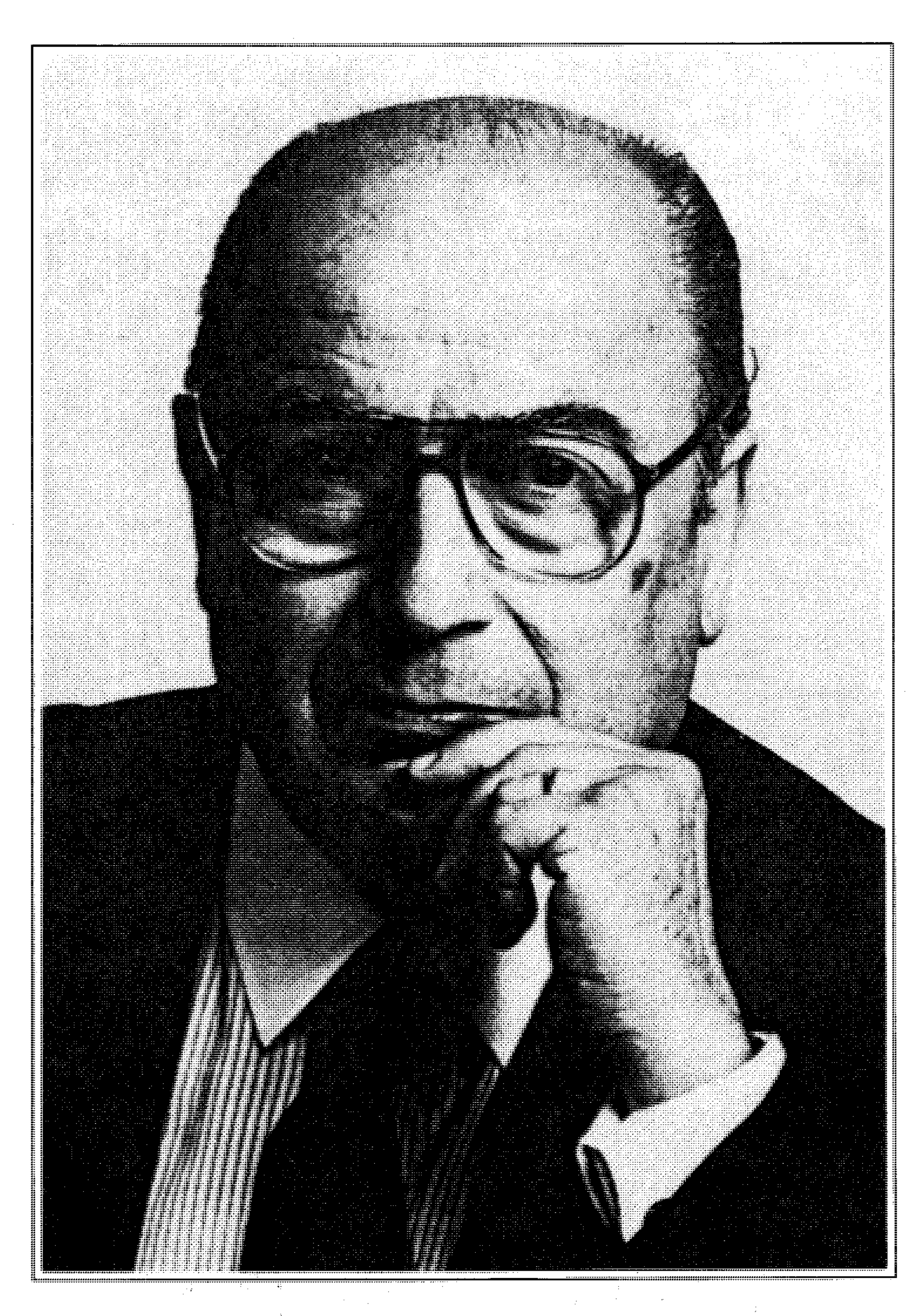
الدكتور يوسف عزالدين بالملابس العربية في الشتاء ١٩٩٠



صفاء خلوصي



المؤلف مع وزير الاعلام شفيق الكمالي سنة ١٩٧١ وقد ظهر بينهما سالم الألوسي مدير الثقافة العام .



نجدة فتحي صفوة

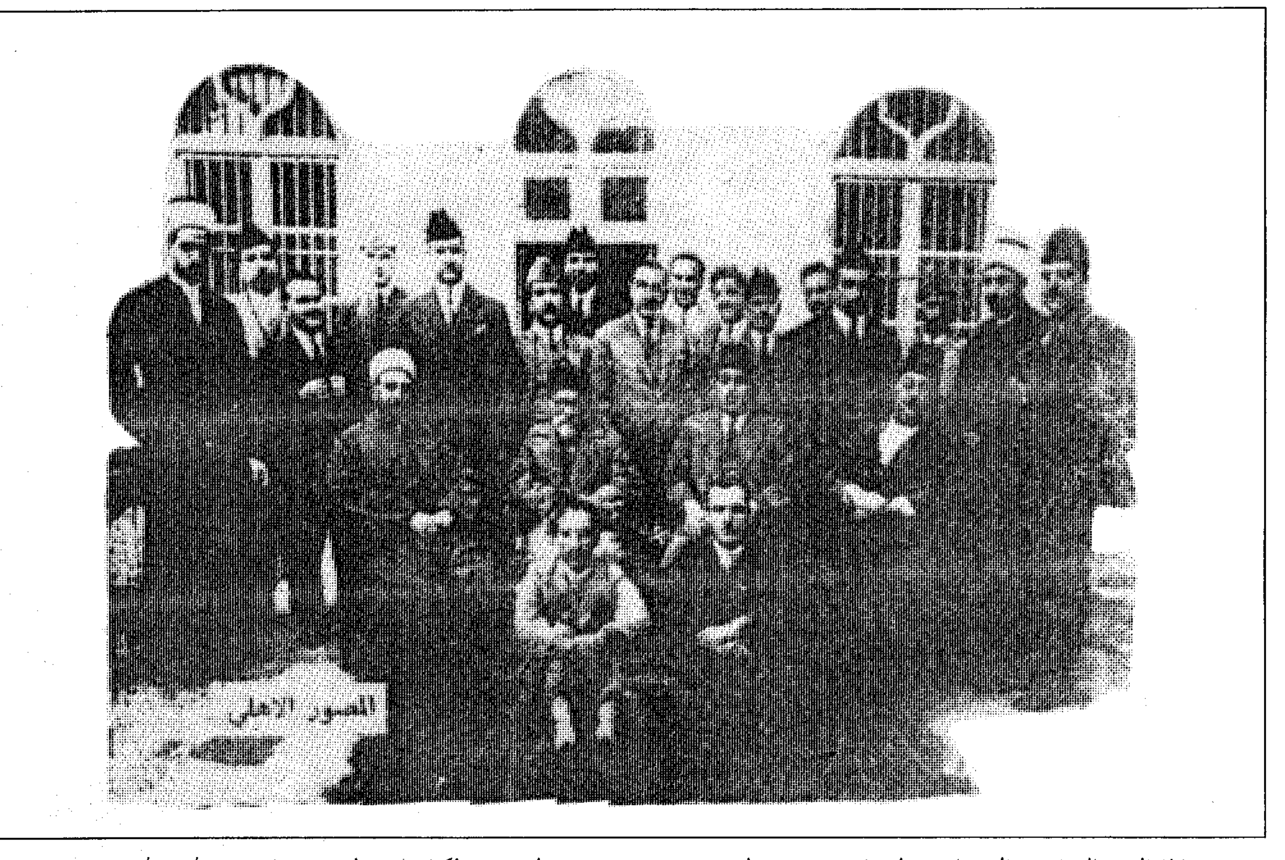


خالص عزمي

مير بصري والدكتور جليل العطية ، لندن ١٩٩٢



المؤلف مير بصري (في الوسط) والى يمينه الشاعر بلند الحيدري والى يساره الدكتور محمد مكية
في ديوان الكوفة ، لندن ١٩٩٥



حفلة المصالحة بين الرصافي والزهاوي في دار السيد محمود صبحي الدفتري الكائن في الحيدرخانة في ٨/ ١٢/ ١٩٢٨

الواقفون من اليمين : علي محمود الشيخ علي ، بهاء الدين النقشبندي ، جميل المدفعي ، طه الراوي ، موفق الألوسي ، رؤوف الكبيسي ، عبد المسيح وزير ، ابراهيم كمال ، محمود صبحي الدفتري صاحب الدعوة ، أحمد حامد الصرّاف ، طه الهاشمي ، مزاحم الباجه جي ، علي ممتاز ، عبد العزيز المظفر ، عبدالله الشواف وبهجت الأثري .

الجالسون من اليمين : عبدالعزيز الثعالبي ، الرصافي ، الزهاوي وعطا الخطيب .

الجالسون على الأرض : في اليمين رفائيل بطّي ثم توفيق السمعاني .

من مؤلفات مير صبري

- مباحث في الاقتصاد العراقي (ملحق به معجم للمصطلحات الاقتصادية بالعربية والانكليزية والفرنسية) .
- تجارة العراق في مائة عام .
- رجال وظلال (قصص) .
- نفوس ظامئة (قصص) .
- بشر وآلهة (مسرحيات) .
- شخوص بغدادية (صور وملامح) .
- أغاني الحب والخلود (شعر)
- رحلة العمر مذكرات) .
- أعلام اليهود في العراق الحديث (جزآن) .
- اعلام اليقظة الفكرية .
- اعلام السياسة في العراق الحديث .
- اعلام الأدب في العراق الحديث (٣ اجزاء) .
- اعلام الوطنية والقومية العربية .
- اعلام الكرد .
- اعلام التركمان والأدب التركي في العراق الحديث .
- رحلة نيهولت الى العراق (ترجمة) .
- الخ . . . . .

كتب معدّة للطبع

- مواكب العصور (شعر) .
- ديوان الغربة (شعر) .
- أرانين (شعر) .
- أعلام السياسة (الجزء الثاني) .

Eminent Men of Letters in Modern Iraq History of Modern Iraqi Literature in the Twentieth Century

Vol III

